موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

سورتي الانفال والتوبة

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (01-30): تفسير الآية 1 ، إطاعة الله والرسول
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

ورود كلمة يسألونك في القرآن الكريم في آيات كثيرة:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أولاً أيها الأخوة، كلمة

(يَسْأَلُونَكَ)

وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة تزيد عن عشر آيات، لكن الذي يلفت النظر أن بين السؤال والجواب كلمة

(قُلِ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ)

لهم يا محمد

(الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة الآية: 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة الآية: 222)

إذاً جاءت كلمة قل متوسطة بين السؤال والجواب.

لا وساطة بين العبد وربه فالله تعالى لكل عباده:

إلا أن آية واحدة تلفت النظر وتعلمنا الكثير، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة الآية: 186)

لم تأتِ كلمة قل، وكأن العلماء استنبطوا أنه لا وساطة بين العبد وربه أبداً، ليس بينك وبين الله وسيط.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تعطينا دافعاً كبيراً إلى أن نسأل الله وحده، تعطينا دافعاً كبيراً إلى أن نناجي الله وحده، تعطينا دافعاً كبيراً إلى الشعور بأن الله لكل عباده.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

الجواب يحدد حيز السؤال:

أيها الأخوة، لكن السؤال يقتضي سائلاً، هم أصحاب رسول الله، ويقتضي مسؤولاً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يَسْأَلُونَكَ)

ويقتضي مسؤولاً عنه أي موضوع السؤال.

هناك وقفة متأنية مع موضوع السؤال.

أحياناً السؤال يحدد حيز الجواب، أنا أسالك: ماذا أكلت البارحة قبل أن تنام ؟ في السؤال تحديد دقيق للجواب، أريد أن تقول لي: أكلت على طعام المساء كذا وكذا، هذه حالة.

أحياناً الجواب يحدد حيز السؤال، مثلاً:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ)

يا ترى السؤال لِمَ المحيض ؟ ولِمَ ينقطع المحيض في سن معين ؟ وما حكمة المحيض ؟ لا، الجواب يحدد حيز السؤال،

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ)

أي ما حكم مقاربة المرأة في المحيض ؟ هذا السؤال ما الذي أكده ؟ الجواب، فتارةً السؤال يحدد الجواب، وتارةً الجواب يحدد السؤال.

على الغني الذي يستثمر أموال اليتامى أن يستعفف و على الفقير أن يأكل بالمعروف:

أيها الأخوة الكرام:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

(سورة البقرة الآية: 220)

يبدو أن الصحابة الكرام من شدة الورع خافوا أن تختلط أموالهم بأموال اليتامى لقوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الأنعام الآية: 152)

دع بينك وبين مال اليتيم هامش أمان، الجواب هنا يحدد طبيعة السؤال،

(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)

لذلك قال بعض العلماء: إذا كان الذي يستثمر أموال اليتيم غنياً فليستعفف، أي يعطيه الربح كله، وإن كان الذي يستثمر أموال اليتيم فقيراً فليأكل بالمعروف، وقد فسر العلماء المعروف بأجر المثل أو الحاجة، أيهما أقل ؟ مثلاً معك مليون ليتيم، ربح المليون أربعمئة ألف، لك النصف، وله النصف، أنت حاجتك في السنة ثلاثمئة ألف، أما نصيبك بالربح فمئتان تأخذ ما لك فقط ، أما لو معك خمسة ملايين و عند العمل بهم ربحوا خمسة ملايين، أنت حاجتك أربعمئة ألف تأخذ حاجتك، الحاجة أو أجر المثل أيهما أقل ؟ معنى:

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء الآية: 6)

الله سبحانه وتعالى جعل القمر تقويماً يقرأه كل البشر:

أيها الأخوة: الآن:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ)

(سورة البقرة الآية: 189)

البيئة التي كانت حول النبي الكريم أخلاقهم راقية جداً، صحابة نخبة البشر.

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[العقيلي عن أنس].

أما من حيث المعلومات الفلكية فلا يوجد معلومات فلكية كافية، لو أن الله سبحانه وتعالى قال: الهلال، حينما تكون الأرض بين الشمس والقمر يكون القمر محاقاً، ثم هلالاً ، ثم بدراً، قضية فلكية معقدة جداً، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة الآية: 189)

هذا القمر تقويم، تقويم يراه كل الناس، يقول لك: ثلاثة بالشهر، أربعة عشر الاستدارة تامة، ستة عشر، حذف من الاستدارة حيزاً صغيراً، فكأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا القمر تقويماً يقرأه كل البشر.

لكل سؤال سائل ومسؤول ومسؤول عنه:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ)

(سورة البقرة الآية: 217)

هل تعتقدون أن السؤال عن عدد الأشهر الحرم ؟ لا.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية: 217)

فهنا السؤال ما حكم القتال في الأشهر الحرم ؟ إذاً اتفقنا على أن لكل سؤال سائلاً، ومسؤولاً، ومسؤولاً عنه، وأن السؤال أحياناً يحدد حيز الجواب، أو أن الجواب أحياناً يحدد حيز السؤال.

الغنائم من فضل الله عز وجل:

الآن لو أردنا أن ندخل في الآية الأولى، وهي قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) الأنفال جمع نَفَل، كسبب جمعها أسباب، نَفَل جمعها أنفال.

أيها الأخوة : النَفَل هو الغنيمة، والغنيمة ما يؤخذ في الحرب، الدولة المنتصرة تأخذ بعض ما عند العدو من مواد، من أسلحة، من كل أنواع المواد، هذه اسمها غنائم، مفردها غنيمة، لأنها من فضل الله عز وجل، ومن خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اختصت الغنيمة بهذه الأمة من دون الأمم السابقة، أما النْفل بالسكون فهو الزيادة، النَفَل الغنيمة جمعها أنفال، و النفل الزيادة.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء الآية: 79)

العقائد في الإسلام توقيفية لا يجوز أن يضاف عليها و لا أن يحذف منها:

أيها الأخوة، لكن لأن العقائد في الإسلام توقيفية لا يجوز أن يضاف عليها، ولا أن يحذف منها، لأن العقائد والعبادات توقيفية، لا يمكن أن نضيف أية عبادة من عندنا على العبادات التي شرعها الله عز وجل.

لذلك إن أردت أن تقوم بعبادة نافلة ينبغي أن تكون هذه العبادة النافلة من جنس العبادة المفروضة، أي لا تستطيع أن تعمل حركات غير الصلاة و تقول: هذه صلاة، تحب أن تصلي صلاة نافلة تصلي النافلة كالصلاة المفروضة، لكن تنوي أن هاتين الركعتين صلاة نافلة، ينبغي أن تكون العبادة النافلة من جنس

العبادة الأصلية، من أجل ألا يحدث في الإسلام ما ليس منه، لأن العقائد في الإسلام توقيفية، لا يضاف عليها، ولا يحذف منها، الله عز وجل أمرنا أن نطور حياتنا.

بحياتنا الدنيا إعمار الأرض يقتضي إنشاء السدود أحياناً، استخراج الثروات ، تأمين سكن لكل الناس، إيصال الماء للبيوت، هذه كلها مستجدات ينبغي أن نفعلها، ينبغي أن نعمر الأرض، أن نحل مشكلات الشباب، أن نهيئ بيوتاً للزواج، أن نهيئ فرص عمل، أن ننشئ معاملاً، أن ننشئ سدوداً، أن ننشئ جسوراً، أن ننشئ جامعات.

كنت في بلد بعيد في أمريكا الجنوبية زرت سداً هو أكبر سد في العالم، حجز بحيرة وراءه، طولها مئة و ثمانون كيلو متر، هذا السد فيه عشرون عتبة، كل عتبة تساوي محطة حرارية قيمتها خمسمئة مليون دولار، هذا السد يقدم كهرباء بأعلى درجة من القوة، هذا من إعمار الأرض، إنشاء السدود، استخراج الثروات، تصنيع هذه الثروات، إنشاء البيوت، إنشاء المستشفيات، إنشاء الطرق، إنشاء الجسور، هذا من إعمار الأرض.

أما في الدين فلا يوجد بدع، الدين توقيفي، ولاسيما عقائد الدين، وعبادات الدين، لذلك لو أن إنساناً تاقت نفسه لعبادة ليست مفروضة، تاقت نفسه لعبادة نافلة، ينبغي أن يؤدي النافلة كما تؤدى العبادة الأصلية، من أجل ألا نحدث في الإسلام تطوراً يغير معالمه.

من ابتلي فصبر كان للناس إماماً:

أيها الأخوة، نأتي بمثل: سيدنا إبراهيم حينما ابتلي أن يذبح ابنه إسماعيل:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

(سورة الصافات)

حينما ابتلي أي امتحنه الله أن يذبح ابنه إسماعيل، ومما يزيد هذا الامتحان صعوبة أنه ما جاء بشكل صريح جاء بشكل رؤيا، قال:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

(سورة الصافات الآية: 102)

ليس الشيء سهلاً، أن إنساناً يذبح ابنه الشاب، وهو نبي، لو أنه قيل له: سيأتي من يذبح ابنك فاصبر، هذا أسهل، أما ينبغي أن تذبحه بيدك، وهو ابنك، وسيدنا إبراهيم لئلا يأتي إلى ابنه هاجس العقوق، لمَ تذبحني ؟ من قال لك ذلك ؟ لئلا يأتي إلى ابنه هاجس العقوق، شرح له القضية،

(قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الصافات)

بأي مستوى سيدنا إبراهيم ؟

الآن تطلب من إنسان ساكن جانب المسجد احضر درساً فقط، المسجد مدفأ في الشتاء، ومكيف في الصيف، هناك مياه باردة للشرب، وهناك مياه ساخنة للوضوء، والسجاد ثخين، و تحت السجاد مواد من أجل أن تستريح، لكن احضر الدرس، يقول له: اذبح ابنك، نحن لا نحتمل هذا الابتلاء.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة الآية: 124)

متى تكون للناس إماماً ؟ حينما تبتلى فتصبر،

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

المؤمن الصادق واثق من حكمة الله يتلقى قضاء الله وقدره بالرضا واليقين:

أيها الأخوة، الآن دقق:

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

(سورة الصافات الآية: 103)

الأب النبي الكريم أبو الأنبياء استسلم لهذا الأمر، والابن الشاب البار بوالده ، المؤمن بربه، وبحكمة ربه قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

قال:

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

(سورة الصافات)

ماذا يستنبط لنا ؟ أنه حينما يأتي من قضاء الله وقدره شيء مزعج، أو متعب، أو مؤلم، وتقبله، سريعاً ما ينزاح عنك، أما إذا لم تقبله، تأخر بقاء هذا القضاء والقدر فيك، هذا الدرس، المؤمن الصادق واثق من حكمة الله، واثق من عدل الله، لذلك يتلقى قضاء الله وقدره بالرضا واليقين، من هنا قال سيدنا علي:

" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

درس بليغ لنا.

قصص الأنبياء توجيه وعبرة لنا:

أنا أتمنى عليكم ألا تفهموا أن هذا القرآن فقط كتاب مقدس، تقرأه تعبداً، هذا منهج لنا.

أؤكد لكم ثانية أن قصص الأنبياء الذين مضوا هي لنا، درس لنا، توجيه لنا، فإذا قبلت قضاء الله وقدره سريعاً ما تحل المشكلة.

أيها الأخوة، قال النبي الكريم:

((عَجَبا لأمر المؤمن ! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

سيدنا عمر بن الخطاب، كان إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ـ إنسان ترك الصلاة، إنسان أكل مالاً حراماً، إنسان وقع في الفاحشة، أعوذ بالله، هذه المصائب ـ الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".

أولاً: حمد الله على أي مصيبة لم تصل إلى الدين، ما ارتكب حراماً، ما أكل مالاً حراماً، ما تعامل مع الحرام، ما نافق، ما جمع مالاً على حساب مبادئه، " الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها ".

مثلاً: حادث سيارة لكن الأولاد سلموا، والزوجة سلمت، الحمد لله، نعمة كبيرة أن المصيبة أصابت المركبة فقط، أما الركاب ففي سلامة تامة، " الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها "، هذا المؤمن راضٍ.

مرة أحد العلماء قال: " ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، بستاني في صدري، ماذا يفعل أعدائي بي ؟ "

لذلك هذا العالم الجليل قال كلمة أخرى، قال: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "، والدليل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، ألا يكفي أن الله عز وجل فدى ابنه الذبيح بذبح عظيم ؟ آتاه ولداً آخر، وجعله نبياً، وآتاه ولداً ثالثاً.

من كان سروره بالنقمة كسروره بالنعمة فقد رضي عن الله:

أيها الأخوة، الذي يرضى عن الله دليل إيمان كبير، إنسان في أثناء الطواف حول الكعبة، قال: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ فكان وراءه أحد العلماء، قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال له: سبحان الله ! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ فقال هذا العالم الجليل: " إذا سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".

هنا البطولة، أن تقول: يا رب، عندك مشكلة، مشكلة صحية، مشكلة مالية، مشكلة أسرية، مشكلة في العمل، يا رب لك الحمد، لذلك قالوا:

كن عن همومك معرضا وكِلِ الأمور إلى القضا

وابشر بــخير عاجل تنسى به ما قد مضى

فلرب أمــر مسخط لك في عواقبه رضــا

* * *

ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضــا

الله يفعل مــا يشاء فلا تكن معترضــا

الله عودك الــجميل فقس على مـا قد مضى

* * *

من يقبل بقضاء الله وقدره يُرفع عنه الأذى:

لذلك درس بليغ لنا إذا جاء قضاء الله وقدره بما لا يريحنا، أو إذا جاء مكروه القضاء ينبغي ألا نجزع، وألا نسخط، وألا نغضب، وألا نتمرد، لكن تقول: الحمد لله على كل حال، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فحينما تقبل قضاء الله وقدره يُرفع عنك، وحينما لا تقبله يستمر، هذا الدرس البليغ في هذه القصة التي أكرمنا الله بها.

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة الصافات)

ولد آخر.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

(سورة الأنبياء)

كان الشيء المقلق أن يذبح ابنه إسماعيل، فسلم ابنه إسماعيل، وآتاه الله إسحاق ويعقوب نافلة زيادة على الفضل.

أحياناً يرزقه ولداً يحفظ له ذكره بعد موته، من والدك ؟ والدي فلان، ما شاء الله! رحمة الله عليه، كان صالحاً، فالابن كلما سئل: من والدك ؟ يذكر اسم والده فيترحم الناس عليه، فنقول: هذا الولد حفظ ذكر أبيه، لكن أباه داعية، ما قولك بولد يكون بعد أبيه داعية مثلاً ؟ هذا أرقى بكثير.

فسيدنا إبراهيم أتاه الله ولداً آخر نبياً من الصالحين، فاستمرت الدعوة.

أفضل كسب الرجل ولده:

لذلك أيها الأخوة، لم يبقَ في أيدي المسلمين من ورقة رابحة إلا أولادهم، لو حصّلت أكبر ثروة في الأرض ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار]

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

كان الامتحان الصعب أن يذبح ابنه، فإذا ابنه يسلم ، ويؤتيه الله ابناً نبياً، وابناً آخر سيدنا يعقوب.

النبي عليه الصلاة والسلام بُعث إلى عامة الناس فأعطي بذلك زيادة على الأنبياء:

أيها الأخوة الكرام، مما أعطي النبي عليه الصلاة والسلام زيادة على الأنبياء و الصالحين قال:

((أعطيتُ خَمْسا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

ولما تركت أمته منهجه من بعده هُزمت بالرعب مسيرة عام، إذا طبقنا منهج النبي الكريم ننصر بالرعب، فإذا تركنا سنته نهزم بالرعب.

((وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهورا، فأيُّمَا رَجُل من أمَّتي أدركته الصلاة فليصلّ وأحِلّت ليَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومهِ خاصة وبعثْتُ إلى الناس عامة))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

الأنبياء السابقون بعثوا إلى أقوامهم، والنبي عليه الصلاة والسلام بعث إلى عامة الناس.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

عدم إباحة الغنائم للأنبياء السابقين و إنما منحت نافلة لنبينا الكريم:

إذاً: نعود إلى الآية الكريمة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ)

الأنفال جمع نَفَل ، وهي الغنائم، ما تشريع الله في الغنائم ؟ الغنائم لم تبح للأنبياء السابقين، إنما منحت نافلة لنبينا عليه أتم الصلاة والتسليم.

أيها الأخوة الكرام: هناك مصطلحات، من هذه المصطلحات:

الغنيمة: ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، وتقسم هذه الغنائم فيما بينهم بنسب معينة، فقديماً مثلاً المقاتل له سهم ، والفارس الذي معه فرس له سهمان.

الفيء: كل مالٍ صار إلى المسلمين من دون قتال، هذا اسمه فيء.

القبض: الغنائم قبل أن تقسم، أحياناً تكون المعركة عصيبة جداً، والعدو شرس جداً، وقوته كبيرة جداً، فالقائد يعطي حوافز للمواطنين، ففي بعض الغزوات قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن قتَلَ كافراً فله سَلَبُهُ))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن أنس بن مالك]

أي مال هذا المقتول لمن قتله شخصياً، لا يدخل بالحسابات، هذا اسمه حافز تشجيعي.

في يوم بدر هناك واقعة، يرويها الصحابي الجليل سعد بن مالك رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله: قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف ـ يوجد سيف مع الغنائم يبدو جيد جداً ـ فقال عليه الصلاة والسلام: " إن هذا السيف لا لي و لا لك، ضعه، قال: فوضعته ثم رجعت، فقلت في نفسي: عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلي بلائي، أي إنسان ما قاتل كما قاتلت يأخذ هذا السيف (شعور داخلي)، قال: فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوني من ورائي، فقال الصحابي: قد أنزل الله فيّ شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: كنت سألتني السيف وهو ليس لي، وإنه قد وهب لي، فهو لك، لقوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

أي النبي يوزعها، هي لله ، والنبي يوزعها، قال له: هذا السيف أصبح لي بنص هذه الآية فهو لك.

القضية المبتوت بها من قِبل الله تعالى لا يسمح لأي إنسان أن يعارضها :

أيها الأخوة الكرام، يبدو أن مشكلة محدودة نشبت بين الصحابة حينما وزعت بعض الغنائم، فلذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم هذا الأمر فقال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أن تسألوا، هذه قضية مبتوت بها، لقول الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

مرة سألوا دكتورة بالجامعة في مصر عن رأيها في التعدد، فطبعاً قالت كلمة رائعة، قالت: ما كان لي أن أدلي برأيي في التعدد وقد سمح الله به، من أنا ؟ المشرع هو الله ، ما كان لي أن أدلي برأيي في التعدد ، وقد سمح الله به.

فلذلك الآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوا الله.

على الإنسان طاعة الأمر القرآني و طاعة بيان رسول الله:

لكن عندنا آيات متعددة:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة الأنفال الآية: 46)

الله عدد المطاع،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

عندنا آية أخرى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النساء الآية: 59)

عدد الأمر والمطاع. وعندنا آية ثالثة:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النور الآية: 56)

عندنا

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

و عندنا

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

و عندنا آية

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

إذاً: الله عز وجل أمرنا بالصلاة.

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة الحج الآية: 78)

هناك أحاديث كثيرة جداً من اختصاص النبي عليه الصلاة والسلام، يقول لك: الفجر ركعتان، الظهر أربع ركعات، العصر أربع، المغرب ثلاث، العشاء أربع، السنن ركعتان قبل الفجر، أربع قبل الظهر، وركعتان بعد الظهر، ركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، هنا:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

لأن الأمر الكلي جاء في القرآن، أما التفاصيل، أنصبة الزكاة، آلاف الموضوعات التي تركت لرسول الله، فهذه الموضوعات تغطيها الآية الكريمة:

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أما إذا جاء النص

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

طبعاً أطيعوا الأمر القرآني، وأطيعوا بيان رسول الله، النبي بيّن.

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية: 44)

أما إذا قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي النبي وحده مشرع، أطيعوا النبي استقلالاً،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الأمر قرآني، والنبي بيّن، الله كرم المطاع

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

النبي الكريم مثلاً حرم النسب من الرضاعة، هنا

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

استقلالاً، هناك شيء جاء به النبي و هو لم يرد في القرآن، لأنه مشرع.

الوحي نوعان ؛ وحي متلو هو القرآن و وحي غير متلو هو السنة:

لذلك هناك وحي متلو هو القرآن، ووحي غير متلو هو السنة، هناك أشياء النبي بينها:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هناك أشياء النبي أضافها، كتحريم النسب من الرضاعة، بالقرآن:

(وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

(سورة النساء الآية: 23)

الآن وعماتكم من الرضاعة، وخالاتكم، هنا

(وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)

استقلالاً، وإذا كان هناك قضية جاءت في القرآن والنبي فصّل في تفاصيلها

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

هذه الآيات التي تأتي على أشكال متعددة.

الثقة بالله عز وجل إذا اختص لنفسه بشيء:

أيها الأخوة، الذي يستنبط من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى إذا اختص لنفسه بشيء

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

وإذا اختص النبي بشيء أيضاً

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

والآية التي تغطي هاتين الآيتين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات الآية: 1)

أنت تزور طبيباً يحمل أعلى شهادة، درس ثمانية و ثلاثين عاماً، يقول له: حبة أسبرين يومياً، ما السبب دكتور ؟ هذا ليس مريضاً أديباً، ما دام أتيت إلى طبيب متفوق جداً، تثق بعلمه و إخلاصه و أخلاقه، ينبغي ألا تسأل، فكيف مع خالق السماوات والأرض ؟.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ)

أن تسألوهما ،

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (02-30): تفسير الآية 1 ، تقوى الله تعالى وإصلاح ذات البين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

التقوى في اللغة:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من دروس سورة الأنفال، ولا زلنا في الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

فعل اتق ماضيه وقى، (وقى، يقي، ق)، الأمر حرف واحد وقى، يقي، ق، يعني اجعل بينك وبين غضب الله وقاية، اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية ، اجعل بينك وبين سخط الله وقاية، أو اتق أن تعصيه، اتق أن تخالف أمره، اتق أن يغضب عليك، اتق ألا تكون كما ينبغي.

فكلمة التقوى، واتقوا، واتق، ويتقون، مشتقات هذا الفعل وردت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة، لأن الإنسان أودع الله فيه الشهوات، والشهوات حيادية، والشهوات بإمكانك أن تتحرك منطلقاً منها تقريباً 180 درجة، والشرع الحكيم سمح لك بمسافة، أو بحيز، أو بمساحة، ما سواها في مخالفة، فالمؤمن يتقي أن يقع في المكان المحرم، في الشهوة المحرمة، في الكلمة المحرمة، في أكل الطعام الحرام، في فعل الحرام، فكل شيء الله أودعه فيك حيادي يعني سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها.

فلذلك لو أردنا أن نقف في اللغة قليلاً، وقى، يقي، ق، الفعل اتقى هذا فعل مزيد مثل كتب، اكتتب، وقى، اوتقى، دغمت التاء بالواو وأصبح اتقى، فهو فعل خماسي، مزيد بحرفين على الثلاثي، يعني أبسط معنى للتقوى أن تطيع الله، أمرك بالصدق صدقت، نهاك عن الكذب انتهيت، أمرك بأداء الأمانة أديتها، نهاك عن الخيانة انتهيت، أبسط معنى للتقوى هي طاعة الله، أوامر الله عز وجل موجودة في الكتاب وفي السنة.

المنهج الإسلامي منهج تفصيلي يدور مع الإنسان أينما كان :

لكن النقطة الدقيقة أن معظم المسلمين توهموا أن الإسلام عبادات شعائرية ليست غير، لا أبداً، العبادات الشعائرية هي خمس عبادات، بل هي خمسة بنود من مئة ألف بند إن شئت أو من خمسمئة ألف بند إن شئت، المنهج الإسلامي منهج تفصيلي، يدور معك أين ما كنت، يبدأ معك من فراش الزوجية، وهو أخص الخصوصيات، وينتهي بالعلاقات الدولية وهو من أعم العموميات، منهج كامل في حركتك، في نومك، في استيقاظك، في زواجك، في عملك، في إقامتك، في سفرك، بالسلم، بالحرب، بالغنى، بالفقر، علاقتك بأولادك، علاقاتك بآبائك ، علاقتك بإخوانك، علاقتك بمن حولك، علاقتك بالمؤمنين، علاقتك بغير المؤمنين، منهج تفصيلي.

القرآن الكريم ستمئة صفحة، كل أمر بالقرآن الكريم هو بند من بنود المنهج، إذا قال الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

هذا أمر يقتضي الوجوب.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

إذا قال القرآن الكريم:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة الآية: 83)

أمر، فبطولتك كمؤمن إذا قرأت القرآن أن تقف عند كل فعل أمر في القرآن، وأن تسأل نفسك أين أنت منه ؟ هل أنت مطبق له أم لا ؟.

كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك:

لذلك المؤمن يتوهم أنه صلى، وصام، وحجّ، وزكى، وانتهى كل شيء نقول له ما انتهى شيء، الإسلام منهج تفصيلي، يقتضي أن تأخذ كل أمر في القرآن الكريم على أنه أمر يقتضي الوجوب، بل قال بعض العلماء: علة أي أمر أنه أمر.

مرة عالم من علماء دمشق سافر إلى بلاد بعيدة، إلى أمريكا، والتقى برجل هداه الله إلى الإيمان، فانطرح موضوع لحم الخنزير، فهذا العالم الدمشقي تحدث ساعتين عن مضار لحم الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن انتقال طباع الخنزير إلى آكله، وعن، وعن، وجاء بأدلة، وبراهين، وأمثلة،

وتعليقات، وتحليلات، هذا الذي آمن في هذه البلاد ابتسم، قال له: يكفيك أن تقول لي إن الله حرمه، لأن علة أي أمر أنه أمر.

أنت مع طبيب معه شهادة عليا من بلد بعيد، لا تفكر تسأله عن بعض التوجيهات الطبيب هكذا قال، أنت مع إنسان تثق بعلمه، وبخبرته، وبحرصه على صحتك، يعطيك تعليمات، قد لا يخطر في بالك إطلاقاً أن تسأل عن سببها أو عن علتها.

فلذلك من باب أولى أن تقف مع الله هذا الموقف، الإمام الغزالي الذي قال: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ طبيب عادي قال لك: ألغ الملح، ضغطك مرتفع، قال لك: بع هذا البيت في الطابق الرابع واشتر بيتاً في الطابق الأرضي، تبادر فوراً، لو أن طبيباً منعك يا نفس من أكلة تحبينها، لاشك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أجهلك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً فما أكفرك.

كل أمر في القرآن الكريم و في السنة الصحيحة يقتضي الوجوب:

لذلك أيها الأخوة، أبسط معنى لقول تعالى

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

يعني أطيعوا الله، هناك أوامر في القرآن، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، طبعاً في استثناء ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، إذا الله عز وجل قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

هذه لام الأمر، هل يعقل أن يأمر الله بالكفر ؟ هذا اسمه أمر تهديد، إذا الله عز وجل قال:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

(سورة البقرة الآية: 187)

هذا أمر إباحة، وإذا قال:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

هذا أمر ندب، هناك أمر ندب، و أمر إباحة، و أمر تهديد، وهناك أمر يقتضي الوجوب، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وكل أمر في السنة الصحيحة يقتضي الوجوب، لقوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به:

الآن هناك حقيقة دقيقة جداً، أبدأها بهذا المثل، إنسان لا يقرأ ولا يكتب، اشترى مكيفاً، والجو حار، فتح مفتاح التشغيل فجاءه هواء بارد، فانتعش به واستمتع به، وهو لا يفقه عن هذا المكيف شيئاً، لا يعرف، يأتي إنسان يحمل دكتوراه بالتكييف، واشترى مكيفاً ووضعه في غرفته، والجو حار، وفتح مفتاح التشغيل، وجاءه هواء بارد، كلا الرجلين الذي يجهل آلية هذا الجهاز والذي يعلم آلية هذا الجهاز انتفع بالهواء البارد.

لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، يعني أنت ببساطة لو طبقت منهج الله، قال لك الله عز وجل: اصدق صدقت، لا تكذب ما كذبت، أدِ واجبك، أديت واجبك، كن زوجاً محسناً، كنت زوجاً محسناً، ما عندك إمكان تفهم حكمة الأمر، ولا حللت أمراً، ولا بحثت عن أمر، فقط طبقت الأمر، قطفت كل ثمار الأمر، فالانتفاع بالأمر الإلهي، أو الانتفاع بترك ما نهاك الله عنه، ليس أحد فروع العلم به، لو لم تعلم.

هذا الدين لكل البشر، للمتعلم ولغير المتعلم، للذي يقرأ وللأمي، ما دام الدين كالهواء للبشر، كل إنسان بحاجة للهواء، إن كنت تعرف أن عندك رئتين، والهواء فيه أوكسجين، والدم حمل غاز الفحم، ويجب أن يتم التبادل في الرئتين بين غاز الفحم والأوكسجين أو لم تعلم، أنت مهمتك تستنشق الهواء، أميّ، متعلم، دكتور، مثل بعضها، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، لأن هذا الدين لكل البشر، متعلم، غير متعلم، أميّ، قارئ، كاتب ، مثقف، دكتور، جاهل، ما دام نفذ الأمر قطف ثماره، واضح ؟.

أعلى مستوى في التقوى أن الله تعالى يقذف في قلب الإنسان نوراً يرى به الحق والباطل:

إذاً أبسط معنى للتقوى طاعة الله، لكن أحياناً الإنسان يعرف فضلاً عن أن هذا الأمر أمراً يعرف حكمته، الله قال:

(خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة الآية: 63)

من حكمة، فإذا شخص أضاف إلى طاعة الله الحكمة يصبح داعية، عندئذٍ يستطيع أن يقنع الآخرين بتنفيذ هذا الأمر.

أحياناً مثلاً تقول لشخص: أنت حينما تبذل جهداً ونشاطاً تصبح عضلة القلب قوية وتأتي بالأدلة، أنت حينما تمشي كل يوم ساعة، هذا المشي يلين العضلات، يدرب القلب على بذل جهد عالٍ، فكلما أمكنك أن تحلل الأمر، وأن تفهم حكمته، أمكنك أن تقنع الآخر به، ففرق العابد عن العالم، العابد ينفذ الأمر،

والعابد ناجٍ، أما العالم ينفذ الأمر ويعلم حكمة الأمر فبإمكان العالم أن يقنع الآخر بطاعة الله عن طريق بيان الحكمة، هذه حالة أعلى.

أخوانا الكرام، العالم يطيع وهو يعلم الحكمة، لكن لو فرضنا أن هناك قوارير، كل قارورة فيها مادة معينة، مكتوب على هذه القارورة ملح، هنا مكتوب صوديوم، هنا مكتوب بوتاسيوم، هنا مكتوب زنك، فأنت من خلال هذه اللصاقة تعرف المادة، هذه أول مستويات المعرفة، في إنسان لو ما في لصاقات خبرته بالمواد الكيماوية عالية، يقول لك: هذا بوتاس، هذا ملح، هذا نحاس، هذا زنك، فحينما تعرف الشيء باسمه هذا مستوى، لكن في مستوى أعلى أنك تعرف الشيء من دون اسمه هذه خبرة أعلى.

يعني أنت في هذه الحالة تستغني عن البيانات، هناك أنواع من جميع البضائع معظم الناس يعرفونها بحسب البيانات، أصحاب الخبرة بكل حرفة يعرفون الأنواع من دون بيانات يعرفونها بالخبرات، هذا مستوى أعلى، لكن أعلى مستوى بالتقوى أن الله جلّ جلاله يقذف في قلبك نوراً ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً.

أبسط مستوى من التقوى أن يعرف الإنسان المحرمات بالمنهيات والأوامر بالمأمورات:

الآن انتقلنا إلى موضوع دقيق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28)

وأوضح مثل أيها الأخوة، تمشي أنت ليلاً في طريق مخيف ضمن غابة، في حفر ، في أكمات، وفي أفاعي و عقارب، ومعك مصباح كشاف، بهذا المصباح الكشاف رأيت الحفرة فابتعدت عنها، رأيت الأكمة فتجنبتها، رأيت الحية فقتلتها، مصباح الكشاف أراك كل شيء.

إذاً أبسط مستوى من التقوى أن تعرف المحرمات بالمنهيات، وأن تعرف الأوامر بالمأمورات، وأن تعرف المباحات لم يكن هناك أمر به، ولا نهي عنه، هذا مستوى، لكن أحياناً ينمو حسك الفقهي، هذا حرام ولو لم تنبأ به، حرام أن أفعل هذا، هذا مستوى أعلى.

لما إنسان يرتقي أول الأمر الإنسان يحب الغناء، فاستمع إلى حديث صحيح أن الغناء محرم، هناك آيات تؤكد ذلك، ترك الغناء لكن هناك أغنيات يحبها كثيراً، لم يعد يستمع إلى هذه الأغنيات، لكن مرة راكب بسيارة عامة وضع السائق هذه الأغنية فتجاوب معها، لكن هو لم يسمع استمع، فرق كبير بين سمع واستمع، هو لم يأتِ بشريط، وضعه في المسجلة، ويستمع لهذه الأغنية، لكنه سمعها عرضاً وتفاعل معها، لكن بعد حين حينما تنمو أضواءه الإيمانية وحينما يتقدس قلبه بمعرفة الله، يشمئز من هذه الأغنية التي كان يحبها، هذا مستوى أعلى.

سعادة الإنسان ناتجة عن رؤيا صحيحة وشقاؤه عن رؤيا خاطئة :

أنت تبدأ في المنهيات، وهناك مأمورات، تنتهي عما نهاك الله عنه، وتأتمر بما أمرك الله به، لكن بعد حين تنشأ عندك أذواق إيمانية لا تقبل بالخطأ ولو لم تعرفه أساساً.

ورد أن عمر بن الخطاب قال: **" نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه ".**

هذا مستوى أعلى، أما أعلى مستوى أن يلقي الله في قلبك نوراً، ترى به الحق حقاً والباطل باطلاً، وهذا يستند إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

القصة بأكملها رؤيا، هذا الذي سرق ماذا رأى ؟ قبل سنوات عديدة، أناس دخلوا على صائغ في بلدة في أطراف دمشق، وأخذوا كل ما عنده من ذهب وقتلوه، هم خمسة، بعد فترة قصيرة شيء رائع جداً، علقوا جميعاً وشنقوا في مكان الجريمة، هؤلاء حينما اقتحموا المحل، وقتلوا الصائغ، وسرقوا الذهب، هل رأوا أنهم سوف يعدمون ؟ لا، رأوا أنهم سوف يغتنون بهذا المال، إذاً رؤيتهم خاطئة.

كل سعادتك برؤيا صحيحة، وكل شقاء الإنسان برؤيا خاطئة.

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اِتباعه))

هؤلاء الذين انحرفوا، وظلموا، وبنوا مجدهم على أنقاض الآخرين، بنوا حياتهم على قتلهم، بنوا أمنهم على خوفهم، بنوا غناهم على فقرهم، بنوا عزهم على ذلهم، هؤلاء دمرهم الله عزّ وجل، هم حينما فعلوا ذلك ما تصوروا أن الله سيدمرهم، تصوروا أنهم سيفوزون.

من استنار بنور الله عز وجل ربح الدنيا و الآخرة:

لذلك من هو البطل ؟ هو المؤمن الذي استنار بنور الله، لما امرأة بأعلى درجة من الجمال، امرأة العزيز، راودت شاباً وسيم الطلعة، هو عبد عندها، هي سيدته، وليس لصالحها أن تتكلم لأحد عن هذا الذي جرى بينهما، وهو شاب قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية: 23)

ماذا رأى ؟ رأى أن هذه جريمة، رأى أن الزنا خيانة، رأى أن الزنا يحجب عن الله عز وجل، ملك رؤيا صحيحة، لكن لو وضعنا مليون شاب مكانه الآن بعصر العولمة الحيونة يراها مغنماً كبيراً. سائق سيارة، امرأة أشرت إليه، وقف، صعدت، قال: إلى أين يا أختي ؟ قالت له: خذني إلى أي مكان شئت، فهم، رأى أن هذا مغنماً كبيراً، بعدما قضى حاجته أعطته رسالة فتحها، فيها سطر واحد، مرحباً

بك في نادي الإيدز، انتهى.

سمعت قصة قرأتها، سافر شخص إلى إيطاليا، وفي منتصف الليل طُرق بابه، بغي طرقت بابه، رآها غنيمة كبيرة، بعد أن انتهى ونام استيقظ لم يجدها، كتبت له بأحمر الشفاه على مرآة الغرفة أنت مصاب بالإيدز، فانتحر.

بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة.

المؤمن لا يعصي الله عز وجل لأن عطاء الله بطاعته:

المؤمن والله الذي لا إله إلا هو لو قطعوه إرباً إرباً لا يعصي الله، لأنه يرى الدمار، والشقاء، والهلاك، والإحباط، والفقر، والفضيحة بمعصية الله، والقوة، والمنعة، والعزة والتوفيق، وعطاء الله بطاعته.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

كل بطولتك في هذه الدروس أنك تملك رؤيا صحيحة، وكل خطأ الناس إذا تركوا طلب العلم لا يملكون رؤيا صحيحة، يملكون رؤيا مغلوطة.

هذا الذي هدم عشرات ألوف البيوت في غزة، من جبابرة الأرض، هو هاوي سفك دماء، مذبحة صبرا وشاتيلا، ومذابح أخرى، هذه السنة الرابعة والنصف، لم يمت بعد، وأمدّ الله في عمره، قبل أيام رأيت صورة له، يا لطيف ! شيء يصعب وصفه، أربع سنوات ونصف في سُبات، الله كبير، ما رأى أن هؤلاء الذين يقتلهم عباد الله، ما رأى أن الله له بالمرصاد.

كل بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة، كل ثمرات هذه الدروس أن تملك رؤيا صحيحة، كل نتائج هذه الدروس أن تملك رؤيا صحيحة، كل الدين أن تقول:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

والله يا أخوان، أروي حديثاً، لا أعتقد أنه في حديث ينفعك كهذا الحديث:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعاً]

لذلك من أجل أن تملك رؤيا صحيحة ينبغي أن تطلب العلم.

أيها الأخوة الكرام، إذاً أعلى درجة في التقوى، أن الله يقذف نوراً في قلبك، ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، هذا النور هو أثمن شيء يملكه المؤمن، يقول ماشي بنور الله يعني ألقى الله بقلبه نوراً أراه الحق حقاً، والباطل باطلاً.

على المؤمن إصلاح العلاقات بينه و بين ربه بتقديم القربات له و ضبط المعاملات معه:

أيها الأخوة الكرام،

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

البين، في بين بيني وبين الله، عليك إصلاح هذه العلاقة، إصلاح هذه العلاقة لمعرفته، إصلاح هذه العلاقة بطاعته، إصلاح هذه العلاقة بالتقرب إليه، إصلاح هذه العلاقة بخدمة عباده، إصلاح هذه العلاقة بأداء العبادات، إصلاح هذه العلاقة بضبط المعاملات، إصلاح هذه العلاقة بتقديم القربات إلى الله عز وجل، فحينما تأتي إلى مجلس علم، وتتعرف إلى الله، وتذهب إلى البيت، وتنفذ ما سمعته من توجيهات قرآنية، ونبوية، فأنت في إصلاح علاقتك مع الله.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

أصلح ما بينك وبين الله.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ: للآية مستويات منها:

1 - إصلاح العلاقة بين الإنسان و ربه:

أخوانا الكرام، هذه الآية لها مستويات، أعلى مستوياتها أن تصلح العلاقة بينك وبين الله، وأنا أقول لكم: ما لم تصلح علاقتك مع الله أولاً، ومع أهلك وأولادك ثانياً، وفي عملك ثالثاً، ومع صحتك رابعاً لن تكون ناجحاً، لأن أي خلل في إحدى هذه الجهات ينسحب على كل الجهات، الآن ليس هناك نجاح جزئي، النجاح لا يسمى نجاحاً إلا إذا كان كلياً، ينبغي أن تنجح في علاقتك مع الله، وينبغي أن تنجح في علاقتك مع أهلك و أولادك، وينبغي أن تنجح في علاقتك مع من تعمل معه في عملك، الذي تكتسب رزقك منه، ويجب أن تنجح مع صحتك.

2 - إصلاح العلاقة بين الإنسان و بين من حوله:

المستوى الثاني، قال

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

مع الله هذه فهمناها أصلحوا العلاقة بينكم وبين من حولكم، أنت كمؤمن لابد من أن تكون علاقتك بأمك وأبيك إن كانوا أحياء في أعلى مستوى، بحسب المنهج الإلهي، وعلاقتك بأولادك، وعلاقتك بزوجتك،

وبإخوتك وأخوتك، علاقاتك بأقربائك، علاقتك بجيرانك، علاقتك بزملائك، علاقتك بأصدقائك أية علاقة بينك وبين الآخر ينبغي أن تكون علاقة جيدة، مبنية على احترام متبادل، مبنية على الوضوح، ما في كذب، ما في نفاق، ما في غش، مبنية على التواضع، مبنية على الحب، هذه العلاقة الثانية.

بطولة المؤمن أن تكون علاقته مع من حوله علاقة حب و تسامح:

أول علاقة بينية مع الله، ثاني علاقة بينية مع من حولك، فالمؤمن محبوب، يعرف قدره أمه، وأبوه، وأولاده، وزوجته، وأهل زوجته، وأقرباؤه، وجيرانه، وأصدقاؤه، وزملائه علاقة مبنية على الأداء الواجب، والتسامح، والعفو أحياناً، والتلطف، والاعتذار ، والمسامحة، وتقديم هدية، في مشكلة نقدم هدية، في مشكلة غامضة نوضح، البيان يطرد الشيطان، ممكن تبين الشك يزول، ممكن تعتذر الحقد يزول، ممكن تطلب السماح الألم يزول ، ممكن تقدم خدمة الألم يتلاشى.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

مع من حولكم، فبطولة المؤمن أن تكون علاقته طيبة مع أهله، وجيرانه، وأخوانه، وأصحابه، وأصدقائه، ومع من يعمل معه، لكن إذا واحد بغى عليك.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى)

ينتصر لا أن يكيل له الصاع عشرة.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى الآية: 40)

يجب أن يكون في علمك أن أولى واجبات المؤمن إصلاح العلاقة بينه وبين الله أولاً وبينه وبين الخلق ثانياً.

الآن، أنت ما لك علاقة، لك أخت نشب بينها وبين زوجها سوء تفاهم كبير جداً أصبح على وشك الفراق، لا تقول أنا ليس لي علاقة، اقرأ الآية:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

بين أخيك وأخيك، بين أختك وزوجها، بين شريك وشريكه، بين جار وجار، أول مستوى أصلح علاقتك مع الله، ثاني مستوى أصلح علاقتك مع الآخرين جميعاً.

3 ـ إصلاح العلاقة بين اثنين:

المستوى الثالث أصلح أي علاقة بين اثنين.

من صفات المؤمن أنه يجمع ولا يفرق، والنبي الكريم نفى عن أمته التفريق قال:

((من فرّق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

من فرّق، يزور أخته بالعيد، ماذا قدم لك زوجك في هذه المناسبة ؟ زوجها فقير، تحبه ويحبها، ويعيشون حياة جميلة جداً، لم تنتبه، والله ما قدم لي شيئاً، معقول ما يقدم لك شيء ؟ يليق بك واحد آخر، الآن ذهب، جاء زوجها، تغيرت، هو أساء العلاقة بينها وبين زوجها.

شخص اشترى بيتاً صغيراً، فرح به، كان قاعداً بالأجرة، والله أكرمه ببيت يزوره إنسان غني يَقرف ويُقرف، كيف يسعك هذا البيت ؟ يسعه، هذا مأوى، بيت اشتراه بماله، تجده يسود بعينه هذا البيت.

المؤمن يقرب الناس فيما بينهم، وغير المؤمن يباعد ما بين الناس، تجد أين ما جلس مثل الشيطان، يرمي قنبلة، يرمي تعليقاً، يرمي تهكماً، يرمي تصغيراً، يرمي تحقيراً، هذا غير المؤمن.

لذلك:

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جنهم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

قالت:

((السيدة عائشة قالت عن أختها صفية قصيرة ! ـ كلمة واحدة قالتها ـ قال لها: يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

[أبو داود عن عائشة]

لا تقلد، ولا تنتقد، ولا تسخر، لا تتهكم، المؤمن متواضع، ودائماً وأبداً يقدم للناس شيئاً يسعدهم.

المودة والمحبة والتوضيح والاعتذار والهدية وسائل تذهب وحر الصدر:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

أصلح ما بينك وبين الله، لمعرفته، وطاعته، والتقرب إليه، أصلح ما بينك وبين من حولك من المؤمنين، رواد مسجد، أقرباؤك، أخوانك ، أخواتك، أصهارك، زبائنك إذا عندك مشروع، زملاؤك بالعمل، جيرانك بالسكن وبالعمل.

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

بالمودة، والمحبة، والتوضيح، والاعتذار أحياناً وبالهدية، كما قال النبي الكريم حين نشأت مشكلة:

((الهَدِيَّة تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْر))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وكان النبي يقبل الهدية ويرد عليها.

((تهادوا تحابوا))

[البيهقي عن أبي هريرة]

ألف طريق في الاعتذار أحياناً، أيام أخطأت، سامحني، انتهى كل شيء، أنت أصلحت العلاقة بينك وبين الآخرين.

من لم يطع الله عز وجل ففي إيمانه خلل:

أيها الأخوة الكرام، قال:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أكثر من مئات الآيات تبدأ بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، يعني يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بكمالي ، يا من آمنتم بعلمي، بقدرتي، بحكمتي، برحمتي، هذا الأمر أمر نفذوه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

(سورة المائدة الآية: 3)

ولو على أنفسكم، لذلك (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فإن لم تطيعوا الله ورسوله فإيمانكم بالله فيه خلل، يعني ممكن واحد معه أزمة قلبية، هذا الطعام يفاقم هذه الأزمة ممكن تقنعه أنه أنت على وشك أزمة قلبية قاتلة، وهذا الطعام يزيد من أزمتك القلبية ممكن أن يأكل ؟ لا، لا يأكل.

المؤمن لا يعصي الله عز وجل و لو دُفعت له الملايين:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ما دمت قد آمنت بالله واحداً، وموجوداً، وكاملاً، وشرعه حكيم، ورحمن رحيم، وخلقك لجنة عرضها السماوات والأرض هذا العمل يحجبك عني يا عبدي، هذا العمل يقربك مني، هذا العمل سبب للتوفيق، هذا العمل سبب للخذلان.

إنسان يبيع أقمشة على الرصيف ما في أفقر من هذا قطعة قماش، يضع عليها عدة قطع قماش، كل واحدة بخمسين ليرة، دولار، جاءت واحدة دفعت له بالخطأ مئة دولار، وضعها بجيبه، بعد دقيقتين يريد أن يكمل لإنسانة أخرى وجد مئة دولار، في محل إلى جانبه قال له: يا عم الله يخليك، حتى أبحث عن صاحبة المبلغ، عينك على البضاعة، لحقها حصلها بالعصرونية، قال لها: أخت هذه مئة أنا أريد واحد، دعت له من قلبها، أعطاها المئة أخذ واحد، هذا البائع كان صرافاً، والصرافة في وقت سابق منعت كلياً، فهو احتار ماذا يعمل وجد إنساناً يعمل بالأقمشة، وليس عنده محل، قال له تشاركني ؟ قل له: أتمنى والله، خلال عشرة أيام أصبح صاحب محل تجاري بالحمدية بأرقى أسواق دمشق، والله عز وجل

أخذ بيده ، واشترى بيتاً وسيارة، وعاش ببحبوحة، هذا ماذا رأى لما أخذ المئة دولار ؟ رأى السكوت عليها يغضب الله، السكوت عليها هذا مال حرام.

قال لي شخص: والله القصة نفسها في مكان آخر، أقمشة، وبالدولار، وإنسانة غريبة سائحة، أعطته مئة قامت أعجبته، وضعها معه، أثناء عد أموالها نقص مئة اتصلت بالمخفر أحضروه أنكر، بعدها اعترف، أخذوا منه المئة، أراد أن يمشي، لا، إحالة على النيابة العامة، قام دفع خمسة آلاف حتى ألغى الإحالة، أكلت قتلة ودفع المئة، لو كان عنده رؤيا من الأول كان لحقها بالمئة.

قضية رؤيا يا أخوان، أنت تحضر درس علم تملك رؤيا إيمانية، لا تعصي الله لو دفعوا لك الملايين. هذا الذي غادر و أوصى جاره بزوجته، فخانه بها، هناك كلب أكله وقتله، فقال النبي الكريم: خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خير منه.

الأمانة غنى والخيانة فقر:

أنت عندما تحضر درس علم تملك رؤيا صحيحة، هذه الرؤيا عندما ترى موقفاً في معصية تقول

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

عندئذٍ ترى التوفيق، الأول كان أميناً، قام صار غنياً، النبي قال:

((الأمانة غنى))

[القضاعي عن أنس]

الأمين غني دائماً، موثوق لأن الكل يثق به، والمنحرف، إنسان تزوج حديثاً عنده زوجة شابة، يعمل موظفاً بمحل، يفتح من الساعة الثامنة للحادية عشرة حتى يأتي المعلم، كم بيعة وضعها بجيبه والله أهون، سبعمئة، خمسمئة، ألف، ماشي الحال كل يوم في خمسة أو ستة آلاف، هذا المعلم يفقد بضاعة، البضاعة لا تتناسب مع الغلة، هناك فقد بالبضاعة، فبعث واحد من أصدقائه يشتري حاجة الساعة التاسعة، قال له: تأتي الساعة الثانية عشرة ترجعها، قال له: طيب، جاء الساعة الحادية عشرة، قال له بعت شيئاً ؟ قال له ما أحد أتى صباحاً السوق بارد، الساعة الثانية عشرة جاء، قال له اليوم أخذتها، قال له اليوم ؟ قال له: نعم، متى أخذها ؟ قال له: الساعة التاسعة أخذتها منه، ذاب ذوبان، أعتقد ما في إنسان ما وسطه أن يبقى، طرده.

الأمانة غنى، والخيانة فقر، تضع بجيبك ؟.

تضع بجيبك ؟ تجد شركة استمرت خمس و ثلاثين سنة بالأمانة، والله هناك موظفون تقريباً كأنهم شركاء أصبحوا من أمانتهم، الأمانة غنى.

أنا أريد أن أفهم كلمة واحدة وأقولها لإخواني، عندما تعرف الله تملك رؤيا صحيحة لا تغلط، عندما تعرف منهج الله، القرآن، السنة، الله يريد سعادتك، يريد رقيك، يريد مكانتك، يريد راحتك النفسية، يريد زواجاً ناجحاً لك، يريد زوجة صالحة، يريد أولاداً أبراراً، استقم.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه الحاكم عن ثوبان]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (03-30): تفسير الآيتان 2-3 ذكرالله يدعو إلى الطمأنينة -والتقصير في الواجبات يدعو إلى الخوف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من ورود صفات المؤمنين والمنافقين في القرآن لمعرفة الإنسان مستوى إيمانه:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والثالثة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

أول نقطة في شرح هذه الآيات، ما الحكمة من أن يرد الله في القرآن الكريم صفات المؤمنين، وصفات المنافقين، وصفات الكافرين ؟ الحقيقة أن الله يورد لنا في كتابه الكريم من صفات المؤمنين كي يعرف كل منا نفسه، أين هو من هذه الصفات ؟ هل هي منطبقة عليه أم ليست منطبقة عليه ؟ أداة تعريف بمستوى إيمانك.

أحياناً تعطى ورقة أسئلة ألف سؤال، خمسمئة سؤال، مئة سؤال، تجيب عنها بنعم أو لا، بعد أن تنتهي تعطى الإجابة الصحيحة، فأنت بكل بساطة تضع لنفسك علامة، بكل بساطة.

فكأن الله سبحانه وتعالى قال لك: يا عبدي اعرض نفسك على هذه الآيات، فإن كانت منطبقة عليك فهنيئاً لك، فأنت مؤمن، وإن كانت ليست منطبقة عليك فانتبه، هذه الحقيقة المرة ينبغي أن تعرفها قبل فوات الأوان.

وإن كان هناك صفات تنطبق عليك وأخرى لا تنطبق عليك فتلافى السلبيات من هذه الصفة.

هذه أحد الوسائل الفعالة كي تكشف نفسك.

على كل إنسان ألا يضع نفسه فوق ما تستحق:

الإنسان بشكل أو بآخر راضٍ عن عقله وراضٍ عن إيمانه، لكن غير راضٍ عن رزقه، يتشكى رزقه دائماً، لكن لو كان منطقياً وكان واقعياً، يجب ألا يضع نفسه فوق ما يستحق، أنا أنصح أخوتي الكرام وأنا معكم، أن نتهم أنفسنا دائماً.

أحد التابعين يقول: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله.

بل إن عملاق الإسلام الذي أثنى عليه رسول الله قال: لو كان نبي من بعدي لكان عمر، عمر بن الخطاب جاء إلى سيدنا حذيفة، وقال: يا حذيفة بربك اسمي مع المنافقين ؟!.

لا تمدح نفسك، اتهم نفسك، لا تحابي نفسك، عرفها الحقيقة، بالغ في اتهامك لنفسك تكن على صواب، أما هناك أشخاص والعياذ بالله يبرئ نفسه من أخطاء ثابتة فإذا وقع أخوه في خطأ طفيف أقام عليه الدنيا، لا، كن منطقياً.

الله تعالى أورد صفات المؤمنين لتكون هدفاً و مقياساً لنا:

إذاً أراد الله عز وجل من إيراد صفات المؤمنين أن تكون مقياساً لنا، هناك هدف آخر: أراد الله من إيراد صفات المؤمنين أن تكون هدفاً لنا، هذا هو الهدف، مقياس وهدف، قس نفسك واسعَ إلى هذا الهدف، لذلك مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة الآية: 121)

يقرأ القرآن وفق قواعد اللغة، و إن أمكن أن يقرأه وفق قواعد علم التجويد، ثم يفهمه من خلال التفاسير، ثم يتدبره بعرض نفسه على كل آية، ثم يطبقه.

إذاً نحن أمام آية تصف المؤمنين بخمس صفات:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

إنما أداة قصر وحصر فما لم يكن المؤمنون إخوة فليسوا بمؤمنين:

لكن لابدّ من لفت النظر إلى كلمة

(إِنَّمَا)

أداة قصر وحصر.

هناك مثل شهير في البلاغة إذا قلنا إنما شوقي شاعر، يعني شوقي ليس له اختصاص آخر، ليس له اهتمام آخر، ليس له صفات أخرى، شاعر فقط، إنما، وإذا قلنا إنما الشاعر شوقي، أي لا يوجد شاعر غيره، إنما أداة قصر وحصر.

(الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

كلام، وقد يكون غير إخوة، أما:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

ما لم يكن المؤمنون إخوة فليسوا بمؤمنين، بالضبط نعبد إياك، أي نعبدك، وقد نعبد غيرك، أما لما جاءت إياك قبل نعبد صار هناك قصر وحصر.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة الآية: 5)

أي لا نعبد غيرك، القصر والحصر يستفاد من النفي والاستثناء، ما شوقي إلا شاعر أو إنما شوقي شاعر، أو الشاعر شوقي، إما بالتقديم والتأخير، أو بالنفي والاستثناء، أو بإنما.

فالله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أي ما لم يكن انتماء المؤمنين إلى مجموع المؤمنين فليسوا مؤمنين، من إنما.

من صفات المؤمنين:

1 – الخوف من الله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)

من هم ؟ الصفة الأولى:

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

(وَجِلَتْ)

أي اضطربت اضطراب خوف، أي الذي لا يخاف من الله إنسان غبي وأحمق.

مرة كطرفة طالب من طلاب التعليم الثانوي، وجهتُ الطلاب إلى الخوف من الله فقال لي طالب: أنا لا أخاف من الله، بحمق، قلت له: أنت بالذات معك حق، فانزعج و قال: لماذا ؟ قلت له: الفلاح يأخذ معه ابنه عمره سنتين على الحصيدة، يمشي جانب الابن ثعبان، طوله اثنا عشر متراً، لا يخاف منه، لأنه إدراك لا يوجد، خوف لا يوجد.

فكل إنسان لا يخاف من الله أحمق، غبي، ضيق الأفق، قصير النظر.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

يا عائشة ! (تمرة اشتهاها) لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها.

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة يونس)

(إِنِّي أَخَافُ)

بلغ يا محمد، أنت أنت، سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، صفوته من أنبيائه، سيد الأنبياء، سيد ولد آدم، أوتي الوحي، أوتي القرآن، أوتي المعجزات، أوتي الفصاحة، أوتي البيان، أوتي الرحمة، هو هو نفسه، قل لهم:

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

علامة إيمانك أنك تخاف من الله، بل:

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

اضطرب، خاف، لذلك ذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل جاثم على صدره، وكلما عظم الذنب عندك صغر عند الله، وكلما صغر الذنب عندك كبر عند الله.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: إذا ذكر الله فأمسكوا.

قال لك واحد: من أجل الله، ترجاك رجاءً حاراً، إذا أنت مؤمن ؟.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

على الإنسان أن يخاف من الله إن كان مقصراً في الحقوق أو العبادات أو الطاعات:

أيها الأخوة، لكن هناك من يقول: كيف نوفق بين هذه الآية وبين آية ثانية:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

فكيف نجمع بين هذه الآية وبين الآية موضع درسنا اليوم ؟

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

قال العلماء: لا سمح الله ولا قدر أنت حينما تكون مقصراً في أداء الحقوق، أو في أداء العبادات، أو مقصراً في الطاعات، أو عليك حق، أو عليك واجب ما أديته، أنت حينما تكون هذه الحالة يجب أن تخاف من الله خوفاً شديداً.

سيدنا عمر يمشي في الطريق رأى أطفالاً يلعبون، فلما رأوه لشدة هيبته تفرقوا، إلا واحداً منهم لفت نظره، قال له: يا غلام ! لِمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال له: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك، هذا الطفل رسم منهج أمة.

أنت بمنصب حساس، إذا جاءك المذنب مطمئناً فعملك فيه خلل كبير، وإن جاءك البريء خائفاً فعملك فيه خلل كبير، ينبغي أن يأتيك يا صاحب المنصب المذنب مرتعد القلب، وينبغي أن يأتيك البريء مطمئناً، لا العكس، قال لك: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

على الإنسان ألا يخاف إلا من ذنبه الذي يستوجب العقاب من الله :

مرة ثانية: أخوانا الكرام، لا يخف أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه، كل شيء بيد الله، لا تخاف إلا من ذنبك الذي يستوجب العقاب من الله.

يقول: هناك نقص أمطار، هناك شح، هناك جفاف، هناك فقر، أهل الدنيا يرسمون لك مستقبلاً أسوداً، لكن المؤمنين لا يعبؤون بكل هذه التشاؤمات، وهذه الإيحاءات، مؤمن ما دمت مع الله فالله معك.

أوضح آية في هذه المعنى سيدنا هود قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

يعني إذا أنت أمام وحوش كاسرة، مخيفة، مفترسة، فتاكة، لكنها مربوطة بأزمة محكمة، بيد جهة قوية، وحكيمة، ورحيمة، هل تخاف منها ؟ أما أخاف منها إذا قصرت مع ربي، فإذا قصرت مع ربي أرخى لأحدها الزمام فوصلت إليّ، يجب أن تخاف من الله، متى ؟ إذا أذنبت، إذا أذنبت خوفك طبيعي، خوفك طبيعي وحالة سوية، وإن لم تخف فهناك غباء، و حمق، و جهل كبير.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

تحبون أن أعطيكم صورة مشرقة لراعي، امتحنه سيدنا عبد الله بن عمر، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، قال: ليست لي ، قال: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

الوضع الطبيعي أن يخاف الإنسان إذا أخطأ ويطمئن إذا أحسن:

أنت إذا قلت أين الله، فأنت مؤمن ورب الكعبة، والذي عنده أشرطة، محاضرات ، وكومبيوترات، وفضائيات، وعنده إطلاعات، وليس مستقيماً والله ما وضع يده على الدين إطلاقاً، أنت إنسان مؤمن إذا قلت أين الله ؟.

إذاً الإنسان إذا قصر، في عبادة، في طاعة، في واجب، وذكر الله ينبغي أن يضطرب، أما إذا كان مستقيماً، وبذل أقصى جهده ليكون مستقيماً تنطبق عليه الآية الكريمة:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

وقد جُمع النموذجان في آية واحدة:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية: 23)

والوضع الطبيعي أنك تخاف إذا أخطأت وتطمئن إذا أحسنت.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

2 ـ ازدياد إيمان الإنسان بالتفكر بآيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية:

أيها الأخوة، الصفة الثانية:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

الله له آيات كونية، وله آيات تكوينية، وله آيات قرآنية، آياته الكونية خلقه، وآياته التكوينية أفعاله، وآياته القرآنية كلامه.

يعني غرق الباخرة التيتانيك لأن في نشرة صناعتها "إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة"، فغرقت في أول رحلة، وأكابر الأوربيين، الطبقة المخملية، كبار الأغنياء كانوا على متنها، قدروا حلي النساء بالمليارات، وغرقت في أول رحلة، غرق هذه الباخرة من أفعال الله التكوينية، فالله عز وجل نعرفه بأفعاله، وانتصار الضعاف العزل، العشرة آلاف أمام أكبر جيش بالمنطقة أيضاً هذا من أفعاله التكوينية، كل ما يحدث من فعل الله، أحياناً هناك حدث إيجابي يشف عن عظمة الله، و حدث سلبي يشف عن

عظمة الله.

من ازدادت معرفته بخلق الله ازداد إيماناً بالله:

أيها الأخوة، آياته التكوينية أفعاله، آياته الكونية خلقه، الشمس، القمر، النجوم، البحار، الأنهار، الأسماك، الأطيار، الكواكب، الخضراوات، جسمك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

شعرك، أنفك، نطقك، كلامك، عضلاتك، قلبك، رئتاك، كل شيء في الكون يدل على الله.

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

لذلك قالوا: الإيمان يزيد وينقص، أنت مؤمن بالله، لكن سمعت شيئاً دقيقاً جداً عن خلق الله، ازددت إيماناً، سمعت شيئاً آخر، فكلما فكرت في آية كونية، أو تكوينية، أو قرآنية، وكلما ازدادت معرفتك بخلق الله، ازددت إيماناً بالله لذلك، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: 67)

إذاً الإيمان يزيد، وإذا أردنا أن نفصل إذا الإيمان يقينيات فهو ثابت ويزيد، وإذا الإيمان اتصال بالله فالاتصال يزداد وينقص، إيمانك يزداد بالحقائق، وينقص بالبعد عن الله، في ضعف بإيمانك، فالإيمان يزداد وينقص، في بعض الأحاديث:

((جددوا إيمانكم))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

دائرة المحسوسات و المعقولات:

أخوانا الكرام، هناك موضوع دقيق جداً، هو أن هناك دائرة أنا أسميها دائرة المحسوسات، يوجد شيء تراه بعينك، شيء تلمسه بيديك، شيء تشم رائحته، شيء تتذوقه بلسانك، كل شيء متعلق بالحواس الخمس، أو باستطالات الحواس الخمس، هذا يقع في دائرة المحسوسات، وأداة اليقين بها الحواس الخمس، و الإنسان و غيره في هذا الموضوع سواء.

أحياناً دابة ترى حفرة أمامها تقف، الشمس غابت تعود إلى حظيرتها، هناك معرفة حتى عند الحيوانات حسية، هذه لا تعنينا الآن، لكن هذه دائرة، الحسيات أداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها الميكروسكوب، والتليسكوب، أداة اليقين بها الحواس الخمس واستطالاتها.

أما الدائرة الثانية: دائرة المعقولات، المعقولات شيء غابت عينه وبقيت آثاره، أنت خلفك حائط رأيت دخاناً في أعلى الحائط، قلت لا دخان بلا نار، أنت لم ترَ النار، لكن رأيت آثار النار، ما دامت النار قد غابت عنك، وبقيت آثارها أداة اليقين بهذه الظاهرة العقل، العقل يحكم بوجود نار وراء الحائط، لأنك رأيت آثارها، لكن إذا جئت وراء الحائط رأيت النار بأم عينك، نقول هذا عين اليقين، فإذا اقتربت من النار ولفحك وهجها، فأنت في حق اليقين، هناك يقين استدلالي بعقلك، لا دخان بلا نار، وهناك عين اليقين، رأيتها بعينك، وهناك يقين أبلغ من ذلك اقتربت منها فلفحك وهجها، فأنت بين علم اليقين الاستدلالي، وبين علم اليقين الشمولي، وبين حق اليقين التفاعلي.

إذاً الإنسان كما ترون آيات الله خلقه، وأفعاله، وكلامه،

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

من علامات قيام الساعة أن يتنكر الإنسان لمن كان سبب وجوده ولمن رباه :

أخوانا الكرام، هناك نص مهم جداً في هذا الموضوع:

((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بازراً للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال: أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورُسُلِهِ، وتؤمنَ بالبعث الآخر، قال: يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال: الإسلام أن تعبُدَ الله، لا تُشْرِكُ به شيئاً، وتُقيمَ الصلاةَ المكتوبة، وتؤدي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تره فإنَّه يراك، قال: يا رسولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلَمَ من السَّائل، ولكن سأُحَدِّثُكَ عَنْ أشْراطها: إذا ولَدت الأمةُ ربَّتها))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري]

الأمة ؛ الفتاة الشابة ـ ولدت فتاة، تقول الفتاة عن أمها، أمها جاهلة، تكون أمها عاقلة ومؤمنة، تؤدي الصلوات الخمس، تعرف الله، تربي أبناءها، ابنتها درست بالجامعة، تقول أمي دقة قديمة، لا تفهم شيئاً، عندما يتنكر الإنسان لمن كان سبب وجوده، ولمن رباه هذه من علامات قيام الساعة، أن:

((يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

((إذا ولَدت الأمةُ ربَّتها))

من هذا ؟ يكون شخصاً متقدم بالسن، يقول: هذا يعمل عندنا فإذا هو والده، خجل بأبيه.

لذلك:

((إذا ولَدت الأمة ربَّتها، وإذا كانت العُرَاةُ الحفاةُ رُؤوسَ النَّاس، فذاك من أشراطها، وإذا تَطاوَلَ رِعَاءُ البَهُم في البنيان))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري]

كنت ببلد خليجي فيه أعلى بناء بالعالم، فيه ست و ثمانون طابقاً، قال: هناك برج أعلى، عجيب ! قال: برج الذين فقدوا أعمالهم، لو وقفوا فوق بعضهم لكانوا أعلى من البرج.

دائرة الإخباريات:

أيها الأخوة، الآن الدائرة الأولى دائرة الحواس، الدائرة الحسية، أداة اليقين بالمحسوسات الحواس الخمس واستطالاتها، الدائرة الثانية: الدائرة العقلية، أداة اليقين لشيء غابت عينه، وبقيت آثاره. يا ترى في مطر الآن ؟ نعم، هل ترونها ؟ لا، نسمع صوتها بالعقل، غابت عين الشيء عن أبصارنا بقيت آثاره، هذا اختصاص العقل، شيء غابت عينه بقيت آثاره، وطبعاً أكبر اختصاص له، لأن ذات الله لا نراها.

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)

(سورة الأنعام الآية: 103)

غابت ذاته العلية بقيت آثاره، والكون كله آثاره، هذه الدائرة الثانية.

والدائرة الثالثة: دائرة الإخباريات، شيء غابت عينه وآثاره، كل شيء غابت عينه وآثاره، لا في أثر، ولا في عين.

مثلاً: هل تستطيع أن تقتنع بعقلك أن هناك جن ؟ لا، ملائكة ؟ لا، هذه إخباريات الله أخبرنا بها، أخبرنا بالملائكة، أخبرنا بالصراط، أخبرنا بيوم القيامة، فالقرآن طافح بالإخباريات، أو بشكل أو بآخر أي شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، للتقريب:

أنت عندك بقالية، وبحاجة إلى ميزان، واشتريت ميزاناً غالياً جداً، الآن هناك موازين معهم مئة ذاكرة، تبيع زيتون تكبس 13، فأي كمية زيتون الميزان يضرب السعر بالغرامات يعطيك الثمن، هناك وزن دقيق مع ذواكر، مع شاشة، مع وثيقة، هذا الميزان مصمم لبقالية من خمسة غرامات لخمسة كيلو، فأحب شخص أن يزين سيارته بهذا الميزان، وضعه على الأرض ومشى فوقه فكسره، يقول هذا الميزان سيئ ؟ لا، أنت استخدمته لغير ما صنع له، أما السيارة شركة محترمة جداً، تفتح غطاء

المحرك تجد لوحة مكتوب وزنها 1358 كيلو، هذا الميزان يعجز عن وزن السيارة، لكن الشركة المصنعة للسيارة أخبرتك بوزنها.

أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرنا الله تعالى به:

الحقيقة الدقيقة: أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به، هذه الدائرة الثالثة إخباريات، أخبرك عن يوم القيامة، عن الجن، عن الملائكة، عن الصراط، عن الحوض، أخبرك عن ذاته العلية، هذه كلها إخباريات، وأنا أنصح أخوتنا الدعاة ألا يتحدثوا بالإخباريات إطلاقاً مع من اهتز الإيمان بالله في قلوبهم وعقولهم، لأنه لا يوجد طريق، يعطي حجة قوية هات دليل، ما في دليل، الدليل إخباري.

يعني أنت عندك صديقك، وهناك خزانة لها باب مغلق، وعاشرته ثلاثين عاماً ما كذب في حياته كذبة واحدة، وسألته ماذا يوجد هذه الخزانة ؟ قال لك: حسابات قديمة، انتهى، هذا دليل إخباري، قيمة هذا الدليل من صدق المخبر.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

مخاطبة الله عز وجل المؤمنين بفروع الشريعة والناس عامة بأصول الشريعة:

أخوانا الكرام، هناك تلميحات لطيفة.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

هل هناك شخص من الأخوة الكرام رأى هذا الشيء ؟ ولا شخص، ولا أنا رأيته، لكن الله قال لك: يجب أن تأخذ إخباري وكأنك رأيته، هذا الدائرة الثالثة، لا تناقش إنساناً بالدائرة الثالثة إذا كان إيمانه بالله ضعيف، ابقَ في الكون، بأدلة علمية، ابقَ في أحقية القرآن، بأدلة الإعجاز، ابقَ في أدلة النبي العدنان بسبب القرآن ، يمكن أن تؤمن بالله وبرسوله وبكتابه بالعقل، وهناك أدلة قاطعة، أما الإخباريات الأخرى هذه للمؤمنين.

لذلك الله عز وجل خاطب المؤمنين بفروع الشريعة، وخاطب الناس عامة بأصول الشريعة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

التفريق بين الكفر و المعصية:

شيء آخر: يجب أن نفرق بين الكفر والمعصية، إنسان لا يصلي عن تقصير، عن إهمال، تطالبه بالصلاة يقول لك: الله يتوب عليّ، والله أنا مقصر، ادعُ لي الله يعينني على الصلاة هذا لا يقال له كافر، هذا يقال له عاصٍ، إذا شخص قال لك لن أصلي ؟ لمن أصلي ؟ مثلاً، هذا كافر، إذا أنكر الإنسان فرضية الصلاة وأحقية الصلاة فهو كافر، أما إذا عبر عن تقصيره في أدائها فهو عاصٍ.

على كلٍ هناك مجموعة قواعد أضعها بين أيديكم، ما كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه، ألم يحدثنا النبي عن إنسان ضلت عنه ناقته فأيقن بالموت المحقق، فصار يبكي ويبكي ثم أخذته سِنة من النوم، فلما استيقظ رأى الناقة أمامه، اختل توازنه، قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، هذه كلمة الكفر، هل هو كافر؟ لا.

لذلك قالوا: ما كل من وقع عليه الكفر وقع الكفر عليه، هذه واحدة.

الشيء الثاني: لا نكفر بالتعيين، إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تقول فلان كافر، قل من قال كذا فقد كفر، من فعل كذا فقد كفر، من اعتقد كذا فقد كفر، لا تكفر بالتعيين.

شيء آخر: لعل هذا الذي ظننته على ما تتوهم تاب الله عليه، وتاب هو إلى الله وعاد عن خطئه، لا تُنصب نفسك وصياً على الناس.

المؤمن خيّر لا يضن بمعلوماته و يحب الناس جميعاً:

أيها الأخوة،

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

يتوكل على القوي، والعليم، والخبير، والغني، والمحب، لن يتوكل على الله إلا المؤمن، والمؤمن المستقيم.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

أي يتصل بالله، والصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، لا خير في دين لا صلاة فيه، الفرض الوحيد الذي لا يسقط بحال هو الصلاة.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

ينفق من وقته، من علمه، من ماله، من جاهه، من خبرته،

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

لي قريب يعمل في الحلويات، دخل لعنده إنسان غير مسلم من أقصى البلاد، من الحسكة، قال له تعلمني صنع الكاتو ؟ قال له: تفضل، طبخ طبخة أمامه، كتبها، قال له: اعمل طبخة ثانية أمامي، عمل طبخة أمامه، يقسم لي بالله لثلاثين عاماً يأتيه كل سنة مع هدية ثمينة، قال له: الله أكرمني بسببك.

المؤمن خير، لا يضن بمعلومات، يحب الناس جميعاً، وأحياناً تعمل عملاً طيباً مع إنسان غير مسلم يحب الدين كله من أجلك، يحب الإسلام من أجلك.

لذلك للمؤمن صفتان أساسيتان:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(أولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (04-30): تفسير الآيات 5 - 10، أنواع النصر - كيف يستحق المؤمن النصر على أعدائه ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-04-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

علامة إيمان المؤمن أنه راضٍ عن الله مؤمن بحكمته:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

الآيات التي سوف تكون موضوع هذا الدرس تنطلق من آية محكمة وهي قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 215)

المؤمن من علامة إيمانه أنه راضٍ عن الله، راضٍ عن قضائه وقدره، مؤمن بحكمته، مؤمن بعلمه، مؤمن برحمته، مؤمن بعدالته.

تعلق إرادة الله عز وجل بالحكمة المطلقة:

لذلك أي شيء وقع المؤمن يعتقد أن الله أراده، ولأن الله أراده إذاً هو ينطوي على حكمة علمها من علمها، أو جهلها من جهلها، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

هذه المقولة التي أرددها كثيراً لو أن الإنسان عقلها، ووصل إلى أبعادها كاملة، لما شعر بأي ألم لما يجري، يتألم ولكن يعلم علم اليقين أن الشيء الذي وقع سمح الله به، ولأن الله سمح الله به فهو ينطوي على خير الآن لم يكشف لكن بعد حين يكشف.

وانطلاقاً من هذه المقولة أؤكد لكم أنه ما من طاغية على وجه الأرض يسمح الله له أن يكون طاغية إلا و يوظف طغيانه لخدمة دينه، والمؤمنين، من دون أن يشعر، ومن دون أن يريد، وبلا أجر، وبلا ثواب.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

ما يقع في الأرض ما كان له أن يقع لولا أن الله سمح بوقوعه:

لو أردنا أن نصرف هذه الآيات على واقعنا ؛ أحداث الحادي عشر من أيلول مؤلمة جداً لأنه جاء بعدها إيذاء شديد للمسلمين، ولكن الله يعلم أنها تنطوي على حكمة لو كُشفت بعد حين لقلنا: إن هذه التداعيات التي جاءت بعد الحادي عشر من أيلول بركات الحادي عشر من أيلول، الدين كان في دائرة التعتيم فأصبح في بؤرة الاهتمام، وكان ورقة خاسرة في أيدي الأقوياء فأصبح ورقة رابحة.
أيها الأخوة، الذي يقع في الأرض ما كان له أن يقع لولا أن الله سمح بوقوعه، ولأن الله سمح بوقوعه ينطوي على حكمة علمها من علمها، وجهلها من جهلها، أي الشر المطلق لا وجود له في الكون، لأن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، هناك شر نسبي.
فتح البطن لمن أصيبت عنده الزائدة بالتهاب حاد، فتح البطن، والتخدير العام ، واستئصال الزائدة على الشبكية، أما بالمؤدى هذه الزائدة الدودية لو لم نستأصلها لكان من الممكن أن تودي بحياة الإنسان.
فلذلك هذا هو الإيمان، هناك حكمة ما بعدها حكمة، وحينما تؤمن أن هناك حكمة ما بعدها حكمة لا يعني أن تستسلم، لا يعني أن ترضى بشيء لا يحتمله المسلمون، يعني أن تقاوم لكن لا تظن أن الله خلق الخلق وتركهم هملاً، قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

ما من محنة تصيب المسلمين إلا وراءها منحة من الله تعالى:

مرة ثانية أعيد على أسماعكم هذه المقولة: كل شيء وقع أراده الله، أو كل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، معنى بالحكمة: أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، أو أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، وحكمة الله متعلقة بالخير المطلق لذلك:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران الآية: 26)
لم يقل والشر، إيتاء الملك خير، ونزعه خير، وإعزاز الإنسان خير، وإذلاله خير، إنه يُذل ليعز، يخفض الله ليرفع، يمنع ليعطي، يضر لينفع، هذه الكلمات ينبغي أن تلفظ معاً ؛ الضار النافع، يضر لينفع، الخافض الرافع، يخفض ليرفع، المعز المذل، يُذل ليعز.

لذلك كل شيء يصيب الإنسان في الدنيا محض خير، هناك خير ظاهر.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً)

(سورة لقمان الآية: 20)

وهناك خير باطن، وباطنه المصائب، وصدقوا أيها الأخوة ما من محنة تصيب المسلمين إلا وراءها منحة من الله، وما من شِدة تحيط بهم إلا وراءها شَدَة إلى الله.

آيات اليوم تنطلق من قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

على كل إنسان أن يثق أن الذي وقع أراده الله و هو متعلق بحكمته و خيره المطلق:

صدقوا أيها الأخوة، لو أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ساق لهذا الإنسان حكمة ما أصابه في الدنيا، أنا أقول لكم وهذا محض إيماني: إن لم يذب كالشمعة محبة لله لكان في هذه الحقيقة شك.

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

النعم الباطنة هي المصائب، إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تفهموا من كلامي أن ترضى بالمصيبة، أن ترضى عن الله بها، لكن أن تقاومها، دخل لص للبيت تقول سبحان الله هذه مشيئة الله، مستحيل ! أنا لا أقصد هذا إطلاقاً، لكن أقصد أن تثق أن الذي وقع أراده الله وأنا عليّ أن أرفض هذا الذي وقع. إذا كان في عدوان على بلدي، أرفض إلا أنه لا أكفر، يا رب لماذا خلقتهم أقوياء ونحن ضعفاء واحتلوا بلادنا ؟ هناك حكمة بالغة.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية: 4)

أرادنا الله أن نكسب شرف مقاومة العدو، هو قادر أن يجعلهم أشلاء بثانية واحدة،

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

الحق لا يقوى إلا بالتحدي وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية:

بشكل أو بآخر أنتم مؤمنون معي قطعاً أن كل شيء أراده الله وقع، وأن الله على كل شيء قدير، وأن ما سوى الله ممكن، أي ممكن أن يقع، وممكن ألا يقع، ممكن أن يقع على ما وقع، أو أن يقع على خلاف ما وقع.

أليس من الممكن أن يجعل الله هؤلاء الأعداء أعداء الدين في كوكب آخر ؟ لا نرى شيئاً، لا يوجد عندنا مشكلة بالأرض، لا في بدر، ولا في أحد، ولا في الخندق، ولا في هذه الحروب الطاحنة، الطرف الآخر الكافر بكوكب آخر وانتهى الأمر، بل من الممكن أن يكون الطرف الآخر بقارة أخرى، قارة خاصة للكفار، أو بحقبة أخرى ولكن شاءت حكمة الله أن نكون معاً في مكان واحد، وفي زمان واحد، قال: لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، كلام دقيق، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

آخر أحداث مهمة ألمت بنا وحدت المسلمين بمشاعر موحدة و كشفت إجرام أعدائهم:

لو أردنا أن تستعرض آخر أحداث مهمة ألمت بنا "حرب غزة "، طبعاً سلبياتها واضحة، رآها الناس رأي العين، الأطفال الذين قتلوا، النساء، هدموا عشرين ألف بيت، لكن من يخطر في باله أن هذه الأحداث جمعتنا جميعاً بمشاعر موحدة ؟ وصار بذل لا يعلمه إلا الله، هذه الأحداث كشفت إجرام أعدائنا، والله لو دفعنا مليارات لا نستطيع أن نشوه صورة الأعداء كما شوهوها بأنفسهم، ثم قلبت المعادلات، كان في مسلمات، في جيش لا يقهر، فئة قليلة ضعيفة مستضعفة عشرة آلاف، تحت الأرض، أكبر جيش بالمنطقة، أعتى جيش، أسلحة منوعة، والعالم كله يغطي هذا العدوان، كله ساكت، فالله عز وجل أرانا قوته، أرانا أن يا عبادي أنا موجود، الأمر بيدي، بأي لحظة المعادلات كلها تخفق. لذلك المؤمن الصادق يتحرك، ويسعى، ولكن لا يكفر، لا ييأس، الله عز وجل لا يتخلى عنا.

كراهية المسلمين القتال لتوهمهم أن هذه الحرب ليست في صالحهم و ليس لقلة إيمانهم:

لذلك الآيات اليوم:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

المؤمنون لماذا هم كرهوا ؟ قطعاً وقولاً واحداً الصحابة ما كرهوا القتال، ولكن لم يكن هناك توازن، أو لا يوجد تكافؤ بينهم وبين الأعداء، الأعداء كُثر، آلاف، بأسلحة، بسيوف، برماح، بقوة، والصحابة ضعاف مستضعفون، فقراء، لا يوجد غير رأسين من الخيل فقط معهم، فالصحابة ما تأبوا أن يقاتلوا، لكن توهموا أن هذه الحرب ليست في صالحهم، هذه الكراهية لا تنفي عنهم الإيمان الكبير، ولا تنفي

عنهم الرغبة في البذل والتضحية، لكن تمنوا أن يكون اللقاء في مجال آخر، وفي مناسبة أخرى.

طبعاً هناك قافلة لقريش، فيها أربعمئة إنسان يحرسون القافلة، فأراد المسلمون أن يتعرضوا لهذه القافلة، هم ثلاثمئة، ومع القافلة أربعون رجلاً، الانتصار عليهم سهل جداً، ومعهم بضاعة كثيرة جداً، فإذا أخذوا هذه البضاعة كسبوا غنيمة كبيرة، وانتصروا على أربعمئة شخص، قضية سهلة جداً، هم أرادوا أن يعترضوا تلك القافلة ولكن الله لم يشأ ذلك، لو كان الذي تمنوه واقعاً كانوا كأنهم قطاع طرق اعترضوا القافلة ونهبوا البضاعة، شأن المسلم أكبر بكثير من ذلك، أراد الله أن ينصرهم على صناديد قريش، على أقويائهم، على فرسانهم، على زعمائهم، على هؤلاء وهم على خيولهم، وسيوفهم، ورماحهم، ذاك النصر، أما (f16) على طفل ! كالذي حدث أعتى الأسلحة من أجل طفل وامرأة، أو هدم وليست قلعة، بيت عادي، انتصار عجيب، انتصرتم على ماذا ؟ على هدم بيت مدني، على قتل طفل، على قتل امرأة.

فلو أن الصحابة تمنوا أن ينتصروا على هذه القافلة، ويأخذوا البضاعة فهذه الغنائم و هذا العمل لا يليق بهم، ولا يرفع شأنهم، بل بالعكس كأنهم قطاع طرق، وكأنهم نهبوا البضاعة لقريش، والله ما سمح لهم بهذا أبداً، رأوا العملية سهلة عليهم، أما أن يواجهوا قريشاً بأكملها بعدتها، بعتادها، بصناديدها، بفرسانها، فهذا شيء فوق طاقتهم، أو أنهم توقعوا أنهم لن ينتصروا عليهم، الفرق كبير جداً، لكن يقول الله عز وجل:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

إمداد المؤمنين بالملائكة في بدر:

أيها الأخوة، الله عز وجل قال:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

هم خرجوا لملاقاة قريش، لملاقاة جيش، لملاقاة ألف مقاتل، ثلاثمئة بلا رواحل للمواجهة، أسلحة فتاكة، رماح، وخيول، وقوة، وبطش، وحقد، لكن الله عز وجل في بدر أمدهم بالملائكة.

ومهدت لكم في درس سابق من أن الأشياء التي نعتقدها على أصناف ثلاثة:

صنف حسي أداة اليقين به الحواس الخمس، واستطالاتها، كالتلسكوب، والميكروسكوب.

وصنف عقلي أداة اليقين به العقل، لشيء غابت عينه وبقيت آثاره، كالكهرباء، وعمل المكيفات بالكهرباء، يا ترى هل يوجد كهرباء في المسجد ؟ طبعاً تكبير الصوت بالكهرباء، وعمل المكيفات

بالكهرباء والإضاءة بالكهرباء، فنحن أمام آثار الكهرباء، لا أمام ذاتها، فأي شيء غابت عينه وبقيت آثاره أداة اليقين به العقل.

لكن الملائكة من يملك دليلاً علمياً على وجود الملائكة ؟ لا يوجد دليل، لا الملائكة، ولا الجن، ولا اليوم الآخر، ولا الصراط، ولا الميزان، ولا الحوض، لا يوجد شيء، إنها أخبار أخبرنا الله بها، فالدائرة الثالثة دائرة الإخباريات، فالله عز وجل أخبرنا أنه يمدنا بالملائكة.

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال)

أردف فعل ماض، يردف مضارع، مردف، مردَف، المردف يأتي أولاً والمردَف يأتي ثانياً، فجعل الله الملائكة في المقدمة،

(أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أردفوكم وراء ظهورهم، هم في المواجهة.

الاستقامة والصبر والإيمان أسلحة يملكها المؤمن للقضاء على قوة العدو بقدرة الله:

صدقوا أيها الأخوة والله الذي لا إله إلا هو كم تتحدثون عن قوى الغرب، عن صواريخه العابرة للقارات، عن قنابله العجيبة، العنقودية، الانشطارية، الحارقة، الخارقة ، أشعة الليزر، كل هذا الذي تسمعونه الله تعالى يبطل مفعوله باستقامتنا، وصبرنا، وإيماننا.

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: 120)

قرآن، كلام الواحد الديان، كلام خالق السماوات والأرض،

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أي هم أمامكم.

أيها الأخوة،

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

هم تمنوا أن يواجهوا القافلة، القافلة فيها ما يقدر بأربعين شخصاً، فيها بضائع ثمينة جداً، أما أن يواجهوا قريشاً بأكملها، بصناديدها، بأبطالها، بقوتها، بغطرستها، بحقدها، بلؤمها، فكأن الأمر شبه مستحيل.

شيء طبيعي بالإنسان لو قلنا لك: واجه دولة عظمى و هو لا يملك شيئاً أمامها، شيء طبيعي لأن الحياة المادية تشعر الإنسان بأن القضية صعبة جداً.

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخ الكريم، يجب أن تؤمن أن أحداثاً كثيرة ألمت بك، ولعلها آلمتك، لكنك إذا تعمقت في فهمها وجدت فيها خيراً لا يعلمه إلا الله، كالذي يحصل للمسلمين اليوم، بدأت صحوة كبيرة جداً تنبهنا إلى ماضينا، إلى ديننا، إلى قوتنا، بدأت صحوة تنبه إلى حقد الآخرين، إلى جريمتهم، إلى لؤمهم.

على كل مؤمن أن يستسلم لإرادة الله و قوته:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

(سورة الأنفال)

الطائفة الأولى قافلة، معها أربعون شخصاً، ومعهم بضائع كثيرة، الله عز وجل وعد المؤمنين أن إحدى الطائفتين لكم، أنا سأنصركم في إحدى الطائفتين، إما القافلة و إما مواجهة قريش بأكملها، الصحابة بفعل بشريتهم وجدوا القافلة أغنى (أربعون شخصاً)، أما مواجهة قريش فشيء فوق طاقتهم.

لذلك:

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

قال تعالى:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ)

إن جاءت قريش برماحها، وسيوفها، وفرسانها، وصناديدها، وأبطالها، هذه الطائف

(ذَاتِ الشَّوْكَةِ)

المسلحة، أما القافلة طائفة ليست ذات شوكة.

لذلك:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ)

لكن الله يريد أن يظهر آياته لكم، أنا سأنصركم على قريش، بكل ثقلها، بكل قوتها، بكل أسلحتها، بكل أبطالها، بكل صناديدها، بكل فرسانها.

(وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

أي هزمهم هزيمة نكراء، كيف أن العدو وُضِع في المنطقة كعصا غليظة يستخدمها الغرب، في السابق كلما أشار له الغرب إشارة افتعل حرباً، واكتسح أرضاً، ونهب ثروة، وأنهى الحرب بساعات، إذاً هو العصا الغليظة، لكن في عام 2006 و2008 لم يبقَ العصا الغليظة، أصبح العصا المكسورة، تضعضعت مكانته.

فلذلك:

(وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة الأنفال)

بالنهاية عليك أن تستسلم أيها المؤمن، الذي وقع أراده الله، والذي أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الحق و الباطل:

طبعاً:

(كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

أحياناً القيادة تكون في المقدمة تقود الجيش إلى النصر، أحياناً تكون في المؤخرة تسوق الجيش إلى النصر، إما أن تكون في المقدمة تقوده إلى النصر، أو أن تكون في المؤخرة تدفعه إلى النصر، على كلٍ كل قيادة لها حكمة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

الحق الشيء الثابت الهادف، والباطل الشيء الزائل العابث.

هناك بالحياة ما يسمى بالاثنينية، يوجد حق ويوجد باطل، خير وشر، صدق وكذب، إخلاص وخيانة، قسوة ورحمة، الحق هو الله، والحق هو الشيء الثابت والهادف.

للتوضيح: حينما نبني جامعة، هذه الجامعة تُبنى لتبقى، هناك جامعة ببريطانيا عمرها خمسمئة عام، تُبنى لتبقى، لذلك تُبنى ببناء قوي جداً، وحجر حتى يقاوم كل عوامل التعرية، أما السيرك يُبنى لأسبوعين، إذاً من قماش، هذا السيرك يُبنى ليزال بعد أسبوعين.

يوجد فرق بين الحق والباطل، الحق ثابت وهادف، الجامعة من أجل تخريج قادة للأمة، علماء، أطباء، مهندسون، محامون، قادة للأمة، والسيرك من أجل متعة رخيصة، وآني، فالباطل شيء عابث وزائل، والحق ثابت وهادف.

الدين حق لأن هدفه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة:

لذلك الدين حق، لأن هدفه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وأمده إلى أبد الآبدين، أنت عندما تكون ديّناً أثر الدين في الدنيا يمتد إلى ما لانهاية، و بالعكس الموت نقطة على خطك البياني الصاعد، المؤمن خطه البياني صاعد، والموت نقطة على هذا الخط، ويبقى الخط صاعداً ما بعد الموت، هذا الدين، الدين لأنه يعطيك السلامة والسعادة في الدنيا والآخرة، أما الإنسان إذا كان قوياً ما دام قلبه ينبض هو قوي، فإذا وقف قلبه انتهى.

هذا الذي هدم سبعين ألف بيت، الله عز وجل أصابه بالسبات، هذه السنة الرابعة وأمدّ الله بعمره. بلحظة كان إنساناً جباراً طاغية، صار جثة هامدة، عندي صورة له قبل أيام شيء مخيف، أين جبروته؟ أين قوته ؟.

فالحق ثابت هادف، الدين أثره إلى أبد الآبدين، من أجل إسعاد البشر أجمعين ، والدنيا متع رخيصة زائلة، تنتهي بعد حين.

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ - بالدين - وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

طبعاً المجرمون مع الباطل، والباطل زائل، لذلك في النهاية لابدّ من أن ينتصر الحق.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة الآية: 33)

مرة يحرمون الخمر، قبل أن ينهار الاتحاد السوفيتي حرم الخمر، فتحريم الخمر تأييد لهذا الدين العظيم.

مرة ثانية يكتشفون أن النظام الإسلامي المالي هو الوحيد بعد انهيار النظام المالي الغربي القائم على الربا،

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

النصر من عند الله عز وجل:

قال تعالى:

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال)

لكن الذي ينصر حقيقة هو الله.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة الأنفال)

أراد أن يطمئننا فقط، أرسل الملائكة للتطمين فقط،

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هذه حقائق موجودة في القرآن الكريم، الله عز وجل خلق السماوات والأرض وأنزل على عبده الكتاب، الكون في كفة، والقرآن في كفة، هذا كلام خالق الأكوان، قال لك: النصر من عندي، اطمئن،

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

فقط.

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

من شروط النصر: الإيمان بالله و إعداد القوة المتاحة:

النصر له شروط، الإيمان شرط لازم غير كافٍ، والإعداد شرط لازم غير كافٍ، إن أعددت العدة ولم تكن مؤمناً لا تنتصر، وإن آمنت بالله ولم تستعد للعدو لا تنتصر، الإيمان شرط لازم غير كافٍ.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

والشرط الثاني:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

لا الإعداد من دون إيمان يكفي، ولا الإيمان من دون إعداد يكفي، فحينما نعد القوة المتاحة، ونؤمن أن الله هو الناصر ننتصر.

الإيمان هذا القانون الثابت، ولو كان الفرق خيالي بيننا وبين أعدائنا، و هناك حالات كثيرة كان الفرق خيالياً

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

أي أردفوكم وراءهم، هم في الطليعة، هم في المواجهة.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

من عند الله،

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

أنواع النصر:

1 ـ النصر الاستحقاقي:

الآن هناك نصر استحقاقي:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

2 ـ النصر التفضلي:

هناك نصر تفضلي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

3 ـ النصر المبدئي:

وهناك نصر مبدئي، لو أن الإنسان وافته المنية وهو مؤمن بالله، و على عقيدة سليمة، هذا منتصر نصراً مبدئياً

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى)

أما الفعل فعله، والقوة قوته، والتوفيق توفيقه، والنصر نصره.

من أجل أن

(وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ)

لكن الحقيقة اليقينية،

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

4 ـ النصر الكوني:

فالنصر استحقاقي، تفضلي، مبدئي، كوني، النوع الرابع كوني: فئتان بعيدتان عن الله، الأقوى ينتصر، الذي سلاحه دقة إصابته أدق ينتصر.

مثلاً دبابة أو مدرعة مدى مدفعها المجدي ثلاثة كيلو متر، وهناك طائرة هليوكوبتر المدى المجدي لمدفعها سبعة كيلو متر، يمكن طائرة واحدة تدمر مئتي دبابة، فإذا كان الطرفان بعيدان عن الله عز وجل الذي عنده سلاح مداه 7 كم ينتصر على سلاح مداه 3 كم، إذا لم يوجد بالطرفين إيمان فالأقوى ينتصر، السلاح الأقوى، السلاح الأدق في إصابته، التكتل الأقوى، التقنية الأعلى، الأقمار الصناعية، إذا غاب الإيمان حدث ما شئت عن الأقمار الصناعية، والقنابل الذكية، كل ما يقال حول الأسلحة الحديثة صحيح في ظل البعد عن الله عز وجل، أما إن وجد الإيمان فالمعادلات كلها تتغير، إن وجد الإيمان فالله عز وجل يعطل هذا الحشد الكبير.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران الآية: 151)

ويقوي المؤمنين ويحفظهم.

إذاً:

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هناك نصر استحقاقي، كانتصار الصحابة الكرام في بدر، و نصر تفضلي، كانتصار الروم على الفرس، وقد فرح الصحابة الكرام بهذا النصر التفضلي، و نصر مبدئي أن يموت الإنسان موحداً مؤدياً لعباداته، و نصر كوني الأقوى ينتصر، صاحب السلاح الأكثر دقة ينتصر.

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع الآيات المتعلقة بهذه المعركة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (05-30): تفسير الآيات 11 - 14 ، النوم تفاعل عميق وليس له مفرزات - الدعاء يقوي العقيدة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

النوم من آيات الله الدالة على عظمته:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

أيها الأخوة، النعاس نوم خفيف، في اللغة العربية اسمه سنة، قال تعالى:

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

(سورة البقرة الآية: 255)

السنة نوم خفيف، والنوم نوم ثقيل،

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

أيها الأخوة، أي أن الله جلّ جلاله لا يأخذه عن تدبير شؤون خلقه نوم خفيف، ولا نوم ثقيل، أما الإنسان إذا أكرمه الله في الأوقات العصيبة بسنة من النوم فالقصد هنا السنة من النوم التي تطمئن المؤمن.

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ)

هناك نعاس مع أمن، وهناك نعاس بلا أمن، فالذي وقع في شرك خفي، وضاقت عليه الأمور، وسدت أمامه الأبواب، ونسي الله فنسيه، لو أنه نام يرى في النوم أحلاماً مزعجة جداً، لكن الله أحياناً يتكرم على عباده المؤمنين الصادقين أنهم ينامون ويستريحون بالنوم، لذلك النوم من آيات الله الدالة على عظمته.

تعطل جميع الآليات أثناء النوم عدا الأذن:

كلكم يعلم أن هناك جهاز هضم، و جهاز الهضم يتفاعل مع الغذاء والناتج هو البراز، وجهاز التنفس يتفاعل مع الأوكسجين، والناتج أكسيد الكربون (غاز الفحم) ـ الزفير غاز فحم ـ و جهاز التعرق يتفاعل

مع الحر والناتج العرق، حتى العين لها مادة تفرزها ناتجة عن تفاعلها مع الأشياء، حتى الأذن لها مادة تفرزها (صماخ الأذن)، فكل جهاز في الجسم يتفاعل مع أشياء كثيرة، إلا أن النوم تفاعل عميق جداً لكن بلا مفرزات.

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ)

أيها الأخوة، العين تفرز العُماص، والأذن تفرز الصماخ، وجهاز التعرق يفرز العرق، وجهاز الكليتين يفرز البول، وجهاز الهضم يفرز البراز، فكل هذه الأجهزة تفرز نواتج، إلا أن النوم آلية معقدة جداً، النوم بلا ناتج، الإنسان عندما يتعب كثيراً يشعر بالإعياء، يكاد ينام قسراً، وأكبر الحوادث في الطرقات السائقين الذين يداومون على السفر ينامون فجأة، وهم يقودون مركباتهم، فالنوم له آلية معقدة، من أبسط شروط آليته أن الخلايا العصبية تتباعد في النوم، فالسيالة العصبية تجد المسافة واسعة لا تستطيع تخطيها، فتنام، لكن الصوت الكبير جداً، العالي جداً يقفز إلى هذه المسافة البعيدة.

تماماً كما لو واجهت جدول ماء، فالمسافة، أو عرض هذا الجدول أوسع من قدرتك على القفز، فتقف. فالسيالة العصبية أثناء النوم تقف، لأن الخلايا العصبية متباعدة، لكن في الأصوات العالية جداً هذه الأصوات تصل إلى الضفة الثانية، ويستيقظ الإنسان.

لكن بالمناسبة يتعطل بالنوم كل شيء عدا الأذن، أي الأذن تعمل في النوم لكن الصوت الضعيف لا يصل، أما الصوت القوي يصل، لو أن إنساناً نائماً نوماً عميقاً وسمع إطلاق مدفع يستيقظ فوراً، أما البصر معطل، الإنسان أثناء النوم مغمض العينين، الأحاسيس كلها معطلة إلا الأذن.

الليل هو الوقت المناسب للنوم:

لذلك أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ)

(سورة الروم الآية: 23)

والليل هو الوقت المناسب للنوم، لكن هذه الحضارة جعلت ليل الناس نهاراً، ونهار الناس ليلاً. أجدادنا والسلف الصالح، والآن العالم المتقدم جداً، الساعة التاسعة تتوهم أن هذه المدينة الكبيرة فيها منع تجول، لأن الناس جميعاً آووا إلى فراشهم ليأخذوا قسطاً من الراحة، كي يستطيعوا في اليوم التالي أن يكونوا الساعة الثامنة أو السابعة في أعمالهم، والموظف الذي لا يركز في عمله يخسر وظيفته، وعدم التركيز يأتي من السهر الطويل.

مرة كنت في سدني الساعة التاسعة توهمت أن هناك منع تجول، هذا العالم القوي ينام باكراً ليأخذ قسطاً مديداً من الراحة، والساعة الخامسة صباحاً الطرقات مزدحمة، في بلاد متخلفة أحياناً لا تحل

قضية قبل الساعة الثانية عشرة، المحلات الساعة العاشرة كلها مغلقة، تفتح العاشرة أو الحادية عشرة، يأتي صاحب المحل في الساعة الثانية عشرة أو في الواحدة، والسهر للساعة الثانية عشرة ليلاً هذا النظام.

الآن العالم المتقدم رفضه، دوام متصل من الساعة الثامنة حتى الساعة الخامسة، وهناك ساعة راحة أثناء الظهيرة، الإنسان يذهب إلى بيته الساعة الخامسة، التقى مع أهله وأولاده، جلس معهم، زار صديقه، أما العمل للساعة الثانية ليلاً، للساعة العاشرة ليلاً، للساعة الثانية عشرة ليلاً، والنوم إلى الظهر، هذا نظام ينبغي أن يرفض، وإذا شخص من الأخوة الكرام تمكن من ضبط نظام حياته بالنوم الباكر سيستيقظ صباحاً كالحصان.

((ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْواً))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

(سورة المزمل)

أضرب لكم مثلاً في العالم الإسلامي في وقت تألقه، بعد العشاء الناس جميعاً خلدوا إلى الراحة، والاستيقاظ قبل الفجر على صلاة قيام الليل.

مرة أخ وعدني بالمكتب الساعة السادسة صباحاً، سألته ما السبب ؟ قال: أنا علمني والدي الصلاة قبل الفجر بساعة، من أيام طفولتي إلى الآن أنام باكراً وأستيقظ قبل الفجر بساعة.

شيء رائع جداً، إذا استطاع الإنسان أن يضبط بيته، وأولاده على النوم باكراً، والاستيقاظ صباحاً، ساعات القراءة، والمطالعة، والدراسة، والعمل، والتخطيط صباحاً تعادل أربع ساعات في النهار، الساعة الواحدة صباحاً.

الحواس الخمس تنقل للإنسان ما حوله بطريقة أو بأخرى:

على كلٍ: هذا الإنسان حينما ينام، تتباعد خلاياه العصبية، عندنا سيالة واحدة فعالة هي سيالة الصوت، فالصوت الضعيف لا ينتقل عبر هذا التباعد بين الخلايا، أما الصوت العالي جداً يقفز ويصل والإنسان يستيقظ وهذا من فضل الله عز وجل.

أنت تابع الأمر، الإنسان جالس في غرفة فكل شيء في الغرفة تحت مرمى بصره، البيت مئتا متر، أي شيء حدث بغرفة أخرى العين لا تراه، لكن الذي يصل إلى علمك عن طريق الصوت، يقول لك: هناك حركة في البيت، الصوت نعمة، العين ينتهي تفاعلها مع الأشياء عند الجدران، أنا الأذن تصل إلى أطراف البيت كله.

لكن لو دخلت فأرة تحت السرير وماتت، لا تراها ولا تسمع صوتها، ما الذي يشعرك بوجودها ؟ الرائحة، كم جهاز ؟ هناك عين، وهناك صوت أذن، وهناك رائحة، وهذا من فضل الله علينا، الحواس الخمس تنقل لك ما حولك بطريقة أو بأخرى.

نعمة الأمن ونعمة الكفاية أكبر نعمتين على الإطلاق:

أيها الأخوة، الآن هناك موضوع دقيق، أن الإنسان أحياناً ينام ويستيقظ مرتاحاً جداً ، ومستبشراً أحياناً، يرى رؤيا صالحة، يرى أنه في بستان، ويرى أنه مع أحبابه، و يرى أنه في تفوق، وأحياناً يستيقظ على حلم مزعج جداً.

إذاً ممكن أنك إذا أديت الصلوات قبل أن تنام، وقرأت آية الكرسي كما ورد عن سيد الأنام، ودعوت دعاء النوم، أن تنام نوماً مريحاً، وأن يكون هذا النوم راحة لك ولقلبك.

الآن الخوف يخلقه الله، دقق:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: 151).

قانون الخوف: الإشراك يساوي الخوف، قانون الأمن: الإيمان بالله والاستقامة على أمره تؤديان إلى الأمن، الآيات:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

(سورة الأنعام الآية: 81 - 82)

أكبر نعمتين على الإطلاق نعمة الأمن، ونعمة الكفاية.

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

أن تكون قد ملأت المعدة بالطعام الحلال، شبعت وأنت آمن.

الإنسان أمام خيارات لا تعد و لا تحصى مادام حياً:

قلت مرة: أحد العلماء كان يأخذ تلاميذه صبيحة عيد الفطر إلى المقابر، ليرى أخوانه نعمة الحياة، أنت حي بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تستغفر، بإمكانك أن تصطلح مع الله، بإمكانك أن تؤدي ما عليك، بإمكانك أن تعمل حسنة تمحو سيئة، بإمكانك أن تؤدي واجباً قد أهملته، بإمكانك أن تطلب العلم، بإمكانك أن تضبط أولادك، ما دمت حياً كل شيء ممكن ، بتعبير آخر: ما دام القلب ينبض أنت في

بحبوحة، أمامك خيارات لا تعد ولا تحصى ما دمت حياً، فإذا مات الإنسان خُتم عمله، لذلك عند الموت:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

(سورة الفاتحة)

الآن: الله ملكك نفسك، أنت في الحياة نفسك بين يديك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

لكن بعد الموت

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

العاقل من استخدم نعم الله في طاعته لا في المعاصي و الآثام:

إذاً هذا العالم الجليل يأخذ أخوانه أول يوم من أيام عيد الفطر إلى المقابر ليعرف أخوانه نعمة الحياة، في اليوم التالي إلى المستشفيات، تشمع كبد، فشل كلوي، خثرة بالدماغ، احتشاء بالقلب، سرطان بالأمعاء، أنت معافى، الحواس الخمس تعمل بانتظام، منحك الله قوة تتحرك، لا تشكو من شيء، في اليوم التالي إلى المستشفيات من أجل أن تعرف قيمة الصحة، هذه نعمة.

((اغتنم خمساً قبل خمس ـ من هذه الخمس ـ صحتك قبل سقمك))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس]

الإنسان إذا مرض من مستشفى إلى مستشفى، أهمل كل شيء، الأدوية، والعملية الجراحية، وأين نجريها، في بلده، في بلد آخر، يبيع بيته من أجلها، أنت بصحة تامة، نعمة الصحة لا تعدلها نعمة، ففي اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات، ليروا المرضى ومما يعانون ؟ وفي اليوم الثالث يأخذهم إلى السجون، من أجل أن تعرف نعمة الحرية، أنت حر، لا يوجد مذكرة بحث بحقك، الذي عليه مذكرة بحث لو طرق بابه لانخلع قلبه، فالحر يفتح الباب و هو مطمئن، يتنقل، يسافر، لا يوجد عليه شيء، نعمة الحياة، ونعمة الصحة، ونعمة الأمن، قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

نعمة الأمن، نعمة الصحة، نعمة الكفاية، نعمة لك أولاد، لك بيت، لك مأوى، لك زوجة، هذه النعم ماذا فعلت بها ؟ استخدمتها في المعاصي والآثام أم استخدمتها في طاعة الرحمن ؟.

الخوف يأتي من الشرك و الأمن يأتي من الإيمان:

إذاً الخوف يأتي من الشرك،

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

أي إنسان مشرك مهما كان قوياً ولو أنها أقوى دولة في العالم، يوجد مع الشرك خوف، و مع الإيمان أمن، احفظ الآيتين،

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

والآية الثانية:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

أيها الأخوة، هناك تجربة ذكرها بعض العلماء، جاؤوا بإنسان وضعوه على لوح خشبي، وعلقوه من وسط اللوح تماماً بحسب التوازن، أي عُلق هذا اللوح بحبل إلى السقف بحيث أن مكان التعليق هو المتصف الدقيق جداً بحيث أنه يبقى أفقياً، عندما جاءته سنة من النوم مال هذا اللوح، هناك شيء جاء، النوم يُخلق، واليقظة تُخلق.

لذلك أيها الأخوة، الله عز وجل جعل النوم من آياته الدالة على عظمته.

على الإنسان أن يحجم عن رواية القصص الغير واقعية:

أقول لكم كلمة عن إنسان أعرفه، لا ينام، أنا لا أتردد دقيقة عن اليقين أنه لو عرض عليه أن يبيع بيته، وأن يبقى بلا مأوى مقابل أن ينام ليلة واحدة لن يتردد أبداً، أنت حينما تتجه إلى فراشك، وتنام نوماً عميقاً هذه من نعم الله العظمى، وكما تعلمون الإنسان مهما كان متعباً إذا نام أربع ساعات أو خمس يستريح، يستيقظ نشيطاً كالحصان، فقضية النوم من نعم الله الكبرى.

قصة عن سيدنا عمر أحجمت عن روايتها سنوات طويلة، ثم رأيتها برواية أخرى فأصبحت أرويها، لما جاءه رسول عامله على أذربيجان، وصل إلى المدينة ليلاً (في منتصف الليل) فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذا الوقت المتأخر فتوجه إلى المسجد، لم يكن هناك كهرباء، سمع إنساناً يناجي ربه ويقول: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ قال له: من أنت سبحان الله ؟ ! من أنت يا هذا ؟ قال له: أنا عمر، قال له: أمير المؤمنين ؟! قال له: أمير المؤمنين، قال له: ألا تنام الليل ؟ الرواية التي منعتني أن أروي هذه القصة كما يلي ؛ قال له: إني إن نمت ليلي أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي (معنى هذا أنه لا ينام و هذا شيء يتناقض مع قوانين الجسم).

الرواية الثانية: إني إن نمت ليلي كله ـ كلمة كله صار في واقع ـ إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإني إن نمت نهاري أضعت رعيتي.

فالنوم لابد منه.

لذلك هناك مئات القصص التي تروى أنا أعتقد لا أصل لها، أن الفلان الفلاني، العالم الجليل، صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً، غير صحيحة، هل تستطيع أن لا تنام ليلتين فقط ؟ لا تستطيع، هذا نظام، النبي قال:

((ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لا تروي قصة غير معقولة، لا تروي قصة مستحيلة، حينما تروي هذه القصص تجعل الدين شيئاً غير واقعي، شيئاً مستحيلاً، لذلك أنا أحجم عن رواية قصة غير مألوفة، غير معقولة، غير منطقية، لا يقبلها العقل.

لذلك هذه القصص التي تروى قرأ القرآن في ليلة واحدة، ستمئة صفحة، إذا الصفحة يقرأها بركعة، يحتاج أن يصلي ستمئة ركعة، ستمئة ركعة لا تكفي بليلة واحدة، هناك أشياء معقولة، وهناك أشياء غير معقولة، فمن سنة النبي أن نصلي إحدى عشرة ركعة، ثماني ركعات، وثلاث ركعات وتر في الليل هذه السنة، دعك مع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لا تبالغ، لا تجعل الإسلام شيئاً خيالياً غير واقعي.

إعجاز الله عز وجل:

الشيء اللطيف أن الإنسان وهو نائم كل شيء معطل إلا الأذن، من هنا قال الله تعالى:

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

(سورة الكهف)

لو أن آذانهم تعمل عملها الطبيعي لما ناموا هذه السنوات المديدة.

الدقة المذهلة في القرآن الكريم:

أيها الأخوة، الآن في سورة الأنفال جاءت الآية:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً)

إشارة إلى أن كل أصحاب النبي الكريم أصابتهم هذه الغفلة في النوم،

(النُّعَاسَ أَمَنَةً)

فاطمأنت قلوبهم.

هناك نوم مع القلق، أي غير المؤمن لو نام معه قلق، معه أحلام مزعجة جداً، معه كابوس كما يقولون، لكن في آل عمران قال تعالى:

(أَمَنَةً نُعَاساً)

(سورة آل عمران الآية: 154)

ما كل من ناموا كانوا مطمئنين، في الأنفال كل الصحابة كانوا نائمين، أما في مجال آخر فهناك الكثير من المنافقين، بعض الذين ناموا كانوا مطمئنين، أي هناك دقة مذهلة بالقرآن الكريم، مرة جاءت

(النُّعَاسَ أَمَنَةً)

ومرة،

(أَمَنَةً نُعَاساً)

التبديل له معنى دقيق جداً، مثلاً الله قال:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ)

(سورة المائدة الآية: 38)

بدأ بالسارق، أما بالزنا قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

(سورة النور الآية: 2)

لأن المرأة أصل في الزنا، تكشف مفاتنها تغري الرجال بها، هذا اسمه التحرش بكلمة أو بلمسة، أما المرأة تتحرش به بثيابها.

قيمة المرأة تظهر من حشمتها:

أنا لا أنسى قصة حُدثتها من قبل أخ كريم، قال: عرضوا بفضائية شاب مجرم اغتصب عدداً كبيراً جداً من الفتيات وقتلهن، فهناك باحثة اجتماعية طلبت أن تلتقي معه على فضائية من الفضائيات، طبعاً سألته عن اسمه، قال لها اسمه، لا يفقه شيئاً لا يقرأ ولا يكتب، أي جاهل جهلاً مطبقاً، فقالت له: كيف تفعل هذا ؟ قال لها: من ثيابهن، وضع يده على المشكلة، من ثيابهن، تقول له هذه الباحثة: لو أن امرأة محجبة هل تتحرش بها ؟ قال لها: الذي يتحرش بها أقتله.

كل قيمة المرأة تظهر من حشمتها، وكأنها ملكة، أنا لا أتصور إنسانة محجبة حجاباً شرعياً أحد يتحرش بها، أكاد أقول مستحيل، ما ظهر منها شيء، ما ظهر من مفاتنها شيء حتى تدعو إلى التحرش، أما التي تعرض كل مفاتنها على الناس كأنها تدعوهم إليها.

من قاتل في سبيل الله يبتغي وجهه منحه الله الأمن و الطمأنينة:

أيها الأخوة،

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

أولاً: يبدو أنه في إحدى المعارك استطاع المشركون أن يأخذوا الماء إليهم، فحُرم الصحابة من الماء، لذلك أكرمهم الله، أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ كن مع الله، والماء بيد الله.

لذلك

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ به)

إشارة دقيقة جداً، وأنت في ساحة المعركة، وأنت تقاتل، يجب أن تكون نظيفاً، ما قولك ؟.

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ)

إذا شخص أصابته جنابة من حلم قال:

(وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ)

إشارة أولى إلى النظافة، وإشارة ثانية إلى إنهاء الجنابة وكلاهما مقلق.

هناك أشياء لطيفة جداً أن الله عز وجل وصف لنا صلاة الجماعة في الحرب، هناك قتل مع خط المواجهة الأول، ينبغي أن تصلي جماعة، و لهذا نظام خاص، هناك آيات أخرى، فأنت مدعو أن تصلي جماعة وأنت في الحرب فكيف في السلم ؟ وأنت مدعو أن تكون نظيفاً وأنت في ساحة المعركة.

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

هذه النقطة الدقيقة أن الإنسان حينما يقاتل في سبيل الله قتالاً مشروعاً يبتغي من هذا القتال وجه الله عز وجل، الله عز وجل يملأ قلبه طمأنينة.

من كان مع الله كان الله معه:

والله سمعنا قصصاً عن أخوتنا في غزة أثناء الحرب الأخيرة شيء يكاد لا يصدق من طمأنينتهم، يواجهون أكبر جيش، هم ضعاف لا يملكون من الأسلحة الحديثة إلا الشيء القليل جداً، ومع ذلك ألقى الله في قلبهم الطمأنينة، قصص كثيرة جداً قيلت.

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

المؤمن يتمتع بطمأنينة عالية جداً، يلقي الله في قلبه الأمن،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

هذه معية عامة، مع كل إنسان، مع الكافر، مع الملحد، مع المشرك، مع العاصي، مع الفاجر، مع أي إنسان، لكن:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

إن الله مع الصادقين، إن الله مع التوابين، هذه معية خاصة، قال علماء التفسير: المعية الخاصة تعني أن الله ينصرهم، ويحفظهم، ويوفقهم، ويحميهم، ويطمئنهم ، المعية الخاصة تعني النصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، هذه المعية الخاصة، وهي في متناول كل منكم، كن مع الله ترَ الله معك، كن معه مستقيماً تراه معك مثبتاً، كن معه مستقيماً تراه معك موفقاً، كن معه مستقيماً تراه معك ينصرك على أعدائك.

إذاً:

(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ)

أي الماء للنظافة أولاً، وللبعد عن الجنابة إذا كانت هناك جنابة.

الدعاء سلاح المؤمن وهو يقوي العقيدة:

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

بالمناسبة قالوا: الدعاء يقوي العقيدة، لما دعا هؤلاء الصحابة ربهم من أجل الماء، والماء نزل قويت ثقتهم بربهم، وقويت عقيدتهم، وإيمانهم به ، الدعاء سلاح المؤمن وهو يقوي العقيدة، أنت إذا دعوت الله دعاء صحيحاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة الآية: 186)

ودعوته، واستجاب لك، يزداد إيمانك بالله، بل يتجدد إيمانك بالله، بل هذا الدعاء المستجاب يعد يوماً من أيام الله، قال تعالى:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية: 5)

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

دعوتم ربكم أن ينزل عليكم المطر من السماء، المطر نزل، الآن لو فرضنا لا سمح الله ولا قدر وقعنا في سنة جفاف كبيرة جداً، والسماء لا تمطر، مضى الشهر التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، والأول ما كان في مطر، لو فرضنا أجرينا صلاة استسقاء، وعقب هذه الصلاة الأمطار نزلت كأفواه القرب، بماذا يشعر كل المسلمين ؟ بالثقة بالله عز وجل، الله موجود كل شيء بيده.

الإنسان يدعو ربه حقيقة عندما يثق بوجوده و حبه و قدرته و استجابته:

بالمناسبة أنت حينما تدعو الله، ويستجيب لك تزداد إيماناً به، من هنا قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية: 77)

أنت متى تدعو الله حقيقة ؟ إذا آمنت أولاً بوجوده، وآمنت ثانياً أنه يسمعك، إن تكلمت فهو يسمعك، وإن تحركت فهو يراك، وإن أضمرت شيئاً فهو يعلمه، وثالثاً تؤمن أنه على كل شيء قدير. والله أعرف صديقاً (القصة من أربع وعشرين سنة)، أصيب بورم خبيث بالرئتين ، والذين عالجوه أصدقائي، أعطوه جواباً قطعياً لا يوجد أمل أبداً، هناك أمل وحيد أن يزرع رئة وأجرة هذه العملية ثمن بيته بالضبط، ابنه صغير، يبدو أن له دعاء مستجاباً، الآن هو حي يرزق، و لم يحتاج إلى هذه العملية، و صار هناك تراجع ذاتي.

بالطب هناك شيء اسمه الشفاء الذاتي، لأن هذا الموضوع مربوط بالخرافات فهو مهمل.

فالدعاء يقوي العقيدة، أنت حينما تدعو الله أنت مؤمن بوجوده، وأنه يعلم ما تقول، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يحبك.

أربعة أشياء: يحبك وقادر وسميع عليم وموجود، لذلك قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(سورة الفرقان الآية: 77)

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

يعطيك المعنويات العالية، واثق.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أخطر شيء أن نهزم من الداخل:

أخطر شيء الآن أن نهزم من الداخل، أي هناك انهيار داخلي، انتهينا، ما بيدنا شيء، الله موجود، والله عز وجل يظهر آياته من حين لآخر، أنفلونزا الخنازير أليست من آيات الله ؟ رعب بالعالم كله، وقبلها كان هناك أنفلونزا الطيور، وقبلها حرب غزة، أليس هذا دعماً إلهياً ؟ الله عز وجل يظهر آياته، وقبلها انهيار النظام العالمي، وراء بعضهم الحمد لله.

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ)

أنت مع منهج السماء، أنت مع وحي السماء، لكن المشكلة أن أمة المسلمين نائمة في ضوء الشمس، أعداؤهم يعملون ليلاً نهاراً في الظلام، إلا أن الذي يعمل في الظلام يسبق من هو نائم في ضوء الشمس.

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آَمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(سورة الأنفال)

قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

وأنا تعليق من عندي: وأمته هزمت بالرعب مسيرة عام، عندما انتشر الشرك و الضعف و المعاصي أصبح هناك هيمنة من الأعداء،

(فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الأنفال)

الفتنة الطائفية أول ورقة رابحة يحملها العدو ضد الإسلام و المسلمين:

أخواننا الكرام: الفكرة مهمة جداً، نحن أمة إن فرقت إلى كافر بالله، ومؤمن به، و صار هناك مشكلة بين هذين الطرفين، الطاقات والجهود بُددت، الآن نحن هل تصدقون بحربي أفغانستان والعراق الكلفة تقريباً ثلاثة آلاف مليار ؟! لو ما في هذه الحروب وأنفقت على مصالح البشر، كم مستشفى ؟ كم مستوصف ؟ كم طريق ؟ كم جامعة ؟ ثلاثة آلاف مليار ماذا تفعل في الأرض ؟ تحل معظم مشكلات البشر، عندما صار انشقاق وحروب هذه الطاقات والثروات والأموال أنفقت لشيء لا يقدم ولا يؤخر.

فلذلك الآية الكريمة:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي عملوا انشقاقاً بالأمة فأصبحوا مؤمناً و كافراً،

(وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

(سورة الأنفال)

يعني الله عز وجل جعل الذوق لا للطعام والشراب فقط بل للذل أيضاً.

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان)

فهذا الذي يشق صفوف الأمة يجعل بأسها بينها، والذي يوحدها يجعل بأسها على أعدائها، فرق كبير جداً بين أن تشق صفوف الأمة فتجعل بأسها بينها، وبين أن توحدها فتجعل بأسها على أعدائها. فلذلك أول ورقة رابحة يحملها العدو هي الفتنة الطائفية، ترونها تعمل عملها في بلاد أخرى، فنحن بوعينا إن شاء الله نسقط هذه الورقة الرابحة من أيدي الطغاة والأعداء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (06-30): تفسير الآيات 15 - 18، الإعداد والمواجهة تضيق على العدو خطتهم - والله موهن كيد الكافرين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

من أراد أن يحدث ربه فليدعه و من أراد أن يحدثه ربه فليقرأ القرآن:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

أول شيء إذا قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أنت أيها المؤمن هل تشعر أنك معني بهذا الخطاب ؟ إذا كنت طبيباً وجاء بلاغ يا أيها الأطباء، وأنت طبيب تشعر يقيناً أنك معني بهذا الخطاب، فإذا كنت مؤمناً حقاً، وقرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

تشعر بكل كيانك أنك معني بهذا الخطاب.

قال: إذا أردت أن تحدث ربك فادعه، وإذا أردت أن يحدثك ربك فاقرأ القرآن، أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أنت مؤمن، الخطاب لك.

مخاطبة عامة الناس بأصول الدين و مخاطبة المؤمنين بفروع الدين:

الحقيقة الثانية: أن الله خاطب عامة الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين بفروع الدين، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21)

العبادة أصل كبير من أصول الدين، أما حينما خاطب المؤمنين قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

إذاً: أول حقيقة ما دمت مؤمناً حقاً تشعر أنك معني بهذا الخطاب، وأن هذا الخطاب لك، وأن هذا الخطاب يقتضي أن تقف موقفاً، إن كان أمر ينبغي أن تأتمر، إن كان نهي ينبغي أن تنتهي، إن كان آية كونية ينبغي أن تتفكر، إن كان قصة لأقوام سابقين ينبغي أن تتعظ، إن كان مشهداً من مشاهد أهل الجنة ينبغي أن تسعى إليها، وإن كان مشهداً من مشاهد أهل النار ينبغي أن تتقي النار ولو بشق تمرة.

تدبر آيات القرآن الكريم:

صدق أيها الأخ: ما لم يكن لك موقف من أية آية ففي الإيمان خلل.

تصور مدير مؤسسة، قائد جيش، رئيس جامعة، مدير مستشفى، يوجه خطاباً إلى الأطباء، أي معقول الطبيب لا يعبأ إطلاقاً بهذا الخطاب، وهو يعنيه، ومكلف بالخطاب أن يفعل شيئاً ؟

لذلك: امتحن إيمانك من هذا المقياس، هل تشعر إذا قرأت القرآن وتلوت قوله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هل تشعر أنك معني بهذا الخطاب ؟ هذه واحدة.

وهل تشعر أنه لا بدّ من أن تأخذ موقفاً فيما سيأتي بعد

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

إذا في أمر ائتمار، إذا في نهي انتهاء، إذا في آية كونية تفكر، وإذا في مشهد من مشاهد الجنة تسعى لها، مشهد من مشاهد أهل النار تفر منها، إذا كان هناك قصة لأقوام سابقين ينبغي أن تتعظ، عود نفسك أن تدبر القرآن الكريم أي أن تقف موقفاً من أية آية، هذا التدبر.

التفسير شيء آخر، فهم القرآن شيء وتدبره شيء آخر، الله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

(سورة محمد)

التدبر أن تقف موقفاً من أية آية تقرؤها، لأنك مؤمن والله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هذه واحدة.

أركان النجاة:

الآن هل تصدق أن من أركان النجاة التي وردت في القرآن الكريم:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

ما سيأتي بعد إلا أركان النجاة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، أنا أسألك لماذا تصلي ؟ جوابك الرائع والبديهي والواحد والوحيد لأن الصلاة فرض، فإذا أقنعتك بالدليل أن الدعوة إلى الله فرض عين، قل لي ما الدليل ؟ أقول لك سورة العصر،

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

أركان النجاة

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

هذه الدعوة.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم ومع من يعرف:

لكن أيها الأخ الكريم، الدعوة إلى الله كفرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم ومع من تعرف، في حدود ما تعلم، سمعت درس علم، حضرت خطبة تأثرت بها، قرأت حديثاً أعجبت به، قرأت تفسير آية تأثرت من هذا التفسير، هذا الذي تأثرت به ينبغي أن تنقله إلى من حولك، إلى زوجتك، إلى أخيك، إلى ابنك، إلى صهرك، إلى جارك، إلى صديقك، إلى شريكك، الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

أما الدعوة إلى الله كفرض كفاية تحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، وإلى قدرة أن ترد على كل الشبهات، هذه اختصاص، إنسان متفرغ كلياً، دخل جامعات، جاهد نفسه وهواه وصل لدرجة من العلم بحيث يستطيع أن يرد على كل شبهة، هذا موضوع ثانٍ.

طبعاً الآية المتعلقة بفرض الكفاية قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 104).

(مِنْكُمْ)

من للتبعيض، هذه فرض كفاية، أما الدعوة إلى الله كفرض عي

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

والآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: 108)

فإن لم تكن داعياً إلى الله أنت لست متبعاً لرسول الله، وإن لم تكن متبعاً لرسول الله أنت لا تحب الله، الدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 31)

هذا أول شيء، إذاً

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

أي أنت مكلف أن تدعو إلى الله، لذلك إذا ذاع داعي الجهاد ينبغي أن تستجيب، ولأن أحد أركان النجاة أن تسهم في ترسيخ معالم هذا الدين، وأحياناً الجهاد القتالي أحد أسباب ترسيخ معالم هذا الدين.

حقيقة الإيمان ما إن تستقر في قلب المسلم حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين:

أيها الأخوة، علامة إيمانك: ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلبك إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين.

أما ليس لي علاقة، الناس لهم ربهم يحاسبهم، لا تهتم بنشر الحق، لا تهتم بمن حولك، رأيتهم على ضياع وضلال، ولم تعبأ بهم إطلاقاً، هذا الموقف يغضب الله عز وجل والدليل:

عندما أرسل الله عز وجل ملائكة لإهلاك قرية عادوا وقالوا: **" يا رب إن فيها صالحاً، قال: به فابدؤوا، شيء عجيب ! لمَ يا رب ؟! قال: لأنه لم يكن وجهه يتمعر إذا رأى منكراً ".**

إنسان هداه الله إلى الدين، مستقيم، بيته إسلامي، دخله حلال، ما عنده مشكلة يقول لك: الناس هلكى، مرتاح، ألا تحاول أن تنقل هذا الدين لأخيك ؟ لأختك ؟ لصهرك ؟ لجارك ؟ لعمك ؟ لخالتك ؟ لمن حولك ؟ لشريكك ؟ لجيرانك ؟ ألا يوجد عندك رغبة إطلاقاً في أن تنقل شيئاً من الدين للآخرين ؟ ألا يوجد عندك رغبة إطلاقاً في أن تدعو إنساناً لحضور درس ؟ صدق ولا أبالغ هذا الذي لا يعنيه أمر الناس إطلاقاً، ولا يعبأ بانحرافهم، وشرودهم عن الله بالمنظور الإسلامي يستحق الهلاك.

قال: به فابدؤوا، لأن وجهه لم يكن يتمعر إذا رأى منكراً.

علامة إيمانك أن تنقل الخير إلى الآخرين:

أقول لكم مرة ثانية: الدعوة إلى الله فرض عين بدليلين، أول دليل الآية:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

والدليل الثاني:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فإن لم تدعُ على بصيرة بالدليل، والتعليل، والحديث الصحيح، فأنت لا تتبع رسول الله، والذي لا يتبع رسول الله قولاً واحداً لا يحب الله، لقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

إذاً فكر، لك ابن خالة، ابن عم، جار، صديق، له ثقة فيك، واثق منك، أعطه شريطاً، أعطه موضوعاً، اقتنيت كتاباً قل له: اقرأه، أحياناً درس تأثرت منه، قل له: تعال احضر معي، يجب أن تفكر بالآخرين، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين، مؤمن سكوني، مؤمن عنده إعجاب سلبي بالدين، مؤمن يعظم الدين، ما خطر في باله ولا لثانية أن ينقل هذا الحق للآخرين، يوجد بإيمانه خلل كبير.

لذلك: الله عز وجل عدّ من علامة الإيمان أن تنقل هذا الخير إلى الآخرين

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

بالمناسبة: هناك باطل وهناك حق، الحق له دوائر، والباطل له دوائر، فأنت إن لم تدعُ إلى الله أنا أقول في حدود ما تعلم، سمعت درساً فقط، تأثرت فيه، اقتن شريطاً وأعطه لمن تتوسم فيه الخير، درس علم تأثرت به كثيراً، ادعُ من تثق به، ومن يثق بك لحضور هذا الدرس.

أحسن الناس قولاً من دعا إلى الله و عمل صالحاً:

بالمناسبة: ما معنى قوله تعالى ؟

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

أي أنت هل تستطيع أن تقول لشخص في الطريق لا تعرفه اذهب معي إلى الجامع ؟ مستحيل ! ولا يرد عليك أساساً، لا يعرف من أنت، أما أخوك واثق منك، صهرك واثق بك، ابن عمك واثق بك، ابن خالتك واثق بك، فأنت استغل علاقة القربى، فيها ثقة،

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

والله أخ من أخواننا حضر دروساً لفترة طويلة، الآن هناك عشرة من أقربائه بالجامع بحكمة بالغة، وأدب جم، أعطاهم شريطاً، وحكى لهم بعض الكلمات، لهم ثقة به فأتوا إلى المسجد، وأصبحوا ملتزمين.

إذاً مرة ثانية: ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الآخرين، حركة عطاء، أي المؤمن وعاء فإذا امتلأ يجب أن يفيض على من حوله، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض على من حوله، وصدق ولا أبالغ الآية الكريمة التي نقرأها ولا نقف عندها كثيراً:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

أي لا يوجد على وجه الأرض إنسان أفضل:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل وبين أن تكون أتفه عمل:

ولكن لابدّ من التحفظ، الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء، وبين أن تكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة، حينما تبذل من أجلها الغالي والرخيص تكون أثمن عمل، فإذا انتفعت بها، وتاجرت بها، وارتزقت بها، تغدو عملاً تافهاً لا قيمة له إطلاقاً.

لذلك الإمام الشافعي قال: **" لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين".**

هذا الدين اجعله في السماء، اجعله بعيداً عن وحول الأرض، اجعله بعيداً عن المصالح، اجعله بعيداً عن أن تنتمي إلى جهة أرضية، أنت فوق الجهات، فوق الانتماءات فوق التحزبات، فوق الخلافات،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

لذلك الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

معنى الزحف الطفل يبدأ بالزحف، أي يتنقل بيديه فقط، ويسحب جسمه، بعدها يحبو، يستخدم ركبه، ثم يقف ويمشي، فهناك زحف، وهناك حبو، وهناك مشي.

أما الزحف لماذا شبه الله

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

أي الكفار أجمعوا على محاربة المؤمنين لحكمة بالغةٍ بالغة الله عز وجل أراد ـ وإرادته حكمة مطلقة ـ أن يجتمع المؤمنون وغيرهم على وجه الأرض في كل مكان وزمان، من اجتماعهم تنشأ معركة أزلية أبدية، هي معركة الحق والباطل، معركة أزلية أبدية، هي معركة الحق والباطل.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

لذلك وطن نفسك، هناك معركة لابدّ منها، الله عز وجل قال:

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

(سورة السجدة الآية: 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

في أي مكان تعيش به، في بلاد الشرق، في بلاد الغرب، هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، أنت إذا دعوت إلى الله، وأنت إذا لبيت دعوة الله بالجهاد في سبيل الله، جهاد النفس والهوى، أو جهاد الدعوة، أو جهاد البناء، أو جهاد القتال، توسع دوائر الحق، فإذا وسعت دوائر الحق ضيقت دوائر الباطل، وإذا أهملت الدعوة ازداد الباطل، وعمّ، وعندئذٍ ضيق على الحق.

القضية خطيرة أيها الأخوة، إن قلت أنا ليس لي علاقة، دوائر الباطل تنمو، والطرف الآخر يكيد، ويخطط، أي لابدّ من أن تقف بوجه الطرف الآخر، الطرف الآخر لا يدخر وسعاً في إحباط كل مسعى إسلامي، هذه معركة شئت أم أبيت، أعجبك أو لم يعجبك، رضيت أو لم ترضَ، هناك معركة أبدية أزلية بين الحق والباطل، فطوبى لمن كان في خندق أهل الحق، والويل لمن كان في خندق أهل الباطل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

السعي لإحباط كل عمل يهدف إلى إضعاف الأمة الإسلامية:

أيها الأخوة، ينبغي أن تردوا عليهم بزحفٍ مثله، أعداؤنا في فلسطين خططهم من النيل إلى الفرات، فإذا استسلمنا لخطتهم ضاعت أراضينا، رأيتم ماذا فُعل بالعراق، ماذا فُعل بأفغانستان، ماذا فُعل بغزة، هؤلاء الطرف الآخر يريدون إفقارنا، ثم إضلالنا، ثم إفسادنا، ثم إذلالنا، ثم إبادتنا، فإذا أردنا أن نستسلم انتهينا، وإذا أبينا أن نستسلم:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

بالدول الإسلامية المحتلة المقاومة تركت أثراً كبيراً جداً، أنا في خطبة الجمعة قبل أسبوع أو أسبوعين بينت أن تقرير "سي آي إي "يؤكد أن بقاء إسرائيل لا يزيد عن عشرين سنة قادمة، هناك سبب ؛ لأن عصا إسرائيل كُسرت، مرة في ألفين و ستة، ومرة في ألفين و ثمانية.

إذاً هناك تطور، حينما ترفض الاحتلال، ترفض الاستعمار الاستيطاني، ترفض أن تخضع لمشيئة أعداء الله، طبعاً الأمر يتغير، ويتحول، نحن نعلم أحياناً أنه في حكماء صهيون بروتوكولات، لم ينفذ كل شيء، وجود الإرادة التي تقاوم هذه الخطط الجهنمية قد لا تحقق هذه الخطط.

كل إنسان يستطيع أن يسهم في قوة أمته و في بنائها:

أنا أقول لكم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً)

فواجهوهم بزحف مثله، طبعاً كل واحد منا لو أتقنت عملك أنت مجاهد، طورت صناعتك أنت مجاهد، استغنيت بصناعتك عن الاستيراد فأنت مجاهد، درست، حصلت على درجة عالية جداً وعدت إلى بلدك المسلم، ونفعت بها الناس فأنت في جهاد.

هناك ولاية واحدة في أمريكا خمسة آلاف طبيب معهم بورد، آثروا أن يبقوا هناك، أن يخدموا الطرف الآخر، أنت حينما تعود إلى بلدك أنت مجاهد.

أنا أقول: كل واحد منا مهما تكن هويته، مهما يكن اختصاصه، مهما يكن عمله، مهما يكن سنه، بإمكانه أن يسهم في قوة هذه الأمة، وفي بناء هذه الأمة، وفي صفوف هذه الأمة، وفي إفشال خطط أعداء الأمة.

طالب من الهند اخترع اختراعاً، وهو إنسان مسلم، بعد عام عرض عليه بلكيت الاختراع بخمسين مليون دولار، طلب خمسمئة مليون، واشتراه منه بأربعمئة مليون، وحل مشكلة منطقته الإسلامية بالهند بثلاثمئة مليون، وأبقى لنفسه مئة مليون، هذا واحد.

أنا أدعو الشباب لا تكن رقماً سهلاً، مليارات من البشر جاؤوا، وكبروا، وتزوجوا ، وخلفوا أولاداً، وماتوا ولم يعلم بهم أحد، لكن سيدنا صلاح الدين الأيوبي تقرأ قصصه فترتوي، وقف أمام سبعة و عشرين جيشاً، وسيدنا ابن الوليد خاض مئة معركة، ومع ذلك حقق نصراً كبيراً جداً، من قال لك: إن العظماء جاؤوا سابقاً ولا يوجد عظماء بعدهم ؟ أبداً.

أساساً البطولة والتفوق موجود بكل بلد، وبنسب واحدة

الشباب عماد الأمة و مستقبلها:

لمَ لا تكن إنساناً عظيماً ؟ أكلت، وشربت، ونمت، يوجد غير هذا ؟ نأكل، نشرب ونقول: ما المواضيع التي تطرقت لها قناة الجزيرة ؟ لا يوجد عندنا غيرها، ونحلل التحليلات، شيء صحيح وشيء غير صحيح ، وننام، وإلى متى ؟ حتى يتفاجأ بأزمة قلبية وإلى القبر، هذا واقع المسلمين.

خطط، إن لم تخطط يُخطط لك، إن لم تكن رقماً صعباً كنت رقماً سهلاً عند أعدائك، أليس كذلك ؟ أنا أرى الشباب أمامي، الشباب عماد الأمة، الشباب مستقبل الأمة، الشباب قادة الأمة، تفوق بالدراسة، هذا العصر عصر علم، والحرب كانت بين ساعدين، فأصبحت بين آلتين، الآن بين عقلين، يقول لك: طائرة بلا طيار، تقصف بأدق الأهداف، هذا اختراع عقل بشري، طائرة بلا طيار إصابتها مئة بالمئة دقيقة من دون طيار، هذه مشكلة، الآن حرب بين عقلين.

أيها الأخوة، كما أنهم يزحفون، ينبغي أن نزحف لهم، وإن شاء الله الوعي بدأ يتنامى.

التولي من الزحف من الكبائر:

الآن:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية: 65)

أي المؤمن القوي بإيمانه يساوي عشرة مقاتلين ممن غفل عن الله، قال:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية: 66)

أي التولي من الزحف من الثلاثة ليس تولياً مع ضعف الإيمان، لو توليت من ثلاثة ليست متولياً، لو توليت من اثنين فأنت متولٍّ من الزحف، وهو من الكبائر، التولي من الزحف من الكبائر، وقد قال الله عز وجل:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

(سورة النساء)

على المسلم أن ينشر الحق من أجل الاستقرار والحياة الآمنة:

أيها الأخوة، هناك شيء ثالث: أنت مسلم، مؤمن، لا تكذب، لا تسرق، لا تزني ، لا تقتل، أنت حينما تعمم الهدى، من أجل ألا يسرق مالك، وألا تنهب ثروتك، وألا يذل أولادك.

نشر الحق من أجل الاستقرار، والحياة الآمنة، لو أن الأقوياء تولوا كيف ترون ما يجري في العالم ؟ قوة كبيرة من دون إيمان، تصور أن شعوباً تُقتل بأكملها، تُدمر، قُتل من سكان أمريكا الأصليين ثلاثمئة مليون، كذلك في استراليا، كذلك في جنوب إفريقيا، فالطرف الآخر لا يرحم أبداً، ديدنه القتل والإبادة، مليون قتيل بالعراق، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، ولا أحد ينطق بكلمة.

أثناء حرب غزة ثماني دول أوربية جاءت إلى شرم الشيخ، التصريح الوحيد من أجل أن نمنع تهريب السلاح إلى المقاومة، من أجل ثلاثمئة ألف طفل وامرأة قتلوا بـ "f 16"، والأباتشي، و لا يوجد أي تعليق، والآن يزورون أسرة الأسير الواحد، و11800 أسير لا يوجد من يزورهم، ألسنا بشراً ؟ 11800 لم يخطر لمن يزور بلادنا أن يخصهم بزيارة واحدة ؟

اختر أسرة لا على التعيين، بشكل عشوائي، اعمل أسرة بأسرة، أما هم يزارون ؟ قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 119)

إذا ضعف الحق قوي الباطل وإذا قوي الباطل ضيق على الحق:

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

التولي من الزحف من الكبائر، قال:

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الأنفال)

إلا بحالتين،

(إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ)

أحياناً يكون هناك انسحاب تكتيكي، الظاهر انسحاب، فالعدو يطمئن ثم ننقض عليه ثانية، هذا انسحاب لا يعد تولياً، خطة عسكرية ذكية جداً.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ)

المتحرف لقتال رسم خطة محكمة فكان انسحابه وفق خطة من أجل أن ينقض على العدو مرة ثانية.

(أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ)

هو ضعيف انضم إلى جماعة أقوى منه، ضمّ قوته إلى قوة مؤمنين أقوى منه، بهذه الحالتين لا يعد تولياً من الزحف.

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ)

انتقل إلى حيز فئة أكبر منه، أما من يوليهم دبره ليس

(مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ)

لأنه رفض أن يقوي الحق، وإذا ضعف الحق قوي الباطل، وإذا قوي الباطل ضيق على الحق

(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أيهما أهون أن يموت الإنسان في سبيل الله فيستحق الجنة إلى أبد الآبدين، أو أن يتولى من الزحف فيستحق النار إلى أبد الآبدين ؟

(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأنفال)

آية دقيقة جداً.

الإنسان لا يملك إلا الإرادة لكن الله عز وجل يعينه و يمده بالقوة إن كان صادقاً:

إنسان يعجب من هذه الآية،

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

طبعاً الآيتين، أو الفقرتين بالآية متعلقتان بحقيقة التوحيد أن الفعل فعل الله، وأن الإرادة من الإنسان، الإنسان عندما ينوي أن يفعل شيئاً يمده الله بقوة لفعل هذا الشيء، ففي الحقيقة لا يملك إلا الإرادة، لكن الله أعانه، فإذا انتصرت في الحرب هذه قوة الله، أمدك بقوة منه، لك أنت عند أجر الانبعاث، الإرادة، النية الطيبة،

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ)

أي لا تعتدوا بفعلكم، فعلكم من توفيق الله، إن نجحت بالحرب، بالتجارة، بالدراسة، أنت حينما رغبت أن تحقق شيئاً لمسلمين أمدك الله بالقوة، فالكلام الدقيق: ليس هذا من فعلك لكنه فعل الله، إلا أن الله أكرمك به، لكن الله لماذا أكرمك أنت به ولم يكرم الآخر ؟ لأنك طلبت هذا الخير، إذاً منك الانبعاث ومن الله عز وجل الفعل.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

كلام دقيق جداً نجحت بالدعوة، الفضل لله عز وجل، ألهمك الصواب، أعانك، لكن لو أنك أردت هذا الشيء لما خصك الله به، جزء من الشيء منك، هي الإرادة، والاختيار، والنية الطيبة، والجزء الآخر منه من توفيق الله عز وجل.

لذلك: من شهد عمله فقد أشرك.

من ارتقى إيمانه ازداد تواضعاً و شعوراً بفضل الله عليه:

أخواننا الكرام، الإنسان أحياناً يفتن بالأسباب، يقول لك: عملت خطة دقيقة جداً ونفذت كل شيء، يفتن بالأسباب، ينبغي أن يعلم علم اليقين أن الفعّال هو الله، وأن فعلك من توفيق الله، لذلك: كلما ارتقى إيمانك يزداد تواضعك، وكلما ارتقى إيمانك يزداد شعورك بفضل الله عليك.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

الله أعانكم على الانتصار، هذا النصر بتوفيق الله، لكنكم صادقون استحققتم هذا النصر.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

أي في الظاهر أنت الذي رميت، ولكن في الحقيقة الله الذي رمى، رمى عن طريقك، فأنت لست فعالاً لكنك منفعل بفعل الله عز وجل.

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً)

البلاء امتحان، يفهم الناس البلاء أنه مصيبة لا، الابتلاء، الامتحان، الله امتحنكم فنجحتم .

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً)

الله عز وجل يمتحن كل عباده، سُئل الإمام الشافعي: **" أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".**

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

سميع بأقوالكم، عليم بأحوالكم، الإنسان حينما يبتلى فإما أن ينجح أو لا ينجح، فإن لم ينجح الله عليم بقلبه، وعليم بما قال، وإذا نجح عليم بقلبه وسميع بما قال.

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

(سورة الأنفال)

كل شيء وقع أراده الله و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

يا أخوان هناك أشياء كثيرة سلبية بحياتنا، لكن كل هذه السلبيات لها إيجابيات، أحياناً يُؤَلف كتاب يهاجم الدين، قد يقول أحدكم: لِمَ سمح الله له أن يفعل هذا ؟ هو فعل هذا من أجل أن يوقظ العقول، شبهة كبيرة طلاب العلم تأثروا، اضطربوا، سألوا علماءهم، أعطوهم الجواب العميق القوي فازداد إيمانهم، فأي إنسان مبطل لن يسمح الله عز وجل له أن يفعل شيئاً إلا ويوظف هذا الشيء لخدمة المؤمنين.

لذلك:

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

هذا المكر يعينهم الله على أن يحبط، فإذا أحبطناه ازددنا قوة، وإيماناً، وثقة بالله عز وجل، يجب أن تؤمنوا أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

والله الذي لا إله إلا هو لا يقع شيء على وجه الأرض مهما كان مؤلماً إلا وسنكتشف بعد حين الإيجابيات التي امتن الله بها علينا، حتى الحادي عشر من أيلول بعد حين إذا أمدّ الله بأعمارنا جميعاً ترون بركات الحادي عشر من أيلول كيف ساهمت بصحوة إسلامية، كيف أن الدين كان في دائرة التعتيم أصبح في بؤرة الاهتمام، كيف أن الدين كان ورقة خاسرة بيد الأقوياء أصبح ورقة رابحة، كيف أن الدين عمّ في الأرض كلها.

فلذلك: السلبيات هناك من يفكر في إيجابياتها،

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع شرح هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (07-30): تفسير الآيات 19 - 23 ، طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-05-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يحسم دائماً ما بين خلقه من خلافات:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة عشر وهي قوله تعالى:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

هذه الآية بدأت بكلمة

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا)

ولا يغيب عن أذهاننا جميعاً أن الكلمات في اللغة تبدأ بالمعاني المادية، ثم تتطور إلى المعاني النفسية، كيف ؟ الحقد انحباس المطر، ثم أصبح الحقد شعوراً مؤلماً يعتمل في النفس.

الفتح، فتح باب، فتح سجن، إطلاق سراح المساجين، أما الفتح بالمعنى الآخر المعنوي، يعني الحسم، هناك خلاف بين فئتين الله عز وجل يفتح بينهما أي يحسم بينهما، أحياناً يكون هناك طلاق، من الظالم لا نعرف، المظلوم يوفق، فالله تعالى حسم الأمر.

هناك معركة، الله نصر هذه الفئة، فدائماً الله عز وجل يحسم ما بين خلقه من خلافات.

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

* * *

فالله عز وجل قال:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا)

أي إن طلبتم من الله الحسم في أن توضح الحقائق.

النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام على حق، استفتحوا الله عز وجل فلما انتصروا في بدر، وفي الخندق، ولما فتح النبي مكة المكرمة، ودان له أهلها، الله حسم الأمر، ونحن إذا كنا مع الله يفتح لنا أي يحسم خلافاتنا مع أعدائنا، أما قضية عالقة من أربعين سنة، أو خمسين سنة ؟!

أنواع النصر:

قالوا: الحرب بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي. الحرب بين حقين لا تكون، الحق لا يتعدد، مستحيل أن يكون حرب بين حقين، بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، انتهى الأمر، لكن بين باطلين لا تنتهي، لذلك قالوا: هناك نصر استحقاقي:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

وهناك نصر آخر نصر تفضلي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ (5))

(سورة الروم)

هذا نصر تفضلي، أحياناً نسأل الله نصراً تفضلياً إن كنا لا نستحق النصر الاستحقاقي، و هناك نصر كوني، فئتان شردتا عن الله الذي عنده أسلحة مداها المجدي أطول ينتصر، الذي عنده أسلحة دقة الإصابة بها متناهية ينتصر، الذي عنده أقمار صناعية ينتصر، الذي عنده ثلاثين حليفاً على الحق والباطل ينتصر، في تحالفات دولية، في أقمار صناعية، في أموال طائلة، في إعلام خطير، إذا كان الطرفان المتحاربان شاردين عن الله الأقوى ينتصر، هذا اسمه نصر كوني.

وإذا جاءت شظية وقتلت مسلماً صحت عقيدته وتوحيده وأدى عباداته هذا منتصر نصراً مبدئياً، صار عندنا نصر استحقاقي، ونصر تفضلي، نصر كوني، نصر مبدئي.

أعظم إنجاز للإنسان أن يكون الله معه بالنصر و التأييد:

لذلك:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا)

أي يا كفار قريش وإن تنتهوا فهو خير لكم، كأن في هذه الآية وعيد للكفار إذا أدركتم أن هذا نبي كريم، وأن الله معه، وإذا كان الله معه فمن عليه ؟ وكففتم عن محاربته فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، إن تعودوا إلى محاربته نعد إلى نصره.

أعظم إنجاز لك أن يكون الله معك، الله عز وجل مع كل خلقه:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

أما إذا قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين)

(سورة الأنفال)

هذه معية خاصة أي معهم بالنصر، والحفظ، والتأييد، والدعم، إن تعودوا إلى حربهم نعود إلى نصرهم:

(وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ (19))

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249))

(سورة البقرة)

فالعدو أحياناً يعتد بقوته، يعتد بأسلحته، يعتد بخبراته، يعتد بأقماره الصناعية، فالله عز وجل يقول:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

بعد آيتين:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

الصبر مع الطاعة طريق النصر:

أما أن تحل مشكلات المسلمين في الأرض بكلمتين في القرآن هذا واقع:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: 120)

الصبر مع الطاعة طريق النصر، أما الصبر أي القهر مع المعصية ليس بعدهما إلا القبر، إن أردتم النصر اصبروا واتقوا، هذا ملخص الملخص:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

هذه المعية الخاصة معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق.

أشقى الناس من وقف في خندق معاد للمؤمنين:

لذلك أشقى الناس من وقف في خندق معاد للمؤمنين، الآية الكريمة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

امرأتان حفصة وعائشة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم الآية: 4)

ما معنى الآية ؟ أي أنت حينما تحارب مؤمناً هل تعلم من وراءه ؟ أحياناً تخاف من طفل صغير لكن وراءه أب كبير، تخاف من دولة صغيرة لكن وراءها دولة كبيرة، تخاف من موظف وراءه الدولة كلها، الإنسان كلما نما عقله عرف من وراء خصمه، أسعد إنسان من وقف في خندق مع أهل الحق، وأشقى إنسان من وقف في خندق معاد لأهل الحق.

الذين كانوا من سادة قريش وزعماء قريش هم الأغنياء، والأقوياء، والوجهاء العظماء، والمؤمنون كانوا ضعفاء، مضطهدين، فقراء، بالنهاية زعماء قريش أين هم ؟ تقول سيدنا أبو جهل ؟ هل تتكلم أنت بهذا الكلام ؟ مستحيل، تقول سيدنا الصديق، سيدنا عمر، وأبو جهل لعنه الله، طبعاً لأنه حارب الحق، لذلك أكبر إنجاز لك أن تكون مع المؤمنين، وأكبر خطأ ترتكبه أن تكون في صف معادٍ للمؤمنين.

خطاب الخاصة من المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة الكرام، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

قلت كثيراً في دروس سابقة: إن الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس عامة بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (21))

(سورة البقرة)

ويخاطب الذين آمنوا، لأنهم آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، آمنوا به، آمنوا بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، آمنوا بحكمته، ورحمته، وعلمه، وقدرته، لهذه الأسباب كلها هم يخاطبون خطاباً خاصاً، يخاطبون بفروع الدين، وأي أخ كريم مؤمن يتلو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا فلا يشعر أن هذا الكلام موجه إليه ففي إيمانه شك، ما لم تشعر حينما تقرأ قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أن هذا الخطاب إليك ففي الإيمان خلل.

أي بلاغ عام إلى كل الأطباء في القطر، وأنت طبيب، وهناك قرار حاسم إيجابي أو سلبي، فإن لم يخطر في بالك أنك معني بهذا الخطاب فأنت قطعاً لست طبيباً، و حينما تستمع إلى بلاغ موجه إلى كل الأطباء أنه: ما لم ينل الطبيب ترخيصاً بمزاولة المهنة لأول العام فلا يسمح له بفتح العيادة، وأنت طبيب، هذا قرار مصيري، تتعلق سلامتك واستمرارك بتنفيذ هذا البلاغ، فإن لم يكن يعنيك هذا القرار

فأنت قطعاً لست طبيباً، مادام ممنوع أن تفتح العيادة إلا بترخيص جديد، وأنت طبيب، ورزقك من هذه الحرفة، تقول: أنا ليس لي علاقة.

من أراد أن يحدث الله عز وجل فليدعه:

لذلك مقياس خطير حينما تقرأ قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، علامة إيمانك أنك معني بهذا الخطاب. حتى بعضهم قال: إذا أردت أن تحدث الله فادعه، يا رب لك الحمد، يا رب وفقني، يا رب انصرني، يا رب اهدني واهدِ بي، وإذا أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن، الله عز وجل يقول لك: يا أيها الذين آمنوا، وأنت في الصلاة قد لا تنتبه بعد أن تركع ماذا تقول ؟ سمع الله لمن حمده، الله يسمعك الآن فخاطبه، اشكره، ادعه.

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (20))

أيها الأخوة، أطيعوا الله في كليات الدين التي تجدونها في القرآن الكريم، وأطيعوا رسوله في تفاصيل الدين التي تجدونها في سنته المطهرة، فأنت ينبغي أن تطيع الله بقرآنه، وأن تطيع النبي فيما صحّ من سنته، والقرآن وحي متلو، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي غير متلو.

بطولة الإنسان أن يكون عبد شكر لا عبد قهر:

أيها الأخوة:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ (20))

طبعاً أطيعوا الله ورسوله، أي قد يتبادر إلى أحدكم ولا تولوا عنهما، قال تعالى:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ (20))

لأنك لا تستطيع أن تتولى عن الله، حياتك بيده، وقيامك بيده، وسمعك بيده، وبصرك بيده، وقلبك بيده، وأجهزتك بيده، ودسامات قلبك بيده، والشريان التاجي بيده، وزوجتك بيده، وأولادك بيده، والأقوياء بيده، والطغاة بيده، ومن دونك بيده، ومن حولك بيده، والرزق بيده، والسعادة بيده، لم يقل: ولا تتولوا عنهما، لأنك لن تستطيع أن تتولى عن الله عز وجل، لكن بطولتك أن تكون عبد الله، عبد إحسان لا عبد امتحان، هناك من هو عبد لله، عبد شكر، وهناك عبد قهر، ما معنى عبد قهر ؟ مهما تكن عظيماً، مهما تكن قوياً، مهما تكن متفوقاً، مهما تكن متمكناً، قوتك وتمكنك وهيمنتك منوطة بسيولة دمك.

والله أحياناً تتجمد قطرة من الدم لا ترى بالعين في أحد فروع أوعية الدماغ، بمكان شلل، بمكان فقد بصر، بمكان عمى، خثرة في الدماغ لها مضاعفات تنهد لها الجبال، وقد يكون ملكاً، خثرة في الدماغ، أصيب بالشلل، فانتهى بثانية، و بقي شكلاً عشر سنوات إلى أن توفاه الله، يكون ملكاً.

فبطولتك أن تكون عبد شكر لا عبد قهر، أما كل البشر عبيد قهر.

من عرف الله سلم و سعد في الدنيا و الآخرة:

لا يوجد إنسان إلا في قبضة الله بأي لحظة، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه ؟

((اللهم إنا أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك))

[الجامع الصغير عن أبي نعيم]

فجأة، بثانية، فقدت كل شيء.

لو أن خللاً عقلياً أصاب صاحب البيت ـ هو الذي اشترى هذا البيت، هو الذي زينه، هو الذي اختار الأثاث، هو الذي ينفق عليه، هو الذي له المكانة الكبرى ـ أقرب الناس إليه زوجته تتوسط كي يكون له مكان في مستشفى المجانين.

فكل قيامك بالله، مكانتك بالله، رزقك بالله، دخلك بالله، هيمنتك بالله، قوة تأثيرك بالله، أنت حينما تعلم أنك بيد الله، من أدق أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أنا بك قائم بك))

إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، اللهم أنا بك قائم بك وإليك، هذا المعنى التوحيدي، هذا الشعور أنك في قبضة الله، وأن الله على كل شيء قدير، وأنك إذا عرفته سلمت وسعدت في الدنيا والآخرة، وأنك إن نسيته بثانية تفقد كل شيء.

الذي يسمع الحق هو الذي يطبقه فقط:

أيها الأخوة الكرام،

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

في قرآنه في كليات الدين، والرسول فيما صحّ من سنته في تفاصيل الدين:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ)

على من تعود ؟ على النبي عليه الصلاة والسلام، ما قال ولا تولوا عنهما، لأنك مستحيل أن تتولى عن الله عز وجل:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

الله عز وجل هداك بالكون، هداك بالقرآن، هداك بالنبي العدنان، هداك بالدعاة إلى الله، الله عز وجل أسمعك الحق، لكن الله جلّ جلاله كأنه يريد أن يقول لنا: إن الذي يسمع الحق هو الذي يطبقه فقط، أما الذي يسمع ولا يفعل كأنه ما سمع.

مثلاً: قلت لإنسان على كتفه عقرب كبيرة: على كتفك عقرب، بقي هادئاً، التفت نحوك وابتسم، وقال لك: شكراً لك على هذه الملاحظة، وأتمنى أن أرد لك الجميل، هل فهم ما قلت له ؟ إطلاقاً ما سمع شيئاً، لو أنه فهم لصرخ، وقفز، وخلع معطفه فجأة، فالذي يسمع ما عند الله هو الذي يطبق:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: 4)

مثلاً: درس سمعته إن لم تطبقه لم تسمع شيئاً.

إقامة المسلمين على الآثام و المعاصي أبعدهم عن تطبيق كلام الله عز وجل:

صدقوا ولا أبالغ القرآن الكريم يتلى أناء الليل وأطراف النهار، في كل مكان، ولأن المسلمين مقيمون على المعاصي والآثام والله ما سمعوا شيئاً.

مرة اعترضني إنسان و دعاني إلى محله التجاري في أحد أسواق دمشق، قال لي: خطب ابنتي شاب وسيم، ويملك معملاً باسمه، وأنا أرى أن هذه الفرصة فرصة نادرة لن تعوض، لكن هناك رقة في دينه، فما تقول ؟ هو مقتنع مئة بالمئة لكن يحتاج إلى غطاء ديني، يريد شيخاً يقول له: ما شاء الله لا تقف، قلت له: إذا قال الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

فعندما تنتهي من قراءة هذه الآية تغلق المصحف وتقول: صدق الله العظيم، فإن زوجت ابنتك لهذا الإنسان أنت لم تصدق ربك العظيم، أنت ما صدقته، طبعاً زوجه إياها، وبعد سبعة عشر يوماً من العرس طلقها، كان بمصيف فتح باب السيارة وركلها برجله، وعاد إلى الشام لأنه ما صدق قول الله عز وجل.

والله أعرف إنساناً يملك محلاً تجارياً، ثلاث واجهات بثلاث واجهات، وتحته مستودع بحجم المحل، وفوقه مكتب استيراد بحجم المحل، وله بيت أربعمئة متر في البناء نفسه، أخذ قرضاً ربوياً، فباع المحل، وباع البيت، وباع المستودع، وباع المكتب، واشتغل تاجر حقيبة، الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

يجب أن تصدق، العالم كله انبطح أمام انهيار النظام المالي، لأن النظام المالي اعتمد على الربا، واعتمد على المتاجرة بالقيمة لا بالسلعة، واعتمد على بيع الدين.

بطولة الإنسان أن يَصْدّق الله في كل ما يقول:

عندنا ثلاثة محرمات، نظام عالمي حقق أرباحاً فلكية، أي برميل النفط من خمسين إلى مئة وخمسين، المواد الأولية ارتفعت عشرة أمثال، العالم كاد يرقص من النمو التجاري فجأة، خسر العالم خمسة وعشرين تريليون دولار، أي لا يوجد إنسان إلا فقد نصف ماله، لأن الله يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (276))

(سورة البقرة)

كل بطولتك أن تصدق الله فيما يقول، فإن لم تصدق لا بد من أن تصدق بعد فوات الأوان، صدق قبل فوات الأوان، ابتعد عن الحرام.

طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسوله:

أيها الأخوة الكرام، الآن فكرة جديدة:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (80))

(سورة النساء)

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عين طاعة رسوله، وإرضاء الله عين إرضاء رسول الله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، الآية الكريمة:

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (80))

(سورة النساء)

حكماً.

الكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة:

شيء آخر:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر)

فأنت لست مخيراً، ينبغي أن تطيع الله ورسوله، أن تطيع الله في كليات الدين وهي في القرآن الكريم، أي أقيموا الصلاة، أما كم ركعة، السنة القبلية، البعدية، الركوع، السجود، تفصيلاتها تأتي في السنة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة الآية: 110)

الزكاة، الأنصبة، ومصارف الزكاة، طريقة دفع الزكاة عيناً أو نقداً هذه في السنة، كأن القرآن مجمل والسنة تفصيلية، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة الآية: 2)

الكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، القرآن الكريم قطعي الثبوت، أما آياته بعضها قطعية الدلالة، وبعضها ظنية الدلالة، أما الحديث بعضه قطعي الثبوت وبعضه ظني الثبوت ـ الأحاديث الضعيفة ـ وبعضه موضوع.

فأنا أقول دائماً: أطيعوا الله في قرآنه، وأطيعوا الرسول فيما صحّ من سنته، في الحديث هناك حديث موضوع، و حديث صحيح، و حديث متواتر، فنحن بالأحاديث فيما صح من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

إرضاء الله عين إرضاء رسول الله وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله:

أيها الأخوة، النقطة الدقيقة بالآية الكريمة:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ (62))

(سورة التوبة)

قد يقول أحدكم: أحق أن يرضوهما، هكذا اللغة، أما القرآن الكريم:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (62))

(سورة التوبة)

ضمير الغائب المفرد، استنبط العلماء أن: إرضاء رسول الله عين إرضاء الله، وأن إرضاء الله عين إرضاء رسول الله.

علاقة كل إنسان مع الله وحده لأن الله رقيب و عليم:

أيها الأخوة الكرام، هناك فكرة دقيقة أن الله بالمرصاد، أن الله رقيب، فلو أن مظلوماً ظلم، والمظلوم سامح الظالم، لا بد من حق عام، الله موجود وسيحاسب، لو سامحته، هناك تأديب من الله، أنت علاقتك

مع الله، أحياناً إنسان يتمكن بذكاء شديد أن يستصدر فتوى من عالم جليل، لكن بحسب العرض الذكي كأنه يستنطقه بفتوى لصالحه، ويظن أنه ذكي جداً، وأنه بهذه الفتوى فعل ما يشاء دون أن يحاسبه الله عز وجل، وهو غبي جداً، لو انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام، المعصوم، سيد الأنبياء والمرسلين، لو انتزعت من فمه فتوى ولست محقاً بها لن تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

العلاقة مع الله وحده، لو أخوك سامحك، لو كان ضعيفاً و لم يستطع أن يطالبك، أو لو أوهمته وصدقك، هناك حساب مع العليم، مع الرحيم، مع الحكيم، مع الغني، مع القدير.

الله عز وجل أمر الأنبياء أن يبلغوا الناس شفاهاً :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

الآن: الله عز وجل أمر الأنبياء أن يبلغوا الناس شفاهاً، الآن هناك انترنيت، و ايميل، و كتاب، و نشرة، و أخبار، لكن الأصل في التبليغ أن يكون شفهياً، هذا الأصل.

لذلك الأنبياء أبلغوا أقوامهم إبلاغاً شفهياً، هذا الشفهي يكتب وينقل، أما الأصل في التبليغ أن تُبلّغه شفهياً، لكن هذا الذي أبلغه النبي عليه الصلاة والسلام كُتِبَ وأصبح محفوظاً.

معرفة الله عز وجل أصل الدين:

لذلك قال تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

والله هناك تفسيرات لطيفة لهذه الآية، من تفسيراتها: أن العقل هو الرسول، العقل كاف لمعرفة الله، أحياناً تركب طائرة أحدث موديل، تقل أربعمئة راكب، تطير بسرعة ألف كيلو متر على ارتفاع أربعين ألف قدم، فيها مقاعد وثيرة، الجو مريح، كل شيء متوافر في هذه الطائرة، هل تصدق أن انفجاراً تمّ في بعض مستودعات المعادن فكانت هذه الطائرة، هل تصدق ؟ هناك عشرة آلاف مهندس، وعشرة آلاف

مصمم، و أكثر من مئتي ألف جهة تصنع جزئيات الطائرة، تصدق أن طائرة صنعت وحدها ؟ الطائرة أمام أي شيء الله خلقه لا شيء.

مرة عندي موسوعة علمية من أرقى الموسوعات، و هي موسوعة مترجمة، في بحث الطيور مكتوب: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير.

الطير أحياناً يطير ستاً وثمانين ساعة بلا توقف، عنده نظام تبريد عجيب، أي الهواء البارد يصل إلى كل أنحاء جسمه، العضلات المستمرة بالعمل تزداد حرارتها لابدّ من تبريد، تصميم الطائر مذهل، إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير، فلذلك لا بد من أن نعرف الله عز وجل.

العقل كاف لمعرفة الله والفطرة كافية لمعرفة الخطأ:

لو فكرنا في هذا الكون لعرفنا الواحد الديان، فالعقل كاف لمعرفة الله، والفطرة كافية لمعرفة الخطأ، مثلاً: إنسان يسكن مع أمه، ومضى أسبوع لم يأكلا شيئاً، ثم أصاب طعاماً نفيساً فأكله وحده، وبقيت أمه جائعة، هذا الإنسان ألا يعرف في فطرته أنه أخطأ ؟ يحتاج إلى معلم ؟ إلى مرشد ؟ بالفطرة يكشف الخطأ، والدليل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

فنحن نقول: الإنسان إذا لم تبلغه الرسالات يحاسب على عقله الذي يكفيه لمعرفة الله، ويحاسب على فطرته التي تكفيه لمعرفة الخطأ الذي ارتكبه، ولكنه معفى من تفاصيل الشريعة، هذا اجتهاد وأرجو الله عز وجل أن يكون صواباً.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20)وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

ما لم يؤدِ الإنسان ما له و ما عليه لا قيمة لإيمانه إطلاقاً:

الآن: أية آية تقرأها وتخالفها أنت لم تقرأها، أية آية سمعتها وأنت تخالفها أنت لم تسمعها:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)).

المسلمون مليار وخمسمئة مليون هل ترى في أعمالهم ما يؤكد أنهم مؤمنون باليوم الآخر ؟ أبداً، إذا في سبعين ألف دعوى كيدية بقصر العدل، اغتصاب بيت، اغتصاب شركة، إذا إنسان يريد أن يأكل المال الحرام، يريد أن يأخذ ما ليس له، هذا مؤمن بالحساب ؟ مستحيل وألف ألف مستحيل.

لذلك قرن الله الإيمان بالله باليوم الآخر، المؤمن الصادق يسأل نفسه بكل دقيقة ماذا أقول لله عز وجل يوم القيامة لو سألني لما طلقتها ؟ لما أخرجت شريكك من الشركة بعد أن أخذت خبرته، وأكدت له أنك معه إلى الأبد ؟ وعندما أخذت خبرته، والمال مالك طردته، أو ضايقته حتى انسحب من الشركة، الله كبير.

والله يا أخوان ما لم تؤدِ ما عليك فلا قيمة لإيمانك، ما لم تؤد ما عليك فلا قيمة لعباداتك، ما لم تؤدِ ما عليك فلا قيمة لعقيدتك، شيء خطير:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

أليس هناك غش في حياة المسلمين ؟ في بيعهم وشرائهم ؟ هذا الذي يغش المسلمين يصلي ما قيمة صلاته ؟ تضع مادة مبيضة لكنها مسرطنة من أجل أن يزداد ربحك، إذاً أنت ألغيت عباداتك جميعها.

على الداعية أن يُبلغ الدين بمضمون عميق وتفسير دقيق وتحليل مقنع:

أيها الأخوة الكرام، إلى موضوع التبليغ.

هناك مقولة رائعة جداً وهي: حينما تدعو إلى الله بمضمون هزيل، بمضمون سطحي، بقصص، بمنامات، بكرامات، وبلا أسلوب علمي ولا تربوي، المدعو بهذه الطريقة لا يكون عند الله مُبلّغاً، ويقع إثم تفلته على من دعاه بهذه الطريقة، فأنت إذا بلغت هذا الدين ينبغي أن تبلغه بمضمون عميق، وتفسير دقيق، وتحليل مقنع، وبأدلة قوية نصية وعلمية، وبأسلوب تربوي، حتى يعد هذا الذي تلقى منك هذه الدعوة مبلغاً عند الله.

يقول لك: أنا هكذا نشأت من أب غير مسلم ما ذنبي ؟ كم ابن كره حرفة أبيه واختار حرفة ثانية ؟ لو فرضنا سوف يسمح ببيع الوقود بربع السعر، ولكن عن طريق بطاقة خاصة مثلاً وبلاغ أذيع، يبقى مواطن لا يبحث عن هذه البطاقة ؟ أي سعر الحر أربعة أمثال السعر المخفض، فالمخفض ينزل للربع، لكن يحتاج إلى معاملة، إلى بطاقة معينة، وإلى دفتر، و قسائم إلى آخره، يبقى مواطناً واحداً لا يبحث عن هذه البطاقة ؟ لماذا في شؤون دنياك أنا إنسان يقظ وحذر ؟ عندك بيت تملكه تريد بيعه، خرجت من البيت رأيت في وجهك تاجر بيوت قال لك: هذا ثمنه ثلاثة ملايين تبيعه رأساً ؟ تسأل خمسين دلالاً، لماذا في أمور دنياك دقيق تحقق، تسأل، تستنبط، لماذا ؟ أنا هكذا الله خلقني، أنا من أب غير مسلم، لما لم تبحث عن الإسلام الحقيقي ؟ لما كرهت حرفة أبيك ولم تكره دين أبيك ؟ لا يوجد حجة، الحجة قائمة:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(22))

الإنسان إما أن يكون من أول المخلوقات عند الله وإما أن يكون إنساناً غافلاً عن الله:

سامحوني بهذه الكلمة: إما أن تكون إنساناً أنت من أول المخلوقات عند الله، وإما أن تكون إنساناً غافلاً عن الله، ومتفلتاً من أمره، ومنحرفاً في سلوكه، دابة، أو دابة فلتانة، همه بطنه وفرجه، همه المال من حلال، من حرام، همه مصالحه، والله اسمع قصصاً لا تنتهي، عندك زوجة مؤمنة، طاهرة، عفيفة، خاضعة، طائعة، لأنه أعجب بفتاة بعمله، صاحبها، ورافقها، واستغنى بها عن زوجته، وترك زوجته وأهمل أولاده، أين عقله ؟ من دون دين الإنسان ينحرف انحرافاً خطيراً، حينما يكتشف الحقيقة يكاد يموت ألماً، فلذلك أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21)إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(22))

طبعاً هناك جماد وفوق الجماد يوجد نبات، وفوق النبات يوجد حيوان، وفوق الحيوان يوجد إنسان، فأنت أرقى المخلوقات، الجماد والنبات والحيوان والإنسان، إذا مات العبد الفاجر:

((يستريح منه العبادُ والبلادُ، والشجر والدواب))

[متفق عليه عن أبي قتادة]

بقي أحد ؟ فلما انصرف قبل أشهر زعيم الكتلة الغربية في أمريكا، استراحت منه البلاد، والعباد، والشجر، والدواب.

انظر إلى الأنبياء، تذهب إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام بعد ألف وأربعمئة عام تبكي بكاء شديداً، هل رأيته ؟ ماذا قدم لك ؟ لكنه كان إنساناً كاملاً، كان إنساناً يمثل الكمال الإلهي.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، الفرق الآن بين المؤمن وغير المؤمن فرق كبير جداً، مؤمن طاهر، صادق، أمين، عفيف، متواضع، منصف، رحيم، إنسان آخر خسيس، دنيء، كذاب، منافق، يأخذ ما ليس له، يعتدي:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

عدم استواء المؤمن مع غير المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، لا تصدقوا أن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن الصلاة، لا، هناك فروق لا تعد ولا تحصى.

إنسان مجموعة كمالات، مجموعة مبادئ، مجموعة قيم، تعشقه من كماله، وإنسان مجموعة نقائص، وانحرافات، تمقته من جريمته، من يتحمل منكم يشم رائحة قطعة لحم متفسخة ؟ أحياناً يموت حيوان بالفلاة من قبل خمسين متراً تكاد تخرج من جلدك من رائحته النتنة، وأحياناً تكون جائعاً، يقدم لك طعام لحوم مشوية من أرقى مستوى، هذا لحم وهذا لحم، كم المسافة بينهما ؟ صدق ولا أبالغ المسافة بين المؤمن وغير المؤمن كالمسافة بين رائحة قطعة لحم متفسخة، وقطعة لحم مشوية طازجة، الفرق كبير:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مؤمن صادق، أمين، لا يخون، لا يكذب، عفيف، لا يخدع، لا يتآمر، يقدم لأمته كل خير، في معاملاته طيب رحيم، وإنسان دنيء خسيس لئيم.

يقول سيدنا علي: **<< والله، والله، مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين >>.**

لا تسمى عند الله مستمعاً إلا إذا نفذت ما سمعت:

أيها الأخوة الكرام:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

لا تسمى عند الله مستمعاً إلا إذا نفذت ما سمعت، وإذا لم تنفذ لا قيمة لكل الدروس التي تحضرها، لا قيمة لكل المحاضرات التي تتلقاها:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

من كان فيه ذرة خير أسمعه الله الحق ليهديه إلى الطريق المستقي:

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً لو أن إنساناً فيه واحد بالمليار خير، لا بد من أن يسمعه الله الحق، كي أطمئنكم، لأن الله عز وجل ماذا قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وعلى إذا جاء مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، إنسان ساكن بألاسكا، بأقصى الشمال الغربي في العالم، ويبحث عن الحقيقة، يسافر إلى بلد في أمريكا، ويتجنس بالجنسية الأمريكية، ويذهب إلى الشرق الأوسط بحملة، ويلتقي بعالم مسلم، ويقنعه بالإسلام ويسلم، لا تصدق أن إنساناً عنده خير واحد بالمليار إلا الله عز وجل يسمعه الحق، هذه الآية تحل مليون مشكلة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

مرة التقيت مع مندوب شركة من هولندا، فأردت أن أحدثه عن الله عز وجل، لم أتكلم بكلمتين حتى قال لي: هذه المعلومات لا تعنيني، ولا أهتم بها، ولا ألقي لها بالاً، أنا يعنيني أشياء ثلاثة ؛ امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، ومات، والله بحياتي ما تذوقت هذه الآية إلا بعد أن أجابني هذا الجواب:

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

الله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق:

لا تصدق أن إنساناً فيه ذرة خير واحد بالمليار إلا الله عز وجل يسمعه الحق، والحق يصل إليه لقوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل).

الله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق.

مرة شخص من أخواننا الكرام سافر إلى أمريكا، دخل إلى مسجد، وجد شخصاً ينظف دورات المياه، و هو يتمتع بمستوى رفيع جداً، سأله عن نفسه فقال له: أنا ضابط بالجيش الأمريكي، و عندما كنا في الخليج التقيت مع إنسان مسلم، أقنعني بالإسلام فأسلمت، لأن فيه خير ساقه الله إلى بلد إسلامي، والتقى

مع عالم مقنع، وأقنعه، وأسلم.

لا تصدق، اطمئن، لا تقلق على الآخرين، هذه الآية اعتبرها منهجاً:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

أنت تبحث عن الحقيقة، الله عز وجل يقودك إلى مكان ترتاح له، هو ينتظرك:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

والذين رفضوا الحق، تفضل وقل لهم الحق، قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا ألقي لها بالاً، ولا أهتم لها، أنا يعنيني أشياء ثلاثة ؛ امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارهة، وقتها أنا تذوقت هذه الآية:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ (23))

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (08-30): تفسير الآية 24 ، الاستجابة للنبي هي عين الاستجابة إلى الله تعالى فالله مشرع والنبي مبلغ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-05-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يأمر عباده بالاستجابة له بكليات الدين و بالاستجابة لرسوله بتفاصيل الدين:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن من دروس سورة الأنفال ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

كما ألفنا أن كل الآيات التي تبدأ بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) يجب أن تشعر بداهة أنك معني بها، وكأن الله عز وجل يقول: يا من آمنت بي، يا من آمنت بي واحداً وكاملاً، يا آمنت بأسمائي الحسنى، وصفاتي الفضلى، يا من آمنت بحكمتي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت برحمتي، يا من آمنت بقدرتي، يا من آمنت بغناي، افعل كذا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

كأن الله يقول: استجيبوا لله في قرآنه بكليات الدين، واستجيبوا لرسوله بأحاديثه في تفاصيل الدين،

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

من خلال قرآنه بكليات الدين، واستجيبوا للرسول من خلال أحاديثه الصحيحة بجزئيات الدين، فالقرآن مجمل والسنة مفصلة، للتقريب:

إنسان غاب عن المدرسة خمسة عشر يوماً، ففصل، والد هذا الطالب استشار محامياً هل بالإمكان أن يعترض على هذا القرار ؟ فالمحامي المبتدئ قرأ الدستور كله فلم يجد أنه إذا غاب الطالب عن مدرسته خمسة عشر يوماً يُفصل، فلما سأل محامياً آخر، قال له: الدستور أعطى وزير التربية صلاحية وضع تعليمات، فلو رجعت إلى التعليمات التي أصدرها وزير التربية في شأن النظام الداخلي للمدارس تجد أن الذي يغيب عن الصف خمسة عشر يوماً يُفصل هذا المثل للتقريب.

القرآن الكريم كالدستور، أما السنة كالقوانين، القوانين تفسر، وتعطي الجزئيات، والحيثيات، والحالات الخاصة، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة:

بالمناسبة حينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

هذه الخيرية لها علة، ما علة الخيرية ؟

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

إذاً الأمة الإسلامية التي استجابت لله عز وجل هي أمة خيرة، علة خيريتها

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

فحينما يأتي في آخر الزمان أناس لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للنبي:

((أو كائن ذلك))

أي معقول أن يأتي في آخر الزمان مسلمون لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر ؟ فقال:

((وأشد منه سيكون ـ عجبوا أكثر ـ وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، قالوا: أوكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة بسند فيه ضعف].

ففي أمة الإسلام إن لم نأمر بالمعروف، أو لم ننهَ عن المنكر، أو أمرنا بالمنكر ونهينا عن المعروف، أو أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً فقدنا خيريتنا.

أي الذي يُحصل مالاً حراماً وفيراً، يحل به مشكلاته، يسمى عند المنحرفين شاطراً، والذي ينافق لجميع الجهات يسمى عند الشاردين لبقاً مرناً، وكل النقائص والأخطاء الكبيرة التي هي أصل في هذا الدين لها اسم آخر، الفتاة المتبذلة التي تعرض كل مفاتنها في الطريق تسمى باسم أجنبي ـ سبور ـ هذه فتاة سبور، كأنه مدح مع أن الحقيقة إنها تخالف منهج الله عز وجل.

من أحبّ الله عز وجل حقيقة لن يُعذب أبداً:

لذلك:

((إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً))

إذا لم يأمر الناس بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، بل إذا أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، بل إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، هذه الأمة بكل جرأة ليست

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

إنها أمة كأية أمة شردت عن الله عز وجل، الدليل:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

استنبط العلماء أن الله لا يعذب أحبابه، بمعنى أنهم لو أحبوه حقيقة لما عذبهم

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

وهذه نقيس عليها المسلمين، فإذا قال المسلمون: نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، نحن الأمة المختارة، نحن

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

بنص القرآن الكريم الرد الإلهي جاهز، ما الرد الإلهي ؟

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

والحقيقة:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

المعنى الثاني:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: 33).

ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة فينا مستحيل وألف ألف مستحيل أن نُعذب، و هذا دليل أن منهج النبي صلى الله عليه وسلم ليس مطبقاً في حياتنا.

تقسيم أمة النبي الكريم إلى أمتين:

لذلك: اضطر العلماء أن يقسموا أمة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمتين ؛ إلى أمة التبليغ، وإلى أمة الاستجابة، المسلم الذي استجاب لله وللرسول حينما دعاه الله لحياة تليق بكرامة الإنسان، هذا الذي استجاب داخل في أمة الاستجابة، والذي لم يستجب داخل في أمة التبليغ، أمة التبليغ ليس لها أية ميزة عند الله إطلاقاً، والدليل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

أنا لا أريد أن تتوهموا لمجرد أن ننتمي إلى رسول الله نحن متفوقون، أبداً، المتفوق هو الذي يتبع النبي الكريم، فإن لم يكن هناك اتباع فكل الوعود الإلهية معطلة، كيف ؟

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم).

أين النصر ؟

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات).

أين الغلبة ؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية: 55).

أين الاستخلاف ؟

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ)

(سورة النور الآية: 55).

أين التمكين ؟

(الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية: 55).

أين الأمن ؟ لا أمن، ولا تمكين، ولا استخلاف، ولا نصر، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم).

وقد لقينا ذلك الغي.

من عرف الله والتزم بمنهجه وأحسن إلى خلقه هذا الإنسان حيّ حياة ثانية:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هناك حياتان، حياة هذا الجسم، الحي يشعر، يجوع، يعطش، يشعر بالحر، بالقر، يخاف، هذه المشاعر علامة حياته، يتحرك، وهذه الحركة علامة حياته، شعوره وحركته تؤكدان حياة جسمه، لكن إن لم يعرف ربه فهو ميت.

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر).

يقصد بهم الكافرين.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ).

(سورة النحل الآية: 21).

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

* * *

إذاً عندنا حياة أخرى، إنسان يأكل ويشرب كالبهائم، همه بطنه وفرجه، وأنا أفهم أحياناً قوله تعالى عندما مسخ الله اليهود إلى قردة وخنازير، القرد همه بطنه، والخنزير همه فرجه، فالإنسان لمجرد أن يكون همه الأول فرجه وبطنه فهو قرد وخنزير، وقد مسخ قرداً وخنزيراً، أما أنت مؤمن، لماذا أنت في الدنيا ؟ لماذا جاء الله بك إلى الدنيا ؟ ما المهمة التي أنيطت بك في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ أين كنت قبل الموت ؟ ما العمل الذي ينبغي أن تفعله في الدنيا ؟ هذا الذي عرف الله، عرف أسماءه الحسنى، و صفاته الفضلى، عرف حكمته، عرف رحمته، عرف قدرته، عرف حلمه، عرف بطشه، عرف غناه، عرف قوته، هذا الإنسان حينما عرف الله، والتزم بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، هذا الإنسان حي حياة ثانية.

الاستجابة إلى النبي الكريم عين الاستجابة لله:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

هنا يوجد نقطة

(إِذَا دَعَاكُمْ)

ألا ترى معي بحسب قواعد اللغة

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

بحسب القواعد ينبغي أن تكون الآية إذا دعاكم، المدير والمعلم دعوا الطالب إلى الاجتهاد، أما حينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هناك ملمح بلاغي رائع ؛ أنك استجبت إلى رسول الله، واستجابتك إلى النبي الكريم عين استجابتك لله، وإذا استجبت لله عز وجل بأمر قرآني هذه الاستجابة عين استجابتك لرسول الله، لأن النبي عليه الصلاة

والسلام مُبلّغ عن ربه، الله عز وجل أوحى إلى النبي والنبي بلغنا، فهناك وحي من الله إلى النبي، وهناك إبلاغ من النبي إلينا.

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في وحيه،

(وَلِلرَّسُولِ)

لإبلاغه، والله أوحى لنبيه، والنبي أبلغ أمته،

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في إبلاغه للنبي هذا القرآن العظيم، واستجيبوا للنبي صلى الله عليه وسلم في إبلاغه لكم

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

من لم يقل أنا اسعد الناس ففي إيمانه خلل:

أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو أقل كلمة يوصف بها من غفل عن الله، ومن عبد هواه، ومن جعل إلهه هواه، أقل كلمة يوصف بها بأنه ميت، تجلس مع إنسان لا مبادئ، ولا قيم، ولا إيمان، ولا ورع، ولا غيرة، ولا هدف، ولا خدمة، ولا نصيحة، همه بطنه وفرجه فقط، همه الأول أن يأكل، وأن يستمتع بالدنيا، وهمه الثاني فرجه، هذا مسخ قرداً وخنزيراً.

فيا أيها الأخوة الكرام،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

يا من آمنتم بي موجوداً، وآمنتم بي واحداً، وآمنتم بي كاملاً، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى وصفاتي الفضلى، يا من آمنتم برحمتي، بحكمتي، بقدرتي، بحلمي، يا من آمنتم بي

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في قرآنه الذي أوحاه إلى النبي

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

واستجيبوا للنبي في سنته التي هي بيان للقرآن.

لماذا ؟

(لِمَا يُحْيِيكُمْ)

والله الذي لا إله إلا هو ما لم تقل بعد أن اصطلحت مع الله أنا إنسان آخر، إنسان أشعر بالحياة، إنسان أشعر أني إنسان ففي الإيمان خلل.

والله شخص من الأخوة الكرام توفاه الله، ذهب إلى الحج، ولما عاد زرته مهنئاً، أقسم لي بالله ولم يحنث، قال لي: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.

والله الذي لا إله إلا هو إن لم تقل بأي ظرف، بأي سن، بأي وضع، أعزب ، متزوج، غني، فقير، صحيح، مريض، ساكن بالمدينة، بالريف، لك أب، ليس لك أب، بأي وضع إن لم تقل أنا أسعد الناس ففي الإيمان خلل، أنت مع من ؟ أنت مع خالق السماوات والأرض ؟ مع القوي، مع الغني، مع القدير، مع العليم، مع الحكيم، مع الرؤوف، مع الرحيم، أنت مع من ؟.

الإيمان مرتبة أخلاقية ومرتبة علمية ومرتبة جمالية:

يا أيها الأخوة، الإيمان مرتبة كبيرة جداً، أحياناً أضرب هذا المثل:

اسم إلى جانبه " د. " صاحب هذا الاسم يحمل ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتوراه، كم شهادة ؟ كلمة " د. " فقط تعبر عن كل هذه الشهادات.

للتقريب: مؤمن أي صادق، مؤمن أمين، مؤمن عفيف، مؤمن لا يكذب، مؤمن لا يحتال، مؤمن لا يراوغ، مؤمن لا يزني، مؤمن ! كلمة مؤمن مرتبة أخلاقية، كلمة مؤمن مرتبة علمية، كلمة مؤمن مرتبة جمالية، له أذواق عالية جداً، كلمة مؤمن أعلى مرتبة.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله)).

[ورد في الأثر].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أطيعوا الله الذي أنزل على نبيه هذا القرآن، أي أطيعوا الله في قرآنه، ورسوله

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

في سنته،

(إِذَا دَعَاكُمْ)

ما قال إذا دعواكم،

(دَعَاكُمْ)

الاستجابة إلى النبي عين الاستجابة لله، والاستجابة لله عين الاستجابة للنبي، هذا يفهم من المثنى الذي جاء الضمير عليه مفرداً.

دليل آخر:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية: 62).

بضمير المفرد.

من عرف الله عرف كل شيء ومن غفل عن الله فاته كل شيء:

أيها الأخوة،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

للحياة، حياة القلب، المؤمن حي، الكافر ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21).

المؤمن حي، المنافق ميت، من عرف الله عرف كل شيء، ومن غفل عن الله فاته كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)).

[من مختصر تفسير ابن كثير].

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

أي أقرب شيء إليك قلبك، أنت ساكت، مرتاح، يقول لك قلبك: غداً تسافر ؟ تقول له: لا أسافر، حديث داخلي، الحديث الداخلي وأنت ساكت، ولا كلمة، ولا حرف، ما قولك: إن الله بينك وبين قلبك، أي الله عز وجل هو القريب منك، يحول بينك وبين قلبك، أي الكهرباء هي أقرب شيء إلى آلة صوتية، لولا الكهرباء لا تنطق هذه الآلة، فهل تتصور شيئاً أقرب إلى الآلة من القوة المحركة لها ؟ لا يوجد أقرب من هذا:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي إليه المصير.

القرآن الكريم وحي متلو والسنة المطهرة وحي غير متلو:

يا أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل حينما أمر أن نتبع رسوله عصمه، ما أمرنا أن نأخذ عنه إلا بعد أن طمأننا أن النبي معصوم، و الآية الدقيقة:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر).

لو أن النبي صلى الله عليه وسلم غير معصوم، ما الذي يقع ؟ لو كان غير معصوم وأمرنا بأمر في وقت لم يكن فيه معصوماً معنى ذلك أمرنا بمعصية، أو أمرنا بخطأ، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

طمأننا أن النبي صلى الله عليه وسلم:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم).

أي مع التفصيل تسعة أعشار كلام الناس ينطلق هذا الكلام من الهوى، أحياناً يمدح أولاده مدحاً غير واقعي، يتملق أولاده، أحياناً يمدح بضاعته، وقد تكون بضاعة غير جيدة، صدق ولا أبالغ قد يكون تسعة أعشار كلام الناس ينطلق هذا الكلام من الهوى، الله عز وجل قال لنا:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

لذلك قالوا: القرآن الكريم وحي متلو، والسنة المطهرة وحي غير متلو، المعنى من الله، والصياغة من رسول الله عن طريق السنة، أما القرآن المعنى من الله، والصياغة من الله عز وجل وحي متلو ووحي غير متلو، فإذا قلنا الوحيان نقصد الكتاب والسنة.

ملمح آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا)

(سورة الأنفال الآية: 20).

بحسب السياق اللغوي ولا تولوا عنهما، أليس كذلك ؟ الآية

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ)

معنى ذلك أن طاعة رسول الله طاعة الله، وطاعة الله طاعة رسول الله،

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

بعض الملامح في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ)

من هذا القبيل بعض الملامح، قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجرات الآية: 9).

بحسب السياق اقتتلتا، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا، الآية:

(اقْتَتَلُوا)

(سورة الحجرات الآية: 9).

جمع، هي طائفتان

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

جمع، الطائفة فيها عشرة آلاف،

(اقْتَتَلُوا)

فيصير المجموع عشرين ألفاً لم يعودوا اثنين، عشرة آلاف تنتمي إلى طائفة، وعشرة آلاف تنتمي لطائفة ثانية، أما الاقتتال بين عشرين ألفاً، فجاء في الصياغة،

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)

الآن فأصلحوا بينهم ؟ لا يصح، الصلح يكون بين عشرين ألفاً ؟ أول طائفة لها مندوب ناطق باسمها، والطائفة الثانية لها مندوب ناطق باسمها، دقة القرآن عجيبة،

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لم يقل: اقتتلتا، قال:

(اقْتَتَلُوا)

عشرة آلاف مع عشرة آلاف، فالمعركة فيها عشرين ألف متقاتل، الآن هناك صلح، هناك محادثات صلح، هناك مندوب لأول طائفة، ومندوب للطائفة الثانية.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

(سورة الحجرات الآية: 9).

ترتيب الكلمات في القرآن الكريم:

الشيء بالشيء يذكر، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية:24).

لماذا بدأ الله بالأب ؟ في هذه الآية بدأ بالأب، هناك آية ثانية:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران الآية: 14).

بدأ بالمرأة، وهناك آية ثالثة.

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

(سورة المعارج).

بدأ بالابن، بعدها:

(وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ)

(سورة المعارج).

هناك آية رابعة:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)

(سورة عبس).

يا رب ! مرة بدأت بالأخ، مرة بالابن، مرة بالزوجة، مرة بالأب، والله يمكن أن تؤلف رسالة دكتوراه في ترتيب الكلمات في القرآن الكريم، في موطن الاعتزاز الاجتماعي، بدأ بالأب، هنا

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

الإنسان يعتز بأبيه، وفي موطن الشهوة

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ)

بدأ بالمرأة، وفي موطن الفدية أغلى شيء الابن،

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

بموطن الاستعانة الأب كبير، والابن صغير، بأخيه.

إذاً: بموطن الأخ، موطن الابن، موطن الزوجة، موطن الأب.

من وصل إلى الله و قرأ قرآنه لا يسمح له أن يناقش أوامره:

أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً في الدرس: إنسان بحاجة إلى عمل جراحي أتاه الله عقلاً راجحاً، يسأل عن طبيب متفوق، يحمل أعلى شهادة، يخاف الله، لا يبتز أموال المرضى، ماهر في العمل الجراحي، خلال شهر، سأل، وسأل، وسأل، ومحص، وبحث، وحقق، إلى أن استقر على طبيب يجمع بين العلم والفضل، والعلم والتقوى، فدخل إلى العيادة، فقال له هذا الطبيب: لا تحتاج عملاً جراحياً هل يستطيع المريض أن يناقشه ؟ الجواب: لا، لأن عقل هذا المريض قاده لهذا الطبيب، و بعدما اهتدى إليه، وبحث، ودرس، ومحص، وحلل، وسأل، ووازن، وقارن، هذا أفضل طبيب صادق مؤمن متفوق، نصحه أن العملية ليست مجدية له، المعنى أن العقل حصان، يأخذك إلى باب السلطان، فإذا دخلت على السلطان دخلت وحدك.

الكون هداك إلى الله، أفعال الله هدتك إلى الله، خلق الله دلك عليه، فإذا وصلت إليه وقرأت كتابه لا يسمح لك أن تناقش أوامره، لقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36).

الكون دلك على الله، الله أمرك بالصيام، الله أمرك بأداء الزكاة، أمرك بالحج ، أوجب عليك العمرة، فلذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

من عرف الله و استقام على أمره عاش في بحبوحة تفوق حدّ الخيال و العكس صحيح :

أيها الأخوة، شيء آخر: الآية الكريمة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

لو أن أهل الأرض عرفوا الله، واستقاموا على أمره، والله لعاشوا في بحبوحة تفوق حدّ الخيال، لا أعتقد أن هناك إنساناً بلا بيت، وطعام، وشراب، وحاجات، لكن هل من المعقول أن حربين فقط أُنفق عليهما ثلاثة آلاف مليار، حرب أفغانستان والعراق، هذه الأموال لو وظفت في خير البشرية.

فلذلك: عندنا آيتان ؛ الآية الأولى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

وحياة الناس بهذه الطريقة طيبة، حياة فيها عطاء، فيها أمن، فيها راحة نفسية، فيها تعاون، فيها نمو.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية: 124).

فالمعرضون عن ذكر الله حياتهم ضنك، حياتهم حياة الحروب والاجتياحات، والقتل، والمداهمة، والاعتقال، والقنابل الفسفورية، ترون بأعينكم، حينما يشرد الإنسان عن الله عز وجل شقّ صفوف الناس، صار هناك مؤمن وكافر، صار هناك حروب، و قتال، و سفك دماء، و نهب ثروات.

يوجد 90% من ثروات الأرض بيد 10% من سكان الأرض، هذا الذي يجري في العالم، بعد عن الله عز وجل.

دعوة الله للإنسان دعوة إلى الحياة، حياة القلب و حياة الإيمان و حياة المعرفة:

يا أيها الأخوة، الشيء الدقيق جداً أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا)

إذا استجبت لله في قرآنه، وللنبي في سنته،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

دعوة الله لنا دعوة إلى الحياة، حياة القلب، حياة الإيمان، حياة المعرفة، حياة الإدراك، حياة تلبية الحاجة العليا في الإنسان.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

يا أيها الأخوة، هذه آية أساسية في حياتنا، فأنت إما أن تعيش أو أن تحيا،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

ما قال الله: فإن له حياة ضنكاً، قال

(مَعِيشَةً ضَنْكاً)

أنت تعيش فقط، القلب ينبض، الرئتان تتحركان، هناك حركة، هناك إحساس، هناك شعور، لكن

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان).

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون).

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية: 5).

مشكلة كبيرة جداً.

كل إنسان أمام مفترقين إما السلامة و السعادة أو الشقاء و الهلاك:

فيا أيها الأخوة، نحن أمام مفترقين، مفترق الحياة أو الموت، السلامة أو الشقاء، السعادة أو الهلاك والدمار.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

إما أن تكون حياً باستجابتك لله، وإما أن تكون عائشاً تأكل وتشرب ببعدك عن الله عز وجل.

أيها الأخوة، هذه السورة دقيقة جداً، ولا سيما في بعض الآيات الحاسمة فيها.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الآيات، وأن نكون في مستوى تطبيقها، لأن هذا القرآن الكريم يمكن أن نقرأه، وأن نجوده، وأن نفهمه، وأن نتدبره، ولكن لا يعطي هذا القرآن الكريم ثماره إلا إذا طبقناه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (09-30): تفسير الآيتان 25 - 26 ، يجب قمع الفتن قبل أن تستشري - ذِكر الإنسان لنعم الله الكثيرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-06-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشكلة المسلمين الأولى في هذه الأيام:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والعشرين، وما بعدها، الله عز وجل يقول:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

بادئ ذي بدء: الفتن مهلكة لكن هذه الفتن إذا وقعت ووقف الناس سلبيين تجاهها لم يعبؤوا، لم يأمروا بالمعروف، لم ينهوا عن المنكر، لم يقيموا شرع الله، هذه الفتن تستشري وتتفاقم، وقد تصبح بلاءً كبيراً، وقد تصبح فساداً عريضاً في المجتمع، فالله عز وجل يحذر المجموع.
كما لو احترق بيت في أول الشارع، فالذي يجلس في آخر الشارع يقول: الحريق بعيد عني، إن لم يسارع هذا الذي في آخر الشارع ليساهم في إطفاء الحريق وصل إليه.
هذه مشكلة المسلمين حينما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استشرى المنكر، واتسع، واتسعت دوائره، حتى ضاقت دوائر الباطل.

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة:

فلذلك حينما قال الله عز وجل يخاطب هذه الأمة:

(كُنْتُمْ)

أي أصبحتم:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

علة خيريتكم:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110).

حينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبح لا شأن لها عند الله:

وحينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حينما ترى الفتنة فتسكت، حينما ترى المعصية تتجاهلها، حينما ترى كبيراً أو قوياً فعل شيئاً منكراً لاذت بالصمت، حينما تكف الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تصبح أمة لا شأن لها عند الله إطلاقاً، والدليل أن الله سبحانه وتعالى خاطب الذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

خاطبهم فقال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18).

والأمة الإسلامية حينما ترى المنكر، فلا تنهى عنه، حينما ترى المعروف فلا تأمر به، حينما تصمت، حينما ينسحب المسلم من علة خيرية أمته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبح هذه الأمة لا شأن لها عند الله إطلاقاً، والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح حينما قال:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أو كائن يا رسول الله ؟ قال: نعم وأشد منه سيكون ـ عجب الصحابة ـ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ـ صعقوا صعقة أشد ـ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب] .

عندئذٍ تودع هذه الأمة، حينما يكون المنكر أمام المسلمين، ولا أحد يتكلم، هذه الأمة انتهت عند الله عز وجل.

الانسحاب من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسبب ضياع هذه الأمة:

لذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً)

الفتنة وقعت، التفلت حصل، الانحراف استشرى، المعصية ترتكب، المنكر يُفعل، التحدي يكون، كتابات، حركات، أعمال كلها تغضب الله عز وجل والأمة ساكتة، هذه الأمة انتهت عند الله.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

ورد في بعض الأحاديث: " أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته ليهلكوا قرية، فقالوا: يا رب إن فيها صالحاً، قال: فيه فابدؤوا، قالوا: لِمَ يا رب ؟ قال: لأنه لم يكن يتعمر وجهه حينما يرى منكراً ". لمجرد أن تقول ما لي ولهذا ؟ ما لي ولهذه المعصية ؟ أنت بعيد عنها، هذا الموقف الانعزالي، الانسحاب من مهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يسبب ضياع هذه الأمة.

الأمة أمتان ؛ أمة الاستجابة و أمة التبليغ:

لذلك: الأمة الآن أمتان ؛ أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، فالأمة التي لم تستجب لله ورسوله في تطبيق منهج الله ورسوله هذه أمة ليست خير أمة، بل هي أمة كأية أمة شردت عن الله عز وجل،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

علة الخيرية

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

هذه علة خيريتنا.

فلذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكاد أن يكون الفريضة السادسة، وجرب أنك حينما تنطق بالحق لعل الآخر يرجع إلى الله، لعل الآخر يبتعد عن هذه المعصية، عليك أن تُذكر، وليس عليك الباقي.

أيها الأخوة، إذاً أي خطأ، للتقريب: تأتي إلى بيتك ابنة أخيك، ترتدي ثياباً فاضحة جداً، تستقبلها، ترحب بها، تثني على جمالها، وعلى أناقتها، ولم تتكلم بكلمة واحدة عن هذا التفلت في ثيابها، من هنا نبدأ، حينما ترى شريكك يغش في البيع والشراء وأنت ساكت، من هنا بدأ الخطأ، أما حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا ترضى للخطأ أن تسكت عليه عندئذٍ تكون هذه الأمة على منهج صحيح.

أية فتنة تقع حولك إن بقيت ساكتاً عنها سوف تصل إليك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

عندئذٍ هذه الفتنة تنتشر وتنتشر، حتى تصل إليك، أنت أيها العم حينما لم تنصح ابنة أخيك أن ترتدي ثياباً إسلامية ساترةً محتشمة، ما الذي يحصل ؟ ابنتك في البيت تضغط على أمها كي تقلد ابنة عمها، حينما لم تأمر بالمعروف، ولم تنهَ عن المنكر وصلت الفتنة إلى بيتك، كالنار تماماً إن لم تخرج من بيتك، وتسهم في إطفاء النار وصلت النار إليك.

لذلك قصة مشهورة مألوفة أن ثيراناً ثلاثة، أبيض، وأسود، وأحمر، جاء الوحش المفترس فأكل الأبيض، فقال الأحمر: أنا لا علاقة لي، لم يقترب مني، فسكت، ثم توجهه هذا الوحش المفترس إلى الأحمر فأكله، فقال الأخير: أنا لا علاقة لي، فلما توجه إلى الأسود ليأكله قال: أُكلت يوم أكل الثور الأبيض، من وقتها أُكلت أنا.

اعتقد بهذا يقيناً، أية فتنة تقع حولك إن بقيت ساكتاً سوف تصل إليك، في أي شيء، أما إذا وجد أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، و وضع حد للفتنة، و قُمعت الفتنة، عاش الناس بسلام.

الابتعاد عن المجاملات في حياتنا :

ما الذي يحصل الآن ؟ كل المعاصي والآثام في الطريق، وفي الأماكن العامة، وفي الأسواق وفي الجامعات، تفلت، وانحراف، وكأن هذه الأمة ليست أمة المسلمين، لأن الناس كفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والله سمعت قصة عن سائق سيارة وقد يكون أمياً، جاءه راكبان زوج وزوجته ـ أعتقد من بيروت إلى دمشق ـ فطلبا منه أن ينتظر ربع ساعة كي تأتي حقيبتهم، فانتظر، جاء شيخ في السبعين يحمل حقيبة على رأسه، هذا الشاب وكزه في رأسه، قال له: لماذا تأخرت ؟ السائق لم ينتبه، أخذ المحفظة ووضعها في الصندوق وانطلقا إلى الشام، أعتقد في نصف الطريق سمع الزوجة تقول لزوجها: كيف تضرب أباك ؟ فوراً أوقف المركبة قال له: انزل، وهذه الأجرة، أنا لو بقيتم معي لعلي أقع بحادث، على بساطته، على معلوماته المتواضعة، لم سمح لإنسان يضرب أباه أن يركب بمركبته، فهذا درس، لو كل الناس فعلوا هذا لكنا في غير هذه الحال.

أحياناً إنسان يسب الذات الإلهية، لا أحد يتكلم ولا كلمة، كله ساكت، يعيد السُباب مرة ثانية، وثالثة، الأمة التي تسكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعها، انتهت عند الله عز وجل، حياتنا كلها مجاملات، تزور إنساناً كل المعاصي في بيته، وتحترمه أمام أولادك، وتثني على ذكائه، وعلى حكمته، وعلى روعته، وعلى حديثه، وهو يرتكب المعاصي كلها، ضاع أولادك.

((إن الله عز وجل يغضب إذا مُدِحَ الفاسق))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك].

حياتنا مجاملات.

لذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

الصالح و المصلح:

لذلك الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود).

ما قال: صالحون، الصالح يهلك، أما المصلح لا يهلك، المصلح خرج من ذاته لإسداء النصيحة لغيره، أي أحياناً البنت تنحرف بثيابها، والكل ساكت، تجد بعد فترة البنت المحجبة تريد أن تلغي حجابها، بعد فترة البنت المحجبة الثانية كذلك، لأنه حينما تفلتت البنت الأولى والكل يسكت، طبعاً هذه الفتنة تمشي، فجأة تجد كل الأطراف يريدون هذا الانحراف.

أنا أضرب أمثلة محدودة، لأنه هناك آلاف الأمثلة، في البيع والشراء أحياناً هناك طريقة في الغش، فيحدثك التاجر أنه عمل أرباحاً طائلة عن طريق تبديل اسم السلعة، عن طريق تبديل صفاتها، عن طريق التعريف ببلد المنشأ، أنت تثني على ذكائه، وعلى شطارته، هذا حرام، حرام أن توهم الناس أن هذه البضاعة من هذا المنشأ وهي من منشأ أقل.

كل إنسان محسوب على المؤمنين فعليه إسداء النصيحة للآخرين:

فكلما جاملنا أنفسنا، وسكتنا عن إحقاق الحق، وعن إبطال الباطل انتهت هذه الأمة، صدق ولا أبالغ، لا يوجد بالألف واحد ينصح، الكل يجامل، الكل يتمنى السلامة، ليس مضطراً أن ينصح الآخرين مخافة أن يتسبب بمشكلة، ليس لي علاقة، ليس لك علاقة خسرت الله عز وجل.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

والله هذا العبد الفقير دخلت على أخ كريم، وهو من كبار التجار، و عنده سكرتيرة وضعها غير منطقي إطلاقاً، قلت: والله لا يجوز، أنت محسوب على المؤمنين، قال لي: والله لم يقل لي أحد هذا، فعلاً أعطاها أمراً بتغيير وضعها، فإن لم تستجب صرفها، انصح، تكلم، قدم ملاحظة، لا تريد أن تتكلم ولا كلمة ؟ ولا تعليق ؟ مديح، مديح، مديح.

((إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب))

[أخرجه الطبراني عن عطاء بن أبي رباح].

أحياناً إنسان منحرف تمدحه، تمدحه، تمدحه، إلى متى تمدحه ؟ لا داع لهذا، إنسان عنده مسبح مختلط، عمل فيه مولداً، جاء الخطباء ومدحوه، كيف تمدحه ؟ مسبح مختلط، يرتكب فيه أكبر المعاصي وتمدحه أيضاً ؟.

((المداحين فاحثوا في وجوههم التراب))

[أخرجه الطبراني عن عطاء بن أبي رباح].

يجب أن تقول: لا في الوقت المناسب، أما الكل يخطئ والكل ساكت، الكل ينحرف والكل ساكت، الكل يتمادى والكل ساكت، المرأة تكاد تظهر عارية في الطريق والكل ساكت وأمها محجبة تمشي إلى جانبها، كيف سمحتِ لها أن تمشي معك بهذا الوضع ؟ ألست أمها ؟ أين تربيتك لها ؟ كله ساكت، فهذا الوضع سبب أن مليار وخمسمئة مليون لا وزن لهم عند الله.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

مليار ونصف، ربع سكان الأرض، أي كل أربعة أشخاص شخص مسلم، مليار وخمسمئة مليون لا وزن لهم عند الله، لأن هذه الأمة تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الفريضة السادسة.

لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت المظلوم:

فلذلك:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

تصيب الكل، أوضح مثل احتراق البيت، إن لم تساهم وأنت في آخر الشارع في إطفاء الحريق، الحريق سوف يصل إليك.

هناك سؤال: الذين ظلموا تصيبهم عقابيل الفتنة، فما بال الذين لم يظلموا ؟ الذين لم يظلموا هم ظلموا في طريقة أخرى، ظلموا حينما سكتوا، لذلك لا شيء يعين الظالم على ظلمه كسكوت المظلوم، لا تسكت، تكلم، وضح، بيّن، ما دام في نصيحة، ما دام في موقف فالإنسان يفكر، هناك من يحاسبني، هناك من يرفض طلبي، أما كل ما يقوله القوي يطاع مع الانبطاح، انتهت الأمة كلها.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

من أقام أمر الله في بيته و عمله لا شيء عليه:

أيها الأخوة، لو ضربنا أمثلة من الأسرة، يأتي الابن الساعة الثانية ليلاً، أين كنت ؟ عند رفيقي، سكت الأب، أكيد عند رفيقك ؟ من رفيقك ؟ رقم تلفونه، عندما تتابعه إن كان بمكان غير جيد في المرة الثانية يفكر كيف أواجه والدي ؟ أما إن قال له عند رفيقي ولم يتكلم ولا كلمة سيختلف الأمر، والله هناك قصص بالأسر لا تعد و لا تحصى، انحراف خطير إلى درجة الفحش، بنت لمدة ثلاث سنوات تقع في الفاحشة والأب لا يعلم ؟! كانت عند رفيقتها، رفيقتها بالجامعة تدرس معها، الفتنة إن لم تقمع تستشري.

نحن نقول: عندك مملكتان أنت محاسب عليهما، بيتك وعملك، ولست مكلفاً فوق ذلك مبدئياً، مكان المحاسبة أنت تحاسب في الدائرة التي أوكلت إليك، في بيتك معصية، في بيتك تفلت، هناك سهرة مختلطة، أجهزة لا ترضي الله، لقاءات لا ترضي الله، أنت محاسب عن بيتك أولاً، فما لم تكن ضابطاً لأمورك، متابعاً لتفاصيل ما يجري في البيت، فأنت محاسب عند الله، أنت محاسب على مملكتين مملكة بيتك، ومملكة عملك، ما فوق ذلك لك أن تنصح، لكن لست محاسباً.

لو فرضاً أنت بشركة، والمدير العام له شروط بخطأ، يمكن أن تنصحه بطريقة لبقة، لكن أكثر من ذلك غير مكلف، أما ببيتك لا يوجد نصيحة، لا بدّ من أن تقيم أمر الله في بيتك، وفي عملك، فإذا أقمت أمر الله في عملك وفي بيتك لا شيء عليك.

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

والذي يحصل أن كل الانحرافات تبدأ في بيت واحد، وتنتقل إلى بيت، إلى بيت، بعد حين هذه المعصية وجدت في كل البيوت، انحراف في ثياب الفتاة، من بيت واحد، وبعد ذلك هذا الانحراف انتشر في كل البيوت، وهكذا، أما المؤمن يضع حداً لأية فتنة قد تنتشر:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

الأمة كلها في قارب واحد:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو قال: المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب))

[أخرجه النسائي وأبو يعلى وابن حبان عن أبي بكر الصديق].

سبحان الله، من أروع الأمثلة التي ضربها النبي عليه الصلاة والسلام أن قوماً في سفينة، استهموا فيها، أي توزعوا أماكنهم، فأناس في علوها، وأناس في أسفلها، فالذين في أسفلها أرادوا أن يختصروا الطريق بجلب الماء من النهر بأن يثقبوا ثقباً في مكانه، فإن أخذ الآخرين على أيديهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم هلكوا جميعاً، وصدقوا ولا أبالغ ما من مثل أبلغ من أننا جميعاً في قارب واحد، الأمة كلها في قارب واحد، فأي ثقب في هذا القارب إن لم نسارع جميعاً لإغلاقه غرقنا جميعاً، هذا المثل من عند النبي عليه الصلاة والسلام، قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أننا خرقنا نصيباً من نصيبنا فلا نؤذي من فوقنا، والنية طيبة، قال: فإن تركوه، وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً.

إذاً على مستوى أسرة، الأسرة كلها في قارب واحد، على مستوى مؤسسة، مدرسة، جامعة، مستشفى، وزارة، الأمة كلها في قارب واحد، فإذا كان هناك انحراف والكل ساكتون غرقنا جميعاً، وإذا كان هناك انحراف وبعضنا ينصح بعضاً نجونا جميعاً، والله أحياناً قد لا تعلم أن كلمة الحق قد يكون لها أثر لا يوصف.

الحكمة من ضعف النبي الكريم أن يكون الإيمان به عظيماً:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة الأنفال).

أي الصحابة الكرام في مكة كانوا ضعافاً، و كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق يمر على آل ياسر، وهم يعذبون، ولا يستطيع أن يفكهم، يقول لهم:

((صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[أخرجه الحاكم عن محمد بن إسحاق].

الصحابة دفعوا ثمناً باهظاً حينما أسلموا، ما سر أن النبي كان ضعيفاً ؟ لَمَ لم يكن قوياً كقوة الحكام ؟ لو أنه كان قوياً لأعطى أمراً فطبقه الكل، لكن لا عن إيمان، عن خوف، جعله الله ضعيفاً ليكون الإيمان به خالصاً لوجهه، ما عنده شيء.

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن).

كل إنسان مع القوي يسعى لإرضائه طمعاً فيما عنده، ويتقي أن يعصيه خوفاً منه، فعلاقتك مع القوي علاقة نفع أو خوف فقط، طمع أو خوف، أما علاقتك مع النبي الضعيف علاقة إيمان، إيمان فقط، ضعيف،

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

أبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية: 188).

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام الآية: 50).

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الزمر).

نبي، سيد الخلق، حبيب الحق، سيد ولد آدم، في الطائف ضُرب، لماذا جعله الله ضعيفاً ؟ ليكون الإيمان به عظيماً.

من عبد الله عز وجل بحقٍّ في زمن الفتن و الضلالات فله أجر كبير:

الآن: إذا عُرف الإنسان أنه متدين، فبالعالم كله غير مقبول، يخافون منه، إرهابي، مع أنه إنسان مسالم، وديع، لطيف، رحيم، منضبط، مخلص، يتفانى في عمله، كل هذه الصفات الرائعة لأن له مسحة دينية، هو متهم في نظرهم، العالم كله يحترم المتفلتين، يحترم العصاة، يحترم من يتحدون السماء، يحترم من يكفرون بالله عز وجل، والمؤمن يخافون منه، يصنفونه تصنيفاً معيناً، فأنت حينما تريد أن تكون مؤمناً في هذا الزمان لك أجر كبير.

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أولسنا أحبابك ؟ قال: لا أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا: منا أم منهم ؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

[ورد في الأثر].

أينما تحركت، المعصية مقبولة والطاعة معها حرج.

فيا أيها الأخوة، أبشروا، ما دمت في هذا الزمان الصعب، لا تنسى قول النبي الكريم فيما يرويه عن ربه:

((وإنَّ العِبادَةَ في الهَرْجِ كهجرة إلي))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة].

عبادة في الهرج، أي في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن التهجم على الإسلام، وعلى نبي الإسلام، وعلى كتاب الإسلام، كان التهجم على التفاصيل، الآن على الرموز الكبيرة.

رسام الدنمارك شوه صورة النبي عليه الصلاة والسلام، المصحف دُنس في بلاد بعيدة، دُنس والعالم ساكت، فأنت حينما تعبد الله في زمن الفتن، في زمن الضلالات، في زمن يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، و قد ورد في بعض الآثار: " موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتل ؟ ".

دولة تعتدي على دولة إسلامية، تقتل منها مليونين، هناك مليون طفل مقتول، تشرد خمسة ملايين، ومع ذلك هي بنظرهم دولة محترمة، والعالم ينظر لها بإكبار، وإذا إنسان دافع عن حقه، أو قاوم المحتل يُتهم بأنه إرهابي، نحن بأي زمان ؟ نحن في أي زمان نعيش ؟!.

ارتباط الإيمان بالأمن و الطمأنينة:

فلذلك:

((وإنَّ العِبادَةَ في الهَرْجِ كهجرة إلي))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة].

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لمَ يقتل، ولا المقتول فيمَ قُتل ؟.

اثنان ونصف مشرد في الباكستان، بلا طعام، بلا شراب، بلا مأوى، قتل باليوم مئة، مئتان، ثلاثمئة، كأن القتل وسام شرف، فنحن في زمن صعب، لذلك سلوا الله السلامة، وسلوا الله أن يديم على هذه البلاد الأمن والاستقرار، نحن في نعم كبيرة جداً، لا يعرفها إلا من فقدها.

قال لي أخ في العراق: أنا أودع زوجتي يومياً، احتمال موتي في الطريق 50%، يومياً يودع أولاده.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً)

(سورة النحل الآية: 112).

عندما يكون في إيمان يكون هناك أمن وطمأنينة.

على الإنسان ألا ينسى فضل الله عليه:

أيها الأخوة،

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ)

في المدينة، أسستم دولة، شكلتم جيشاً، حاربتم، انتصرتم، أصبحتم دولة كبيرة.

(فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

طبعاً هذه الآية واضحة، أما على إنسان مؤمن، كان لا يملك بيتاً، وليس له دخل ، ويعاني ما يعاني، فيسر الله له شراء بيت، و يسر له زواجاً ناجحاً، و يسر له أولاداً نجباء، وله مكانة محترمة، فعليه ألا ينسى الماضي، ذكرهم بنعم الله.

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية: 5).

هذه الآية لمجموع الأمة.

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وكل شخص منا يذكر كيف كان قبل حين، بحاجة، فقير، بلا عمل، بلا بيت، بلا زواج، بلا أولاد، الله أكرمك، كيف أكرمك بالزواج ؟ يقول: الله يسر لنا، كيف أكرمك بالعمل ؟ كيف نجح العمل معك، فكل ميزاتك الآن ألا تنسى أن هذا من فضل الله عليك.

على كل إنسان أن يكون في قلبه تعظيم لله و حب له و خوف منه:

لذلك:

((أحِبُّوا الله لما يَغْذوكم من نعمه))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس].

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني وذكرهم ببلائي كي يخافوني))

[من الدر المنثور عن ابن عباس].

معنى ذلك أنه لا بدّ من أن يكون في قلبك تعظيم لله من خلال آياته الكونية، وحب لله من خلال نعمه، وخوف من الله من خلال بلائه، جهاز في جسمك لو تعطل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق. هناك قناة دمعية، من العين إلى الأنف، أنفك رطب لأن الدمع الذي يزيد عن حاجة العين ينتقل عبر هذه القناة إلى الأنف، فالأنف رطب، حالات نادرة جداً تُسد هذه القناة فدائماً الدمع على خدك، بعدها يصبح هناك خط أحمر أي التهاب، هذه القناة لها دور كبير جداً، لو أن الرموش انخفضت، هناك مرض اسمه ارتخاء الجفون، كلما أردت أن ترى إنساناً يجب أن ترفع جفنك بيدك، هذه قليلة ؟

نعمة الجفون، نعمة العين، نعمة هذا المفصل، كيف تأكل لولا هذا المفصل ؟ والله هناك نعم بجسمك فقط لا تعد ولا تحصى، لو كان في الشعر أعصاب حس، إلى أين أنت ذاهب؟ ذاهب لأعمل عملية حلاقة بالمستشفى مع تخدير كامل، فالله عز وجل من فضله عليك أنه لم يجعل بالشعر أعصاب حس، ولا بالأظافر، و الحديث عن الجسم يطول.

هناك مثانة لولاها لوضع الإنسان فوطاً بشكل إجباري، كل عشرين ثانية هناك نقطة بول، يتجمعون كل خمس ساعات بالمثانة، لو لم يكن هناك مستودع لكانت مشكلة كبيرة، فكر بأجهزتك جهازاً جهازاً، أي جهاز تعطل تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

الله عز وجل إذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش فإياك و التكبر:

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أي الإله الذي نقلك من الأدنى إلى الأعلى هو قادر أن ينقلك من الأعلى إلى الأدنى، إذا أعطى أدهش، وإذا أخذ أدهش.

والله أعرف صديق صديقي درس بفرنسا، يحمل أعلى شهادة في الجيولوجيا، وصل إلى منصب معاون وزير، فقد بصره خلال شهر يأتون له بالمعاملات إلى البيت، بعد ذلك سرحوه، فعندما زاره صديقي، قال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأن أمد يدي للناس، ولا أملك من الدنيا إلا هذا المعطف، وأن يرد لي بصري، البصر نعمة كبيرة جداً.

فيا أيها الأخوة، اذكر كيف كنت وكيف أصبحت، إياك والتكبر، إياك أن تنسى الماضي،

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ)

وهذا الخطاب لكل مؤمن، واذكر كيف كنت قبل خمسين عاماً، قبل ثلاثين عاماً، كنت لا شيء، الله أكرمك، أعانك، زوجك، أنجبت أولاداً، ربيتهم ، كل هذه النعم من فضل الله عز وجل عليك.

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (10-30): تفسير الآيات 27 - 29 ، إخلاص العمل وأداء الأمانة من تقوى القلوب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-06-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين ويخاطب المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وقد بينت لكم مراراً أن الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة الآية: 21).

ويخاطب المؤمنين الذين آمنوا به بفروع الدين، فحينما يقول الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يجب على كل مؤمن أن يشعر أنه معني بهذا الخطاب، وأنه لا بدّ من أن يقف موقفاً من هذا الخطاب.

أنواع الشكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ)

بعد أن بيّن الله عز وجل نعمه على المؤمنين التي لا نهاية لها، ذكرهم بأن هذه النعم لا بدّ من أن تُشكر، وأنه من لوازم شُكر النعمة الوقوف عند حدود الله، وعدم تجاوزها.

الشكر أنواع، أحد أنواع الشكر: أداء الفرائض، أحد أنواع الشكر: أن يراك الله حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، أحد أنواع الشكر: أن تطيع الله في تفاصيل المنهج، هذا شكر، وفوق هذا الشكر هناك شكر آخر:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ).

فالطاعة نوع من الشكر، والعمل الصالح نوع أيضاً من الشكر، فحينما ذكر الله المؤمنين بالنعم الكثير التي أسبغها عليهم طالبهم أن يشكروه، ومن شكر هذه النعم الوقوف عند الحلال والحرام، التقييد بالأمر والنهي، أن يراك الله حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك.

ومن لوازم الشكر بشكل سلبي ألا تخون الله، ما معنى خيانة الله عز وجل ؟ الخيانة هنا تعطيل أوامر الله، ألا تعبأ بالأمر خيانة، هناك أمر لم تعبأ به، نهي لم تعبأ به، تركت الأمر واقترفت النهي، فهذه خيانة لله عز وجل.

من لوازم شكر النعمة الطاعة و العمل الصالح:

طبعاً الآية تبدأ:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ)

التقديم: هناك نعم كثيرة ينبغي أن تشكرها، من لوازم شكرها الطاعة أولاً، والعمل الصالح ثانياً، وإياك أن تكفر هذه النعم، فإذا كفرت هذه النعم، وعطلت الأمر والنهي والقرآني والنبوي في حياتك فهذا نوع من الخيانة، تعطيل الفرائض، ومجاوزة الحدود.

وأما خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين.

إذاً كلمة خيانة كلمة كبيرة جداً، جاء الله بك إلى الدنيا كي تطيعه، وكي تدخل بطاعتك جنة الله عز وجل التي وعد الله بها المؤمنين، فأنت حينما لا تطيع الله، أو حينما تقترف الذي نهاك الله عنه، أنت لمجرد هذا الفعل فقد خنت الله ورسوله، عطلت الأوامر وتجاوزت الحدود، ولم تعبأ بالسنة، وأفشيت سرّ رسول الله، هذا الذي تعنيه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أي شيء ائتمنت عليه إن لم تقم بواجب أداء الأمانة فقد خنت الأمانة، هذا معنى واسع جداً، أي الزوجة أمانة عند زوجها، فإن لم يعرفها بالله، ويعاملها بقسوة وشدة، ويقصر في حقها فقد خان الله في زوجته.

والطبيب حينما يأتيه المريض إن لم يؤدِ له علماً جيداً، ووصفة مدروسة، وبحثاً شاملاً فقد خان الأمانة في هذا المريض.

والمحامي أيضاً حينما لا يعتني بالمرافعة، ولا يدقق في نصوص القوانين، ويقدم مرافعة هزيلة ضعيفة يخسر موكله الدعوى فقد خان الله في هذا الموكل.

والزوجة إذا قصرت في حقّ زوجها، والمعلم إذا قصر في حقّ طلابه، والبائع إذا قصر بحقّ من اشترى منه، ولم يبيّن له أن هذه السلعة ليست جيدة، بالعكس أثنى عليها فغشه بها.

والله أيها الأخوة لو دخلنا في هذا الباب لا ننتهي في سنوات.

أي شيء ائتمنك الله عليه أمانة في عنقك:

أي شيء ائتمنك الله عليه أمانة في عنقك، المريض أمانة، الموكل أمانة، الطالب أمانة، المشتري أمانة، حتى المزارع إذا قدمت له دواءً لا ينتفع به كثيراً، وعلمت أنه لا يملك خبرة عالية، بعته دواءً غالياً جداً، وأثره الإيجابي ضعيف جداً خنت الله، كأن الناس يفهمون الدين أن يأتوا إلى المساجد، وأن يصلوا، وأقسم لكم بالله أنت في المسجد ليس من أجل تلقي التعليمات فقط، ولا من أجل أداء العبادات فقط لكن الدين الحقيقي في عملك، في معملك، في حقلك، هل تقدم لهذه النباتات هرمونات ليزداد حجمها ويرتفع سعرها ؟ لكن هذه الهرمونات مسرطنة، هل تفعل هذا ؟ هل تعرض البضاعة عرضاً مغرياً بطرائق مبتكرة من أجل أن تأخذ سعراً أعلى ومستواها أدنى ؟ هذه خيانة.

أقسم لكم بالله مرة ثانية لو أردت أن أعدد أنواع الخيانة التي يقترفها المسلمون في أعمالهم التجارية، والصناعية، والزراعية، والخدمية، والإدارية لأمضينا سنوات وسنوات، لماذا تخلى الله عن المسلمين ؟ لأنهم خانوا الأمانة، الزوج لا يعتني بزوجته، والأب لا يربي أبناءه، والمعلم لا يعتني بطلابه، والطبيب لا يعتني بمريضه، كأن الهدف هو المال.

أما الطبيب المؤمن مستثنى من كل هذه الصفات، كنت أقول لبعض الأخوة الأطباء: ضع المال تحت قدمك تنله، ضعه أمامك تخسره، معنى تحت قدمك أي ليكن همك صحة المريض، شفاء المريض، إن كنت مخلصاً لهذه الدرجة تتألق في سماء الطب، ويأتيك الناس أفواجاً، وتربح المال عندئذٍ، هذا في الطب، والمحاماة، والتدريس، والهندسة، والتجارة ، والزراعة، والصناعة، بأي عمل خدمي، أو عمل تجاري، أنت حينما تخلص تتقن.

الإتقان جزء من خصائص المؤمن:

لماذا هناك شركات بضاعتها مباعة لعام قادم، والثمن مدفوع ؟ إتقان، فالإتقان جزء من دين المؤمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))

[أخرجه أبو يعلى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها].

الإتقان جزء من خصائص المؤمن.

الشيء الدقيق أيها الأخوة، الدقيق جداً أن الغرب في هذا المجال سبقنا، أذكر أنه حدثني أخ يعمل بالأقمشة، قال لي: آلة للتطريز من أرقى مستوى في العالم، عندنا منها في هذا البلد، وعند الصناع في بلد المنشأ منها، متر القماش الذي يصنع في بلدنا فيه أخطاء كثيرة، لا يوجد إتقان، الآلة راقية جداً، لكن يوجد أخطاء كثيرة، يباع في بضع عشرات من الليرات، بينما متر القماش المستورد من بلد صنع هذه الآلة واستخدمها استخداماً فائقاً ببضع مئات، بل تقترب المبالغ من الألوف، والآلة واحدة، لذلك الإتقان يأخذ الغرب ثمنه باهظاً، وعدم الإتقان يدفع الناس إلى خسارة بالغة جداً، الإتقان جزء من الدين.

أنت حينما تقدم سلعة متقنة ماذا فعلت ؟ أرضيت الله عز وجل، وخدمت المسلمين ، وأقبل الناس عليك.

الآن أحياناً هناك رواج اقتصادي، يباع كل شيء، حتى البضاعة من الدرجة العاشرة تباع، أما في أوقات الركود الاقتصادي لا تباع إلا البضاعة المتقنة، في أيام الركود الاقتصادي أصحاب المصالح المتقنين لا يتوقفون عن العمل، العمل مستمر، أما الذين قصروا في إتقان أعمالهم يقول لك: لا يوجد عمل، لا يوجد بيع، لا يوجد حركة.

فدائماً وأبداً المؤمن الذي يعمل في التجارة، أو الصناعة، أو الزراعة، أو في الخدمات، إذا أتقن عمله نال مطلبه، والإتقان جزء من الدين.

ويحضرني هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان واقفاً أمام قبر أحد أصحابه وقد دفن لتوه، فالذي حفر القبر ترك فرجة، قال له النبي الكريم: هذه لا تؤذي الميت، ولكنها تؤذي الحي:

((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)).

[الجامع الصغير عن عائشة].

كل إنسان سيحاسب عن مئات الأمانات التي أوكلت إليه:

لذلك الآية الكريمة:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ)

مصلحتك أمانة، حرفتك أمانة، مهنتك أمانة، اختصاصك أمانة، طبك أمانة ، المحاماة أمانة، التدريس أمانة، الهندسة أمانة، أي هذا المهندس الذي لا يشرف على صب السطوح بنفسه قد يكون هناك أخطاء كبيرة، قد توضع المواد أقل مما ينبغي، فإذا انهار البناء وقتل المئات، المهندس محاسب عند الله، حتى الذي يطبب الناس، ويعرف منه طب فهو ضامن.

حينما تفهم الأمانة بالمعنى الواسع، الله عز وجل جعلها جمعاً، قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء الآية: 58).

لا يوجد واحد منا إلا وسيحاسب عن مئات الأمانات التي أوكلت إليه، ابنك الصغير أمانة، الابن جاء متأخراً، الساعة الثانية ليلاً، سألته ؟ تحققت ؟ علمت مع من سهر ؟ من يصاحب ؟ من صديقه ؟ أمانة، أنت غارق بعملك وتجارتك لم تهتم، في الثامنة عشر من عمره فجأة تطاول عليك، فجأة بدأ يسهر كل يوم، فجأة لم يعبأ لا برضاك، ولا برضا أمه يقول لك: ماذا أفعل ؟ أنت قصرت معه سابقاً، هو أمانة عندك.

الدين استقامة و خوف من الله عز وجل:

والله أيها الأخوة، هذا الموضوع لا ينتهي، حينما نفهم الأمانة كما ينبغي والله لا ننام الليل حتى نؤدي الأمانات إلى أهلها، والتقصير كبير جداً، وإن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة، هناك ظلم شديد، الإنسان يتزوج، لا يؤدي واجبه تجاه زوجته ينجب أولاداً، لا يؤدي واجبه تجاه أولاده، يعمل في عمل معين لا يؤدي الأمانة تجاه من يتعامل معهم، لا يصدقهم، الآن ألوان الغش، والكذب، والدخل، والتزوير لا تعد ولا تحصى.

ممكن القماش مصنوع بأسوأ دولة تصنع القماش، والآن يوجد حواشي مذهبة مع المكواة يضعها على طرف الثوب وتكويها بالمكواة: (صنع إنكلترا) أرقى بلد بالجوخ، فإن وجد الإنسان أن مصنعها ببريطانيا، يدفع الثمن أربعة أضعاف، هي مصنوعة بأسوأ بلد، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى. قال لي إنسان مرة: أخذت كأس عصير، برتقالة واحدة ملأت الكاس، غير معقول ! محقونة مئة إبرة ماء، الله كبير.

فالمصائب تأتي تباعاً، المال يُدمر، التجارة لا تربح، هذا العمل.

حدثني أخ آخر، قال لي: والله يوجد مادة غذائية يضاف لها مادة مسرطنة، تستعمل في الدهان، لكنها تبيض هذه المادة باللون الفاتح يرتفع سعرها عشر ليرات، يضحي بصحة المؤمنين وبسلامتهم من أجل ربح زيادة.

بحقول العنب يوجد مادة إذا رششت هذه المادة على الفاكهة أصبحت مسرطنة يسمونها مادة جهازية، لا تزول هذه المادة بغسل العنقود، لا، تدخل في تركيب العنب من الداخل، تمتصها الجذور، فتصبح هذه المادة داخلة في تركيب العنب، هذه مادة مسرطنة، أي الإنسان إذا أكل هذا العنب قبل مضي ستة أشهر على رش هذه المادة هناك احتمال كبير أن يصاب بالسرطان.

مرة مزرعة نصحت صاحبها بعدم استخدام هذا المبيد، قال لي: والله ضمنتها بثلثي القيمة، ذهب الثلث، من الدبابير طبعاً، هو منع الدبابير أن يأكلوا هذا العنب، لكن ضحى بالمؤمنين الذي يأكلون هذا العنب.

إذاً هناك مواد مسرطنة، و مواد ممنوعة، و مواد ممنوع استيرادها، وأي صيدلية زراعية إذا ضُبطت فيها هذه الماد تغلق فوراً، ويودع صاحبها في السجن، ومع ذلك تأتي تهريباً، وتباع للناس.

على الإنسان أن يتقي الله فيما يقدمه للناس حتى يحبه الله:

الذي أتمنى أن أقوله لكم: دينك بعملك، دينك بمكتبك، دينك بمحاماتك، بطبك ، بهندستك، بزراعتك، هنا الدين، الدين بالاستقامة و لو لم يكن مظهرك دينياً صارخاً، لا تحتاج إلى مظهر صارخ.

((إنما التقوى هاهنا، إنما التقوى هاهنا، إنما التقوى هاهنا))

[رواه أحمد عن أبي هريرة].

حينما تتقي الله فيما تقدمه للناس.

والله أخ من أخوانا الكرام، له مكانة عندي كبيرة جداً، حدثني، قال لي: أنا عندي معمل مواد غذائية للصغار، ويمكن أن أشتري مواداً غذائية انتهت صلاحيتها، ولا سبيل إلى بيعها في المحلات، تباع للمعامل بثلثي قيمتها، الشكولاته انتهت صلاحيتها، الزبدة انتهت صلاحيتها، كل البضائع التي انتهت صلاحيتها كيف تصرف ؟ للمعامل، المعمل يأخذها بثلث قيمتها، أقسم لي بالله هذا الأخ، قال لي: والله لأن هذه السلعة التي يشتريها الصغير بما أعطاه أبوه من مبلغ صباحاً، أعطاه عشر ليرات، معقول أنا أن أطعمه بضاعة فاسدة انتهى مفعولها صلاحيتها ؟ كيف ألقى الله عز وجل ؟ قال لي: والله أفضل المواد على الإطلاق، لأنه يشتري أفضل المواد رأسماله ارتفع ثلاثين بالمئة، ومع ذلك قال لي: والله كيف أربح لا أعرف ! في ربح، فرأسماله أعلى بثلاثين بالمئة، لأن المواد التي يشتريها جيدة.
أنا هكذا أرى، أريد مؤمناً صارخاً، لا لأنه صلى هو مؤمن، لا لأنه عمل عمرة هو مؤمن، أريد إنساناً مؤمناً بصناعته، بزراعته، بوظيفته، جاءك مواطن في معاملة ما، تقول له: تعال غداً ؟ هو من حلب يحتاج إلى ألف و خمسمئة ليرة للإقامة بالفندق، وليأكل، إذا أمنتها له خلال دقائق يرجع إلى حلب، وينام ببيته، أما إن كنت تدير حديثاً ممتعاً مع الموظفة، و قلت له: تعال غداً فقد خنت الأمانة.

الظلم ظلمات يوم القيامة:

والله أيها الأخوة، هذا البحث لا ينتهي، أدوا الأمانات إلى أهلها، إن كنت معلماً، إن كنت صانعاً، إن كنت تاجراً، إن كنت مزارعاً، إن كنت صناعياً كبيراً، ماذا تفعل مع هؤلاء العمال ؟ يوجد بطالة عالية جداً، يقبل معك بستة آلاف، وسبعة آلاف، هل يكفيه هذا المبلغ ؟ هل هذه السبعة آلاف يفتحون بيته الآن؟ معملك يحتاج إلى مواصلات تقدر بألف و خمسمئة ليرة، ذهب من السبعة آلاف ألف و خمسمئة،

بقي له خمسة آلاف و خمسمئة، هل هذا المبلغ يكفيه ؟ هل يستطيع أن يدفع فاتورة الكهرباء ؟ ويشتري الوقود السائل، و فاتورة يدفع الماء والهاتف، وإذا أحب أن يعالج ابنه عند طبيب يحتاج ألف ليرة و هذا أقل شيء، كيف ترضى أن يأخذ هذا العامل هذا المبلغ، وأنت تصرف باليوم مئة ألف ؟ خان الأمانة، موضوع دقيق جداً.

لماذا تخلى الله عنا ؟ بسبب الظلم، إن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة، على الأمة المسلمة الظالمة، إياك أن تظلم الناس.

((الظلم ظلمات يوم القيامة))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله].

أحياناً الغني يكون قوياً، يقول لك: هذا السعر إن لم يعجبك سأرى غيرك، هو مقهور يقبل معك بسبعة آلاف، لكن لا يكفونه، أما عندما تعطيه حقه يرضى الله عنك، بحث واسع جداً، كلمة أمانات لا يستثنى منها موضوع، تبدأ بعلاقتك بزوجتك، بأولادك، و تنتهي بالعلاقات الدولية، لا تخون الأمانة، لا تشترِ معملاً لبلدك عمولته عالية، لكنه منسق من العالم من عشرين سنة و يسبب تلوثاً عالياً جداً، لا تشتره، اشترِ أفضل معمل لبلدك، بلا عمولة قدمت خدمة للأمة.

لا يوجد حقل من حقولنا، ولا جهة من جهاتنا، ولا مستوى من مستوياتنا، إلا وهذا الموضوع متعلق بها، هل اشتريت لهذه الأمة المعمل الجيد ؟ الحديد بلا تلوث، لكن لم يعطوك شيئاً مقابله، هناك معمل ثان مجدد غير جديد، أعطوك فيه مبلغاً فلكياً، وأدخلته، أي الفساد حينما يزداد نسقط جميعاً من عين الله.

على الإنسان ألا يخون الله بتعطيل فرائضه ويخون الرسول بعدم تنفيذ سنته:

لذلك الآية الكريمة:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)

تخونوا الله بتعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده، وتخونوا الرسول بعدم تنفيذ سنته، وإشاعة أسراره ، وتخونوا أماناتكم، كل واحد منا له عمل، يمكن أن تضع قطعة مستعملة بمكان يصعب أن يصل صاحب المركبة إليه، وتعطيه سعر قطعة جديدة.

يمكن أن تضع للمريض دساماً صينياً في قلبه بخمسة و ثلاثين ألفاً، و تكتب بالفاتورة أمريكي، ثمنه اثنان و ستون ألفاً، بعدما انتهت العملية، وانتهى التخدير، وخُيط الجرح، هل يستطيع المريض أن يكتشف نوع الدسام ؟ لا يوجد قوة تكشفه.

عندما يكون في خيانة للأمانة بكل الحقول لا أستثني حقلاً، ابتداء من الطب، وبعد الطب، والهندسة، والتدريس، والتجارة، والصناعة، والزراعة، كل شيء، هذا الموضوع يشمل كل إنسان، معلم ابتدائي،

رسم تفاحة رسمها الطلاب خلفه، ثم ذهب لينام وهو داخل الصف، أذهبت ساعة لم تقدم شيئاً، أوراق الطلاب لم يصلحهم، و إنما وضع علامات شكلية وارتاح.

والله هذه الآية تلاحق كل مؤمن بأي مكان بحياته، من فراش الزوجية، وانتهاء بالعلاقات الدولية.

من خان الأمانة ندم يوم لا ينفع الندم:

(وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ)

المشكلة وأنتم تعلمون:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة).

والله يعلم علم اليقين أنه خان الأمانة، وقد نزلت هذه الآية في رجل اسمه "أبو لبابة "، حين حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة، وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد، فاستشارت بنو قريظة أبا لبابة ـ و كان أهله و أمواله فيهم ـ في النزول على حكم سعد، فأشار إلى حلقه، إنه الذبح، أي إن محمداً سيذبحكم، بعد أن أشار هذه الإشارة علم أنه خان الأمانة، أي أعطى معلومات للطرف الآخر ينبغي ألا يعطيها.

وابن بلتعة حينما أرسل كتاباً إلى قريش قال: **" إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم "** هذه خيانة الأمانة، ومع ذلك وقف النبي منه موقفاً رائعاً.

على كلٍ لا تعنينا الحادثة كما يعنينا شمول هذا الموضوع، أي نقل معلومات للطرف الآخر لأعداء المسلمين هذه أكبر خيانة، لو توسعنا أكثر، إذا أقمت عندهم إقامة ثابتة، وقدمت كل خبرتك لهم، وكل معلوماتك وتفوقك لهم، هم أعداء المسلمين، أنت قويتهم.

ببعض الشركات المعلوماتية يوجد خمسة و ثلاثون ألف مهندس، من نخبة مهندسو العالم، ذهبوا إلى البلاد الغنية ـ أنا أقدم لكم رأيي الشخصي ـ أنت حينما تقيم ببلاد الغرب، وتقدم كل خبرتك، واختصاصك، وكل تحصيلك العلمي، وتخدم أبناء الغرب، وهم يتفننون في معاداة المسلمين أنت قويتهم بهذا، لِمَ لا يكن علمك لبلادك ؟ طبعاً يوجد عندنا متاعب كثيرة، في أي بلد نامٍ الدخل سيكون أقل بكثير، لكن يوجد آخرة، و هناك إله سيحاسب.

أنا والله لا أتمنى على أخ أحبه أن يبقى مقيماً هناك دائماً إقامة دائمة، يمكن أن تدرس وترجع، تحصل مالاً وترجع، أما أن تقضي كل حياتك في خدمة هؤلاء، وأن تسهم في قوتهم التي تصب أسلحة فتاكة، وعدواناً، واحتلالاً، ونهباً للثروات، هم أقوياء بما عندهم من عقول، فالعقول التي نمت في بلاد المسلمين هل يعقل أن تخدم غير المسلمين ؟ هذا خيانة للأمانة.

من عَلِم أنه يخالف منهج الله عز وجل تضاعف إثمه:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أنت حينما تعلم أنك تخالف منهج الله، الإثم يتضاعف، مثلاً هناك من يفتي بغير علم، يعاقب ويحاسب، لكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم يعد مجرماً، أنت لماذا فعلت هكذا ؟ لماذا يخون الإنسان الأمانة ؟ طمعاً بالمال، لماذا يغش ؟ طمعاً بالمال، لماذا يكذب ؟ طمعاً بالمال، لماذا يحتال ؟ طمعاً بالمال، لماذا يقدم بضاعة رخيصة جداً بمواصفات عالية جداً ؟ طمعاً بالمال، كل أنواع الخيانة تصب في خانة واحدة، حيازة مال وفير، فجاءت الآية:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال).

الأموال التي يحصّلها الإنسان من خيانة الأمانة تفتنه عن طاعة الله عز وجل:

بالمناسبة المال الوفير لماذا ؟ من أجل أن تمتع أولادك، لكل ابن سيارة، لكل ابن بيت خاص، طبعاً عندما يغتني الإنسان يريد أن يبقي هذا الغنى لأولاده، فجاءت الآية:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ)

أنت غششت المسلمين، وحصّلت أرباحاً طائلة، من أجل أن ينعم أولادك بمستوى ليس في مقدور كل الناس، هذه مشكلة.

إذاً أموالك التي حصلتها من خيانة الأمانة فتنتك عن طاعة الله،

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لو أديت الأمانة، ولم تأتك هذه الأموال الطائلة،

(وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

يا أخوان لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة جعل الله كسب المال الحلال صعباً، ومتعباً ، وجعل كسب المال الحرام سهلاً.

أمثلة كثيرة: إنسانة تعمل في البيوت ثماني ساعات بخمسمئة ليرة، وإنسانة تأخذها بالحرام بدقائق، بربع ساعة تأخذها، فالحرام سهل.

يمكن أن تغض بصرك عن مستودع تأخذ خمسة ملايين، هذا المال كان مقرراً أن يكون للدولة، والدولة ملزمة بالتعليم، والصحة، وأشياء كثيرة، فذهب المال إلى جيوب قليلة، هذه خيانة للأمانة، الموضوع واسع جداً، لكن أنت فعلت هذا من أجل دخل كبير لينعم به أولادك إذاً هذا المال، وهؤلاء

الأولاد فتنوك عن طاعة الله، أنت من أجلهم عصيت الله.

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

المؤمن حينما يتقي الله يجعل له بصيرة تريه الحق حقاً والباطل باطلاً :

لو أنك أديت الأمانات، وكان دخلك أقل بكثير، هذا المال فيه بركة، يفعل الله به كل خير لك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال الآية: 29).

هذه آية من أدق الآيات،

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

أي يقذف الله في قلوبكم نوراً ترون به الحق حقاً، والباطل باطلاً، هناك آية ثانية تؤكد هذا المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28).

يؤتكم رحمة في الدنيا تسعدون بها، ورحمة في الآخرة.

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28).

بطولة الإنسان أن يملك نوراً يقذفه الله في قلبه يرى به الخير خيراً والشر شراً:

عندما دعت امرأة ذات منصب وجمال سيدنا يوسف، ماذا قال ؟

(مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف الآية: 23).

معه رؤيا، الآن إنسان يتعفف عن المال الحرام، إنسان يأكل المال الحرام، لكن في محاسبة، الأول له سمعة متألقة، والثاني أودع في السجن.

فالإنسان بطولته أن يملك نوراً يقذفه الله في قلبه، يرى به الخير خيراً، والشر شراً، والحق حقاً، والباطل باطلاً، والحلال حلالاً، والحرام حراماً، من دون هذا النور هناك أناس كثيرون يرتكبون أخطاء فاحشة، ويجهلون نتائجها، فإذا جاءت النتيجة دخلوا في الإحباط واليأس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ)

أنت حينما تستقيم على أمر الله،

(يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

أي نوراً يقذف في قلوبكم تفرقون به الحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام.

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

والحلال يلغي الماضي الذي فيه خطأ،

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

من لم يتق الله فهو إنسان أعمى:

فلذلك أيها الأخوة، ما دام الموضوع عن التقوى، أنت حينما تتقي الله، أي حينما تقيم أمر الله، حينما تلتزم بمنهج الله، حينما تحل الحلال، وتحرم الحرام، حينما تهتدي بهدي الله، حينما تتحرك فوق منهج الله، حينما تكون مطيعاً لله، بكلام مختصر حينما تتقي الله

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

صار بقلبك نور.

هناك إغراءات كثيرة في الحياة، هذه الإغراءات تغري من طمست بصيرتهم، لا يوجد بقلبه نور، يجد مبلغاً كبيراً يفكر أن المبلغ سوف يسعده، بعد أيام يقبض عليه، ويودع في السجن، و أحياناً يُقتل، الذين يرتكبون الجرائم، لماذا يرتكبونها ؟.

أخواننا الكرام، كلام دقيق، الإنسان إذا لم يتق الله فهو أعمى، يرتكب حماقات لا يرتكبها طفل،

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

والله قصة رويتها كثيراً، لكن لا أشبع من روايتها، إنسان له عمل في المطار، أحب أن يعبر عن مهارته في القيادة، كلب صغير على طرف الطريق في المطار، استطاع أن يدهس قدميه فقط، و هذه تحتاج خبرة عالية جداً، أي أن تستطيع أن تجعل العجلة فوق يديه فقط دون أن تصيبه، دون أن تقتله، هذه براعة، فاستطاع أن يدهس قدمي هذا الحيوان الصغير، ويضحك ضحكة هستيرية تعبيراً عن مهارته في قيادة المركبة، يحدثني من كان معه في المركبة، قال لي: والله بعد أسبوع بأكمله في المكان نفسه العجلة أصابها خلل، فرفع المركبة بالرافعة، وسحب العجلة من مكانها، فإذا بالرافعة تقع، وتقع المركبة على العجلة، والعجلة على رسغيه، يقسم بالله العظيم: عندما ذهبوا به إلى المستشفى يداه اسودتا، فلابد من قطعهما، قال: والله السبت الأول قطع يدي الجرو الصغير، السبت الثاني قطعت يداه، هذا لو كان طالب علم، أو حضر درس علم، لن يفعل هذا، إله كبير، والله عندي من هذه القصص مئات.

جاء إنسان يركب مركبة حديثة جداً من الخليج، فيها خطأ بسيط، عندما ذهب إلى المصلح، المصلح ذكي جداً، عرف أن هذا جاهل، قال له: تحتاج ثلاثة أيام، تحتاج إلى تغيير كذا وكذا وكذا، قال له: كما تريد، قال له: المبلغ عشرة آلاف، فجاره قريب لي، أول يوم خبر أهله أخذهم بالسيارة إلى المطار، و في اليوم الثاني أخذهم لوادي بردى، و في اليوم الثالث إلى الزبداني، هو أصلحها بدقيقة، وعندما جاء قال له: تمام، اسمح لنا بالعشرة آلاف، قال له جاره: هذا العمل والله حرام، قال له: أنت جاهل، هكذا الشغل، ابنه يعمل في مخرطة، دخلت نثرة فولاذ في عينه فدفع تقريباً ما يقدر بستة عشر ألف ليرة لبناني ـ وقتها كان الليرة بمئة و ستين قرشاً ـ أي ما يقدر بخمسة و عشرين ألفاً، دفعهم بعد يومين أو ثلاثة.

الله عز وجل موجود و سيحاسب كل إنسان على عمله :

الله كبير، الله كبير، إياك أن تخطئ مع الناس، إياك أن تبتز أموالهم، إياك أن تكذب عليهم، إياك أن تظلمهم، إياك أن تعتدي عليهم، فالمؤمن يعرف أن هناك إله يحاسب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر).

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم).

والله عندي من هذه القصص مئات، بهذه الفترة في الدعوة إلى الله قصص وصلت إليّ، شيء مذهل، ترى عدل الله عز وجل.

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

ترى في هذا الفرقان الحق من الباطل، و الخير من الشر،

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (11-30): تفسير الآيات 30 - 35 ، مكر الله ردّ على كيد ومكر الكفار ـ ما دمنا نتبع سنة نبينا فلن يعذبنا ربنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-07-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في مصالحها:

أيها الأخوة الأكارم... لا زلنا في سورة الأنفال ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أولاً بعد أن بيّن الله نعمه على المؤمنين، بيّن بعد ذلك نعمته الخاصة على رسوله الكريم، كيف أن قريش اجتمعت في دار الندوة، في الدار التي بناها قصي بن كلاب لتكون مكاناً للتشاور في مصالح قريش، وأن هؤلاء الصناديد صناديد الكفر اجتمعوا في دار الندوة، وتداولوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، واقترح بعضهم أن يوضع في غرفة، وأن يقيد، وأن تبقى فتحة لهذه الغرفة يلقى من خلالها بطعامه وشرابه إلى أن يموت، هذا اقتراح أحد صناديد قريش، لكن بعضهم قال لهم: إن قومه سوف يأتون، وسوف يحاربونكم، فهذا ليس برأي.

فاقترح آخر بأن يدفع بناقته إلى خارج هذه البلاد كلها، ويستراح منه، فقال قائل آخر: لعل ينقل هذه الرسالة إلى قوم آخرين، فيأتون بعد حين فيحاربونكم، لكن أحدهم وهو أخبثهم اقترح أن يؤخذ من كل قبيلة فتىً، ومعه سيف، فيشتركون جميعاً في قتل النبي عليه الصلاة والسلام حتى تضيع دماءه بين كل القبائل، وعندئذٍ ينتهي هذا الإنسان الذي أقلق عليهم مصالحهم في قريش ، هذا الرأي كان هو المعتمد، واعتمدوه كرأي صائب، أن توزع دماؤه بين كل القبائل فإن طلبوا دية دفعوها جميعاً واستراحوا منه.

إخبار الله عز وجل نبيه بما تآمر عليه أهل قريش :

أيها الأخوة، ورد في السيرة بشكل خاص أن الله سبحانه وتعالى أخبر نبيه بما تآمر عليه أهل قريش، فالقصة معروفة أمسك قبضة من تراب، ورماها بهؤلاء الذين يحرسون بيته تمهيداً لقتله، فشاهد وجوههم، وخرج إلى بيت أبي بكر، ومن بيت أبي بكر إلى غار ثور الذي حصل أنه أبقى ابن عمه وقد أمره أن يرتدي برده ـ ثوبه ـ وأن يسجى على سريره، هم توهموا أن النبي في البيت، تابعوا حراسته تمهيداً لقتله، فلما دخلوا عليه ليقتلوه وجدوا علياً مكانه، أين محمد ؟ قال: لا أدري، سيدنا محمد كان قد

ذهب إلى بيت أبي بكر، ومن بيت أبي بكر إلى غار ثور، تتبعوا الأثر وصلوا إلى غار ثور، رأوا العنكبوت في مدخل هذا الغار فقال قائلهم: مستحيل أن يكون في داخل هذا الغار، وخيوط العنكبوت قديمة ! فانصرفوا، وتابع النبي هجرته إلى المدينة المنورة، قال تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

المكر تدبير من ضعيف، تدبير محكم، تدبير غير معلن، تدبير سري.

المكر الذي نُسب إلى الذات العلية ليس مكراً لكنه مكر مشاكلة يرد الله به على كيد الآخرين:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ)

ليجمد في غرفة، ويقيد، ويلقى إليه طعامه وشرابه إلى أن يموت، أو بضربة من سيوف عدة يضيع الدم فيها من كل القبائل.

(أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

هذا المكر الذي نُسب إلى الذات العلية ليس مكراً، لكنه مكر كما يقولون علماء البلاغة مكر مشاكلة، الله لا يمكر، وليس من أسمائه أنه ماكر، لكن رد الله على مكرهم بتدبير أنقذ به نبيه،

(وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

إله عظيم بيده كل شيء، بالتعبير المعاصر الخيارات لا تعد ولا تحصى، فإما أن ينصرك، أو أن يضعف خصمك، أو أن يوهم خصمك أنك قوي، أو أن يعتم عليك، الخيارات التي بيد الله عز وجل لهذا الإنسان لا تعد ولا تحصى، أحياناً يسمح لقومك أن يلقوك في النار.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء).

تصور إنساناً كان مع الله، عدوك بيده، القوي بيده، الصحة يده، المال بيده ، التفكير بيده، العقل بيده، إذا كنت مع الله فمن عليك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ والله الآن قوى الشر، قوى البغي، قوى العدوان، أسلحة فتاكة، قنابل ذرية، أقمار صناعية، ثلاثون دولة حديثة، طائرات من أعلى مستوى تنطلق من البلاد البعيدة في آخر بلاد الدنيا، وتتجه إلى شرق الدنيا، وتقصف وتعود دون أن تحتاج إلى التزود بالوقود، طيران، وصواريخ، وقنابل نووية، وأقمار صناعية، ومراقبة دقيقة جداً، الأقمار تراقب الأرض.

مرة وقعت تحت يدي مجلة ألمانية، فإذا فيها تحقيق عن الأقمار الصناعية ، أن الأرض بأكملها صورة واحدة، كما ترونها في بعض الصور العلمية، الأرض بأكملها ترى من القمر الصناعي، على الأرض مربع صغير جداً كبرت الصورة فإذا أمريكا الشمالية، على هذه الخارطة مربع صغير جداً، كبرت

الصورة الثانية، فإذا هي فلوريدا، على فلوريدا مربع صغير جداً كبرت الصورة الثالثة، فإذا هو ساحل في فلوريدا، عليه مربع صغير كبرت الصورة الرابعة، فإذا حقل أخضر مضطجع عليه شخص يقرأ كتاباً يمكن أن تقرأ عنوان الكتاب من القمر، وبيده ساعة، وإلى جانبه صحن فيه تفاحات ثلاث، هذه من القمر، أحياناً يقول لك ممنوع التصوير.

التقدم الذي أحرزه الغرب يفوق حدّ الخيال:

التقدم الذي أحرزه الغرب يفوق حدّ الخيال، كل أقمارهم، وتجسسهم، وأسلحتهم، وقنابلهم، تارةً القنبلة الذكية، والقنبلة العنقودية، والقنبلة الانشطارية، والحارقة والخارقة ، وقنبلة الليزر، والشيء الحديث عن الوسائل الحديثة في التدمير يفوق حدّ الخيال، أي قصف قصر في العراق في غرفة النوم من إيطاليا، تصور صاروخاً يخرج من إيطاليا ليصل إلى غرفة النوم بالذات، تقدم الغرب مذهل.

الله عز وجل قال:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم).

بربكم هل بإمكان دول الأرض مجتمعة أن تنقل هذا الجبل الصغير المتواضع جبل قاسيون إلى درعا، دول الأرض مجتمعة، الله عز وجل أثبت في القرآن الكريم أن مكرهم يزيل الجبال،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

من كان مع الله ربح الدنيا و الآخرة معاً:

لكنك إذا كنت مع الله كنت أقوى منهم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ دليل، يقول الله عز وجل ـ صدقوا ولا أبالغ هذه الآية تحل بها مشكلات العالم الإسلامي بأكمله ـ:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: 120).

بحاملات طائراتهم، حاملة الطائرات مدينة، بطوابق، مئة طائرة مخزنة في جوف الحاملة، مدينة بأكملها، ثمنها يقترب من ثمن مدينة، حاملات الطائرات، والصواريخ العابرة للقارات، والأقمار الصناعية، والأموال الطائلة، والدول الحليفة،

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

لأنك مع الله، وهم في قبضته، من هو العاقل ؟ من هو الذكي ؟ من هو الموفق ؟ من هو السعيد ؟ من هو الذي حقق الهدف من وجودك ؟ من هو الذي ربح الدنيا والآخرة معاً ؟ المؤمن، لأنه كان مع الله.

كن مـع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمـعك

وإذا أعطاك من يمنــعه ثم من يعطـي إذا ما منعك

* * *

الله عز وجل لا يمكر لكنه يكيد كرد على كيد الكفار ويدبر تدبيراً حكيماً لينتقم منهم:

الآية الكريمة:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

الله لا يمكر، لكن هذا مكر مشاكلة.

للتوضيح: سُئل أحدهم أنطبخ لك طعاماً ؟ هو بحاجة إلى ثياب، قال: اطبخوا لي جبة وقميصاً، قالوا: أنطبخ ؟ قال: اطبخوا لي جبة وقميصا، هذا اسمه باللغة مشاكلة.

فالله عز وجل لا يمكر، وليس ماكراً، وليس من أسمائه أنه ماكر، ولا يكيد وليس كائداً، وليس من أسمائه أنه كائد، لكنه يكيد كرد على كيد الكفار، أي يدبر تدبيراً حكيماً، يقمعهم، وينتقم منهم، ويكف أذاهم عن المؤمنين،

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أيها الأخوة، التاريخ بين أيديكم، هؤلاء القرشيون، الأقوياء، الأغنياء، الصناديد الشجعان، قمم المجتمع القرشي، هؤلاء عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، وكذبوه، وائتمروا على قتله، أو على حبسه، أو على إخراجه، أين هم الآن ؟ هم الآن في مزبلة التاريخ وأين هؤلاء الصحابة الصغار، الشباب، الضعاف ؟ هم في لوحة الشرف، تقف أمام سيدنا الصديق، تسلم عليه، تقف أمام سيدنا عمر في مقامه في المدينة تسلم عليه، تقف أمامهما بأدب جم، هؤلاء الذين نصروا النبي، رفع الله ذكرهم.

كل صفة يتصف بها النبي الكريم لكل مؤمن منها نصيب:

بالمناسبة: قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح).

وكل صفة يتصف بها النبي لكل مؤمن منها نصيب، وأنا أقول لكم جميعاً: لا يوجد إنسان من الأخوة الكرام الحاضرين إذا أخلص لله، وأقبل عليه، واستقام على أمره، واصطلح معه، لا بد من أن يرفع الله له ذكره، ويعلي قدره، هذا أبداً قانون.

" يا سعد ! لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول، فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

الناس على اختلاف مللهم و نحلهم و انتماءاتهم لا يزيدون عن رجلين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13).

هذه الحقيقة، هذا كلام مطمئن، نحن جميعاً على اختلاف مللنا، ونحلنا ، وانتماءاتنا، وأعراقنا، وأنسابنا، ومذاهبنا، وطوائفنا، أضف إلى هذه المصطلحات ما شئت ، نحن عند الله أحد رجلين، رجل عرف الله، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم، وسعد في الدنيا والآخرة، و رجل آخر غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد نموذجاً ثالثاً.

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله و بنى حياته على العطاء.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل).

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

كذب بالآخرة، آمن بالدنيا، استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل).

هذان النموذجان في حياة أهل الأرض، ولن تجد نموذجاً ثالثاً، وكل التقسيمات الأرضية دول الشمال، دول الجنوب، العرق الملون، العرق الأبيض، العرق الأصفر ، الشعوب السامية، دول متخلفة، دول نامية، دول متقدمة، دول صناعية، كل هذه التقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

والله هذه الآية يجب أن يضعها الإنسان في أي مكان في بيته،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

الأحمق هو الإنسان الذي يريد أن يلغي الدين و يقف في خندق يعادي الحق من خلاله:

أيها الأخوة،

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

ماذا أقول لكم ؟ مرة ضربت هذا المثل: هذا الرسام الدنمركي الذي رأى بسذاجة وغباء بلا حدود أنه إذا شوه صورة النبي تهتز مكانته في العالم الإسلامي، أنا خطر في بالي مثل أنه بسذاجة عجيبة كمن أراد إطفاء الشمس ببصقة من فمه، فتوجه نحوها، وأطلق بصقة من كل عزمه فانطلقت مسافة تقدر بثلاثين سنتمتراً ثم عادت إلى وجهه، وبين وجهه والشمس مئة وستة وخمسين مليون كم، والشمس لسان اللهب منها يزيد عن مليون كم، وحجم الشمس يزيد عن حجم الأرض بأكملها بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وحرارة الشمس في وسطها عشرون مليون درجة، فهذا الإنسان الساذج أراد إطفاء الشمس، والدليل هناك آية قرآنية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة الآية: 32).

الأحمق هو الإنسان الذي يريد أن يلغي الدين، ليس هناك أحمق منه.

كنت مرة في قصر كبير جداً في بلد إسلامي، قصر مذهل، قاعة الاستقبال مساحتها تقدر بألفي متر مربع، مزينة باثنين طن من الذهب، من أجمل قصور العالم، وجدت الساعة ثابتة على التاسعة وخمس دقائق، سألت عن هذه الساعة لماذا لا تعمل ؟ قال: هي ثبتت يوم وفاة صاحب القصر، هذا الطاغية، من أراد إلغاء الإسلام كلياً، منع الثياب الإسلامية، منع الحرف العربية، أراد أن يجعل من بلده بلداً غربياً إباحياً، ذكرت كلمة ترنمت لها، قلت: كم إنسان جاء إلى الأرض أراد إلغاء الإسلام يموت والإسلام باق، والآن من فضل الله هذا البلد يتحرك نحو الإسلام حركة رائعة.

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)

أحمق إنسان، أغبى إنسان من وقف في خندق يعادي الحق من خلاله.

الله جلّ جلاله مع الحق دائماً:

هل تعلم من مع الحق ؟ الله جلّ جلاله، الآية الكريمة:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم).

من أجل فتاتين، امرأتين، السيدة عائشة، والسيدة حفصة.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم).

معنى الآية، أي إذا فكرت أن تقف في خندق معادٍ للحق، هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟.

من آمن بعد فوات الأوان خسر الدنيا و الآخرة:

أيها الأخوة:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الأنفال).

تأتي لإنسان بدليل قوي، بآية كونية، بآية قرآنية رائعة، بإشارة دقيقة جداً، بدليل ناصع، يقول لك، هذا شيء أعرفه، دائماً الطرف الآخر الغير مؤمن يسخر، يستهزئ، لكنه يكتشف بعد فوات الأوان أنه كان يستهزئ بالحقيقة العظمى في الكون.

فرعون هو أكفر كفار الأرض قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: 38).

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات).

فرعون وهو يغرق قال:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية: 90).

متى آمن ؟ بعد فوات الأوان.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

لذلك أيها الأخوة، استمعوا لهذه الحقيقة: أنت مخير، ولك ملايين الخيارات في أي شيء، عُرض عليه بيت رفضته، صغير، وغير مشمس، وسعره مرتفع، فتاة للزواج لم يعجبك شكلها، ولا من حولها، فرفضت الزواج، لك أن ترفض مليون موضوع، إلا أنك إذا رفضت الإيمان تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية: 130).

وخيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، لأنه لا بدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ولا قيمة لهذا الإيمان إطلاقاً.

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس).

فكل البطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن وأنت صحيح.

الحياة و الصحة والحرية نعم ينبغي أن نستفيد منها في أمر ديننا لأنها لا تقدر بثمن:

ذكرت لكم كثيراً أن بعض الشيوخ يأخذون أخوانهم صبيحة يوم العيد إلى المقابر ليعرفوا قيمة الحياة، أنت حي بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تنفق المال، بإمكانك أن تلتمس ممن ظلمته عذراً، بإمكانك أن تؤدي ما عليك من واجبات، نعمة الحياة لا تعدلها نعمة، فإذا جاء الأجل خُتم العمل، وأغلق باب التوبة، فأنت حي، هذه أول نعمة.

وفي اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات ليعرفوا قيمة الصحة، هناك تشمع كبد، و فشل كلوي، و خثرة بالدماغ، و شلل، هناك أمراض تهز الجبال، أنت معافى، الأجهزة سليمة، الحواس سليمة، صحتك طيبة، هذه نعمة لا تعدلها نعمة.

في اليوم الثالث إلى السجون ليعرفوا نعمة الحرية، أنت حر، لست معتقلاً، معتقل والحكم عشر سنوات، اليوم لا يمضى معه، كيف ؟! أول أسبوع، ثاني أسبوع، ثالث أسبوع ، رابع أسبوع، تمضي سنة يشعرها دهراً، أين العشر سنوات ؟ فنعمة الحياة، ونعمة الصحة ونعمة الحرية، هذه نعم ينبغي أن نستفيد منها في أمر ديننا.

لذلك قال تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر).

نعمة الصحة، نعمة الأمن، نعمة الفراغ، نعمة المال، معك مال، عندك وقت فراغ لِمَ لم تطلب العلم ؟ عندك نعمة الأمن، لِمَ لم تبادر إلى أعمال صالحة ؟.

لذلك من أدق الأحاديث الشريفة:

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناءك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك)).

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس].

الأحمق من يعاند الخالق و يتحداه:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

الآيات الباهرة، الآيات الكونية، الآيات القرآنية التكوينية.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا)

يقول لك : هذا شيء معروف.

(لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أي القصص الخيالية الخرافية، التي سُطرت في كتب الأولين هذه مثلها

(إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

بل بلغ عنادهم وتحديهم وكفرهم مبلغاً عجيباً:

(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الأنفال).

إن كانت بعثة النبي حقاً ليعذبنا ربك.

(بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الفيل).

(أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

الإنسان متى يتحدى الخالق ؟ يكون أحمقاً، و حمقه لا حدود له.

أيها الأخوة، المؤمن أديب مع الله، أديب أدباً جماً، المؤمن مفتقر إلى فضل الله، المؤمن تعيش معه ثلاثين سنة لا يتكلم كلمة واحدة لا ترضي الله عز وجل، أدبه، وسمته الحسن، وتواضعه، كلنا جميعاً نقول هذا، الله جل جلاله، جل وعز، عز وجل، هكذا المؤمن يعظم الله عز وجل.

لابدّ من اجتماع التعظيم و المحبة و الخوف من الله سبحانه و تعالى في قلب المؤمن:

النقطة الدقيقة جداً:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة).

بالله ! إبليس آمن بالله، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: 82).

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف).

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة).

ما لم تؤمن بالله.

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي ـ ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وبنعمائي كي يحبوني، وببلائي كي يخافوني ـ)).

[من الدر المنثور عن ابن عباس].

إذاً لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال التفكر في آيات الله الكونية، ولا بدّ من أن يكون في قلب المؤمن محبة لله بسبب نعمه التي لا تنتهي، ولا بدّ من أن يكون في قلب المؤمن خوف من الله من خلال البلاء الذي لا ينتهي، تعظيم، محبة، وخوف.

تطبيق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجعلنا في مأمن من عذاب الله تعالى :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال).

الحقيقة الآية في حياة النبي واضحة جداً، ليس من المنطق، وليس من المألوف أن النبي بين ظهراني أمته و يأتي العذاب الماحق، هم في بحبوحة أن النبي بينهم، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، ما

معنى الآية ؟ دقق في المعنى الدقيق هو في الجواب للعالم الإسلامي لماذا يعذب المسلمين ؟ لماذا تحتل أراضيهم ؟ لماذا تنهب ثرواتهم ؟ لماذا يقتل أبناءهم ؟ من الخمسينات إلى الآن كل سنتين أو ثلاثة هناك حرب، أبداً، خمس دول إسلامية محتلة، الثروات نهبت، الأموال نهبت، مواقع، قواعد، لماذا يا رب ؟!
قال الله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

من أدق معاني هذه الآية، يا محمد ما دامت سنتك مطبقة في حياتهم، هم في مأمن من عذاب الله، أي مستحيل، وألف ألف ألف مستحيل أن نُعذب ونحن نُطبق سنة رسول الله، مستحيل !.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

هذه **"وما كان الله "** أشد أنواع النفي في اللغة، هذا اسمه نفي الشأن، قل لواحد: هل أنت جائع ؟ يقول لك: لا، قل له: هل أنت سارق ؟ هذا وضع ثان، ليس معقولاً أن يقول لك: لا، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، بعض النحاة عدوا أكثر من عشرين فعلاً ينفى بهذه الصيغة، لا أسرق، ولا أرغب، ولا أتمنى، ولا أقبل، ولا أبارك، ولا أرضى، ولا أدعم، مستحيل ! ما كان لي أن أسرق، هذا أشد أنواع النفي، والله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق في حياتهم، يوجد مساجد ؟ نعم، صلوات ؟ نعم، آذان ؟ نعم، حج ؟ نعم، أما التعامل اليومي، يا ترى في الأسواق هل منهج الله عز وجل مطبق ؟ هل هناك أيمان كاذبة ؟ هل هناك بضاعة محرمة ؟ هل هناك معاص و آثام ؟ هل هناك مواد محرمة ؟ هل هناك طريقة محرمة أو ربا ؟

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذا تفسير لما هم عليه المسلمون اليوم، لو أنهم طبقوا منهج رسول الله يستحيل أن يعذبوا.

لن تُعذب بإحدى حالتين ؛ تطبيق منهج رسول الله أو الاستغفار:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

معنى ذلك نحن في مأمنين، أو في بحبوحتين، لا يمكن أن نُعذب ومنهج النبي مطبق في حياتنا، في التفاصيل، في البيع، في الشراء، في الحفلات، في الفرح، في الترح، في السفر، في الحضر، في الإقامة في الدراسة، في المعالجة، في الطب، في الولائم.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

لا تُعذب بإحدى حالتين، إن كنت مطبقاً لمنهج رسول الله، أو استغفرت.

(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأنفال).

حينما تدفع المسلمين ليهاجروا الحبشة، أو ليهاجروا إلى المدينة، أنت ماذا فعلت ؟ صددتهم عن بيت الله الحرام.

(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الدين الإسلامي دين محفوظ من الخالق سبحانه و بقية الأديان عبادتهم رقص و غناء:

والله حضرت مؤتمراً في واشنطن للأديان، المؤتمر فيه ممثلون من ثماني عشر ديناً، أديان سماوية وغير سماوية، إلا أن هذا المؤتمر له طريقة خاصة، ليس فيه إلقاء كلمات أبداً، فيه العبادات، كل دين له ثماني دقائق ليظهر عباداته، أقسم لكم بالله عدا الدين الإسلامي الذي قام طبيب قرأ صفحة من آل عمران، وقام إنسان آخر فسرها بثماني دقائق، طبعاً الصفحة اختاروها بعناية فائقة، وكان تفسيراً جيداً جداً، وبدأت فقرة المسلمين بأداء إسلامي، وبكينا جميعاً، وقالوا في التقديم لهذا الأذان: يرجى عدم التصفيق لأن هذا الأذان من عبادة المسلمين، وهو دعوة إلى الصلاة، والله الذي لا إله إلا هو، وبقية الأديان عباداتهم كلها رقص، وغناء، وموسيقا، ذكرني هذا بالآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

(سورة الأنفال).

المكاء هو الصفير، والتصدية هي التصفيق

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

عدا الدين الإسلامي الذي بدأ بأذان، وقرأت صفحة من القرآن، وفُسرت هذه الصفحة، وما سوى هذا الدين، ما كانت العبادات إلا غناء ورقصاً وموسيقا.

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً)

المكاء هو الصفير، والتصدية هي التصفيق،

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (12-30): تفسير الآيتان 36 - 37 ، يبدأ ربنا عز وجل بالتأديب - ثم الابتلاء - فالتمكين - ثم يميز الخبيث من الطيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-07-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

أي إنسان يتوهم أنه قادر على إلغاء دعوة الله للدار الآخرة فهو غبي وأحمق:

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

أولاً الكافر يتوهم بسذاجة ما بعدها سذاجة، وبغباء ما بعده غباء، أنه قادر أن يوقف دعوة الله إلى السلامة والسعادة، وإلى الدار الآخرة، إله عظيم بيده مقاليد السماوات والأرض أمره كن فيكون، تستطيع أنت أيها الإنسان أن تلغي دعوة الله عز وجل ؟.

ذكرت لكم من قبل: كنت في قصر، ساحة الاستقبال، أو قاعة الاستقبال، مساحتها تقدر بألفي متر مربع، مزينة بذهب وزنه خمسة طن، وفي هذا القصر المنيف الذي يعد من أندر القصور في العالم ساعة توقفت على التاسعة والخمس دقائق، سألت عن هذا، فقيل لي: هذا الوقت الذي مات فيه صاحب هذا القصر، وأراد إلغاء الإسلام كلياً، لم يدع وسيلة إلا واستخدمها لإنهاء الإسلام في البلد، والإسلام باقٍ وفي أعلى درجة الآن، وهذا الإنسان مات ولم يتحقق مراده، من سابع المستحيلات أن تتوهم أنه بنفخة من فمك تطفئ ضوء الشمس.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

(سورة النور).

أيها الأخوة، أي إنسان يتوهم أنه قادر على إلغاء دعوة الله للدار الآخرة فهو غبي وأحمق، لأن الله عز وجل بيده كل شيء.

نمو الإسلام في العالم نمواً مذهلاً يلفت النظر لأنه دين الحق و دين الله:

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ)

أموال طائلة، مليارات، تنفق لإنهاء الإسلام، والإسلام يزداد قوة، عظمة الإسلام أنك إذا أردت أن تطفئه كمن يطفئ النار بالزيت، الزيت يزيدها لهباً، إن قمعته يزداد قوة، وإن قبلته يزداد قوة، على الحالتين يزداد قوة، والآن حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، في كل بقاع الأرض، والدين الأول في الأرض نمواً، كل يوم يدخل ما يزيد عن خمسين فرنسياً بالإسلام، و يتوقع أنه في عام 2020 الدين الأول في فرنسا هو الإسلام.

في الغرب، في أمريكا ألفان و سبعمئة مسجد، الجالية عشرة ملايين، ونمو هذا الدين يلفت النظر، لأنه دين الحق، لأنه دين الله.

لذلك هذا العالم الأمريكي الذي قال: **" أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام ".**

اقتراب العالم من الدين لا لأنه يعبد الله لكن لأنه يرى أن مصلحته في تطبيق أوامره:

بل إن الله يعطينا جرعات منعشة، أنا أعلم علم اليقين أن ضعاف الإيمان من المسلمين دخلوا في ثقافة اليأس، وثقافة الإحباط، وثقافة الطريق المسدود، ولكن الله أعطانا جرعات كثيرة.

طبعاً إسرائيل هي العصا الغليظة في المنطقة، ولها وظيفة واضحة كالشمس، ردع أي قوة في الشرق الأوسط تفكر أن تقول: لا للغرب، لكن هذه العصا الغليظة كُسرت مرتين مرة 2006، ومرة 2008، ولم تعد عصاً غليظة، والذين كسروها أقل منها مئات المرات لكن الله عز وجل يرينا آياته.

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ).

(سورة البقرة الآية: 249).

انهيار النظام المالي في العالم أكبر دعم لهذا الدين، العالم كله ينظر بدهشة للنظام الإسلامي، الإسلام لا يجيز شراء الدين ولا بيعه، والسبب الأول لإفلاس معظم البنوك أنهم يتعاملون بالديون كسلعة، تقدم سندات، بائع بضاعتك بالدين، البنك يشتريها منك، ويبيعها عشرات المرات، المتاجرة بالدَّين في الإسلام ممنوعة، الربا ممنوع، وكل تجارة متعلقة بالزنا والخمر ممنوعة، الآن العالم كله يتطلع إلى النظام الإسلامي المالي، أليس هذا دعماً من الله عز وجل ؟.

قبل أسبوع أُغلقت في روسيا كل النوادي الليلية، لأنها تسبب فساداً في المجتمع ، وقبل انهيار النظام السوفيتي حرموا الخمر، كلما تقدم العالم اقترب من الدين لا لأنه يعبد الله لكن لأنه يرى أن مصلحته في أن يقترب من أوامر الدين.

الإقبال على الدين و الصحوة الإسلامية سببها الشدائد التي ساقها الله للمسلمين:

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا)

السين للاستقبال، قد لا يرتدع، قد لا يفكر، قد يطمح بسذاجة أنه إذا أنفق المليارات المملبرة لإنهاء الدين يتحقق له ذلك، في بلاد إسلامية مُنع الحرف العربي، مُنع الحجاب، مُنع كل شيء يشير إلى الإسلام، مُنع الزي الإسلامي، مُنع الآذان، مُنع كل شيء والإسلام باقٍ وينمو نمواً عجيباً، لأنه دين الله. إياكم أن تتوهموا أن المسلمين انتهوا، المسلمون في خير عميم، لأن الله لن يتخلى عنهم، أنا أخطر شيء يؤلمني أن نُهزم من الداخل، أن يقول واحد: انتهينا، لا، لم ننتهِ، الله عز وجل يؤدبنا، لأن فينا خيراً كثيراً إن شاء الله، هناك تضييق، هناك شدة، و لكن لم ننتهِ.

نحن تماماً كإنسان معه التهاب معدة حاد، هذا المرض قابل للشفاء، إذاً يخضع لحمية شديدة جداً، وإنسان آخر معه ورم خبيث منتشر في جميع أنحاء جسمه، الثاني يسأل الطبيب ماذا آكل ؟ فيقول له: كُلْ ما شئت، أيهما أفضل أن يقال لك كُلْ ما شئت، والأمل معدوم بالشفاء، أو أن تخضع لحمية شديدة جداً، والأمل كبير في الشفاء ؟.

هذا الإقبال على الدين، هذه الصحوة الإسلامية، سببها الشدائد التي ساقها ربنا جلّ جلاله للمسلمين، هذه الشدائد تحثنا على طاعة الله، وأحياناً الرخاء، والبحبوحة، والدنيا العريضة، حجاب بين الناس وبين ربهم، فلذلك هذا شيء مطمئن.

قوى الأرض مجتمعة لن تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ)

الطائلة، مليارات من أجل تقويض الدعوة الإسلامية، مليارات من أجل منع الشعائر الإسلامية، والناس يزدادون تمسكاً بإسلامهم، ويقيناً بصواب دينهم، وإقبالهم على ربهم.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ)

هذه الأموال الطائلة، والملايين المملينة، بل المليارات المملبرة

(تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً)

لأنهم أنفقوها، ولم ينتفعوا شيئاً، بل ازداد الدين قوة مع إنفاقها.

احفظوا هذا المثل: إن أردت مكافحة الدين كمن يطفئ النار بالزيت، الزيت يزيد النار اشتعالاً.

(ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً - في داخلهم - ثُمَّ يُغْلَبُونَ).

أوضح مثل الصحابة الكرام، شباب ضعفاء، قلة أمام صناديد قريش، زعماء قريش، سادات قريش، غنى، وأسلحة، وكل الإمكانات معهم، وحاربوا، وقاتلوا، وتآمروا، وفي النهاية الذين حاربوا النبي عليه الصلاة والسلام هم الآن في مزبلة التاريخ، والذين أيدوه ونصروه في أعلى عليين، وفي لوحة الشرف الإنسانية.

لذلك أتمنى على الإنسان أن يعتقد يقيناً أنه إذا كان في خندق معادٍ للدين فسوف يهزم قطعاً.

للتقريب: من أنت كمواطن ضعيف لتقف أمام دولة مع جيش ؟ مع قوات أمن ؟ مع شرطة ؟ مع أموال طائلة ؟ مع أجهزة ؟ مع كل شيء ؟ هل يستطيع مواطن ضعيف أعزل أن يقف أمام دولة عملاقة ؟ نحن بمنطق الأحداث نرفض هذا، فكيف إذا أراد عبد ضعيف أن يقف أمام الحق ؟.

لذلك أطمئنكم أن قوى الأرض مجتمعة لا يمكن أن تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه، والدين يزداد قوة في العالم كله، يزداد تأصلاً، يزداد انتشاراً، هذا شأن الدين، الناس حاجتهم إلى الدين كحاجتهم إلى الهواء، هل بإمكان أهل الأرض أن يمنعوا عنك الهواء ؟ يمنعون عنك الطعام والشراب، يمنعون عنك المأوى، أما يمنعون الهواء ؟ مستحيل، والدين هواء للنفس، ولأنه هواء لا يمكن لأحد أن يمنعه، ولا أن يحتكره، لا واحد، ولا فئة، ولا طائفة، ولا جماعة، ولا عصر، ولا مصر، الدين دين الله.

من ابتعد عن الله يرى بسذاجة وضيق أفق أن بإمكانه أن ينهي الدعوة إلى الله:

لذلك في النفس فراغ، لا يملأه إلا الدين، قد يكون أغنى الأغنياء، وقد يكون أقوى الأقوياء، لكن هو بحاجة إلى أن يؤمن بالله، ليطمئن، بحاجة إلى أن يؤمن بالله كي يشعر بالأمن، كي يشعر أن إلهاً عظيماً يحميه، أن إلهاً عظيماً يستجيب له، أن إلهاً عظيماً يوفقه، أن إلهاً عظيماً يلجأ إليه، أن إلهاً عظيماً يدعوه، أن إلهاً عظيماً يتوكل عليه.

لذلك من أعجب العجب أن تعرف الله ولا تحبه، كما أنه من أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ـ الطائلة ـ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لكن غباءهم تركهم يتوهمون أن إنساناً قوياً بإمكانه أن يلغي دعوة من الله، من خالق السماوات والأرض، توهموا أن هذه الأموال توقف المد الإسلامي، توقف انتشار الإسلام، توقف تألق الإسلام.

(فَسَيُنْفِقُونَهَا)

وبعد أن ينفقوها أهدافهم لن تتحقق، بل يتحقق عكسها، إذاً

(ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ).

(سورة آل عمران الآية: 12).

كلام واضح،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ).

أيها الأخوة، الإنسان حينما يبتعد عن الله يصبح في عمى، لا يرى رؤيا صحيحة، يرى بسذاجة، وضيق أفق، أن بإمكانه أن ينهي الدعوة إلى الله، هذا من حمقه، ومن غبائه

(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ وبئس المصير).

الله عز وجل طليق الإرادة:

أضرب لكم بعض الأمثلة:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

(سورة المسد).

لو أن أبا لهب نفسه فكر قليلاً، وذهب إلى النبي ممثلاً، كاذباً، وشهد أنه لا إله إلا الله، وأن النبي الكريم رسول الله، يلغي الآية، لذلك قال العلماء: الله طليق الإرادة، هو حي وقال الله عنه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

يكفي أن يذهب إلى النبي الكريم كاذباً، منافقاً، ويدعي أنه أسلم، وينطق بالشهادة شهادته تلغي هذه السورة، الأمر بيد الله، الله عز وجل طليق الإرادة.

مثل آخر:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاس).

(سورة البقرة الآية: 142).

الله عز وجل وصف الطرف الآخر بأنهم سفهاء، وأنتم أيها السفهاء - القرآن يخاطبهم - ستقولون كذا وكذا، أبو لهب يحتاج إلى أن ينطق الشهادة بلسانه، و هؤلاء لو سكتوا لأنهوا الآية.

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاس مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا).

(سورة البقرة الآية: 142).

وفعلاً السفهاء قالوا:

(مَا وَلَّاهُمْ)

والله أخبرهم أنكم سوف تقولون كذا، لو أنهم فكروا فصمتوا ألغوا الآية، معنى ذلك أن الله أعطانا حرية الاختيار، ولكن في أية لحظة يأخذها منا.

لذلك كيف ربنا عز وجل يؤدب العصاة ؟ إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، أين عقلك ؟ يكون ذكياً جداً، حينما يصدر قراراً من الله بتأديبه، يأخذ عقله، فيرتكب حماقة ما بعدها حماقة، القضية دقيقة جداً، أنت مخير، أما حينما تختار أن تؤذي الناس، حينما تختار أن تكفر بالرحمن، الله عز وجل يؤدبك بعمل سيء تفعله وقد أخذ منك لبك، إن ربك إذا أراد أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، أي أن الله طليق الإرادة، منحك الإرادة الحرة وفي أية لحظة يأخذها منك، وحينما يأخذها منك ترتكب حماقة ما بعدها حماقة.

الله عز وجل يجري امتحاناً للمؤمنين من حين إلى آخر ليميز الخبيث من الطيب:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزّ وجل:

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

(سورة الأنفال).

الآن عفواً، أثناء العام الدراسي كل الطلاب يرتدون ثياباً موحدة، وأي إنسان يراهم في الطريق يعرف أنهم طلاب، هناك لون للثانوي، و لون للإعدادي، أليس كذلك ؟ فطالب يمشي في الطريق يرتدي ثياباً معينة، هذا من طلاب المرحلة الثانوية، وطالب آخر مرحلة إعدادية، أثناء العام الدراسي الأوراق مختلطة، بعد الامتحان يتميزون، ناجح وراسب، هل هذا واضح ؟.

الآن: المؤمنون كيف ربنا جل جلاله يميز الخبيث من الطيب ؟ حادث الإسراء والمعراج، بعض ضعاف الإيمان من المؤمنين قال: غير معقول أن يذهب إنسان من مكة إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة واحدة هذا كذب، الإسراء والمعراج امتحن المؤمنين.

أوضح مثل أن الفرق الرياضية تجري مباريات فيما بينها للتصفية، المنتصر الأوحد يدخل في المسابقات الدولية، اسمها مباريات التصفية، فهناك فرق عديدة رياضية يجب أن تختار الدولة فريقاً واحداً للمسابقات الدولية، فتجري عمليات تصفية فالضعيف يسقط.

فالله عز وجل من حين آخر يجري تصفية للمؤمنين، امتحاناً، إذا مُنع الحجاب في بلد معين ضعيفات الإيمان تقلن: ممنوع الحجاب، والله أعرف أخت كريمة تُحضر دكتوراه في فرنسا، فلما منعت الحجاب مُنعت من دخول الجامعة وهي محجبة، لغت الدكتوراه، وعادت إلى بلدها، وبحثت عن دولة ثانية، ولم تنزع حجابها.

كل إنسان ممتحن بما ناله و بما زوي عنه:

القضية امتحان، أحياناً الله عز وجل يسوق شدة هذه الشدة يفرز بها المؤمنون، فلذلك أيها الأخوة فعل الله عز وجل لحكمة بالغة.

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

ووطن نفسك أنك ممتحن، ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوي عنك، أي شيء نلته من الله، نلت علماً ممتحن في هذا العلم، هل تنفقه في سبيل الله أم تتاجر به ؟ ممتحن بالمال هل تنفقه لخدمة المسلمين أم تنفقه للتنعم فقط ؟ ولتستعلي عليهم ؟.

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ).

(سورة القصص الآية: 79).

ممتحن بالذكاء. هل تستخدم ذكاءك لبيان الحق، أم تستخدم الذكاء لمصالح شخصية ؟ أي شيء نلته من الله أنت ممتحن به، وأي شيء زوي عنك أنت ممتحن به، أنت ممتحن مرتان.

لذلك الإمام الشافعي سُئل: **" أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء، فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".**

التأديب و الابتلاء و التكريم:

وطن نفسك أيها المؤمن أن هناك مرحلة فيها تأديب، إذا وجدت المخالفات، و التقصير، والتجاوزات، هناك مرحلة التأديب، تأتي المصيبة كعقاب، هناك إنفاق مع التبذير، و منع إنفاق، و بخل، و تقطير، هناك تقصير بالعبادات، يمر المؤمن بمرحلة التأديب، الآن استقام، بعد التأديب استقام، المرحلة الثانية مرحلة الابتلاء، تمتحن وأنت مستقيم، تأتي المصيبة ماذا تقول ؟ المؤمن يقول:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

(سورة البقرة).

هذه مرحلة الامتحان، فإذا نجحت في مرحلة التأديب فتبت، وإذا نجحت في مرحلة الامتحان فصبرت، الآن تدخل في مرحلة ثالثة هي التكريم، فأنت بين التأديب، والابتلاء، والتكريم، هذه المراحل قد تكون متداخلة، أي بيوم واحد تأتي مصيبة عقاب و تأديب، و مصيبة امتحان وإكرام، أي تكون متمايزة، في مرحلة معينة أدبك الله حتى استقمت على أمره، مرحلة ثانية امتحنك حتى ثبتّ على الحق، الثالثة تكريم، وطن نفسك لا يوجد حياة من دون ابتلاء.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ).

(سورة المؤمنين).

أنواع المصائب:

1 ـ مصائب الأنبياء مصائب كشف:

إلا أن المصائب إذا جاءت هي خمسة أنواع، نوع خاص بالأنبياء، مصائب كشف ينطوي على كمال من أعلى مستوى، هذا الكمال لا يظهر إلا بمصيبة كالطائف، يذهب على قدميه مشياً مسافة تقدر بثمانين كيلو متراً في الجبال، ليدعوهم إلى الله، يصدونه، يكذبونه، يسخرون منه، يغررون صبيانهم أن يضربوه بالحجارة، ويسيل الدم من قدمه الشريف، ويقول يا رب:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى)).

سيد الأنبياء والمرسلين، سيد ولد آدم، حبيب رب العالمين، يُضرب ! والدم يسيل منه، الآن الامتحان: أرسل له ملك الجبال، قال لله:

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين)).

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين].

الجبلين، الآن الله مكنه منهم، مكنه أن يلغي وجودهم، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)).

دعا لهم بالهداية، واعتذر عنهم، و قال: ولعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده، هذه النبوة، ضربوه، وكذبوه، وسخروا منه، ومكنه الله أن ينتقم منهم، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحدك)).

أيها الأخوة، هذه مصائب كشف.

عندك مركبة "مئة و عشرون حصاناً "، هذه القدرة المتناهية لقوة المحرك لا تظهر في طريق مستوٍ، ولا في طريق نازل، تظهر في طريق هذه زاويته، وتمشي بسرعة عالية، هذا المحرك لا تظهر قيمته إلا بحالات نادرة جداً.

2 ـ مصائب المؤمنين مصائب دفع و رفع:

مصائب الأنبياء مصائب كشف، أما مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، مثلاً هناك تهاون بالعبادات، أو عبادات شكلية، يصلي صلاة صورية، غض بصره ليس حازماً، إنفاقه قليل، يعيش مع الناس، يلهو معهم، مؤمن لكن مقصر، هذا يحتاج إلى مصيبة دفع تدفعه إلى الله، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

هذه الآية متعلقة بمصائب المؤمنين،

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ):

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

(سورة البقرة).

بهذه المصيبة، هذه مصائب دفع، الحالة الثانية: مصائب رفع، أي أنت رضيت أن تكتفي ببناء المساجد، لكن عندك إمكانات كبيرة جداً، يمكن أن تضيف إلى بناء المساجد أن تكون داعية كبيراً، حينما ترضى بعمل صالح متواضع وأنت عندك إمكانات كبيرة جداً، يسوق الله لك مصيبة تجعلك ترفع مستوى عملك، هذه مصائب رفع، مصائب دفع و مصائب رفع آياتها:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ):

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

(سورة البقرة)

3 ـ مصائب غير المؤمنين قصم و ردع:

أما مصائب الكفار والمنحرفين، مصائب ردع أو قصم، إذا إنسان فيه واحد بالمليون خير تأتيه مصيبة ردع، مصيبة كبيرة لكن هناك بقية في حياته، لعله يرجع، وإذا انعدم أمل أبداً:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

(سورة هود).

تأتي مصيبة القصم، لذلك:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً).

(سورة الأنعام الآية: 44).

إذاً هناك خمسة أنواع، مصائب الكشف للأنبياء، مصائب الدفع والرفع للمؤمنين، مصائب القصم أو الردع للكفار والمشركين، وفلسفة المصيبة جزء من الإيمان.

ما أنت فيه ليس في الإمكان أبدع مما كان:

لذلك أيها الأخوة،

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

أي تكلم ما شئت، امدح نفسك كما تريد، لكن الله قادر أن يضعك في ظرف دقيق جداً يكشفك على حقيقتك، يحجمك، قد تقول كلمات لأمك قبل أن تتزوج رائعة جداً، فإذا تزوجت انحزت إلى زوجتك، ورأيت أمك عبئاً عليك وأحياناً تعنفها، كل شيء قلته سابقاً لست صادقاً فيه، أنت تكلم ما شئت، امدح نفسك كما تتمنى، لكن الله متكفل أن يحجمك، أن يضعك في ظرف صعب جداً، تظهر على حقيقتك، أنا، لا أتقاضى قرشاً حراماً، لا تتقاضى أمام ألف، ألفين، خمسة آلاف، جاءك مليون، يقول لك: بلاء عام ماذا نفعل ؟ أنا عندي أولاد، طبعاً اختلف الوضع، تقول: أنا لا أقبض قرشاً حراماً، لا تعرف حالك الله يعرفك.

فلذلك قال أحد الأئمة الكبار: **"علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

لا تعلم أنت وضعك لو معك مئة مليون، لا تعرف ، فلذلك الله عز وجل حكيم، ما أنت فيه ليس في الإمكان أبدع مما كان، اعلم يقيناً أن مكان ولادتك، وزمن ولادتك، وكونك ذكراً أو أنثى ، وأمك وأباك، أكمل شيء لك، الذي أنت فيه مسير أنت مخير بكل ما كلفت، أي أمر تكليفي أنت مخير، إلا أنك مسير في كونك ذكراً أو أنثى، أحد خيرك ؟ لا، أنت مسير في أمك وأبيك ؟ مسير في مكان ولادتك ؟ مسير في زمن ولادتك ؟ مكان ولادتك، وزمن ولادتك ، وأمك وأبوك، وكونك ذكراً أو أنثى، هذا أكمل شيء لك، عبر عنه الإمام الغزالي فقال: " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "، الذي أنت فيه مسير، إذا كشف الله لك يوم القيامة الحكمة من كونك ذكراً أو أنثى، أو فقير، أو غني، أو ابن ملك، أو ابن فقير، إذا كشف الله لك وضعك الذي لست مخيراً فيه إن لم تذب كالشمعة حباً لله فهناك مشكلة، اطمئن، ليس في الإمكان أبدع مما كان.

لذلك الإمام سيدنا علي له كله رائعة يقول: "والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " أي يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

الآن نص آخر: **" والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".**

أخطر شيء أن الإنسان ممتحن و أن الله تعالى متكفل أن يكشفه على حقيقته:

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ).

مثلاً هناك ألف طبيب بالقاهرة، أطباء محترمون، معهم شهادات عليا، يعملون في المستشفيات، صار في القاهرة زلزال، عدد كبير منهم سافر إلى الإسكندرية، وعدد قليل بقي في القاهرة ليعالج الجرحى،

الزلزال كشف شيئاً عجيباً، قل ما شئت، ادع ما شئت، صنف نفسك في أية مركبة تريد، الله متكفل أن يكشفك على حقيقتك، في بلد نُزع الحجاب، ضعيفات الإيمان خلعن الحجاب، وقويات الإيمان تمسكن بالحجاب، الله عز وجل يسوق العديد من الشدائد، هذه الشدائد تفرز المؤمنين، أبداً، تفرزهم، مهما ادعيت أنك في هذا المستوى، فهناك امتحان صعب جداً، توضع في ظرف حرج جداً، تكشف فيه على حقيقتك، هذا معنى

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

أخطر شيء أنك ممتحن، والله ممتحن كل ساعة، وكل دقيقة، ممتحن في كل موقف، الصحابة الكرام امتحنوا في بدر فنجحوا، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ).

(سورة آل عمران الآية: 123).

هم أنفسهم، وهم صفوة البشر، ومعهم سيد البشر، في حنين نحن كثر قالوا:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس].

اعتدوا بعددهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ).

(سورة التوبة).

وطن نفسك أنك ممتحن، وأن الإنسان قد يستطيع أن يخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد يستطيع أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن يخدع الله، أو أن يخدع نفسه لثانية مستحيل.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ).

(سورة القيامة).

بطولة الإنسان إن كُشف أن يكون على حق لا على باطل:

لذلك:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ).

(سورة النساء الآية: 142).

أنت مكشوف:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ).

(سورة الحاقة).

مكشوف مئة بالمئة، فالبطولة أن تكون مكشوفاً وأنت على حق،

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (13-30): تفسير الآيات 38 - 40 ، قوة الإسلام باتباع منهج الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-07-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الكافر إنسان أنكر الحقائق الناصعة كالشمس وسلك مسلكاً يخالف منهج الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

اللغة العربية اختارها الله لكلامه، ويبدو أنها من أرقى اللغات الإنسانية، في هذه الآية الدقيقة يقول الله عز وجل مخاطباً نبيه:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

أي أليس السياق اللغوي يقتضي أن تكون الآية قل لهم:

(إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

فلماذا جاءت الصياغة بهذه الطريقة

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

قال علماء البلاغة والتفسير: إن الآية الكريمة لم تخاطبهم، بل ذكرتهم بضمير الغائب، لتكون الآية عامة لكل الكفار قديماً وحديثاً وإلى قيام الساعة، كانت الآية متعلقة بفئة معينة فإذا هي متعلقة بكل الكفار على وجه الأرض.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

أي أيّ إنسان ولو وقع في الكفر، والكفر أكبر انحراف فكري سلوكي، الكافر إنسان أنكر الحقائق الناصعة كالشمس ، وسلك مسلكاً يخالف منهج الله عز وجل،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

أي إن يتوب الكافر

(يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

و هذه رحمة الله.

((لو أتيتني بملء الأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي)).

[ورد في الأثر].

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء).

المؤمن لا يكره الكافر لذاته بل يكرهه لفعله وكفره:

الله عز وجل لا يكره الكافر كشخص، يبغض عمله، هناك دليل لطيف: عمير بن وهب من كفار مكة يخاطب صفوان بن أمية، يقول له: والله لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، صفوان انتهزها مناسبة، قال: أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، لا تقلق عليهم، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، فامضِ بما أردت، أي اذهب واقتل محمداً وأرحنا منه، فسقى سيفه سماً، وامتطى ناقته، وتوجه نحو المدينة ليقتل محمداً، ولكن بحجة أن يفك أسيره ـ وكان ابنه أسيراً في المدينة ـ عندما وصل المدينة رآه سيدنا عمر فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً، قيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي، وقال: يا رسول الله هذا عدو الله جاء يريد شراً، النبي الكريم بأخلاق سامية، قال: أطلقه يا عمر، فأطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، يا عمير أقبلْ، فأقبلَ، قال له: سلم علينا، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال له: قل السلام عليكم، قال: هذا سلامنا، لا يوجد غيره، سأله: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له: جئت أفك ابني من الأسر، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك، قال له: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ فقال له النبي الكريم: ألم تقل لصفوان لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ عمير وقف ! قال له: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي كان بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله، وأسلم.

الشاهد ليس هنا، الشاهد يقول سيدنا عمر: " دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إليّ من بعض أولادي ".

هذا الدين، المؤمن لا يكره الكافر لذاته أبداً، يكرهه لفعله، لكفره.

ارتباط العداوة بين المؤمن وغير المؤمن بالكفر:

لذلك العداوة التي بين المؤمن وبين غير المؤمن عداوة مرتبطة بالكفر، بالعمل السيئ.

تماماً كما لو أن ابناً عاقاً عاد لأبيه ففي لحظة واحدة الأب يقبله، ويرحب به، ويحبه، يؤكد هذا المعنى ما ورد في الأثر أنه:

((إذا قال العبد: يا رب، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد العاصي: يا رب، يقول الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك))

أنا أنتظرك، لذلك ورد:

((لو يعلم المعرضين انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين ؟))

[ورد في الأثر].

الله عز وجل يحب كل عباده، يريد أن يطهرنا، يريد أن يسعدنا، يريد أن يدخلنا جنة عرضها السماوات والأرض، خلقنا لها.

لذلك:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

عن كفرهم، وانحرافهم، وأعمالهم، إن ينتهوا عن كفرهم، عن ضلالهم، عن تكذيبهم، عن انحرافهم، عن أعمالهم الإجرامية.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا)

أي كافر إلى يوم القيامة، بتبديل التاء بالياء أصبحت الآية لكل الكفار في أي زمان ومكان، وها شأن الله مع العصاة، هو ينتظر توبتهم،

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

تعامل الله مع عباده وفق قواعد ثابتة:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

إن عادوا إلى كفرهم، من سنة الله عز وجل أن القوانين ثابتة، وهذا شيء ينقلنا إلى حقيقة أن الله عز وجل يتعامل مع عباده وفق قوانين، والقانون علاقة ثابتة بين شيئين.

شيء مريح جداً للمؤمن أن يتعامل مع الله وفق قواعد ثابتة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

لك أن تقول هناك قانون الحياة الطيبة، قانون يحتاج إلى إيمان بالله، وعمل صالح

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

هناك قانون كيف يلتف الناس حولك ؟

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية: 159).

تتصل بالله، تكتسب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، يلتف الناس حولك، تبتعد عن الله يصبح القلب قاسياً، ينعكس القلب غلظة، ينفض الناس من حولك، قانون ثان.

الله عز وجل يحب عباده جميعاً لذلك وضع لهم قواعد ثابتة للتعاون معهم:

القضية رائعة جداً لو قرأت القرآن، وحاولت أن تضع يدك على قوانينه، هذه القوانين يمكن أن تتعامل مع الله بها بشكل قطعي، لأن الله عز وجل يحب عباده جميعاً، وضع لنا قواعد ثابتة بالتعاون معه.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس الآية: 60).

رافع الرأس، شامخاً، فإذا أساء الإنسان سوف يتحمل اللوم، والتحجيم، والنقد والتشهير.

فلذلك قانون العزة

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يريد من القرآن لا أن يكون كتاب تاريخ، يريده أن يكون كتاب قوانين.

الله عز وجل أراد أن يعلمنا أن نأخذ بالأسباب:

لذلك الشيء المألوف أن الله سبحانه وتعالى يغفل تفاصيل كثيرة.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)

(سورة الكهف الآية: 83).

من هو ؟ في أي عصر، في أي بلاد ؟ في آسيا، في إفريقيا، في أوربا.

(قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)

(سورة الكهف الآية: 83).

أراد الله أن يعلمنا أن نأخذ بالأسباب، لو جاءت تفاصيل كثيرة حول ذي القرنين لانقلبت هذه القواعد الثابتة إلى قصة، وقعت ولن تقع مرة ثانية، فالذي يريد أن يبحث عن تفاصيل في القرآن أغفلها القرآن كأنه يفسد على الله هدايته لخلقه.

بالضبط، أضرب هذا المثل دائماً: أستاذ جامعي يعطي الاقتصاد، أراد أن يبين لطلابه متى ينجح التاجر، فقال على شكل قصة: لي صديق، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة، أول شرط أن يكون المحل في موقع تزاحم الأقدام، واختار بضاعة أساسية مواد غذائية، واختار أصنافاً متفوقة، جيدة، ووضع سعراً معتدلاً، ولم يبع ديناً، هذا الأستاذ أعطى طلابه عن طريق هذه القصة أن عوامل نجاح

التجارة ؛ موقع المحل، البضاعة، نوع البضاعة، السعر، عدم البيع ديناً، ربح أرباحاً طائلة، أحد طلابه قال له: هذا الشخص ما اسمه ؟ الاسم لا قيمة له إطلاقاً، قال له طالب آخر: هذا الشخص طويل أم قصير ؟ قال له طالب ثالث: أبيض أسمر ؟ المحل بأي مكان ؟ الأستاذ أراد نقل الحقائق كقوانين لنجاح التجارة.

فحينما تأتي هذه التفاصيل التي تعد في فن القصة عبئاً عليها يكون هذا السائل قد أفسد على المدرس هدفه من هذه القصة.

بطولة الإنسان أن يسكت حيث سكت القرآن:

لذلك البطولة أن تسكت حيث سكت القرآن، يا ترى امرأة العزيز بعد أن أصبح يوسف عزيز مصر، هل تزوجها ؟ والله لا أعرف، ويجب ألا أعرف، لماذا ؟ لأن الله اختار من المغيبات مجموعة آيات، أنا أرى أن الحكمة أن تكتفي بالذي ذكره الله عز وجل.

عندما حاول المفسرون نقل تفاصيل القصص القرآنية من بني إسرائيل وقعنا في متاهة لا تنتهي، وقعنا فيما يسمى بالإسرائيليات، تفسيرات غير معقولة إطلاقاً.

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا)

(سورة ص الآية: 23).

ببعض كتب التفسير أخذاً عن كتب بني إسرائيل أن له تسع وتسعين زوجة، وأنا لي زوجة واحدة، قال الله: نعجة لم يقل زوجة، تجد تعليلات، تفصيلات، أشياء غير مقبولة إطلاقاً.

لذلك أنا أنصح أن تبتعدوا عن أي تفاصيل مأخوذة من كتب بني إسرائيل عن قصص الأنبياء، أتمنى ذلك.

هنا الآية الكريمة:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

من قاتلك ينبغي أن تقاتله دفاعاً عن أرضك و دينك:

الآن الآية الثانية:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الأنفال).

يقول: إن الله عز وجل أمرنا أن نقتلهم، لا، أمرنا أن نقاتلهم، ما الفرق في اللغة بين أن تقتل وأن تقاتل؟ الفرق كبير جداً، أن تقاتل أي هناك جهة تقاتلك، لو أن الأمر واقتلوهم موضوع آخر، الآية الكريمة:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

أوضح مثل ما يجري أمامنا، دولة احتلت بلداً، قتلت مليون، أعاقت مليون، شردت خمسة ملايين، نهبت الثروات، نحن ديننا دين سلام، دين محبة، لا نعمل شيئاً، من قال لك ذلك ؟ لا يوجد جهة في الأرض تقبل ذلك.

(وَقَاتِلُوهُمْ)

هناك من يقاتلك، هناك من يحتل أرضك، هناك من ينهب ثروات الأمة، هناك من يذل الشعب. لذلك يريدوننا أن نلغي آيات القتال في القرآن الكريم، هكذا يريدون، قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

لم يقل: واقتلوهم، هذا الذي يقاتلك ينبغي أن تقاتله، ينبغي أن تقاومه، ينبغي أن تقف في وجهه، ينبغي أن تمنعه من تنفيذ مخططاته، يريد أرضاً، يريد ثروة، يريد هيمنة.

أحد السياسيين الكبار في دولة عملاقة قال: هو لا يعجبه أن يكون العالم مئتي دولة يتمناه خمسة آلاف دولة.

كل مشاريعهم عبارة عن تقسيم البلاد إلى دويلات، هذا مشروع الشرق الأوسط، تقسم الدول إلى خمس أو ست دول، تقسيم البلاد إلى دويلات بحسب الانتماءات الطائفية وفرعون موسى من أقدم الفراعنة، أو من أقدم الطغاة، قال الله عنه:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص).

أثر المقاومة الكبير الذي قلب موازين الأرض:

أنا لا أتصور أن عدواً يحتل أرضنا، ينهب ثرواتنا، يذل شبابنا، يمنع إقامة الشعائر في ديننا، نحن دين سلام، دين محبة، نحن إسلامنا متسامح، الآن المسلمون كأنهم يستجدون من العالم الغربي نحن نحب العدل، نحب التسامح، نحب السلام، من قال لك ذلك ؟ هذا الذي يقاتلك ينبغي أن تقاتله، وأساساً كانوا يتوهمون أن احتلال بلد شرق أوسطي كان نزهة والمقاومة هي التي أقضت مضجعهم.

والله مرة سمعت تصريحاً لكبار الموظفين في البينتاغون، قال: ماذا نفعل بحاملات الطائرات، وماذا نفعل بالصواريخ العابرة للقارات، وماذا نفعل بهذه الجيوش، لأنه لا تجرؤ دولة في الأرض أن تحاربه، قال: ولكن ماذا نفعل بهذا الذي أراد أن يموت ليهز كياننا ؟ هذا ليس له حل.

معنى ذلك أن المقاومة كان لها أثر كبير في العراق وفي فلسطين، المقاومة قلبت موازين أهل الأرض، عشرة آلاف مقاتل معهم أسلحة بدائية، تحت الأرض يتصدون لرابع جيش في العالم ؟ لأول جيش من حيث تنوع الأسلحة، لأكبر جيش في المنطقة، هذا الذي حصل، فأنا أتمنى أن تكون الآية واضحة تماماً، قال الله:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

هناك قتال مشترك، هناك جهة تقاتلك ينبغي أن تسكت ؟ ينبغي أن تستسلم ؟ ينبغي أن تقول إسلامنا إسلام سلم، إسلام محبة ؟ لا أبداً، الإسلام له أظافر،

(وَقَاتِلُوهُمْ)

فعل قاتل فعل مشاركة، مثلاً، ضارب تضربه ويضربك، قاتل تقتله ويقتلك، حاور تحاوره ويحاورك، وزن فاعل باللغة يعني المشاركة.

تناقض الاستسلام مع ديننا العظيم:

قال تعالى:

(وَقَاتِلُوهُمْ)

عدو احتل أرضك، نهب ثروات، أذل شعبك، موقفي السلام ؟ الاستسلام ؟ مستحيل !.

كبار القادة الغربيين من أين استمدوا قيادتهم ؟ من مقاوتهم للاحتلال،عندما احتلت ألمانيا فرنسا لماذا تألق أحد كبار الزعماء وصار رئيساً للبلاد ؟ لأنه قاوم الاحتلال، في العالم كله، الإنسان يكون بطلاً إذا قاوم الاحتلال، فكأنهم يريدون أن يحتلوا أرضنا، وأن ينهبوا ثرواتنا، وأن نكون نحن وديعين كالحمل، أن نستسلم، هذا يتناقض مع ديننا.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

سبحانك يا رب، كأن الهدف مشروع، تكون فتنة، الطرف الآخر يريد الإباحية، أرأيت إلى هذه الصحون ؟ هناك إحصاء دقيق ثمانمئة محطة فضائية، أربعمئة منها محطة إباحية، ثلاث و عشرون مليون موقع إباحي بالانترنيت، يريدون أن يعمموا إباحيتهم علينا، فهذه الصحون تمثل الغزو الثقافي

الغربي، كانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون، لكنهم الآن يجبروننا بالقوة الناعمة بالمرأة على أن نريد ما يريدون.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

حتى لا يفتتن الشباب بالجنس، الآن الجنس هاجس معظم الشباب الذين شردوا عن الله عز وجل، أليس كذلك ؟.

((إذا رأيت شحاً مطاعاً ـ المادية المقيتة ـ وهوى متبعاً، الجنس، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ـ الكبر)).

[أبو داود، ابن ماجه، الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

كل إنسان محور العالم، يقول لك: هذا الموضوع لا يناسب العصر، يكون هناك آية قرآنية في هذا الموضوع، من أنت ؟ قال:

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ

***

من أنت ؟ يقول لك: هذا الحكم لا يطبق عندي الآن، الله عز وجل لا يعلم أن هناك ظروفاً أخرى يصعب تطبيقه ؟! الله مشرع، قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: 286).

الشباب عماد الأمة و مستقبلها فعلينا الحفاظ عليهم:

لذلك أيها الأخوة،

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

أحياناً يحتلون بلداً، أول شيء يشجعون إلغاء الحجاب، يشجعون الاختلاط، دور اللهو، النوادي الليلية، دور السينما، الأفلام، يوزعون أفلاماً إباحية.

حدثني أخ، قال لي: والله توزع أفلام إباحية، زنا محارم، بلا ثمن، و بكميات فلكية.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

نحن عمادنا الشباب، عماد الأمة الشباب، الشباب هم المستقبل، فإذا شردوا عن الله عز وجل أين المستقبل ؟ انتهت الأمة، الأمة بشبابها، الكهول يمثلون الحاضر، والشيوخ يمثلون الماضي، الآن اجلس مع شيخ، أقصد إنساناً متقدماً في السن، يقول لك: في سنة ألف و تسعمئة و عشرين دفعنا نقوداً كيلا نذهب إلى الجيش مثلاً، يتكلم عن الماضي قبل خمسين عاماً، هو يعيش الماضي، و إنسان كهل يعيش

الحاضر، لكن المستقبل لمن ؟ للشباب، إذا الشاب عاش للجنس انتهى، أي حينما يفسد الشباب ينتهي المستقبل:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى)

الآن القتال لاحتلال منابع النفط، القتال لاحتلال موقع استراتيجي، القتال لاحتلال ونهب ثروات كبيرة جداً، القتال من أجل السيطرة، كلها أهداف شيطانية أرضية، أما القرآن الكريم ماذا يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

خضوع لله عز وجل.

الابتعاد عن الأشياء التي تصرف الشباب عن دينهم و مستقبلهم:

والله أيها الأخوة، لو أتيح لنا أن نعيش في مجتمع نطبق الدين تطبيقاً كاملاً، تجد أن الشباب منصرفون إلى مستقبلهم، أما الآن ألف شيء يصرفهم عن الدراسة، أفلام، ندوات وفضائيات، وانترنيت، ومواقع، ألف شيء يصرفهم عن مستقبلهم، ألعاب الكومبيوتر أصبحت بالملايين، كل أموال الطفل يضعها في نادي الكومبيوتر، ثم يأخذ من أخيه، ثم يمد يده إلى مال أبيه من دون إذنه، بلا أي هدف، لعب، هم يعيشون على أنقاض الشعوب.

والله أنا أتمنى هذه الألعاب التي لا طائل منها أن تلغوها من حياة أولادكم، قال لي أخ: يأتي ابني من الصباح ـ هو يعمل بنادي الكومبيوتر ـ من أجل الألعاب، إلى متى ؟ نحن حينما تشل هذه الأمة يكون هذا الشلل بشلل شبابها.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

والله أنا أرى أن المقاومة في البلاد المحتلة تركت أثراً كبيراً جداً، الآن العالم الغربي يعد للمليون قبل أن يحتل دولة شرق أوسطية ثانية، أليس كذلك ؟ بسبب المقاومة، أنا أقول هذه الآية دقيقة جداً:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

لو أتيح لنا فرضاً أن نطبق منهج الله كاملاً، لا يوجد فتن في الطريق، لا يوجد مناظر مثيرة في الطريق، لا يوجد انحراف عند الشباب، الآن الانحراف عند الشباب يكاد يغطي معظم الشباب، من هذه المناظر التي يراها في الطريق، وبينه وبين الزواج عدة أعوام، مشكلة كبيرة جداً نحن قد لا ننتبه لها شيء أودعه الله في كل إنسان، فإذا استثير يومياً قد يصمد إلى بعض الوقت، بعد ذلك تنهار مقاومته، هؤلاء يريدون هكذا، يريدون الإباحية.

محاربة ما نقله الغرب إلينا لئلا نصل إلى ما وصلوا إليه:

أقسم لي أخ في الله مقيم في أستراليا قال لي: الإنسان المحافظ بالتعابير الدارجة، الأصولي، المنتمي إلى دين، التقليدي، القديم، هذا في استراليا، إذا رأى ابنته تتزين عصراً فقط يحذرها من أن تحمل فقط، وصلوا إلى هنا.

شاب أحب فتاة استأذن والده من الزواج منها قال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري ـ أبوه كان زير نساء ـ فلما أحبّ ثانية، قال له: أيضاً هذه أختك وأمك لا تدري، فلما أحب الثالثة قال: إنها أيضاً أختك وأمك لا تدري، هذا الشاب ضجر من أبيه وشكا إلى أمه قالت له: خذ أياً شئت أنت لست ابنه وهو لا يدري.

هذا الغرب ! سفير دولة عظمى يقام له حفل في وزارة الخارجية ليعطى أوراق اعتماده للدولة التي سيكون فيها سفيراً، هذا الحفل رجال ونساء، كل واحد مع زوجته، هذا السفير معه شريكه الجنسي و ليس زوجته، شيء طبيعي جداً، أين نحن ؟!

أيها الأخوة،

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

لئلا نصل إلى ما وصلوا إليه.

(وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أي إذا انتهوا انتهاء حقيقياً أو انتهاء تمثيلياً، هناك فرق، أحياناً الإنسان يكون ذكياً جداً يمارس شيئاً، فإذا ضُبط بالجرم المشهود يعلن توبته الشكلية، لكنه يتابع هذا العمل سراً، فالله عز وجل يقول:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

بصير بانتهائهم إذا كان حقيقياً، أو إذا كان خلبياً، أو إذا كان صورياً.

من عاد إلى طاعة الله عاد الله إلى توفيقه و حفظه و تأييده:

أيها الأخوة الكرام:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الأنفال).

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية: 19).

هذه آية واسعة، إن عدت إلى طاعة الله يعود الله إلى توفيقك، وحفظك، وتأييدك، وإن كنت مستقيماً وعدت إلى ما كنت عليه سابقاً الله عز وجل يعود إلى معاقبتك، هناك قوانين ثابتة.

هناك قوانين ثابتة أوضح مثل أن قانون السقوط أنت إن آمنت به أو لم تؤمن واقع بك، الدليل اركب طائرة وقل: هذا القانون لا أؤمن به أنا أحتقره، انزل بلا مظلة هل تلغي فعله فيك ؟ لا، إنما تنزل ميتاً، ما معنى مظلة ؟ المظلة تأدب مع قانون السقوط، ما دام في سقوط نعمل مساحة كبيرة جداً من قماش غير نافذ يعمل مقاومة للهواء، هذه المقاومة تجعل الهبوط بطيئاً فتنزل واقفاً، فالإنسان إذا رفض قانوناً لا يستطيع أن يلغي عمله به هذه النقطة دقيقة، الدين له قوانين إن أخذت بها نجوت، وإن لم تعبأ بها فهي مطبقة عليك شئت أم أبيت، القوانين التي جاء بها القرآن إن آمنت بها، وصدقتها، وتأدبت معها، وعملت وفقها تنجو، أما إذا لم تؤمن بها، لن تستطيع إيقاف عملها فيك:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

خضوع لمنهج الله.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا كان الانتهاء انتهاء حقيقياً، أو صورياً الله بصير.

الإسلام قوي لأن الله معه:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

(سورة الأنفال).

النقطة الدقيقة في هذه الآية:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا)

الله عز وجل ينصركم على قلتكم، هذا الذي يؤمن معكم، ينبغي ألا يتوهم أنه بانضمامه لكم قواكم، لا، الإسلام قوي إن كان كثيراً أو قليلاً، لأن الله معه.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ)

لا تعلقوا كبير أهمية على ترككم، أنتم أقوياء بالله، فإن كانوا معكم كانوا هم أقوياء أيضاً، فإن تركوكم أنتم أقوياء من دونهم.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات تبين أن الإسلام قوي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (14-30): تفسير الآية 41 ، الاستقامة والعفاف أقصر طريق إلى الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-07-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الغنائم من نتائج أي نصر وهي ما يؤخذ من العدو عقب الحرب:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

أيها الأخوة، ذكر الله الغنيمة بعد أن ذكر النصر، من نتائج أي نصر الغنائم ، والغنائم ما يأخذه المؤمنون من منقولات من عدوهم عقب المعركة.

أيها الأخوة، لم تكن الغنائم لتكون محللة لأي نبي قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

((أحلت لي الغنائم)).

[البخاري عن جابر].

والغنيمة ما يؤخذ من العدو عقب الحرب، لكن العلماء كأنهم صنفوا الآخر أصنافاً ثلاثة، هناك إنسان آخر مسلم، له ما لك، وعليه ما عليك، هناك إنسان مستأمن أي دولة غير مسلمة لكن بيننا وبينها معاهدات، هناك تمثيل دبلوماسي، وسفراء، هذه دولة مستأمنة، وكل إنسان يأخذ من هذه البلاد الأجنبية بضاعة ولا يؤدي ثمنها فهو سارق، لا أتكلم من فراغ، أتكلم من اجتهاد بعض الجهلاء، من أن هؤلاء ليسوا مسلمين، مالهم حلال لنا.

ألا تذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام معه ودائع المشركين، فلما هاجر أبقى ابن عمه علياً ـ رضي الله عنه ـ وقد عرضه للقتل من أجل أن يؤدي الأمانات إلى أهلها.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا).

(سورة النساء الآية: 58).

المسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده:

كل إنسان يفكر أن يأخذ مالاً من غير مسلم أنا أرى أن عقابه مضاعف، لأنه ما أساء إلى هذا الإنسان بل أساء إلى دينه، فرق كبير بين أن تسيء إلى مسلم، فيقول: فلان أساء إليّ، وبين أن تسيء إلى غير مسلم فيقول: المسلمون ليسوا على حق، بين أن تسيء إلى إنسان، وبين أن تسيء إلى دينك، والمسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده.

مرة أخ كان ببلاد بعيدة، واشترى بضائع بخمسة آلاف دولار، قال لي: لم أدفع ثمنها لأنهم كفار، أنت تسيء إلى المسلمين عامة، هؤلاء مستأمنون، يوجد علاقات، و سفراء، و سفر، و معاهدات، و اتفاقيات، والمسلمون مسلمون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أما هؤلاء الذين احتلوا بلادنا ـ اليهود ـ واحتلوا أرضنا، واغتصبوا كل ما عندنا، لو وقعت حرب بيننا وبينهم عقب الحرب إذا انتصرنا ـ إن شاء الله ـ الأموال المنقولة التي بأيدينا، التي من أموالهم، حلال لنا، هذه غنائم، والنبي عليه الصلاة والسلام أحلت له الغنائم.

عدم سماح الشرع لنا بأن نأخذ أموال الدول الغير إسلامية التي بيننا وبينها معاهدات:

عندنا دار حرب، ودار أمان، ودار إسلام، كم دار ؟ ثلاثة، دار الحرب مع الأعداء الذين يحاربوننا.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ).

(سورة البقرة الآية: 190).

لكن:

(وَلَا تَعْتَدُوا).

(سورة البقرة الآية: 190).

تقاتل الذي يقاتلك.

(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

(سورة البقرة الآية: 190).

عندنا ديار إسلام، وديار أمان، جميع الدول الغير إسلامية التي بيننا وبينها معاهدات، واتفاقيات، وسفر مسموح، وإقامات، وجوازات، هذه البلاد لا يسمح لك الشرع أن تأخذ من أموالها شيئاً إلا بحقه، أما الغنائم عقب الحرب التي تمت بين المؤمنين وغير المؤمنين وانتصرنا فيها هذه الأموال تسمى غنائم فقط، لئلا يتوسع الجهلاء والمتشددون بهذا، لئلا يأخذوا أي مال لمسلم، الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى).

(سورة المائدة الآية: 8).

إنك إن عدلت معه قربته إلى الله، إن عدلت معه قربته إليك.

من أساء إلى غير المسلمين أساء إلى الإسلام كله:

والله أخ كريم من أخوتنا، يعمل في مكان، على رأس هذا المكان إنسان بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء، يقول هذا الأخ: لا أتصور في حياتي أن يأتي إلى المسجد، فمرة قدم له إجازة ستة أيام، فغضب ورفض، قال له: هذه الأيام الستة أنا استهلكتها في صلاة الظهر خلال شهرين، فلئلا آكل مالاً حراماً قدمت لك إجازة ستة أيام تساوي صلاة الظهر إلى جانب الدائرة، قال له: أنت من أي جامع ؟ قال له: من الجامع الفلاني، أقسم لي بالله الأسبوع الثاني كان أحد رواد المسجد، هذا الإسلام إلى هذه الدرجة بالدقة، تحاسب نفسك عن ربع ساعة جمعتهم بستة أيام وقدمت إجازة فيهم ؟.

عبد الله بن رواحة ذهب إلى يهود خيبر ليقيّم تمرهم بحسب اتفاقية سابقة، أغروه بحلي نسائهم، قال لهم: " جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا ".

تقول لي: هذا مال إنسان غير مسلم ؟ مال غير المسلم حرمته أشد، لماذا ؟ لأنك إذا أسأت إليه يتهم الإسلام كله.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا).

(سورة الممتحنة الآية: 5).

الغنائم فقط، الأموال التي تنقل عقب حرب المسلمين مع أعدائهم فقط، أما بلاد غير إسلامية، لا تدفع الثمن، تحتال عليهم، هذه أشياء لا يمكن أن تكون مقبولة إطلاقاً.

بالأخلاق يصل الإسلام إلى أطراف الدنيا:

أقول لكم هذه الكلمات: والله الذي لا إله إلا هو لو أن المسلمين المقيمين في بلاد الغرب أقاموا الإسلام تماماً، طبقوا منهج الله، لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف، ولو فهم الصحابة الإسلام كما نفهمه نحن والله ما خرج من مكة، الإسلام مبادئ ، الإسلام قيم.

صحابي أثناء الهجرة ألقى الكفار عليه القبض، قال: أطلقوني، عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، حدث النبي عليه الصلاة والسلام بهذا، وفرح به النبي الكريم أشد الفرح، بعد سنتين هناك غزوة فانضم إلى المسلمين، رآه النبي فقال له: ارجع ! ألم تعاهدهم ؟.

هذا هو الدين، بالأخلاق يصل الإسلام إلى أطراف الدنيا، وبالاحتيال، والازدواجية والمعايير المتنوعة، هذا يبعد الناس عن الدين، وإذا صحّ أن هناك من يخرج من دين الله أفواجاً بسبب سوء معاملة المسلمين.

إذاً أخواننا الكرام، ليس مسموحاً لإنسان أن يأخذ مالاً من غير مسلم إلا إذا كان عدواً محتلاً، مغتصباً، عقب حرب، أنا أتكلم هذا الكلام لا من فراغ، من قصص كثيرة جداً سمعتها، من أناس لا يعلمون حقيقة الدين، يأخذون ما ليس لهم من غير المسلمين، هذا حرام بل حرمته أشد لأنك بهذا تسيء إلى دينك.

((والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)).

[أحمد عن أنس].

من معاني هذا الحديث: من سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده.

أحد أسهم الغنائم الخمسة لله وللرسول لنشر الدين و تعزيز سنة رسول الله:

أيها الأخوة، ذكر الله الغنيمة بعد النصر، لكن هناك ملمح، عندما أنت قدمت امتحان الشهادة الثانوية يقول لك أبوك: أنا أختار لك الطب البشري بدل الهندسة وكأنك نجحت، مع أن النتائج لم تعلم بعد، حينما يحدثك أبوك عن ما بعد النجاح، كأن هذا الحديث تفاؤل لك بالنجاح، فالحديث عن الغنائم تطمين من الله عز وجل للمؤمنين أنكم سوف تنتصرون،

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

هذه الغنائم خمسة أخماس، خمسها لله، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى ، والمساكين، وابن السبيل، كم سهم ؟ ستة، هذا الموضوع عند العلماء خلافي، لأن بعضهم ارتأى أن لله وللرسول سهم واحد، و

(لِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أربعة أسهم، وسهم لله وللرسول، كيف ؟ لتعزيز دين الله، لنشر الحق، لنشر هذا الدين، لتعزيز سنة رسول الله، أي إن صحّ التعبير للدعوة، نحتاج إلى مساجد، إلى مراكز إسلامية في العالم الغربي، نحتاج إلى جامعات، نحتاج إلى كتب، إلى مطبوعات، إلى وسائل نشر، إلى تعزيز الإسلام في العالم، فخمس الغنائم خمسة أسهم، سهم من خمسة لله وللرسول، لتعزيز هذا الدين، لا للجيوب، لله وللرسول فقط، فخمس الغنائم أحد أسهمها الخمسة لله وللرسول، لتعزيز هذا الدين، وبكل عصر هناك وسائل لتعزيز هذا الدين، نحن بالزكاة آخر بند، آخر مصرف:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ).

(سورة التوبة الآية: 60).

بناء المعاهد، بناء الجامعات، مراكز إسلامية، طبع كتب، طبع أشرطة، نشر هذا الدين،

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

وقد تفهم نفقات الجيش الذي يحارب في سبيل الله، لكن هناك مرحلة فهمها العلماء كل ما يتعلق بالحرب، من وسائل، والآن يُفهم هذا المصرف من الزكاة في سبيل نشر هذا الدين، وفي سبيل الله، إذاً:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ)

لتعزيز هذا الدين، لتعزيز الكتاب والسنة، لنشر هذا الكتاب، ونشر هذه السنة، لإنشاء مراكز في العالم، لتنوير الآخرين لهذا الدين العظيم.

على الإنسان أن يعطل عقله مع أوامر القرآن الكريم ومع ما صحّ من السنة الشريفة:

(وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

قال:

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

أي من الذي لا يرضى بهذا التقسيم ؟ من كان إيمانه ضعيفاً، الذي وهب لك النصر هو الذي قرر أن توزع الغنائم بهذه الطريقة، طبعاً وأربعة الأخماس لمن ؟ للمقاتلين، هذه غنائم خمسها لله وللرسول سهم،

(وَلِذِي الْقُرْبَى)

سهم ثان،

(وَالْيَتَامَى)

سهم ثالث،

(وَالْمَسَاكِينِ)

سهم رابع،

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

سهم خامس، إذاً الأربعة أخماس بحسب القرآن الكريم لمن ؟ للمقاتلين الذين ضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، و الخمس الخامس لله و للرسول.

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

إن كنت آمنت بالله تستسلم لتوزيع الإرث.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).

(سورة الأحزاب الآية: 36).

نحن بالمؤتمرات أحياناً هناك قضايا لا تخضع للبحث والنقاش، مسلمات، وبحياة المؤمنين مسلمات، من هذه المسلمات

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرَاً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

أنت كمؤمن حكم الله في هذا الموضوع انتهى، أقول لك من باب التأكيد: عطل عقلك مع القرآن الكريم ومع ما صحّ من السنة، هذا الحكم هو المطلق تماماً

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ)

في قرآنه،

(وَرَسُولُهُ)

في سنته

(أَمْرَاً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).

لذلك إن آمنت بالله تستسلم لهذا التقسيم الرائع، الخمس لله ورسوله سهم،

(وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

أربعة أسهم، الخمس مقسم إلى خمسة أقسام والأربعة أقسام للمقاتلين.

إنفاق الأموال في سبيل الله من أجل تمكين الدعوة إلى الله ونصرة دينه:

أخواننا الكرام، مرة ثانية حينما ذكر الله مصارف الزكاة:

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ).

(سورة التوبة الآية: 60).

في سبيل الله من أجل نصرة دين الله، من أجل الدعوة إلى الله، من أجل إقامة المعاهد، والمدارس التي يبنى فيها الإنسان بناء إيمانياً.

لذلك يمكن أن يدفع من مال الزكاة لبناء المعاهد الشرعية، من أجل تعزيز هذا الدين وتمكين مبادئه وقيمه.

أيها الأخوة، للتقريب، النبي عليه الصلاة والسلام قُبيل معركة بدر أصدر أمراً لأصحابه قال: لا تقتلوا عمي العباس، هناك صحابي سمع الكلام و فكر فيه، قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه، وينهانا عن قتل عمه ؟ عمه العباس في مكة، غلب على ظنه أو على وهمه أن النبي محاباة لعمه نهانا عن قتله، ثم تبين أن العباس عم رسول الله كان في مكة مسلماً، وكان عين النبي على أهل مكة، فكل أخبارهم، وكل قراراتهم، تنقل إلى النبي فوراً عن طريق عمه المسلم خفية.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ).

(سورة غافر الآية: 28).

أي عمه العباس كتم إسلامه عن أهل قريش، وهو معهم، فكل قرار يتخذونه ينقله إلى النبي، إدارة النبي إدارة ذكية جداً، فالنبي قال: لا تقتلوا عمي العباس، الآن حللوا ؛ لو لم يقل لا تقتلوا عمي العباس والعباس مسلم، وأصحابه لا يعلمون ذلك، لقتلوه أثناء المعركة، لو قال: عمي العباس مسلم لا تقتلوه كشف أمره، وانتهت مهمته، لو العباس ما اشترك في المعركة لانكشف أيضاً، إذا لم يشترك كشف، وإذا النبي ذكر أنه أسلم يكشف، وإذا النبي سكت يُقتل، فالنبي الكريم مضطر أن يقول فقط: لا تقتلوا عمي العباس، هذا الصحابي الذي قال في نفسه: أحدنا يقتل أباه أو أخاه في الحرب وينهانا عن قتل عمه، هذا الصحابي يقول: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى و ينطق بوجود الله ووحدانيته :

أرأيت إلى هذا الكون البديع ؟ هذا الثابت الأول، هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، في حكمة، في علم، في قوة، في رحمة، هذا الكون ينطق بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، فهذا الإله العظيم حينما يقول لك افعل كذا، ولا تفعل كذا، هذا ينبغي أن تأخذه، والكون يشهد لله عز وجل بحكمته، وعلمه، ورحمته. فلذلك الملمح الدقيق بالآية:

(إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ)

ترون هذه القسمة كاملة، الإنسان أحياناً قد لا يفهم دقائق الحكمة، لكنه مستسلم ، أنا قصة أرويها دائماً لأنها مؤثرة، كنت أمشي مرة في أحد أسواق دمشق، طلبني أخ كريم، وقال لي: أنت تخطب ؟ قلت له: نعم، قال لي: هناك إنسان في السوق الفلاني نزل صباحاً لدكانه ليبيع ويشتري، وقال لي سؤال أثناء الحديث: العمل ليس عبادة يا سيدي ؟ قلت: بلى عبادة، فالعمل عبادة، فنزل لهذه الدكان ليبيع و يشتري - هو تاجر قماش بسوق مدحت باشا - سمع إطلاق رصاص فمدّ رأسه ليرى ما الأمر فجاءت رصاصة طائشة فاستقرت في عموده الفقري فشُل فوراً، قال لي: ما ذنبه ؟! جاء لمحله التجاري ليكسب رزق أولاده ما ذنبه ؟! قلت له: والله لا أعلم، لكني مؤمن بحكمة الله وعدله، فاعتذرت عن الإجابة لأني لا أعلم التفاصيل، لكنني مؤمن بعدل الله، وحكمته، ورحمته، بعد عشرين يوماً بالضبط أحد أخوتنا الكرام، يحدثني حديثاً عادياً، قال لي: أنا أسكن في الميدان، وفوق بيتي جار مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، والاغتصاب دام طويلاً، فما تركوا طريقة لطلب هذا البيت لكنه يرفض، وكلوا أحد علماء دمشق، هذا العالم التقى معه فرفض بقسوة أن يرد هذا البيت لأولاد أخوته الأيتام، فلما رفض بعنف قال لهم بالضبط: هذا عمكم يا بني، لا تشكه إلى القضاء هذا لا يليق بكم، اشكُه إلى الله، هذه القصة وقعت

الساعة التاسعة مساء، في الساعة التاسعة صباحاً هو الذي له دكان في هذا السوق، وسمع إطلاق الرصاص، ومدّ رأسه ليرى ما الخبر، وجاءت رصاصة غير طائشة، رصاصة مصيبة فاستقرت في عموده الفقري وشُل فوراً.

والله من الطُرف أن أخاً مقيماً في حلب تحت يديه بيت لإخوته، سمع هذه القصة في الإذاعة فردّ البيت في اليوم التالي مباشرة، الله كبير، الله عز وجل، رصاصة طائشة عليها اسم من تصيبه.

فهذا الصحابي قال: ظللت عشر سنين أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

من كُشفت له الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء:

قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

هذه القسمة ترونها حكيمة وعادلة

(إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ).

مرة أخ جاءه مولود فيه أذية دماغية، وكنت معه، ذهبت أنا وهو إلى أول طبيب، الثاني، الثالث، الرابع، و الجميع أجمعوا أن مصيره فقد بصر، أو شلل، الأذية بالدماغ، فأصابه همٌّ شديد قلت له: الإله العظيم الذي تعبده، الإله العظيم الذي ترى حكمته من خلال هذا الكون هو الذي ساق لك هذه المصيبة، ينبغي أن تقبلها.

فأنت أحياناً ما معك تفاصيل، لكن معك كليات، هذا من فعل خالق السماوات والأرض، لحكمة بالغة، لذلك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

(سورة البقرة).

ربما منعك فأعطاك، وربما أعطاك فمنعك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء، أعطاك فمنعك، أو منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء.

زوال الكون أهون على الله من أن تتقي الله ثم لا ترى النجاح والتوفيق بكل شيء:

أخواننا الكرام، كلام دقيق جداً، كل واحد منكم وأنا معكم معنا آلاف القصص، كل هذه القصص من آخر فصل ليس لها معنى، وأنصحك ألا ترويها، القصة التي تلوتها عليكم قبل قليل هذه من البدايات، لماذا جاءت رصاصة طائشة على حدّ زعمهم، فاستقرت في عموده الفقري فأصيب بالشلل ؟ لأنه من عشر سنوات مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، ولم يرعو، ولم يستسلم لحكم عالم جليل، هذه القصة تعرفها أنت من فصلها الأول الآن حتى فصلها الأخير، إذا معك قصة من هذا النوع اروها للناس، أما أكثر القصص من آخر فصل ليس لها معنى، تعمل إرباكاً، لا ترو قصة إلا إذا علمت كل فصولها.

والله أيها الأخوة، أنا أعتقد أنه لا يوجد واحد منكم إلا ومعه بضع قصص، من أول فصل إلى آخر فصل، وتتجلى في هذه القصة رحمة الله، وعدل الله، وحكمة الله، هذه القصة تكون درساً.

أيها الأخوة، أحد علماء دمشق جاءه طالب علم، قال له: أنا ما عندي بيت، ودخلي لا يكفي طعامي وشرابي، أنا متى أتزوج ؟ قال لي: ماذا أقول له ؟ قلت له:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً).

(سورة الطلاق).

بعد أن قرأ عليه الآية الكريمة قال له: هذه الآية أين تصرف ؟ أنا أريد بيتاً الآن، فيبدو أنه رفض لكن بعد حين فكر، هذا عالم وقرأ قرآناً ـ هو يعمل موظفاً في محل تجاري ـ كيف يتقي الله ؟ كأن المحل محله كلما جاء زبون يعتني به، يطيب له خاطره، يعرض له كل شيء موجود، يتلطف معه، وفي العادة يقول: لا يوجد عندنا، لا علاقة له بالربح، هو له معاش يتأخر، لا يوجد إخلاص، يقول هذا الشاب بعدما قال له هذا العالم:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

صار يتحرك بالمحل كأن المحل له، وبقي سنتين أو ثلاث، صاحب المحل وجد هذا العمل كبيراً، و الغلة ارتفعت، ما هذا الانضباط ! ثمانية ثمانية، لا يتأخر دقيقة، ويعمل بنشاط منقطع النظير، فصاحب المحل هذا أعجبه الوضع، قال له: أنا أريد أن أشتري بيتاً، لكني أحب ذوقك، هل تذهب معي ؟ قال له: والله لا يوجد عندي مانع، أراه بيتاً قال له: هذا صغير، أراه بيتاً آخر قال له: هذا شمالي، شهر أو أكثر حتى عثرا على بيت مناسب جداً و لكن سعره كان مرتفعاً، قال له: هذا يناسبك، بعد أن اشترى البيت، قرر أن يزوجه ابنته، و قال صاحب المحل لهذا الذي يعمل عنده: ابعث أهلك ليروا ابنتي، فالله تعالى بعث له زوجة و بيتاً.

جاء واتصل مع العالم من سبع سنوات قال له هذه أين تصرف ؟ قال له: جزاك الله خيراً، أنا اتقيت الله.

أقسم لكم بالله يا أخوان زوال الكون أهون على الله من أن تتقي الله ثم لا ترى النجاح والتوفيق بكل شيء، علاقتك مع الله، اتق الله،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

هذه قصة تروى، هناك قصص أبلغ من النصوص بكثير، حقائق مع البرهان عليها.

قدرة الله عز وجل:

فلذلك أيها الأخوة، الله عز وجل يقول:

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ)

يوم الفرقان يوم بدر، ثلاثمئة صحابي، والكفار عددهم كبير، الله عز وجل جعل معركة بدر معركة فاصلة بين الحق والباطل، سمّى الله عز وجل معركة بدر يوم الفرقان، هؤلاء المؤمنون الضعاف، الفقراء، القلة، لا يوجد عندهم رواحل، و لا وسائل، ولا أسلحة على ضعفهم، وعلى ضعف شأنهم انتصروا.

فلذلك أيها الأخوة، سمّى معركة بدر يوم الفرقان،

(يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

المؤمنون على قلة عددهم و صبرهم و استقامتهم يغلبون الكفار بإذن الله:

أقرأ لكم قصة تابعة في المعنى لهذا الموضوع، قال تعالى:

الآن دققوا:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

(سورة البقرة).

أخواننا الكرام، ذكرت هذه القصة في القرآن من أجل آية واحدة،

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

فنحن كمؤمنين ولو كان الفرق كبيراً جداً بين قوتنا وقوة أعدائنا لكن:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

من آمن بالله و استقام على أمره و أعدّ العدة المناسبة تولى الله عز وجل نصرته:

فالمشكلة مشكلة أن نستقيم، فإذا استقمنا، هؤلاء عندما شربوا من النهر ماذا قالوا بعد قليل ؟

(لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

وكل مسلم يعصي الله يقول: قوتنا ليست كقوتهم، لأنك عاص، إذا استقمت على أمر الله، الله يتولاك، طبعاً يجب أن تؤمن بالله وأن تستقيم على أمره، وأن تعد العدة لهم بقدر ما تستطيع، لا تطالب بالإعداد المكافئ أنت مطالب بما تستطيع من الإعداد فقط، آمنت بالله، واستقمت على أمره، أعددت لهم ما تستطيع، الله يتولى النصر، مشكلة المسلمون اليوم في النصر، يقول لك: نحن ضعاف، أعداؤنا معهم حاملات طائرات، صواريخ عابرة للقارات، أقمار صناعية، ثلاثون دولة حليفة، لكن الله أكبر، قال لك: استقم، أنا أنصر المؤمنين، قال لك:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً).

(سورة النساء).

قال لك:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

(سورة الصافات).

قال لك:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

(سورة غافر الآية: 51).

كلام الله عز وجل زوال الكون أهون على الله من ألا يحققه إن دفعت الثمن.

فلذلك أيها الأخوة، المؤمن لا ييأس، المؤمن لا يضعف، المؤمن لا تضعف همته المؤمن لا يتشاءم.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

(سورة آل عمران).

هذه القصة قصة طالوت وجالوت،

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (15-30): تفسير الآيات 42 - 45 ، لا معصية مع الصبر - وطاعة مع الصبر تنتهي بنصر من الله عز وجل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

في الآية التالية بعض التفاصيل عن معركة بدر:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ).

في هذه الآية بعض التفاصيل عن معركة بدر.

(إِذْ أَنْتُمْ)

، أيها المؤمنون

(بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا).

الحقيقة لو أن هناك جبلين الفراغ بينهما يسمى الوادي، وشاطئ الوادي يسمى العدوة، والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام كانوا في العدوة الدنيا، كانوا أقرب إلى المدينة لأنهم جاؤوا من المدينة.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا)

وقريش جاؤوا من مكة، وهم في العدوة القصوى المؤمنون في طرف وظهرهم إلى المدينة، وقريش في طرف آخر وظهرهم إلى مكة المكرمة.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى)

أبو سفيان كان يقود قافلة ، وخروج المؤمنين كان القصد منه القافلة، فلما علم أن المسلمين توجهوا نحوه غيّر مسار القافلة واتجه نحو البحر، والركب ؛ أي العير، والركب ؛ القافلة التي كانت تحمل الراحلة

(وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)

هذه إشارة إلى أن أسفل البحر هو أخفض نقطة في الأرض، لذلك هو مقياس الارتفاع، تقول: أربعمئة متر فوق سطح البحر، ثمانمئة متر فوق سطح البحر.

(وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)

أحياناً الإنسان ينتقل من طرطوس إلى دمشق، قد يغيب عن ذهنه أن الشام أعلى من طرطوس بثمانمئة متر، يقول: نازل إلى الشام، لا هذا خطأ و الصواب طالع للشام، طرطوس بمستوى البحر، أما دمشق ارتفاعها ثمانمئة متر.

فكأن القرآن أشار إلى أن ساحل البحر يعد مبدأ في الارتفاعات، والانخفاضات.

مرة ذهبت إلى غور فلسطين مكتوب لوحة ستمئة متر تحت سطح البحر ، فالارتفاعات والانخفاضات بالنسبة لسطح البحر لأن سطوح البحار، وشواطئ البحار في العالم كله في مكان واحد، أو هناك ارتفاع واحد هو الصفر.

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ)

غير مساره واتجه نحو البحر

(أَسْفَلَ مِنْكُمْ).

قال:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ)

لو كان هناك وعد رسمي، و اتفاق على أن يكون الفريقان في هذا المكان، وفي هذا الزمان لما أمكنكم ذلك.

الإنسان مخير وقد يأخذ الله منه ذلك الاختيار ليسير إما للتكريم أو للتأديب:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً).

هذه الفقرة في الآية ينبغي أن تُشرح، الإنسان مخير، لكن لأن الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، ولو أنه منحك الاختيار، أحياناً إما من أجل أن يكرمك إن كنت مؤمناً، أو أن يؤدبك إن كنت عاصياً، فقد يأخذ منك الاختيار، وتسير إما للتكريم أو للتأديب.

والعجيب قد تجد إنساناً بأعلى درجات الذكاء يرتكب حماقة لا يرتكبها أحمق، ومن خلال هذه الحماقة تأتيه مصيبة كبيرة جداً، معنى ذلك إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، مع الله عز وجل لا يوجد ذكي أبداً، هناك مستقيم، أنت تنجح مع الله باستقامتك لا بذكائك لأن الحذر ـ الذكي ـ صاحب

الخبرات المتراكمة يؤتى من مأمنه.

حينما يتوهم الإنسان أن هذا اختصاصه، قد يكون طبيباً مختصاً بالجهاز الهضمي، عنده قناعة عميقة جداً أنه لن يصاب بأمراض جهاز الهضم لأن هذا اختصاصه، يفاجأ بقرحة في المعدة.

حينما تتوهم أنك محمي بسبب ما من الله تفاجأ أن هذه الحماية التي توهمتها ليست صحيحة مع الله عز وجل، هناك مستقيم، المستقيم يوفق، أما الذكي يؤتى من مأمنه، في بعض الآثار القدسية:

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ؟ وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد)).

[ورد في الأثر].

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

[أخرجه أبو داود عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم].

((لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدِخلَ البحرَ ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام)).

كن فيكون، زل فيزول، دققوا الآن:

((فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)).

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه.

التولي و التخلي:

أيها الأخوة، لو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد

(وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً).

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

[أخرجه أبو داود عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم].

أحد الخطباء خطب أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي الكريم: بئس الخطيب أنت، سويتني لله نداً ؟ قل

((ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكن)).

لا يوجد إرادة مع الله عز وجل، فالإنسان أحياناً يخطط، يهيئ، يستعد، فتأتي الأمور على خلاف ما يريد، لذلك قال بعضهم: "عرفت الله من نقض العزائم"، إن أردت أن تنجح فاستعن بالله، فافتقر إلى الله،

درس نحتاجه كل يوم، بل كل ساعة، درس التولي والتخلي، إذا قلت الله يتولاك، فإذا قلت أنا يتخلى عنك، إذا قلت الله يتولاك، وإذا قلت أنا أي اعتددت بعلمك، أو بمكانتك، أو بأقربائك، أو بزملائك، أو بمالك، يتخلى عنك.

مرة إنسان أظنه صالحاً ـ ولا أزكي على الله أحداً ـ قال بجلسة: الدراهم مراهم، يقصد أنه بالدراهم تحل أية مشكلة، فبقي في المنفردة فوق الستين يوماً، تأديباً له على هذه الكلمة، تفضل حلها بالدراهم، هذه لا تحل بالدراهم.

مرة كنت عند طبيب، قال له إنسان على الهاتف: أي مبلغ، وأي مكان في العالم مستعدون، قال له: والله لا يوجد أمل، الورم بالدرجة الخامسة.

ما كل شيء يحل بالدراهم، كل شيء يحل بتوفيق الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، فأنت حينما تقول الله يتولاك، بالدراسة، بالتجارة، بالزواج، بالعمل، بتربية أولادك ، فإذا قلت أنا:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

(سورة القصص الآية: 78).

لها توابع، عندي معلومات دقيقة جداً، اختصاصي نادر، أهلي أغنياء، حينما تعتد بشيء غير الله عز وجل، من محبة الله لك يعطل هذا الشيء وتبقى بحيرة من أمرك.

فلذلك إذا قلت الله تولاك الله، بأي عمل، بأي مجال، بأي مهمة، وإذا قلت أنا تخلى عنك.

كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع:

قال:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً)

من هنا أقول لكم هذه المقولة: والله الذي لا إله إلا هو تحل بهذه المقولة كل مشكلات المسلمين ، كل شيء وقع أراده الله، لأنه لا يليق أن يقع بملكه ما لا يريد، إله، مقام الألوهية لا يسمح أن يقع في ملك الله ما لا يريد، فكل شيء وقع أراده الله، لئلا تحقد على أحد، لئلا تقل يا ليت، لو أني فعلت كذا وكذا.

((لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

فكل شيء وقع أراده الله، نعكسها، وكل شيء أراده الله وقع، أبداً، إن وقع سمح الله به، معنى أراده أي سمح به، قد يكون هذا الشيء بخلاف منهجه، لم يرضَ ولم يأمر، إنسان ارتكب الزنا، الله تعالى لم يأمره بهذا، والله لا يرضى لعباده المعصية، لكن ما دام الشيء وقع إذاً هناك حكمة بالغة فسمح الله بهذا،

فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، الله حكيم، الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً.

لو عرجنا على ما يجري في العالم اليوم، هناك أحداث مؤلمة جداً، في الحادي عشر من أيلول، قبل هذا التاريخ كان هناك سياسة للدول، بعد هذا التاريخ سياسة أخرى، وكأن في هذا التاريخ أُعلنت حرب عالمية ثالثة على المسلمين، أليس كذلك ؟ احتُلت خمس دول إسلامية، وقع هذا الشيء، هناك حكمة بالغة، أولاً هذه الأحداث الأليمة دفعتنا إلى أن نصحو، هذه الأحداث الأليمة قربت ما بيننا، زادتنا قرباً، زادتنا إنابة، زادتنا تماسكاً، زادتنا وعياً، زادتنا كفراً بالعالم الغربي، لو تتبعت الإيجابيات من الأحداث الكبرى التي أصابت المسلمين، تجد أن الذي وقع أراده الله، وأن الذي أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، الحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، والحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله.

لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان من حيث القضاء والقدر، والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهم والحزن، ولا تنسوا هذه المقولة الثانية:

((لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة ولم يبقَ على سطح المبادئ والقيم إلا الإسلام:

لعلكم ترون بأعينكم الإيجابيات التي سوف نقطفها من الحادي عشر من أيلول هي مؤلمة لكن لها إيجابيات إيجابية.

الذي ينبغي أن يقال: قبل هذا التاريخ كان على سطح ما مبادئ الأرض وقيمها، كان هناك الشرق الذي آمن بالمجموع، والغرب الذي آمن بالفرد، وكان الإسلام، ككتل مبدئية كبيرة كان هناك الشرق، والغرب، والإسلام، هناك آلاف الاتجاهات، لكن ككتل كبيرة جداً، مبادئ كبيرة، مبدأ العالم الغربي القائم على الحرية المطلقة لكل الناس، مبدأ العالم الشرقي النظام الواحد، الأساس المجموع، والإسلام.

الشرق تداعى من الداخل.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ).

(سورة الأحزاب الآية: 25).

ماذا بقي على هذه الساحة ؟ الغرب والإسلام، الكلام موضوعي، الغرب ذكي جداً، وقوي جداً، وغني جداً، وقبل الحادي عشر من أيلول طرح قيماً عالية جداً، طرح قيمة الحرية والديمقراطية، وحقوق

الإنسان، وحق التقاضي، وتكافؤ الفرص، والعولمة، واحترام جميع الأديان، فكان الغرب حضارة شامخة خطفت أبصار أهل الأرض، حتى صار أي إنسان بالعالم إذا وصل إلى البطاقة الخضراء التي تتيح له أن يذهب إلى بلاد الغرب كأنه دخل الجنة، هذا كله سابقاً، بعد الحادي العشر من أيلول كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة، الذي فعله في أفغانستان، والذي فعله في العراق، والذي فعله في بلاد عديدة، كان الغرب حضارة فأصبح قوة غاشمة، ولم يبقَ على سطح المبادئ والقيم إلا الإسلام.

اقتراب الغرب و الشرق من الإسلام لا عن عبادة لله ولكن عن مصالح:

الآن أسهم الإسلام في الأوج مع أن المسلمين ضعاف، هذا الذي قال: " أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور، لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام ".

وهذا بدت بشائره، فرنسا تدرس بجدية ما بعدها جدية النظام المالي الإسلامي، بعد انهيار النظام المالي الغربي القائم على الربا.

بعد انتصار أخوتنا في غزة، الآن الجيوش تخطط لعمليات لمواجهة المقاومة، لا لمواجهة جيش آخر، صار هناك شيء جديد.

الخمر حرمه الاتحاد السوفيتي قبل أن ينهار، تطابق مع الإسلام، قبل أسبوعين روسيا حرمت النوادي الليلية كلياً، الغرب والشرق يقتربان من الإسلام لا عن عبادة لله، أبداً ولكن عن مصالح.

الآن معظم الأنظمة الغير إسلامية أصبحت في الوحل، ولم يبقَ كنظام متماسك، قوي، وشامخ إلا الإسلام.

فنحن في العصر الذهبي للإسلام كمبدأ، كمنهج، كقيم، أما المسلمون ضعاف ، ولكن إن شاء الله هذه الأحداث الكبرى تعلمهم كما قال الله عز وجل إن المستضعف ربما قواه الله عز وجل.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).

(سورة القصص).

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن نكون تحت هذه الآية.

من وقف في خندق مضاد لخندق الحق استحق الشقاء الأبدي:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

قد تتوهمون أن معنى ليهلك ليموت، لا، بعض الكفار ماتوا في معركة بدر والذين لم يموتوا هلكوا أيضاً، ولو أنهم لم يموتوا، لكنهم حاربوا نبي الله، حاربوا جيشاً مؤمناً، وقفوا في خندق مضاد لخندق الحق، فالهلاك هنا الشقاء الأبدي.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ)

الذي مات انتهى أجله، والذي لم يمت لأنه خاض معركة ضد أهل الحق فهو هالك، والذي لم يمت بقي حياً، أو الذي مات من المؤمنين أيضاً نجح نجاحاً كبيراً لأنه خاض معركة يدعمها خالق السماوات والأرض.

الله عز وجل مع الإنسان يراه يسمعه و يعلم ما يضمر و ما يعلن:

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إن خاطبته يسمعك، وإن تحركت في مرضاته يراك، وإن أضمرت خيراً يعلمه، سميع، بصير ، عليم، تتكلم يسمع، تتحرك يراك، تضمر شيئاً يعلمه، سميع، بصير، عليم، من أجل أن يقع هذا الذي وقع:

(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

(سورة الأنفال).

من كان مع الله صحت رؤيته و العكس صحيح:

كيف يقع الذي وقع ؟ بشكل عام الإنسان أحياناً يرى رؤيا خاصة، هذه الرؤيا تدفعه أن يفعل هذا الأمر، فإذا كان مؤمناً يريه الله عز وجل هذا المشروع أنه ناجح، هناك صعوبات كبيرة، لكن الله لا يريه الصعوبات، يريه النتائج، فيقبل، يأتي الدعم الإلهي، والمعونة الإلهية فينجح، بعد أن ينجح يقول: والله ما كنت أظن أن هذا النجاح بهذه البساطة، النجاح يحتاج إلى جهد كبير لكن الله وفقني.

الطرف الآخر قد لا يعبأ بشيء، يستخف به، وقد يدمر بهذا الشيء، فلذلك هذه الرؤيا التي يراها الإنسان هي التي تدفعه إلى عمل ما، فإن كنت مع الله صحت رؤيتك، وإن لم تكن مع الله فسدت رؤيتك.

سيدنا يوسف شاب جميل الصورة، في مقتبل العمر، دعته سيدته، و هي ذات منصب وجمال، ما الذي رأى حتى قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ).

(سورة يوسف الآية: 23).

هذه الرؤيا، فكان عزيز مصر، تقول: سيدنا يوسف لأنه عفّ عن الحرام، هو المثل الأعلى لكل الشباب اليوم، أيها الشاب لا يرقى بك إلى الله شيء كالعفة، مثلاً تاجر كبير في السن شيء آخر يرقى به إلى الله، إنه العمل الصالح، لأن موضوع الجنس تجاوزه، أما شاب في مقتبل الحياة، والنساء في الطريق كاسيات عاريات، مائلات مميلات، بأي مكان هناك امرأة شبه عارية، بالانترنيت، بالفضائيات، بالطريق، بالمجلات، بالصحف، بأي مكان، فيأتي هذا الشاب المؤمن ويغض بصره عن محارم الله، خوفاً من الله.

سيدنا يوسف هو المثل الأعلى لكلّ شاب مؤمن عفيف:

أنا أتصور كلما غضّ الشاب بصره عن محارم الله كأنه وضع بصندوق ليرة ذهبية، يوم يتزوج يفتح هذا الصندوق فإذا فيه مئات ألوف الليرات الذهبية، كلما تغض بصرك عن امرأة لا تحل لك ترقى عند الله، فأنا أقول: سيدنا يوسف هو المثل الأعلى للشباب، قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ).

(سورة يوسف الآية: 23).

سائق سيارة أشارت له امرأة تفضلي، إلى أين ؟ قالت له: خذني إلى أي مكان تريده فهم، وعدّ هذا مغنماً كبيراً، وأخذها إلى مكان، وقضى حاجته، قدمت له ظرفاً، حسب أن هذه الرسالة هي رسالة شكر، فإذا هو مكتوب عليه مرحباً بك في نادي الإيدز، هكذا.

الإنسان عندما يكون عنده رؤيا صحيحة، سيدنا يوسف قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

أما هذا الشاب الجاهل رآها مغنماً كبيراً، ونسي أنه فقد حياته.

ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً

* * *

أكبر عطاء إلهي أن يقذف الله في قلبك نوراً ترى به الخير خيراً والشر شراً:

أخواننا الكرام، دققوا في هذا الذي أقوله: أخطر شيء في حياتك رؤيتك، ماذا ترى ؟ لماذا يسرق اللص؟ هناك سبعة رجال سرقوا محل ذهب، في بلدة في شمال دمشق، بعد عشرين يوماً أعدموا جميعاً، قتلوا صاحب المحل التجاري الذي يبيع الذهب، وأخذوا منه بضع كيلوات من الذهب، وظنوا أنهم سيعيشون حياة فيها بحبوحة كبيرة بهذا الثمن، كُشف أمرهم هم أصبحوا قتلة، فأعدموا جميعاً.

المشكلة هذه الرؤيا، ماذا رأيت ؟ الذي يعصي يتوهم أن المعصية تحقق له لذة كبيرة جداً، والله لا يحاسب، الله غفور رحيم، هناك سذاجة وهناك حمق، فأنت بطولتك أن تملك رؤيا صحيحة، المؤمن يرى بنور الله، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ).

الآن دققوا:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ).

(سورة الحديد الآية: 28).

أنت إذا صليت الصلوات الخمس ألقى الله في قلبك نوراً، ترى به الخير خيراً والشر شراً، هنا المشكلة، الذي يغش المسلمين ماذا رأى ؟ رأى أن هذا المال الذي سيحصله سيستمتع به.

كان عندي طالب له خال صاحب دار سينما، من الدرجة العاشرة، والأفلام التي تعرض كلها ساقطة، في الأربعينات أصيب بمرض خبيث، فزاره ابن أخته وهو طالب عندي، فصار خاله يبكي، قال له: جمعت بضعة ملايين حتى أستمتع بها في الحياة، و إذ بالمرض قد عاجلني، ثم توفي بعد فترة قصيرة.

من اصطلح مع الله عز وجل تولاه الله و نقله من توفيق إلى توفيق ومن نجاح إلى نجاح:

أنت حينما تبني ثروتك على إفساد الشباب، ما الذي رأيته ؟ رأيت أن الله لن يحاسبك، والله أيها الأخوة لو ترون المآل بأية معصية، يصبح الإنسان يعد للمليار قبل أن يعصي الله عز وجل، العبرة بالرؤيا، أن ترى بنور الله، فأنت حينما تصلي الصلاة الصحيحة يلقي الله في قلبك نوراً، لا ترتكب معصية، والله لو دفعوا لك ملايين مملينة بالحرام تركلها بقدمك.

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه)).

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا وقال غريب، لكن له شواهد منها ما رواه التيمي في ترغيبه عن أبي ابن كعب مرفوعا بلفظ ما ترك عبد شيئا لا يدعه إلا لله إلا أتاه الله ما هو خير له منه]

العبرة أنك إذا اتصلت بالله ألقى في قلبك نوراً تملك به رؤيا صحيحة لا تغلط، الأخطاء الطفيفة ليست مشكلة، تكفرها الصلوات الخمس، لكن لا يمكن أن ترتكب كبيرة بهذه الرؤيا،

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

(وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

(سورة الأنفال).

أنت حينما تصطلح مع الله، الله عز وجل يتولاك، ينقلك من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، من توفيق إلى توفيق، من نجاح إلى نجاح، تكون قد قطعت صعوبات كبيرة لكن الله يريك إياها خفيفة، هذه معونة إلهية كبيرة جداً، فأحياناً الإنسان يقوم بأعمال مذهلة، يقسم بالله العظيم لو كنت أعلم هذه الصعوبات ما أقبلت عليها، الله يخففها أمامه يقبل عليها، يدعمه بالمعونة فينجح.

لذلك الإنجاز الضخم الذي يجريه الله على يد إنسان لا يتناسب مع إمكانياته أبداً ، يتناسب مع توفيق الله عز وجل، فكن طموحاً، ما الذي يمنعك أن تكون إنساناً كبيراً مع الله ؟ داعية كبيراً، عالماً كبيراً، مصلحاً اجتماعياً كبيراً.

الباطل متعدد و الحق لا يتعدد:

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

(سورة الأنفال).

أي الله عز وجل بآيات كثيرة قال:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ).

(سورة البقرة الآية: 249).

والمعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، لكن بين هاتين النقطتين تمر ملايين الخطوط المنكسرة والمنحنية، فالباطل متعدد و الحق لا يتعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).

(سورة الأنعام الآية: 153).

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ).

جمع:

(إِلَى النُّورِ).

(سورة البقرة الآية: 257).

مفرد، فالحق واحد، فالمعركة بين حقين لا تكون، مستحيل ! وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين لا تنتهي، تذهب مع العمر، بين حقين لا تكون، بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، بين باطلين لا تنتهي.

الله عز وجل يبين للمؤمنين أنه معهم إن ثبتوا و آمنوا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا كنت مؤمناً مستقيماً، صادقاً، اطمئن.

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

(سورة الصافات).

إذا كنت مؤمناً، صادقاً، مستقيماً اطمئن.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

(سورة غافر الآية: 51).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا)

الله عز وجل يبين للمؤمنين أنا معكم وإذا كنت معكم لا أحد يستطيع أن يصل إليكم

(فَاثْبُتُوا)

لكن مع الثبات.

من نصر دين الله نصره الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً)

أحياناً الأمر لا ينصب على الذكر، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً).

(سورة الأحزاب).

الأمر ينصب على الذكر الكثير لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، إذاً هم يذكرون الله عز وجل،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

فالذكر أن تكون مع الله، في صلواتك، في دعائك، في استغفارك، في توبتك، في عملك الصالح.

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والله سبحانه وتعالى يرينا من آياته الدالة على عظمته أن الأمر بيده، وأنه كما قال تعالى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

(سورة آل عمران الآية: 126).

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ).

(سورة آل عمران الآية:160).

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ).

(سورة الحج الآية: 40).

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

أول حقيقة.

الآن:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

الآية الثالثة:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

إن نصرت دين الله ينصرك الله.

المعصية مع الصبر ليس بعدها إلا القبر أما الطاعة مع الصبر تنتهي بالنصر:

فيا أيها الأخوة، الأمة الإسلامية تطوق إلى النصر، والكرة بالتعبير المعاصر في ملعبها، فحينما تؤمن، وحينما تستقيم على أمر الله فالله عز وجل ينصرك، لذلك:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ).

(سورة إبراهيم).

الآية الثانية:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً).

(سورة آل عمران الآية: 120).

لذلك المعصية مع الصبر ليس بعدها إلا القبر، أما الطاعة مع الصبر تنتهي بالنصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (16-30): تفسير الآيات 46 - 48 ، مراعاة المصالح العامة للمسلمين - عدم الإصغاء للشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مهما جمع الإنسان من ثمار الطاعة فلن يحصيها:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

العبرة في طاعة الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب).

النجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، والتألق كل التألق، في طاعة الله، تطيع من؟ تطيع خالق السماوات والأرض، تطيع من ؟ القوي، الغني، الحكيم الرحيم، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، الذي:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس).

أنت في قبضته، وأهلك في قبضته، ومن حولك في قبضته، ومن فوقك في قبضته، ومن دونك في قبضته، إن أطعته فزت فوزاً عظيماً.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[ابن ماجه عن ثوبان].

الخيرات، مهما جمعت ثمار الطاعة لا يمكن أن تحصيها، راحة نفسية، راحة جسمية، تيسير في أمور الدنيا، تيسيرٌ تيسير، توفيق توفيق، يدافع عنك، يدافع عنك، تحس بمنعة، تحس بهذه المنعة، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أنت تعامل من ؟ تعامل خالق السماوات والأرض، تعامل من يقول كن فيكون، زل فيزول، كل شيء بيده، أيعقل أن تتجه إلى غيره ؟ أيعقل أن تطيع بشراً وتعصي خالقاً ؟ أيعقل من أجل لعاعة من الدنيا تعصي الله عز وجل ؟.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي أطيعوا الله فيما جاء في القرآن من أوامر كلياً، وأطيعوا الرسول بما جاء بسنته من تفصيلات تبيينية، هناك أوامر كلية في القرآن، وهناك تفاصيل تبيينية في سنة النبي عليه الصلاة والسلام،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الدنيا تفرق والآخرة تجمع:

أيها الأخوة، لكن يأتي نهي بعد هذا الأمر، (وَلَا تَنَازَعُوا)، الدنيا تفرق والآخرة تجمع، الدنيا محدودة، المكاسب محدودة، الأموال محدودة، الأعمال محدودة ، المناصب محدودة، الثروات محدودة، فإذا أردنا الدنيا تقاتلنا، وتنازعنا، والذي يحصل في العالم صراع على الدنيا، مرة على منابع النفط، ومرة على مصادر المياه، مرة على الثروات، مرة على أماكن الثروات الكبيرة، يورانيوم، ذهب، كل هذا الذي تسمعونه من سياسات دولية وراء هذه السياسات المنافع.

قائد القوات في العراق صرح قبل أشهر تصريحاً خالف كل ما قيل، قال: جئنا من أجل النفط فقط.

في بلد بإفريقيا تمّ قتل ثمانمئة ألف في راوندا، في أسبوع، سمعت تصريحاً لزعيم دولة كبرى عظمى في الغرب، قال: كان بالإمكان أن نحقن دماء أربعمئة ألف، لكننا لم نفعل لَمَ لم يفعل ؟ لأن هناك لا يوجد نفط، أما على توهم أسلحة شاملة ثلاثون دولة احتلت العراق.

إذاً النزاع على النفط، على الثروات، على مراكز النفوذ، على السيطرة، على المواقع الاستراتيجية، هذا الصراع.

فالدنيا إن أردناها نتقاتل، لكننا إن أردنا الآخرة نتعاون، الدنيا تسع الجميع، تسع كل الخلق، تحقق كل الطموحات.

((عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدخِلَ البحرَ ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

تقنين الله تقنين تأديب لا تقنين عجز:

لا يمكن أن يكون تقنين الله تقنين عجز، تقنين الله تقنين تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية: 27).

كنت في مدينة في البرازيل عندي محاضرة مساء، تفقدت أخوةً كراماً كنت أنتظر حضورهم في المسجد فلم يحضروا، سألت عنهم ؟ قال: نزل في هذه الليلة مئتا سنتمتر أي أمطار دمشق على مدى العام نزلت في ليلة واحدة، فالطرق قطعت، وارتفع الماء بشكل كبير في الطرقات، فالله عز وجل إذا أعطى أدهش.

كنت في العمرة اقتنيت مجلة علمية رصينة، فيها خبر أن سحابة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر).

فإذا قلنا هناك تقنين أي تقنينُ البشر، تقنين الكهرباء، و هذا تقنين عجز، أليس كذلك ؟ لكن تقنين الله عز وجل تقنين تأديب.

لذلك:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أطيعوا الله في كليات الدين في القرآن الكريم ، وأطيعوا الرسول في تفصيلات الدين، في السنة المطهرة الصحيحة.

أنواع الاختلافات:

1 ـ الاختلاف الطبيعي:

(وَلَا تَنَازَعُوا)

أخواننا الكرام، هناك اختلاف وقد يوصف بأنه نزاع، اختلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات، حينما نسمع في التاسع والعشرين من شعبان صوت مدفع نقول: قد ثبت غداً رمضان، يقول لك: لا، هناك صخرة في الجبل يريدون شق طريق من خلالها ففجروها بلغم، يا ترى هذا الصوت صوت مدفع رمضان، أم تفجير صخرة بالجبل ؟ صار هناك اختلاف بنقص المعلومات، فإذا فتحنا الإذاعة، وجاء البلاغ الذي يؤكد أنه ثبت أن غداً أول شهر رمضان انتهى النزاع، كنا في نزاع، فانتهى النزاع، كنا في خلاف فانتهى الخلاف، الخلاف الطبيعي لا يمدح ولا يذم، خلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات، فإذا جاءت المعلومات انتهى الخلاف.

2 ـ الاختلاف القذر:

لكن الخلاف القذر:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى الآية: 14).

جاء العلم، اختلاف بغي، اختلاف عدوان، اختلاف مصالح، اختلاف أهواء، اختلاف رئاسة، مناصب،

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

هذا اختلاف قذر.

3 ـ اختلاف المصالح:

بصراحة الإسلام ديننا جميعاً، إلهنا واحد، نبينا واحد، قرآننا واحد، سنتنا واحدة، تاريخنا واحد، لِمَ الخلاف بين الجماعات الإسلامية ؟ صدقوا ولا أبالغ خلاف مصالح، خلاف تحزبات، خلاف أنا، خلاف أهواء، وما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، ينبغي أن تنتمي لمجموع المؤمنين، أي أخ لك في الله أخ حبيب، من أي جماعة، والدليل:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)

(سورة الشعراء الآية: 215).

يا محمد، يخاطب الله النبي الكريم:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء).

الآية الثانية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر).

عامة، أنت تحب أخوان جامعك طبعاً، نحن أسرة، أسرة إن شاء الله، هناك ود، و محبة، و تعاون، و تعاطف، و تناصح، و تزاور، و بذل، طبعاً شيء طبيعي جداً أن تحب أخوة المسجد، وينبغي أن تحب أي أخ في الله، من أي جماعة، هذا الدين، يجب أن تشعر أنك أخ لكل المؤمنين، لكل الجماعات، هذا ينبغي أن يكون.

أي إنسان صحت عقيدته واستقام سلوكه علينا احترامه و تقديره:

أخواننا الكرام، كلام دقيق جداً، هناك جماعات تتصور أن الإسلام هو خط رفيع ، هو الخط الذي هم عليه، فأي خروج عن هذا الخط ولو لميلي متر خرج عن الدين، هذا أخطر شيء في حياة الجماعات الإسلامية، كل جماعة تتصور أنها هي الإسلام وحدها، وهي تمثل خط رفيع، وأي آخر خرج عن هذا الخط ميلي متر خرج عن الدين، الحقيقة أن الإسلام شريط عريض، هناك يمين، وهناك يسار.

أنا أذكر مرة زارنا عالم جليل في مسجد العثمان، أجلسته مكاني، وتمنيت عليه أن يلقي على أخواني درساً، وصلى بنا العشاء، بعد فترة جاء عالم في الطرف المقابل لهذا، أجلسته مكاني، وتمنيت عليه أن يلقي على أخواني درساً، صلى بنا العشاء، ودعا لنا، أعلنت أخواني أنني أحترم هؤلاء جميعاً، وأقدرهم جميعاً، أي إنسان صحت عقيدته، واستقام سلوكه فهو أخي وحبيبي.

باتجاه معين، باتجاه آخر هذا كله على العين والرأس ما لم يعتقد عقيدة باطلة، ما لم يسلك سلوكاً منحرفاً أنصحه، نتعاون فيما اتفقنا، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا.

فلذلك أيها الأخوة،

(وَلَا تَنَازَعُوا)

لا تنازعوا، إن كان الهدف هو الآخرة لِمَ التنازع ؟ فضل الله عز وجل يسع الجميع، يسع الكل.

((لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدِخلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

التنازع بين أفراد الأمة الإسلامية أضعفها مع أنها تتربع على أهم مكان في العالم:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

الفشل هو الضعف، والفشل هو الجبن، تصور أمة تتربع على أهم مكان في العالم، الشرق الأوسط، تعد ـ مع من دخل في الدين الإسلامي مليار وخمسمئة مليون ـ ربع سكان الأرض، النفط كله عندهم، والثروات عندهم، والذهب عندهم، واليورانيوم عندهم، والفوسفات عندهم، عندهم ثروات لا يعلمها إلا الله، يتربعون على منطقة ـ بالتعبير المعاصر ـ استراتيجية، ملتقى القارات الثلاث، عندهم أعماق استراتيجية، أعماق بعيدة، هذه الأمة بدل أن تكون أقوى أمة، هي أضعف أمة، بسبب الخلاف، بسبب التنازع، حرب استمرت بين دولتين إسلاميتين ثماني سنوات.

وفي مؤتمر الدول الصناعية صار هناك تلاسن بين دولة صناعية كبرى في أوربا وبين دولة صناعية كبرى في أمريكا، فهدد الثاني الأول، بماذا هدده ؟ بإيقاف حرب العراق، ثماني سنوات، دُمر كل شيء، ونحن بحاجة إلى أن نشتري كل شيء من عندهم، هدد زعيم دولة غربية بعيدة هدد الدول الأوربية بإيقاف حرب العراق، بين العرب واليهود الحرب ست ساعات فقط، بين دولتين إسلاميتين ثماني سنوات، أرأيتم ؟.

أيها الأخوة،

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

أي تضعفوا، نختلف مع بعضنا، نحتكم إلى دول غربية، تأتي قواتها وتحتل خمس دول إسلامية، تذهب الثروات وانتهى كل شيء، النزاع حُلّ على حساب الطرفين معاً.

الغرب وضعنا جميعاً في سلة واحدة فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد:

أيها الأخوة،

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا)

والله أيها الأخوة أتصور الآن أن طرح أي قضية خلافية يعد جريمة، لأن الغرب وضعنا جميعاً في سلة واحدة، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد، والله بإمكان أي داعية أن يدعو إلى الله لخمسين عام قادمة في المتفق عليه فقط، في الملتقيات، في التقاطعات، فيما لا حرج فيه إطلاقاً، يمكن أن تغفل أي قضية خلافية، وأن تركز على القضايا المتفق عليها، كيف أن الشجرة لها جذع واحد موحد، وهناك فروع، وهناك أغصان، أما لو بقينا في الجذع نحن أمة واحدة.

لذلك

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

تضعفوا، لا أنسى كنت في بلدة في ألمانيا، سرنا في طريق، قال: هنا هولندا، ثقافتنا نحن كأمة عربية، هناك حدود، و سدود، و أمن عام، و بطاقات، و رسم دخول، و انتظار ساعة، و بطاقة السيارة، كم إجراء تجريه إذا انتقلت من بلد عربي إلى بلد عربي ؟ كم جواز ؟ هناك تفتيش دقيق، و وثائق، و ثبوتيات، قال لي: هنا هولندا، ما هذا الكلام ؟ أنا والله ما صدقت، لا يوجد لوحة ؟ لوحة صغيرة، هولندا؟ أبداً، ولا لوحة.

كنت مرة بمدينة بفرنسا بعد الظهر قال: هنا ألمانيا، لا يوجد حدود و لا شيء يدل على أن هذه دولة ثانية ؟! أوربا بأكملها عملة واحدة، اقتصادهم واحد، ناطق واحد باسمهم جميعاً، تصور أن إنساناً واحداً

ينطق باسم مليار وخمسمئة مليون، ربع سكان الأرض، ما مركزه ؟ هذا من ضعفنا، من تفرقنا من تشرذمنا، من تنازعنا، من تفرقنا.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

كل ثرواتنا لا نملكها، كل مواقعنا لا نملكها.

أنا أذكر مرة في حرب الخليج الثانية سارت مسيرات في الأرض أقل مسيرة مليون إنسان، تناهض الحرب الثانية، لم يعبأ هؤلاء الأقوياء بكل هذه المسيرات، وتمت الحرب وأحتلت العراق، أليس كذلك؟.

من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم:

أخواننا الكرام، أنا أتكلم من واقع، هذا القرآن لنا، هذا القرآن كتاب حياتنا، هذا القرآن فيه حل مشكلاتنا.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

بل أدق من ذلك في التعامل اليومي إذا عزّ أخاك فهن أنت، أخوك تفوق كن معه، كن في صحبته، كن في خدمته، فما لم نغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة لن نوفق في حياتنا ما لم نحمل همّ المسلمين، ما لم تشعر أن هؤلاء المسلمين جميعاً أخوانك، ينبغي أن تفرح لما يسعدهم، وأن تتألم لما يؤلمهم، ما لم تسهم في التخفيف عنهم، ما لم تسهم في إسعادهم فلست مؤمناً، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

على مستوى أسرة، على مستوى شركة، على مستوى وزارة، على مستوى مؤسسة، على مستوى جامعة، على مستوى مستشفى.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

هذا الكلام موجه لكل واحد منا، أنت وأخوك بالبيت لا تتنازعوا، تعاونوا، أنت وصديقك، أنت وشريكك، أنت وصاحبك، أنت وجارك، أنت وزميلك.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

أنت وأخوانك،

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

توجيه إلهي من عند الخالق، من عند الخبير. ماذا يقابل ؟

(وَلَا تَنَازَعُوا)

في الدول القوية، مفهوم فريق العمل، فريق العمل نحن أسرة، ينبغي أن نتناصح، أما الذي يحصل في البلاد النامية، موظف دخل جديداً للشركة، كل أخطائه الغير المقصودة تنقل للمدير العام، هكذا فعل، هكذا عمل، يأتيه التنبيه والتعنيف تجده ينكمش، يخاف أن يتحرك، لا يفعل شيئاً، كان عنده حركة، قد تنمو هذه الحركة، بهؤلاء الذين حطموه أمام مدير المؤسسة جعلوه ساكناً، هذا مفهوم التنافس.

علامة إيمانك التعاون لا التنافس:

أقول لكم بإخلاص: علامة إيمانك التعاون لا التنافس، التناصح لا تسجيل الأخطاء، تحب المصلحة العامة اتصل به هاتفياً، قل له: هذه الفكرة أتمنى أن تراجعها، صوابها كذا ، وأسأل الله أن يلهمك الصواب، في الأسبوع القادم يقول لك: والله أنا تكلمت كلاماً ووجدت الصواب بخلافه، انتهى الأمر، أما يقول: لا، أنا لا أنصحه، ليس هذا سلوك المخلصين، نحن أمة واحدة ينبغي أن نتعاون.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا)

لذلك قالوا: الحرب بين حقين لا تكون مستحيل، لأن الحق لا يتعدد، الحق واحد، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، لو حاولت أن ترسم مليون مستقيم كلها تأتي فوق بعضها بعضاً، الحق واحد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية: 153).

الباطل متعدد، الحق واحد.

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية: 257).

النور مفرد، لأنه الحق واحد، والظلمات جمع، ما قال من الظلمات إلى الأنوار وما قال من الظلمة إلى النور،

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، أما يمر مليون خط منحني، مليون خط منكسر، فالباطل متعدد، أما الحق واحد.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

فالحرب بين حقين لا تكون ، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي، بين حق وباطل لا تطول، بين باطلين تطول، تطول كثيراً، لا تنتهي، وبين حقين لا تكون، فإذا إنسان وجد منازعة من مؤمن إذاً هناك واحد على خطأ.

((مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر، وإسناده حسن]

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

ينبغي على كل مسلم أن يكون مع أخيه و يعاونه لا ينافسه و يقضي عليه:

أخواننا الكرام، يوجد بالقرآن ريح، و رياح، الرياح جمع، إن كان هناك رياح من جهات عديدة تكون رياحاً، متوازنة، معتدلة، هادئة، أما إذا جمعت الرياح كلها في جهة واحدة أصبحت ريحاً مدمرة، هناك ريح سرعتها ألف كم تدمر كل شيء، يأتي إعصار على بلدة لا يبقي فيها حجراً فوق حجر، تقتلع الأشجار، الجدران تسقط أحياناً، فكل سرعة لها تدمير، أما الريح إذا اجتمعت الرياح في جهة واحدة، ونحو هدف واحد تدمر كل شيء.

قال:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

تذهب قوتكم، تصور مليار وخمسمئة مليون معهم نفط العالم، معهم ثروات طبيعية، معهم نفط إستراتيجي، تصور هم أمة واحدة، لهم قيادة واحدة، واحد ينطق باسمهم جميعاً، التصريح الواحد من هؤلاء يهز العالم كله، أما عشرات الدول متصارعة، متحاربة، الدماء تسيل بين المؤمنين، يومياً يوجد خمسون قتيلاً، وثمانون جريحاً.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ينبغي أن تصبر على أخيك، أخوك تفوق كن معه، أعنه لا تنافسه.

ثمن الجنة تناقض الطبع مع التكليف:

أقول لكم هذه الحقيقة: الدعوة إلى الله الدعوة الخالصة فيها اتباع ليس فيها ابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة فيها تعاون، وليس فيها تنافس، الدعوة إلى الله الخالصة فيها قبول الآخر، وليس فيها رفض الآخر، الدعوة إلى الله الخالصة فيها قبول للنصيحة، الدعوة إلى الذات فيها رفض للنصيحة.

بالمناسبة الإنسان عنده طبع، و عنده تكليف، والطبع يتناقض مع التكليف، ومن تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة، الطبع أن تأخذ المال، والتكليف أن تنفقه، هناك تناقض، التكليف أن تستيقظ على صلاة الفجر، والطبع أن تبقى نائماً، الطبع أن تملأ عينك من محاسن المرأة، والتكليف أن تغض البصر، من تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات).

الطبع فردي والتكليف تعاوني:

الآن استمعوا الطبع فردي، والتكليف تعاوني.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية: 2).

التكليف تعاوني، والطبع فردي، فأنت تؤكد فرديتك، وتبني مصلحتك على حساب الأمة، إذا كنت بعيداً عن الله، فإذا كنت مع الله تؤثر التعاون على الفردية، فكل إنسان يتحرك إما بقيمه أو بطبعه، من ملأ عينه من محاسن امرأة في الطريق، تحرك هذه النظرات من خلال طبعه، ومن غضّ بصره عن محارم الله تحرك من خلال مبادئه وقيمه.

أبسط مثل: من أخذ المال من أي وجه حلال أم حرام تحرك وفق طبعه، من عفّ عن المال الحرام، وأنفق هذا المال في سبيل الله، تحرك في مبادئ إسلامه وقيمه، فأنت إما مع الطبع، أو مع التكليف، التكليف مبادئ وقيم، والطبع سجية.

العالم الغربي يخلق بؤراً في العالم ليغتني و يبني مجده على مشكلات أهل الأرض:

لذلك

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)

ما سبب التنازع ؟ الفردية، الإنسان فردي، يحب أن يتميز، يحب أن يكون مهماً، يحب أن يشار إليه بالبنان، وقد يصل به الأمر أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني عزه على ذلهم، أن يبني قوته على ضعفهم، أن يبني كرامته على إذلالهم، أن يبني مجده على أنقاضهم، الطبع ينتهي إلى هذا العالم كله، الآن عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثروات الأرض، ومع ذلك هناك صراع لا ينتهي، والله الذي ينفق على الأسلحة لو أُنفق في إعمار الأرض لكان أهل الأرض جميعاً في بحبوحة، مليارات، صاروخ ثمنه اثنان ونصف مليون دولار، يطلق عشرين صاروخاً قد لا يصيب ولا واحد، اضرب عشرين باثنان ونصف مليون، الإنفاق على التسليح إنفاق فلكية، لذلك عدوا عقود السلاح عقود إذعان لا عقود تراض، أحياناً بمئة ضعف يزيد السعر عن الكلفة، عقود إذعان.

لذلك أربح تجارة في الأرض السلاح والمخدرات، المخدرات من مكان الزراعة إلى مكان البيع ألف ضعف، الليرة تصبح ألف ليرة، من مكان الزراعة إلى مكان البيع، فلذلك المخدرات تجارة رابحة جداً، والسلاح كذلك.

لذلك مرة دولة عظمى كلفت ثلاثين عالماً أن يقبعوا في مكان جميل ليجيبوا الحكومة عن سؤال، أيهما أربح لهذه الدولة العملاقة الحرب أم السلام ؟ فكان الجواب الحرب، الحرب تصبح عقود إذعان، تبيع البضاعة مع التنافس أقل ربح ثلاثون بالمئة، أما بالمئة ألف لا يوجد إلا بالسلاح.

فلذلك العالم الغربي يخلق بؤراً في العالم، هناك بؤرة بين الهند وباكستان "كشمير"، هناك بؤرة السودان، هناك بؤرة في الشرق الأوسط، في كل منطقة هناك بؤرة توتر، هذه البؤرة تستدعي شراء مئات الدبابات، وقد تُدمر في حرب واحدة، دبابات وطائرات، لذلك الغرب يغتني على مشكلات أهل الأرض، سياسته بيع السلاح، والسلاح بيع إذعان، لا يوجد مساومة بالسعر أبداً ، يفرض سعراً، طائرة مئة مليون، رقم فلكي تسقط بصاروخ واحد.

فلذلك قضية خلق بؤر توتر في العالم هذه سياسة بعيدة جداً، بؤرة في الشرق الأوسط "فلسطين"، بؤرة بين الهند والباكستان، ببنغلادش، بؤرة في السودان، بؤرة هنا، في أي مكان هناك بؤرة توتر، تستدعي شراء أسلحة، وتدمير أسلحة، والغرب يعيش في بحبوحة تفوق حدّ الخيال، أما آن أن نصحو من غفلتنا؟

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

تذهب قوتكم

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

النبي الكريم جاء بمكارم الأخلاق و طاعة الله عز وجل:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة الأنفال).

قريش بلغهم أن سرية من المسلمين توجهت إلى قافلتهم التي حُملت بالبضائع، أبو سفيان توجه إلى ساحل البحر، فخرجت قريش من أجل الدفاع عن هذه القافلة.

(خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً)

بلغهم أن القافلة نجت، أبو سفيان أخذها إلى البحر، فقيل لهم: ارجعوا، فرفضوا، و قالوا: نريد أن نقاتل محمداً، من أجل أن تعلو مكانتنا في الجزيرة، من أجل أن ترهبنا القبائل.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ)

السمعة نحن أقوياء، نحن هنا، نحن أقوى من محمد وأصحابه، القافلة نجت، وانتهى الأمر، لا:

(خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

بماذا جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ جاء بطاعة الله، جاء بمكارم الأخلاق.

((وإنما بعثت معلماً))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو بن العاص].

((إنما بعثت مكارم الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة].

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

الشيطان يورط الإنسان و يغريه بمعصية كبيرة و نتائج كلها وهمية:

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الأنفال).

هذه النقطة الدقيقة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية: 22).

ما لي عليكم سلطان أبداً، إلا أنني وسوست لكم،

(فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ)

أنا معكم،

(فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إذاً الشيطان يوسوس من أجل أن تتورط، فإذا تورطت في معصية يقول لك: إني أخاف الله رب العالمين، هذا بالتعبير اليومي مقلب كبير جداً، وقعت في فخه، هذه من فخوخ الشيطان يغريك بالمعصية و يسهلها لك.

مرة سبع أشخاص ائتمروا على قتل صائغ، في بلدة قريبة من دمشق، قتلوه ووضعوه في بئر وأخذوا مركبته مع عدد من الأوزان الكبيرة من الذهب، أذكر بعد ثلاثين أو أربعين يوماً تمّ إعدامهم في المكان نفسه، حينما أقدموا على هذا العمل بماذا زين لهم الشيطان أعمالهم ؟ تنجون من العقاب، أليس كذلك ؟ هل من الممكن أن إنساناً يرتكب جريمة سرقة، ويعتقد جازماً أنه سيقبض عليه ويودع في السجن ؟ مستحيل ! لا يوجد إنسان يرتكب جريمة سرقة وقتل إلا وفي تخطيطه أنه سينجو، الشيطان يورطك،

يغريك بمعصية كبيرة، يغريك بنتائج كلها وهمية، بعد التورط يأتي العقاب، هذا من عمل الشيطان، إذا جاءك خاطر يتناقض مع منهج الله قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية: 23).

من جاءه خاطر من الشيطان يتناقض مع منهج الله فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم:

أخواننا الكرام، بصحيفة دمشقية سائق صعدت إلى مركبته امرأة، مركبة عامة سألها إلى أين ؟ قالت له: خذني إلى أين تشاء، رآها مغنماً كبيراً، بعد أن قضى حاجته منها أعطته رسالتين، رسالة فيها مبلغ مزور أودع السجن، والثانية فيها سطر واحد مرحباً بك في نادي الإيدز، لو كان مؤمناً لركلها بقدمه، عندما قالت له: خذني إلى أي مكان رأى هذا مغنماً، فالشيطان وسوس له، فأصيب بمرض الإيدز، وأودع السجن، أنا قرأتها في صحيفة دمشقية، قبل سنوات عديدة.

الشيطان هكذا يغريك بالمعصية، يزينها لك، يعتم عليك النتائج كلها، فإذا وقعت في الفخ يقول لك:

(إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذا مقلب كبير جداً فكن صاحياً.

أيها الأخوة الكرام، في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (17-30): تفسير الآية 49 ، الناس ثلاثة أصناف مؤمن ومنافق وكافر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-10-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن واضح علانيته كسريرته وظاهره كباطنه:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع عشر من دروس تفسير سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، لا شك أن سورة البقرة افتتحت بالحديث عن الأصناف الثلاثة ؛ عن المؤمنين، وعن الكافرين، وعن المنافقين، والملاحظة الشمولية أن المؤمن واضح، علانيته كسريرته، ظاهره كباطنه، ما يقوله تعبير عما في نفسه، والله عز وجل وصفهم بآيتين أو ثلاث، قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة).

أي صدّق حين أخبره الله بكتابه الكريم أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض ، صدق الله وعمل للجنة، هذا موقف يحتاج إلى بطولة، على الشبكية هناك شهوات محسوسة، على الشبكية هناك امرأة جميلة، هناك قصر فخم، هناك سيارة فارهة، هناك طعام طيب، لم يعبأ بما على الشبكية، ولكنه عمل لما أخبره الله به من حياة أبدية، أخبر الله عباده المؤمنين فقال:

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى).

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

(سورة الإنسان).

لذلك هذا المؤمن صدق ربه، لأن الكون كله يشهد لله بعظمته، والبطولة أن المؤمن بدأ من التفكر في السماوات والأرض، رأى كوناً ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وكماله، رأى من خلال الكون حكمة الله، رأى رحمة الله، رأى علم الله، رأى قوة الله، رأى غنى الله، رأى وحدانيته الله، هذا كله رآه.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أقوى دليل على أن القرآن كلام الله:

لذلك عندما قرأ القرآن، من خلال الوعد والوعيد، ومن خلال إعجازه، صدق أن هذا الكلام كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكلام رسوله، انظر التسلسل، الأصل هو الكون، فكر في كون ينطق بكل جزئياته، بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، وأن هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، فتعرف بالله من خلال الكون، ثم قرأ كتاباً فإذا فيه معجزات، أو إن صحّ التعبير إعجاز، ففيه إشارات كثيرة إلى حقائق علمية لم تكن معروفة إطلاقاً وقت نزول الوحي، عرفت بعد مئات السنين، أو بعد ألف و أربعمئة عام.

فالإعجاز العلمي في القرآن الكريم أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله، وعلى أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل القرآن، فلذلك آمن بالقرآن كلام الله عز وجل، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، ثم آمن أن الذي جاء بهذا القرآن هو رسول الله.

الآن انتهى دور العقل، بالعقل آمن أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، رحيماً، قوياً، حكيماً، غنياً، موجوداً، واحداً، كاملاً، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، واحداً، أحداً، فرداً:

(الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص).

العقل دليل الإيمان بالشيء الذي غابت عينه وبقيت آثاره:

لما آمن بالله عز وجل من خلال هذا الكون الآن رأى أمامه كتاباً، يقال: إنه كلام الله، قرأ في هذا الكتاب فإذا كل شيء وعد به يتحقق، وإذا كل شيء يتوعد الله به يتحقق، وقوع الوعد والوعيد أحد أكبر الأدلة على أن هذا الكتاب كلام الله، ثم هناك الإعجاز العلمي، فآمن بالقرآن على أنه كلام الله، والذي جاء به هو رسول الله، أي مما يشهد للنبي أنه نبي هذا القرآن، الآن انتهى دور العقل، وجاء دور النقل، القرآن أخبرك أن هناك حياة أبدية لا تنتهي، القرآن أخبرك أن هناك حساباً دقيقاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر).

الآن القرآن أخبر عن أشياء غيبية، لذلك كنت أقول لكم دائماً: هناك دائرة المحسوسات، أداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها، كالميكروسكوب، والتليسكوب ، هناك أشياء حسية ملموسة، شيء تمسكه، تحمله، تمتحن نعومته، بحواسك الخمس، تراه حجماً، وشكلاً، ولوناً، تحمله، تدرك وزنه، هناك أشياء حسية ظهرت عينها، وظهرت آثارها فأداة اليقين بها الحواس الخمس واستطالاتها، هذه لا تعنينا

كثيراً واضحة، لكن هناك أشياء غابت عينها و بقيت آثارها، هذه الأشياء كالكهرباء مثلاً، نحن لا نرى الكهرباء، لكن نرى مصباحاً متألقاً، نرى صوتاً يكبر، نرى مروحة تدور، نرى ثلاجة تبرد، نرى سخاناً يسخن، هذه كلها آثار الكهرباء، فالشيء الذي غابت عينه وبقيت آثاره دليل الإيمان به العقل، العقل مختص بموضوع غابت عينه، وبقيت آثاره.

الإيمان بوجود الله ووحدانيته وكماله أعظم موضوع على الإطلاق:

لذلك أعظم موضوع الإيمان بالله، الذات الإلهية لا نراها، بدليل قوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية: 103).

لكن كل هذا الكون أثر من آثار الله عز وجل، ترى في الكون رحمته، ترى الطفل الصغير، ترى الكائنات كيف تتنامى، ترى النباتات، ترى الحيوانات، ترى الأطيار، ترى الأسماك، ترى البحار، ترى السماوات والأرض، ترى الكواكب، المجرات، هذا كله تراه، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى، والكون مظهر تجسيد لهذه الأسماء، لكن يحتاج إلى عقل، العقل أساسه يرى شيئاً مادياً، محسوساً، ملموساً، له وزن، له طول، له عرض، له ارتفاع، له مسافة، له لون، له صوت، له رائحة، له ملمس، يحكم على صانعه، فالعقل دوره أنه يعرف الخالق من الخلق، يعرف المسير من التسيير، يعرف الحكيم من الحكمة، يعرف القدير من القدرة، يعرف القوة من القوي، هذا مجال العقل، بعد أن يؤمن الإنسان من خلال عقله بوجود الله، ووحدانيته، وكماله.

والمقولة الشهيرة: الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟.

وقوع الوعد والوعيد أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله:

الآن بعد أن تؤمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وأن أسماءه كلها حسنى، وأن صفاته كلها فضلى، وأن تؤمن بقدرته، ورحمته، وحكمته، وعلمه، وغناه، الآن تؤمن بكلامه من خلال أقوى دليلين وقوع الوعد والوعيد.

للتقريب: رأيت في البحر باخرة عملاقة، الآن يوجد بواخر حمولتها تزيد عن مليون طن، مدينة تتحرك، حاملات الطائرات مدينة، مئة طائرة تطير من هذه الحاملة وتعود إليها، فيها غرف، ملاعب، مطابخ، مدينة تمشي.

لو رأيت حاملة طائرات تمخر عباب البحر، مبتعدة عن الميناء، وادعى إنسان أنه قائدها ما الدليل ؟ قال لك: سأعطيها أمراً أن ترجع، أعطاها أمراً أمامك أن ترجع، فهذه المدينة العملاقة رجعت إلى الميناء، فكلامه صادق ؟ طبعاً صادق، أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله وقوع الوعد والوعيد.
مثلاً الحياة الطيبة التي يعيشها المؤمن مصداق لقول الله عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97).

فالحياة الطيبة التي يحياها المؤمن هي مصداق لقوله تعالى لهذه الآية، معنى ذلك أن الحياة الطيبة بيد الله، والله أخبرنا أنه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

هو يعيش حياة طيبة، هذا أقوى دليل على أن القرآن كلام الله، والإنسان القوي جداً، والغني جداً، معيشته ضنك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية: 124).

فالمعيشة الضنك الذي يحياها الكافر، البعيد عن الله، المعرض عن ذكر الله، هي مصداق قوله تعالى، فأقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله وقوع الوعد والوعيد، وأقوى دليل بالإعجاز العلمي، فأنت حينما تؤمن بالله واحداً موجوداً، واحداً كاملاً، وتؤمن بأن هذا القرآن كلام الله، من لوازم هذا الإيمان أن الذي جاء بهذا القرآن هو قطعاً رسول الله، فآمنت به، انتهى دور العقل، جاء دور النقل، النقل أخبرك الله أن هناك دار الآخرة فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أخبرك الله أن هناك حساباً دقيقاً:

((ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

هناك حساب دقيق، أخبرك القرآن أن هناك نار جهنم، لا يموت فيها الكافر ولا يحيا، كل شيء أخبرك الله به، الآن هذا المصدر الثالث في الدين، هناك محسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس، هناك معقولات أداة اليقين بها العقل، هناك إخباريات أداة اليقين بها الخبر الصادق، كل هذا الكلام من أجل أن نعلم ما معنى:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

أكبر سبب دعا المؤمنين إلى طاعة الله أنهم آمنوا بالغيب:

المؤمن آمن بالغيب، آمن بشيء لا يراه، لكن كل شيء يغيب عليه، رأى دخاناً قال: لا دخان بلا نار، ما رأى النار رأى الدخان، فالدخان ليس ناراً لكن من آثار النار، رأى آثر النار ولم يرَ النار.
لذلك هؤلاء المؤمنون بطولتهم أكبر سبب دعاهم إلى طاعة الله أنهم آمنوا بالغيب ، آمنوا بما أخبرهم الله به، هناك حياة أبدية، هذا الإيمان بالغيب يقتضي أن يتقوا معصية الله، هذا الإيمان بالغيب يقتضي العمل الصالح، لذلك:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، فبنى حياته على العطاء، أعطى واتقى لأنه صدق بالحسنى، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل).

كذب بالآخرة وآمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، هذا التصنيف القرآني لبني البشر، إنسان صدق أنه مخلوق للجنة فآمن بالغيب، واتقى أن يعصي الله، لأنه صدق أنه مخلوق للجنة، وبنى حياته على العطاء، وإنسان آخر كذب بالحسنى، لم يصدق بالآخرة، كلام فارغ، الدنيا هي الجنة وهي النار، والغني في جنة، فكذب بالحسنى واستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، هذان الصنفان من بني البشر ولن تجد ـ والله أعلم ـ صنفاً ثالثاً.

الفلاح نجاح في الدنيا والآخرة معاً:

لذلك هؤلاء المؤمنون آمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة).

ثم آمنوا بالدعوة إلى الله، آمنوا بالأنبياء السابقين.

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة).

الفلاح نجاح في الدنيا والآخرة معاً، النجاح في الدنيا وحدها يسمى نجاحاً، إنسان يحمل أعلى شهادة في الدنيا، إنسان يملك أكبر ثروة في الأرض، النجاح في الدنيا يعد نجاحاً لكن لا يعد فلاحاً، أما الفلاح

أن تنجح في الدنيا والآخرة، أن تنجح في الهدف الذي خلقت من أجله، هذا أول صنف، المؤمن واضح يعمل للآخرة، يخاف الله وحده، لا يخشى غير الله ، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً جداً، يحاسب نفسه على نظرة لا ترضي الله، على كلمة تفوه بها خطأ، يحاسب نفسه على تمرة.

رأى النبي تمرة على السرير فاشتهاها، فقال: " يا عائشة لولا أنني أخشى أنها من تمر الصدقة لأكلتها"، ظن أنه جاءه طبق من التمر صدقة فوقعت منه، قال: " لولا أنني أخشى أنها من تمر الصدقة لأكلتها "، صار ورعاً.

المؤمن واضح و الكافر واضح:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

واضحين، المؤمن واضح آمن بالله، وبنى كل حياته على الإيمان بالله، بنى كسب ماله على الحلال، يركل بقدمه ملايين مملينة، لأنها لا ترضي الله، ويقبل بدخل محدود من طريق مشروع يرضي الله، يبحث عن زوجة مؤمنة صالحة يتمنى أن تكون جميلة إضافة إلى صلاحها، لكن لو جاءته جميلة ليس فيها دين يرفضها، بنى حياته، بنى عمله، بنى زواجه، اختار عملاً ينفع المسلمين، هناك عمل يبنى على ابتزاز أموال الناس، أو على إلقاء الرعب في قلوبهم، لو كان دخله فلكي يرفضه، نحن نظن أن المؤمن شخص عادي، المؤمن مرتبة عالية جداً، مرتبة علمية، مرتبة أخلاقية، مرتبة فكرية، مرتبة جمالية. لذلك:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

المؤمن واضح جداً، له منظومة قيم، ومبادئ، ومنطلقات، وأنماط سلوك ثابتة، هذا أول صنف، ومع الأسف الشديد والكافر واضح جداً، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة).

ألغى من حياته الدين، مرة حدثت مندوب شركة في هولندا شيئاً عن الدين، قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني إطلاقاً، ولا أهتم بها، ولا ألقي لها بالاً إطلاقاً، أنا لا يعنيني إلا امرأة جميلة، ومركبة فارهة، ومنزل كبير، واضح، الكافر واضح، له ميزة أنه واضح، لا تنغش به أبداً، واضح، الدين ألغاه من حياته، كالأجانب، ألغوا الدين من حياتهم كلياً واستمتعوا بالدنيا من أعلى درجة، أتقنوها، أتقنوها إتقاناً مذهلاً، عندما أتقنوها ملكوها، ملكوا الدنيا، أتقنوا الدنيا، وآمنوا بها، واكتفوا بها، ولم يعبؤوا بالآخرة.

بقلب المؤمن من الرضا والطمأنينة و السكينة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم:

أخواننا الكرام، المؤمن واضح، آمن بالله، وباليوم الآخر، وجعل كل حركاته ونشاطاته وفق منهج الله، وسعى للدار الآخرة، لكن المحسوسات لم يعبأ بها، آمن بالمغيبات، آمن بجنة عرضها السماوات والأرض، يسعى إليها، من الذي وعده بها ؟ خالق السماوات والأرض، الذي وعده بها خالق هذا الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: 111).

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء).

بمنتهى العقل، بمنتهى الذكاء، بمنتهى الفلاح، بمنتهى الفوز، آمن بالآخرة، لكن الله ما منعه أن يأكل، ويشرب، ويتزوج، وينجب، ويعمل، أقسم لكم بالله بل إن استمتاع المؤمن في الدنيا بطريق مشروع، لأنها وفق منهج الله، ولأن العلاقة مع الله نامية جداً، فيسعد بالدنيا أيما سعادة.

بل إن بعض الملوك ـ اسمه إبراهيم بن الأدهم، مدفون في جبلة، كان ملكاً، ثم ترك الملك و أصبح عارفاً بالله ـ قال هذه الكلمة الرائعة: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

والله الذي لا إله إلا هو يوجد بقلب المؤمن من الرضا، من الطمأنينة، من السكينة، من الأمن، من الحكمة، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، المؤمن واضح، يركل بقدمه مليار يقبل بخمسة آلاف بالشهر، لا لأنه أحمق، لأنه ذكي جداً، لأنه ضمن الآخرة بهذه الطريقة، أنا أخاف أن تتوهموا أنه فقط يصلي، منطلقاته، فكره، مبادئه، قيمه، نظام حياته، زواجه، تربيته لأولاده، كل أعماله وفق الآخرة، مرتاح.

إلغاء الكافر الآخرة و الإيمان من قلبه كلياً:

أما الكافر أيضاً واضح، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة).

ألغى الآخرة من حياته، ألغى الإيمان بالله كلياً.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة الآية: 7).

هذا ختم يسمونه تحصيل حاصل، هذه الأبواب المفتوحة لو أن الباب الخارجي مغلق هي بحكم المغلقة، أليس كذلك ؟ لو أردت أن تخرج الخارجي مغلق، ما قيمة هذه الأبواب ؟ قال:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

المعنى:

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة القرة الآية: 7).

والغشاوة هي حب الدنيا، وحبه للدنيا جعله أعمى أصم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة البقرة).

انتهى وصفهم واضحين جداً، آيتان، المؤمنون خمس آيات، الكفار آيتان، الآن ميزة الكافر واضح، الغرب ليس فيه دين، مؤمن بالدنيا بالمال، المال هو كل شيء.

مرة ذهب عالم من دمشق إلى أمريكا، جلس بحديقة و إلى جانبه شخص، هذا العالم أسمر اللون فسأله الشخص الجالس بجانبه عن دينه، قال له: أنا مسلم، قال له: ما الإسلام ؟ قال له: أتحب أن أحدثك عنه خلال ساعة ؟ قال له: ممكن، هذا عالم كبير، وله تفسير دقيق جداً، فحدثه عنه بخمسين دقيقة، فكان رد فعل هذا الإنسان أنه أخرج من جيبه مئة دولار، قال له: أنا هذا إلهي أعبده من دون الله، واضح وضوح الشمس، يؤمن بالدنيا، بالمتعة، بالجمال، بالرفاهية، الآن كل أقول السياسيين يتحدثون عن الرفاه فقط، نجاحهم بالحياة، أو نجاحهم بإدارة حياتهم يتعلق بتأمين الرفاه لشعبهم فقط، الرفاه لا الإيمان.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

المنافق له ظاهر وله باطن و يتكلم بشيء لا يؤمن به:

أما المشكلة الكبيرة هذا الصنف الثالث:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة).

له ظاهر وله باطن، يتكلم بشيء لا يؤمن به، يجلس مع المؤمنين يظهر إيمانه المزور.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة البقرة).

الله عز وجل وصفهم بثلاث عشرة آية، الإنسان يتحرك، يجلس مع المؤمنين يعمل نفسه مؤمناً، يأخذ كل ميزاتهم، يجلس مع الكفار يستهزئ بالمؤمنين.

المنافق في نص الآيات التالية كافر مبطن وعذابه أشد:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

لأنه أخذ ميزات المؤمنين في الدنيا، واستمتع كما استمتع الكافرون قال:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

(سورة النساء الآية: 145).

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)

(سورة البقرة الآية: 13).

هؤلاء سفهاء.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية: 13).

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

المنافق في نص هذه الآيات كافر مبطن، كافر، وعذابه أشد،

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

واضح ؟.

الشبهات حجاب بين الإنسان و ربه:

أردت بهذه المقدمة أن أبين لكم ما معنى قوله تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

هناك حالة ثانية، أنا لا أسميها نفاقاً،

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

هناك إنسان إيمانه ضعيف، عنده شبهات، هذه الشبهات كانت حجاباً بينه وبين المؤمنين، لماذا هناك حروب في الأرض مثلاً ؟ لماذا هناك طفل يموت صغيراً ؟ عنده شبهات ما سأل عنها، فكانت هذه الشبهات حجاباً بينه وبين الله.

لذلك أنا أقول لكم: الذي عنده سؤال خطير يسأل عنه، لا يبقى بشك، وبحيرة، أحياناً الشبهات تكون حجاباً بينك وبين الله، الله يعلم أن هذا الإنسان كافر، لماذا خلقه ؟ طبعاً الشياطين عندهم خبث كبير جداً، يطرحون عليك أسئلة تتوهم أنه لا يوجد لها جواب، هي لها جواب.

فلذلك إذا الإنسان تعثرت خطاه في السير إلى الله من خلال بعض الشبهات ينبغي ألا ينام الليل حتى يبحث عن جواب لها، لا تقل: أنا لا أسأل، إذا لم تسأل ليس لك قيمة عند الله عز وجل، اسأل، لكل شبهة جواب.

أيها الأخوة،

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

تحدثنا عنهم، هؤلاء الكفار الذين يمثلون.

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

فالمرض يأتي إما من شبهة، أو من شهوة.

المريض في عالم الإيمان أسباب مرضه شبهة أو شهوة:

الآن عندنا عقبة أخرى، غير الشبهة، الشهوة، أحياناً الإنسان تغلبه شبهة، أو تغلبه شهوة، المريض في عالم الإيمان أسباب مرضه شبهة أو شهوة.

لذلك قال تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

هؤلاء الكفار، الكفار الذين يمثلون دور المؤمنين،

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)

والدليل: ألا إن المنافقين هم الكافرون، هم

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

المرض بسبب شبهة ليست واضحة عنده، سمع درساً أن الإنسان مكتوب عليه كل شيء قبل أن يولد، الأمر منته، والله ليس عنده مشكلة.

إذا كان مدرسة أول يوم بالعام الدراسي وقف المدير، قال: سأتلو عليكم أسماء الناجحين في آخر العام، وأسماء الراسبين، اذهبوا و ادرسوا، من الآن يدرس ؟ الأمر منته.

عند الناس بعض الشبهات إما بالقضاء والقدر، أما باختلاف، تجد غنياً يكاد يموت من التخمة، وفقيراً يكاد يموت من الجوع، تجد غنى وفقراً، هناك غني وهناك فقير، هناك قوي وهناك ضعيف، هناك صحيح وهناك مريض، هناك فتاة جميلة جداً يتهافت عليها كبار الأغنياء وهناك فتاة مستوى شكلها أقل مما ينبغي تجدها تعاني ما تعاني، يا رب ما الحكمة ؟ يوجد شبهات، أي اختلاف توزع الحظوظ في

الأرض، شاءت حكمة الله أن يكون هناك إنسان غني وهناك إنسان فقير، هناك إنسان وسيم جداً وآخر دميم، إنسان طويل العمر يقول لك: عمري ثمانية و تسعون، و إنسان يموت بالثامنة عشر، هناك مئات الشبهات هذه تحول بين المؤمن ضعيف الإيمان وبين أن يسعى إلى الله، وهناك شهوات كثيرة، المرأة أحد أكبر الشهوات، يوجد إنسان يعصي الله لا عن كفر لكن شهوته غلبته، هذا الإنسان الذي عنده شبهة حالت بينه وبين الاستقامة، أو عنده شهوة غلبته، كما سماه الله هنا ليس منافقاً لكنه مريض ضعيف الإيمان، فالآية تقول:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

مرضى القلوب إما بشبهات القضاء والقدر أو بسبب شهوات غلبتهم:

والله هناك آية أيها الأخوة:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود الآية: 88).

المؤمن على بينة، الأمور عنده واضحة جداً، الأمور كالشمس، والآن في هذا العصر اللون الرمادي اختفى، هناك مؤمن واضح الإيمان، وهناك كافر واضح الكفر، لأن الإيمان ضعيف، الآن لا يوجد نفاق، المنافقون قلة قليلة جداً، ما من داع لأن ينافق، العالم كله مع الكفر، الآن قلما تجد منافقاً، لماذا ينافق ؟ يفطر جهاراً في رمضان، ويتحدث عن مغامراته في المعاصي والآثام، لا يخاف، العالم الآن كله مع الكفر، الإيمان ضعيف جداً.

فلذلك هؤلاء مرضى القلوب إما بشبهات القضاء والقدر، بالخير والشر، بتوزيع الحظوظ في الدنيا، أو بسبب شهوات غلبتهم، هؤلاء يقولون

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود).

الآن غير المؤمن يقول لك كم دخلك ؟ يقيمك كلك بدخلك فقط، لا يوجد عنده شيء آخر، إذا كان دخلك محدوداً وأنت أسعد الناس، ساكن في بيت صغير، وعندك زوجة صالحة تحبها وتحبك، ولك هدف كبير، تسعى إليه أنت أسعد الناس.

الآن بمقاييس الدنيا يقيّم الشخص بمتاعه فقط، أين ساكن ؟ بحي متواضع، مساحة بيتك تقدر بستين متراً، دخلك ثلاثة آلاف، خمسة آلاف بالشهر، هذا عند الغني لا شيء صفر، قد يكون هذا الفقير قلامة

ظفره ـ أقسم لكم بالله ـ تساوي أغنى أغنياء العالم، قد تكون حاجباً مستقيماً، وهناك مدير عام غارق في المعاصي والآثام، وقبول الرشوة، والمال الحرام، هذا الحاجب الذي على بابه قلامة ظفره تعدل كل هؤلاء الأشخاص المنحرفون.

بطولة الإنسان أن يعرف موازين الله عز وجل:

عند الله موازين، بطولتك أن تعرف موازين الله، لذلك:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران).

بمقاييس الدنيا الذي اشترى أرضاً قبل عشر سنوات، والآن تضاعفت ثلاثمئة ضعف يقول لك: بيته بالجنة، أي جنة هذه ؟ تستطيع أن تأكل أكثر من وجبة طعام واحدة ؟ أغنى أغنياء الأرض يأكل وجبة طعام، ينام على سرير واحد، يرتدي ثوباً واحداً، هل يوجد غير هذا؟ الدنيا محدودة لها سقف.

المؤمن إنسان سعيد لأنه آمن بالله تعالى:

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

أي مؤمن مطمئن، ليس ملاحقاً، ليس مرتكباً أي خطأ، حتى يكون عليه إذاعة بحث، لو طرق بابه ليلاً من الطارق ؟ و هناك إنسان إن طرق بابه ليلاً يموت من الخوف، أما المؤمن ليس مطلوباً، لا يوجد مذكرة بحث بحقه.

((آمِنا في سِرْبه مُعافى في جَسَدِهِ))

النبي استيقظ مرة قال:

((الحمد لله الذي رد عليّ روحي و عافاني في جسدي و أذن لي بذكره))

[صحيح عن أبي هريرة]

فالمؤمن سعيد جداً، فلذلك النقطة الدقيقة الإنسان حينما يبتعد عن الله تكون مقاييسه مادية، قال سيدنا علي: " قيمة المرء علمه ".

فهؤلاء المنافقون ومرضى القلوب قال:

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

ما عرف كيف يحيا المؤمن، ما عرف مشاعر الرضا التي أكرمه الله بها، ما عرف مشاعر اليقين، ما عرف الحكمة التي أكرمه الله بها، ما عرف الأمن الذي ينعم به، المؤمن من خلال صلاته المتقنة يتمتع بأمن، وبحكمة، وبسعادة، وبسكينة، وبحكمة بالغة لأنه آمن بالله.

لذلك:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)

مغرور معنى مغرور أي توهم شيئاً أكبر من حجمه، المؤمن ما توهم أن الجنة أكبر، الجنة حقيقة أكبر، أما الكافر يتهمه أنه متوهم، يقول لك: لم يرَ شيئاً في الدنيا، يقول: من بيته إلى الجامع و من الجامع إلى بيته، لا يعرف أن هذا أسعد إنسان في الأرض، لا يعرف،

(غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، لنا أيضاً وقفة متأنية مع هذه الآية، أنا لعلي أطلت في التقديم لأنه من هو المنافق ؟ هو إنسان بينَ بين، المؤمن واضح والكافر واضح، والمؤمن التعامل معه سهل جداً، عنده منهج سهل جداً، والكافر أوضح، قال لك: أنا الآخرة ألغيتها من حياتي، مقياسه كله مادي، أما هذا الوضع الوسط لا تعرفه مؤمناً، لا تعرفه كافراً، لا تعرف هل هو مع المؤمنين أم مع الكافرين ؟ هذا الوضع خطير جداً، أسأل الله جلّ جلاله أن ينقذنا من حال أهل النفاق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (18-30): تفسير الآيتان 50 -51 ، ما قبل الموت - نفي الله عز وجل الظلم عن ذاته العلية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-10-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب الله عز وجل نبيه الكريم في الآية التالية:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخمسين وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هذه الآية أيها الأخوة فيها خاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام، أما لو فهي حرف امتناع لامتناع، ولولا حرف امتناع لوجود، بمعنى لولا المطر لهلك الزرع، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، لو جئتني لأكرمتك، هذه لو حرف امتناع لامتناع، امتنع إكرامي لك لامتناع مجيئك.

فالله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام ويقول: يا محمد

(وَلَوْ تَرَى)

مصير هؤلاء الكفار إذ يتوفاهم ملك الموت.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

الملائكة فاعل، أي ولو ترى يا محمد إذ يتوفى الملائكة الذين كفروا، ماذا سيحل بهم ؟ ما مصيرهم ؟ القرآن الكريم سكت عن الحديث عن مصيرهم، وعما يحل بهم، لماذا ؟ قال بعض العلماء: إن إغفال الجواب يسمى في علم البلاغة إيجازاً غنياً.

أي قد تقول: أصابني فقر، واضح، أصابني مرض، أصابني هم، أصابني حزن، لكن تقول أحياناً لو تعلم ما الذي أصابني ؟! فهذا السامع انطلق خياله إلى آفاق كبيرة جداً، هذا ليس إيجازاً عادياً، هذا إيجازٌ غني، لأن هناك إيجازاً مخلاً، وهناك إطناباً مملاً، والبلاغة بين الإيجاز المخل وبين الإطناب الممل، أما هذا الإيجاز له اسم خاص بالبلاغة اسمه إيجاز غني.

من عرف الله استقام على أمره:

مرة ثانية أقول لك: أصابني هم، الهم محدد، أصابني مرض، أصابني فقر ، أصابتني مصيبة، أما حينما أقول لك: لو تعلم ما الذي أصابني، ما الذي أصابه ؟ ينطلق الخيال إلى آفاق كثيرة، إذاً هو أغفل التفاصيل ليعطي التفاصيل قوة يصنعها خيال السامع، هذا معنى الإيجاز الغني.

(وَلَوْ تَرَى)

يا محمد

(إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

في أثناء الوفاة يضربون وجوهم وأدبارهم، فالقاتل حينما يلقى القبض عليه يُساق بالضرب إلى السجن، لا يُساق بالتكريم، حينما يلقى القبض على قاتل، أو على مجرم، أثناء سوقه إلى السجن، يتلقى ضربات كثيرة، لأنه مجرم، وهؤلاء الذين كفروا بنوا مجدهم على أنقاض الناس، بنوا حياتهم على موتهم، بنوا غناهم على إفقار الناس، بنوا أمنهم على إخافة الناس، بنوا عزهم على إذلال الناس دائماً وأبداً، أنت حينما تعرف الله تستقيم على أمره، تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك.

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

الإيمان بالله يُعرف الإنسان بحدوده و يبعده عن العقاب:

الإنسان لماذا يؤمن بالله ؟ ليعرف حدوده، لئلا يعتدي، لئلا يستحق بعد الاعتداء العقاب من الله، أنت حينما تعرف الله عز وجل وأنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، تقف عند حدك، كيف لا وأنت مع إنسان من بني جلدتك لكنه أقوى منك، حينما تعلم علم اليقين أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه.

وأوضح مثل: تقود مركبة وعند تقاطع الطرق الإشارة حمراء، والشرطي واقف، الشرطي عين واضع القانون، وشرطي آخر على الدراجة، وضابط مرور في مركبة، أنت مواطن عادي، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تتجاوز الإشارة الحمراء، لأنك موقن قطعاً أن واضع قانون السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، والشرطي والضابط، وأن قدرته تطولك، و بإمكانه أن يسحب الإجازة منك، وأن يحجز المركبة.

أنت انظر كيف تتعامل مع الأقوياء في الدنيا، أنت تاجر استوردت بضاعة، لم تخبر عنها جهة الضرائب، تهدر حساباتك، وتضاعف ضرائبك، مع أن كل شيء تستورده تذهب منه نسخة إلى وزارة

المالية، فإذا أغفلتها أنت في ميزانيتك هم يكشفونها، قلّما تجد في أنحاء البلاد تاجراً واحداً يغفل إعلام المالية بصفقة استوردها، التعامل مع الأقوياء، أو التعامل مع من علمهم يطولك، أو مع من قدرتهم تطولك، واضح جداً، الله عز وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

أغبى أغبياء الأرض من لا يدخل الله في حساباته:

وقد يسأل سائل لماذا اختار الله جلّ جلاله من أسمائه الحسنى اسمين فقط،

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

علمه، إذا كنت مع واضع قانون السير لا تخالفه أبداً، إذا كان علمه يطولك من خلال الشرطي و قدرته تطولك من خلال سحب الإجازة، فكيف تتعامل مع خالق السماوات والأرض، وأنت في قبضته ؟ يعلم سرك ونجواك، يعلم ما أعلنته، ويعلم ما أسررته، ويعلم ما لم تعلمه، وأنت في قبضته.

فلذلك العلم بالله يقود إلى طاعة الله،

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

أخوتنا الكرام، دققوا فيما سأقول: أغبى أغبياء الأرض، أحمق حمقاء الأرض ، أجهل جهلاء الأرض، الذي لا يدخل الله في حساباته، وصدقوا ولا أبالغ، ما من قطرة دم تراق في الأرض، في كل الأصقاع، وفي كل الأزمنة، من آدم إلى يوم القيامة وإلا ويتحملها إنسان يوم القيامة، إلا أن دم المقتول بحدٍّ شرعي يتحمله الله عز وجل.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

أتظن أن الله لا يحسب ؟ ولا يعاقب ؟.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

الاستقامة على أمر الله تحتاج إلى معرفة به:

فلذلك أيها الأخوة الاستقامة على أمر الله تحتاج إلى معرفة به، لأنه هؤلاء الذين كفروا غفلوا عن الله، واعتدوا بقوتهم، وجبروتهم، وظنوا أن الله لا يحاسبهم، فبطشوا، هؤلاء الذين يقصفون المدن، يدمرون الشعوب، يسببون المجاعات، يهدمون البيوت، يقتلون الشباب، ثم يتصدرون الشاشات، ويتحدثون عن الحرية والديمقراطية، الله لهم بالمرصاد.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

الحساب الختامي يوم القيامة فالعاقل من اتعظ بغيره:

أخوتنا الكرم، أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا، إلا اسماً واحداً، هو اسم العدل، هذا الاسم محقق جزئياً، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، ولكن الحساب الختامي يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران الآية: 185)

فالبطولة لا أن تعيش لحظتك وأنت قوي، وأنت غني، لكن البطولة أن تعيش مصيرك، دائماً العاقل يعيش في المستقبل، يعيش في نتيجة عمله.

(وَلَوْ تَرَى)

يا محمد، لو ترى هؤلاء الكفار حينما يتوفاهم

(الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

أيها الأخوة، ورد في السنة أن صحابياً أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال له:

((أقبل صحابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله لقد رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك ـ أي علامة من الضرب الشديد ـ ظاهرة على جسده، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك ضرب الملائكة))

((وجاء صحابي آخر وقال: يا رسول الله ني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضربه، فنَدرَ رأسُه؟ فقال: سبقك إليه الملك))

[القرطبي عن سعيد بن جبير]

وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آَمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

(سورة الأنفال)

هذا القرآن الكريم، إذاً:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

إذا أراد الإنسان أن ينفذ أمراً فليتدبر عاقبته:

أيها الأخوة، سُئل أحدهم: ما العقل ؟ فقال: أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، هذا القاتل لو فكر أنه سيلقى القبض عليه، وسوف يُحاكم، وسوف يُعدم، ما قتل، لكنه عاش لحظته، فقتله وطمع بماله، فنفى اعتقاله ثم محاكمته، ثم شنقه، كل بطولتك أن تعيش المستقبل، وأن تعيش على مشارف ترك الدنيا، أن تعيش وتتصور ما وضعك في القبر ؟ هل قبرك روضة من رياض الجنة ؟ أم حفرة من حفر النار ؟.

إذا أراد أحدكم إنفاذ أمر فليتدبر عاقبته، أقول لكم: أن الأغبياء يعيشون الماضي دائماً، يتحدث عن بطولاته، وأن الأقل غباء يعيشون الحاضر، لكن العقلاء والأذكياء يعيشون المستقبل.

وأنت تدخن تستمتع بهذه الدخينة، لكن هل فكرت في سرطان في الرئة ؟ هل فكرت في هذا ؟ هذا الذي كان يقول: تعالوا إلى حيث النكهة، معلن كبير للدخان، يرتدي حصاناً وثياباً خاصة، ويقول: تعالوا إلى حيث النكهة، قبل أن يموت قال ما يلي: كنت أكذب عليكم الدخان قتلني، بعضهم قال: العاقل لا يندم، لأن الذي سيأتي توقعه، فتكيف معه، ومن هو الذكي ؟ هو المتكيف، ما من تعريف جامع مانع موجز للذكاء كهذا التعريف، الذكاء هو التكيف فقط، أن تتكيف مع المستقبل، أخطر حدث في المستقبل أن تغادر الدنيا، ماذا أعددت لهذه الساعة ؟.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت)

أيها الأخوة الكرام، جاء في الأثر القدسي:

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

أعظم أنواع التكيف أن تتكيف مع حدث الموت:

أيها الأخوة، من ملامح أن تعيش المستقبل قاعدة في بعض البرمجيات النفسية، ابدأ من النهاية، ابدأ من المصير.

سُئل طالب نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية: ما سبب التفوق ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا دقيقة في أثناء العام الدراسي، أي تكيف مع الامتحان، فالبطولة بالتكيف.

أعظم أنواع التكيف أن تتكيف مع حدث الموت.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

فكل ذكائك، وكل نجاحك، وكل فلاحك، وكل بطولتك، وكل توفيقك، أن تتكيف مع المستقبل، مع أخطر حدث في المستقبل، مع مغادرة الدنيا، يا ترى لو أننا فكرنا بالموت، وقد أمرنا نبينا عليه الصلاة والسلام فقال:

((أكثروا ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب، مشتت الجماعات ـ))

[رواه الديلمي عن أنس]

((يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الحاكم عن سهل بن سعد]

لو أن إنساناً فكر في مصيره، لا يعمل، لا يدرس، لا يتاجر، لا يبحث عن وظيفة، لا يشتري بيتاً، لا يتزوج، لا، يدرس، وينال أعلى الشهادات، ويتاجر، وقد يقيم صناعة، وقد يبحث عن وظيفة راقية، وقد يتزوج امرأة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، ويتنزه مع أولاده، هذا كله مسموح، لكن التفكر بالموت يمنعك أن تعصي الله، التفكر بالموت يسرع بك الخطا إلى الله، هذه فائدته.

((أكثروا ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب، مشتت الجماعات ـ))

[رواه الديلمي عن أنس]

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

أصل حدث الوفاة أمر من الله يبلغ لملك الموت:

أيها الأخوة،

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ)

الوفاة تنسب إلى الله أحياناً، كما في قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)

(سورة الأنعام الآية: 60)

وتنسب إلى ملك الموت.

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

(سورة السجدة الآية: 11)

وتنسب إلى رسل الله عز وجل:

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

(سورة الأنعام)

شرح هذه الآيات أن أصل حدث الوفاة أمر من الله، يبلغ لملك الموت، وملك الموت قد يبلغ أحد جنوده بقبض روحه، إما أن تكون الوفاة معزوة إلى الله، وإما أن تعزى إلى ملك الموت، وإما أن تعزى إلى رسل من جنود ملك الموت.

أنواع العذاب:

أيها الأخوة، الحقيقة الثانية أنه في ساعة الاحتضار هناك عذاب، والدليل هذه الآية، هناك عذاب في القبر، وهناك عذاب الاحتضار، وهناك عذاب يوم القيامة، فالبطولة لا أن تملك الدنيا وأن تتألق في الدنيا، ثم تتحمل عذاب الاحتضار، وعذاب القبر، وعذاب يوم القيامة إلى أبد الآبدين.

أخواننا الكرام، أحياناً العذاب الأليم أخف من الضرب أمام ملأ، قال تعالى:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

أحياناً هناك عذاب أليم، وهناك عذاب عظيم، وهناك عذاب مهين، هؤلاء الكفار يضربون بضرب مهين،

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

الضرب له معنى، والضرب إيلام مع الإهانة، وهناك (عَذَابَ الْحَرِيقِ) عذاب مؤلم جداً، و عذاب عظيم:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

للكفار.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة الأنفال)

أي أنت أحياناً تجد دولاً تجتاح دولاً، تهدم بيوتاً، وتلقي قنابل نووية على بعض البلاد، عقب الحرب العالمية الثانية ثلاثمئة ألف إنسان ماتوا في ثوان معدودة، هؤلاء الذين أمروا بالقصف، وإلقاء القنابل، والتعذيب، وإذلال الناس، يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سيعذبهم عذاباً أليماً:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ورود النار غير دخولها فدخول النار تعذيب شديد لكن ورودها لا علاقة له بالعذاب إطلاقاً:

لذلك في بعض الآيات يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية: 71)

قال علماء التفسير: " ورود النار غير دخولها، دخول النار تعذيب شديد، لكن ورود النار لا علاقة له بالعذاب إطلاقاً، الذين يردون النار لا يتأثرون ولا بوهجها ".

أحياناً يأتي مسؤول كبير، يحب أن يعمل زيارة للسجون، فيذهب إلى السجن، وتفتح له الأبواب، يجلس في غرفة المدير العام، يأتي الشراب البارد، يُصور، يُكرم، يُبجل، إذا إنسان له مرتبة مرموقة دخل السجن كضيف كبير يزور السجن يعد سجيناً ؟ لا.

الله عز وجل كما قلت قبل قليل: أسماؤه الحسنى كلها محققة في الدنيا، لكن اسم العدل محققة جزئياً، فمن أجل أن يرى كل إنسان مصير الطغاة قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ليرى المؤمن مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، ليرى المؤمن هؤلاء الطغاة الذين ملؤوا الأرض قتلاً وإذلالاً ما مصيرهم، ليتحقق اسم الله العدل.

فهذه الآية دقيقة جداً في قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

أي كل بني البشر سيطلون على النار الذين لم يستحقونها، الذين استحقوا الجنة سيطلون على النار ليروا مكانهم في النار لو لم يكونوا مؤمنين، وليروا مصير العصاة في النار أي ليتحقق اسم الله العدل.

الابتعاد عن الظلم الذي يودي بالإنسان إلى النار:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)

اتخذتم قرار إبادة، اتخذتم قرار إعلان حرب على شعب آمن بدعوى أسلحة الدمار الشامل، ليس هناك أسلحة دمار شامل ولا هم يحزنون، لكن هناك بترول، هؤلاء الذين أعلنوا الحرب على بلاد ضعيفة آمنة، قتلوا أهلها، شردوا خمسة ملايين، وأعاقوا مليوناً، وقتلوا مليوناً، هؤلاء الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الشعوب، يبنون حريتهم على إذلال الشعوب، يبنون غناهم على إفقار الشعوب، هؤلاء طغاة الأرض.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

أيها الأخوة،

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)

هذه قرارات اتخذتموها في الدنيا، دقق في هذه الآية:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

حدثني صديق، قال لي: توفي والدي وكنت مكانه في تجارة الصوف، وأنا جاهل، سافر إلى مكان شراء الصوف، خطر في باله أنه إذا أعطى صاحب الصوف أوزاناً أقل من الحقيقة يكون ذكياً، فكل وزنة يطرح منها خمسة كيلو، ثمانية كيلو، لم ينتبه صاحب الصوف لكن عنده حدس عام أن هذه الكمية ثمنها ثلاثون ألفاً، فوجد ثمنها يقدر بعشرين ألفاً، هو بدوي قال له: إن شاء الله تلقاها بصحتك، قال لي: ركبت بهذه السيارة، وأنا طبعاً لا أعرف الله، قمت عشرة آلاف من ثمنها، أنا بصراع، أرجع وأعطيه الفرق ؟ مشكلة، قال لي: بقيت في صراع من مكان الصوف إلى مشارف دوما، قال لي: أخذت قراراً ماذا حصل ؟ قال لي: ما كملت هذا القرار بذهني، وجدت نفسي وسط بركة من الدماء السيارة قلبت والصوف تناثر، وعبوات السمن فسدت، وأخذوه إلى المستشفى.

سبحان الله ! أنا هذه الآية أراها مناسبة جداً،

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

إياك أن تتخذ قراراً فيه ظلم،

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

الله عز وجل ينفي عن نفسه أن يكون ظلاماً للعبيد:

أخواننا الكرام: الظلام صيغة مبالغة من ظالم، الآن إنسان ثبت خشبة بكرسي لمرة واحدة في حياته نقول له: ناجر، أما النجار من اتخذ النجارة حرفة، إنسان ثبت زراً بقميصه بإبرة نقول له: خائط، أما الخياط من اتخذ الخياطة حرفة، إنسان ذبح دجاجة لمرة واحدة في حياته نقول له: جازر، أما الجزار من اتخذ هذه الحرفة مهنة له، هناك ظالم لمرة واحد بالخطأ، بالصواب، أما الظلّام كثير الظلم، إلا أن صيغ المبالغة تأخذ منحيين، منح الكثرة، ومنح شدة الفعل، إما ظلم لا يحتمل كبير جداً، أو ظلم مليون إنسان، إذا إنسان غدر مشترٍ بخمسة ملايين، هذا ظلام، وإذا إنسان غدر ألف مشترٍ كل واحد بمئة ليرة أيضاً ظلام، الأول ظلام بشدة الظلم، والثاني ظلام بتكرار الظلم.

الله عز وجل قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

مهما يكن الظلم قليلاً لو شمل كل العبيد لكان هذا العمل ظلماً شديداً والذي أوقعه ظلام، الله عز وجل ينفي عن نفسه أن يكون ظلاماً للعبيد.

لذلك حينما نثبت صيغة المبالغة نثبت الصيغة غير المبالغة بها، إذا إنسان أكال، أكل كمية كبيرة جداً، هو أيضاً آكل، إن أثبتنا صيغة المبالغة نثبت صيغة غير المبالغة، أما إذا نفينا صيغة المبالغة لا ننفي صيغة غير المبالغة، معنى ذلك الله سبحانه وتعالى لما قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ولو كان الظلم طفيفاً، إذا شمل كل العباد يعد هذا ظلماً كبيراً، فالله عز وجل نفى عن ذاته العلية أن يكون ظالماً وظلاماً في الوقت نفسه، بل إن نفي الظلم عن الله جاء بآيات، ونفي الظلام جاء بآيات، لكن نفي صيغة المبالغة تغطي الصيغة الغير مبالغة.

كل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

ولكن أيها الأخوة، يجب أن نعلم علم اليقين أنك أنت كائن محدود لا تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، هذا غير معقول، لذلك الله عز وجل أخبرنا بالقرآن الكريم أنه لا يكذب.

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية: 17)

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة الأنفال)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 70)

آيات تصل إلى المئات تنفي عن الذات الإلهية أن يكون ظالماً، أو ظلاماً، فيثبت عدل الله بإخبار الله عن ذاته العلية، أما ما يجري في الأرض يحتاج إلى أن تقرأ سورة الكهف لماذا خُرقت السفينة ؟ ولماذا قُتل الغلام ؟ ولماذا أنشأنا جداراً بلا مقابل ؟ الأشياء التي لا يستوعبها عقلك قسها على ما في سورة الكهف، سفينة، وراء هذه السفينة ملك، يغتصب كل سفينة عدواناً.

(يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)

(سورة الكهف)

أردت أن أعيبها لئلا تصادر، إذاً هذا في حق صاحب السفينة خير، أما في ظاهره شر، فكل قصة اضطربت في فهمها قسها على سورة الكهف، تجد أن الله سبحانه وتعالى أفعاله كلها حكيمة، وكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، هذه حقيقة دقيقة جداً.

وهناك حقيقة أخرى: لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (19-30): تفسير الآية 52 ، الدأب هو العادة والاستمرارية على الشيء- والكفر هو تغطية الحقيقة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-11-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يخفف عن رسوله تكذيب قريش له:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والخمسين وهي قوله تعالى:

(كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

أيها الأخوة، كلمة،

(كَدَأْبِ)

أي كعادة، الدأب هو العادة، هو الاستمرار على شيء، كأن الله يخفف عن رسوله تكذيب قريش له.
يقول له: يا محمد هذا الذي أنت فيه هكذا عادة الكفار، فرعون وقف من سيدنا موسى هذا الموقف، فالذي حصل معك حصل مع من قبلك من الرسل، (كَدَأْبِ) كعادة

(آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

طبعاً الذين من قبلهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح ، وقوم لوط أيضاً كذبوا رسلهم وأنبياءهم، لذلك الله عز وجل عاقبهم، فأهلكهم، واستأصلهم، أو عذبهم، أو أغرقهم، أو خسف بهم الأرض، قانون، قوم يكذبون النبي ويستخفون بآيات الله، ولأنهم كذبوا، ولأنهم اعتدوا، عاقبهم و أهلكهم.

حينما تؤمن بالدنيا وتكفر بالآخرة لابدّ من أن تأخذ ما ليس لك وتعتدي على أموال الناس وأعراضهم:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

لو أن الإنسان كذب، ولم يفعل سوءاً، قد يقول قائل ماذا فعل ؟ لا، أنت حينما تكذب بالحق لابدّ من أن تفعل سوءاً، حينما تؤمن بالدنيا وتكفر بالآخرة لا بد من أن تأخذ ما ليس لك، لا بد من أن تعتدي على أموال الناس، على أعراضهم، لا بد من أن تتنافس تنافساً غير بريء.
للتوضيح: لو أن التصور لا علاقة له بالسلوك تصور ما شئت، لو أن الاعتقاد لا علاقة له بالسلوك اعتقد ما شئت.

أوضح مثل: شفاعة النبي الكريم لأهل الكبائر من أمته، لو سمع هذا الحديث إنساناً وهو يبيع المواد الغذائية، وبإمكانه أن يغشها دون أن يُكشف أمره، يرى أن هذا الحديث:

((شفاعتي لأهل الكبائر مِنّ أمَّتي))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

يغطي سلوكه العدواني، لأنه اعتقد أن النبي سيشفع لمن يفعل الكبائر من أمته، يرى له مبرراً أن يعتدي على الآخرين.

أي اعتقاد تعتقد به أو تقتنع به لا بدّ من أن يجسد إلى سلوك:

الفكرة الدقيقة أن العلاقة بين التصور وبين السلوك معدومة، نقول لك: اعتقد ما شئت لكن لا بدّ من أن ينعكس التصور إلى سلوك.

مثل آخر: لو أن طالباً قال لزميله: الأستاذ في آخر العام نقدم له هدية ثمينة فيعطينا الأسئلة، ودعك من الدراسة، هذه الفكرة مريحة، انتهى من الدراسة، والوظائف، والمذاكرات، وأمضى العام الدراسي ببحبوحة، وبسهر مع الأصدقاء، وبارتياد دور السينما، ونوم إلى الظهر، في آخر العام طرق باب الأستاذ وعرض عليه هدية ثمينة ليعطيه الأسئلة، فتلقى صفعة منه، وطرده.

فأي اعتقاد، أي تصور، أي قناعة تعتقد بها، أو تقتنع بها لا بد من أن تجسد إلى سلوك.

أي اعتقاد باطل لكنه مريح يقبله الإنسان من دون دليل:

الآن ما النظرية السائدة في العالم ؟ نظرية دارون، نظرية دارون تتناقض مع الدين تناقضاً كلياً، في القرآن الكريم آدم وحواء، بدأ الله البشرية بنبي كريم، وفي نظرية دارون الإنسان انحدر من قرد، والقرد من، ومن، ومن، الحياة بدأت بخلية واحدة، وتطورت إلى أن أصبحت إنساناً سوياً، هذه النظرية تلغي وجود الخالق، تلغي وجود إله سيحاسب، تلغي وجود إله سيعاقب، تلغي الإيمان بالدار الآخرة، هناك نظرية مريحة جداً، هذه الدول التي تقصف دول أخرى، تحل بلاداً، تقتل الآلاف، تقتل الملايين، هذه الدول القوية التي تستبيح لنفسها أن تنهب ثروات الآخرين، أن تهدم البيوت، أن تقتل الشباب، ما الذي يغطيها عقائدياً ؟ نظرية دارون .

ماذا يقول دارون في نظريته ؟ إن الفأرة تُخلق من الخرق البالية، وإن الضفدع يُخلق من الوحل، وإن الدود ينشأ من تفسخ اللحم، ويقول دارون: وإن العلم إن لم يثبت نظريتي فهي باطلة، هو الإنسان الوحيد الذي تنبأ بسقوط نظريته إن لم يثبت العلم ما ذهب إليه، لكن عندما كشفوا في الأحافير وجدوا كائنات،

وحشرات، وأسماك، وأطيار، موجود شكلها الكامل ضمن الأحافير، حينما يأتي رماد بركاني، ويغطي مدينة بأكملها، بعد مئات من ملايين السنين الكائن العضوي يتلاشى، يبقى آثاره كأحافير، المفاجأة التي نقضت هذه النظرية أن كل الأحافير التي عُثر عليها قبل خمسمئة مليون عام تشبه المخلوقات التي رأينا شكلها في الأحافير، تشبه الكائنات التي تعيش اليوم، إذاً لا يوجد مخلوق مرحلي، إذاً النظرية باطلة.

فالإنسان أحياناً يعتقد بشيء باطل لكنه مريح، فأي اعتقاد باطل لكنه مريح يقبله الإنسان من دون دليل.

أنا أضرب مثلاً ذكرته كثيراً: أن إنساناً أراد أن يشتري سيارة، لكنه لم يشترِ وإنساناً آخر أراد أن يشتري سيارة لكنه اشترى، سرت إشاعة في البلد أن هناك تخفيض رسوم، بمقدار خمسون بالمئة، الذي ما اشترى يصدق هذه الإشاعة من دون دليل، لأن هذه الإشاعة مريحة له كثيراً، والذي اشترى يكذبها من دون دليل.

الله عز وجل يعاقب لا لمجرد التكذيب:

أنا أُحذر الأخوة الكرام أن تتسرب إليهم تصورات، أو أفكار، أو معلومات، أو عقائد باطلة لكنها مريحة.

المفهوم الساذج للشفاعة، النبي الكريم يوم القيامة يسجد، يقول الله له: ارفع رأسك، فيجيبه: لا أرفع حتى أشفع، قال له: ارفع وتشفع، فالعملية سهلة.

الآن أنت بالتعليم هناك وظيفة من لم يكتبها لا يعامل كالذي كتبها، لأنه في اليوم التالي لا أحد يكتب، والذي كتب أحمقاً، بذل جهداً، وسهر للساعة الثانية عشرة على المسائل وحلها، وثاني يوم الذي ما كتب مثل الذي كتب.

فالموضوع دقيق، الله عز وجل يعاقب لا لمجرد التكذيب، لأن التكذيب من لوازمه الانحراف، الدليل القوي:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

أي تصور يقتضي سلوكاً، فإذا كان التصور صحيحاً فالسلوك صحيحاً، وإن كان التصور خطأ فالسلوك خطأ.

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد:

لذلك الله عز وجل أهلك قوم فرعون، أهلك من قبلهم قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، بعضهم أهلكوا هلاك استئصال كلي، وبعضهم عُذبوا، وبعضهم أغرقوا ، وبعضهم خُسف بهم، لأنهم كفروا، لماذا كفروا ؟ قال: كفروا بآيات الله الكونية، هذا الكون ، وكفروا بآيات الله التكوينية، بأفعاله، وكفروا بآيات الله الإعجازية، وكفروا بآيات الله القرآنية.

فالله عز وجل أهلك فرعون، وأهلك من قبلهم قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، أهلكهم إهلاك استئصال، أو إهلاك غرق، أو إهلاك تعذيب، أو إهلاك خسف.

قال تعالى:

(كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

كفروا بآيات الله، الآيات العلامات، الله عز وجل له آيات كونية هذا الكون بشمسه، بقمره، بنجومه، بكواكبه، بمذنباته، بمجراته، بأرضه، بجباله، بسهوله، بوديانه، بأسماكه، بأطياره، بنباتاته، بطعامه، بشرابه، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

(كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ)

أي آياته الكونية، وعندما وضع سيدنا إبراهيم في النار و لم تحرقه، هذه آية إعجازية لأن الآية الكونية لها قوانين، أما هذه الآية فيها خرق للقوانين، هذه آية إعجازية.

صنعوا باخرة، أعظم باخرة في عام 1912، باخرة تيتانيك، وجاء في نشرتها: إن القدر لا يستطيع إغراقها، وفي أول رحلة لها من أوربا إلى موسكو، فيها حلي بالمليارات، هذه الباخرة عملاقة، لها جدران، وقواطع أرضية، فأي مكان خُرق تغلق الفتحات، فالباخرة في سلام، وشاءت حكمة الله أن تغرق في أول رحلة لها، هي كانت مدينة، مدينة عارمة، فقال بعض القساوسة: إن غرق هذه الباخرة درس من السماء إلى الأرض.

من كفر بآيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية و الإعجازية فمصيره الهلاك:

لذلك الله له آيات كونية، وله آيات إعجازية، العصا تصبح ثعباناً مبيناً.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

ضرب الأرض بعصا فأصبحت طريقاً يبساً، ناقة خرجت من الجبل، إذاً هناك آيات كونية خلقه، وفق القوانين والأنظمة الآيات الإعجازية خرق لهذه القوانين:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)

(سورة الإسراء)

هناك آيات تكوينية أفعال الله عز وجل، وهناك آيات كونية كلامه، الله عز وجل قال:

(كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

كفروا بآيات الله كلها، كفروا بآياته التكوينية، والكونية، والإعجازية، والقرآنية، كأن الله عز وجل يقول: يا محمد هؤلاء الذين يكذبونك الآن شأنهم كشأن فرعون حينما كذب موسى، لكن مصير هؤلاء الهلاك كمصير الأمم التي كذبت رسلها، هذا الموقف مشابه لموقف فرعون من سيدنا موسى، والذين يكذبونك الآن أين هم ؟ الآن أين هو أبو جهل ؟ من منكم ذهب إلى مكة فوجد مقاماً لأبي جهل ؟ أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ أين هؤلاء أعداء الله عز وجل ؟ هم الآن في مزبلة التاريخ، الشباب الفقراء الضعاف الذين آمنوا به أين هم الآن ؟ كان الصحابة يقولون: إذا ذُكر الصديق نقول: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً، القرشيون الأصلاء من أرومة أصيلة هؤلاء يقولون عن سيدنا بلال: سيدنا، الصديق سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً.

فالله عز وجل رفع هؤلاء الذين آمنوا برسول الله، وكانوا فقراء، وضعاف ومرضى، الله عز وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

آثار فرعون تفوق حدّ الخيال لحكمة بالغة:

أيها الأخوة:

(كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ)

كلها، الكونية، والتكوينية، والإعجازية ، والقرآنية، ومصير هؤلاء كمصير الأقوام السابقة، إغراق، أغرقناهم، فجاءتهم صواعق فأغرقتهم، خسف الله بهم الأرض، لكن لحكمة بَالغةٍ بالغةٍ بالغة أبقى الله آثار فرعون، يأتي الناس من كل أطراف الدنيا الآن لرؤية هذه الآثار، آثار فرعون تفوق حدّ الخيال، حجر يزن خمسين طناً، ليس هناك روافع هيدروليك، ولا حاملات، ولا شاحنات ضخمة جداً، ولا بواخر عملاقة، ولا رافعات عملاقة، كيف جيء بهذه الأحجار من أسوان ؟ كيف انتقلت عبر نهر النيل؟ وكيف نقلت إلى موقع الأهرام ؟ وكيف صنفت ؟ وكيف صفت ؟ الفراعنة وصلوا إلى شيء شبه مستحيل الآن، فرغوا الهواء بين حجرين، فلما فرغوا الهواء بين حجرين أصبح الحجران كحجر واحد،

لو أمكن أن تضع لوحين من البلور فوق بعضهما دون أن تبقي ولا ذرة هواء يصبح اللوحان لوحاً واحداً، هذا فعله الفراعنة.

الأهرام فيها نافذة لا تسمح هذه النافذة بدخول الشمس إلى داخل الهرم إلا في يوم واحد من السنة هو يوم وفاة هذا الفرعون، بأي زاوية هناك دراسة هندسية مذهلة، أن الشمس لا يمكن لأشعتها أن تدخل إلى داخل الهرم إلا في يوم واحد هو يوم وفاة هذا الفرعون، هذا فوق طاقة البشر.

كنت في باريس وجدت مسلة مأخوذة من مصر، كنت في ألمانيا وجدت آثاراً مذهلة مأخوذة من مصر، فهناك مسلات، وهناك أهرامات، حتى هذه اللحظة كيف فرعون مصر كما هو الآن، أنا عرضت صورته ببعض الفضائيات كما هو، بلحمه، بشحمه، بعظمه، بملامح وجهه، ما هذا التحنيط ؟!.

رأيت خبزاً في الأهرامات، أنا زرت الأهرامات المصنوعة من ستة آلاف عام، وجدت قطعاً من اللحم من ستة آلاف عام، وجدت فرعون كل أصابعه ملبسة بالذهب، كل أصابعه ذهب مخيف، وجدت عربة بالأهرام حتى هم يعتقدون أن هناك حياة أخرى، لذلك يحتاجون إلى عربات، ويحتاجون إلى طعام، وإلى شراب، حتى القمح الذي أستخرج من أهرامات مصر ومضى عليه ستة آلاف عام زُرع فأنبت، معقول رشيم يعيش ستة آلاف عام ؟! الألوان التي طليت بها المعابد لم تتغير حتى الآن.

الله عز وجل ما أهلك قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة:

أيها الأخوة، الله عز وجل لحكمة بالغةٍ أبقى هذه الأهرامات، المسلات، التحنيط، النوافذ التي تدخل الشمس في يوم واحد فقط هو يوم وفاة فرعون، الذهب، تحنيط الخبز، تحنيط الأشخاص، تحنيط القمح، هذا كله في الأهرامات، لذلك الله عز وجل ما أهلك قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة.

في بعلبك ستة أحجار، وزن الحجر مئتا طن، عندما وقعت بعض الأحجار عملت شبه زلزلة ببعلبك، هذا الحجر كيف نُقل، كيف نُحت، كيف نُصب، ما أهلك قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة.

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

(سورة ص)

(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

الأهرامات، وقال عن ثمود:

(الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر)

هذه في السعودية الآن، هل تصدقون مدينة بأكملها منحوتة في الجبال ؟ والأنباط كذلك في الأردن، مدينة بأكملها منحوتة في الجبال، غرف استقبال، ونوم، وجلوس، بالبتراء صالة بحجم هذا المسجد على مرتين فيما أعتقد، محفورة من الجبل، والخطوط مستقيمة ، والصخر منحوت نحتاً كاملاً، أي أربعة جدران وسقف وأرضية كأنها بلاط، هي فراغ من الجبل نُحت، مع الزخارف والأقواس والتيجان.

الله عز وجل لحكمة بالغةٍ أبقى آثار الفراعنة ليكونوا درساً لكل الأمم القادمة:

لذلك الله عز وجل لحكمة بالغةٍ بالغة أبقى آثار الفراعنة ليكونوا درساً لكل الأمم القادمة، والآن هناك تقدم مذهل، ومع ذلك ومع هذا التقدم المذهل هناك تخلف أخلاقي مذهل، فكل هذه الحضارات ما استطاع أصحابها أن يبقوا عليها، لأنهم خالفوا منهج الله عز وجل.

كنت مرة في اسطنبول زرت مرة مسجداً، الأخ الذي معي قال: تفضل إلى المحراب، ما فهمت ماذا يريد، وصلت إلى المحراب وجدت عمودين، قال لي: بإمكانك أن تدير العمود فأنا أمسكته ودرته فدار معي، هذا له قاعدة وله تاج، هناك فراغ ميلي واحد، الجامع مضى على بنائه سبعمئة عام، ميلي واحد دليل أن الحسابات دقيقة جداً، العمود يدور بيديك، أي أن الله عز وجل أعطى الأمم السابقة قوى جبارة، اليوم تجد بناء ضخماً من الأسمنت، لا يوجد حجار إسمنت، يُجبل الإسمنت ويصب فيتجمد، لكن في القديم ليس هناك مواد بين الأحجار، ليس هناك رافعات، ولا شاحنات، ولا أشياء عملاقة، أمور كلها بسيطة ومع ذلك بلغوا ما بلغوا.

تفوق عاد الأولى في شتى المجالات:

أيها الأخوة، لكن الله عز وجل أبقى نموذجاً لأمة طاغية قوم عاد، قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

أي تفوقت في شتى المجالات.

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر)

حفروا مدينة بالجبل.

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

أي هناك قصف وهناك إفساد، أي هناك بنتاغون يقصف، وهوليود تقصف، واضح تماماً ؟

(الَّذِينَ طَغَوْا)

لا في بلدهم ولكن

(فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

وقال: إنه أهلك عاد الأولى، معنى هذا أن هناك عاداً ثانية، نعيش اليوم أخبارها.

الله عز وجل جعل قوم عاد نموذجاً للأمم الطاغية:

الله عز وجل وصفهم بالتفوق العمراني:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عمراني، تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عسكري.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

تفوق علمي، ومع التفوق العمراني، والصناعي، والعسكري، والعلمي، هناك غطرسة، استعلاء، كبر، احتقار للآخرين، وكانوا مستكبرين، أي تغطرسوا، وقالوا:

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية: 15)

فلذلك الله عز وجل جعل قوم عاد نموذجاً للأمم الطاغية، فهؤلاء القوم

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

ما العذاب الذي أهلكهم الله به ؟

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

بالأعاصير:

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة الله عز وجل وغير المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة خالق البشر:

أخواننا الكرم، معنى كفر أي غطى، والكفر في بعض اللغات السامية هو الغطاء، ومعنى كفر أي غطى حقيقة، أغفل حقيقة، حجب حقيقة، فكلمة كفر تعني أن هناك شيئاً عظيماً غُطي، هناك شيء عظيم حُجب عن النظر.

فلذلك في قوله تعالى:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي هذه الآيات الدالة على عظمة الله حُجبت عن الأنظار، اجلس مع إنسان يحدثك ساعة عن السيارات، وموديلاتها، وأسعارها، وألوانها، وخصائصها، يحدثك عن الموبايلات، عن الهواتف، عن الشبكة العنكبوتية، يحدثك ساعات طويلة عن شيء صنعه البشر، وقلما يحدثك عن شيء صنعه خالق البشر، مع أن الآيات الدالة على عظمة الله تفوق حدّ الخيال.

أقول لكم هذه الكلمة: المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة الله عز وجل، وغير المؤمن ممتلئ تعظيماً لصنعة خالق البشر، من علامة إيمانه أنه يحدثنا ساعات طويلة عن آيات الله الدالة على عظمته، ومن علامة استغراق الإنسان في الدنيا أن يحدثك ساعات طويلة عن دقائق صنع الإنسان.

فلذلك

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

لا تصدق ما يقال أحياناً من أناس لم يتحققوا مما يقولون، أن الله كتب الكفر على الإنسان قبل أن يولد، فلما جاء الإنسان للدنيا حقق مراد الله فكفر، فأودعه الله في جهنم لأبد الآبدين، تقول الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

رجل شارب خمر جيء به لسيدنا عمر، قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، فقال سيدنا عمر: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا! إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أي إذا ألغيت الاختيار ألغيت الوعد والوعيد، ألغيت الثواب والعقاب، ألغيت الجنة والنار، ألغيت المسؤولية، ألغيت حمل الأمانة، ألغيت التكليف، ألغيت الدين كله.

أنت تصور مدير مدرسة في أول يوم من أيام العام الدراسي، في أول يوم جمع الطلاب في الباحة ومسك قائمتين، وقال: هؤلاء الناجحون في آخر هذا العام، وهؤلاء الراسبون، الطالب لم يداوم، ولم

يعرف اجتهاده من ضعفه، هؤلاء كتبتُ عليهم أن ينجحوا، وهؤلاء كتبتُ عليهم أن يرسبوا، هل تقبلها من مدير المدرسة ؟.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إياكَ إياك أن تبتل بالماء

***

الإنسان مخير و ليس مجبراً:

الله عز وجل قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

أنت مخير ولست مجبراً.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية: 148)

أما الآية الأصل في ذلك:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

أي تكذبون، لذلك لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عبادة تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يطع مكرهاً.

الإنسان مهما تطاول هو في قبضة الله عز وجل:

(كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ)

كلها، والكفر هو الغطاء، وكفر أي غطى، كلمة كفر تعني أن هناك شيئاً قد غُطي، أنت ممكن أن تدخل لغرفة لا يوجد فيها شيء إطلاقاً، بلاط وأربعة جدران، تضع غطاء حتى تستر شيئاً، لا يوجد شيء تستره أساساً، عندما قلنا كفروا أي غطينا حقيقة، غطينا وجود،

(كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المتانة مقاومة قوى الشد، والقساوة مقاومة قوى الضغط، أمتن عنصر في الأرض الفولاذ المضفور، وأقسى عنصر الألماس، فلذلك الألماس يقاوم قوى الضغط، أما الفولاذ المضفور يقاوم قوى الشد، فالمصاعد تتحرك بالفولاذ المضفور والتل فريك كذلك، بينما الحفر يحتاج إلى رأس ألماسي أو قريب من الألماس، الله عز وجل قال:

(إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي الكافر مربوط بحبل مهما تحرك، مهما تنطع، مهما تطاول، هو في قبضة الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورةالأنفال 008 - الدرس (20-30): تفسير الآيتان 53 - 54 ، لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وبالشكر تزداد النعم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-11-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة كلفه الله أن يعبده وقد أعطاه مقومات التكليف:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثالثة والخمسين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة، المخلوق المكرم، لأنه قبل حمل الأمانة، فحينما عرض الله:

(الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 72)

فالإنسان هو المخلوق الأول لأنه قبل حمل الأمانة، ولما قبل حمل الأمانة سخر الله له:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية: 13)

والمسخر له أكرم من المسخر، لذلك حينما قبل حمل الأمانة كلفه الله أن يعبده، وقد أعطاه مقومات التكليف، أعطاه كوناً هو في الحقيقة مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أعطاه عقلاً وفق مبادئه الثلاثة، مبدأ السببية، مبدأ الغائية، مبدأ عدم التناقض، أعطاه فطرة سليمة يكشف بها خطأه، أعطاه شهوة كمحرك يدفعه إلى الله، لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، أعطاه حرية يثمن بها عمله، أعطاه شرعاً هو مرجع قطعي للعقل وللفطرة معاً، ثم أعطاه وقتاً هو غلاف عمله، وفي النهاية ما أقره الشرع فهو حسن، وما رفضه فهو قبيح.

نعم الله عز وجل على الإنسان:

لذلك الإنسان أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد أوجده:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

أنعم الله عليه بنعمة الإمداد، أمدّه بكل حاجاته، أمدّه بالهواء، بالماء، بالطعام ، بالشراب، أمدّه بزوجة، وأمدّها بزوج، أمدّه بأولاد، كل شيء تراه عينك من نعم الله عز وجل، أعطاه نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

من آمن بالله و شكره حقق الهدف من وجوده:

شيء آخر: هذا الإنسان عندما أعطاه الله هذه النعم عليه أن يؤمن وأن يشكر، لأن الكون مسخر له تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، ردّ فعل التعريف أن تؤمن، وردّ فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات الإلهية، الدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: 147)

لأن الكون مسخرٌ تسخير تعريف، ومن خلال التعريف آمنت، ولأن الكون مسخر تسخير تكريم، ومن خلال التكريم قد شكرت، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك لذلك إن فعلت هذين الشيئين الإيمان والشكر تتوقف المعالجة الإلهية.

لو أن إنساناً فحصه الطبيب فوجد إحدى كليته توقفت عن العمل كلياً، يقول له: لا بدّ من إجراء عمل جراحي لاستئصال هذه الكلية، موعد العمل الجراحي، هذه الكلية صُورت مرة ثانية، فإذا بها تعمل، هل تستأصل ؟.

إذا أنت آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات الإلهية،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

في اللحظة التي يؤمن بها الإنسان و يشكر الله على كل شيء تتوقف كل المعالجات:

الآن الله منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد، أرسل رسلاً، بعث أنبياء، أنزل كتباً، أنزل أمطاراً، أنبتت نباتاً، أنت بالطعام والشراب تغذي جسمك، وبهذا الحق الذي نزل على نبيك صلى الله عليه وسلم تغذي روحك، الذي ينبغي أن يكون أن تعرفه، وأن تعبده، وأن تشكره، الله عز وجل قدم لك كل شيء، منحك الوجود، أمدك بما تحتاج، هداك إليه، أوجد، أمد، هدى، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، بقي عليك أن تؤمن لأن كل هذا الكون يدل على الله، بقي عليك أن تشكر لأن كل ما في الكون نعم خُلقت لك.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة البقرة الآية: 29)

فاعلم علم اليقين أنه في اللحظة التي تؤمن الإيمان الذي أراده الله، أي الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، وفي اللحظة التي تشكر عن طريق خدمة الخلق، عن طريق مساعدة الخلق، حققت الهدف من وجودك، وعندئذٍ تتوقف كل المعالجات،

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

هذا هو الوضع الطبيعي.

من عاش لذاته و بنى مجده على أنقاض الناس عوقب عقاباً شديداً:

عندنا حالة مرضية، إنسان الله عز وجل أنعم عليه بنعمة الإيجاد، أنعم عليه بنعمة الإمداد، أنعم عليه بنعمة الهدى والرشاد، فلم يستجب، ولم يعبأ، ولم يستقم، ولم يتحرَ الحلال، بنى مجده على أنقاض الآخرين، بنى ماله على إفقارهم، بنى عزه على إذلالهم، بنى أمنه على إخافتهم، عاش لذاته، عاش الناس له ولم يعش للناس، هذا الإنسان لو استمرت نعم الله عليه كما كانت لا معنى للدين أصلاً.

وظيفة كُلف بها الطلاب، فالذي سهر طوال الليل لحل المسائل، وبذل جهداً كبيراً ، وفي اليوم التالي يرى هذا الطالب المجد أن الذي ما كتب الوظيفة لم يعاقب، ولم يساءل، معنى ذلك أن أوامر المعلم لا قيمة لها إطلاقاً، والدليل، الآن أي معلم يعطي وظيفة و في اليوم الثاني لا يحاسب المقصر، في اليوم الثالث لا أحد يكتب الوظيفة.

فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليك بنعم لا تعد ولا تحصى، أي يمكن أن أقول لك: خذ هذه الليرة السورية فعدها ؟ لا تعد الليرة، الله قال:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم الآية: 34)

معنى ذلك بركات النعمة الواحدة لا يمكن أن تحصى، أنت محاط بالنعم، جسمك، خلق لك عينين، لو كانت عيناً واحدة ترى الطول والعرض، ولا ترى البعد، خلق لك أذنين، لو كانت أذناً واحدة لا تعرف جهة الصوت، أعطاك هذا الشعر، ثلاثمئة ألف شعرة، بكل شعرة وريد، شريان، عصب، عضلة، غدة دهنية،غدة صبغية، لو أعطاك عصباً حسياً بالشعر لاحتجت كل أسبوعين إلى عمل جراحي في المستشفى، تحتاج إلى تخدير كامل وحلق شعرك، لم بضع في الشعر أعصاب حس، لو دققت في جسمك لرأيت العجب العجاب، أنت غارق في النعم، هناك نعم بجسمك، خلق لك مأوى، زوجة، أولاد، طعام، شراب، فواكه، خضراوات، أسماك، أطيار، لو حدثتكم سنوات وسنوات لا تنقضي نعمة الله.

الله عز وجل لن يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:

ذلك المؤمن عندما يقدر هذه النعمة، يعرف هذه النعمة، يشكر هذه النعمة، هذه النعمة تدوم، فإذا كفر بالمنعم، ولم يعبأ بالنعمة، ومارس شهواته من خلال هذه النعم، لا بد من أن تتغير الأمور.

الآية:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أي شيء يصيبك أنت السبب، أقوى دليل حديث قدسي في الصحاح، يقول:

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا، يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاستَهْدُوني أهْدِكم، يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ فاستطعِموني أُطْعِمْكم، يا عبادي، كُلُّكم عار إلا مَنْ كَسوتُه، فاستكْسُوني أكْسُكُمْ، يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تبلغُوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحدِ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، [كانوا] على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

الله عز وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد ، موقفك من هذه النعم لم تعبأ بها، لم تشكرها، بل استخدمتها في معصية الله، توقع يقيناً أن الله سيؤدبك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

كبر، استعلاء، عنجهية، يرى أن الناس خلقوا له.

من ظلم الناس غيّر الله النعم التي أعطاه إياها إلى نقم:

ذلك:

((الكبرْ: بطرُ الحقِّ، وغمطُ الناس))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أن ترفض الحق، وأن تظلم الناس، لمجرد أن تظلم الله عز وجل يغير هذه النعم إلى نقم، الرياح نعمة، والعواصف نقمة، الأمطار نعمة، والفيضانات نقمة، كل شيء تراه عينك يمكن أن يكون نعمة، ويمكن أن ينقلب إلى نقمة، الزواج نعمة، وهناك زواج نقمة، أن تنجب أولاداً نعمة، وهناك أولاد نقمة، أن تكون غنياً نعمة، وهناك غنى نقمة، أي شيء بقدرة قادر يمكن أن يكون نعمة، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون نقمة، فأنت مغمور بنعم الله، محاط بنعم الله، هذه النعم ينبغي أن تعرفها نعماً من الله، هذا نوع من الشكر، وينبغي أن يمتلئ القلب امتناناً لهذه النعم.

يروى أن ملكاً سأل وزيره، وكان ملكاً جبراً، قال له: من الملك ؟ قال له: أنت لا يوجد غيرك ؟ قال له: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، وزوجة ترضية ورزق يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه، أو إذلاله.

فالإنسان إذا كان بالنعم مغمور لا تغير لا يغير، أحياناً يحلو لي أن أشرح الآية الكريمة ببساطة ما بعدها بساطة، الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أقول لمن يسألني: هل أنت بخير ؟ إذا قال: نعم، أقول له: لا تغير والله لا يغير ، مطمئن، مستقيم، دخلك حلال، بيتك إسلامي، تغض بصرك، تضبط لسانك، تؤدي زكاة مالك، لا تغير والله لا يغير، اطمئن، اطمئن للمستقبل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

فرق كبير بين ما كتب الله لنا، أو كتب علينا.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

في أي عصر، في أي مصر، في أي مكان، في أي بلد، بأي نظام.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: 97)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

من كان مستقيماً فله معاملة خاصة من الله عز وجل:

أنا أخاطب الشباب الذين هم مقبلون على نشاطات كثيرة، استقم كما أُمرت، مهما كنت، فقير، غني، تحمل شهادة عليا، لا تحمل، تملك رأسمال، لا تملك، لك أب قوي، لك أب غني، أنت يتيم، ما دمت مستقيماً فلك معاملة خاصة، اقرأ هذه الآية، وليطمئن قلبك بها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

مستحيل وألف ألف مستحيل.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والله الذي لا إله إلا هو الشاب المستقيم حينما يقرأ هذه الآيات يمتلئ قلبه ثقة بالله وثقة بالمستقبل، سوف ييسر لك عملاً طيباً، وزوجة صالحة، و أولاداً أبراراً، وسمعة طيبة ، و صحة جيدة.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

أخواننا الكرام، درس مفصلي، أنت بنعم، إذا عرفتها نعماً من الله، المعرفة شكر، وأن يمتلئ قلبك امتناناً من الله أيضاً شكر أعلى، وأن تقابل هذه النعمة بعمل صالح، أعلى وأعلى.

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْراً)

(سورة سبأ الآية: 13)

أنت حينما تستقيم على أمر الله اطمئن للمستقبل.

الآيات التالية توازن بين المستقيم وغير المستقيم:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

اقرأ الآيات التي توازن بين المستقيم وغير المستقيم.

النعمة المشكورة ثابتة:

أيها الأخوة، أنت بنعم، موجود نعمة، نعمة الإيجاد أنت بنعم، تسكن ببيت، يوجد في البيت ماء، يوجد طعام، و شراب، و سرير، و مدفأة بالشتاء، و مروحة بالصيف، تسير على قدمين، تملك كل أهليتك، لك عمل، أعطاك الله قدرة على أن تمتلك خبرة معينة، خبرة علمية، تدريس، وظيفة، طبيب، مهندس، محامي، تاجر، حتى تتقن صنعة معينة من نعم الله الكبرى، هذه النعم نعمة الإيجاد، والإمداد، والهدى والرشاد، هذه النعم إذا عرفتها وشكرتها لن تزول، النعمة المشكورة ثابتة.

لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أنت في خير ؟ تقول نعم، لا تغير الله لا يغير.

سؤال آخر: كيف وضعك ؟ والله في مشكلة كبيرة، مشكلة مالية، مشكلة اجتماعية، مشكلة صحية، مشكلة زوجية، يقول الله عز وجل لك: غّير حتى أغير، لا تغير لا أغير، أغير حتى أغير، صدقوا ولا أبالغ هذا ملخص الملخص، والله يمكن أن يضغط الدين بهذه الكلمات الأربع، لا تغير لا يغير الله، إذا كنت في بحبوحة، وفي سعادة، لا يوجد عندك مشكلة، الآن عندنا مشكلة غيّر حتى يغير،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

اجعل هذه الآية في غرفتك،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أنت لمجرد أن تصطلح مع الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تخطب وده، تجد شيئاً لا يصدق، الأمور ميسرة، تلهم الصواب، تلهم الحكمة، تلهم طلاقة اللسان، تتمتع بشخصية قوية، لا تتضعضع أمام قوي ولا أمام غني، صابر، محتسب، طليق اللسان، تعرف الواحد الديان، لا تغير لا يغير، غير حتى يغير، واضح ؟.

المسلمون لا يريدون أن يغيروا لكنهم ينتظرون بسذاجة أن يغير الله ما بهم و هذا مستحيل:

هذه الآية يجب أن تكون في مكان بارز في غرفتك

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أرادك أن تبدأ أنت الآن، المسلمون عندهم حالة صعبة جداً، ينتظرون أن يغير الله ما بهم، بمعجزة، يأتي زلزال على العدو ويبيده، الحمد لله، لا يأتي زلزال، غيّر حتى يغير، الله عز وجل أعطانا جرعات منعشة، عشرة آلاف مقاتل ـ يغلب على ظني أنهم مؤمنين ولا أزكي على الله أحداً ـ استطاعوا أن يقفوا

أمام أكبر جيش في المنطقة، أليس كذلك ؟ ثمان و ستون مدرعة دُمرت في يوم واحد، عشرة آلاف مقاتل تمكنوا أن يقفوا أمام أكبر جيش أول جيش بالمنطقة، رابع جيش بالعالم، أول جيش بتنوع الأسلحة، لأنهم قالوا: الله.

الله أعطانا جرعة منعشة، كأن يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، لكن غيروا حتى أغير، المسلمون لا يغيرون ولكن ينتظرون حتى يغير الله ما بهم، هذا مستحيل، نعيش كما نريد، اختلاط، إطلاق بصر، متابعة مسلسلات، إهمال في الطاعات، غش في البيع والشراء، كذب واحتيال، الحالة الاجتماعية لا ترضي الله، المسلمون لا يريدون أن يغيروا لكنهم ينتظرون بسذاجة أن يغير الله ما بهم، مستحيل !

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

هذه الآية أخواننا الكرام تنطبق على فرد واحد، وعلى الأمة بأكملها، عظمة هذا القرآن فردي وجماعي، دعك من الناس أنت غيّر، صلِ الفجر في جماعة، اذكر الله كل يوم، صلِ ركعتين من قيام الليل، غض بصرك عن امرأة لا تحل لك، لا تتابع مسلسلات لا ترضي الله عز وجل أبداً، كن صادقاً، كن أميناً، قدم مساعدة لكل من حولك، تفاجأ أن الله غيّر كل معاملته معك، تتمتع براحة نفسية عجيبة، بسعادة مذهلة، بتوفيق، بسداد، الدنيا كلها في خدمتك.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

التغير يبدأ من الداخل فمن اصطلح مع الله يجب أن يرى التغير بعد ساعة:

أخواننا الكرام، غيّر حتى يغير، لا تغير لا يغير، هذا ملخص الملخص، فهذه الآية تنطبق على الأفراد، والجماعات، والدول، والشعوب، والأمم، والبشرية، وعود الله عز وجل زوال الكون على الله أهون من ألا تتحقق، وهناك جرعات منعشة أذاقنا الله إياها كي نثق بالله، كي نخرج من ثقافة اليأس، ثقافة الإحباط، ثقافة الطريق المسدود، هذه الآية لك وحدك، ولأسرتك، ولعشيرتك، ولقومك، ولشعبك، ولأمتك، وللإنسانية جمعاء، غيّر حتى يغير، لا تغير لا يغير، المعنى بسيط جداً، لكن عميق جداً.

لذلك الله عز وجل قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

التغير لا يبدأ من استيراد نظام آخر بعيد عنا، التغير لا يبدأ من الخارج، لا يبدأ من جهات قوية بعيدة، لا يبدأ بدعم خارجي، التغير يبدأ من الداخل، أنت حينما تصطلح مع الله يجب أن ترى التغير بعد ساعة، الله عز وجل في بعض الآثار القدسية قال:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

بإمكانك أن تعقد صلحاً مع الله فوراً لأن المستقبل لا تملكه، والماضي مضى، ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، لا تملك إلا هذه الساعة، تعاني ما تعاني ؟ غيّر حتى يغير، تعاني من ضيق مادي ؟ غيّر حتى يغير.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

(سورة نوح)

تعاني من خلاف زوجي ؟

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر، وإسناده حسن]

استقم، حتى إن أحد العارفين قال: " أنا أعرف مقامي عند الله من أخلاق زوجتي" اعقد مع الله صلحاً تفاجأ أن الزوجة تسلس لك، صار البيت لطيفاً، ليس فيه صوت مرتفع، ليس فيه تكسير، فيه ود، فيه رحمة، غيّر حتى يغير، هذا ملخص الملخص، لا تغير لا يغير، أي أنت في نعم مستحيل أن تبقى وأنت كافر بها، الكفر بالنعم أن تعزوها إلى أهل الأرض، مثلاً ابنك حرارته 41 وأنت في قلق، والتشخيص المبدئي التهاب سحايا، ثم هداك الله إلى طبيب أعطاك دواء، وشفي الابن، يقول لك: هذا الطبيب ممتاز، الله عز وجل سمح لك بالشفاء على يد هذا الطبيب، هذا التوحيد، قل: يا رب لك الحمد.

لذلك المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، يعالج ابنه عند الطبيب وفي أعماق أعماقه: يا رب أنت الشافي، يراجع مركبته مراجعة تامة، وقبل أن يسافر: يا رب أنت الحافظ، وأنت المُسلم.

من استخدم نعم الله وفق منهجه ضمن ثباتها و دوامها

هذه النعم لا تعد ولا تحصى، الصحة نعمة، أن تملك ذاكرة نعمة، أن تملك لساناً ينطق نعمة، أن تملك قلباً ينبض نعمة، كل جهاز نعمة، كل عضو نعمة، والزوجة نعمة ، والأولاد نعمة، والمأوى نعمة، وإتقان عمل نعمة، والوظيفة نعمة، والمال نعمة، فهذه النعم أنت إذا شكرت الله عليها، واستخدمتها وفق منهج الله، أنت بهذا تضمن ثباتها ودوامها، لا تقلق من المستقبل، المستقبل بيد الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

مرة ثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

أخواننا الكرام، هذه النعم إذا انتقلت بها من الإيمان إلى الكفر سوف تُغير، وهذه النعم إذا آمنت بالله وشكرته على هذه النعم سوف تدوم، أبداً، هذه الحقيقة تصلح للأفراد والجماعات.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إذا دعوته يسمعك، وإذا سكت يعلم ما في قلبك، إذا تحركت يراك، تتكلم يسمعك ، تتحرك يراك، تثبت وتسكت يعلم ما في نفسك.

الله عز وجل يخبر نبينا الكريم أن الذي يعانيه من قومه قد عاناه الرسل من قبله:

ثم يقول الله عز وجل:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

(سورة الأنفال)

الدأب هو العادة، كعادة آل فرعون في تكذيبهم لسيدنا موسى، أي يا محمد لا تقلق، ولا تحزن، لست بدعاً من الرسل، الذي تعانيه من قومك قد عاناه قبلك الرسل.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

فرعون كان بنعمة لكن ما شكرها فغرق، وخسر ملكه.

ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه:

ملخص الملخص، أنت بنعمة ؟ أعرفها من الله، واشكر ربك عليها، وقابل هذه النعمة بخدمة الخلق، تضمن ثباتها ونموها، أحياناً إنسان يفقد شيئاً من أعضائه، هناك آفات، و أورام خبيثة، و أمراض وبيلة، و عجز في حادث سير، أنت حينما تستقيم على أمر الله كأن الله يطمئنك، يا عبدي:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: 48)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ولكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، شظية طائشة لا يوجد، هناك شظية مصيبة، تصيب الهدف، لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (21-30): تفسير الآيات 55 - 59 ، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة وهو في قبضة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-12-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

تكريم الله عزّ وجل للإنسان:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

والدواب جمع دابة، والدابة كل مخلوق يدب على وجه الأرض، أي يمشي على وجه الأرض، هو دابة وجمعها دواب.

ولكن بالعرف الدواب هي التي تمشي على أربع، ولقد كرم الله الإنسان.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

الإنسان كرمه الله فجعله يمشي على رجليه، وهو منتصب القامة، ويداه طليقتان ، هناك من يقول: إن هذه الحضارة الإنسانية بسبب أن يدي الإنسان طليقتان.

لذلك عندنا معنى لغوي، الدابة، وأي مخلوق يدب على وجه الأرض، وبهذا التعريف الشامل الإنسان يدخل في هذا التعريف، لكن العرف أن الدواب تمشي على أربع، بينما كرم الله الإنسان، فجعله يمشي على رجليه، وجعل يديه طليقتين.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة:

الآية تقول:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هنا الدواب بشر، بشر كفار، وهناك ملمح دقيق جداً بالآية أن هذا الذي كفر ينضم لا إلى بني البشر ينضم إلى الدواب، هذا الذي كفر صُنف هنا مع الدواب، مع أن الإنسان ليس دابة بل هو مخلوق مكرم.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 73)

لذلك إن الإنسان هو المخلوق الأول رتبة.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ)

(سورة البينة)

لذلك كما قال سيدنا علي:ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ".

إذاً الدابة: أي مخلوق يدب أي يمشي على وجه الأرض، لكن العُرف أن الدواب هي المخلوقات التي تمشي على أربع، ولقد كرم الله بني آدم فجعل الإنسان يمشي على قدمين، وجعل يديه طليقتين.

الإنسان عندما لا يعرف الله عز وجل يهبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به:

إلا أن الكافر ألحق مع الدواب، قال الله عنهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية: 5)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية: 4)

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية: 176)

إذاً الإنسان حينما لا يلبي حاجته العليا وهي معرفة الله عز وجل هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوىً لا يليق به.

إذاً:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

والله أنا أحياناً لا أرى من وصف لهذا الكافر الشارد، التائه، المنحرف، الذي يعتدي على أموال الناس، وعلى أعراضهم، والله لا أرى من وصفٍ يليق به كأن أقول دابة، حينما لم يلبِ حاجة عقله، لم يتعرف إلى الله، لم يعرف سرّ وجوده، لم يعرف غاية وجوده، هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوىً لا يليق به.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة المكرم و المكلف:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ما لم تؤمن التصنيف يختلف، أنت مصنف مع البشر، ولأنك من بني البشر أنت المخلوق الأول رتبة، لأنك من بني البشر أنت المخلوق المكرم، لأنك من بني البشر أنت المخلوق المكلف، لأنك من بني البشر أنت تفوق الملائكة، هكذا الآيات، والأحاديث، والنصوص.

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كل هذا الكون يدل على الله، فالإنسان غارق بنعم لا تعد ولا تحصى.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

ترى الأشياء بأحجامها الحقيقية، وبألوانها الدقيقة، أنت صور مجموعة من الأشخاص بآلة، تجد بعد طبع الصورة أن الألوان كلها متقاربة، لكن العين البشرية تفرق بين ثمانية ملايين لون، بالعين ترى كل إنسان له لون، بالآلة الألوان متقاربة، بالعين يوجد بالميليمتر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي، بأعلى آلة تصوير رقمية احترافية هناك عشرة آلاف مستقبل ضوئي، فأنت مكرم بالعينين.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً)

(سورة البلد)

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

جعل له عينين، أذنين، يسمع، ويبصر، ويتألم، ويفرح، ويسعد، ويدرك، ويغضب، مركز الذاكرة في الإنسان لا يزيد عن حبة عدس، هناك سبعون مليار صورة، فالإنسان إذا عاش ستين سنة تقريباً يوجد بذاكرته ما يساوي 70 مليار صورة.

أوامر الله عز وجل التكليفية و التكوينية:

لذلك أيها الأخوة،

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن هناك شيء دقيق، أن الله عز وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكويني، الأمر التكليفي افعل، ولا تفعل، والأمر التكليفي يشبه طريق سالك ممتد، لكن عند أول تقاطع وضعت لوحة ممنوع المرور هذا أمر تكليفي، لكن الإنسان بإمكانه أن يمشي، وأن يخالف هذه اللوحة، الأمر التكليفي قد لا يطبق، كلفك أن تكون صادقاً، الإنسان مخير، قد يكذب، كلفك أن تكون أميناً، قد تخون، كلفك أن تصلي، الإنسان مخير قد لا يصلي، كلفك أن تكون منصفاً.

فالأوامر الإلهية التي كلف الله بها الإنسان هي أوامر تكليفية، يمكن للإنسان أن يعصيها، أما الأمر التكويني شيء آخر، هذا الطريق السالك المفتوح الذي بإمكان السائق أن يعبره، وهناك لوحة ممنوع المرور، بالأمر التكويني يوجد أربع قطع إسمنت مسلح على عرض الطريق، ارتفاعها متران، هذا أمر تكويني، الأمر التكليفي أمر الله، أما التكويني فعل الله ، الأمر التكويني لا يعصى، الله خلقك أبيض البشرة، أو أسمر، لون بشرتك أمر تكويني، كونك من فلان أو فلانة أمر تكويني، كونك ولدت بدمشق أمر تكويني، ولدت في السبعينات أمر تكويني، الله له أمر تكليفي، وله أمر تكويني واضح ؟ فالإنسان مكلف بأمر تكليفي أن يكون مؤمناً، أن يكون صادقاً، أن يكون أميناً، أن يكون منصفاً، أن يطلب العلم، أن يتعرف إلى الله، أن يتعرف إلى منهجه، أن يطيعه بأمر تكليفي، كل إنسان قد يعصي، وقد لا يصلي، وقد يأكل المال الحرام، إلا أن بقية المخلوقات مسيرة، الإنس والجن مخيران.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

(سورة الرحمن)

الإنس والجن أعطيا الأمانة، والتكليف، وكلفا بعبادة الله عز وجل، ما سوى الإنس والجن مخلوقات مسيرة بالغرائز.

الإنس والجن أعطيا الأمانة والتكليف و ما سوى الإنس والجن مخلوقات مسيرة بالغرائز:

اطلعت على نظام النحل، نظام ما بعده نظام، دقة ما بعدها دقة، قيام بالواجب ما بعده قيام بالواجب، اختصاص دقيق، هذا النظام المذهل في النحل ليس بأمر تكليفي، بل بأمر تكويني، هناك أنظمة في عالم النحل، أو في عالم النمل يكاد الشيء لا يصدق، كل نحلة تقوم بمهمتها، نحل لجني الرحيق، نحل لصنع العسل، نحل لصنع بيت الشمع، نحل للحراسة، نحل للتعليم، نحل للتنظيف، نحل للتميع، نحل للتهوية،

عالم النحل عالم قائم بذاته، أروع نظام اجتماعي في الكون عالم النحل، لماذا لا يوجد معصية ؟ لأنه بأمر تكويني، بغريزة.

مثلاً: دابة أطعمها تشبع تقف عن الطعام، أي محاولة لتجبرها على الطعام لا تنجح، أما الإنسان يأكل فوق حاجته، الدابة بغريزتها لا تأكل إلا حاجتها.

حتى إن هناك شيء مشاهد، لو فرضنا هناك معبر مائي، فالدابة هل تستطيع أن تعبر هذا المعبر ؟ إن كان هذا المعبر أوسع من طاقتها لا تعبر، مهما ضربتها، مهما دفعتها.

الإنسان أحياناً يخاطر ويغرق أحياناً، الدواب تتحرك بغرائز، والغرائز لا تخطئ أبداً، الكون كله مسير عدا الإنس والجن، لأنك من بني البشر أنت مخير، مخير ومكلف بمعرفة الله، ومعرفة منهجه، لا تأكل الدابة فوق حاجتها، ولا تتخطى معبراً مائياً لا تستطيع أن تقفز منه، أما الإنسان قد ينضبط، وقد لا ينضبط.

من طرائف المعلومات أن الإنسان الذي وصل إلى القمر، والذي أرسل المركبات إلى المشتري، والذي حصّل علوم الثقلين، والذي نقل الصورة عبر الأمواج الكهرطيسية والذي نقل الإنسان بالطائرة، أربعمئة و ثمانين راكباً يركبون بالطائرة كأنهم في مدينة تطير في الأجواء، الإنسان الذي نقل الصورة، نقل الصوت، صنع هذا المحمول، وأنت بأي مكان بالعالم تخاطب أي إنسان في العالم بثانية، هذا الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل ثانية، بينما الدواب تتنبأ به قبل عشرين دقيقة، لحكمة أرادها الله.

الإنسان مخير ومكلف بأمر تكليفي أما المخلوقات الأخرى فمسيرة بالغرائز:

إذاً: الإنسان مخير ومكلف بأمر تكليفي، يطيع أو لا يطيع، أما المخلوقات الأخرى مسيرة بالغرائز، تجد الحيوان يقوم بأعمال يعجز عنها العقلاء، بالغريزة.

البطريق طائر، يعيش في القطبين، حينما تلد أنثاه بيضة يضعها على قدميه، ويغطيها بالفرو الذي على جسمه، ويبقى أربعة أشهر لا يأكل ولا يشرب، حفاظاً على هذه البيضة، لو سقطت من على قدميه إلى الثلج لمات الصغير، بعد أربعة شهر تفقس البيضة، الأب معه كمية طعام في حوصلته معدة لهذا الصغير، يعطي هذا البطريك الصغير وجبة طعام دسمة، وتأتي الأنثى فتأخذه عندئذٍ يذهب إلى البحر، ما هذا النظام ! هناك رحمة بأمر تكويني، وهناك عدل بأمر تكويني، وهناك نظام بأمر تكويني، و هناك توزيع اختصاصات بأمر تكويني، فما سوى الإنسان مسير بالغرائز.

مثل بسيط: الطفل الآن ولد، إذا وصلت إصبع الطبيبة إلى شفتيه يمصها فوراً والمص عملية معقدة جداً، عملية معقدة، إحكام الشفتين على هذه الأصبع ثم سحب الهواء ، منعكس المص غريزة أودعها الله في الطفل كي يعيش، الإنسان يتحرك إما بعقله مع معلومات أو بغريزته.

الإنسان كائن بالغ التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز:

الآن الإنسان، يا ترى الجوع ما حقيقته ؟ الآن أنت بالسيارة عندك مؤشرات، هناك مؤشر صوتي، و مؤشر ضوئي، و مؤشر رقمي، الحرارة مؤشر رقمي، فالإنسان إذا لم ينتبه للمؤشر يحترق المحرك، وهناك مؤشر صوتي، و هناك سرعة معينة إذا تجاوزتها هناك صوت يصدر من السيارة، وهناك مؤشر حراري، الجوع ما نوعه ؟ صوتي أم حراري ؟ لا نعرف، الجوع، تحس بالجوع بغريزتك فتأكل، والعطش، تحس بالعطش بغريزتك، طبعاً لضمان سلامتك جعل الله الإحساس بالجوع والإحساس بالعطش غريزي، تأكل، الهضم عملية معقدة جداً جداً جداً، هناك عصارات، وهناك حركة المعدة، وحركة الأمعاء، وهناك البنكرياس، والصفراء، آلية معقدة جداً، لو ترك الله الهضم للإنسان، تتناول وجبة طعام تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات هضم، والله أنا مشغول أهضم الطعام.

لو ترك لك دقات القلب تنام فتموت، القلب يعمل آلياً، والهضم يتم آلياً، وأحياناً أعمالك اليومية تنقلب للحركة الآلية، تخرج من مكتبك إلى بيتك تقود السيارة وأنت غارق بحديث مع صديقك، ولا تفكر بالقيادة إطلاقاً، الأعمال اليومية المتكررة سبحانك يا رب ! تنتقل إلى جهاز آلي.

مثلاً: إنسان غيّر بيته، خلال شهرين أربع أو خمس مرات يسوق مركبته إلى البيت القديم دون أن يشعر، مركبة على النظام الآلي القديم، الإنسان كائن بالغ التعقيد، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز.

الله عز وجل وفر للإنسان وقته و كلفه بعبادته و طاعته:

الله عز وجل جعل لك غرائز لكن أراحك بها، أنت ضع هذه اللقيمات بفمك والأمر اتركه إلى الله، حركة الأمعاء، إفراز العصارات، إفراز الأنسولين في البنكرياس، إفراز الصفراء، الطعام انتقل من المعدة إلى الأمعاء الدقيقة، ثم الغليظة، وتمت التصفية، ذهب قسم من السكريات إلى مركز الشبع فشبعت، لو درست الإنسان مخلوق عجيب، هناك غرائز لا تعد ولا تحصى، الغرائز من أجل أن تتفرغ لعبادة الله.

والله أعرف إنساناً طبيباً توفي ـ رحمه الله ـ عنده مركز التنبيه النوبي قد تعطل، فإذا نام يموت. بعد مئة عام صنعوا دواء، شيء لا يصدق، هذا الدواء تحتاج أن تأخذه كل ساعة بالليل، هذا الأخ

الطبيب رحمه الله يربط أربعة منبهات، نام الساعة الحادية عشرة، يربطهم الساعة الثانية عشرة ليأخذ حبة، يأخذها، يربطهم على الساعة الواحدة، يأخذها، وهكذا، أنت تنام من الساعة العاشرة إلى الساعة الرابعة نوماً عميقاً، والرئتان تعملان، والقلب يعمل، والهضم يعمل، يوجد بالإنسان أجهزة رائعة جداً تعمل لوحدها، لكن أعطاك حرية الاختيار، قال لك: فكر بالكون، هذا عمل إرادي، قال لك: اعبدني، هذا عمل إرادي، اعمل عملاً صالحاً، هذا عمل إرادي.

فالله عز وجل وفر لك وقتك، الأعمال المعقدة جداً التي أنت بأمس الحاجة إلها أمنها لك بغرائز، وكلفك بعبادته. إذاً:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن النقطة الدقيقة الحيوان غير مكلف، والحيوان يتحرك بالغرائز لا بالاختيار، الإنسان عنده غرائز تعفيه من جهد كبير، والله عز وجل فرغه لعبادته، وطاعته، والدعوة إليه.

الإنسان حينما يخون مرة وثانية وثالثة هذا لا عهد له وينبغي أن يؤدب:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لكن الله سبحانه وتعالى أشار إلى اليهود حينما قال:

(الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

(سورة الأنفال)

اليهود عاهدوا النبي عليه الصلاة والسلام أن يكفوا شرهم عنه، ثم نقضوا العهد في بدر، ثم عاهدوه ثانية، ثم نقضوا العهد في الخندق.

(الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

الإنسان حينما ينقض العهد يقال: خان العهد، والخائن كما قال الله عنه:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

خانوه مرتين، مرة في بدر، أعانوا قريش عليه، ومرة في الخندق سمحوا لقريش أن تحاربه من جهتهم، الآية تقول:

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأنفال)

فالإنسان حينما يخون مرة وثانية وثالثة هذا لا عهد له، ينبغي أن يؤدب، أي أدبهم حتى ابتعد أنصارهم عنهم.

الخائن مع الباطل فعلى الإنسان أن يشرد به حتى يبتعد أنصاره عنه:

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ)

تثقفنهم ؛ أي تجدهم، إن وجدتهم في ساحة المعركة أدبهم شر تأديب كي يبتعد أنصارهم عنهم. إنسان وقع أسيراً وقد نكل بالصحابة الكرام، فأمر النبي بقتله، فتوسل إليه أن عنده بنات صغيرات، وليس لهم غيره، فالنبي رق له، عاد إلى قتل الصحابة والتنكيل بهم، وقع أسيراً مرة ثانية، فلما حاول أن يستعطفهم مرة ثانية، قال: لا، تقول العرب خدع محمداً مرتين.

إذاً

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

أي من خلفهم لئلا يتورطوا بمعونتهم، شرد بهم بقوة حتى يبتعد عنهم أنصارهم لأنهم مع الباطل.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

(سورة الأنفال)

لو أن بينك وبينهم معاهدة، وأنت شعرت أن هؤلاء قد يقعون بالخيانة، أو على وشك الخيانة، أو تحركوا نحو الخيانة، عندنا خيانة وقعت، و خيانة ستقع، فرق كبير لو أن بينك وبين قوم عهد وخانوك ابدأ بحربهم، الخيانة نقض للعهد، لكن لم ينقضوا العهد بعد، لكن هناك بوادر، و اتصالات، و حركة مشبوهة.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً)

أو عمل، لا يجوز لك أن تحاربهم مباشرة، لابد من أن تبلغهم أن العهد الذي بينك وبينهم قد انتهى.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)

أبغلهم أن المعاهدة قد انتهت وأنا في حل منها، وأنا سوف أتحرك، كما أريد.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ)

عهدهم أي أبطل عهدهم،

(عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

وأنا أتمنى عليكم إما بالمعجم المفهرس، أو بالكمبيوتر اكتب إن الله لا يحب، اجمع الآيات، وإن الله يحب، وبالأحاديث الشريفة إن الله لا يحب، وإن الله يحب، اجمع قائمتين ما الذي يحبه الله ؟ وما الذي لا يحبه ؟.

الله تعالى يحب الصادقين والتوابين والمتطهرين ولا يحب كل متكبر أو خائن:

هناك نقطة دقيقة جداً أن الله يتعامل معنا وفق قوانين، شيء مريح جداً، أحياناً مثلاً مدير مؤسسة يغضب بلا سبب، يرضى بلا سبب، لا تعرف ما السبب، يقولون: كالاسمنت ينهار من دون إنذار، هناك إنسان مزاجي، لكن خالق السموات والأرض جعل لك قوانين معه، فالأمر عنده واضح.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

فأنت ابحث عن الآيات التي تؤكد:

أن الله يحب الصادقين، يحب التوابين، يحب المتطهرين.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

إن الله لا يحب كل متكبر، لا يحب الخائنين، ابحث عن الذي يحبه الله والذي لا يحبه.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ)

عهدهم، أي أنهِ العهد الذي بينك وبينه

(عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

أحياناً تأتي مصيبة، يكون إنساناً قوياً، وغنياً، وبذكاء معين، ينجو منها، يظن نفسه متفوقاً ونجا من هذا المصاب الذي عمّ معظم الناس، لكن أنت في قبضته، بأي لحظة أنت في قبضته، فالآية دقيقة جداً، أن الإنسان الكافر في قبضة الله.

الإنسان في قبضة الله:

لذلك الإنسان في قبضة الله، بأي لحظة الله يدمره، أي مع الله لا يوجد ذكي، ولا يوجد قوي، فالإنسان بلحظة يفقد حركته، بقطرة دم لا تزيد عن رأس الدبوس تتجمد في بعض فروع الدماغ أو في بعض أوعية الدماغ يصبح مشلولاً، ساعة فشل كلوي، ساعة تشمع كبد، ساعة احتشاء بالقلب، ساعة شلل، ساعة مرض معين، الأمراض العضالة لا تعد ولا تحصى، والله عز وجل بأي لحظة يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

فهذا الذي يتحرك بلا منهج، يعتدي على الناس، يأكل المال الحرام، على ماذا يعتمد ؟ أنت في قبضة الله، أحياناً الإنسان ينجو من مصيبة عامة، ليس معنى هذا إذا نجا ألا يقع في مصيبة أخرى، أنت في قبضة الله، لذلك:

((عبادي، لو أنَّ أوّلكم وآخرَكم، وأنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألَتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدِخلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

((إني والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري، أهل مودتي، أهل شكري، أهل زياتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

المؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً فهو متأدب معه ويشكره على ما أعطاه:

الله عز وجل قال:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

الكيد هو التدبير، المتانة في الفيزياء مقاومة قوى الشد، أمتن شيء بالأرض الفولاذ المضفور، وأقسى شيء في الأرض الألماس، الألماس يتحمل قوى الضغط، والفولاذ المضفور يتحمل قوى الشد.

مثلاً: الاسمنت يجب أن يكون مسلحاً، لأن السنتيمتر المكعب من الاسمنت يتحمل خمسمئة و خمسين كيلو ضغط، لا يتحمل خمسة كيلو شد، أما الشد لو وضعته بآلة فيها شد على خمسة كيلو ينكسر، إذاً يحتاج إلى تسليح بالحديد، أي ما يسمى بالاسمنت المسلح.

فالله عز وجل يقول:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي أنت مربوط بحبل، مهما كنت قوياً لا ينقطع،

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أنت في قبضة الله، بلحظة الإنسان يفقد بصره، يفقد سمعه، يفقد حياته بالنمو العشوائي، أي الورم الخبيث، يفقد حياته بتجمد خثرة بالدماغ، يفقد حياته باحتشاء القلب، يفقد حياته بالفشل الكلوي، يفقد حياته بتشمع الكبد، الإنسان بقبضة الله.

فالمؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً، متأدب معه، ويشكر الله على ما أعطاه.

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

معنى سبقوا إما أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله، مستحيل، لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، أو أنهم تفلتوا من عقاب الله.

هذا الذي هدم سبعين ألف بيت بغزة، هذه السنة الثالثة أعتقد أنه لم يمت إلى الآن ، صار وزنه ثلاثين كيلو، كان مثل الدب، وزنه ثلاثين كيلو، انتقام من الله.

لذلك:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (22-30): تفسير الآيات 60 - 63 ، الإعداد للعدو ثم الاتكال على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-12-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يجاهد أو يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الكريمة:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء، من لم يجاهد، ومن لم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق، ولكن الناس يتوهمون أن الجهاد هو الجهاد القتالي ليس غير، مع أن الحقيقة أن هناك أنواع كثيرة من الجهاد، منها جهاد النفس والهوى، تؤكدها الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

وقد نسب إلى بعض الصحابة قولهم وقد عادوا من غزوة: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى ".

الجهاد الأساسي جهاد النفس والهوى فما لم تنتصر على نفسك لن تستحق من الله شيئاً:

حينما تحمل نفسك على طاعة الله فأنت في جهاد، حينما تضبط لسانك عن الغيبة والنميمة فأنت في جهاد، حينما تضبط عينك عن أن تطبقها في محارم الله فأنت في جهاد، حينما تضبط يدك عن أن تبطش بغير حق فأنت في جهاد، حينما تضبط رجلك عن أن تسير بها إلى مكان لا يرضي الله فأنت في جهاد، حينما تضبط أعضاءك وجوارحك عن أية معصية فأنت في جهاد.

أيها الأخوة، الجهاد النفسي هو الجهاد الأساسي، كي أقرب لكم هذه الحقيقة:

الدكتوراه، الماجستير، الدبلوم، اللسانس، الشهادة الثانوية، كل هذه الشهادات لا يمكن أن تكون قبل أن تحمل إعدادية، وهو التعليم الأساسي، من الصف الأول وحتى التاسع، تسمى عندنا في بلادنا التعليم

الأساسي، الثانوية بعد التعليم الأساسي، المعهد المتوسط بعد التعليم الأساسي، اللسانس بعد التعليم الأساسي، الدبلوم بعد التعليم الأساسي، الماجستير بعد التعليم الأساسي، الدكتوراه بعد التعليم الأساسي.
أساس الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة لذلك أية دعوة إلى الجهاد القتالي لا تسبقها دعوة إلى جهاد النفس والهوى لا تنجح، الجهاد الأساسي جهاد النفس والهوى، ما لم تنتصر على نفسك فلا تستحق من الله شيئاً.

لن يستطيع أي إنسان أن يجاهد عدوه إن لم يجاهد نفسه و هواه أولاً:

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم هو بشر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف الآية: 110)

ولولا أنه بشر، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولن تستطيع أن تجاهد العدو إلا إذا جاهدت نفسك وهواك أولاً.
لذلك، جهاد النفس والهوى يغطيه القرآن الكريم

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

الصحابة الكرام قولهم: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى ".
للتقريب مرة ثانية: قد تدفع عدة ملايين لإنشاء مسجد، لكنك لا تستطيع أن تغض بصرك عن محارم الله، فأنت ضعيف في جهاد النفس والهوى، أية شهوة تصر عليها ولا تفكر أن تتوب منها تحول بينك وبين الجهاد الحقيقي، جاهد نفسك وهواك أولاً.
مرة ثانية: المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، كل قوتك أن تجاهد نفسك وهواك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

وهذه الآية فيها إشارة واضحة جداً إلى جهاد النفس والهوى،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

عن طريق جهاد النفس والهوى.

حلاوة الإيمان ثمنها الجهاد في سبيل الله:

لذلك حينما تلزم دروس العلم، وتتعرف إلى منهج الله، وحينما تحمل نفسك على طاعة الله، حينما تضبط دخلك وتجعله حلالاً صرفاً، حينما تضبط لسانك، حينما تضبط أذنك ، حينما تضبط عينك، حينما تضبط يدك، حينما تضبط رجلك، حينما تضبط أهلك، حينما تضبط بيتك، حينما تضبط عملك وفق منهج الله، نقول: أنت سرت في طريق الجهاد، جاهد نفسك وهواك أولاً، وهذا الجهاد من أعلى درجات الجهاد، لأنك في هذا الجهاد ترفع عند الله، هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

أي ؛ أن يكون الله في قرآنه أي في الأمر والنهي، ورسوله في سنته أي في الأمر والنهي:

((أحب إليه مما سواهما))

فحينما تؤثر طاعة الله على مصلحتك المتوهمة، على مصلحتك الدنيوية، عندئذٍ تكون قد دفعت ثمن حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان ثمنها الجهاد في سبيل الله.

الجهاد الدعوي:

أيها الأخوة، الجهاد في سبيل الله مرتبة يسبقها مراتب عدة، الجهاد الثاني الجهاد الدعوي، أن تطلب العلم، وأن تُعلم، وهذه المرحلة يمكن أن تسمى بالجهاد الدعوي، تعليماً وتعلماً، إلقاء وتلقياً، فإن كنت لا تعلم تلقى العلم، وتلقي العلم من الجهاد.

حينما تركب مركبة أولى، وثانية، وقد تكون ثالثة، وتأتي من أطراف المدينة إلى المسجد، وتجلس على الأرض من دون ضيافة إطلاقاً، لتتعرف إلى الله فأنت في جهاد آخر، اسم هذا الجهاد: الجهاد الدعوي، هذا الجهاد تغطيه الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بالقرآن:

(جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

لذلك يقول سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ: " قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه ـ فالعالم حينما يطبق علمه تطبيقاً تاماً فهو في جهاد ـ ومتعلم لا يستنكف أن يتعلم، والمتعلم في جهاد ـ....." .

الجهاد الدعوي أن تتعرف إلى الله و تتفكر في ملكوت السماوات و الأرض:

الآن الجهاد الدعوي أن تتعرف إلى الله، حينما تجلس لتفكر في ملكوت السماوات والأرض أنت في جهاد، حينما تقرأ كتاباً في العقيدة أنت في جهاد، حينما تقرأ كتاباً في الفقه أنت في جهاد، أنت في الجهاد الدعوي، جهاد التعليم أو التعلم، جهاد الأخذ أو الإعطاء، جهاد التلقي أو الإلقاء، جهاد طلب العلم أو إلقاء العلم، هذا الجهاد تغطيه الآية الكريمة:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

((إنَّ الملائكة تضع أجْنِحَتَّها لطالب العلم رضا بما يطلب))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال]

دعاني أخ من إفريقيا لزيارة بيته، في أطراف المدينة، صدقوا ولا أبالغ رأيت بيتاً لا يمكن أن يُسكن، برد لا يحتمل، ليس عنده مدفأة، ليس عنده بساط، جاء من أطراف إفريقيا ليطلب العلم في الشام، هذا الجهاد، طلب العلم جهاد، قد يأتي أخ من درعا ليستمع إلى الدرس هو في جهاد، هناك من يأتي من حلب ليستمع إلى الدرس فهو في جهاد، وعلى الأرض، وبلا ضيافة.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

الأمن و الحكمة أكبر هدية من الله للمصلي في بيته:

بماذا يكرمك الله وأنت في بيته ؟ يكرمك بنعمة الحكمة.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية: 269)

أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر أمرك بالمال القليل، ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، ومن دون حكمة تجعل الصديق عدواً، أنت بالحكمة تسعد في بيتك، ومن دون حكمة تشقى في بيتك، أكبر هدية لك أيها المصلي، وأنت في بيت الله

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

يؤتيك الأمن، لا تقلق، تشعر أن الله معك، تشعر أن الله يحفظك، يؤيدك، يدافع عنك، يوفقك، يدعمك.

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

[أحمد]

السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء:

أنت حينما تأتي إلى بيت الله أنت طالب علم.

((إنَّ الملائكة تضع أجْنِحَتَّها لطالب العلم رضا بما يطلب))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال]

((مَن سَلَكَ طريقا))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء]

خرجت من بيتك، الوقت شتاء، وبرد قارس، والمدفأة مشتعلة، وجالس في بيتك لك أن تجلس على مقعد وثير، تطلب القهوة، والشاي، والفواكه، زوجتك أمامك، أولادك أمامك، جاء وقت الدرس تقوم وترتدي ثيابك، وتركب أول مركبة والثانية من أجل أن تصل إلى مسجد بعيد، بماذا يتفضل الله عليك ؟ بنعمة الأمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت في جهاد، منحك الأمن، منحك الحكمة، منحك السكينة، السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

((ما جلس قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتدارسون كتاب الله تعالى ويتعاطونه بينهم، إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها، وإلا كانوا أضياف الله تبارك وتعالى حتى يقوموا))

[أخرجه مسدد بن مسرهد عن عبد الله بن عباس]

وقد تجلس في بيت عظيم، في غرف رائعة، على أثاث راق، تقدم لك الضيافة الراقية، والحديث نهش في أعراض المسلمين.

((ما من قوم يقومون من مَجلس لا يَذكرونَ اللهَ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

أحياناً تجلس من كثرة معاصي اللسان لا تستطيع أن تقف.

أفضل إنسان من دعا إلى الله و عمل صالحاً:

إذاً بعد الجهاد النفسي يأتي الجهاد الدعوي: " قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه

استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".

إذاً الجهاد الثاني:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ - بالقرآن - جِهَاداً كَبِيراً)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم - أي الخيرية المطلقة - من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل عند الله

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

للحديث روايات ثلاث:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

و:

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

و:

((خير لك من الدنيا وما فيها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

أغلى أنواع المال.

الجهاد البنائي و إعداد القوة المتاحة:

أما الجهاد الثالث موضوع الدرس، الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أعدوا لمن يحاربونكم، أعدوا لأعدائكم، أعدوا للطرف الآخر الذين يتربصون بكم الدوائر،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أعدوا لهؤلاء الشهداء الذين دفعوا حياتهم ثمناً للجهاد، أعدوا لذوي الشهداء الذين فقدوا معيلهم، وأباهم، أعدوا للأسرى الذين أسروا ظلماً، أعدوا لمن تضرر في حرب مع الطرف الآخر، وأعدوا للطرف

الآخر.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

للطرف الآخر:

(مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أخواننا الكرام، رحمة الله بالمؤمنين أن الله ما كلفهم أن يعدوا لأعدائهم القوة المكافئة وقد يكون هذا الآن مستحيلاً، لأن الأمم الأخرى تعد لنا من مئتي عام، أنواع منوعة من الأسلحة، فنسمع مثلاً عن قنبلة خارقة حارقة، ملجأ سقفه من الإسمنت المسلح، هذه القنبلة تخرق السقف أولاً ثم تنفجر ثانياً، فتحرق كل من في الملجأ، وقد ألقيت هذه القنبلة في حرب الخليج الأولى، و نسمع عن القنبلة العنقودية، بدائرة قطرها خمسمئة متر لا ينجو إنسان، تسمع مرة عن القنابل الفسفورية الحارقة، القنابل التي تلغي الاتصالات، القنابل التي تعطل الطاقات، القنابل التي تفني البشر وتبقي الحجر، البناء كما هو، الناس وحدهم يموتون، أعدوا لنا كثيراً، أعدوا لنا الطائرات، تسمع "f16 "، أباتشي، تسمع "b52 "، تنطلق من أمريكا، تقصف أفغانستان وتعود دون أن تتزود بالوقود أعدوا لنا كل شيء، في كل أنحاء العالم، طيران، أقمار صناعية، هم يطلعون على أقل حركة في سطح الأرض، بدل أن نعد لهم أعدوا لنا، فلما أعدوا لنا ملكوا ناصية العالم، الآن فرضوا علينا إباحيتهم، فرضوا علينا انحرافهم، والغزو الثقافي يفوق آلاف المرات خطراً من الغزو العسكري، هذه الصحون التي تتجه إلى السماء، من أجل أن تستقبل الإباحية، والقنوات الفضائية، هذا الذي أعدوه لنا، أرادوا إضلالنا، وأرادوا إفسادنا، وأرادوا إفقارنا، وأرادوا إذلالنا، وفي الحقيقة هم في النهاية أرادوا إبادتنا.

على المسلمين أن يعدّوا ما يستطيعون من قوة و على الله الباقي:

ماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لا تيأسوا، لماذا؟ لأن المؤمن معه قدرة الله، معه علم الله، لأن المؤمن يمده الله بملائكته، وهناك قصص كثيرة، ألقيت في إذاعة العدو، في حرب غزة، يسأل الجندي الأسير ماذا يرتدي جنودكم ؟ يقول: يرتدي ثياباً مبرقعة، فيقولون له: أنت كاذب يرتدون ثياباً بيضاء.

الله عز وجل حينما وعد المؤمنين أن يمدهم بالملائكة قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

والباقي يتولاه الله.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أعد ما تستطيع وعلى الله الباقي، لأن الذي تستطيعه مع قدرة الله يفوق قوة العدو والعدو مهما كان قوياً. تصور حلف الناتو، ثلاثون دولة أوربية، عمرها الحضاري مئتا عام، طائرات ، صواريخ، قنابل، مدرعات، ذخائر، إعلام، أموال، وثلثا أفغانستان ليست بيدهم، أين هم ؟ المؤمن مع دعم الله له، مع قوة الله أقوى من عدوه.

انتصار أخواننا في غزة غيّر مقاييس الحرب في العالم:

لذلك:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أخوتنا في فلسطين، في حرب غزة، عشرة آلاف مقاتل معهم بنادق فقط، وأسلحة بدائية جداً، وصواريخ بدائية جداً، وقفوا أمام أكبر جيش في المنطقة، لاثنين وعشرين يوماً لم يستطيع هذا الجيش العملاق، رابع جيش في العالم بأسلحته الفتاكة أن يحقق أهدافه، هل هذا الكلام صحيح ؟ هذه جرعة منعشة من الله،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

تأثرت تأثراً بالغاً من قول أحد زعمائهم قبل الحرب قال: يا رب لقد أعددنا ما نستطيع، وعليك الباقي، وهذا الذي حدث، والله انتصار أخواننا في غزة، انتصار المسلمين في غزة عام 2008، وفي لبنان عام 2006 ، والله غيّر مقاييس الحرب في العالم، ما قيمة هذا الجيش !.

ذلك مرة قرأت تعليقاً لأحد كبار القادة في أمريكا، قال: ماذا نصنع بحاملات الطائرات وماذا نصنع بالصواريخ العابرة للقارات وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربهم ؟ ولكن ماذا نصنع بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت ليهز كياننا ؟ لذلك الحرب التقليدية انتهت في العالم، لم تفلح.

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ثلاثاً))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عقبة بن نافع]

أي القوة في عهد النبي إن أطلقت سهماً أن يصيب هدفاً، هذه القوة.

((ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ثلاثاً))

الأعداء أعدوا لنا ما يستطيعون من قوة من أجل إفقارنا وإضلالنا وإفسادنا وإبادتنا :

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

نبال، المسافة قريبة، رماح ، صار هناك التحام ؟ سيوف، نبال بعيدة، هناك قوس، ورماح، وسيوف.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

لكن بالضبط كما يجري الآن، النبال والرماح والسيوف هذه تصيب أهدافاً بعيدة، لكن لا تحقق نصراً، النصر أن تحتل الأرض.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

أنتم بحاجة إلى خيل تحتلون بها الأرض، صار هناك قصف جوي وزحف عسكري.

والآن مهما قصفت الدول المعتدية، لا بدّ من أن تحتل الأرض بالنهاية، وقد تكون عاجزة عن أن تحتل الأرض، النصر إذاً لم يحقق.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

صار هناك تطوير، الآن القوة الصاروخ، القوة القنابل، القوة الطيران، القوة المدرعات، القوة الأقمار الصناعية، القوة التواصل، القوة الإعلام، القوة هذه جاءت نكرة، كي تغطي كل أنواع القوة لنهاية الدوران، في عصر يكون الإعلام قوة كبيرة، وفي عصر آخر تكون الأقمار الصناعية قوة، لأنها تغطي كل الأرض.

وقع تحت يدي مجلة، تستطيع أن ترى الأرض كلها من القمر، الأرض كلها، على الأرض يوجد مربع صغير ميلي بميلي، كُبر في صورة ثانية، فإذا هو شمال أمريكا، على الصورة الثانية مربع صغير، كُبر فإذا هو فلوريدا، هناك مربع صغير كُبر فإذا هو شاطئ بفلوريدا، مربع صغير آخر كُبر فإذا هي حديقة من الحشيش الأخضر عليها مربع صغير، كُبر هذا المربع الصغير إنسان مستلق على بساط يمسك كتاباً يقرأه إلى جانبه صحن فيه تفاح، وساعته بيده، ويمكن بدقة بالغة أن تقرأ عنوان الكتاب، هذه الصورة من القمر.

أعدوا لنا، نحن نقول: ممنوع التصوير، أعدوا لنا ما يستطيعون من قوة، من أجل إفقارنا، وإضلالنا، وإفسادنا، وإذلالنا، وإبادتنا، ونحن ما صدقنا ربنا حينما قال لنا:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 119)

كلمة جامعة مانعة.

الإرهاب في القرآن الكريم يعني أن تملك سلاحاً يمنع الإرهاب والعدوان عنك:

أيها الأخوة، إذا

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

الآن يجب أن ندرس مقياس القوة، تجد حصناً حصيناً قبل مئتي عام، لا يوجد طريقة لتصل إليه، حوله ماء، كقلعة حلب الآن، فإن كان هناك طيران فالحصن لا قيمة له، و أنت إن لم تملك سلاح جو فعال لا تملك شيئاً، كل منشآتك في خطر، مصافي النقل، السدود، كلها في خطر، إذا لم تملك سلاح جو فعال جداً تحمي به أجواء الأرض فهناك مشكلة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

وكل عصر له قوة، أي قصف تمهيدي، ثم الاحتلال.

((ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ))

عن بعد، ولا بدّ من رباط الخيل تحتلون بها الأرض، من أجل ماذا ؟ قال: من أجل أن:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فأي دولة معها سلاح فتاك هي مرهوبة الجانب، الآن دول في التاريخ المعاصر عندها مفاعل نووي لا أحد يحاربها، لأنها تملك سلاحاً رادعاً، السلاح أحياناً قد لا تستخدمه إطلاقاً، ولكن وجود السلاح يرهب العدو.

حدثني أخ من الباكستان، قال لي: نحن نعيش في بلد مجاور للباكستان في الهند، عددنا تسعون مليوناً، نُعامل معاملة قاسية جداً، فعندما استطاعت باكستان تصنيع قنبلة ذرية اختلفت المعاملة مئة و ثمانين درجة،

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فلا بد من سلاح رادع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

الإرهاب هنا ماذا يعني في القرآن الكريم ؟ الإرهاب أن تملك سلاحاً يمنع الإرهاب بالضبط، الإرهاب أن تملك سلاحاً يمنع العدوان عليك فقط، أن يكون عندك سلاح رادع، قوة رادعة،

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

ويجب أن يكون عدوكم هو عدو لله لا أن تقاتلوا بعضكم بعضاً، هذه مشكلة كبيرة جداً.

أكبر مصيبة تصيب المسلمين أن يكون بأسهم بينهم وسلمهم لأعدائهم:

أكبر وصمة عار بحق المسلمين أن بأسهم بينهم، وأن سلمهم لأعدائهم.

أخواننا الكرام، يجب أن يكون العدو الذي نحاربه عدواً لله، كأن الله يشير إلى أن أكبر مصيبة تصيب المسلمين أن يكون بأسهم بينهم.لذلك أعداء المسلمين يتعاونون وبينهم 5% قواسم مشتركة، والمسلمون يتقاتلون وبينهم 95 % قواسم مشتركة، وهذه وصمة عار بحقنا

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

معاً.ولكن أيها المؤمنون إياكم أن تتوهموا أن أعداءكم هم الذين في ساحة المعركة، لا

(وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ)

هناك من يخطط، هناك من يخفي نفسه، هناك من يعمل في الخفاء، هناك من يستعد للانقضاض عليكم.

(وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)

لذلك المؤمن كيس، فطن ، حذر.

(وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ)

هناك من يتآمر عليكم خفية، وهناك من عنده استعداء ليتآمر عليكم.

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

هنا الآية متصلة بآية القتال، أي ما تنفقوا من شيء لتجهيز الجيوش، إعداد العدة هذا أيضاً

(يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

وليست العبرة بقوة العدوان، ولكن العبرة أنهم:

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة الأنفال)

من كان الله معه فلن يستطيع أحد أن يخدعه:

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

هذا الفتح المبين جاء عقب صلح الحديبية، معنى ذلك البطولة أن ينتشر السلام بين شعوب الأرض، الفتح الحقيقي ليس فتح حرب بل هو فتح سلم،

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

هذه الآية جاءت عقب صلح الحديبية.

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)

لا تقل: موقف تمثيلي، ثم ينقضون علينا، الله معك، ولن يخذلك، لا تكن داعية حرب، كن داعية سلم.

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

إن الله هو سميع وعليم، إن تكلمت فهو سميع، وإن أضمرت شيئاً فهو عليم، لا تخاف، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان عليك فمن معك ؟

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

إذا كان الله معك من يستطيع أن يخدعك ؟

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

الحب والودّ و التعاطف بين المؤمنين من خلق الله عز وجل:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة الأنفال)

هذا الحب بين المؤمنين، هذا الود بينهم، هذا التعاطف فيما بينهم، من خلق الله عز وجل.

المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون و لو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم،

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (23-30): تفسير الآية 64 ، لا قلق من أي خوف إذا كان الله حسبك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى لم ينادِ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه تكريماً وتعظيماً له:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الرابعة والستين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

حينما تقرؤون القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى لم ينادِ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه، قال:

(يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة الآية: 35)

قال:

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ)

(سورة هود الآية: 48)

يا نوح، يا آدم.

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 116)

(يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

(سورة الصافات)

ما قال الله في القرآن كله يا محمد، بل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة)

تعظيماً له، لأنه سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، الله عز وجل أوصله إلى سدرة المنتهى.

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

(سورة النجم)

الإسراء والمعراج تكريم من الله عز وجل بعد جفوة البشر لهذا النبي العظيم:

بل إن الإسراء والمعراج جاء تكريماً من الله، بعد جفوة البشر لهذا النبي العظيم، لذلك ما محنة إلا وبعدها منحة من الله، وما من شِدة إلا وبعدها شَدَة إلى الله، وأي مؤمن حينما يحافظ على طاعته لله وعلى استقامته، إن جاءته محنة فليعلم علم اليقين أن بعد هذه المحنة منحة، وإن جاءته شِدة وبقي طائعاً، مستقيماً، متوجهاً إلى الله، فبعد هذه الشِدة شَدةٌ إلى الله.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كما ترون ما خاطبه باسمه أبداً، بينما خاطب معظم الأنبياء بأسمائهم.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية: 12)

(يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

(سورة الصافات)

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ)

(سورة هود الآية: 48)

(يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

ولم يقل الله عز وجل في القرآن كله يا محمد،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

الفرق بين مقام النبوة ومقام الرسالة، مقامة النبوة درجة قرب أعلى.

فلما مرّ الصديق بأحد الصحابة وهو سيدنا حنظلة رآه يبكي، قال له: " مالك يا حنظلة تبكي ؟ قال: نافق حنظلة، قال له: ولِمَ يا أخي ؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى، من أدب الصديق قال له: يا أخي وأنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انطلقا إليه وحدثاه بما جرى، قال له النبي الكريم: نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، مقام النبوة إقبال مستمر على الله، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم ".

النبوة مقام إقبال وقرب واتصال دائم بالله عز وجل والرسالة مقام تبليغ ودعوة إلى الله:

معنى ذلك مقام النبوة مقام القرب، و الإقبال على الله، أعلى مستوى في الإقبال القرب، مقام الأنبياء، اتصال دائم، إقبال دائم، وأما مقام الرسالة مقام الرسول معه رسالة ينبغي أن يبلغها، فأحياناً في موضوع التبليغ:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة الآية: 67)

في مقام القرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

النبوة مقام إقبال وقرب، واتصال دائم بالله عز وجل، والرسالة مقام تبليغ ودعوة إلى الله، والنبي عليه الصلاة والسلام ما خوطب باسمه إطلاقاً بل خوطب بمقام النبوة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وخوطب بمقام الرسالة بحسب السياق.

الله عز وجل أودع بالإنسان الشهوات والشهوات حيادية:

إذاً الآية الرابعة والستون

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هناك نقطة دقيقة جداً يجب أن تكون واضحة لديكم، هو أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب الكافر لأنه كفر به، بل يعاقب الكافر لأنه من لوازم كفره أن يعتدي على الآخرين، كيف ؟

الله عز وجل أودع بالإنسان الشهوات، والشهوات حيادية، أودع فيه حب المرأة، أودع فيه حب النساء.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

حبّ المال، ما من إنسان على وجه الأرض يستطيع أن يقول: أنا لا أحب المال، إنسان يصرح، إنسان لا يصرح، أما هذا الميل أودعه الله فينا، أودع فيه حب العلو في الأرض، ما من إنسان إلا ويتمنى أن يكون ذا شأن كبير، يشار إليه بالبنان، يحترمه الناس، يعظمونه، أيضاً هذا مما أودعه الله فينا، (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

المركوب، سابقاً خيل والآن سيارة.

(وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

المزرعة، أي بيت، وسيارة، ومكان للاصطياف ـ مزرعة ـ، وامرأة، هذه الشهوات الكبرى التي أودعها الله في الإنسان.

الإنسان بالشهوات يرتقي صابراً و شاكراً:

أخواننا الكرام، الكلام دقيق جداً، ما أودع الله فينا هذه الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، كيف ؟ الله عز وجل أعطاك منهجاً، افعل ولا تفعل، وإذا قال لك: افعل في هذه الحدود، فحينما أودع الله في الإنسان حب المرأة شرع له الزواج، بالإسلام لا يوجد علاقة بين الرجل والمرأة إلا علاقة زواج، لا يوجد خليلة، لا يوجد عشيقة، لا يوجد صاحبة، هناك زوجة، المرأة أم، بنت، أخت، خالة، عمة، زوجة، هذه المرأة، الإسلام نظيف جداً.

الله عز وجل أودع الشهوات، فإذا أخذنا ما سمح الله به ارتقينا إلى الله شاكرين، وإذا تركنا ما نهانا الله عنه ارتقينا إلى الله صابرين، فأنت بالشهوات ترتقي صابراً، وترتقي شاكراً، إذاً هي حيادية، هي كالبنزين في السيارة، إذا وضع هذا البنزين في المستودع المحكم، وسال في الأنبوب المحكم، وانفجر في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، ولّد حركة نافعة أقلتك أنت وأهلك إلى مكان جميل، أما إذا صُبت هذه الصفيحة على السيارة، وأصابها شرارة، أحرق المركبة ومن فيها، سُلم نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين، لولا الشهوات ما ارقينا إلى رب الأرض والسماوات.

بطولة الإنسان أن يتحرك بدافع شهواته وفق الحيز الذي سمح الله له فيه:

كلام آخر: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مرة حدثني زميل في العمل، قال لي: أنا في مرحلة من حياتي كنت شارداً، وارتكبت أخطاء كبيرة جداً، ثم أكرمني الله بزوجة، أقسم لي بالله، قال لي: والله ساعة مع زوجة والله راضٍ عني أسعد من ألف ساعة مع امرأة لا تحل لي، هذه الفطرة.

إذاً أيها الأخوة، الله عز وجل حينما أودع الشهوات أعطاك حيزاً مسموحاً به، كل بطولتك أن توقع حركتك من خلال هذه الشهوة في هذا الحيز، لا يوجد بالإسلام حرمان، أنا أخاطب الشباب، حرمان لا يوجد، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مثلاً إنسان تزوج، يتم اللقاء الزوجي، ويقوم على قيام الليل، ويبكي في الصلاة لأنه فعل شيئاً يرضي الله، وما خرج عن منهج الله، وكل إنسان يتقصى طاعة الله عز وجل يهديه إلى سبلها، لذلك بطولتك أن تتحرك بدافع شهواتك وفق الحيز الذي سمح الله لك فيه.

الله تعالى لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقبهم على جرائمهم لانحرافهم واعتدائهم:

لذلك الله عز وجل لا يعاقب الإنسان إذا كفر به، لكن من لوازم الكفر الآن دخلنا في الموضوع الدقيق، من لوازم الكفر العدوان، الإنسان إذا أراد الدنيا، وكفر بالآخرة، لا تكفيه زوجته، وهذا حال معظم الفسقة، يجب أن يعتدي على امرأة ثانية، قريبة، موظفة... إلخ، لأن شهوته إلهه.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان الآية: 43)

مرة ثالثة لا يعاقب الكافر على كفره، يعاقب الكافر على إساءته، لأنه اعتدى على أعراض الآخرين، أو اعتدى على أموالهم، لا يكفيه رزقه، يريد أموالاً مملينة.

فلذلك الله عز وجل لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقب الكفار على جرائمهم، لأنه من لوازم الكفر أن تنحرف.

التلازم الحتمي بين الكفر و العدوان:

الآن أدلة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

يجب أن تؤمن أن هناك تلازماً حتمياً بين الكفر وبين العدوان، العالم ترونه دولاً قوية جداً، تحتل بلاداً، تقتل ملايين، ملايين مملينة، مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، بدعوى البحث عن سلاح شمولي في بلد عربي، لا تصدق إنساناً كفر بالله عز وجل اكتفى بما أتاه الله عز وجل، من لوازم الكفر العدوان، دقق:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

من لوازم عدم الإيمان بالآخرة إنسان قوي وبإمكانه أن يأخذ أموال معظم الناس ويعيش حياة تفوق حدّ الخيال، لِمَ لا يفعل ؟.

الانحراف الشديد يحتاج إلى غطاء عقدي هو الإلحاد:

لذلك الانحراف الشديد يحتاج إلى غطاء عقدي هو الإلحاد، ما السبب أن نظرية دارون راجت رواجاً عجيباً ؟ وأنا أقسم لكم بالله دارون نفسه حينما قال: "إن لم يثبت العلم نظريتي فهي باطلة "، دارون تصور أن الفأرة تأتي من الخرق البالية، وأن الضفدع تأتي من الوحل، وأن الديدان تأتي من تفسخ اللحم، هذا كتابه في أصل الأنواع، قال: "إن لم تثبت العلم نظريتي فهي باطلة"، الآن علماء الغرب الكبار الذين آمنوا بهذه النظرية رفضوها رفضاً كلياً، ومع ذلك ما من بلد في العالم حتى البلاد الإسلامية تُدرس هذه النظرية في المدارس، وهذه النظرية تعني أن الله غير موجود، شيء عجيب ! لماذا ؟ هذه النظرية مريحة، تلغي المسؤولية، تلغي الدار الآخرة، تلغي الحساب، كل سلوك يحتاج إلى غطاء عقدي.

بقال حضر درس علم، قال المدرس: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، ما هذا ! حديث رائع، فيه يضيف للحليب ماء، هذه كبيرة، هكذا قال النبي، ما من حركة تتحركها إلا بحاجة إلى غطاء، يسمونها فلسفة، أو تصوراً، أو المنطلقات النظرية، فكل إنسان يتحرك بغطاء، الغطاء الذي يحتاجه المجرم الإلحاد.

لذلك نظرية دارون راجت رواجاً مذهلاً بالعالم، أقسم لكم بالله عندي دراسة دقيقة جداً لمعظم العلماء الذين آمنوا بهذه النظرية، رفضوها رفضاً قاطعاً، السبب أن هذا الإنسان الذي كان وحيد الخلية المخلوق، وتطور صار إنساناً، اسمه كائن مرحلي، وحيد الخلية، الإنسان يوجد بدماغه مئة و أربعون خلية، هذا المخلوق المرحلي لم يعثر عليه إطلاقاً، بل إن الأحافير ـ معنى الأحافير أي آثار الكائنات الحية بالصخور، أحياناً يثور بركان، حمم البركان تتراكم فوق الكائنات الحية، بعد آلاف السنين هذه الحمم تتصخر، لو كسرت لكان بداخلها شكل الحيوان الذي دفن معها ـ تؤكد أن المخلوقات التي عاشت قبل 530 مليون عام هي نفسها الآن باطلة كلياً، لماذا هي رائجة ؟ تلغي المسؤولية، معنى ذلك أن الإنسان يعتقد عقيدة تريحه، وقد تكون غير واضحة.

أوضح مثل: صديقان عزما العزم على شراء سيارتين، أحدهما اشترى سيارة والثاني لم يشتر، في البلد سرت إشاعة أن هناك مشروع قانون بتخفيض الرسوم الجمركية إلى النصف، الذي اشترى يكذب هذه الإشاعة من دون دليل، والذي لم يشتر يصدقها من دون دليل، تكذيب الإشاعة مريح لمن اشترى، وتصديقها مريح لمن لم يشتر.

على الإنسان ألا يعتقد شيئاً من دون دليل قطعي:

انتبه ما كل ما تعتقده صواباً، كل الأحاديث التي فيها شفاعة بالمعنى الساذج تعلق الناس بها، لأنها مريحة، كل أخطائك غُفرت، مثلاً:

((من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))

[الشيخان عن أبي هريرة].

والله شيء مريح، عش عشرين أو ثلاثين سنة بالمعاصي والآثام، و بعد ذلك قم بحجة فترجع كيوم ولدتك أمك، من قال لك ذلك ؟ لا يغفر في الحج إلا الذنوب التي بينك وبين الله وحدها فقط، وما بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة.

صحابي جليل جاهد مع رسول الله، واستشهد، جاء ليصلي عليه، قال: أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، ما صلى عليه، أخوه في الله تألم ألماً شديداً قال: يا رسول الله عليّ دينه، فصلى النبي عليه، سأله في اليوم التالي: أأديت الدين ؟ قال: لا، سأله في اليوم الثالث: أأديت الدين ؟ قال: لا، في اليوم الرابع، قال: أديته، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.

أنا أتمنى على الأخوة الكرام ألا يعتقدوا شيئاً من دون دليل قطعي، العقيدة خطيرة إذا توهمت الشفاعة بالمفهوم الساذج تفاجأ يوم القيامة:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة].

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة].

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة].

((وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فاطمة بِنْتَ محمدٍ سَرَقَت لقطعتُ يَدَهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

هذا الدين.

من لوازم الكفر ارتكاب الجرائم:

لذلك الله عز وجل لا يعاقب الكفار على كفرهم بل يعاقبهم على جرائمهم، لأنه من لوازم الكفر ارتكاب الجرائم، والعالم الآن أوضح شاهد، ماذا يجري ؟ احتلال دول، قتل بالآلاف، بالمئات، بالملايين، قتل، إبادة، نهب ثروات، إذلال، الغرب اتخذ قراراً بالإفقار، ثم بالإضلال، ثم بالإفساد، ثم بالإذلال، ثم بالإبادة، الله عز وجل يعاقب الكافر على جرائمه، مثلاً:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

(أَرَأَيْتَ)

! أين الجواب ؟ هذا الذي ينهى عن الصلاة، ويحارب الدين، انظر إلى سلوكه، كاذب، منافق، شهواني، يرتكب أعمال إجرامية كثيرة جداً،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية: 50)

من لم يكن على الحق فهو على الباطل حتماً:

يوجد بالحياة شيء اسمه اثنينية، حق وباطل، خير وشر، صدق وكذب، أمانة وخيانة، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل حتماً، الدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

دعك من كلامه، دعك من أقواله، دعك من معتقداته، دعك من تصوراته، انظر إلى سلوكه، فيه عدوان، وكبر، يأخذ ما ليس له، يغتصب شركة، يغتصب بيتاً، لأن حركته شهوانية،

(اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

والهوى ليس له حدود.

لذلك الحديث القدسي الصحيح:

((يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنْسكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقى قلب رجل واحدِ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد

واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، كن فيكون وأخذي كلام، ذل فيزول، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية: 7)

فسيدنا إبراهيم عندما ألقي في النار، جاءت ضفدع كانت قد ملأت فمها ماء ونفثته على النار، لكن هذه الضفدع لا يمكن أن تطفئ هذه النار، وهناك كائن آخر صار ينفخ، لا هذا الكائن زادها اشتعالاً، ولا هذه الضفدع أطفأتها، لكن كل كائن أخذ موقفاً، هناك موقف أخذته أنت، قد تقف مع الحق، وقد لا يؤثر هذا الموقف في دعم الحق، إنسان ضعيف، وقد تقف مع الباطل، وقد لا يؤثر هذا الموقف في ازدياد الباطل، لكن أخذت موقفاً.

الإنسان إن لم يستقم على أمر الله ولم يتحرك وفق منهجه لابدّ من أن يعتدي على الآخرين:

إذاً أيها الأخوة، القضية أن الإنسان إن لم يستقم على أمر الله، وإن لم يستنر بنور الله، وإن لم يتحرك وفق منهج الله، لا بد من أن يعتدي على حقوق الآخرين.

((تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه].

هل تصدقون أن العالم الغربي قتل ثلاثمئة ألف زنجي ؟ والله هناك جرائم مرتكبة بالعالم العقل لا يصدقها، هذا الكفر، من لوازم الكفر العدوان، العدوان يومي، بأحدث الطائرات f16، والأباتشي، قُتل أطفال صغار، ونساء ضعيفات، ألف و ثلاثمئة امرأة وطفل قتلوا في غزة، بأحدث الأسلحة، المجتمع الغربي بأكمله عقد مؤتمراً بشرم الشيخ، البيان الوحيد جئنا من أجل أن نمنع تهريب السلاح إلى فلسطين، هل تصدقون هذا الكلام ؟.

هذه الجرائم ضد الإنسانية، اعمل كلمة، تصريحاً، استنكرها، أبداً، جئنا من أجل منع تهريب السلاح إلى الفلسطينيين،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

في بعض البلاد المحتلة بشرق آسيا، وضعوا خمسة آلاف إنسان في قلعة كبيرة، وتركوهم بلا طعام ولا شراب حتى أكل بعضهم جلد بعضهم، وشربوا بولهم، ثم قصفوا بالطائرات حتى أبيدوا عن آخرهم، الخبر عادي جداً، شيء طبيعي.

أنا أقول: هؤلاء الطغاة كيف ينامون الليل ؟ هذا الذي هدم سبعين ألف بيت في غزة هذه السنة السادسة ولا زال حي يرزق، والله يمد بعمره، الله كبير،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

الله عزّ وجل شرفنا وكرمنا بعبادته وحده سبحانه:

لذلك:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات الآية: 7)

اشكر الله، يوجد باليابان شركات عملاقة، أهل اليابان ماذا يعبدون ؟ شيء لا يصدق هناك من يعبد الحجر، هناك من يعبد الشجر، هناك من يعبد الشمس والقمر، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الأعضاء التناسلية عند الرجل، هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد الجرذان في آسيا، فالله عز وجل شرفنا وكرمنا بعبادة الله وحده، الواحد الأحد، الفرد الصمد.

لذلك لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له، لا تقلق، إن الله سبحانه وتعالى قادر أن ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر.

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

شيء آخر: لا تقلق من وجود الباطل، الباطل قديم، الباطل قديم قدم الإنسان، ولكن البطولة أن لا ينفرد الباطل بالساحة، هناك باطل، وهناك ملاهي، وهناك جوامع، وهناك أعمال ساقطة، وهناك فن هابط لا يرضي الله، الباطل قديم، ولكن البطولة أن لا ينفرد الباطل بالساحة.

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

يكفيك، بلد فيه ما يقدر بخمسين مليون إنسان، وله ملك قوي جداً، بيده كل شيء، الجيش، والشرطة، والوزارات، والأموال، كل شيء بيده، فإذا عاداك مئة ألف بهذا البلد، وكان معك الملك، أنت رابح أم خاسر ؟ الكلام دقيق، مئة ألف عادوك في بلد، كلهم مواطنون عاديون، الملك الذي بيده كل شيء معك، فأنت الرابح الأول.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

كل شيء بيد الله عز وجل، كل شيء بيده، هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، أنت بالتوحيد وبالدعاء أقوى إنسان في الأرض.

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟.

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[ورد في الأثر].

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أي واحد منكم وقد يكون شاباً صغيراً، من أسرة فقيرة، وظيفته متواضعة جداً، إذا كان الله معك أنت أغنى إنسان، وأقوى إنسان، و أعلم إنسان، الله يحب المؤمن الذي نفسيته عالية جداً، أنت مؤمن الإيمان مرتبة علمية، وأخلاقية، وجمالية.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه.

لأنك مؤمن لك مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية.

من أقام أمر الله فيما يملك كفاه الله ما لا يملك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

بعضهم قال: حسبك الله أي يكفيك الله، يكفيك الله فيما لا تملك أسبابه، نحن هل نملك أسباب أن نلغي الغرب القوي كله ؟ لا نملك، العالم الإسلامي بأكمله لا يملك أن يلغي الغرب، حسبك الله فيما لا تملك أسبابه، وفيما تملك أسباب

ه (وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

كل إنسان هناك شيء لا يملكه، وشيء يملكه، فالذي تملك أسبابه المؤمنون يعاونك، المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية: 10)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية: 71)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

فيما لا تملك من أسبابه شيئاً،

(وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فيما تملك، أو أنت كإنسان تملك دائرة أمرك فيها نافذ، بيتك، كل إنسان له بيت هو الأب، هو المنفق، شيء طبيعي جداً أمره نافذ في زوجته، وفي أولاده، وفي بناته، لكن لا يملك ورماً خبيثاً، هذا شيء لا يملكه، لا يملك طاغية جباراً، فالله عز وجل كأنه يقول لنا: أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، انتهى الأمر.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

إذا لم تغير ما في نفسك من الشرود إلى الهدى، من المعصية إلى الطاعة، من الغفلة إلى الذكر، الله لا يغير شيئاً عندك، بل إن مشكلة المسلمين الأولى أنهم يفعلون ما يحبون، يعيشون وفق أهوائهم، وينتظرون معجزة من الله تنصرهم على أعدائهم، هذا شيء مستحيل

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ)

يكفيك الله فيما لا تملك أسبابه، أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك.

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

أما فيما تملك تحتاج إلى جنود، إلى من يعينك،

(وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (24-30): تفسير الآيتان 65 - 66 ، القوة سلاح للمؤمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-01-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً إنما خاطبه بمرتبته النبوية:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الخامسة والستين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً كما خاطب بقية الأنبياء:

(يَا يَحْيَى)

(سورة مريم الآية: 12)

(يَا عِيسَى)

(سورة آل عمران الآية: 55)

(يَا إِبْرَاهِيمُ)

(سورة هود الآية: 76)

لكن خاطبه بمرتبته النبوية،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وأحياناً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة الآية: 41)

فالأمر إذا كان متعلقاً بالدعوة

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

الرسالة منصب دعوي، وإذا كان الأمر متعلقاً بأمر الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هنا

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

معنى حرض أي حث، حثهم على القتال، أو حرض أي أثِرْ حماستهم، أو أغرهم بالقتال، أي قتال هذا؟.

خطاب الله عز وجل يتجه تارة إلى قلب الإنسان و تارة إلى عقله و تارة إليهما معاً:

أخواننا الكرام، الإنسان عقل وقلب، من أجل أن تحدث فيه قناعة ينبغي أن تخاطبه بالعلم، ومن أجل أن تحدث عنده موقفاً ينبغي أن تخاطب قلبه، فالإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، فالخطاب تارة يتجه إلى العقل، وتارة يتجه إلى القلب، وقد يتجه إلى العقل والقلب معاً.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

(سورة الانفطار)

يخاطب القلب.

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

يخاطب العقل، فالله سبحانه وتعالى يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يحرض المؤمنين على القتال، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفوس، وهو الذي يعلم حقيقتها، فالإنسان من دون ردع ينحرف، الردع أي الحق يحتاج إلى قوة، إلا أن الحق عند الآخر هو أن تكون قوياً، أما عند المؤمنين الحق ما جاء به الوحي السماوي، والحق الذي جاء به الوحي السماوي يحتاج إلى قوة، فرق كبير بين أن تعد أن الحق هو القوة ـ ومنطق هذا العصر إذا كنت قوياً فأنت على حق، الحق أن تكون قوياً ـ وأن تفرض ثقافتك على الآخر لأنك قوي.

الباطل إن لم نقف أمامه تتسع دوائره ويضيق على الحق دوائره:

حينما تعيش البشرية أن القوي ـ أي قوي ـ هو صاحب الحق، وأن الضعيف هو المخطئ، عندئذٍ البشرية تسير في طريق الهاوية، فالقوي يحتل البلاد، ينهب الثروات، يقتل الشباب، قد يقتل مليوناً، ويعيق مليوناً، ويشرد خمسة ملايين من أجل الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، ما من عصر انتهكت فيه حقوق الإنسان كهذا العصر، تحت مسميات فارغة، تحت طروحات باطلة، فالمسلم مادام ضعيفاً لا يستطيع أن يغير شيئاً، يوم يذوب قلب المسلم في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن سكت استباحوه، وإن تكلم قتلوه.

((تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ثم يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه]

فالباطل إن لم تقف أمامه، إن لم تشعره أنك قوي، تتسع دوائره، ويضيق على الحق دوائره، وهذا ما يجري في العالم.

مثلاً: فتاة في أمريكا ارتدت ثياب السحاقيات، والسحاق ؛ شذوذ بين الإناث، محرم قطعاً في الشرائع الإلهية، وفي القوانين الأرضية، فتاة في نيويورك بمدرسة ثانوية ارتدت هذه الثياب، يبدو أن المدير على بقية مروءة، ففصلها، أقام أبوها دعوى على المدير وربح الدعوى وكلفه بمبلغ كبير، لأنه اعتدى على حرية الفتاة، واضح ؟ هذا في نيويورك.

في باريس فتاة وضعت على رأسها خرقة تنفيذاً لدين يدين به ربع سكان الأرض قامت الدنيا ولم تقعد، لا يوجد منطق أبداً.

طائرة سقطت في لوكربي، دُفعت دية كل راكب خمسمئة مليون بالليرة السورية، مجموع الركاب مليار ان وسبعمئة مليون دولار، مئات القتلى يموتون كل يوم عندنا ولا شيء !.

الحق قوة و الباطل ضعف:

لذلك الحق إذا كان ضعيفاً، فهناك التطاول، والاحتلال، ونهب الثروات، وسحق المنجزات، وتدمير كل شيء، هذا الذي يجري في البلاد الإسلامية، خمس دول إسلامية محتلة هناك دولة تملك أكبر احتياطي نفط في العالم، 450 مليار برميل، وهذا البلد أرخص بلد في العالم بتكلفة استخراج البرميل، خمسة و ثمانون سنتاً، في بلاد أخرى ثمانية دولارات و نصف كلفة استخراج البرميل، ثروات طائلة، بلاد شاسعة، مركز جغرافي مذهل، فالحق ضعيف، الأقوياء يحتلون، ويسفكون الدماء، وينهبون الثروات لأن الحق ضعيف، يجب أن يكون الحق قوياً، لكن إن كنت قوياً ليس معنى هذا أنك على حق، أما عندهم ما دمت قوياً فأنا على حق، مايك مترايت، ما دمت أنت قوي فأنت على حق.

من لم يكن متفوقاً في دنياه فلن يحترم دينه:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

استعد للمواجهة، دولة أحياناً تكون نووية، قد تقضي خمسين عاماً قادمة، ومئة عام قادمة، ولا تحتاج أن تستخدم هذا السلاح، لكنها لأنها دولة نووية مرهوبة الجانب، هذا المعنى، لذلك قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

لماذا ؟

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

الإرهاب هنا من أجل ألا يكون الإرهاب على المسلمين.

أيها الأخوة، هذا معنى قول الله عز وجل

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

سويسرا بلد في أوربا، كل مواطن فيها هو عنصر في الجيش، سلاحه عنده وبأي إشارة يصبح الشعب كله مسلحاً، مع أن سويسرا بلد مسالم، ما دخلت الحرب العالمية الثانية، لماذا يكون هذا المجتمع مرهوب الجانب ؟ إذا كان قوياً، كأن الآية تقول: أيها المؤمنون كونوا أقوياء، لأن وحي السماء يحتاج إلى قوة، دعك من القوة العسكرية، أنت كطالب إذا تفوقت لك قيمة في الجامعة، وعند أهلك، ومع من حولك، التفوق في الدراسة قوة، التفوق في التجارة قوة، في الصناعة قوة، التفوق مطلوب، أقول لكم هذا الرأي وأنا واثق من صوابه: ما لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك.

إعداد القوة التي أمر الله بها موجهة إلى أعداء الله وإلى من أنكر أحقية هذا الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

أي استعد،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

القوة مطلقة، الخيل في عهد النبي هو القوة، بعد حين المنجنيق هو القوة، المدرعات هي القوة، الآن الطائرات هي القوة، قد تدمر الطائرات البنية التحتية لبلد ما تدميراً كاملاً، فما لم يكن لك سلاح جو قوي لن تستطيع أن تحمي منشآتك، كأن الله عز وجل ما أراد المؤمنين أن يكونوا ضعافاً أرادهم أن يكونوا أقوياء.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

قتال من ؟ قال:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

منطلق دفاعي، وليس هجومياً.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة البقرة)

هناك دول الآن كبيرة جداً، لم تدخل حرباً من الخمسينات، لكنها مرهوبة الجانب، لا يفكر أحد في الاعتداء عليها.

شيء آخر:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

هذا الجهاد البنائي

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ـ من ؟ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

هذه القوة موجهة إلى أعداء الله، إلى من أنكر أحقية هذا الدين، من أنكر الدار الآخرة، من عاش لشهواته، من أراد إفساد الخلق.

القراءات في القرآن الكريم:

1 ـ قراءة البحث و الإيمان:

أساساً أيها الأخوة الله عز وجل حينما قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

(سورة العلق)

هذه قراءة البحث والإيمان.

2 ـ قراءة الشكر و العرفان:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

(سورة العلق)

هذه قراءة الشكر والعرفان.

3 ـ قراءة الوحي و الإذعان:

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

هذه قراءة الوحي والإذعان.

4 ـ قراءة العدوان و الطغيان:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

(سورة العلق)

هذه قراءة العدوان والطغيان، هناك قراءة الإيمان، وقراءة الشكران، وقراءة الوحي والإذعان، وقراءة الطغيان.

قوم عاد نموذج للأقوام المستعلية التي طغت في الأرض:

حينما يستخدم الإنسان العلم ليطغى به، ليفرض إباحيته على شعوب الأرض، ماذا فعلت عاد ؟ قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

عاد تفوقت في شتى الميادين، وما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه هلك من هو أشد منهم قوة، إلا عاداً حينما أهلكها قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية: 15)

تفوقت في العمران:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في الصناعة:

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في الناحية العسكرية:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وتفوقت في العلم:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

ومع التفوق العمراني، والعلمي، والعسكري، كانوا متغطرسين، وقالوا: من أشد منا قوة ؟ ماذا فعلوا ؟

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

الطغيان بالقصف، والفساد بالأفلام.

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

المؤمن القويٌّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف:

أيها الأخوة، إذاً ينبغي أن تكون قوياً، ما علاقة المؤمنين بهذه الآية ؟ إذا كنت طالباً في الجامعة ينبغي أن تكون متفوقاً، فإذا كنت متفوقاً وديّناً اقتنع الناس بالدين، أما إذا كنت كسولاً وديّناً ربطوا بين الدين وبين الكسل، إذا كنت متفوقاً بالتجارة أقنعت الآخر بأن يكون تاجراً مؤمناً مستقيماً، أما إذا تخلفت في التجارة عزوا تخلفك إلى دينك.

لذلك الآن ما لم تكن متفوقاً في الدنيا لا يحترم دينك، أو ما لم تكن قوياً لا يحترم دينك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا كله تحت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

العدو الطرف الآخر، الذي شرد عن الله، لا ينضبط بقيم، ولا بمبادئ، لكن يتحرك وفق مصلحته، فإن رآك ضعيفاً احتل أرضك، ونهب ثرواتك، هذا الذي يحصل.

الله تعالى أعطى المؤمن قوة تحمل كبيرة فإذا حارب يفوز بإحدى الحسنيين الشهادة أو النصر:

لذلك أيها الأخوة البلاد الإسلامية التي اُحتلت، والتي قامت فيها مقاومة كبيرة جداً، ثلاثون دولة احتلوا دولة بالمقياس الحضاري متخلفة، هؤلاء المقاتلون واجهوا ثلاثين دولة واستطاعوا أن يحتلوا 74% من بلادهم، وأعادوها إلى حوزتهم، لذلك الطرف الآخر يعد للمليون الآن قبل أن يقرر أن يحتل بلداً إسلامياً آخر، هذا إنجاز كبير، هذه المقاومة.

يقول أحد كبار الموظفين في دولة عملاقة في الناحية العسكرية، قال: ماذا نفعل بحاملة الطائرات، والصواريخ العابرة للقارات، وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا ؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت باختياره ليهز كياننا ؟ هذا ليس له حل.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى أعطى المؤمن قوة تحمل كبيرة جداً، إياك أن تتهم أن المؤمن يصلي فقط، المؤمن إنسان آخر بقيم، بمبادئ، بمنطلقات، بأخلاق.

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

هناك أسباب، المؤمن موحد، لا يرى مع الله أحداً، المؤمن يستعين بالله عز وجل، المؤمن يوفقه الله عز وجل، يلهمه الصواب، يرفع معنوياته، يعلي قدره.

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

والمؤمن إذا حارب يفوز بإحدى الحسنيين، إما أن ينتصر، وإما أن يستشهد، وفي كلا الحالتين فهو رابح.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة الآية: 52)

إما الشهادة أو النصر.

المؤمن رقم صعب لا يباع و لا يُشترى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

مؤدى الآية: أيها المؤمن يجب أن تكون قوياً، ومرة ثانية أخاطب الأخوة الشباب، معنى أن تكون قوياً أنت، أن تكون متفوقاً، الطالب الأول، الموظف الأول، المهندس الأول، الطبيب الأول، المدرس الأول، المحامي الأول، الصانع الأول، التاجر الأول.

أقول لكم دائماً: لِمَ ترضى أيها الأخ الكريم أن تكون رقماً بسيطاً من دهماء الناس ؟ من عامتهم ؟ من سوقتهم ؟

مرة سألت طلابي: من يذكر اسم تاجر كبير عاش في دمشق عام ألف و ستمئة و ثلاثة و ثمانين وله علامة تامة ؟ الطلاب فكروا، وفكروا، وفكروا، لم يستطع أحد الإجابة، قلت لهم: وأنا لا أعرف، لكن من منا ينسى صلاح الدين الأيوبي ؟ من منا ينسى عمر بن الخطاب ؟ هؤلاء القادة العظام الذين فتحوا البلاد، العلماء الكبار، لِمَ ترضى أن تكون رقماً بسيطاً ؟ لِمَ لا تكون رقماً صعباً ؟.

أقول لكم هذه الكلمة: لك قناعة معينة، إذا غيرت قناعتك مقابل مبلغ من المال انتهيت عند الله، هناك إنسان يغير قناعته بمئة ليرة، و إنسان بألف ليرة، و إنسان بمئة ألف، و إنسان بمليون، لو غيرت قناعتك بمئة مليار انتهيت عند الله، معنى هذا أنت إنسان لك رقم تُشترى به، أما المؤمن رقم صعب.

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

العلاقة بين الحرية والقوة علاقة متداخلة:

أيها الأخوة، لأن المسلمين يعانون ما يعانون من ضعفهم، من تفرقهم، من شتاتهم، من خصوماتهم، بأسهم بينهم شديد، وسلمهم لأعدائهم، يشترون كل شيء.

" ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، ويل لأمة تلبس ما لا تنسج، ويل لأمة تستخدم آلة لا تصنعها، بل ويل لأمة تشتري السلاح ".

كنت مرة في مصر فقال أحد العلماء في الخطبة ـ كنا في مؤتمر ـ: إذا أردت أن يكون قرارك من رأسك فلا تأكل إلا من فأسك.

إذا كان هناك اكتفاء ذاتي، الثروات صنعناها، الأراضي استصلحناها، اكتفينا من الناحية الغذائية، آلاتنا من صنعنا، عندئذٍ لنا قرار، أنت حر بقدر ما أنت قوي، وأنت قوي بقدر ما أنت حر، العلاقة بين الحرية والقوة علاقة متداخلة، أنت قوي إذا كنت حراً، وأنت حر إذا كنت قوياً، أقول لكم هذا الكلام من معاناة، المسلمون يعانون ما يعانون، لأنهم ضعاف، ولأن بأسهم بينهم، ولأن سلمهم لأعدائهم، ولأنهم متفرقون، ولأنهم يتنازعون.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 46)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

المؤمن مع خالق السماوات والأرض فيؤيده و ينصره ويلقي في قلبه الثبات:

أخواننا الكرام، صدقوا ولا أبالغ، أنه من يتابع الإعلام المعادي في حرب غزة يفاجأ أن الذي يقع في أيديهم من الأسرى يسألونهم، ماذا يرتدي جنودكم ؟ يقولون: المبرقع، قالوا: لا، أنتم تكذبون، ترتدون ثياباً بيضاء، فهؤلاء هم الملائكة بنص القرآن الكريم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ الطرف الآخر جبان يخاف، المؤمن شجاع، لأن الموت الذي ينخلع له قلب الطرف الآخر هو محبب عند المؤمن.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

أنتم ترون في بعض مدن الألعاب السيارات الكهربائية، تجد معركة بين الصغار في هذه السيارات، لكن صاحب هذه المنشأة بضغط على مفتاح يعطل الكهرباء فيتوقف كل شيء، فإذا كنت مع صاحب هذه المنشأة أمرك سهل جداً.

أي المؤمن مع خالق السماوات والأرض، الله عز وجل يؤيده، ينصره، يلقي في قلبه الثبات، يلقي في قلب عدوه الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية: 151)

هناك قصص مؤداها أنه يستحيل أن ينتصر الكفار على المسلمين في الحرب إذا كانوا مؤمنين طبعاً.

لذلك هناك ملك فرنسي وقع أسيراً في المنصورة في عام ألف و مئتين و خمسين، قال هذه الكلمات وهي محفوظة في المتحف في باريس، قال: لا يمكن أن ننتصر على المسلمين في الحرب، ولكن ذكر الفرقة، والفساد، والرشوة، والنساء، والنزاعات الداخلية، لهذا ينتصرون علينا، أما في الحرب المؤمن قوي.

والدليل العدو في حرب جنوب لبنان، وحرب غزة، انتقلت أهدافه من الأمن إلى البقاء، كان الحديث عن الأمن فقط، الآن الحديث في صحف العدو عن البقاء، وصار هناك توازن رعب، كانت حروبهم نزهة، أما نحن نضطرب فندخل الملاجئ، الآن يَقصفون ويُقصفون، نخاف ويخافون، ننطلق إلى الملاجئ وينطلقون، هذا اسمه توازن رعب لم يكن من قبل، والحسم انتهى، هم يبدؤون الحرب وهم ينهونها، الآن يبدؤونها، أما النهاية ليست بيدهم، إلا بتدخل أجنبي لصالحهم طبعاً.

أيها الأخوة، المقاومة فكر وليست أشخاصاً.

قضية لغوية دقيقة جداً تُحرض المسلمين على أن يكونوا أقوياء:

أخواننا الكرام، هناك قضية لغوية دقيقة جداً، عندنا أفعال إذا شدّدنا وسطها، أي وضعنا شدة على الحرف الوسطي بها، أو أضفنا لها همزة ينعكس معناها، مثلاً: قشّر تفاحة أي أزال قشرها، القشر ملازم الفاكهة، قشّرتها أي أزلت قشرها، مرضّ جلب المرض أم أزال المرض ؟ أزال المرض، بالشدة، مَرِض أي أصابه المرض، مرضّ شفاه من مرضه، نص من دون تشكيل، أو من دون تنقيط، هذا نص معجم، مبهم، أعجمه أي أزال عجمته، السن باء، والسن الثاني نون، هذه تاء مربوطة، عندما نقطناه كان مبهماً أعجماً فبالتنقيط أزلنا عجمته.

إذاً عندنا أفعال عندما نضعف وسطها، أو نضيف عليها همزة ينعكس معناها، صار المعنى مناقضاً لأصل اشتقاقها، أوضح مثل قشّر، أي أزال القشرة، مرضّ ؛ أزال المرض، أعجم ؛ أزال العجمة، أقسط.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

(سورة الجن)

الظالمون، أقسط عدداً أي أزال الظلم، الآن:

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً)

(سورة يوسف الآية: 85)

أي حتى تهلك نفسك، حرضاً ؛ أي هالكاً، حرضّ أبعد الهلاك، أي إذا كنتم أيها المؤمنون ضعافاً فأنتم هالكون كما حالنا اليوم، متى يزول هلاككم ؟ إذا كنتم أقوياء.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

أفعال كثيرة، قشّر ؛ أزال القشرة، مرضّ ؛ أزال المرض، أقسط ؛ أزال الظلم.

(تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً)

أي هالكاً، فحرضّ ؛ أزال شبح الهلاك، أي: أيها المسلمون **!** أيها المؤمنون **!** إن لم تكونوا أقوياء فأنتم هالكون، لأن العدو لا يرحمكم، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة من أهلها، فالمسلم يجب أن يكون قوياً، والدليل:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[مسلم وابن ماجه و أحمد عن أبي هريرة]

فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى:

بل إنني أقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، بل يجب، لأن فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى، والقوة أنواع ثلاثة، قوة المنصب، فأنت بجرة قلم تحق حقاً وتبطل باطلاً، وقوة العلم، فأنت بالعلم تبدد الظلام، تبدد الجهل، تبعد الخرافات، الترهات، الأباطيل، الضلالات، وقوة المال، أنت بالمال تبعد شبح الفقر.

((وكاد الفقر أن يكون كفراً))

[أخرجه أحمد بن منيع عن أنس بن مالك أو الحسن البصري]

وكاد الفقر أن يكون إرهاباً، وكاد الفقر أن يكون جريمة، وكاد الفقر أن يكون لا مبالاة.

فلذلك بالمال الحلال تبعد شبح الفقر، فالفقر والتخلف، والفقر والجريمة متلازمان.

على الإنسان أن يكون قوياً لا على حساب مبادئه و قيمه بل وفق منهج الله:

فلذلك أيها الأخوة الكرام، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال)

في عهد الصحابة العشرة تغلب مئة، العشرون يغلبون مئتين،

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ملخص هذا الدرس ينبغي أن تكون قوياً، لكن أن تكون قوياً لا على حساب مبادئك، ولا على حساب قيمك، أن تكون قوياً إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله، لكن من يمنعك أن تكون قوياً في علمك؟ هل يمنعك أحد ؟ لا، من يمنعك أن تكون قوياً في بيتك ؟ بيت مسلم مؤمن، من يمنعك أن تكون قوياً في عملك ؟ لا أحد، فكأن علاقتنا بهذه الآية علاقة مفهوم القوة بأوسع معانيه، يحب أن تكون قوياً.

الصدق و الأمانة و العفة صفات تلفت نظر الآخر إلى الدين الإسلامي:

أنا أذكر أن أحد الأخوة الكرام كان طالباً يحضر هذه الدروس، وكان أبوه يعارضه معارضة كبيرة جداً، فلما نجح بتفوق في الشهادة الإعدادية قال لأخيه: خذ أخاك معك إلى المسجد، اختلف الوضع، عندما رآه متفوقاً قال: خذ أخاك معك إلى المسجد.

فأنا أقول لكم أيها الأخوة: ما دمت منتمياً إلى مسجد ينبغي أن تكون قوياً بدراستك، بتجارتك، باختصاصك، طبيب مسلم لك مسجد، ينبغي أن تكون الطبيب الأول، لأنك عندئذٍ تقنع الناس بالدين، أنت لا يمكن أن تقنع بالدين إذا رأيت المتدين ضعيفاً، خنوعاً، متكلاً، غير متقن لعمله، لا تقنع بالدين إذا رأيت إنساناً له ديانة أرضية من شرق آسيا، قذر، يتسول، هل يخطر في بالك لو لساعة واحدة أن تشتري كتاباً عن ديانته و تطلع عليها ؟ مستحيل ! ما الذي يلفت النظر في المسلم ؟ قوته، أمانته.

لذلك:

((كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه،

وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

لذلك إن أردت أن تكون داعية صامتاً فكن قوياً، بأوسع معاني القوة التي لا تحتاج إلى عنف، كن قوياً بعلمك، كن قوياً باختصاصك، قوياً في بيتك، قوياً بإرادتك، قوياً بالتفوق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (25-30): تفسير الآيات 66 - 68 ، قياس الوسع بالتكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-01-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الحدّ الأقصى و الحدّ الأعلى:

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السادسة والستين، وهي قوله تعالى:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة، قد يسأل سائل في الآية السابقة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

(سورة الأنفال الآية 65)

أي واحد لعشرة.

(وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(سورة الأنفال)

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

هاتان الآيتان يشف منهما موضوع دقيق في الإسلام، هذا الموضوع ألخصه بكلمتين هناك الحد الأدنى، وهناك الحد الأقصى، أضرب أمثلة:

مسيلمة الكذاب قبض على صحابيين، فجيء بهما إليه، فقال للأول: أتشهد أنني رسول الله ؟ قال: ما سمعت شيئاً، فقطع رأسه فمات، فسأل الثاني، أتشهد أني رسول الله ؟ قال: أشهد أنك رسول الله، الأمر بلغ النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي: أما الأول فقد أعزّ دين الله فأعزه الله ـ الذي قُطع رأسه عندما قال لمسيلمة: ما سمعت شيئاً ـ وأما الثاني ؟ الصحابة قلقوا عليه أشد القلق، قال: وأما الثاني فقد قبل رخصة الله، هناك موقف بطولي، وهناك موقف مقبول عند الله، الأول الحد الأقصى، والثاني الحد الأدنى، هذا موضوع دقيق في الإسلام، هناك حدّ أقصى، وهناك حدّ أدنى.

عظمة هذا الدين وجود حدٍّ أدنى يستطيعه كل الناس و حدّ أعلى يفعله الأبطال:

حينما أُلزم علماء المسلمين أن يقولوا بخلق القرآن، بعضهم كنوا عن موافقتهم بكناية قال: القرآن، والإنجيل، والتوراة، والزبور كلها مخلوقة وقصد أصابعه، هذا الحد الأدنى ونجوا.

أما ابن حنبل قال: لا، لا أقول بخلق القرآن، فدخل السجن وعُذب كثيراً، ابن حنبل أخذ الحدّ الأعلى، بقية العلماء أخذوا الحدّ الأدنى.

إذاً عظمة هذا الدين أنه يوجد حدّ أدنى يستطيعه كل الناس، و حدّ أعلى يفعله الأبطال، فلو ألغينا الحدّ الأعلى لألغيت البطولة في الأرض، لو أن أصحاب الأخدود قبلوا تحت تهديد القتل أنه إله، لا شيء عليهم، الله عز وجل ما كلف الإنسان ما لا يطيق، لكن أصحاب الأخدود رفضوا أن يعترفوا بألوهيته، فدفعوا حياتهم ثمناً لهذا الموقف البطل.

ماشطة بنت فرعون وقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، قالت لها بنت فرعون: ألك إله غير أبي ؟ قالت لها: الله ربي وربك ورب أبيك، أخبرت أباها، جيء بها وعندها خمسة أولاد، وجاء بقدر فيه زيت مغلي، فقال لها: ألك إله غيري ؟ قالت: الله ربي وربك، أمسك ولدها الأول وألقاه في الزيت، حتى انفصل لحمه عن عظمه، ورأته بعينها فأمسك الثاني، قال: لك إله غيري ؟ قالت: الله ربي وربك، فأمسك بالثاني وألقاه في القدر حتى انفصلت عظامه عن لحمه، وأمسك بالثالث، قال لها: ألك إله غيري؟ قالت: الله ربي وربك ألقاه في القدر، أخذ الرابع، سألها ألك إله غيري: قالت: الله ربي وربك، ألقاه في القدر، الخامس رضيع، فلما قال لها: ألك إله غيري ؟ فسكتت، والحديث في الصحاح، فأنطقه الله أن يا أمي اثبتي أنت على حق، قالت: الله ربي وربك، فألقاه في القدر، ثم ألقاها في القدر، في أثناء الإسراء والمعراج شمّ النبي رائحة لم يشم مثلها قط، قال: يا جبريل ما هذه الرائحة ؟ قال جبريل: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون.

كلُّ إنسان مخير وعندما يختار الأيسر والأسهل لا شيء عليه:

معنى ذلك بكل موقف هناك حدّ أعلى يجعلك بطلاً، والله عز وجل ما كلفك فوق ما تطيق، فعمل لك حداً أدنى، هذا شأن المسلمين في كل مكان، وهناك حدّ أعلى له ثمن باهظ وله مكانة كبيرة، وهناك حدّ أدنى لا تستطيع أن تضحي بحياتك، فقبلت، لذلك الله عز وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: 286)

فالإنسان عندما يختار الأيسر والأسهل لا شيء عليه.

لكن هناك قصة ذكرتها مرة في بلد إسلامي، الله عز وجل كافأ الأول برقم فلكي ـ في ذلك الوقت كنت بتركيا ـ قلت: أعطى الأول عشرة آلاف دولار، والثاني أعطاه عشرة آلاف تركي، الثاني أخذ أجراً لكنه قليل جداً بالقياس إلى أجر البطل.

فأنت مخير، الله عز وجل ما كلفك ما لا تطيق، إن أردت أن تكون بطلاً هناك ثمن كبير جداً، و مكافأة فلكية، إن أردت أن تكون كأي إنسان عادي الحد الأدنى تأخذ به.

فلذلك مع قوة الإيمان، مع نزع الدنيا من قلب الإنسان، مع البعد، مع أهل الضلال، قد يأخذ الإنسان الموقف الأعلى، قد يكون إيمانه قوياً جداً، عندئذٍ تأتي الآية الأولى،

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

هناك حدّ أدنى، وهناك حدّ أقصى.

كل أمر كلف الله به الإنسان هو أمر ضمن وسعه:

أيها الأخوة، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن الله جلّ جلاله قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

أي مستحيل وألف ألفِ مستحيل أن تكلف بأمر فوق طاقتك، إلا أن المشكلة أن الناس يقيسون التكليف بوسعهم، الأصح أن تقيس الوسع بالتكليف، ما دام هذا الأمر كلفك الله به إذاً قطعاً ضمن وسعك، حينما يقول الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية: 30)

يجب أن تؤمن كل خلية بجسمك، وكل قطرة في دمك، أن غضّ البصر في أصعب الأزمنة، وفي زمن الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، في زمن أن المرأة تمشي في الطريق تبدو كل مفاتنها في هذا الزمن الصعب غض البصر ضمن وسعك، ما دام هناك أمر إلهي هذا الأمر ضمن وسع الإنسان، لكن ضمن وسع الإنسان الصادق الذي أراد الدار الآخرة، الذي أراد الله ورسوله والدار الآخرة، أما إذا كان هناك إصرار على الدنيا يقول لك: هذا شيء فوق طاقتي، متى يرى هذا الشيء فوق طاقته ؟ إذا أراد الدنيا.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام:

أيها الأخوة، الحقيقة الدقيقة: قس الوسع بالتكليف، الأصل هو التكليف، فما دام الله قد كلفك هذا الأمر يقيناً وقطعاً ضمن وسعك، أما الناس يقيسون التكليف بوسعهم، هو مُصّر على المعصية، بعيد عن الله، آثر الدنيا، يقول لك: لا أستطيع، وقد قيل: اعلم يقيناً أن الأمر الذي تتوهم أنك لا تستطيعه هو الأمر الذي لا تريد أن تفعله، وهناك قصص لا تعد ولا تحصى.

إنسان في صعيد مصر، أميّ، لا يقرأ ولا يكتب، أرسل ابنه إلى الأزهر، وعاد بعد خمس سنوات شيخاً، وألقى خطبة في جامع القرية، فبكى الأب بكاءً مراً، وقد ظن الناس أن هذا البكاء الشديد كان فرحاً بابنه الذي أصبح خطيباً، لكن الحقيقة هي العكس، كان هذا البكاء الشديد أسفاً على عمر ضيعه في الجهل، في اليوم التالي ركب دابته وتوجه إلى القاهرة، الطريق ألف كيلو متر، وعلى الدابة مسير شهر، فوصل بعد شهر إلى القاهرة، سأل: أين الأزعر ؟ لا يحفظ اسمه، قيل له: لا يوجد عندنا أزعر، عندنا أزهر، قال: هذا الذي يتعلم الطلاب به، أخذوه في الخامسة والخمسين إلى الأزهر، فتعلم القراءة والكتابة، ثم طلب العلم ومات في السادسة والتسعين وهو شيخ الأزهر.

إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام، والله مستحيل وألف ألفِ مستحيل أن تطمح بشيء وتصدق في طلبه ولا تصل إليه، من سابع المستحيلات.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

ما دام الله قد كلفك فهذا ضمن وسع الإنسان، لقوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

مستوى الإيمان الضعيف مقبول عند الله مع مضي الزمن والفتوحات والغنائم والأموال:

لكن سؤال:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ)

الآن تشير إلى الزمان، يبدو أن الصحابة الكرام وهم مع سيد الأنام كانوا في أعلى درجات الإيمان، وفي أعلى درجات البعد عن الدنيا، وفي أعلى درجات البعد عن الفتن، وفي أعلى درجات القرب من الله، بهذا القرب، وبهذا الإقبال، وبهذا البعد عن الدنيا، وبهذا الصدق الكبير، كان الواحد منهم بعشرة:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

لكن مع مضي الزمن، والفتوحات، والغنائم، والأموال، والاستقرار، هذا يضعف الإيمان، أو مع الإقبال على الدنيا، وضعف الإقبال على الآخرة، هذا يضعف الإيمان، مع انتشار الفتن هذا يضعف الإيمان، لذلك جاء التوقيت زمني،

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً)

لكن مستوى الإيمان الضعيف مقبول عند الله، بالجامعة يوجد مقبول، و وسط، و جيد، و ممتاز، و درجة شرف، مراتب النجاح هناك نجاح مقبول، و هناك نجاح بدرجة شرف.
أيها الأخوة، الملخص أنك إذا واجهت رجلين، وفررت منهما، فأنت فار من الزحف وهي من الكبائر، لأن هذا الحد الأدنى، أما إذا واجهت عشرة وفررت منهم هذا دليل ضعف الإيمان، لكن لو فررت من ثلاثة لا تعد عديم الإيمان، أما من اثنين أقل من ضعيف، أي راسب.

الله عز وجل مع المؤمنين بالتوفيق و التأييد و النصر و الحفظ:

أما قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

ماذا أقول بهذه الآية ؟ هذه معية خاصة، هو معهم بالتوفيق، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالحفظ، معهم بالرعاية، لو إنسان قال: سافرت إلى بلاد الغرب ومعي خمسة دولار، تصدقه ؟ مستحيل! لكن لو علمت أن معه إنساناً معه ملايين فالكلام صحيح، أو إنسان ضعيف قال: نقلت هذه الصخرة من هنا إلى هنا، كلام غير مقبول، لو علمت أن معه بطلاً بالوزن الثقيل أعانه عليها صار الكلام مقبولاً.
إذا قلت:

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

أي معهم بقدرته، معهم بعلمه، معهم بغناه، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ فالبطولة أن تكون مع الله، والقضية الدقيقة أن هناك معية عامة حينما يقول الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: 4)

أي معكم بعلمه، هناك معية عامة، أما إذا قال الله عز وجل: (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) هذه معية خاصة، معهم بالتوفيق، معهم بالحفظ، معهم بالنجاح، معهم بالإكرام، معهم بالعطاء، مع الخاصة رائعة جداً.

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة الأنفال: الآية 66)

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

هذه معية خاصة.

المعية الخاصة لها ثمن و ثمنها الآية التالية:

الله عز وجل يبين لنا أن هذه المعية الخاصة لها ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة الآية: 12)

هذا ثمن معية الله عز وجل، ولا تنسوا أبداً أنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ الآيات تصبح:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

دلالات القصة التالية:

أيها الأخوة الكرام، في موضوع غزوة بدر، كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام اختار لأصحابه مكاناً مناسباً في هذه الغزوة، فجاء صحابي جليل اسمه الحُباب بن المنذر ـ أنا ما رأيت قصة لها دلالات كهذه القصة ـ قال له: يا رسول الله هذا الموقع وحي أوحاه الله أم هو الرأي والمشورة ؟ إذا كان وحياً لا أتكلم ولا كلمة، أما إذا كان اجتهاداً لي كلام، لكن حكمة الله المطلقة أن الله حجب عن نبيه الموقع المناسب، حجبه عنه وحياً، وحجبه عنه اجتهاداً، وحجبه عنه إلهاماً، فجاء هذا الصحابي بأدب جمٍّ قال له: يا رسول الله هذا المكان وحي أوحاه الله إليك أم هو الرأي والمشورة ؟ قال له: هو الرأي والمشورة، قال له: والله يا رسول الله ليس بموقع، أي هذا الموقع غير مناسب، النبي الكريم ببساطة وبعفوية وبمودة قال له: أين الموقع المناسب ؟ أشار له إلى موقع آخر، فأعطى النبي أمراً لأصحابه أن ينتقلوا إلى هذا الموقع ـ القصة دقيقة جداً ومعبرة جداً ـ القصة تعني أن النبي معصوم من أن يخطئ في أفعاله، وأقواله، وإقراره، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة حجب الله عنه الموقع المناسب، حجبه وحياً، وحجبه إلهاماً،

وحجبه اجتهاداً، فكان هذا الموقع الذي اختاره لم يعجب هذا الصحابي، هذا الصحابي من شدة أدبه قبل أن يدلي برأيه قال له: هذا الموضع وحي أم رأي ؟ فإن كان وحياً لا أتكلم و لا كلمة، وإن كان رأياً أنصح، الآن النبي معصوم.

إلا أن فضيلة واحدةً لا يمكن أن تبدو منه، فضيلة الرجوع إلى الصواب، هو معصوم، فكيف يظهر بهذه المكرمة ؟ وهذه الفضيلة ؟ لا بد أن يحجب عنه الموضع المناسب وحياً، وإلهاماً، واجتهاداً، ويأتي صحابي مؤدب جداً ويسأله ؟ يجيبه أن هذا الرأي والمشورة، يقول له: ليس بموقع.

لذلك هذه القصة لها دلالات كبيرة جداً تبين أنه حتى الفضيلة لا يمكن أن تظهر من النبي لأنه معصوم، الله عز وجل هيأ له ظرفاً دقيقاً، وظهرت هذه الفضيلة، فضيلة الإصغاء إلى الناصح، فضيلة الرجوع إلى الصواب، فكانت هذه القصة من معالم سيرته النبوية صلى الله عليه وسلم.

من كان مع الله كان الله معه:

أما كلمة

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

أي عندما كان في الغار، ووصل الكفار إليه، الحقيقة هناك ملمح آخر دقيق جداً هو أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أخذ بالأسباب، هيأ من يأتيه بزاد، من يأتيه بالأخبار، من يمحُو الآثار، اتجه جنوباً والمدينة شمالاً، اتجه ساحلا والمدينة في الداخل، قبع في غار ثور أياماً ثلاثة وقت شدة الطلب، فكل ثغرة غطاها، إذاً هو أخذ بالأسباب، هذا منهج أخذ بالأسباب كأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

لكن واقع العالم أن الغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألهها، ونسي الله، فوقع في الشرك، وأن الشرق لم يأمر بها أصلاً فوقع في المعصية، والصواب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، لكن حينما وصل المطاردون إليه هناك ملمح دقيق جداً، لو أنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، ووصلوا إليه، لانهارت قواه، لكنه أخذ بالأسباب طاعة لله، واعتمد على الله، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر: " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، فقال:

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

أي أنت مع الله قوي جداً، أنت مؤمن ضعيف بمرتبة اجتماعية متدنية، و دخل متواضع جداً، لا يعرفك أحد، لست مشهوراً، إذا كنت مع الله أنت أقوى الناس، وأذكى الناس، لأنك تأخذ قوة الله، وتأخذ علم الله، وتأخذ رحمة الله، فالأصل أن تكون مع الله.

من كان مع الله أيده الله بالسكينة والطمأنينة والسعادة:

لذلك

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

كلمة مع قليلة ؟ مثلاً: مواطن متواضع، دخله محدود، ضارب آلة كاتبة، بيته بأقصى المدينة، بيته ستون متراً، لكن الملك معه، صار أقوى من كل وزراء الملك.

فأنت يجب أن تعلم ماذا أن يكون الله معك، ولا تنسى هذه المقولة: "وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ".

لا تنسى هذه المقولة: " يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ ".

حينما تكون مع الله ينزل على قلبك السكينة، السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة أكبر عطاء إلهي، طمأنينة، ثقة، قوة شخصية، سعادة، رضا، تفاؤل، معنويات مرتفعة جداً، هذه السكينة.

استشارة النبي الكريم أصحابه في أسرى معركة بدر:

أيها الأخوة الكرام، شيء آخر: هذه الموقعة ـ موقعة بدر ـ تمّ أسر سبعين قرشياً، فالنبي الكريم استشار أصحابه الكرام، فقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ ماذا نفعل بهم ؟ إن الله قد مكنكم منهم، وإنما هم أخوانكم بالأمس، فقال أبو بكر: "يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والأخوة، استبقهم، أي اعفُ عنهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضداً "، فقال عليه الصلاة والسلام: ما تقول يا بن الخطاب ؟

نحن أحياناً بالأخبار نسمع أن هذا الوزير من الصقور، وهذا الوزير من الحمائل، هناك وزير صقر، وهناك وزير حمامة، فلما سأل سيدنا عمر، قال له: " يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وأن تمكن علياً من عقيل فيضرب علي عنقه، وتمكن حمزة من فلان حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين،

هؤلاء صناديد قريش، وأئمتهم، وقادتهم، فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون ".

وقال عبد الله بن رواحة: "يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً " فقال العباس وهو يسمع ما يقول: " قطعت رحمك"، قال أبو أيوب: فقلنا ـ أي الأنصارـ: "إنما يحمل عمر ما قال حسد لنا "، فدخل عليه الصلاة والسلام البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال: إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة.

في حياتنا اليومية ضمن الشرع هناك إنسان لين، وهناك إنسان قاس.

أبو بكر و عمر من وجهة نظر النبي صلى الله عليه وسلم:

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: مثلك يا أبا بكر في الملائكة كمثل ميكائيل يتنزل بالرحمة، ومثلك يا أبا بكر في الأنبياء كمثل إبراهيم، قال:

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى بن مريم إذا قال:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة)

ومثلك يا عمر في الملائكة كمثل جبريل يتنزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله، ومثلك في الأنبياء كمثل نوح قال:

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً)

(سورة نوح)

ومثلك في الأنبياء كمثل موسى قال:

(اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة يونس)

لو اتفقتما ما خالفتكما، لكن واحد مع الصقور، وواحد مع الحمائل، واحد شديد وواحد لين، أخذ قراراً لا يَنْفَلِتَنَّ أحد منكم إلا بفداء، أو ضَرب عُنُق، ومن بين الأسرى كان عدد كبير من أغنياء قريش، النبي أخذ قرار فداء أو قتل.

أيها الأخوة، لذلك قال تعالى:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

فجاء الوحي يقول :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة الكرام، تتمة هذه الآيات وشرحها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (26-30): تفسير الآيتان 67 - 68 ، معاملة الأسرى معاملة حسنة هو من طبع الإسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-01-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

النصوص نوعان ؛ قطعية الدلالة و ظنية الدلالة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السابعة والستين والآية الثامنة والستين، وهي قوله تعالى :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، أسرى جمع أسير، والأسير من شُد على يديه وقُيد، وأصبح في قبضة جهة قوية، جهة قوية قبضت عليه، شدت وثاقه، أصبح في قبضتها، وفي أمرها.

الحقيقة الأسير في الإسلام إن لم يُقتل يصبح عبداً، لكن قبل أن أبدأ هذا الموضوع الدقيق لا بد من تقديم :

لو أنني قلت لواحد منكم أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه، كم المبلغ ؟ يا ترى الهاء في ونصفه تعود على الألف أم على الدرهم ؟ إن كانت تعود على الألف أي أعطه ألفاً وخمسمئة، و إن كانت تعود على الدرهم أي أعطه ألفاً ونصف درهم، هذا النص اسمه احتمالي، وهناك نص قطعي، أعطِ فلاناً ألفاً وخمسمئة درهم لا يحتاج هذا النص لا إلى تفسير، ولا إلى تأويل، ولا إلى بحث، ولا إلى درس، ولا إلى خلاف بين العلماء، هذا نص قطعي الدلالة، أما أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه هذا نص ظني الدلالة، إن أعدت الهاء الضمير الغائب على الألف، ألف وخمسمئة، إن أعدتها على الدرهم ألف ونصف، قد يفهمه شحيح ألف ونصف، وقد يفهمه كريم ألف وخمسمئة، النص هذا اسمه نص احتمالي.

عدم تشريع العبودية في الإسلام إطلاقاً :

الآن مع عدة آيات متعلقة بالرق، حينما تؤمن بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، تؤمن به إلهاً عظيماً، رحيماً، عادلاً، موجوداً، واحداً، كاملاً، أسماءه حسنى، صفاته فضلى، وهذا تشريعه، لابد من أن تفسر هذا التشريع تشريع إنساني.

أنا حينما أقبض على مقاتل، وبإمكاني أن أقتله، و لم أقتله، حقنت دمه، وجئت به إلى عندي، وعاملته معاملة إنسانية تفوق حدّ الخيال، كان أصحاب النبي يطعمون الأسير أفضل ما عندهم من طعام، ويأكلون أردأه، الأسير إنسان رأى نفسه معززاً، مكرماً، محترماً، سيده يرحمه، يطعمه، يسقيه، يطعمه مما يأكل، يلبسه مما يلبس، لا يكلفه ما لا يطيق، أنا أعتقد أن تسعين بالمئة إن لم أقل تسعاً و تسعين بالمئة من الأسرى الذين لم نقتلهم بل حقنّا دماءهم، لم نقتلهم بالحرب بل حقنّا دماءهم، وهم عطلوا تفكيرهم، ولم يؤمنوا وحقدوا على هذا الدين، عاملناهم معاملة لينت قلوبهم، وأزاحت عن صدروهم، ورأت المسلم إنساناً رحيماً، منصفاً، عادلاً، عنده ذوق، عنده رحمه، أنا أرى أن العبودية لم تشرع في الإسلام إطلاقاً، بل شرع من أجل تصفيتها، لم تُشرع العبودية في الإسلام، بل الذي شُرع من أجل تصفيتها، لكنها واقع قائم، لكن كيف تعامل الإسلام مع العبودية كواقع قائم بأساليب من أجل أن تصفى؟.

حينما يغلق الآخر عقله لدعوتك يمكن أن تفتح قلبه بإحسانك :

أيها الأخوة، الأسير بشكل أو بآخر أسير حرب، وكان من الممكن أن يُقتل ونستريح منه، لكن حقناً لدمه، ورأفة به، وطمعاً لهدايته، عاملناه كأسير مع الإحسان إليه.

((يا داود ذكر العباد بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

حينما يغلق هذا الآخر عقله لدعوتك، يمكن أن تفتح قلبه بإحسانك، عندئذٍ يصغي لك، يصغي لكلامك، حينما يغلق عقله لبيانك افتح قلبه بإحسانك، فإن فتح قلبه بإحسانك أصغى لكلامك، هذه الحالة التي سمح الله بها، والرقيق قائم في المجتمعات.

لذلك الموازنة هذا الأسير إما أن أقتله ونحن في حرب، والقتل جائز، لأنك إن لم تقتله قتلك، هذه حرب، مثلاً عندنا أخلاق الحرب، وأخلاق السلم، أخلاق السلم :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت).

هذا السلم، في الحرب :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

(سورة التحريم).

هذه أخلاق الحرب، الحديث الآن عن الحرب لا عن السلم، في السلم :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

لكن بعض المسلمين اختلطت عليهم أخلاق الجهاد مع أخلاق الدعوة، إذاً أنت بين خيارين، أنت قائد جيش، وفي معركة، والطرف الآخر يريد أن يقتلك، لكنك انتصرت عليه، فإما أن تقتل جنوده واحداً تلو الآخر، وإما أن تأسرهم، إن أسرتهم أبقيت على حياتهم، وحقنت دماءهم، طمعاً في هدايتهم، انتظاراً كي يفتحوا لك قلوبهم بإحسانك حتى يفتحوا لك عقلهم لبيانك.

الله سبحانه وتعالى شرع الإحسان للأسرى :

هذا المنطلق له تطبيقات سيئة و هذا شيء آخر، لا علاقة لنا بالتطبيقات، علاقتنا بالمنطلقات، هذا هو الدين، أما إن أساء المسلمون فهم هذا الدين، لم يفهموا حقيقة هذا الدين، ظنوا أن الأسرى مكسب، هم بعيدون عن حقيقة هذا الدين بعد الأرض عن السماء، فبقاء الأسير على قيد الحياة أمر مطلوب ومرغوب، لذلك شرع الله سبحانه وتعالى الإحسان للأسرى، أجمل كلمة قرأتها في معاملة الأسرى : كان أصحاب رسول الله يطعمون الأسير أطيب الطعام، ويأكلون أردأه.

لا تبتعدوا كثيراً، هناك أسر تستقدم خادمة، تعاملها كابنتها تماماً، كالابنة، الطعام، والشراب، والثياب، والغرفة الدافئة، ولا تكلفها ما لا تطيق، وقد تكون هذه الخادمة ليست مسلمة، إذا بها بعد حين تُسلم.

الفكرة، أحياناً الإنسان يغلق عقله لبيانك.

أنا أذكر أن صحفية بريطانية وقعت في أسر جماعة مسلمة في شرق آسيا، تفننت في إحراجهم، تخلع ثيابها أمامهم، يغضون عنها البصر، تطلب طعاماً نادراً يأتون به إليها، مكثت أشهراً، هي تحمل حقدا على الإسلام يفوق حدّ الخيال، تفننت في إحراجهم، وفي استفزازهم، ثم أطلقوا سراحها، عقدت مؤتمراً صحافياً أول كلمة قالتها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهي الآن من الداعيات الكبيرات في بريطانيا، كيف أصبحت داعية ؟ والله لا أبالغ أعرف قصتها تفصيلاً، تنطوي على حقد لهذا الدين يفوق حدّ الخيال، لما رأت الذين أسروها كيف عاملوها، كيف أكرموها، كيف أطعموها ما تشتهي، كيف حققوا لها مطالبها، وحين استفزتهم بخلع ثيابها غضوا عنها البصر، تقول في المؤتمر الصحفي : طموحي في الحياة أن يتزوجني واحد من هؤلاء.

أعطيكم فكرة مع أن الإسلام شرع لتصفية الرق، لكنه كان قائماً وراسخاً في كل المجتمعات، وأصلاً في الحياة الاجتماعية عند كل الشعوب.

فلذلك الإسلام واقعي، هذا النظام نظام العبودية سعى جاهداً لتصفيته.

صمود الدين الإسلامي بالرغم من كثرة أعدائه و خصومه :

أيها الأخوة، الحقيقة الإسلام ما أكثر الأعداء حوله، وما أكثر خصومه، وما أكثر التهم التي تصب عليه، وأقسم لكم بالله لو لا أن الإسلام دين الله لانتهى من ألف عام، لكنه دين الله بقي صادماً أمام أعدائه.
مرة أحد أصدقائي، رئيس الجالية الإسلامية في أمريكا، قال لي : أجريت دراسة كلفتني سنتين، حول أعمال العنف في أمريكا، اتصل بكل مراكز الشرطة، المفاجأة التي لا تصدق أن نسبة المسلمين الذين يقومون بأعمال العنف لا يزيدون عن اثنين في المئة، والإعلام العالمي يروج أن كل عميل وراءه مسلم.

الحقيقة يجب أن تبحث عنها، فهذه التي تحقد على الإسلام حقداً يفوق حدّ الخيال عندما رأت معاملتهم، حينما بالغت في استفزازهم، حينما أوقعتهم في حرج في طلباتها، حينما أكرموها بتوجيه نبيهم، وأطلقوا سراحها بعد شهرين، أول كلمة قالتها في المؤتمر الصحفي أنها أعلنت إسلامها، وأنها تتمنى أن تحظى يزوج من هؤلاء، هذا الدين دين الله عز وجل.

والآن أقول لكم مثل من واقع المسلمين : في بيوت كثيرة من كل بلاد المسلمين فيها خادمات، وبعض الخادمات لسن مسلمات، المعاملة الطيبة جداً، الإكرام، حينما تعامل هذه الخادمة كبنت من بنات صاحب البيت، ما الذي يحصل ؟ تُسلم.

حدثني إنسان، قال لي : إنسانة من هذا البلد الطيب لا تقبل إلا خادمة غير مسلمة، يقول لها : طلب عجيب وغريب، قالت له : أريدها غير مسلمة، المفاجأة أنها كلها جاءت بخادمة غير مسلمة من خلال المعاملة الطيبة، والإكرام تسلم، أرادت أن تتقرب إلى الله بتعريف هؤلاء بالإسلام.

أنا أقدم لكم تمهيدات، الموضوع دقيق جداً، لم يشرعه الإسلام إطلاقاً، بل كان موجوداً، وواقعاً، وقائماً.

مثلاً : سابقاً في الجاهلية قد يرتكب أحد جناية في حق الآخر، ولا يقدر أن يقدم دية، فيقول له : خذني عبداً ـ أقول لكم ما يجري في الجاهلية ـ إنسان ارتكب جريمة قتل، وليس معه دية، فيقول لولي المقتول: خذني عبداً، هذا مصدر، أو خذ ابنتي جارية، وهناك آخر يكون مستديناً مبلغاً كبيراً، يقول لمن دينه هذا المبلغ : خذ ابني عبداً، أو ابنتي جارية، لذلك كانت مصادر الرق متعددة، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد هو إرادة السيد أن يعتق عبده، أو أن يحرضه فقط، مصرف واحد اختياري وأنواع منوعة من مصادر العبودية، في الحرب، في الجريمة، في القتل، في الدَّين الباهظ.

الإسلام جعل الرق نوعاً من الدعوة إلى الله يقوم على أساس المعاملة الطيبة :

لذلك عدد العبيد يتزايد، المصادر كثيرة، والمصرف واحد، والمصرف الواحد اختياري، على مجاز السيد، عندما جاء الإسلام كيف عالج هذه المشكلة ؟ عمل على تصفية الرق، أولاً : ألغى كل مصادر الرق، إنسان ارتكب جناية، يقول له : خذني عبداً، أو خذ ابنتي جارية، إنسان عليه دين باهظ لا يطيق سداده، يقول : خذني عبداً، أو خذ ابنتي جارية، هذا في الإسلام محرم أشد التحريم، ماذا فعل الإسلام ؟ جفف مصادر الرق، أبقى على رق واحد هو رق الحرب، إنسان يحاربك وبإمكانك أن تقتله، ضمن الحرب القتل جائز في كل العقائد العسكرية في العالم، لكن المسلم بقلبه رحمة، هذا الذي يحاربه يجهل حقيقة الدين، يجهل علة وجود الإنسان، لذلك يبقي على دمه، ويأخذه أسيراً، ويعلمه الإسلام، لا بالمنطلقات النظرية بل بالتطبيقات العملية، يعامله معاملة طيبة جداً، والشاهد الكبير، كان أصحاب النبي الكريم يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون أطيبه للأسرى استجلاباً لقلوبهم، ودعك من كل الأمور الأخرى.
أنت عندك معمل، في المعمل عامل، و هذا العامل غير مسلم، رأى من كرمك، من إحسانك، من رحمتك، من عطفك، زوجْتَه، أكرمته، بعد حين يميل إليك، هذا الشيء يقع كل يوم، ما دام الرق قائماً، حقيقة قائمة في كل المجتمعات، أراد الإسلام أن يجعل من الرق نوعاً من الدعوة إلى الله، تقوم لا على أساس الإقناع الجدلي، بل تقوم على أساس المعاملة الطيبة.
دائماً وأبداً هناك بون شاسع بين المنطلقات النظرية أحياناً، وبين التطبيقات العملية، الأمور بعد حين تأخذ طابعاً نفعياً، تأخذ طابعاً غير صحيح، لكن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : "يبعث على رأس كل مئة عام ما يجدد لهذه الأمة دينها "، طرأ عليها خطأ كبير، فهم سقيم، بعد عن الحقيقة.

أول إجراء جاء به الإسلام كل رقٍّ من غير الحرب المشروعة حرام :

أيها الأخوة، إذاً : الإسلام عايش الرق كواقع قائم، وأراد أن يصفيه عن طريق منع مصادره إلا مصدراً واحداً هو الحرب، إنسان جاء ليقاتلك، ولك أن تقتله، لا، احقن دمه، هو أخوك في الإنسانية، ليرى منك المعاملة الطيبة، القلب الرحيم، العطف، الحنان، عندئذٍ يميل إليك.
أول إجراء جاء به الإسلام كل رق من غير الحرب المشروعة حرام، ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقة الحرب، الآن بالعكس فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعه، الواقع السابق قبل الإسلام المصادر متنوعة كثيرة والمصرف واحد، الآن المصادر أُغلقت بكاملها، ولم يسمح إلا بالاسترقاق الحر، إنسان جاء ليقتلك، حقنت دمه، وعلمته الإسلام بالتطبيق العملي، وفتح بالعكس أنواع الإعتاق، أول شيء جعل عتق العبد كفارة لعدد من الذنوب، فعتق رقبة، فأغلق أبواب العبودية وما أكثرها في

الجاهلية، وأبقى باباً واحداً على المعاملة بالمثل، أنت معقول تحارب جهة هي تأخذ أولادك، وتسترقهم، وتجعلهم عبيداً، وأنت بسذاجة تأخذ أولادهم فتطلق سراحهم ؟ مستحيل ! سمح الإسلام ـ والرق قائم ومنتشر في كل أرجاء البلاد ـ مرحلياً بالمعاملة بالمثل، فما دام أعداء الدين أخذوا الأولاد وجعلوهم عبيداً فأنت مسموح لك فقط في الحرب، في الحرب الدينية، في حرب نشر الإسلام، في حرب نقل الهدى إلى أطراف الدنيا، في الحرب التي انتقلت من قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة الآية : 143).

سمح الإسلام مرحلياً باسترقاق المقاتل وحقن دمه لا قتله، جاء إلى بيتك رأى رحمتك، أنا أقول كلاماً دقيقاً جداً، رأى كرمك، رأى عدلك، رأى إنصافك، أحبك، قال :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

(سورة التوبة الآية : 11).

صار أخوك.

الهدف من الإحسان إلى الأسرى :

كلمة

(فَإِنْ تَابُوا)

أي أنا جعلته عندك أسيراً كي يؤمن من خلال معاملتك له،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

انتهى الأمر معنى ذلك سمحت لك أن تأخذه إلى بيتك، لا من أجل أن تستخدمه، لا من أجل أن تستغله، لا من أجل أن تتعبه، لا من أجل أن تقضي عليه، من أجل أن تهديه إلى الله ورسوله،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

إذاً حرم الإسلام كل مصادر الرق إلا الذي يحاربك في الدين، ينبغي ألا تقتله، وألا تبيده، الآن في العالم حرب إبادة.

بدولة في شرق أسيا جمعوا خمسة آلاف في قلعة وأبقوهم من دون طعام وشراب حتى شربوا بولهم، وأكلوا لحم بعضهم ثم قصفوهم.

العبيد بأمريكا قتل منهم ثلاثمئة مليون، في بعض البلاد ساقوهم مسيراً إلى شمال سيبيريا أكثر من ألفي كيلو متر، خمسة و تسعون بالمئة منهم مات في الطريق، لو تقرؤوا ما يجري في العالم من ظلم، وقهر، الإسلام جعل هذا النظام السائد القائم كواقع جعله طريق للهدى.

كان الصحابة الكرام يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون الأسرى أطيبه، وثمامة بن أثال الذي وقع أسيراً، رُبط في سارية المسجد، مرّ به النبي قال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : إن تقتل تقتل ذا دم ـ فأنا قاتل ـ وإن تعفو، تعفو عن شاكر ـ وإن أردت الفدية فاطلب ما تشاء ـ في اليوم التالي مرّ به فأعاد القول، في اليوم الثالث أطلق سراحه، فغاب واغتسل وعاد ليشهد أنه لا إله إلا الله، هذا شاهد من الشواهد الكثيرة.

القصد أن هذا أخوك في الإنسانية، ينبغي أن تأخذ بيده إلى الله، هو عطل عقله عن سماع كلامك، أردت أن تفتح قلبه بإحسانك، فلعل عقله يصغي إليك، واضح ؟.

الإسلام جعل العبودية طريقاً للهداية وسبباً للإحسان وسبباً لفتح القلوب :

والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن يكون الدين إسلامياً إلا هكذا، وأي فهم آخر يكون فهماً جاهلياً و فهماً خاطئاً، الإسلام دين خالق الأكوان، أي حينما تغلق عقلك عن فهم هذا الدين نقنعك بهذا الدين من باب المعاملة الطيبة، والآن مسموح لك كمسلم أن تعامل الآخر معاملة طيبة، والنتائج باهرة وغير متوقعة.

ضربت مثل الخادمة أحياناً، فهي غير مسلمة، بالمعاملة الطيبة تسلم، ليس بعيد عنكم ما جرى في سجن أبو غريب في العراق، كلهم أسرى، الأعمال التي مارسها المحتلون مع هؤلاء الأسرى، العقل لا يصدقها، وليس غريب عنكم ما جرى في سجون بأمريكا، أنواع التعذيب تفوق حدّ الخيال، أنواع الإذلال، التعرية الكاملة، الكهرباء، الماء ينهمر في أيام الشتاء طوال اليوم، شيء يفوق حدّ الخيال، نحن نطعمه أطيب أنواع الطعام، ويأكل أصحاب البيت أرداه، العبودية كانت قائمة والرق قائم، فجأة جعل الإسلام هذه العبودية طريقاً للهداية، سبباً للإحسان، سبباً لفتح القلوب.

إعتاق الرقاب من أعظم الأعمال التي تقربك إلى الله :

أخواننا الكرام، بل قول الله عز وجل :

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

(سورة البلد)

جعل إعتاق الرقاب من أعظم الأعمال التي تقربك إلى الله.

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

(سورة البلد)

إعتاق عبد، أعظم عمل تتقرب به إلى الله إعتاق العبيد بتصفية الرق، جاء الإسلام والرق قائم في العالم كله، ماذا فعل الإسلام ؟ أغلق كل المصادر عدا مصدر واحد لا بد منه، الذي يحاربك جاء ليقتلك، بدل

أن تذبحه، وأن تصفيه، وأن تبيده، أخذته وفتحت قلبه بإحسانك، ففتح عقله لبيانك، فأسلم، فأصبح أخاك في الله، وانتهى الأمر، واضح تمام.

لكن من لم يرتكب ذنباً يوجب عتق رقبة، ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية حباً لله عز وجل، وعنده عبد، قال : هؤلاء العبيد، دقق في رسول الإنسانية :

((إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ].

هذا المنهج، أخوك وقع تحت يدك، ينبغي أن يأكل مما تأكل، وأن يلبس مما تلبس، وألا تكلفه ما لا يطيق، وإن كلفته فأعنه، أصبح مثل أحد أفراد البيت، وماذا تخاطبه ؟ يا عبدي أعوذ بالله، يا فتى، أنت كابني، هذا الإسلام، وفوق ذلك شرع الإسلام عتق العبيد، جعل عدداً كبيراً من الذنوب كفارتها إعتاق رقبة،

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

إذاً الإسلام جاء والرق موجود، وأبوابه متعددة ومصرفه واحد، أغلق كل أبوابه على الحرب وفتح مصارف لا تعد ولا تحصى تمهيداً لتصفيته.

تحريم أخذ الأسرى لأعمال دنيوية :

أيها الأخوة، لكن لو أن الإنسان أراد هذا الأسير من أجل عرض الدنيا، بأن يطمع بمن يخدمه، أو بامرأة يقضي بها حاجته، أو بمال يبغي به رغد العيش، كل ذلك مرفوض والدليل :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

أي ممنوع في التشريع الإسلامي أن تأخذ الأسير كي يخدمك، أو أن تأخذ الأسيرة كي تقضي حاجتك منها، أو أن تأخذ الأسير ليعينك في أعمالك،

(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا)

الله عز وجل في أصل التشريع شرع ـ والأسر قائم والعبودية قائمة ـ تشريعاً مرحلياً لتصفية العبودية قولاً واحداً، فأغلق كل مواردها، إلا مورداً واحداً مورد الحرب، وفتح الأبواب على مصارعها لعتق العبيد

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

(سورة البلد).

الرق في الإسلام تشريعه مرحلي من أجل تصفيته كلياً :

أيها الأخوة، شيء آخر : هذا أصل التشريع، هذا هو الإسلام، هذا هو منهج الله، هذا هو المنهج الإنساني، والرق في الإسلام تشريعه مرحلي، من أجل تصفيته كلياً، تصفيته بأن أغلق كل الأبواب، وأبقى باب الحرب التي تهدف إلى إعلاء كلمة الله، وكأن هذا الأسير بدل أن تقتله حقنت دمه، وجئت به إلى البيت، وفتحت قلبه بإحسانك ففتح لك عقله لبيانك، فآمن فبعد أن آمن أصبح أخوك في الإنسانية، وانتهى كل شيء، لذلك اجتهاد النبي الكريم وأصحابه الكرام.

(لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة الأنفال).

هم لم يعصوا أمر الله عز وجل، لكن التشريع جاء مع الذي حصل، أحياناً أنت واجهك موقف، اجتهدت ووقفت هذا الموقف هذا ليس معصية، لكن حينما يأتيك التشريع وتخالفه هذا يعد معصية، فأصحاب النبي الكريم اجتهدوا اجتهاداً سواء أقره الوعي أم لم يقره، هم ما فعلوا شيئاً ومعهم أمر سابق، لكنهم اجتهدوا، والحديث عن اجتهاد الصحابة سوف نأتي عليه إن شاء الله في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (27-30): تفسير الآية 70 ، الأحكام المتعلقة بالعلاقة بالآخر ـ قصة خيبر وإسلام العباس عمّ رسول الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-02-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى الهواء :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية السبعين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة، كنت أقول دائماً: إن الإسلام منهج كامل، يبدأ من فراش الزوجية، ويصل إلى العلاقات الدولية، فهو كالهواء يحتاجه كل إنسان، لا تستطيع أمة أن تحتكره، ولا بلد، ولا قطر، ولا مذهب، ولا طائفة، حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى الهواء، لذلك هو يغطي كل حركات الإنسان، بدءاً من أدق علاقاته الخاصة من فراش الزوجية، وانتهاء بالعلاقات الدولية.

علاقة المسلمين بالآخرين تقوم على :

1- أن الذين يعاهدون المسلمين ثم يخلفون عهدهم لابدّ من أن يؤدبوا ردعاً للباقين :

أخواننا الكرام، هناك مجموعة أفكار دقيقة، مستنبطة من الآيات التي تتحدث عن علاقة المسلمين بالآخرين، علاقة سلم، علاقة حرب، علاقة هدنة، علاقة معاهدة، علاقة اتفاق، أول هذه العلاقات أن الذين يعاهدون المسلمين ثم يخلفون عهدهم لا بدّ من أن يؤدبوا ردعاً للباقين، أحياناً الإنسان يعطي ويأخذ، أما حينما يكون هناك اتفاقاً ومعاهدة، وشيئاً موثقاً، ثم يأتي الطرف الآخر ويخونه لابدّ من أن يؤدب الآخر، عقاباً على خيانته، وردعاً من أن يفكر الآخرون بخيانة المسلمين.

أحياناً العالم الآخر يقيم دعوى مطولة على مبلغ، قد تكون تكاليف الدعوى أكبر من هذا المبلغ، ما الحكمة ؟ من أجل أن يلقي في روع من يعاملونه أن حقه ثابت.

إذاً من بعض النصوص القرآنية والنبوية، ومن بعض أحكام السيرة، نستنبط أن الآخرين ـ الطرف الآخر ـ إذا اتفقوا مع المسلمين، ونقضوا اتفاقهم، أو خانوا اتفاقهم، لا بدّ من عقاب أليم أراده رب العالمين، كي يكون هناك ردعاً يردع الآخرين عن أن يتلاعبوا باتفاقاتهم مع المسلمين، هذه حقيقة أولى.

2 ـ سمح الله للمؤمنين ابتداءً أن يلغوا الاتفاق مع الطرف الآخر بشرط الإعلام :

أحياناً الطرف الآخر يخشى أن ينقض العهد، سمح الله للمؤمنين ابتداءً أن يلغوا الاتفاق، إلغاء مع الإعلام، أنا متفق مع إنسان على قضايا معينة، فإذا شعرت، أو غلب على ظني أنه يخونني أنا ابتداءً أنهي هذه المعاملة وأبلغه ذلك، هذا أيضاً حكم آخر ينبغي أن يراعى في العلاقات مع الآخرين.

مثلاً : حينما اتهمت دولة بإسقاط طائرة دفعت دية كل إنسان على الطائرة تقريباً خمسمئة مليون ليرة سورية، دفعت هذه الدولة مليارين وسبعمئة مليون دولار، بالمقابل هناك خطأ في القصف ذهب ضحيته مئة إنسان خطأً، لأننا ضعاف، القتل بالمئات، بل بالألوف، بالعراق مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، ولا شيء عليهم، وضع طبيعي، أحدث الأسلحة، أحدث الطائرات، قتلت النساء والأطفال في غزة، ألف وخمسمئة طفل وامرأة قتلوا بأرقى الأسلحة، تماماً كمصارع كبير يمسك طفلاً رضيعاً ويضربه، ويقول: انظروا قوتي شيء مضحك!

جاءت أوربا إلى شرم الشيخ تصريحها الوحيد أنها جاءت من أجل أن تمنع تهريب السلاح إلى الفلسطينيين فقط، أما هذه الجرائم البشعة التي يندى لها جبين الإنسانية حينما أراد الله من خلال القرآن الكريم، ومن خلال السنة المطهرة، أن الطرف الآخر إذا عاهدناه، ونقض عهده معنا، وخان العهد، وانقلب علينا، وطعننا في ظهورنا، ينبغي أن نؤدبه، لأن الحق له أظافر، والحق ينبغي أن يكون قوياً.

أنا لا أقول: يقول أهل الغرب: أنت قوي أنت إذاً على حق، هذا كلام شيطاني، الحق ما جاء به وحي السماء، لكن الحق يحتاج إلى قوة، بين أن يكون القوي على حق هذا اعتقاد أهل الغرب، القوي هو على حق، ما دمت قوياً انهب ثروات الشعوب، أفقر الشعوب، خذ ثرواتهم.

والله مرة استمعت إلى إنسان في أعلى منصب في العالم، قال: لقد تمّ في راوندا قتل ثمانمئة ألف ـ في أسبوع قُتلوا ذبحاً، في بلد إفريقي في الجنوب ـ قال: وكان بإمكاني أن أتدخل وأن أنقذ أربعمئة ألف، لكنني لم أتدخل، هكذا قال، لأنه لا يوجد هناك نفط.

إن لم يتفوق الإنسان في دنياه فلن يُحترم دينه :

أنا أقول كلمة : ما لم تصدق كلام الله عز وجل.

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية : 119]

ما لم نصدق كلام الله فالمعاناة معهم صعبة جداً، لكن سمعت كلمة رائعة، هم لا يحبوننا، لكن إذا كنا أقوياء يحترموننا، وإذا كنا ضعافاً مع عدم محبتهم لنا يحتقروننا، هذا شأن القوي، القوي لا يعظم إلا القوي، هم لا يحبوننا قطعاً، لكن فرق كبير بين ألا يحبوننا ويحترموننا، وبين ألا يحبونا ويحتقروننا.

فلذلك أنت حينما تعاهد مسلماً، وتنقض العهد، تطعنه في الظهر، فهناك عقاب شديد تأكيداً لقيمة المسلمين، ولثمن حياتهم، وثمن سلامتهم، أما إذا غلب على ظنك أن هذا الذي عاهدته ربما نقض العهد أنت أنهِ الاتفاق ابتداءً وأعلمه، لكن دائماً الله عز وجل قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية : 60]

رأيتم في بلد مجاور كيف أن أعداء الأمة ـ اليهود ـ دمروا بنيته التحتية في عشرين يوماً تدميراً كاملاً، بنية تحتية كلفت أربعين مليارا، هي ديون على هذا البلد دُمرت في عشرين يوم نهائياً، فمعناها لا بدّ من أن تكون قوياً، والآن العصر عصر قوة، والعالم لا يخضع لك إلا إذا كنت قوياً، بل إن لم تتفوق في دنياك لا يُحترم دينك، لا تقبل أن تكون إنساناً عادياً، تأكل وتشرب فقط، كن رقماً صعباً، كن من النخبة، كن من الطليعة، كن من الذين يحار الطرف الآخر فيهم.

لذلك جاء إلى الدنيا مليارات مملبرة، مليارات، ولدوا، وكبروا، وتزوجوا، وأنجبوا، وماتوا ولم يدر بهم أحد، أنا أنصح أخوتي الحاضرين لا تكن رقماً سهلاً، كن رقماً صعباً، إما أن تُخطط، وإما أن يُخطط لك، تفوق في دراستك، هذا التفوق قوة لأمتك، تفوق في صناعتك، هذا التفوق قوة لأمتك، تفوقك في تجارتك هذا التفوق قوة لأمتك، تفوق في اختصاصك، هذا الاختصاص قوة لأمتك.

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

أيها الأخوة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

أنا مضطر أن أذكركم : أن هناك جهاداً نفسياً، جهاد النفس والهوى، أن تجاهد نفسك وهواك، وما من كلمة أروع من كلمة صحابي جليل عاد من غزوة مع العدو فقال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى"، هل تستطيع أن تضبط شهواتك ؟ هل تستطيع أن تتحرك بها وفق منهج الله ؟ هل تستطيع أن تقيم الإسلام في نفسك ؟ وفي بيتك؟ وفي عملك ؟ وصدقوا ولا أبالغ لستم مطالبين بأكثر من ذلك مع أن هناك قوى كبيرة تتربص بالمسلمين، لكن :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية : 286]

ما كلفك الله إلا أن تقيم الإسلام في نفسك، وفي بيتك، وفي عملك، لو فعل كل منا هذا لكنا في حال آخر.

فلذلك

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

هذا اسمه الجهاد النفسي، أعد للآخر إيماناً قوياً، أعد للآخر اتصالاً بالله، أعد للآخر قرباً منه، أعد للآخر نوراً يلقيه الله في قلبك حينما تتصل به، هذا الجهاد الأول؛ جهاد النفس والهوى.

2 ـ الجهاد الدعوي :

ثم هناك الجهاد الدعوي، أن تبحث عن الحقيقة فأنت مجاهد، أن تأتي من مكان بعيد إلى مسجد، تجلس على الأرض من دون ضيافة لتتعلم كلام الله هذا جهاد، هذا اسمه جهاد دعوي تؤكده آية كريمة :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

الهاء تعود على القرآن،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

ولعل النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الهاء قوله الكريم :

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

خيركم على الإطلاق، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

لا تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك]

شاب يخطط ليتزوج امرأة مؤمنة، يخطط لينجب أولاداً مؤمنين، يخطط ليخفف متاعب أمته، يخطط ليحمل أعباء أمته، هذا شاب عند الله كبير جداً، وهناك شاب يخطط ليستمتع بالحياة، فقط، هو صغير.

أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة :

يا أيها الأخوة الكرام، لولا أن أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة لما أقيمت الحجة على المؤمنين، أبواب البطولة مفتوحة على مصارعها إلى يوم القيامة.

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

[سورة الواقعة]

يمكن أن تكون في آخر الزمان، اشتقت لأحبابي، قالوا : أو لسنا أحبابك ؟ قال : لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

نحن في آخر الزمان، أية حركة معها معصية، بالانترنيت يوجد معصية، بالفضائية يوجد معصية، بالصحيفة يوجد معصية، بالمجلة يوجد معصية، بالطريق يوجد معصية، بالجامعة يوجد معصية، لذلك: في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

3 ـ الجهاد البنائي :

أيها الشاب، ما الذي يمنعك أن تكون بطلاً ؟ تعلم، فعلمك خدمة لأمتك، أحياناً نأتي بخبير يأخذ مئة ضعف عما يأخذه المواطن، يستغلون جهلنا، فإذا تعلم الإنسان في الطب، في الهندسة، في أي اختصاص، وسدّ ثغرة لهذه الأمة معنى هذا أنه مجاهد هذا الجهاد الثالث، الأول: جهاد نفسي :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية : 69]

والجهاد الثاني: الجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

والثالث: الجهاد البنائي

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال الآية : 60]

صنعوا طائرة "b52" هذه الطائرة تنطلق من أمريكا وتقصف أفغانستان، وتعود إلى أمريكا دون أن تحتاج للتزود بالوقود، صنعت عام 1960، وصالحة لعام 2040، أعدوا لنا أم أعددنا لهم ؟.
ألقوا قنبلة قبل سقوط بغداد تفني البشر، وتبقي الحجر، عشرة آلاف إنسان أصبحوا كالهباء، والأبنية كما هي، أنا أخاطب كل واحد منكم، تعلم، أتقن اختصاصك، لتكون دعماً لأمتك، أتقن اختصاصك، أتقن تجارتك، أتقن صناعتك، أتقن دراستك، أتقن حرفتك.
اسمعوا هذه الكلمة : الأمة بحاجة إلى من يموت في سبيل الله، والله لكن أقول : هي بألف حاجة إلى من يعيش في سبيلها.
إذاً هذا الجهاد البنائي،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

الإعلام قوة، والأقمار الصناعية قوة، والأسلحة قوة، والتماسك الاجتماعي قوة، هناك مجتمع لا يخترق أبداً، تلاحظون أكبر دولة بالأرض لم تستطع أن تخرق جماعة، تحتل الآن معظم أفغانستان، فالمجتمع لا يُخترق الآن، وهناك مجتمعات تُخترق.
فأنا أقول : أنت كمواطن عادي تستطيع أن تجاهد نفسك وهواك أولاً بحضور درس علم تقوم بالجهاد الدعوي، تتعلم، وبإتقان عملك تقوم بالجهاد البنائي

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

4 - الجهاد القتالي :

إذا نجحنا في الجهاد النفسي، وفي الجهاد الدعوي، وفي الجهاد البنائي، ينتظر أن ننجح في الجهاد القتالي، المعركة معركة مصير، معركة بالمصطلح المعاصر نكون أو لا نكون.
والله يُخطط للمسلمين، لإفقارهم، ولإضلالهم، ولإفسادهم، ولإذلالهم، وهناك واحدة غير معلن ولإبادتهم، تجد يموت الملايين، ولا تصريح، ولا تعليق، ولا احتجاج، ولا استغراب أبداً، مهما قُتل من المسلمين، الكل ساكت، أسير واحد يأتي رئيس أمريكي إلى المنطقة في برنامج زيارته أسير، ولنا عند اليهود أحد عشر أسيراً و ثمانمئة، لم يخطر في باله أن يزور أسرة واحدة للتوازن.
اعلم علم اليقين كما قال الله تعالى عز وجل:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

تيقن، هم لا يحبوننا، لكن نريد أن نضيف إلى عدم محبتهم لنا أن نُحترم عندهم إذا كنا أقوياء، إذا كنا متماسكين، صدق ولا أبالغ طرح القضايا الخلافية الآن جريمة، لماذا ؟ لأنهم وضعونا جميعاً في سلة واحدة، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد.

الآن لا زلنا في الأحكام المتعلقة بالعلاقة بالآخر، انطلاقاً من أن منهج الله عز وجل منهج شمولي، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المسلمين نحن معهم، من مركز قوي، لكن نحن معهم ونحن يقظون.

كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس، ويحترس منهم من دون أن يطوي بشره عن أحد، أرادوا السلام ؟ نحن مع السلام، لكن سلام مشرف، سلام مع الكرامة، سلام مع الاعتزاز.

الإيمان من دون طاعة لله عز وجل لا قيمة له إطلاقاً :

أما النقطة الدقيقة جداً إذا قال الله عز وجل:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

[سورة الأنفال الآية : 65]

إله، الذي خلقنا، المؤمن في حالة قوة إيمانه يستطيع أن يواجه عشرة أضعاف، وفي حال ضعف إيمانه الواحد يواجه اثنين، فالجهاد في الإسلام لا يعتد كثيراً بتوازن القوى، يعتد بقوة الإيمان، قوة إيمان مع الإعداد، إن سألتني عن قانون النصر، والنصر يطمح له كل إنسان، قانون النصر الإيمان الذي يحمل صاحبه على طاعة الله، إيمان من دون طاعة لا قيمة له إطلاقاً، إيمان فلكلوري، والإعداد أن تعد لهم ما تستطيع، وكل واحد ضمن اختصاصه.

مرة سألني طفل أنا ماذا أفعل ؟ قلت له : ادرس، تعلم، خذ شهادة، لأنه كلما كثُر المتعلمون باختصاصات متنوعة تنهض الأمة.

أنت احمل همّ الأمة، لا تحمل همّ نفسك، احمل همّ الأمة، الأمة بحاجة إلى شباب يعيش في سبيلها.

مرة التقيت مع شخص، يملك معملاً، الآن المعمل يعمل على الكمبيوتر تقريباً، هناك قطعة بالكمبيوتر معقدة جداً، والله أطلعني على خارطة لهذه القطعة طولها ستة أمتار، إذا تلفت فيها قطعة، تذهب الأجهزة إلى بلاد بعيدة، الوقت يستغرق شهراً، و الأجرة ترجع بعشرة ملايين، أحد الأخوة الكرام في هذا البلد الطيب استطاع أن يحل هذه المشكلة، الآن يأخذ عشرة آلاف، و لأنه أتقن صناعته وفّر على صاحب المعمل مليوني ليرة أو ثلاثة ملايين ـ هذا القطعة تدعى البورد بالكومبيوتر ـ طبعاً الكومبيوتر صناعي، والمعمل يتوقف إن لم تصلح هذه القطعة، فيدفع صاحب المعمل كما يريدون لحلّ هذه

المشكلة، هم يتقصدون وضع قطعة ضعيفة، تتعطل كل سنة مرة ليقبضون ملايين مملينة، شاب مؤمن وفقه الله واستطاع أن يحل اللغز، والله الخريطة رأيتها، طولها يقدر بستة أمتار، هناك قطعة تالفة وضع محلها قطعة جيدة وانتهى الأمر.

فالعلم ضروري الآن، والعالم صار قرية واحدة، كان خمس قارات صار قارة، صار بلداً، صار مدينة، صار الآن قرية صغير، كان قرية، ثم بيتاً، ثم غرفة، ثم سطح مكتب.

أيها الأخوة، لابدّ من أن تتعرف إلى الحقيقة، لابدّ من أن نطلب العلم، لابدّ من أن نلقى الله بعمل يرضي الله عز وجل.

الحكمة من أمر النبي الكريم عدم قتل عمه العباس :

أخواننا الكرام، هذه الآية التي ذكرتها في بداية الدرس :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قال علماء التفسير في أسباب النزول: إن هذه الآية نزلت في العباس، لكن هناك قصة تؤكد لكم من العباس؟ هو عم النبي، لكن كان في مكة، وكان مسلماً، هو عين النبي، قيادة ذكية جداً، لكن حينما وقعت موقعة بدر، قال عليه الصلاة والسلام: "لا تقتلوا عمي العباس".

لها تعليل، صحابي قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه، حينها العباس كان مسلماً، فإذا قال: لا تقتلوه لأنه مسلم كشفه، وانتهى دوره، وإذا سكت قد يُقتل بالحد، وإذا ما خرج مع المشركين يكشف نفسه أيضاً، لذلك قال :" لا تقتلوا عمي العباس".

هذا الصحابي بعد أن علم أن العباس كان مسلماً يقول: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

قصة خيبر وإسلام العباس عمّ رسول الله صلى الله عليه و سلم :

أيضاً قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط السلمي فأسلم، وكان غنياً، كثير المال، فقال : يا رسول الله، إن مالي عند امرأتي أم شيبة بمكة، ومتفرق في تجار مكة، فائذن لي يا رسول الله أن آتي مكة لآخذ مالي، قبل أن يعلموا بإسلامي، عندئذٍ لا أقدر على أخذ شيء منه، يبدو أنه كان غنياً كبيراً، وأمواله كلها متفرقة في مكة، عند تجارها، عند امرأته أم شيبة، فائذن لي

أن أذهب إلى مكة، قبل أن يعلم أهل مكة بإسلامي لآخذ مالي، عندئذٍ لا أقدر على أخذ شيء منه، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن هناك سؤال محرج، ثم قال الحجاج : يا رسول الله لابدّ من أن أقول، أي أن أتقول شيئاً بخلاف الواقع، أتسمح لي أن أحتال لأخذ مالي؟ فقال عليه الصلاة والسلام رحمة به وبكماله: قل ما شئت.

قال الحجاج فخرجت، حتى إذا قدمت إلى مكة وجدت بثنيتي البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، لم يكن هناك فضائيات، كانوا يخرجون إلى ظاهر المدينة يتلقون الركبان، ليسألون عن الأخبار، ويسألون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وهي من أقوى قرى الحجاز، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان، وكان بينهم تراهن عظيم على مئة بعير، حول من سيغلب، هناك مراهنة بين أطراف قريش حجمها مئة بعير على من سيغلب، أهل خيبر أم رسول الله ؟.

فلما رأوا الحجاج، ولم يكونوا قد علموا بإسلامه، قالوا : الحجاج والله عنده الخبر اليقين، يا حجاج ! إنه قد بلغنا أن القاطع ـ لعنهم الله ـ يعنون رسول الله، قد سار إلى خيبر فقال الحجاج : عندي من الخبر ما يسركم، هو معه إذن من رسول الله، فاجتمعوا عليه يقولون: إيه يا حجاج، تكلم، قال الحجاج : فقلت لهم: لم يلقَ محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل مثلهم، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها، وأسر محمد، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث فيه إلى مكة، فنقتله بين أظهرهم، بمن كان أصاب من رجالهم، فانطلق هؤلاء الرجال فرحين أشد الفرح إلى أهل مكة فقيل لهم: قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم، ثم قال لهم الحجاج: أعينوني على غرمائي المدينين، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فاجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون، فاسترد كل ديونه.

فشا ذلك بمكة، وأظهر المشركون الفرح والسرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، الآن الشاهد : وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب، فجعل لا يستطيع أن يقوم ـ لم يعد يستطيع أن يقف من شدة حزنه بهذا الخبر ـ ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً ليقول له : يا حجاج، انظر حسن الظن بالله، الله أعلى وأجلّ من أن يكون الذي جئت به حقاً، أي هذا غير معقول.

وصدقْ إذا كنت مؤمناً مستقيماً لن تخاف، فقال الحجاج : اقرأ على أبي فضل السلام، وقل له : ليُخلِ لي بعض بيوته لآتيه بخبر يسره، واكتم عني، فأقبل الغلام وقال : أبشر أبا الفضل، فوثب العباس من فرحه وكأنه لم يمسه شيء عندما أخبره الغلام بذلك، وأعتقه العباس رضي الله عنه لوجه الله من فرحه، وقال : لله عليّ عتق عشر رقاب على هذا الخبر السار.

فلما كان الظهر، جاء الحجاج فناشد العباس أن يكتم عنه ثلاثة أيام، وقال: إني أخشى الطلب، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك، أكتم خبري عنهم ثلاثة أيام حتى أسافر، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك،

وطالت على العباس تلك الأيام كأنها سنوات، وبعد مضي هذه الأيام عمد العباس رضي الله عنه إلى حلة فلبسها، وتخلق بخلوق وتعطر، وأخذ بيده قضيباً، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون لمن مرّ بهم : لا يصيبك إلا الخير يا أبا الفضل، عرفوا أن الخبر مؤلم جداً، هو يتحمله، هذا والله التجلد بعد المصيبة، قال : كلا والله الذي حلفتم به لم يصبني إلا خير بحمد الله، أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله عز وجل على يد رسوله، وجرت فيها سهام الله، وسهام رسوله، وتزوج رسول الله صفية بنت ملكهم، وإنما قال لكم ذلك ليأخذ أمواله منكم، وإلا فهو ممن أسلم، فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، فقال المشركون : ألا يا عباد الله انفلت عدو الله ـ يعنون حجاجاً ـ أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم يلبسوا أن جاءهم الخبر الآخر أن النبي انتصر على أهل خيبر وتزوج صفية بنت ملكهم، والأمر على عكس ما يكون.

معنى ذلك نريد أن نقول لكم: العباس كان مسلماً، لذلك قال النبي الكريم: لا تقتلوا عمي العباس، لأن أي كلام آخر يفشل الخطة، فأنت بحاجة إلى حسن ظن بالله عز وجل.

فلذلك أيها الأخوة، هذه الآية سوف نوسعها في درس قادم :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (28-30): تفسير الآيات 69 - 72 ، طاعة الله ورسوله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-02-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنفال]

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، والحقيقة التي أكررها كثيراً: أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أودع فينا حب المرأة:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران الآية : 14]

هذه الشهوات لها قنوات نظيفة، أودع فينا حب المرأة، وشرع لنا بالزواج، أودع فينا حب المال، وشرع لنا الكسب المشروع، فهذه الغنائم التي تؤخذ في الحرب حلال، لكن الآية تلفت نظرنا إلى أن يتقي الإنسان ربه في إنفاق المال.

الطرق إلى الله لا تعد ولا تحصى :

المال له سؤالان: كيف اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ والمال قوة، والله عز وجل يريدنا أن نكون أقوياء في الدنيا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

فإذا كان طريق القوة ـ القوة كلمة عامة ـ المال قوة، والعلم قوة، والمنصب قوة، صاحب المنصب الرفيع بجرة قلم يحق حقاً، أو يبطل باطلاً، بتوقيع يقر معروفاً، أو يزيل منكراً، وصاحب المال الوفير بإمكانه أن يعمل أعمالاً صالحة لا تعد ولا تحصى، بإمكانه أن يعالج المرضى، بإمكانه أن يزوج

الشباب، بإمكانه أن ينشئ الجمعيات، والمؤسسات، كما قال ابن القيم: "الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق"، الحقيقة الدينية واحدة، أما الطرق إلى الله لا تعد ولا تحصى فدائماً وأبداً :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

السبب : لأن فرص العمل الصالح أمام القوي بعلمه، أو بماله، أو بمنصبه، لا تعد ولا تحصى.

فرص العمل الصالح أمام القوي لا تعد ولا تحصى :

لذلك نستنبط : إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لكن إذا كان طريق القوة سالكاً على حساب مبادئك، وعلى حساب قيمك، فالضعف وسام شرف لك.

إذاً : إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج، يجب أن تكون قوياً، لأن النبي الكريم يخبرك أن:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لأن فرص العمل الصالح أمام القوي لا تعد ولا تحصى.

سمعت عن إنسان في بلد إفريقي يزيد سكانه عن مئة و تسعين مليوناً، هناك فقر يفوق حدّ الخيال، وهناك ثروات لا يعلمها إلا الله، ثروات لا يعلمها إلا الله، وفقر لا يعلمه إلا الله، إنسان من أهل الغنى أراد أن يأخذ أولاد هؤلاء الفقراء الذين يتسولون طوال النهار، وأن يعلمهم، وأن يكفي أهلهم، صدقوا ولا أبالغ في هذا الوقت الصعب هناك أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى، هناك أعمال متعلقة بالتعليم، أعمال متعلقة بالتأهيل المهني، أعمال متعلقة بالطبابة، الأعمال الصالحة الموجودة لا تعد ولا تحصى.

فهنا في الآية إشارة:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

معنى :

(طَيِّباً)

أن النفس تطيب بهذا المال.

أنت حينما تصنع طاولة متقنة، وتأخذ أجرتك حلالاً، هذا المال نعمة، هذا المال تنفقه على نفسك وعلى أهلك، وأحد الصحابة الكرام يقول: "حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي".

الحياة الإنسانية حياة رائعة في ظلّ طاعة الله عز وجل :

وأنتم أيها الشباب حينما تتزوجون إن شاء الله، وحينما تعملون أعمالاً متقنة، وحينما تكسبون أموالاً، هذا المال تنفقه على أهلك، على أولادك، تكفيهم، تمتن علاقتك بهم، تأخذ بيدهم إلى مبادئ الإسلام، فالحياة رائعة في طاعة الله، في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، بل إن الآية الكريمة يفهمها بعض العلماء :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، فالمرأة، أُودع حب المرأة في قلوب البشر، وأُودع في قلوب النساء حب الشباب، وحب الرجال، شهوة مشتركة، جعل الله لها قناة نظيفة هي الزواج، المال؛ أودع الله فينا حب المال، جعل لنا قناة نظيفة في كسب المال، وفي إنفاقه.

فهنا الآية تشير إلى إنفاق المال،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

ومرة ثانية : المال الحلال تطيب النفس به، والمرأة الحلال تطيب النفس بها، بعد جهد جهيد حصّلت شهادة عليا، حصّلت حرفة، لك دخل، حصلت على زوجة صالحة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعها إن أمرتها، جئت إلى البيت، رأيت امرأة تحبها وتحبك، تكرمها وتكرمك، أنجبت منها أولاداً ملؤوا البيت فرحة وسعادة، فهذا شيء رائع جداً.

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

فالإنسان قد يقارب أهله، ويقوم لصلاة الليل، ويبكي في الصلاة، لأن الحركة وفق منهج الله.

الحلال تطيب النفس به و تحلو :

صدق ولا أبالغ، أعيدها مرة ثانية، وثالثة، ورابعة: ما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل الله قناة نظيفة طاهرة تسري خلالها، بتعبير آخر : ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، هناك سعادة و هناءة.

والله في الجامع الصغير عدد كبير من الأحاديث الشريفة التي تبدأ بكلمة حق، حق المسلم على المسلم، حق الجار على جاره، حق الأب على أولاده، حق الأولاد على آبائهم، أحاديث كثيرة، لكن هناك حديثاً إذا قرأته يقشعر جلدك: "حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف".

وأنا أخاطب الشباب : غضّ بصرك عن محارم الله، ولك حق عند الله أن يكرمك بزوجة تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها.

أيها الأخوة،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً)

حلالاً تحلو به النفس، وطيباً تطيب به النفس، أحياناً يعقد عقد زواج، يوم العرس السيارات تطلق أبواقها، ألا يستحون؟ لا، لا يستحون، هذا عمل مشروع، هكذا أراد الله أن تكون العلاقة بالأنثى، علاقة زواج، تجد الكل يبارك، ويهنئ، ويفرح، أما لو كان هناك اتصالاً هاتفياً مشبوهاً بين ذكر وأنثى كأنه يعمل جريمة، هذا خلاف منهج الله، علاقة شائنة، علاقة غير مشروعة، علاقة فيها خيانة، علاقة فيها معصية، فدائماً الحلال تطيب النفس به، الحلال ترقى النفس به، الحلال تُقبل النفس به على الله.
لذلك اعتقد يقيناً أنه ما من شهوة أودعها الله فيك إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها، فابحث عن الحلال، وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

المال قوام الحياة :

أيها الأخوة،

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ)

بإنفاق المال، المال أيها الأخوة قد تنفقه في وجه حلال فترقى، ولا سمح الله ولا قدر قد ينفقه إنسان في وجه حرام فيهوي، إنفاق المال مهم جداً، إن أنفقته في طاعة، أو في عمل صالح، أو في بر، أو في تقوى، ترقى إلى الله، والمال قوام الحياة، وقد جعل الله المال نعمة كبيرة، فإذا متعك الله بمال حلال ولو كان قليلاً، القليل الحلال فيه بركة، يبارك الله فيه، والكثير غير الحلال يمحق الله بركته.

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ)

هنا

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

في إنفاقه، أن تنفقه في وجه حلال.
لذلك ورد في بعض الآثار: أن البشر أصناف أربعة، فريق جمع المال في حلال وأنفقه في حلال، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، يقال : خذوه إلى النار، يوجد حالتان، فريق جمع المال من حلال، تجارة مشروعة، وأنفقه في حرام يقال : خذوه إلى النار، حسابه سريع، أي تجارته مشروعة، لكنه انحرف بهذا المال، ووظفه في اقتناص الشهوات المحرمة، وفريق جمع المال من حرام، من قمار، وأنفقه في حلال، تزوج فيه، يقال : خذوه إلى النار، ما دام في طرف حرام، فهو من حرام إلى حرام

قطعاً، أما الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال فيقال: هذا قفوه فاسألوه، هل تاه بماله على من حوله؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟.

إنفاق المال في المباحات مع عدم الإسراف و التبذير :

الحياة دقيقة جداً، إذا أعطاك الله مالاً ينبغي أن تتقي الله بهذا المال، فإنفاق المال مهم جداً.

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

[سورة الإسراء الآية :29]

المبذر :

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

[سورة الإسراء الآية : 27]

والمبذر في القرآن الذي ينفق ماله بمعصية،

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

[سورة الإسراء الآية : 27]

شيء آخر : المسرف في المباحات، دائماً وأبداً الشيطان يوسوس لك بالكفر، فإذا وجدك على إيمان يوسوس لك بالشرك، فإذا وجدك على توحيد يوسوس له بالكبائر، فإذا وجدك على طاعة يوسوس لك بالصغائر، فإذا وجدك على ورع بقي معه ورقتان رابحتان، يوسوس لك بالتحريش بين المؤمنين، أنت من أي حلقة ؟ شيخك لا يفهم، أنت من أي جامع ؟ هذا من عمل الشيطان، هل يجب أن تعرف هذا لمن تابع؟ ما هذه الشهوة المرضية ؟ مؤمن.

من لم ينتم إلى مجموع المؤمنين فليس منهم :

أخواننا الكرام، لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة، والله عز وجل قال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية : 10]

وما لم تنتمِ إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، وما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، كل مؤمن على العين والرأس، الإسلام ليس خطاً رفيعاً لمجرد أن تخرج عنه قيد أنملة فلست من الدين، لا، الإسلام شريط عريض، كل من في هذا الشريط إن صحت عقيدته، واستقام سلوكه، على العين والرأس.

مرة ثانية : ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المسلمين فلست مؤمناً، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

أنت أخ لكل مؤمن، بأي جامع آخر، ما دامت العقيدة صحيحة، والمنهج قويم، فالسلوك مستقيم، ولك أعمال صالحة، انتهى، أنت أخي في الله على العين والرأس.

آخر ورقة رابحة بيد الشيطان أن يوسوس للإنسان بالمباحات :

إذاً الشيطان يوسوس بالكفر، ثم بالشرك، ثم بالكبائر، ثم بالصغائر، ثم بالتحريش بين المؤمنين، بقي معه ورقة أخيرة، ورقة المباحات، يوسوس لهذا الإنسان أن يمضي وقته كله في بيته، وفي تزيين بيته، وفي نشاطاته الدنيوية، لا يوجد حرام، لكن لا يوجد عمل صالح ثم يفاجئه الموت.

فالانغماس في المباحات إلى أقصى درجة، والعناية الغير معقولة بالدنيا، واستهلاك الوقت الطويل بتحسين الدنيا، ثم يأتي ملك الموت، وهذا الإنسان الذي أمضى وقته في الاستمتاع في الدنيا بالحلال جاء فقير اليدين.

فلذلك آخر ورقة رابحة بيد الشيطان أن يوسوس للإنسان بالمباحات.

إذاً:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لما مضى، ولخطأ غير مقصود.

من أنفق شيئاً في سبيل الله وكان راضياً ضاعفه الله له أضعافاً كثيرة :

ثم يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنفال]

قالوا : الحمد لله على وجود الله، والحمد لله أن الله يعلم، الله عز وجل مطلع على قلبك، فيه طيب؟ فيه نية طيبة؟ فيه براءة؟ فيه نظافة؟ فيه سلامة صدر؟ لا يوجد به حقد، لا يوجد به احتيال، الحمد لله على وجود الله.

إنسان وقع أسيراً، أُخذت منه فدية، أعطاها عن طيب خاطر، وبعدها تاب إلى الله توبة نصوحة، قال:

(يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)

أي شيء تنفقه في سبيل الله، أو تنفقه بقضاء الله وقدره، إذا كنت راضياً فالله عز وجل يضاعف لك الجزاء أضعافاً مضعفة.

كلكم يعلم أن سيدنا العباس كان في مكة، وكان مسلماً، والدليل عندما جاءه الخبر من الحجاج لم يستطع أن يقف على قدميه، فلما علم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب خيبر، وانتصر عليهم، وتزوج صفية بنت زعيمهم، أعتق الذي أبلغه هذا الخبر، وأعتق معه عشرة من العبيد.

فلذلك سيدنا العباس كان في أعلى درجات الإيمان، لكن دفع فدية، بحسب النظام العام دفع فدية، فيقول سيدنا العباس هذه الآية نزلت بيّ :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرَاً يُؤْتِكُمْ خَيْرَاً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

علاقة الإنسان بربه يجب أن تُبنى على الحب :

أيها الأخوة الكرام، الإنسان علاقته بالله ينبغي أن تبنى على الحب، الله عز وجل هو إلهنا، هو خالقنا، هو مربينا، هو مسيرنا، أمرنا بيده، نحن في قبضته، في أي شيء نحن في قبضته، ومع ذلك ما أراد أن تكون علاقته بنا علاقة إكراه، قال :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية : 256]

أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون علاقتنا به علاقة حب، قال :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية : 54]

الإله العظيم الذي فيك مالك كل شيء، حياتك، صحتك، أجهزتك، أعضاؤك حواسك الخمس، سمعك، بصرك، زوجتك، أولادك، عملك، من هم فوقك، من هم معك من هم دونك، كل شيء بيد الله، ومع كل هذا وأنت في قبضته ما أراد أن تعبده خوفاً، أرد أن تعبده حباً، لذلك قالوا في تعريف العبادة : هي طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

الله عزّ وجل يعلم كل شيء و هو مطلع على قلب كل إنسان :

أيها الأخوة،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرَاً)

صدق أيها الأخ الله عز وجل مطلع على قلبك، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا تخفى عليه خافية.

(يَعْلَمُ السِّرَّ)

[سورة طه]

أي ما أسررته :

(وَأَخْفَى)

[سورة طه]

(يَعْلَمُ السِّرَّ)

الذي أضمرته، ما خفي عنك، فالله عز وجل يعلم، فإذا أنت على حق، وإذا كنت طاهراً، بريئاً، نظيفاً، مستقيماً، فعلم الله بك يكفيك، لذلك قالوا: الحمد لله على وجود الله:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

القلب السليم أكبر مكسب يكسبه الإنسان في الدنيا :

ما هو أكبر مكسب تكسبه في الدنيا؟ أقول لكم: أكبر مكسب على الإطلاق القلب السليم، والدليل قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء]

ومن أدق تعريفات القلب السليم هو: القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : 50]

ماذا يستنبط من هذه الآية ؟

(وَمَنْ أَضَلُّ)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أضل

(مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

عند علماء الأصول يوجد المعنى المخالف، المعنى العكسي، فالذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، فالذي يشتهي المرأة يتزوج، و الذي يشتهي المال ويكسبه مشروعاً من طريق مشروع، يشتهي أن يكون إنساناً كبيراً، يشار إليه بالبنان طلب العلم، وعلم العلم، وخدم الناس، فما من شهوة أودعها الله فينا إلا ولها قناة نظيفة.

لذلك الذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه،

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

أيها الأخوة، فالقلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله.

أكثر شيء ينفعك عند الموت قلب سليم لا يشتهي شهوة لا ترضي الله ولا يحتكم إلا لله :

شيء آخر : القلب السليم لا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد غير الله، ولا يحتكم إلا لله، أربع خصائص للقلب السليم، وعند الموت لا ينفعك إلا قلب سليم، الإنسان حينما يأتيه ملك الموت وتنتهي حياته، ويساق إلى القبر، ليوضع في القبر، لا ينفعه في هذا القبر إلا قلبه السليم،

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ)

ترك أربعة مليارات، أعرف إنساناً ترك أربعة مليارات، وكان في بيت الله الحرام، لم يصلِّ، و لم يحج، و لم يعتمر، وأمضى الصيف في بلد رائع جداً في الشمال، وفي الفندق جاءته أزمة قلبية أودت بحياته، ما انتفع من هذا المال إطلاقاً،

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

أكبر شيء يمكن أن ينفعك عند الموت قلب سليم، قلب لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يحتكم إلا لله، ولا يعبد غير الله.

لذلك

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

من كان مع الله كان الله معه :

إذاً :

(إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

أي قلبك سليم، لا يوجد به حقد، ولا احتيال، ولا خداع، ولا انحراف، ولا أكل مال حرام، ولا عدوان على أعراض الناس، قلب سليم مستقيم، هذا المستقيم يعيش حياة كأنها جنة، وبعد الموت له جنة،

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، وبعضهم قال : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ـ أي جنته في داخله ـ فإن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ إذا كنت مع الله كان الله معك.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا

* * *

لم يعد هناك حجاب بينك وبين الله.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا و احتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات وأهل الأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[ورد في الأثر]

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، إذاً حينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية : 55]

هذا قانون إلهي، قانون الاستخلاف،

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

نحن لسنا مستخلفين الآن، هذه الحقيقة المرة،

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

قانون،

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

ونحن أيضاً لسنا ممكنين،

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

ونحن أيضاً لسنا آمنين، لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين، ولسنا آمنين، أين الخلل ؟ الإجابة عن الخلل في هذه الآية، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

إذاً ماذا ينفعنا ؟ المسلمون أضاعوا الصلاة، وقد أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها، بل تفريغها من مضمونها،

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

ولقد لقينا ذلك الغي، خمس دول إسلامية محتلة الآن، نُهبت ثرواتهم، قُتل شبابهم، ملايين قتلوا، وأعيقوا، وشُردوا، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، هناك قواعد ثابتة، هناك قوانين، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، والله عز وجل وعدنا بالنصر، قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

القلب السليم مع إحكام الصلة بالله سبب النصر :

إذاً:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

القلب السليم لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد إلا الله، ولا يحتكم إلا لشرع الله، من هنا:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً)

بطولتك الأولى أن تملك قلباً سليماً، قلباً مؤمناً، قلباً طاهراً، قلباً مقبلاً، قلباً متمسكاً بأحكام الشرع، قلباً جعلك تختار زوجة مؤمنة، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها.

القلب السليم مع إحكام الصلة بالله سبب النصر، والله عز وجل قال :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم]

الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله. بعض الأسرى الذين وقعوا أسرى في معركة بدر، قالوا: نحن معنا مال يا رسول الله، لكن اسمح لنا أن نسافر، وأن نأتي بالمال، المؤمن كما قال النبي الكريم :

((المؤمن كيس، فطن، حذر))

[ورد في الأثر]

إنسان ضعيف باللغة قرأها: المؤمن كيس قطن، قال: سيدي! كيف كيس قطن؟ قال له: قلبه أبيض يا بني، ولين بالمعاملة، فالله عز وجل قال :

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة الأنفال]

فالله عز وجل أخبر النبي أن هذا الطلب غير مشروع، أرادوا بهذا الطلب أن يفروا من الأسر،

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لذلك إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

الله عز وجل مع المؤمنين بالنصر و الحفظ و التأييد :

النقطة الدقيقة أيها الأخوة، أن الإنسان حينما يكون مع الله فإن الله معه في آيات كثيرة، إذ قال الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية : 4]

هذه معية عامة لا تعني إلا ما أنتم عليه، معية العلم فقط، أما إذا قال الله عز وجل :

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

إن الله :

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

إن الله مع التوابين، قال: هذه معية خاصة، معية النصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، والفوز، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟.

لذلك الآية الكريمة:

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الآية التالية العالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة إليها :

ونحن في درس قادم إن شاء الله، نتحدث عن آية دقيقة جداً، والعالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة إليها، أقرؤها لكم قراءة :

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة الأنفال]

وهذه الآيات إن شاء الله سوف نشرحها بتوفيق الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (29-30): تفسير الآية 72 ، الإيمان عدة مراتب فيجب على المؤمن اتباع هذه المراتب حتى يصل إلى أعلاها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-02-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان مرتبة علمية وأخلاقية وجمالية :

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة الأنفال، ومع الآية الثانية والسبعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، ما من آية في القرآن الكريم يحتاجها المسلمين اليوم كهذه الآية.

بادئ ذي بدء:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الإيمان مرتبة علمية، وأخلاقية، وجمالية، ذلك لأن المؤمن عرف الحقيقة العظمى، عرف الله جلّ جلاله، عرفه خالقاً، ومربياً، ومسيراً، عرفه موجوداً، وواحداً، وكاملاً، عرف أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، معرفة الله أصل الدين، إنك إن عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفة الله فاتتك كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحبّ إليك من كل شيء)) .

[مختصر تفسير ابن كثير]

المؤمن يعرف سرّ وجوده و غاية وجوده :

لذلك كلمة

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الإنسان عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، عرف منهجه في الأرض، عرف أن الدنيا ممر، وليست مقراً، عرف أن الدنيا دار عمل، وليست دار أمل، عرف أن الدنيا دار تكليف، وليست دار

تشريف، عرف أن الدنيا زائلة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الدنيا سبب دخول الجنة، طبعاً حينما يدخل المؤمنون الجنة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر الآية: 74]

أي جئنا إلى الدنيا، وعرفنا ربنا، وعبدنا ربنا، وتقربنا إليه بالعمل الصالح، فكان هذا العمل بشقيه الاعتقادي والسلوكي سبب دخول الجنة.

فكلمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا)

للتقريب والفرق من الأرض إلى السماء: الآن بالمجتمعات المدنية، إذا قلت: دكتور، أي بالحد الأدنى يحمل ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتوراه، بالحد الأدنى. كلمة

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا)

أنت قد عرفت الله خالقاً، مربياً، مسيراً، موجوداً، واحداً، كاملاً، عرفت أسماءه الحسنى، عرفت صفاته الفضلى، عرفت أن الدنيا مزرعة الآخرة، أن الدنيا ممر وليست مقراً.

إدعاء الإيمان شيء سهل :

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا)

السؤال: كل إنسان يتوهم أنه مؤمن، نسأله متى آمنت؟ متى تفكرت في خلق السماوات والأرض؟ متى قرأت القرآن؟ متى فهمت ـ فهمت تفسيره ـ؟ متى قرأت السنة؟ متى اطلعت عليها؟ فهمت فحواها، متى درست أحكام الفقه؟ متى عرفت تاريخ الإسلام؟ تاريخ الصحابة الكرام؟ متى؟ كل إنسان ما بذل ولا جهد، ولا تجشم حضور درس، ولا تجشم قراءة كتاب، ولا متابعة موضوع علمي، يقول لك: أنا مؤمن، وإيماني أقوى من إيمانك، وأنا إيماني بقلبي، وهو غارق بالمعاصي والآثام.

إدعاء الإيمان شيء سهل، لكن سبحانك يا رب! لا يستطيع إنسان أن يقول أنا طبيب ولو قال: أنا طبيب، ووضع لوحة على باب داره، يعاقب أشد العقاب، الطب يحتاج إلى شروط، طبيب أي معه ابتدائي، إعدادي، ثانوي، دخل كلية الطب، درس علوم عامة، درس علم التشريح، علم الفيزيولوجيا، علم الأمراض، علم الأدوية، بعد دراسة سبع سنوات يعطى إجازة في الطب، لا تقدم ولا تؤخر، يعمل دبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه من بلده، معه دكتوراه بالطب لا تقدم ولا تؤخر، و إذا لم يذهب لبلد بعيد و يأتي بالبورد، لا يستطيع أن يكتسب من حرفته، قال لك: طبيب، كلمة طبيب

للتقريب كل الشهادات، طبيب، معي بورد، أي درست ببلاد بعيدة، ودرست سبع سنوات، حتى يقول: أنا معي بورد يحتاج إلى أربعين سنة، هذا الواقع.

كلمة مؤمن أكثر بكثير، مؤمن أي عرف الله، عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، عرف لماذا هو في الدنيا، عرف ما يصلح له في الدنيا.

الإيمان إن لم ترافقه حركة فلا قيمة له :

لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن أنت آمنت، أي إيمان لا ترافقه حركة لا قيمة له.

إنسان على وشك أن يموت عطشاً، قال له آخر: في هذا المكان نبع ماء، لم يتحرك، ولم يتوجه إليه، ولم يشرب منه، ومات، هذا يموت مع الحسرة، لأنه عرف وانحرف، عرف ولم يطبق، لذلك قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

من هم المغضوب عليهم؟ الذين عرفوا وانحرفوا، وأي مسلم يعرف سرّ وجوده وغاية وجوده، ويعرف الآخرة، ولا يتحرك، والله لا من باب التشاؤم، ولكن من باب الحقائق المرة، ترى الناس يتوهمون أنهم مؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالآخرة ما اغتصبوا بيتاً، ولا أكلوا درهماً حراماً، ولا اعتدوا على الآخرين، لا على أموالهم، ولا على أعراضهم، تجد في قصر العدل سبعمئة ألف دعوى، عدوان، هؤلاء يتقاضون في قصر العدل يصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكون، فكيف أكل بعضهم أموال بعض؟.

الإيمان الشكلي بالآخرة لا قيمة له إطلاقاً :

إذاً الإيمان بالآخرة، الشكلي، اللفظي لا قيمة له إطلاقاً، أحياناً تأتيك رسالة من دائرة البريد، تعال استلم رسالة مسجلة غداً الساعة العاشرة، لا تتحرك فيك شعرة، وقد تذهب، وقد لا تذهب، تأتي رسالة من جهة قوية، تعال غداً الساعة العاشرة، لا تنام ولا دقيقة، والله لم أفعل شيئاً! تعرف من هو الثاني، ماذا يملك الثاني من سلطة عليك، قد تدخل ولا تخرج.

لو عرفنا ربنا كما يعرف بعضنا بعضاً لحلت مشكلاتنا، إله:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

[سورة الحجرات الآية: 12]

سهرة كلها غيبة، إله يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة الآية: 188]

لذلك أنا أقول أيها الأخوة: إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في معرفة طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من أمره، وهذا حال المسلمين اليوم.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

متى آمنت؟ أي درس حضرته؟ أي تفسير قرأته؟ أي كتاب حديث اقتنيته؟ أي مجلس علم داومت عليه؟ هناك إنسان يستطيع أن يقول: أنا معي شهادة ثانوية ولم أنتسب لأية مدرسة؟ يستطيع أن يقولها، هذا النظام المدني، أما هل يستطيع أن يقول: أنا معي لسانس ولم أدخل الجامعة؟ طبعاً لا، أما الإيمان كلأ مشاع، كلٌّ يدعي وصلاً بليلى.

المؤمن إنسان مستقيم و منضبط بمنهج الله عز وجل :

أيها الأخوة، إذا قال الله عز وجل

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي عرفوا الله، عرفوه خالقاً، مربياً، مسيراً، عرفوه واحداً وكاملاً، عرفوا أسماءه الحسنى، مطالعة أسماءه الحسنى صوتاً أو نصاً جزء من إيمانك، عرفوا صفاته الفضلى، عرفوا الدار الآخرة.

أنت لو سافرت لبلد مجاور في أثناء الذهاب وجدت تفتيشاً غير معقول، لابدّ من أن يفتشوا كل شيء معك، سافرت إلى هناك والعودة في اليوم الثاني، هل تشتري حاجة رأيتها بعينك، كيف تحاسب؟ مستحيل !.

لو تعاملت مع الله كما تتعامل مع الأقوياء في الدنيا، لاستقمت على أمره، لذلك قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

أنت حينما توقن أن علمه يطولك.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

[سورة غافر الآية: 19]

مثل دقيق جداً: طبيب مسلم يفحص امرأة، سمح الشرع له أن ينظر من جسمها إلى موضع المرض، فاختلس نظرة إلى مكان آخر، هل في الأرض كلها جهة بإمكانها أن تضبطه بهذه المخالفة؟.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

علمه يطولك، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون،

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

علمه يطولك، وقدرته تطولك، لو أن إنساناً قوياً علمه يطولك وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه. اسأل أخواننا التجار المستوردين بالذات، حينما تستورد بضاعة تذهب نسخة من إجازة الاستيراد إلى المالية، فإذا أغفلت هذه البضاعة في حساباتك أهدرت كل حساباتك، أنا لا أتصور تاجراً بالأرض يخفي عن المالية صفقة، لماذا؟ لأن المالية تعلم من خلال نظام الاستيراد.

فأنت مع إنسان تنضبط، ومع خالق الأكوان لا تنضبط؟

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا)

مؤمن أي مستقيم.

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا تستطيع أن تقطف ثماره :

لذلك اسمحوا لي بهذا المثل: دائرة كبيرة كل من قال: أنا مؤمن، والله موجود ضمن الدائرة، وقد يرتكب الكبائر، لكن هذا الإيمان كإيمان إبليس لا يقدم ولا يؤخر، ولا ينفع، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

إبليس، قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

آمن به خالقاً، ربي

(فَبِعِزَّتِكَ)

آمن به رباً وعزيزاً.

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة، ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يترجم إلى سلوك، لا يترجم إلى التزام، لا يترجم إلى مواقف، لا يترجم إلى حركة باتجاه الخير، لا يترجم إلى أن يراك حيث أمرك، ويفتقدك حيث نهاك،

لا قيمة له إطلاقاً، لا تقول الحمد لله على الإيمان، أي إيمان؟ لم تطبق بالإسلام شيئاً، صدق ولا أبالغ وهذه حقيقة مرة، وهي أفضل ألف مرة من الوهم المريح، الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله، لا تستطيع أن تقطف ثماره إطلاقاً.

لذلك هذه الدائرة الكبيرة كل من قال: أنا مؤمن، والله موجود ضمن الدائرة، لكن إن لم يطبق منهج الله دخلنا بدائرة ثانية ضمنها، ضمن الدائرة الثانية كل إنسان آمن بالله، واستقام على أمره صار بالدائرة الثانية، الآن كل إنسان خارج الدائرة الكبيرة، ملحد، هناك إنسان ضمن الدائرة الكبيرة، من قال: الله موجود، لكن لم يطعه، وهناك إنسان ضمن الدائرة الداخلية، هذا الذي آمن بالله، واستقام على أمره، ولعل مركز هذه الدائرة الأنبياء، هؤلاء المعصومون في دائرة، إذاً هناك أشخاص خارج الدائرة، و هناك أشخاص داخل الدائرة الكبيرة، و هناك أشخاص داخل الصغيرة، وفي المركز النبوات.

على كل إنسان أن يوقع حركته وفق منهج الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

هاجروا تعني الحركة، مطلق الحركة، أي إن كان يكتسب رزقاً من حرفة لا ترضي الله، فلابدّ من البحث عن حرفة أخرى، حركة، يقيم في مكان لا يستطيع أن يطيع الله فيه، فتركه هذا المكان لمكان يطيع الله فيه، يفهم من هنا الهجرة حركة، تحرك أي انتقل من مكان إلى مكان، من مجموعة أصدقاء إلى مجموعة مؤمنين، من مكان يصعب أن يطيع الله فيه إلى مكان يستطيع أن يطيع الله فيه.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

الهجرة هنا الحركة التي تجسد الإيمان.

(وَجَاهَدُوا)

الجهاد هنا بذل الجهد لأن الشرع سمي بالتكاليف، والتكاليف تعني أن الأخذ يحتاج إلى كلفة، إلى جهد، فإطلاق البصر سهل، لكن غضّ البصر يحتاج إلى جهد، سهل أن تبقى نائماً إلى الساعة العاشرة، لكن الاستيقاظ على صلاة الفجر يحتاج إلى جهد، سهل أن تتحدث عن كل شيء، غيبة، نميمة، بهتان، كذب، سخرية، استخفاف، مزاح رخيص، أما ضبط اللسان يحتاج إلى جهد، فضبط اللسان، ضبط العين، ضبط الأذن، هناك أشياء لا ترضي الله، ضبط اليد، ضبط الحركة، في مكان لا يرضي الله، هذا كله يحتاج إلى جهد.

معنى جاهدوا أي أوقعوا حركتهم وفق منهج الله، هذا الجهاد، الله عز وجل أودع فينا الشهوات، وبالشهوات يمكن أن تتحرك مئة و ثمانين درجة، لكن مسموح لك بمئة درجة، فالجهاد أن توقع حركتك نحو المرأة ضمن المئة درجة، هناك زواج، هناك محارم، علاقة المؤمن بالمرأة علاقة زواج، أو محارم، لكن لا يوجد في الإسلام خليلة إطلاقاً، ولا عشيقة، ولا صديقة حميمة، هناك حيز مسموح به، وحيز محرم.

بكسب المال، الربا، التجارة، الإرث، لكن لا يوجد بالإسلام سرقة، ولا نهب، ولا غش، ولا تدليس، فحركتك في العلاقة بالمرأة مضبوطة بالشرع، وحركتك في علاقتك بكسب المال مضبوطة بالشرع، هذا معنى جاهدوا،

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

الهجرة تحتاج إلى جهد وإرادة قوية وتجشم مصاعب :

أخواننا الكرام،

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا)

بالمعنى الواسع:

((العِبَادَةُ في الهرج كهجرة إليَّ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن معقل بن يسار]

المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، صديق منحرف تركه من الهجرة، عمل لا يرضي الله تركه من الهجرة، علاقة لا ترضي الله تركها من الهجرة، بلد لا يرضي الله تركه من الهجرة، مطلق الحركة.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

هناك جهد، هناك إرادة قوية، هناك تجشم مصاعب.

((ألا إن عمل الآخرة حزن بربوة، ثلاثاً، وإن عمل النار سهل بشهوة))

[أخرجه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عباس]

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

بذل أمواله في سبيل الله، بذل ماله ليتعلم، بذل ماله ليتقرب إلى الله.

" حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي ".

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

وفي الجهاد

(وَأَنْفُسِهِمْ)

جاهد بماله، ونفسه.

في كل آيات القرآن الكريم المتعلقة بالجهاد قدم الله جهاد المال على جهاد النفس، لأن بذل المال أهون، الله بدأ بالأهون، بذل المال أهون من بذل النفس، إلا بآية واحدة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 111]

الله بدأ بالأهم،

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

طبعاً أنفق من ماله الزكاة، أنفق من ماله الصدقة، أنفق من ماله مبلغاً لإنشاء ميتم، لإنشاء مستوصف، لإنشاء مستشفى، لإنشاء معهد شرعي، لإنشاء جمعية خيرية، لإطعام الأيتام، لإطعام الفقراء، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

سمعت عن إنسان يريد أن يفعل شيئاً له قيمة، هو إفريقي، قال لي: في نيجيريا مئة و تسعون مليون مسلم، فقراء جداً، ماذا يفعلون؟ يرسلون أولادهم للتسول، هو فكرته أن يعطي الأب بدل الدولار الواحد الذي يجمعه ابنه من التسول خمسة دولارات، على شرط أن يعلم ابنه، يعلمه الدين، يعلمه حرفة، يعلمه فيصبح مهندساً أو طبيباً، وهذا عمل عظيم.

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: أي محسن فكر بطالب متفوق ينفق عليه ليأخذ أعلى شهادة، يكون قد خدم الأمة، الأمة تحتاج إلى علماء، أي محسن فكر بإرسال طلاب إلى جامعات عريقة في العالم ليأتوا باختصاصات مفيدة جداً للأمة، هذا قدم صدقة جارية، وهذا أراه الآن من أعلى مستويات الإحسان.

الكم القليل من العلماء سبب تخلف الدول النامية :

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

هناك حقيقة مرة سأقولها لكم: تمّ قتل ثلاثة آلاف و ثمانمئة عالم بالعراق ، أي عالم، مسلم، غير مسلم، سني، شيعي، مسيحي، يجب أن يبقى هذا الشعب قطيع، من يقود الأمة؟ العلماء، الأمة بعلمائها، لا أقصد علماء الدين فقط، لا، علماء، خبراء اقتصاد، خبراء حقوق، خبراء بالتجارة، خبراء بالصناعة، الأمة بعلمائها، العالم الغربي سبب تفوقه الكم الكبير من العلماء، والعالم المتخلف سبب تخلفه الكم القليل من العلماء.

وحينما كنت في الجزائر، فرنسا حينما دخلت إلى الجزائر نسب المتعلمين تقترب من سبعين بالمئة فلما خرجت كانت نسبة المتعلمين عشرة بالمئة.

دائماً الدول التي تستعمر تناهض العلم، فأنا أقول: من أعظم الأعمال الآن طالب متفوق، عنده ملامح تفوق، تنفق عليه لينال دكتوراه في اختصاص ما.

كنت مرة في جائزة قرآن كريم في بلد خليجي، اقترحت على المسؤولين أن نعطي الطالب الحافظ مليون ليرة، لا، نعطيه منحة دكتوراه، كل إنسان حفظ كتاب الله صار عالماً، أي إنسان حفظ كتاب الله ينال منحة دكتوراه حتى نهاية الدراسة، هذا عطاء.

حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

فيا أخوان، موضوع العمل الصالح، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، والله هناك أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى.

مرة التقيت بأخ ـ توفي رحمه الله ـ قال لي: أرجو منك أن تدلني على فتيات صالحات جداً، تقيات، حافظات كتاب الله، ما أتيح لهن الزواج، لأنه خطر في باله مشروع أن يعمر بناية صغيرة، وكل بنت حافظة لكتاب الله يكتب لها بيتاً، صار هناك عروض خاصة، و صارت البنت مرغوبة، وفعلاً كلهن تزوجن.

أنواع العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، لذلك تقرب إلى الله بعمل صالح، أنا علقت تعليقاً من يومين: تجد أخاً يحضر دروساً بالمسجد من خمس و ثلاثين سنة، و مع ذلك لا يقدم شيئاً، لا يتحرك حركة، لا يتكلم كلمة، أنا لا أريد هذا، الإنسان يتعلم بعد ذلك يلقي، يُخدم بعد ذلك يَخدم، هل من المعقول إنسان ليس له عمل فقط حضور الدروس؟ والله من دون عمل لا تقدم ولا تؤخر، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح،

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا)

العلاقة بين المؤمنين أمتن علاقة في المجتمع البشري :

أحياناً يأتي طالب علم من بلد فقير، يعيش حياة صعبة جداً، والله هناك أسر بالشام أنا أثني عليها، تحتويه، تعطيه غرفة مفروشة، هناك أناس يتهافتون على الإنفاق على طلاب العلم، هذا الذي آوى طلاب العلم، ونصرهم، وأكرمهم، وأطعمهم، له عند الله أجر عظيم.

مرة دعاني أحد طلاب العلم الأفارقة إلى بيته، الوقت شتاء، والبرد قارس، لا يوجد عنده مدفأة، ولا سجادة، لا يوجد بيت بالشام إلا وعنده حاجات ليس بحاجة إليها، منزعج من وجودها، فكر إذا كان عندك حاجات لا تستخدمها هناك طلاب علم، أحياناً سرير، سجادة، مدفأة، شيء ثمين جداً، تحرك حركة، قدم شيئاً، قدم حاجة، قدم قطعة أثاث، قدم مبلغاً من المال، قدم محاضرة، قدم كتاباً، قدم دعوة، قدم إكراماً، قدم مالاً، من دون عمل الإيمان وحده لا تقطف ثماره، الآية واضحة:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا)

أحياناً يأتي أخ من حلب، هناك أخ يدعوه على العَشاء، والله هذا عمل عظيم، وجد نفسه محبوباً، جاء من حلب، يسمع درس الجمعة، يذهب إلى الفندق ويتعشى هناك، لا، خذه إلى البيت و قدم له الطعام، يطمئن، ويحس أن هناك علاقة أخوة كبيرة جداً، هذه معنى:

(آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

العلاقة بين المؤمنين هي أمتن علاقة في المجتمع البشري.

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أنت وليه، تنصحه، ترشده، تدعوه، تكرمه، تعينه، وهو ينصحك، ويرشدك، ويكرمك، ويعينك، هذا معنى

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

حجم الإنسان عند الله بحجم بذله وتضحيته :

الآن هناك حالة ثانية، مؤمن لكن لا يتحرك، ولا يقدم، ولا يؤخر، ولا يدفع، ولا يطلب كلمة، ولا يأمر بالمعروف، يقول لك: الناس لا يُخدمون، هذه آية أم حديث؟ هذا كلام الشيطان، والله هناك مصطلحات جاءتنا من العصور الوسطى والله هي الكفر بعينه، امش بجنازة ولا تمشي بزواج، من قال لك هذا الكلام؟ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح، يا أخي ساهم في تزويج شاب وفتاة، فتاة مؤمنة، طاهرة، حافظة كتاب الله، عاونها، دلّ عليها، يقول: لا دخل لي، حتى لا يأتيه وجع رأس.

بالمناسبة: أحياناً يمكنك الله عز وجل من أن تزوج شاباً مع شابة، فيغيب خمس سنوات، ولا تسمع أية كلمة عنه، وعندما يتشاجر مع زوجته يأتي لعندك، يا أخي! عندما كنت مسروراً منها لماذا لم تأت و تشكرني؟ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ليس مستعداً لأن يتحرك، يقول لك: هذا أفضل، تكلفه بعمل ينسحب باعتذار، تكلفه بمهمة ينسحب منها، تطلب منه أن يأتي إلى الدرس يأتي، لأن هذه لا تكلفه شيئاً:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

حجمك عند الله بحجم التزامك، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، حجمك عند الله بحجم بذلك، وتضحيتك، هذا الحجم:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

التعاون بين الناس إما على البر والتقوى أو على الإثم والعدوان :

أخواننا الكرام، هناك مفاجأة كبيرة جداً، وقد لا ننتبه إليها:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

يتعاونون، يعقدون مؤتمرات، يبذلون جهوداً جبارة ليكيدوا للمسلمين، والطرف الآخر يتعاونون، التعاون إما أن يكون على البر والتقوى، أو على الإثم والعدوان، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: 2]

الطرف الآخر يتعاون على الإثم والعدوان، أي يعتدي، أو يقصف، أو يفسد بالأفلام، كلام دقيق

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ)

الإثم انحراف أخلاق، والعدوان إيذاء،

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ)

أخواننا الكرام، هذه الآية كما بدأت بها من أخطر آيات القرآن الكريم، ولا أتصور أن المسلمين في أشد الحاجة إلى شيء كما هم بحاجة إلى هذه الآية، لكن فيها عقدة، وفيها حل، هذا في الدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنفال 008 - الدرس (30 -30): تفسير الآيات 72 - 75 ، الهجرة مضمون الولاء والبراء دليل الوفاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء و البراء:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثلاثين من دروس سورة الأنفال، وهو الدرس الأخير إن شاء الله، ومع الآية الثانية والسبعين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

هؤلاء المهاجرون تركوا عقائدهم الوثنية، وآمنوا بالله، وتركوا بلدهم، ووطنهم، وبيتهم، وأموالهم، وانتقلوا إلى المدينة، وليس معهم شيء.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

ثم جاهدوا مع رسول الله في نشر هذا الدين، جاهدوا بمالهم، بإنفاق مالهم، وجاهدوا بأنفسهم في سبيل الله، القصد هو الله.

((من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيَّا فهو في سبيل الله))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري]

أما الأنصار

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

كلمة أولياء أي هناك تناصف، هناك مودة، هناك حب، هناك دفاع، ما معنى فلان وليّ وأنا وليه، نتعاون، نتناصر، نتناصح، يدافع بعضنا عن بعض.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

المهاجرون.

والأنصار:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الآن هناك حالة ثالثة، أول قسم المهاجرون، القسم الثاني الأنصار، القسم الثالث فئة تركت عقيدتها الوثنية ولم تعبأ بها، وآمنت بالله عز وجل، لكنها لم تترك أوطانها، ولا أموالها، ولا مكتسباتها.

الله تعالى أراد من الآية السابقة أن يغري المسلمين بالهجرة ويشجعهم عليها :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

هذه فئة ثالثة،

(مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

ضعف الولاء، قد يكون له ولاء لأنه آمن، لكن ولاء الهجرة لم يهاجر، أي آثر مصالحه على الجهاد في سبيل الله، لكن هؤلاء الذين آمنوا،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)

يبقى بينك وبينه قواسم مشتركة، آمن كما آمنت، وأيقن كما أيقنت، لكنه آثر مصالحه على الجهاد في سبيل الله، لكن لو استنصرك على قوم بينك وبينهم معاهدة، ميثاق، ينبغي أن تؤثر الحفاظ على العهد على نصرة هذا الذي لم يضح بمصالحه من أجل دينه

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أيها الأخوة، هذه الآية شرحتها في الدرس الماضي، ولكن لعلاقتها الوشيجة بالآيات التي بعدها أشرت إليها إشارة سريعة.

الطائفة الأولى تركوا دينهم السابق الوثني، وآمنوا بالله، وتركوا وطنهم، وبيوتهم، وأموالهم، وانتقلوا إلى المدينة، ثم اكتسبوا مالاً، جاهدوا بإنفاق هذا المال، وجاهدوا في الحرب، هؤلاء في الدرجة الأولى.

والفئة الثانية لم يتركوا أوطانهم لأن النبي جاء إلى بلادهم،

(آوَوْا وَنَصَرُوا)

كلمة دقيقة جداً، قال:

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أما الفئة الثالثة آمنت ولم تهاجر، هذه لها ولاء الإيمان، وليس لها ولاء الهجرة.

أيها الأخوة، حينما قال الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

كأن الله أراد أن يغريهم بالهجرة، أو أن يشجعهم عليها، هاجروا لكم ما للمؤمنين وعليكم ما عليهم.

الهجرة بالمعنى الواسع و الضيق:

لكن هناك ملاحظة ما معنى هاجر؟ هي فعل رباعي، وهناك هجر، لعل المعنى أنك إذا كنت في بيت ولم يعجبك تهجره فقط، هجر، لكن إذا كانت هناك مضايقات لا تحتمل لا نقول: هجرت البيت، هاجرت من البيت.

فالصحابة الكرام لو أنهم في مكة، سمح لهم بنشر دينهم، وإقامة شعائر ربهم، ما من داع لأن يهاجروا، إلا أن المضايقات، والتنكيل، والتعذيب، والضغط، والحصار، والقتل أحياناً، هذا دفعهم إلى الهجرة، فينبغي أن نفرق بين فعل هجر، أي هجر من طرف واحد، أما هاجر فيه فعل مشاركة، فيه جهة ضغطت عليك وكان ردّ فعلك أن تدع هذا المكان.

لذلك الهجرة بالمعنى الواسع أن تنتقل من دار الكفر إلى دار الإيمان، لو وسعناها أكثر من ذلك أن تنتقل من حرفة لا ترضي الله، فيها معصية واضحة، إلى حرفة ترضي الله بمعناها الواسع، أن تدع صديقاً لا يرضي الله، إلى صديق يرضي الله، أن تنتقل من بيت فيه فساد كبير جداً، تخاف على بناتك إلى بيت آخر ليس فيه فساد.

فالحركة، مطلق الحركة، طبعاً الهجرة لها معنى ضيق، ولها معنى واسع كيف؟ تقول مثلاً: سيارة، كلمة سيارة لها معنى ضيق، أي مركبة تتحرك بمحرك انفجاري، وقوده سائل البنزين، هذا تعريف مختصر، هذه السيارة، الله عز وجل قال:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ)

[سورة يوسف الآية:19]

ما هي؟ مرسيدس؟

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

[سورة يوسف الآية:19]

الآن كل من يسير سيارة، فكلمة سيارة لها معنى واسع، ولها معنى ضيق، معناها الضيق الصحابة الكرام الذين انتقلوا من مكة المكرمة، وقد أرغموا على ترك مكة، بالتعذيب والتنكيل، والإيذاء، والحصار، إلى المدينة، هذه الهجرة بالمعنى الضيق.

الهجرة قائمة إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة:

لكن لا يقال لإنسان الآن انتقل من مكة إلى المدينة مهاجر، لقول النبي الكريم:

((لا هجرة بعد الفتح))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس]

لكن الهجرة قائمة إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة، في مكان لا تستطيع أن تحجب بناتك، والدخل كبير وفلكي، في مكان لا تستطيع أن تربي أولادك، والدخل كبير وفلكي، والحاجات ميسرة، وحقوق الإنسان بأعلى درجة، والمساكن ميسرة، والمواصلات، ساعة يقول لك: سنعمل أنفاقاً، وساعة يقول لك: مروحيات، كل شيء ميسر، بلاد جميلة جداً كلها حدائق، وأبنية شامخة، الحياة ناعمة جداً، الأماكن التجارية فيها من البضائع ما لا يصدق، والمشكلة أن عدداً من المسلمين كبيراً عاشوا بالغرب والحياة مريحة، مريحة جداً، لكن حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[أخرج ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

أكبر ثمن يدفعه أنه لا يستطيع أن يربي أولاده كما يريد الله عز وجل، إلا قلة قليلة جداً لا تزيد عن خمسة بالمئة هذه ليس لها حكم.

من لم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس:

أنا كنت أقول دائماً:إذا بلغت أعلى منصب، وجمعت أكبر ثروة، وارتقيت إلى أعلى مكانة، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، الحياة في الغرب مريحة جداً، لكن الثمن باهظ جداً، الثمن أن تخسر أولادك، وأن تخسر بناتك، في الأعم الأغلب، التعميم من العمى لا يخلو المسلم الذي يعيش في الغرب من أن يكون قد ضبط أولاده وبناته بحالات ونسب لا تزيد عن خمسة بالمئة، أما في الأعم الأغلب الجو جو معاصٍ، جو آثام، الدين مرفوض كلياً، الدنيا هي كل شيء.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم]

فلذلك الهجرة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة، في مكان لا تستطيع أن تقيم شعائر الله.

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

[سورة النساء الآية:97]

في مكان لا تستطيع أن تحجب بناتك، في مكان لا تستطيع أن تربي أولادك، في مكان لا تستطيع أن تجهر بالحق.

من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ومن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته :

لذلك المؤمن حينما يهاجر من بلاد الحياة فيها ناعمة إلى بلاد قد تكون نامية، والبلاد النامية فيها مشكلات لا تعد ولا تحصى، ولكن تستطيع في بلاد نامية بحكم أن الأكثرية على بقية حياء، على بقية

إنصاف، أن تربي أولادك كما ينبغي.

والله كنت مرة أغادر أستراليا، رئيس الجالية الإسلامية أثناء الوداع بكى، قال لي:بلغ أخواننا في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، وأنا ما رأيت بلاداً أجمل من أستراليا، قارة بأكملها لثمانية عشر مليوناً، فيها ثروات لا يعلمها إلا الله، الحديث عن الرفاه الذي يعيشونه صعب أن يتصور، الثلاجة نفسها إذا قلت الكميات فيها هي التي تتصل بالسوبر ماركت، وتعطي رقم صاحب البيت، وتأتي البضاعة، الأمور منسقة بشكل مذهل، الرفاه الذي بأستراليا العقل لا يصدقه، قال لي:بلغ أخواننا في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، جئت إلى الشام وأبلغت الأخوة الكرام هذه الرسالة، لكن سألته وضح؟ قال لي:ابنك في الشام ابنك، وهو مسلم، أما الابن عندنا لن يكون مسلماً قد يكون ملحداً أو ستفاجئ بحلقة في أذنه، والمعنى سيء جداً، باليمنى معنى، و باليسرى أسوأ، بالأذنين معنى أسوأ وأسوأ، بهذا الوضع، كل شيء رائع، وكل شيء جميل، وكل شيء لطيف، والحقوق مذهلة هناك، لكن خسرت أولادك.

لهذا أنا أقول: لو بلغت أعلى منصب في الأرض، وجمعت أكبر ثروة في الأرض، وبلغت أعلى مكانة في الأرض، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس.

لذلك أكثر من ثلاثين حديثاً صحيحاً يشير إلى الشام:

((بينما أنا نائم رأيت عمود الإسلام احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام))

[الحافظ أبو بكر النجاد عن أبي الدرداء]

أي أن تدخل إلى مسجد ممتلئ في أيام رمضان بالشام هناك أعراس، أعراس التراويح في المساجد، أهل الشام يزحفون إلى المساجد أليس كذلك؟ هذه نعم لا يعرفها إلا من فقدها، نحن في نعم لا يعرفها إلا الله، مع أننا نعاني ما نعاني، لكن لا تجتمع الدنيا والآخرة معاً.

من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، ومن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، فالذي أقام في الغرب وأحبّ دنياه لعله أضرّ بآخرته، والذي آثر أن يبقى في بلاد نامية فيها متاعب كثيرة أحب آخرته ولعله أضر بدنياه.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

لكن فرق كبير جداً بين أن ينتقل الإنسان للدار الآخرة وقد مات على الإيمان، ومات على منهج النبي العدنان، وبين أن ينتقل إلى الدار الآخرة وقد تلبس بالمعاصي والآثام، وفقد أولاده وبناته.

ومرة ثانية هذا الكلام لا على التعميم، لأن التعميم من العمى، بكل بلد أوربي هناك أناس مؤمنون تقيدوا بأحكام الدين، وربوا أولادهم تربية صحيحة، التعميم من العمى، أنا لا أعمم، لكن بالأعم الأغلب،

هناك خمسة و تسعون بالمئة ممن آثر الحياة في الغرب على ما فيها من حريات، ووسائل رفاه، وأمور ميسرة، آثر الحياة هناك على الحفاظ على دينه، ودين بناته، وأولاده، وزوجته.

لذلك الذي يترك هذه الميزات ويأتي إلى بلده ليتمكن من تربية أولاده، هذا أنا أعده مهاجراً، كما قلت قبل قليل: الهجرة بين كل مدينتين أو بلدين تشبهان مكة والمدينة.

الولاء والبراء الركن السادس في الإسلام:

أيها الأخوة، شيء آخر: الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

الآية الأولى: المهاجرون والأنصار

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

المهاجرون، والأنصار:

(وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الولاء الحب، الولاء الود، الولاء التناصر، الولاء التناصح، الولاء الانتماء، بل إن الولاء والبراء هناك من يعدهما الركن السادس في الإسلام، يجب أن توالي المؤمنين، وأن تتبرأ من الكفار والمشركين، ينبغي أن توالي المؤمنين ولو كانوا ضعفاء وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من أعداء الدين ولو كانوا أغنياء وأقوياء، هذا الإيمان.

تعاون الطرف الآخر على إذلال و إبادة المسلمين:

لذلك المفاجأة الآن:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتباذلون، يتناصحون، يتآمرون، تجد ثلاثين دولة أوربية على الباطل، يقفون مع الدولة العظمى بالرغم من ارتكابها الجرائم، الاحتلال، ونهب الثروات،

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

كما ترون، الثلاثون دولة أي مشكلة بالعالم يأتون كلهم معاً، بأفغانستان، بالعراق، بلبنان

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تعاون، تعاون مذهل، تنسيق مذهل، نقل معلومات مذهل، تسمعون بالأخبار الأخيرة خمس أو ست دول أخذت جوازاتهم، وزورت، والذي اعترض حفاظاً على ماء الوجه فقط، هم في الأعماق موافقون على ما جرى.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يمكن لا يوجد آية بالقرآن الكريم أنا أشعر ـ وهذا اجتهاد مني ـ أن المسلمين في أمس الحاجة إليها إلا هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

آمن، هاجر، جاهد، أنفق ماله، ضحى بحياته، آوى، نصر، هؤلاء أمة واحدة، كتلة واحدة

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا ـ أيضاً ـ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

الهاء، على من تعود؟ تعود على الآية السابقة بأكملها، إن لم تؤمنوا، وإن لم تهاجروا، وإن لم تجاهدوا، وإن لم تؤووا، وإن لم تنصروا، وإن لم يكن بعضكم أولياء بعض

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وهذا الذي يعيشه العالم الإسلامي، الولاء ليس لبعضهم بعضاً، هذا الكيان ولاؤه للعدو أحياناً، هذا الكيان ولاؤه لدولة عظمى، هذا الكيان ولاؤه لدولة في أوربا، ولاء المسلمين لا إلى الإسلام، ولا إلى بعضهم بعضاً، الولاء لغير المسلمين، هذا طبعاً شيء غير معلن، أما الواقع هناك من يقف مع الطرف الآخر ضد مصالح المسلمين، هذا شيء واقع.

من لم يكن انتماؤه إلى مجموع المسلمين فليس بمؤمن:

لذلك

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم يكن انتماؤك إلى المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى مصالح المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى وحدة المؤمنين، إن لم يكن انتماؤك إلى قوة المؤمنين ولو كانوا ضعافاً وفقراء، لكن الولاء للأقوياء من غير المؤمنين، الولاء والانبطاح لغير المؤمنين

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وهذا الواقع، مليار وخمسمئة مليون يحتلون أهم مواقع إستراتيجية في العالم، وتحتهم ثروات لا يعلمها إلا الله، ومع ذلك هم أفقر الشعوب، وأمرهم ليس بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، أنا لا أتحدث عن بلد معين، أتحدث عن المسلمين كمجموعة.

مرة ثانية:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، ويتناصرون، ويتناصحون، ويتآمرون.

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم تؤمنوا، وتهاجروا بأموالكم في سبيل الله، وإن لم تؤووا، وإن لم تنصروا

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

كما هو الآن، فالهاء هنا تعود على الآية السابقة بأكملها

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

من آمن ولم يجاهد أو ينصر فإيمانه لا يرقى إلى المستوى الذي ينجيه من عذاب الله:

الآن الله عز وجل وصف المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، ووصف الكافرين بأن بعضهم أولياء بعض، ثم يقول:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة الأنفال]

الآية الأولى وصفت، والآية الثانية قررت النتيجة، قال:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)

في الدنيا.

في الآن مليار وخمسمئة مليون مسلم، هل هناك واحد منهم يقول أنا لست مؤمناً؟ كل واحد يدعي أنه مؤمن، أما عندما قال الله:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)

أي الذي آمن ولم يهاجر، آمن ولم يجاهد، آمن ولم ينفق ماله في سبيل الله، آمن ولم يجاهد الجهاد الأكبر، آمن ولم يؤوِ، آمن ولم ينصر، بنص هذه الآية إيمانه لا يرقى إلى المستوى الذي ينجيه من عذاب الله.

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)

الإنسان يتوهم أن الآية فيها تكرار، الآية الأولى وصف المؤمنين:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

والكفار:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

العطاء الحقيقي هو عطاء الآخرة:

الآن جزاء المؤمنين أولاً في الدنيا:

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)

وفي الآخرة

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

ما معنى رزق كريم؟ الشيء الذي تنتفع به من دون أي جهد هذا رزق كريم، مثال ذلك الهواء، لا يوجد فواتير هواء الآن، تتنفس مئة نفس، فواتير هواء لا يوجد، فالهواء رزق كريم، والماء أيضاً لكن هناك فواتير بالماء، لكن الماء مبذول، فكل شيء تأخذه هذا من دون جهد هذا رزق كريم، هناك جهد أقل، أما بالآخرة، نظام الآخرة:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

[سورة ق الآية:35]

أي شيء يخطر في بالك تجده أمامك.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

[سورة ق]

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة]

الفواكه في الآخرة:

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[سورة الواقعة]

أحياناً يمنع استيراد الموز أحياناً، هذه ممنوعة،

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

قطوفها دانية.

لذلك العطاء الحقيقي هو الآخرة، في الدنيا هؤلاء الذين

(هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

والمفاجأة

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يتعاونون، ويتناصحون، ويتآمرون، ويتبادلون التقارير من أجل قمع المسلمين، أما أخطر كلمتين في هذه السورة

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

تعود الهاء على من؟ على الآية السابقة، إذا ما آمنت وهاجرت وجاهدت وآويت ونصرت

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

التفرق و التشرذم مصير المسلمين إن ابتعدوا عن نصرة بعضهم :

أخواننا الكرام، بلاد الأندلس زرتها قبل شهر تقريباً، شيء لا يصدق، حضارة خسرها المسلمون، وقد حكموها ثمانمئة عام، بالنهاية صار الولاء ليس للمسلمين، لأطراف أخرى غير مسلمة، والآن تجد دولاً إسلامية يكون ولاؤها لغير الإسلام، فإذا كان الولاء لغير المسلمين لن يكون بعضهم أولياء بعض، إن لم يكن بعضهم أولياء بعض سيكون هناك تفرق، هناك تشرذم، هناك ضعف.

((يَدُ الله على الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ إلى النار))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

فهذه الأمة تصور أنها ربع سكان الأرض، مليار وخمسمئة مليون، تصور ينطق بلسانها إنسان واحد، الآن أوربا كلها ينطق بلسانها إنسان واحد، عملة واحدة، حدود لا يوجد إطلاقاً، تنتقل في أوربا من مكان لأي مكان بدون لوحة.

إنسان دعاني في سويسرا إلى مكتبه، ودعاني إلى الطعام في بيته بإيطاليا، أين الحدود؟ قال: لا يوجد حدود، هناك خط من الحجارة السوداء، هذا الخط هو الحدود فقط، تنتقل من إيطاليا، لسويسرا، للنمسا، لفرنسا، لألمانيا، بلد واحد، هم يتعاونون، يتناصرون، يتناصحون، يتبادلون الحقائق، يتآمرون على المسلمين

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

إن لم نكن كذلك

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ)

الفتنة الجنس، أي كانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون، لكنهم الآن يجبروننا بالقوة الناعمة المرأة على أن نريد ما يريدون، هذه الصحون تستقبل ماذا؟ محطات فضائية غربية، ولا يعلم

إلا الله ما في هذه المحطات، هناك تدمير قيم، الفطرة دُمرت، الله يحفظنا من كيد هؤلاء، ومن ثقافة هؤلاء، ومن هذه الصحون وما فيها.

الآخرة رزق كريم من دون أي جهد:

أيها الأخوة،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

الآخرة رزق كريم من دون أي جهد، لك ما تشاء، لك ما تشتهي، خطر في باله صديقه فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، أي خطر يأتيك تجده أمامك

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

هذا هو الرزق الكريم، هذا زرق من دون جهد، من دون تعب، أنت في الدنيا من أجل طبق طعام تحتاج ساعة وأنت تعمل، زوجتك أعطيتها إجازة وأحببت أن تتغدى من أجل طبق طعام تحتاج ساعة، هنا رزق لكن معه جهداً، له ثمن، أما بالآخرة

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

أنواع الجهاد:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

لعلكم تستنبطون أن الذي يؤمن ولم يجاهد، والجهاد له معان كثيرة، أنت حينما تجاهد نفسك وهواك فأنت مجاهد، وصدقوا هذا هو الجهاد الأكبر، كما قال بعض الصحابة: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى"، أنت حينما تطلب العلم أنت مجاهد.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

والله لا أبالغ مجيئك من بلد بعيد من الغوطة و أنت تركب سيارتين أو ثلاث، والطريق يحتاج إلى ساعة أو ساعتين لتحضر درساً على الأرض، ليس هناك كرسي مريح، ولا كأس شاي، صح أم غلط؟ بعد ذلك ترجع إلى بيتك، والله هذا جهاد، هذا جهاد معرفي، جهاد دعوي، عندما تتقن عملك وتريحنا من الاستيراد هذا جهاد بنائي، أتقن عملك، يأتي خبير يأخذ مئة ضعف عن المواطن، وهو يضحك

علينا، تختص اختصاصاً نادراً تنفع أمتك فيه، هذا جهاد، وعندما يتاح لك أن تقاتل وتقاتل هذا جهاد أيضاً، عندنا جهاد نفسي، جهاد دعوي، جهاد بنائي، جهاد قتالي، فالذي آمن ولم يجاهد بأحد هذه الأنواع الأربع ـ بفلسطين هناك جهاد قتالي الآن، بغزة جهاد قتالي ـ فالذي آمن ولم يجاهد إن جاهد نفسه فهو مجاهد، وإن جاهد في طلب العلم فهو مجاهد، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن

(جِهَاداً كَبِيراً)

والذي يتقن عمله ويرفع رأس أمته عالياً فهو مجاهد.

هناك أخ أعرفه كشف بكل الحواسيب الصناعية لوحة معقدة جداً، هذه اللوحة إن كان فيها عطب تذهب إلى بلاد بعيدة للإصلاح، تكلف ملايين، استطاع أن يكشف سرّ هذه اللوحة، وصار يحل مشاكل هذه البلد بهذا التفوق، هذا شيء ليس قليلاً، أنت ممكن أن تكون مجاهداً إذا جاهدت نفسك وهواك، ومجاهداً إذا طلبت العلم، ومجاهداً إذا أتقنت عملك، أتقنت عملك رفعت اسم الأمة، وإذا أتاح الله عز وجل لك ظرفاً، وسمح ولي الأمر بالقتال فأنت لك أجر أيضاً كما يجري في العراق، وفي فلسطين، وفي أفغانستان.

الشاب الذي يؤمن ويستقيم على أمر الله ويطلب العلم إنسان مجاهد:

قال:

(وَالَّذِينَ آَوَوْا)

إذا أنت آمنت ولم تجاهد، نشأت في بيئة لا ترضي الله تركتها، فإذا آمنت ولم تجاهد، وآمنت ولم تهاجر، وآمنت و لم تؤو، وآمنت ولم تنصر، وطن نفسك وقل لنفسك أنك لست مؤمناً، أنا لا أقولها لك، لست مؤمناً،

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً)

وغيرهم ليسوا مؤمنين حقاً، مؤمنون لكن هذا الإيمان لا ينجيهم، هم في الدنيا مؤمنون، وفي الآخرة

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال]

دعك من الصحابة، الأجيال المؤمنة التي جاءت من بعدها،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)

وأنا أقول لكم: الشاب الذي يؤمن، ويستقيم على أمر الله، والذي يحمل نفسه على طاعته، ويطلب العلم والله مجاهد، الآن مجاهد قد يأتيه عمل دخله فلكي لكن فيه معاص وآثام لا يقبل به بل يقبل بعمل فيه طاعة للرحمن،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)

لذلك: اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك، قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

آخر فقرة بالآية

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى ببعضٍ)

الصحابة الكرام مع الأنصار كانوا يتوارثون، فلما نزلت آية المواريث نُسخ هذا التوارث، لذلك قال تعالى:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)

في الإرث

(فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

وبهذا انتهت سورة الأنفال في ثلاثين ساعة، والفضل لله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (01-70): مقدمة لتفسير سورة التوبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

مضمون سورة التوبة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من دروس سورة التوبة، هذا الدرس والدرس الذي يليه إن شاء الله سأتحدث عن مضامين هذه السورة، وبعدها ننتقل إلى شرحها آيةً آية.

أولاً: مما يلفت النظر أن هذه السورة لم تبدأ بالبسملة، والحديث عن البسملة حديث طويل، إن شاء الله في الدرس القادم أتحدث عن البسملة.

لكن البسملة كلمة مشتقة، بسملة أي: بسم الله الرحمن الرحيم، وحوقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، ودمعز: أدام الله عزك، وسبحل قال: سبحان الله، وحيعل قال: حيّ على الفلاح، وهلل قال: لا إله إلا الله، وكبّر قال: الله أكبر، هذا مما تنفرد به اللغة العربية، اشتقاق كبير، أي خمس كلمات تدمج في كلمة واحدة.

فهذه السورة لم تبدأ بالبسملة، وقال بعض العلماء: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدد بداية كل سورة بالبسملة، ولم يحدد في هذه السورة بداية، هكذا قال بعضهم.

وفي قول آخر: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحدد في هذه السورة البسملة، لأن الأمر كما يتصوره بعضهم ليس رتابة في القرآن، هناك تغيرات تلفت النظر، مثل: في جزء عمّ السور كلها مكية، السور كلها تتحدث عن الكون.

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[سورة الفجر]

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

[سورة الضحى]

هذه السورة تلفت النظر إلى عظمة الله من خلال الكون، ضمن هذا السياق الكوني الأخروي تأتي سورة المطففين.

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[سورة المطففين]

قال بعض العلماء: مما يلفت النظر أن هذه السورة قطعت سياق السور الكونية وتوجهت إلى حكم شرعي تعاملي، بعضهم علق وقال: أنت إذا لم تؤمن بآيات الله فهذا شيء كبير جداً، لكنك إذا طففت بالمكيال هذا شيء كبير جداً أيضاً.

نقص المعلومات شيء و الاعتداء على الآخرين شيء آخر :

لو أن إنساناً لم يتح له أن يعرف حقيقة الكون، لكنه آمن بالله، واستقام على أمره، وأدى ما عليه، أدى العبادات، أخذ ما له ولم يأخذ ما ليس له، هذا الإنسان ناج عند الله، لأنه لم يعتدِ على الآخرين، نقص المعلومات شيء، وأن تعتدي على الآخرين شيء آخر، فالتطفيف عدوان، التطفيف غش، التطفيف أن تأخذ ما ليس لك، فكأن الله سبحانه وتعالى أراد بقطع السياق الكوني بسورة بالجزء الثلاثين، في جزء الكونيات، في جزء السور المكية، قطع السياق، وجاءت سورة تتحدث عن التطفيف، وكأن التطفيف يشمل كل أنواع الغش

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

كما أنه ويل للإنسان إن لم يعرف الواحد الديان،

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

سورة التوبة لم تبدأ بالبسملة لأن القرآن الكريم توقيفي من عند الله :

أيها الأخوة، لكن يرد على هذين الرأيين في أن هذه السورة سورة التوبة لم تبدأ بالبسملة لأن القرآن الكريم بآياته، وبترتيب آياته، وبسوره، وبترتيب سوره، توقيفي من عند الله ولا دور للنبي صلى الله عليه وسلم إطلاقاً في تحديد أسماء السورة، أو في ترتيبها، أو في تحديد الآيات، أو في ترتيب الآيات.
أحياناً من حكمة الخالق أنك في بعض الأمور تنتقل من شيء إلى شيء، لكن أحياناً تجد فجوة، هذه الفجوة لعلها تلفت النظر، ما الذي حدث؟ هناك آيات كثيرة، أي الكلمات متعاطفة بالرفع، يأتي حرف عطف، وتأتي كلمة منصوبة، هذا شيء يلفت النظر.
لذلك عند علماء القرآن شيء ما يسمى بالنكات، جمع نكتة، النكتة ظاهرة بلاغية، مثلاً قال تعالى:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة الآية: 62]

الضمير مفرد، وسياق الآيات ينبغي أن يكون والله ورسوله أحق أن يرضوهما، لماذا جاءت الهاء المفردة بدل الهاء المثناة؟ كأن الله أراد أن يقول: إن إرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، وإن

إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، هذه نكتة بلاغية.

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قائِماً)

[سورة الجمعة الآية:11]

قُدمت التجارة على اللهو، لأن لا لهو من دون تجارة، لأنه يحتاج إلى أموال، يحتاج إلى دخل مفتوح لا دخل محدود.

(قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ)

[سورة الجمعة الآية:11]

هنا قدم اللهو على التجارة، لماذا قُدم؟ قال: لأن ترك الفرائض، أو ترك العبادات بسبب اللهو أعظم إثماً من تركه بسبب التجارة.

اللفتات البلاغية في القرآن الكريم شيء دقيق جداً :

على كلٍّ التقديم والتأخير:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 24]

قدم الآباء، في هذه الآية المعنى الاعتزاز الاجتماعي، الإنسان يعتز بأبيه، بدأ الله بالأب، في موضع آخر بدأ بالمرأة:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران الآية: 14]

لأن الآية في موضوع الشهوات، فالمرأة قُدمت على البنين، في موضع الاستعانة الإنسان لا يستطيع أحياناً أن يستعين بأبيه لتقدمه في السن، ولا بابنه لصغر سنه، يستعين بأخيه.

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)

[سورة عبس]

قدم الأخ، في مجال الافتداء أغلى شيء بالفدية الابن.

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج]

إذاً مرة الله بدأ بالأب، مرة بالمرأة، مرة بالابن، مرة بالأخ، وموضوع التقديم والتأخير، موضوع اللفتات البلاغية في القرآن الكريم شيء دقيق جداً، لذلك نحن حينما نقف عند بعض هذه اللفتات، أو عند بعض النكات، يزداد إيماننا أن هذا القرآن من عند خالق الأكوان.

الدين الإسلامي انضباط كلّه و نظام كلّه :

شيء آخر: في الحج نحن مكلفون أن نقبل حجراً، وفي الحج نفسه مكلفون أن نرجم حجراً، لِمَ قبلنا الأول، ولِمَ رجمنا الثاني؟ قال بعض العلماء: لا شيء في الكون مقدس لذاته بل إن التقديس من عند الله عز وجل، فإذا أمرنا ربنا أن نقبل هذا الحجر أصبح هذا الحجر مقدساً، وإذا أمرنا أن نرجم هذا الحجر أصبح هذا الحجر مبتذلاً.

إذاً التقديس والتدنيس بأمر الله عز وجل.

شيء آخر بالدين هناك عظمة، بالنظام العسكري في أثناء الطعام يقول الضابط: سكوت، يجب أن توقف مضغ اللقمة، والذي يحرك فكيه يعاقب، هذا يبين عظمة النظام، هذا جيش سيحارب، فلابد من أن يكون الآمر مطاعاً، ولابد من أن تنفذ الأمر، فهمته أو لم تفهمه، نفذ ثم اعترض.

كذلك في الدين، هذا الدين فيه انضباط، أي تنفيذ هذا الأمر بحذافيره يتضح مثلاً في الصيام أمة بأكملها مع أذان المغرب لا تجد إنساناً واحداً، أمة بأكملها تأكل في ثانية واحدة مع إطلاق المدفع، وأمة بأكملها توقف الطعام في ثانية واحدة مع أذان الإمساك، في صلاة التراويح قد يجتمع في الحرم ملايين، ومع ذلك كل هؤلاء يتحركون في وقت واحد، حركة متساوية، يقفون، يركعون، يسجدون، هذا الانضباط في هذا الدين من دلائل عظمة خالق السماوات والأرض.

أنا لا أعتقد أنه يوجد على وجه الأرض نظام كنظام الإسلام، أنت في الصيام، في أحد أشهر الصيف، وفي أحد أيام رمضان الطويلة، سبع عشرة ساعة، والحر لا يحتمل، والصائم يكاد وقت الظهيرة يموت من العطش، يدخل بيته لا أحد بالبيت، وفي الثلاجة ماء عذب، زلال، بارد، ولا يراه أحد في الأرض، ولا يستطيع أن يضع في فمه قطرة من ماء، هذا الدين، هذا الدين يبين أنه لا ينجح أمر إلا إذا كان الآمر معك، أما الأمر الوضعي شيء آخر.

إشارة حمراء، وراكب المركبة تجاوز الإشارة الحمراء، يكمن له شرطي أوقفه، قال له: ألم ترَ الإشارة حمراء، قال له: والله رأيتها حمراء، لكنني لم أراك، لأن النظام مربوط بشرطي فقط.

أنت لاحظ شيء من وضع البشر، لا يطبق إلا إذا كان علم واضع القانون يطولك، وقدرته تطولك، فإن كان علمه لا يطولك لا يطبق، إن كانت قدرته لا تطولك لا يطبق، علمه يطولك، وقدرته تطولك، أما نظام خالق الكون، لأن الله معك.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: 4]

يستطيع إنسان مسلم يجد في وعاء الزيت في دكانه فأرة أن يبيع الزيت؟ إن كان مؤمناً لا يستطيع، يُحول هذا الزيت إلى الصابون، إن لم يكن مؤمناً يأتي بملقط يأخذ الفأرة ويبيع الزيت، أليس كذلك؟ بربكم هل تنتظم الحياة من دون إيمان بالله؟ والله قصص الأمانة والاستقامة والنزاهة والخوف من الله لا تصدق.

سائق سيارة وجد في مركبته بكيس أسود عشرين مليون ليرة، بحث عن صاحبها أربعة أيام حتى عثر عليه وقدم المبلغ له، ما الدافع؟ أن الله يراقبه.

الحياة لا تنتظم إلا بالإيمان :

صدق ولا أبالغ لا يمكن أن تنتظم الحياة من دون إيمان بالله، هل يستطيع إنسان مؤمن وهو يعجن العجين أن يدخل إلى الحمام ولا يغسل يديه ويتابع العجين؟ لا يستطيع، أما غير المؤمن يستطيع، ما دام لا يوجد رقابة، ولا محاسبة، فلذلك النظام الوضعي هكذا.

سيدنا عمر رأى راعياً أراد أن يمتحنه، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قل: خذ ثمنها، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها لكن أين الله؟ ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟.

ما لم تقل كما قال هذا الراعي في كل ظرف يسمح لك هذا الظرف أن تأخذ ما ليس لك، ما لم تقل أين الله فأنت بعيد ـ بعد الأرض عن السماء ـ عن الإيمان، الإيمان استقامة.

((الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ، لا يَفْتِكُ مؤمِن))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

الأمانة بالإسلام شيء لا يصدق، قد يكون معك ملايين، أقسم لي بالله إنسان قال لي: معي عشرون مليوناً استثمار من صديق، لم يعلم أحد بهذا المبلغ، وليس مع أهله إيصال، مات بحادث، فإذا أبقى هذا المبلغ له ليس هناك في الأرض من يسائله، ذهب إلى الورثة وقدم لهم المبلغ، هذا هو الإيمان، الحياة لا تنتظم إلا بالإيمان.

علامة عقل الإنسان خوفه من الله تعالى :

حينما تؤمن أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لا يمكن أن تعصيه، والمثل واضح: راكب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي آخر على دراجة، وضابط مرور بالسيارة، وأنت مواطن عادي، هل من الممكن أن تمشي على الأحمر؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل، لأن واضع قانون

السير ووزير الداخلية علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، وقدرته تطولك من الشرطي الآخر الذي معه دراجة، وقد تسحب منك الإجازة، وتؤخذ منك المركبة، لو تعاملت مع خالق السماوات والأرض على أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، والله لو كنت وحدك في الصحراء، لا تستطيع أن تدوس على نملة، شعوب تُقتل، مدن تقصف، مليون قتيل في العراق، خمسة ملايين مشرد، مليون معاق، خطأ توهمنا أنه يوجد سلاح شامل والسبعة ملايين؟ والله صدقوا ولا أبالغ لا يوجد قطرة دم تراق في الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا وسيسأل عنها إنسان لِمَ قتلته؟.

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير]

أنا أقول: علامة عقلك خوفك من الله.

((ورأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

أن تقول:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة المائدة]

والله مجتمع فيه إيمان، لا فيه سرقة، ولا غش، معمل يبيع لبناً مصفى، لا يوجد به نقطة حليب، كله مواد كيماوية، بنصف السعر، فكل معامل اللبن المصفى توقفت عن العمل، لأن السعر مئة ليرة، هذا الذي فعل هذا أُصيب بالجنون، وفلس على خمسة و عشرين مليوناً، معقول أن تغش المسلمين و يتركك الله؟ معقول تبيع مادة كيماوية ليس لها علاقة بالحليب إطلاقاً تبيعها على أساس أنها مادة غذائية؟.

الغبي هو الإنسان الذي لا يدخل الله في حساباته :

أخواننا الكرام، من هو الغبي؟ الغبي هو الذي لا يدخل الله في حساباته.

بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قل لصاحبها: ماتت، قال له: ليست لي، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها لكن أين الله؟ ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟.

والله مرة حدثني أخ أحترمه كثيراً، عنده معمل مواد غذائية للصغار، قال لي: هذا الطفل أخذ من والده عشر ليرات، معقول أبيعه بضاعة موادها الغذائية الأساسية منتهية الصلاحية؟ هناك مواد غذائية لها صلاحية، فإن لم تبع في وقتها من يشتريها؟ أصحاب المعامل، هذه لا تظهر في الأسواق، تدخل في تركيب هذه المادة، يقول لي هذا الأخ المؤمن: والله لا أستطيع، آتي بأفضل المواد، لأن الله يحاسبني.

إذا لم تدخل الله بحساباتك، إذا لم تقل في اليوم ألف مرة إني أخاف الله، أخاف أن أكذب، أخاف أن أغش، يمكن أن تبيع دواء منتهية صلاحيته؟ جاء طفل يحتاج إلى دواء ثمنه ثمانمئة ليرة، تحك تاريخ الصلاحية على أن الكلمة ليست واضحة وتبيعه إياها.

أنا أقسم لكم بالله الإنسان عندما يرتكب معاصٍ كبيرة جداً كهذه المعاصي كأن عباداته الراقية أُلغيت، من أين جئت بهذا الكلام؟.

السيدة عائشة تقول: **"بلغها أن واحداً من الناس فعل شيئاً لا يرضي الله، قالت: قولوا له: إنه أبطل جهاده مع رسول الله".**

أحياناً يكون هناك أشياء طبية، الجيدة غالية جداً، وهناك نوع سيئ جداً، ويوضع في القلب أثناء العملية، فالطبيب بعدما يفتح قلب المريض ويغلقه إن وضع له قطعة من أرخص نوع، والفاتورة جاءت من أغلى نوع، هل يستطيع أن يتحقق؟ كان مغمى عليه.

لذلك إذا الإنسان لم يخف من الله، هلك في الدنيا قبل الآخرة.

أيها الأخوة، انظر إلى الإيمان، الصديق رضي الله عنه أبلغوه أن صاحبه ـ أي محمد عليه الصلاة والسلام ـ يزعم أنه سافر الليلة إلى بيت المقدس وعاد، ولا يزال فراشه ساخناً، ماذا قال؟ قال: إن قال هذا فقد صدق، كيف تربى المؤمن؟ هذا نبي، لا يكذب، والإسراء والمعراج يعد معجزة الله أكرم النبي عليه الصلاة والسلام بها:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

[سورة الإسراء الآية: 1]

قال: إن قال هذا فقد صدق.

عدم تناسب البسملة مع نقض العهود :

أخواننا الكرام، هذه السورة ـ سورة التوبة ـ سبقها سورة الأنفال، وفيها توزيع للغنائم، وسورة التوبة فيها توزيع للصدقات، واحدة توزيع الغنائم، والثانية توزيع الصدقات، إذاً السورتان متكاملتان. وقد يقول قائل: لِمَ لم تبدأ بالبسملة؟ قال: لأن ـ البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم ـ في البسملة أمان ورحمة، وفي هذه السورة نقض للعهود، فلا تتناسب البسملة مع نقض العهود هذه وجهة نظر متعلقة بأن هذه السورة ليس فيها بسملة.

التوبة حصن للمجتمع وهي طريق للسلامة :

أيها الأخوة، قد يسأل سائل: لماذا سميت هذه السورة بسورة التوبة؟ لأنها بدأت بأن الكفار نقضوا عهودهم مع رسول الله، ولما نقضوا عهودهم الله عز وجل تبرأ من هذه العقود والعهود، لذلك هذا الذي نقض عهده مع رسول الله فتح الله له باب التوبة.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة الآية: 222]

تصور ديناً ليس فيه توبة، الإنسان إذا اقترف معصية لا يغفر له هذا الذنب أبداً، يعمل ألف معصية ما دام لا يوجد توبة، الإجرام يتفاقم، يتفاقم إلى درجة مذهلة، يصبح هناك شراسة بالإجرام، أما أي ذنب إذا تبت منه قبل الله توبتك، فالتوبة رحمة، التوبة حصن للمجتمع، التوبة حصن للمذنب، التوبة طريق للسلامة، والله لو ذهبنا لسنوات وسنوات نعدد حكمة التوبة لا ننتهي.

الحكمة من تسمية سورة التوبة بهذا الاسم :

الله عز وجل سمّى هذه السورة التي افتتحت بأن الكفار نقضوا عهدهم مع رسول الله بسورة التوبة، لأن الله يغريهم بالتوبة، يدعوهم إلى التوبة، وإياك أن تقنط من رحمة الله وإياك أن تيئس، القنوط من رحمة الله كفر، واليأس من رحمة الله كفر.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، ويتبغضون إلي بالمعاصي من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري، أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثلها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

أيها الأخوة، بهذه السورة آيات تلفت النظر: تابوا فتاب الله عليهم، أي تابوا فقبل الله توبتهم، العبرة لا أن تتوب، العبرة أن يقبل الله توبتك، فالله عز وجل يقول: تابوا فتاب الله عليهم، وفي آية:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

بعضهم قال: شرع لهم التوبة كي يتوبوا، الإنسان ضعفت نفسه، زلت قدمه، وهناك ذنب، فباب التوبة مفتوح، شرع لهم التوبة ليتوبوا، وبعضهم قال: ساق الله لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة.

الله عز وجل تواب يتوب عن أكبر و أكثر الذنوب :

أيها الأخوة، الله عز وجل سمّى ذاته العلية بالتواب، والتواب صيغة مبالغة لاسم الفاعل، ومعنى صيغة المبالغة أي أن الله يتوب على مليون ذنب، ويتوب على أكبر ذنب، المبالغة في أسماء الله الحسنى تعني مبالغة كم، ومبالغة نوع، أي أكبر ذنب له توبة، وأصغر ذنب مع مليون ذنب له توبة، فالله عز وجل يتوب عن أكبر الذنوب، وعن أكثر الذنوب، لكن أهون توبة الأولى، الثانية أصعب، والثالثة أصعب، كلما تكرر الذنب أصبحت التوبة أصعب لا على قبولها بل على الإنسان نفسه.

وفي هذه السورة حوار مع المشركين، ومع أهل الكتاب، ومع المنافقين، المشرك واضح، والكافر واضح، معنى واضح أي لم يخفِ كفره، كفره ظاهر، قال لك: أنا لست مؤمناً لكن المنافق منافق، مزدوج، يظهر شيئاً ويخفي شيئاً.

والحديث في هذه السورة عن المؤمنين، هناك حديث طويل عن المؤمنين، وحديث طويل جداً عن المنافقين، وعن المشركين، وعن أهل الكتاب.

الدنيا مشتركة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين أما الآخرة فللمؤمن فقط :

أيها الأخوة، وهناك حديث في هذه السورة عن الربوبية، وكيف أن رب العالمين يطعم كل مخلوقاته، كافراً أو مؤمناً.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

[سورة البقرة الآية: 126]

أي الله عز وجل يطعم المؤمن والكافر في الدنيا، لذلك الدنيا مشتركة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، أما الآخرة:

((وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

وهذه السورة إن شاء الله سوف تشرح لنا معان دقيقة جداً عن اليوم الآخر، وعن الذات الإلهية، وعن تقسيمات البشر، وعن بعض الأحكام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (02-70) : مقدمة عن مضامين السورة 2 ، فضائل ومعاني بسم الله الرحمن الرحيم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-03-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

خلو سورة التوبة من بسم الله الرحمن الرحيم :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني من دروس سورة التوبة، ولا زلنا في المقدمة وكما تعلمون أن هذه السورة ليس فيها بسملة، والبسملة تعني بسم الله الرحمن الرحيم .

والحقيقة أن في القرآن الكريم كله مئة وأربع عشرة بسملة، السور التي وردت فيها البسملة هي مئة وثلاث عشرة عدا التوبة، والتوبة ليس فيها بسملة، ولكن وردت البسملة التي هي في الترتيب أو في العدد مئة وأربع عشرة في سورة النمل في سياق الآيات:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[سورة النمل]

أولاً البسملة مجمع عليها أنها آية من كتاب الله، ومجمع أيضاً أنها آية من سورة الفاتحة :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

رقمها واحد:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الفاتحة]

رقمها اثنان.

أما في كل سور القرآن الآية التي بعد البسملة رقمها واحد، إذاً هي آية من كتاب الله تابعة لسورة الفاتحة، بل هي فاصلة بين سورتين، بل هي فاصلة وإشارة إلى ابتداء السورة الثانية.

ومعلوم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول، فالآيات نزلت بترتيب وقد جُمعت بالمصحف بترتيب آخر، وترتيب المصحف توقيفي، أي من الله عز وجل، الفاتحة نزلت بعد المدثر لكنها السورة الأولى في القرآن الكريم.

أمية النبي وحده تعد وسام شرف له وأميتنا وصمة عار بحقنا :

أيها الأخوة، الحقيقة أن هذه البسملة تحتاج إلى شرح كثير، لأن البسملة نشاط يومي من نشاطاتنا، ولابدّ من معرفة حقيقة هذه البسملة، فالله عز وجل حينما اصطفى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة وكان بغار حراء، قال له جبريل:

((اقرأ. قال: قلت: ما أنا بقارئ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

ما معنى اقرأ ؟ هناك نص تحفظه طُلب منك أن تقرأه، أو هناك كتاب أمامك طُلب منك أن تقرأ فيه، فالنبي الكريم أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وأميتنا جميعاً تعد وصمة عار، ولكن أمية النبي وحده تعد وسام شرف له، لأن وعاءه الثقافي لو فيه من ثقافات الأرض فكلما قال كلمة ينبغي أن يسأله أصحابه أن يا رسول الله هذا الكلام من عندك؟ من ثقافتك؟ أم من وحي السماء؟ فشاءت حكمة الله أن يكون الوعاء الثقافي للنبي عليه الصلاة والسلام خالياً من كل ثقافة أرضية، وممتلئاً بوحي الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

إذاً أمية النبي تعني أنه لم يتلقَ ثقافة أرضية، بل إن وعاءه الثقافي إن صحّ التعبير ممتلئ بوحي السماء، هذا يؤكده قوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

النبي عليه الصلاة والسلام أفصح العرب إطلاقاً :

لذلك علماء العقيدة يقولون: إن القرآن الكريم وحي متلو، بينما السنة الشريفة الصحيحة وحي غير متلو، القرآن الكريم المعنى واللفظ من الله عز وجل، والسنة الصحيحة المعنى من الله والصياغة من رسول الله، وكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب إطلاقاً، وهذا في حديثه الشريف:

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وقريش فصح القبائل))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وهذا الأسلوب البلاغي اسمه عند علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم.

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

أيها الأخوة الكرام، قال له جبريل:

((اقرأ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

ليس أمامه نص مكتوب ليقرأه، ولا محفوظ ليتلوه، قال:

((ما أنا بقارئ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

أعادها ثانية، وثالثة، قال له:

((ما أنا بقارئ))

ثم جاءت الآية الأولى من الوحي، وحي السماء:

(اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق]

أنت لست بقارئ ولكن إرادة الله طليقة، وهو على كل شيء قدير، فسوف تقرأ على البشر كلاماً هو قمة العلم، والآن يأتي إنسان ويأخذ بعض الأحاديث ويشرحها فينال عليها درجة الدكتوراه.

يا أيها الأميُّ حَسبُكَ رتبة في العلم أنْ دانتْ لكَ العلماءُ

*** * ***

لأن الله عز وجل تولى تعليمه.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[سورة النجم]

من علّمه الله فهذا التعليم من الأكرم لا من الكريم :

أخوتنا الأكارم، كل إنسان خريج من جامعة يتباهى أن أستاذه فلان، هناك في الجامعات أساتذة لامعون جداً، متألقون جداً، يعدون مراجع في العلم، فإذا أتيح لطالب أن يكون أستاذه فلاناً فإنه يفتخر دائماً: أنا تلميذ فلان، فإذا سمح لعلماء الأرض أن يتيهوا على أقرانهم بأساتذتهم فالنبي عليه الصلاة والسلام علّمه رب العزة،

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

أيها الأخوة، هناك كلام دقيق، هذا الكلام حينما تتعلم من مخلوق، والمخلوق غير معصوم، قد تتعلم منه الصواب، وقد يزل هذا المخلوق فتتعلم منه الخطأ، على كلٍّ ما دام هذا المخلوق ضليعاً في العلم وعلمك إذاً هذا تعليم يدل عن كرمه، لكنه إذا علمك خالق السماوات والأرض، إذا علمك الله، هذا دليل أن هذا

التعليم هو من الأكرم لا من الكريم، مخلوق يعلمك فيتكرم عليك، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يتولى تعليمك فهو الأكرم :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[سورة العلق]

الذي تولى تعليمك، إنما تقرأ باسم الله، للتقريب: لو أن وزارة فيها مدراء عامون، دعوا إلى اجتماع، ودخل إنسان لا يعرفونه، ألقى عليهم تعليمات تفصيلية في شؤون إداراتهم، قد يقول أحدهم له: يا سيدي! أنت تمثل من؟ يقول لك: أنا أمثل رئاسة الوزراء، أنا أتكلم باسم رئاسة الوزراء، فهذا الكلام ليس من هذا الإنسان المتكلم، بل هو مبعوث من رئيس الوزراء ليلقي هذه التعليمات على كبار الموظفين.

القرآن الكريم كلام خالق السماوات و الأرض :

لذلك إذا قرأت القرآن، أو قرئ القارئ عليك القرآن، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم يعني هذا كلام خالق السماوات والأرض، هذا كلام الذي أوجدك ولم تكُ من قبل شيئاً، هذا كلام من بيده مقاليد السماوات والأرض، من بيده الخلق والأمر، من بيده كل شيء، هذا كلام من بيده الرزق، من بيده الحياة، من بيده الموت، هذا كلام من يرفعك، من يعطيك، هذا كلام المعز، هذا كلام المذل، هذا كلام القوي، هذا كلام الغني، هذا كلام القادر، هذا كلام المهيمن، هذا كلام من بيده كل شيء، هذا كلام:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية : 123]

معنى كلمة بسم الله الرحمن الرحيم هذا كلام خالق الأكوان، وخالق الإنسان، ومن بيده مقاليد كل شيء، ومن

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

ومن إليه المصير.

إنسان يكون بدائرة، وله مدير عام، وحريص على إرضائه، وقد يعلل هذا الحرص بأن مصيره بيد هذا المدير، يرفعه أو لا يرفعه، يعاقبه أو لا يعاقبه، يبعده إلى مكان بعيد، أو يجعله في بلدته، يقول لك: الأمر بيده، فحرص هذا الموظف ـ ولله المثل الأعلى ـ على إرضاء هذا المدير، وقلقه من أن يغضب عليه، نابع من أن مصير هذا الموظف بيد هذا المدير، تقريباً أو إبعاداً، ترقية أو عدم ترقية.

لكن أنت حينما تعلم أن كل شؤونك بيد الله، الصحة أولاً، الشريان التاجي، القلب، الرئتان، الكبد، نمو الخلايا قد تنمو نمواً عشوائياً فتنتهي حياة الإنسان، نحن في قبضة الله، نحن تحت رحمة الله، نحن في علم الله .

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية : 4]

بعلمه، فحينما تقول بسم الله، أتعلم هذا كلام من؟ هذا كلام خالق السماوات والأرض.

معاني البسملة :

1 ـ البسملة تشير إلى أن كل شيء أمام الإنسان هو بيد الله :

والله أيها الأخوة، تنطوي هذه البسملة على معانٍ لا يعلمها إلا الله، أضرب لك مثلاً:

أنت إنسان ضعيف أردت أن تزرع أرضك، تقول: بسم الله، هل تستطيع أنت أن تنبت هذا البذر؟ يوجد بالبذرة رشيم، والرشيم كائن حي، وهناك محفظة غذائية، وهذه المحفظة الغذائية التي مع الرشيم تكفي أن ينمو لهذا الرشيم سويقاً، وجذيراً، فأنت حينما تلقي هذا الحب في الأرض هل أنت الذي خلقت الرشيم؟ هل أنت جعلت معه محفظة غذائية؟ هل أنت صممت هذا البذر بهذه الخصائص؟ هل تستطيع إنزال المطر؟ إن لم يكن هناك أمطار أو زراعة، هل تستطيع إنبات البذور؟ فإذا بدأ العامل في حقل الزراعة عمله بقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ معنى ذلك أن يا ربي أنا ضعيف، إنبات البذور بقدرتك، إنزال الأمطار بقدرتك، تفاعل هذه البذرة مع مواد الأرض، مع المعادن، مع الأسمدة بقدرتك، نضج هذه الثمار بقدرتك، فأنت حينما تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، تتذكر أن الله بيده كل شيء، وأنك فقير إليه، وأنه هو الغني، وأنك لا تعلم وهو يعلم، وأنك ضعيف وهو القوي، وأنك جاهل وهو العليم.

حينما يقدم طبيب جراح على عملية في المخ، أقل خطأ يموت المريض، الخطأ قد يكون بالمليمترات يموت المريض، فأنت حينما تعلم أن حياة هذا المريض بيد الله، وأن توفيق هذا العمل الجراحي بيد الله، وأن علمك بيد الله، وأن قدرتك بيد الله، تقول: بسم الله الرحمن الرحيم .

2 ـ الافتقار إلى الله في كل شيء :

هذه البسملة أيها الأخوة الكرام، يجب أن تشير إلى أن كل شيء أمامك هو بيد الله، وأن كل القوانين التي تسود الأرض هي قوانين الله عز وجل، وأن كل خصائص المواد بيد الله، أو كل هذه الخصائص الله جلّ جلاله أودعها في هذه المواد، وأن كل حركة، أو سكنة، وأن كل عطاء، أو منع، أو رفعة، أو انخفاض بيد الله عز وجل، لذلك تقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

وعرفت الله من نقض العزائم، وأتمنى من كل أعماقي أن يكون هذا الدرس بهذه الفكرة واضحاً جداً لنا جميعاً، أنت حينما تقول: الله، حينما تتبرأ من حولك وقوتك، حينما تتبرأ من خبرتك، حينما تتبرأ من قدرتك، من مالك، من تعليمك، من خبراتك، يتولاك الله، وحينما تعتد بعلمك، أو بقدرتك، أو بمالك، أو بحسبك، أو بنسبك، يتخلى الله عنك، وهذا الدرس هو الدرس الذي لا نحتاجه لا في اليوم مرة، والله بل نحتاجه كل ساعة، لأن أصحاب النبي رضوان الله عليهم وهم قمم البشر في معركة بدر افتقروا إلى الله فانتصروا، همْ هم، وفيهم سيد البشر، في حنين اعتدوا بعددهم الكبير فتخلى الله عنهم، والآية الكريمة:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة]

3 ـ تذليل كل شيء للإنسان بقدرة الله عز وجل :

أخواننا الكرام، هذا معنى بسم الله الرحمن الرحيم، أنا لا أتحرك بقدرتي، أنا ضعيف لكن هناك قوانين أودعها الله في الأشياء، فكل هذه القوانين تُسهّل لي الانتفاع بما في الأرض، أنتفع بما في الأرض بسبب القوانين التي أودعها الله فيها، مثلاً: غذائي يحتاج إلى لحم، واللحم في الأنعام، والأنعام مذللة، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس الآية : 72]

أما الثعبان ليس مذللاً، الذئب غير مذلل، أما الأنعام فمذللة، من جعلها مذللة؟ الله جل جلاله، فأنت حينما تذبح بقرة وتبيعها بسم الله، لأن الله جعلها مذللة، لكنك لا تستطيع أن تواجه ذئباً مفترساً، غير مذللة، العقرب غير مذللة، تخاف منه وهو صغير، الثعبان غير مذلل، الله عز وجل قال:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

فإذا قلت: بسم الله أذبح هذه البقرة، لولا أنها مذللة لما استطعت أن تذبحها، لجنت، وجنّ البقر في بريطانيا، اضطروا أن يبيدوا ثلاثين مليون بقرة، قيمتها ثلاثون مليار جنيه إسترليني، أطعموا البقر طحين اللحم فجنّ، وجنون البقر مرض خطير من جنون البشر، من جعلها مذللة؟ أنت تحلب البقرة فلا تقتلك، الجمل مذلل، الفيل مذلل، أما العقرب غير مذلل، الثعبان غير مذلل، تخاف منه، حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

يجب أن تذوب شكراً لله عز وجل، من جعل هذا الماء عذباً فراتاً؟ الله عز وجل، ولو كان ملحاً أجاجاً. يموت الناس على قارب نجاة في البحر عطشاً، والبحر أربعة أخماس اليابسة، وعمق البحر في بعض الأماكن اثنا عشر ألف كيلو متر، ويغطي أربعة أخماس الأرض، وحينما تغرق الباخرة، ويركب ركابها في قوارب النجاة، وينفذ الماء يموتون عطشاً وهم على سطح البحر، لأن هذا البحر ملح أجاج، والله جعل لنا ماء عذباً فراتاً، فأنت تقول: بسم الله، بسم من جعله عذباً فراتاً؟ .

أمثلة عن تذليل كل شيء للإنسان بقدرة الله تعالى :

هذا القمح الذي نأكله كل يوم من جعله غذاءً نافعاً كاملاً؟ هل تعلم أيها الأخ الكريم ما معنى بسم الله؟ أنت تشرب كأس الحليب، هل تذكرت أن هذه البقرة مذللة؟ وأن هذه البقرة عندها غدة ثديية، يمر فوقها أوعية دموية كثيفة جداً، وأن هذه الغدة الثديية تأخذ من الدم ما تحتاجه ويتكون الحليب، ويرشح من هذه الغدة الثديية قطرات الحليب إلى ضرع البقرة، من سخر هذا النظام؟ من خلق الغدة الثديية في البقرة؟ من جعل هذه الغدة تختار ما تحتاج من الدم؟ .

(بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

[سورة النحل]

الله جلّ جلاله، لمجرد أن تشرب كأس الحليب يجب أن تتذكر أن هذه البقرة مذللة، وأن أجهزتها دقيقة جداً، بل إن العلماء يقولون: إن كل أربعمئة حجم من الدم يساوي حجم حليب واحد، أي أربعمئة لتر من الدم تجري فوق الغدة الثديية يصنع منها لتر حليب واحد، هل تعلم آلية هذه الأجهزة؟ تعقيد هذه الغدد؟ حتى تشرب حليباً يعد غذاء كاملاً لك، كلنا في كل أعمارنا نأكل مشتقات الحليب لا نمل منه، اللبن، والجبن، والقشطة، وما إلى ذلك،

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

معنى بسم الله؛ هل فكرت في البقرة؟ هل فكرت فيمن ذللها؟ هل فكرت في أنها تأكل أقل مما تنتج؟ لو أن ثمن طعامها أقل من إنتاج حليبها لما رباها أحد منا.

هل فكرت في هذه الدجاجة التي تعطيك البيض؟.

معنى بسم الله الرحمن الرحيم؛ أنت تأكل بقدرة الله، بعلم الله، بفضل الله، برحمة الله، كلمة بسم الله الرحمن الرحيم كلمة كل دقيقة، تركب هذه المركبة بسم الله، من أودع في البنزين القوة الانفجارية؟ ضع صفيحة ماء في مستودع البنزين هل تمشي السيارة؟ من أودع في البنزين القوة الانفجارية؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

تركب الطائرة من جعل قوانين الهواء تحمل مئة و خمسين طناً وهذا وزن الطائرة، ومئة و خمسين من الركاب، وما إلى ذلك، طائرة تقدر حمولتها مع وزنها بثلاثمئة و خمسين طناً حملها الهواء وتمشي بسرعات عالية؟!

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل]

عُزي خلق الطائرة في هذه الآية إلى الله عز وجل، من ألقى في عقول المخترعين هذه الفكرة؟ .

4 ـ كلمة بسم الله تعني أن تتذكر فضل الله وحكمته :

أخواننا الكرام، هذه كلمة بسم الله بكل دقيقة، تكتب، من علمك أن تكتب؟ من جعل هذه العضلات؟ من جعل هذا التوافق بين عينيك وبين أفكارك؟ تلقي كلمة، كل حرف يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، الكلمة خمس كلمات، سبع عشرة عضلة في كل حرف، الكلمة خمسة حروف، والجملة عشر كلمات، والصفحة، والكتاب، تلقي خطبة، من جعل هذه الأجهزة تتحرك؟ بسم الله، حينما تقول: بسم الله تذكر قدرة الله، تذكر فضل الله، تذكر حكمة الله، تذكر علم الله، تذكر كرم الله، تذكر لطف الله، تذكر رعاية الله.

أيها الأخوة، امرأة تخبز على التنور، وطفلها على طرف التنور، كلما وضعت رغيفاً مسكت ابنها وضمته، وشمته، وقبلته، هذه وردت في الآثار، نبي كريم قال: يا رب ما هذه الرحمة؟ فقال الله له: يا موسى هذه رحمتي، أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها، فلما نُزعت الرحمة من قلب الأم وبكى طفلها ألقته في التنور، وانتهى الأمر.

لا تصدق أن رحمة الآباء والأمهات بأولادهم، إنما هي رحمة منهم، هي رحمة الله أودعها الله للآباء والأمهات.

كلمة بسم الله يجب أن تتذكر فضل الله، عطاء الله، لطف الله، رحمة الله، علم الله، غنى الله، قدرة الله، هذا معنى بسم الله الرحمن الرحيم، قبل أن تأكل هذه الفواكه من صممها؟ التفاحة حجمها معتدل، وقوامها معتدل، وقشرها حاجز يمنع تلوثها، وطعمها طيب، لو أنها مفيدة وطعمها مر، لو أن طعمها طيب وليست نافعة، لو أنها نافعة ومفيدة وقوامها صخري كالصخر، تصور خصائص التفاحة، هذا العنب الذي تأكله، هذا الحليب الذي تشربه، هذا الخبز الذي تتناوله، هذا معنى بسم الله، تذكر نعم الله، دخلت البيت، هذا المأوى من أكرمك به؟ أمامك زوجة من أكرمك بها؟ إنه الله عز وجل، أمامك أولاد يملؤون البيت فرحاً، من منحك إياهم؟ الله عز وجل.

5 ـ من معاني البسملة أيضاً أن تتذكر نعم الله عليك :

البسملة من أجل أن تتذكر نعم الله عليك، أنا آكل بسم الله، هذا الطعام من خلق الله، وهذا الخبز من خلق الله، وهذه الفاكهة من خلق الله، وهذا الماء من خلق الله، وهذا البيت من فضل الله، وهذه الزوجة من فضل الله، وهؤلاء الأولاد من كرم الله، هذا معنى بسم الله، هذا بسم الله الذي خلق.

(واقرأ بسم ربك الذي خلق)

أخواننا الكرام، الله عز وجل خلقك، أعطاك قدرات، أعطاك ذاكرة، الذاكرة حجمها كحجم حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، من أعطاك هذه الذاكرة؟ لولا هذه الذاكرة لنسيت كل المعلومات، ما عرفت أولادك، لولا هذه الذاكرة لأصيب الإنسان بفقد ذاكرة فيدخل عليه ابنه فيسأله: من أنت؟ فقد الذاكرة مرض خطير، قال له: من أنت؟ لِمَ دخلت عليّ؟ ابنه ولم يعرفه.

الأمر كلّه بيد الله عز وجل :

لكن هناك أشياء دقيقة جداً أن إنساناً شاباً في ريعان الشباب، يتزوج شابة في ريعان الشباب، ولا ينجبان، هناك قوانين يعطلها الله عز وجل، والسيدة مريم حملت من دون زوج، هذا السبب إما أن يعطل، أو أن يلغى، معنى هذه القوانين التي أنت بفضلها تعيش هي بيد الله أيضاً يمكن أن يعطلها، أو أن يلغيها، الزوج والزوجة الشابان لا ينجبان تعطلت هذه القوانين، ويمكن لامرأة كالسيدة مريم العذراء أن تلد من دون زوج، بالحالة الأولى تعطلت هذه القوانين، وبالحالة الثانية ألغيت هذه القوانين، الأمر بيد الله عز وجل.

هذه لست طرفة، الإنسان بكل ما أوتي من علم، وقوة، وتقدم تقني، وسبر لأغوار الفضاء، وأغوار السحاب، لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل ثانية واحدة، علماء كبار يحملون شهادات من أكبر الجامعات، مختصون بالزلازل، وهناك مخابر، ومناظير، وتلسكوبات، وأجهزة بالغة الدقة، ولا يستطيعون أن يتنبئوا بالزلزال ولا قبل ثانية واحدة، بينما الحمير تتنبأ قبل عشرين دقيقة، وفي زلزال تسونامي هناك قرية نجت بأكملها لأنها قلدت الدواب، شعروا بالزلزال فانطلقوا إلى خارج المدينة، أهل البلدة تبعوهم فنجوا، الله عز وجل يعطي، يعطي ويمنع، منع عن الإنسان أن يعرف أن يتنبأ بالزلزال، سمح للبهائم أن تتنبأ بالزلازل قبل عشرين دقيقة.

يعطي بقدر ويمنع بقدر، فكل شيء بين يديك هو بفضل الله، وبحكمة الله، وبقدرة الله، وبرحمة الله، وبغنى الله عز وجل، فإذا أكلت بسم الله، وإذا شربت بسم الله، وإذا دخلت بيتك بسم الله، الإنسان إذا دخل بيته وقال: السلام عليكم، وجلس إلى الطعام وقال: بسم الله، يقول الشيطان لإخوانه: لا مقام لكم في

هذا البيت، صاحبه دخل فسلم، وجلس إلى الطعام وسمّى، قال: إذا دخل ولم يسلم، وجلس إلى الطعام ولم يسمِ يقول الشيطان لمن حوله: أدركتم المبيت والعشاء في هذا البيت.

قل: بسم الله، تمشي بسم الله، هناك إنسان لا يمشي، ترى بسم الله، هناك إنسان لا يرى، تنطق بسم الله، الآن العقل بيد الله عز وجل، تكون شخصاً مهماً جداً عندك أسرة، وأولاد، ومكانة، ووظيفة عالية جداً، ومركبات عديدة، و تكون مهيمناً، ومسيطراً، وتحت يدك مئات الأشخاص تصاب بعقلك، فأقرب الناس إليك يتوسلون لكل من يعرفونه أن يكون لك مكان في مستشفى المجانين، أليس كذلك؟ أما إن كان عندك عقل في رأسك، فسوف يهديك إلى الصواب، عندك نطق، عندك سمع، عندك بصر، عندك أجهزة سليمة معافى بها، عندك مأوى.

لذلك مرة ملك سأل وزيره: من الملك؟ قال له: أنت، قال له: لا، لست أنا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، ورزق يكفيه، وزوجة ترضيه، هذا ملك.

((مَنْ أصبحَ منكم آمِنا في سِرْبه، مُعافى في جَسَدِهِ، عندهُ قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

والله أيها الأخوة، هناك أمراض عضالة تجعل حياة الناس جحيماً لا يطاق، يتمنى الموت فلا يجده، فإذا كان الإنسان صحيح الجسم، معافى، لا يوجد عنده مشكلة، غير ملاحق، آمن في بيته، له زوجة مستقيمة، له أولاد أبرار، والله لو سجد لله كل يوم عشرات المرات لا يوفي جزاء هذه النعمة.

معنيان كبيران للبسملة :

أخواننا الكرام، هناك في ذهني معنيان كبيران للبسملة، إذا قلت: بسم الله وأنت تشرب هل فكرت في هذا الماء العذب الذي جعلك الله تشربه؟ كان ماء ملحاً في البحار، جاءت أشعة الشمس بخرته فأصبح بخاراً، ارتفع إلى السماء فأصبح سحاباً ـ هناك آلية بالغة التعقيد ـ ثم أصبح مطراً، فهطل على رؤوس الجبال والسهول، وسال في الينابيع، وتفجر ماء عذاباً، زلالاً، بسم الله، فكرت في هذه النعمة؟. دخلت إلى بيتك فكرت في هذه النعمة؟ مأوى، البيت مأوى، تناولت الطعام فكرت في هذه النعمة؟ هناك إنسان يعيش على السيروم، يشتهي أن يأكل أقل شيء، ممنوع من أن يأكل، فإذا كنت تأكل ما تريد، وساكن في بيت، وعندك قوت يومك، ولم تشكر الله على هذه النعمة، هذه مشكلة كبيرة جداً، هذا المعنى الأول للبسملة.

المعنى الثاني: هل تأكل وفق منهج الله؟ هل هذا الطعام حلال ومن كسب حلال؟ هذا اللقاء هل يرضي الله؟ هل هذه السفرة في مرضاة الله؟ هذا معنى بسم الله.

البسملة لها معنيان، أن تذكرك بنعم الله، وأن تذكرك بمنهج الله، اصبر.

((قال : هل عندكم طعام ؟ فإذا قلنا : لا، قال : إني صائم))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

دخلت إلى البيت هل تتعامل مع الزوجة كما وجهك النبي الكريم؟ هذه بسم الله، تناولت الطعام، هل تأكله وفق منهج الله؟ البسملة تعني أن تذكر فضل الله، وأن تتحرك وفق منهج الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (03-70):تفسير الآيتان 1-2 ، البراءة تناقض الاستمساك.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-03-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

العبادة عبادتان؛ عبادة شعائرية وعبادات تعاملية :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

أيها الأخوة الكرام، لابدّ من تمهيد لهذه الآيات، فكلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعبده، ولكن العبادة عبادتان، عبادة شعائرية وعبادات تعاملية.

فالعبادة الشعائرية: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة.

والعبادة التعاملية: الصدق، والأمانة، وإنفاذ العهد، وتحقيق الوعد، وما إلى ذلك.

يؤكد العبادة التعاملية أن سيدنا جعفر رضي الله عنه حينما سأله النجاشي عن الإسلام ذكر العبادة التعاملية، فقال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء)).

[أخرجه ابن خزيمة عن عفر بن أبي طالب]

إلى آخر القيم الأخلاقية.

الإسلام كيان أخلاقي و قيمي :

لذلك الإسلام كيان أخلاقي، كيان قيمي، كيان مبادئ، كيان سلوك، هذا هو أصل الدين، والإيمان هو الخلق، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، والصفة الأولى التي مدح بها النبي عليه الصلاة والسلام هي:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

فلذلك تصور إسلاماً بلا خلق، طقوس، العبادات تؤدى أداءً شكلياً، مساجد، أبنية، تحف، صور، رموز، أطر، الإسلام قيم أخلاقية، فالصحابة الكرام وصلت راياتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، بقيم أخلاقية أصيلة.

هذا الصحابي في أثناء هجرته قبض عليه المشركون، قال لهم: عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه بما حصل فرح فرحاً شديداً، لكن بعد فترة من الزمن كان هناك غزوة، فمن شدة تلهفه للجهاد هذا الصحابي الذي عاهد المشركين ألا يقاتلهم انخرط في عداد هذه الغزوة، فقال له النبي: ارجع ألم تعاهدهم؟.

بهذه القيم وصل الدين إلى مشارق الشرق، ومغارب الغرب، وصل إلى الصين، وإلى مشارق باريس، ولن يمتد الدين إلا بالقيم الأخلاقية، لن ينتشر الدين إلا بالقيم الأخلاقية، لن يدخل الناس في دين الله أفواجاً إلا إذا كان الناس أخلاقيين، ما الذي يفرقنا عن الصحابة؟ جوامعنا رائعة، ممتلئة، كل الشعائر في أعلى مستوى، مكتبات، مؤتمرات، مظاهر إسلامية صارخة، لكن هذا الحب وهذه القيم التي عاشها الصحابة نفتقدها اليوم.

العبادة الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

أخواننا الكرام، أنا لا أصدق أن يخدع المسلم أخاه، أو أن يغشه، أو أن يكذب عليه، أو أن يحتال عليه:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب)).

[أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فإذا كذب وخان ليس مؤمناً.

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب)).

ما دام التركيز في الدعوة الإسلامية على أداء العبادات الشعائرية، وعدم الاهتمام في العبادات التعاملية فهذه العبادات الشعائرية لا نستطيع أن نقطف ثمارها، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، من المسلمات أن العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

((يؤتى بأناس يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباء منثورا، قيل: يا رسول الله جلّهم لنا ـ أي صفهم لنا ـ قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها)).

[ورد في الأثر]

((قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ' أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال : إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار)).

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا الدين، هذه الصلاة، الصوم:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعمَلَ بِهِ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ)).

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

فليس لله حاجة لا في جوعه، ولا في عطشه.

((رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش)).

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

هذا الصيام، الحج:

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك ، قال الله له : لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك)) .

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أنْفِقُوا طوْعاً أوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قوْماً فاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام)).

[ورد في الأثر].

هذا الكلام يعني ألا تضيع وقتك، ألا تتحرك حركة لست نافعة إطلاقاً، ما لم تستقم على أمر الله لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، كيف أن التجارة فيها آلاف النشاطات، من شراء محل، إلى شراء مستودعات، إلى شراء مكاتب استيراد، إلى تعيين موظفين، إلى تعيين مندوب مبيعات، إلى عرض البضاعة، إلى السفر، إلى المعارض، إلى استيراد البضاعة، إلى تخليصها، إلى تخزينها، إلى عرضها، إلى بيعها، إلى جمع أموالها، عشرات، بل ألوف النشاطات، لكن كل هذه النشاطات تضغط بكلمة واحدة: إنه الربح، إن لم تربح فلست تاجراً.

والدين إنشاء مساجد، إنشاء معاهد شرعية، إنشاء مؤتمرات، عقد ندوات، تأليف كتب، كل هذه النشاطات يمكن أن تضغط بكلمة واحدة، إنها الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً.

الإيمان مرتبة علمية و أخلاقية :

لذلك أحياناً يأتي الحديث عن الصلاة، وعن أنها عماد الدين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، وهناك حديث طويل عن الصيام، وعن الحج، وعن الزكاة،..إلخ، وهناك حديث أطول عن العبادات التعاملية.

فالمؤمن، كلمة مؤمن ماذا تعني؟ كلمة دكتور ماذا تعني؟ هناك مصطلح معاصر في أي بلد في العالم تعني أن حامل هذه الشهادة معه شهادة ابتدائية، إعدادية، ثانوية، لسانس، دبلوم عامة، دبلوم خاصة، ماجستير، دكتور، كلمة دكتور، أو حرف دال قبل اسم هذا الإنسان معنى ذلك أنه يحمل كل هذه الشهادات بالضبط.

ماذا تعني كلمة مؤمن؟ كلمة مؤمن تعني على حقيقتها أن صاحب هذا اللقب يتمتع بمعرفة يفتقر إليها غير المؤمنين، عرف الله، عرف خالق السماوات والأرض، عرف حقيقة الحياة الدنيا، عرف حقيقة وجود الإنسان، عرف من أي جاء؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ عرف سرّ وجوده، عرف غاية وجوده، فكلمة مؤمن مرتبة علمية.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه.

كلمة مؤمن تعني أنها مرتبة أخلاقية، هذا الإنسان لا يكذب، لا يغش، لا يحتال، لا يتآمر، يعمل بالنهار، لا يوجد عنده شيء معلن وشيء غير معلن، سره كعلانيته، وعلانيته كسره، باطنه كظاهره، وظاهره كباطنه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها)).

[أخرجه ابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية]

المشكلة أن اثني عشر ألفاً من المؤمنين الصادقين في الأرض لن يغلبوا.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فإذا كان مجموع الأمة يزيد عن مليار وخمسمئة مليون، وليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، ويملكون أكبر الثروات، وشعوبهم أفقر الشعوب، كيف نفسر ذلك؟ نفسر ذلك كما قال الله عز وجل:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

وقد لقي المسلمون ذلك الغي.

الإسلام منهج تفصيلي :

أخواننا الكرام، لا تتصوروا أبداً أن الإسلام أن تصلي فقط، أن تكتفي بالصلاة، وأن تصوم رمضان، وأن تحج البيت، وأن تؤدي الزكاة، وانتهى كل شيء، لم ينتهِ شيء من هذا، الإسلام منهج، منهج تفصيلي، يغطي كل نشاطات حياتك، كما أقول دائماً وأكرر: بدءاً من فراش الزوجية وانتهاءً بالعلاقات الدولية، منهج.

فلذلك من هو البطل؟ الذي يدرس هذا المنهج، ويطبقه في زواجه، في اختيار زوجته، في تربية أولاده، في عمله، في كسب ماله، في إنفاق ماله، في مناسباته الحزينة ـ لا سمح الله ـ وفي المناسبات السعيدة، كيف تتحرك؟ أنت كائن متحرك تتحرك بدافع إلى الطعام والشراب حفاظاً على بقائك كفرد، تتحرك بدافع إلى الزواج حفاظاً على بقاء النوع، تتحرك بدافع إلى تأكيد الذات حفاظاً على بقاء الذكر، هذه الحركة من ينظمها؟ منهج رباني.

ببساطة ما بعدها بساطة، تقتني آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، معقدة التركيب، ومعها نشرة، أي إنسان يقتني آلة غالية جداً ومعها نشرة حفاظاً على سلامتها، وحفاظاً على أدائها أداءً كاملاً لا يستعملها قبل أن يقرأ تعليمات الصانع، ببساطة بالغة أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة صانع حكيم، ومربٍ رحيم، هذا الكتاب معه تعليمات الصانع مشروحاً من قبل المعصوم، فهذا الكتاب والسنة هما المنهج، فإذا أردت المنهج، أردت سعادتك، أردت استمرارك من قبل أولادك، طبق تعليمات الصانع، إذا أردت أن تسلم وتسعد، وأن تنجح في الدنيا والآخرة، وأن تكون من الفالحين، طبق تعليمات الصانع.

تكامل العبادات الشعائرية مع القيم الأخلاقية :

أنا في هذه المقدمة أريد أن أركز على أن الدين في حقيقته مجموعة قيم أخلاقية مع مجموعة عبادات شعائرية، العبادات الشعائرية والقيم الأخلاقية تتكاملان، وكلاهما شرط لازم غير كافٍ، أن تقول لي: أنا أخلاقي لكن لا أصلي، مرفوض عملك، لابد من أداء الصلوات لأنها فرض على كل مسلم، الأخلاقيات من دون عبادات لا قيمة لها، والعبادات من دون أخلاق لا قيمة لها، التعبير المعاصر: كلاهما شرط لازم غير كافٍ، العبادات، والمعاملات، فديننا دين عبادات شعائرية، كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، ودين عبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والعفة، وأداء الواجبات، وإنجاز الوعد، والحفاظ على العهد.

فإذا فهمنا الدين مجموعة عبادات شعائرية لا غير أخطأنا الهدف، وإذا فهمنا الدين مكارم أخلاقية ولا تحتاج إلى عبادات أخطأنا الهدف، ما لم يكن الدين بجناحيه جناح العبادات الشعائرية مع جناح العبادات

التعاملية، لن نحلق في سماء السعادة إطلاقاً، الدين مجموعة عبادات شعائرية، مجموعة مبادئ أخلاقية، فإذا حلقنا في السماء بهذين الجناحين معاً سعدنا وسلمنا، وإذا اكتفينا بجناح واحد وقعنا.

البراءة و العصمة :

أيها الأخوة الكرام، هذه السورة سورة التوبة بدأت بقوله تعالى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

فالبراءة تناقض الاستمساك، بيني وبين فلان عهد أنا مستمسك به، مطبق لشروطه، والبراءة من هذا العهد أن ألغي هذا العهد، وأن أتحرر من قيود هذا العهد.

أخواننا الكرام، العصمة الاستمساك، والآية الكريمة:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة آل عمران الآية: 103].

العصمة أن تستمسك بهذا الشيء، العصمة أن تستمسك ببنود هذا العقد، العصمة أن تستمسك ببنود هذا العهد، العصمة أن تستمسك ببنود هذا الوعد، هذه العصمة استمساك، والبراءة انقطاع العصمة، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة آل عمران]

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا)

[سورة هود الآية: 43]

فلذلك البراءة تعني أنه كان هناك عهداً بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، المشركون نقضوا هذا العهد، فلا معنى أن يستمسك المسلمون بهذه البنود، من السذاجة والخطأ أن يبقى المسلمون مستمسكين بهذا العهد، لذلك جاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، هذه البراءة لم تأتِ من إنسان، بل جاءت من الواحد الديان،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي البراءة بسبب أمر إلهي بلغها النبي

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

للتوضيح: فلان برأ من الدَّين؛ كان الدائن ممسكاً به، فلما أدى الدَّين أطلقه، برأ من المرض؛ كان المرض ممسكاً بهذا الإنسان، أقعده في الفراش، ترك عمله، فلما شفي هذا المريض انطلق إلى عمله، فبرأ أي خرج من هذا القيد، كان المرض قيداً، وكان الدَّين قيداً، فالبراءة خروج من هذا القيد.

على الإنسان أن ينضم إلى المؤمنين و يعيش معهم :

أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام قد عاهد قريشاً، وعاهد اليهود ولم يوفِ هؤلاء بعهدهم، لذلك كان لزاماً أن تنقض هذه العهود، وقد يقول قائل والسؤال وجيه: النبي عليه الصلاة والسلام فتح مكة في العام الثامن للهجرة، وجاءت هذه البراءة في العام التاسع، فالسائل يسأل: لِمَ تأخرت البراءة من هذه العهود عن عام الفتح؟ هناك من أجاب فقال: النبي عليه الصلاة والسلام حرر المكان أولاً بفتح مكة، وتكسير الأصنام، وعبادة الواحد الديان، وفي العام التاسع حرر القاطنين بمكة من هذه العهود التي هم نقضوها بالأساس.

لكن العبرة أن الحياة أحياناً تختلط فيها الأوراق، والاختلاط خطير جداً، أي أوراق المؤمنين مختلطة مع أوراق الكفار، مع أوراق المشركين، مع أوراق المنافقين، فالبطولة أن يتمايز كل فريق على حدة.

أحياناً يذهب إنسان لبلاد الغرب، يسكن في أحد أحياء هذه المدينة، كل من حوله أناس لا يعرفون الدين إطلاقاً، لا يوجد عندهم انضباط إسلامي، ولا انضباط أخلاقي، تجد هذه المعيشة مع هؤلاء، مع الاختلاط، مع التداخل، يبعث ابنه إلى المدرسة، بالمدرسة مبادئ وقيم بعيدة عن مبدئنا وقيمنا، بعيدة بعد الأرض عن السماء، فما يعد عندنا جريمة يعد عندهم تسلية ولا شيء فيها.

فلابد من أن يجتمع المؤمنون في مكان واحد يقيمون الصلوات، عندهم مسجد، عندهم لحم حلال، عندهم طعام إسلامي، أولادهم ينشؤون مع أولاد أخوانهم في مسجد صغير، فلذلك الإنسان ينبغي أن ينضم إلى المؤمنين، وأن يعيش معهم.

للانضمام إلى مجموع المسلمين ثمار كبيرة جداً :

يترتب على الانضمام إلى المسلمين ثمار كبيرة جداً، من هذه الثمار أن الله أشار إليها، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

كن معهم، انضم إليهم، اجلس معهم.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

إذاً لا بدّ من أن تنضم إلى جماعة المؤمنين.

((والجماعة رحمة والفرقة عذاب)).

[أخرجه الطبراني عن النعمان بن بشير]

لا تستطيع أن تستقر على أمر الله إلا إذا كنت مع المؤمنين، الأخ المؤمن، يقول لك: هل صليت العصر؟ قم لنصلِّ، الأخ المؤمن يخاف من الله، الأخ المؤمن يغض بصره، الأخ المؤمن عفيف، إذا صاحبت مؤمناً تقويت به على طاعة الله، وإذا صحب الإنسان فاسقاً قواه الفاسق على معصية الله، لذلك:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ)).

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

فكأن هذه البراءة جعلت التمايز واضحاً جداً بين المؤمنين، وبين المشركين، وبين المنافقين.

من كان مع المؤمنين كانوا حصناً له :

الآية الكريمة:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة النساء الآية: 115]

معنى ذلك أن للمؤمنين سبيلاً، هناك قيم ومبادئ بين المؤمنين، المؤمن لا يغش، ولا يخدع، ولا يخون، ولا يكذب، هذه حدود دنيا للإيمان، فإذا كنت مع المؤمنين كانوا حصناً لك.

((عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرْقة، فإنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ ـ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية-)).

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

إذاً عن طريق هذه البراءة من العهود التي لم تطبق، والمواثيق التي انتهكت، تمايز المؤمنون عن غيرهم من المشركين، وعن غيرهم من المنافقين.

البراءة التي نزلت ليست من البشر لكنها من خالق البشر :

الشيء الدقيق في هذه الآية: أن هذه البراءة ليست من البشر، لكنها من خالق البشر لأن خالق البشر:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تسره، ويعلم ما لا تعلمه،

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

لذلك عبر الإمام علي رضي الله عنه بهذه المقولة: **"علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون".**

فهذه البراءة من الله، من العليم، من الخبير، من الذي لا تخفى عليه خافية، إذاً هو أمر إلهي، لأنه

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

رحمة الله عز وجل بعباده :

لكن بعد هذه الآية:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لكن لئلا نتهم أننا أخذناهم على حين غرة، قال تعالى:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

ملمح رائع جداً، أضرب مثلاً بسيطاً: في بلد ما يتساهلون في موضوع أخذ رسوم البضاعة المستوردة، فمعظم المحلات فيها مخالفات، أي فيها بضاعة جاءت بطريق غير نظامي، مرة سمعت قراراً في دولة مجاورة أعطت الناس أربعة أشهر فرصة لتدبر شؤونهم، وتأمين رخص لبضاعتهم، بعد هذه الأشهر الأربع، يبدأ التفتيش، أنا لفت نظري أن هذا القانون حضاري، فالبطولة أن تعطي هذا الإنسان فرصة.

الآية دقيقة جداً، يا أيها الذين أشركتم، نقضتم عهدكم مع محمد عليه الصلاة والسلام معكم مهلة أربعة أشهر،

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تحركوا على مهل، اطمئنوا لن نحاربكم، أعطى الله عز وجل هؤلاء الذين نقضوا عهودهم مع رسوله أعطاهم فرصة أربعة أشهر.

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تحركوا برخاء، بيسر، مثل السياحة، على الإنسان الذي يركب مركبته للنزهة ألا يسرع، لأن الطريق نزهة، الطريق جميل جداً، يمشي ببطء، هذه الفسحة.

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)

لكن بعد هذه الأشهر الأربع سوف تطبق عليكم قوانين صارمة، هذا درس لنا، أنت أب، معلم، مدير مؤسسة، رئيس جامعة، مدير مستشفى، هناك فوضى، أعطِ مهلة لضبط الأمور، وبعدها حاسب، معنى ذلك أنك لم تأخذ أحداً على حين غرة، ليست القضية قنصاً، وأنا أقول: أي قانون يصدر حديثاً ويعطي المواطنين مهلة لتدبر شؤونهم قانون حضاري.

أحياناً مثلاً نرفع الرسوم الجمركية ضعفين، متى؟ هناك بضائع دفعت رسومها، فإذا وصلت إلى الميناء ينبغي أن نأخذ الرسوم السابقة، على أساس أنه قدم فواتير، وقدم أسعاراً، وقدم أشياء بالنظام السابق،

فكلما كان النظام راقياً وحضارياً يعطي مهلة لمن سيطبق عليهم النظام، كي يتدبر أمره وبعد ذلك الحساب.

الأحمق من اعتدّ بقوته مع الله عز وجل :

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

فرضنا أن هذا الذي أعطي المهلة كان قوياً جداً، لم يعبأ بهذه المهلة، على رسلك، أنت لا تعجز الله عز وجل، مع الله لا يوجد قوي، مع الله لا يوجد ذكي، مع الله هناك مستقيم، لذلك يؤتى الحذر من مأمنه، وأي إنسان يعتد بقوته مع الله أحمق، وأي إنسان يعتد بذكائه مع الله أحمق، مع الله هناك مستقيم، المستقيم ينجو، أما القوي لا ينجو،

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

أنت في قبضته، في قبضته دائماً، أي نقطة دم لا ترى بالعين، بحجم رأس الدبوس تتجمد في أحد فروع الشرايين في الدماغ بمكان شلل، بمكان فقد ذاكرة، بمكان عمى، أعوذ بالله! كل شأنك، وقوتك، وحجمك المالي، وهيمنتك، وسيطرتك، تتوقف على خثرة دم تتجمد بالدماغ.

ملك بأوج قوته أصيب بخثرة بالدماغ، انتهى، بقي عشر سنوات درجة عاشرة، فأنت في قبضة الله، لا تقل: أنا، كل أموالك منوطة بضربة قلبك، توقف القلب انتهى كل شيء، كل مكانتك، وأموالك، وهيمنتك منوطة بسيولة الدم، تجمد الدم في العروق، احتشاء، انتهى كل شيء، كل أموالك، ومكانتك، وهيمنتك بنمو الخلايا، فإذا نمت نمواً عشوائياً انتهيت، أنت بكلمة.

لذلك:

(واعلموا)

أيها الذين عاهدتم، ونقضنا عهدنا معكم، ألا تعتدوا بقوتكم

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

للتقريب: ثلاثون دولة، من أقوى الدول في العالم، معها أسلحة فتاكة، طيران، على أقمار صناعية، على قنابل عنقودية، على قنابل فسفورية، على قنابل حارقة، وخارقة، وليزرية، وقواعد، وحاملات طائرات، وصواريخ عابرة للقارات، ثلاثون دولة، لم تستطع أن تقف أمام مقاتلين، مقاتل يحمل بندقية فقط، 73% من هذه البلاد أصبحت بيد المقاومين، هذا درس بليغ، إذا كان الله عز وجل معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

هناك معنى آخر: هذا الجندي الذي يحمل رسالة ضرب مليون جندي لا يحمل رسالة، الأمة ليس لها رسالة لها طموحات اقتصادية، أن تحتل منابع النفط، أن تحتل أماكن إستراتيجية، فهذه أهداف أرضية، ما دام لا يوجد مبادئ وقيم، الذين يقاتلون أشخاصاً بلا رسالة، والذين يدافعون عن دينهم، وعن أمتهم، وعن بلادهم، أشخاص معهم رسالة، فالفرق كبير جداً بين من يملك رسالة ومن لا يملك رسالة،

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (04-70):تفسير الآية 1 ، شرح معنى التوبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-04-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة التوبة بهذا الاسم :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قد يسأل سائل لِمَ سميت هذه السورة بسورة التوبة مع أنها تفتتح ببراءة الله عز وجل

(إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قال بعض العلماء: الله عز وجل ما فتح باب التوبة إلا ليتوب على المذنبين، ولا فتح باب المغفرة إلا ليغفر لهم، وما فتح باب الصلح معه إلا ليصطلح معه، فكأن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نتوب، لذلك قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

تصور أن هذا الدين العظيم ليس فيه توبة، ما الذي يحصل؟ يقع المذنب باليأس فإذا وقع باليأس تفاقمت ذنوبه، وكان في ذنب بسيط فأصبح يرتكب الكبائر، لأنه لا توبة له.

الله عز وجل فتح باب التوبة ليتوب على عباده :

لذلك الله عز وجل فتح باب التوبة، والحقيقة الإنسان حينما يذنب الذي يغطي هذا الذنب التوبة، والله عز وجل:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

وقد ورد:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكر

أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم ـ لأنه يحب التوابين ـ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

فالله جلّ جلاله بحسب هذا النص حبيب أو طبيب، حبيب إن تبت إليه، وطبيب إن لم تتب إليه.

((أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لذلك مهما يكن الذنب كبيراً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف الآية: 156]

والذنب شيء، مهما كان الذنب كبيراً، والدليل الآخر:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 35]

مهما كثرت، ومهما كبرت.

اليأس والإحباط وعدم المبادرة إلى التوبة جهل كبير بكمال الله عز وجل :

لذلك الذي ييئس من توبة الله عليه يعد هذا اليأس نوعاً من أنواع الكفر بالله، الذي ييئس من توبة الله، أو من قبول توبة الله، يعد هذا اليأس نوعاً من الكفر، فاليأس، والإحباط، وعدم المبادرة إلى التوبة جهل كبير بكمال الله عز وجل، والدليل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

بل ينتظركم، ورد في الأثر القدسي:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟))

[ورد في الأثر]

إذا قال العبد: يا ربي وهو راكع، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربي وهو ساجد، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربي وهو عاصٍ، يقول الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك.

ألا تعلم أيها الأخ كما ورد في الحديث الصحيح:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

ضال ضلّ عنه شيء ثمين، إنسان في الصحراء ضلت عنه ناقته، النتيجة موت محقق.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

له في زواجه عشرون عاماً لم ينجب، ثم فوجئ بأن زوجته حامل، هذا العقيم الوالد، والذي أوشك على الموت عطشاً ثم اهتدى إلى نبع ماء.

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يروي قصة أعرابي أراد أن يقطع الصحراء على ناقة له، وعلى ناقته طعامه، وشرابه، وزاده، أدركه التعب فجلس ليستريح، فأخذته سنة من النوم، فلما أفاق لم يجد الناقة، أيقن بالهلاك وبكى وبكى، حتى أخذته سنة نوم ثانية فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه نطق بالكفر قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، يقول عليه الصلاة والسلام كتعليق: **" لله أفرح بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته".**

هل هناك وضوح أشد من هذا الوضوح؟

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

باب التوبة باب رحمة الله :

النقطة الدقيقة هناك آية ثانية:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

فالذنب يقابله التوبة، مهما كبر، أو مهما كثرت الذنوب، فأسماء الله الحسنى أحياناً تأتي بصيغ المبالغة، الله عز وجل تواب صيغة مبالغة، والمبالغة المتعلقة بأسماء الله الحسنى، تعني مبالغة كم، أو مبالغة نوع، أي مليون ذنب، أو أكبر ذنب.

فلذلك بعض العلماء أشار إلى أن هذه السورة تبدأ ببراءة

(اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

براءة من الله، وعنوان هذه السورة سورة التوبة، كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: هؤلاء الذين نقضوا عهد الله، وتبرأ الله منهم ومن عهدهم، أمامهم باب التوبة، باب التوبة يعني رحمة الله، الله عز وجل ينتظرنا ليتوب علينا.

لذلك الحديث عن التوبة حديث طويل، وحديث يبعث الأمل في النفس، وقد ورد أن المؤمن مذنب تواب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بَنِي آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

وكأن باب التوبة باب رحمة الله، فالإنسان إذا أذنب عليه أن يتوب، لكن هناك إشارة دقيقة إلى أن المؤمن يتوب من قريب، أي لا يدع مسافة زمنية طويلة بين الذنب وبين التوبة منه، وكلما جاءت التوبة قريبة من اقتراف الذنب كان قبولها أسرع، وكانت راحة النفس معها أشد.

بطولة الإنسان إذا تاب من الذنب ألا يعود إليه :

لذلك الإنسان إذا مارس خطيئة، أو اقترف إثماً وثبت عليه:

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

[سورة الحديد الآية: 16]

عندئذٍ يصعب على هذا الإنسان الذي ارتكب هذا الخطأ أن يتوب منه، لكن الله يقبل توبته، أول توبة سهلة جداً، وقد عبّر عنها بعضهم بهذه الكلمة البسيطة: الصلح مع الله بلمح البصر، الصلحة بلمحة، لكن لو أن الإنسان أعاد الذنب مرة ثانية يجد صعوبة في التوبة، وكلما كرر الذنب وجد أن التوبة أصبحت أبعد مما يتوقع.

فالبطولة أن الإنسان إذا تاب من ذنب ينبغي ألا يعود إليه، لأنه إذا تاب منه، وقبل الله توبته، ثم عاد إليه باب التوبة مفتوح أمامه، لكن ليس بالبساطة والسهولة التي كانت في بداية التوبة.

إذاً رأي العلماء ـ علماء التفسير ـ أن هذه السورة سميت بالتوبة لأن الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ومع أن نقض العهد من الكبائر ـ فتح الله لهم باب التوبة، فجاءت هذه السورة على أنها افتتحت ببراءة

(اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

كأن هؤلاء الذين نقضوا عهد الله يقول الله لهم: لكن باب التوبة مفتوح لكم.

أنواع الذنوب :

شيء آخر: هناك ذنب يغفر، وذنب لا يترك، وذنب لا يغفر، أما الذنب الذي يغفر ما كان بينك وبين الله.

وأريد أن أبين للأخوة الكرام، أن هناك وهماً وقع به بعض المسلمين، هذا الوهم أنه إذا حجّ بيت الله

الحرام رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والحديث صحيح، لكن أي ذنوب؟ التي بينه وبين الله وحده، هذه تغفر عقب الصيام، وعقب الحج، فالتوبة تعني أنه ما كان بينك وبين الله من الذنوب تغفر لمجرد أن تتوب إلى الله، لكن هناك آيات فيها ملمح:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

[سورة الأحقاف الآية: 31]

هذه المن للتبعيض، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، يغفر لكم ذنوباً كانت بينكم وبين الله، أما الذنوب التي بينكم وبين العباد؛ حقوق لم تؤدَ، واجبات لم تؤدَ، قرض حسن لا يؤدَ، الذنوب التي بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بأحد حالتين؛ بالأداء أو بالمسامحة، ما كان بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، تؤدي هذا القرض الذي اقترضته يؤدي الله عليك، أو يأتي صاحب الدين يقول لك: سامحتك، وتنازلت لك عن هذا الدين، فالله عندئذٍ يغفر، أما ما كان بينك وبين العباد هذه الذنوب لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، لأن هناك منطلقاً دقيقاً وهو أنه ما كان بينك وبين الله هذا مبني على المسامحة، وما كان بينك وبين العباد هذا مبني على المشاحة، لأن حقوق العباد ينبغي أن تؤدى.

حقوق العباد مبنية على المشاحة و حقوق الله مبنية على المسامحة :

لذلك قد لا تصدقون لأنه شيء غريب، هذا الذي ضحى بحياته في سبيل الله فكان شهيداً، ضحى بحياته، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، الإنسان أحياناً يضحي بماله، ينفق ماله كله.

((يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسولَه))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب]

لم يبق شيئاً، لكن الإنسان قد يجود لا بماله، بل بروحه، بحياته، فجاء الحديث:

((يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذَنْب إلا الدَّيْنَ))

[أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

شهيد! ضحى بحياته، وضع روحه على كفه، قدّم حياته لله، قدّم لله أثمن ما يملك لكن عليه دين.

((يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذَنْب إلا الدَّيْنَ))

[أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

بل كان عليه الصلاة والسلام حينما يموت أحد أصحابه وهو في نية الصلاة عليه يقول لإخوانه ـ أخوان الميت ـ أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، لا يصلي عليه، يقول: صلوا على صاحبكم، شهيد! بذل حياته في سبيل الله، من أجل أن تعلموا أن حقوق العباد عند الله مقدسة.

لذلك ما كان بينك وبين الله القضية سهلة جداً، لأن ما كان بينك وبين الله مبني على المسامحة، لكن ما كان بينك وبين العباد مبني على المشاحة، فذنب يغفر ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك ما كان

بينك وبين العباد، هذا الذنب الذي لا يترك إما أن تؤدي ما عليك، أو أن يسامحك الذي له حق عندك.

الشرك بالله ذنب عظيم لا يغفر :

إلا أن الخطورة في الذنب الثالث: وذنب لا يغفر، وهو الشرك بالله، وأذكر دائماً مثلاً يوضح هذه الحقيقة: إنسان له مبلغ كبير في حلب، ركب قطار حلب، اشترى بطاقة من الدرجة الأولى وركب خطأ في مقطورة الدرجة الثالثة، هذا خطأ لكن يغفر، لأن القطار في طريقه إلى حلب، فإذا وصل لحلب بقاطرة من الدرجة الأولى أو الثالثة لا يوجد مشكلة، هو خطأ دفع مبلغاً كبيراً واستهلك مكاناً من الدرجة الثالثة، لو أن هذا الراكب جلس مع شباب ليسوا منضبطين فانزعج كثيراً منهم هذا خطأ ثانٍ، لكن القطار في طريقه إلى حلب، والمبلغ الكبير سيقبضه، خطأ ثالث ليس معه طعام، تلوى من الجوع وهو لا يعلم أن في أحد المقطورات مطعم، هذا خطأ ثالث، لكن القطار باتجاهه إلى حلب، وسيصل إلى حلب، وسيأخذ المبلغ، هناك خطأ رابع ركب بعكس اتجاه القطار فأصيب بالدوار، هذا خطأ رابع، لكن القطار يتحرك نحو حلب، وسيصل إلى حلب بالوقت المناسب، وسيقبض المبلغ، كل هذه الأخطاء هي صعبة، تدفع مبلغاً ضخماً، وتركب مقطورة من الدرجة الثالثة، وتجلس مع شباب غير منضبطين، تصاب بالدوار، تتلوى من الجوع، لكن في النهاية القطار سيصل إلى حلب وستأخذ المبلغ الكبير، أما هناك خطأ لا يغفر أن تركب قطار درعا ليس هناك قبض مال و لا شيء تأخذه في هذا الاتجاه.

هذا الشرك بالله، فالشرك أن تتجه إلى غير الله، غير الله ليس عنده شيء، فعلى الإنسان أن يتجه إلى الله، لأن الله بيده كل شيء، بيده زواجك، بيده سعادتك، بيده صحتك، بيده التوفيق، بيده التأييد، بيده الحفظ، بيده كل ما تتمناه، كل مطامحك عند الله، فإذا كنت معه كان معك.

الله عز وجل يريدنا أن نتجه إليه، فإذا اتجهنا إليه غفر لنا كل الذنوب، أما إذا اتجهنا إلى غيره ليس هناك شيء.

لذلك: ذنب يغفر ما كان بينك وبين الله، وذنب لا يترك ما بينك وبين العباد، يغفر بإحدى الحالتين بالأداء أو المسامحة، وذنب لا يغفر وهو ذنب الشرك.

قد يسأل سائل: لا يغفر متى؟ لا يغفر إذا مات مشركاً، لكن إذا تاب من الشرك يغفر، لا يغفر إذا مات على الشرك، لكن حتى الذنب الذي لا يغفر لو أن الإنسان تاب من الشرك انتهى كل شيء.

لذلك وقفت وقفة متأنية عند سبب تسمية هذه السورة، كأن الله يقول لهؤلاء الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله، ونقض العهد من أكبر الكبائر، حتى هذا الذنب قابل للتوبة.

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

[سورة الأنفال الآية: 19]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

مشاعر التائب مشاعر مسعدة :

أيها الأخوة، الآن:

((تابوا فتاب الله عليه))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

توبة الله إذا جاءت بعد توبة العباد تعني أن الله قبل هذه التوبة، وصدقوا ولا أبالغ أن الإنسان إذا تاب إلى الله يلقي الله جلّ جلاله في روعه أنه قبل توبته، من عظمة الله أنه إذا تاب عليك يطمئنك.

لذلك ورد في بعض الأقوال أنه: من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، لأن الله سبحانه وتعالى من عظيم كرمه أنه إذا قبل توبتك أشعرك بذلك.

لذلك اسأل إنساناً حجّ بيت الله الحرام، وقبل الله توبته، فتراه يشعر بأن هموماً كالجبال أزيحت عن كاهله.

أخواننا الكرام، بالمناسبة: مشاعر التائب مشاعر مسعدة، هذا التائب يشعر كأنه يحلق بالسماء فرحاً بتوبة الله عليه، فأكبر ذنب يغفره الله إن تاب الإنسان منه، وليجعل الإنسان هذه الآية نصب عينه دائماً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

والله عز وجل يقول:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف الآية: 156]

وأكبر ذنب هو عند الله شيء، ما دامت رحمة الله وسعت كل شيء أبشروا أيها الأخوة الكرام برحمة الله بنا، وتوبته علينا.

الله عز وجل رحمة بالإنسان يسوق له في الدنيا من الشدائد ما يحمله على التوبة :

أيها الأخوة، فإذا قال الله عز وجل:

(تابوا فتاب الله عليه)

أي قبل توبتهم، لكن هناك آية دقيقة جداً:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

ما معنى

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

يعني الله عز وجل رحمة بهذا الإنسان يسوق له في الحياة الدنيا من الشدائد ما يحمله على التوبة، وكل إنسان عنده نقطة ضعف، هناك إنسان نقطة ضعفه في ماله، فإذا ذهب ماله خرّ لله ساجداً وتائباً، وهناك إنسان نقطة ضعفه في صحته، و إنسان نقطة ضعفه في بيته، وإنسان في مكانته، الله عز وجل يسوق لهذا الإنسان مصيبة من الجهة التي يحرص عليها تماماً.

لذلك الله عز وجل خبير، وكلمة مصيبة ما سميت مصيبة إلا لأنها تصيب الهدف، اعلم علم اليقين أن المؤمن لا يمكن إلا أن يبتليه الله، فإذا ضعفت عبادته، وضعفت استقامته، يسوق له من الشدائد ما يحمله بها على التوبة.

مرة الإمام الغزلي يقول: **"يا نفس! لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها، لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله؟ إذاً فما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله؟ إذاً فما أجهلك".**

إذاً أي إنسان لا يتوب مدموغ عند الله بالكفر بهذه النعمة الكبيرة جداً نعمة التوبة والجهل، أنت مع إنسان إذا عفا عنك تذوب محبة له، إنسان عليه دين يقدر بثلاثة و عشرين مليوناً فإذا قال له صاحب هذا المبلغ: مسامح، ألا يختل توازنه؟

الله عز وجل حينما يقول:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

بل إنَّ الله:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

بل إنَّ الله:

(يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

بل إنَّ الله:

(يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

لذلك أيها الأخوة، إذا قلنا:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة.

تعليق: ادخل إلى مسجد صدق ولا أبالغ 90% من رواد المسجد ساقهم الله إلى بيته بطريقة رائعة، لاح له شبح مصيبة فبادر إلى طاعة الله، لاح له شبح مرض فبادر إلى التوبة.

فالله عز وجل يسوق من الشدائد ما يحملنا بها على الطاعة، لذلك بطولتك أن تستجيب لخطة الله عز وجل التي تعني أن الله يريدك أن تتوب، أن تقبل عليه، أن تقلع عن الذنب، الله عنده وسائل يسوقها تباعاً، وهذا من نعمة الله عز وجل.

أخواننا الكرام، كأن هناك مراحل يخضع لها المؤمن.

الله عز وجل غني عن تعذيب العباد :

أخواننا الكرام، إذاً إذا قال الله عز وجل في آيات كثيرة:

(تابوا فتاب الله عليه)

أي فقبل توبتهم، أما إذا ورد

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي من رحمته بنا يسوق لنا من الشدائد ما يحملنا بها على التوبة.

لذلك ورد في الحديث القدسي الصحيح:

((يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألَتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدِخلَ البحرَ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

يعني إبرة غمستها في مياه البحر.

((.... ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام ـ الآن دققوا ـ فمن وَجَدَ خيراً فلْيَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

هذا حديث دقيق جداً، لا تقل: لا حظ لي، لا تقل: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، كلام ليس له معنى إطلاقاً، لا تقل: قلب لي الدهر ظهر المجن، لا تقل: سخر القدر مني، كله كلام ليس له معنى إطلاقاً.

((فمن وَجَدَ خيراً فلْيَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لذلك الله عز وجل غني عن تعذيبنا، يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

غني عن تعذيبنا، أي شيء لا ترتاح له ابحث عن المشكلة التي سببت هذا الشيء، ابحث عن المخالفة، ابحث عن المعصية، هذا الذي يمكن أن يكون سبباً لما يعاني الإنسان منه.

باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة :

أيها الأخوة الكرام، لكن في النهاية إذا أعاد الذنب كثيراً صعبت عليه التوبة، فليوطن نفسه أنه إذا تاب من ذنب ألا يعود إليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقبل التائب لمجرد أن يقول كلمة واحدة: يا رب لقد تبت إليك، فكأن الله سبحانه وتعالى يخاطبه ويقول: يا عبدي وأنا قد قبلت.

إذاً أكبر باب يعني رحمة الله هو باب التوبة وهو مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة، فالإنسان ما عليه إلا أن يراجع نفسه، وأن يتوب، وأن يتوجه إلى الله عز وجل، وأحياناً عندما يتكرر الذنب يشعر الإنسان بصعوبة في التوبة، ما الحل؟ الحل:

((وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري]

أصبحت بحاجة إلى التوبة، وإلى عمل صالح، إلى صدقة، إلى صيام، فعندما يحس الإنسان أن هذا الذنب وقع به كثيراً، وكأن الله لا يقبل توبته، يضيف إلى التوبة عمل صالح، أو يضيف صدقة.

((وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا وخالِقِ الناسَ بخلُقٍ حسن))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري]

سورة التوبة أعطت للكفار و المنافقين و المؤمنين خصائصهم :

أخواننا الكرام، في هذه السورة ـ سورة التوبة ـ حوار مع المشركين، ومع أهل الكتاب، ومع المنافقين، وكأن هذه السورة أعطت لهذه الأصناف؛ الكفار المشركون، المنافقون، المؤمنون، خصائصهم، أي هذه السورة تتميز أنها قدمت نماذج مع تفاصيل دقيقة جداً بالمنافقين، وقدمت نماذج للمؤمنين، ونماذج للكافرين، فالمؤمن صادق مع نفسه، ومع الحقيقة، والكافر لعله صادق مع نفسه لكن ليس صادقاً مع الحقيقة، أما المنافق إنسان مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكأن الله سبحانه وتعالى في مطلع سورة البقرة وصف المؤمنين بآيتين أو ثلاث، والكفار بآيتين، أما المنافقين فوصفهم بثلاث عشرة آية.

فهذه السورة فضلاً عن أنها فتحت باب التوبة لمن نقض عهده مع رسول الله، هذه السورة شرحت خصائص المؤمنين، والكفار المشركين، والمنافقين.

بطولة الإنسان أن يكون مؤمناً في الدنيا حتى يستحق جنة الآخرة :

أيها الأخوة، شيء آخر في هذه السورة: الله عز وجل وضح لنا معنى الربوبية، فالربوبية إمداد كل العباد بما يحتاجون.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

[سورة البقرة الآية: 126]

هذه الدنيا للجميع.

((الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

لذلك الخير بالآخرة للمؤمنين فقط، أما في الدنيا الجميع يأكل ويشرب، فالبطولة أن تكون مؤمناً في الدنيا حتى تكون تستحق جنة عرضها السماوات والأرض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (05-70):تفسير الآيتان 1-2 ، البراء انقطاع العصمة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-04-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

البراء انقطاع العصمة والعصمة تعني التمسك :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس من دروس سورة التوبة، ولا زلنا في الآية الأولى:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

البراء أولاً انقطاع العصمة، والعصمة تعني التمسك، فأنت بين أن تتمسك، وبين أن تتبرأ.

فلذلك الله عز وجل من عنده مباشرة تبرأ من العهود التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، وبعض قبائل العرب لأن هؤلاء خانوا العهود.

مثلاً: الدين قيد، فإذا الإنسان أدى الدين برئت ذمته من هذا الدين، والمرض قيد فإذا شفي الإنسان برئ من هذا المرض الذي أقعده في الفراش.

فالاستمساك نقيضه البراء،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

وتروي الروايات التاريخية أن النبي صلى الله عليه وسلم عاهد قريشاً، وعاهد اليهود، لكن السؤال الدقيق، لِمَ تأخر نقض العهد معهم إلى السنة التاسعة للهجرة مع أن فتح مكة تمّ السنة الثامنة؟ لذلك قالوا في السنة الثامنة حُرر المكان من الأصنام، وفي السنة التاسعة حُرر الإنسان، تبرئة المكان سبقت تحرير الإنسان، لكن في هذه السنة ـ أعني في السنة التاسعة ـ حرر المكان والإنسان معاً.

ثقة النبي عليه الصلاة والسلام بنصر الله عز وجل :

دائماً المؤمن الموفق، الناجح، يعمل بعقله، وغير المؤمن يتحرك بعاطفته الهوجاء، وقد يخسر خسارة كبيرة، وهذه حقيقة دقيقة جداً بين أن تعمل عقلك، أن ترسم خطة، أن تخطط، وبين أن تتحرك بعاطفتك.
الصحابة الكرام قبل الهجرة مُنعوا منعاً باتاً، أمروا أن يكفوا يدهم عن أي عمل يسيء للمشركين، الأوراق مختلطة، يوجد بكل بيت مؤمن ومشرك، لذلك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء الآية: 77]

فلما أصبح لهم كيان في المدينة، استطاعوا أن يحاربوا الروم والفرس، لذلك لما كان النبي في الهجرة، وتبعه سراقة، سراقة طمع بمئة ناقة، وقد وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، والله قال كلاماً العقل يصعب أن يصدقه، إنسان أهدر دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يتبعه إنسان طامع بهذه الجائزة، يقول له: كيف بك يا سراقة إن لبست سواري كسرى؟ دقق في هذا الكلام، حلله، ماذا يعني؟ يعني أنني سأصل سالماً، هذه ثقته بالله، وسأنشئ دولة، وسأعد جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني غنائم كسرى إلى المدينة، ولك يا سراقة سوار كسرى، هذه ثقة النبي بنصر الله.

أكبر مصيبة تصيب المسلمين انهيار ثقتهم بأنفسهم :

أقول لكم الآن: أكبر مصيبة تصيب المسلمين انهيار ثقتهم بأنفسهم، لها اسم آخر: انهزامهم من الداخل، إحباطهم، شعورهم أنهم قد انتهوا، لأن أعداءهم أقوياء جداً، أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يهزم من الداخل.

أهدر دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول له: كيف بك يا سراقة إن لبست سواري كسرى؟ وفي عهد عمر جاءت كنوز كسرى، وقف صحابيان من كل طرف، رفع كل واحد منهما رمحه، لم يرَ الأول رمح الآخر، فقال عمر: إن الذي أدى هذا لأمين، فقال له سيدنا علي: يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانتهم؟ لقد عففت فاعفوا، ولو وقعت لوقعوا.

أيها الأخوة، أخطر شيء أن نهزم من الداخل، أخطر شيء أن نقول: لقد انتهينا، أخطر مصيبة تصيب الأمة حالة الإحباط واليأس.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

فلذلك في السنة الثامنة فتحت مكة، وكُسرت الأصنام، و تحرر المكان منها، وفي السنة التاسعة تحرر الإنسان من نقض هذه العهود التي لم يرعها الكفار.

النبي معصوم بمفرده وأمته معصومة بمجموعها :

أيها الأخوة، لئلا تعتقد أن هذا القرار قرار بشري، هو قرار إلهي، الإنسان يجتهد؛ قد يصيب، وقد لا يصيب، لكن هذا القرار قرار إلهي، والدليل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

هناك تعليق لطيف: النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، لقول النبي الكريم:

((لا تجتمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الطبراني عن أبي بصرة الغفاري]

النبي وحده معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها.

لذلك هذا القرار قرار إلهي،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لأن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

النبي معصوم، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة بالغة، سمح الله له بهامش اجتهادي، فإن أصاب أقره الوحي على اجتهاده، فصار اجتهاده كالوحي تماماً، وإن لم يكن اجتهاده كما يريد الله عز وجل يأتي الوحي ويصحح له.

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

الله عز وجل سمح للنبي الكريم بهامش اجتهادي :

لماذا سمح للنبي صلى الله عليه وسلم بهامش اجتهادي؟ ليكون فرقاً بين مقام الألوهية المطلق ومقام البشر، بالنهاية النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، أقوله سنة وتشريع، وأفعاله سنة وتشريع، وإقراره إذا رأى شيئاً فسكت تشريع. والدليل: عندما كان في بيت أحد أصحابه وقد توفاه الله، سمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، وتشريعاً، فقال لها: ومن أدراكِ أن الله أكرمه؟.

فأن تحكم على إنسان بالجنة أو بالنار حكماً قطعياً، هذا سماه العلماء التألي على الله، من أنت حتى تقول فلان من أهل النار؟ لعله يتوب ويسبقك، ومن أنت حتى تقول فلان من أهل الجنة؟ لعله يخطئ، ومن أدراكِ أن الله أكرمه؟ قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

هذا هو الأدب مع الله، قل دائماً إن أعجبك إنسان: أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، إن طلب منك أن تشهد بإنسان، هذا علمي به، فإن بدل وغير فلا علمي بالغيب، كن أديباً مع الله.

إذاً النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها، وعصمة النبي معها هامش اجتهادي ضيق جداً، فإن أصاب النبي أقره الوحي على ذلك، وإن لم يكن اجتهاده كما يريد الله عز وجل جاء الوحي وصحح له، ففي النهاية النبي معصوم بأقواله، وأفعاله، وإقراره.

النبي صلى الله عليه وسلم حالف خزاعة، ولها قبيلة مناوئة لها هي قبيلة بكر، بكر تحالفت مع قريش، لذلك قريش أعانت بكراً على حرب خزاعة، وفي هذا نقض للعهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ـ قريش وبكر، والنبي وخزاعة ـ قريش أعانت بكراً على قتال خزاعة، والنبي حليف لها، وحليف الحليف حليف، فذلك كان هذا النقض سبب أن الله في عليائه برأ من العهود والمواثيق التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين.

رحمة الله عز وجل بعباده :

لكن بعضهم تساءل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

فكيف يبلغ الله نبيه ببراءة نبيه من العهود مع المشركين ثم يخاطب المشركين؟ قال علماء التفسير: كأن الله أمر المؤمنين وأصحاب النبي أن يبلغوا المشركين، أي قولوا لهم.

الآن الوقفة الرائعة أنه في العالم كله لا يجوز أن تطبق القوانين بمفعول رجعي، وهذا ظلم للإنسان ما بعده ظلم، شيء مباح، مسموح، إنسان فعله في ظلّ القوانين القائمة، أي موضوع مباح مسموح، الحاكم ارتأى أن يمنع هذا الشيء، له أن يمنعه، أما أن يطبق هذا المنع على من فعله سابقاً، هذا منتهى أنواع الظلم.

لذلك شيء ثابت في عالم القوانين أن القوانين يمنع منعاً باتاً أن تطبق بمفعول رجعي هذا عدل، لكن الإحسان أبلغ من ذلك، للتقريب: لو أن بلداً اكتشف أن هناك بضائع كثيرة جداً غير نظامية، وهذه البضائع تدخل على الدولة أرباحاً كبيرة جداً، لأنها جاءت بطريق غير نظامي، هل يعقل أن الأسواق تعج بالبضائع الغير نظامية فيصدر قانون بمحاسبة المخالفين فوراً ؟ التساهل السابق شجع الناس، فإذا منعت ينبغي أن تصبر على الناس حتى يسووا أوضاعهم، الآن تطبيق القانون بمفعول رجعي جريمة، لكن الرحمة أن تعطي الناس مهلة كي يسووا أمورهم.

سمعت عن قرار في بلد بإفريقيا، فأعجبني، وهذا القرار ينص على بالالتزام بأشياء معينة في الاستيراد، أعطاهم ستة أشهر ليسووا أوضاعهم، معنى ذلك أن هناك رحمة.

دقق:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لكن أيها المشركون بعد نقض العهود، أراد الله لها أن تنقض، لأنكم خنتم هذه العهود، لن نحاربكم قبل أربعة أشهر، سووا أوضاعكم.

(فَسِيحُوا)

ساح؛ أي تحرك على مهل، فالإنسان إذا ركب مركبته مع أهله للنزهة ما من داع للسرعة، المنظر جميل، الطريق في النزهة جزء من النزهة، يمشي هوناً، قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

معكم أربعة أشهر لن نحاربكم، قال: لئلا يؤخذ المشركون على حين غرة، إذاً معكم أربعة أشهر حتى تُبلغوا، وحتى تأخذوا الحيطة والحذر، وحتى تعدوا العدة.

أخواننا الكرام، من هو العدو التقليدي للمؤمن؟ المشرك والكافر، فالمؤمن مكلف أن يحسن لكل من حوله، لكن وفق خطة، قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ)

أي اطمئنوا، تحركوا ببطء، لن يطبق هذا القرار وهذه البراءة إلا بعد أربعة أشهر.

من عدل مع المشرك قربه إلى الله :

أيها الأخوة، هناك سؤال آخر : أن الله سبحانه وتعالى أبلغ رسوله أن يتبرأ من عهوده مع الكفار، ثم خاطب الكفار مباشرة، كيف؟ مرة ثانية: الله عز وجل أراد من النبي، ومن خلال الصحابة أن يخاطب المشركين بهذا القرار الإلهي، هناك آية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

[سورة المائدة الآية: 8]

أي لا يحملنكم.

(شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

[سورة المائدة الآية: 8]

والشنآن هو البغض الشديد.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 8]

والله الذي لا إله إلا هو في منظور الإسلام، وفي ضوء مبادئ الإسلام، وقيم الإسلام، لا تستطيع أن تؤذي كافراً بلا مبرر،

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إن عدلت مع هذا المشرك قربته إلى الله، وقربته إليك

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

الابتعاد عن الاعتداد بالقوة لأن الإنسان في قبضة الله عز وجل :

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)

إياكم أن تعتدوا بقوتكم، لأنكم جميعاً في قبضة الله، إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تعتدوا بقوتكم، مع الله لا يوجد قوي، ولا ذكي، ولا محتال، أنت في قبضته.

إذاً:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

مرة جاء توجيه من يزيد بن معاوية إلى والي البصرة، و يبدو أن هذا التوجيه لا يرضي الله، فلو نفذه والي البصرة لأغضب الله، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة، وقد يعزله، كان عند هذا الوالي إمام كبير، وتابعي جليل هو الحسن البصري، فسأله: ماذا أفعل؟ هذا هو التوجيه، أجابه إجابة والله تكتب بماء الذهب، قال له: اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله، أي إذا أراد بك يزيد شراً الله يمنعه، لكن لو أرضيته، وأغضبت الله، وأراد الله بالإنسان مرضاً عضالاً يزيد لا يمنعه، اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

ثم قال الله عز وجل بعد أن قال:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

أي في قبضته، للتفصيل: إنسان كبير، كبير في ماله، كبير في منصبه، كبير في علمه، كل علمه، وكل مكانته، وكل قوته، وكل ماله، متوقف على نبض قلبه، فإذا توقف القلب كل ما يملك صار إلى غيره، بكون بشراً يصير خبراً على الجدران، في الشام كل يوم تقريباً مئة و خمسون حالة وفاة، كلهم أشخاص لهم بيوت، لهم مراتب، لهم أعمال، دارسون، معهم شهادات، لهم مكانة، توقف القلب، انتهى كل شيء، فكل مكانتك، وكل حجمك المالي، وحجمك الإداري، وكل هيمنتك، مرتبط بنبض قلبك، وكل مكانتك، وكل قيمتك، وكل حجمك المالي، والإداري، مرتبط بسيولة دمك، خثرة لا ترى بالعين كرأس الدبوس تتجمد في بعض أوعية المخ شلل، فقد ذاكرة، فقد بصر، الإنسان ضعيف، لا تقل أنا قل الله.

التولي و التخلي :

أصحاب النبي الكريم قالوا: الله في بدر فانتصروا.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية: 123]

ضعاف، وفي حنين، هم هم، ومعهم سيد الخلق،وحبيب الخلق،قالوا:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

نحن كُثر، اعتدوا بكثرتهم.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة]

وأنت أيها الأخ الكريم، أنت بحاجة إلى هذين الدرسين كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، تقول: أنا دارس، متعلم، أبي فلان، يتخلى الله عنك، تقول: يا رب ليس لي غيرك يتولاك، تقول: أنا يتخلى عنك، تقول: يا رب أنت وحدك القوي يتولاك، فأنت في كل لحظة بين التولي والتخلي، تعزي تفوقك إلى ذاتك يتخلى الله عنك، تعزي التفوق إلى الله يتولاك، الدرس الوحيد الذي يحاسب عليه كل مؤمن كل ساعة هذا الدرس، التولي والتخلي.

فلذلك

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

إنسان يبدو أنه متفوق جداً في الرياضيات، قال: يارب الرياضيات عليّ والجبر عليك، أنا ضعيف بالجبر، فرسب.

لا يوجد إنسان قوي مع الله، لا تقل أنا، ألغ كلمة أنا من حياتك، انظر إلى فضل الله عليك، حتى إن علماء القلوب يرون أن أي مؤمن شهد عمله فقد أشرك، لأنه إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الدين الإسلامي دين عظيم لا يفرق بين إنسان و إنسان:

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

دقق في هذه الآية:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 12]

أنتم لا تتصورن من هم أصحاب النبي؟ شباب، صغار، ضعاف، فقراء، صناديد قريش، أعلام، كبار، زعماء، أقوياء، أذكياء، فصحاء، أين هم صناديد قريش؟ في مزبلة التاريخ، تقول سيدنا أبو جهل؟ هل تستطيع أن تقولها؟ أبو لهب؟ أعوذ بالله، سيدنا الصديق، سيدنا بلال، بلال عبد فلما أراد الصديق أن يشتريه من سيده الذي كان يعذبه كل يوم، يضع على صدره صخرة ليكفر بمحمد، يقول: أحد أحد، فاشتراه منه، أراد سيدُ بلالٍ أن يهين بلالاً، قال له: والله لو دفعت به درهماً واحداً لبعتكه، فقال له الصديق: والله لو طلبت مئة ألف درهم لدفعتها لك، فلما أنقذه من سيده وضع يده تحت إبطه، سيدنا الصديق من أكبر رجالات قريش، وقال: هذا أخي حقاً.

هل تصدقون أن عمر خليفة المسلمين خرج إلى ظاهر المدينة ليستقبل بلالاً؟ هذا ديننا، عبد، سيد، أبيض، ملون.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

مرة تروي بعض الروايات أن بعض زعماء قريش وقفوا باب عمر بعد فتح مكة، بعد الانتصار الحاسم، لم يؤذن لهم، آلمهم جداً أن صهيباً وبلالاً يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فلما دخلوا عليه عاتبوه، فقال لهذا الذي عتب عليه : أنت مثلهما؟.

سيدنا بلال**!** نقول: سيدنا بلال، وكان عبداً حبشياً، أسود اللون، لكن هو عند الله في أعلى مقام، هذا الدين، الدين أممي، والدين لا يفرق بين إنسان وإنسان.

من أطاع الله عز وجل فهو في أعلى مقام :

أقول لكم: والله أي واحد منكم، أي إنسان من أي بلد، من أي مكان، من أي جنس، مادام مطيعاً لله فهو في أعلى مقام.

أنا أذكر أن رجلاً دخل على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فهش له وبش، واستقبله استقبالاً غير معهود، قال له: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، يبدو أن الصحابي فقير جداً، صُعق قال له: أنا؟ قال له: أنت، قل له: أو مثلي؟ قال له: نعم يا أخي، أنت خامل في الأرض علم في السماء.

وأنا أخاطب كل شاب منكم: ليس معك شهادة، أول حياتك، من أسرة فقيرة، لكن مستقيم قلامة ظفرك تساوي مليون رجل فاسق،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

اشعر أنك مع الله.

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والكافرين إلى هلاك

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 36]

مرة كنت بأستراليا هناك إذاعة على الهواء مباشرة، فإنسان مغرض، قبل نهاية الندوة بدقيقة، قال لي: الإسلام دين الجهل، والقتل، والفقر، والإرهاب، والإجابات تحتاج إلى ساعة، تعلم علم اليقين أن الندوة انتهت، و لم يبقَ غير دقيقة، وهذه تُهم تحتاج لساعات، فقلت له كلمة واحدة: ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا على الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم.

خلاص العالم بالإسلام إن أحسن المسلمون فهمه و تطبيقه :

هذا دين الله، لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله، ولكن لنقلق جميعاً ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له، اقلق على هذا فقط، لا تقلق على هذا الدين، والله الذي لا إله إلا هو العالم كله الآن يحارب الدين، والدين في أعلى مستوى بانتشاره.

مؤتمر عقد بفرنسا حضره كل دول العالم، المشتركون في المؤتمر مئة و خمسون ألفاً في وسط العاصمة الفرنسية، هناك إحصائيات دقيقة أن خمسين فرنسياً يدخلون في الإسلام يومياً، و ببلاد الغرب البعيدة في أمريكا يدخل ثلاثة و ثلاثون إنساناً في الإسلام يومياً.

لذلك قال عالم أمريكي هداه الله إلى الإسلام: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، هم ضعاف، ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام، أنظمة الغرب لم تنجح في إسعاد البشر، وأنظمة الشرق لم تنجح في إسعاد البشر، والعالم كله يتعلق اليوم بالإسلام، ولكن بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر، هذه البطولة.

لذلك انهيار النظام العالمي المالي نظام عملاق، مئة و خمسة و خمسون مصرفاً أعلنوا إفلاسهم، لأن هناك ربا، أليس هذا جرعة منعشة للمسلمين؟ انتصار أخوتنا العشرة آلاف في غزة على أقوى جيش في

المنطقة، أليس هذا جرعة منعشة؟ كأن الله يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، لا تيئسوا، أنا موجود، كل شيء بيده، لكن كونوا لي كما أريد، أكن لكم كما تريدون.

الكافر إلى خزي والمؤمن إلى الله عز وجل :

أيها الأخوة،

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

بالنهاية هناك خزي وعار، ومستحيل، وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح.

لسيدنا علي كلمة رائعة: **"يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية".**

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك؟

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

قانون أزلي أبدي، الكافر إلى خزي، والمؤمن إلى الله عز وجل.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة الآية: 5]

الهدى رفعهم، رفع قدرهم، رفع شأنهم، رفع مكانتهم، والباقي:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الأحقاف]

كآبة، أو في السجن، في تفيد شيئاً ضمن شيء، المؤمن على، على تفيد العلو

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

غير المؤمنين

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فلذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، لأنك مفطور على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

مجيئكم إلى هذا المسجد ـ جزاكم الله خيراً ـ يشبه تماماً شحن هذا الهاتف، إن لم تشحنه يتوقف، إنسان بلا شحن نوبي، أسبوعي يسكت، يضيع، تأتيه كآبة، يأتيه إحباط، يأتيه تشاؤم، يأتيه ضجر، تزل قدمه، يرتكب معصية، لأنه لا يوجد شحن.

فهذا اللقاء الطيب إن شاء الله شحنة لهذا الإنسان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (06-70):تفسير الآيتان 2 - 3 ، الترابط الفكري والثقافي مع الطرف الآخر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-04-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

نتيجة السورة التالية إنهاء العهود والعقود مع المشركين كافة :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية وهي قوله تعالى:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

والآية التي تليها:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

أيها الأخوة الكرام، مما يلفت النظر أن هذه السورة لها خصوصية.

أولاً: آخر سورة نزلت في القرآن الكريم، من خصوصيات هذه السورة أنها تتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، سواء أكانت هذه العهود قد انتهت بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة، أو الناكثين لوعودهم، أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ولم ينقص المسلمين شيئاً، ولم يظاهروا عليهم أحداً، فعلى الجملة، النتيجة من هذه السورة إنهاء العهود والعقود مع المشركين كافة في الجزيرة العربية، وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً، هناك تطور جذري، تطور نوعي في علاقة المسلمين مع الآخرين من خلال هذه السورة، مع العقود المبرمة سُمح للمشركين بالطواف في المسجد الحرام، أو عمارته في صورة من الصور، لكن هذا الشيء انتهى، لم يسمح لهم لا بالطواف، ولا بالسعي، ولا بأي منسك من مناسك الحج عندهم.

سورة التوبة تنبؤنا عن خصائص مرحلة جديدة :

أيها الأخوة، المغزى العميق من هذه الأحكام النوعية في هذه السورة أن هناك مرحلة عاشها المسلمون في مكة، وهذه المرحلة تقتضي التفاهم، التعاهد، التعاقد، لكن بعد أن أعزّ الله دينه ونصر نبيه، هناك مرحلة أخرى تنبؤنا هذه السورة عن خصائصها.

النقطة الدقيقة: إن الذي يراجع أحداث السيرة النبوية، ويراجع وقائعها، يرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج السياسي الإسلامي، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج في ذاته، ومراحله، وأهدافه، أي الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المسلمين في الجزيرة العربية، وغير المسلمين قد جاء موعدها، ومُهد لها، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هذه الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم.

كان هناك مصالح تقتضيها حالة المسلمين، ومصالح تقتضيها وضع المسلمين قبل فتح مكة، لكن بعد فتح مكة هناك مستجدات لا بد من أن تراعى.

أيها الأخوة، لا بد من تمهيد لمعرفة الطرف الآخر.

الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة سخر له ما في السماوات والأرض :

أيها الأخوة، الله عز وجل كان الله ولم يكن معه شيء، خلق المخلوقات في عالم الذر، وهذه المخلوقات خلقها ليسعدها، لكن عرض عليها عرضاً متميزاً، هذا العرض تؤكده الآية الكريمة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هذا الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة، وقال: أنا لها يا رب.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

فالإنسان في القرآن، والإنسان في المنهج الإسلامي، هو المخلوق الأول، أنا أقول لكل واحد منكم: لأنك من بني البشر أنت المخلوق الأول في الكون، أنت المخلوق الأول رتبة، لأن الله حينما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فئة من مخلوقاته قالت: نحن لها يا رب، فلما قالوا: نحن لها تميزوا عن بقية المخلوقات، نظير تميزهم سخر الله لبني البشر

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

تسخير تعريف، وتسخير تكريم، والحقيقة قبل حمل الأمانة مع عالم الإنس عالم الجن.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

[سورة الأنعام الآية: 130]

فعالم الجن وعالم الإنس قبلا حمل الأمانة، فكانا في القمة، الذي حصل أن البشر حينما جاؤوا إلى الدنيا بعضهم راعى هذه الأمانة، وأداها، وتعرف إلى الله، واستقام على أمره، وعمل الصالحات تقرباً إليه، ودفع ثمن الجنة التي فيها:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، في عالم الأزل، وكان صدقهم تاماً هم الأنبياء، والمرسلون، والذين قبلوا وأدوا ما عليهم ولكن بمستوى أقل هم المؤمنون، والذين لم يرعوا هذه الأمانة بعضهم من الكفار، وبعضهم من المنافقين، فيمكن أن يقسم البشر إلى مؤمن وغير مؤمن، وغير المؤمن كافر صراحة جهاراً نهاراً، أو كافر ضمناً، هذا هو التقسيم.

البشر على اختلاف مللهم ونحلهم وانتماءاتهم نموذجان لا ثالث لهما :

لما جاء الناس إلى الدنيا سيُعبرون عن موقفهم في عالم الأزل، لكن كان من الممكن أن يعيش الكفار في كوكب آخر، لا يوجد أية علاقة بيننا وبينهم كمؤمنين طبعاً، وكان من الممكن أن يعيشوا في حقبة أخرى، وكان من الممكن أن يعيشوا في قارة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله جلّ جلاله أن يعيش البشر مؤمنهم وكافرهم في مكان واحد، الشيء الطبيعي إنسان آمن بالواحد الديان، منطلقاته الفكرية أن يسعى لدخول الجنة، أن يوقع حركته وفق منهج الله، والبشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وطوائفهم، وتياراتهم، لا يزيدون عن نموذجين فقط، نموذج عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

فالذي قبل حمل الأمانة، وجاء إلى الدنيا وحملها، وأدى ما عليه، هم الأنبياء أولاً والمرسلون، والذي أداها بمستوى أقل هم المؤمنون، ويتفاوتون فيما بينهم، لكن الذي لم يحمل هذه الأمانة، ونقض عهده مع الله، جاء إلى الدنيا ليكون طرفاً آخر، كافراً بهذه الأمانة مؤمناً بالدنيا.

لذلك يمكن ببساطة بالغة أن يقسم البشر إلى قسمين، مؤمن وغير مؤمن، صادق كاذب، وفيّ غير وفيّ، رحيم قاس، يمكن لهذه القيم أن تنتظم البشر جميعاً، فقسم من هؤلاء البشر أقبل على هذه المبادئ والقيم، فكانوا المؤمنين، وقسم آخر أعرض عنها فكانوا الكفار والمنافقين.

وذكرت قبل قليل: كان من الممكن أن يكون هؤلاء البشر غير المؤمنين في كوكب آخر، بل في قارة أخرى، بل في حقبة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله أن نعيش معاً في وقت واحد، وفي مكان واحد.

القرآن الكريم اعتمد قيمتين فقط للترجيح بين خلقه؛ العلم و العمل :

لذلك من بديهيات الأمور أن تنشأ معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، بين المؤمن وغير المؤمن، بين الذي وفى ما عاهد الله عليه وبين الذي لم يرعَ هذا العهد إطلاقاً.

وهذا التقسيم موجود بكل مكان، وبكل زمان، هذا التقسيم الحقيقي، هناك تقسيمات على وجه الأرض لا تعد ولا تحصى، هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن الكريم، باطلة، العرق الأبيض، خير إن شاء الله! العرق الملون، الشعب السامي، الشعب الأنكلو سكسوني، هذا كلام، دول، وشعوب، وألوان، ولغات، هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن، القرآن اعتمد قيمتين فقط للترجيح بين خلقه، اعتمد قيمة العلم فقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية:9]

واعتمد قيمة العمل فقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

وأما البشر:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

سيدنا سعد بن أبي وقاص كان من أحبّ أصحاب النبي إلى النبي وحده، قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((سعد ارم فداك أبي وأمي))

[أخرجه الطبراني عن سعد]

ما فدى النبي أحداً من أصحابه إلا سعداً بن أبي وقاص، وقال: إذا دخل عليّ يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، قال له عمر مرةً: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

أنا أقول لكم الآن بناء على هذه المعطيات: أي واحد منكم إذا تعرف إلى الله، واستقام على أمره، قلامة ظفره قد تساوي مليون إنسان شارد عن الله، أي واحد من أي بلد، من أي عرق، من أي ملة، من أي طائفة، هذا هو الدين.

الدين أن يأتي أبو بكر الصديق إلى صفوان بن أمية ويشتري منه سيدنا بلالاً، كان عبداً مملوكاً، وكان يعذبه سيده، فقال: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه،فقال له الصديق: والله لو طلبت مئة ألف لأعطيتكها، هذا أخي حقاً، وضع يده تحت إبطه وقال: هذا أخي حقاً، هذا هو الدين.

وأقول لكم مرة ثالثة: أية أمة تعتمد بالترجيح بين أفرادها مقاييس انتمائية هذه أمة متخلفة، وأية أمة تعتمد في الترجيح بين أفرادها مقاييس موضوعية أمة قوية ومتقدمة،

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

فلذلك هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل.

توظيف الله تعالى طغيان الطغاة لخدمة دينه و المؤمنين :

الآن النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

في عصرٍ المؤمنون أقوياء، وفي عصر آخر المؤمنون ضعاف، ضعاف جداً، وقد شاءت حكمة الله أن نكون في هذا العصر، المؤمن ضعيف، القوة، والمال، والأقمار الصناعية، والطيران، والقنابل النووية مع الطرف الآخر، لذلك فرضوا إباحيتهم، وفرضوا ثقافتهم، على جميع الشعوب، والشعوب الإسلامية لأن يُغزوا من قبل الأعداء أهون ألف مرة من أن يغزوا ثقافياً، الغزو الثقافي خطير جداً، أنت انتهيت كمسلم، أنت رقم بسيط، لا قيمة لك إطلاقاً.

فلذلك أيها الأخوة، أتمنى من أعماق أعماقي أن يستعيد الإنسان المسلم هويته، أنت مسلم، أنت معك وحي السماء، معك منهج الله عز وجل، ينبغي أن تكون في مستواه، لأن الله شاءت حكمته أن نعيش معاً، إذاً هناك معركة بين الحق والباطل، مرة يقوى المؤمنون، ومرة يقوى أعداء الله، لكن هذان امتحانان صعبان جداً، أحياناً يقوي الله الكافر لحكمة بليغةٍ بليغةٍ بليغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها لينظر كيف تعملون.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

إيماني أن الله سبحانه وتعالى لا يسمح لطاغية على وجه الأرض أن يكون طاغية إلا ويوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين، وكل الذي ترونه في العصر الحديث من اجتياحات، ومن عدوان على البلاد الإسلامية، إذا أمدّ الله بعمركم جميعاً ينبغي أن تعلموا علم اليقين أن هناك حكمة بالغة بالغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، لأنه لا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكن الذي أتمنى أن يكون واضحاً لكم أن خطة الله تستوعب خطة أعدائه.

تصور سفينة عملاقة من أكبر السفن في العالم تتجه نحو الشرق، وعلى ظهر هذه السفينة رجال يشاكسون قائد السفينة، ويتحدونه، فيتجه على ظهر السفينة نحو الغرب، خير إن شاء الله! السفينة كلها باتجاه الشرق.

لا تستطيع جهة في الأرض أن تفسد على الله هدايته لخلقه :

العالم كله يتجه نحو الدين، هناك أعداء للدين:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 36]

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 14]

هذا الدين لا تستطيع جهة في الأرض أن تفسد على الله هدايته لخلقه.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

[سورة الطارق]

آيات كثيرة.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف]

والتاريخ بين أيديكم، وهؤلاء الصحابة الفقراء الضعاف، الشباب من الطبقة الدنيا من المجتمع، والصناديد، والأقوياء، والأذكياء، والأغنياء، بيدهم الجزيرة كلها، هم زعماء قريش، وقريش زعيمة الجزيرة العربية كلها، ما الذي حصل؟ أن الله سبحانه وتعالى في النهاية جعل هؤلاء الأصحاب قمماً في التاريخ البشري، وجعل هؤلاء الذين عارضوا الحق في مزبلة التاريخ، وهذا الأمر مستمر وثابت.

ما لم نعد إلى ديننا فلن ننتصر على عدونا :

لذلك هناك امتحان صعب، صعب جداً، يقوي الله الكافر، يقويه، يقويه عسكرياً، واجتماعياً، ومادياً، غني، وقوي، وذكي، وبيده كل شيء، والمسلمون على كثرتهم مليار وخمسمئة مليون، وعلى أنهم يملكون ثروات لا يعلمها إلا الله، بلادهم محتلة، أمرهم ليس بيدهم، للطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لكن هناك حكمة أن الذي يضعف إيمانه في ساعة من ساعات ضعف إيمانه يقول: أين الله؟

يقصفون، يهدمون، يقتلون، الذي يقولونه يفعلونه، والأمر بيدهم، والإعلام بيدهم، والدولار بيدهم، وهذا امتحان، ونحن فيه الآن.

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه.
هؤلاء العدوانيون اليهود قتلوا في غزة ألف و خمسمئة طفل وامرأة، بأحدث أسلحة في العالم جاء الغرب إلينا كمؤتمر، التصريح الوحيد يجب أن نمنع تهريب السلاح للمقاومة فقط، أما ألف و خمسمئة طفل يموت على مرأى العالم كله لا أحد ينطق بكلمة، ولا تعليق، ولا استنكار، ولا شجب، بدأ يأتي رئيس أمريكي إلى المنطقة يزور دمشق، وتل أبيب، ورام الله، والبند الرابع أسرة الأسير الإسرائيلي، ولنا عند اليهود أحد عشر و ثمانمئة أسير، ما خطر في باله أن يراعي أسر هؤلاء ولا بزيارة واحدة.

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

إله عظيم يقول هذا، ما لم نعد إلى ديننا، إلى تاريخنا المجيد، إلى قيمنا، إلى أخلاقنا، لا نستطيع أن ننتصر عليهم.

قوانين النصر :

أما النصر له قوانين.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: 7]

الله عز وجل لا يحتاج أن ينصره، لكن إذا نصرت دينه ينصرك، حديث خطير جداً:

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

هؤلاء الضعاف إن أطعمتهم إن كانوا جياعاً، وإن كسوتهم إن كانوا عرايا، وإن أسكنتهم إن كانوا مشردين، إن علمتهم إن كانوا جاهلين، يتفضل الله علينا بمكافأة من جنس عملنا، ينصرنا على من هو أقوى منا، هذا الكلام واضح كالشمس.

أردت من هذه المقدمة أن تعلموا لماذا أراد الله أن يكون في الأرض مؤمنون وغير مؤمنين، بينهما تناقض كبير، إنسان يعمل للآخرة، وإنسان يعمل للدنيا، إنسان يعبد الله، ويسعى لمكارم الأخلاق، وإنسان يعبد شهوته فقط.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية: 43]

أحياناً يكون فرق بين شخصين، يكون فرق في الدرجة، الاثنان نجحا، لكن نجح بتفوق والثاني نجح بأقل تفوق، أحياناً يكون هناك تناقض، هذان لا يجتمعان.

الناس عند الله نموذجان :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

لذلك هذه المقدمة ضرورية جداً، لأن البشر بصرف النظر عن أعراقهم، وعن أنسابهم، وعن طوائفهم، وعن ألوانهم، وعن قومياتهم، وعن كل ما نقوله عن البشر، هم عند الله رجلان، مؤمن وغير مؤمن، المؤمن عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان آخر غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد نموذجاً ثالثاً، مؤمن وغير مؤمن، الدليل القرآني:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، بناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبناء على هذا التصديق بنى حياته على العطاء، علامة المؤمن أنه يسعده أن يعطي، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة :

النموذج الآخر :

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب بالجنة، وآمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ.

لذلك هؤلاء البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، هم نموذجان؛ أول نموذج بنى حياته على العطاء، والثاني على الأخذ، أول نموذج ملك القلوب، والثاني ملك الرقاب، أول نموذج عاش للناس، والثاني عاش الناس له، أو نموذج يمدح في غيبته، والثاني في حضرته، هذان النموذجان الناس جميعاً تبع لهم.

هذه الحقيقة الدقيقة حول هذا الموضوع.

باب التوبة مفتوح على مصارعه لمن أشرك بالله تعالى :

الله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم والدليل:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 1]

في مرحلة، المرحلة الانتقالية انتهت، مرحلة أنصاف الحلول انتهت، مرحلة هذا لكم وهذا لنا انتهت، دخل المسلمون بعد أن قواهم الله عز وجل في مرحلة ثانية، هذه المرحلة:

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة التوبة]

لكن الله رحيم، هؤلاء الذين أشركوا باب التوبة مفتوح أمامهم على مصارعه، هؤلاء الذين أشركوا أعطاهم مهلة ليفكروا

(فَسِيحُوا)

تحركوا في الأرض آمنين أربعة أشهر، لكن إياكم أن تعتدوا بقوتكم، مع الله لا يوجد قوي، ماذا أقول؟ بسواحل الهند، وشرقي آسيا، في النصف الكرة الجنوبي، أجمل أماكن في العالم، فيها منتجعات من فئة العشر نجوم، وتستقطب أغنى أغنياء العالم، وفي هذا المكان الجميل، وفي الشتاء القارس في الشمال، والجو دافئ، والطبيعة الخلابة، والأشجار الباسقة، والبحر الهادئ، والمنتجعات الكبيرة جداً، جاء زلزال تسوناني، مات منهم خمسة و عشرون ألفاً، وعتموا على هذا الرقم، هؤلاء نخبة العالم.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم]

طبعاً مات مؤمنون أيضاً، مثلاً طائرة سقطت كل راكب يموت على نيته، إنسان يسافر لشراء بضاعة ليبيعها للمسلمين يموت على هذه النية، إنسان يسافر إلى مكان في آسيا ليرتكب الفاحشة يموت على هذه النية، لا أقول إن كل إنسان مات بهذا الزلزال هو كافر، لا، هناك مؤمنون وهناك غير مؤمنين، لكن الله عز وجل لا يوجد معه قوي، لذلك قالوا: زلزال تسونامي يساوي مليون قنبلة ذرية، الأرض كلها في قبضة الله.

بلد فيه زلزال قوته تقدر بسبع درجات على مقياس رختر، كل شيء انتهى، يقال لك: مئة و خمسون ألفاً بالعراء، وقبل أيام بالصين، وقبلها بهاييتي، البشر في قبضة الله، ولا ينجينا إلا طاعة الله، والاستقامة على أمره.

من كان الله معه فمن عليه و من كان عليه فمن معه ؟

لذلك أيها الأخوة،

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

كنا بمرحلة، طبعاً لماذا كانت البراءة؟ لأن المشركين نقضوا عهدهم مع رسول الله، هم بدؤوا فلما بدؤوا بنقض العهود أمر الله نبيه أن يلغي كل هذه العهود، لكن رحمة بهم:

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

اعلم يقيناً أنك في قبضة الله، بأي لحظة يتوقف القلب ينتهي كل شيء، كل أموالك لغيرك، أموالك المنقولة، والغير منقولة، ومنصبك الرفيع، ومن حولك، وأتباعك، وأهلك، أصبح خبراً على الجدران، كان شخصاً فأصبح خبراً.

أيها الأخوة، هذه حقيقة

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

ككلمة أقولها دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ الله عز وجل مع الصحابة الكرام، الفقراء الضعاف، الشباب، وقد أجرى الله على أيديهم النصر، وإله الصحابة إلهنا، والإله موجود دائماً، وقوانينه ثابتة،

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

الدين الإسلامي دين جماعي وفردي :

وأخاطب الأخوة الكرام: هذا الدين جماعي وفردي، لو طبقته وحدك لقطفت كل ثماره، ولو طبقته الأمة لانتصروا على أقوى دولتين في العالم، من هم المسلمون؟.

سراقة تبع النبي عليه الصلاة والسلام ليقتله، أغراه بمئة ناقة، قال له: يا سراقة ـ أنت فكر بدقة بالغة إنسان أهدر دمه، والمئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، والذي تبعه يرجو هذه المئة ناقة ـ قال له: يا سراقة، كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ نقرأ هذه الحادثة ولن نقف عندها أي أنا سأصل يا سراقة إلى المدينة، وسأنشئ دولة، وسأؤسس جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني الغنائم إلى هنا، ولك يا سراقة سواري كسرى، ما هذا التفاؤل؟ ما هذا اليقين؟ والذي حصل في عهد عمر جاءت كنوز كسرى، وسأل عن هذا الصحابي ـ سراقة ـ وألبسه سواري كسرى، وقال: بخ بخ أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى؟!

الوعود قائمة، والآن قائمة، الله ينتظر أن نصطلح معه، وأن نتوب إليه، والنصر سهل جداً، وهناك عينات موضحة، و جرعات منعشة،أخوتنا المقاومون في غزة كم عددهم؟ عشرة آلاف وقفوا أمام أول جيش في المنطقة، رابع جيش في العالم، يملك الطيران الحديث، الأباتشي، و f16، وأضخم مدرعة في العالم من صنعه، وصواريخ، وأسلحة كيماوية، وأسلحة عنقودية، وقنابل عنقودية، وانشطارية، وكل هذه الأسلحة لم تستطع أن تحقق شيئاً، و استمرت الحرب اثنين و عشرين يوماً، هذه أليست جرعة منعشة لنا جميعاً؟ الله موجود، والآن الخط البياني للطرف الآخر يهوي.

بلد محتل من قبل ثلاثين دولة، حلف الناتو، 74% من أراضيها بيد المقاومين، معهم بارودة فقط، هذه كلها أشياء تعطيك فكراً أن الله موجود، لذلك:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات، طبعاً آيات اليوم :

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

بلاغ عام

(إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (07-70):تفسير الآيتان 3-4 ، رؤية الطرف الآخر للمسلم والإسلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-04-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل وأتفه عمل :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السابع من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية شُرحت في الدرس السابق، لكن ذكرتها لأن هناك استثناء، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة أن هناك آيات كريمة تنظم العلاقة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، هذه الآيات ملخصة في قوله تعالى:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية:7]

الحقيقة أن الدعوة إلى الله تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء، وبين أن تكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة.

الدعوة الخالصة إلى الله أساسها الاتباع :

متى تكون الدعوة إلى الله أقدس عمل وترقى إلى صنعة الأنبياء؟ حينما نتبع لا نبتدع.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام الآية: 50]

فحينما أتبع منهج الله في قرآنه، ومنهج رسوله في سنته، فأنا متبع، فالدعوة الخالصة إلى الله التي تعد أقدس عمل على الإطلاق، والتي ترقى إلى صنعة الأنبياء، أساسها الاتباع، بينما حينما نبتدع هذه الدعوة تصبح عملاً لا جدوى منها، اتبع لا تبتدع، قال: حكمة تكتب على ظفر: اتبع لا تبتدع، اتضع لا

ترتفع، الورع لا يتسع، فحينما تكون الدعوة أساسها الاتباع ترقى إلى صنعة الأنبياء، وهناك توجيهات:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

ماذا يقابل هذه الآية؟ يقابل هذه الآية:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية:5]

فهذا الكافر إذا رأى المسلم، رآه غير صادق، رآه ليس منصفاً، لم يكن هذا المسلم في المستوى الذي أراده الله، ما الذي يحصل؟ تعينه أنت على كفره، يعتقد أنه على صواب، ولأنك أخطأت معه هذا الخطأ يسحبه على دينك.

بطولة المؤمن أن يشد الطرف الآخر إلى الإسلام بأخلاقه وحسن معاملته :

لذلك: وطن نفسك أنك إذا أسأت إلى مسلم، هذا المسلم يقول: فلان أساء إليّ، أما إذا أسأت إلى غير المسلم يقول هذا الإنسان غير المسلم: الإسلام دين باطل، فبين أن يبقى الخطأ بك وبين أن ينسحب الخطأ على الدين كله؟!

لذلك أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك، أنت سفير، هؤلاء المشركون الذين كانوا أمناء على العهد، وكانوا أوفياء، ولم ينقصوا منه شيئاً، لم يصدوا لكم تجارة، ولم يستولوا على أغنام، ولم يسرقوا أسلحتكم، ولم يغروا بكم أحداً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، هؤلاء هم كما تروي الروايات التاريخية بنو ضمرة، وبنو كنانة، هؤلاء لم يؤذوا المسلمين إطلاقاً، وكانوا أوفياء لعهودهم ومواثيقهم، هؤلاء جاء الأمر الإلهي بأن يستمر العهد معهم إلى مدتهم،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

أخواننا الكرام، للتقريب: النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل المدينة المنورة، قال كلاماً يجب أن نقف على أبعاده، قال: "أهل يثرب أمة واحدة"، يوجد في يثرب نصارى، ومشركون، ووثنيون، وموال، وأعراب، ويهود، هذا المفهوم الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام يقال عنه اليوم: مفهوم المواطنة، أو مفهوم التعايش،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

أي إلغاء الآخر غير مقبول، فبطولتك بذكاء، وبمنطق، وبلطف، وبإحسان، أن تقنع الطرف الآخر بالدين من خلال الأخلاق، من خلال حسن المعاملة، من خلال الإنصاف.

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا)

[سورة المائدة الآية: 8]

إن عدلت معه تقربه إلى الله، وتقربه إليك، لذلك الآية رائعة:

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

بطولتك أن تقنعه بدينك لا من خلال إيذائه، بل من خلال الإحسان إليه، بل من خلال الإنصاف. طبعاً هؤلاء كما ذكرت بنو ضمرة، وبنو كنانة كانوا مشركين، فاستثنوا من قوله تعالى:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

الإنقاص نوعان :

أيها الأخوة، ما معنى ؟

(لَمْ يَنْقُصُوكُمْ)

العلماء قالوا: الإنقاص معناه التقليل، والإنقاص على نوعين؛ إنقاص في الذوات، وإنقاص في متعلقات الذوات، كيف؟

الإنسان حينما يقتل أنقص هذا المجتمع واحداً، هذا إنقاص ذوات، أما حينما يأخذ مال إنسان أخذ متعلقه، أخذ حقه، فالإنقاص يحمل معنيين، إما إذا اعتدوا عليكم بالقتل، أو إذا اعتدوا على أموالكم،

(ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً)

الآن يمكن ألا يعتدوا عليكم، ولا على أموالكم، ولكن يغرون الآخرين بكم، يغرون أعداءكم أن ينقضوا عليكم.

لذلك:

(ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً)

أخلاق القتال شيء وأخلاق الحياة المدنية شيء آخر :

نعود إلى الدعوة، الدعوة ترقى إلى صنعة الأنبياء، وتكون أعظم عمل على الإطلاق حينما نحسن إلى هذا الآخر، حينما نستقيم معه، موضوع القتال موضوع آخر، ليس له علاقة بهذا الدرس، أخلاق القتال شيء، وأخلاق الحياة المدنية شيء آخر، أخلاق القتال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية:73]

هذا أين؟ في ساحة المعركة، أما في الحياة المدنية:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

يمكن أن تقول: هناك أخلاق الجهاد في ساحة المعركة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

وأما الأخلاق:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة فصلت]

لذلك أول صفة الاتباع لا الابتداع، أنت مؤمن، معك منهج، معك وحي السماء، معك افعل ولا تفعل.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

ارتباط المؤمن مع الله عز وجل بعقد إيماني :

حينما يكون الأمر واضحاً، وحينما يكون النهي واضحاً، لا خيار لك أيها المؤمن، لأنك مرتبط مع الله بعقد إيماني، يا أيها الذين آمنوا ، يا من آمنتم بالله، يا من آمنتم به موجوداً، وواحداً، وكاملاً، يا من آمنتم به خالقاً، ورباً، وإلهاً، يا من آمنتم بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، يا من آمنتم بمنهجه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، يا أيها المؤمن أنت في عقد إيماني مع الله،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

فهؤلاء :

(الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً)

هؤلاء ينبغي أن يتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم .

الظهر رمز القوة و الظهير هو المعين :

أيها الأخوة،

(وَلَمْ يُظَاهِرُوا)

ما معنى

(وَلَمْ يُظَاهِرُوا)

قال: مأخوذة هذه الكلمة من مادة الظهر، وهذا الظهر يتحمل أقوى شيء، وأثقل شيء، والدليل: إنك لا تستطيع رفع كيس يزن مئة كيلو بيدك، هل تستطيع؟ لكنك تحمله على ظهرك، فأقوى مكان في الإنسان هو الظهر.

لذلك الظهر أن تعينه، أن تدعمه.

(فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

[سورة الصف]

كلمة ظاهرين، أي أعناهم، أصبحوا أقوياء.

إذاً الظهر رمز القوة، أقوى مكان يتحمل به الإنسان هو الظهر، والمثل مرة ثانية واضح جداً: ليس بإمكانك أن تحمل كيس قمح بيدك، لكن هذا الكيس الذي يزن مئة كيلو تضعه على ظهرك، وهناك صناديق حديدية الآن تزن مئة كيلو، هؤلاء الذين أمدهم الله بقوة منه يحملون هذا الصندوق على ظهرهم، ويصعدون به الدرج.

فالظهر مكان القوة، أو أقوى مكان في الإنسان.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما قصّ الله علينا نبأ في حياته الداخلية، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم]

هناك ملمح لطيف، زوجتان من زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ظاهرتا عليه فالرد الإلهي:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

علاقة الإنسان مع المحيط الخارجي إدراك فانفعال فسلوك :

ألا يتساءل أحدنا؟ للتقريب: مواطن انتقد بلداً هل يعقل من أجل مواطن، أو مواطنين، أن تستنفر القوى البرية والبحرية والجوية؟ غير معقول.

ماذا تعني الآية؟

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

في الآية ملمح دقيق و هو أن: علامة إيمانك اتباعك، فإن لم تتبع فأنت لم تفهم، أوضح مثل: لو قلنا لإنسان ـ لا سمح الله ـ على كتفك عقرب، بقي هادئاً، مرتاحاً، وابتسم، وقال لك: شكراً لك على هذه الملاحظة، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها، بربكم هل فهم هذا الإنسان ماذا تعني كلمة عقرب؟ مستحيل! لو فهم ماذا تعني كلمة عقرب، لقفز، وخلع معطفه، وصاح أحياناً، لأن العقرب لدغته قاتلة.

فلذلك عندنا قاعدة دقيقة جداً؛ علاقتك مع المحيط الخارجي، إدراك، فانفعال، فسلوك، فأنت إن لم تنفعل لم تدرك، وإن لم تتحرك لم تنفعل، إدراك، فانفعال، فسلوك، تمشي في بستان، ـ لا سمح الله ـ رأيت ثعباناً، حينما تنفعل معنى ذلك أدركت ما معنى ثعبان، وإذا انفعلت لا بد من حركة، إما أن تبادر إلى قتله، أو إلى الهروب منه.

قاعدة دقيقة جداً، يصح الإدراك إذا تبعه انفعال، ويصح الانفعال إذا تبعه حركة، فإذا الإنسان لم ينفعل، ولم يتحرك، معنى ذلك لم يصغ إلى كتاب الله، ملمح دقيق،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ماذا تعني هذه الآية؟ أي لا سمح الله ولا قدر إذا كان الإنسان في خندق معاد للحق ينبغي أن يعلم من هو الله، حياتك بيده، الشريان التاجي بيده، شرايين الدماغ بيده، الخثرة بيده، الورم الخبيث بيده، تشمع الكبد بيده، الفشل الكلوي بيده، العاهة الدائمة بيده، الفقر المدقع بيده، أن تفقد حريتك بيده، فأنت في قبضته.

فلذلك كلما ازداد إيمانك يزداد اعتصامك بالله عز وجل.

أيها الأخوة، الظهير هو المعين، فلان شددت به ظهري، أي أعانني، ظهر فلان على فلان؛ أي تفوق عليه، علا ظهره؛ أي استولى على أقوى شيء عنده.

القوي يجب أن يعين الضعفاء ويجبرهم على أن يعملوا معه ليتعلموا :

الآن في سورة الكهف آية دقيقة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً)

[سورة الكهف]

الشاهد:

(فَأَعِينُونِي)

الحقيقة أن السد ينبغي أن يتخلله مكان ترابي، بمعنى أن هذا المكان الترابي يتلقى الصدمات، أنت حينما تضع شيئاً قابل للكسر، حوله إسفنج، ما مهمة هذا الإسفنج؟ تلقي الصدمات، فالمنطقة المرنة لها دور كبير.

لذلك:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

وهناك استنباط آخر أن القوة تعني أن هذا القوي يجب أن يعين الضعفاء، وأن يجبرهم على أن يعملوا معه ليتعلموا، هذا الكلام يعني عندما تعطي إنساناً مساعدة من دون عمل يألف البطالة، يألف النوم إلى الظهر، يرتاح، أما حينما تكلفه بعمل، فرص العمل أفضل ألف مرة من إعطاء الصدقة، أخطر شيء بالمجتمع أن يتعود الإنسان أن يأخذ ولا يعطي، لكن تأمين فرص عمل، هناك دوام، هناك جهد، هناك إبداع، هذا يرقى بالأمة، أنا مع الصدقات لكن لمن؟ للعاجز.

((لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة قوي))

[أخرجه ابن حبان عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

أما إذا كان الشاب قوياً ويطلب مساعدة بلا عمل، هيئ له فرصة عمل، هذه الفرصة تجعله نشيطاً، تجعله منتجاً، يأخذ أجرته رافع الرأس، لذلك:

((اليدُ العليا خير))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر]

والأولى ألا تكون اليد سفلى، أما إذا قبضت أجرتك بيدك فيدك ليست سفلى، لكن الصدقات لمن يعاني ما يعاني، هناك حالات مرضية، هناك حالات عجز، هناك عاهة، أما إنسان شاب قوي تعطيه دون أن يفعل شيئاً فهذه مشكلة كبيرة، لذلك الآية:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

لذلك الحديث الرائع الصحيح:

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

هذا الضعيف ينبغي أن تطعمه إن كان جائعاً، وأن تكسوه إن كان عارياً، وأن تُعلّمه إن كان جاهلاً، وأن تنصره إن كان مظلوماً، وأن تؤويه إن كان مشرداً، وأن تعالجه إن كان مريضاً، أنت حينما تعين الضعيف يكافئك الله بمكافأة من جنس عملك، ما المكافأة؟ ينصرك على من هو أقوى منك.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

أخوتنا الكرام، الأمة الإسلامية تعاني ما تعاني، أنا أتحدث عنها بشكل عام، فحينما الأمة تنصر ضعفاءها، عندئذٍ يكافئها الله بأن ينصرها على من هو أقوى منها.

فلذلك يجب أن يكون لك دور في الحياة، اسأل نفسك هذا السؤال: أنا ماذا قدمت لمن حولي؟ ولا يوجد إنسان إلا ويملك خصائص يمكن أن ينفقها، قال تعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين، أن يكون صواباً، وأن يكون خالصاً، صواباً وفق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

اعتماد القرآن قيمتان مرجحتان بين خلقه ؛ العلم والعمل :

القرآن اعتمد قيمتين مرجحتين بين خلقه، اعتمد قيمة العلم وقيمة العمل، فقال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية: 9]

هذه قيمة العلم.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة الآية: 11]

هذه قيمة العلم، وأما العمل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف الآية: 19]

أية أمة تعتمد مقاييس موضوعية ترقى، وأية أمة تعتمد مقاييس غير موضوعية تهوي، كلمة واحدة: إن اعتمدنا مقاييس موضوعية نرقى، ونقوى، وننتصر، أما إذا اعتمدنا مقاييس انتمائية نهوي ونسقط. لذلك ذو القرنين قال:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)

البطالة مرفوضة، الراحة مرفوضة.

أنواع الفقر :

لذلك قالوا: هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، سيدنا الصديق سأله النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا أبقيت لنفسك؟ ـ أنفق كل ماله ـ قال: الله ورسوله.

هذا فقر الإنفاق، وهناك فقر الكسل، الكسول دخله قليل جداً، لا يتقن عمله، لا يؤدي ما عليه، لا يعمل لترويج عمله، يكتفي بالقليل، يمضي وقته نائماً، يؤجل، لا يتقن، إذا كان فقيراً فهذا هو فقر الكسل، وهناك فقر القدر، إنسان أحياناً امتحنه الله بعاهة، هذا فقير، لكن هذا فقر القدر، فرق كبير بين فقر القدر، وبين فقر الكسل، وبين فقر الإنفاق.

قال أحد الأصحاب للنبي الكريم إني لأحبك، قال النبي الكريم: انظر ماذا ترى؟ قال: والله إني لأحبك، قال: انظر ماذا ترى؟ قال: والله إني لأحبك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك، أي فقر هذا؟! فقر الإنفاق، إذا أحب الله عز وجل أعان عباده، أعانهم، معقول أن تكون في بحبوحة ومن حولك من المؤمنين في أمس الحاجة إلى مساعدتك ولا تساعدهم؟ مستحيل.

إني لأحبك، والله إني أحبك، والله إني أحبك، فقال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر ـ قصد فقر الإنفاق ـ أقرب إليك من شرك نعليك، لكن لا تنسوا هذا الحديث:

((فإنما تُرزقونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن المجتمع الإسلامي انتبه إلى ضعفائه، أطعمهم، وسقاهم،وأكرمهم، وعلمهم، وآواهم، فالله سبحانه وتعالى يتفضل علينا جميعاً أن ينصرنا على من هو أقوى منا.

إن لم يكافأ المحسن و يعاقب المسيء فنحن في طريق الهاوية :

ذو القرنين قال:

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً)

[سورة الكهف]

أخواننا الكرام هناك حقيقة خطيرة، إن لم يكافأ المحسن، وإن لم يعاقب المسيء، فنحن في طريق الهاوية، مثل بسيط: أنت معلم، عندك خمسون طالباً، أعطيتهم وظيفة، بعض الطلاب كتبوا الوظيفة واستغرقت معهم ساعتين أو ثلاثة، وتعبوا بها كثيراً، وفي اليوم التالي لم تشاهد الوظائف، فاستوى عندك من جهد طوال الليل في كتابة الوظيفة، ومن أهمل هذا الأمر، في اليوم الثالث أعطِ وظيفة لا أحد يكتبها.

كلام دقيق، إن لم يكافأ المحسن، إن لم يعاقب المسيء، فهناك مشكلة، فإذا كنت معلماً، أو كنت أباً، أو كنت قيماً على عشرة، يجب أن يكافأ المحسن، ويعاقب المسيء.

لذلك:

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً)

(وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)

[سورة الكهف]

هذا مبدأ يحتاجه الأب، تحتاجه الأم، يحتاجه المعلم، يحتاجه أي صاحب منصب قيادي.

أيها الأخوة، هذه أمانة القوي.

الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

أخواننا الكرام، قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لماذا؟ قال: لأن القوة تعني قوة المال، وقوة العلم، وقوة المنصب، قوة المال، بإمكانك أن تفعل في المال أعمالاً لا تعد ولا تحصى، مشاريع، معاهد، مستشفيات، مستوصفات، تزويج الشباب، والله هناك طرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأنا أتصور أن الله جلّ جلاله ما جعل الغني غنياً إلا ليصل بغناه إلى أعلى درجات الجنة، حينما ينفق ماله في سبل الخير.

والقوة الثانية قوة العلم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

هذه قوة ثانية.

والقوة الثالثة: قوة المنصب، بجرة قلم تحق حقاً، وتبطل باطلاً، تقر معروفاً، وتزيل منكراً، بتوقيع، فقوة العلم، وقوة المال، وقوة المنصب.

لذلك إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، أما إذا كان طريق القوة على حساب مبادئك وقيمك فالضعف وسام شرف لك.

المؤمن سفير لهذا الدين :

أيها الأخوة، الآية الكريمة التي بدأناها في أول هذا الدرس:

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذا الدرس يضغط بآية واحدة:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

فأنت على ثغرة من ثغر هذا الدين، فلا يؤتين من قبلك.

وآخر فكرة أنك إذا أسأت إلى غير المسلم هو لا يتهمك عندئذٍ يتهم إسلامك، لا يتهمك يتهم دينك، وأنت سفير لهذا الدين.

أيها الأخوة الكرام، في الآيات القادمة إن شاء الله تتبدى بعض الحقائق في هذه السورة الكريمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (08-70):تفسير الآية 5 ، معاملة الكفار بما يستحقونه دون إيذائهم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-04-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية دقيقة جداً يحتاج فهمها إلى إعمال الفكر :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثامن من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات دقيقة جداً، يحتاج فهمها إلى إعمال الفكر، الله عز وجل أمرنا أن نقاتل، من؟ الذين أرادوا إبادتنا.

أنا أضع بين أيديكم بعض التصريحات لبعض الأعداء الكبار، يقول طاغية كبير: "ربما سيكرهني العالم وسيخشاني بدلاً من أن أشتكي إليه، ربما يخاف من ضرباتي الجنونية بدلاً من أن يعجب بروحي الجميلة، وليرتجف مني، وليعامل بلدي كبلد مجانين، وليقل إننا متوحشون، وإننا نمثل خطر الموت لجميع الجيران، وإننا جميعاً غير أسوياء، ونستطيع أن نغرز أزمة فظيعة إذا قُتل طفل منا واحد، وأن نفجر بسبب ذلك آبار البترول في جميع الشرق الأوسط".

الله عز وجل هو الخبير، حينما أمرنا أن نقاتل، نقاتل من؟ نقاتل مثل هؤلاء الذين أرادوا إبادتنا.

في العالم الغربي تمّ قتل ثلاثمئة مليون زنجي، الأخبار الدقيقة جداً عن أعمال الطرف الآخر حينما يسيطرون، لما فتح الفرنجة القدس قتلوا سبعين ألف إنسان في ثلاثة أيام، فمثل هذا الإنسان الذي يتشفى بدماء المسلمين، مثل هذا الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض المسلمين، هذه الآية له فقط، لكن أصنافاً كثيرة، فئات كثيرة، أنواعاً كثير من البشر ما أمرنا أن نقاتلهم أبداً، أنا أتكلم عن مثل هؤلاء.

صحيفة من أشهر الصحف في بلاد الغرب، قالت: لا توجد قيم ولا أخلاق، إنما هي القوة، والقوة وحدها، ومنذ خمسة آلاف سنة والقوي يفرض ما يريد، وكلما أمعنا في القوة كسبنا أكثر، فنحن حينما استأصلنا الهنود الحمر، والإنكليز حينما استأصلوا سكان أستراليا الأصليين، نجحنا في حسم المعركة.

أي حربهم حرب إبادة، مثل هؤلاء الذين يريدون إبادة البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يقوم مجدهم على أنقاض البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يبنوا غناهم على إفقار البشر، مثل هؤلاء الذين يريدون أن يبنوا أمنهم على إخافة البشر، مثل هؤلاء الذين أرادوا أن يبنوا عزهم على إذلال البشر،

هؤلاء وحدهم المعنيون بهذه الآية، لئلا يُفهم القرآن على خلاف ما أراد الله، هؤلاء المعنيون بهذه الآية.

في تاريخ البشرية جرائم لا يعلم أبعادها إلا الله عز وجل :

أخواننا الكرام، حينما فتح الفرنجة الأندلس تمت مجزرة تفوق حدّ الخيال، إذا ضُبط الإنسان يغتسل يوم الجمعة يُقتل، إذا ضُبط الإنسان في هذه البلاد يصنع حلوى في أيام العيد يُقتل، فهناك في تاريخ البشرية جرائم لا يعلم أبعادها إلا الله، هؤلاء الفئة القليلة، الطاغية، المجرمة، معنيون بهذه الآية، لئلا يُفهم القرآن على خلاف ما أراد الله عز وجل.

هناك قصيدة قالها أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وهذه القصيدة تعد من الأدب العالمي، لأنها تُرجمت إلى أربع عشرة لغة:

يا راكبين عتاق الخيــــل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان

و حاملين سيوف الهند مرهفـــة كأنها في ظلام النقـع نيران

و راتعين وراء البحر في دعـــة لهم بأوطانهم عز وسلـطان

أعندكم نبأ من أهل أندلــــس فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث صناديد الرجال وهـم قتلى و أسرى فما يهتز إنسان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهــم عليهم من ثياب الذل ألــوان

يا رب أم و طفل حيل بينهمـــا كما تفرق أرواح و أبـــدان

و طفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقـوت ومـرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهـــة و العين باكية و القلب حيـران

لمثل هذا يبكي القـــلب من كمد إن كان في القلب إسلام و إيمان

* * *

ليست أحداث غزة عنا ببعيد، من هؤلاء الذين قُتلوا؟ مقاتلون؟ لا، أطفال في عمر الورود، نساء ضعاف، ألف وخمسمئة طفل قُتلوا بأحدث الأسلحة، هذه الآية لهم، لهؤلاء الطغاة، لهؤلاء القتلى، لهؤلاء الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب، لهؤلاء الذين يرتاحون للدماء تسيل، هذه الآية لهم وحدهم، لا يذهبن بكم الظن أن الإسلام أمر بهذا إلا مع فئة قليلة جداً، أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، أرادت أن تبني حياتها على موتهم، أمنها على خوفهم، غناها على فقرهم، عزها على ذلهم.

هذه الآيات لها معنى محدد، وتجاه فئة تريد أن تسيل الدماء في ديار المسلمين، هؤلاء فقط، خمسة آلاف في قلعة في بلاد الشرق البعيد حُصروا في قلعة، وبقوا بلا طعام ولا شراب حتى شربوا أبوالهم،

وأكلوا لحوم بعضهم، ثم قُصفوا حتى قُتلوا، هذا الذي تتحدث عنه الآية.

الإسلام دين السلام والمحبة والتسامح :

أما الإسلام دين السلام، دين المحبة، دين التسامح، لما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس، لم تُرق قطرة دم واحدة، وهؤلاء الفرنجة يتحركون آمنين مطمئنين، باعوا متاعهم بأثمانها، ولم يفعل معهم المسلمون شيئاً، حتى قال أحد كبار الفلاسفة تولستوي: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب"، طبعاً العرب المسلمون، ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

فأنا أذكر هذه التحفظات لئلا يذهب بكم الظن إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)

من هذا الصنف، الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب.

ارتباط كرامة الإنسان بمصير المعركة التي يقودها :

أيها الأخوة،

(فَإِذَا انْسَلَخَ)

ما معنى انسلخ؟ أي شيء لصيق بشيء، كالجلد في الدابة سلخته، أي نزعته، أي هذه الأشهر الحرم إن انسلخت كانت حصناً، كانت درعاً للمشركين، كانت وقاية، كانت حماية.

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

مِن الصنف الذي ذكرته قبل قليل، مِن الصنف الذي يهوى سفك الدماء، مِن الصنف الذي يبني مجده على أنقاض البشر، مِن الصنف الذي يتوهم أن له ما ليس للبشر، وأن على غيره ما ليس عليه من البشر.

أيها الأخوة، معنى ذلك أن الأشهر الحرم لها حكمة بالغة، من أجل حقن الدماء، قد يتحارب جيشان، وكل جيش جعل مصير المعركة منوط بكرامته، فالدماء تسيل، والحرب لا تقف، فتأتي هذه الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، في خلال هذه الأشهر يذوق الناس طعم السلامة فيتمنون استمرارها، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن تحقن الدماء، لأنه خلق الإنسان على جبلة خاصة، حينما تسيل الدماء ترتبط كرامة الإنسان بمصير المعركة، فلذلك تستمر الحروب سنوات، وسنوات.

في تاريخ الجاهلية رجل مدّ رجله، وقال: من كان أشرف مني فليضربها، فقام إنسان وضربها، ودامت الحرب بين قبائل العرب عشر سنوات.

فالإنسان حينما يثور دم الحقد عنده قد يغدو مجرماً كبيراً، الآية هذه موجهة إلى هذا الصنف وحده، إلى الذي يتلذذ بالقتل، ألف وخمسمئة طفل صغير مع امرأة قُتلوا في حرب غزة، أي هل من الممكن مصارع كبير يمسك طفلاً رضيعاً ويصرعه ويقول: انظروا إلى قوتي؟ أحمق، يجب أن تقف أمام مصارع آخر، هذه الطائرات لجيش آخر لا لأطفال عزّل في بلدة محصورة مكشوفة، لا تملك سلاحاً مضاداً للطائرات، ولا سلاح طيران، وتبرز عضلاتك.

موقف الإسلام من الآخر :

حينما اجتاحوا لبنان، دمروا البنية التحتية، من أجل أسير واحد، فلذلك الله هو الخبير، هؤلاء الذي يرون مجدهم في القتل، يرون مجدهم في إسالة الدماء، يرون مجدهم في سفك الدماء، في انتهاك الأعراض، هذه الآية لهم وحدهم، أي لها سياق.

أضرب مثلاً: أضرب مثلاً: إذا كان هناك بضع شباب في مسبح، وقال أحدهم لزميله: رش فلاناً، ما معنى رش هنا؟ هل معناها اقتله؟ لا ، رشه بالماء فقط، الجو جو مسبح، البيئة بيئة مسبح، رشه أي صب عليه الماء فقط، أما إذا كان في ساحة معركة، وهناك تلاحم، وقال له: رشه أي اقتله، بيئة هذه الآية لا علاقة لها بمشرك مسالم إطلاقاً، لا علاقة لها بمشرك لا يعتدي عليك:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 7]

آية واضحة كالشمس:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة الآية: 8]

أنا أريد أن أبين موقف الإسلام، الإسلام لا يقبل من جهة أن تتلذذ بسفك الدماء، ولا بقتل الأبرياء، ولا بقتل النساء والأطفال، هذه الآية موجهة لهذا النوع من البشر.

التصاق الأشهر الحرام بالناس وكأنها درع لهم تحميهم :

إنسان فرضاً خلال عشرين أو ثلاثين سنة خطط لإبادة المسلمين، أليس في قتله خلاصاً للمسلمين وشروره؟ هكذا الآية لها سياق، الآية لها سباق، ولها لحاق، ولها سياق، يجب أن نفهم الآية في جوها، فهذه الأشهر الحرم ملتصقة بالناس، وكأنها درع لهم، تحميهم، كأنها وقاية لهم، لذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يذوق الناس طعم السلم، وهل تصدقون أن قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر]

ما الفتح؟ صلح الحديبية هو الفتح الحقيقي، أي إشاعة السلام هو النصر الحقيقي، البشر يحبون السلام، يحبون الأمن، الراحة، وهذا تشريع الله عز وجل.

بيان معنى انسلخ عنه و انسلخ منه :

لكن هناك في اللغة ينسلخ عنه، وينسلخ منه، سلخنا الجلد عن الدابة، أي أخذنا جلدها بعيداً عنها، أما انسلخ الإنسان من دينه، أي ابتعد عنه، فرق كبير بين أن نقول: سلخنا عن الدابة جلدها أي نزعناه، وبين أن نقول: انسلخ الإنسان من دينه، والآية:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

[سورة الأعراف الآية:175]

انسلخت من الشيء أي أنا خرجت منه، أما سلخنا عنه جلده أي نحن أخذنا منه جلده:

(وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)

[سورة يس الآية: 37]

فالنهار طارئ، والأصل هو الظلام الدامس، لذلك عندما صعد رائد الفضاء إلى القمر، وتجاوز طبقة الهواء التي تبلغ خمسة وستين ألف كم، صاح بأعلى صوته: لقد أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً، لأن ظاهرة انتثار الضوء انتهت بعد طبقة الهواء.

لذلك هذه الحادثة التي ظهرت بعد ألف وأربعمئة عام من بعثة النبي تبين أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر]

الله سبحانه وتعالى أراد ألا يجتمع في الجزيرة دينان :

أيها الأخوة الكرام، الآن بعد إعطاء المشركين مهلة أربعة أشهر، أو إعطاء من لهم عهد إلى انقضاء عهدهم، أراد الله سبحانه وتعالى ألا يجتمع في الجزيرة دينان، مع أنه:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

ولكن لا بد من جهة يبقى بها الدين الإسلامي مهيمناً، وليكون هذا المكان رمزاً لوحدة المسلمين. فلذلك لك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن، لأنه:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكن إذا آمنت ينبغي أن تلتزم، ليس لك أن تخرج متى تشاء، وتنقل نقاط الضعف التي توهمتها إلى أعداء المسلمين، فأنت في الأساس مخير، لك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن،

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أما إذا آمنت ينبغي أن تلتزم، وهذا ما يفهم من بعض هذه الآيات.

انتشار الدين بالقدوة لا بالإكراه :

هناك نقطة ثانية دقيقة جداً، وأتمنى أن توضح لكم:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

أنت حر في أن تؤمن، أو ألا تؤمن، والدين انتشر بالقدوة، لكن هذا الذي يمنع وصول الدين إلى كل الفئات هذا نقاتله، هذا الذي يلغي حرية الاعتقاد، هذا الذي يلغي حرية التدين، هذا ينبغي أن يُقاتل، لأنه يمنع الخير عمن حوله، هذا دين الله، الآن الدول العظمى الكبرى تريد أن تعمم ثقافتها على الشعوب بالقوة أليس كذلك؟ الدول الكبرى الآن تريد أن تنقل ثقافتها بل إباحيتها إلى الشعوب الضعيفة، بسبب قوتها وهيمنتها.

فالإسلام أراد أن تشيع العقيدة الصحيحة في بني البشر، فما أمر المسلمين بالجهاد إلا لينشر هذا الدين في الآفاق، والذي أراد أن يبقى على دينه يدفع مقابل حمايته الجزية، أي بدل نقدي، كل مواطن ينبغي أن يدافع عن بلده، أحياناً يسمح لمواطن أن يدفع بدلاً مقابل أن يعفى من الخدمة الإلزامية، هذا معنى الجزية بلا زيادة ولا نقصان، أناس أرادوا أن يبقوا على دينهم، من يحميهم؟ المسلمون، نظير عزوفهم عن الجهاد، وعزوفهم عن الدخول في الدين، يدفعون الجزية كبدل نقدي لحمايتهم.

من أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على دينه فعليه الجزية :

أيها الأخوة، الآية تقول:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

لكن أن وجدتموهم لا يشكلون خطراً عليكم، هذه حالة ثانية، مشرك طاغية، مشرك مجرم، مشرك يتمنى إبادة المسلمين، مشرك يقعد للمسلمين

(كُلَّ مَرْصَدٍ)

مشرك يخطط لسفك الدماء، هذا له حكم، قال: إن وجدتم مشركين لا يفكرون في سفك الدماء، قال: هؤلاء خذوهم، لا تقتلوهم،

(وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ)

راقبوا حركاتهم، فإن لم تجدوا في حصرهم، وفي حركاتهم ما يقلق دعوهم وشأنهم، ويدفعون الجزية طبعاً.

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

أما عظمة هذا الدين:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)

أي الإسلام واضح، إما أن تسلم، لك ما لنا، وعليك ما علينا، فإن أردت أن تبقى على دينك لا مانع، لكن مقابل بدل نقدي، البدل النقدي هو الجزية، أما إن أردت أن تحاربنا، إن أردت أن تقاتلنا، إن أردت أن تسفك دماءنا، إن أردت أن تبني مجدك على أنقاضنا، إن أردت أن تُيتِّم أولادنا، وأن ترمل نساءنا نحاربك، فقط هذا الكلام الدقيق.

لذلك:

(وَخُذُوهُمْ)

خذوهم أسرى، ولو قاتلوكم، أرادوا بقتالكم أن يدافعوا عن أنفسهم، هذا قتال غير قتال رؤوس الكفر، رؤوس الكفر يقاتلونكم ليبيدوكم، أما هؤلاء يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم، قال:

(وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ)

أي راقبوا حركاتهم وسكناتهم، إذا قاموا بأية حركة معادية يسهل عليهم كشفها،

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

المؤمن كيس فطن حذر، ولا يكن استطلاعكم لهم إذلالاً، هذا لا يجوز، فالاستدلال على حركاتهم وسكناتهم شيء، والاستذلال شيء آخر.

عظمة الإسلام :

إذاً الآية:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)

الطغاة، سفاكو الدماء، الوحوش البشرية، الذين يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب، يبنون حياتهم على إبادة الشعوب، يبنون غناهم على إفقار الشعوب، ينهبون ثروات أهل الأرض، ليعمروا بلادهم.

(فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

فإن قاتلوا دفاعاً عن أنفسهم، وليسوا في مستوى الصنف الأول، قال:

(وَخُذُوهُمْ)

خذوهم أسرى، واحشروهم في مكان معين،

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)

إنهم أخوانكم إن آمنوا :

(فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

[سورة الأحزاب الآية: 5]

وهذه عظمة الإسلام،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ أول ما أوحى الله تعالى إلى نبيه الكريم :

أيها الأخوة، ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب زاد المعاد، وهو كتاب سيرة، من أشهر كتب السيرة، هناك فصل عقده باسم: فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، يقول: أول ما أوحى الله جلّ جلاله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق]

أول أمر، أول كلمة، في أول آية، في أول سورة نزلت في القرآن الكريم:

(اقْرَأْ)

أي تعرف إلى الله،

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

بعدها:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ)

[سورة المدثر]

أي تعلّم وعلّم، تذكر وذكّر، تلقى وألق،

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

أمره أن ينذر عشيرته الأقربين:

(أقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

[سورة الإسراء]

مراحل الدعوة الإسلامية:

ثم هناك آيات أخرى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء]

ابدأ بأهلك، لأن هناك ثقة بين الأخ وأخيه، بين الأب وابنه. ثم:

(أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

[سورة نوح]

أول شيء:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)

ثاني شيء:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ)

أنذر من؟

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

ثم:

(أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين جميعاً.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء]

تعلَّم وعلِّم، تذكر وذكِّر، تلقى وألق، ابدأ بـ

(عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

ثم بمن حول العشيرة، ثم بقومك، ثم بالعرب، ثم بمن حول العرب، ثم بالبشر أجمعين.

كل مرحلة مرّ بها النبي عليه الصلاة والسلام لها ما يقابلها اليوم :

أقام النبي عليه الصلاة والسلام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، بضع عشرة سنة يدعو النبي في مكة إلى الله، ليس هناك قتال، ولا جزية، ولا هم يحزنون، وأمر أصحابه بالكف عن قتال الأعداء:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة النساء الآية: 77]

أي في مرحلة لا بدّ من أن تجهز نفسك لإيمان لا يتزلزل، إيمان كالجبال، لإيمان راسخ رسوخ كقمم الجبال، هذه المرحلة الأولى، فأقام النبي في قومه بضع عشرة سنة بعد نبوته ينظر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف، والصبر، والصفح.

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[سورة الحجر]

هذه مرحلة، ماذا فعل بهذه المرحلة؟ أسس صحابة إيمانهم كالجبال، لا تزلزلهم المصائب، صامدون، صادقون، الله عز وجل يصفهم ويقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

هؤلاء النخبة، هؤلاء نخبة أصحاب رسول الله، هم الذين حافظوا على هذا الدين، وبعد أن انتقلوا إلى المدينة، وأسسوا دولة، وجهزوا جيشاً، الآن دخلوا في طور آخر، ثم أمرهم أن يقاتلوا من يقاتلهم، عهد الضعف، والصفح، والتسامح، هذا العهد مرحلي، الآن هناك شأن للمؤمنين، لهم كيان، لهم كرامة، لهم عزة، في هذا الوضع أُمروا أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، ويكفوا عمن لم يقاتلهم، ثم أُمروا أن يقاتلوا ليكون الدين كله لله. فلذلك هذه المراحل المتعاقبة تعطينا نماذج يعيشها المسلمون اليوم، فكل مرحلة مرّ بها النبي عليه الصلاة والسلام لها ما يقابلها اليوم.

من يملك السلاح و العدة مرهوب الجانب :

أيها الأخوة، الموضوع موضوع محدد، أنا عجبت عجباً كبيراً، زرت مرة سويسرا، وهذا البلد معروف أنه بلد مسالم دائماً، ولا علاقة له بأية حرب، فإذا يملك جيشاً من أقوى الجيوش، بل نظامه هناك أن كل مواطن عنصر في الجيش، وفي ساعات يجتمع شمل هذا الجيش لماذا؟

لا بدّ من أن تكون قوياً.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الذي يملك السلاح مرهوب الجانب،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

الآن الدولة التي تملك سلاحاً نووياً مرهوبة الجانب، وقد لا تستخدمه أبداً، وقد يمضي مئة عام وهذا السلاح لا يستخدم، لكنه أداة ردع، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان بالله :

هناك ملمح دقيق في الآية يجب أن يكون عدوكم عدواً لله، لذلك:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

سبب هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بعد الإيمان بالله، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن ؟))

أي معقول؟! قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيْتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال : نعم، وأشدُّ منه سيكون))

صعقوا ثانية.

((قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا رأيتُم المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[ورد في الأثر]

على كلٍّ أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (09-70):تفسير الآية 6 ، الرفق والمعاملة الحسنة للطرف الآخر حتى ولو كان كافراً.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-05-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّ البشر من دون استثناء مطلوبون للهداية و لرحمة الله :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس التاسع من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الحقيقة الأولى: أن كل البشر من دون استثناء مطلوبون للهداية، مطلوبون لرحمة الله، يدعوهم الله إلى الإيمان من دون استثناء، هناك توهمات أساسها الجهل أن الله خلق لجهنم أناساً، وخلق للجنة أناساً، كل الذين خلقهم الله عز وجل خلقهم لجنة عرضها السماوات والأرض، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية :119]

خلقنا ربنا ليرحمنا، خلقنا لنعرفه، خلقنا لنهتدي إليه، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض.

حسن الظن بالله ثمن دخول الجنة :

أيها الأخوة، أنت حينما توقن أنك مخلوق للجنة من خلال هذه الآية:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

اليسرى هي الجنة.

أيها الأخوة، ينبغي أن تنطلق في أصل عقيدتك من أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض، وما الحياة الدنيا إلا تأهيل للجنة، ما الحياة الدنيا إلا مكان ندفع فيه ثمن الجنة، ما الحياة الدنيا إلا إعداد لدخول الجنة، فلذلك حسن الظن بالله ثمن دخول الجنة، هناك كلمات يقولها عوام الناس، صدقوا ولا أبالغ هي الكفر بعينه، يقول: سبحان الله!

الله خلقنا للشقاء، من قال لك ذلك؟ خلقنا ليسعدنا، خلقنا لنعرفه.

لكن: تصور مدرسة من أعلى مستوى، بناءً، وأساساً، وأدوات، ومدرسين، إنما أُنشِئت كي تخرج قادة للأمة، لو أن أحد الطلاب قصر في واجباته، واستحق أن يؤدب كي يسير على الطريق الصحيح، قال هذا الطالب: هذه المدرسة أُنشِئت كي تعاقبنا، هذا هو الجهل بعينه.

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده في الدنيا و الآخرة :

قد يستحق الإنسان التأديب من الله، قد يستحق معالجة حقيقية، هادفة، فيتوهم أن الله خلقنا للعذاب، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا،

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

هؤلاء الكفار الذين كفروا، هؤلاء المشركون الذين أشركوا، هم مطلوبون لرحمة الله، مطلوبون لهدايته، مطلوبون كي يتعرفوا إليه، كل الخلق مطلوبون للهداية، والدليل: والحديث عن المشركين، والدليل الحديث عن براءة الله عز وجل :

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة التوبة]

والحديث عن انحراف هؤلاء، وعن كفر هؤلاء، وعن إشراك هؤلاء، وعن ضلال هؤلاء، وفي ضمن هذا الحديث:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

الله عز وجل خلق الإنسان لجنتين؛ جنة في الدنيا و جنة في الآخرة :

اِنفِ من كل تصوراتك أن الله خلقنا ليعذبنا، أو أن الله سبحانه وتعالى خلق للجنة أناساً، وخلق للنار أناساً، هذا شيء لا يقبله عاقل، خلقك وقدر عليك أن تعصيه فإذا نفذت إرادته وعصيته يجعلك في جهنم إلى أبد الآبدين؟ هذه رحمة الله؟! هو ينتظرك، ينتظر لفتة منك.

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أُهَرْوِلُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

هو ينتظرك، ورد في بعض الآثار:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمقبلين؟ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

ينبغي أن نعرف رحمة الله، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لجنتين، جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

ما خلقنا ليعذبنا، هذه حقيقة أساسية.

العقيدة أخطر شيء في حياة الإنسان :

أخواننا الكرام، إن صحت عقيدة المرء صحّ عمله، وإن فسدت عقيدة المرء انحرف سلوكه، ما من وهم نتوهمه، ما من تصرف نتصوره، إلا وله انعكاس في السلوك، فإذا كان التوهم منحرفاً، أو ظالماً، أو بعيداً عن الحقيقة، انعكس شقاء.

لذلك أقول لكم: أخطر شيء في حياتك عقيدتك، إن صحت صحّ سلوكك، وإن لم تصح انحرف السلوك، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكفار، وعن كفرهم، وعن المشركين وشركهم، وعن انحرافهم، ولكنه يفتح لهم باب التوبة على مصراعيه إلى يوم القيامة.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

ومن أبلغ مما قيل في هذا المعنى، قصة رمزية رواها النبي عليه الصلاة والسلام: رجل ركب ناقته، وعليها طعامه وشرابه، ليقطع بها الصحراء، أدركه التعب، فجلس ليستريح فأخذته سنة من النوم فأفاق فلم يجد الناقة، ما معنى إنسان بالصحراء لم يجد ناقته وعليها طعامه وشرابه؟ معنى ذلك أنه هالك لا محالة، ميت قطعاً، فأيقن بالهلاك، مشى ثم عاد إلى ما كان، أدركته من شدة البكاء سِنة من النوم، فأفاق فرأى الناقة، فاختل توازنه من شدة فرحه، قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي، يقول الله عز وجل برواية النبي الكريم: "لله أفرح بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته".

هذا موقف الله عز وجل، ينتظرنا، يفرح بتوبتنا، يفرح بعودتنا.

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

الشرط و النفي :

لذلك الله عز وجل في أثناء الحديث عن المشركين، وعن الكفار، وعن المنحرفين، في غمرة هذا الحديث يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة، إن حرف شرط، معنى الشرط أن حدثين لا يقع الثاني إلا إذا وقع الأول، هذا المعنى يستفاد من معنى إن الشرطية، إن تجتهد تنجح، النجاح لا يكون إلا بعد الاجتهاد، لذلك هذا الحرف يدخل على الأفعال

(وَإِنْ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

لكن هناك إن أخرى ليست شرطية، بل هي نافية:

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

[سورة المجادلة الآية: 2]

أي هنا ما،

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

فإما أن تأتي إن داخلة على الفعل وتفيد الشرط، وإما أن تأتي وبعدها اسم تفيد النفي، هذه حقيقة تفيد في علم النحو.

ولكن هنا في هذه الآية شيء جديد إن شرطية دخلت على الاسم،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

ماذا قال علماء النحو في هذه الصيغة القرآنية الجديدة؟ قال: لابد من أن نقدر فعلاً لهذا الفاعل،

(أَحَدٌ)

فاعل لفعل محذوف، يقدر مما سيأتي بعده، أي نقدر هذه الآية على الشكل التالي:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ)

أحد فاعل لفعل محذوف تقديره استجارك.

استجارة المجير من خصائص الأمة الإسلامية :

أيها الأخوة، الآية:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

مشرك، مقاتل، أحياناً مهدور دمه، فلمجرد أن يستجير بك ينبغي أن تجيره، لأن إجارته شهامة، والنبي الكريم يقول:

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام))

[أحمد عن أبي هريرة]

وفي حديث آخر يخاطب بعض أصحابه:

((أسلمت على ما أسلفتَ لك من خير))

[أخرجه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام]

وحينما قال:

((إنما بعثت معلماً))

[ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

في هذه الأحاديث الثلاث أن الأمة العربية في الجاهلية كانت على بعض القيم الأخلاقية، فقيمة الكرم، والشجاعة، والإجارة من قيم هذه الأمة حتى قبل الإسلام.

فلذلك استجارة المجير كانت من خصائص هذه الأمة.

على المؤمن أن يتأكد من صدق استجارة المستجير :

الآن قد تعرف من الاستجارة المستجير، وقد تعرف المستجير أولاً، ثم يستجير بك، إما أن نبدأ بالاستجارة، إنسان لا تراه، سمعت صوتاً يقول: أجرني، سمعت الاستجارة قبل أن ترى المستجير، وهناك حالة ثانية: رأيت الإنسان ثم استجار بك.

لذلك أيها الأخوة، الاستجارة قد تسبق المستجير، وقد يظهر المستجير ثم يستجير، ماذا نقصد بهذا التفصيل؟.

الآية الكريمة:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾

جاء المستجير قبل الإجارة إشارة إلى أن المؤمن كما وصف: كيس، فطن، حذر.

قد تكون الاستجارة خلبية، وقد تكون الاستجارة احتيالاً، وقد تكون الاستجارة مكراً، وقد تكون الاستجارة كسباً للوقت، فالمؤمن ينبغي أن تكون فطناً، وأن يتأكد من استجابة المستجير، وأنه مستجير حقاً، وليس من باب الاحتيال.

فلذلك الله عز وجل قدم شخص المستجير على استجارته، وما قال وإن استجارك أحد قال:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾

تأكد أنه مستجير حقاً، تأكد أنه بريء، تأكد أنه يطلب المعرفة، الاستجارة إما أن تبدأ بالعين عن طريق رؤية شخص المستجير، وإما أن تبدأ بالأذن عن طريق سماع الاستجارة، لذلك المؤمن يتأكد من صدق استجارة المستجير.

والكلمة التي قالها سيدنا عمر: لست بالخِبْ والخِبُ يخدعني، أي لست من الخبثُ بأن أخدع، ولا من السذاجة بأن أُخدع، لا أخدع، ولا أُخدع، شيء رائع جداً، المؤمن بسيط، طاهر، سليم النفس، متواضع، لكنه ليس بالغبي.

المؤمن بقدر ما تحبه تجلّه و تحترمه :

هناك كثير من القصص وأنت دائماً أيها الأخ الكريم لا تعجب بإنسان بسيط، ساذج، ولا تعجب بإنسان ذكي خبيث، هناك إنسان ذكي لكنه خبيث، وإنسان بسيط لكنه ساذج، لا يعجبك إنسان بقدر ما تحبه، بقدر ما تحترمه، لكن كما يقول الله دائماً: لله المثل الأعلى:

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

[سورة الرحمن]

بقدر ما تحبه لأنه كريم، بقدر ما تجلّه لأنه عظيم، والمؤمن يتخلق بهذا الخلق، ليس من السذاجة بحيث يحتال الناس عليه، المؤمن: كيس، فطن، حذر، وليس من اللؤم بحيث يقسو على الناس، بقدر ما تحبه تجلّه، بقدر ما تحبه تحترمه، هذا الموقف يحتاجه الأب، هناك أب علاقته مع أولاده علاقة بسيطة، أولاده يكذبون عليه كل يوم، ويصدق كذبهم، وفي جلستهم مع بعضهم بعضاً يسخرون من أبيهم، وهناك أب آخر قاس جداً يرعبهم دائماً، فالأول ليس أباً كاملاً، والثاني كذلك، الأب الكامل الذي يحبه أولاده وفي الوقت نفسه يجلونه، أو بقدر ما يحبونه يجلونه، هذا الموقف رائع جداً، الأنبياء يعبدون الله:

﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾

[سورة الأنبياء الآية: 90]

والمؤمن ينبغي أن تحترمه، وتجلّه، سيدنا عمر يقول: لست بالخَبْ، و لا الخَِبُ يخدعني، لست بالخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بأن أخدع، هذا الموقف الكامل.

فلذلك لو أن إنساناً استجار بك ينبغي أن تتأكد من استجارته، هل هو مستجير حقاً أم هو مخادع؟ هل يطلب المعرفة والأمان أم يطلب المكر والعدوان؟ وفي بعض الأحيان تكون الاستجارة كسباً للوقت ليس غير.

وكما قلنا قبل قليل: المؤمن كيس، فطن، حذر.

المغزى من القصة الرمزية التالية :

أنا أذكر قصة رمزية وردت في كتب الأدب، أن صيادين مرا بغدير، فيه سمكات ثلاثة، كيسة ـ أي عاقلة ـ وأكيس منها، وعاجزة ـ غبية ـ فرأى الصيادان السمكات الثلاثة، كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما ـ القصة رمزيةـ أما أكيسهن، فإنها ارتابت وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم إنها لم تعرج ـ أي لم تفعل شيئاً ـ حتى خرجت من مكان يتصل به الغدير بالنهر، خرجت من هذا المكان فسلمت، ماذا قالت؟ العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، هذه أكيس السمكات أي أعقلهن، أما الأقل عقلاً ، الأقل كياسة فمكثت في مكانها حتى عاد الصيادان، عندها خطة جاهزة، فدخلت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُدّ، فقالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، ثم إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، وقعت في مشكلة، قصرت فوقعت في مشكلة، أما الأولى أكيس السمكات، وهي مرتاحة، في وقت مبكر، قبل أن يرجع الصيادان خرجت من هذا المكان فنجت، الثانية أقل عقلاً، وقعت في مشكلة، لكنها لم تعدم الحيلة، قالت: لكن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت ـ تصنعت الموت ـ فطفت تارةً على ظهرها، وتارةً على بطنها، فظن الصيادان أنها ماتت، فأخذها أحدهما ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، لكن بعد أن أحرقت أعصابها، الأقل ذكاء يتحمل أعباء كبيرة جداً، يقصر لكنه يرسم خطة فينجح بعد أن يكون قد أتلف أعصابه.

وأما العاجزة الثالثة فلم تزل في إدبار وإقبال حتى صيدت، لا يوجد عقل أبداً، كيسة، وأكيس منها، وعاجزة، الكيس، أكيس الناس يحتاط للأمور قبل وقوعها، والأقل يحتاط أثناء وقوعها، والعاجز لا قبل وقوعها، ولا بعد وقوعها.

الآن هناك دول تخطط لعشرين سنة قادمة ، و دول تواجه مشكلة تخطط لها هذه أقل، و دول لا تخطط لا قبل المشكلة، ولا بعد المشكلة، دائماً محاطة بمشكلات، وأزمات.

بطولة الإنسان أن يستعد للموت بالاستقامة والتوبة والعمل الصالح :

فلذلك أيها الأخوة، هذا درس بليغ، النبي قال:

((الكيس من دان نفسه ـ ضبطها ـ وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه الحاكم عن شداد بن أوس]

والله سمعت عن إنسان كان عنده نادي قمار، وهو على فراش الموت، شعر بدنو الأجل، وبالخطأ الكبير الذي عاشه، طلب إنساناً من أهل العلم، لا أعرف من هو، ولا أقره على قوله، قال له: ماذا أفعل؟ معه ثمانمئة مليون، قال له: والله لو أنفقتها كلها لا تنجو من عذاب الله، متى انتبه؟ وهو على فراش الموت.

أخواننا الكرم، الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، فالبطولة أن تستعد للموت بالاستقامة، بالتوبة، بالعمل الصالح، بتربية الأولاد.

الاستجارة بداية الهداية :

على كلٍّ كأن الله عز وجل يبين أن فطنة المؤمن كفيلة بمعرفة حال المستجير، وكما قلت قبل قليل: الاستجارة من أخلاق العرب في الجاهلية، كانوا يجيرون المستجير، والاستجارة دليل قوة المؤمنين، دليل شهامتهم، وقد يقع الكافر في أثناء المعركة الطاحنة مع المؤمنين بشك في كفره بل يتطلع إلى الإيمان، لذلك يستجير، الاستجارة أحياناً بداية الهداية، أي وجد الإنسان نفسه في خطأ.

أذكر لكم قصة سريعة: نعيم بن مسعود، هذا كان زعيم قبيلة غطفان، وجاء لمحاربة النبي عليه الصلاة والسلام، في الخندق، وهو في خيمته، قلق في الليل، أنقل لكم حواره مع نفسه؛ نعيم بن مسعود، كان زعيم قبيلة غطفان، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، خاطب نفسه قال: يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لماذا أتيت؟ من أجل أن تقاتل هذا الرجل؟ ـ يقصد النبي الكريم ـ ماذا فعل حتى تقاتله؟ اغتصب مالاً؟ انتهك عرضاً؟ ماذا فعل؟ أين عقلك يا نعيم؟ أيليق بك أن تقاتل إنساناً رحيماً دعا إلى الله؟ لحظة تفكر صائبة، وقف في خيمته، وتوجه إلى معسكر المسلمين، ودخل إلى معسكرهم، وطلب النبي الكريم عليه أتمّ الصلاة والتسليم، ودخل عليه، فالنبي فوجئ به، قال له: نعيم! قال له: نعيم، قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً، فبكى النبي، قال: ائمرني بما تريد؟ قال له: أنت واحد خذل عنا، فهو تمّ إسلامه خفية، هو عند اليهود مازال مشركاً، وعند قريش لا يزال مشركاً، فااستطاع أن يحدث اليهود بحديث، وقريش بحديث، فاختلفوا، وطلبوا الرهائن، وصدقوا نصيحة نعيم، وانفضوا عن رسول

الله، وانتهت هذه المعركة بجهد هذا الإنسان.

لحظة تفكير، قل لنفسك، لماذا أنت في الدنيا؟ ماذا بعد أن تكون غنياً؟ ماذا بعد المال؟ الموت، ماذا بعد أن تكون قوياً؟ الموت، ماذا بعد أن تستمتع بكل مباهج الدنيا؟ الموت، ما دام الموت نهاية كل حي ماذا أعددت للموت؟.

المستجير إذا آمن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم :

الآن ينبغي أن نستمع إلى المستجير، نطلب المعرفة، يجب أن نحدثه، فإذا آمن فهو واحد منا، نقطة دقيقة جداً، المستجير إذا آمن له ما لنا، وعليه ما علينا، عظمة هذا الدين أن أعدى أعداء الدين لمجرد أن يشهد أن لا إله إلا الله أصبح واحداً من المؤمنين، له كل ميزاتهم، وعليه كل ما عليهم، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((المسلمون تتكافأُ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم))

[أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

من ارتقى إيمانه لا يحقد على الكافر بل يشفق عليه :

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ)

والآن لا تكره الطرف الآخر، هو لا يعلم دينك، بلغه هذه الرسالة، بأدب، بلطف، بمودة، بتوضيح، بأدلة، النبي الكريم يحب كل البشر، ويقول:

((لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيْتمْ كثيراً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

أنت كمؤمن لا تكره شخص الكافر، لكن تكره كفره فقط، تكره عمله، فإذا أصغى إليك ينبغي أن تحدثه عن دينك، ينبغي أن تقدم دينك لكل من حولك، أن تقدمه واضحاً، أن تقدمه بالأدلة، أن تقدمه بالبراهين.

فيا أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)

بيّن له، وضح له، بيّن له عظمة الكون، عظمة خالقه، بيّن له هذا المنهج القويم.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)

هو الآن حر، إن آمن فهو واحد منا، له ما لنا، وعليه ما علينا، وإن لم يؤمن يجب أن توصله إلى مأمنه سالماً، ما هذا الدين؟ مشرك، مقاتل، عدو، كافر يقول لك: أجرني، ينبغي أن تجيره، وأن تسمعه كلام

الله، وأن توصله إلى مأمنه، هذا الإسلام.

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

أنت كطبيب، كطبيب أمراض جلدية إذا جاء مريض بمرض جلدي مخيف، هل تحقد عليه؟ أبداً ، تشفق عليه.

كلما ارتقى إيمانك لا تحقد على الكافر، لكن تشفق عليه، وفرق كبير بين أن تحقد عليه، وبين أن تشفق عليه، إنسان ضلّ الطريق، أخطأ خطأً كبيراً، سار في طريق الشقاء ينبغي أن تشفق عليه .

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يبكي على خصومه، يبكي على الكفار، الله عز وجل سلاه فقال:

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه]

كان يبكي على أعدائه رحمة بهم، وكلما ارتقى مقامك عند الله، يمتلئ قلبك حزناً لحال الناس من حولك، في ضياع، لا تحقد، ارفق بهم، أشفق عليهم، ضلوا سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (10-70):تفسير الآية 7 ، الإيمان هو خلقٌ حسن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-05-14

بسم الله الرحمن الرحيم

التلازم الحتمي بين التدين الصحيح والخلق القويم :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء: إن هناك تلازماً ضرورياً حتمياً بين التدين الصحيح والخلق القويم، فقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم الغاية الأولى من بعثته، والمنهج الأول لدعوته، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

النبي عليه الصلاة والسلام ضغط دعوته كلها بالأخلاق.

قضية الأخلاق تحتل مركز الصدارة في هذا الدين :

النبي صلى الله عليه وسلم له آلاف الخصائص، فلما أراد الله أن يمدحه بماذا مدحه؟ بالخلق القويم:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

إذاً: قضية الأخلاق تحتل مركز الصدارة في هذا الدين:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

ابن عباس رضي الله عنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً كئيباً، فقال له: ما لي أراك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، فقال ابن عباس: لمن؟ قال له: لفلان، فقال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، فخرج ابن عباس من معتكفه، قال له إنسان: يا بن عباس أنسيت أنك

معتكف؟ قال: لا والله! ولكني سمعت صاحب هذا القبر ـ وأشار إلى النبي الكريم ـ والعهد به قريب، وبكى يقول:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجده هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجده هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

إذاً أكبر حيز، وأكبر مساحة في هذا الدين، مساحة الخلق.

الإنسان موقف أخلاقي :

لذلك:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

وكلمة لأتمم فيها ملمح دقيق جداً، ذلك لأن العرب قبل الإسلام كانوا على بعض القيم الأخلاقية، كانت عندهم الشجاعة، والبذل، والتضحية.

بعضهم يركب فرساً، رأى رجلاً في أيام الحر الشديدة ينتعل رمال الصحراء، دعاه لركوب الخيل، فلما اعتلى ظهر الخيل وراءه، دفع صاحبها على الأرض، وعدا بالخيل لا يلوي بها على شيء، قال له صاحب الخيل: يا هذا! لقد وهبت لك هذا الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتفقد الصحراء أجمل ما فيها، المروءة.

والله أيها الأخوة، هناك قصص بتاريخنا الإسلامي تبدو متألقة لمئات السنين، الإنسان في النهاية موقف أخلاقي، لذلك:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

الإنسان على أحد طريقين إما أن يستجيب لله ولرسوله أو أنه على طريق الهوى :

الشواهد:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

انظر إلى الربط، الربط بين التدين الصحيح والخلق القويم، وبين التكذيب بالدين والإساءة إلى اليتيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)

هو هو

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: 50]

أي أنت على أحد طريقين، إما أن تستجيب لله ولرسوله، أو أنك على طريق الهوى، وليس هناك طريق أخرى، إما أن تستجيب لله ولرسوله، أو أنك تتبع الهوى،

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

هذا قرآن.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

((لا إيمان لمن لا أمانة له))

نفى عنه الإيمان كلياً لمن لا أمانة له.

((ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن أنس بن مالك]

إذا كان هناك مؤشر يتحرك بحسب مرتبة الإيمان، و مؤشر آخر يتحرك بحسب القيم الأخلاقية، العقربان يتحركان معاً، فأنت أخلاقي بقدر ما أنت مؤمن، وأنت مؤمن بقدر ما أنت أخلاقي، لذلك الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك بالخلق، زد عليك بالإيمان، لأن الآية اليوم:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

ما دام قد أشرك، ما دام قد ابتعد عن الله، أنى لهذا الإنسان أن يفي بوعده؟ أنى له؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

الإيمان أساس الفضائل ولجام الرذائل :

أيها الأخوة، وهناك حديث صحيح آخر :

((الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))

[الحاكم عن عبد الله بن عمر]

لذلك قيل: الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وصدق ولا أبالغ وأدعوك إلى أن تصدق أنه لا خلق إلا من خلال الدين، وقد يقول أحدكم: ما بال بعض الناس الذين لا دين لهم يتخلقون بأخلاق رائعة؟ هذه أخلاق الأذكياء، العمل العبادي الرائع يلتقي مع العمل الذكي في النتائج، ويختلف عنه في البواعث، مثال:

إنسان ذكي جداً، ومثقف ثقافة عالية جداً، سلمناه إدارة مشروع، وراقبناه، قد نفاجأ أنه مستقيم، وقد نفاجأ أنه حكيم، وقد نفاجأ أنه عادل، فإذا جاء إنسان مؤمن، مؤمن إيماناً كبيراً وسلمناه، هناك مفاجأة مؤلمة، أيضاً الثاني جيد، الأول جيد، والثاني جيد، الأول أخلاقه أخلاق الأذكياء، يقطفون ثمارها في الدنيا فقط:

(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة الآية: 102]

وأنا والله أتصور أن كل الإيجابيات في الغرب إسلامية، لأنهم يعبدون المال من دون الله، تقتضي مصلحتهم أن يكونوا أخلاقيين، صادقين، متقنين، لكن إذا هُددت مصالحهم ينقلبون إلى وحوش.

خلاص العالم في الإسلام بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم وتطبيقه :

أقول لكم بكل دقة: إن صحّ أن هناك سطحاً للمبادئ والقيم في الأرض، الأرض ستة آلاف مليون، مختلف الأديان، والاتجاهات، والمعتقدات، والطروحات التي جمعنا عقائدها، ما الذي كان على سطح هذا المكتب؟ الإسلام، الغرب، الشرق، الشرق سابقاً آمن بالمجموع ولم يعبأ بالفرد، والغرب آمن بالفرد ولم يعبأ بالمجموع، ملخص الملخص والإسلام دين الله، ما الذي حصل؟ أن الشرق تداعى من الداخل، ماذا بقي على هذا السطح؟ الغرب والإسلام، أليس كذلك؟ الغرب غني جداً، وذكي جداً، وقوي جداً، وطرح قيماً رائعة جداً، طرح قيمة الحرية، وطرح قيمة حقوق الإنسان، وطرح تكافؤ الفرص، وطرح حق التقاضي، وطرح، وطرح، هذه القيم الغربية، هذه القيم مع قوته، وغناه، وذكائه جذبت أبصار أهل الأرض، فصار الذي معه بطاقة خضراء يدخل بها إلى بلاد بعيدة كأنه دخل إلى الجنة.

مرة كنت بالعمرة، فراكب بسيارة، قال إنسان للآخر: الله يطعمها لكل مشتهٍ، هذه عوض مكة أصبحت أمريكا.

فالغرب خطف أبصار أهل الأرض، بلاد جميلة، قوة، ذكاء، علم، حرية، ديمقراطية، حقوق الإنسان، حقوق الحيوان، ما الذي حدث بعد الحادي عشر من أيلول؟ كان الغرب حضارة ساحقة فأصبح قوة غاشمة، أليس كذلك؟ والله الذي لا إله إلا هو كان قلة قليلة جداً من كبار المثقفين يعرفون حقيقة الغرب، أما الآن والله أطفالنا يعرفون ذلك، الذي جرى في هذه البلاد الإسلامية التي احتلت من قبلهم، الجرائم، القتل العشوائي، التدمير، هذا هو الغرب، فالغرب بعد الحادي عشر من أيلول كان حضارة ساحقة فأصبح قوة غاشمة، ما الذي بقي على هذا السطح؟ الإسلام وحده.

لذلك قال أحد أكبر علماء الغرب وهو مقيم في أمريكا: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب، على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام، لكن بشرط، وهذا الشرط هو ورقة العمل بين أيدينا، أن يحسن المسلمون فهم دينهم، أن يحسنوا تطبيقه، أن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

الخط البياني للإسلام في صعود والعالم كله يتطلع إلى الإسلام :

لذلك أيها الأخوة، مثلاً انهيار النظام العالمي المالي العملاق، جرعة منعشة من الله عز وجل ليبين لنا أن الحق ما جاء به هذا الدين.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 276]

مئات البنوك أعلنت إفلاسها،

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

انتصار عشرة آلاف مقاتل في غزة على الجيش الرابع في العالم، على الجيش الأول في المنطقة، على الجيش الأول في الأسلحة، لاثنين و عشرين يوماً لم يستطع أن يحقق شيئاً، جرعة منعشة ثانية. أخواننا الكرام، الله عز وجل رحمة بنا يبدو أن تتالي النكبات أدخلتنا في نفق اليأس، والإحباط، والطريق المسدود، فشاءت حكمة الله أن ينعشنا بهذه الجرعات المنعشة، لذلك الخط البياني للإسلام في صعود، والعالم كله يتطلع إلى الإسلام.

أنا حضرت مؤتمراً إسلامياً في باريس، عدد الحاضرين مئة وخمسون ألفاً، وكأنك في مدينة إسلامية، والنساء كلهن محجبات، الآن الدين يأخذ أعلى مرتبة، وعلى الإسلام حرب عالمية ثالثة معلنة، كانت

غير معلنة، الآن معلنة، حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، ومع ذلك الدين الأول الذي ينمو في العالم هو الإسلام، يدخل في الإسلام كل يوم خمسون إنساناً فرنسياً، في أمريكا يدخل كل يوم في الإسلام ثلاثة وثلاثون إنساناً، الإسلام ينمو، وكأن هذا الدين أراد الله جلّ جلاله أن يجعله في أعلى درجة، والعالم كله الآن يتطلع إلى الإسلام، الآن هناك دراسات بأعلى مستوى في الجامعة من أجل أن يحل المصرف الإسلامي في التراب الأوربي محل المصارف الربوية، سبحان الله! أي شيء يقع لصالح هذا الدين، أي شيء يقع يؤكد أحقية هذا الدين.

سلوك الإنسان يدل عليه :

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بينَّ في أحاديثه الصحيحة لأن الآية:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

كيف: تعجبية، إنسان أميّ مثلاً كيف يؤلف كتاباً وهو لا يقرأ ولا يكتب؟ هناك حالة تعجب،

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

((الحياء والإيمان قرنا جميعاً))

[صحيح عن ابن عمر]

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

هناك آية دقيقة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

[سورة العلق]

أين التتمة؟ مضمرة، أي هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى دعك من أفكاره، انظر إلى سلوكه، يكذب، يحتال، يبالغ في الكبر،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

[سورة العلق]

من كلام المؤمن، ومن كلام غير المؤمن، انظر إلى السلوك، هذا صادق، هذا كاذب، هذا أمين، هذا ليس أميناً، هذا متواضع، هذا متكبر، شيء واضح تماماً.

فلذلك أيها الأخوة، هناك أحاديث صحيحة دقيقة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن جابر بن سمرة]

((إن أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً))

[أخرجه البزار عن أنس بن مالك]

((من أحب الناس إلى الله يا رسول الله؟ فقال: أحب الناس إلى الله أحسنهم خلقاً))

[أخرجه الطبراني عن أسامة بن شريك]

أصبحوا ثلاثة، وإن من أقرب المؤمنين مجلساً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أحسنهم خلقاً:

((ما خير ما أعطي الناس؟ قال: خلق حسن))

[أخرجه الحاكم عن أسامة بن شريك]

((إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ))

[أخرجه أبو داود عن عائشة أم المؤمنين]

((إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

كلها أحاديث في أعلى مستوى من الصحة.

((الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

أعظم المسلمين قرباً من رسول الله من ضاقت المسافة بين سلوكهم ومبادئ هذا الدين :

تحتل القيم الأخلاقية في هذا الدين أكبر مساحة، وملخص الملخص: الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الحلق زاد عليك في الإيمان، ويكفي أن الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه مئات الخصائص التي ينفرد بها، فلما أراد أن يثني عليه أثنى على خلقه العظيم،

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الأخوة، أقول لكم: إن أعظم المسلمين قرباً من رسول الله أولئك الذين ضاقت المسافة بين سلوكهم وبين مبادئ هذا الدين، لا تقيّم نفسك بمعلوماتك، لا تقيّم نفسك بحفظك، لا تقيّم نفسك بخصائصك، بمكتبتك، قيّم نفسك باستقامتك، وبأخلاقك، هذا المقياس الأول، وقد أكده الله عز وجل للنبي الكريم، بل إن ابن القيم رحمه الله يقول : الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان .

المؤمن ينتظر وعد الله ولا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل :

أيها الأخوة، إن الذين نكنّ لهم عظيم الاحترام، ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المال، وليسوا أولئك الذين يملكون الدهاء والمكر، وليسوا أولئك الذين يملكون القوة الجسدية الخارقة، وليسوا أولئك

الذين يملكون الرقاب، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، إنما أولئك الذين يملكون الخلق الكريم، ويترفعون عن سفاسف الأمور، أولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، أولئك الذين يملكون قوة الانتظار، من هو المؤمن؟ ينتظر فرج الله، منضبط، متماسك، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، ينتظر وعد الله.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية: 61]

أولئك الذين يملكون التضحية بالعاجل في سبيل الآجل، أولئك الذين يملكون الإيثار مع مسيس الحاجة، أولئك الذين يملكون القلوب هؤلاء نكنّ لهم عظيم الاحترام.

طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي :

أيها الأخوة، إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي.

مرة كنت في لقاء حضره كبار الصناعيين، قال أحدهم كلمة رائعة، قال: حتى في العمل الصناعي، وحتى في العمل التجاري، الأخلاق عماد هذه الأعمال، الشركات العملاقة فيها مبادئ أخلاقية، بالتعامل مع المشتري، مع الموظفين، إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع أخلاقي أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً، تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة، والنبل، والتضحية، وليس من التفوق في الحروب، أو العلوم، أو العمران.

في بدر الرواحل ثلاثمئة، والصحابة ألف، فسيد الخلق وحبيب الحق أعطى أمراً، هو قائد الجيش، وزعيم الأمة، قال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، سوى نفسه مع أقل جندي، ركب الناقة، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً فقال: "ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر"، خُلق، رئيس دولة، زعيم أمة.

مرة في سفر، أرادوا أن يذبحوا شاةً، قال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، قال: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال: لا، أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه، هذا هو النبي الكريم.

دخل أعرابي إلى مجلسه، تأمل، قال: أيكم محمد؟ ليس له كرسي؟ ليس له ثياب خاصة؟ الآن بعض رجال الدين منظره صارخ من ألف متر، من ألف متر معروف أنه رجل دين، أيكم محمد؟ هناك روايتان، الأولى قال له: أنا، والثانية قال له صحابي: ذلك الوضيء، معنى هذا أنه كان جالساً بين أصحابه، ليس له أي ميزة، لذلك من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه.

لذلك أيها الأخوة، الجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة، والنبل، والتضحية، وليس من التفوق في الحروب، أو العلوم، أو العمران.

مصير الإنسان يتوقف على أمرين؛ علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان :

أيها الأخوة، الآية الكريمة موضوع هذا الدرس:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)

هناك تناقض بين أن تكون مؤمناً وبين أن تكون لا أخلاقياً، أو أن تكون لا أخلاقياً وأن تكون مؤمناً، التناسب أن القيم الأخلاقية الأصيلة من صفات المؤمنين، لكن من عامل الناس بذكائه هذا يكسب الدنيا، كما هو الحال عند الغرب، الغرب تفوقوا، لأنهم في الحقيقة بذكائهم طبقوا منهج الإسلام دون أن يشعروا، فقطفوا ثماره في الدنيا، أما المؤمن يقطف ثمار أخلاقه في الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة، دراسة الحضارات الإنسانية توقفنا على حقيقة كبرى، هذه الحقيقة أن مصير الإنسان يتوقف دائماً على أمرين، على علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، والبعد الروحي والأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين، وحينما ينحط الإنسان ينحط المجتمع، ويتحول عن عبادة ربه إلى عبادته لذاته ولشهواته، وتَسْوَد علاقته بالآخرين، تسود هذه العلاقة بالرغبة في القوة لا في الرحمة، علاقة الناس فيما بينهم القوي يأكل الضعيف، والغني يبتلع الفقير، والقمع مكان التفاهم، والعناية بالجسد لا بالروح، والاهتمام بالمصلحة لا بالمبدأ، في مثل هذه المجتمعات المنحرفة يتحول المجتمع كله إلى غابة، يشعر كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أن من الممكن أن يكون فريسة لواحد منهم، هذا مجتمع الغاب، نعوذ بالله من مجتمع الغاب.

العودة إلى الدين الطريق الوحيد السالك إلى الله :

لذلك أيها الأخوة، الطريق الوحيد السالك إلى الله أن نعود إلى هذا الدين.

((إذا رجع العبد إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

هذا منهج مع الطرف الآخر،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

يجب أن تكون العلاقة بين المؤمنين وبين غير المؤمنين تحكمها هذه الآية،

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

وهذا منهج لنا جميعاً، أنت في دائرة، في شركة، في عمل، في حي، لك جار غير مسلم، أو غير مؤمن، فما استقام لك، ينبغي أن تستقيم له، هذا منهجنا في هذا الدرس

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (11-70):تفسير الآيات 8 - 10 ، العنصرية في زمن التظلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-05-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

نقض العهود سمة أساسية في سلوك الكفار والمشركين :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الآية السابقة التي كانت موضوع الدرس الماضي:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

أولاً كيف: أداة استفهام وتعجب، في الآية السابقة:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

الحديث في الآية السابقة عن نقض المشركين لعهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن الآية التي تليها:

(كَيْفَ)

لم يذكر الله عز وجل نقض العهود، يبدو أن نقض العهود سمة أساسية في سلوك الكفار والمشركين.

لا بد من أبين لكم أن هناك تقسيمات لأهل الأرض والله لا تعد ولا تحصى، وكل هذه التقسيمات ما اعترف بها القرآن، يقول لك: العرق الآري، العرق الأنغلو سكسوني، العرق السامي، دول الشمال، دول الجنوب، الملونون، الدول الصناعية، الدول المستغِلة، الدول المستغَلة، الشعوب النامية، الشعوب المتقدمة، أي تقسيمات أهل الأرض لا تعد ولا تحصى.

أهل الأرض في القرآن الكريم لا يزيدون عن نموذجين فقط لا ثالث لهما :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

ولكن دققوا وصدقوا أن الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم أنزلهم جميعاً في حقلين، أهل الأرض على اختلاف مللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، على اختلاف كل تقسيمات أهل الأرض، أهل الأرض في القرآن الكريم لا يزيدون عن نموذجين فقط، لا ثالث لهما، هذا التقسيم في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

النموذج الأول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

عقيدياً صدق أن الله خلق بني آدم لجنة عرضها السماوات والأرض، هذه العقيدة، أنت كإنسان مخلوق للجنة، مخلوق لسعادة الأبد، وجاء الله بك إلى الدنيا كي تدفع ثمن الجنة، جاء الله بك إلى حياة دنيا، فيها صلاة، فيها صوم، فيها حج، فيها صدق، فيها أمانة، فيها تواضع، فيها بذل، فيها عطاء، جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تدفع ثمن الجنة، من أجل أن تُهيأ للجنة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

السمة العقدية، البارزة، الأساسية في حياة المؤمن أنه مخلوق للجنة، لذلك من لوازم هذا الاعتقاد أن يبتعد عن معصية الله، اتقى أن يعصيه، اتقى أن يغضبه، اتقى أن يخرج عن منهجه، اتقى أن يكذب، اتقى أن يخون، اتقى أن يؤذي عباد الله، صدق بالحسنى، واتقى، وبنى حياته على العطاء.

الفرق الصارخ بين المؤمن و غير المؤمن :

أخواننا الكرام، الفرق الكبير الصارخ النموذجي، يكاد يكون الأوحد بين المؤمن وبين غير المؤمن أن غير المؤمن يسعده أن يأخذ كل شيء، بينما المؤمن يسعده أن يعطي، اسأل نفسك هذا السؤال المحرج، ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إذا كان حقاً يسعدك أن تعطي فأنت مؤمن ورب الكعبة. لأنه قُدم كتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف قدمه بهذه الطريقة، قال: "يا من جئت الحياة، فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت

الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

المؤمن يسعده أن يعطي، ولأنه موقن أنه خلق للجنة فالعطاء الذي يقدمه ثمن الجنة.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

ينفق من علمه، من خبرته، من مكانته، من جاهه، من ماله، ينفق كل شيء، موقفه الأساسي هو العطاء، هذا الصنف الأول،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

عقيدياً صدق أنه مخلوق للجنة، السلوك السلبي اتقى أن يعصي الله، امتناع، لم يكذب، لم يخون، لم يزن، لم يسرق، لم يغتب، السلوك الإيجابي العطاء، من ماله، من وقته، من جهده، من خبرته، لا تنسَ هذا المقياس، ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إن كان الذي يسعدك أن تعطي فأنت مؤمن ورب الكعبة، أما إذا كان يسعدك أن تأخذ وألا تعطي فهذه صفة من شرد عن الله، أما إذا كنت تعطي وتأخذ، فلابأس، تعطي وتأخذ، هذا الصنف الأول.

المؤمن يسعده أن يعطي لأنه موقن أنه خلق للجنة :

الرد الإلهي:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

الله عز وجل يتولاك، يسيرك إلى الجنة، إلى جنة عرضها السماوات والأرض، يتولى تربيتك، يتابعك، يقدم لك كل شيء، يزيدك إيماناً، آمنت بالله فزادك إيماناً، هذه العقيدة، والسلوك السلبي الاستقامة، الامتناع، السلوك الإيجابي العطاء، هذا كلام جامع مانع، هؤلاء هم المؤمنون آمنوا بالجنة، واتقوا أن يعصوا ربهم، و بنوا حياتهم على العطاء، الرد الإلهي، الجواب الإلهي، الجزاء الإلهي:

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

ييسر لك عملاً شريفاً، وزوجة طاهرة، وأولاداً أبراراً.

2 - و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة :

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل الآية: 8]

بنى حياته على الأخذ، بخل واستغنى عن طاعة الله، لم يستقم.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

بالجنة، قال: الدنيا هي الجنة، الغني هو في جنة، المال هو كل شيء، اللذائذ هي كل شيء، المتع هي كل شيء،

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

عكس الأول، عقيدياً آمن بالدنيا، وكذب بالآخرة، السلوك السلبي لم يمتنع، بل أكل المال الحرام، واعتدى على أعراض الناس، وتطاول، واستكبر، وأخذ ما ليس له، وأما السلوك الإيجابي أخذ ولم يعطِ، بنى مجده على أنقاض الناس، بنى عزه على ذلهم، بنى غناه على فقرهم، بنى قوته على ضعفهم، بنى كبرياءه على إذلالهم، هذا شأن الكافر، شأن المشرك، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

لشقاء الدنيا، وعذاب الآخرة، هاتان الآيتان فيهما تقسيم دقيق لأهل الأرض، والله الذي لا إله إلا هو أتمنى ألا تعتمدوا تقسيماً آخر، في القرآن الكريم البشر على هاتين الزمرتين.

الحكمة من تقوية المؤمنين تارة و الكفار تارة أخرى :

لذلك:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ)

((لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

كيف؟ الآن هذا كلام الخبير، كلام خالق السماوات والأرض، هذا كلام رب العالمين.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

أي يتمكنوا منكم، الله عز وجل يقول:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

كان من الممكن أن يجعل الله المؤمنين أقوياء إلى أبد الآبدين، عندئذٍ يظهر النفاق في الأرض من أجل المصالح، وكان من الممكن أن يكون الكفار هم الأقوياء، كالحال اليوم، وعندئذٍ يضعف الإيمان، لكن شاءت حكمة الله أن يقول هذه الآية:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

مرة يكون المؤمنون أقوياء، ومرة كما هي الحال اليوم المؤمنون ضعفاء، هذه حكمة الله عز وجل،

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

أن يتمكنوا منكم، أن يملكوا القوة،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

يتابعون، يدرسون، يتقصون أي خطأ من المؤمنين، أي تجاوز، أي تقصير، يُكبر، ويُشهر،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

يتمكنوا منكم، يكونوا أقوياء عليكم،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

لك أن تقول: نظرتُ، اطلعتُ، رأيتُ، حدجتُ، لمحتُ، أما أرقبكم؟ أتابع حركة كل واحد منكم، أعلى درجة من التدقيق المراقبة، كمراقب الامتحان، وجد يده في جيبه، هناك مشكلة، وجد معه ورقة ثانية، هناك مشكلة، يرقبوكم، يتابعوا كل حركاتكم وسكناتكم.

بناء الطرف الآخر مجده على أنقاض الشعوب :

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

الإل هو اللمعان، الضياء الشديد للعين، الإل هو الصوت العالي للأذن، حينما يرقبوكم

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً)

لا صوت ينهاهم عن العدوان عليكم، ولا وميض، ولا كلام ينهاهم عن العدوان عليكم، ولا أي عامل آخر.

مثلاً: رجل قوي يضرب طفلاً صغيراً، نقول له: صغير! يضربه، أنت كبير! يضربه ابن أخيك! يضربه، جارك! يضربه، ماذا فعل؟ يضربه، لا يرتدع لا بمبادئ، ولا بقيم، ولا بموقف إنساني، ولا بموقف وطني، يريد أن يأخذ كل شيء، يريد أن يبني مجده على أنقاض الناس.

لذلك هؤلاء الذين استقطبوا الأرض في بعض البلاد قتلوا ثلاثمئة مليون إفريقي، بلاد الحرية، التي تدعي الحرية بتاريخها، تاريخها وصمة عار، قتلوا ثلاثمئة مليون زنجي، استقدموهم من إفريقيا وقتلوهم حينما عصوا أمرهم، لو قرأت التاريخ الحديث لوجدت شيئاً لا يحتمل.

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

ومضة واحدة: مسؤول كبير جداً من دولة عظمى زار المنطقة، ببرنامج زيارته أربع بنود: دمشق، تل أبيب، رام الله، زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي الوحيد، وأحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير لنا عندهم، لم يخطر في باله أن يختار أسرة واحدة ليزورها، لا يوجد عهد، ولا منطق، و لا شعور إنساني، هؤلاء الأسرى بشر، لهم آباء، لهم أمهات، تشعر كأن المسلم لا شيء، ليس له حق أبداً، يموت إنسان تقوم الدنيا ولا تقعد.

مثل آخر: فتاة بأمريكا بنيويورك ارتدت ثياب السحاقيات، والسحاق محرم في كل الشرائع السماوية، بل وفي القوانين الأرضية، أي شذوذ، يبدو أن مدير المدرسة على بقية مروءة فطردها، أقام والدها دعوى على إدارة المدرسة فحكم له القاضي بمبلغ كبير، تعليل الحكم قال: لأنه اعتدى على حرية هذه الفتاة ، ما هذه الحرية؟!.

فتاة في باريس، تضع على رأسها خرقة، تقوم أوربا ولا تقعد، الحجاب محرم، تقوم أوربا ولا تقعد، ماذا فعلت؟ لأنها وضعت قطعة قماش على رأسها؟ أيها الغرب، ألا تؤمنون بالحرية؟ ماذا فعلت؟ إنها تنتمي إلى دين يدين به ربع سكان الأرض؟ دين كله حشمة، وكله أدب وعفاف، أوربا بأكملها تقوم لأن فتاة صغيرة وضعت على رأسها قطعة قماش، أما التي ارتدت ثياب السحاقيات عندما طُردت من المدرسة أقام أبوها دعوى، فحكمت لها المحكمة بمبلغ كبير، لأن المدير اعتدى على حريتها، أرأيتم المكيالين؟ يكيلون بألف مكيال ومكيال.

الكفر بالطاغوت أساس الإيمان بالله عز وجل :

لذلك:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً)

الإل اللمعان، الصوت العالي، العهد، الإل القرابة، الحوار، الجوار، التحالف والحلفان، اليمين والقسم، كل شيء يدعو إلى الرحمة هو الإل،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

لذلك صدقوا لا يمكن أن نؤمن بالله إلا إذا كفرنا بالطاغوت، قال تعالى:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة الآية: 256]

بلد صغير في الشرق الأوسط، عنده مئتا قنبلة نووية، لم يتكلم أحد في الأرض كلها بكلمة، بلد آخر إسلامي يجري مفاعل لقضايا سلمية العالم كله يقوم الآن، يقوم العالم كله ولا يقعد، لا يوجد مقياس واحد، لن نؤمن بالله إلا إذا كفرنا بالطاغوت، أنا آتي ببعض الأمثلة، هناك آلاف آلاف الأمثلة، يكيدون بمكيالين، طائرة سقطت فوق دولة عربية فدفعت هذه الدولة 270مليار، بواقع خمسمئة مليون ليرة سورية لكل راكب ، دية كل راكب، ويموت كل يوم بالمئات في بلاد مستعمرة من قبل الاستعمار الغربي وكله خطأ، لماذا ثمن المواطن الغربي إذا مات بحادث واتُهمت به دولة ندفع له خمسمئة مليون، وآلاف مؤلفة، مليون قتيل بالعراق، ومليون معاق، وخمسة ملايين مشرد، ولا كلمة، كله عادي، أرأيتم؟

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

على المسلم أن يعتز بدينه و بانتمائه لهذه الأمة :

ينبغي أن نعتز بهذا الدين، ينبغي أن نعتز بانتمائنا بهذه الأمة، هناك تخلف، وهناك مشكلات كثيرة، لكن لا يوجد جرائم،

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً)

الإل القرابة، والعهد، والجوار، واليمين، والقسم، والحلف، والتحالف، لا يأخذون بأي اعتبار، لا اعتبار إنساني، ولا أخلاقي، ولا وطني، ولا قومي، ولا ديني، أبداً.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

ليس عنا ببعيد حرب غزة، قضية إبادة مليون إنسان، والعالم كله متفرج.

عُقد مؤتمر بدول أوربا في مصر، هل تصدقون؟ من قُتل في غزة؟ أطفال ونساء فقط، بأرقى أنواع الأسلحة، هذه الأسلحة صُممت لتقابل جيوش كبيرة عملاقة، لا لتقابل بيتاً صغيراً فيه أطفال ونساء، فقتل ألف وخمسمائة طفل وامرأة في حرب غزة، أوربا نادت لمؤتمر في مصر، أنا تابعت المؤتمر، التوصية الوحيدة بهذا المؤتمر، محاولة منع تهريب السلاح للمقاومة، والألف والخمسمائة طفل وامرأة أليسوا بشراً؟ سلاح متطور جداً قتل الأطفال والنساء ولا كلمة، ولا حرف، دول أوربا عقدت مؤتمراً بمصر عقب حرب غزة، التوصية الوحيدة منع إيصال السلاح إلى المقاومة، لو أنهم استنكروا قتل الصغار لابأس، استنكار، تنديد، شجب، أبداً، ولا كلمة، كأن هؤلاء المسلمين لا قيمة لهم إطلاقاً، أنا لا أقول هذا الكلام إلا من أجل أن نعتز بالله، أن نعتز بديننا، أن نعتز بهذا التاريخ العظيم الذي أكرمنا الله

به.

مرة ثانية:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

العنصرية :

أي شيء يدعو إلى الرحمة لا يؤخذ به، هؤلاء لا يحترمون أي قيمة، أما هم يرحمون شعوبهم رحمة تفوق حدّ الخيال، إذاً ليسوا إنسانيين، بل هم عنصريون، اسمعوا هذا الكلام يا أخوان، هذا كلام عام ودقيق: لمجرد أن تتوهم أن لك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، فأنت عنصري، بدءاً من زوج يسخر من أم زوجته، فإذا تكلمت زوجته كلمة عن أمه أقام عليها الدنيا، عنصري، وحق الفيتو بمجلس الأمن عنصري، لماذا خمس دول إن قالت: لا توقف القرار؟ نحن نعيش عصراً عنصرياً، الطرف الآخر إذا تمكنوا من المؤمنين لا يراعون قرابة، ولا عهداً، ولا حلفاً، ولا يميناً، ولا جواراً، ولا أي شيء آخر.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ)

هذا كلام الخالق، كلام خالق البشر،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

الآن الذمة بينك وبين نفسك، أحياناً تقترض مبلغاً، ولا تكتب وصلاً، المُقرض توفي و المبلغ كبير، هذا المبلغ لا يوجد شاهد عليه، ولا إيصال، ولا سند، ولا إنسان شاهده، هذا المبلغ في ذمتك، عندك شيء ليس عليه دليل، إلا قناعتك أنت، هذه الذمة، لا الصراخ الخارجي، ولا التصريحات، ولا الرجاء، ولا الاستنكار، ولا التنديد، ولا القناعة الداخلية، أحياناً الإنسان يخجل أن يأمر بشيء وأن يخالفه في عمله، يخجل أن يأمر موظفاً عنده بشيء هو يخالفه كل يوم، لا يقبل اعتراضاً خارجياً، ولا رجاء خارجياً، ولا تنديد خارجياً، ولا يستجيب إلى ذاته التي تستنكر عليه هذا العمل.

على الإنسان أن يكون باطنه كظاهره و سره كعلانيته :

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ)

الحقيقة دائماً هناك أشخاص أذكياء جداً، له كلام أحلى من العسل، وله معاملة أقسى من الوحش، أحياناً تجد إنساناً في مجتمعات قمة في اللطف، والتهذيب، وفي البيت يكون وحشاً، هذا موجود بكثرة، البيت لا يوجد به رقابة، لا أحد يعترض عليه، لكن استقامتك الظاهرة خارج البيت مصالحة.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

قال:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

يقول: أزمة الشرق الأوسط، لا يوجد كلمة عدوان، اغتصاب فلسطين، لا، أزمة الشرق الأوسط، المصطلحات دقيقة جداً، يختارون مصطلحات حيادية، أزمة العدوان على فلسطين، جريمة اغتصاب الأرض، لا، أزمة الشرق الأوسط.

الربط بين الفسق و الانحراف الفكري :

أيها الأخوة، هذا درس بليغ جداً،

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

يجب أن نربط بين الفسق وبين الانحراف الفكري، هناك انحراف فكري معه فسق، وهناك فسق فيه انحراف فكري، والدليل:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة التوبة الآية: 8]

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة]

الخاسر من باع آخرته بعرض من الدنيا قليل :

أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً: أهل الدنيا الذين شردوا عن الله أخذوا من الدنيا شيئاً محدوداً جداً، وضيعوا الأبد، هم خاسرون أشد الخسارة،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ)

أي باعوا إيمانهم وكسبوا الدنيا، والدنيا محدودة.

((أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه أبو يعلى وابن حبان عن أبي هريرة]

بضع سنوات استمتع بالدنيا وضيع الآخرة، كأن إنساناً باع آخرته بعرض من الدنيا قليل، بل إن النبي الكريم بكلام بليغ قال:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

ائتِ بإبرة، واذهب إلى ساحل البحر، واركب قارباً، وأنزل هذه الإبرة في البحر، كم علق فيها من ماء؟ تشبيه بليغ، هذا الماء الذي علق بالإبرة هو أقل من نقطة، أقل من عشر النقطة، هذه الدنيا، والآخرة البحر.

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

هؤلاء ظلموا أنفسهم، باعوا آخرتهم بعرض من الدنيا قليل، لذلك:

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

أي باعوا دينهم بالدنيا، باعوا دينهم بالتفلت، باتباع بعض الشهوات، باعوا آخرتهم بسنوات محدودة،

(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا العمل سوف يسوؤهم كثيراً، كلام خالق الأكوان،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

[سورة التوبة]

الغبي من ضيّع آخرته بدنياه :

قد يقول أحدكم: المعنى تكرر، مرة:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

على أنفسهم، لما باعوا دينهم، وأساؤوا للمؤمنين، وبنوا مجدهم على أنقاض المؤمنين، ولم يعبؤوا لا بعهد، ولا بوعد، ولا بقيمة، ولا بحياء، ولا برحمة، لما باعوا آخرتهم بدنياهم، الآن اعتدوا على من؟ على أنفسهم،

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ)

عهداً، ميثاقاً، رحمةً، خجلاً، حياءً

(وَلَا ذِمَّةً)

ولا بدافع ذاتي، ولا بدافع خارجي، ولا بضغط خارجي، ولا بصراخ، ولا برجاء، ولا بتنديد، ولا بتأنيب، ولا يستجيبون لا بضغط خارجي، ولا بوازع إنساني،

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

هذه المرة على أنفسهم.

إنسان أمضى حياته بالمعاصي والآثام، هذه الأيام مضت، بقيت تبعات أعماله، إنسان آخر أمضى حياته بالطاعات، هذه الأيام الصعبة مضت بقي ثواب هذه الأعمال، شيء دقيق جداً الأعمال الصالحة، تنتهي أعباؤها وتبقى خيراتها، والأعمال السيئة تنتهي لذائذها وتبقى تبعاتها.

أحياناً إنسان يرتكب جريمة، يأخذ سرقة كبيرة، بعد القبض عليه انتهت حياته، لم يستفد من هذه الجريمة شيئاً، لذلك تعلمنا في الجامعة أن المجرمين يصنفون مع الأغبياء، المجرم غبي، ومن يتبع الدنيا أيضاً غبي آخر، ضيع آخرته بدنياه، هناك إنسان آخر أشد غباء، من هو؟ الذي يضيع آخرته بدنيا غيره، يعمل أعمالاً كلها منحرفة إرضاء لإنسان، ضيع آخرته، من المنتفع من هذا العمل؟ غيره. لذلك قالوا: الذنب شؤم على غير صاحبه، فكيف على صاحبه؟.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذه الأعمال سوف تسوؤهم

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

ومع كل هذه الجرائم، ومع كل هذه التجاوزات، ومع كل هذا الطغيان:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

[سورة التوبة]

هذه رحمة الله، هذه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (12-70):تفسير الآيتان 11-12 ، ثمرات الصلاة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-06-04

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتعاد المشركين عن رعاية حق القرابة والنسب والضعف :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

ما الذي سبق هذه الآية؟ قوله تعالى:

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

أي لا يرعون حق القرابة، ولا حق النسب، ولا حق الضعف، كل العوامل التي تراعى هم لا يراعونها،

(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

ثم يقول الله عز وجل:

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

[سورة التوبة]

الثانية موضوع آخر:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

[سورة التوبة]

على أنفسهم، لقد اعتدوا عليكم حينما لم يراعوا أي عنصر يخفف عداوتهم، واعتدوا على أنفسهم حينما فعلوا هذا الفعل الذي سيحاسبون عليه يوم القيامة.

لكل عمل نتيجة يوم القيامة :

لذلك الذي لا يؤمن يظلم نفسه، والذي يعتدي يظلم نفسه.

((الظلم ظلمات يوم القيامة))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله]

الحقيقة الدقيقة من خلال هذه الآيات أن لكل عمل نتيجة يوم القيامة، إما أن يكون هذا العمل سبب سعادة الإنسان في الآخرة، وإما أن يكون هذا العمل سبب شقاء الإنسان في الآخرة.

الآية اليوم:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

مهما كان الحديث قوياً عن أهل الإعراض، عن أهل الكفر، عن أهل الشرك، عن أهل الضلال، مهما يكن الحديث قوياً عن العصاة، والمذنبين، والتائهين، والشاردين، تجد رحمة الله عز وجل تفتح أبوابها فيقول:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

أي أروع ما في هذا الدين أن باب التوبة مفتح على مصارعه إلى يوم القيامة.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

وما أمرك أن تتوب إليه إلا ليقبل توبتك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لدعائك، وما أمرك أن تسترحمه إلا ليرحمك.

دقق فيما سأقول: ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

الصلاة عماد الدين وعصام اليقين وسيدة القربات :

أخواننا الكرام، الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، لا خير في دين لا صلاة فيه، أركان الإسلام: الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، النطق بالشهادة يكفي مرة في العمر، والحج يسقط عن المريض والفقير، والصيام يسقط مع أدائه مستقبلاً عن المريض والمسافر، ما الفرض الذي يعد الفرض الأول؟ الذي يعد الفرض المتكرر؟ الذي لا يسقط بحال؟ إنه فرض الصلاة، لا خير في دين لا صلاة فيه، والصلاة ولا بشكل إلا بحالة نادرة جداً لا تقع للمئة ألف إنسان إلا نادراً أن يصاب بغيبوبة كاملة، بسبات كامل، وما سوى ذلك

المريض يصلي، إن كنت عاجزاً عن الوقوف تصلي وأنت قاعد، وقد تصلي وأنت مضطجع، وقد تصلي بإيماءات من رأسك، فلابد من أن تصلي، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال.

إن هذا الدين بالأصل اتصال بالله.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

من أحكم الصلة بالله عز وجل طهر قلبه من الأمراض و الأحقاد :

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، الصلاة معراج المؤمن، الصلاة طهور كما قال عليه الصلاة والسلام، إن أحكمت الصلة بالله طهرت قلبك من الأمراض، من الحقد، من الحسد، من الكبر، من التطاول، كل الأمراض النفسية تشفى منها من خلال الصلاة، لأن الصلاة طهور.

والصلاة نور، إن الله سبحانه وتعالى يقذف نوره في قلب المؤمن من خلال الصلاة، فالصلاة نور ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، ومن أين يأتي شقاء الناس؟ يأتي من العمى.

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج]

الإنسان قبل أن يتحرك له رؤية، رؤية المصلي صحيحة، متطابقة مع منهج الله، لذلك المصلي لا يُدمر، ولكن رؤية غير المصلي قد يرى أن يقترف جريمة، فيكون إعدامه بعد أيام، قد يرى أن ينهب مالاً، ويغيب عنه أنه سيلقى القبض عليه، أنت حينما تصلي أنرت قلبك بالحق، وقلّما تقع في عمل مدمر، فالصلاة نور وطهور.

والمصلي صلاة صحيحة لا يحقد، لا يحتال، لا يتكبر، لا يستعلي، لا يظلم، أنت مصلٍّ، والمصلي يرى، والمصلي طاهر، والمصلي سعيد، والصلاة حبور، والصلاة نور، والصلاة طهور.

((أرحنا بها يا بلال))

[أخرجه الطبراني عن رجل من الصحابة]

والصلاة معراج المؤمن، والله عز وجل في آيات كثيرة يتحدث عن الصلاة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه :

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

هذا النهي الذاتي، هذا النهي يسميه العلماء: الوازع، عظمة هذا الدين أنه في الأصل مبني على الوازع الداخلي، كيف؟

سيدنا عمر أراد أيها الأخوة الكرام أن يمتحن راعياً، فقال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟!.

المصلي يرى أن الله معه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه، ولكن أين الله؟!.

فلذلك الصلاة تعطيك هذا الرادع،

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

القوانين تردع، أما الدين فيمنع، القوانين مبنية على الرادع الخارجي، لكن الدين أساسه الوازع الداخلي. كما قال النبي الكريم:

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

القوانين تردع أما الصلاة فتمنع، والفرق كبير بينهما.

الله عز وجل إن ذكر المؤمن منحه الأمن و الحكمة و السكينة :

أيها الأخوة،

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

قال بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما فيها، وقال بعضهم وهذا المعنى دقيق جداً: ذكر الله لك أيها المصلي وأنت تصلي أكبر من ذكرك له، لأنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، والرضا عطاء كبير، المؤمن راضٍ عن الله، إنه إن ذكرك منحك نعمة الأمن، وهذه النعمة لا يتمتع بها إلا المؤمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك الأمن، إذا ذكرك منحك الحكمة.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: 269]

أنت بالحكمة تسعد بأي شيء، ومن دون حكمة تشقى بأي شيء، إنه إن ذكرك منحك التوفيق، منحك النصر، منحك الحفظ، منحك السداد، ألا تقرؤون بعض الأحاديث الشريفة؟:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

وأنت في المسجد قد لا تجد كرسياً تجلس عليه، ولا ضيافة أبداً، لكن إذا خرجت من المسجد كما كان النبي الكريم يعلمنا إذا دخل إلى المسجد يقول:

((اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

لذلك الله عز وجل يلقي السكينة في قلوب رواد المساجد، السكينة تعني الرحمة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، السكينة أي الحكمة، و الرحمة، و الرضا، والسداد، والتفاؤل، والثقة بالله، والتماسك، وقوة الشخصية، أنت تتصل بخالق الأكوان؟ بخالق السماوات والأرض؟.

الصلاة قرب من الله وحبور ونور :

فلذلك الصلاة معراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، الصلاة سيدة القربات، الصلاة اتصال بالله، الصلاة نور، الصلاة حبور، سعادة، الصلاة طهور، الصلاة فيها يذكرك الله عز وجل، إن ذكرك منحك الأمن، إن ذكرك منحك حياة زوجية سعيدة، إن ذكرك منحك التوفيق، إن ذكرك منحك الهيبة، إن ذكرك منحك قوة الشخصية، إن ذكرك منحك التوفيق، إن ذكرك منحك الرضا.

لذلك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

هذه الصلاة التي يصليها بعض الناس، لا خشوع فيها، ولا اتصال بها، هذه الصلاة ما أرادها الله عز وجل، ما أرادها الله عز وجل قولاً واحداً، لقول النبي الكريم لما رأى مصلياً يصلي كما يصلي بعض الناس قال له:

((قم فصلِّ إنك لم تصلِّ))

[الترمذي عن رفاعة بن رافع]

الصلاة قرب من الله، الصلاة حبور، الصلاة نور، الصلاة إقبال، الصلاة حكمة، يمنحك الحكمة في الصلاة، يمنحك الرضا في الصلاة، يمنحك التوفيق في الصلاة.

الاستقامة أحد أكبر أسباب الخشوع في الصلاة :

لذلك الآية الكريمة:

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

بشكل أو بآخر لو أن إنساناً تاب من معصية ولم يحكم صلاته، ربما عاد إليها، لأن الصلاة كبيرة، صعبة، أي ثقيلة.

(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة]

إذا كنت خاشعاً، مستقيماً، مصطلحاً مع الله، مطيعاً، فالصلاة جنة.

((أرحنا بها))

الصلاة نور، الصلاة حبور، الصلاة قرب من الله عز وجل، أما من دون استقامة الكلام مؤلم، تصبح الصلاة عبئاً على الإنسان.

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ)

[سورة البقرة الآية: 45]

أي ثقيلة،

(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

إن أردت أن تسعد بالصلاة فاستقم على أمر الله الاستقامة أحد أكبر أسباب الخشوع في الصلاة.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

[سورة المؤمنون]

لا خير في دين لا صلاة فيه :

لذلك أيها الأخوة،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

الدين صلاة، لا خير في دين لا صلاة فيه،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ)

أي يمكن أن نفهم الزكاة في هذه الآية بفهم ضيق، هو أن تؤتي ربع العشر من مالك، زكاة مالك كل عام، إذا حال عليه الحول، ويمكن أن يتوسع معنى الزكاة لخدمة الخلق.

وكأن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، حينما قال الله على لسانه في القرآن:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم]

لكل إنسان حركتان؛ حركة نحو الله و حركة نحو الخلق :

أي أنت حركتان، حركة نحو الله، معرفة، وطاعة، وعبادة، وتقرباً، وحركة نحو الخلق انضباطاً، وإحساناً.

لك علاقتان، علاقة مع خالق السماوات والأرض، وعلاقة مع من حولك من البشر، فإذا أحكمت هاتين العلاقتين كنت في مأمن من عذاب الله،

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

أي أقاموا الصلاة، مثلاً: إنسان أقام بناء، العمل ليس سهلاً، هناك رخص، قد تبقى الرخصة لعام أو عامين، وهناك حفر أساسات، وقد تدفع مبالغ فلكية لا تُرى بالعين تحت الأرض، حفر، وأساسات، وقاعدة استنادات، وإسمنت، وحديد، كله تحت الأرض، ثم بيت على الهيكل، إلى أن يكسى البناء كسوة راقية، نقول: أقام البناء، إنسان أحياناً يزيح حاجة من هنا إلى هناك، لا تقل: أقام بل أزاح، أما أقام عمل كبير، عمل له مقدمات، له شروط، له حيثيات، له مراحل.

بطولة الإنسان أن يكون له اتصال بالله عز وجل في أثناء الصلاة :

لذلك: أقام الصلاة، أي تعرف إلى الله، وبعد التعرف إلى الله تعرف إلى منهجه، وبعد التعرف إلى منهجه حمل نفسه على طاعته، وبعد أن حمل نفسه على طاعته تقرب إليه بالأعمال الصالحة، معرفة، واستقامة، وعمل صالح، عندئذٍ تقول: الله أكبر، ربما انعقدت لك مع الله صلة.

للتقريب: لا تستطيع أن تقول عن شخص أن معه دكتوراه ولا يحمل شهادة ابتدائية! شيء مضحك، لأن الدكتوراه مرحلة متقدمة جداً، يسبقها ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعة، دبلوم عام، دبلوم خاص، ماجستير، دكتور.

معنى ذلك أن المصلي مستقيم، والمستقيم يعرف الله، تعرف إلى الله، تعرف إلى منهجه، أطاعه،تقرب إليه، فلما قال: الله أكبر انعقدت صلة بينه وبين الله، وطبعاً أنت حينما تتوضأ وتقف، وتقرأ الفاتحة، وتركع، وتسجد، هذه الصلاة المكتوبة سقطت عنك، سقط عنك إثم ترك الصلاة، صليت لكن البطولة أن يكون لك اتصال بالله في أثناء الصلاة.

إنسان دعاك إلى طعام، أتيت لكن لم تأكل شيئاً، الداعي يتمنى عليك أن تأكل، لا أن تثبت وجودك بميم ـ أي موجود ـ هذه الميم لا تقدم ولا تؤخر.

لذلك الوقت وقت، صليت، وقمت من عملك، وتوضأت، ووقفت بين يدي الله، لِمَ لا تسعى إلى إحكام العلاقة مع الله؟ إحكام العلاقة مع الله سببه الكبير الاستقامة على أمره، لأن الذنوب تحجب عن الله.

عظمة هذا الدين أن الإنسان لمجرد أن يؤمن يصبح أخاً لكل مؤمن :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

عظمة هذا الدين أن الإنسان لمجرد أن يؤمن أصبح أخاً لكل مؤمن، له ما للمؤمنين، وعليه ما على المؤمنين.

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

رجل يحقد على النبي حقداً لا حدود له، التقى مع صفوان بن أمية، قال له: والله لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخاف عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فقال له صفوان: أولادك أولادي ما امتد بهم العمر، اطمئن، وديونك عليّ بلغت ما بلغت، فامض بما أردت ـ عنده شيئان مقلقان، ديونه وأولاده ـ صفوان بن أمية حلّ له هذه المشكلة فسقى سيفه سُماً، وامتطى ناقته، وتوجه إلى المدينة المنورة، ليقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وصل إلى المدينة، طبعاً هناك مبرر لذهابه إلى المدينة، أخوه واقع في الأسر، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر، فقال: هذا عمير عدو الله جاء يريد شراً، قيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على النبي الكريم، قال: يا رسول الله هذا عمير، جاء يريد شراً، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قال له: يا عمر أطلقهُ، أطلقه، ثم قال له: ابتعد عنه، ابتعد عنه، وطلب من عمير أن يدنو منه، فدنا منه، قال له: سلم علينا يا عمير، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال له: قل: السلام عليكم، قال له: هذا سلامنا، ما عندي غيره، بقسوة، وبغلظة، قال له، ما الذي جاء بك إلينا؟ قال له: جئت أفك أخي، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال له: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ فقال له النبي الكريم: ألم تقل لصفوان بن أمية في مكة، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه؟ وقف عمير، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، فأسلم، الشاهد في القصة: سيدنا عمر قال: دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أبنائي.

في الإسلام لا يوجد عداوة مستمرة، لا يوجد حقد، دخل عمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي.

أيها الأخوة،

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

عظمة هذا الدين المؤمن يكره الكافر، يكره المنحرف، العاصي، الآثم، يكره المجرم، لكن لمجرد أن تنعقد توبة هذا أصبح أقرب للمؤمن من أخيه،

(فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

أنواع الأخوة :

أيها الأخوة، لذلك هناك أخوة النسب، الأخ النسبي، الأخ لأب، أو أخ لأم، أو أخ لأم أو أب، ولكن ربّ أخ لك لم تلده أمك، هذه أخوة الإيمان وهي من أمتن أنواع الأخوة، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

إذاً

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي)

والتاريخ الإسلامي يشهد أن هناك عداوات في الجاهلية لا يعلمها إلا الله، بعد أن آمنوا جميعاً كان بينهم من المودة ما لا يصدق، هذه مودة الإيمان، لذلك في قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية: 10]

وكأن الله رفع علاقة أهل الإيمان مع بعضهم بعضاً إلى أمتن علاقة في الحياة، وهي علاقة أخوة النسب.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 10]

من لا عهد له لا دين له :

أيها الأخوة:

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

[سورة التوبة]

عاهدوا فنكثوا لأن أهل الضلال لا عهد لهم.

((لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له))

[أخرجه أبو يعلى والطبراني عن أنس بن مالك]

من لا عهد له لا دين له، وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

لم يرعوا هذه الأيمان، بل حنثوا بها، عاهدوا ونكثوا، عاهدوا ونقضوا،

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)

أذكر أن صحابياً جليلاً في طريقه في الهجرة اعترضه المشركون، لكن قال لهم: عهد الله علي أنكم إذا أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه، وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه بما جرى، فرح النبي به فرحاً شديداً، بعد حين كانت غزوة دون أن يشعر انخرط فيها، قال له: النبي ارجع، ألم تعاهدهم؟. عبد الله بن رواحة أرسله النبي الكريم لتقييم تمر خيبر، هؤلاء ظنوه إنساناً عادياً فأغروه بحلي نسائهم كرشوة، ليقلل التقدير، فقال لهم هذه الكلمات: جئتكم من عند أحبّ الخلق إليّ، وأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، أي لن أظلمكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

المؤمن مقيد بمنهج الله فهو أمين و صادق و أخلاقي :

أخواننا الكرام، لو أن الكافر أخلاقي وعند وعده، وعنده عهده، كأن الدين فقد تألقه، أو فقد وظيفته.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الماعون]

لذلك كلمة مؤمن لها معان كثيرة، أي مستحيل على مؤمن أن يكذب، أن يحتال، أن يتكبر، أن يخادع، أنت كمؤمن أنت مقيد بمنهج الله، لأنك مؤمن أنت متصل بالله، لأنك متصل بالله أنت أخلاقي، أنت صادق، أنت أمين.

بماذا عرّف الصحابة الكرام الإسلام للنجاشي؟ قال: حدثوني عن الإسلام؟ قال سيدنا جعفر:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه.))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

الصدق والأمانة والعفاف أركان الأخلاق، إن حدثك فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف:

((..........حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

الإسلام كيان أخلاقي مبني على دعائم هي أركان الإسلام :

لذلك الإسلام كيان أخلاقي، مبني على دعائم هي أركان الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر]

الإسلام كيان أخلاقي.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

الخمس: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة.

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)

سفهوا هذا الدين،

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)

هؤلاء بالمصطلح المعاصر مجرمو الحرب، الذين يقودون الحروب، ويسفكون الدماء،

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لذلك يجب أن يكون الدين قوياً، إذا كان قوياً معه قوة ردع.

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

من هنا الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (13-70):تفسير الآيات 13 - 15 ، التوبة الخالصة هي سببٌ لنصر المسلمين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-06-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

نقض العهود يستوجب التأديب :

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة، يبين الله في هذه الآية أن هؤلاء القوم الذين نقضوا عهودهم مع المؤمنين مرات ومرات، نقضت قريش عهدها مع رسول الله فأخرجته، ونقض اليهود عهدهم مع رسول الله فائتمروا على قتله، وكل الأطراف الأخرى غير المؤمنة من شأنها نقض العهود والمواثيق، لذلك قال تعالى لهؤلاء: أنتم قدمتم لهم كل سبل السلام، قدمتم لهم عهداً، لكنهم نقضوا هذه العهود، نقض هذه العهود يستوجب التأديب، المؤمن قوي، والمؤمن له أظافر، والمؤمن ينبغي أن يُرهب جانبه، لكن نحن في وضع استثنائي عشنا في عصر أعلنت فيه حرب عالمية على المسلمين، وكل أطراف الدنيا تهاجم الإسلام، هذا الهجوم المستمر، وهذا الاتهام المستمر، بالتخلف، والعنف، والإرهاب، أورث المسلمين الشعور بالنقص، فصدقوا هذه التهم، لكن الله عز وجل يقول: نقضوا عهودهم معكم، هؤلاء لا عهد لهم، هؤلاء نقضوا مواثيقهم، هؤلاء لا يرعون في مؤمن:

(إِلّاً وَلَا ذِمَّةً)

[سورة التوبة الآية: 10]

لذلك يقول الله عز وجل:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

نحن تصورنا أن المؤمن دائماً ضعيف، دائماً يعبر عن السلام، والمحبة، والوئام، وأنه لا يتدخل بشأن الآخرين، هذه الثقافة جاءتنا من شدة الهجوم الذي انهال على المسلمين، لكن الحقيقة أن المؤمن قوي، المؤمن عزيز، والمؤمن يكفيه عزاً أن الله معه، كأن الله لا يحبنا أن نستخذي، أن نتطامن، أن نخضع، ورد في بعض الآثار:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

دائماً الإسلام سلم، الإسلام محبة، كلام طيب، لكن دائماً سلم ومحبة، والطرف الآخر يتفنن في حربنا، وفي قهرنا، وفي قتل شبابنا، وفي احتلال أرضنا، وفي نهب ثرواتنا، والإسلام محبة وسلام وأنس؟ لا، لابد من قوة نظهرها، لا بد من عزة نعتز بها، كأن الله عز وجل يثير بنا العزة فيقول:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ)

العصر الآن عصر الانحياز إلى الباطل :

الأقوياء اليوم يضربون، يحتلون، يقبضون على المقاتلين، يحاكمونهم، هم أحرار فيما يفعلون، إذا وقع في أسرنا جندي واحد تقوم الدنيا ولا تقعد، ولنا عند أعدائنا أكثر من أحد عشر ألف أسير، ولا أحد يتكلم، قبضنا على أسير واحد الدنيا كلها قامت، نحن في عصر الانحياز إلى الباطل، هؤلاء الذين يؤسرون لا أحد يسأل عنهم، أما أسير واحد من العدو يُدمر لبنان من أجله؟ تُدمر البنية التحتية من أجله؟

فلذلك ليس هناك منطق، الذي يحاول أن يصنع مفاعلاً سلمياً تقوم عليه الدنيا ولا تقعد، ويحاصر، وتجري عليه حرب اقتصادية، أما الذي قصف سفناً تحمل مؤناً لشعب محاصر، لا أحد يتكلم، ولا أحد ينتقد، ولا أحد يندد، هذه مشكلة، لذلك قال تعالى:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

كأن المسلم ليس له حق، جاءنا رئيس أمريكي ليزور المنطقة، برنامجه دمشق، تل أبيب، رام الله، زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي، ولنا عندهم أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير، و لم يخطر في باله أن يزور أسرة واحدة من أسر المسلمين.

لذلك أقول هذا كثيراً كي تنزعون من أذهانكم أنهم يحبونكم،

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

المؤمن لا يخشى إلا الله لأنه قوي :

لذلك:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

طبعاً سياق الآيات عن كفار قريش، وعن يهود المدينة،

(نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

هم البادئون والبادئ أظلم،

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

المؤمن لا يخشى إلا الله لأنه قوي، لا يخشى قوة دون قوة الله، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ بل يقرأ قوله تعالى فيطمئن:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة]

إذاً أي توجه إلى الخضوع بداعي أننا لا نملك أسلحة الطرف الآخر هذا ضعف إيمان.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

ومرة ثانية، وثالثة، ورابعة: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

بطولة الإنسان أن يقدم لله أسباب النصر كي ينتصر :

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

أي يا عبادي! أنا معكم، كأن الله سبحانه وتعالى في التاريخ المعاصر أعطانا جرعة منعشة، كيف أن أخوتنا في غزة هم عشرة آلاف وقفوا لاثنين وعشرين يوماً أمام أقوى جيش في المنطقة، دون أن يستطيع هذا الجيش تحقيق أي هدف، هذه جرعة منعشة، كأن الله يقول لنا: أنا موجود يا عبادي، ووعدي هو هو، وعدي لكم بالنصر هو هو، فالبطولة أن تقدموا لله أسباب النصر، والآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: 55]

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، هذه الآيات ينبغي أن ترفع معنوياتنا.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الغافر الآية: 51]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات]

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

المؤمن ما لم يكن مستقيماً على أمر الله فلن يثق بنفسه أبداً :

لذلك:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

الآن الحساب حساب مادي، يقول لك: عندهم أسلحة متطورة، عندهم سلاح طيران متفوق، عندهم قنابل جرثومية، وقنابل عنقودية، وقنابل ذكية، وقنابل حارقة، وقنابل خارقة، وعندهم إستراتيجية في الحرب متفوقة جداً، هذا كلام لا يقاس بعالم الإيمان، لأن الله مع المؤمنين، معهم بالنصر والتأييد، وإذا كان الله معنا فمن علينا؟ وإذا كان علينا فمن معنا؟.

لكن أيها الأخوة، لا تجد الناس يعبؤون كثيراً بهذه المعاني، لأن المؤمن ما لم يكن مستقيماً على أمر الله لن يستطيع أن يعتمد على هذه الآيات، لا يثق بنفسه أبداً، إذا كنت مستقيماً على أمر الله، مصطلحاً مع الله، وتقرأ هذه الآيات، تتوكل حقاً على الله، تثق حقاً بنصر الله، تتفاءل لا تتشاءم، لكن ضعف الإيمان يسبب عدم الإمكان أن تعتمد على هذه الوعود من الله لعدم ثقتك بنفسك.

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

طبعاً الآيات موجهة لأصحاب رسول الله، لكن القرآن حمّال أوجه، القرآن لكل المؤمنين، لكل أهل الإيمان إلى نهاية الدوران.

شروط النصر :

أخواننا الكرام، بشكل أو بآخر النصر له قانون، أحد شروط هذا القانون أن تكون مؤمناً لقوله تعالى:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

أن تكون مؤمناً كما يريد الله عز وجل، أي إيمان ينصره الله عز وجل؟ الإيمان الذي ينقلب إلى سلوك، إلى طاعة، إلى التزام، إلى أن تكون وقافاً عند حدود الله، إلى أن تأتمر بما أمر الله، إلى أن تنتهي عما عنه نهى وزجر، هذا الإيمان الذي ينقلك إلى الحركة، إلى الالتزام، إلى أن تكف عما نهاك الله عنه، إلى أن تفعل ما أمرك الله به، هذا الإيمان أحد أكبر أسباب النصر، لكن المشكلة أن كل مسلم على وجه الأرض يدّعي أنه مؤمن وهو ليس كذلك، بدليل أنه لا يستقيم على أمر الله، كلمة إيمان بالأصل إنسان عرف الله، فإذا عرفه أطاعه، ومن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تحبه ثم لا تطيعه، ومن لوازم الإيمان الطاعة.

أما الآن مليار وخمسمئة مليون مسلم يحتلون أبرز منطقة في العالم، مليئة بالثروات، ومع ذلك الشعوب الإسلامية هم أضعف شعوب الأرض وأفقرها، بسبب ضعف إيمانهم، وضعف ثقتهم بدينهم، وضعف ثقتهم بوعود ربهم، بسبب ضعف استقامتهم، هذا الواقع.

الإنسان إذا قدم أسباب النصر انتصر و لو كان عدوه قوياً :

لذلك أنت إذا قدمت لله أسباب النصر انتصرت ولو كان عدوك قوياً، لأن الله أقوى منه، الله عز وجل فوق كل الخلق، فوق كل قوي، وأقوى الأقوياء بيده، والآية الدقيقة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود]

أي كل القوى المخيفة في الأرض بيد الله، وأنت علاقتك ليست مع هذه القوى، علاقتك مع من يملكها، إنه الله، فإذا اصطلحت معه أبعدها عنك، وإذا قصرت في طاعته سمح لأحدها أن تقترب منك، هذه القصة كلها.

فلذلك أيها الأخوة، الله عز وجل يدفعنا إلى أن نؤمن به الإيمان الذي يحمل على طاعته، فإذا آمنا الإيمان الذي يحمل على طاعته عندئذٍ نعتمد على هذه الوعود من الله،

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

قريش بدأت في معارك أحد، وبدر، والخندق، واليهود بدؤوا حينما نقضوا عهودهم مع رسول الله،

(وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ)

من كان مع الله كان الله معه :

أحياناً تقيم موازنة بين قوتك وقوة الأعداء، و الأعداء أقوياء جداً، والآن العالم الغربي يملك طائرات، يملك صواريخ عابرة للقارات، يملك أسلحة جرثومية، يملك أسلحة كيماوية، يملك قنابل خارقة حارقة، يملك قنابل عنقودية، قنابل تمشي على أشعة الليزر، يملك طيران، هذا كله نراه، نسمع به، ولكن الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟.

قد يسأل إنسان هذا السؤال: ثلاثون دولة من حلف الناتو بأفغانستان، و84% من أرض أفغانستان بيد المقاومين، هذه الدول الثلاثون أين هي؟ كيف أن هؤلاء يملكون بندقية فقط و بيدهم 84% من مساحة أفغانستان، وفي العراق الشيء نفسه، المقاومة قوية جداً، معنى ذلك إذا كان الله معك فمن عليك؟

وإذا كان عليك فمن معك؟.

الآن هناك موظف كبير بالبنتاغون، قال: ماذا نفعل بحاملات الطائرات والصواريخ العابرة للقارات ماذا نفعل بهذه؟ لأنه ما من دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا، ولكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي جاء ليموت فيهز كياننا؟ هذا ليس له حل؟ صار هناك رد على هذه القوى بالمقاومة، وترون أن هذه المقاومة ولاسيما الإسلامية تركت أثراً كبيراً جداً في العالم، فكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية لا يريدنا أن نكون ضعافاً، ولا أن نرهب الأقوياء، ولا أن نخشاهم، ولا أن نبتعد عن التفكير في محاربتهم،

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

الجرعات المنعشة التي قدمها الله عز وجل للمؤمنين في هذه الأيام :

والعدو الصهيوني أنا أشبهه بالعصا الغليظة للغرب، مهمة هذا الكيان أنه عصا غليظة، أي بلد في الشرق الأوسط قال: لا للغرب، هذه العصا تسحقه، أليس كذلك؟ لكن هذه العصا والفضل لله كُسرت مرتين، مرة في عام 2006 في جنوب لبنان، مرة في عام 2008 في غزة، كُسرت، ولا تزال مكسورة، شيء خلاف الخطط، خلاف المتوقع، وكأن الله أعطانا درساً بهذين النصرين أنني موجود، والأمر بيدي، والوعود التي وعد الله بها هي هي، والإله هو هو:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

عفواً، أصغر دولة في العالم تعد ثلاثة ملايين، لأن معها أقوى دولة في العالم، هذه ترهب ملايين المسلمين أليس كذلك؟ مع أنها أقوى دولة في العالم، لأن أكبر دولة في العالم تدعمها دعماً بلا حدود، هذه الدولة الصغيرة تواجه وتتحدى أكبر دول المنطقة، إذاً العبر بمن معك، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ)

وكأن الله يعتب علينا

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

سيدنا خالد واجه بآسيا ثلاثمئة ألف مقاتل، وكان جيشه ثلاثين ألفاً، فطلب من الصديق النجدة، طلب منه خمسين ألف مقاتل، بعد حين أرسل له المدد، المفاجأة أنه واحد هو القعقاع بن عمرو، فلما وصل القعقاع بن عمرو إلى سيدنا خالد قال له: أين المدد؟قال له: أنا، قال له: أنت؟! و كان مع القعقاع كتاباً

من سيدنا الصديق، في هذا الكتاب: يا خالد! والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يُهزم، وانتصروا، ثلاثون ألفاً مع القعقاع واجهوا ثلاثمئة ألف.

عدم انتصار الإنسان على عدوه إلا بطاعته لله و بمعصية عدوه لله :

القضية بالإيمان إذا كان الله معك فأنت تملك كل شيء، فكل بطولتك أن يكون الله معك، ويكون الله معك بالطاعة، يكون الله معك بطاعتك لله، ولا تنتصر على العدو الأقوى منك إلا بطاعتك لله وبمعصية عدوك لله، فإذا عصيت الله استويت معه بالمعصية فانتصر عليك بقوته، هذا كلام نهائي، والله عز وجل يقول:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة]

لا تخشونهم، هذه الآيات يحتاجها المسلمون في مواجهة أعدائهم، تحتاجها الأمة العربية في مواجهة العدو الصهيوني، والله هناك قصص من البطولات التي جرت في حرب غزة تكاد لا تصدق، ألقى الله الهيبة في قلوب المقاتلين، عشرة آلاف مقاتل! شباب معهم بندقيات فقط واجهوا جيشاً يعد رابع جيش بالعالم، يعد أول جيش بالمنطقة، يعد أول جيش في تنوع الأسلحة واجهوا هذا الجيش لاثنين وعشرين يوماً، ولم يحقق هذا الجيش أي هدف من أهدافه، أين الله؟ هذا الله عز وجل، الله موجود، وأنا أعدّ هذا النصر جرعة منعشة لنا، يجب أن تثق بالله، إله يقول لك أنا معك، وإذا كنت معك فمن عليك؟

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

كم هدف؟

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

عندنا جيش يُهزم في ساحة المعركة وعندنا جيش فضلاً عن هزيمته في ساحة المعركة يُهزم نفسياً،

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

بنود قانون النصر :

1- الإيمان بالله :

لكن اسمحوا أيها الأخوة، أبين لكم أن للنصر قانوناً، أو بنود قانون النصر أن تكون مؤمناً الإيمان الذي يريده الله عز وجل، ما الإيمان الذي يريده الله عز وجل؟ هو أن تكون مؤمناً مطبقاً، أن يترجم إيمانك

إلى التزام، إلى طاعة، إلى أن تأخذ ما لك، وأن تدع ما ليس لك، أن تطيع الله في سراءك وضراءك، في خلوتك وجلوتك، إلى أن تسعى بنشر هذا الدين، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ أو إيمان يترجم إلى استقامة، أما هناك إيمان لا يترجم إلى استقامة فلا يقدم ولا يؤخر.

بصراحة المسلمون يعدون الآن مليار وخمسمئة مليون، هؤلاء المؤمنون يعدون ربع سكان الأرض، وعندهم ثروات طائلة، ويقيمون على أرض تعد أرقى أرض في العالم، ومع ذلك ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، السبب: عدم الطاعة،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

2 ـ إعداد العدة المتاحة :

الآن هذا الشرط الأول، وهو الإيمان الذي يحمل على طاعة الواحد الديان، الشرط الثاني: أن نعد لأعدائنا ما نستطيع.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الله عز وجل ما طالبنا أن نعد القوة المكافئة، طالبنا أن نعد القوة المتاحة،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والله يرمم الباقي، إله كلام خالق السماوات والأرض، أكبر مشكلة نعاني منها أن عدونا قوي، مدعوم من دول الغرب، يتربص بنا، ويحاول أن يشتت جمعنا، وأن يفرق وحدتنا، وأن يأخذ أرضنا، وأن ينهب ثرواتنا، هذا العدو علاجه الوحيد أن نؤمن بالله أولاً إيماناً يحمل على طاعته، وأن نقاومه، وكما ترون أنباء المقاومة إن في العراق، أو في فلسطين، أو في أفغانستان، قدمت صوراً رائعة جداً، وكأن عقيدة الحرب تغيرت بعد نتائج هذه المقاومة، ما قيمة الجيوش الكبيرة؟.

مرة قلت لكم: موظف كبير بالبنتاغون يقول: ماذا نفعل بحاملات الطائرات وليس هناك دولة على وجه الأرض تجرؤ أن تحاربنا؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي جاء ليقاتلنا؟ جاء ليموت من أجل أن يهز كياننا، لذلك المقاومة طريق لحل الجيش القوي، قال تعالى:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

أي تنتصرون على عدوكم انتصاراً مادياً، وانتصاراً معنوياً،

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

المؤمن مع كل من آمن بالله في الأرض :

بربكم أخبار انتصار أخوتنا في حرب غزة ألم يثلج صدور المسلمين جميعاً؟ انتصار أخوتنا في جنوب لبنان ألم يثلج صدور أخوتنا جميعاً؟ هذا شيء طبيعي جداً، بل إن الله سبحانه وتعالى أثبت للصحابة الكرام فرحهم بانتصار الروم، مع أن هناك أشياء خلافية بيننا وبينهم، قال تعالى:

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

الصحابة الكرام فرحوا بانتصار الروم مع أنهم أهل كتاب لما بيننا وبينهم من قواسم مشتركة، بشكل عام المؤمن مع كل من آمن بالله في الأر ض، يتعاطف معه، لكنه ليس مع الملحد، مع الكافر، مع الفاسق،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

أي الله عز وجل قادر أن يعذبهم، عنده عذاب، عنده صواعق، عنده براكين، عنده زلازل، عنده موت معين، عنده وباء معين، لكن الله أراد أن يكسبنا أجر القتال،

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد الآية: 4]

هذا الذي يريده الله عز وجل،

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

تتالي النكبات على أمتنا في هذا العصر أورثت نكبات مؤلمة جداً :

أنتم تلاحظون لو أن هناك عملاً إسلامياً عسكرياً حقق نجاحاً كبيراً، تجد المسلمين في العالم يفرحون، ينتشون،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

هذا فرح كبير، أنت لك أهداف خاصة، لك بيت، لك مركبة، لك أولاد، لك دخل، لكن أنت إنسان تعيش في مجموع، وهذا المجموع إذا ارتقى تسعد بهذا الرقي، وإذا لم ترتق تتألم.

عفواً تتالي النكبات على أمتنا في هذا العصر أورثت نكبات مؤلمة جداً، أنا أسميها ثقافة اليأس، أو ثقافة الإحباط، أو ثقافة الطريق المسدود، لكن لما رأينا ومضات من النصر؛ انتصار أخوتنا في جنوب لبنان، في غزة، المقاومة في أفغانستان، في العراق، هذه الومضات أعطتنا راحة نفسية، هذه الراحة

تبين أن المؤمن يفرح فرحاً كبيراً بنصر الله

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

لأنه خلقنا، وهو إلهنا، ويعلم من خلق، المؤمن يسعده النصر، وتؤلمه الهزيمة، لذلك عندما تتتالى الهزائم تنشأ حالة يأس أو حالة إحباط عند الأمة، وهذه حالة خطيرة جداً.

هزيمة المسلمين من الداخل أخطر شيء في حياتهم :

لذلك أنا أقول دائماً: أخطر شيء أن يهزم المسلمون من الداخل، من داخل نفوسهم، أما أي هزيمة طارئة من الخارج قد تنتهي بانتصار مبين، أما الهزيمة من الداخل خطيرة جداً، هذه تصيب الأمة بالإحباط

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

ودائماً وأبداً الله جلّ جلاله يريدنا أن نتفاءل، فإذا تبت إلى الله توبة نصوحة الله سبحانه وتعالى ينسيك الماضي كله.

((إذا رجع العبد على الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

هناك وعود إلهية بالقرآن الكريم لكل مؤمن، والذي أتمنى إيضاحه لكم أن هذا الدين دين أفراد ودين جماعات في الوقت نفسه، الأمة إذا طبقته انتصرت على عدوها ولو كان قوياً، لكن لو أن الأمة لم تطبق هذا الدين، إذاً لم تنتصر، أنت كفرد ماذا تعمل؟ أنت أيها الفرد المسلم لو طبقت أحكام هذا الدين وحدك لانتصرت، ولقطفت كل ثماره لوحدك.

إذاً هناك نصر جماعي إذا طُبق هذا الدين من قبل جماعة الأمة، أو نصر فردي ينالك وحدك إذا اصطلحت مع الله، فأنت حاول أن يكون هذا الدين لكل الأمة، فإن لم تستطع فلا أقل من أن تكون أنت مؤمناً صادقاً حتى تنتظر من الله العطاء.

التوبة علم وحال وعمل :

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ)

معنى ذلك أن الهزيمة مؤلمة جداً، ينشأ منها غيظ في القلب، والنصر يعطي القلب شفاءً،

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

(عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

تعود على الإنسان، أي إنسان شاء التوبة، وقدم أسبابها، العلم، والندم، والإقلاع، أو التوبة علم، وحال، وعمل، إذا قرأت عن هذا الدين العظيم، إذا طلبت العلم، عرفت أين ذنبك، وأين خطؤك، فالعلم طريق التوبة، والندم الحال النفسي الذي يرافق العلم، والإقلاع هو النتيجة، أن تقلع عن هذا الذنب إقلاعاً كلياً، فالتوبة علم، وحال، وعمل،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

تعلم، تندم، تقلع،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، عجيب الأمر كلما قرأنا بعض الآيات جاء باب الخلاص، وهو التوبة، لاحظت في هذه السورة أن كل مجموعة آيات تحوم حول موضوع ينتهي هذا الموضوع بفتح باب التوبة مهما تكن، هناك شرك، هناك كفر ـ لا سمح الله ـ هناك نفاق،

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليقبل توبتنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لدعائنا.

فلذلك

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

علمه بتوبتك الصادقة، وحكمته بقبول هذه التوبة هو سبيل خلاصنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (14-70):تفسير الآيتان 14-15، قوتنا وتكافؤنا خزي وهزيمة لأعدائنا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

كل شيء وقع في الكون أراده الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة، كان من الممكن أن يعذبهم الله عز وجل من قِبله مباشرة، لأن هناك قضاء وقدراً يأتي من قِبل الله مباشرة، كأن يقع الابن من شرفة فيموت، وهناك قضاء وقدر يأتي على يد إنسان، قد يدهس سائق مركبة هذا الطفل فيموت، الحالة الأولى قضاء وقدر من الله مباشرة، والحالة الثانية قضاء وقدر جرى على يد إنسان.

دائماً كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، كل شيء وقع في الكون أراده الله بمعنى أنه سمح به.

وقال علماء العقيدة: أراد ولم يرضَ، أراد ولم يأمر، إنسان ارتكب سرقة، الله سمح له أن يسرق، لحكمة بالغةٍ بالغة من حيث السارق والمسروق، الله عز وجل قال:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأنعام]

فخطة الله تستوعب خطة البشر، أضرب لكم مثلاً: باخرة عملاقة تتجه نحو الشرق عليها ركاب، هذا الراكب على ظهرها أراد أن يتحداها، فمشى على ظهرها نحو الغرب، لكن الباخرة العملاقة تتجه نحو الشرق، فحركة راكب على ظهر الباخرة باتجاه الغرب لا تقدم ولا تؤخر.

خطة الله تستوعب خطة البشر لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد :

خطة الله تستوعب خطة البشر، مرة في مؤتمر إسلامي قام مندوب دولة عانت ما عانت من الغرب، والآن محتلة من قبله، قال: والله لقد أصابنا من القهر والبؤس ما لم يصب به المسلمون في مئة عام، وبكى في المؤتمر، ثم قال: ولكننا ارتقينا في سلم الإيمان ما لم نرتق به في ثلاثمئة عام، فجاء دوري في

الكلام، قلت: إذاً خطة الله استوعبت خطة المحتلين.

كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، ويجب أن نقول لشيء كالاحتلال، كالاغتصاب، كالأعمال الشريرة، نقول: أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، الإنسان مخير.

أنت صيدلي أردت أن تعين موظفاً عندك في الصيدلية، أردت أن تمتحن خبرته في الأدوية، وضعت له بعض الأدوية على الطاولة، قلت له: هذا المكان للفيتامينات، هذا للمسكنات، هذا للنوع الفلاني، وزع هذه الأدوية على رفوف الصيدلية، فإذا أخذ دواء متعلقاً بالفيتامينات نقله إلى المسكنات، لو أنك منعته ألغيت اختياره، لابد من أن يتحرك وفق خبرته، وفق إرادته.

فلذلك كل شي وقع أراده الله، لأنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، لكن هذا الإنسان الذي فعله، والذي أوقعه، قالوا: لكل واقع حكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، لكل واقع حكمة، مادام الله سمح بوقوعه فهناك حكمة قد لا نكتشفها الآن، لكن قد نكتشفها بعد فترة طويلة.

والأحداث الأليمة التي وقعت في حياتنا أثناء وقوعها مؤلمة جداً، لكن بعد حين ترى إيجابيتها، للتقريب: الذي فعله العدو حينما قصف سفن المعونات الغذائية، والله لو دفعنا مليارات مملية لتشويه سمعته في العالم لا نستطيع، لكنه شوه سمعته بيده، حتى أنصار هذا الكيان استنكروا ذلك.

فكل شيء وقع لأنه وقع سمح الله به، لحكمة بالغةٍ بالغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، أحداث غزة مثلاً أذابتنا جميعا في بوتقة واحدة، أيقظت فينا الدافع الإنساني والإسلامي.

لكل واقع حكمة :

لذلك أيها الأخوة في حيز الأفعال كل شي وقع، وسمح الله له أن يقع، فيه حكمة بالغة بالغة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، لذلك قالوا: لكل واقع حكمة، مادام الشيء وقع، وقد يأتي يوم بعد أمد بعيد أو قريب نعرف إيجابيات الأحداث الكبيرة التي وقعت في العالم، أحياناً توحدنا، أحياناً تذيبنا في بوتقة واحدة، أحياناً توقظ معنى الجهاد، أي انتصار أخوتنا في فلسطين وفي البلاد المحتلة هذا أعطى فكراً آخر للحرب، فكر المقاومة ليس إنساناً مقاوماً إذا قتلته تنتهي المقاومة، أصبح هناك فكر للمقاومة، وأصبح هناك منهج.

قال بعض المسؤولين الكبار في بلاد قوية: ماذا نفعل بحاملات الطائرات والصواريخ العابرة للقارات وليس هناك على وجه الأرض دوله تجرؤ أن تحاربنا؟ لكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يهز كياننا؟.

أخواننا الكرام، أريد أن أقول هذا العبارة أرددها دوماً لأنها تلخص العقيدة: كل شيء وقع أراده الله بمعنى سمح به فقط، لأنه قد يريد ولم يأمر، وقد يريد ولم يرضَ .

مثلاً الأب كتلة من الرحمة، فإن التهبت زائدة ابنه و هو طبيب جراح، يضعه على الطاولة ويخدره، ويفتح بطنه والدم يسيل، ويستأصل هذا الزائدة، ثم يخيط الجراح، وهو أب، مادام هذا الطبيب الجراح الرحيم الأب فعل هذا هناك حكمة بالغة لهذا العمل، لكن هذا الأب كان يتمنى ألا تلتهب هذه الزائدة، أما وقد التهبت لابد من هذا العمل.

إذاً ننطلق من أن كل شيء وقع أراده الله بمعنى سمح به، لأنه قد يريد ولم يأمر، السارق حينما يسرق سمح الله له أن يسرق وهناك حكمة بالغة حينما سمح لهذا أن يسرق، وحينما سمح لهذا البيت أن يُسرق منه هناك حكمة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

لكل شيء وقع حكمة بالغة تكشف بعد حين :

لذلك نقول: لكل واقع حكمة، وقد يكون الموقع مجرماً، مادام وقع، مادام الله سمح بوقوعه، هناك حكمة بالغة لكن عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وقد ذكرت بعد حين هذه الآية:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

الآية واضحة،

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

سمح الله لفرعون أن يكون طاغية، وأن يجعل من حوله شيعاً، لكن من أجل

(أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

هذا أخطر فكرة في القضاء والقدر، بل أخطر فكره قي العقيدة، شيء وقع مؤلم لكن الله سمح به، لأنه وقع سمح الله به، ولأن الله سمح به هناك حكمة بالغة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها تكشف بعد حين.

لذلك قد يأتي يوم نكتشف أن الأحداث الكبيرة التي ألمت بأمتنا هي أحد أسباب اجتماعنا ووحدتنا، هي أحد أسباب قناعتنا بمنهج الله عز وجل، هذه حكم إلهية.

تعلق إرادة الله بالحكمة المطلقة :

لذلك نعيد هذا الحقيقة التوحيدية: كل شيء وقع، معنى وقع أي سمح الله به، وقد يسمح بشيء لحكمة بالغةٍ بالغة لم يأمر بهذا الشيء، ولم يرضه، لكن سمح به لحكمة بالغة.

تماماً لو أن مرض الغرغرين في اليد، أي أقرب الناس لهذا الإنسان يسمح بقطع اليد، الذي سمح بقطع اليد هو الأب، لكن الابن لو لم تقطع من هذا المكان لقطعت من هذا المكان، هذا مثل يقرب المعنى.

إذاً نصل إلى الحقيقة الأساسية: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لذلك ليس في الكون شر مطلق، هناك شر نسبي، كالعمل الجراحي لإنسان التهبت زائدته، لابد من فتح البطن، لابد من التخدير، لابد من أن يسيل الدم، لابد من أن يتألم بعد انتهاء المخدر، كل هذا من سلبيات العمل الجراحي، لكن هذا العمل الجراحي لابد منه حينما تفهم القضاء والقدر، حينما تفهم ماذا يحدث بالعلم بهذا المنظور الإسلامي ترتاح نفسك.

الحكمة من أن الله لم يرد أن يهذب المشركين مباشرة بل أراد أن يعذبهم بأيدي المؤمنين :

أيها الأخوة الله عز وجل يقول:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

ما الحكمة أن الله جلّ جلاله لم يرد أن يهذبهم من عنده مباشرة بل أراد أن يعذبهم بأيدي المؤمنين؟ قال: ليكون للمؤمنين هيبة في المجتمعات، القوي محترم دائماً، والضعيف غير محترم، القوي محترم، والناس يتطلعون إلى القوي، يُعظمون القوي، فحينما يسمح الله للمؤمنين أن يكونوا أقوياء، وأن يوقعوا الألم الشديد بمن خان العهد، وتنكر للوعد، ولم يعبأ بهذا الدين، يكون لهم مهابة.

الآن كيف أن الدول العظمى التي تملك قنابل نووية، ومعها أسلحة فتاكة، وصواريخ، وأقمار صناعية،وبوارج، وقنابل عنقودية، وجرثومية، خارقة، وحارقة، وليزرية، كيف أن هذه الدول التي تملك أسلحة فتاكة مرهوبة الجانب؟ لِمَ لا يكون المؤمنون في الأرض مرهوبي الجانب؟ لماذا نرضى أن نكون ضعافاً؟ نشتكي، ونندد، ونستنتج، ونشدد على كذا، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، بل ونتمتع بضبط النفس، لماذا نحن كذلك؟ لماذا لا نكون أقوياء يهابنا الأعداء؟.

لذلك الحكمة من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

من أجل أن يكون لكم رهبة في قلوبهم، القوي محترم، يجب أن تكون قوياً، وأقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، والقوة أنواع، قوة المال، وقوة العلم، وقوة المنصب، لك

منصب رفيع بجرة قلم تحق حقاً وتبطل باطل، بتوقيع تقر معروف وتزيل منكراً، إن كنت غنياً تزوج الشباب، تقيم المعاهد الشرعية، تنشئ الجمعيات الخيرية، تطعم الجياع، تكسو العراة، أمامك خيارات لا تعد ولا تحصى، وإذا كنت صاحب قرار بتوقيع، إذا كنت عالماً بإلقاء العلم، إذا كنت غنياً بإنفاق المال.

فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى :

لذلك مرة ثانية: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً لأن فرص العمل الصالح المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى.

إذاً إرادة الله من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

من أجل أن يكون لك مهابة، أقسم لي بالله إنسان مسلم في بلاد آسيوي يعد تسعمئة مليون، وفيه تسعة ملايين مسلم، المسلمون مضطهدون معذبون، حقوقهم مهضومة، يعانون ما يعانون، وفي بلد إسلامي مجاور لهذا البلد الكبير، بلد الإسلامي استطاع أن يطور قنبلة نووية، يقسم لي بالله الأخ المقيم في هذا البلد الأسيوي أن معاملة هذا البلد للمسلمين تطورت مئة وثمانين درجة لأن الجيران أصبح لديهم سلاح نووي.

والآن ما لم نكن أقوياء لا أحد يعبأ بنا، كلمة أخرى ما لم تكن متفوقاً بدنياك لا يحترم دينك، مسلم حاجب، ضارب آلة كاتبة، كاتب، أما الأقوياء أصحاب المعامل الضخمة، الصناعيون الكبار ليسوا مسلمين، هذه مشكلة كبيرة جداً، يجب أن نكون أقوياء، أقول للشاب: لِمَ ترضى أن تكون رقم سهلاً لا أحد يعبأ بك؟ لِمَ لا تكن رقماً صعباً؟ تفوق يا أخي، تعلم، اختص اختصاص نادر، قدم شيئاً لهذه الأمة، مشكلتنا بالضعف، نحن ضعفاء ـ كمسلمين طبعاً ـ لا أقصد بلداً معيناً، لا نملك إلا أن نندد، وأن نستنكر، وأن نشدد على كذا، وأن نحرق علماً، ونحرق صورة، هل يوجد عندنا غير هذا؟ خلال خمسين عاماً بالتنديد، والشجب، والاستنكار، وحرق العلم، وحرق الصورة هل فعل هذا معنا شيئاً؟ هم يضحكون علينا.

أمة الإسلام أمة عظيمة قلبت وجه التاريخ فعلينا أن نسعى لخدمتها :

لذلك أيها الأخوة، أنا أخاطبكم جميعاً وأنا واحد منهم: تفوق، تفوق بعلم اخدم به أمتك، تفوق باختصاص نادر، تفوق بخبرة عالية، نأتي بالخبير يأخذ مئة ضعف راتب مواطن عادي، وقد يكون أقل ذكاء من المواطن، تفوق، لا تكن رقماً بسيطاً، لا تكن شخصاً لا أحد يعبأ بك، تفوق، النبي عليه الصلاة

والسلام طلب النخبة قال:

((اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين))

[ورد في الأثر]

عندما أسلم سيدنا عمر توقف إيذاء قريش للمسلمين، ولما أسلم سيدنا حمزة صلى المسلمون في بيت الله الحرام، نريد طالباً متفوقاً، العلم مفتوح الباب للكل، عندك اختصاص نادر تخدم به أمتك؟ تقوي به هذه الأمة؟ وإلا لماذا أردت أن تكون رقماً لا قيمة له؟ الذي جاء للدنيا ملايين مملينة، كبروا، وتزوجوا، وأنجبوا، وماتوا، ولم يدر بهم أحد.

مرة من باب الطرفة سألت طلابي: من منكم يذكر تاجراً كبيراً عاش في الشام عام 1660 أعطيه علامة تامة؟ فكروا،لا أحد يعرف، قلت لهم: ولا أنا أعرف، أما سيدنا عمر، سيدنا خالد، صلاح الدين الأيوبي ردّ الفرنجة، هؤلاء الأعلام لا ينساهم أحد.

فأنا أستنهض هممكم، لا تكن إنساناً عادياً من سقط المتاع، لا تكن رقماً سهلاً، ينبغي أن تكون رقماً صعباً، تفوق واخدم هذه الأمة، هذه الأمة لها فضل كبير على البشرية.

والله كنت بألمانيا، حدثنا رئيس كنيسة كبيرة في مدينة بألمانيا، حتى أبكانا، قال: أنتم أيها المسلمون لكم فضل كبير علينا، حضارتنا من عندكم، أنا ما رأيت إنساناً منصفاً كهذا، أنصفنا إنصافاً عالياً جداً.

فنحن أمة عظيمة، أمة قلبت وجه التاريخ، أمة وصلت فتوحاتها إلى مشارف الصين، إلى مشارف باريس، إلى فيينا، هذه الأمة الآن كبا جوادها، فكل واحد منا ينبغي أن يسعى، يسعى ليكون رقماً صعباً، يضع خبرته، ومكانته، وعلمه، وقوته، في خدمة أمته.

حاجة الأمة الإسلامية إلى من يعيش في سبيلها ويتفوق ويتعلم :

أخواننا الكرام، مع احترامي اللامحدود لمن يموت في سبيل هذه الأمة، أقول لكم هذه الكلمة: نحن بأمس الحاجة إلى إنسان يعيش في سبيل هذه الأمة، مع احترامنا الغير محدود لمن يموت في سبيل هذه الأمة، هذه الأمة بحاجة إلى من يعيش في سبيلها، يتفوق، يتعلم، يقدم خبرات، هناك مثل بسيط من خبرتي المتواضعة: المعامل الضخمة معها حواسيب معقدة جداً، هذا الحاسوب يتعطل أحياناً، إصلاحه يكلف عدة ملايين، معمل إنتاجه كبير يديره حاسوب معقد جداً، يتعطل هذا الحاسوب، فإصلاحه يحتاج إلى شهر، يتعطل الإنتاج، ويذهب هذا الحاسوب إلى بلد بعيد، أقصد الحواسيب الصناعية المعقدة جداً، بعد شهر يأتي الحاسوب وقد تمّ إصلاحه، والمبلغ بالملايين، بهذا البلد الطيب مواطن استطاع أن يحل هذه المشكلة في بيته، يأخذ على كل حاسوب صناعي معطل عشرة آلاف ليرة ، حلّ لنا مشكلة أي حاسوب صناعي مربوط بمعمل وتعطل، هذا الأخ بتوفيق من الله استطاع أن يحل هذه المشكلة، والله

مرة أطلعني على خارطة "mother board " طولها ستة أمتار، خارطة لجهاز الحاسوب خطير جداً طولها ستة أمتار.

نحن بحاجة إلى إنسان يتفوق، وأقول مرة ثانية: ما لم نتفوق في دنيانا لا يحترم ديننا، الغرب لا يحترم إلا القوي، تقول: أنا مسلم، أنا معي وحي السماء، قوي؟ يحترمك، وما لم نتفوق في دنيانا لا يحترم ديننا، أنا أستثير همم الشباب، لا تقبل أن تكون إنساناً عادياً جداً، فقط يريد أن يتزوج، لا يريد أي شيء من الحياة، يريد فقط بيتاً يسكن فيه، ألا يوجد لك أي هدف ثان أبداً؟ هذا من سقط المتاع، وكلما علت هومك ارتقيت عند الله، هذه الأمة، الأمة التي قادت العالم الآن كبا جوادها ألا تغار عليها؟ ألا تتمنى أن تقدم لها كل شيء؟ ألا تتمنى أن تعيد لها مجدها التليد؟ هذه مشكله يا أخوان.

الأشياء الشفهية لا تقدم ولا تؤخر فعلينا أن نكون أقوياء لنُرهب أعداءنا :

فلذلك لفت نظري في هذه الآية لِمَ لم ينزل بهم الله العقاب من عنده مباشرة؟ يصيبهم بزلزال مثلاً، لنا أعداء ـ فرضاً اليهود ـ الله قادر بزلازل واحد ألا يبقي منهم أحداً، هناك زلزال، هناك وباء جماعي، هناك صواعق، الله قادر، قال لك:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

فانتصار أخواننا في عام 2006 و 2008 على أكبر جيش بالمنطقة، على الجيش العملاق، على الجيش الأول في العالم بتنوع الأسلحة، وعلى الجيش الرابع في العالم، وعلى الجيش الأول في المنطقة، انتصار عشرة آلاف مقاوم على جيش عملاق، والله قلب الموازين في العالم، والله أعطى لمعنى الجهاد معنى واقعياً، وصار هناك اضطراب في الفكر العام.

فيا أيها الأخوة، كل هدفي من هذه الآية

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

ليكون لكم شأن كبير عند أعدائكم، أما كل الأشياء الشفهية لا تقدم ولا تؤخر، تستنكر، تشدد على كذا، تندد، لم ننتفع بهذا طول حياتنا، لا ننتفع إلا بالقوة، كن قوياً، وافرض على عدوك ما تريد

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ)

شيء يخزهم، أي عقب المقاومة التي جرت في فلسطين والله أخبار العدو يندى لها الجبين، كيف انهزموا، كيف كُسرت العصا الغليظة، الكيان الصهيوني أخواننا الكرام عصا غليظة للغرب، وأي بلد في الشرق الأوسط يقول: لا، مهمة هذه العصا أن تسحقه، هذا ملخص الملخص، عصا غليظة بيد الغرب في الشرق الأوسط، وأي بلد يقول: لا، هذه العصا تسحقه، لكن هذه العصا الغليظة والحمد لله

كُسرت مرتين، مرة في عام 2006 في جنوب لبنان، ومرة في عام 2008 في غزة، ولا تزال مكسورة، والضرب العنيف من قبلهم دليل أن عصاهم كُسرت.

الله تعالى موجود و نحتاج بأن نستجب له فقط :

فيا أيها الأخوة، صار هناك أخبار منعشة، انهيار النظام العالمي القائم على الربا، والله هذا خبر منعش، معنى ذلك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 276]

أي هناك تطورات بالعالم كبيرة جداً، بلد بآسيا محتل من قبل ثلاثين دولة، أربع و سبعون بالمئة من أراضيه بيد بالمقاومة، أين الثلاثون دولة العملاقة الأوربية؟ أين أسلحتها؟ هذه كلها أشياء تعطيك بأن الله موجود، وكأن الله يقول: يا عبادي أنا موجود، أنا معكم، والقوانين هي هي، إله الصحابة إلهنا، الإله الذي نصر المسلمين إلهنا، فنحن نحتاج بأن نستجب له فقط.

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

الآن:

(وَيُخْزِهِمْ)

عندك هزيمة مادية، وهزيمة معنوية:

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

أنتم حينما استمعتم إلى قصف سفن المعونة المتجهة إلى غزة، حدثني أخ كان معهم أقسم بالله الذين خططوا لهذه السفن لم يسمحوا بأدوات معدنية، جميع الأدوات من البلاستيك حتى لا يكون حجة للعدو الصهيوني، الأدوات كلها بلاستيك، ومع ذلك قصفوا، قصفوا ولا يحملون إلا أغذية لشعب محاصر من أربع سنوات يكاد يموت من الجوع، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد]

ارتكبوا حماقة كبيرة.

أخطر شيء في حياة الأمة أن تهزم من الداخل :

إذاً

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

هذه واحدة، ثانياً:

(وَيُخْزِهِمْ)

هزيمة معنوية، ثالثاً: تستعيدون أرضكم

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ)

ورابعاً:

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

نحن النكبات حينما تتالت ماذا فعلت؟ فعلت حالة مرضية بالمسلمين، ما هذه الحالة؟ الشعور باليأس، والإحباط، والطريق المسدود، هذه الحالة المرضية خطيرة جداً، أي أخطر شيء بحياة الأمة أن تهزم داخلاً، الله قال:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

فيا أيها الأخوة، الآية الكريمة، الملمح الدقيق فيها، كان من الممكن أن يتولى الله بنفسه إهلاكهم بزلزال، ببركان نفس البركان الذي أطلق بعض السحب البركانية وعطل الطيران بأوربا، الخسارة فوق الملياري دولار بأسبوع، بالتعبير المعاصر الخيارات بيد الله لا تعد ولا تحصى، بركان في بريطانية نفث سحباً رمادية عطل الطيران، الخسارة تقترب من ملياري دولار بأسبوع واحد.

أيها الأخوة،

(قَاتِلُوهُمْ)

كونوا أقوياء،

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)

تكتسبون مهابة قوية

(وَيُخْزِهِمْ)

يفضحهم

(وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

تتالي النكبات يسبب مرضاً نفسياً :

أقول لكم مرة ثانية: تتالي النكبات يسبب مرضاً نفسياً سماه العلماء اليأس، الإحباط، الطريق المسدود:

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

حدثني أخ مقيم بالضفة الغربية قال لي: هناك ستمئة و ستون حاجزاً في الضفة، وغرفة بلور فيها جندي إسرائيلي، أمامه الموالح، البوظة، العصير، يوقف إنسانة حاملة على وشك الولادة سبع ساعات بلا سبب، دعك واقفة، أي يتفننوا بإذلالنا، امرأة حامل! طالب جامعي فاته الفحص بسبب هذه الحواجز، الحاجز ليس له أي وظيفة إلا إذلال المواطن، عنده جامعة يوقفه ليفوته الفحص، امرأة حامل قال لي: تمت ولادتها بالطريق بسبب هذه الحواجز، لا يسمحوا، فهؤلاء وحوش لا يجدي معهم إلا القوة:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لكن سبحانك يا رب! كلما جاءت الشدة جاءت معها الرحمة، هؤلاء الكفار الذين أراد الله للمؤمنين أن يقاتلوهم، وأن يفضحوهم، وأن ينتصروا عليهم قال:

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

الصلحة بلمحة.

باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة :

الله عز وجل كلهم عباده، وأي عبد تاب إلى الله قبله الله تعالى، باب التوبة مفتوح، لو لم يكن باب التوبة مفتوحاً لتمادى العاصي في عصيانه، يقول لك العاصي: مادام لا يوجد توبة لأفعل ما أشاء، لتمادى الإنسان من ذنب بسيط إلى أن يرتكب أكبر جريمة إذا لم يكن هناك توبة.

إنسان قاتل قتل تسعاً وتسعين شخصاً ـ هذه القصة واردة في الصحاح ـ سأل إنساناً: لي توبة؟ قال له: لا يوجد لك توبة، فقتله فصاروا مئة، أما الثاني فقال له: لك توبة لكن غادر هذا البلد إلى بلد آخر.

فيا أيها الأخوة

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أخواننا الكرام، قصدت من هذه الآية فقط أن القوي محترم، ولا بد من أن يكون لك هيبة. وقال سيدنا عمر تقول السيدة عائشة: "ما رأيت أزهد من عمر، إذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع".

أردت من تفسير هذه الآية أن كل واحد من أخواننا الشباب عليه ألا يقبل أن يكون فقط عنده أشياء بسيطة جداً، كن بطلاً، باب التوبة مفتوح على مصارعه إلى يوم القيامة، تفوق بالعلم، متاح لك أن تتعلم.

مرة هذا الموضوع تحدثت به سألني طفل عمره خمس سنوات، قال: أنا ماذا أفعل؟ قلت له: تفوق

بدراستك، أنا أقول للشباب: تعلم، كن خبيراً، اختر فرعاً مهماً للأمة، قدم علمك للأمة، وهذه النية الطيبة تتفوقوا بها إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (15-70):تفسير الآية 16، مراقبة الإنسان لنفسه ومن خلال هذه المراقبة يتقرب إلى ربه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-07-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الدنيا دار عمل و تكليف و الآخرة دار جزاء و تشريف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة الكرام، حقيقة هذه الدنيا أنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. هذه الدنيا دار عمل وليست دار جزاء، هذه الدنيا دار تكليف وليست دار تشريف، هذه الدنيا دنيا، وبعدها حياة عُليا، دار دنيا ودار عُليا، الدار الدنيا فيها متاعب، فيها ابتلاءات، فيها أمراض، فيها هموم، فيها أحزان، فيها موت، فيها مرض، فيها فقر، فيها قهر، طبيعة الحياة الدنيا إعداد للآخرة، لذلك اعلم يقيناً أنك مبتلى شئت أم أبيت.

الأمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ سُئل: ندعو بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

الدنيا دار ابتلاء وتأديب وإكرام :

لا تصدق أيها المؤمن أن تصل إلى الجنة التي عرضها السموات والأرض والذي فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

لا تصدق أن تصل إلى الجنة من دون امتحانات، والدليل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

الأصل في الدنيا أنها دار ابتلاء.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة]

أنت حينما توطن نفسك على أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، حينما توطن نفسك أنه لا بدّ من أن يكون في حياة المؤمن نقطة سلبية يمتحن بها، أي بشكل أو بآخر المؤمن إن خالف منهج الله فأمامه تأديب، وإن استقام على أمر الله فأمامه ابتلاء، فلابد من أن تكون حياة المؤمن منطوية على ابتلاء، وتأديب، وإكرام، والأرجح أن حياته تستقر على الإكرام، لابدّ من مرحلة يؤدب فيها إذا خالف منهج الله، ولابدّ من مرحلة يمتحن فيها إذا استقام على أمر الله، ثم تأتي مرحلة التكريم، وهذه المراحل الثلاثة إما أن تكون متداخلة، أو أن تكون متمايزة.

لذلك الطالب عندما يوطن نفسه على أن العام الدراسي عام جهد كبير، وعام سهر طويل، وعام قراءة متأنية، وعام بعدٍ عن كل حظوظ الدنيا، من أجل أن ينال شهادة عُليا يتيه بها على الآخرين، عندئذ ينجح.

لا توطن نفسك أبداً على أن الدنيا دار استمتاع، دار استرخاء، دار نعيم، دار سرور، المؤمن يُسر، ويسعد، وينعمه الله، لكن هدفه طاعة الله، تأتي السلبيات والإيجابيات، يأتي الإكرام والتأديب، يأتي الامتحان والتكريم.

بطولة الإنسان أن يفهم حقيقة الدنيا ليستقبل متاعبها بالرضا و مصائبها بالشكر :

إذاً حينما تكتشف حقيقة الدنيا بل إن جزءاً من عقيدتك أن تفهم حقيقة الدنيا، هذه الدنيا ليست دار استقرار، ممر وليست مقراً، هذه الدنيا دار عمل لا دار جزاء، هذه الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الدنيا نخرج منها، أما الجنة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر الآية : 48]

بطولتك أن تفهم حقيقة الدنيا، إن فهمت حقيقة الدنيا تستقبل متاعبها بالرضا، تستقبل مصائبها بالشكر، تستقبل جهدها الكبير بالرضا.

أيها الأخوة، الآية الكريمة :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا)

أي هل من الممكن أن تدخل لجامعة، تنتسب لجامعة، تدفع أقساطاً، و لا يوجد فحص ولا دوام ولا متابعة وبعد أربع سنوات تمنح الليسانس بدون امتحانات؟ هل يوجد بالأرض جامعة تفعل هذا؟ هل يوجد في الأرض كلها جامعة تعطي شهادة من دون امتحان؟ مستحيل!.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

إن كنا ممتحنين، اعتقد يقيناً وهذا جزء من آثار النبي عليه الصلاة والسلام.

الإنسان لن يُمكّن قبل أن يُبتلى :

أعيد النص على مسامعكم مرة ثانية: إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تستقيم لإنسان، الصحة جيدة، الدخل قليل، الدخل كبير هناك آفة في الجسم ـ مرض ـ لا يوجد مرض وهناك دخل كبير لكن الزوجة سيئة، الزوجة جيدة، الأولاد غير أبرار، الأولاد جيدون لكن الدخل قليل، أي طبيعة الحياة الدنيا لابدّ أن تمتحن من زاوية، إما من زاوية الدخل، أو من زاوية العمل، أو من زاوية الزوجة، أو من زاوية الأولاد، أو من زاوية المسكن، أو من زاوية الصحة، لا بدّ من أن تمتحن.

أعيد على مسامعكم قول الأمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ حينما سُئل: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تُبتلى.

وهذه الآية تؤكد هذه الحقيقة،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن تترك بلا امتحان، طعام، شراب، بيت فخم، دخل كبير، صحة جيدة، زوجة رائعة، أولاد، هكذا، موت إلى الجنة، مستحيل! هذا مستحيل وألف ألف ألف مستحيل،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا)

الله عز وجل حكيم، قد يعطيك صحة ومعها امتحان، قد يعطيك بيتاً ومعه امتحان، قد يعطيك زوجة وفية ومعها امتحان، قد يعطيك أولاداً أبراراً ومعهم امتحان، اعتقد يقيناً بأنك لابد من أن تبتلى، والآية الدقيقة

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

والآية الثانية:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 1]

بطولة الإنسان أن يقف من المصائب موقفاً كاملاً :

الآن اسمع هذه القاعدة: ليست البطولة ألا تصيبك مصيبة، هذا مستحيل! لكن البطولة أن تقف من المصيبة موقفاً كاملاً، ليست البطولة ألا تصاب بمصيبة، لكن البطولة أن تقف الموقف الكامل من المصيبة، فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، هو نفسه يقول:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت علي ثلاث من بين يوم وليلة ومالي طعام إلا ما واراه إبط بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

جاع النبي الكريم، وخاف النبي الكريم، خاف، وجاعَ، وضيّق عليه الكفار، وهددوه بالقتل، وأخرجوه من بلده، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق قد ابتلاه الله، فاعتقد يقيناً أنه لن ينجو مؤمن من الابتلاء. لكن أحياناً ترى إنساناً غارقاً في المعاصي والآثام، ومع ذلك يتمتع بصحة جيدة، ومركز قوي، ودخل فلكي، ويتبجح، ويتكبر، ويتعاظم، نقول: هذا الإنسان له موقف عصيب بعد حين.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية : 13]

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[سورة المدثر]

أحياناً الإنسان يتوهم أن الله عز وجل إذا أعطاه الدنيا فهو يحبه، ليس كذلك، والدليل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

ليس باباً بل أبواباً، ليس أبواب شيء بل أبواب كل شيء.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية:44]

أي الله عز وجل يرحم المؤمن فيعالجه على كل قضية معالجة سريعة، لكن غير المؤمن قد يسمح له أن يعلو، ويعلو إلى أن يصل إلى قمة العلو وهنا يسقط سقوطاً مريعاً، أيهما أفضل أن تعالج يومياً؟ أن تعالج عند كل مشكلة؟ عند كل خطأ؟ عند كل غفلة؟ عند كل نذم؟ أم أن تجمع لك هذه العقوبات في عقوبة كبرى ماحقة؟ والله الذي لا إله إلا هو إذا رأيت أن الله يتابعك، ويحاسبك على كل كلمة، على كل تقصير، على كل ابتسامة ساخرة، على كل تعليق لاذع، إن رأيت الله يتابعك فاعلم علم اليقين أنه يحبك، وهذه بشارة والله لمن يتابع.

الله عز وجل يسوق للإنسان المصائب ليتذكر أخطاءه :

شيء آخر:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن الآية: 11]

يهدي قلبه إلى سرّ المصيبة، جاءت مصيبة يا رب ما السبب؟ أين الخلل؟ أين الخطأ؟ أين التقصير؟ أين المعصية؟ والله سبحانه وتعالى يهدي قلبك أيها المؤمن حينما يسوق لك بعض الشدائد، يذكرك ببعض الأخطاء، هذه من أجل هذه، لذلك:

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

مرة ثانية: بطولتك أن تكتشف عندما تأتي المصيبة أين الخلل؟ أين الخطأ؟ أين التقصير؟ لا تحابي نفسك، لا تتوهم أنها مصيبة ترقية، لا، ظن بأخيك ظناً حسناً، إن أصابت أخاك مصيبة، قل: إنها مصيبة ترقية ، أما لنفسك فقل: لابدّ من خلل، لابدّ من خطأ، لابدّ من تقصير،

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل، أن تساق لإنسان مصيبة بلا سبب، والدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

[سورة النساء]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

أي الله عز وجل حكيم يضعك في ظرف تكشف على حقيقتك، وكلما استطعت أن تخدع الناس تولى الله كشف الحقيقة.

الإنسان يعرف نفسه معرفة يقينية :

لذلك قيل في بعض الأمثال الأجنبية: بإمكانك أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، بإمكانك أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، فهذا مستحيل! بل أضيف على ذلك: أما أن تستطيع أن تخدع نفسك، أو أن تخدع ربك لثانية واحدة، فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، والدليل:

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

والإنسان يعرف نفسه معرفة اليقين، لذلك مرة كتب على سرير في أحد الفنادق بألمانيا: إن لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فرشنا، إنها وثيرة، لكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة، وهناك فطرة والفطرة تحاسب، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية:20]

الإنسان ممتحن دائماً وإذا لم ينجح كان عدم النجاح حجاباً بينه وبين الله :

أيها الأخوة، كلفك الله أن تجاهد نفسك وهواك، يضعك في ظرف تعتذر، تنسحب، ترفض أن تشارك، ترفض أن تدفع، امتُحنت، صدق ولا أبالغ أنت ممتحن كل يوم، بل ممتحن كل ساعة، سألك سائل، طُلب منك لقاء، اعتذرت، مشغول، وأنت لست كذلك، امتحنك ولم تنجح

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

اعتقد أنك ممتحن في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل موقف.

دخلت للبيت، طلبت منك أمك دواء، قلت لها: الصيدليات كلها مغلقة، سكتت، وتعلم أنت علم اليقين أن هناك صيدليات مناوبة، هي سكتت، امتُحنت فلم تنجح.

أيها الأخوة، أنت حينما تعلم أن الله يمتحنك دائماً، فإذا نجحت في الامتحان تألقت، وكنت قريباً من الله عز وجل، وإذا لم تنجح كان عدم النجاح حجاباً بينك وبين الله،

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

طبعاً الله عز وجل عنده علم كشف، وعلم حصول، لكن علم الكشف لا يعد أصلاً في المحاسبة، أما علم الحصول فيعد أصل.

مثلاً: طالب كسول جداً، لم يكتب أية وظيفة، و لم يكتب إجابة لأي سؤال، وكلما سُئل يقول: لا أعلم، هذا الطالب راسب، هل من المناسب أن المدرس يصدر قراراً بترسيبه دون امتحان؟ مستحيل! يخضع لامتحان، وحينما يقدم الأوراق بيضاء، ويأخذ الأصفار، عندئذٍ يصدر قراراً برسوبه.

فعلم الله الكشفي لا تحاسب عليه، لكن تحاسب على علم الله الحصولي، العلم الواقع، وضعك بامتحان ولم تنجح، هذا العلم حصولي، أما الكشفي فليس لك علاقة به أبداً، فهذا الذي امتُحن ولم يجاهد، لم يبذل جهداً في طاعة الله، لأتفه سبب اعتذر، انسحب، لم يشارك، قال: لا أستطيع وهو ليس كذلك، طُلب منه قرض حسن لإنسان مؤمن صادق، اعتذر، يا ترى اعتذاره صحيح؟ لا يملك أم يملك ولم يقدم هذه العمل الصالح؟ فأنت لاحظ نفسك بأن الله يمتحنك دائماً.

علامة المؤمن أنه يستفتي الله ورسوله أما ضعاف الإيمان فيلجؤون للكفار :

الآن:

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

مدخل.

المؤمن قد يلجأ إلى مؤمن، لا يوجد شيء، وضع طبيعي، المؤمن قد يلجأ إلى رسول الله وضع طبيعي، قد يلجأ إلى الله وضع طبيعي، أما أن يلجأ إلى كافر ليظهر أمامه ضعيفاً ويتذلل أمامه؟.

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

المؤمن يتخذ من الله ومن رسوله

(وَلِيجَةً)

أي يسأل القرآن عن هذا الموقف، أدخل القرآن في حياته، يسأل السنّة النبوية، ما حكم وضعي؟ دخل في السنة، دخل في القرآن، دخل فسأل عالماً، الدخل مشبوه أم صحيح؟ دخل على مؤمن، أو دخل السنّة، أو دخل القرآن، ليطمئن، أعتقد أن القرآن والسنة والمؤمنين هؤلاء مراجع له، فرجع إليهم،

(وَلِيجَةً)

أي مدخلاً، دخل عليهم، ليسأله، ليطمئن على وضعه، على دخله، على بيته، على ماله، لذلك فإن علامة المؤمن أنه يستفتي، يسأل، أما ضعاف المؤمنين أو غير المؤمنين فيلجؤون للكفار.

لذلك قالوا: من شكا إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى لكافر كأنما اشتكى على الله، الكافر يشمت، الكافر يدعوك إلى معصية، يدعوك لقرض ربوي، يدعوك لإلغاء عمل صالح، فالمؤمن لا يلجأ ولا يستفتي إلا مؤمناً يخاف الله، وقد يستفتي رسول الله من خلال سنته، وقد يستفتي ربه من خلال قرآنه، يرجع إلى القرآن، وإلى السنّة، وإلى من يثق من العلماء.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا)

ما اتخذ

(مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

بل دخل على الله من خلال قرآنه، ودخل على النبي من خلال سنته، ودخل على المؤمنين من خلال استشارتهم.

الله عز وجل يعلم حقيقة الأمور و مقاصدها :

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هو الخبير، يعلم كل شيء يخطر في بالك، لا تخفى عليه خافية.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

للتقريب طبيب يفحص مريضة، سمح الشرع له أن ينظر إلى مكان المرض لكن اختلس النظر إلى مكان آخر، من يكشفه؟ ليس على وجه الأرض كلها جهة تستطيع أن تكتشف خائنة العين، قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

خبير بعملك، ما البواعث؟ ما الدوافع؟ ما الحيثيات؟ ما الظروف؟ ما الأهداف؟ ما الطموحات؟ والله عز وجل هو الخبير بما تعمل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء الآية:17]

قد تقول كلاماً أحلى من العسل، وأنت موقفك من هذا الذي تقول له هذا الكلام ليس كما تقول، تتخذ هذا الموقف أسلوباً كي تصل لهدفك، من يعلم ذلك؟ الله عز وجل.

مرة إنسان عنده آلاف الدونمات، فأقنعه شخص قال له: إذا قدمت لجامع خمس دونمات مثلاً، تضطر البلدية أن تفرز أرضك إلى محاضر، فإذا فرزت إلى محاضر، ارتفع ثمن الأرض عشرة أضعاف، فهو قدم خمسة دونمات لمسجد، هو عند الناس محسن كبير، ما شاء الله! قدم خمسة دونمات لمسجد بنية إلى أن تضطر البلدية إلى تقسيم أرضه المشاع إلى محاضر، فلما قسمت إلى محاضر ارتفع سعرها أضعافاً مضاعفة، هو عند الناس محسن، أما عند الله ليس بمحسن، منتفع، فالله عز وجل يعرف

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

ولاحظ هذه الملاحظة أن كل كلمة تقولها، وكل حركة تتحركها، وكل سلام تطرحه على الآخر، يعلم الله حقيقته، يعلم بواعثه، يعلم مقاصده، يعلم مؤداه، لذلك:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

أفضل أنواع الإيمان أن يعلم الإنسان أن الله معه :

الإنسان حينما يوقن أن الله مطلع عليه يتأدب مع الله، بل إن أفضل أنواع الإيمان أن تعلم أن الله معك، يسمعك، أفضل أنواع الإيمان أن تعلم أن الله يعلم، هناك بعض الآيات في معرض الحديث عن الحج:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

[سورة المائدة الآية: 97]

إذا علمت بأن الله يعلم استقمت على أمره،

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

العمل حجمه، بواعثه، العقبات، الصوارف، الحيثيات، المؤدى، كم كلفك هذا الموضوع؟ كم ضحيت من أجله؟ كل هذه الحيثيات يعلمها الله عز وجل، لأنه خبير بما نعمل.

من شروط العمل الصالح الإخلاص و الصواب :

بالمناسبة العمل لا يقبل عند الله إلا بشرطين: إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتُغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، شرطان أساسيان في تفسير قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية:19]

العمل الذي يرضي الله ينبغي أن يكون صواباً وفق السنة، يقول لك: يانصيب خيري، حفلة غنائية يرصد ريعها للأيتام، هذا عمل ليس صواباً، ينبغي أن يكون صواباً وخالصاً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، هذا العمل الذي يقبله الله عز وجل.

أيها الأخوة،

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

لذلك الإخلاص ينفع معه كثير العمل وقليله، ومن دون إخلاص لا ينفع لا كثير العمل ولا قليله، العمل من دون إخلاص لا قيمة له.

((يؤتى برجال يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباء منثورة، قيل يا رسول الله جلهم لنا، قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلو من محارم الله انتهكوها))

[ابن ماجه عن ثوبان]

لذلك: من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

بالمناسبة أيها الأخوة، الإنسان خارج بيته يلبس ثياباً جميلة، ويبتسم، ويتأنق ويتعطر، كله من أجل مكانته، لكن أخلاقه الحقيقية متى تظهر؟ في البيت، لا رقيب، ولا حسيب، أخلاقه الحقيقية تظهر في البيت، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

الأخلاق الحقيقية التي ينبغي أن تكون عليها تكون في البيت.

بطولة الإنسان أن يشعر أن الله يراقبه :

أيها الأخوة، إذاً

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فالإنسان أحياناً خارج البيت يهمه مكانته، يهمه منظره، يهمه ثناء الناس عنه، فإذا تجمل وتأنق وتواضع وابتسم، هذه من أجل مكانته، لكن متى تظهر أخلاقه على حقيقتها، في البيت، ما في رقيب ولا حسيب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

ولمجرد أن تشعر أن الله يراقبك، وأن الله معك، وأن هذا العمل لا يرضيه، أو أن هذا العمل يرضيه، مراقبة الله للإنسان المستمرة أحد أكبر أسباب استقامته، راقب الله، لماذا دعوت فلاناً؟ لماذا مدحت فلاناً؟ لماذا تجشمت المصاعب لهذا السفر؟ لماذا غضبت؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ لماذا تساهلت هنا ولم تتساهل مع هذا؟ أحياناً مع امرأة بمعاملة يتساهل الإنسان تساهلاً مذهلاً معها، يأتي مواطن ذكر، فيجد تعقيدات لا تحتمل، لماذا؟ لماذا تساهلت معها ولم تتساهل مع هذا الإنسان؟ والله كله فيه حساب.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

والبطولة أن تشعر أن الله يراقبك، بل إن حال المراقبة من أرقى الأحوال، إن الله يراقبك.

أيها الأخوة، هذه الآية

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

أي مدخلاً

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

البطولة أن تراقب نفسك في العمل، وأن تعلم يقيناً أن الله معك ويراقبك،

والله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء الآية:1]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (16-70):تفسير الآية 17 ، الآداب التي يجب على الإنسان أن يؤديها في بيوت الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-07-09

بسم الله الرحمن الرحيم

عدم السماح للمشركين بدخول بيت الله الحرام :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

أيها الأخوة الكرام، كان البيت الحرام قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام منتدى لأهل قريش، منتدى يجلسون، يتسامرون، ينشدون الأشعار، أي النشاطات التي تؤدى في هذا البيت لا علاقة لها بالعبادة إطلاقاً.

لذلك الله عز وجل أعطى توجيهاً من خلال القرآن وسنة النبي الكريم أن هؤلاء لا يسمح لهم بدخول بيت الله الحرام،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

العمارة هي الجلوس في المسجد، والنشاط الذي يؤدى به، لا الجلوس هدف العبادة، ولا النشاط يتصل بالدين، أشعار، وندوات، ومسابقات، وما إلى ذلك، فلذلك جاء الرد الإلهي، وهذا البيت الحرام البيت الأول.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران الآية:96]

البيت الحرام بيت الله عز وجل في الأرض :

أخوتنا الكرام، إن صحّ التعبير تمشياً مع الجانب المادي في الإنسان اتخذ الله لذاته العلية بيتاً في الأرض، بيت الله الحرام له خصائص، في هذا البيت يُقبل الله على عباده، الصلاة في هذا البيت لها طعم آخر، لذلك يجب أن تكون لهذا البيت خصوصية،

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً)

معنى ذلك أنك إذا دخلت إلى بيت الله الحرام، أو بشكل آخر إذا دخلت إلى أي مسجد، ورد في الآثار:

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها))

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سنّ لنا إذا دخلنا المسجد أن ندعو بهذا الدعاء:

((اللّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

وكلمة رحمة كبيرة جداً، عطاء إلهي، يا ترى ما طبيعة هذا العطاء؟ عطاء منوع؛ حفظ رحمة، توفيق رحمة، استجابة الدعاء رحمة، يلقي الله في قلبك نوراً رحمة، ترى به الحق حقاً والباطل باطلاً، يتجلى على قلبك، العبد موصول بالله، بخالق السموات والأرض، بالقوي، الأقوياء من بني البشر بيده، دقق بهذه الآيات:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود الآية: 55]

تحدٍّ:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: 56]

أنت حينما تؤمن بهذا الإله العظيم، خالق السماوات والأرض، رب العالمين، وأنت معه، إذا كنت معه فمن عليك؟ أي من يستطيع أن يصل إليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ وإن فقدت الصلة به ماذا وجدت؟ لم تجد شيئاً، وإن اتصلت به ماذا فقدت؟ لم تفتقد شيئاً.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

معرفة الله عز وجل و الاتصال به أعظم عمل على الإطلاق :

والله أيها الأخوة، ما من عمل على الإطلاق في حياة كل منا أعظم من أن تتعرف إلى الله، وأن تتصل به، الدنيا محدودة، الدنيا لها سقف، الدنيا أمد قصير، سنوات تمضي، فإذا الإنسان أمام ملك الموت، هو يُقدم على حياة أبدية، هذا الذي عرف الحقيقة في الوقت المناسب، دققوا في هذه الآية:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود الآية: 28]

أنت المخلوق الأول، مخلوق للجنة، الجنة فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

إلى أبد الآبدين، مخلوق للجنة، وثمن هذه الجنة أن تأتي إلى الدنيا، وأن تستقيم على أمر الله، وأن تعمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله، والله ما حرمك شيئاً في الدنيا، لكن أعطاك الأشياء بطريق نظيف، المرأة؟ هناك زواج، المال؟ هناك تجارة، أي شيء يسعدك في الدنيا له قناة نظيفة تسري من خلاله.

أكبر خاسر في الأرض من يأتي الدنيا و يغادرها و لا يعرف الله تعالى :

لذلك هذا الذي يأتي إلى الدنيا، ويغادرها، وما عرف الله، هو أكبر خاسر في الأرض.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر الآية:15]

ينبغي أن تعرف من أنت؟ أنت المخلوق الأول، الأول في الكون، المخلوقات لا تعد ولا تحصى، النباتات مخلوقات، الجمادات مخلوقات، الحيوانات مخلوقات، الملائكة مخلوقات، الجن مخلوقات، الإنسان هو المخلوق الأول، لأن الله عز وجل حينما عرض على البشر الأمانة قبلها البشر، قبلها الإنسان، فلما قبل حمل الأمانة سخر الله له.

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية :13]

ينبغي أن تعرف أنك المخلوق الأول، وأن سرّ وجودك في الدنيا أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، وأن تحمل نفسك على طاعته، وعلى التقرب إليه بالأعمال الصالحة، إن فعلت هذا حققت الهدف من وجودك، حققت سرّ وجودك، وغاية وجودك، إن فعلت هذا فزت فوزاً عظيماً.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية:71]

الطريق إلى الله سالكة بطاعته و الخضوع لأمره :

كلمة عظيم قد يقولها طفلٌ صغير، يقول لك: أنا معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ بمئتي ليرة، فإذا قال مسؤول كبير بالبنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كلمة عظيم من مسؤول تقدر بمئتي مليار، فإذا قالها رب العالمين:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

إذا آمنت بالله أقسم لك بالله: قلامة ظفر مؤمن تساوي أهل الأرض الفسقة، قد يكون الإنسان مؤمناً ضعيفاً، موظفاً بسيطاً، مواطناً عادياً، لا يملك إلا قوت يومك، وهو عند الله كبير.

يروى أن النبي الكريم دخل عليه أحد الصحابة فهش له وبش، وقال له: أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، هذا الصحابي الجليل فقير، قال: أو مثلي؟! قال له: أنت خامل في الأرض علم في السماء. أخواننا الكرام، أنا أخاطبكم، كل واحد منكم يستطيع أن يكون عالماً في السماء، الطريق إلى الله سالكة، لا تحتاج إلى ميزة.

من عرف الله و أطاعه حقق الهدف الأكبر من وجوده في الدنيا :

الآن هناك مناصب لا يوجد أمل لتصل لها، تحتاج شهادات، وتحتاج انتماءات، وتحتاج قدرات، أما أي إنسان يصل إلى أقرب مكانة عند الله بطاعته فقط، أي أن تتعرف إلى الله، أن يكون بينك وبين الله ود.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: 96]

إذا كان معك هاتف شخص عادي جداً بوزارة معينة، تتيه بهذا الرقم، يقول لك: عند الضرورة خبرني، فإذا كنت على اتصال بخالق السموات والأرض! يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ أي متاح لنا جميعاً أن نصل إلى الله، والوصول إلى الله بإمكاناتنا متاح لنا، أن تستقيم على أمره، أن تؤدي العبادات، أن تخدم عباده، لذلك هذا المشرك الذي عبد غير الله، عبد زيداً أو عبيداً، عبد قوياً، عبد غنياً، عبد متسلطاً، خضع له، نسي ربه، هذا المشرك احتقر نفسه، أنت لله، قالوا: الجماد من أجل النبات، والنبات من أجل الحيوان، والحيوان من أجل الإنسان، والإنسان من أجل من؟ من أجل الواحد الديان، خلقك من أجل أن تعرفه.

فلذلك أنت حينما تعرف الله، وحينما تطيعه، تكون قد حققت الهدف الأكبر من وجودك في الدنيا، والذي جاء إلى الدنيا وخرج منها وما عرفه، أي لم يحقق الهدف الأكبر في حياته

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

تعبير الله عز وجل عن بيت الله الحرام بكلمة مسجد :

بعض المفسرين فسروا المساجد ببيت الله الحرام، لذلك كما هو معلوم ممنوع أن يدخل المشركون منطقة الحرم كلها، فأنتم ترون في الذهاب إلى مكة قبل الوصول لمكة، هناك طريق لغير المسلمين لينقلوا إلى غير مكة، أما مكة بحرمها الكبير، وبيت الله الحرام فيها، ممنوع على غير المسلم أن يدخله، استناداً لهذه الآية، طبعاً هذا مكان عبادة إسلامية، مكان اتصال بالله، فالذي يعبد غير الله ليس له مكان عندنا.

مثلاً الجامعة لطلاب العلم، وهناك إنسان أُمي لا يقرأ ولا يكتب، أراد أن يدخلها لتجارة، هنا لا يوجد تجارة، هنا يوجد طالب علم، وهناك قاعات تدريس، وأساتذة، و دكاترة، هذا المكان ليس للتجارة، التجارة في الأسواق، الذي يريد الدنيا متاحة له الأرض كلها، أما بيت الله الحرام لمن يريد الآخرة، لمن يريد الله عز وجل،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

لأن بيت الله الحرام كل مكان فيه جهة للقبلة، من طرف الشمال إلى الجنوب، ومن طرف الجنوب إلى الشمال، من طرف الشرق إلى الغرب، ومن طرف الغرب إلى الشرق.

مرة إنسان سأل آخر في بيت الله الحرام، أين القبلة؟ قال له: الكعبة أمامك، قال له: الكعبة واضحة، قلت لك: أين القبلة؟ هو جاهل، فأي إنسان دخل بيت الله الحرام من أي جهة، قبلته الكعبة، بعض العلماء قالوا: كل جهة مسجد، كلمة مساجد هنا في هذه الآية بالذات تعني بيت الله الحرام، المساجد هنا باتجاه الجنوب، مساجد اليمن باتجاه الشمال، مساجد العراق باتجاه الغرب، مساجد بلد آخر باتجاه الشرق، كشمال إفريقيا، لكن بيت الله الحرام فيه كل الاتجاهات بأي مكان باتجاه الكعبة، فعُدّ أي مكان مسجداً، فالله عبّر عن بيت الله الحرام بكلمة مساجد:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

هذا مكان للصلاة، مكان للعبادة.

لذلك ورد في الأثر: أن الحديث في المسجد، حديث عن الدنيا، عن التجارة، عن الأعمال، عن فرص العمل، عن شؤون الدنيا، إذا تُكلم بها في المسجد قال: إنها تحبط العمل، هذا المكان لعبادة الله، والدليل عند الدخول إلى المسجد ينبغي أن تقول :

((اللّهمَّ افْتح لي أبواب رحمتك))

والخروج من المسجد يقتضي أن تقول:

((وافتحْ لي أبواب فضلك))

[الترمذي عن فاطمة الزهراء]

أنت دخلت واتصلت بالله تسأل الله أن يفتح لك طريق الصلة به، أما إذا خرجت من المسجد تسأل الله جلّ جلاله أن يفتح لك عملاً صالحاً يعبر عن اتصالك بالله عز وجل، خارج المسجد اسأل الله أن يهبك عملاً صالحاً، ضمن المسجد اسأل الله أن يمنحك صلة به، هذا المكان مكان اتصال بالله.

منع المشركين من دخول بيت الله الحرام :

أيها الأخوة، في بعض الأحاديث الشريفة:

((لا يدخل المسجد مشرك))

[ابن جريج عن عطاء]

((لا يطوف في البيت عريان))

[أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه]

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يطوفون بالبيت عراة، لماذا؟ قال: لأن ثيابهم ارتكبوا فيها المعاصي فخلعوها كلياً، وطافوا عراة، وقد فعلوا معصية أكبر من معاصيهم.

أيها الأخوة، طبعاً أول توجيه:

((لا يدخل المسجد مشرك))

[ابن جريج عن عطاء]

((لا يطوف في البيت عريان))

[أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه]

(مَا كَانَ)

هذه عبارة فيها نفي الشأن، طبعاً للتوضيح: ما هو نفي الشأن؟ هناك نفي الحدث و هناك نفي الشأن، لو إنسان سأل شخصاً قال له: هل أنت جائع؟ يقول: لا، لكن لو قال له: هل أنت سارق؟ هل يكفي أن يقول: لا، يقول: ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، ليس من شأني أن أسرق، ولا من طبيعتي، ولا من منهجي، ولا من مبدئي، ولا أقبل، ولا أسمح، وأرفض، وألوم، وأوبخ، وأعاقب، يمكن أن يحكي لك خمسين كلمة، بمعنى ما كان لي أن أسرق، فكلمة:

(مَا كَانَ)

تعني نفي الشأن، أما هل أنت جائع؟ لا، نفي الحدث، الجوع حدث، أنت لست جائعاً، أما أُتهم إنسان بالسرقة، لا يقول: لم أسرق، يقول: ما كان لي أن أسرق.

لذلك هنا هذا النفي، أي لا يدخل المشركون البيت الحرام،لا، لا، بل أعمق من ذلك،

(مَا كَانَ)

أي أيُّ إنسان لم يؤمن بالله، آمن بالأصنام، ما سرّ وجوده في بيت الله الحرام؟ جامعة للتعليم والتدريس، إنسان أميّ ومجرم، ليس له علاقة بالجامعة، بالعلم أميّ، بالسلوك مجرم، في الجامعة ليس له مكان أبداً، فعدم إدخاله الجامعة شيء طبيعي جداً:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

إنسان كافر بخالق السماوات والأرض، ماذا يعني المسجد له؟ أنا أقول لكم: تراث، فلكلور إسلامي، فالإنسان إذا لم يؤمن بالله أصلاً فكل مظهر إسلامي، أقواس، أبنية، مساجد، يقول لك: فلكلور إسلامي، هذا تراث إسلامي، أما المسجد عند المؤمن هذا بيت الله.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

البشر ثلاثة أصناف :

لو توسعنا قليلاً، أنت جئت إلى بيت الله وصليت، أنت حينما تقف بين يدي الله وتقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

يأتي التوجيه الإلهي:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء الآية:53]

تكلم الكلمة اللطيفة، الكلمة الحسنة، الكلمة التي لا تؤذي، هذا أمر إلهي، فأنت إذا قلت: الله أكبر، سبحان ربي العظيم، هذا الركوع الخاص بهذه الركعة، هو خضوع لله في تنفيذ هذه الآية،

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

أي وأنت في الركوع لسان حالك يقول: سمعاً وطاعة يا رب، فإذا وصلت إلى السجود: يا رب أعني على طاعتك، الركوع خضوع، والسجود استعانة، والسورة التي بعد الفاتحة توجيهات ربنا عز وجل، والفاتحة تمهيد للسورة،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

من هؤلاء الذين أنعمت عليهم؟ الذين عرفوا وطبقوا،

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

الذين عرفوا وانحرفوا،

(وَلَا الضَّالِّينَ)

الذين ما عرفوا وانحرفوا، فالبشر شئتم أم أبيتم ثلاثة أصناف، صنف عرف الله وأطاعه، والثاني عرفه ولم يطعه، والثالث ما عرفه ولم يطعه،

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

ملخص الصلاة :

الآن يقول الله لك:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الإسراء الآية:53]

هذا توجيه إلهي، الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سمعاً وطاعةً يا رب، سأقول لمن حولي

(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

سمع الله لمن حمده، الله أكبر، يا رب أعني أن أقول:

(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا ملخص الصلاة، الفاتحة تمهيد، والسورة توجيه، والركوع خضوع، والسجود استعانة بالله عز وجل،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

فبيت الله للعبادة، بيت الله لمعرفة الله، بيت الله للدعوة إلى الله، بيت الله لإقامة الصلاة، بيت الله للتعاون بين المؤمنين، بيت الله مكان للمسلمين،

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

أي لا يحق لهم، وليس من شأنهم، ولا يستحقون دخول هذا البيت، لك أن تأتي بأفعال لا تعد ولا تحصى من صيغة ،

(مَا كَانَ)

مرة ثانية: سُئل أحدهم هل أنت سارق؟ هو إنسان مستقيم، قال له: ما كان لي أن أسرق، أنا لا أسرق، ولا أطلب من أحد أن يسرق، ولا أرضى بالسارق، وأحارب السارق، وأذم السارق، يمكن أن تتكلم عشرات الكلمات بل ضعف عشرات ترجمة لكلمة ما كان لي أن أسرق، لذلك لم تنفِ الحدث، هل أكلت؟ لم آكل، نفى الحدث، أما هل سرقت؟ ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، نفي الشأن أبلغ من نفي الحدث.

آداب المساجد :

أخواننا الكرام، العلماء وضعوا آداباً كثيرة للمساجد، وهذه الآداب مستقاة من آيات كريمة، ومن أحاديث كثيرة، يأتي في مقدمة هذه الآداب: عدم تخطي الرقاب في المسجد، من هذه الآداب: ألا يكون

المسجد مكاناً لحديث دنيوي، لأنه هذا المسجد مكان عبادة، والدنيا لها مكان آخر، في الأسواق، لذلك ورد :" إن الحديث الدنيوي في المسجد يحبط العمل ويمحو الحسنات".

وكما قلت: عدم تخطي الرقاب، وعدم إيذاء المسجد، لا بصوتٍ، ولا براحةٍ، ولا بشيء من هذا القبيل، والله عز وجل يقول:

(خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف الآية:31]

أي الإنسان يكون مغتسلاً، متعطراً، ثيابه نظيفة، هذه تليق بالمؤمن، وهو في بيت من بيوت الله.

المسجد مكان السجود والعبادة :

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

قد يقصد بمساجد الله بيت الله الحرام وحده، لأنه بكل مكان بالمسجد يوجد قبلة خاصة، مجموع هذه القبلات سميت مساجد.

(مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

إنسان ليس مؤمناً بالله، المسجد ليس له عمل به إطلاقاً، فالمسجد مكان السجود، مكان للعبادة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((جُعِلت لي الأرضُ مسجداً))

[أخرجه النسائي عن جابر بن عبد الله]

هناك فرق بين أن يتخذ بناء للصلاة وحدها، هذا مسجد، وأي مكان تسجد فيه على الأرض يسمى مسجداً، مسجد كمكان السجود شيء، ومسجد كبيت أقيم للصلاة شيء آخر، أي هذا الدين العظيم سمح للمسلم أن يصلي في أي مكان، في بيته، في معمله، في حقله، أي مكان مسموح الصلاة فيه، أما إذا أتى إلى بيت الله صار هناك صلاة وهناك علم، مكان خاص للصلاة، لذلك أي إنسان يصلي في بيته فرضاً صلاة الفجر فهذا شيء مقبول، لكن:

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

[أحمد]

في بعض الأحاديث وهي متواترة، أن صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد في بيته سبعاً وعشرين ضعفاً، فأنت في البيت قد تقرأ:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص الآية: 1]

أما إذا صليت الفجر في المسجد، بكل ركعة تقرأ صفحة بكاملها.

اختلاف وجهات نظر العلماء في قضية القراءة من المصحف والإنسان يصلي :

بالمناسبة قضية أن تقرأ من المصحف واردة على اختلاف وجهات نظر العلماء، أما أنت حينما تقرأ بالركعة صفحة بكاملها، تتملى من هذه الآيات فإذا جاء الركوع خضعت لله، وإن جاء السجود، أي أحياناً قد تستفيد إذا قرأت من المصحف في الصلاة، لأنك لا تحفظ كتاب الله، فإذا أردت أن تعتمد على ذاكرتك فهناك الإخلاص، والمعوذتين، بكل صلاة، ومع التكرار تفقد السورة معناها، لذلك يمكن أن تقرأ في الصلاة من مصحف، على اختلاف بين الأحكام، طبعاً مسموح أن تقرأ من المصحف في النوافل قطعاً، أما في الفرائض فهناك اختلاف، أي منع أبو حنيفة ذلك وبقية العلماء أجازه.

على كلٍّ: جرب أن تصلي والمصحف أمامك وتقرأ صفحة بكاملها في كل ركعة، أول ركعة هذا الصفحة، والركعة الثانية هذه الصفحة، العبارة أن الصلاة:

((عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

أي الإيمان التوجه إلى الواحد الديان، الإيمان أن تخضع إلى الله، الإيمان أن تطبق منهجه، الإيمان أن تأتمر بأمره، الإيمان أن تنتهي عما نهي عنه وزجر، الإيمان أن يكون عملك إسلامياً، الإيمان أن يكون زواجك إسلامياً، الإيمان أن تبحث عن عمل صالح تتقرب به إلى الله عز وجل،

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل الصالح إن لم ترافقه نية طيبة وإخلاص لا قيمة له :

أخواننا الكرام، أخطر شيء أن يحبط العمل، عمل بنية لا ترضي الله، لا قيمة له إطلاقاً، ولا وزن له، مثلاً: إنسان عنده ألف دونم قيل له: لو تبرعت بخمسة دونمات لمسجد تضطر البلدية أن تفرز هذه الأرض إلى محاضر، فإذا فرزت إلى محاضر يتضاعف سعرها، إذاً قدم خمسة دونمات لبناء مسجد، عند الناس جميعاً المحسن الكبير، بهذه النية الذي أرادها لا وزن لعمله إطلاقاً، فلذلك:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب]

قال:

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل الصالح إن لم ترافقه نية طيبة وإخلاص لا قيمة له، لذلك الحديث:

((إنما الأعمال بالنيات))

قيمة العمل محددة بنيته، ما النية؟

(أولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

لذلك قالوا: عادات المؤمن عبادات، لو اعتنى بأولاده، لو أدخل على قلبهم الفرح، عمل صالح، لو اشترى ثياباً جديدة لأولاده على العيد فهذا عمل صالح، عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات،

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

عمله مرفوض ولو كان عبادةً، لأنه منافق،

(أولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

المؤمن الصادق يتحرى الإخلاص في عمله وفي كل شؤون حياته :

أخواننا الكرام، كل ما أتمناه أن يراقب الإنسان عمله، فإن كان ليس لله فهو خاسر.

مرة إنسان تروي الكتب أنه ما تخلف أربعين عاماً عن صلاة الفجر في المسجد، في أول صف، مرة فاتته الصلاة، فقال: ماذا يقول الناس عني؟ معنى هذا أن هدفه الناس.

راقب نفسك، أنت حينما قدمت هذا الطعام تبتغي السمعة أم الشهرة أم تبتغي إكرام هذا الضيف؟ أنت حينما أتيت إلى المسجد ليقال عنك من رواد المساجد أم تبتغي وجه الله؟ قضية الإخلاص لله قضية خطيرة، فراقب عملك، وتفحص نيتك.

(أولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

أي كما أن المعاصي لها أمكنة، قد تكون هناك معاص في بيوت الله، وقد تكون هناك إشراكات في بيوت الله.

فلذلك المؤمن الصادق يتحرى الإخلاص في عمله، وفي كل شؤون حياته، تصبح الآية في النهاية :

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)

المقصود بمساجد الله، بيت الله الحرام:

(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

ولبيوت الله آداب كثيرة إن شاء الله تعالى نعالجها بتفصيل في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (17-70):تفسير الآية 18 ، الآداب في المساجد.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-07-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

المسجد مكان عبادة فلا يجوز طرح أي موضوع دنيوي فيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

أيها الأخوة الكرام، وعدتكم في هذا اللقاء الطيب أن يكون الحديث عن آداب المساجد، فالله عز وجل يقول:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

[سورة الجن الآية: 18]

هذا المكان مكان عبادة، هذا المكان لذكر الله، فأي موضوع دنيوي، أو شخصي، أو متعلق بفئة من الناس، لا يجوز طرحه في بيت الله، والدليل هذه الآية:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

هنا الدعوة إلى الله، إلى الله وحده، الدعوة إلى الآخرين في مكان آخر، اختر أي مكان آخر إلا بيت الله من أجل أن تدعو به إلى غير الله، وهذا أول أدب من آداب المساجد، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري فيها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، فحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

أنت حينما تلجأ إلى الله ينبغي أن تأتي إلى بيته، أنت حينما تود أن تلتقي بإنسان تأتي إلى بيته، فأنت إذا أردت الله فاذهب إلى بيته.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري فيها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني))

الآن:

((وحق على المزور))

إكرام الله من يأتي إلى بيته بمنحه لذة القرب منه و حلاوة مناجاته :

من حقك على الله أن يكرمك الله في بيت الله، قد يقول أحدكم: كيف؟ من هذا الإكرام أن تذوق لذة القرب من الله، ،أن تذوق حلاوة مناجاته، وأن يمنحك الله بهذه الزيارة شهادة الإيمان،

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

فأنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله فهذه شهادة لك بأنك مؤمن.

((وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالأيمان))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

قال تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أي علامة إيمانك أنك ترتاد المساجد، علامة إيمانك أن تصلي في المساجد، علامة إيمانك أنك تطلب العلم في المساجد، علامة إيمانك أن قلبك متعلق بالمساجد، هذا بيت الله عز وجل، فعن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وعد منهم ورجل قلبه معلق في المساجد))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

هذا من السبعة الذي يظله الله يوم القيامة.

((يوم لا ظل إلا ظله))

من ذكره الله منحه الحكمة و الطمأنينة و الأمن :

أخواننا الكرام، معنى ذكرته كثيراً: إنك في بيت من بيوت الله تصلي، ذكر الله لك وأنت في بيت من بيوت الله تصلي أكبر من ذكرك له، أي لو إنسان سأل أي إكرام نأخذه في بيت من بيوت الله؟ قال: إذا ذكرك الله وأنت في بيته يمنحك الحكمة، والله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً)

[سورة البقرة الآية:269]

يمنحك التوفيق، يمنحك الرضا، يمنحك النجاح، يمنحك السعادة، يمنحك الأمن، يمنحك أن تحقق أهدافك في الدنيا، تصور خالق الكون يكرمك في بيته، وقد لا تجد كأساً من الشاي، أو كأساً من العصير، لكن قد تجد التوفيق في عملك، التوفيق في زواجك، التوفيق في تربية أولادك، التوفيق في قربك من الله عز وجل، إذاً:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ عدّ النبي الكريم من هذه السبعة ـ و رجل قلبه معلق بالمساجد))

من وفق في عمله أو زواجه فهذا من إكرام الله له :

حديث آخر:

((من غدا إلى المسجد أو راح))

[مسلم عن أبي هريرة]

معنى راح في اللغة راح إلى بيته أي عاد إلى بيته، غدا خرج من بيته.

((من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح))

أنت حينما يحين وقت الدرس تقوم وترتدي ثيابك، وتتوضأ، وتركب أول سيارة، وثاني سيارة، وقد تجد ازدحاماً في الطريق، وقد تجد صعوبة في ركوب السيارات، تصل إلى بيت من بيوت الله، فهل تصدق أنك لن تكرم من الله عز وجل؟ أحياناً توفق في عملك، أحياناً توفق في زواجك، هذا من إكرام الله لك، لأن الله عز وجل حينما قال:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة الآية: 201]

قال علماء التفسير: الزوجة الصالحة من حسنات الدنيا، التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا أمرتها أطاعتك، هذا إكرام من الله، ألا تحب أن تكرم في بيته؟ أن توفق في زواجك؟ أن توفق في تربية أولادك؟ أن توفق في عملك؟ أن توفق في دخلك؟ أن توفق في سعادتك؟.

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زواري فيها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

إذاً:

((من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح))

[مسلم عن أبي هريرة]

لكن من حيث اللغة عندما طرقت باب إنسان صديقك، فتح لك ابنه، قلت له: أبوك في البيت، قال لك: والله يا سيدي قبل قليل راح، تقول له: سلم عليه، هذا كذب، لأن كلمة راح عاد إلى البيت، توهمت أنت أنه ليس بالبيت، راح أي عاد إلى البيت، غدا: ذهب، راح:عاد.

نشاطات المسجد تسمو بالإنسان وترقى به وتغذي عقله :

ماذا في المسجد؟ ذكر الله تعالى، تلاوة القرآن، وعظ وإرشاد، تزكية للنفس، مجلس للعلم، فقه في الدين، كل نشاطات المسجد تسمو بك، وترقى بك، تغذي عقلك، وتغذي قلبك، وتصحح مسيرتك، إذاً كل الخير في بيوت الله عز وجل، وقد يغفل الإنسان عن ميزة أنت في المسجد مع من؟ مع المؤمنين، مع أخوانك المؤمنين، هذا مجتمع إيماني، فيه صدق، فيه أمانة، فيه وفاء، فيه محبة، فيه إخلاص، أي أكبر ربح لك أن تربح أخوة في المسجد، لهم مهن متعددة، وهناك محبة، و صدق، و تواضع، و بذل، و تضحية، فالإنسان إذا ربح أخاه المؤمن فهذا ربح كبير جداً، أين تجد هذا المؤمن؟ في المسجد، فأنت حين دخلت إلى بيت من بيوت الله لك أخوة مؤمنون، وأتمنى أن يتم التعارف فيما بينكم، فالإنسان إذا صافح أخاه في المسجد، ليسأله عن اسمه، وعن اسم أبيه، وعن عمله، وعن هاتفه، لك أخ، لأن الله عز وجل يريد أن نتعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية:2]

حضّ النبي عليه الصلاة و السلام على التعارف في المسجد :

أنت في المسجد يجب أن تعرف من في المسجد، لا أقول: أن تعرفهم جميعاً، لكن أن تعرف بعضهم، أخ مؤمن صادق، حتى أتمنى عليكم أن الأخ منكم إذا اتخذ له من رواد المسجد أخوة فإن غاب أحدهم فليتفقده، تصور إنساناً يرتاد بيت الله، غاب يوماً لأنه كان مريضاً، اتصل فيه أحد الأخوة الكرام، أقلقتنا، خير إن شاء الله، فقال له: أنا مريض، فزاره الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، فشعر بسعادة لا توصف، معنى هذا أنا إنسان مهم، لكن إذا دخل إنسان إلى المسجد، ولم يتعرف على أحد، ولم يسأل عن أحد، إن غاب لا يشعر به أحد، فأنا أتمنى وأنت في المسجد أن تتعرف على أخوة لك من سنك، من حرفتك أحياناً، من جيرانك، هناك علاقات حرفة، علاقات جيرة،علاقات أخوة في الله، سن متقاربة، حرفة متقاربة، سكن متقارب، فلابد من أن تتعرف إلى أخوتك الكرام، هذه المعرفة حضّ عليها النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الأخوة، مرة ثانية وثالثة: سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول: "ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ـ من هؤلاء الثلاثة ـ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من عند الله تعالى".

اسمعوا هذا الحديث:

((ما اجتمع قوم))

وأنتم قوم،

((في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله))

ونحن نتلو كتاب الله،

((ويتدارسونه بينهم، ويذكرون الله تعالى، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينةُ وغشيتهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

مرة ثانية:

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم ويذكرون الله تعالى ، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينةُ ، وغشيتهم الرحمةُ ، وحفَّتْهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عندَه))

آداب المساجد :

1 ـ محبة المساجد وتقديرها والنظر إليه بعين التكريم والتعظيم

من آداب المساجد، قال: محبة المساجد، وتقديرها، والنظر إليه من عين التكريم، والتعظيم، والتقديس، والاحترام، المسجد له مكانه كبيرة عندك، شيء عظيم، بيت الله، لذلك قال الله تعالى:

(فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية: 32]

أول أدب من آداب المسجد، المسجد له مكانة كبيرة عندك، مثلاً أنت قد تدخل إلى سوق، لكن دخلت إلى جامعة، كلمة جامعة، أي هناك علم، و أساتذة علماء، و تدريس، و اختصاصات مهمة جداً، كلمة جامعة غير سوق، من علامات إيمانك أنك تنظر إلى بيوت الله نظرة إكبار، وتعظيم، ومحبة، وتقدير، وتكريم، وتقديس، واحترام، هذا أول أدب من آداب المساجد، ينطلق من قوله تعالى:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية:32]

2 ـ العناية ببناء المساجد :

الأدب الثاني:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

[سورة النور الآية:36]

ما قال أن تبنى، لذلك العناية ببناء المساجد هذا نصه، هذا دليله،

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي العناية بالمسجد، بالتدفئة شتاءً، بالتكييف صيفاً، بالماء البارد، بالسجاد، بالنظافة، بالومضات الجمالية، هناك مسحة جمالية في المسجد، هذا بيت الله.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

[سورة النور الآية: 36]

ترفع لأن اسم الله يذكر فيها، نذكركم بالآية الأولى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ)

[سورة النور]

كلمة رجال تعني أبطالاً:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[سورة النور الآية: 37]

المسجد بيت كل تقي :

لذلك:

((المسجد بيت كل تقي تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح، والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

لذلك من أبرز آداب المساجد فضلاً عن محبتها، وتعظيمها، وتكريمها، أن تسعى إلى إشادتها، والقيام بنشاطاتها، والقيام بما تستطيع من جهد لبنائها، وتأمين حاجاتها الأساسية، ومرافقها، وأثاثها، وتشجيع الناس على التبرع لاستكمالها، وتجهيزها بما يليق بمكانتها، وابتغاء وجه الله عز وجل في كل ذلك، لذلك.

((من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة ـ طائر ـ بنى الله له بيتاً في الجنة))

[أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة عن جابر بن عبد الله]

والله أنا أغبط كل إنسان ساهم في بناء مسجد، ساهم في تأسيس مسجد، ساهم في تأمين حاجات أساسية للمسجد، حتى إن النبي الكريم يقول:

((المسجد بيت كل تقي تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

والحديث المتعلق بهذه الفقرة:

((من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة))

[أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة عن جابر بن عبد الله]

قال:

((من أسرج في مسجد سراجاً ـ وضع مصباحاً ـ لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه))

العمل على إضاءة المساجد ورد فيه حديث شريف.

3 ـ محافظة الإنسان على الصلاة في المسجد ولو كان بعيداً عن منزله :

الآن: المحافظة على الصلاة في المسجد ولو كان بعيداً عن منزلك، والمشي إليها ولو تحملت في سبيل ذلك الحر، والبرد، وظلمة الليل، ومشقة الطريق.

أخواننا الكرام:

((كان رجل من الأنصار لا أعلم أحد أبعد من المسجد منه))

هذا النص لإخوتنا الكرام للذين لهم بيوت بعيدة عن المسجد.

((كان رجل من الأنصار لا أعلم أحد أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقيل له: لو اشتريت حماراً تركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: قد جمع الله لك كل ذلك))

[رواه مسلم عن أبي بن كعب]

أليس هذا الحديث لأخوتنا الذين يبتعدون عن المسجد، والله مرة كنت في أمريكا هناك منطقة اسمها توليديو، فيها محاضرة، بعد أن انتهت المحاضرة، قال لي أحدهم: أنا فلان الفلاني ـ أخوه صديقي ـ: هل تعلم كم قطعت من الأميال حتى أصل إلى هذا المسجد؟ قلت له: لا أعلم، قال لي: ستمئة ميل، أي ألف

كيلومتر، ألف كيلومتر ليستمع إلى محاضرة في بيت الله، سبحان الله! تجد إنساناً بيته على بعد أمتار، ولا يرتاد المساجد، ألف كيلومتر من أجل أن يحضر هذه المحاضرة.

4 ـ التهيؤ للذهاب إلى المسجد بالطهارة وحسن الوضوء :

لذلك من متابعة آداب المسجد، التهيؤ للذهاب إلى المسجد، بالطهارة، وحسن الوضوء، والتسوك، ولبس الثياب النظيفة، وتقليم الأظافر، وترجيل الشعر، والتجمل، والتطيب، والدليل:

(يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف الآية:31]

وفي حديث آخر :

((مَنْ تطهَّر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضيَ فريضة من فرائض الله، كانت خطواتُه إحداهما تَحُطُّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كلها أحاديث صحيحة.

5 ـ إنهاء جميع الأعمال الدنيوية عند سماع الأذان والمسارعة إلى تلبية النداء :

من آداب المسجد إنهاء جميع الأعمال الدنيوية، وإيقاف كافة الأشغال المادية، عند سماع الأذان، والمسارعة إلى تلبية النداء، والتوجه إلى المسجد مهما كانت الأعذار، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

الشاهد إذا دعاكم، حيّ على الصلاة دعوة الله، حيّ على الفلاح دعوة الله:

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

((أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى، فقال: يا رسولَ الله، إنه ليس لي قائد يقودُني إلى المسجد، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَخِّصَ له؟ ليصلى في بيته فرَّخص له، فلما وَلَّى دعاه، فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم، قال: فأجِبْ داعي الله))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

أي الذي أفقده الله نعمة البصر، واستأذن النبي أن يصلي في بيته لم يأذن له، فكيف الذي يتمتع بنعمة البصر؟!

6 ـ الدخول إلى المسجد مقدم الرجل اليمنى :

من آداب المسجد الدخول إلى المسجد مقدم الرجل اليمنى، قائلاً: "بسم الله، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك"، أنت في بيت الله في أمس الحاجة إلى رحمة الله تتنزل عليك، تزداد إيماناً، تزداد محبة، تزداد اتصالاً، تزداد خشوعاً، تزداد تألقاً، تزداد كرماً، اللهم افتح لي أبواب رحمتك، كما يستحب أن ينوي الاعتكاف في المسجد مادام فيه، نويت الاعتكاف في هذا المسجد مادمت فيه، والخروج قال: مقدم الرجل اليسرى، واضع حذاءه أمامه بهدوء، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، اللهم إني أسألك من فضلك ـ بالدخول رحمتك، بالخروج من فضلك ـ عملاً صالحاً، بحسب اتصالك بالله في المسجد أنت بحاجة إلى عمل صالح، ترقى به عند الله، فعن النبي أنه قال:

((اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

7 ـ صلاة ركعتين سنة تحية المسجد قبل الجلوس :

من آداب دخول المسجد: صلاة ركعتين سنة تحية المسجد قبل الجلوس، إذا لم يكن وقت صلاة راتبة، ومن لم يتمكن من الصلاة لحدث، أو شغل، فليقل: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثلاث مرات، هذه تجزئ عن صلاة ركعتين هما تحية المسجد، والحديث الآخر:

((إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ]

8 ـ خلع الحذاء وإزالة ما علق به من أوساخ خارج المسجد :

الآن من آداب المسجد خلع الحذاء، وإزالة ما علق به من أوساخ خارج المسجد، وإطباقه ووضعه في أقرب مكان مخصص، والحذر من رفعه فوق الرؤوس، أو تلويث المسجد به، ثم إطباق باب المسجد بهدوء عند الدخول.

9 ـ الانتباه إلى طهارة الجوارب ونظافتها :

الآن الانتباه إلى طهارة الجوارب ونظافتها، قبل المشي بها على سجاد المسجد.

مرة قال لي إنسان: أنا أتأثر بخطبتك، ولكني صليت وراء إنسان لم يغسل جواربه من أشهر، فكرهت هذا الوضع كراهية لا حدود له، الإنسان المؤمن يغسل ثيابه، يغسل جواربه، يغتسل، ستنظف، هذا بيت الله هذا.

10 ـ تجنب أكل الثوم والبصل وما له رائحة كريهة :

من آداب المسجد تجنب أكل الثوم والبصل، وما له رائحة كريهة، لقول النبي الكريم:

((من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا))

[متفق عليه عن جابر]

في أعلى درجات الصحة، حديث آخر:

((من أكل الثوم والبصل فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم))

[مسلم عن جابر]

11 ـ تجنب تلويث المسجد بشيء من القاذورات أو النجاسات :

ومن آداب المسجد تجنب تلويث المسجد بشيء من القاذورات، أو النجاسات، كالمرور بأرجل عليها نجاسة، أو تلويثه بالقليل من الدم، كما يحرم التبول في المسجد ولو كان في وعاءٍ، ويحرم الاستنجاء فيه، هذا كله من قول النبي الكريم:

((إنَّ هذه المساجدَ لا تصلحُ لشيء من هذا البول والقذَر، إنما هي لِذِكْرِ الله، والصلاةِ، وقراءةِ القرآن))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أنس بن مالك]

أيضاً البصاق خطيئة كفارتها دفنها، إنسان يبصق في الجد أو في صحن المسجد، هذا الشيء يتنافى مع الآداب الإسلامية.

12 ـ تجنب اللهو واللعب والجري واللغو والثرثرة ورفع الأصوات :

تجنب اللهو، واللعب، والجري، واللغو، والثرثرة، ورفع الأصوات، ولو بقراءة القرآن، على وجهٍ يشوش على المصلين، أو للذاكرين، أو المتدارسين للعلم: فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه قال:

((كنتُ قائما في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئتُه بهما، فقال: مَنْ أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم))

[رواه البخاري عن السائب بن يزيد]

و الحديث الآخر:

((اعْتَكَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فسَمِعَهُمْ يَجْهَرون بالقراءةِ، فكشَفَ السِّتْرَ، وقال: ألا إنَّ كُلَّكُمْ يُناجِي رَبَّهُ، فلا يُؤذِيَنَّ بعضُكم بعضا، ولا يَرفعْ بعضُكم على بعض في القراءةِ))

[أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري]

رفع الصوت بالقراءة يؤذي بقية المصلين، مثلاً يكون هناك درس علم بالمسجد، بدأ الدرس، يأتي أخ لم يصلِّ المغرب بعد، يصلي أمام عدد من الأخوة بأعلى صوته، فهو بهذا الصوت المرتفع شوش على المؤمنين درسهم، الإنسان يحتاج إلى ذوق.

13 ـ تجنب الخصومات والاشتغال بأمور الدنيا :

من آداب المسجد تجنب الخصومات والاشتغال بأمور الدنيا، والبيع والشراء، والبحث عن ضائع، وإنشاد الشعر، أو هجاء مسلم، أو غزل، أو ما شاكل ذلك.

((نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تُنشَد فيه ضالة، وأن يُنشَد فيه شِعْر))

[أبو داود و الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

((إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أَربحَ الله تجارتك، وإذا رأيتم من يَنْشُد ضالَّة في المسجد فقولوا: لا ردَّ الله عليك ضالتك))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

وقال سعيد بن المسيب: "من جلس في مسجد فإنما يجالس ربه فحقه ألا يقول إلا خيراً "

14 ـ تجنب الاحتباء وتشبيك الأصابع :

تجنب الاحتباء، وتشبيك الأصابع، وفرقعتها والعبث فيها في المسجد أثناء انتظار الصلاة:

((إذا كان أحدكم في المسجد فلا يشبكن أصابعه فإن التشبيك من الشيطان ، وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان في المسجد حتى يخرج منه))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري]

15 ـ تجنب الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبات :

تجنب الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبات، ما العذر؟ إمام بجامع ثان حضر الدرس، أذن العشاء، هو إمام بجامع آخر، هذا العذر مقبول، أما أن تخرج من المسجد وقد أذن المؤذن دون أن تصلي، هذا فيه نهي من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

16 ـ تجنب تناول الأطعمة في المسجد وتجنب الوقوع في المحرمات :

تجنب تناول الأطعمة في المسجد، وجعل المساجد أمكنه للراحة، والقيلولة، والسمر، وتجنب الوقوع في المحرمات، كالغيبة، والنميمة، والكذب، وما إلى ذلك.

17 ـ ألا يكون المسجد طريقاً للمرور :

ألا يكون المسجد طريقاً للمرور، الآن في الأموي هناك باب للحميدية، وباب لطرف آخر، أناس كثيرون يمكن أن يدوروا حول المسجد بزيادة بسيطة، أما أن يعمل المسجد كممر فهذا أيضاً منهي عنه، القيام بصيانة المسجد، والحفاظ على نظافته، ،أناقته، وأثاثه، وأمتعته، وكتبه، ومصاحفه، فعن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عُرِضَتْ عليَّ أجُورُ أمَّتي، حتى القذاة ـ قشة صغيرة ـ يُخرِجُها الرجل من المسجدِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

قشة حملتها وضعتها بجيبك عمل صالح.

18 ـ صيانة المسجد من الأطفال :

صيانة المسجد من الأطفال، أنا أتمنى أن يكون الأطفال في المسجد لكن مع أبيهم، أما دخل و تركهم بالخارج، لا، يجب أن يكون ابنك معك، نحن نحب ونتمنى أن ينشأ الطفل في المساجد، لكن يجب أن ينضبط وإلا فهناك مشكلة.

19 ـ ابتعاد المرأة عن التزين و التبرج عند الدخول للمسجد :

ممنوع على المرأة التي حضرت إلى المسجد التزين والتبرج، هذا شيء نهى النبي عنه بالنسبة إلى النساء، فقال:

((إذا شَهِدَتْ إحداكُنَّ المسجد فلا تَمسَّ طِيباً))

[أخرجه مسلم والنسائي ومالك عن زينب الثقفية]

لأن له رائحة.

((قالَتْ عائشة: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ مُزَيْنَةَ تَرْفُلُ فِي زِينَةٍ لَهَا فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمَسْجِدِ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمْ الزِّينَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي الْمَسَاجِدِ))

[أخرجه بن ماجه عن عائشة أم المؤمنين]

أيها الأخوة الكرام، هذه بعض الآداب في المساجد ونحن في قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (18-70):تفسير الآيات 19-22 ـ أجر العمل بقيمته لا بحجمه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان أعلى شهادة يحملها الإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة عشرة وما بعدها وهي قوله تعالى:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، سيدنا العباس عم رسول الله، قبل أن يسلم قال: نحن نسقي الحجيج، ونرعى البيت، ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت، كأنه يريد أن يقول: هذا يكفي، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينفي هذه المقابلة بين خدمة البيت وبين الإيمان بالله.

للتقريب: إنسان نال دكتوراه، والثاني طبع الكتب، الذي طبع الكتب عمله جيد لكن هذه الطباعة لا ترقى بالطابع إلى مستوى الدكتوراه.

الإيمان أعلى شهادة يحملها الإنسان، الإيمان مرتبة أخلاقية، والإيمان مرتبة علمية، والإيمان مرتبة جمالية، أي أذواق المؤمن أذواق عليا، سعادته في الاتصال بالله، أهدافه نبيلة، منطلقاته سليمة، مبادئه واضحة، قيمه سامية، الإيمان شيء مهم جداً، الإيمان مرتبة علمية عالية، لكن من يعمل في طبع الكتب، وتأمين مستلزمات الجامعة، وتأمين القرطاسية، وضبط الدوام، هذه الأعمال لا بدّ منها، لكن هذا العمل لا ترقى إلى مستوى أن تكون عالماً.

فلذلك هؤلاء العرب الذين كانوا على إدارة بيت الله الحرام، معهم مفاتيح هذا البيت، هؤلاء يرون قبل أن يؤمنوا أن هذه الأعمال تكفي، أن هذه الأعمال تقوم مقام الإيمان، طبعاً هذه آية تغطي حالة مستمرة، والآن مع أن الأغنياء والله مشهورون أحياناً، أنت عمرت جامعاً، ممتاز، جزاك الله خيراً، بارك الله بك، ونفع بك، وكثّر من أمثالك، لا يكفي أن تعمر جامعاً و لست مستقيماً على أمر الله، ولا يكفي أن تعمر جامعاً ولم تطلب العلم، هذا العمل عند الله محفوظ، تكافأ عليه أضعافاً مضاعفة، لكن يجب أن تجمع بين عمارة المسجد وبين معرفة الله.

مرة ثالثة: هناك أعمال متعلقة بالكتب، وطباعة الكتب، وتأمين المواد الأولية للطلاب، والقرطاسية، وضبط الدوام، كله جيد، لكن هذه الأعمال لا ترقى أن تكون طالباً جامعياً، تنتقل من شهادة إلى شهادة، ومن مرتبة إلى مرتبة، حتى تصبح عالماً كبيراً، هذه شيء وهذا شيء، الخدمات لا بدّ منها، لكن يجب أن تجمع بين هذه الخدمات وبين طلب العلم، هي أمثلة من حياتنا اليومية للتقريب.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

لذلك قال تعالى حينما قال بعضهم قبل أن يسلم: نحن نسقي الحجيج، ونرعى البيت ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت، انتهى، لكن الله سبحانه وتعالى نفى نفياً قاطعاً أن تكون هذه الأعمال ـ وهي محمودة، ومن يفعلها يؤجر عليها ـ توازي أن تكون مع رسول الله، أن تؤمن به، أن تدافع عنه، أن تنشر هذا الدين، على كلٍّ:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: 132]

أقول لكم: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، لكن يمكن أن تقوم بخدمة مسجد ليس غير، لكن ينبغي أن تكون طالب علم فيه، ما أروع أن تكون طالب علم ترقى بعلمك من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال، ومع ذلك لك أعمال صالحة كثيرة منها رعاية المسجد، أما أن تكتفي برعاية المسجد عن طلب العلم، وعن معرفة الله، فهذا ما أراده الله لإنسان يبتغي رضوانه:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أحياناً طلب العلم يحتاج إلى جهد، وإلى وقت، وإلى متابعة، وإلى تطبيق، وإلى مجاهدة النفس والهوى، ولكن أهون بكثير أن تدفع مئة مليون وأنت تملك ألف مليون لعمارة مسجد، أنشأ هذا المسجد المحسن الكبير فلان الفلاني، شيء سهل، أي الغني الذي معه آلاف الملايين فرضاً، إن دفع عشرة ملايين لمسجد فهذا عمل رائع لكن لا يوازي أن تكون طالب علم، أن تكون مؤمناً إيماناً يرقى بك إلى أعلى عليين، لا توازن بين هذا وتلك، أقول لكم: اجمع بينهما، لا بدّ من أن تصل إلى الله، لا بدّ من أن تستقيم على أمره، لا بدّ من أن تتقرب إليه، لا بدّ من أن تحبه، لا بدّ من أن تجعل من عملك وسيلة إلى القرب إلى الله عز وجل، إضافة إلى هذا الطلب، وإلى هذا المسعى، وإلى هذا الطموح، لا مانع أن تجعل بعض أعمالك الصالحة خدمة المساجد، لا أن تكتفي بالخدمة.

على الإنسان أن يجمع بين طلب العلم والتقرب إلى الله وخدمة المساجد :

أخواننا الكرام، الذين يقدمون لهذا المسجد شيئاً كثيراً من وقتهم، ومن خدماتهم، هم طلاب علم فيه، يجمعون بين طلب العلم وبين التقرب إلى الله وبين خدمة هذا المسجد.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ)

عمل عظيم،

(وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

أي أهون بمليون مرة، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، أن تدفع مئة مليون عن أن تنضبط بمنهج الله مئة في المئة، هذه تحتاج إلى إرادة قوية، وإلى إصرار على طلب مرضاة الله، تحتاج إلى جهد كبير، هناك منازعة، وأهواء، أما إنفاق المال بعيداً عن الاستقامة فقضية ليست صعبة، ولاسيما إذا كان المبلغ المنفق لا يساوي واحد بالمليون من ثروتك، تبرع لهذا المشروع المحسن الكبير فلان الفلاني، شيء جميل جداً، لكن هذا التبرع واحد بالألف من ثروته، يا ترى هو سلك طريق الإيمان؟.

مرة ثانية وثالثة: طالب دخل الجامعة، عنده مواد كثيرة، ويلتقي مع كبار المدرسين، ويبحث عن الحقيقة، ويرقى مع كل مادة، يرقى في كل عام، من السنة الأولى إلى السنة الثانية، إلى السنة الثالثة، إلى السنة الرابعة فالسنة الخامسة، ثم ينال الإجازة، ثم الدبلوم العام، والدبلوم الخاص، ثم الماجستير، ثم يؤلف الكتب، هذا إنسان غير إنسان مكلف بطبع الكتب للجامعة، هذا عمل إداري، عمل خدمي، له أجر، وعند الله مقبول، لكن لا توازن بين هذا وذاك، هناك مسافة كبيرة جداً،

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

الكلمات التي كثر استعمالها فقدت مدلولها :

لكن أخوتنا الكرام، أريد أن أقول لكم كلمة: في اللغة قاعدة وهي أن الكلمة إذا كثر استعمالها فقدت مدلولها، مثلاً كلمة قتله، أي ضربه، معنى قتله يعني سفك دمه في اللغة، من كثرة استعمال هذه الكلمة فقدت مدلولها، فلان قتله، أي ضربه الآن، الأستاذ قتلني، أي ضربني وليس ذبحني، هناك فرق، معناها ذبحه، لكن من كثرة استخدام هذه الكلمة فقدت معناها، أحياناً تسأل إنساناً ملحداً: كيف الصحة؟ يقول لك: الحمد لله، تحمد من؟ أنت تنكر وجودة أصلاً، كلمة الحمد لله ليس لها معنى الآن، يقولها ملحد أحياناً، فلذلك الكلمات التي كثر استعمالها فقدت مدلولها.

على المؤمن أن يوازن بين طاعة الله وبين طاعة هوى نفسه :

من هنا أقول:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

كل إنسان يدعي أنه مؤمن، ولا تجد في سلوكه ما يؤكد ذلك، عفواً لو سألت مليار مسلم، أنا سأقول هم مليار وخمسمئة مليون، أنا أتصور أن الخمسمائة مليون شردوا عن الله دعهم، المليار مسلم لو سألته هل أنت مؤمن باليوم الآخر؟ لا أعتقد هناك إنسان يقول: لا، لو دققت في أعمال الناس، هذا الذي يغتصب بيتاً، أو يغتصب شركة، أو يغش المسلمين، بماذا يؤمن؟ لا تبتعد كثيراً، نحن في رمضان الذي يضيف مادة مسرطنة لإنتاجه الغذائي ، لكنها ترفع السعر، هذا من أجل ربح محدود ضحى بصحة المسلمين، ما الذي رأى؟ هذا رأى أن هذا المال أكبر عنده من الله، وفي العيد نقول: الله أكبر، من أطاع زوجته وعصى ربه، فهو ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، ماذا رأى؟ رأى أن طاعة زوجته أكبر عنده من طاعة الله، الذي يغش المسلمين بمادة غذائية، يضيف مادة تضر بالصحة لكنها تبيض هذا الإنتاج، فإذا ازداد بياضه ارتفع ثمنه، هذا جاء العيد قال: الله أكبر مع المصلين، أقسم لكم بالله ولا أبالغ: لو قال مليون مرة هو في الحقيقة ما قالها ولا مرة، لأنه رأى أن هذا المبلغ الذي سيحصّله من غشه لهذه المادة أكبر عنده من الله.

القضية مع الإيمان دقيقة جداً، لا تكن بسيطاً، تتعامل مع خالق الأكوان، تتعامل مع الله من أجل جنة عرضها السموات والأرض، أيعقل أن تسمح لنفسك أن تقدم للمسلمين مادة سيئة جداً بأسعار غالية جداً؟ هذا المبلغ الذي تربحه من غشك للمسلمين هو أكبر عندك من الله؟! وأنت حينما تستجيب لزوجتك في معصية لا ترضي الله من أجل أن ترضى عنك، أنت ما قلت ولا مرة الله أكبر، لأنك رأيت أن رضاها أكبر عندك من رضاه الله عز وجل.

مرة امرأة سألت زوجها شيئاً من الدنيا، ألحت عليه فقال لها هذا الكلام: أيتها المرأة إن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلك، المؤمن يوازن بين طاعة الله وبين طاعة هوى نفسه.

مرة ثانية: كلمات نقولها كل يوم، نقولها ولا معنى لقولها إطلاقاً، الله أكبر، هذا الذي يؤذي المسلمين ليربح منهم، ما الذي رآه؟ هذا المال الحرام الذي ربحه منهم بسبب إيذائهم هو أكبر عنده من الله، ما كل كلمة نقولها تنطبق علينا، فبطولتك إذا قلت الله أكبر أن يكون الله عندك أكبر من كل شيء.

عمارة المسجد عمل عظيم ولكن لا تحل محل الإيمان بالله :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

مع أن عمارة المسجد عمل عظيم، وله عند الله ثواب كبير، إنك تعتني ببيت الله الحرام، هذا عمل كبير جداً، لكن لا يحل محل الإيمان، لا يحل محل طلب العلم، لا يحل محل أن تكون مؤمناً صادقاً، أنت تكون مؤمناً متصلاً بالله عز وجل.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

الإنسان أحياناً يدرس دراسات جامعية عليا، من سنة أولى إلى سنة ثانية إلى ثالثة فرابعة، نال اللسانس دخل في الدراسات العليا، دبلوم عامة، دبلوم خاصة، ماجستير، دكتوراه، وإنسان عنده محل جانب الجامعة، يطبع الكتب الجامعية، عمل جيد، مهنة شريفة، ودخلها حلال، لكن لا يوازن مع إنسان يطلب العلم ليكون أحد أعمدة الأمة، هناك فرق كبير.

الذي أريد أن أقوله: لا يحل محل طلب العلم، ولا محل طلب رضوان الله ، هذا شيء آخر، الأشياء الأخرى لها أجرها عند الله أيضاً، ولها ثمنها، وصاحبها يحمد على ذلك، لكن هذه لا تحل محل هذه.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)

بطولة الإنسان أن يكون في خدمة الخالق حتى يحبه الخلق :

أخواننا الكرام، معنى

(آَمَنَ بِاللَّهِ)

أي آمن الإيمان الذي يحمله على طاعة الله، ومعنى آمن باليوم الآخر أي آمن الإيمان الذي يمنعه أن يؤذي مخلوقاً، هؤلاء الذين يدمرون الشعوب، يقصفون، يقتلون، يبيدون، ينهبون ثروات أمة من الأمم، هؤلاء ما عرفوا الله إطلاقاً، فلذلك البطولة أن تكون في خدمة الخالق حتى يحبك الخلق، آمن بالله إيماناً منعه أن يعصيه، وآمن باليوم الآخر إيماناً منعه من أن يؤذي أحداً،

(وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بنفسه وماله، هؤلاء الذين فعلوا هذا لا يستوون عند الله،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أريد أن أؤكد لكم من خلال هذه الآية أنه لا شيء يغني عن طلب العلم، ولا شيء يغني عن طلب مرضاة الله، ولا شيء يغني عن طلب الجنة، طلب العلم والعمل به، وطلب الجنة، هذه تعد من سرّ وجودك، وغاية وجودك، الأعمال الأخرى جيدة، ومقبولة، ومن يفعلها له عند الله أجر كبير،

(كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

طبعاً جاهد بماله ونفسه.

من لم يستقم على أمر الله فلن يقطف من ثمار الدين شيئاً :

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

في الآية إشارة دقيقة، إنسان قد يأكل مالاً حراماً، فإذا أكل مالاً حراماً ظلم الناس، أي غشهم في بضاعتهم، أخذ ما ليس له، أي مال حرام مبني على ظلم، قدم شيئاً بمواصفات أقل مما ينبغي، فربح أرباحاً طائلة، فهذا ظالم، الآن هذا الإنسان الذي أعماله صالحة لا تعفيه من محاسبته على أخطائه، هذه الأعمال التي يفعلها بعض الناس وهي مشكورة ومحمودة عند الله لا تغني صاحبها عن طاعة الله، وطلب رضوانه.

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الظلم ظلمات يوم القيامة، نحن على يقين أنك لو صمت شهر رمضان كله صياماً وفق ما جاء في كتب الفقه تماماً، ولك أعمال لا ترضي الله، هذا الصيام لا يقدم ولا يؤخر، العبرة أن تستقيم على أمر الله، وقبل الاستقامة لا تستطيع أن تقطف ثمار الدين إطلاقاً.

أحياناً الإنسان يتمنى أن يضغط الدين كله بكلمة، أو كتمهيد هل يمكن أن تضغط التجارة كلها بكلمة واحدة؟ ممكن، لها نشاطات لا تعد ولا تحصى، لها آلاف النشاطات، لكن يمكن أن تضغط بكلمة واحدة، إنها الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، كما أنه يمكن أن تضغط الدين كله بكلمة واحدة هي الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، الدين بلا استقامة كما ترون، مليار وخمسمئة مليون مسلم ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

اثنا عشر ألفاً لا يغلبون، والمليار والخمسمائة مليون لا ينتصرون، إن لم يستقيموا على أمر الله. حدثني عالم جليل من علماء دمشق ـ وقد توفاه الله ورحمه ـ هو من بلد من أوربا الشرقية، من ألبانيا، قال لي: كلما أسافر إلى بلدي، أزوره في العام مرة، ألقي خطبة في العاصمة وفي أكبر مسجد، ويقول

لي: أمامي عشرة آلاف مسلم، من شدة تأثرهم بكلامي، معهم بجيوبهم زجاجات خمر، من شدة تأثرهم بخطبة هذا الخطيب يشربون الخمر في المسجد، أي تجد المسلمين اسماً فقط، لا يوجد استقامة أبداً، لا وزن لهم عند الله.

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

ائتِ باثني عشر ألف مسلم مؤمن مستقيم، هؤلاء لا يغلبون إطلاقاً.

لذلك أيها الأخوة المشكلة واضحة جداً، العدد الكبير لا قيمة له، التجمع الكبير لا قيمة له، القيمة باستقامة المسلمين.

على الإنسان أن يفتخر بمعرفة الله و القرب منه لا بأشياء لا تقدم و لا تؤخر :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ

قال: السقاية مكان للماء، تجمع الماء اسمه سقاية، والإناء الذي نشرب به اسمه سقاية، وعملية السقاية اسمها سقاية، فبين أن تكون السقاية ماءً أو إناءً أو عملية شرب،

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ

وهذا العمل يقبل أو لا يقبل.

(وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ)

بناء المسجد، تأسيسه، إلقاء خطبة فيه، كله من عمارة المسجد،

(كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

أي ينبغي ألا تفتخر بعمل مادي إن لم تكن طالب علم تسعى لمرضاة الله، الأصل أن تطلب العلم، الأصل أن تؤمن الإيمان الذي يريده الله عز وجل.

العرب قبل الإسلام من بيدهم أمور بيت الله الحرام يفتخرون، هذا يفتخر معه مفتاح الكعبة، طلحة، و سيدنا العباس قبل أن يسلم كان مسؤولاً عن سقاية الحاج، سيدنا علي قال: صليت ستة أشهر ـ قبل الناس أسلم بوقت مبكر جداً ـ وأنا صاحب جهاد، فهذه المفاخرة هذا بعمارة المسجد، وهذا بسقاية الحاج، وهذا وهذا، عندما سمع العباس الآية قال: لقد رضينا بالله رباً، لا تفتخر افتخر بقربك من الله، افتخر بمعرفة الله، افتخر بطلب العلم.

بطولة الإنسان أن يعتمد مقاييس الله عز وجل :

أخواننا الكرام بالمناسبة: هناك مقاييس لله عز وجل، وهناك مقاييس للبشر، بطولتك أن تعتمد مقاييس الله عز وجل، الله ماذا قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية:71]

الفوز العظيم في القرآن هو طاعة الله، وطاعة رسوله، فافتخر بمقياس ذكره الله في القرآن، قال:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر الآية:10]

افتخر أن تكون صابراً، أي كل آية يثني الله فيها على فئة من المؤمنين هي مقياس، لكن لا تفتخر بشيء، لا ينتمي إلى عملك، وإلى جهدك ، افتخر بوسامتك، الوسامة من الله عز وجل أكرمك بها، افتخر بشيء من كسبك، أي الله عز وجل أعطى النبي الكريم عليه أتمّ الصلاة والتسليم آلاف الخصائص، لكن حينما أثنى عليه، أثنى على خلقه العظيم، لأن خلقه العظيم من كسبه، أما الوحي من عند الله، إنزال القرآن عليه من عند الله، فكل شيء ينبغي أن تفتخر به ينبغي أن يكون من كسبك:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[سورة التوبة]

أما إنسان يقول لك: أنا معي لسانس، ما معنى هذه الكلمة؟ أي معه ابتدائي، وإعدادي، و ثانوي، وجامعة، كلمة لسانس أي أربع شهادات، قال لك: معي دكتوراه؛ أي معه ماجستير، دبلوم عام، دبلوم خاص، وماجستير.

فكلمة مؤمن سبحان الله مرتبة علمية عالية جداً، مرتبة أخلاقية، مرتبة جمالية، لكن كل إنسان يدّعي أنه مؤمن، فهذا مصطلح غير منضبط .

كلٌ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

هؤلاء المؤمنين حقاً.

الإيمان مرتبة علمية وأخلاقية وجمالية :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آَمَنُوا)

آمنوا، يقول لك: أنا مؤمن، متى طلبت الإيمان؟ كم درساً حضرت؟ أي كتاب قرأت؟ من العالم الذي تتلمذت على يده؟ هناك إنسان يقول لك: أنا معي لسانس لكن ما درست أبداً، وما دخلت جامعة لكن معي لسانس، ما هذا اللسانس؟ أقل شيء أن تنتمي إلى جامعة، لكن معك لسانس و لم تداوم بحياتك، و لم تفتح كتاباً، فهذا كلام مضحك.

فلذلك الإيمان مرتبة، مرتبة علمية، مرتبة أخلاقية، مرتبة جمالية، المؤمن له أذواق عالية جداً، المؤمن له مبادئ أخلاقية قيمة جداً، المؤمن عالم، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، إذا قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من العلم، قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من الأخلاق، قلت مؤمناً أي عنده حد أدنى من الذوق العالي، أذواقه عالية جداً.

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا)

الهجرة حركة ما إن يستقر الإيمان في قلب المؤمن حتى يعبر عن نفسه بحركة، إيمان سكوني لا يوجد، إيمان أساسه إعجاب سلبيي لا يوجد، المؤمن متحرك يتحرك إلى عمل صالح، إلى دعوة إلى الله، إلى طلب مرضاة الله، إلى أمر إلى المعروف، إلى نهي عن المنكر، ما لم تتحرك لتعبر بهذه الحركة عن إيمانك فلست مؤمناً.

الإيمان موقف وحركة وسلوك وعطاء :

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا)

أي آمنت بالله، لك أصدقاء بعيدون عن الله ينبغي أن تعتزلهم، وأن يكون لك أصدقاء من نوع آخر، لك حرفة لا ترضي الله ينبغي أن تدعها، كلمة مؤمن أي هناك حركة، حركة بحرفتك، حركة ببيتك، حركة بزواجك، حركة بأولادك، ببناتك، مادام آمنت فهناك حركة، أما إيمان سلبي فلست مطبقاً شيئاً من الإيمان، أنا والله مؤمن الحمد لله، ما الذي يؤكد هذا الإيمان؟ موقف تأخذه، عطاء تعطيه، امتناع تمتنع عنه، ما لم تصل لله، وتقطع لله، وتعطي لله، وتمنع لله، وترضى لله، وتغضب لله، لست مؤمناً، الإيمان موقف، والإيمان حركة، والإيمان سلوك، والإيمان عطاء.

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

هاجر لها معان واسعة جداً، قد تنتقل من مكان إلى مكان هذه هجرة، لكن هاجر إنسان أي تعرف إلى الله، له مجموعة أصدقاء لا يرضون الله عز وجل، يحتاج أن ينتقل من مجموعة لمجموعة، له سكن

ضمن بؤرة فساد كبير جداً، يجب أن يبحث عن منزل آخر، له حرفة سيئة جداً ابحث عن حرفة أخرى، الإيمان حركة، وما لم تتحرك حركة وفق إيمانك، لا يعد هذا الإيمان كافياً ولا مجزياً.

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هناك بذل جهد، بذل عطاء، بذل انضباط، امتناع، وصل، قطع، إرضاء، غضب، هناك مواقف، ومشاعر، وحركة.

الفائز من يجاهد في سبيل الله بماله و نفسه :

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

وطن نفسك، مؤمن، مستقيم، لك أعمال صالحة، تجاهد نفسك وهواك، تحب من حولك، تقدم لهم كل معونة، تمثل منهج الله عز وجل، عندئذٍ هذا الإيمان ظهر في حياتك، قال: هؤلاء الذين

(جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ)

أي أنفق ماله

(وَأَنْفُسِهِمْ)

ضبط نفسه

(أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

الفوز الحقيقي.

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

الرحمة عطاء، أحياناً لك ابن وأنت ميسور طلب منك حاجة، أحببت أن ترتاح منه فأعطيته إياها، أعطيته وأنت لا تحبه، لكن الكلمة الدقيقة:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

يرحمهم ويرضى عنهم، قد ترحم إنساناً لا ترضى عنه، لكن يرحمهم ويرضى عنهم:

(وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ برَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

العظيم يقول لك:

(أَجْرٌ عَظِيمٌ)

فكم هو هذا الأجر؟.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (19-70):تفسير الآيات 20-22 ، تصحيح التصور يصحح الاستقامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

كل إنسان جُبل على حبّ وجوده وحبّ كمال وجوده وحبّ استمرار وجوده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة التوبة، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، في القرآن الكريم مصطلحات، وتحديد معنى المصطلحات جزء من العلم، لأن هذه المصطلحات مع مضي الزمن تأخذ معانٍ واسعة جداً، هذه المعاني الواسعة تضعف حديتها، تضعف مدلولها.

فالله عز وجل يقول في نهاية الآية التي هي موضوع هذا الدرس:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

كل إنسان يحب أن يكون فائزاً، الفوز محبب، النجاح والفوز تهفو إليهم النفوس، والإنسان كما تعلمون جُبل على حبّ وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، سلامة وجوده باتباعه تعليمات الصانع، أنت أعقد آلة في الكون، أعقد آلة، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، لك صانع حكيم، لهذا الصانع تعليمات التشغيل والصيانة، انطلاقاً من حرصك على سلامتك، انطلاقاً من حرصك على سعادتك، انطلاقاً من حرصك على استمرار وجودك، ينبغي أن تطيع الله عز وجل، كل إنسان كائناً من كان في كل زمان ومكان، في أي قارة، في أي بلد، في أي إقليم، في أي مصر، في أي عصر، مجبول على حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده.

الجهل هو أزمة الإنسان وسبب شقائه :

لماذا الآلام والمصائب؟ هي أزمة علم فقط، الدليل أهل النار في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

لا تنسوا أيها الأخوة أن الإنسان يتحرك، ما الذي يسبق حركته؟ التصور، إن صحّ تصورك استقامت حركتك، إن لم يصح تصورك انحرفت حركتك، المتحرك وفق منهج الله هو المؤمن، بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، الحرمان مستحيل، جميع الشهوات التي أودعها الله فينا لها قنوات نظيفة، والدليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

عند علماء الأصول المعنى المخالف المعكوس، أي الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، اشتهى المرأة تزوج، واختارها جميلة، اشتهى المال كسبه من طريق حلال.

فلذلك المشكلة أيها الأخوة أن أزمة الإنسان وسبب شقائه هو الجهل، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

لذلك: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

على الإنسان أن يأخذ إخبار الله وكأنه يراه :

إذاً في الإسلام مصطلحات، المؤمن مصطلح، الكافر مصطلح، المنافق، المشرك، الملحد، هذه كلها مصطلحات، أحياناً تضيع معالم هذه الكلمات، كل إنسان يدّعي أنه مؤمن، طبعاً أنت انتبه لهذه النقطة، لا يستطيع إنسان أن يتكلم كلمة بالطب إلا إذا كان مختصاً به، يستطيع فلان أن يفتح عيادة ويكتب الطبيب الفلاني وهو لا يقرأ ولا يكتب؟ ممكن؟ لا يستطيع، الحياة كلها اختصاصات، لكن سبحان الله! الشيء المؤلم وأبعد من الحدود أن كل إنسان يتكلم بالدين، هذه غير معقولة.

يقولون هذه عندنا غير جائز قال فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

* * *

من أنت؟ إله، آية قرآنية، حديث صحيح، خالق الكون أعطى هذه الأمر.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

(مَا كَانَ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل،

(مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

رأيي كذا، إذا قال الله شيئاً انتهى كل شيء، لذلك مثلاً:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل]

بربكم أنتم جميعاً لا أستثني واحداً منكم، هل واحد منكم رأى الحادثة؟ الله قال:

(أَلَمْ تَرَ)

والله ما رأيناها، قال علماء التفسير: يجب أن تأخذ إخبار الله وكأنك تراه، خالق الكون.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أخواننا الكرام، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين خالق الأكوان وبين الإنسان؟ هي نفسها بين كلام الله وكلام خلقه، إله يقول لك: افعل كذا، أو لا تفعل، لك رأي في الموضوع؟.

أحياناً الدولة القوية بأي مفاوضات تقول: هذه القضايا لا يمكن أن تخضع للمناقشة، وأنت كمؤمن، أي إذا جاء حكمٌ في القرآن أو حكمٌ في الحديث الصحيح أقول لك: عطل عقلك، هذا كلام خالق الأكوان، عقلك إذا كان كلام بشر توازن بين كلام وكلام، أما كلام خالق البشر، الآية الدقيقة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

كلمة آمن في القرآن تعني أن الإنسان بذل جهداً كبيراً حتى آمن وتعرف إلى الله :

أخواننا الكرام، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

آمن، أنت تصدق إنساناً نام، استيقظ معه دكتوراه، هذا خيال، ابتدائي ست سنوات، إعدادي ثلاث سنوات، ثانوي ثلاث سنوات، جامعة أربع سنوات، دبلوم سنة، دبلوم ثانية، ماجستير، دكتوراه، تأليف كتاب، ثلاث وثلاثون سنة دراسة، حتى وضع جانب اسمه "د"، يموت تنتهي، تريد أن تقول: أنا مؤمن ولا مرة حضرت درس علم، و لم تقرأ القرآن، ولم تقرأ تفسيره، ولم تلازم العلماء، ولم تطلب العلم، متى آمنت؟

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

آمن، فلان تاجر، اشترى محلاً، ومستودعاً، ومكتب استيراد، وعيّن موظفين، معه رأسمال، سافر للمعارض، وأخذ وكالات، وعرض البضاعة، وباع البضاعة، وجمع ثمن البضاعة، ووزع الأرباح، كلمة تاجر فيها معان كثيرة، مؤمن! ما خطر بالك أن تحضر مجلس علم؟ ما خطر بالك أن تقرأ القرآن وتفهم تفسيره؟ ما خطر بالك أن تلازم عالماً من العلماء المؤمنين الصادقين؟

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

كلمة آمنوا في القرآن تعني بذل جهداً كبيراً حتى آمن، بذل جهداً، اقتطع من وقته وقتاً ثميناً، تعرف فيه إلى الله.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

بطولة الإنسان أن يعد لآخرته لا لدنياه :

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

آمن، لزم درس علم، التقى بعالم، قرأ القرآن، قرأ تفسيره، تابع قضايا الدين، سأل عن الحلال والحرام، قرأ سيرة النبي، تأثر بها، يقرأ كل يوم صفحات من كتاب الله، يلتزم بما أمر الله، ينتهي عما نهى الله عنه، يأتمر بما أمر، يقدم العمل الصالح، ينفق من ماله، أقام الإسلام في نفسه أولاً، وفي بيته ثانياً، وفي عمله ثالثاً، عندئذٍ نقول: أنت مؤمن

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

متى آمنت؟.

أخواننا الكرام، جنة للأبد ألا تستدعي أن تؤمن؟ عفواً نجد الإنسان يعيش كما قال النبي:

((مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستين إلى السبعين))

[أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة]

ستون سنة، حتى يأخذ بورد يحتاج أربعين سنة بالضبط، يقول لك: سبع سنوات بأميركا حتى أخذت البورد، وقبلها سبع سنوات إجازة بالطب، وقبلها دبلومات، وقبلها ماجستيرات، وقبلها ثانوي، وقبلها إعدادي، وقبلها ابتدائي، حتى صار معه بورد، أي الإنسان يعيش ستين أو سبعين سنة، أربعون سنة إعداد بعشر سنوات.

أيها الأخوة، حتى تؤمن للأبد من أجل عشر سنوات، عشرين سنة، تجد أكثر الناس عمرهم بين الستين و السبعين، والآن هناك جلطات يموت و هو في الثامنة و الثلاثين، فأنت ماذا تعد لما بعد الموت، هذا الأبد، معنى الأبد لا أعرف، أقسم لكم بالله: لا يستطيع إنسان أن يتصور الأبد.

مثال بسيط: واحد بالأرض وواحد على هذا الحائط، وثلاثة أصفار جنبه ألف، وثلاثة ثانية مليون، وثلاثة ثالثة ألف مليون، وثلاثة رابعة مليون مليون، كل ميلي صفر، ما هذا الرقم! على الحائط واحد لآخر الجامع، لآخر شيخ محي الدين، لآخر ركن الدين، لتدمر، للعراق، اترك الأرض، اصعد إلى السماء، واحد بالأرض و أصفار للقمر، ما هذا! واحد بالأرض و أصفار للشمس، 156مليون كيلومتر، كل ميلي صفر، هذا الرقم اجعله صورة والمخرج لا نهاية، قيمته صفر، أي رقم ينسب للانهاية قيمته صفر، الدنيا كلها صفر، عاش مئة و ثلاثين سنة، بلكيت يملك تسعين مليار دولار، صفر، لو عشت مئة و ثلاثين سنة وتملك تسعين ملياراً صفر، حديث للنبي الكريم:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يؤخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اذهب إلى الساحل، اركب قارباً، أخرج إبرة و اغمسها في البحر، واحسب كم علق بها من الماء، والبحر المتوسط، والمحيط الهادي، والمحيط الهندي، والأطلسي، والمحيط الشمالي والجنوبي، احسب كم علق بهذه الإبرة من الماء بنسبة إلى البحار الخمس.

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يؤخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

((عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسَكم وجِنَّكم ، وقفوا على صعيد واحد وسألوني كل واحد منكم مسألتَهُ، ما نقص ذلك في ملكي، إلا كما يأخذ المِخْيَطُ إذا غمس البحرَ ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

من رجحت عنده كفة الإيمان أصبحت قناعاته أقوى من شهواته :

أيها الأخ الكريم، أنت حينما تحضر درس علم، تتشكل عندك قناعات، درس ودرس ودرس وكل أسبوع درس، بالشهر أربعة دروس، بالفصل تحضر اثني عشر درساً، بالسنة تحضر خمسين درساً، كل درس عمل قناعة.

آتي بمثل آخر: تصور الشهوة التي أودعها الله في الإنسان، لها وزن فرضاً، وزنها طن مثلاً، الدرس جمعت فيه عشر غرامات قناعات، كم درس تحضرهم حتى تتصور الحق واضحاً؟.

(يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

[سورة هود الآية:28]

كل درس تحضره شكلت قناعات، القناعات إذا تراكمت أصبحت قوة كبيرة، هذه تقف أمام الشهوات. مرة قال لي إنسان: عندما أسمع امرأة تمشي ورائي لا يوجد قوة بالأرض تجعلني أغض بصري عنها، أي ينظر إليها، هذه شهوة مدمرة، فعندما أنت تطلب العلم، صار عندك قناعات، يقينيات، هذه تقف أمام الشهوات، المؤمن مستقيم، استقامته ليست صدفة، استقامته من قناعاته، أحياناً تختلف مع إنسان، وراءه قوة كبيرة جداً، أنت لا ترى حجمه، قد يكون حجمه صغيراً، تنظر إلى من يقف وراءه، الآن دولة ضعيفة جداً وراءها أكبر دولة بالعالم، تهدد وتتوعد تتكلم بمن يدعمها أليس كذلك؟

التفكر في خلق السموات والأرض أحد سبل معرفة الله :

أنت حينما تعرف الله لك شأن كبير عند الله، وعند الناس،

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

تفكر في خلق السموات والأرض، هذا طريق.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

أحد سبل معرفة الله التفكر في خلق السموات والأرض، هذا طريق، طريق آخر:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 137]

حدثني أخ محام، قال لي: كنت أدافع عن إنسان مرتكب جريمة، طبعاً القاضي أصدر حكماً بالإعدام، وبلغته، قال لي: بلغته وما تحركت فيه شعرة، و هذا شيء نادر جداً إعدام! قال لي: حرصت حرصاً لا حدود له أن أحضر إعدامه، قبل أن يوضع الحبل في رقبته، قال هذا الكلام قال: أنا الآن سأشنق لأنني متهم بقتل إنسان، قال له: أنا ما قتلته أبداً، لكنني قتلت إنساناً من ثلاثين سنة، وذكر كيف قتله، إله عظيم.

قال لي قاض: حلف إنسان يميناً كاذباً على المصحف وهو واقف أمامي، أمسك المنصة بيده وحلف اليمين، رفع يده ليحلف اليمين، وحلف اليمين وبقي رافعاً يده، قال له القاضي: أنزل يدك، لم يرد عليه،

كان ميتاً، بعد دقيقة سقط، الله كبير، عدله عظيم، لذلك:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

على الإنسان أن يترك البيئة التي تدعوه لمعصية الله و يهاجر منها :

(الَّذِينَ آمَنُوا)

متى آمنت؟ كم ساعة بذلت من جهد كي تعرف الله؟ كل إنسان معه لسانس، يقول لك: عندي اثنا عشر مادة، أحياناً خمس عشرة مادة، وكل مادة لها دكتور، وكل مادة لها كتاب ثمانمئة صفحة، ومئتي مرجع، وكل مادة لها فحص شفهي وكتابي، بعد أربع سنوات يعطونه إجازة في الآداب، يكتب على بطاقته لسانس في آداب اللغة العربية وعلومها، كل هذا الجهد من أجل هاتين الكلمتين، أي من أجل أن تدخل الجنة إلى أبد الآبدين ألا يستأهل ذلك أن تعرف الله.

(الَّذِينَ آمَنُوا)

آمنت أي بذلت جهداً، قرأت القرآن، قرأت تفسيره، لازمت درس علم، اتخذت مرجعاً دينياً، أسأل عن كل قضية،

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

هاجروا.

أحياناً يكون هناك بيئة سيئة جداً، كل شيء في هذه البيئة يدعوك للمعصية، يصعب أن تطيع الله في هذه البيئة، لا بدّ من الهجرة، وأحياناً والعياذ بالله في المجتمعات الغربية الزنا على قارعة الطريق، لا حياء، ولا خجل، ولا أدب، والشيء مبذول بذلاً عجيباً، في مثل هذه البيئة، هذه لا تناسبك كمؤمن، ينبغي أن تأتي لبلاد المسلمين، هناك مساجد، و دروس علم، وبيئة إسلامية، و بقية حياء، وبقية خجل،و بقية رحمة، و بقية إنصاف، هناك فرق كبير جداً.

والله مرة كنت بأستراليا، قارة بأكملها يسكنها 18 مليون، الخيرات لا يعلمها إلا الله، قال لي رئيس الجالية وهو يودعني: قل لأخوتنا في الشام إن مزابل الشام خير من جنات أستراليا، قلت له: لِمَ؟ بالشام ابنك مسلم، أما عندنا هنا احتمال أن يكون ابنك ملحداً أو له حلقة في أذنه، في اليمين لها معنى سيئاً جداً، وباليسار أسوأ، وبالاثنتين أسوأ وأسوأ، إما ملحد أو شاذ، هنا أين نحن؟ بألف نعمة، عندنا بقية حياء، بقية خجل، الأب أب، والأم أم.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

بيئة سيئة جداً، ترتكب فيها المعاصي على قارعة الطريق، جريمة الزنا ليست بشيء هناك إطلاقاً، ولا يحاسب عليها الإنسان، شيء طبيعي جداً.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

انتقل إلى حي منضبط، اعمل عملاً طاهراً، هناك أعمال منحرفة كثيرة جداً، كلمة هجرة بالمعنى الواسع، اختر عملاً يعيك على دينك، أحياناً يكون لك عمل دخله محدود لكنه عمل صالح، وهناك عمل آخر دخله كبير لكنه يعيش مع العصاة والمذنبين، هذه مشكلة.

من يتعرف إلى الله في وقت مبكر يشكل حياته وفق منهج الله :

لذلك:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

أعطيكم معنى الهجرة الواسع، قد تنتقل من حي إلى حي، من حرفة إلى حرفة، من مجموعة أصدقاء إلى مجموعة أصدقاء، مرة إنسان على خلاف المألوف أثناء درس من دروسي وقف، فاستغربت أنا، قال لي: أستاذ نسمع درسك نتأثر كثيراً، نذهب إلى البيت نرجع كما كنا، ما هذه القصة! الله ألهمني كلمة واحدة، قلت له: غيّر الطقم، معه طقم أصدقاء سيئين، يجب أن تصادق المؤمن.

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

أنت تحتاج إلى بيئة مؤمنة، صديق مؤمن، صديق نصوح، صديق محب، صديق وفي، عندما تؤمن بوقت مبكر تشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً، تختار زوجة صالحة مؤمنة، أهلها صالحون، هذه تعينك على دينك.

فلذلك أنت حينما تتعرف إلى الله في وقت مبكر تشكل حياتك وفق منهج الله، والله الذي لا إله إلا هو لا أغبط إن أردت أن أغبط إلا شاباً نشأ في طاعة الله، سيتزوج زواجاً إسلامياً، سيختار فرعاً يعينه على أمر آخرته، سيختار حرفة تعينه على أمر دينه.

بطولة الإنسان أن تكون مقاييس الفوز عنده مطابقة لمقاييس الفوز عند الله :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

انتقل لبيئة صالحة،

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بذل جهداً، طبعاً التكاليف ذات كلفة، إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوة، المعاصي سهلة جداً، كُل من شئت، تأمل من شئت، افعل ما شئت، بلا قيد، ولا ضابط، ولا منهج، ولا مبدأ، ولا قيم، هذا الانحراف، أما المؤمن يسأل هذه حرام؟ هذه حلال؟ ما حكم هذا العمل؟.

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بحث عن بيئة صالحة تعينه على طاعة الله،

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

جاهد: بذل أقصى الجهد في سبيل الله مخلصاً

(بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

طبعاً الله عز وجل بدأ بالأسهل، إنفاق المال أسهل، وأحياناً يقتضي ذلك أن تبذل حياتك في سبيل الله، قال: أعظم درجة عند الله

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

أين بطولتك؟ أن تكون مقاييس الفوز عندك مطابقة لمقاييس الفوز عند الله، الفائز عند الله آمن، وهاجر، وجاهد،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

هذه مقاييس الخالق، مقاييس المخلوق أخذ أرضاً تضاعف سعرها مئتي ضعف، صارت حالته جيدة جداً، هذا مقياس عند الناس، تسلم منصباً رفيعاً هذا مقياس أيضاً، زوجته بارعة الجمال هذا مقياس آخر، دخله فلكي، هذه مقاييس البشر، أي كمال في الشكل، دخل فلكي، قوة، شبكة اتصالات، معارف، مكانة اجتماعية، وسامة، لكن هل يستطيع الواحد ـ أنا أخاطب الجميع وأنا واحد منكم ـ منا أن يستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ عندنا بوابة خروج، بالمطارات يوجد بوابات، كل واحد منا له بوابة خروج، حتى يغادر الدنيا، فهذا البطولة، أن تعيش المستقبل، أن تعيش هذه اللحظة، المغادرة صعبة كثير، بيت أربعمئة متر، كله رخام، ثريات، أثاث، كل ما لذّ وطاب بهذا البيت، من هذا البيت لقبر تحت الأرض، هل هناك إنسان منا جميعاً ينجو من القبر؟ أبداً كلنا، أين ذكاؤك؟ فبطولتك وحكمتك أن تعد لهذا الساعة.

والله مرة شيعت أحد أخواننا عندما فتحوا النعش، وحملوه، ووضعوه في القبر، البلاطة أقصر من الفتحة وضع الحفار كم حجرة، وأهال التراب، أنا أعتقد أنه نزل فوق المتوفى خمسة كيلو من التراب، عندك حمام، عندك أثاث فخم، وكله درجة أولى، هذا قبر.

والله توفي والد صديقي، فتحوا القبر فوجدوا مياهاً سوداء، لأن المجاري مفتوحة على القبر، سألوا ابنه، قال: ماذا نفعل؟ ضعوه، يقول لي مدير معمله: أنا شهر لم آكل ،أين وضعوا معلمي؟ في قبر فيه مياه سوداء، أين بطولتنا بهذه اللحظة؟ ماذا أعددنا لهذه اللحظة؟.

رحمة الله عز وجل مطلق عطائه :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مخلصون

(بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

هذه مقاييس الفوز عند الله، اسأل نفسك بكل جرأة ولا تتحفظ، ولا تحابي نفسك، ما مقاييس الفوز عندك؟ هناك مقاييس كثيرة، تكون غنياً، يكون بيتك فخم جداً، عندك مركبة فارهة، عندك معارف أقوياء، طبعاً سهرات، سفر، فنادق، طعام طيب، زوجة جميلة، مكانة اجتماعية، هذه مقاييس الفوز عند الناس، لكن هل يستطيع إنسان أن يبقى من دون أن يغادر الدنيا؟

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[سورة المدثر الآية:9]

إذاً

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

بطولتك أن تملك مقاييس للفوز مطابقة للقرآن الكريم لا أن تملك مقاييس للفوز تخالف منهج الله عز وجل.

أحياناً يتوفى إنسان من أغنياء البلد، تذهب للتعزية تجد بيتاً واسعاً جداً، من اشترى البيت؟ المرحوم، تجد ثريات ليس معقول جمالها، من اختار الثريات؟ المرحوم، التزيينات بالبيت من صممها؟ المرحوم، من اشترى البلاط؟ المرحوم، من اشترى الأثاث؟ المرحوم، أين المرحوم؟ في القبر، هذا شيء واقعي، أما غير الواقعي إنسان اشترى بيتاً بأحد أحياء دمشق الراقية، و لم تعجبه الكسوة، كسر كل الكسوة، وكساه بأذواق مذهلة، بعدما انتهى وسكن، بعد أربعة أيام جاءه ملك الموت، البطولة أن تعد لهذه الساعة، هذه بوابة الخروج

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ)

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا،

(بِرَحْمَةٍ مِنْهُ)

مطلق عطاء الله رحمة الله عز وجل.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية:32]

الآية الدقيقة:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

عطاء، وترحيب، ورضوان،

(وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

مقيم إلى أبد الآبدين، لا يوجد التهاب مفاصل، ولا خثره بالدماغ، ولا جلطة بالقلب، ولا ابن عاق، ولا زوجة سيئة،

(نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

إلى أبد الآبدين،

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذا الذي يزهد بعطاء الله أحمقاً، يزهد بما عند الله، هذا الإله يعصى؟ ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيعُ

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحـب يطيعُ

* * *

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (20-70):تفسير الآية 23 ، العلاقة بينك وبين الصديق الصدوق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-08-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله عز وجل المؤمنين بفروع الدين و عامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

بادئ ذي بدء: الله جلّ جلاله يخاطب عامة خلقه بأصول الدين، يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة الآية:21]

لكنه يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به، خالقاً، ورباً، ومسيراً، آمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، آمنوا به وباليوم الآخر، هؤلاء الذين آمنوا لا يُخاطبون بأصول الدين لأنهم آمنوا بها، بينما يخاطبون بفروع الدين.

على الإنسان أن يختار صديقه الذي يعينه و يأخذ بيده :

من توجيهات القرآن الكريم للمؤمنين بموضوع خطير جداً، هذا الموضوع هو أنك شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، مع من تحب، ومع من تعاشر، ومع من تلتقي به، فلا بدّ بعد الإيمان بالله أن تصطفي إنساناً مع الناس ليكون صديقاً حميماً لك، أن تصطفيه مؤمناً، لأن المؤمن يعين أخاه المؤمن، المؤمن ينصح المؤمن، المؤمن ينبه المؤمن، المؤمن وفيّ للمؤمن، بينما غير المؤمن له موقف:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران الآية:120]

لا ينصحك، ينصحك لدنياك لا لدينك، يغريك بالمعاصي والآثام، صحبته شبه، لذلك لا تصدق مؤمناً التزم وله بطانة سيئة، مستحيل، لا يستطيع المؤمن أن يستقيم إلا مع بطانة صالحة، فلذلك كيف تختار مثلاً شيخك؟ ينبغي أن تختار أخوانك، أن تختارهم من المؤمنين، المؤمن ناصح، أمين، مؤمن، صادق،

المؤمن لا يقبل المعصية والإثم، فهذا يأخذ بيدك، لذلك قال بعض علماء القلوب: لا بدّ من أخ لك يرقى بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، الإنسان له شيئان له قول وله حال، له مقال وله مقام، فالمقال وفق الشرع، لا يدعو إلى معصية، و لا يغري بمعصية، لا يتحدث حديثاً عن النساء بلا ضوابط، لا يدعو إلى مخالفة شرعية، كلامه منضبط بالكتاب والسنة، والمبادئ الأخلاقية، والقيم الراقية، فكلامه تنتفع به.

على الإنسان أن يصاحب من يدله على الله مقاله وينهض به إلى الله حاله :

لا تصاحب من لا يدلك على الله مقاله، وينهض بك إلى الله حاله، هذه الحالة تحتاج إلى شرح، أي المؤمن موصول بالله عز وجل، وإذا صادقت مؤمناً موصولاً جاءك لا من أقواله الآن من أحواله، فما دليل ذلك؟ دليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

أي المؤمن في بيت الله له حال غير المقال، أنت أتيت إلى بيت الله، أنت ضيف الله:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

أنت في بيت الله في درس علم، هناك معلومات، آيات، أحاديث، تحليلات، أدلة واقعية علمية، فقهية، دينية، أنت تأخذ علماً، وهناك شيء آخر تحس به وقد لا تنتبه إليه، حالك مع الله بالجامع حال آخر. لذلك الصحابة شكوا إلى النبي الكريم قالوا: يا رسول الله نكون معك ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى قال:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أم أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة))

[مسلم عن حنظلة]

إذاً هذا النص الصحيح يؤكد أن للمؤمن حالاً مع الله وهو في بيت الله، هذه بركة مجلس العلم، لذلك:

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتدارسون القرآن، إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

المقابل:

((وما أجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله عز وجل إلا قاموا عن جيفة حمار))

[أخرجه ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة]

جلسة، حديث عن النساء، وعن أشكال النساء، وعن الأسعار، وحديث في أي موضوع، لا يوجد خبر سار، تنتهي الجلسة و أنت لا تستطيع أن تقف على قدميك، لذلك بذكر الصالحين تتنزل الرحمات، اجلس في مجلس، حدّث أخوانك عن مؤمن مستقيم، بطل، ينطوي على مبادئ، له مواقف رائعة، له أعمال طيبة، تجد الحاضرين انتعشوا، شعروا بقيمة الإنسان، شعروا بحلاوة الإيمان، تمنوا أن يكونوا كهؤلاء، بعد قليل حدثهم عن إنسان لئيم، تجد أن المجلس قد تعكر، لذلك بذكر الصالحين تتنزل الرحمات، بالمقابل ـ هذا المقابل سماه علماء الأصول المعنى المخالف ـ وبذكر اللؤماء تتعكر المجالس، حاول في كل لقاء مع أخوانك أن تتحدث عن مؤمن، عن صحابي، عن تابعي، عن عالم، عن إنسان معاصر لك مستقيم، هذا الحديث عن مؤمن يعاصرك يعطيك دفعاً قوياً إلى الله عز وجل.

البشر عند الله فريقان لا ثالث لهما :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

ماذا يستنبط؟ هناك موضوع واحد في حياة المؤمن هو الحاسم في تقييم من حوله، موضوع الإيمان، لذلك هناك تقسيمات لبني البشر لا تعد ولا تحصى، يقول لك: العرق الآري، العرق السامي، العرق الأنغلو سكسوني، البيض، الملونون، الصفر، دول الشمال المتقدمة الصناعية، دول الجنوب المتخلفة، الدول المستَعمرة، المستعمِرة، النامية، المتطورة، تقسيمات لا تنتهي، والله نحن أمام آلاف التقسيمات، ما قولكم أن هؤلاء البشر هم عند الله فريقان، لا ثالث لهما، فريقٌ عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وفريق ٌ غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، الدليل:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

أي صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب بالجنة، صدق الدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

ولن تجد صنفاً ثالثاً، مؤمن وكافر.

العلاقة بين المؤمنين أمتن و أدوم علاقة على وجه الأرض :

إذاً بحياة المؤمن في علاقاته مع من حوله، في علاقات بعمله، هذه مشروعة، أنت مدرس بثانوية، ليكون المدير من يكون، تؤدي واجبك، وتحترمه فقط، عامل بمعمل، موظف بدائرة، علاقات العمل وفق منهج الله لا شيء عليها، أما الحديث عن العلاقات الحميمة، أي الزواج علاقة حميمة، الشراكة علاقة حميمة، أن تذهب مع إنسان في نزهة طويلة علاقة حميمة، العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

مجتمع المؤمنين مجتمع راق جداً، مجتمع المؤمنين مجتمع الصدق، مجتمع الأمانة، مجتمع الوفاء، مجتمع الإخلاص، مجتمع النصيحة، التناصح، مجتمع التعاون، لذلك: المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم، رب أخ لك لم تلده أمك، بل إنني أقول: ما من علاقة بين اثنين على وجه الأرض أمتنُ وأدومُ من علاقة بين مؤمنين.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية:10]

كيف أخوك من النسب؟ من أمك وأبيك؟ فينبغي أن تكون علاقتك بأخيك في الله كعلاقتك بأخيك النسبي.

قضية الإيمان هي القضية الوحيدة الحاسمة في علاقة الإنسان مع من حوله :

فلذلك

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هناك معنى ضمني، صاحبوا المؤمنين، كونوا معهم،

(لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

معنى أولياء؛ فلانٌ ولي لفلان، أي يحبه، ينصحه، يدله على الخير، يدافع عنه، يصله، يكرمه، كل هذه المعاني تتضمن معنى الولي،

(لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

لذلك قضية الإيمان هي القضية الوحيدة الحاسمة في علاقتك مع من حولك، طبعاً الكلام الدقيق لك أن تكون في معمل، في مدرسة، في وظيفة، في دائرة، علاقات العمل مشروعة ولا شيء فيها، الحديث عن العلاقات الحميمة، علاقة زواج، شراكة، نزهة مشتركة، لقاء حميم، سهرات طويلة، هذه العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين حصراً.

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

وهناك قرابة، قرابة شديدة أب، قرابة شديدة أخ، إن كان هذا الأبُ أو الأخُ منحرفاً فاسقاً ينبغي أن تبتعد عنه، دون أن تؤذيه، دقق الآن:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

[سورة لقمان الآية:15]

أي الأب والأم :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

[سورة لقمان الآية:15]

الأمر الإلهي:

(فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

[سورة لقمان الآية:15]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

ليس المقصود أن تكون معادياً لهم، بل أن تعاملهما بالحسنى، لكن يعطيك توجيهاً معيناً في معصية، ممنوع أن تنفذ أمراً بمعصية، لأنه:

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[أخرجه الطبراني والإمام أحمد عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري]

لأنه:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

فأنت مكلف أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، لكن مع عدم الطاعة في معصية، لكن لو أمرك أبوك بطاعة أصبحت طاعته من طاعة الله.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

أي مَالَ للكفر، مال لعدم الإيمان بالله، مال لعدم الإيمان بالآخرة، مال للمعاصي والآثام، ماله من حرام، سهراته مختلطة، علاقاته ليست منضبطة، هذا الأب يُحترم كأب، الأب بديننا له مكانة، لكن لا

يطاع، بلا عنف، بلا غلظة، اعذرني يا والدي أنا أطبق منهجاً لا أستطيع أن أغيره، أي أنا لا أدعوكم إلى موقف فيه مشادة، فيه عنف، فيه فظاظة، فيه غلظة، أبداً :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

هذا الموقف الرائع، موقف فيه معروف، فيه أدب، فيه احترام، لكن لا يوجد فيه طاعة.

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

إذاً هنا نهي واضح،

(تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

أولياء، يقول لك: تعلم موسيقى فرضاً، هناك حرفة دخلها كبير لكن لا ترضي الله عز وجل، هناك أشياء كثيرة يمكن أن تسبب للمسلم حرجاً مع الله عز وجل هذه:

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

أيها الأخوة، هناك نهي إلهي، من هو المؤمن؟ الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما نهى الله عنه، نهاك أن تطيع مخلوقاً في معصية الخالق، ولاسيما لو كان أبوك، لو كان هذا الذي نهاك الله عنه أباك ينبغي ألا تطعه في معصية الله.

لكن مرة ثانية وثالثة أقول هذا الكلام لأنني أعلم أن هناك شباباً عندهم غلظة في علاقاتهم بأوليائهم، والدليل هذه الآية:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

المؤمن يحب بعقله ويكره بعقله فإن تحرك مع أحاسيسه هبط مستواه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا)

هناك ملمح دقيق بكلمة استحبَ، الحب مرتبط بالفطرة والعقل، كل شيء يقبله العقل تحبه، وكل شيء تقبله الفطرة تحبه، لكن أحياناً تنشأ محبة غير صحيحة، محبة نفسية غير عقلية، أنا مضطر أن أبين أن الحب قد يكون عقلياً، وقد يكون نفسياً، لو أن طبيب القلب منعك من أن تأكل الملح، والطعام بلا ملح ليس له مذاق طيب، أنت تحب الطعام بلا ملح لا بأحاسيسك، تحبه بعقلك، لأن عقلك يقول لك: لو تجنبت الملح لنجوت من هذا المرض، هناك أشياء محببة ترفضها، تحب رفضها بعقلك، نسمي هذه الكراهية كراهية عقلية فقط، لكنك تحبها، وقس على ذلك كل شيء، المؤمن يحب ويكره بعقله لا بأحاسيسه، أي امرأة حسناء تبرز كل مفاتنها بالطريق، لو ملأت عينيك من محاسنها شيء طبيعي بالإنسان أن الله عز وجل أودع فيه حب المرأة، أما حينما يبغض إطلاق البصر إليها هذا البغض

شعوري أم عقلي؟ عقلي، المؤمن يحب بعقله، ويكره بعقله.

مبلغ فلكي، لكنه من حرام، تبغضه، ترفضه، أي أنت وازن نفسك، حينما تتحرك مع الأحاسيس هبط المستوى، حينما تتحرك مع العقل ارتخى المستوى، لذلك ورد في بعض الأقوال لسيدنا علي:

"أن ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان".

البطل هو الإنسان الذي ينتصر بمبادئه على حاجاته :

أنت من الأساس عندك قبضة من تراب الأرض، ونفحة من روح الله، عندك جزء علوي وجزء سفلي، وأحياناً تكون في صراع بين الدوافع الأرضية والدوافع السماوية، بين المبادئ واللذائذ، بين الحاجات والقيم، هذا الصراع لا ينجو منه إنسان، والدليل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

شيء طبيعي جداً أن هناك تناقضاً بين الحاجات وبين القيم، أنت بحاجة إلى بيت وهناك طريق للمال غير مشروع ترفضه مع أنك بحاجة لهذا المبلغ، عملت موازنة فوجدت أن طاعة الله أولى، فأنا أقول لك: لا يوجد مؤمن على وجه الأرض إلا ويعيش صراعاً بين ما يحتاج وبين مبادئه، من هو البطل؟ الذي ينتصر بمبادئه على حاجاته، لكن هناك تطمين إلهي:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والله أقول لكم: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، تترك شيئاً لله خوفاً منه، خوفاً من غضبه، خوفاً من معصيته، ولا توفق إلا إلى ما هو خيرٌ منه أبداً.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

النهي عن مصاحبة غير المؤمنين :

لذلك الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

أي أحب ألا يصلي، الإيمان أن تصلي، أحب أن يطلق نظره في محاسن النساء، الإيمان أن تغض البصر، أحب ألا يؤدي الزكاة، أن يستمتع بهذا المال، فكلما استحب الإنسان المعصية على الطاعة،

الكفر على الإيمان، يعمل عملاً سيئاً، هذا الإنسان ابتعد عن الدين، وقد لا يكون كافراً بالكفر الكبير، هناك كفر يخرجك من الملة أصلاً، وهناك كفر دون كفر، فإذا الإنسان لم يؤدَ زكاة ماله كَفر كُفراً جزئياً، كفر بهذه الفرضية، إذا ما غض بصره كفر بهذه الفرضية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية:30]

إذاً المؤمن يستقيم، غير المؤمن يتفلت،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

معنى ولي: ترجع إليه، تستشيره، تأخذ بنصيحته، تلجأ إليه، تريد أن تكون مثله، تأتمر بأمره، هذا الولي، هذا الذي ابتعد عن الله ينبغي أن تبتعد عنه، والدليل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

[سورة الكهف الآية: 28]

معنى أغفلنا أي وجدناه غافلاً، معنى أغفل في اللغة لا تعني أن الله خلق الغفلة فيه تعني أن الله وجده غافلاً.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية:28]

فأنت منهي عن أن تصاحب من لم يكن مؤمناً،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ)

في الفقه عندنا عبارة مشهورة، اسمها من باب أولى، إذا أنت منهي عن أن تتخذ أباك وأخاك وليين إن أحبا الكفر على الإيمان، فما قولك بغير أبيك وأخيك؟ من باب أولى، الأب الذي أنجبك، الأخ الذي ولد معك، ينبغي ألا تتخذه ولياً إذا أحب الكفر على الإيمان، فكيف موقفك من غير الأب والابن، من غير الأب والأخ، من باب أولى طبعاً.

الإيمان هو الذي يحدد علاقة الإنسان بمن حوله :

ملخص هذا اللقاء الطيب أن الإيمان هو الذي يحدد علاقتك بمن حولك، لكن لو أن الله نهاك عن أن تتخذ إنساناً كافراً ولياً، لا يعني أن تعاديه، لا يعني أن تسبه، لا يعني أن تشتمه إطلاقاً، ابتعد عنه، إذا كان هناك علاقة عمل أدِّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، أنا لا أنهى عن علاقات العمل، الحياة تقوم على عمل، والعمل في أطياف بالمجتمع، فأنت علاقتك الحميمة يجب أن تكون مع المؤمنين، الحميمة أي زواج، شراكة، نزهة طويلة، العلاقات الحميمة ينبغي أن تكون مع المؤمنين، لأن المؤمن

ناصح، المؤمن صادق، المؤمن أمين، المؤمن واعي، المؤمن لا يسمح لك أن تقذف معصية وهو معك، حارس أمين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

لأنفسهم، ظلم نفسه، ضيع الآخرة، غرق في الدنيا ونسي الآخرة، أي خسارة كبيرة جداً، والدليل:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (21-70):شرح الآية 24 ، الطريق إلى الله ليس سالكاً حينما تُؤثر كل شيء على رضا الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-09-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

من آثر الدنيا على الآخرة فالطريق إلى الله عز وجل ليس سالكاً :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

صدقوا ولا أبالغ أن هذه الآية من الآيات الحاسمة، من الآيات المفصلية، من الآيات الخطيرة، لأنك حينما تؤثر جانباً من هؤلاء، علاقات القربى والنسب، علاقات المال والثروات، علاقات المتعة والسرور، إن آثرت واحدة من هذه على طاعة الله و رسوله، فاعلم يقيناً أن الطريق إلى الله ليس سالكاً، الطريق مسدود.

من آثر طاعة والده الغارق في المعاصي على طاعة الله خسر الدنيا والآخرة :

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

أي الحياة متنوعة، أحياناً يكون الأب قوياً جداً، وغنياً جداً، ويمكن أنه إذا رضي عن ابنه أن يعطيه من الخير ما لا يوصف، مركبة، وبيت، وزواج، ودخل كبير، لكن هذا الأب افتراضاً على سبيل الافتراض ليس على الحق، وأن هذا الابن إذا رفض أمراً للأب يغضب الله، يفقد كل شيء، فالله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

أي الأب القوي الغني الذي بتصور الابن يمكن أن يعطيه من الدنيا ما يشاء، لكن هذا الأب افتراضاً ليس على الحق، ليس على منهج الله، لا يأمر بأمر يرضي الله، فحينما يعارض هذا الأب يخسر كل شيء، هذه الآية حاسمة، والله ما من آية كهذه الآية تعد فاصلة بين الإيمان وبين البعد عن الإيمان.

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

المقصود هنا الأب القوي الغني، الذي يمكن أن يغرق ابنه بالدنيا بما يحتاج، ما كل أب قوي وغني، لكن هناك آباء يهيئ لابنه مركبة، وبيتاً بأرقى أحياء المدينة، وإنفاقاً كبيراً، لكن هذا الأب غارق في معاصي الله، ولا يرضى عن ابنه، إلا إذا وافقه على عمله، أن تعارض هذا الأب خسرت كل شيء، فإذا كنت مؤمناً تؤثر طاعة الله على كل شيء.

الابتلاء قدر كل إنسان :

سُئل الإمام الشافعي: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى. وطن نفسك مستحيل وألف ألف مستحيل أن تدخل الجنة من دون ابتلاء، لقوله تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

الابتلاء قدرنا:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران: 142]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

دخول الجنة لا يكون إلا بعد أن يظهر كل إنسان على حقيقته :

أخواننا الكرام، اعتقد يقيناً أن الابتلاء والامتحان قدرنا، وأنه لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بعد التمحيص، والتدقيق، ولا بد من أن تظهر على حقيقتك، والله خبير بالنفوس، الله عز وجل هو الخبير الذي يضعك في ظرف لا بدّ من أن تعبر في هذا الظرف عن حقيقتك، فإما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

الأب القوي، الغني، غير المنضبط بمنهج الله، هذا إذا غضب حرمك كل شيء، وإذا رضي عليك أعطاك كل شيء، المقصود بهذا الأب الذي إن عارضته فقدت كل شيء:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

مكانة الأب الكبيرة جداً في المجتمع الإسلامي :

الآن الابن، يمكن أن يكون الأب إنساناً عادياً أما الابن فإن حقق نجاحات في الدنيا كبيرة، هذه النجاحات لا كما يرضى الله عنها، فإذا عارضه الأب أيضاً فقد كل شيء، أنت لاحظ يقول الشاب المتزوج أحياناً: أنا عندي أولاد ثلاث، الله عز وجل قال:

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

[سورة الإسراء: 23]

أين تسكن يا أخي؟ عند ابني، عندما يكبر تتقدم به السن، يعجز، أنا عند ابني، أما أين تعيش؟ عند أبي، كنت عند أبيك فصار أبوك عندك، هذه الحياة أمامكم، الإنسان في بداياته قوي، أولاده عنده، عندما كبر أصبح أبوه عنده، موضوع ليس له علاقة بالدرس لكن ساقه إلى ذاكرتي سياق الدرس، من فضل الله على المسلمين أن آباءهم المتقدمون بالسن عند أولادهم، هذه حالة صحية عالية جداً في الغرب، مأوى العجزة صدق ولا أبالغ يكون أحياناً من مستوى العشر نجوم، وأي شيء يتخيله الإنسان أمامه طبعاً مقابل أجور عالية جداً، هذا الأب حينما تتقدم به السن وأولاده ليسوا على ما ينبغي، يضعونه في مأوى العجزة، أكبر مشكلة يعاني منها القائمون على هذه المؤسسات للعجزة انتحار هؤلاء، إذا تمكن أن يجلب شفرة ينتحر بها، تمكن أن يجلب حبلاً يموت فيه، أي أداة يمكن أن تنهي حياته، أنا حدثني أخ تابع ندوة مطولة في التلفزيون الفرنسي عن هذه البيوت، بيوت العجزة، المشكلة الأولى الانتحار، لا حظ هذه المشكلة ليست موجودة عند المسلمين، الأب عند أولاده معه أحفاده، تأتيه بناته ليزوروه، الأب لا يحتاج إلى الطعام والشراب، الأب وصل إلى درجة هذه الأشياء ألفها، وعافت نفسه عنها، ما الذي بقي له فقط؟ أن يكون مع أولاده وأحفاده، نحن في العالم الإسلامي هذه ميزة كبيرة جداً، أن الأب عند أولاده، والأب مع أحفاده، والأب له مكانته الكبيرة جداً، فلذلك اشكروا الله عز وجل على هذه الآداب الإسلامية التي تقتضي أن يكون الأب مقبولاً بل مرحباً به، بل ومعتنى به، بل وإن الأبناء أحياناً يتنافسون على الأب، كل واحد يتمنى أن يكون عنده في البيت، هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

قال لي أخ عاش في فرنسا: أكبر مشكلة يعاني منها القائمون على هذه المؤسسات هي انتحار المتقدمين في السن، أما عندنا معزز مكرم، يتقرب أبناؤه إلى الله بخدمته، والعناية به، وقد يكون مشلولاً، ويتحملون خدمته القاسية سنوات طويلة، وكلهم يرى أن هذا مغنم كبير عند الله العزيز الكبير.

من كان ابنه عنده أغلى من الله عز وجل فقد عصى الله و رسوله :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

أحياناً الإنسان يعصي الله من أجل أبنائه، يمكن أن يأكل المال الحرام ليطعمهم ما يتمنون، ليلبسهم ما يريدون، يمكن وفي الأعم الأغلب أن يكون الأب ضعيف الإيمان، ودخله محدود، وعنده أولاد، يمد يده إلى الحرام ليغطي حاجات أولاده، دون أن ينتبه إلى أنه:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الابن والزوجة تطعمهم مما تأكل، وتلبسهم مما تلبس، وما كلفك الله أن تمد يدك إلى الحرام من أجلهم، أما عندما تطعمهم طعاماً أنت لا تأكله، لك لقاءاتك مع أصدقائك، ولك طعامك في المطاعم، تطعمهم أردأ الطعام، فأنت محاسب أشد الحساب، لكن ما كلفك الله أن تمد يدك إلى الحرام كي تطعمهم، وهذا شيء مستحيل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

أي الابن أحياناً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة المنافقون الآية : 9]

وأحياناً الابن مجبنة، مبخلة، يسبب للأب الخوف على المال على مستوى البخل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

من دفعت زوجها لكسب المال الحرام فقد أغضبت الله و رسوله :

الأصول والفروع، الآباء أي الأصول مهما علوا، والأبناء الفروع مهما نزلوا:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ)

الأقارب المتوازين في النسب؛ الأخ، الأخت:

(وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

من بقي؟ أصول، فروع، أخوة وأخوات، عمات وخالات، الحركة نحو الأعلى أصول، نحو الأدنى فروع، الحركة الأفقية الأعمام، والأخوال، والأخوات، والأخوة، أبناء الأخوات والأخوة، تابع لهذا القسم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ)

هذه علاقات النسب، أما علاقات الزواج وأزواجكم، الزوجة غالية جداً.

أخواننا الكرام، أحياناً الإنسان من أجل زوجته قد يأكل المال الحرام كي يرضيها، أحد الصحابة له زوجة ضغطت عليه على أن يقدم لها شيئاً من الدنيا، فقال لها هذه الكلمة الرائعة: اعلمي أن في الجنة

من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.
الصحابية الجليلة كانت تودع زوجها وتقول: اتق الله بنا؛ نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، الآن الزوجة تدفع زوجها إلى كسب المال الحرام.

أسباب العنف في العالم :

لذلك قال تعالى:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن الآية:14]

قال علماء التفسير: هذه عداوة مآل، في النهاية زوجته أرضاها ودخل النار من أجلها، البطولة أن رئيساً فرنسياً ـ القصة منذ عشر سنوات ـ جمع ثلاثين عالماً من كبار علماء النفس والاجتماع، في منتجع في فرنسا، وطلب منهم إجابة عن سؤال واحد، لماذا العنف في العالم؟ نحن في الخمسينات كل أربع أو خمس سنوات يحكم إنسان بالإعدام، تزحف دمشق بأكملها، لترى إعدام إنسان بالخمسينات، الآن كل يوم يوجد مئتي قتيل، أليس كذلك؟ النفس غالية جداً ما السبب؟ هذا الرئيس الفرنسي جمع ثلاثين عالماً من كبار علماء النفس والاجتماع، في منتجع وأعطاهم ثلاثين يوماً، وطالبهم بإجابة حاسمة عن سؤال؛ لماذا العنف في العالم؟ فكان الجواب وقد تستغربون ذلك إنه مجتمع الاستهلاك، تدخل على سوق فيه بضائع، مواد غذائية، ألبسة، أدوات كهربائية، شيء يفتن الإنسان، ولا يملك ثمنه، دخلت امرأة إلى سوق من أضخم الأسواق في أوربا قالت: يا إلهي ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان، في هذه الأسواق الحاجة تدعوك إلى شرائها أحياناً بالتقسيط، أحياناً بالائتمان، ببطاقة، ترى أنك مثقل، والحياة بسيطة نحن عقدناها، العلماء قالوا: مجتمع الاستهلاك وراء العنف، ما التفسير؟ قال: هذا الإنسان يرى كل يوم في الإعلانات هذه السيارة، وهذا الجهاز، وهذه الثلاجة، وهذه الأدوات المنزلة، هذه الحاجات الراقية يشتهيها، تعرض عليه كل يوم، في الطرقات، على الشاشة، في الصحف، في المجلات، إعلانات مثيرة جداً، وراؤها علماء نفس، يريك هذه الآلة وكأنها سبب سعادتك، يريك هذه المركبة أنك إذا اقتنيتها فأنت أسعد إنسان، الإعلانات اليومية على الشاشات، والصحف، والمجلات، وفي الطرقات، هذه الإعلانات تخلق حاجة عند الإنسان، الآن هذا الإنسان أولاً: قد لا يملك ثمن هذه الحاجة، بماذا يشعر؟ يشعر هو وأهله بحالة اسمها الحرمان، فإذا مدّ يده إلى الحرام ليغطي هذه الحاجات سقط من عين الواحد الديان، وإذا ألغى وقت فراغه، وعمل عملاً إضافياً لم يعد أباً، يقول لك: ذهبت من البيت قبل أن يستيقظ أولادي، وعدت إلى البيت بعد أن ناموا، الشرفاء هكذا، الإنسان

الشريف دينه غالٍ عليه، يخاف الله، له عمل آخر، له عمل بمكان، ومحاسب بمكان، العملان أفقداه وقت فراغه، بالمناسبة الإنسان الذي ليس عنده وقت فراغ يملأه بحسب مبادئه ليس إنساناً، يقول لك: خرجت من البيت قبل أن يستيقظوا وعدت بعد أن ناموا، أنت بهذا ألغيت أبوتك، فأنت حينما ترهق نفسك بعمل يفقدك الأبوة أنت ضيعت أكثر مما أخذت.

هؤلاء العلماء كانت إجابتهم: مجتمع الاستهلاك يلقي صوراً مغرية لكل هذه الحاجات التي قد لا يحتاجها معظم الناس، هذه الصور المغرية أمامها ثلاثة مواقف، موقف الشعور بالحرمان المستمر، موقف آخر موقف أن تمد يدك إلى الحرام لتغطي هذه الحاجات، سقطت من عين الله، أكلت المال الحرام، والوضع الثالث أن تعمل عملاً إضافياً يلغي أبوتك، تقريباً أكثر الشرفاء لا يوجد عندهم وقت أبداً ليجلسوا مع أولادهم، من يربيهم؟ من يأخذ بيدهم؟ من يدلهم على الحق؟ لا يوجد أحد، لذلك من تعريفات اليتيم من كان أبوه مشغولاً عنه، إن اليتيم من يجد أماً تخلت أو أباً مشغولاً، الأب المشغول أولاده كالأيتام، القضية خطيرة جداً:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

هل يوجد غير هذا؟ الآباء مهما علوت والأبناء مهما نزلت، والأخوان؛ أخ، أخت، عمة، خالة، حركة عرضية وأولادهم طبعاً، وأزواجكم، الزوجة لها حكم خاص، وعشيرتكم.

على التاجر الابتعاد عن العلاقات التجارية التي لا ترضي الله عز وجل :

الآن:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

أموال حصلتموها بكد وتعب شديدين:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

وحينما ذكر الله التجارة ذكر الكساد، والتاجر وحده يعرف معنى الكساد، قال لي مرة صاحب معمل: إذا دخلت إلى المستودع أحس أن قلبي سوف يقف، البضائع للسقف لكن لا يوجد بيع، أي أصعب حالة يعاينها التجار الكساد:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

مثلاً: عندك بضاعة يمكن أن تعلن عنها بطريقة أو بأخرى، لكن يوجد إعلان بوسائل لا ترضي الله عز وجل، امرأة شبه عارية ترتدي هذه الحاجات، هذا إعلان لا يرضي الله عز وجل، أحياناً الكساد يدعو التاجر إلى إعلان لا يرضي الله عز وجل، أو إلى علاقة مشبوهة، أو إلى علاقات تجارية لا

ترضي الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

هذه الأقارب، أبوة، بنوة، أخوات، أخوة، أعمام، أخوال، عشيرة، والشيء المركزي الزوجة.

أندم الناس من دخل أولاده بماله الجنة ودخل هو بماله النار :

لذلك:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن الآية:14]

هذه عداوة المآل:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

في بعض الآثار النبوية: "إن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا والدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، في هذا الأثر النبوي: ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه، ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: ممَّ الفزع؟ وممَّ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإنّ لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم.

أيها الأخوة الكرام، الإنسان قد يحصّل مالاً بمشقة بالغة، وتحصيل المال بمشقة بالغة معنى اقتراف المال أي جمعه بجهد بليغ، مرة قال لي صاحب معمل: خمسة وثلاثون عاماً أكون بالمعمل الساعة الخامسة فجراً وأغادر آخر إنسان، اشترى بيتاً بمئة وستين مليوناً، لكن جهد فوق طاقة البشر، الأموال الذي اقترفتموها أي جمعتموها بجهد كبير، قال لي آخر عنده معمل أقمشة: والله ما ذهبت إلى اللاذقية من ثلاثين سنة مرة، إلا مرة استلمت سيارتي، الذين عندهم أعمال كبيرة هناك جهد كبير جداً في تجميع هذه الأموال، لكن ورد في الأثر أن الله عز وجل يسأل عبده يوم القيامة، أن عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يسأل عبداً آخر أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك.

فكل إنسان جمع ماله من حلال الله عز وجل يحفظ له هذا المال لأولاده، لكن أندم الناس من دخل أولاده بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، ورثوه حلالاً، وأنفقوه في طاعة الله.

بطولة الإنسان لا أن يحتكم لقانون وضعي بل لقانون الله عز وجل :

الآية الكريمة من سورة التوبة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

أي تعبتم في جمعها:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

للتقريب، بنظام إيجار معين سابق هناك بعض الفئات من المجتمع محمية من الإخلاء، ساكن في بيت ثمنه خمسون مليوناً، أجرته مئة ليرة على النظام القديم، أي ضرائب البيت عشرة أضعاف أجرته، وساكن هذا البيت محمي بالقانون، يقول: أنا القانون معي، إذا وضعت في القبر هل معك قانون؟ عندك بيت آخر صرت مغتصباً، أيها الأخوة الكرام، كل بطولتك لا أن تحتكم لقانون وضعي، أن تحتكم لقانون الله عز وجل:

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

والله هناك حالات بفضل الله نظام الإيجار تعدل، وهذا فضل كبير من الله، لكن قبل تعديل القانون كان هناك إنسان يسكن في بيت ضرائبه عشرة أضعاف أجرته، ومحمي، فالذي لم ينظر إلى أن الله سيحاسبه، نظر إلى أن القانون يحميه، هذا خطأ كبير:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

من كان ماله وتجارته أحبّ إليه من الله و رسوله فقد خسر و خاب :

هنا الشاهد:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

وما عندهم من أموال، وخيرات، وبيوت، والله زارني أخ قال لي: يوجد باسمي تسعمئة مليون من أراضٍ، ومساكن، وأخي يعمل على سيارة بالأجرة، الأب أعطى ابنه الأول ما يقترب من ألف مليون، و أما ابنه الثاني فيعمل عملاً شاقاً ليأكل ويشرب، أين العدل؟

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ)

من طاعة الله، من طاعة رسول الله، من الجهاد في سبيل الله، إن كان الأمر كذلك فالطريق إلى الله ليس سالكاً.

العاقل من تمسك بالشرع و القرآن لا بمصالحه المتعارضة معهما :

أيها الأخوة الكرام، لا تعتد بمادة بالقانون لصالحك، اعتد بأن الشرع لصالحك، أن القرآن الكريم لصالحك، أن منهج الله لصالحك، والله عندي قصص لا تعد ولا تحصى من أناس تركوا بيوتاً هم يحميهم القانون لكنهم خافوا من الله، ترك بيتاً و لا يوجد عنده بيت، الله عز وجل أكرمه ببيت، حدثني أخ قال لي: أنا ساكن في بيت بأحد أحياء دمشق الراقية، أجرته بسيطة، عندما استأجره قالت له صاحبة البيت: هل تعدني أنني إذا طلبت منك البيت أن تعطني إياه؟ قال لها: أعدك، بأصعب أزمة بيوت في هذه البلدة الطيبة، قالت له: أريد البيت، قال لها: حاضر، أقسم لي بالله أنه سلمها البيت، ووقع عقداً بتسليم البيت ولا يوجد عنده بيت إطلاقاً، وكان تأمين البيت شيء شبه مستحيل، يقول له المحامي بعد أن وقع: أنت مجنون، بقيت في الطريق، قال: أنا حسب ما وعدتها، هو يعمل في الألبسة الجاهزة، وفي البناء الذي يعمل به بيت جميل جداً، قال لي: إذا بعت سيارتي، وبعت كل بضاعتي، وأشياء كثيرة، يمكن أن أدفع الدفعة الأولى من ثمن البيت، فبعد أن اتفقوا وبدأ يبيع، لم يوافقوا على متابعة العقد، قال لي: بعد شهر بعت بيعاً ليس طبيعياً، وأنا أنوي أن أسلم البيت، وبعد أن سلمت البيت، جاءني أصحاب البيت الذي أردت أن أشتريه و عرضوا عليّ أن يبيعوه لي تقسيطاً، ودفع أول دفعة، وسكن في البيت ودعاني إلى طعام والله في هذا البيت، هو عندما ترك البيت تركه طاعة لله، المحامي استغرب قال له: أنت مجنون بقيت في الطريق، لكن الله ما تركه في الطريق، ثم انتقل إلى بيت أفضل.

على الإنسان أن يؤثر طاعة الله على كل ما يملك من حقوق وفق القوانين الوضعية :

أيها الأخوة الكرام، أقسم لكم بالله عندي قاعدة، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، الوعد النبوي:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من طاعة الله في قرآنه، وطاعة النبي في سنته:

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

الطريق إلى الله ليس سالكاً:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

والله هذه الآية من أخطر آيات سورة التوبة، والله ما منا واحد إلا ويتعلق مصيره بها، يجب أن تؤثر طاعة الله على كل ما تملك من حقوق وفق القوانين الوضعية، في القبر لا أحد يحميك إلا الله، قال لي إنسان: استطعت أن آخذ محضراً بثلث قيمته، بتمثيلية أحضر أناساً دفعوا مبالغ صغيرة جداً للمزايدة، وله ترتيبات معينة، فالمحضر بدمشق، واستطاع أن يشتري المحضر بثلث قيمته، وأكثر من مئتي شخص يملكه، بعضهم أيتام، واعتبر حاله ذكياً جداً ومتفوقاً، قلت له: وكيف تواجه الله بهذا العمل؟ فسكت، بالقبر لا يوجد قانون يحميك؟ قلت له: إما أن تعطي أصحاب الأرض القيمة الحقيقية أو أن تلغي العقد، قال لي: إن شاء الله أفعل، أنا ما رأيته، مرة كنت في الطريق شاهدت ابنه قال لي: والدي توفي، قلت له: الأرض أرجعها؟ قال لي: لا والله أخذها، تفضل واجه الآن.

أغبى الأغبياء من أكل مالاً حراماً و عدّ نفسه ذكياً :

أيها الأخوة الكرام، الله كبير، لا تعد ذكياً إذا أكلت مالاً حراماً بل تعد أغبى الأغبياء:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

أنا حدثني أخ هو محام كبير، قال لي: هناك بيت ثمنه يقدر بستين مليوناً، بعدما مات صاحبه، أبرز إنسان عقد بيع، هذا العقد أصولي لكن قد يكون مزوراً، اضطر القاضي إلى شاهدين، هناك شاهد شهد، الثاني أحضروه بالأجرة، وضع يده على المصحف وحلف يميناً كاذبة أنه هو يعرف هذه الحقيقة، أقسم بالله هذا القاضي أن هذا الشاهد يمسك الطاولة بيده اليسرى، ويده اليمنى على المصحف، ورفع يده لكن لم ينزلها، فالقاضي انزعج، قال له: انزل يدك، كان ميتاً، ثم قلب، مات أثناء حلف اليمين.

عين الفسق من آثر دنياه على آخرته :

أيها الأخوة الكرام، الآية التالية خطيرة جداً:

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من أمر الله في قرآنه، وأمر النبي في سنته:

(وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

الطريق إلى الله ليس سالكاً، فتربصوا مكانكم:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

إذاً أن تؤثر أباك، وأبناءك، وأخوانك، وزوجتك، وعشيرتك، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن على طاعة الله، فهذا هو عين الفسق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (22-70):شرح الآيات 25-26 ، التوحيد والافتقار هو أدب وواقع ويوقي الإنسان من شرك خفي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد هو الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية لها معنىً متعلقاً بالتوحيد، والتوحيد هو الدين، والتوحيد ألا ترى مع الله أحداً، والتوحيد أن توقن أنه لا فاعل إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، وما من خطأ متعلق بالشرك الخفي إلا ويعالج من قبل الله جلّ جلاله معالجة سريعة، فهؤلاء الصحابة الكرام على علو قدرهم، وعلى أنهم نخبة البشر، وعلى أنهم صحابة سيد البشر، حينما اعتدوا بعددهم ولم يوحدوا جاء التأديب الإلهي مع أنهم في أعلى درجة من القرب من الله عز وجل.

الافتقار إلى الله ليس أدباً فحسب بل هو واقع أيضاً :

الله عز وجل يقول:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

أي في بدر، في بدر افتقر الصحابة إلا الله:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية:123]

بمعنى مفتقرون إلى الله، إن أردت أن تأخذ من الله كل شيء افتقر إليه، الافتقار ليس أدباً فحسب بل هو واقع، نحن لا شيء، أنت بالله عالم، وبالله قوي، وبالله غني، وبالله حكيم، أما إذا اعتددت بما توهمته قوةٍ لك فأنت لست قوياً، ولا حكيماً، ولا عالماً، ولا غنياً.

من رأى فضل الله عليه فهو أقرب المخلوقات إلى الله عز وجل :

أخواننا الكرام، لو تتبعنا آيات القرآن الكريم في أكثر مواطنه نجدها تحوم حول محور واحد ألا وهو التوحيد، وقد قيل: ما تعلمت للعبيد أفضل من التوحيد، أي من هؤلاء الذين عالجهم ربنا جلّ جلاله؟ هم أصحاب سيد الخلق، هم نخبة البشر، هم الذين اصطفاهم الله عز وجل ليكونوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك حينما ـ في ساعةٍ من الساعات ـ توهموا أنهم كثر، وأن عددهم كبير، وأن النصر حليفهم، جاء التأديب الإلهي فجاءت الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

آية أخرى وهي أيةُ اليوم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

وكل واحد منا له أيام مع الله، وحين قال الله عز وجل:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم الآية:5]

أيها المؤمن في يوم ما رجوت الله أن يوفقك فوفقك، رجوت الله أن يشفيك من هذا المرض فشفاك، رجوت الله أن يرزقك زوجة صالحة فأجابك، أن يرزقك أولاداً صالحين فاستجاب لدعائك، فالمفروض بالمؤمن أن يتذكر فضل الله عليه، فالمؤمن شكور، وشاكر، شاكر اسم فاعل، وشكور كثير الشكر، فحينما ترى فضل الله عليك أنت أقرب المخلوقات إلى الله، هناك إنسان يتذكر قوته، يعتد بقوته، يعتد بنسبه، يعتد بماله، يعتد بمنصبه، أما المؤمن وهو في أعلى درجات القوى فيرى افتقاره إلى الله.

التولي والتخلي :

الحقيقة أن الإنسان بين التولي والتخلي، التولي والتخلي حالان يرافقان كل مؤمن في أي وقت، في أي وقت تقول: الله يتولاك الله، وفي أي وقتٍ تقول: أنا يتخلى الله عنك، مهما ارتقيت في مراتب الإيمان، حينما تتفهمُ لدقيقةٍ واحدة أن هذا الفعل الذي أجراه الله على يديك هو من اختصاصك، أو من خبرتك، أو من ذكائك، أو من حكمتك، يأتي التأديب الإلهي، لذلك المؤمن لا يشهدُ عمله ولكنه يشهد فضل الله عليه، فإذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، في دراستك يمكن أي طالب ألا ينجح بالامتحان على الرغم من دراساته المتعمقة جداً، يمكن لأي مريض أن يكون مرضه سبب موته، يأتي الشفاء الإلهي، يمكن أن ترزق بزوجة تريك النجوم ظهراً كما يقال، ويمكن أن يرزقك الله زوجةٍ صالحة تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها، فأنت حينما توحد، حينما

تتبرأ من حولك وقوتك، وتلتجئ إلى حول الله وقوته، والدعاء الذي ينبغي أن تقوله قبل كل عمل: "اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين".

الحقيقة هذه الآيات التي أمامنا تعلمنا التوحيد، تعلمنا التوحيد ونحن بحاجة إليه، أنا لا أبالغ في كل دقيقة من دقائق حياتنا، أنت أمام مشكلة يجب أن تحل، أمام عقبة يجب أن تتجاوزها، أمام ضائقة يجب أن تنجو منها، أمام عدو حاقد يجب أن تنجو من حقده، فهناك أخطار محيطة بالإنسان في كل وقت، وفي كل زمان، وفي كل مكان، وهذه الأخطار هي محفزات للتوحيد، محفزات لمعرفة الله، أقول ولا أبالغ: إن هذا الدرس اليوم يحتاجه كل واحد منا في كل يوم، بل في كل ساعة، إما أن يعتد بقوته، أو بعلمه، أو بخبرته، أو بمنصبه، أو بشهادته، أو بنسبه، أو بإمكاناته، أو بماله، حينما يعتدُ بهذا الذي بين يديه، وينسى فضل الله عليه، يقع في مطبةٍ اسمها الشرك الخفي، وقد ورد في بعض الآثار النبوية:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقولُ إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالٌ لغير الله))

[ورد في الأثر]

التوحيد ألا يرى الإنسان مع الله أحداً :

أخواننا الكرام، الشرك الجلي واضح، أن تعبد بوذا مثلاً كما يفعل من في بعض البلاد في شرقي آسيا، أن تعبد صنماً، أو حجراً، أو شمساً، أو قمراً، أو إنساناً، ولكن التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية:123]

التوحيد أن ترى كما في قوله تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات]

فكل الدين ولا أبالغ يدور حول التوحيد، والإيمانُ بالله خالقاً هذا الإيمان موجود عند معظم البشر، حتى إبليس آمن بالله خالقاً، والدليل قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص]

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص]

فقضية أن تؤمن أن الله موجود هذه قاسم مشترك بين كل البشر، عدا قلة قليلة جداً عطلت عقولها، ولكن الإيمان الذي نقصده في كل هذه الدروس الإيمان التوحيدي، أي ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن

رزقك بيد الله، وأن سعادتك بيد الله، وأن الشقاء بيد الله، وأن الحكمة بيد الله، وأن التفوق بيد الله، كلما رأيت أمور الدنيا منوطة بالله عز وجل كنت موحداً، فالتوحيد أن تجعل همومك هماً واحداً، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى أنّ يد الله تعملُ وحدها،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

المؤمن يعترف دائماً بفضل الله عز وجل عليه :

أيها الأخوة، الله عز وجل يذكّر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ لهم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

الصحابة الكرام شبابٌ ضعاف فقراء، واجهوا قريشاً، واجهوا صناديد قريش، واجهوا الأغنياء، واجهوا الأقوياء، واجهوا من سيطروا على الجزيرة العربية بأكملها، لكن الله معهم، وإن كان الله معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

وأنت أيها المؤمن أنا أتمنى أنك إذا قرأت آية في كتاب الله بالتعبير المعاصر أن تسقطها على نفسك، أنت كشاب وقعت في عدة مواقع محرجة، كيف نجاك الله منها؟ لك طلبات عند الله بدت لك في وقتٍ ما مستحيلة، كيف تحققت؟ كنت بحاجة إلى عمل، إلى زوجة، إلى بيت، إلى أولاد، الله يسر لك زواجك، يسر لك عملك، رزقك أولاداً، حينما ترى أن ما أنت فيه ليس بذكائك، ولا بخبرتك، ولا بحنكتك، ما أنت فيه فضل الله عليك، هذه الرؤية هي محض الإيمان، أن ترى دائماً فضل الله عليك.

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)

[سورة النمل الآية: 40]

دخلت إلى البيت: "الحمد لله الذي آواني، وكم ممن لا مأوى له"، استيقظت صباحاً معافى في جسمك، "الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي، وعافاني في بدني، وأذن لي بذكره"، جلست إلى الطعام أكلت فشبعت: "الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وأسقانا فأروانا"، لك زوجة تعتني بك، تطبخ لك، تهتم بشأنك، هذه نعمة كبيرة، في بيتك أولاد صغار، يملؤون البيت فرحةً، هذه نعمة أيضاً، لو أردت أن تعدد نعم الله عز وجل فلن تحصيها.

المؤمن يرى فضل الله عليه و غير المؤمن يرى الذي ينقصه فقط :

الشيء اللطيف:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم الآية: 34]

هل يمكن أن تقول لإنسان خذ هذه الليرة فعدها؟ كأن المعنى أن نعمة واحدة من نعم لو ذهبت تعدد خيراتها وفضائلها لا تنتهي، فأنت غارق في نعمة الله، جسمك، لك بصر ترى به الأشياء، لك سمع تنتهي إليك الأصوات، لك عقل، لك لسان تنطق به، لك رجلان تتحرك بهما، لك يد تسعى بها، لك بيت، لك أهل، لك زوجة، لك أولاد، هذه النعم التي تعد عند الناس، عادة الإنسان غير المؤمن لا يشكر الله عز وجل، يرى الذي ينقصه فقط، والبطولة قبل أن ترى ما ينقصك ينبغي أن ترى ما عندك، مثلاً:

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبِه))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

إنسان ليست هناك مذكرة بحث في حقه، لو التقيت مع إنسان عليه مذكرة بحث ينخلع قلبه إذا طُرق بابه، حالة القلق والخوف، أنت من خوف المرض في مرض، ومن خوف الفقر في فقر، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فأنت معافى من هذا القلق، أنت آمن في سربك.

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبِه، مُعافى في جَسَدِهِ، عندهُ قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

لا يوجد بحقك مذكرة بحث، لا يوجد عندك ولد معاق، والله هناك أولاد معاقون، ولهم آباء قد يكونوا مؤمنين، ويصبرون على هذه الإعاقة، ولكن الولد الغير معاق أجمل بكثير، ابنك يتحرك أمامك، يتكلم، دخل مدرسة، ارتقى من صف إلى صف، هذه نعمة قد تغيب عن معظم الناس، هناك طفل منغولي، طفل معاق، طفل مشلول، طفل عنده تخلف عقلي، طفل عنده عاهة دائمة، أما إن كان في البيت طفل سليم، طفلة سليمة، زوجة صالحة، مأوى، هذه النعم التي غمرك الله بها ينبغي أن تذكرها.

العالم شرد عن الله شروداً كبيراً و المؤمن أنعم الله عليه بنعمة التوحيد :

مرة ثانية: المؤمن يرى فضل الله عليه، بالحد الأدنى أنه منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد.

في الحد الأدنى دلك عليه، لم تكن شارداً، هناك ملايين مملينة، مئات الملايين يعبدون حجراً، الآن في شرق آسيا يعبدون بقرة، يعبدون جرذاً، عندي موضوع في مجلة فرنسية عن قبائل كثيرة في آسيا

يعبدون الجرذ، وهناك معابد، و تحقيقات طويلة جداً، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد موج البحر، وهناك من يعبد شهوته وما أكثرهم.

(أرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية: 43]

العالم شرد عن الله شروداً كبيراً، فأنت الله عز وجل أنعم عليك بنعمة التوحيد، تعبد الله عز وجل خالق السماوات والأرض:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

[سورة الأعراف الآية: 185]

أنزل على عبده الفرقان، الفرقان بين يديك تقرأه، قدم لك الفرقان أو قدم لك القرآن تصوراً عن الكون، وعن الحياة، وعن الإنسان، وعن سرّ وجودك، وعن غاية وجودك، وماذا بعد الموت، وعن الجنة والنار، هذه كلها حقائق تبعث في النفس الراحة، أنت تعرف من فقد العقيدة في ضياع، عنده ألف سؤال وسؤال، وألف استفهام واستفهام، و عنده قضايا عالقة، وقضايا ليس لها جواب، هذا الدين العظيم قدم لك تصوراً دقيقاً، عميقاً، شمولياً، عن الكون والحياة والإنسان.

من اشتغل بمعرفة نعم الله عليه كان أقرب الناس لله عز وجل :

لذلك تذكر فضل الله عليك، من هذا الفضل الذي أشير في هذه الآية، إلى الصحابة الكرام:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)

أنا أقول في قوله تعالى:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

كل مؤمن ولا أستثني واحداً له أيام مع الله، وقع في ضائقة فسأل الله مخلصاً فاستجاب الله له، كان على مشارف امتحان مصيري، والمادة صعبة جداً، والله وفقه في هذه المادة وتخرج، وتعين بوظيفة، وتزوج، واشترى بيتاً، واستقر، هذا من فضل الله عليك، هناك نعم قد ترونها بديهية، لك أب وأم، لو التقيت بلقيط لوجدت عنده آلام تسحقه، من أبوه؟ لا يعرف، هناك آلام تسحقه، من أسرة، لك أب، لك أم معروفة بصلاحها، فلو ذهبت تعدد فضل الله عليك لذبت محبة لله عز وجل.

والله أنا أقول حتى لمن أصابته مصيبة، أقول له: لو كشف الغطاء يوم القيامة عن الحكمة من سوق هذه المصيبة لك إن لم تذب محبة لله فأنا مسؤول عن هذا الكلام.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران الآية: 26]

أي شيء مألوف جداً أن لك عينين، لكي ترى الألوان، ترى الجبال، ترى الأنهار، ترى البحار، ترى السماء، ترى الأطيار، ترى الأسماك، ترى زوجتك، ترى أولادك، ترى من حولك، ترى من فوقك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد]

وهناك إنسان فاقد البصر، جعلك تنطق تعبر عن مشاعرك، عن أفكارك، عن مبادئك بلسان فصيح، هذه نعمة كبرى، أنا أذكر نعماً بشكل غير متسلسل، كيفما تحركت هناك نعمة أنت مغمور بها.

لذلك إذا اشتغلت بتعدد أو بمعرفة نعم الله عليك كنت أقرب الناس لله عز وجل.

أيها الأخوة، الآية الخامسة والعشرون من سورة التوبة:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ)

الوضع الطبيعي هناك نعم أنت مغمور بها، لكن أحياناً تكون في نعمة كبرى ساقها الله إليك، وتوهمت أنت أنها من جهدك، ومن بطولتك، ومن إمكاناتك، هنا وقعت في شرك خفي.

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

شروط تلاوة القرآن الكريم :

أخواننا الكرام، لا يغيب عن أذهانكم أن الله سبحانه وتعالى حينما وصف المؤمنين بأنهم:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية: 121]

وأذكركم أن من حق التلاوة أن نقرأه بلغة عربية صحيحة، لذلك سيدنا عمر قال:" تعلموا العربية فإنها من الدين".

ومن حق تلاوته أن تقرأه قراءة مجودة إن أمكن، شيء جميل جداً أن تتعلم قواعد التجويد، ومن حق تلاوته أن تفهمه، ومن حق تلاوته أن تطبقه، والتدبر أن تعرض نفسك على كل آية تقرأها أين أنت منها؟ هل أنت مطبق لها؟ هل أنت مقصر؟ هل أنت ينبغي أن تستكمل بعض الأعمال كي تنطبق عليك؟

من وقع في الشرك الخفي استحق التأديب :

فلذلك هذه الآية التي بين أيدينا هل تذكرت فضل الله عليك؟ في دراستك، في زواجك، في عملك، في أولادك، في علاقتك الطيبة بأهلك، فهناك نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى.

لذلك الآية الكريمة هي موجهة للصحابة، ونحن أيضاً ينبغي أن نسقطها على أنفسنا

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ)

هنا، هذا الدرس البليغ أن قمم البشر، أصحاب رسول الله وقعوا في شرك خفي حتى استحقوا التأديب، فأنت من؟ من أنت أمام سيدنا سعد؟ سيدنا عمر؟ سيدنا الصديق؟ هؤلاء كانوا نخبة البشر، و لكن عندما اعتدوا بعددهم وقالوا في أنفسهم:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

الله عز وجل ساق لهم درساً لا ينسى، في بدر انتصرتم لأنكم افتقرتم، أما في حنين خذلتم فلأنكم اعتدتم بعددكم، فإذا كان هذا الدرس البليغ ينطبق على أصحاب رسول الله وهم قمم في الكمال فلأن ينطبق على كل مسلم من بابِ أولى،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

لذلك قيل: يؤتى الحذر من مأمنه، مثلاً طبيب ـ رئيس قسم الأمراض الباطنية في الجامعة ـ أمضى ثلاثين عاماً في الأمراض الباطنية، أحياناً يتوهم أنه محصن من هذه الأمراض، والشيء الغريب كأنه يعتد أن هذا اختصاصه، يصابُ أستاذ الأمراض الباطنية بقرحة في المعدة أحياناً.

المؤمن لا يرى عمله يرى فضل الله عليه :

أحياناً الإنسان دون أن يشعر يعتد باختصاصه، فيؤتى من مأمنه، البطولة أن تفتقر إلى الله، البطولة ألا ترى مع الله أحداً، البطولة أن ترى ما أنت فيه فضلٌ من الله عليك، لذلك أقول دائماً: المؤمن لا يرى عمله، يرى فضل الله عليه، الله وفقك بالدعوة، ليس بذكائك، ولا بقوة شخصيتك، ولا بطلاقة لسانك، ولا باتساع علمك، ولا بحكمتك، هذا التوفيق الذي أنت فيه من فضل الله عليك، تدخل إلى بيتك تجد زوجة صالحة، و أولاداً أصحاء، معك ثمن طعامك، معك مأوى، "الحمد لله الذي آواني وكم ممن لا مأوى له"، عود نفسك أن ترى نعم الله عليك، عود نفسك إذا استيقظت أن تقول ـ هناك ستة آلاف مليون إنسان كل يوم يستيقظون ـ كما كان يقول النبي عندما يستيقظ:

((الحمد لله الذي ردّ لي روحي))

أنا أعرف شخصاً نام فلم يستيقظ صباحاً، وجد ميتاً، فالإنسان إذا استيقظ:" الحمد لله الذي ردّ لي روحي"، بعد ذلك وقف، مشي، توضأ:"وعافاني في بدني"، وبدأ يومه بالذكر، وبالصلاة.

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

مرة إنسان تبرع ببيت لجمعية خيرية، أقيم به حفل، عريف الدخل ألقى به كلمة، قال له: أيها المحسن الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، وأن تقف في صف كبير معك الهوية، وينبغي أن تبصم لثلاثمئة ليرة قبل العيد، ولكن الله أغناك، وسمح لك أن تقدم هذا البيت لوجه الله، حتى الذي يعطي لولا أن الله امتن عليه بالعطاء لما أعطاه، التوحيد أن ترى فضل الله عليك.

من اتجه إلى غير الله عز وجل تخلى الله عنه :

لذلك ،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

أحياناً تعجب بعلمك، هناك طبيب بمدينة بقطر مجاور، يعد الأول في اختصاصه، فزاره زميله الطبيب باختصاص آخر، فقال له: أنا أقوى طبيب بالمنطقة، ارتكب خطأ مع مريض لأول مرة في تاريخ هذا القطر تسحب من طبيب شهادته، صدر قرار بسحب الشهادة من هذا الطبيب، لا تقل أنا قل الله، أنت بين التولي والتخلي، تقول: أنا يتخلى عنك، تقول: الله يتولاك، قمم البشر الصحابة الكرام، قالوا في بدر الله فانتصروا، وقالوا في حنين:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فلم ينتصروا،

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

والله إذا جاء القدر كما يقال عمي البصر، إذا جاء القدر لا تنتفع لا بعلمك، ولا بمكانتك، ولا بعلاقاتك، ولا بالأقوياء الذين يقدرونك، ولا تنفع إلا بفضل الله عز وجل.

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

أي هناك تأديب من الله لطيف أنه في أية لحظة تعتد بها بقوتك كل المنافذ الأرضية تغلق أمامك، جميع الأبواب تصبح مغلقة إلا باب السماء.

قال لي أخ فقد حريته، قال لي بقيت سنة وشهرين، السنة بأكملها أحاول أن أوسط أشخاصاً كي يطلق سراحي، بعد مضي اثني عشر شهراً لم تنجح كل محاولاتي، فتركت البشر واتجهت إلى خالق البشر، صار يصلي، يقوم الليل، يسأل الله في جوف الليل، حتى امتن الله عليه بإطلاق سراحه.

أي هذا درس بليغ، حاول أن تتجه إلى الله وحده، حاول أن ترجع الأمور إلى فضل الله وحده.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

حكمة بالغة، عددهم كبير، عشرة آلاف مقاتل يولون مدبرين، لكن العلاج الإلهي جاهز:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

الراحة النفسية، الثقة بالله، الافتقار إلى الله، الاعتماد على الله.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

هذا الدرس صدق ولا أبالغ يمر به المؤمن في اليوم عدة مرات، لمجرد أن يعتمد على ما يتوهم أنه من قدراته، اختصاص، شهادة، منصب، ذكاء، حكمة، أقارب، شركة، علاقات، يتخلى الله عنه، وكل من حوله يفاجئونه بتخليهم عنه، فإذا اتجه إلى الله وحده، الله عز وجل وفقه.

على المؤمن أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء:

هذا الدرس درس بليغ ويحتاجه كل واحدٍ منا، اعتمد على الله وحده، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، طبعاً سهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها، وأن تنسى الله، والأسهل منه ألا تأخذ بها وتتواكل على الله، وكلاهما طريقٌ غير صحيح، البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

وهذه السكينة تسعد بها ولو افتقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، الراحة النفسية، الثقة بالله، الشعور بالاعتداد بالله عز وجل.

(عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

هذا الدرس مرّ به أصحاب رسول الله، ويحتاجه كل مؤمن إلى يوم القيامة، بأي مجال، أحياناً بالتجارة، أحياناً بالصناعة، أحياناً بالوظيفة، أحياناً بالدراسة، أحياناً بالمعالجة الصحية، تتجه إلى أطباء وتنسى خالق الأطباء، تجد الطرق كلها مسدودة، ثم تتجه إلى الله تفتح لك الأبواب، فأنت استفد من هذه التجربة التي مرّ بها الصحابة الكرام، وحاول أن تعقد الأمل على الله، وأن تتوكل على الله، وأن ترجو الله، وأن تستقيم على أمر الله، تمهيداً للدعاء الذي يقبله الله جلّ جلاله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (23-70):شرح الآية 26 ، مع السكينة أنت في عطاء ولو فقدت كل شيء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-10-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

السكينة عطاء إلهي كبير يتمتع به المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة، لا بدّ من وقفة متأنية عند كلمة سكينة، هذا عطاء إلهي كبير، هذه ميزة يتمتع بها المؤمن، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، السكينة نعرف آثارها لكن لا نعرف حقيقتها، حينما يتجلى رب العزة على مؤمن بالسكينة، أو حينما ينزل الله بالتعبير القرآني سكينته على رسوله، أو على المؤمنين، أو على مؤمن، هذا عطاء ما بعده عطاء، هذا عطاءٌ أقل ما يوصف به أنك تسعد به ولو لا تملك شيئاً، وتشقى بفقده ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة أنزلها الله على قلب نبيه وهو في الغار، وهو مطارد، ومئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً.

((يا رسول الله لقد رأونا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

ما هذه الثقة؟ ما هذه الطمأنينة؟ النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة تبعه سراقة طمعاً بمئة ناقة لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً، فقال له النبي عليه الصلاة و السلام: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ إنسان مطارد، مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟

كأن النبي يقول: أنا سأصل سالماً إلى المدينة، وسأؤسس دولة، وسأبني جيشاً، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، ولك يا سراقة سوار كسرى، ما هذه الثقة؟ هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، أن يثق بالله، لأن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

من أخلّ بما كلفه الله به من عبادة فالله جلّ جلاله في حلٍّ من وعوده :

لكن:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية:55]

فإذا أخلَّ الطرف الآخر بما كلفه الله به من عبادة فالله جلّ جلاله في حلٍّ من وعوده الثلاث، ولا تنسوا أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، لذلك حينما تتنزل السكينة على قلب مؤمن يسعد ولو كان في السجن، سيدنا يوسف أين كان؟ بالسجن، نبيٌّ كريم دخل السجن، لكن مع السكينة كأنه في أتمِّ سعادته، سيدنا رسول الله أنزل الله على قلبه السكينة وكان في الغار، أنزل عليه السكينة وكان في طريق الهجرة فلم يتأثر.

الأشياء التي وصف بها الأنبياء والرسل لكل مؤمن منها نصيب بقدر إيمانه وإخلاصه :

وبالمناسبة هذا أخطر شيء أقوله بهذا اللقاء الطيب: الأشياء التي وصف بها الأنبياء والرسل لكل مؤمن منها نصيب بقدر إيمانه وإخلاصه، أي الله عز وجل حينما يقول للنبي الكريم:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

هذه للنبي الكريم، ولكل مؤمن صدق مع الله، يرفع الله له ذكره، لذلك أنا أحياناً أجد شاباً مستقيماً يخاف الله، يضبط نفسه، يتبع منهج ربه، أقسم لكم بالله أقول له: لا تخف، أتنبأ لك بمستقبل زاهر، كيف؟ لا أعلم، لكن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية:97]

بأي وضع، بأي بلد، بأي ظرف، بأي بيئة، هذا وعد فوق المكان والزمان، فوق كل المعطيات، فوق كل الأشياء التي توحي بالضعف.

النكبات المتتالية أورثت ثقافة اليأس والإحباط لكن الله أعطانا جرعات منعشة :

لذلك مرة ثالثة: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، أحياناً تشيع في حياة المسلمين ثقافة اليأس، أو ثقافة الإحباط، أو ثقافة الطريق المسدود، بسبب النكبات التي تتالت على الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث، هذه النكبات المتتالية أورثت ثقافة اليأس أو الإحباط أو الطريق المسدود، لكن الله جلّ جلاله أعطانا جرعات منعشة، رابع جيش بالعالم، جيش العدو رابع جيش، أول جيش في الشرق الأوسط، أول جيش بتنوع الأسلحة، ولم يستطع لاثنين وعشرين يوماً أن يحقق أي هدفٍ من أهدافه حينما اشتبك مع فئة قليلة مؤمنة لا تملك شيئاً، أليست هذه جرعة منعشة؟ نظام عالمي عملاق ينهار، وتعلن عشرات مئات البنوك إفلاسها، لأنها أنظمة قائمة على الربا، أليست هذه جرعة منعشة؟ فالله عز وجل رحمة بنا وإشفاق علينا من أن نقع في اليأس، الطريق المسدود والإحباط، أعطانا في التاريخ الحديث جرعات منعشة، ثم أنزل الله سكينته، فقد ورد:

((إن بيوتي في الأرض المساجد ـ هذا بيت الله ـ وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

بربكم أنتم في بيتٍ من بيوت الله، ما الإكرام الذي تتوقعونه من رب العزة؟.

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

من ذكر الله أدى واجب العبودية ومن ذكره الله منحه الحكمة و الأمن :

تقول لي: لا يوجد بالمسجد مقعد مريح، الجلوس على الأرض، لا يوجد عصير، ولا شاي، ولا ضيافة، فأي إكرام هذا؟ انتظر، ورد في قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية:45]

قال علماء التفسير: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

هذا تفسير، لكن ابن عباس رضي الله عنه له رأي آخر، قال في معنى قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أيها المسلم أنت في الصلاة تذكر الله، لكن ذكر الله لك وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، لأنك إن ذكرته أديت واجب العبودية له، لكنه إذا ذكرك وأنت في الصلاة، وأنت في المسجد، إذا ذكرك منحك نعمة لا يتمتع بها في الأرض إلا المؤمن، منحك نعمة الأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

المعنى نفسه، جاء بآية أخرى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية:51]

لنا لها معنى، وعلينا لها معنى، لنا خير

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته أعطي دواء ذات الجنب، فغضب وقال: إن هذا المرض ما كان الله ليصيبني به.

الشاب المستقيم لن يضيعه الله أبداً و سيكرمه بالدنيا قبل الآخرة :

وأنا أقول لكم كتطبيق لهذه الآيات الشاب المستقيم يجب أن يعتقد يقيناً أن الله لن يضيعه، وأن الله سيكرمه بالدنيا قبل الآخرة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية:21]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية:61]

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة الصافات]

فأنت أيها الشاب حينما تتوجه إلى الله، حينما تصطلح معه، حينما تتوب إليه، حينما تعاهده على الطاعة، حينما تقوم على خدمة خلقه، إن الله عز وجل لن يضيعك، وليس أمامك إلا الخير، هذه الآيات لنا جميعاً،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

الأمن و السلامة :

لذلك هذا الكلام في قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

هذه السكينة تعني الشعور بالقرب من الله، الحياة الطيبة، الثقة بالله، عدم توقع السوء، لأنه قالوا: توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، نحن عندنا حالة اسمها السلامة، وعندنا حالة اسمها الأمن، الأمن أبلغ من السلامة، لأن السلامة إن انطلقت بمركبتك من دمشق إلى حمص في الساعة الخامسة فجراً والعجلة الاحتياط ليست صالحة، تقود المركبة مدة ساعتين وأنت قلق جداً، لأنه إن تعطلت إحدى العجلتين، أو تعطلت عجلة واحدة لن تستطيع متابعة السير، وصلت إلى حمص ولم يقع شيء، تحققت السلامة ولم يتحقق الأمن، الأمن أبلغ من السلامة، لأنك إن توقعت المصيبة فأنت في مصيبة، إن توقعت الفقر فأنت في فقر، إن توقعت المرض فأنت في مرض، هناك أمراض تصيب القلب بسبب توقع إصابته بمرض، أحياناً الخوف من مرض القلب، هذا الخوف يصيب صاحبه بمرض القلب، الناس يعيشون قلقاً كبيراً، نعمة الأمن من حق المؤمن وحده، والشاهد واضح جداً:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

لابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله ومحبة له وخوفٌ منه :

إذاً: إنه إن ذكرك فضلاً عن نعمة الأمن يمنحك نعمة الرضا، أنت راض، راض عن الله.

((يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال يا ربي إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟))

دققوا أيها الدعاة، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال:

((ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، معنى ذلك أنه لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله، ومحبة له، وخوفٌ منه، التعظيم من خلال آلائه

العظيمة، والمحبة من خلال نعمه الوفيرة، والخوف من خلال البلاء الذي لا يحتمل، يجب أن تعظمه، وأن تحبه، وأن تخافه، لذلك:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

تحت العظيم أربعة خطوط، هو آمن بالله لكن ما آمن به عظيماً، كشأن معظم الناس آمنوا بالله خالقاً، لكن ما آمنوا به عظيماً، لو أن الإنسان آمن بالله العظيم لا يمكن أن يعصيه، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت، والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

من أيقن أن علم الله يطوله و قدرته كذلك لا يمكن أن يعصيه :

أسماؤه الحسنى كثيرة، تسعة وتسعون اسماً، اختار الله من أسمائه اسمين؛ العلم والقدرة، أي أنت حينما توقن أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه، ليس مع خالق السماوات والأرض، بل مع إنسان من بني جلدتك، تركب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، فإذا تجاوزت الإشارة الحمراء علم الشرطي يصل إلى واضع قانون السير، وقدرة واضع قانون السير قد تنزل بالمخالف أشد العقاب، فأنت حينما توقن مع إنسان من بني جلدتك أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه أبداً، مثلاً إنسان تجاوز الإشارة الحمراء وهناك شرطي بمكان غير واضح، غير ظاهر، فنبه هذا السائق، قال له: ألا ترى أن الإشارة حمراء؟ قال له: والله رأيتها و لكن ما رأيتك، رأيتها لكنني لم أرك، فمعنى ذلك النظام الوضعي لا يطبق إلا بوجود من يتابع هذا النظام.

كلكم تصومون رمضان بأيام الصيف الحارة، تدخل إلى بيتك لا تستطيع أن تضع قطرة ماء في فمك، والحرارة قد تكون خمساً و أربعين درجة، وتكاد لا تستطيع متابعة الصيام ومع ذلك تصوم.

الحياة لا تنضبط إلا بالإيمان بالله :

لذلك أي نظام وضعي، لِمَ لا ينجح؟ لأنه لا يوجد مراقبة فعالة، مثلاً هناك إنسان يعجن العجين، ودخل إلى الحمام الساعة الثانية ليلاً ولم يغسل يديه، وتابع عجن العجين، و كان معه التهاب كبد وبائي،

يصيب من ثلاثمئة إلى خمسمئة إنسان يأكل من هذا الخبز، الحياة لا تنضبط إلا بالإيمان بالله.

لذلك عندما يكون هناك نظام إلهي، الله مع كل إنسان، سيدنا ابن عمر امتحن راعياً، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟ هذا البدوي، الراعي، الأعرابي، لا يوجد عنده أشرطة كاسيت، ولا سيديات، ولا مكتبة أربعة جدران، لكنه عرف الله، قال له: ولكن أين الله؟ وفي اللحظة التي تقول بها أين الله؟ قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله، هذا الدين كله، الدين حينما تبتعد عن كل معصية، فأنت ورب الكعبة مؤمن.

لذلك يقول أحد العلماء أظنه التستري، ترك دانق من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، وسيدنا ابن عباس كان معتكفاً في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً كئيباً، قاله : ما لي أراك كئيباً؟ قال له: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال ابن عباس لهذا الكئيب أتحب أن أقدمه لك؟ قال: إذا شئت، فقام ابن عباس من معتكفه، يبدو أن إنساناً قال له: يا بن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله ما نسيت، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر - وأشار إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام - والعهد به قريب ودمعت عيناه، قال صاحب هذا القبر: والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا.

نظرت إلى الدين، ترك دانق من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا، لأنه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بُنِيِ الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر]

الإسلام بناء عظيم :

الخمس ليست هي الإسلام، هي أركان الإسلام، ولكن الإسلام بناء عظيم، الإسلام والله لا أبالغ خمسمئة ألف بند، هذه البنود تبدأ من أخصّ خصوصيات الإنسان، تبدأ من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقات الدولية، لكل حركة حكم شرعي، هناك فرض، و واجب، و سنة، و مستحب، و مباح، و مكروه تنزيهاً، ومكروه تحريماً، و حرام، بكل حركة، وسكنة، بالأخذ والعطاء، والعمل، والغضب، والرضا، هناك أحكام شرعية، لذلك إذا قلت منهج الله التفصيلي قد يصل إلى خمسمئة ألف بند، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، فأنت إذا كنت حريصاً على سلامتك، وحريصاً على سعادتك، ينبغي أن تبحث عن منهج ربك، وأن تطبقه عندئذٍ تحقق السلامة في الدنيا والآخرة.

الأشياء العظيمة التي خصّ الله بها رسوله خصّ بها المؤمنين :

أخواننا الكرام، في قوله تعالى:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الأشياء العظيمة التي خص الله جلّ جلاله بها رسوله جزءٌ منها خصّ بها المؤمنين، والآية واضحة،

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

وأي مؤمن بأي مكان بأي زمان، أي هؤلاء الصحابة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي؛ أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

طبيعة العصر الحديث، المعصية موجودة بأي مكان، موجودة على الشاشة، موجودة في الانترنت، موجودة في الصحف، موجودة في المجلات، موجودة في الطريق، موجودة في الجامعات، فهذا الذي يقبض على دينه كأنما يقبض على الجمر لأنه من علامات قيام الساعة موتٌ كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لِمَ يقتل ولا المقتول فيمَ قتل؟

حدثني أخ من بلد مجاور قال لي: إنني أودع زوجتي وأولادي كل يوم، لأن احتمال الموت خمسون بالمئة، أيضاً هذا يعني أن نشكر الله عز وجل من أعماق قلوبنا على نعمة الأمن التي نتمتع بها.

من نعم الله العظيمة على الإنسان أنه يعيش بين مؤمنين :

لذلك

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

الحالة النفسية المريحة، الثقة بالله، الطمأنينة، الرضا، الإنسان حينما يصلي ذكر الله له أكبر من ذكر العبد لربه، إن ذكرك الله في الصلاة منحك نعمة الأمن، منحك نعمة الرضا، منحك الحكمة، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة العاشرة ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، وبالحمق تجعل الصديق عدواً، أنت بالحكمة تتدبر أمرك بدخل محدود ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أي الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ليس بالدرجة إنما بالنوع.

للتقريب: أنت من أسبوع لم تأكل، وهناك لحم مشوي بأعلى مستوى، ولحم بمكان آخر متفسخ له رائحة تصل لخمسين متراً، تكاد تخرج من جسمك من رائحة اللحم المتفسخ، وهناك لحم آخر مشوي تتوق

إليه، القطعتان لحم، لكن الأولى لحم متفسخ والثانية لحم شهي.

وهكذا الإنسان، هناك إنسان تشتهي أن تجلس معه، تشتهي أن يحدثك، تشتهي أن تجاوره، تشتهي أن تسافر معه، وإنسان لا تحتمل مزاحه، ولا تعليقاته، ولا عاداته، ولا تقاليده.

لذلك أيها الأخوة، من نعم الله العظيمة أنك تعيش بين مؤمنين، فإذا كنت أنت مع أخوة مؤمنين، طيبين، طاهرين، صادقين، أوفياء، يتعاونون معك، هذه نعمة لا تعدلها نعمة.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

دعني أقول لك بصراحة: إن لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون الآخر أتقى مني فعندك مشكلة، حتى إن بعض العلماء قال: إن ذكرت الله فلم تشعر بشيء، إن صليت الفريضة فلم تشعر بشيء، إن قرأت القرآن فلم تشعر بشيء، فاعلم أنه لا قلب لك، مستحيل أن تذكر الله ولا يذكرك؟ أن تقبل عليه ولا يقبل عليك؟ أن تخطب وده ولا يخطب ودك؟ مستحيل!.

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أَهَرْوِلُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

هذا المعنى دقيق جداً،

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود :

عندنا قاعدة بالمنطق: عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أي لو أيقظنا إنساناً من قبره من خمسين سنة، أريناه قرصاً، أنا عندي قرص فيه خمسة عشر ألف عنوان، معنى عنوان، قد يكون كتاب مؤلفاً من أربعين جزءاً، ما قلت كتاباً، قلت عنواناً، فالنصوص على القرص مضبوطة بالشكل، يمكن أن تبحث عن موضوع بخمسة عشر ألف عنوان أو مئة ألف كتاب، ببضع ثوان، هذا الذي أيقظته من قبره قبل خمسين عاماً يصدقك؟ يقول لك: أنت مجنون، لأن عقله مرتبط بواقع لم يكن فيه كمبيوتر.

لما كان الخليفة يعطي أمراً بالمدينة، كان الفارس يركب على جواده من المدينة إلى الشام، إلى بغداد، ليوصل بعد شهر هذه الأوامر، الآن بثانية، أنا أقول: العالم صار قارة وحدة، صار بلداً، صار مدينة، صار قرية، صار بيتاً، صار غرفة، الآن العالم سطح مكتب، أي شيء يقع بالعالم بعد ثوان تراه بعينك، أليس كذلك؟ فإذا أيقظت إنساناً من قبره قبل خمسين عاماً لا يصدق ذلك إطلاقاً.

لذلك عندنا عقل وعندنا نقل، أيهما أخطر؟ النقل، النقل وحي السماء، النقل من عند خالق السماوات والأرض، أما العقل فمرتبط بالواقع.

فلذلك:

(وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

والله سمعت ولا أدري مبلغ هذا الخبر من الصحة، عندما كان الأعداء يقبضون على جندي من غزة، يقولون له: ماذا يرتدي الجنود عندكم؟ يقول لهم: ثياباً مبرقعة، يقولون له: أنت كاذب، يرتدون ثياباً بيضاء، الله موجود إذا كان هناك إخلاص ينصرك، شيء مدهش أنه لمدة اثنين و عشرين يوماً لم يتمكن أقوى جيش بالمنطقة أن يحقق أي هدف من أهدافه، أليس كذلك؟ يقولون له: كانوا يرتدون ثياباً بيضاء، فالقرآن قرآن.

فلذلك:

(وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)

لهذه القصص تواترت كثيراً، أنا لا أصدق أنها من لا شيء، كان هناك معونة إلهية والله موجود:

(وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

السكينة أكبر عطاء إلهي للإنسان :

أخواننا الكرام، مركز الثقل في هذا الدرس السكينة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، أنت بمكان حُجزت به حريتك مع السكينة أسعد إنسان، وبأجمل بيت في الأرض بلا سكينة أشقى إنسان، أنت مع المال القليل والسكينة أسعد إنسان، ومع الدخل الفلكي بلا سكينة أشقى إنسان، سعادتك بالسكينة، لأن السكينة أكبر عطاء إلهي لك في الدنيا، والسكينة ليس لها علاقة لا مكان، ولا بزمان، ولا ببيئة، ولا ظروف صعبة، وعد الله عز وجل فوق كل الظروف، وفوق كل المعطيات، فآية اليوم:

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (24-70):شرح الآية 28 ، أوصاف المشركين تشير إلى أوصاف النفس.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-10-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين إنسان نفسيته ملوثة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الأوصاف التي وصف بها المشركون قد تشير إلى أوصاف النفس، فالإنسان الذي يريد أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أو أن يبني حياته على موتهم، أو غناه على موتهم، أو عزه على ذلهم، هذا إنسان نفسيته نجسة، أي ملوثة، ملوثة بالشهوات، فالإنسان له نفس، وله عقل، وله جسم، الجسم وعاء النفس، والعقل جهاز استشاري، لكن ذات الإنسان نفسه التي بين جنبه، والتي خاطبها الله عز وجل:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر]

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

أي أنت أيها الإنسان ينبغي أن تعلم علم اليقين مقومات وجودك، نفسك ذاتك أي أنت، أنت الذي تسعد، وأنت الذي تشقى، أنت الذي ترقى، وأنت الذي تسقط، أنت الذي ترتفع عند الله، وأنت الذي تنخفض، أنت الذي تخلد في جنة لا يزول نعيمها، أو تشقى في نارٍ لا ينفد عذابها، هذا الجسم وعاء كالثياب الذي ترتديها، حينما يموت الإنسان تنفصل نفسه عن جسمه، والروح التي كانت تمده بالحياة تتوقف، عند الموت يتوقف الإمداد الإلهي، فتنفصل النفس عن الجسم، الجسم يفنى في التراب، في القبر، والنفس إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

لذلك إذا خاطب الله الإنسان يقول:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)

الدنيا محدودة بأيام فهي صفر بالنسبة للآخرة :

الآيات التي يخاطب الله بها نفس الإنسان هي الآيات التي يخاطب الله بها ذات الإنسان، هناك أشياء ملحقة عند الموت تزول عنك، فالروح قوة الإمداد تتوقف، الجسم وعاء النفس ينفصل، أما تبقى هذه النفس خالدة إلى أبد الآبدين، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

أخواننا الكرام، يجب أن يعلم المؤمن علم اليقين ماذا يعني الأبد؟ الأبد لا نهائي، وكلمة لا نهاية مهما استطاع العقل البشري أن يستوعبها لا يستوعبها، واحد أمامه صفر عشرة، صفر آخر مئة، صفر ثالث ألف، صفر رابع عشرة آلاف، صفر خامس مئة ألف، صفر سادس مليون، صفر سابع عشرة ملايين، واحد على هذا الحائط وأصفار إلى الحائط الثاني، كم الرقم؟ واحد على هذا الحائط وأصفار إلى قمة جبل قاسيون، إلى حلب، إلى موسكو، إلى القطب، إلى القطب الجنوبي، كم هذا الرقم؟ واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، 156مليون كيلومتر، كل ميلي صفر، كم هذا الرقم؟! أي رقم مهما يكن فلكياً إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس إذا نسب هذا الرقم إلى اللانهاية أي وضع صورة وفي المخرج لانهاية فقيمة هذا الرقم صفر.

فالدنيا لا شيء، لو كنت فيها أغنى الأغنياء، لو كنت فيها أقوى الأقوياء، مادامت الحياة في الدنيا محددة بأيام إذاً هي صفر.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنه مؤقت ـ ولم يحزن لشقاء ـ لأنه مؤقت ـ قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

العاقل من أطاع الحي الذي لا يزول :

أخواننا الكرام، من الضروري جداً أن تعلم ماذا يعني الأبد؟ ماذا يعني قوله تعالى:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة الطلاق الآية:11]

بالتعبير الرياضي المعاصر الأبد يعني اللانهاية، أي رقم تتخيله في الدنيا، واحد في الأرض وأصفار إلى أبعد مجرة في الكون، صفر، تملك كما يملك بعض الشباب في أمريكا؟ بيلكيت يملك تسعين ملياراً دولار، لو كنت تملك تسعين مليار دولار، لو كنت تملك ثروات الأرض، لو استمتعت بكل شيء في

الدنيا، لو عمرت مليار سنة، أي رقم ينسب للانهاية فهو صفر، فأنت قبل أن تفكر في طاعة الله هل تعلم من تطيع؟ تطيع الحي الذي لا يزول، الباقي على الدوام، تطيع خالق الأكوان، تطيع من إليه المصير.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية:123]

يجب أن تعلم أنت مع من؟.

أغبى إنسان من يقف في خندق معاد للحق لأن الحق هو الله عز وجل :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

[سورة التحريم الآية:4]

حفصة وعائشة، امرأتان شابتان:

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم الآية:4]

ما معنى الآية؟ أيعقل من أجل امرأتين لهما الرأي في موضوع ما،

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

قال بعض علماء التفسير: من أجل أن يعلم الإنسان إذا أراد أن يقف في خندق آخر غير خندق الحق، أنت من تواجه؟.

بحياتنا اليومية، أنت مواطن، هناك مواطن له وظيفة كبيرة في الدولة، تعد للمليون قبل أن تخاصمه، لأنه مركبٌ في أعماقك أن الدولة كلها وراءه.

فأنت حينما تفكر أن تقف في خندق آخر غير خندق الحق، أنت تواجه من؟ تواجه خالق السماوات والأرض،

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

أنا لا أرى أغبى ممن يقف في خندق معاد للحق، الحق هو الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية:123]

البطل من عرف الله عز وجل و اتبع أوامره :

أنت تخاصم إنساناً نداً لك، أما أن تخاصم خالق السماوات والأرض، أن تتحدى خالق السماوات والأرض، أن تعصي خالق السماوات والأرض جهاراً نهاراً، قلبك بيده، الشريان التاجي بيده، الدسامات

بيده، عضلة القلب بيده، رئتاك بيده، سمعك، بصرك، حركتك، أكبر إنسان على وجه الأرض نقطة دم لا ترى بالعين، إذا تجمدت في أحد أوعية الدماغ، الإنسان يصاب بالشلل، في مكان بالشلل، في مكان بالعمى، في مكان يفقد ذاكرته، ما هذا الإنسان؟ هذا الدماغ الذي فيه 140 مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، هناك أوعية دموية بالغة الدقة قطرة دم كرأس الدبوس لا ترى بالعين إن تجمدت أصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، أنت في قبضته، حياتك بيده، رزقك بيده، سعادتك بيده، شقاؤك بيده، أهلك بيده، أولادك بيده، من حولك بيده، من فوقك بيده، من تحتك بيده، مصيرك بيده، لذلك من هو البطل؟ الذي عرف الله.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان يقتضي أن تتوجه إلى الله وحده وأن تعبده وحده وأن تطيعه وحده :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

إنسان ترك خالق السماوات والأرض واتجه إلى إنسان، أراد أن يرضيه، توهم أن هذا الإنسان ينفعه أو يضره، توهم أن هذا الإنسان يعليه أو يخفضه، توهم أن هذا الإنسان يعطيه أو يمنعه، أوهام كلها، أوهام شركية.

لذلك: "الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل".

الشرك حينما تتوهم أن مصيرك بيد فلان، هذا شرك أكبر، لو أن حياتك بيده، موتك بيده، أن تعلو في الأرض بيده.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

ملخص الملخص: لو ضغطت الدين كله بكلمة واحدة ليس إلا الله، حقيقة وحيدة، بيده كل شيء، إليه مصير كل شيء، فإذا عرفته عرفت كل شيء، وإن ابتعدت عنه ابتعدت عن كل شيء.

لذلك الدين ليس فيه حالة وسط، الإيمان يقتضي أن تتوجه إلى الله وحده، وأن تعبده وحده، وأن تطيعه وحده، وأن ترضى بقضائه وحده، وأن تتكل عليه وحده، وأن تسعد بقربه وحده، هذا الدين، والإنسان يسعد بقدر ما يوحد، ويشقى بقدر ما يقع في الشرك الخفي.

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

راقب نفسك، أنت حينما تفكر أن ترضي زيداً، لأن زيداً قوي، وقد يخصك بوظيفة وقعت في الشرك الخفي، وحينما تفكر أن تزور عبيداً لمصلحة تتوهمها، وقعت في الشرك الخفي، أمرك جملة وتفصيلاً بيد الله، رزقك بيد الله، سعادتك بيد الله، زواجك بيد الله، أولادك بيد الله، من هم فوقك بيد الله، من هم تحتك بيد الله، نجاحك في العمل بيد الله، هذا هو التوحيد، التوحيد:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً فقد خسر الدنيا و الآخرة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

أنا لئلا أقع في الوهم الكبير ليس بالعالم الإسلامي كله إنسان يجرؤ أن يعبد بوذا، نحن ليس عندنا في عالمنا الإسلامي شرك جلي، لكن المسلمين وقعوا في شركٍ خفي، والخفي أخطر، الشرك الجلي نادر غير موجود، أما الشرك الخفي فمنتشر بعدد كبير جداً، وكل إنسان يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه وقع في الشرك، وحينما تضغط عليك زوجتك من أجل عمل لا يرضي الله، وتستجيب لها، فأنت لا تقول في الصلاة الله أكبر، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، لأنك توهمت أن إرضاء الزوجة في معصية الله أكبر عندك من رضاء الله، حينما ترضي شريكاً باستيراد بضاعة محرمة والأرباح طائلة، حينما تقبل بهذا الاستيراد لبضاعة محرمة وأرباحها طائلة، وأنت قمت للصلاة وقلت: الله أكبر، أنت ما قلت الله أكبر، رأيت هذا المبلغ الحرام الذي سيأتيك من هذه الصفقة أكبر عندك من طاعة الله، كلام دقيق وخطير، أنت حينما ترضي مخلوقاً في معصية الله، ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، ترداد الكلمات لا يقدم ولا يؤخر، أصبحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا، بالعيد الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، شيء جميل، لكن هذا الذي يرتكب معصية إرضاء لفلان، ما قالها ولا مرة، لأنه رأى أن إرضاء فلان أكبر عنده من إرضاء الله، هذا ملخص الملخص.

فيا أيها الأخوة،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ)

هؤلاء تعلقوا بما سوى الله، تعلقوا بأشخاص أقوياء، أو تعلقوا بأشخاص أغنياء، أو تعلقوا بأشخاص توهموا أن الخير عندهم ـ خير الدنيا طبعاً ـ أطاعوهم في معصية، هؤلاء ما كبروا، ولا وحدوا، ولا قالوا الله أكبر ولا مرة ولو رددوها بألسنتهم ألف مرة.

على كل إنسان أن يبتعد عن المشركين لأنهم لا يقيمون وزناً لله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجسٌ)

معنى نجس؛ هناك تعبير دقيق جداً تقول: هذا الشيء نجس، معنى نجس: أي أصابتهم نجاسة، لكن جوهره طاهر، لكن لحقت به نجاسة، وأنت إذا غسلته سبع مرات إحداهن بالتراب يطهر، فالشيء النجس يطهر، أما عين النجاسة هل تطهر؟ على هذا الثوب نجاسة مغلظة، هذه النجاسة هل تطهر؟ هي عين النجاسة لا تطهر، فالله عز وجل لم يقل إنما المشركون نجسون قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

هم عين النجاسة، أي البعد عن الله يستلزم اللؤم أحياناً، الحقد، أن تأكل ما ليس لك، أن تستعلي على خلق الله، أنت حينما تبتعد عن الله، وتؤله شخصاً من بني البشر تعبده من دون الله، من لوازم الشرك أن تعتدي على الآخرين.

أيها الأخوة،

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

طبعاً هذه الآية لها منطوق ولها مفهوم، المفهوم: لا تقم علاقة حميمة مع مشرك، لا تقم معه شراكة اندماجية، هناك علاقات حميمة منها الزواج، منها الشراكة، فإقامة علاقة حميمة مع مشرك تقع معه في متاهات كثيرة، هو لا يرى الله عز وجل، يرى عبد الله، يرى زيداً أو عبيداً، لا يرى أن الرزق يجب أن يكون وفق منهج الله، يقول: هذه الصفقة فيها ربح طائل، تغتني إلى نهاية الحياة، ولا يعبأ كثيراً بأنها صفقة مشروعة أو غير مشروعة، فالعلاقة مع إنسان مشرك، لا يقيم وزناً للدين، لا يقيم وزناً لطاعة الله، لا يعبأ بمنهج الله، علاقة متعبة كثيراً.

لذلك:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

بالمعنى العام زوجته في مشكلة، يدعو رفاقه إلى البيت، وزوجته شابة في ريعان الشباب، وجميلة، وأصدقاءه شباب ملؤوا أعينهم من محاسنها، ابحث بموضوع الخيانة الزوجية بحث علمي، تجد أن تسعين بالمئة من الخيانة الزوجية سببها الاختلاط، يقول لك: روح رياضية.

أول خطبة ألقيتها في هذا المسجد كانت عام أربعة و سبعين و تسعمئة و ألف، في صحن المسجد، تقدم مني رجل في الخامسة و الخمسين أو في الستين، وصار يبكي، فآلمني هذا جداً، و سألته عن سبب بكائه؟ قال لي: زوجتي تخونني، قلت له: مع من؟ قال لي: مع جارنا، قلت له: كيف تعرفت عليه؟ قال لي: مرة زارنا الجار، فطلبت منها أن تجلس معنا لأنها تجلس بمفردها، فجلست معه، يبدو أن الجار قد

استلطفها فأدار حواراً معها، هو جار بنفس الطابق، العلاقات نمت بينه وبينها، انتهى الأمر إلى خيانته، قلت له: أنت لو حضرت درس علم واحد، وعلمت من هذا الدرس أن الاختلاط حرام ما وقعت في هذا المطب الكبير.

ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله :

أخواننا الكرام، ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان.

مرة زارني أخ كريم عُيّن مدير سجن في عدرا، قدم لي كتاب هدية، قرأت الكتاب تأثرت به كثيراً، ذكر لي ثلاثاً و ستين حالة عنده في السجن، ثلاث و ستون جريمة، حلل هذه الجرائم تحليلاً إسلامياً كل جريمة سببها مخالفة كبيرة لمنهج الله.

مرة جلست جلسة مع أخ، قال لي: أنا قاض جنائي، رحبت به، فقال لي: كنت تلميذك سابقاً، فقلت له: أهلاً وسهلاً، قال لي: قبل أيام أصدرت حكماً في جريمة، طبعاً سهرة لرجال، دخلت الزوجة وقدمت الضيافة، يبدو أنها بارعة الجمال، فأحد الأصدقاء طرق البيت ليلاً، ودخل إلى غرفة الزوج وذبحه ـ تمّ إعدامه قبل فترة ـ ثم زنى بامرأته، وقال لها: أنا خدرته، فلما خرج من البيت، ذهبت إلى الغرفة الثانية لترى زوجها فوجدته مقسوماً إلى قطعتين، رأسه قطعة، و جسده قطعة أخرى، قال لي: هذا تمّ إعدامه، أي لولا أن هذه الزوجة دخلت لتقديم الضيافة لما كان هناك جريمة.

لو تتبعت أي مشكلة كبيرة جداً لوجدت أنها بسبب خروج عن منهج الله، و بسبب التفلت، والتعري، وإظهار المفاتن، لو تتبعت الجرائم الجنسية، أو الخيانات الزوجية، ولا أبالغ أن خمسة و تسعين بالمئة منها بسبب الاختلاط، اختلاط مع التعري.

فلذلك،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ)

المشرك خضع لتقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، أنا مع العادات والتقاليد إذا كانت موافقة لمنهج الله، ولست معها إطلاقاً إذا خالفت لمنهج الله.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

ما من مخالفة لمنهج الله عز وجل إلا بسبب الجهل :

أخواننا الكرام، مرة ثانية: أريد أن أؤكد هذه الحقيقة ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفة لمنهج الله إلا بسبب الجهل والجهل أعدى أعداء الإنسان، عندنا أعداء تقليديون مثلاً الصهيونية، الاستعمار، وهناك قائمة طويلة عريضة، أقول لكم: العدو الأول لنا جميعاً هو الجهل، لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، ولو درست الأمور دراسة متأنية علمية لرأيت أنه ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب مخالفة لمنهج الله، وما من مخالفة لمنهج الله إلا بسب الجهل، أنت حينما تأتي إلى مجلس علم، القضية أبعد من أن تكون درس ممتع، والدنيا شتاء، والليل طويل، الأمر أبعد من هكذا بكثير، هذا الدرس مصيري أي يمكن أن يقع الإنسان في خطأ كبير بسبب جهله، وهذا الخطأ سبب دماره، هناك أشياء مصيرية، وأشياء غير مصيرية، فالإنسان أحياناً يخالف القانون هناك غرامة يدفعها، لكن أحياناً يرتكب جريمة قتل لم يعد الأمر موضوع غرامة، صار إعدام، فهذا العمل مصيري، أي هذا العمل أنهى حياتك، فهناك أعمال بسبب الجهل قد تسبب دمار إنسان، قد تسبب إفلاسه، قد تسبب انهيار بيته، فأنت حينما تحضر مجلس علم لتعرف منهج الله، هذا الكتاب تعليمات الصانع، أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة بالغة التعقيد التي هي أنت صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، فقراءة التعليمات حفاظاً على سلامتك وعلى سعادتك، صدق ولا أبالغ، أنت حينما تتعلم كتاب الله وسنة رسوله تكون في طريق سلامتك وسعادتك.

منهج الله عز وجل ليس حداً لحرية الإنسان إنما هو ضمان لسلامته :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

عقيدتهم نفعية فقط، عقيدتهم متعلقة بالدنيا فقط، عقيدتهم تسمح لهم بالنفاق، تسمح لهم بالمعاصي والآثام، عقيدتهم تقيم للشهوة المقام الأول، عقيدتهم تقيم للانحراف إن نتج عنه مكسب مادي مقبول، مقبول الانحراف، مقبول التعاون على معصية، مقبول كل شيء مادام يحقق ربحاً كبيراً.

لذلك لا أقول هذا من ميزات أهل الدنيا، أحياناً الطرف الآخر البعيد عن الله عز و جل مناورته واسعة جداً لأنه لا يوجد عنده شيء حرام، والله سمعت بالعالم الغربي البعيد عنا، أن بعض الشركات حتى يأخذ صاحبها الوكالة يقدم لهم زوجته ليأخذ الوكالة، لا يوجد قيود، المؤمن مقيد بمليون قيد، مقيد بمنهج الله، بالحلال والحرام، هذه القيود، ليست حداً لحريتكم أبداً، ولكنها ضمان لسلامتكم.

تريد أن أقيم لك مثلاً صارخاً؟ تمشي أنت في مكان جميل، بساتين، عصافير، الوقت ربيع، الأشجار كلها مزهرة، و هناك لوحة مكتوب عليها: ممنوع التجاوز حقل ألغام، بربك هل ترى هذه اللوحة حداً لحريتك أم ضماناً لسلامتك؟ في اللحظة التي تعلم بها علم اليقين أن هذه اللوحة ضمان لسلامتك فأنت فقيه ورب الكعبة، وفي أي لحظة تتوهم فيها أن هذه اللوحة حدٌ لحريتك فأنت لا تعرف شيئاً.

أوامر الدين ليست حداً لحريتك بل هي ضمان لسلامتك، كم خيانة زوجية سببها الاختلاط؟ تكون زوجة صالحة وجيدة، وعندك أولاد منها، تحبها وتحبك، عندما صار هناك اختلاط دخل الشيطان، صار هناك إغراءات، وعدها بحياة غير هذه الحياة، اتجهت إليه، تشاكست معك طلقتها التحقت به، أنت السبب، أنت المذنب الأول، لذلك من أراد إنفاذ أمر فليتدبر عاقبته.

من ترك شيئاً لله عوضه الله عنه أضعافاً مضاعفة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

عقيدته، تصرفاته، مبادئه، قيمه، حالاته، أحواله، كلها بعيدة عن الطهر، والعفاف، والنقاء.

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

أي فقراً،

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

حينما تدع شيئاً لله الله جل جلاله سيعوضك عنه أضعافاً مضاعفة.

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

أي شيء محرم اركله بقدمك ولا تفكر بالميزات المادية التي فاتتك، فاتك معصية الله، الله عز وجل يراك كيف آثرت طاعته على مبلغ كبير، لذلك الحديث أتمنى أن يكون محفوظاً عندكم:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (25-70) : تفسير الآية 29 ، التجديد في الدين هو ألا نزيد عليه وألا نحذف منه بل أن ننزع عنه كل المصالح الدني

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-10-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد ليس فرضاً أحادياً إنما هو فرض من قبل أولي الأمر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

أولاً: قضية الجهاد ليست فرضاً على آحاد المسلمين، والذي يقرر الجهاد هم أولو الأمر، ليس فرضاً أحادياً، هذا الفرض من قبل أولي الأمر، وهذه حكمة بالغة، والدليل أن الصحابة الكرام حينما كانوا في مكة مُنعوا من القتال.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)

[سورة النساء الآية:77]

عندما صار هناك كيان للمسلمين صار هناك دولة، صار هناك كيان مستقل، الآن هذا الأمر موجه لهذا الكيان المستقل.

المنهج الإسلامي منهج رائع يستخدم الهدى البياني :

المنهج الذي جاء به الإسلام لنشر هذا الدين منهج رائع، أولاً: هذا الدين يستخدم الهدى البياني، أنا أدعوك إلى معرفة الله، وإلى طاعته، وإلى اتباع سنة نبيه، وإلى العمل الصالح، بل إلى التقرب إلى الله بالعمل الصالح، فقط، دعوة بيانية، الهدى البياني، هذا الإنسان الذي دُعي إلى الله فإذا آمن بالله، له ما لنا وعليه ما علينا، لا يوجد أي فرق، هذا الذي دعوته إلى الله واستجاب لك، له ما لك وعليه ما عليك، لكن العالم الآن مما يعاني؟ يعاني من مرض أصاب معظم الأمم والشعوب، مرض العنصرية، معنى العنصرية أنك ترى لنفسك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، للتقريب: بلد عنده ثلاثمئة رأس نووي إلى جوارنا، أما بلد آخر إذا فكر بمفاعل سلمي تقوم الدنيا ولا تقعد، لماذا تسكتون عن هذا الكيان الذي عنده ثلاثمئة رأس نووي وهذا الذي فكر بمفاعل نووي سلمي تقوم الدنيا ولا تقعد؟ هذا

الموقف عنصري، فالغرب يرى لنفسه ما ليس لنا، من حقه وحده أن يمتلك السلاح النووي، أما أي كيان آخر من العالم الثالث، أو من العالم الإسلامي -الحقيقة سموه العالم الثالث تطيباً لقلوبنا، سموه الدول النامية تطيباً لقلوبنا- أي بلد آخر إسلامي يفكر بمفاعل، تقوم الدنيا ولا تقعد، هذه هي العنصرية، له ما ليس لنا، وعلينا ما ليس عليه، هو يقصف، يقتل الآلاف، ولا أحد يتكلم بكلمة.

العنصرية :

أخواننا الكرام، لعلكم تذكرون أن حرب غزة قتل فيها ألف وخمسمئة طفل وامرأة بأحدث أسلحة بالعالم، بالأباتشي، وf16 ، عقد مؤتمر في مصر عقب هذه الحرب، أنا تابعت الخبر بدقة، التوصية الوحيدة، جاء الغرب المتحضر، البلاد الديمقراطية التي تحترم الإنسان، جاؤوا إلى مصر وعقدوا مؤتمراً عقب حرب غزة، التوصية الوحيدة عدم إيصال السلاح للمقاومة فقط، أما ألف وخمسمئة طفل وامرأة يموتون بلا ذنب؟!.

العالم عنصري، ما العنصرية؟ أن ترى لنفسك ما ليس لغيرك، وأن ترى على غيرك ما ليس عليك، أضرب أمثلة حتى تتوضح المسألة، جاءنا رئيس أمريكي، برنامج زيارته: دمشق، الكيان الصهيوني، رام الله، واضحة، ثلاث عواصم، أما رابع بند فزيارة أهل الأسير الإسرائيلي، ولنا عند اليهود أحد عشر ألفاً و ثمانمئة أسير، ما خطر في باله أن يختار أسرة من أسر هؤلاء الأسرى ليزورها بالتوازي.

أخواننا الكرام، الغرب يرى لنفسه ما ليس لغيره، ويرى علينا ما ليس عليه، هذا الموقف عنصري، والعنصرية تبدأ بزوج يتهكم على أم زوجته مرتاح، فإذا تكلمت زوجته على أمه كلمة أقام عليها الدنيا، أنت عنصري، كما أنها أمك هي أمها، احفظوا هذه القاعدة: حينما تتوهم أن لك ما ليس لغيرك، وأن على غيرك ما ليس عليك، هذا الموقف عنصري، يبدأ من زوج وينتهي بحق الفيتو في مجلس الأمن، لماذا خمس دول إذا قالوا لا يلغى القرار؟ إذا كان هناك عضو من أعضاء مجلس الأمن يوالي الكيان الصهيوني، أي قرار سيصدر، يستخدم بحق الفيتو، فيلغى القرار، لماذا خمس دول بالعالم إن قالت إحداهن: لا، ألغي القرار؟

أنا أقدم هذه المقدمات كي تعلموا أن الإنسان مكرم عند الله، وأن الإنسان المؤمن يدعو إلى الله، لكن إذا قبل هذا المدعو صار له ما لنا وعليه ما علينا، فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

من علامات قيام الساعة الأعور الدجال وهو أعور يرى مصلحته ولا يرى مصلحتك :

أخواننا الكرام، الأمر بالجهاد متعلق بأولي الأمر فقط، لا يقدر مسلم من آحاد المسلمين أن يقرر الجهاد وحده، هذا الشيء مرفوض، هذه أحكام مربوطة بأولي الأمر.

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

هؤلاء الذين ما آمنوا بالله، آمنوا بالطاغوت، هؤلاء الذين يخاطبون لم يؤمنوا بالله، آمنوا بالدنيا، آمنوا بمصالحهم.

لذلك ورد في بعض الأحاديث من علامات قيام الساعة الأعور الدجال، أعور يرى مصلحته ولا يرى مصلحتك، يرى كرامته ولا يرى كرامتك، يرى حقه بالحرية ولا يرى حقك، يرى حقه بامتلاك سلاح نووي ولا يرى حقك، اسمه أعور، يرى بعين واحدة، والدجال يتكلم كلاماً بخلاف الواقع.

بدولة مجاورة لنا، احتلتها بلدة تعرفونها جميعاً، مليون قتيل، مليون معاق، خمسة ملايين مشرد، لماذا جاؤوا؟ قال: من أجل الحرية، شيء جميل والله! أنا سمعت أنه في رواندا في إفريقيا تمّ ذبح ثمانمئة ألف في أسبوع، وسمعت تعليقاً لرئيس من كبرى دول الغرب قال: كان بإمكاني أن أحقن دماء أربعمئة ألف، ولكنني لم أفعل، مذبحة أودت بحياة ثمانمئة ألف بجنوب إفريقيا بأسبوع، قال: كان بإمكاني أن أحقن دماء أربعمئة ألف، لكنني لم أفعل، لأن هناك لا يوجد بترول، أما على وهم وجود سلاح شمولي في دولة مجاورة، جاءت ثلاثين دولة، أما تصريح وحيد، قال قائد القوات في هذه الدولة المعتدى عليها: جئنا من أجل النفط فقط.

الإنسان لن يستمسك بالعروة الوثقى إلا إذا كفر بالطاغوت :

لذلك هؤلاء الذين يرون لهم ما ليس لغيرهم، وعلى غيرهم ما ليس عليهم، هؤلاء الذين يبيدون البشر.

قتل امرئٍ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

ماذا نسميها؟ أزمة الشرق الأوسط، أما احتلال و قتل، أنا أقول لكم: والله الذي لا إله إلا هو ما لم نكفر بالطاغوت لن نؤمن بالله، والدليل:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة الآية:256]

لن تستمسك بالعروة الوثقى إلا إذا كفرت بالطاغوت، أن ترى حضارتهم، وإنسانيتهم، ورقتهم، وأخلاقهم، وآدابهم، هذه يقتضي أن تبتعد عن الدين بقدر ما تقترب منه، لذلك هؤلاء الذين ما آمنوا بالله،

آمنوا بالمادة، آمنوا بمصالحهم، ثأروا لكرامتهم ولم يثأروا لكرامة الآخرين، ثأروا لمصالحهم التي هددت ولم يرعوا مصالح الآخرين:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

والله أيها الأخوة، لماذا أفعل هذا؟ لا أدري، لكن ما التقيت بإنسان من دولة مجاورة إلى جانبنا احتلت إلا قلت له: لكم فضل علينا لأن مقاومتكم أعطت المستعمر درساً لا ينساه، والآن الغرب يعد للمليون قبل أن يحتل بلداً إسلامياً بقدر ما كان هناك شجاعة و إقدام.

على كلٍّ القضية تحتاج إلى دقة، من الذين أمرنا أن نقاتلهم؟ ليس أفراد الناس، هؤلاء الذين منعوا حق الحرية للإنسان، الحرية حق، ينبغي أن تتخذ قراراً في شأن دينك، أنت حر به، أما الذي يمنعك من هذه الحرية فهذا ينبغي أن تنطبق عليه هذه الآية:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)

اقتران الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر في القرآن الكريم :

والعجيب أن القرآن ما ذُكر فيه إيمان بالله إلا اقترن مع الإيمان باليوم الآخر، لماذا؟ قال: الإيمان بالله كل شيء فيه آيةٌ تدل على أنه واحدٌ، أما اليوم الآخر فيجب أن تعتقد أنه حينما تعتدي على أخيك لا بدّ من أن يقتص منك في يوم ما، لهذا أنا أقول: ما من قطرة دم تراق في العالم كله، من آدم إلى يوم القيامة، إلا وسيسأل عنها إنسان، عدم دقة بالقصف، مات مئة شخص، هناك حساب بليغ.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

خطأ بالقصف، خطأ بالتقدير، شظية طائشة، ما من قطرة دم تراق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة، إلا وسيسأل عنها إنسان، قال العلماء: إلا دم القتيل بحدٍّ، إنسان قتل فقتل، دم القتيل بحد يتحمله الله وحده يوم القيامة، المقتول بحدٍّ، أي قتل فقتل، فالقاضي الذي حكم بقتله لا يتحمل دمه، من يتحمل دمه؟ خالق السماوات والأرض، لأنه قتل بحق.

لذلك يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، الآية الكريمة:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

على المؤمن أن يفرح إذا انتصر إنسان مؤمن بالله على إنسان وثني يعبد النار :

الحقيقة فرق كبير بين أهل الكتاب وبين المشركين، المشرك ما آمن بالله أصلاً، آمن بأوثان، آمن بأصنام، قال تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر الآية:3]

لكن أهل الكتاب لهم وضع آخر، والدليل قوله تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

[سورة الروم]

لما غلبوا تألم الصحابة، لماذا تألموا؟ هناك سؤال، لماذا تألم الصحابة حينما غلبت الروم؟ لأنهم نصارى، ولأنهم أهل كتاب، ولأنهم آمنوا بالله، إذاً هناك قواسم مشتركة، لذلك لما وعد الله بنصرهم ماذا قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

معنى هذا إذا كان إنسان بينك وبينه قواسم مشتركة، يجب أن بينك وبينه علاقة من نوع آخر، أنا أتكلم بالقرآن:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

قال بعض العلماء: أدنى الأرض فيها إعجاز علمي، لأنه الغلبة كانت في غور فلسطين، وفي غور فلسطين أخفض نقطة على سطح الأرض،

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ)

[سورة الروم]

بضعة من سنة إلى تسع، دقق،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

المؤمنون من هم؟ من المعنيون بهذه الآية؟ الصحابة الكرام وعلى رأسهم النبي الكريم،

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

معنى ذلك إذا إنسان بينك وبينه قواسم مشتركة كبيرة وانتصر ينبغي أن تفرح، إذا انتصر إنسان مؤمن بالله ومعه كتاب على إنسان وثني يعبد النار ألا ينبغي أن تفرح؟

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

أدنى الأرض فيها إعجاز علمي،

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم الآية: 4]

أما الشاهد

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

المؤمنون هم الصحابة الكرام، بنصر الله بانتصار الروم على الفرس.

النبي الكريم

لولا أنه نبي مرسل معه وحي السماء ما كان له أن يأتي بالأخبار :

شيء آخر: هذا النبي الكريم الذي عاش بالصحراء- عاش في مكة- من أين له هذه الأخبار لولا أنه نبي كريم جاء بأخبار كثيرة؟

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

[سورة مريم الآية:44]

معنى هذا أن النبي الكريم جاء بأخبار كثيرة عن التاريخ البشري، لولا أنه نبي مرسل معه وحي السماء، ما كان له أن يأتي بهذه الأخبار.

كلام النبي الكريم ليس من اجتهاده إنما هي وحي يوحى :

أيها الأخوة الكرام، بهذه الآية إعجاز إخباري، أنت الآن إذا كان هناك حرب نشبت بين فئتين في العالم، هل تقدر أن تقول: سينتصر فلان؟ مغامرة كبيرة، أنت تغامر بعلمك، بمكانتك، فكيف يتلو النبي الكريم هذه الآية لولا أنه واثق أن هذا القرآن من عند خالق السماوات والأرض؟ لأنه أخبر الصحابة الكرام بأن الروم سينتصرون في بضع سنين، فإن لم ينتصروا فهناك مشكلة كبيرة، إن تصالحوا فهذه مشكلة أكبر، هذا ليس نبياً، إذاً:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

فكلام النبي الكريم إن في الوحي المتلو - القرآن - أو في الوحي الغير متلو – السنة - ليس من عنده، ولا من اجتهاده، ولا من تصوره، ولا من خبرته، وليس من إبداعه، وليس من معطيات عصره، النبي إن هو إلا وحي يوحى، لذلك نقول: الوحيان الكتاب والسنة، سيدنا الصديق أخبره أخدهم أن تعال اسمع

صاحبك، ذهب إلى بيت المقدس، وعرج إلى السماء، وعاد وفراشه لا يزال ساخناً، قال: هو قال هذا؟ قال: نعم، قال: إذاً صدق.

"ثلاثة أنا فيهن رجل و فيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى".

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في الآية إعجاز إخباري :

أيها الأخوة، في الآية إعجاز إخباري، وفعلاً في بضع سنين، قيل: بعد سبع سنين وقيل: بعد تسع سنين، انتصر الروم على الفرس، هذه الآية:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

لم تقع، وقت نزول الآية لم تقع، إخبار مستقبلي، كم هي ثقة النبي بهذا القرآن؟ النبي حينما ترك مكة المكرمة إلى الطائف ليدعو أهلها، أهل الطائف كذبوه، وسخروا منه، بل وأغروا صبيانهم بإلقاء الحجارة عليه، وعاد إلى مكة، يقول له سيدنا زيد: يا رسول الله، كيف تعود إلى مكة وقد أخرجتك؟ فقال له النبي الكريم كلمة: إن الله ناصر نبيه.

هذا الإيمان، النبي الكريم في الهجرة تبعه سراقة ليقتله، ويأخذ مئة ناقة التي أعدت لمن يأتي به حياً أو ميتاً، اقترب من رسول الله، غاصت قدما فرسه في الرمل، فوقع، ثم غاصت مرة ثانية وثالثة، علم سراقة أنه ممنوع من هذا الرجل، فقال له النبي الكريم: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ والله كلام لا يصدق، أن إنساناً مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يعد الذي تبعه بسوار كسرى، كان لسان حال النبي الكريم أنني سأصل إلى المدينة سالماً، وسأحارب أقوى دولتين في العالم، دولة الروم، وكسرى، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ولك يا سراقة سوار كسرى، ما قولك؟.

الآن للتقريب: دولة ضعيفة جداً، من دول العالم الثالث، صغيرة، بشرق آسيا، صغيرة جداً، ضعيفة جداً، نقول لواحد فيها: سوف يكون مكانك في البيت الأبيض، كلام مضحك، يا سراقة! بالصحراء يلاحق النبي الكريم ليأخذ مئة ناقة، يقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سوار كسرى؟ في عهد عمر فتحت بلاد كسرى، وجيء بالكنوز و وضعت في المدينة، تروي بعض الروايات: أن صحابيين وقفا على طرفا الكنوز ورفع كل منهما رمحه للأعلى فلم يرَ الأول رمح الثاني، ولم يرَ الثاني رمح الأول، جاء سيدنا عمر قال: أين سراقة؟ جيء بسراقة وألبسه بيده سوار كسرى، وقال: بخ بخ، أعرابي من بني مدلج، يلبس سوار كسرى.

أنت مع من؟ مع خالق الأكوان، مع الواحد الديان، مع الذي إذا قال لشيء كن فيكون، إذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟.

الحق هو الشيء الثابت والهادف أما الباطل فشيء زائل و غير ثابت :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

الخمرة تغتال العقول، وطعمها ليس مستساغاً، حينما ترى إنساناً يشرب الخمر يسرع في بلع ما شرب، طعمها ليس مستساغاً، لا فيها غول، أي لا تغتال العقل، ومع ذلك:

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ)

ما هو الحق؟ للتقريب: أنت أحياناً تقيم معرضاً، أو تقيم سيركاً، ويمكن أن تقيم بيوتاً من كرتون، ولكن إن أردت أن تقيم جامعة، هذه الجامعة وجدت لتبقى لمئات السنين، هناك جامعات بالغرب من خمسمئة عام، لذلك الجامعة شيء، والسيرك شيء آخر، السيرك يقام لمدة أسبوعين، قد يكون البيت خيمة، و قد يكون من صفائح خشب بسيطة جداً، أما الجامعة فيجب أن تكون بناء يعيش مئات السنين.

الحق الشيء الثابت والهادف، أكثر من مئة آية:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة الأنعام الآية:73]

ما هو الحق؟ الشيء الثابت والهدف، الجامعة وجدت لتبقى، لأن لها رسالة كبيرة جداً، تخريج قادة أمة، أطباء، صيادلة، محامون، مهندسون، الجامعة وجدت لتبقى، إذاً بناؤها بناء قوي ومتين، ودائم هذا كله للتقريب، الحق ثابت هادف، الباطل عكس الحق ليس ثابتاً وزائلاً، والحق والباطل الله عز وجل قال عنه:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

باطل، إنكار وجود الله، المعسكر الشرقي كم سنة عاش؟ سبعون سنة، و الآن الكنائس ممتلئة في الاتحاد السوفيتي سابقاً،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

إله يقول لك:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الشيء الطارئ والعابث، طارئ وعابث، احفظوا هاتين الكلمتين، الحق الشيء الثابت والهادف، للتقريب جامعة، نبني جامعة لمئات السنين، والباطل الشيء الطارئ والزائل، فالحق ثابت هادف، أي

الحق له رسالة كبيرة جداً، إسعاد الإنسان، أن يسود النظام في مجتمعات البشر، أن يسود العطاء، أن يسود الخير، أن يسود العدل، أن تسود المحبة، أن تسود الرحمة، هي أهداف الحق.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: 50]

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية:55]

من أباح كل شيء محرم خرج عن منهج الله عز وجل :

إذاً هنا

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

الخمر تغتال العقول، الميسر.

هو الداء الذي لا بد منـه وليس لذنب صاحبه اغتفارُ

تشاد له المنازل شاهقـاتٍ وفي تشيدها يكون الدمارُ

* * *

قرأت خبراً أن إنساناً دخل لدار قمار، خسر بليلة وحده كل ما يملك، اثنان ونصف مليون دولار، جاء للبيت أطلق النار على زوجته وأولاد، ثم مات، انتحر

هو الداء الذي لا بد منـه وليس لذنب صاحبـه اغتفار

تشاد له المنازل شاهقـاتٍ وفي تشييد ساحتها الدمـارُ

نصيب النازلين بها سـهادٌ وإفلاسٌ فيـأسٌ وانتحـارٌ

* * *

فإذا كان هناك بلاد فيها دور قمار، فيها خانات خمر، فيها دور زنـى، وكل شيء محرم مباح، هؤلاء خرجوا عن منهج الله عز وجل:

(وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

من يعيش مع المسلمين له حق عليهم أن يضمنوا حياته ودينه مقابل الجزية :

أخواننا الكرام، هناك ملمح في الآية دقيق جداً، أي أنت حرٌ في أن تدين بأي دين، والدليل:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

ولكن هذا الذي يعيش مع المسلمين له حق عليهم، حقه عليهم أن يضمنوا حياته، وأن يضمنوا دينه، إنسان يعيش مع المسلمين غير مسلم، له حقٌ عليهم أن يضمنوا حياته، وحق آخر أن يضمنوا حريته في ممارسة شعائر دينه، المقابل؟ دفع البدل النقدي، مادام أعفي من الجهاد، الجهاد يحتاج إلى عقيدة صحيحة، فالمجاهد ينبغي أن يكون مؤمناً بالله بالأساس، لذلك غير المسلم يدفع بدلاً نقدياً نظير حماية حياته، وحماية عبادته، إذاً يدفع الجزية،

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ)

يعطيها بيده أي هو إنسان صحيح، فالمريض لا يوجد عليه جزية.

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

لا يوجد استعلاء أيضاً.

إذاً أيها الأخوة القضية أن هذه الآية تحتاج إلى شرح طويل، وإلى أن تزيل عنها بعض اللبس، هؤلاء:

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

ولم يسمحوا لأحد عندهم أن يؤمن، أنا ضمنت لك بقاءك، وحياتك، وأن تمارس شعائرك الدينية، لكن لا أسمح لك أن تمنعني أن ألقي الحق على من حولك، فإن منعتني أقاتلك فقط، ما دام هناك حرية دعوة إلى الله في أي مكان في العالم فالأمر مختلف، الآية مرة ثانية:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ)

والحق الشيء الثابت والهادف

(مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ)

ولا تفسير لهذه الجزية إلا أنه مقابل أن المسلمين يضمنون لغير المسلم حياته، ويضمنون حرية عبادته، هاتان الضمانتان يقابلهم بدل نقدي، مطبق في كل الشعوب والبلاد

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ)

بيده، أي صحيح، ليس مريضاً،

(وَهُمْ صَاغِرُونَ)

الجهاد من حق أولي الأمر وحدهم :

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تحتاج إلى فهم دقيق، وإلى عرض دقيق أيضاً، قد تُفهم على غير ما أراد الله عز وجل، جهاد هؤلاء ليس من حق آحاد المسلمين أبداً، هذا الذي يجري ليس مقبولاً بنص هذه الآية، لكن الجهاد من حق أولي الأمر وحدهم، هم يقررون، والدليل الصحابة الكرام منعوا أن يقاتلوا، أما في المدينة بعدما صار هناك كيان، و أولو أمر عندئذٍ سُمح لهم، قال:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)

[سورة الحج الآية: 39]

لك أن ترد كيد الكائدين، وعدوان المعتدين، والقتال هنا قتال دفاعي في الأعم الأغلب.

التجديد في الدين يعني أن تنفي عنه كل ما علق به مما ليس منه :

أيها الأخوة، أما شؤون الآخرة الحقيقة أن الله ما ذكر إلا بعض الآيات المتعلقة بالآخرة، فأنا ليس لي حق أن أضيف على هذه الآيات معاني لم ترد في النصوص، هناك أشخاص يتخيلون أوضاعاً وأحوالاً وتفاصيل لم يأتِ بها نص.

لذلك قضية الآخرة مقطوع بها، هذا الذي ورد عن الآخرة لا نزيد عليه، ولا نحذف منه، بشكل عام الدين كله إن زدت عليه أو حذفت منه وقعت في مشكلة كبيرة، إن زدنا على الدين ما ليس منه أصبحنا شيعاً، وفرقاً، وطوائف، وصار بأسنا بيننا.

أول واحدة: إن أضفنا على الدين ما ليس منه أصبحنا شيعاً، وفرقاً، وطوائف، وصار بأسنا بيننا، وإن حذفنا من الدين ما عُلم منه بالضرورة ضعفنا، لما حذف الجهاد ضعف المسلمين.

إذاً: ما هو التجديد في الدين؟ ألا تزيد عليه، وألا تحذف منه، بل أن تنزع عنه كل ما علق به مما ليس منه، بالتعبير الدقيق ما هو التجديد في الدين؟ لا أن تزيد عليه ولا أن تحذف منه، بل أن تنفي عنه كل ما علق به مما ليس منه، آخر قراءة:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (26-70) : تفسير الآية 30 ، الفرق بين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

ديننا العظيم هو دين التوحيد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

الحقيقة أيها الأخوة أن هذا الدين العظيم هو دين التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى يداً تعمل مع الله.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية:123]

الأمر كله، كل شؤون الكون، كل شؤون الأرض، كل شؤون البشر ترجع إليه.

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)

[سورة المؤمنون الآية:91]

التوحيد أن تعبد الله وحده، التوحيد أن تعبد الله وحده فيما أمر، وبالطريقة التي أمر، التوحيد أن تخلص الوجهة إلى الله، الحقيقة لو أردت أن تقول لي هل يمكن أن تجمع الدين كله بكلمة؟ الجواب هو: التوحيد.

الدين له ثمرة يانعة لا تقطف إلا بالتوحيد :

الحقيقة أيها الأخوة أن الإنسان حينما يوقن يقيناً مقطوعاً به أن أمره بيد الله، وأن حياته بيد الله، وأن رزقه بيد الله، وأن زواجه بيد الله، وأن أولاده بيد الله، وأن من فوقه بيد الله، وأن من تحته بيد الله، وأن من حوله بيد الله، وأن نجاحه بيد الله، وأن توفيقه بيد الله، حينما يتأكد الإنسان أن الله عز وجل بيده كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وأمره نافذ بكل شيء، وليس فوقه شيء، ما الذي ينتج عن هذا؟ أن يتوجه إلى الله وحده، هذا هو الدين، الدين أن تستقيم وجهتك إلى الله، الدين أن تتصل بالله، الدين أن تسعد

بقرب الله، الدين أن تتحرك وفق منهج الله، الدين أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، هذا هو الدين.

وحينما تغيب هذه المعاني معاني التوحيد يصبح الدين ثقافة كأي ثقافة، بل يقترب من العادات والتقاليد، بل يقترب من التراث، عندئذٍ تمتنع عن الناس ثمرات الدين، الدين له ثمرة يانعة، لكن هذه الثمرة اليانعة لا تقطف إلا بالتوحيد.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يعبده إلا بعد أن طمأنه أن الأمر كله بيده :

الحقيقة الشرك أنواع: هناك شرك جلي واضح، في بلاد شرقي آسيا هناك من يعتقد ويتوهم أن بوذا إله، هذا شركٌ جلي واضح، لكن الذي نخاف على أخوتنا منه هو ليس الشرك الجلي، إنه ليس موجوداً بالعالم الإسلامي والحمد لله، ولكن الذي نخاف على أخواننا الكرام منه هو الشرك الخفي، الشرك الخفي: أن تتوهم أن جهة في الأرض قوية بيدها رزقك، بيدها نجاحك، بيدها سعادتك، هذا التوهم شرك، والشرك كما قال الله عز وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

فهذا الإله العظيم هل يعقل أن يقول لك اعبدني وأمرك بيد غيري؟ مستحيل! قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

بعد أن طمأنك أنه أمرك كله بيده، قال لك: فاعبده، متى قال لك أن تعبده؟ بعد أن طمأنك.

الفرق الكبير بين أن يقف الإنسان على فكرة التوحيد وبين أن يعيشه :

لكن أخواننا الكرام لابدّ من حقيقة دقيقة، أن التوحيد كفكرة سهل جداً، أما أن تعيش التوحيد هذا هو الإيمان، فرقٌ كبير بين أن تقف على فكرة التوحيد، وبين أن تعيش التوحيد، أضرب مثلاً الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

الآية واضحة وضوح الشمس، ولك أن تفهمها بداهة، بل لك أن تشرحها للناس، لكن لو أنك مؤمن مستقيم، مقيم لأوامر الله تماماً، وبيتك إسلامي، وعملك إسلامي، ودخلك إسلامي، والإنفاق إسلامي، وأنت تسعى لمرضاة الله، ولك صديقٌ على مقاعد الدراسة، بعيدٌ عن الدين بعد الأرض عن السماء، صار معه ملايين مملينة، يسكن ببيت كالقصر، مركبات متعددة، حوله خدم وحشم، لمجرد أن تقول:

هنيئاً له فأنت لا تعرف الله، لأنه حينما ترى أن هذه الدنيا العريضة التي بين يديه أغلى عندك من طاعة الله ومن العمل للآخرة فأنت لا تعرف الله، بل لا تعرف من أنت، أنت مؤمن، الكلام طويل ودقيق، أنت حينما تصل إلى مرضاة الله وصلت إلى كل شيء.

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

أنت حينما تعرف الله، وتعرف أن هذه الدنيا دار عمل وليست دار أمل، دار تكليف وليست دار تشريف، أنت حينما توقن أنك مخلوق للجنة، وفي الجنة:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وأن الله جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تعمل عملاً يعد ثمناً لدخول الجنة.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

فهذا الذي عرف سرّ وجوده، وعرف غاية وجوده، وعرف أن الله خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك حينما تعرف ذلك لا تتمنى أن تكون محل أحدٍ من أهل الدنيا، أنت بحالة لا تسمح لك أن تتمنى أن تكون مع أحدٍ من أهل الدنيا.

للتقريب، دخلت إلى الحمام وتنظفت نظافة من براز معين، وارتديت ثياباً نظيفة معطرة، ومشيت في الطريق فرأيت بركة فيها مياه آسنة سوداء، وعدداً من الأشخاص يسبحون بها ويلعبون ويضحكون، هل يعقل أن تتمنى أن تكون معهم؟ مستحيل! بل حياة المؤمن، نظافة المؤمن، رقي المؤمن، أبلغ من ذلك.

المؤمن حينما يكتشف أن الله خلقه من أجل أن يسعده سعد في الدنيا و الآخرة :

لذلك: من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله عز وجل، فالمؤمن حينما يكتشف أن الله خلقه من أجل أن يسعده، والسعادة بعبادته، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة لله عز وجل، لكنها طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، أنت حينما تؤمن أنك تحقق الهدف الذي خلقت من أجله فأنت أسعد إنسان، وكنت أقول إن لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحد أتقى مني ففي الإيمان خلل، لِمَ لا تكون أسعد الخلق

وأنت مع الله؟ مع من بيده كل شيء؟ مع الخالق؟ مع الرب؟ مع المسير؟ مع الكريم؟ مع الجليل؟ مع الغني؟ مع القوي؟ مع من بيده كل شيء؟ مع من إذا أراد شيئاً أن يقول له:

(كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

الأقوياء بيده، الضعفاء بيده، الأغنياء بيده، أهل الأرض بيده، أهل السماء والأرض بيده، كيف تقول لا يوجد عندي شيء؟.

من لم يقل أنا أسعد إنسان ففي إيمانه خلل :

أخواننا الكرام، القضية في الدين قضية كبيرة جداً، أنت حينما تكون متديناً أو حينما تصطلح مع الله:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض، أن هنئوا فلاناً فقد اصطلاح مع الله))

[ورد في الأثر]

أقسم لكم بالله أيها الأخوة، ما لم تقل أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحدٌ أتقى مني ففي الإيمان مشكلة، تخاف ممن؟ الأقوياء بيده، تخشى الفقر؟ هو غني ونحن الفقراء إليه، تخشى المرض؟ هو الشافي، تخشى الضعف؟ هو القوي، تخشى قوياً؟ هو أقوى الأقوياء.

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

أيها الأخوة، أنت حينما تعرف الله تعرف كل شيء، وحينما تفوتك معرفة الله يفوتك كل شيء، أنت حينما تصل إلى الله تسعد بهذه الصلة ولو فقدت كل شيء، وحينما تحصل الصلة بالله تسعد بها ولو فقدت كل شيء، أما إذا فقدتها فتشقى ولو ملكت كل شيء.

الفرق بين حلاوة الإيمان و حقائق الإيمان فرق كبير جداً :

الإيمان شيء آخر، شيء ثمين جداً، لكن ثمنه باهظ، لذلك في بعض الأحاديث النبوية:

((ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حَلاوَةَ الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

حلاوة الإيمان شيء وحقائق الإيمان شيءٌ آخر، حقائق الإيمان أن تؤمن بالله، وبكتابه، وبأنبيائه، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، أما حلاوة الإيمان فأن تقول: أنا أسعد الناس، حلاوة الإيمان تجعلك بطلاً، حلاوة الإيمان تجعلك كريماً، شجاعاً، مقداماً، حلاوة الإيمان تجعلك قائداً لمن حولك، فرق كبير بين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان، لذلك أيها الأخوة:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

من لم يبذل وقتاً للإيمان لن يتمتع بمزايا الإيمان :

الإيمان أيها الأخوة ليس كما تتوهمون أحياناً، فلان مؤمن، أي كيف إذا قلت: فلان دكتور، أي معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، وجامعة، ولسانس أو بكالوريوس، دبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، ثلاث عشرة شهادة، كلمة حرف د. أي معه ثلاث عشرة شهادة، وكلمة مؤمن!

أخواننا الكرام الإيمان مرتبة علمية، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، معنى مؤمن أي عرف حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، معنى مؤمن عرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، معنى مؤمن عرف ربه، معنى مؤمن عرف منهجه، معنى مؤمن عرف طريق سعادته، معنى مؤمن عرف طريق شقائه، فاتقى طريق الشقاء وتابع طريق النعيم، معنى مؤمن عرف أن:

((الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن بشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخر من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لكن الإنسان إذا لم يبذل وقتاً للإيمان كيف ينعم بمزايا الإيمان؟ أي هل يستطيع إنسان لم يفتح كتاباً، ولم التحق بمدرسة، ولم يحضر درساً، ولم يقرأ، ولم يكتب، أن يقول لك: أنا مثقف؟ أو أنا معي شهادة عليا؟ هذا مستحيل! أنا أقول لأخوتي الكرام: أنت مؤمن، متى آمنت؟ متى تفكرت في خلق السماوات والأرض؟ متى قرأت القرآن؟ متى عرفت أحكامه؟ متى عرفت حلاله وحرامه؟ متى عرفت الخير والشر؟ متى سرت في طريق الإيمان؟ أي يمكن أعلى مرتبة في الحياة بلا ثمن، هل يستطيع إنسان أن

يقول أنا طالب جامعي ولا يحمل ثانوية ولا إعدادية ولا ابتدائية؟ مستحيل، سبحانك يا رب! كل أمور الدنيا مقننة، طبيب طبيب، محامي محامي، مهندس مهندس، إلا قضايا الإيمان مائعة.

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

***

أنا مؤمن، كيف يعصي المؤمن ربه، مستحيل!.

من يعرف أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى لا يمكن أن يقبل أن يكون له ابن :

لذلك أيها الأخوة الآيات الآن تتعلق بحقيقة الإيمان.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

أنت حينما تعرف منهج الله لا يمكن أن تقول فلان ابنه، مستحيل، حينما تعرف الذات الكاملة، الأبدية، السرمدية، حينما تعرف قدرة الله، علم الله، غنى الله، قوة الله، حينما تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى لا يمكن أن تقبل أن يكون له ابن مستحيل! فكرة لا يقبلها الولد الصغير.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

هذا القول دليل أنهم ما عرفوا الله عز وجل، لذلك أيها الأخوة اعتقدوا معي يقيناً أن هذا الدين العظيم فيه أصلان كبيران، الأصل الأول معرفة الله، والأصل الثاني عبادته، أنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، حينما تغفل معرفته أغفلت كل شيء.

طريق معرفة الله التفكر في آياته الكونية :

لذلك لماذا في القرآن الكريم ما يزيد عن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون؟

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

[سورة الفجر]

هذه الآيات الكونية:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ)

[سورة البلد]

هذه الآيات التي في القرآن الكريم تتحدث عن الكون والإنسان، ما علاقتك بها؟ الحقيقة علاقتك بها التفكر في خلق السموات والأرض.

الطرق السالكة لمعرفة الله الآيات القرآنية و التكوينية و الكونية :

يجب أن تعلم علم اليقين أن طريق معرفة الله التفكر في آياته الكونية، والأصل في هذا الموضوع:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

والأصل الثاني النظر في آياته التكوينية:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران]

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام]

الأولى آياته الكونية، علاقتك بها التفكر، والثانية آيات الله التكوينية، علاقتك بها النظر، والثالثة آيات الله القرآنية، علاقتك بها التدبر.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد]

أي وقت أمضيته لمعرفة الله، الله تعرفه من كونه، من خلقه، من تكوينه، من أفعاله، من كلامه، من قرآنه، آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، طرق سالكة لمعرفة الله، فإذا جهدت بالتفكر بها عرفت من هو الله.

أخواننا الكرام، أكاد أضع يدي على مشكلة المسلمين الأولى أنهم عرفوا الأمر ولم يعرفوا الآمر، لكنك إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، البطولة أن تعرف من هو الآمر، ماذا عنده لو أطعته؟ ماذا ينتظرك لو عصيته؟ أن تعرف الآمر ثم تعرف الأمر، إن عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر.

منهج البحث في الدين إن كنت ناقلاً فالصحة مبتدعاً فالدليل :

أخواننا الكرام، ذلك هذا الذي قالوه:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

أي كلمة قيلت، مقولة لا علاقة لها بالواقع أبداً، مثلاً: لو أنت الآن لا تملك ثمن طعام، قلت: معي مليار كلمة، ما معك ثمن وجبة طعام تقول معي مليار كلمة؟ كلام لا يقدم ولا يؤخر ولا يصرف بأي مكان، فالكلام سهل، قل ما شئت، والحياة الدنيا فيها بشر يتكلمون، والكلام ما لم يكن مطابقاً للواقع لا قيمة له، من أدق تعريفات العلم: القول المطابق للواقع، هناك تعريف أدق: علاقة بين متغيرين يؤكدها الواقع، عليها دليل، مقطوع بصحتها، لو ألغيت الدليل لكان الكلام تقليداً، لو ألغيت الواقع لكان جهلاً، لو ألغيت القطع لكان وهماً، أو شكاً، أو ظناً، لو ألغيت اليقين لكان ثلاثون بالمئة وهم، خمسون بالمئة شك، تسعون بالمئة ظن، أما العلم فكلام يقيني قطعي، القول المطابق للواقع المقطوع به، عليه دليل، ألغ الدليل صار تقليداً، ألغ الواقع صار جهلاً، ألغ القطع صار وهماً أو ظناً أو شكاً، لذلك القول المطابق للواقع مع الدليل هو العلم.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

مرة أخ كريم، مفتي في هذا البلد الطيب، توفي رحمة الله، كنا في طابق مرتفع بالشام، قال لي: كل هذه المدينة ملكي لكن بلا دليل، الكلام سهل، كل هذه الأبنية التي تراها هي ملكي ولكن لا دليل. لذلك قالوا: لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، بل هناك منهج بحث في الدين، إن كنت ناقلاً فالصحة، مبتدعاً فالدليل.

على الإنسان ألا يقبل شيئاً و لا يرفض شيئاً إلا بالدليل :

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

عود نفسك أيها الأخ الكريم ألا تقبل شيئاً إلا بالدليل، بل ألا ترفض شيئاً إلا بالدليل، تقبل بالدليل، وترفض بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، وأقوى دليل على ذلك:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

[سورة يوسف الآية:108]

معنى بصيرة؛ أي معي دليل، ومعي تعليل:

(أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية:108]

فإذا كنت متبعاً للرسول فينبغي أن تكون دعوتك بالدليل.

الله تعالى حينما رتب المعاصي والآثام جعل على رأسها الافتراء على الله :

لذلك:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

كلام، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما رتب المعاصي والآثام بدأ بالفحشاء والمنكر، بل بعد الفحشاء والمنكر هناك الشرك، هناك الكفر، هناك الإلحاد، وجعل على رأس هذه الجرائم الفكرية قال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة]

لذلك:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى يرقى بها إلى أعلى عليين، الكلمة الطيبة صدقة.

الكلمة الطيبة صدقة :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

أحياناً بجلسة، بلقاء، بندوة، يُطرح كلام، بعض الكلام كفر بعينه، بعض الكلام يؤكد الشرك بالله، بعض الكلام يؤكد البعد عن الله، أو بعض الكلام لا يؤكد كمال الله عز وجل، فما كل كلام يسمع، ولا كل كلام يصغى إليه، المؤمن حينما يعرف الله عز وجل صار معه مقياس، يقيس هذا الكلام بالمقياس الذي أعطاه الله إياه، بالقرآن، مثلاً يقول الشاعر:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

هذا كلام غير صحيح، يقول: مادمت لا تملك موتي أو حياتي دعني أتمتع، ومئات الأشخاص يقولون: تمتع بالحياة بقدر ما تستطيع، أما التوجيه الإلهي فصحيح، أطع الله قدر ما تستطيع، أطع الله ما استطعت.

إذاً أيها الأخوة:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

والله أيها الأخوة الذي يقال أحياناً تجد كلاماً يقال في المجالس، في الندوات، في اللقاءات، كلام لا معنى له، لا وزن له، لا يرقى بالإنسان، الكلمة الطيبة صدقة، الله عز وجل قال:

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ*تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

[سورة إبراهيم]

الكلمة الطيبة كلمة مباركة قد يحيا قلب إنسان بكلمة طيبة.

ملة الكفر واحدة في أي مكان وزمان :

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

هناك كلمة طيبة ترقى بها إلى أعلى عليين، وكلمة خبيثة أيضاً تطير في الآفاق.

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

[سورة إبراهيم]

نصف العالم كان يعتقد بأنه لا إله، وبقيت هذه الدول التي تؤمن بأنه لا إله سبعين عاماً تطرح فكراً إلحادياً، أين هي الآن؟.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

فلذلك

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ)

أي ملة الكفر واحدة،

(يُضَاهِئُونَ)

أي يشابهون، ملة الكفر واحدة، الكافر هو كافر في أي مكان وزمان.

(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

هذا الذي لم يؤمن بالله انظر إلى عمله، يأخذ ما ليس له، يعتدي على أموال الآخرين، يعتدي على أعراضهم، فهو إنسان منافق، و صفاته:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى *أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة العلق]

إنسان آخر:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)

[سورة العلق]

الناس في النهاية رجلان :

1 - إنسان تعرف على الله فسلم وسعد في الدنيا والآخرة :

أخواننا الكرام، الناس في النهاية رجلان، مؤمن عرف الله، وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وعمل صالحاً، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، الحسنى هي الجنة، والدليل:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس الآية:26]

الحسنى هي الجنة.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

اتقى أن يعصي الله، صدق بالحسنى فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء.

2 - إنسان غفل عن الله فشقي وهلك في الدنيا والآخرة :

الطرف الثاني:

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، وتوهم أنه مخلوق للدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، هناك نموذجان.

بطولة المؤمن أن يكون من أتباع الأنبياء :

بل يقع على رأس الهرم البشري زمرتان، الأنبياء قمم البشر والأقوياء قمم القوة، الأنبياء أعطوا ولم

يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب والأقوياء ملكوا الرقاب، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء يمدحون في حضرتهم والأنبياء يمدحون في غيبتهم، والناس جميعٌ تبع لقوي أو نبي، بطولتك أيها المؤمن أن تكون من أتباع الأنبياء، قوتك في كمالك، قوتك في إحسانك، قوتك في استقامتك.

لذلك:

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ ـ يشابهون ـ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

ينصرفون على ملذاتهم إلى اغتصاب ما ليس لهم، إلى علاقات لا ترضي الله، إلى مكاسب دنيوية.

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[سورة الغاشية]

هذه الآية أيها الأخوة تبين أن البشر على نوعين مؤمن وغير مؤمن، المؤمن عرف الله، عرف منهجه، انضبط بمنهجه، أحسن إلى خلقه، سلم وسعد في الدنيا والآخرة، وغير المؤمن غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (27-70) : تفسير الآية 31 ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-11-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لهذه الآية أهميتها الكبيرة، لأن الأمراض التي وقع بها أهل الكتاب في الأعمّ الأغلب وقع بها المسلمون، أين نقطة الضعف في حياة المسلمين؟ ينطلق شرح هذه النقطة من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أضرب لكم مثلاً من عهد النبي عليه الصلاة والسلام: أنصاري أمّر على بعض من أصحاب النبي، هو أميرهم لسرية، فقال هذا الأمير: أضرموا نار عظيمة فأضرموها، قال: اقتحموها، فأبوا، قال لهم: ألست أميركم؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ وقع الصحابة في حيرة كبيرة، هو أميرهم وأمره نافذ، لكنه أمرهم أن يقتحموا النار لتحرقهم وليموتوا فيها، فقالوا: إنما آمنا بالله فراراً منها، فكيف ندخلها؟! يبدو أنهم لم يفعلوا، لكنهم أخبروا النبي عليه الصلاة والسلام بما فعله بهم أميرهم، فقال عليه الصلاة والسلام: والله لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في معروف.

هذا درس بليغ، أريد في هذا اللقاء الطيب، أن يكون واضح لديكم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إلا أنني وأنتم معي نعطل عقولنا أمام الوحيين، الوحي الأول كلام الله، فهمت أو لم تفهم هذا كلام الله، هذا قطعي الثبوت، وفرق كلام الله عن كلام خلقه، بل فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

الإنسان مع القرآن الكريم أو ما ثبت في السنة الشريفة لا اختيار له :

الآية الكريمة نخضع لها، فهمنا أو لم نفهم، قنعنا بها أو لم نقنع، هذا كلام الله، وأما النبي عليه الصلاة

والسلام فمعصوم من أن يخطئ، في أقواله، وأفعاله، وإقراره.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

فأنا مع القرآن الكريم ليس لي اختيار.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية:36]

قد ترغب بشراء هذا البيت، قد تشتريه وقد لا تشتريه، شراء البيت مباح، قد ترغب في سفر، قد تسافر وقد لا تسافر، قد يعرض عليك عمل، قد تقبل وقد لا تقبل، أما حينما يأتي أمر من الله، أو أمر من المعصوم من رسول الله ثبت عنه، فليس لك اختيار إذا كنت مؤمناً، أي الأمر الإلهي بوحي السماء، بالقرآن، والأمر النبوي وهو وحي آخر لأن الله يقول:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

الأمر في القرآن وما صحّ من أمرٍ في سنة النبي العدنان، لا اختيار لك في تطبيقه أو عدم تطبيقه، والدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ)

هذه ما كان تعد من أشد صيغ النفي.

مثلاً تسأل إنساناً هل أنت جائع؟ يقول لك: لا، لكن لو قلت له لا سمح الله ولا قدر وهو مؤمن كبير هل أنت سارق؟ يقول لك: ما كان لي أن أسرق، هذا اسمه في اللغة نفي الشأن، أي أنا لا أفعل السرقة، ولا آمر بها، ولا أرضى بها، ولا أحبّها، ولا أصاحب سارقاً، ولا ولا يمكن أن تعد أنواعاً لا تعد ولا تحصى من النفي، هذا اسمه نفي الشأن، فرق كبير بين نفي الحدث ونفي الشأن، هل أكلت صباحاً؟ يقول لك: لا، نفى الأكل، أما هل أنت سارق؟ ينبغي أن تقول ما كان لي أن أسرق، ليس من شأني، ولا من طبيعتي، ولا من أخلاقي، ولا من مذهبي، ولا أرضى به، ولا آمر به، ولا أقرّ عليه، كلما مرّ معكم في القرآن:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون وفيهم سنة رسول الله مطبقة،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

[سورة آل عمران الآية:179]

لو بحثت في القرآن الكريم عن الآيات التي تبدأ وما كان الله، لوجدت العجب العجاب، أشد أنواع النفي بهذه الصيغة،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

فلذلك أنت حينما تقف على حكم من القرآن، أو حينما تطلع على حكم من القرآن، أو على حكم من النبي العدنان صحّ عنه، ليس لك خيار في الموضوع إطلاقاً.

مرة ثانية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

من آثر إرضاء الآخرين على إرضاء الله عز وجل خسر الدنيا و الآخرة :

هؤلاء أهل الكتاب ماذا فعلوا؟ فعلوا بخلاف هذه القاعدة، قال:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ)

أي رجال الدين اليهودي، وسمي الحبر حبراً لأنه يحبر الكلام، ويوضحه، ويفصله، ويزينه

(وَرُهْبَانَهُمْ)

الرهبان جمع راهب، الإنسان المنقطع للعبادة،

(وَرُهْبَانَهُمْ)

الرجال المنقطعون للعبادة،

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي هل تصدق أن إنساناً يلتقي بإنسان من جنسه، من بني جلدته، يقول له: أنت ربي؟ ليس هذا وارداً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام شرح هذه الآية فقال: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً لم يعبدوهم على أنهم آلهة ولكنهم أطاعوهم طاعة عمياء".

أي عاملوهم كإله، مثلاً لو أن امرأة طلبت من زوجها طلباً لا يرضي الله، فخضع لها حفاظاً على مودتها، عصى الله وأطاعها، لك أن تقول عن هذا الزوج: عبد زوجته من دون الله بالضبط، هو ما قال لها أنت إله إطلاقاً، لكن لأنه آثر إرضاءها ولم يعبأ بإرضاء الله عاملها كإله.

فحينما تعبد إنساناً، أنت لا تقول هو إله، وما كان لك أنت تقول ذلك، لكن عاملته كإله، وانتهى الأمر، لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه :

أيها الأخوة، ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، صدقوا ولا أبالغ، أن هذا النص ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، أي أنت حينما ترى مصلحتك في هذا العمل، وهذا العمل نهى الله عنه، هذا العمل لا يرضي الله، فحينما تركل بقدمك هذا العمل مع ما ينتظرك منه من خير مادي في الدنيا، أنت بهذا أكدّت أنك مؤمن، حينما تركل بقدمك عملاً تنتفع منه نفعاً كبيراً لكنه لا يرضي الله أنت بهذا أكدّت أنك مؤمن.

مرة حدثني أخ توفي -رحمه الله- قال لي: استطعت أن أخذ محضراً في أرقى أحياء دمشق بنصف قيمته، قلت له: كيف؟ قال لي: بالمناقصة، لي ترتيبات معينة، أي استطعت أن آخذ هذا المحضر عن طريق المناقصة بمزاودين خلبيين من طرفي، واستقر الثمن على ما يساوي نصف هذا المحضر، قلت له: وكم شخص يملكون هذا المحضر؟ قال لي: ثلاثمائة شخص، قلت له: هؤلاء أليس بهم أيتام؟ قال لي: طبعاً، قلت له: أعطيت هؤلاء الأيتام نصف ما يستحقون عن طريق هذه المناقصة الخلبية؟ كيف تواجه الله عز وجل؟ والله الذي لا إله إلا هو، أنا ما رأيت على وجه الأرض إنساناً أغبى ممن يؤثر دنياه على آخرته، هو وعدني أن ينسحب من هذه المناقصة، أو وعدني أن يدفع الفرق لأصحاب الأرض، كيف تواجه الله يوم القيامة؟ ثلاثمئة إنسان يملكون هذا المحضر، بعضهم أيتام، أعطيتهم نصف حقهم، وتركت هذا المال لأولادك؟!

لذلك الميت أحياناً ترفرف روحه فوق نعشه، يخاطب من حوله: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة عليّ، فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم.

الفتوى على قدر النص :

و الأمراض التي أصيب بها أهل الكتاب، أنا لا أبالغ ولست متفائلاً كثيراً أصيب بها المسلمون، يقول لك: معي فتوى من الشيخ فلان، إذاً ما قولك إذا استطعت بحنكه بالغة وذكاء لمّاع أن تنتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام المعصوم الذي يأتيه وحي السماء فتوى لصالحك ولست محقاً بها؟ الجواب: لا تنجو من عذاب الله، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لعَلَّ أحدكم ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن الآخر، فإذا قضيت له بشيء، فإنما أقطعُ له قطعة من النَّار))

[أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والإمام أحمد عن أبي هريرة]

ما قولك؟ يقول لك: والله هناك إنسان يمكن مؤذناً أو إمام مسجد، والله سألته وأفتى لي، لا يعرف اسمه، ولا يعرف وظيفته، ولا يعرف علمه، وأخذ هذه الفتوى وارتاح، لو انتزعت من فم النبي الكريم، من سيد الخلق، ومن حبيب الحق، ومن سيد ولد آدم، لو انتزعت من فمه فتوى لصالحك ولم تكن محقاً بها لا تنجو من عذاب الله.

بالمناسبة أخ يذكر لي قصة، يسألني ما الحكم؟ أنا بحسب القصة أقول له الحكم، لكن مدى انطباق هذه القصة على الواقع، هذا مسؤولية السائل لا المسؤول، لو أنه فرضاً قال لي: زوجتي تخونني فرضاً ومرات كثيرة، هل عليّ إثم إن طلقتها؟ لا أبداً طلقها، لكن لو أن الكلام غير صحيح يقول الفلان الفلاني وافق لي على تطليقها، هل ذكرت لهم ماذا قلت له؟ ذكرت الخيانة المتكررة، وعدم الانصياع، وعدم التوبة، طبعاً ساعتئذ لا يوجد مانع.

فدائماً الفتوى على قدر النص، وهذه المشكلة يعاني منها كل الدعاة إلى الله، يقول لك كلام على هواه، كلام يحملك شئت أم أبيت على فتوى معينة، فإذا أفتيت بهذه الفتوى، أخذ نص كلامك وأبلغ الناس جميعاً، أنه أفتى لي، أفتى لي بذلك.

والله مرة كنت ببيت، قال: والله نحن مستغربون نحن لا نأتي إلا ببيرا بلا كحول لكن قال: أنت أفتيت بها، أنا والله ذكرت العكس عشرات المرات، لأنه الأمام مالك حرم خنزير البحر وهو سمك من اسمه، أي أكثر من مئة نوع من الشراب لا يحلو لك إلا كلمة بيرا بلا كحول، شراب الشعير، أحضر شعيراً وخذ شرابه، لا بيرا بلا كحول.

على المؤمن أن يكون واعياً في كل مواقف حياته :

أخواننا الكرام صدقوا هناك أشخاص يدّعون أنهم سمعوا فتوى من علماء أجلاء، وكلامهم كذب، لمصالح يحققونها، فأنت كمؤمن كن واعياً، أنا بينكم، اتصل بي، اسألني، هل صحيح أنك قلت كذا؟ لولا أنني أعاني كثيراً، والله هناك أشياء أبلغ من ذلك لكن لا أقولها بالدرس، أعاني أكثر من ذلك، مثلاً طلب مني أخ كريم، قال: والله جاء إنسان من طرفك وطلب مئة ألف و أنا أحبك كثيراً فأعطيته إياها، والله لا أعلمه إطلاقاً، وصل الموضوع للسرقة، فأنتم كونوا واعيين، لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا تقبل رفض شيء من دون دليل، اسأل يا أخي، لا تبقى ساكتاً، لا تحمل شيئاً من دون دليل قطعي، لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا ترفض من دون دليل، لأن هناك كذباً في هذا العصر لا يعلمه إلا الله.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لم يقولوا إنكم أرباب أبداً، لكن عاملوهم كالأرباب، أمروهم فائتمروا، نهوهم فنهوا، إذاً عاملته أنت كالرب.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لذلك في هذا الدين لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فرعون من الجبابرة، لم يستطع أن يحمل زوجته السيدة آسيا على أن تعبده من دون الله.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم]

هذا موقف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإنسان مع القرآن له مهمة واحدة أما مع الحديث فله مهمتان :

أنا بحياتي وبحياة كل واحد منكم إنسان واحد نطيعه بلا تردد، وبلا دليل، هو النبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم فقط، طبعاً ما صحّ عنه، قد يكون هناك حديث ضعيف، و قد يكون هناك حديث موضوع، لأن الزنادقة وضعوا في بعض الروايات أربعمئة ألف حديث عن النبي لا أصل له، فلا بدّ من أن تتأكد من صحة الحديث، فأنت مع القرآن مكلف أن تفهم ماذا أراد الله بهذه الآية، وبعدها تطبق أمر الله، لكن مع الحديث أن مكلف بمهمتين، مع القرآن لأنه قطعي الثبوت أنت مكلف بمهمة واحدة، لكن مع الحديث لأنه ظني الثبوت، هناك أحاديث غير صحيحة، أحاديث موضوعة، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، قال: والمخلصون على خطر عظيم، لم يبقَ أحد، هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، عالم لا تنفد، عامل لا تنفد، مخلص لا تنفد، كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، أي لا يوجد أمل.

أنت مع القرآن لك مهمة واحدة، أن تبحث عن المعنى الذي أراده الله.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء]

أما في الحديث فعندك مهمتان، أول مهمة أن تتأكد من صحة الحديث، والمهمة الثانية أن تفهم المقصود، وأن تطبقه، أما مع نص آخر، لأي إنسان كائناً من كان من آدم إلى يوم القيامة فمهمتك غير القرآن والسنة، لك كم مهمة؟ ثلاث مهمات، أول مهمة أن تتأكد من مطابقة هذا الأمر أو هذا النهي للقرآن والسنة، فإن لم يطابق القرآن والسنة فاركله بقدمك.

على الإنسان أن يطيع الله في قرآنه و النبي في سنته :

العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- جاءه رجل قال له: رأيت النبي عليه الصلاة والسلام وقال لي: اذهب إلى مكان كذا وكذا فتجد كنزاً فخذه، ولا تدفع زكاته، قال له: هل وجدت الكنز؟ قال: نعم، قال له: ادفع زكاته، لأن فتوى النبي في حياته هي الأصل، نحن أي رؤيا لا يمكن أن يستنبط منها حكم شرعي، لأن ديننا دين شرع، دين نص، دين أدلة، دين حقائق، لذلك هؤلاء أطاعوا مخلوقاً وعصوا ربهم.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ)

الأحبار علماء اليهود، والرهبان علماء النصارى

(أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي عاملوهم كآلهة، وأطاعوهم.

أخواننا الكرام، هؤلاء

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي عاملوهم كآلهة، و أطاعوهم فيما لا يرضي الله.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الله عز وجل هو الجهة الوحيدة التي ينبغي على الإنسان أن يطيعها :

يا أيها الأخ الكريم اعتقد يقيناً أن بحياتك جهة واحدة تطيعها هي الله، وإن جاءك الأمر من رسوله وكان صحيحاً أيضاً ينبغي أن تطيعه، ينبغي أن تطيع الله في قرآنه، وأن تطيع النبي في سنته، والدليل الحديث الشريف:

((ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حَلاوَةَ الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

حلاوة الإيمان شيء لا يوصف، حلاوة الإيمان تجعلك رجلاً فذاً، تجعلك عالماً، تجعلك شجاعاً، سخياً، كريماً، حليماً، حلاوة الإيمان تجعلك أسعد الناس، والله لا أبالغ إن لم تقل أنا أسعد الناس ففي الإيمان مشكلة، حقائق الإيمان أيّ إنسان يتمتع بذاكرة قوية، واستمع إلى درس، وحفظه، قضية سهلة، أي قد يأتي إنسان غير مسلم في الأصل، نحن عندنا مؤلفات كبيرة جداً وعملاقة ألفوها أجانب، مستشرقون، أناس ليسوا مسلمين.

لذلك قضية

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً)

حينما تخضع لإنسان من دون دليل لا يعنيك أن كلامه يوافق الشرع أو لا يوافقه، لكن مصلحتك معه بكل بساطة وبكل جرأة أقول لك: أنت اتخذته رباً، مادمت قد أطعته وعصيت الله.

للتقريب: صحابي له امرأة طلبت منه حاجة لا يملك ثمنها، فلما ألحت عليه، قال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

على الإنسان ألا يقبل شيئاً من دون دليل :

الآن تقول لي - لا سمح الله ولا قدر - شيخ قال لي: اعمل شيئاً لا يرضي الله لأرضى عنك، هل أعمل هذا الشيء؟ طبعاً هناك قصص تروى مضحكة، قيل: إنسان نزل لقبره، جاءه ملكان فتلقى الملكان ضربة أخرجتهما من القبر، قيل لهما: أمثل هذا يسأل؟ هذا من تلاميذي، كلام مرفوض، خرافات، خزعبلات، ترهات، أباطيل، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الزمر]

من هو؟ سيد الخلق وحبيب الحق،

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

قل لا أعلم الغيب:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف الآية:188]

هذا مقام النبوة، فلذلك لا تقبل شيئاً من دون دليل، مثلاً قاطع أختك، قد يقول لك الأب ذلك، غضب من ابنته أراد أن يؤدبها، قال له: قاطع أختك من دون دليل، ماذا فعلت؟ لم تفعل شيئاً، لكنها أرادت أن تقيم أمر الله في بيتها، وأنت أردت خلاف ذلك فغضبت عليها، فأردت من ابنك أن يقاطع أخته، لا تتحرك من دون دليل، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء.

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى :

هذا الكلام ملخص هذا الدرس،

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً)

ما قال أرباباً لكن لأنهم أطاعوهم في معصية عاملوهم كأرباب.

(أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هو الفاعل، هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل،

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أيها الأخوة، ملخص مخلص المخلص، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا تخف، من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، من ابتغى أمراً بمعصية سخط الله عنه وأسخط عليه الناس، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أطاع ربه وأغضب خلقه، الله عز وجل يقول:

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

الآية:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (28-70) : تفسير الآيتان 32-33 ، من يبحث عن الحقيقة يتولى الله بذاته العلية هدايته.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-11-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

أغبى أغبياء أهل الأرض من يضع نفسه في خندق معادٍ للحق:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

أخواننا الكرام، هذا الذي يضع نفسه في خندق معادٍ للحق، هو من أغبى أغبياء أهل الأرض، لأن الحق هو الله، والله بيده كل شيء، الحق هو الله، والله فوق كل شيء، والآية الكريمة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف الآية:21]

أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

لذلك هؤلاء الذين شردوا عن الله، الذين غفلوا عن هذا الإله العظيم، الذين غفلوا عن دينهم القوي، هؤلاء بسذاجة ما بعدها سذاجة، وبجهل ما بعده جهل، يتوهمون أن بإمكانهم أن يفسدوا على الله هدايته لخلقه.

لا تستطيع جهة في الأرض من آدم إلى يوم القيامة أن تفسد على الله هدايته لخلقه:

أخواننا الكرام، الحقيقة التي أتمنى أن تكون واضحة وضوح الشمس لا تستطيع جهة في الأرض من آدم إلى يوم القيامة مهما قويت أن تفسد على الله هدايته لخلقه، ولكن هؤلاء الذين سمح الله لهم أن يكونوا طغاةً في الأرض ما سمح لهم أن يكونوا طغاةً إلا والله يوظف طغيانهم لخدمة دينه والمؤمنين من دون أن يشعروا، ومن دون أن ينتبهوا، ومن دون أن يريدوا، وبلا أجر، وبلا ثواب، طالبوني بالدليل، لأنه لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة القصص]

الله تعالى لن يسمح لطاغيةٍ أن يكون طاغية إلا ويوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين:

الآن دقق:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

اعتقد معي يقيناً أن الله لا يسمح لطاغيةٍ أن يكون طاغيةً إلا وأن يوظف طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين، من دون أن يشعروا، ومن دون أن ينتبهوا، ومن دون أن يريدوا وبلا أجر وبلا ثواب، في النهاية الله عز وجل مع المؤمنين، لذلك:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ)

صدقوا ولا أبالغ، لو أن واحداً أمامكم أراد بغباء ما بعده غباء أن يتوجه إلى الشمس وينفخ عليها ليطفئ نورها، بمَ تحكمون عليه؟ إنسان في الأرض توجه إلى الشمس ونفخ فيها وفي تصوره أن تطفأ، فهذا الذي يقاوم الحق كهذا الإنسان.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا)

ليس نور الشمس، نور الله، الذي بيده كل شيء، بيده أن يرفعك، هو الرافع، هو الخافض، هو المعطي، هو المانع، هو المعز، هو المذل، بيده كل شيء وإذا كان الله معك فمن عليك؟ من هو البطل؟ الذي ينصر الحق، من هو الأحمق؟ الذي يقف في خندق معاد للحق.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال الآية:34]

هذا كلام رب العالمين،

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

كل إنسان ليس بينه و بين الله وسيط:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

، هذا الدين كالهواء للمؤمنين، كالهواء لكل بني البشر، لا تستطيع جهة أن تمنعه، ولا أن تحتكره، هذه جهة تكون غبية غباء لا حدود له حينما تفكر أن تمنعه عن الناس، لأنه ليس بينك وبين الله وسيط، إذا قلت يا رب قال الله لك: لبيك يا عبدي، يا ربي لقد تبت إليك، يقول لك: عبدي وأنا قد قبلت، فالذي بينك وبين الله لا تستطيع جهة بالأرض أن تصل إليك.

(قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه]

أخواننا الكرام، المؤمن ينبغي أن يعتز بالله.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى روحه:

أخواننا الكرام، مرة كنت في بلد ليس عربياً، لكنه مسلم، وزرت المتحف، وقفت أمام ساعة ضبطت على الساعة التاسعة والخمس دقائق، فسألت عن سبب ضبط هذه الساعة، فقيل لي: هذه الساعة مات فيها الذي أراد إلغاء الإسلام في بلده كلياً، والذي قتل خمسمئة ألف من طلاب العلم - قصة قديمة - سبحان الله! فقلت في نفسي: آلاف الطغاة جاؤوا إلى الأرض وماتوا، بل أرادوا قبل أن يموتوا أن يلغوا الإسلام في بلادهم، ماتوا وبقي الإسلام شامخاً في بلادهم.

فلذلك مرة ثانية: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ نحن في:

((دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لذلك افعل كما تشاء، الحق باقٍ إلى يوم القيامة، لكن دوائر الحق تتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى.

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة هود الآية:7]

في عصر يكون الحق قوياً، وفي عصر يكون الحق ضعيفاً.

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية:140]

لو أن الحق كان قوياً إلى أبد الآبدين لظهر النفاق في الأرض، ولو أن الباطل كان قوياً إلى أبد الآبدين ليئس الناس من رحمة الله،

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

، تارة يقوى أهل الحق، وتارة يضعفون، لكن المؤمن لا يبدل ولا يغير.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

لي مقولة: أنك إذا دعمت الدين يقوى، وإذا حاربته يقوى أكثر، مشكلة كبيرة، تدعمه يقوى، تحاربه يقوى أكثر، هذا الدين هو الهواء لكل البشر، حاجتنا إلى الدين كحاجتنا إلى أرواحنا.

المحاولات التي أرادت أن تقوض دعائم هذا الدين باءت بالإخفاق:

لذلك الشعوب التي ما عرفت الرسالات السماوية، ماذا فعلوا؟ اخترعوا آلهة، في الهند يعبدون البقر، في مكان آخر يعبدون الحجر، في مكان آخر يعبدون الشمس والقمر، الإنسان خُلق ضعيفاً، هذا الضعف يقتضي أن تؤمن بجهة قوية تلوذ بها، تحميك، ترجع إليها، فالمسلمون والفضل لله عز وجل عرفوا الإله الحقيقي، عرفوا خالق السماوات والأرض، شعوب أخرى توهمت إلهاً، أحياناً تقف البقرة في عرض الطريق فيقف السير، الإله واقف، تدخل إلى محل أغذية تأكل ما تشتهي وصاحب المحل في أعلى درجة من السعادة، لأن الإله عنده، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الشمس والقمر، والفضل الذي أكرمنا الله به أننا نعبد الله، خالق السماوات والأرض.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

، هذا الحق، لو لم يكن حقاً لتلاشى من مئات السنين، والله المؤامرات التي حيكت ضد المسلمين عبر التاريخ تفوق حدّ الخيال، وبالنهاية الحق شامخ وواضح وقوي، وهذا الحق الله عز وجل يدعمه وينصر أهله.

لذلك هذا الذي يريد أن يطفئ نور الله، أو يريد أن يلغي درساً مثلاً، أن يلغي علاقة طيبة مع الله، أن يلغي شعيرة من شعائر الله، هذا الإنسان يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، لأنه يعبر عن بعده عن الله أولاً، ويخسر المعركة ثانياً، والتاريخ الإسلامي يشهد بذلك، والمحاولات التي أرادت أن تقوض دعائم هذا الدين لا تعد ولا تحصى، ولكنها جميعاً باءت بالإخفاق.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

لأن الله تولى بذاته العلية هداية الخلق، والدليل:

(إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل]

تولى بذاته العلية هداية الخلق.

من يبحث عن الحقيقة يتولى الله بذاته العلية هدايته:

أنا الذي أؤمن به قطعاً لو إنسان بأقصى مكان في الأرض بحث عن الحقيقة، وتمنى أن يهتدي إليها، يتولى الله هدايته، والدليل الرائع:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية:23]

لو عندك من الخير قيد أنملة لسمعت الحق.

مرة التقيت مع مندوب شركة من هولندا، حدثته عن بعض الآيات الكونية الدالة على عظمة الله، قال لي بالحرف الواحد: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، إنما يعنيني امرأة جميلة، وبيت واسع، ومركبة فارغة، فأنا تذوقت قوله تعالى:

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال الآية:23]

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

بطولة الإنسان أن ينصر الحق و يكون معه:

لذلك أيها الأخوة، كل بطولتك أن تنصر الحق، أن تكون مع الحق، أحياناً ابتلاءات الله كبيرة جداً، فالصحابة الكرام في معركة الخندق:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب]

حتى قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

وأحياناً حينما يقوى الباطل ويسيطر ويهيمن، وقد يفعل فعلاً لا يرضي الله، ضعاف الإيمان يتزلزلون.

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب الآية:12]

المؤمن الصادق واثق من نصر الله عز وجل:

لكن الله يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

نسأل الله جلّ جلاله أن نكون من الذين لم يبدلوا تبديلاً، والله الذي لا إله إلا هو، أنا أتحدث عن مؤمن، لو لم يبقَ على وجه الأرض من المؤمنين إلا هو لكان واثقاً من نصر الله.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر الآية:51]

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

بكلمات، أي يتوهم إنسان ساذج أنه بمقالتين، بإلقاء كلمة، بتأليف كتاب، ينهي الدين، أي لا يوجد قوة على وجه الأرض تستطيع أن تزلزل هذا الدين، لأنه دين الله.

والذي قاله مرة أحد زعماء قريش: إن للبيت رباً يحميه، وإن لهذا الدين إلهاً عظيماً يحميه، وقد ينصره بأعدائه من دون أن يشعروا، ومن دون أن يريدوا، وبلا أجر وبلا ثواب.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

لأن الله تولى بذاته العلية هداية خلقه، والله عز وجل كما ترون الأحداث كلها تسير لصالح المؤمنين في النهاية.

خلاص العالم بالإسلام:

أيها الأخوة،

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

في أي بلد، في أي مكان، في أي زمان، في أي عصر، في أي مصر.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

أنا أقول من أعماق قلبي: هنيئاً لمن عرف الله، هنيئاً لمن تفانى في طاعته، هنيئاً لمن دعا إليه، هو المنتصر، هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، من هم؟ زعماء، أقوياء، أغنياء، أين هم اليوم؟ في مزبلة التاريخ، هؤلاء الشباب الضعاف الفقراء الذين وقفوا مع النبي أين هم؟ تقول: سيدنا بلال، سيدنا معاذ، هؤلاء سادة، كانوا ضعافاً، كانوا فقراء، لكن الله سبحانه وتعالى رفع قدرهم، ورفع

شأنهم، أعلى مكانهم، أسماؤهم في لوحة الشرف.

أخواننا الكرام، عالم من أمريكا هداه الله إلى الإسلام، وزار الجالية الإسلامية في بريطانيا، وقال مقالة أمام أحد علماء الإعجاز العلمي في لندن، هذه الكلمة مؤثرة جداً، قال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب، على الأقل في المدى المنظور، لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأنهم خلاص العالم بالإسلام، الإسلام يحرم الخمر.

الاتحاد السوفيتي الذي رفع شعار لا إله اعتنق الإلحاد، هذه الدولة العملاقة قبل أن تنهار من الداخل حرمت الخمر قبل انهيارها بسنوات، وصار هناك ضريبة وعقوبة كبيرة جداً لمن يشرب الخمر، معنى ذلك خضعوا لا عن عبادة أبداً، ولا عن إيمان، ولكن وجدوا أن الخمر تدمر الأمة، تشل قدراتنا، عقب انهيار النظام العالمي العملاق، النظام العالمي المالي القائم على الربا، عقب انهياره قبل سنوات تمّ إعلان إفلاس مئة و خمسة و خمسين مصرفاً في أمريكا، الأزمة العالمية المالية، لماذا؟ لأن هذا النظام العالمي المالي العملاق يقوم على الربا، وتأتي الآية الكريمة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

معلوماتي الدقيقة أن هناك دراسات دقيقة وجادة وعميقة في العالم الغربي، دراسات للاقتصاد الإسلامي، وسوف تنشأ مصارف على التراب الأوروبي تعتمد النظام الإسلامي، هذا معنى قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

[سورة التوبة الآية:33]

اعتماد أعداء الإسلام على النظام الإسلامي الأسري و الاقتصادي بدافع المصلحة:

أخواننا الكرام، هناك دراسات الآن حول الاقتصاد الإسلامي تفوق حدّ الخيال، هذا الاقتصاد هو منهج الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

الحق الشيء الثابت والهادف

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

أي هناك مشكلة يعاني منها الغرب أنهم لا طلاق عندهم، الفاتيكان قبل أعوام- أعتقد عشر أعوام- سمح بالطلاق، فتقدم مليون طلب في يوم واحد،

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

أنا أقول لكم وأعني ما أقول: في النهاية النظام الإسلامي المالي، النظام الإسلامي الأسري، هذا الذي جاء به الإسلام، سوف يعمل به أعداء الإسلام، لا عن إيمان ولا عن اعتقاد ولكن بدافع المصلحة، وكلما تقدم العلم اقترب من الدين، لذلك:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)
(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

[سورة التوبة]

وأي نظام وضعي لا يصمد لعقدين من الزمن، لكن هذا النظام الإلهي نظام أبدي لأنه من عند الخالق، من عند خالق السماوات والأرض.

المؤمن يلقي الله في قلبه نوراً يرى فيه الحق حقاً والباطل باطلاً:

أيها الأخوة،

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى)

الهدى، تصور الهدى ضوءاً كشافاً أمامك، الحفرة تراها تبتعد عنها، الأفعى تراها تقتلها، الأكمة تراها تحيد عنها، الحفرة تراها كأنك تستعين بضوء كشاف، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية:28]

المؤمن يستنير بنور الله، المؤمن يلقي الله في قلبه نوراً، يرى فيه الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى فيه الخير خيراً والشر شراً، المؤمن يهتدي بنور الله.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

هذا الدين يدينون له كل البشر، يخضعون له، فأنت حينما يقال لك: 2+2=4 تسكت، لو قلت 2+2=7 هناك من يعترض، ما هو الدين؟ الذي تخضع له عن قناعة، تخضع له عن إيمان، تخضع له عن فطرة، تخضع له عن اقتناع، دان له أي خضع له، فالإنسان يخضع للحق الذي من عند الله.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل على منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف لعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الحق الشيء الثابت والهادف والباطل الشيء الزائل والعابث:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)

الحق الشيء الثابت والهادف، والباطل الشيء الزائل والعابث، أحياناً ينشأ سيرك يأتون بفيلة، وبعض الوحوش، وبعض الألعاب البهلوانية، هذا السيرك مؤلف من خيمة، لأنه مؤقت، أما حينما تبني جامعة فهذه تبنى لتبقى، هناك جامعات بنيت من خمسمئة عام، وهي شامخة إلى الآن، فالفرق بين الحق والباطل، الحق الشيء الثابت الدائم والهادف، الجامعة مهمتها الأولى أن تربي قادة للأمة جامعة، أما السيرك فهدفه المتعة، متعة آنية، لذلك المكان قماش، ألعاب بهلوانية، ألعاب الحيوانات، هذه هو السيرك، الحق الشيء الثابت والهادف، والباطل الشيء الزائل والعابث، قال تعالى:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

أي هذا النظام الذي رفع شعار لا إله في الشرق استمر كم سنة؟ سبعون عاماً، بعدئذٍ انهار وانتهى، تداعى من الداخل من دون حرب، لأنه باطل،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الحق الثابت والهادف، والباطل الزائل والعابث، الباطل عبث والباطل زائل، والحق الثابت والهادف.

إذاً:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

، وأي نظام وضعي فيه ثغرات، هذه الثغرات تكتشف بعد حين، ولا يرضاها الإنسان.

حاجة العالم إلى الإسلام لا عن إيمان و اعتقاد ولكن عن مصلحة:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

العالم الآن بحاجة إلى إسلام، لا عن إيمان، ولا عن اعتقاد، ولكن عن مصلحة، فلذلك - وصدقوا ولا أبالغ - البلاد القوية من دون أن تشعر ومن دون أن تريد تطبق الإسلام كمصلحة، أي الإيجابيات في العالم الغربي إيجابيات إسلامية، لأن هذا العالم أراد أن يكون قوياً أعطى الإنسان حقه، عندما أعطاه حقه تماسك المجتمع، وأي نهضة لا تعتمد هذا الدين العظيم لا يكتب لها النجاح.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

أي اشكروا الله عز وجل، نحن إيماننا ثابت وهادف، إيماننا لا يتزعزع، الأحداث كلها التي تجري في الأرض لصالح هذا الدين، وفي النهاية الذي أراده الله لهؤلاء المسلمين أراد لهم الخير، أراد لهم القوة

والتفوق، وكل الأحداث تجري لصالح المسلمين، مع مد وجزر أحياناً.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

سبحان الله! مرة كنت في مدينة، يمكن هي أقصى مكان في الأرض نحو الجنوب، اسمها ملبورن، في أستراليا، هذه المدينة على الساحل الجنوبي لأستراليا، وأستراليا أخفض قارة في الأرض، أي لا يوجد مدينة بعدها إطلاقاً إلا القطب الجنوبي، بهذه المدينة مسجد، و إذاعة إسلامية، و جالية إسلامية، ماذا قال النبي الكريم؟

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[خرجه الطبراني والإمام أحمد عن تميم الداري]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم و مع من يعرف:

لذلك الله عز وجل حينما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وأينما تذهب، هناك بلاد كثيرة زرتها، من كندا إلى البرازيل إلى السويد إلى النرويج إلى ألمانيا إلى إيطاليا إلى فرنسا أينما ذهبت هناك إسلام، هناك دعوة دينية، وجالية إسلامية، ومساجد، وإذاعة، و مؤلفات.

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

هذا دين الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى ترك لنا أن ننصره.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد الآية:4]

فهنيئاً لمن سمح الله له أن يدعو إليه، وهنيئاً لمن وفقه الله في الدعوة إلى الله، لأن الله تعالى يقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

وسوف أوضح لكم أن هناك دعوة إلى الله هي فرض عين على كل مسلم، لا يعفى منها إنسان، فرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف فقط، سمعت درساً لك زوجة حدثها عنه، سمعت خطبة تأثرت بها حدث عنها شريكك بالمحل، أقرباءك، اجعل حديثك في أثناء الأسبوع متعلقاً بما سمعت من حق.

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذه دعوة إلى الله تعد فرض عين على كل مسلم.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

والله الآن أيها الأخوة، كنظام يحقق مصالح البشر، ليس هناك إلا الإسلام:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

من لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله:

أيها الأخوة، أنت حينما تعتقد أن الدعوة إلى الله فرض عين، لا بدّ من أن تدعو إلى الله، أقول لك مثلاً: أنت لماذا تصلي؟ طبعاً هناك إجابة سهلة جداً، لأنها فرض، هل تعتقد يقيناً أن الدعوة إلى الله فرض عين؟ تسألني هل هناك دليل؟ الدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية:108]

فإن لم تدعُ إلى الله على بصيرة، قطعاً أنت لست متبعاً لرسول الله، والآية تقول:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية:31]

الدعوة إلى الله فرض عين في حدود ما تعلم، سمعت درساً، سمعت تفسير آية، سمعت خطبة، بلغ مضمونها لمن حولك، زوجتك، أولادك، أقرباؤك، شركاؤك بالعمل.

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذا أول دليل، الدليل الثاني:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر]

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

أي ادعوا إلى الله، هي فرض عين على كل مسلم، أما فرض الكفاية فيحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، أي إنسان متخصص بالشريعة بعمق كبير، هذا إنسان آخر، هذا قام بما يسمى بفرض الكفاية، أما فرض العين فعلى كل واحد منكم.

((بلِّغُوا عني ولو آية))

حضرت درساً، سمعت خطبة، قرأت مقالاً، تأثرت، بلغ هذا المقال لمن حولك.إذاً:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

وسوف ترون أن هذا الدين هو الدين الذي سوف يسود العالم،

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (29-70) : تفسير الآيات 34 - 35 ،التعميم من العمى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-12-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن علمنا الموضوعية و عدم التعميم:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة الكرام، أول ملمح في هذه الآية الموضوعية الرائعة التي نلمحها في القرآن، لم يقل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا إن الأحبار والرهبان، هذا تعميم، والتعميم دائماً يجانب الحقيقة، والتعميم من العمى، وأنا أنصح أخوتي الكرام ألا تعمم، ألا تطلق حكماً عاماً على كل الناس، قل: إن بعض الناس.

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

، وإن من أهل الكتاب من يفعل كذا وكذا، القرآن كلام خالق الأكوان، علمنا أن نأتي بأحكام موضوعية، أحكام متوازنة، فلذلك أحياناً يوصف الأمي والجاهل بأحكامه التعميمية.

مثلاً زار إنسان مدينة فانزعج من بعض المعاملات، يقول: كلهم كذابون، كلهم غشاشون، علامة الأمية والجهل التعميم، والإنسان المؤمن والمثقف لا يعمم، والقرآن علمنا الموضوعية.

التعميم من العمى وهو من خصائص الجهلاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

لو تصورنا أن الآية يا أيها الذين آمنوا إن الأحبار والرهبان، وكان هناك حبر- الحبر من علماء اليهود، والرهبان من عباد النصارى- قرأ هذه الآية على هذا الشكل: إن الأحبار والرهبان، ولم يكن كذلك يشك في القرآن، القرآن يعطي أحكاماً موضوعية.

(كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

عود نفسك ألا تطلق أحكاماً عامة، لا تقل كل أصحاب هذه الحرفة غشاشون، إياك أن تقول هذا، لأن التعميم من العمى، والتعميم من خصائص الجهلاء، والتعميم فيه فجاجة وعدم نضج، والتعميم يبعدك عن الموضوعية.

أيّ منفعة بنيت على مضرة فهي حرام وأي منفعة بنيت على منفعة فهي حلال:

أيها الأخوة،

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

إذا قال الله عز وجل: يأكلون أموال الناس بالباطل، معنى ذلك أن هناك أكلاً لمال الناس بالحق، كيف؟ أنت فتحت بقالية، ذهبت إلى السوق المركزي فجراً، واشتريت خمسين صنفاً من الخضراوات والفواكه، وجئت بها إلى محلك التجاري، جيرانك استيقظوا صباحاً، مشوا أمتاراً، وجدوا الفواكه والخضار، طبعاً بسعر أغلى من سعر التسوق، هذا الفرق بين التسوق وبين البيع، هي أرباح التاجر، هو خدمك وذهب للسوق المركزي وجاء بهذه الأصناف، أضاف عليها ربحاً، باعك إياها وأنت إلى جانب بيتك، قدم لك خدمة، أكاد أقول: إن الدخل الحلال فيه صفة رائعة أنه منافع متبادلة، البائع انتفع بهذا الفارق بين سعر الشراء والبيع، وأنت انتفعت وجدت حاجتك إلى جانب البيت، أنت انتفعت بوجود الحاجات إلى جانبك، وهو انتفع بهذا الفرق بين الشراء والبيع، فكل منفعة متبادلة في الأعمّ الأغلب تنطوي تحت الحلال.

لكن أوضح سرقة، المنتفع هو السارق وصاحب المال هو الخاسر، إنسان انتفع وإنسان خسر، وكأن الحرام منفعة يقابلها خسارة، مضرة، منفعة قامت على مضرة، لو تتبعت الأموال الحرام، الربا، السرقة، الاحتيال، الغش، لوجدت أن مالاً أُخذ بغير حق، منفعة انتفع بها البائع بناها على مضره، ضرّ بها الشاري، أي منفعة بنيت على مضرة في الأعمّ الأغلب هذه الطريقة في كسب المال تصنف تحت الحرام، وأي منفعة بنيت على منفعة في الأعمّ الأغلب هذه العلاقة التي من شأنها أنها تنضوي على منفعتين أو على منافع متبادلة تنضوي تحت الحلال.

الطرائق لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى وكلها مبنية على الوهم والتضليل:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

يقدم له وهماً، يقدم له فكرة لا أصل لها، يلقي في روعه أنه بهذا المبلغ سيغفر له، لذلك رجال الدين في العصور الوسطى، باعوا صكوك الغفران، تدفع ثمن الصكوك تغفر لك كل ذنوبك، هذا الذي أعطاك هذا الصك هل يملك أن يغفر لك كل ذنوبك؟ دائماً أكل الأموال بالباطل لها مليون طريق وطريق، والله الطرائق لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى، وكلها مبنية على الوهم، والتضليل، والإيهام، وأساليب لا يقبلها الله عز وجل، تدليس، تضليل، إيهام، كذب، غش.

لذلك البطولة أن يكون دخلك حلالاً، إن كان الدخل حلالاً أنت من أسعد الناس، دائماً وأبداً الدخل الحرام له نتائج سيئة جداً، هذا اللحم الذي ينبت من حلال يبارك الله فيه، هناك لحم ينبت من سحت، من مال حرام، فهذا الأب الذي يأكل المال الحرام ويطعم أولاده هناك مشكلة في حياته كبيرة.

والله التقيت بإنسان، قال لي: عمري ست و تسعون سنة، البارحة أجريت تحليلاً كاملاً للدم والبول، سبحان الله**!** كله طبيعي، لا يوجد شيء خلاف النسبة الطبيعية، ثم قال لي: والله ما أكلت بحياتي قرشاً حراماً، ولا أعرف الحرام، أول حرام حرام المال، وثاني حرام حرام النساء.

الاستقامة عين الكرامة:

لذلك:

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك في عن بلاغ مالك]

الاستقامة عين الكرامة، كما أنه في التجارة يمكن أن تضغط التجارة بكل نشاطاتها، والله فيها أكثر من مئة ألف نشاط، نشاط متنوع، شراء، بيع، دعاية سفر، أخذ وكالات، إنشاء معارض، ترويج بضاعة، طبع فواتير، شراء مستودعات، أكثر من مئة ألف نشاط، كل هذه النشاطات تضغط في كلمة واحدة، إنها الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، قياساً على هذا وكل نشاطات الدين، تؤلف كتاباً، تلقي محاضرة، تنتسب لمعهد شرعي، تذهب للحج و للعمرة، لو هناك مئة ألف نشاط ديني، كل هذه النشاطات يمكن أن تضغط بكلمة واحدة إنها الاستقامة، فإن لم تستقم لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، دين من دون استقامة ثقافة، عادات، خلفية إسلامية، أرضية إسلامية، طموحات إسلامية، اهتمامات إسلامية، مشاعر إسلامية، بطاقة إسلامية، زخرفة إسلامية، أقواس إسلامية، الدين شيء والإسلاميات شيء آخر، الآن الدول مهما انحرفت، مهما انتشر فيها الفسق والفجور، يقال لك: بلد إسلامي، لأن فيه أبنية إسلامية، و بطاقات إسلامية، و معالم إسلامية، وآثار إسلامية، الدين شيء آخر، الدين منهج يومي، لذلك لا تهتم كثيراً بما يقال، أرضية إسلامية، خلفية إسلامية، اهتمامات إسلامية، مؤلفات إسلامية، مشاعر إسلامية، فن إسلامي، الإسلام شيء آخر، الإسلام منهج مطبق، إن لم يطبق أصبح الدين ثقافة، وأصبح الدين

تراثاً، وأصبح الدين من منجزات الأمة الفكرية.

تحري الحلال وغض البصر عن محارم الله حصنان يقيان المؤمن من أخطر انحرافين:

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

فإذا كان الحبرُ أو الراهب يأكل المال الحرام فما قولك ببقية أتباع هذا الدين؟ أي يمكن أن تضغط كل المعاصي والآثام في بندين، بند متعلق بالمال، وبند متعلق بالنساء فقط، كل الفضائح بالعالم بتاريخ البشرية فضائح مالية، أو جنسية، شهوتا المال والجنس وراء جميع الانحرافات.

فلذلك المؤمن حينما يحصن نفسه من موضوع المال الحرام، والعلاقة الآثمة المحرمة مع النساء، نجا من أكبر مطبات الإنسان، أكبر مطبين ينتظران الإنسان مطب المرأة ومطب المال، ولو استعرضت الفضائح في تاريخ البشرية لا تزيد عن نوعين من الفضائح، فضيحة مالية اختلاس، فضيحة جنسية زنى فقط.

لذلك تحري الحلال وغض البصر عن محارم الله حصنان يقيان المؤمن من أخطر انحرافين في الحياة، أما أكل المال بالحق، درست اختصاصاً، صرت طبيباً، جاءك مريض عالجته، تقاضيت الأجرة، هذه تأخذها بالحلال، درست هندسة، أنشأت مخططاً لبناء، تلقيت الأجر، درست صيدلة، فتحت صيدلية، بعت الدواء، تلقيت ربحاً، كل حرفة مقبولة مادامت مشروعة، لذلك في الإسلام بدائل، ما حرم عليك شيء إلا جعل لك بدائل له.

مثلاً يقول لك: نحن بحاجة إلى التأمين، هناك تأمين محرم، التأمين التجاري محرم، والتأمين التعاوني مندوب، تصور مئة تاجر أقمشة، عملوا صندوقاً للتأمين، وضع كل واحد بهذا الصندوق مئة ألف، أي عشرة ملايين، عشرة ملايين هذا مال لهم وظفوه بمشاريع، إن صار هناك عطب لأحد التجار، أخذ من هذا الصندوق تعويضاً، تأمين تعاوني، هذا من أرقى أنواع التأمين، أنت مالك محفوظ لك، وقد يستثمر، وإذا أصاب أحد زملائك مصيبة يدفع من هذا الصندوق، لا يوجد أروع من التأمين التعاوني، والآن بدأ ينتشر، هذا حلال، بل مندوب، لا تصدق شيئاً حرمه الله ليس له بديل حلال.

أنواع المال الحرام لا تعد ولا تحصى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أردت أن تستوعب وأن تستقصي أنواع المال الحرام، والله لا تعد ولا تحصى، يكفي أن توهم الشاري أن هذه البضاعة سوف يمنع استيرادها، والفكرة ليس لها أصل، أنت أوقعته بحالة نفسية قلقة، فاشترى ولم يسأل عن السعر، أنت استغليت قلقه ورفعت السعر، هذا مال حرام، والله أكاد أقول لكم: أكثر من تسعين بالمئة من طريقة كسب المال في العمل التجاري المحرم مبني على الوهم، أو الاحتكار، أو الإيهام، أو الغش.

لذلك هذا الإنسان الذي يغير الواقع في البيع والشراء لا يظن نفسه ذكياً، أحياناً إنسان يجمع مالاً حراماً خلال عشر سنوات، يذهب بمصادرة واحدة، يذهب بكارثة واحدة، أنت جمعتهم خلال عشر سنوات و ذهبوا بليلة واحدة.

والله إنسان أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، احترق محله التجاري، فأنا أمامه والمحل يحترق، لكن أظنه صالحاً، قال لي: أنا أعمل بهذا العمل منذ ثلاثين سنة، لعلي أكلت مالاً حراماً بهذه السنوات، فجمع الله لي إياهن بهذا الحريق، وجدته راضياً، هناك عدل إلهي، لعلي أكلت مالاً حراماً خطأ بالبيع والشراء، عنده معمل نسيج، وعنده محل للبيع، محل البيع احترق، فخسر حوالي عشرة ملايين ليرة بضاعة، قال لي: هناك خطأ مني، لعلي أكلت مالاً حراماً بثلاثين سنة.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة:

يجب أن تعتقد يقيناً أنه لا يوجد مصاب ينزل بلا سبب، ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة، حاول ألا تجامل نفسك، حاول ألا تحابي نفسك، الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً)

ما قال إن كل الأحبار والرهبان، تعلم الموضوعية، تعلم ألا تطلق أحكاماً عامة، تعلم ألا تتهم الكل، لا يتهم الكل إلا الأحمق، وكلما ارتقت علاقتك الموضوعية ترتقي عند الله، وكلما عممت تعميماً سريعاً باطلاً تسقط من عين الله.

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

الباطل الشيء الزائل، والباطل الشيء العابث، العبث والزوال من صفات الباطل، والثبات والنماء من صفات الحق، سبحان الله! إذا كان المال حلالاً فالمال ينمو وينمو وينمو، يقول لك: بدأنا بمئة ألف، الآن معنا مئات الملايين، هناك مال حلال لأنه ينمو، يأتي إنسان يحاول أن يكون ذكياً وهو بهذا من أغبى الأغبياء لأنه أكل أموال الناس بالباطل، وجمع ثروة طائلة، فوقع في أخطاء مدمرة، وخسر جميع ماله،

وأدبه الله.

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تجد خيراً في المعصية، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تجد سوءاً في الطاعة، الطاعة كلها خير، والمعصية كلها شر، لكن لحكمة بالغة قد يكون الشر غير واضح، لكن الواضح هو المبلغ الكبير، هذا المبلغ الكبير قد يُدفع على صحة الإنسان، بتعبير آخر الله عز وجل عنده ملايين الخيارات، تجمع مالاً كثيراً بطريق غير صحيح مرض واحد يمنعك من التمتع بهذا المال.

كان عندي طالب له قريب صاحب دار سينما، فهو يأتي بالأفلام الساقطة كي تروج مشاهدتها عند الناس، وهذه السينما من الدرجة الخامسة أو العاشرة، وانحرافات، وهو في الأربعينات صار معه ورم خبيث، فزاره طالبي لأن هذا الشخص يكون خاله، بكى وقال له: أنا حاولت عن طريق الأفلام أن أجمع ثروة طائلة لأتمتع فيها بخريف عمري، ها قد وافتني المنية بوقت مبكر.

أي لا تظن أنه يمكن أن تقوم بعمل يؤذي الناس وتنجو من عذاب الله.

من صفات المجتمع المنحرف أكل أموال الناس بالباطل وصدّ عن سبيل الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إن أردت أن تصف المجتمع المنحرف، صفتان جامعتان مانعتان، أكل أموال الناس بالباطل، وصدّ عن سبيل الله، مال حرام، ومحاربة للدين، وهذا عمل العالم كله الآن، البنوك، والمصارف، والأموال الربوية، والابتزاز بوسائل مشروعة وغير مشروعة، وصد عن ذكر الله.

أيها الأخوة الكرام،

(إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

المنفعتان المتبادلان من خصائص المال الحلال، والمنفعة التي تقوم على مضرة من خصائص المال الحرام، من أكل أموال الناس بالباطل أن تستخدم الإيهام، والكذب، والدجل، ومع أكل أموال الناس بالباطل هناك صدّ عن سبيل الله.

على الإنسان أن ينطلق في كسب المال لا من حاجته بل من قدرته:

ثم يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

أيها الأخوة من ملامح هذه الآيات أن الإنسان ينبغي أن يكسب لا بقدر حاجته بل بقدر إمكاناته، لماذا؟ لو كسب بقدر حاجاته وأنفق الذي كسبه على حاجاته هناك أشخاص كُثر لا يملكون القدرة على كسب المال، هؤلاء يموتون من الجوع، فكل مؤمن ينبغي أن يكتسب بحسب قدرته على الكسب، والفائض ينفقه بحسب أموال الزكاة أو الصدقة على من لا قدرة له على كسب المال فصار هناك توازن بالمجتمع.

فدائماً يجب أن تنطلق في كسب المال لا من حاجتك بل من قدرتك، مادام الإنفاق واجباً، إذاً ينبغي أن تكتسب المال بطريقة تزيد عن حاجتك كي تعطي الفقراء والمساكين.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

أيها الأخوة، الله عز وجل جعل من الذهب والفضة أصلين للعُملات، الآن حتى الورقة العملية أصلها ذهب أو فضة، أي مغطاة في المؤسسات النقدية بعدد من الأوزان الذهبية تكافئ هذه الأوراق الورقية المطبوعة.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

معنى ذلك أن الإنفاق ينبغي أن يكون في سبيل الله، والإنفاق كلمة واسعة جداً، أي عمل خيري في سبيل الله، أي عمل دعوي في سبيل الله، أي عمل تعليمي في سبيل الله، أي سدّ لحاجات الفقراء في سبيل الله، أي مشروع ينتفع منه الفقراء في سبيل الله، أي مشروع تعليمي، أي مشروع صحي، لذلك الطرائق طرائق إنفاق المال في سبيل الله لا تعد ولا تحصى، ومن أراد العمل الصالح والله أمامه مليون طريق وطريق.

مرة لفت نظري إنسان عنده بنت كلما جاءه خاطب لا يرجع وهي صالحة جداً وحافظة لكتاب الله، فاشترى لها بيتاً وجعل هذا البيت لها، فجاءها خطاب كثر، شاب لا يوجد عنده بيت، وهي فتاة معها بيت، فهذه الفكرة راقت له فأنشأ بناء، وكل فتاة ممن يعرفها صالحة، حافظة لكتاب الله، محجبة، يكتب لها بيتاً صغيراً فتتزوج سريعاً، انظر هذا العمل لا يأتي ببال إنسان، هيأ زواجاً لفتيات مؤمنات، طاهرات، عفيفات، حافظات لكتابه.

والله الأعمال الصالحة لها طرائق، وأساليب، وأنواع، وصور، لا تعد ولا تحصى، أنا أجمعها بهذه الكلمة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، والله لا يوجد إنسان من الحاضرين وأنا معكم، إلا بإمكانه ضمن عمله أن يعمل عملاً صالحاً، ضمن بيئته، ضمن بيته، ضمن إمكانيته، ضمن أوضاعه،

ضمن أوضاعه العامة، له أن يعمل عملاً صالحاً.

من عاش تقياً عاش قوياً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

سمعت عن أشخاص كثيرين عاشوا سنوات طويلة، و هناك عالم من علماء الشام بلغ من العمر ثمان و تسعين سنة، وكان منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، حينما يُسأل يا سيدي! ما هذه الصحة التي حباك الله بها؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

البطولة في خريف العمر، فالذي نشأ بصلاح وورع وتقى له عند الله خريف عمر كبير.

أخواننا الكرام، لا تبتعدوا كثيراً، مرة أقيم حفل لعلماء الشام، عدد كبير منهم تجاوز المئة، ويتمتع بأعلى درجات الصحة، سبحان الله! من علامات التوفيق أن يطول العمر، ويحسن العمل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

أشخاص كثيرون والله التقيت بهم وحدثوني عن استقامتهم، من ثمار هذه الاستقامة أنهم في أعلى درجات، في أكبر أعمارهم كانوا سعداء، ويتمتعون بصحة جيدة.

مهمة الإنسان أن يربي ابناً صالحاً يحسن إدارة المال من بعده:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)

هذا إنسان أحمق يعيش فقيراً ليموت غنياً، إنسان كان شديداً بالإنفاق شدة مبالغ بها، توفي ترك مئات الملايين في السبعينات، فصديق المتوفى رأى ابن المتوفى، شاب، قال له أين ذاهب؟ اسمعوا لي بهذه الكلمة قال له: ذاهب لأسكر على روح أبي، الإنسان إذا لم يربِ أولاده وترك مالاً، يكون قد ترك المال للفسقة، وقد يتألم ألماً لا حدود له، لذلك تربية الأولاد أهم بألف مرة من جمع المال، هناك و الله أولاد صالحون، والله ترك لهم آباؤهم ملايين مملينة، كلها أنفقت في مشاريع خيرية، وأعمال صالحة، كل بطولتك أن يرثك ابن مؤمن، هذا يحسن إدارة المال من بعدك، هذا يجعل هذا المال في صحائفك.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

المال لا يمكن أن يكون هدفاً إن جعلته هدفاً أخطأت التصرف، المال وسيلة، يقول أحد الصحابة: حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، هاتان مهمتان كبيرتان للمال.

النار عاقبة من كنز الذهب و الفضة:

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذا العذاب:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

[سورة التوبة الآية:35]

إنسان فقير سألك سؤالاً، فقلت له بجبهتك: لا يوجد معي، هذه الجبهة، وأحياناً تعطيه طرف جسمك، الجنب، وأحياناً تدير له ظهرك، فالأجزاء الثلاث من الجسم التي عبرت على عدم الإنفاق الجبهة والجنب والظهر:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

(هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

[سورة التوبة]

والله أيها الأخوة عندي قصص عن أناس تركوا أموالاً طائلة، وتركوا ذرية فاسدة، فهذه الأموال أنفقت في المعاصي والآثام، هم حصّلوها بكد وتعب شديد، وأولادهم أنفقوها في المعاصي والآثام. لذلك ورد أن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، وأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي.

المال أحد أكبر الأشياء التي سوف يحاسب عليها الإنسان يوم القيامة:

أخواننا الكرام، أحد أكبر الأشياء التي سوف تحاسب عليها المال من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟ معك جواب؟.

يروى أن إنساناً من كبار أثرياء مصر توفي، وأولاده علموا أن أصعب ليلة للميت هي أول ليلة، فخافوا عليه، فخطر في بالهم أن يكلفوا إنساناً لينام معه أول ليلة، أحضروا إنساناً فقيراً جداً يكاد يموت من الجوع، أعطوه عشرة جنيهات لينام في هذه الليلة مع أبيهم في القبر، جاء الملكان فرأيا شخصين قال أحدهما للآخر: عجيب، هناك اثنان في القبر، يبدو أن الحي خاف فتحرك، فقال أحدهما للآخر: هذا حي وليس بميت، بدؤوا به فأجلسوه، من شدة فقره أحضر كيساً، فتحه من مكان من أجل رأسه، ومن طرفيه من أجل يديه، وربطه بحبل - طبعاً القصة الرمزية – فلما أجلسوه بدؤوا بالحبل، هذا الحبل من أين أتيت به؟ قال لهم: من البستان، كيف دخلت للبستان؟ لم يعرف الجواب فضربوه ضرباً مبرحاً، فهذا عندما خرج من القبر، قال: أعان الله أباكم.

والله الذي لا إله إلا هو سوف نحاسب عن كل شيء، والله عن ابتسامة بغير محلها، إنسان صديقك قال لك: ماذا نفعل إذا الإنسان لا يغش لا يعيش؟ إن قلت له: والله معك حق، أو هززت برأسك أن هذا الكلام صحيح، فهذا إثم كبير، والله لا أبالغ سوف نحاسب عن كل شيء، ما لم نستغفر، ونتوب، القضية ليست سهلة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

بجبهته رفض، فلما ألح أعطاه جنبه، فلما ازداد في الإلحاح أعطاه ظهره.

أشقى الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً:

(فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، والله هناك أشخاص عاشوا حياة الكفاف وتركوا مئات الملايين، والله لا أبالغ أحد أخواننا الكرام، كافح التسول في الشام لسنتين متتاليتين قال لي جمعت تقريباً 1500ألف و خمسمئة متسول، حقق معهم، الفقراء منهم خمسة أشخاص فقط، والبقية معهم مليون بالبنك أو سبعمئة ألف أو ثمانمئة ألف، ومظهره متسول.

لذلك التوجيه القرآني أن الذي يستحق منك صدقة:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

[سورة البقرة الآية:273]

أخواننا الكرام، الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ)

هذه النقطة تعلمنا الموضوعية، ليس كل الأحبار والرهبان،

(إِنَّ كَثِيراً)

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

بطرق غير مشروعة، بالإيهام، والكذب، والدجل،

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذا أشقى الناس، عاش فقيراً ليموت غنياً.

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (30-70) : تفسير الآية 36 ، فوائد الأشهر الحرم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2010-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان قبل حمل الأمانة وهي نفسه التي بين جنبيه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء، هذا الكون يشف عن وجود الله، وعن كماله، وعن وحدانيته، هذا الكون له خالق عظيم، ورب كريم، ومسير حكيم، هذا الإله العظيم خلق المخلوقات وعرض عليها الأمانة، فقال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

الإنسان قبل حمل الأمانة، ما الأمانة؟ نفسه التي بين جنبيه.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس]

الإنسان بعد أن حمل الأمانة كان المخلوق الأول عند الله عز وجل :

الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا، أعطانا هذه النفس كأمانة بين أيدينا، فالنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، والعقل كل العقل، بأداء الأمانة وبطاعة الله، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

أنت حينما تلتقي في أيام العيد بطفل صغير، يقول لك: معي مبلغ عظيم، والده مدرس، أو مهندس، أو طبيب، تقدر هذا المبلغ العظيم الذي تكلم عنه الطفل بألف ليرة، أما إذا قال مسؤول كبير في البنتاغون: أعددنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً، يمكن أن تقدر المبلغ العظيم بالنصف الثاني بمئتي مليار دولار، فإذا قال خالق الأكوان ورب الوجود:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

أي إذا شخص منكم حضر درس علم، وعرف شيئاً عن ربه، وشيئاً عن الحياة الدنيا، وشيئاً عن الآخرة، وتحرك باتجاه هذا الهدف،

(فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

يكون قد حقق الهدف من وجوده.

فلذلك عندما الله عز وجل خلق السماء والأرض وعرض عليها الأمانة

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

كان الإنسان بعد أن حمل الأمانة المخلوق الأول عند الله، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة]

إطلاقاً.

العبادة علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

أيها الأخ الكريم، اعتقد يقيناً أن الفرصة أمامك وأنت في الحياة الدنيا كي تكون أفضل الخلق جميعاً، إذا حملت الأمانة، وأطعت الله ورسوله، هذا ليس كلام البشر، هذا كلام خالق البشر،

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

إذاً الله عز وجل جاء بك إلى الدنيا كي تعبده، والدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

لو أرسلنا الآن طالباً إلى فرنسا لينال الدكتوراه، في باريس بالذات، مدينة كبيرة مترامية الأطراف، يسكنها عشرة ملايين إنسان، فيها مدارس، فيها جامعات، فيها معامل، فيها ملاه، فيها دور سينما، فيها مؤسسات، فيها دوائر حكومية، فيها متنزهات، فيها مسارح، فيها نوادي ليلية، ماذا نقول لهذا الطالب الذي أرسل لهذا البلد لينال الدكتوراه؟ علة وجوده الوحيدة أي علاقته بهذه المدينة علاقة واحدة نيل هذه

الشهادة.

أيها الأخوة الكرام، هل تصدقون أن وجودنا في الدنيا له هدف واحد هو أن نعبد الله

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وأنت حينما تعبد الله حققت المراد من وجودك، حينما تعبده وتشكره، أو حينما تعرفه وتشكره، لذلك يقول تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية:147]

لمجرد أن تعرفه، وأن تشكره، حققت الهدف من وجودك، وكنت مع المخلوقات الأولى،

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

والله عز وجل ما كلفك فوق ما تطيق، قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية:286]

وما من شهوة أودعها الله فيك إلا جعل لها قناة نظيفة تسير خلالها، اعتقد يقيناً أن ليس بالإسلام حرمان إطلاقاً، لا يوجد حرمان، لكن هناك تنظيماً.

الكون كله ينطق بوجود الله وبوحدانيته وبكماله :

إذاً الله عز وجل خلق الإنسان، وجاء به إلى الدنيا من أجل أن يعبده، كيف يعبده؟ ينبغي أن يعرفه أولاً، كيف يعرفه؟ جعل الله الكون كله شافاً عن وجوده، وعن كماله، وعن وحدانيته، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فالكون كله ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وبكماله.

هناك طائر اسمه البطريق يعيش في القطب الشمالي والجنوبي، هذا الطائر يمشي على رجليه كالإنسان تماماً، حينما تضع أنثاه البيضة، يحملها على رجليه، ويغطيها بريشه، ويبقى أربعة أشهر لا يذوق شيئاً من أجلها، ومعه بحوصلته كمية غذاء دسمة، حينما يخرج هذا المخلوق من البيضة، يفتح منقاره يضع الأب الطعام في منقاره، أربعة أشهر لا يذوق شيئاً، من أجل أن تبقى البيضة على قدميه مغطاة بريشه، هي ومضة من ومضات الله عز وجل.

عظمة الله وحكمته من دوران الأرض على محور مائل على مستوي دورانها :

والله أيها الأخوة، لو أمضينا كل أعمارنا في اكتشاف عظمة الله في خلقه، شيء لا ينتهي، فلذلك عندما خلق الله عز وجل الإنسان وعرض عليه الأمانة، وقبل حمل الأمانة، كان المخلوق الأول، فجعل الله له

الكون مقوماً أولاً يعينه على طاعة الله، كل شيء في الكون ينطق بوجود الله، وبوحدانيته، وبكماله.
فالأرض تدور حول الشمس دورة كل عام، من هذه الدورة تنشأ الفصول الأربع، صيف، شتاء، خريف، ربيع، تدور دورة حول نفسها من هذه الدورة ينشأ الليل والنهار، لكن تصور لو أن الشمس هنا والأرض هنا، لو أن الأرض تدور على محور موازي لمستوي دورانها هكذا تدور تنتهي الحياة، لأن أول قسم حرارته تقدر بثلاثمئة و خمسين فوق الصفر، وثاني قسم حرارته تقدر بمئتي و سبعين تحت الصفر، هي تدور لكن على محور يوازي مستوي الدوران، أما هذه الأرض تدور هكذا، لو أنها هكذا الصيف دائم، والشتاء دائم، والربيع دائم، والخريف دائم، تدور بمحور ميله يقدر بثلاث و ثلاثين درجة، من دوران الأرض على محور ليس موازياً على مستوي دورانها، وليس متعامداً مع مستوي دورانها، ينشأ الليل والنهار والفصول الأربع، فكلما قرأت في القرآن:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

[سورة فصلت الآية:37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت الآية:37]

الليل والنهار أصل الزمن في حياتنا :

الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي مليون وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جوف الشمس، وبين الأرض والشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلومتر، وفي أبراج السماء وما أكثرها درب التبابنة مجرتنا، المجموعة الشمسية بأكملها تساوي نقطة على شكل مغزلي، مجرة درب التبابنة شكلها مغزلي، أي بيضوي، عليها نقطة واحدة هي المجموعة الشمسية بأكملها، والأرض أحد الكواكب الصغيرة في المجموعة الشمسية، هذا الإله العظيم يعصى؟ ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟ خلق الإنسان، وخلق له الكون، وهذا الكون ينطق بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، ويؤكد أن له خالقاً عظيماً، ومربياً كريماً، ومسيراً حكيماً، شاءت حكمة الله أن يكون من دورة الأرض حول نفسها الليل والنهار،

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

وشاءت حكمة الله أن يكون من دورة الأرض حول الشمس الفصول الأربع، هذه من آيات الله، لذلك دورة الأرض حول نفسها وتشكل الليل والنهار أصل الزمن، لولا دورة الأرض حول نفسها لما كان الليل والنهار، ولولا دورة الأرض حول الشمس لما كانت الفصول الأربع، صار هناك شهر، ثلاثون يوماً، أنت إذا نظرت إلى الشمس لا تعرف في أي يوم من أيام الشهر أنت، لكن تعرف إذا نظرت إلى

الشمس في أي وقت من أوقات اليوم، الجواب واضح؟ إن نظرت إلى الشمس، إن كانت في كبد السماء كان الوقت ظهراً، قبل أن تغيب قبيل المغرب، بعد الشروق ضحى، إذا نظرت إلى الشمس تعرف أين أنت من اليوم، لكن إذا نظرت إلى القمر تعلم أين أنت من الشهر، إذا كان هلالاً رفيعاً في أول الشهر، بدراً في منتصفه، هلالاً معكوساً في آخره،

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة التوبة]

قالوا: دورة الأرض حول الشمس تشكل العام بأكمله، ودورة الأرض حول نفسها تشكل الليل والنهار، الليل والنهار أصل الزمن في حياتنا، وأتصور أنه لو لم يكن هناك ليل ونهار، في سنة ألفان و عشرة الرقم ليس له معنى، لو ألغي دوران الأرض حول نفسها لألغي الزمن كلياً، على كلٍّ الموضوع دقيق له تفصيلات رائعة جداً.

في القرآن الكريم آية تشير إلى أكبر نظرية في الفيزياء وهي النظرية النسبية :

طبعاً أينشتاين اكتشف أن السرعة المطلقة هي سرعة الضوء، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلومتر، الحقيقة هناك آية في القرآن تشير إلى أكبر نظرية في الفيزياء، هي النظرية النسبية، هذه جاء بها أينشتاين، هذه النظرية قلبت مفاهيم الفيزياء في الأرض، هذه النظرية تقوم على أن السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء، أي أعلى من الضوء لا يوجد، هذه السرعة المطلقة التي هي سرعة الضوء تعني أن كل شيءٍ سار بسرعة الضوء أصبح ضوءاً، الضوء ليس له كتلة وحجمه لا نهائي، أي شيءٍ سار مع الضوء أصبح ضوءاً، لذلك الآية الكريمة:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

[سورة الحج]

لو أخذنا مركز الأرض، الأرض كرة لها مركز، ولو أخذنا مركز القمر و وصلنا بينهما بخط، لكان هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، هذا الخط نعرف طوله من نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما، هذا نصف القطر نضربه باثنين نحصل على القطر، نضربه بالبي أي 3.14 نحصل على المحيط هذا باليوم، بالشهر نضرب بثلاثين، بالسنة نضرب باثني عشر، بألف سنة نضرب بألف، ابنك الصغير وبدقائق معدودة يحسب لك كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، واضح؟ لو قسمت هذا الرقم على ثواني اليوم، اليوم كم ثانية؟ ثلاثة آلاف و ستمئة ثانية، المفاجأة المذهلة لو قسمنا ما يقطعه القمر في رحلته في ألف عام على ثواني

اليوم النتيجة سرعة الضوء، تأتي الآية:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

أي ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء قي يوم واحد، فإذا قسمت على ثواني اليوم النتيجة سرعة الضوء و التي هي السرعة المطلقة، هذا ملخص نظرية أينشتاين، وردت في أربع كلمات في القرآن الكريم:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

إذاً:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ)

الشهر ثلاثون يوماً، اليوم أربع و عشرون ساعة، ليل ونهار

(اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

البشر عند الله نموذجان لا ثالث لهما :

الآن البشر كما تعلمون مؤمنون وكفار، هذا ملخص الملخص.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

ما الحسنى؟

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

[سورة يونس الآية: 26]

الجنة، أنت إذا صدقت أنك مخلوق للجنة، شيء طبيعي جداً أن تتقي أن تعصي الله، وإذا اتقيت أن تعصي الله تبني حياتك على العطاء، فصفات ثلاثة جامعة مانعة للمؤمن، صدق أنه مخلوق للجنة، واتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء.

الطرف الثاني، كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا، لذلك استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، ستة آلاف مليون إنسان على اختلاف مدنهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، مهما أردت أن تعدد، البشر عند الله نموذجان، صنفان، فريقان، صنف آمن أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، وصنف آمن أنه مخلوق للدنيا لا للجنة، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ.

الحق يقوى بالتحدي وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية :

أخواننا الكرام، إذاً الإنسان حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، فريق آمن وفريق لم يؤمن، فريق صدق بالحسنى، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، وفريق كذب بالحسنى بل آمن بالدنيا، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، الآن أليس من الممكن أن يكون هؤلاء الذين كفروا بالجنة وآمنوا بالدنيا في كوكب معين والمؤمنون في كوكب وانتهى الأمر؟ ليس هناك بدر، ولا أحد، ولا الخندق، ولا الحروب المعاصرة، ولا حروب عالمية أولى، ولا ثانية، ولا ثالثة، لا يوجد شيء، المؤمنون في كوكب، والكفار في كوكب، لكن شاءت حكمة الله أن يكونوا معاً في كل مكان وفي كل زمان، بعضهم قال: لأن الحق يقوى بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، إذاً القرار الإلهي أن يعيش في الأرض المؤمنون وغير المؤمنين في زمان واحد، وفي وقت واحد، أينما ذهبت أناس مع الحق، وأناس مع الباطل، أناس مع المبدأ، وأناس مع الشهوة، أناس مع القيم، وأناس مع المصلحة، أناس مع الدنيا، وأناس مع الآخرة، لذلك قدرنا أن هناك معركة بين الحق والباطل، هذه المعركة أزلية وأبدية، لأن الحق يقوى بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية.

الحكمة من الأشهر الحرم :

هذا تمهيد لهذه الآية:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

هذه قضية كونية

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

هذه الأشهر الأربع يُمنع فيها القتال، معنى ذلك لأن المؤمنين والكفار مع بعضهما، وكل واحد له هدف، وأحياناً تتعارض الاتجاهات، إذاً أن يتحارب الفريقان شيء طبيعي، وهذا قدرنا، لكن جعل الله هذا الأشهر الأربع الحرم، رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ممنوع القتال فيها، لماذا؟ الإنسان إذا حارب يثور دمه وتتنامى عزته وكبرياؤه، ولا يدع القتال حتى يفني خصمه، والخصم كذلك، فجاءت هذه الأشهر الأربع رجب، وذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم ليقف القتال، ليس هناك غالب ولا مغلوب حفاظاً على عزة الإنسان وكرامته، أحياناً تكون هناك حرب، تدخل دول ثلاث توقفها، الطرفان يتمتعان بكرامتهم وبعزتهم، فهذا من علم الله في الغيب، جعل الله المؤمنين والكفار مع بعضهما بعضاً، لا شك أن هناك معركة أزلية وأبدية بين الحق والباطل، فإن نشبت الحروب ينبغي أن تقف ولو إلى حين ليذوق

الناس طعم السلام، فينحازوا إليه، هذا بعض ما توجه إليه السادة المفسرون

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

أي تقف الحروب في هذه الشهور، لا غالب ولا مغلوب، يذوق الناس طعم السلم يحبونه، قد يكون هذا الوقف لإطلاق النار مستمراً وتنتهي الأمور بالحوار، والمصالحة، ورفع الضيم عن بقية الناس، هذه الحكمة البالغة من الأشهر الحرم، يقف القتال لا بالأعلام أن أحد الخصوم قد انتصر، ولا بإذلال الثاني أنه انهزم، يقف القتال بحكم إلهي فلا يوجد منتصر ولا مغلوب، والجميع كرامتهم محفوظة،

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

شأن أهل الدنيا أن يبني الكافر مجده على أنقاض البشر وحياته على موتهم :

لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)

[سورة الحجرات الآية:9]

هناك كثير من الحروب التي دمرت العالم الإسلامي، والخطأ أنه لم يتدخل أي فريق ليوقف الحرب بين هاتين الدولتين، كل طرف استعان بقوى أجنبية، والقوات دخلت وهم باعونا واشترونا و فازوا بمليارات مملبرة من هذه الحروب.

مرة قيادة كبيرة في العالم الغربي جمعت ثلاثين عالم نفس في منتجع، وتركوهم شهراً بأكمله ليجيبوهم عن سؤال واحد، أي شيء أفضل للعالم الغربي الحرب أم السلم؟ فكان الجواب: الحرب، أنتم لاحظوا كل فترة هناك حرب، بالنهاية تذهب أموال طائلة من المتحاربين إلى العالم الغربي، لأن عندهم السلاح، حتى يبيعوا السلاح هم بحاجة إلى بؤر ملتهبة في العالم، بين الهند و الباكستان مشكلة كشمير، بيننا وبين العدو الصهيوني مشكلة فلسطين، بالسودان هناك مشكلة، كل مكان فيه مشكلة، هذه مشكلة بؤر التوتر من أجل أن يبيعوا الأسلحة، والأسلحة تباع لا بعقود تراض بل بعقود إذعان، سعر الشيء مئة ضعف، مضطر، هم يبتزون أموالنا عن طريق بؤر التوتر هذه في العالم، ثم يبيعون السلاح بعقود إذعان، كي يحققوا ثروات طائلة، هذا البحث طويل، والبحث له جوانب كثيرة، لكن هذا شأن أهل الدنيا، شأن أهل الدنيا أن يبني الكافر مجده على أنقاض البشر، ويبني حياته على موت البشر، ويبني أمنه على إخافة البشر، ويبني غناه على إفقار البشر.

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

فإذا كان هناك مشكلة بين المؤمنين في هذه الأشهر تقف الحرب، لكن لو أن الكفار أعجبهم هذا الترتيب، المؤمنون في هذه الأشهر لا يحاربون، هم يبدؤونهم بالحرب.

لذلك جاءت الآية:

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

إذا مشرك أراد أن تكون هذه الآية لصالحه نقاتله ولو كنا بالأشهر الحرم، هذه حالة نادرة واستثنائية،

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)

الإنسان مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض :

أخواننا الكرام، الإنسان مخلوق للجنة، لجنة عرضها السماوات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وهذا منهج الله في الأرض.

الحقيقة الدقيقة أن الحرب بين حقين لا تكون لأن الحق لا يتعدد، والحرب بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فلا تنتهي، تذهب مع العمر، بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، وبين باطلين لا تنتهي.

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)

أي بعدم تطبيق هذه الآية، فيما لو كان هناك صراعٌ بين المؤمنين.

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

طبعاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن إنساناً يستهين بدمك، وبحريتك، وبثروتك، وبالاستقلال، ويهجم عليك وأنت تقف مكتوف اليدين، هذا مستحيل، هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل عطاء الدنيا لبلاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال عن ابن عمر]

والآية تقول دققوا:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

[سورة البقرة الآية:190]

يقاتلك ليأخذ مالك، ليأخذ ثروات بلدك، ليذل شعبك، تقف مذلول اليدين أمامه.

السلاح يعطي الإنسان قوة ردع و يجعل الدولة مرهوبة الجانب :

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

لذلك هذا الشيء واضح جداً، سماه العلماء المعاملة بالمثل، ولاحظ أن هناك دولاً متقدمة جداً، ودولاً مسالمة لا تحارب أبداً، مثل سويسرا مثلاً، هل تصدق أن أقوى جيش عندها؟ هل تصدق أن كل مواطن هناك يعد جندياً؟ السلاح ردع، والدليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:60]

لذلك هناك دول تملك سلاحاً نووياً، أنا متأكد قد لا تحتاج أن تستخدمه ولا لمئة عام قادمة، لكن لأنها تملك هذا السلاح هي مرهوبة الجانب،

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

والله حدثني أخ يعيش في الباكستان، قال لي: كان هناك معاملة قاسية للمسلمين في الهند فلما تملكت الباكستان سلاحاً نووياً المعاملة انقلبت مئة و ثمانين درجة، أحياناً السلاح قد لا تستخدمه إطلاقاً، لكن يعطيك قوة ردع.

الله عز وجل مع المؤمنين بالنصر و التأييد و الحفظ :

لذلك:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والفضل لله عز وجل أن هذا الكيان الصهيوني في المنطقة هو عصا الغرب الغليظة، هذه العصا مهمتها أن أي بلد في الشرق الأوسط يقول: لا للغرب، تأتيه هذه العصا بضربة قاصمة، لكن هذه العصا كسرت، كم مرة؟ كسرت مرتين، وإن شاء الله تبقى مكسورة، ونحن بإيماننا بالله، واصطلاحنا معه، وإقبالنا عليه، أقول: أعداؤنا اليهود فقدوا الآن ما يسمى بالحسم، ما الحسم؟ كانوا يبدؤون الحرب وفي أي لحظة ينهونها، لكن الآن يبدؤونها لكن ليس بإمكانهم أن ينهوها، التطور نوعي، الشيء الثاني كان هناك رعب من قِبلنا، الآن هناك توازن رعب، يقصف ويقصفون، ندخل إلى الملاجئ ويدخلون، نخاف ويخافون، اسمه توازن رعب، أول إنجاز: فقد الحسم، يبدؤون ولكن ليس بإمكانهم إنهاء الحرب، حرب غزة التخطيط كان ليوم واحد، ضربوا ثمانمئة هدف، ولم يتمكنوا من إيقاف الحرب إلا بعد اثنين وعشرين يوماً، فقدوا الحسم، صار هناك توازن رعب، أما أخطر هدف فتحقق، أن اليهود كانوا يريدون الأمن فقط، بستين سنة ماضية، الآن هدفهم البقاء، الكلام دقيق.

أنا ألقيت على المنبر تقريرCIAأن هذا الكيان عمره القادم يقدر بخمس و عشرين سنة فقط، أي هناك أخبار طيبة، أنا لا أحب الأخبار السيئة لكن هناك أخباراً طيبة ترتفع معنوياتك، أنت مسلم غالٍ على الله، الله لن يتخلى عنك إطلاقاً، هذه أشياء ثابتة، صحف العدو، فقدوا الحزم، وصار هناك توازن رعب، وكان هدفهم الأمن فأصبح البقاء:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

ثلاثون دولة ببلد إسلامي بشرق آسيا، معهم أحدث الأسلحة، والطرف الثاني عندهم بنادق فقط، أربعة و ثمانون بالمئة من مساحة الأرض بيد الطرف الثاني، شيء يحير، هناك أخبار طيبة جداً، أخبار مشجعة،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

معهم بالنصر، والحفظ، والتأييد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (31-70) : تفسير الآية 37 ، تلاعب الكفار بالأشهر الحرم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-12-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

من حكمة الأشهر الحرم حقن الدماء وتخفيف العداوة والبغضاء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

أيها الأخوة، لعل من حكمة الأشهر الحرم أنه إذا نشبت حرب بين فئتين هذا الدم الذي أهرق يزيد المعركة احتداماً، وقد لا تنتهي المعركة، وقد تدوم بعض الحروب في الجزيرة قبل الإسلام سنوات وسنوات، لكن حلاً يرضي الطرفين، ويحفظ ماء وجه الطرفين، ولا يذل أحد الطرفين، أن الأيام تمضي في هذه الشهور الاثني عشر، أربعةُ أشهر لا يجوز فيها القتال، فالحرب تقف بالتعبير المستخدم الآن لا غالب ولا مغلوب، فحينما تدخل هذه الأشهر يتوقف القتال، ويذوق الناس طعم السلم، ولعل هذه الطريقة هي التي تحقن الدماء، وتوقف الحروب، فلذلك جعل الله الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، هذه الأشهر الله عز وجل حرّم فيها القتال، فالقتال يقف دون أن يهان أحد الطرفين، ودون أن يوصف أحد الطرفين أنه مهزوم، ودون أن يتعجرف أحد الطرفين أنه منتصر، الحرب تقف في هذه الأشهر هذا هو الشرع الإلهي، حقن للدماء، وتخفيف للعداوة والبغضاء.

الحق واحد لا يتعدد :

و لكن لا بد من التنويه، بأن الحرب بين حقين لا تكون، الحق لا يتعدد، لذلك الحرب بين حقين لا تكون، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، لكن بين باطلين لا تنتهي، هذه مقولة تلخص حقيقة الحروب في الأرض، بين حقين لا تكون.

للتقريب: نقطتان لو جهدت أن تصل بينهما بخط مستقيم الخط المستقيم الثاني ينطبق على الأول، والخط المستقيم الثالث ينطبق على الثاني، ولو حاولت أن ترسم مليون خط مستقيم بين نقطتين كل هذه

المستقيمات تتطابق، الحق واحد، لكن لو أردت أن ترسم خطاً منحنياً أو خطاً منكسراً بين نقطتين لك أن ترسم مليون خط، أول خط انحناء بسيط، الخط الثاني انحناء أشد، إلى ما لانهاية، فيمكن أن ترسم ملايين الخطوط المنحنية أو المنكسرة بين نقطتين، لكنك لا تستطيع أن ترسم بين هاتين النقطتين إلا خطاً واحداً.

فالحق لا يتعدد، والباطل كثير، ماذا نستنبط من هذه الحقيقة؟ كل واحد منا له عمر الله أعلم، ستون، سبعون، ثمانون، خمسة وخمسون، تسعة وأربعون، ثلاثة وستون، هذا العمر لا يسمح لك ولا يكفيه أن تستوعب الباطل، الباطل كثير، والباطل غير محدود، لو أمضيت معظم العمر في دراسة فرقة ضالة واحدة، البواعث، الخلفيات، المعطيات، المؤثرات، الأهداف، التطورات، قد تمضي ثلث العمر في دراسة موضوع باطل واحد، إذاً الأعمار لا تكفي لاستيعاب الباطل، الباطل كثير، الآن في الأرض، هناك طروحات، و ضلالات، و خزعبلات، و أوهام، وعقائد فاسدة، و تصورات خاطئة، الأرض تعج بالضلالات، لكن الحق واحد.

على كل إنسان أن يعرف الحق و يجعله مقياساً له :

لذلك هذا العمر الذي منحك الله إياه كاف لاستيعاب الحق، ولا تكفي آلاف الأعمار لاستيعاب الباطل، ماذا نستنبط من هذه الحقيقة؟ أنك أيها الإنسان لا تملك إلا عمراً محدوداً، هذا العمر يكفي لاستيعاب الحق الذي أنت في أمس الحاجة إليه، وإذا استوعبت الحق كان الحق مقياساً في كل شيء، اعرف الحق واجعله مقياساً، وأي شيء خلاف الحق فهو باطل، أي العمر يغطي أن تستوعب الحق وحده، هناك كتاب، و سنة، و وحي متلو الكتاب، و وحي غير متلو السنة، فأنت حينما تقرأ القرآن كل يوم وتبحث في تفسيره، وتقرأ السنة وترى تفاصيلها، هذا الذي تعلمته واستوعبته هو المقياس.

مثلاً لو أن هناك أمتاراً ببلد، أمتار مزورة، أي متر وثلاثة سنتيمترات، متر وسنتيمتر واحد، متر وميليمتر، متر وعشرة سنتيمترات، نحن عندنا متر نموذجي مودع في مركز المدينة، في أيدي أمينة ومحفوظ، هذا المقياس الحقيقي، فأنت تستخدم هذا المقياس لامتحان أي متر يقاس به.

وكلامي دقيق، أنت حينما تمضي وقتك في فهم القرآن الكريم، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا دخل في منهاجك، الآن عندنا مثلاً حفلة غنائية يرصد ريعها للعمل الخيري، بحسب المنهج هذه مرفوضة، لأن الأهداف النبيلة السامية يجب أن تكون الوسائل لها نبيلة سامية، حفل غنائي لا يرصد ريعه لعمل خيري، فأنت حينما تجهد أن تستوعب الحق، أن تفهم الوحي، الوحي الذي أنزله الله على نبيه الكريم، وأن تفهم السنة التي فسرت لك هذا الوحي، فأنت بهذا الوحي وتلك السنة تجعل منهما

مقياساً لك لكل شيء، فما ورد مطابقاً للكتاب والسنة على العين والرأس، وما جاء مخالفاً للكتاب والسنة مرفوضٌ أشد الرفض.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

لذلك الشيء الواقعي والعملي أن تجهد في استيعاب الحق، فإذا استوعبته بشكل معقول لأن هناك تفاصيل، وأساسيات، وبالمناسبة الكلام دقيق، الحق كأساسيات يجب على كل مسلم أن يستوعبه، أما التفاصيل فتحتاج إلى تفرغ، وإلى تعمق، وإلى تبحر.

لذلك هذا يقودنا إلى أن طلب العلم فرض عين على كل مسلم، أنت تعمل في التجارة فرض عين عليك أن تتقن الأحكام الفقهية المتعلقة بالتجارة.

هناك فكرة أتمنى أن تكون واضحة لديكم: أنت تسأل إنساناً، ماذا تعمل؟ يقول لك: طبيب، ماذا تقول في هذه الآية؟ قال: هذه ليست من اختصاصي، يترفع، هو طبيب، والثاني مهندس، هذا معلوماتي، وهذا معه اقتصاد دولة، هذا معه فيزياء نووية، فيأتي إنسان يتوهم أنه إذا كان لديه اختصاص في علم من العلوم، هو في الاختصاص متبحر، هذه هويته، ولا حاجة له أن يكون مختصاً في الدين، هذا ليس من اختصاصي، ومعه فيزياء نووية، الحقيقة الدقيقة: أن طلب العلم فرض عين على كل مسلم، والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، الفرض العيني.

الإنسان خاسر لأن مضي الزمن وحده يستهلكه :

الله عز وجل أودع في الإنسان قوة إدراكية، ميزه بها عن بقية المخلوقات، هذه القوة الإدراكية من شأنها أن تستخدمها في البحث عن الحقيقة، وإذا استوعبت هذه الحقيقة ينبغي أن تدعو إليها، والدليل أن الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في سورة قصيرة لا تزيد عن سطر يقول فيها:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر]

أي خاسر، وقد يسأل سائل يا رب لماذا أنا خاسر؟ فالجواب: لأن مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان، بصرف النظر عن طاعتك لله، أو عن عدم طاعتك، سبت، أحد، اثنين، ثلاثاء، أربعاء، خميس، جمعة، انتهى أسبوع، ثم أسبوع ثان، ثم ثالث، ثم رابع، ثم شهر، شهر ثان، ثالث، رابع، انتهى فصل، فصل ثان، ثالث، رابع، عام، عشرة أعوام، انتهى عقد، فالإنسان ما بين طرفة عين وانتهائها يغير الله من حال إلى حال.

مرة عندي شريط صغير، كاسيت، لا أعرف ما مضمونه، استمعت إليه فإذا هو شريط موضوع بآلة إجابة آلية عن الهاتف، استمعت إليه بشغف، الشريط اتصالات هاتفية مسجلة كلها، أكثر من خمسة عشر إنساناً قد توفاهم الله وأصواتهم على هذا الشريط، خمسة عشر إنساناً صوتهم في الشريط توفاهم الله، فالدنيا ساعة اجعلها طاعة، أي عمرك يستوعب الحق الذي أنت بحاجة إليه، أما الباطل فلا ينتهي، فالحق هو المقياس، وما سواه باطل.

الوحي حق مطلق :

أنت حينما تستوعب الحق تستطيع أن تقول بكل قوة وبكل ثقة أن ما سواه باطل، صار معك مقياس، هذا الوضع يخالف القرآن فهو باطل، هذا الوضع يخالف السنة فهو باطل، فاجهد في هذا العمر المحدود أن تستوعب الحق، الحق وحي السماء، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، أي كم كتاب في المكتبة؟ ملايين، مئات الملايين، كل هذه الكتب من تأليف البشر، والإنسان غير معصوم يخطئ ويصيب، أما إذا قرأت وحي السماء، بسم الله الرحمن الرحيم:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

فالوحي حق مطلق، وقد شرح هذا الوحي بكلام النبي المعصوم، وكلامه حق مطلق لذلك:

((إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما؛ كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة]

لذلك أيها الأخوة ينبغي أن نجهد جميعاً بمعرفة القرآن والسنة، فإن عرفنا الكتاب والسنة، وتمسكنا بهما فلن نضل أبداً.

النادم من تفوق في كل علوم الأرض ولم يستوعب الحق الذي وجد من أجله :

أخواننا الكرام، مرة ثانية: طلب العلم فرض حتمي على كل مسلم، فرض عيني، إياك أن تقول: أنا مهندس لا علاقة لي بالدين، أنا طبيب، أنا معي معلوماتية، أكثر الناس أصحاب الاختصاص العالي يعتزون بهذا الاختصاص، وكأنهم في غنى عن أن يكونوا مستوعبين للدين، هو مهندس معماري، معه معلوماتية، معه طب، معه بورد، كل علوم الأرض لو تفوقت بها ولم تستوعب الحق الذي جئت إلى الدنيا من أجله تندم أشد الندم.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف]

فأنت في هذا العمر المحدود ينبغي أن تستوعب الحق ليكون الحق مقياساً، فنحن عندنا قضبان تستخدم كمتر، قد يكون هناك مليون قضيب، أحدها متر وسنتيمتر واحد، و الثاني ستة و ثمانون متراً، والثالث متر وعشرة سنتيمترات، نحن عندنا متر نظامي مودع في مكان أمين، دقيق، على مستوى الميليمتر، هذا المتر هو المقياس، فالحق مقياس، وما سواه باطل.

على كل إنسان أن يجهد في استيعاب الحق :

أنا أتمنى للمرة الثالثة أن يجهد أحدنا في أن يستوعب الحق، إن استوعبه كل شيء يقيسه عليه، ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق، لكن كتوسع صغير أرى الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، الخط الأول، الخط الثاني، الخط الثالث، الخط الرابع، الخط الأول: النقل الصحيح، لماذا أقول نقل صحيح؟ لأن هناك نقلاً غير صحيح، حديث موضوع، كل الناس هلكى، هكذا؟ قال إلا العالمون، و العالمون هلكى، كيف؟ قال: إلا المخلصون، والمخلصون هلكى –لم يبقَ أحد- قال: هذا الحديث وضعته الزنادقة للتيئيس، يكفي أن تقرأ مثلاً أن أحد كبار العلماء لأربعين عاماً صلى الفجر بوضوء العشاء، أنت جرب هل تستطيع أن تبقي يومين من دون أن تنام؟ ليس صحيحاً، هذه القصة تبعدك عن الدين، الدين واقعي.

((والله إني لأخشاكم لله))

هكذا يقول النبي الكريم:

((أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

الإسلام دين واقعي :

والله قصة أحجبت عن ذكرها لعشرين سنة تقريباً، القصة أن والي أذربيجان أرسل إلى سيدنا عمر بن الخطاب رسولاً، رسول عامله على أذربيجان، هذا الرسول وصل المدينة ليلاً، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، وانتظر حتى الصباح، ذهب إلى المسجد يبدو أنه داس على يده خطأ فسمع صوتاً، قال: من؟، قال: عمر، قال: أمير المؤمنين! قال له: أمير المؤمنين، قال له: ألا تنام الليل، فهو الجواب الأول لأنني رفضت أن أروي القصة من أجله، إني إن نمتُ ليلي أضعتُ نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، يجب ألا ينام الليل ولا النهار، أربعون سنة لا يوجد نوم إطلاقاً، هذه القصة تروى؟ ليس معقولاً! عثرت على رواية ثانية، إني إن نمت ليلي كله أضعتُ نفسي أمام ربي، واضحة، عندئذٍ

رويتُ هذه القصة، إني إن نمت ليلي كله أضعتُ نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعتُ رعيتي. الإسلام واقعي، الإسلام يجب أن تعيشه، القصص التالفة فيها مبالغات ما أنزل الله بها من سلطان، هذه المبالغات مثبطة، أنت مسلم، يجب أن تصل إلى الجنة وأنت مهندس، وأنت طبيب، وأنت تاجر، تبيع، وتشتري، وتتزوج.

((أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

الأشياء المخالفة للفطرة تشريع أرضي و ليس سماوياً :

لذلك دائماً لما الله عز وجل قال:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

[سورة الحديد الآية:27]

هم تصوروا أن ترك الزواج يجعلهم أقرب إلى الله، قال:

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

[سورة الحديد الآية:27]

لم يستطيعوا، هذا التشريع أرضي، وليس سماوياً.

(إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية:27]

هم ابتدعوها، أرادوا منها التقرب لكن لأنها مخالفة للفطرة، مخالفة للطبيعة البشرية

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

من يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه

فلذلك هذا الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، وأكبر دليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية:50]

عندنا بأصول الفقه المعنى المخالف،

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

المعنى المخالف: الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، اشتهى المرأة فتزوج، يصلي قد يقارب زوجته، وقد يصلي بعدها قيام الليل، وقد يبكي في الصلاة.

الشهوة سلم نرقى بها إلى أعلى عليين أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين :

مرة دعاني أحد علماء دمشق إلى الطعام، هذا العالم الجليل تزيد سنه عن مئة وسنتين، قال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، كلهم من حفّاظ كتاب الله، فلما خرجت من عنده، قلت: هذا الإنسان تزوج امرأة، وأنجب أولاداً، جلبوا له بالكنائن، وأنجب بناتاً، جلبوا له بالأصهار، الصف الأول: هو وزوجته، والصف الثاني: أولاده مع زوجاتهم، وبناته مع أزواجهم، الصف الثالث أحفاده، هذا صار هرماً، العالم وزوجته، وأولاده وزوجاتهم، وبناته وأزواجهن، وأحفاده، هذا الهرم المبارك ما أساسه بيولوجياً؟ علاقة جنسية، وفي أي بيت هناك علاقة جنسية، انظر هذه العلاقة ماذا أورثت؟ لذلك الشهوة سلم نرقى بها إلى أعلى عليين، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين.

الشهوة للتقريب كصفيحة البنزين، إن وضعت هذه الصفيحة في مستودع المركبة المحكم، وسال هذا البنزين في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولّد حركة نافعة، أقلتك إلى الزبداني، إلى نزهة، ما الذي يجري في المركبة؟ انفجارات لكن انفجارات منضبطة، هذه الصفيحة نفسها صبها على المركبة وفيها خمسة ركاب أعطيها شرارة، تحرق المركبة ومن فيها، السائل نفسه إما قوة مدمرة، أو قوة محركة، فالشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرتقي بها إلى رب الأرض والسماوات، وما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بشكل أو بآخر - وأنا أخاطب الشباب- حرمان في الدين لا يوجد، أنت إن كنت تمشي في الطريق وجدت تيار توتر عال، ومكتوب بلوحة واضحة بخط واضح: ممنوع التجاوز، تيار توتر عال، تيار التوتر العالي له حرم، فإذا الإنسان دخل حرم التوتر العالي ينجذب، ويصبح فحمة في دقائق، هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة؟ مستحيل! بل تشعر بامتنان، هل هذه اللوحة حد لحريتك أم ضمان لسلامتك؟ هل تصدق من هو الفقيه؟ الذي يرى الأوامر والنواهي ليست حداً لحرية الإنسان لكنها ضمان لسلامته، يجب أن تنطلق من أن هذه الأحكام ضمان لسلامتك، أنت لاحظ أي إنسان مستقيم، لا يوجد عنده مشكلة بحياته، لا يوجد عنده مشكلة تنهد لها الجبال، هناك حالات تعد حالات تدمير كامل للإنسان، أنت مادمت مستقيماً أنت في رعاية الله، وفي حفظ الله، وفي توفيق الله، وفي مظلة الله عز وجل.

الحق ما جاء به الوحي الصحيح وقبله العقل الصريح وارتاحت إليه الفطرة السليمة :

الذي أتمناه أن تحاول جهدك أن تستوعب الحق في هذا العمر المحدود، إن استوعبته كان الحق مقياساً لك، وما سواه باطل، فالحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل موضوع، ونقل ضعيف، ونقل مزور، خط النقل الصحيح، لذلك قالوا: الأحاديث الصحيحة تجمعنا، والأحاديث

الضعيفة والموضوعة تفرقنا، الصحاح تجمعنا وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري.

حينما يأتي بلد غربي إلى بلد إسلامي يأتي بقواته إلى هذا البلد، ويتم قتل مليون إنسان، وإعاقة مليون ثان، وتشريد خمسة ملايين، والذي يعلن بهذه الحملة من أجل الحرية، هذا كلام مزور، هذا كلام باطل، هناك نقل صحيح، و عقل صريح، و عقل تبريري، والإنسان منطقي، حتى جرائمه يعطيها تبريراً أحياناً، فالبطولة أن يكون الحق صريحاً، إذاً هذه الدائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، فالحق ما جاء به وحي السماء، وشرحه المصطفى المعصوم، ما جاء به وحي السماء، وقبله العقل غير التبريري، وارتاحت إليه الفطرة السليمة، وقبله الواقع الموضوعي، الواقع ينبغي أن يتوافق مع الفطرة، ومع العقل، ومع وحي السماء، ما جاء به الوحي الصحيح، وقبله العقل الصريح، وارتاحت إليه الفطرة السليمة، وأكده الواقع الموضوعي.

الله تعالى اختص من الأشهر أربعة جعلهن حراماً وعظّم حرماتهن :

أيها الأخوة، الذي أريد أن أوضحه لكم أن الله عز وجل عظم هذه الأشهر، فجعل الذنب فيها أعظم، وأجر العمل الصالح فيها أكبر، أي- لا سمح الله ولا قدر- إنسان يسرق وهو في الحج، هو يسرق، السرقة سرقة لكن في أيام الحج معقول! وفي بيت الله الحرام!، الله اصطفى مكاناً هو بيت الله الحرام، واصطفى زماناً هو رمضان، فلذلك الأشهر الحرم: رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، العمل الصالح فيها أجره أكبر، والذنب فيها كبير، كما أن الأجر في العمل الصالح كبير، والذنب في هذه الأشهر كبير، إذاً يقول ابن أبي طلحة: إن الله تعالى اختص من الأشهر أربعة جعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر فيهن أعظم.

تعظيم الأمور بما عظّم الله هو عند أهل الفهم وأهل العقل نهاية الكمال :

أيها الأخوة، بعض العلماء قال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً- سيدنا جبريل ملك، لكن الله اصطفاه من بين الملائكة وجعله أمين وحي السماء- ومن الناس رسلاً- والأنبياء بشر، لكنهم صفوة البشر- واصطفى من الكلام ذكره- فضل كلام الله على كلام الخلق كفضل الله على خلقه- واصطفى من الأرض المساجد:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

واصطفى من الشهور رمضان، والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظّموا ما عظم الله، فإن تعظيم الأمور بما عظم الله هو عند أهل الفهم وأهل العقل نهاية الكمال، عظم ما عظمه الله.

لذلك قالوا - وهذا الكلام موجه لطلاب العلم-: من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله، أي إذا الله عز وجل امتن عليك بمعرفته وطاعته، ولك صديق على مقعد الدراسة، عندما كبرت أنت وهو، صار من كبار الأغنياء لكنه رقيق الدين- دقق فيما سأقول-: إذا قلت في نفسك: هنيئاً له، فأنت حقرت ما عظمه الله، أنت مؤمن، أنت مستقيم، موعود بالجنة.

المؤمن موعود بالجنة و هذا الوعد يمتص كل مشكلاته :

مرة شخص إما من باب الدعابة أو من باب الانتقاد لا أعرف، قال لي: تقول أن المؤمن سعيد، أنا أؤكد لك أنه ليس بسعيد، قلت له: لماذا؟ قال: إذا كان هناك موجة حر شديدة يعاني منها كما يعاني منها غير المؤمن، وإذا كان هناك غلاء في الأسعار يعاني منها كما يعاني منها غير المؤمن، أين ميزته؟ فخطر في بالي مثل جاءني لتوه، قلت له: إنسان عنده ثمانية أولاد، ودخله خمسة آلاف ليرة، وبيته بالأجرة، وعليه دعوى إخلاء، دعوى إخلاء، وبيت بالأجرة، و دخله خمسة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، هذا الإنسان وضعه لا يحتمل، تحت خط الفقر بكثير، قلت له: عنده عم لا ينجب أولاداً، معه خمسمئة مليون، مات بحادث، وهذا الشاب وريثه الوحيد، إنسان انتقل من فقر مدقع فجأة إلى خمسمئة مليون لكن حتى يستلمها يحتاج إلى عام، هناك مالية، و ضرائب، وتصفيات، وبراءات ذمة، أي اشتغل سنة حتى قبضها، لماذا بهذا العام بأكمله أسعد إنسان، لم يأكل لقمة زائدة، لم يشترِ معطفاً، لا يوجد معه، لكن لأنه موعود قطعاً بخمسمئة مليون فهو أسعد الناس، المؤمن قال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

فالله وعد المؤمنين بالجنة، هذا الوعد يمتص كل مشكلاتنا، أليس كذلك؟

تلاعب الكفار بالأشهر الحرم لمصالحهم :

إذاً نعود للآية موضوع هذا الدرس:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ)

أي الله عز وجل جعل الأشهر الحرم اصطفاها عن بقية الشهور، القتال فيها حرام، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ورجب، ومحرم، الكفار أرادوا أن يلعبوا بهذه الشهور فقدموا بعضها وأخروا بعضها لمصالحهم. فالله عز وجل قال:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ)

التأخير والتقديم، وتعديد هذه الأشهر زيادة في الكفر،

(يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

هم أربعة، هم بالعدد لم يغيروا، لكن غيروا بالتعيين، بالترتيب، هذا التغيير من أجل مصالحهم، هذه كيف تصير؟ يأتي إنسان مثلاً هناك قضية فيها مشكلة كبيرة، لا تحل بالقانون، هذا البيت مؤجر على النظام القديم والمستأجر معه حقوق، هذا يلجأ للشيوخ، سيدي هل يجوز للإنسان أن يغتصب البيت؟ يقول له: لا يجوز يا بني، عنده حاسة سادسة، هذه القضية لا تحل بالقانون تحل عند المشايخ، هناك قضية ثانية لا تحل عند المشايخ تحل بالقانون، يقول: نحن نعيش في بلد فيه نظام، فيه قانون، هو نفسه يقول هذا، مرة قال: أريد حكم الله، مرة قال: أريد حكم القانون، فالإنسان عندما يبدل ويغير، يعتمد مرة على نظام، ومرة على نظام آخر يكون قد بدل و غيّر.

مثلاً: امرأة متزوجة ببلاد الغرب، مسلمة وزوجها مسلم، مهرها مئة ألف، زوجها معها عشرة ملايين، تقيم دعوى أمام قاض أمريكي، لماذا؟ لأن القاضي يحكم لها بنصف أموال زوجها، هنا بهذه البلاد تعويض الطلاق نصف دخل الزوج، هنا تناسبكم هكذا، تأتي إلى بيت مستأجر من النظام القديم، المستأجر معه حق البقاء بالبيت، يطلب الشرع، لماذا في هذه البلاد الغربية طلبت القانون؟ هنا بالبلاد الإسلامية طلبت الشرع؟ عنده حاسة سادسة، القضية لا تحل بالقانون، تحل عند المشايخ، وهذه لا تحل عند المشايخ، تحل عند القانون، فلما هو يختار القانون أو الشرع بحسب أهوائه ومصالحه يكون قد غيّر، هذا الموضوع كله. أي هو في أشهر حرم، إذا كانت مصلحتي أن أنقل شهراً إلى شهر أهرب حتى أنهي المعركة وأغنم غنائم كبيرة، وقتها أنا لا أعبأ بتعيين الأشهر، أعبأ بأنها أربعة فقط.

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

الأربعة أربعة، لكن لعب في التقديم والتأخير من أجل مصالحه، وأي إنسان يلعب بالأحكام الشرعية لمصالحه، ساعة يعتمد الشرع، ساعة يعتمد القانون، معنى ذلك يبحث عن مصالحه. قال تعالى:

(زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وإن شاء الله في درس قادم نتحدث عن موضوع الهدايا بالتفصيل.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجات التي أودعها الله في الإنسان سبب ارتقائه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة أيها الأخوة أن هناك هداية المصالح، وأن هناك هداية الوحي، وأن هناك هداية التوفيق، وأن هناك هداية إلى الجنة، أربعة أنواع من الهداية.

أولاً: في حياتنا الدنيا الله جلّ جلاله هدانا إلى مصالحنا، فلولا الجوع لما كان هذا الدرس، فبالجوع تبحث عن الطعام، تعمل، تكسب مالاً، تشتري به طعاماً، تأكل تلبي به حاجة الجسد، لك حاجة أخرى، أنت بحاجة إلى الطرف الآخر، تتزوج، لك حاجة ثالثة هي تأكيد الذات تتفوق، لولا هذه الحاجات التي أودعها الله فينا ما ارتقينا، نسلم بها ونسعد.

السعادة التي لا توصف تأتي بعد الصلح مع الله عز وجل :

لذلك هدانا الله إلى مصالحنا، كل إنسان حريص على صحته، حريص على رزقه، حريص على أولاده، جعل في قلب الزوج مودة لزوجته من خلق الله، جعل في قلب الآباء والأمهات محبة لأولادهم، أي هناك هداية المصالح، كل شيء أمرنا الله به فطرنا عليه، بتعبير معاصر: برمجنا عليه، فأنت حينما تتحرك بمنهاج الله ترتاح نفسك، أساساً السعادة التي لا توصف التي تأتي بعد الصلح مع الله سببها أنك في الحقيقة اصطلحت مع نفسك، عندما أطعت الله ارتاحت نفسك، اطمأنت، الله عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً، هذا الضعف يتجاوزه إذا أطاع الله، والدليل القرآني:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

في أصل خلقه، نقطة ضعف في أصل خلقه،

(إنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

معنى ذلك أن المصلي له خصائص إيجابية كبيرة جداً، لكن ليس كل مصلٍّ،

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج]

صفات المصلين :

أخواننا الكرام، في مناسبة هذه الآية لي تعليق عليها أذكره كثيراً، لكن يحسن أن أعيد ذكره الآن: أنت إذا قلت: مسلم، بل إذا قلت: إنسان، هذه الكلمة يأتي تحتها ستة آلاف مليون إنسان، على وجه الأرض ستة آلاف مليون، أضف إلى هذه الكلمة كلمة ثانية، قل: إنسان مسلم كنا بستة آلاف مليون، أصبحنا بمليار وثمانمئة مليون، كنا ستة مليارات، عدد سكان الأرض، عندما قلت: إنسان مسلم ضاقت الدائرة إلى مليار وثمانمئة مليون، فإذا قلت إنسان مسلم عربي، ضاقت الدائرة إلى أربعمئة مليون، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي سوري، ضاقت الدائرة إلى عشرين مليوناً، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي سوري مثقف، ضاقت الدائرة لعشرة ملايين، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب بقوا خمسين ألفاً، إذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قلب بقوا ألفاً، إذا قلت: جراح بقوا خمسين، جراح مقيم في دمشق أربعة، كلما أضفت صفة ضاقت الدائرة.

هذا المقياس، أو هذا المثل طبقوه على الآية الكريمة:

(إنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

في الأرض أعتقد مليار و ثمانمئة مليون مسلم، أنا أتصور تخميناً لا تحقيقاً أن الذين يُصلّون مليار،

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

[سورة المعارج]

أيضاً ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أي فكر بالكون، رأى عظمة الله عز وجل فتواضع.

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي))

واستقام، فكر بالكون، استعظم ربه، عظمه، خشع له، فاستقام على أمره.

((وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي))

إذا وقع بذنب يتوب سريعاً.

((وأطعم الجائع - له عمل صالح - وكسا العريان، ورحم المصاب، وأوى الغريب - أعمال صالحة - كل ذلك لي - الإخلاص- وعزتي وجلالي، إن نور وجه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه بملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

تعظيم الله و محبته و الخوف منه مشاعر إيمانية طبيعية :

أخوتنا الكرام، معنى ذلك أن هذا الأثر القدسي الرائع الصحيح فيه كليات الدين، أول كلية ممن تواضع لعظمتي، أي تفكر في خلق السماوات والأرض، هذا التفكر يرثه تعظيماً لله عز وجل.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

تفكر في خلق السماوات والأرض.

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي))

بالمناسبة ورد أيضاً:

((قال: يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا ربي إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، يستنبط من هذا أنه لا بد من أن يستقر في قلب المؤمن تعظيم لله، وهذا التعظيم يأتي من التفكر في خلق السماوات والأرض، ولا بد من أن يستقر في قلب المؤمن طاعة الله، محبة لله، وهذه المحبة تتأتى من التفكر في نعم الله، ولا بد من أن يستقر في قلب المؤمن خوف من الله، وهذا الخوف يتأتى من النظر في بلاء الله، بلاؤه ينبغي أن تخاف منه، ونعمه ينبغي أن تحبه من أجلها، وآلاؤه ينبغي أن تعظمه فيها، فتعظيم وحب وخوف، هذه مشاعر إيمانية طبيعية، إذا بقلبك مشاعر الخوف من الله، ومشاعر الحب لله عز وجل، ومشاعر التعظيم، فأنت مؤمن ورب الكعبة.

أنواع الهداية :

1 ـ هداية المصالح :

الآيات الكونية تدعوك إلى التعظيم، والنعم تدعوك إلى الحب، والبلاء يدعوك إلى الخوف، والأنبياء يعبدون الله رغباً ورهباً، إذاً هداية المصالح، الله عز وجل هداك إلى مصالحك، محبة الآباء لأولادهم هداية المصالح، محبة الأبناء لأهاليهم هداية المصالح، المودة والرحمة التي أودعها الله في قلب الزوج تجاه زوجته هذه من هداية المصالح، والمودة البالغة التي تكنها الزوجة لزوجها هذه من هداية المصالح، هداك إلى مصالحك.

2 ـ هداية الوحي :

ثم هداك هداية الوحي، جاء وحي من السماء يقول لك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة السجدة الآية:4]

حدثك القرآن عن ذات الله بآيات كثيرة، حدثك عن مخلوقاته، عن الكون، عن الحياة، عن الإنسان، عن سر وجودك، عن غاية وجودك، عن أن العبادة علة وجودك، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فهذه هداية الوحي، القرآن حدثك عن الجنة والنار:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)

[سورة الزمر الآية:43]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة]

وحدثك عن النار:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

أمن بالله، لكنه ما آمن بالله العظيم، والتفكر في خلق السماوات والأرض يوصلك إلى الإيمان بالله العظيم، فأول هداية: هداية المصالح، والهداية الثانية: هداية الوحي.

3 ـ هداية التوفيق :

الهداية الثالثة لمن استجاب للوحي، هداية التوفيق، أنت بمجرد أن تقول: يا رب، أنا تبت إليك، الله عز وجل يقبلك، يا رب أعني على نفسي، يا رب ارزقني عملاً صالحاً، الآن هناك هداية ثالثة اسمها هداية التوفيق، الله يوفقك لجهة إيمانية صادقة تأخذ منها، يوفقك إلى أعمال صالحة كثيرة، تتقرب بها إلى الله، يوفقك إلى زوجة صالحة، إلى أولاد أبرار، إلى سمعة طيبة، إلى عمل مريح، أنت حينما تصطلح مع الله، أمامك سلسلة لا تنتهي من التوفيقات، والعطاءات.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون حياة المؤمن كغيره:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

في الدنيا قبل الآخرة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية:21]

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت،

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

إنسان ماله حرام، يدير نظره إلى أي امرأة حسناء، لا يعبأ لا بدخل حلال ولا بدخل حرام، لا يعبأ لا بشيء مشروع ولا بشيء غير مشروع، هذا يحاسب كما يحاسب المستقيم؟!

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

إذاً هداك إلى مصالحك، وهداك إلى الوحي، ثم وفقك إليه.

أقول لكم كلمة دقيقة، والله بشارة لكم جميعاً: حينما تقول يا رب أعني على نفسي، يا رب ألهمني رشدي، يا رب ارزقني عملاً صالحاً، الآن تأتي هداية التوفيق، يوفقك إلى حياة هادئة، سعيدة، إلى زوجة صالحة- الكلام للشباب - إلى أولاد أبرار، إلى رزق حلال، أي ثمار الإيمان لا تعد ولا تحصى، أنت تعامل من؟ تعامل خالق السماوات والأرض، والهداية التي تأتي اسمها هداية التوفيق.

4 ـ الهداية إلى الجنة :

وآخر هداية الهداية إلى الجنة، فأنت بين هداية المصالح، وهداية الوحي، وهداية التوفيق، والهداية إلى الجنة.

الكافرون و الفاسقون و الخائنون و الظالمون لا يهديهم الله عز وجل :

من هؤلاء الذين لا يهديهم الله؟ حصراً في القرآن الكريم الذين لا يهديهم الله هم القوم الكافرون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الفاسقون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الظالمون:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة]

والذين لا يهديهم الله هم الخائنون:

(اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

[سورة يوسف]

والذين لا يهديهم الله هم القوم الفاسقون، ولا يهدي كيد الخائنين، ولا يهدي من يضل، الذي أراد إضلال الناس لا يهديه الله عز وجل، ولا يهدي من هو كاذب كفار، ولا يهدي من هو مسرف كذاب.

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

[سورة محمد]

أي حركة منك إلى الله، يأتي العطاء الإلهي، حركة منك إلى الله، التوجه إلى الله، طلب المعونة من الله، الاستقامة على أمر الله، التقرب من الله بالعمل الصالح، حضور مجلس علم، ذكر، ذكر الله عز وجل، الدعوة إلى الله، أي حركة نحو مرضاة الله، هذه يأتيك مقابلها أضعاف مضاعفة من الحفظ، والمعونة، والتوفيق.

أي آية بالقرآن تتصدر بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا) المؤمن معني بها :

أيها الأخوة، لذلك إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة التحريم الآية:8]

أي آية بالقرآن أنت معني بها، أي آية بالقرآن تتصدر هذا النص، أو يتصدرها هذا النص:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الشورى الآية:22]

أنت معني بها، بل إن المؤمن الحق إذا قرأ القرآن يشعر حينما يقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أن الله يخاطبه.

من علامات الإيمان أن الإنسان إذا قرأ القرآن يشعر أن الله يحدثه :

أخواننا الكرام، هناك أثر يقول:

((إذا أردت أن تحدث الله عز وجل فادعه))

[ورد في الأثر]

دعاؤك لله حديث، وإذا أردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، تحدثه بالدعاء، ويحدثك بتلاوة القرآن، وأقول لك كلمة دقيقة: من علامات الإيمان أنك إذا قرأت القرآن تشعر أن الله يحدثك:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران]

يجب أن تشعر في كل خلية في جسمك، وفي كل قطرة من دمك أن الله يحدثك، وهذه حالة قراءة القرآن حالة رائعة جداً:

(وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

حينما تقرأ القرآن فجراً هذه القراءة في وقت صاف، في وقت ملائكي، في وقت تتنزل فيه الرحمة.

من صحت عبادته التعاملية قطف ثمارها في العبادة الشعائرية :

أيها الأخوة الكرام، أي كلام يأتي بعد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

في القرآن كله هو توجيه لتحقيق سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة، وهل هناك شيء أغلى من سلامتك وسعادتك؟ من يتمنى العطب؟ من يتمنى المرض؟ من يتمنى الشقاق الزوجي؟ من يتمنى عقوق الأولاد؟ من يتمنى الفقر؟ من يتمنى التعذيب؟ من يتمنى السجن؟ أنت حينما تصطلح مع الله أنت في حفظ الله، في رعاية الله، مرة من ألطف ما قرأت عن النبي الكريم:

((أردف خلفه معاذ بن جبل، قال له: يا معاذ ما حق الله على عباده؟- فسيدنا معاذ أديب جداً - قال: يا رسول الله، الله ورسوله أعلم، سأله ثانية: يا معاذ ما حق الله على عباده؟ سأله ثالثة - وسيدنا معاذ يتأدب مع النبي - ويقول: الله ورسوله أعلم، في المرة الرابعة، قال له: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل]

هذا الحق، أنت حينما تصلي تؤدي واجبك تجاه ربك، أنت حينما تصوم، حينما تحج بيت الله الحرام، حينما تغض بصرك عن محارم الله، حينما تكون صادقاً، اعتقد يقيناً هناك عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية، الشعائرية لا تزيد عن خمس: أن تنطق بالشهادة، وأن تصلي وأن تصوم، وأن تحج، وأن تزكي، أما العبادات التعاملية فقد تصل إلى خمسمئة ألف بند، في بيتك، في عملك، في الطريق، مع جارك، مع صديقك، مع زميلك، في كسب المال، في إنفاق المال، في تمضية وقت الفراغ، كيف تعامل زوجتك، أولادك، أقرباءك، أمك، أباك، العبادة التعاملية هي أصل في الدين، إن صحت العبادة التعاملية قطفت ثمارها في العبادة الشعائرية، إن صحت العبادة التعاملية استقامة وانضباطاً وإحساناً قطفت ثمارها في العبادة الشعائرية، فلذلك:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي، إن نور وجه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه بملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

من استقام على أمر الله عز وجل سعد و سلم في الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة، إذاً أي كلام يأتي بعد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هذا الكلام يحقق لك لو طبقته سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة.

لذلك أي إنسان على وجه الأرض من الستة آلاف مليون إنسان، ستة مليارات، كل واحد من هؤلاء حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، سلامة وجودك باتباع تعليمات الصانع، مستحيل أن تطبق منهج الله في كسب المال ويدمر مالك؟ مستحيل أن تطبق منهج الله في اختيار زوجتك ثم تفاجأ بزوجة خائنة؟ مستحيل أن تطبق منهج الله في تربية أولادك وتفاجأ بابن عاق؟ مستحيل! سلامة وجودك باتباع تعليمات ربك، هذه التعليمات ثمارها كبيرة جداً، ثمارها سعادة في الدنيا، ثمارها استقرار في الدنيا، ثمارها مكانة في الدنيا، ثمارها حياة، سلامة وجودك باتباع تعليمات الصانع، بالاستقامة، ومعنى سلامة لا تعني سعادة، أي لا يوجد عندك مشكلة كبيرة، لست مريضاً بمرض عضال، لست مصاباً بحادث سير مدمر، لم تعلن إفلاسك بشكل كامل، هذه الأحداث الخطيرة التي تدمر الإنسان، من باب حسن الظن بالله، المؤمن معافى، لأنه طبق منهج الله، لذلك لمجرد أن تستقيم على أمر الله، أنت في سلامة، في سلام مع الله.

الفرق بين السلامة و السعادة :

لكن السلامة شيء، والسعادة شيء آخر، لكنك إذا عملت الصالحات أنت في سعادة، السعادة شيء، والسلامة شيء آخر، السلامة سلبية، ما أصبت بمرض، ما افتقرت، ما، ما، كلها فيها ما، أما السعادة فإيجابية، تأتيك من الله سكينة، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، والله عز وجل ذكر في كتابه الكريم أنه ينزل السكينة على عباده المؤمنين.

إذاً أول شيء: السلامة، ثاني شيء: السعادة، وكل إنسان مجبول على حب سلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده، الاستمرار يأتي أنك حينما ربيت أولادك تربية صحيحة كانوا استمراراً لك.

والله مرة لا أنسى هذا الموقف، توفي عالم جليل في الشام، أقيم له العزاء في الجامع الأموي، ذهبت للتعزية، في اليوم الثالث وقف ابنه وألقى خطبة لا تبتعد كثيراً عن خطبة أبيه، هذا الأب ربى ابناً داعية، أنا قلت: إذاً لم يمت هذا الأب، لم يمت مادام له خليفة، له ابن استمر، فأنت باستقامتك تحقق

سلامتك، بالعمل الصالح تحقق سعادتك، وبتربية أولادك تحقق استمرارك، السلامة بالاستقامة، والسعادة بالعمل الصالح، والاستمرار بتربية أولادك.

بطولة الإنسان أن يحب الله الحي الباقي على الدوام :

أيها الأخوة الكرام، إذاً الإنسان مجبول على كمال وجوده، وعلى سعادة وجوده، وعلى استمرار وجوده، من تعريفات الإنسان أيضاً: هو عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، يا ترى الدين يلبي كل هذه الحاجات؟ عندك حاجة أساسية إلى علم يملأ عقلك، وعندك حاجة أساسية إلى حب يملأ قلبك.
مرة كنا بالجامعة، عندنا أستاذ علم نفس يعد أحد أكبر الأساتذة في العالم العربي، قال: أي إنسان لا يجد حاجة إلى أن يُحِب، أو إلى أن يُحَب، ليس من بني البشر، أنت كإنسان عندك حاجة إلى أن تُحِب، وحاجة إلى أن تُحَب، أما أن تُحِب فينبغي أن تُحِب من هو أصل في وجودك خالق السماوات والأرض، الحي الباقي على الدوام، البطولة أن تعرف من تُحِب، الإنسان أحياناً يحب إنساناً، يموت هذا الإنسان يتألم أشد الألم، أما إذا أحببت الواحد الديان، هو حي باق على الدوام، أنت في الدنيا والآخرة مع محبوبك، فأنت عقل يدرك، والعقل يحتاج إلى علم، وقلب يحب، والقلب يحتاج إلى محبوب، وكلما كان هذا المحبوب عظيماً كنت أذكى باختيارك، فإذا كان الذي اخترته هو الله، أنت معه إلى أبد الآبدين، كل بطولتك أن تحب الله، ومحبة الله أسبابها بين أيدينا، الله يحب عباده جميعاً، وأساساً ما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه.

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية:256]

الأقوياء يطاعون قهراً، إكراهاً، أما الله عز وجل الذي خلقنا فما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه، قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية:54]

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية:165]

إذاً علاقة الحب بينك وبين الله، فأنت عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب، وغذاء الجسم الطعام والشراب.
مرة ثانية: أنت حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، سلامتك باستقامتك، وكمالك بالعمل الصالح، واستمرار وجودك بتربية أولادك.

البشر عند الله عز وجل لا يزيدون عن صنفين لا ثالث لهما :

أيها الأخوة، الله عز وجل حينما هدانا إلى مصالحنا، وهدانا إلى الوحي وحي السماء، وفقنا بعد أن اهتدينا إليه، الآن آخر هداية الهداية إلى الجنة التي فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الجنة خلقنا من أجلها، والبشر حيال هذا الموضوع ينقسمون إلى قسمين: الله عز وجل يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

تصور أن البشر يصنفون مئات التصانيف، أهل الشمال، وأهل الجنوب، دول الشمال قوية وغنية، ودول الجنوب فقيرة وضعيفة، العرق الأبيض والملون، هذا تقسيم ثان، والعرق الأنكلو سكسوني، والعرق السامي، هذا تقسيم ثالث، وتقسيم رابع الدول الصناعية والدول الزراعية، الدول المتقدمة والدول المتخلفة، تقسيمات لا تعد ولا تحصى، الأذكياء والأغبياء، المستغِلون والمستغَلون، المنتجون والمستهلكون، تقسيمات لا تعد ولا تحصى، ما قولكم أن هذه التقسيمات عند الله باطلة، ولم يعتمدها القرآن، اعتمد القرآن تقسمين فقط مؤمن وغير مؤمن، المؤمن له صفات وغيره له صفات، هذا التقسيم جاء في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

انظر:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أي اتقى أن يعصي الله، وحرص على العمل الصالح، لأنه صدق أنه مخلوق للجنة.

الفرق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن فرق جوهري :

البشر الستة آلاف مليون ينقسمون إلى قسمين، قسم آمن أنه مخلوق للجنة، وقسم أيقن أنه مخلوق للدنيا فقط،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة بناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبعد ذلك تقرب إلى الله بالعطاء، يعطي من ماله، من خبرته، من ذكائه، من علمه، من حاجاته، مطلق، والفعل إذا أُطلق، إذا أُلغي مفعوله أُطلق، أعطى، المؤمن كريم يعطيك وقته، يعطيك خبرته.

والله مرة أخ طلب مني أن أدله على إنسان يعلمه صنع مادة غذائية معينة، قلت له: سوق البزورية يوجد فيه أربعون محلاً يبيعون حلويات اسألهم، أقسم بالله ولا إنسان أعطاه نصيحة، إلا إنساناً واحداً قال له: هذه المادة مربحة، ومادتها الأولية موجودة، وأرباحها جيدة، سبحان الله! المؤمن نصوح، علامة المؤمن نصوح، والأقل إيماناً يتوهم إذا دخل إنسان على هذه الحرفة قلّ ربحه.

فلذلك الفرق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن فرق جوهري، إذاً الشيء الدقيق أنت مجبول على سلامة وجودك، وعلى كمال وجودك، وعلى استمرار وجودك، ولك عقل غذاؤه العلم، ولك قلب غذاؤه الحب، ولك جسم غذاؤه الطعام والشراب.

وإن شاء الله في درس قادم نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (33-70) : تفسير الآيتين : 38- 39 ، الصحوة قبل فوات الأوان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-12-2010

بسم الله الرحمن الرحيم

مخاطبة الله عز وجل الكفار وعامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أخوتنا الكرام، ما من آية لصيقة بكل واحد منكم وأنا معكم كهذه الآية، إنها آية تبين لكم أن الله سبحانه وتعالى إن رأى من المؤمن تكاسلاً أو ضعفاً ساق له بعض الشدائد، ليحفزه إلى طريق الله عز وجل، فالله عز وجل يسأل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

ولا تنسى أيها المؤمن أنك إذا قرأت مثل هذه الآيات، ومثل هذه الآيات تقترب من ثلاثمئة آية،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

الله عز وجل من سننه في القرآن الكريم أنه يخاطب الكفار بأصول الدين، و يخاطب عامة الناس بأصول الدين، يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة الآية: 21]

لأن علة وجود الإنسان في الأرض أن يعبد الله، أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، هذه الحقيقة خطيرة، أنت في مكان ما لك مهمة واحدة، فلو ذهب طالب لباريس كي يدرس الدكتوراه، هذه المدينة الكبيرة العملاقة التي فيها كل شيء تقريباً، معامل، مصحات، مستشفيات، بيوت للسكن، مراكز للدولة، جامعات، ملاعب، حدائق، أماكن لهو، هذه المدينة العملاقة، هذا الطالب الذي ذهب إلى هذه المدينة لينال الدكتوراه، نقول له: علة وجوده في هذه المدينة نيل الدكتوراه.

علة وجود الإنسان في الأرض أن يعبد الله :

هل تصدق أيها الأخ أن علة وجودك في هذه الدنيا، العلة الوحيدة أن تعبد الله، الدليل لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

مخلوق في الدنيا من أجل أن تعبد الله، كما أنك في الجامعة وجودك في الجامعة لعلة واحدة، أن تنال الدكتوراه فقط، وجودك في المستشفى من أجل أن تشفى، وجودك في السوق من أجل أن تربح، علة الوجود مهمة جداً، وكل واحد في مكان موجود ينبغي أن يسأل لماذا أنا هنا؟ لو إنسان سافر إلى مدينة إن جاءها تاجراً تحرك نحو المتاجر، والأسواق، والمعامل، وإن جاءها سائحاً تحرك نحو المتنزهات، والمقاصف، والآثار، وإن جاءها سائحاً نحو الأماكن الجميلة، تاجر نحو المعامل، طالب علم نحو الجامعات، أي لا تصح حركة الإنسان إلا إذا عرف سرّ وجوده، في أي مكان أكبر سؤال، أخطر سؤال، أن تقول كل يوم: لماذا أنا في الدنيا؟ أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، والآية تقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

منهج الله منهج تفصيلي واسع جداً :

ينبغي أن نعلم أن العبادة بالمفهوم الضيق الساذج أن تؤدي خمس عبادات، أن تؤدي الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، وأن تنطق بالشهادة، لكن العبادة بأوسع معانيها أن تخضع لمنهج الله خضوعاً كاملاً، وإياك أن تظن أن منهج الله هو هذه العبادات الخمس، والله الذي لا إله إلا هو منهج الله يقترب من خمسمئة ألف بند، هذه البنود تبدأ من أخص خصوصيات الإنسان من فراش الزوجية، وتنتهي بالعلاقات الدولية بين الأمم، منهج كامل، كيف تتزوج، كيف تختار زوجتك، كيف تربي أولادك، كيف تعامل جيرانك، كيف تكسب مالك، هذا هو المنهج.

أخواننا الكرام، من لوازم التوفيق أن تعلم علم اليقين وأنت في مكان ما لماذا أنا هنا؟ وأكبر سؤال لماذا أنت في الدنيا؟ أنت في الدنيا بنص القرآن الكريم من أجل أن تعبد الله، والآية:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وقد يفهم بعض الناس العبادة فهماً ضيقاً جداً، يظنون العبادة أن تؤدي العبادات الشعائرية، وهي الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والنطق بالشهادة، ولكن الحقيقة أن العبادة بالمفهوم الواسع أن تخضع لمنهج الله بكل تفاصيله، وتفاصيل هذا المنهج قد تقترب من خمسمئة بند، شؤون حياتك كلها،

زواجك، تربية أولادك، كسب مالك، علاقتك بزوجتك، بوالديك، بأخوتك، بأبنائك، بجيرانك، بمن حولك، بمن فوقك، علاقتك بصحتك، علاقتك بطعامك، بشرابك، علاقتك بالناس، علاقتك بالشأن العام، هذه تفاصيل منهج الله عز وجل.

فلذلك منهج الله منهج تفصيلي واسع جداً، من هنا كان الذي يحرص على سلامته وسعادته لا بد من أن يقف بعلم دقيق على منهج ربه، منهج الله عز وجل افعل ولا تفعل، منهج الله عز وجل من عند الخبير، من عند العليم، منهج الله عز وجل يحقق لك علة وجودك، وهي السلامة والسعادة، فالإنسان قد ينطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامته، من حرصه على سعادته، فيتبع منهج ربه.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

لذلك أتمنى أن تكون متيقناً أن العبادات الشعائرية خمسة بنود في منهج تفصيلي يقترب من خمسمئة ألف بند، الصلاة فرض، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، هذه عبادات شعائرية، لكن العبادات التعاملية أهم، الدليل أن العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه فقال:

((ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا ، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

الصلاة معها صدق ، معها أمانة، معها عفة، معها إتقان عمل، معها حكمة، معها رحمة، معها لطف، الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالإيمان.

من أراد أن يُحدث الله عز وجل فليدعه :

أيها الأخوة الكرام، الإيمان أن تعرف الله أولاً، ثم تتوجه إليه ثانياً، وتتقرب منه بالاستقامة والعمل الصالح.

فلذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

واعلم علم اليقين أنك كمؤمن إذا قرأت مثل هذه الآيات أن تشعر شعوراً وضحاً مركزاً أنك معني بهذه الآيات، الله يخاطبك يخاطب المؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

قال: إذا ردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، فإذا وصلت إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فالله جل جلاله يحدثك، وإذا أردت أن تحدث الله عز وجل فادعه، الدعاء تحديث لله عز وجل، تحادثه بالدعاء، ويحادثك إذا تلوت القرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وأتمنى أن كل آية في القرآن تفتتح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وهذه الآيات تقترب من ثلاثمئة آية، وإذا قرأت هذه الآية يجب أن تشعر أنك معني بهذه الآية، وأن الله يخاطبك كمؤمن.

من يعرف الله يسارع إليه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الآن تصيب المؤمنين، يضعف إيمانهم، تضعف همتهم، يؤثرون الراحة، يؤثرون البقاء بالبيت، يؤثرون التمتع بما هو حلال طبعاً، أنا أتحدث مع المؤمنين، المؤمنون تأخذهم بعض المباحات، ولا تنسوا أن الإنسان أحياناً يحول بينه وبين الاتصال بربه أشياء كبيرة، طبعاً أكبر هذه الأشياء، أو إذا أردنا أن نرتب المعاصي والآثام ترتيباً تصاعدياً نقول: الكفر أن تنكر وجود الله، والشرك تتوهم أن معه آلهة أخرى، إنسان قوي زيد أو عبيد، بيده قوة، يفعل ما يشاء، تتوهمه أنه فعال، لكن الفعال الوحيد هو الله.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

فأن تضع كل ثقتك بإنسان تظنه قوياً وتنسى الله عز وجل هذا نوع من الشرك، فصار عندنا الكفر أن تنكر، الكفر أن تؤمن بجهة قوية غير الله، بعد ذلك هناك ارتكاب الكبائر والعياذ بالله، أو ارتكاب الصغائر، أو التحريش بين المؤمنين، أو التوسع بالمباحات، فكأن هذه الآية تلفت نظر المؤمنين إلى أنك إذا توسعت في المباحات، وآثرت الراحة على العمل الصالح فأنت من الخاسرين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

النفير حركة سريعة، إقبال شديد، همة عالية،

(انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

شددت قدميك إلى المسجد، شددت قدميك إلى عمل صالح، بادرت لإنفاق مالك، بادرت لمواساة من حولك، بادرت لإلقاء العلم على من تعرف، هناك أعمال صالحة تبدأ من الدعوة إلى الله، وتصل إلى أن تميط الأذى عن الطريق، هذه كلها أعمال صالحة، فأنت حينما تعرف الله تسارع إليه.

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

[سورة آل عمران الآية: 133]

المسارعة مطلوبة لأن الوقت محدود، والحياة فرصة ثمينة لا تتكرر، فرصة ذهبية لأنك تنال من خلالها جنة الله التي أعدها لعباده المؤمنين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي سارعوا، شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود، أي الهمة العالية، المبادرة إلى العمل الصالح، إلى طاعة الله عز وجل، إلى خدمة الخلق، إلى نشر هذا الدين، إنفاق المال، مواساة الفقراء، إطعام الجياع، معالجة المرضى، تأمين سكن لبعض الشباب، أنت حينما تتحرك في طريق مرضاة الله تحقق الهدف من وجودك.

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ومنه الجهاد في سبيل الله، أي جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد النفسي.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

هذا الجهاد النفسي، يأتي بعده الجهاد الدعوي، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

ويأتي بعد ذلك الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال لآية:60]

ويأتي بعد ذلك الجهاد القتالي، الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، حتى إن بعض الصحابة عاد من معركة فقال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، لابد من أن تجهد.

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج الآية: 78]

أول مجاهدة جهاد النفس والهوى، غض البصر مجاهدة، إنفاق المال مجاهدة، ضبط اللسان مجاهدة، ضبط الحواس مجاهدة، رعاية الأهل والأولاد مجاهدة، رعاية الجيران مجاهدة، جاهد تشاهد، إن أردت أن تشاهد عظمة الله ادفع ثمن هذه المشاهدة جهاداً،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

2 ـ الجهاد الدعوي :

الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

وسمّى الله هذا الجهاد جهاداً كبيراً لأن تعلم القرآن و تعليمه جهاد كبير، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكمْ ـ مطلقاً ـ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

خيركم، الخيرية المطلقة، من تعلم القرآن وعلمه، أول جهاد جهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني الجهاد الدعوي.

3 ـ الجهاد البنائي :

الجهاد الثالث الجهاد البنائي، إتقان عملك جهاد، الطبيب الذي يتقن عمله مجاهد، يطور خبراته، يخضع لدورات، أي إنسان بأي عمل، تطوير العمل، وتعميق الخبرة فيه، وتقديم خدمة للمسلمين جيدة متقنة، هذا جهاد أيضاً، جهاد نفسي، جهاد دعوي، جهاد بنائي، والجهاد البنائي شاهده في القرآن الكريم هو قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

4 ـ الجهاد القتالي :

والجهاد الرابع: الجهاد القتالي، لكن لا ينبغي أنه لمجرد أن تستمع إلى كلمة جهاد أن يتجه ذهنك إلى الجهاد القتالي، الجهاد مستويات كثيرة، وأهمها على الإطلاق جهاد النفس والهوى، فما لم تجاهد نفسك وهواك، ما لم تحمل نفسك على طاعة الله، ما لم تحملها على البذل والتضحية، لن تكون مؤهلاً للجهادات التالية، جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأول، وأصل كل جهاد، كيف عندنا تعليم أساسي من الأول حتى التاسع، هناك تعليم ثانوي، و تعليم جامعي، و دراسات عليا، و دكتوراه، و نوبل، فالجهاد مستويات، الحد الأساسي الذي لا بد منه، الذي هو أصل كل جهاد، جهاد النفس والهوى، أن تحمل نفسك على طاعة الله، أن تحملها على البذل والعطاء، أن تحملها على أن تلتزم، أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر.

على الإنسان أن يستعد للقاء الله عز وجل و لو كان شاباً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الإنسان مال إلى الراحة، مال إلى النوم المديد، مال إلى الطعام، أنا أتحدث عن المؤمنين، أتحدث عن مؤمن لا يعصي الله، لكن المباحات توسع بها، وهذه مشكلة أولى للمؤمنين، يتوسع بالمباحات، يعتني بهذا البيت عناية فائقة، يعتني بدكانه عناية فائقة، هذه العناية مقبولة ولابدّ منها، أما إذا غطت أوقاته كلها، أو على حساب عباداته هذه العناية أصبحت ليست كما ينبغي فتأتي هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الإنسان أحياناً يعتني بالبيت عناية تفوق حدّ الخيال، بعد أشهر أحياناً أو أيام توافيه المنية، والله أعرف إنساناً اشترى بيتاً بأرقى أحياء دمشق، واعتنى به عناية تكاد لا تصدق، القصة طويلة، وبعد أن انتهت الكسوة كاملة بقي عليه أن ينتقل من بيته القديم في أحد أحياء دمشق العادية إلى هذا البيت الراقي جداً، وافته المنية، فغسل في بيته الجديد.

فالإنسان لا يعرف متى توافيه المنية، لذلك البطولة أن تستعد للقاء الله ولو كنت شاباً.

المؤمن همته عالية يلبي أي دعوة للعمل الصالح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

(اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

أي ملتم إلى الراحة، إلى النوم، إلى القراءة المسلية، هناك صحف، و مجلات، و متابعة مجلات معينة، و بيت مريح، و مقعد وثير، و غرفة نوم مريحة تماماً أكثر وقته نائم، لا أحد يوقظه إلى العصر، جريمة إذا أيقظه أحد، فراحته، وطعامه، وشرابه، وأموره البيتية، كلها درجة أولى، كأنه تثاقل إلى الأرض.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

المؤمن همته عالية، يلبي أي دعوة للعمل الصالح، ينطلق مسارعاً للعمل الصالح، الآية:

(انْفِرُوا)

الآن المشي العادي مشي، أما إنسان نفر إلى الجهاد أي أسرع إلى الجهاد فحركة سريعة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

هناك سؤال محرج:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ)

أي الآخرة، والله يا أخوان كلي رجاء أن تستوعبوا كلمة اللانهاية، الأبد.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة الطلاق الآية: 11]

أكبر رقم تتصور أمام اللانهاية صفر، ما هذا الرقم؟ ألف؟ لا، أريد مليوناً، ألف ألف؟ لا، أريد مليون مليون، أريد مليون مليون مليون، أريد مليار مليار، أريد مليار مليار حتى ينقطع نفسي، أريد مليار ليوم القيامة، كل هذه الأرقام صفر أمام اللانهاية، واحد بالأرض وأصفار للشمس، تصور مئة و ستة و خمسين مليون كيلو متر أصفار، كل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية، واسألوا أهل الاختصاص قيمته صفر، واحد بالأرض وأصفار إلى الشمس، فالدنيا لو عشت مئة وثلاثين سنة، أنا معلوماتي المتواضعة، أعرف شيخاً أزهرياً عاش مئة و ثلاثين سنة، أطول عمر سمعت به ، لو عاش مئة و ثلاثين أمام الأبد صفر، لو كنت بعهد سيدنا نوح والحياة ألف سنة أمام الأبد صفر، لو عشت مليار سنة أمام الأبد صفر، أنت تضحي بالآخرة.

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

الراحة، البيت، النوم، متابعة برنامج معين، قراءة مجلة، قراءة جريدة، تجلس مع اهلك، لا يوجد موضوع مهم، تسهر سهرة، كلام فارغ، كلام عن الطعام، والشراب، أو السياسة، هذا الوقت أنت بضعة أيام، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

والله أيها الأخوة لا يوجد إنسان يرتكب خطأ يفوق حدّ الخيال كالذي يضيع وقته، لأنه هو وقت، عندنا تعبير دقيق دراسة الوقت، أو إدارة الوقت من صفة الكبار، الأشخاص المتفوقون يحسنون إدارة الوقت، هناك وقت للدراسة، وقت للنوم، وقت للراحة، وقت تجلس مع أهلك، وقت تطالع، تقرأ، أنا اطلعت على إحصائية دقيقة أن الإنسان الغربي يقرأ بالسنة ثمانين كتاباً، وسافرت كثيراً، ما رأيت في ركاب القطارات أو الطائرات إلا من يقرأ، الإنسان في الشرق الأوسط كل ثمانين إنساناً يقرؤون كتاباً واحداً بالسنة، الواحد يقرأ ثمانين كتاباً في السنة بالعالم الغربي، والثمانون بالشرق الأوسط يقرؤون كتاباً واحداً، لا أحد يقرأ، القراءة محدودة جداً، المعلومات محدودة، التصور محدود، القرار خاطئ.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

اطلب العلم، اطلب المعرفة، ألّف كتاباً، اعمل شيئاً، ألق درساً، ادعُ إلى الله، ارعَ مسكيناً، ارعَ يتيماً، ارعَ أرملة، أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، اسأل نفسك دائماً لو أن الله سألني: يا عبدي ماذا فعلت من أجلي؟ والله يا ربي أكلنا، وشربنا، واشترينا بيتاً، وعملنا عدة نزهات، وكنا مسرورين جداً، ماذا فعلت من أجلي؟ هل واليت فيّ ولياً؟ هل عاديت فيّ عدواً؟ حضرت درس علم؟ حرصت على معرفة القرآن الكريم؟ على معرفة السنة النبوية؟ خدمت إنساناً؟ تكفلت بطالب علم؟ أطعمت جائعاً؟ رعيت جيرانك؟ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، الأعمال الصالحة كثيرة ولو أطعمت هرة.

النبي ذكر:

((بينما رجلٌ يَمشي بطريق اشْتَدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يَلْهَثُ، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغَ مِني، فنزل البئر، فملأ خُفَّهُ ماء، ثم أمْسَكه بِفيهِ، حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البَهَائِمِ أجرا؟ فقال: في كُلِّ كَبِدٍ رَطبَةٍ أجرٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك عن أبي هريرة]

أطعمت هرة أحياناً، أطعمت طيراً، والله أعرف أخاً يشتري طعام الطيور بكميات كبيرة، يضع هذا الطعام على سطح البيت، تأتي الطيور وتأكل، له عمل، يا أخي أكلنا، هذا ليس عملاً صالحاً، نمنا نوماً عميقاً هذا ليس عملاً صالحاً، أنجبنا أولاد طبعاً الابن محبب، رعيت ابنك، ألبسته، والله شيء جميل، الابن طفل جميل، يلبس لباساً جميلاً، شيء جيد، شيء ممتع بالبيت، أنت ماذا فعلت من أجل الله؟ هل واليت فيّ ولياً؟ طلبت العلم؟ خدمت الناس؟ نصحتهم بعملهم؟ ولله هناك أعمال لا يعلمها إلا الله، يؤديها

أناس كبار عند الله، أنا لا أريد العمل الصالح بالتعبير المعاصر، إنسان عرض عليك عملاً لبيته، العمل الصالح هدف يومي عندك، معظم المسلمين إذا عرض عليهم عمل صالح يؤدونه، هذا أداء عفوي، أريد العمل الصالح هدفاً مركزاً جداً في حياتك، الإنسان عندما يغادر الدنيا يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

تميز صلاة الجمعة بخطبتها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

بالأشياء الواضحة بحياتنا اليوم، بادر لحضور درس علم، يقول: أنا الحمد لله صليت صلاة الجمعة، لحقت الإمام بالركعة الثانية لكني صليتها، والخطبة؟ الله قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الجمعة الآية: 9]

افتح كل كتب التفسير ما هو ذِكر الله؟ الخطبة، الجمعة متميزة بالخطبة، عبادة دعوية كل جمعة، هو إذا ظنّ أنه إذا لحق الركعة الثانية أدرك الجمعة، لا لم يدركها، الجمعة من أجل الخطبة، وينبغي أن تأتي من أول ساعة، كي تستمع إليها بأكملها، الجمعة عبادة، الصوم عبادة، الحج عبادة، الصلوات عبادات، هذه عبادات شعائرية، أما الأهم فالعبادات التعاملية، إنفاق المال، رعاية الفقير، رعاية اليتيم، رعاية الأرملة، تعليم العلم، الدعوة إلى الله، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الدنيا لا تتناقض مع الإيمان والعمل الصالح والسعي للآخرة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أجمل بيت عمرته، هذا تجلس به دائماً؟ لا، يجب أن تخرج منه لكن لن تخرج عامودياً بل أفقياً، أي بيت تسكنه مهما كان فخماً، لابد من أن تخرج منه بشكل أفقي، بنعش، هل هناك أحد لا يموت؟ الناس كلهم، يكون ساكناً ببيت، والله أحياناً أدخل لبيوت أقول هذا البلاط من اختاره؟ المرحوم، من اختار هذا الجبصين، شيء رائع جداً؟ من اشترى الثرية؟ المرحوم، من اشترى السجادة؟ المرحوم، أين هو المرحوم؟ هذه الحياة هكذا، أنا أتكلم بالواقع يا أخوان، والله أحياناً يكون هناك تعزية بأحد أفخم أحياء دمشق، البيت سعره يقدر بمئة وثمانين مليوناً، أحياناً أحضر التعزية، قد تكون قرابة، أقول هذا البيت، من كساه؟ الذي كساه جالس بباب صغير بالقبر، هل هذا الكلام صحيح؟ الذي اشترى البلاط، واختار هذا المنجور، واختار الجبصين، اشترى الثريات، هذا الطقم من الكنبات سعره ثلاثة ملايين اشتراه من

إيطاليا، أين هو صاحب البيت؟ بباب صغير، البطولة أن تهتم بمثواك الأخير، اقرأ كل النعوات وسيشيع إلى مثواه الأخير؛ في باب صغير مثلاً، أو في المهاجرين، هذا المثوى الأخير، مادام القبر هو المثوى الأخير، ما هو المثوى المؤقت؟ بيتك، بقدر ما تعتني به هو مثوى مؤقت.

والله أعرف شخصاً اشترى بيتين، بلاطة كاملة بالطابق الثاني عشر، مطل على الشام، وبقي سنتين يكسو هذا البيت، قال لي مهندس يعمل عنده: أذواقه ليست معقولة إطلاقاً، أفضل نوع من الرخام، حتى هناك نوع شفاف وضع تحته إضاءة، انتهت الكسوة، وانتهى أجله مع انتهاء الكسوة، وغادر الدنيا.

هذه الحياة، معي مئة قصة بهذا الموضوع، فأنت فكر بالآخرة، اشتغل، أسس عملاً، ادرس ، خذ دكتوراه، توظف، تزوج، أنجب أولاداً، هذا كله وفق منهج الله، هذا ضروري، لكن إياك أن تنسى الآخرة، إياك أن تنسى الجنة والنار، إياك أن تنسى العمل الصالح، إياك أن تنسى طاعة الله، إياك أن تنسى الاستقامة، الدنيا بمصادر مشروعة، وبمنهج مشروع، لا شيء فيها، لكن هذه لا تتناقض مع الإيمان، والعمل الصالح، والسعي للآخرة.

العاقل من يعد لساعة الموت عدتها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

إلى متع الأرض، إلى البيت، تجد كلما تكلفه بعمل، يؤثر الراحة في البيت فقط، ينسحب من أي عمل صالح، يعتذر، تطلب منه مبلغاً مثلاً لجامع، لشيء عمل دعوي، والله لا يوجد معي، نقدي لا يوجد معي، كلها أموال جاهدة:

(اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

والله مرة شيعنا أخاً من أخواننا، دفن أمامي، وضع في القبر، كشف عن وجهه ثم أهالوا عليه التراب، طبعاً وضعوا البلاطة وأهالوا التراب، وانتهى، والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت على وجه الأرض إنساناً أعقل ولا أذكى ممن يعمل لهذه الساعة، لساعة الموت، يستطيع واحد من الحاضرين وأنا معكم أن يقول: أنا لا أموت، مستحيل!.

إنسان في مصر يعمل بالفن، سمعت عنه، أنه لم يأكل بحياته طعاماً في المساء، حفاظاً على صحته، يأكل فواكه، و لم يركب طائرة بحياته خوفاً أن تسقط فيموت، وله قصص طويلة، ووصل للسادسة والتسعين، لكن بعد ذلك مات.

كل مخلوق يمـــوت ولا يبقى إلا ذو العزة والـجبروت

* * *

والليل مهما طـــال فلابد من طلوع الفـــــجر
والعمر مهما طـــال فلا بد من نزول القـــــبر
* * *
وكل ابن أنثى ولو طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمــول
فإذا حملت إلى القبور جنــازة فاعلم أنك بعدها محمـــــول
* * *

متاع الحياة الدنيا قليل إذا قيس بالآخرة :

قال:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

إلهك الذي خلقك للجنة ينصحك، قال لك: متاع الحياة الدنيا إذا قسته بالآخرة فهو قليل، متاع الدنيا قليل، كلها كم سنة، والله أنا كلما أسمع عن إنسان توفي، من باب الاستفهام أسأل: كم عمره؟ يقول لك: عمره سبعة و خمسون، ثمانية و أربعون، ثلاثة و ستون، واحد و سبعون، أكثر شيء يصل للسبعين تقريباً، للثمانين قلائل، ينهي دراسته، يأخذ لسانس، يتعين بوظيفة، ويتعين بأربع أو خمس محافظات بعد ذلك ينتقل إلى الشام، عندما يأتي إلى الشام يكون عنده بيت صغير يقوم بكسوته، يؤسسه، راح من عمره خمسون سنة، هذه الدنيا، انظروا يا أخوان، هذه نصيحة إلهية لنا جميعاً،

(مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء الآية: 77]

أي كم سنة؟ الآن إذا أراد إنسان أن يعمل إحصاء دقيقاً، عاش ثلاثاً و ستين سنة، كم مرة عزم فيها؟ وكم مرة عمل نزهة؟ عدة مرات فلإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

مادام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح :

أما الآية الكريمة:

(إِلَّا تَنْفِرُوا)

من محبته لكم، من حرصه عليكم، من حبه لكم،

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

إنسان بدوي عنده أرض بشمال جدة، فلما توسعت جدة، ارتفعت أسعارها ارتفاعاً كبيراً، لكن هو لا يوجد عنده خبرة بالأسعار، باع هذه الأرض لمكتب عقاري خبيث جداً، اشتراها بربع قيمتها، ضحكوا عليه، فهؤلاء الثلاثة عمروها بناية مؤلفة من اثني عشر طابقاً، قصة واقعية، فأحد الشركاء وقع من الطابق الثاني عشر إلى الأرض، فنزل ميتاً، الثاني دهسته سيارة، فانتبه الثالث، ربط هذه القصص بموضوع أن أخذوا الأرض بربع قيمتها، فبحث عن صاحب الأرض حوالي ستة أشهر، وأعطاه ثلاثة أمثال قيمتها، فهذا البدوي قال له: ترى أنت لحقت حالك، وأنا أقولها لكم وأقولها لنفسي: مادام القلب ينبض فعلى الإنسان أن ينتبه، كل شيء يحل في الدنيا، توبة نصوح.

((لو بلغتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ، ثم استَغْفرتَني غَفَرْتُ لك، ولا أبالي))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

مادام القلب ينبض فالتوبة مقبولة، توبة كاملة، اعمل توبة نصوحة، واعمل برنامجاً دينياً، وأدِ الصلوات الخمس أداء متقناً، وأنفق جزءاً من مالك، واذكر الله عز وجل، واقرأ القرآن، حتى الله عز وجل يقبلك في عباده الصالحين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (34-70) : تفسير الآية 40 ، تلازم النصر مع السكينة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-01-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى ذات كاملة واجب الوجود وهو على كل شيء قدير :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية منطلق لموضوع كبير، هذا موضوع هو أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، هو ذات كاملة، واجب الوجود، لكن ما سواه ممكن الوجود، معنى ممكن أي ممكن أن يكون موجوداً أو ألا يكون، معنى آخر ممكن أن يكون على ما هو كائن أو على خلاف ما يكون، أليس من الممكن أن يجعل الله الكفار في كوكب آخر؟ أو في قارة أخرى؟ أو في حقبة زمنية معينة؟ لا يوجد حروب، ولا كفر، ولا معاصي، ولا آثام، المؤمنون في كوكب، والكفار في كوكب، لكن شاءت حكمة الله أن نكون في معاً في مكان وزمان واحد.

البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما :

لذلك القرآن طافح بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الجمعة الآية:9]

هناك آية واحدة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)

[سورة التحريم الآية: 7]

هناك مؤمنون، وهناك كفار.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى *إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

الصنف الأول صدق أنه مخلوق للجنة، هؤلاء المؤمنون، بناء على هذا التصديق اتقوا أن يعصوا الله عز وجل، وبنوا حياتهم على العطاء، بالمؤمن صفة أساسية، صارخة، شمولية، قطعية، أن حياته كلها عطاء، يعطي من وقته، من ماله، من علمه، من خبرته، وهناك صفة أخرى لأهل الدنيا يأخذون، هذا يعطي، وهذا يأخذ.

الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي :

ومن أروع ما قدم بعض المؤلفين كتاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قدمه صاحب الكتاب للنبي الكريم، قال له:

"يا من جئت الحياة، أعطيت ولم تأخذ".

الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، أما الأقوياء فيمدحون في حضرتهم، لذلك الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي، من هنا خاف الناس الأقوياء، وأحبوا الأنبياء، هناك هرم بشري، هناك بشر، و للبشر أعلام، أعلام البشر هم المتفوقون، المشاهير، بالتعبير المعاصر النجوم، أعلام البشر زمرتان، زمرة سبب قوتهم وكمالهم وأخلاقهم معرفتهم بالله، وقسم آخر سبب قوتهم بأسهم وبطشهم وشدتهم.

هناك قوي من طغاة الأرض، بعض الحروب العالمية تركت خمسين مليون قتيل، وخمسين مليون معاق، وخمسة ملايين مشردين، وهناك أنبياء عاشوا للناس، لذلك الناس جميعاً تبع لقوي أو نبي.

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن فرق صارخ :

النقطة الدقيقة: أن المؤمن من أتباع الأنبياء، وأن غير المؤمن من أتباع الأقوياء، فبطولتك أن تكون تابعاً لمن؟ أن تكون تابعاً للأنبياء، تطبق المنهج الذي جاؤوا به، تتقرب إلى الناس بكمالك، بعطائك، بحلمك، بعدلك، بإنصافك، الفرق بين الاثنين فرق صارخ.

مثل للتقريب: قطعة لحم، واللحم غذاء أساسي، والإنسان إذا كان جائعاً جوعاً شديداً، أثمن طعام يمكن أن يقدم له هو اللحم المشوي، وهناك قطعة لحم متفسخة، رائحتها تصل لخمسين متراً، تكاد تخرج من

جلدك من رائحتها، القطعتان من اللحم، قطعة لحم تتمنى أن تأكلها وأنت جائع، وقطعة لحم تخرج من جلدك منها من شدة رائحتها النتنة، صدق ولا أبالغ هكذا البشر، إنسان تتمنى أن تكون معه، تتمنى أن تجالسه، تتمنى أن تكون في خدمته، تتمنى أن تصاحبه، هؤلاء المؤمنون تتمنى أن تتزوج منهم، هناك كمال، و حلم، و رحمة، و إنصاف، و كلام منضبط، و عفة، و رقي، وهناك إنسان كتلة سيئات، كاذب، منحرف، وصولي، منافق، لذلك دقق:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون]

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

[سورة الماعون]

إنسان آخر.

قضية الإيمان والكفر قضية حاسمة :

أخواننا الكرام، الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن كما بين الأبيض والأسود، كما بين قطعة اللحم المتفسخة وبين قطعة اللحم الطازجة، بين الأزهار الفواحة وبين الأقذار التي لا تحتمل، فرق كبير جداً، يقول لك: هذا يصلي، القضية أكبر من الصلاة، أكبر من مليون صلاة، المؤمن صادق لا يكذب، المؤمن لا يخون، لا يعتدي على أعراض المسلمين، لا يعتدي على أموالهم.

فيا أيها الأخوة الكرام، قضية الإيمان والكفر قضية حاسمة، من هنا الله عز وجل جعل المؤمنين وجعل غير المؤمنين في مكان واحد وفي زمان واحد، لترى الفرق الكبير بين من عرف الله وبين من لم يعرف الله.

من نصر دين الله عز وجل ارتقى عنده :

لذلك الله عز وجل يقول في سورة التوبة في الآية الأربعين:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)

إذا أنتم تأبيتم أن تنصروه، الله ينصره.

لكن هناك سؤالاً: الله عز وجل أرادنا أن نرقى عنده بنصرة أنبيائه، فإذا استنكفنا فهذا شأننا، عندئذٍ ينصره هو، لكن أراد الله عز وجل أن يترك نصرته لنا لنكسب العمل الصالح، هو قادر بأي لحظة أن ينصرهم، ولكن حينما تقف موقفاً مشرفاً من نبي كريم، حينما تدعم داعية صادقاً، حينما تقف مع الحق، حينما ترفض الباطل، تكون قد نصرت هذا الدين، ماذا نفهم من قوله تعالى :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ)

[سورة محمد الآية: 7]

الله يحتاج من ينصره؟ هو القوي، كن فيكون، زل فيزول، ولكن المعنى عندما تدعم دينه، حينما تقوم وتصلي وهناك عدد كبير لا يصلي، أنت إذا قمت إلى الله نصرت دينه، حينما تدافع عن مؤمن نصرت دينه، حينما تذب عن الحق نصرت دينه، حينما تدعم إنساناً مستقيماً نصرت دينه، حينما تنطق بالقرآن نصرت دينه، حينما ترفض كلام أهل الكفر نصرت دينه، والله الذي لا إله إلا هو هناك مليون مليون طريق لنصر هذا الدين، الله عز وجل قوي عزيز، لا يحتاج من أحد أن ينصره، ولكنك إذا نصرت دينه ارتقيت عنده، وإذا نصرت دينه نصرك، والآية الكريمة:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 160]

النصر الحقيقي من عند الله عز وجل :

الآية الأولى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 126]

النصر الحقيقي من عند الله، قد يكون هناك وسائل، قد تملك سلاحاً وقد لا تنتصر، قد تمتلك الرجال وقد لا تنتصر بهم، قد تمتلك العداد وقد لا تنتصر به، أما النصر فمن عند الله، أول حقيقة في الدين:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

هو الناصر.

الآن هذا النصر الذي هو من عند الله له ثمن، ما ثمنه؟

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

تنصر دينه، تدافع عن المؤمن، تقف مع الحق، تحكم بالعدل، لا تأخذك في الله لومة لائم، إذاً نصرت دينه، والله الذي لا إله إلا هو باليوم الواحد هناك مئات المواقف متاح لك فيها أن تنصر دينه، مثلاً مؤمن غائب عن الجلسة، و هناك إنسان يكرهه لأنه مؤمن، فطعن بأمانته، وتعلم أنت علم اليقين أنه نقي، وأنه طاهر، وأنه عفيف، فدافعت عنه، أنت في هذا الكلام نصرت دين الله، لأنه هو مؤمن، عند الناس مؤمن، وتعلمه يقيناً أنه صادق، وأمين، وعفيف، لكن دائماً هناك عداء أساسه العقيدة، المؤمن قد لا يؤذي أحداً قطعاً وله أعداء، هذه العداوة هي عداوة قابيل لهابيل، ماذا فعل قابيل؟ قابيل قاتل، وهابيل مقتول، ماذا فعل قابيل؟ قاتل، لذلك العداوة عداوة حال، عداوة موقف، فالمؤمن مؤمن، لأنه مؤمن هناك

من يعاديه، النبي ماذا فعل؟ قدم للناس كل خير.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الفرقان الآية:31]

هناك أعداء لله عز وجل، هكذا أراد الله عز وجل.

الحكمة من وجود المؤمنين و الكافرين في مكان و زمان واحد :

مرة ثانية أقول لكم: كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب آخر، أو في قارة أخرى، أو في حقبة أخرى، ولكن شاءت حكمة الله أن نكون معاً، على وجه الأرض، وفي كل مكان وزمان، السبب لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون النصر إلا بالبذل والتضحية، لذلك معركة الحق والباطل أرادها الله، أرادها الله لأنك إذا نصرت الحق وعاديت أهل الباطل ارتقيت عند الله، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية.

زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق الآية التالية :

الآن تطبيق عملي، هناك آية كريمة أخوتنا الكرام:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية:21]

آية قرآنية، زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق هذه الآية، في النهاية المؤمنون ينتصرون، لكن الحرب جولات، هناك جولات وجولات، ونحن جاء دورنا في هذا العصر، الكافر قوي جداً، الكفار أقوياء، بيدهم زمام المقدرات في الأرض، ونحن ضعفاء، لكن ما دمت مع الله فالله معك إن شاء الله.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)

ماذا فعل كفار قريش؟ قال:

(إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

هذا الإنسان الراقي، الحليم، الرحيم، اللطيف، الذي اتصل بالله، جاءه الوحي، أراد إنقاذ أمته، لما خرج إلى الطائف، لماذا خرج إلى الطائف؟ ليهديهم إلى الإسلام، ليرحمهم، كذبوه، سخروه منه، أغروا سفهاءهم أن يضربوه وضربوه، جاءه ملك الجبال، قال يا محمد: أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك:

((إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، قال : لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي ـ هذا الولاء الصعب، هذا الولاء الذي معه الوفاء ـ اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

هذا الإنسان الكامل الذي ما قبل أن يؤدب معارضوه إطلاقاً، الله عز وجل لما أرسل له ملك الجبال، قال هذا الملك للنبي الكريم:

((إن شئت أطبق عليهم الأخشبين))

أي مكنه الله أن ينتقم منه، لم يقبل.

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

هذا هو المؤمن، فأنت أطمئن كمؤمن الله سوف ينصرك، أما إذا نصرك إنسان ودعمك، ودعم مقولتك، ودافع عنك، ووقف أمام خصومك وقفة جريئة، فهذا كسب عمل صالح كبير، أما لو تخلى عنك كل من حولك الله لن يتخلى عنك، حقيقة مهمة، الله عز وجل يريدنا أن ننصر الحق، كي نرقى عنده، كي نكون أبطالاً عنده، كي يرقى بنا هذا النصر إلى عليائه، لكن لو تخلينا عن نصرة أهل الحق، الله ينصرهم ويستغني عنا بنصرتهم، فأنت إذا نصرت أهل الحق من أجل أن ترقى عند الله فقط، أما هو فسوف ينصرهم.

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ويتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

النبي الكريم علمنا في درس الهجرة حقائق بليغة جداً هو كإنسان أخذ بالأسباب، اتجه إلى غار ثور، قبع فيه ثلاثة أيام، ثم استأجر خبيراً في الطريق، وناقة جيدة هاجر بها، أي أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، اتجه نحو الساحل ليعمي على المطاردين حركته، قبع في غار ثور ثلاثة أيام، استأجر دليل طريق وراحلة، أخذ بالأسباب كلها، لكن عندما وصلوا إليه، ما كان يعتمد على هذه الأسباب الذي أخذ بها، كان يعتمد على رب الأرباب، فلما وصلوا إليه، قال:

((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

هذا الكلام أخواننا الكرام ينقلنا إلى حقيقة دقيقة، ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وينبغي أن تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، دائما أن تأخذ من طرف العصا قضية سهلة جداً، أما أن تمسك العصا من وسطها القضية تحتاج إلى مهارة عالية جداً، فأن ألا تأخذ بالأسباب كشأن المسلمين اليوم، القضية سهلة جداً، أو أن تأخذ بها كأهل الغرب وأن تعتمد عليها وأن تأهلها، وأن تنسى الله قضية أهون، كلا الطرفين خاطئ، البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها

ليست بشيء.

أي يمكن أن تقرأ الكتاب المدرسي عدة مرات، تلخصه كله، تحفظه كله، وفي الوقت نفسه وأنت على هذا الإتقان الشديد، من أعماق أعماق تقول: يا رب أنت المسلم، أنت الذي تلهمني الصواب في الامتحان.

الإنسان حينما يأخذ بالأسباب ينسى مسبب الأسباب، حينما يأخذ بالأسباب ينسى الله عز وجل، عندك سفرة إلى حلب بمركبتك، أجريت مراجعة للسيارة، كل شيء راجعته جاهزيته تامة، عندك إمكان بعد هذه المراجعة التامة أن تشعر بافتقارك إلى الله؟ أن تقول: يا رب! أنت المسلم، يا رب! احفظني في هذا السفر، يا رب! أن رفيقي في السفر، وأنت خليفتي في الأهل والمال والولد، الشيء المألوف الإنسان إذا أخذ بالأسباب وكان إيمانه ضعيفاً، ينسى مسبب الأسباب، ينسى الله، وأنه حينما لا يأخذ بالأسباب وهو عاصٍ لله، عندئذ يتواكل على الله، إما أن يتواكل أو أن يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، أما الموقف الكامل فأن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه موقن بنصر الله له، مع أنه موعود بالنصر، أخذ بالأسباب، أعدّ العدد، بكل معركة من معاركه كان يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وبعدئذٍ يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

من كان مع الله كان الله معه :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ)

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام خرج مع أبي بكر.

(أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)

لكن المشكلة أن هذه الخطة المحكمة - توجه نحو الساحل، وقبع في غار ثور ثلاثة أيام- مع كل هذه الخطط، والاحتياطات، وصلوا إلى الغار، الحكمة من وصول الكفار إلى الغار أن يتبين أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أخذ بالأسباب لم يكن يعتمد عليها، كان يعتمد على الله، فلما قال له الصديق: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا ، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام :

((يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا))

هناك رواية ضعيفة أن سيدنا الصديق قال للنبي الكريم، وهو خائف، قال: يا رسول الله لقد رأونا، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف]

أي أنت إن كنت مع الله عز وجل ينبغي ألا تخاف، إذا كان معك خالق السماوات والأرض، إذا كان معك فمن عليك؟ وإن كان عليك فمن معك؟

أخواننا الكرام، والله أن يكون الله معك في متناول يد كل مؤمن، كن معه يكن معك، كن معه مطيعاً يكن معك ناصراً، كن معه يكن معك، وهذا متاح لكل مسلم، أنا لا أتكلم عن حالات خاصة، متاح لكل واحد منكم، إذا كنت مع الله كان الله معك.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

أنا أقول دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يدعوه إلا ليستجيب له :

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

أخواننا الكرام، قد تكون قوياً، وقد تكون غنياً، وقد تملك حلاً لكل مشكلات أهل الأرض، وإذا تخلى الله عنك ترى كم أنت ضعيف، وقد تكون ضعيفاً فإذا كنت مع الله شعرت بقوتك، القوة والضعف قضية نسبية، إن كنت مع الله شعرت بقوتك، وإن كنت بعيداً عن الله شعرت بضعفك، لذلك الله عز وجل يقول فيما يرويه النبي عن ربه:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كيف يكون المؤمن قوياً؟ بالله عز وجل، يستعين بالله، يتوكل على الله، يستقيم على أمر الله، يدعو الله عز وجل، باب الدعاء هناك غفلة كبيرة عنه.

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: 60]

وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا،

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

والله أيها الأخوة لو فتحتم على أنفسكم هذا الباب الكبير من الخير، باب الدعاء، اسأل ربك كل شيء، اسأله ملح طعامك، هكذا ورد بالحديث، اسأله حاجتك كلها، اسأله شسع نعلك إذا انقطع، من لا يدعوني أغضب عليه، اسأله، اطلب منه، أقم مناجاة بينك وبينه، يا ربي وفقني، يا ربي ألهمني الصواب، قبل أن تخطب امرأة، يا رب هيئ لي زوجة صالحة، زوجتك حامل، يا رب اجعل هذا الابن صالحاً، اسأله،

ناجه، لكن من الذي يسأل ربه؟ المستقيم، المخطئ يستحي أن يناجيه، أنت استقم على أمره، واسأله كل شيء، اسأله حاجتك كلها، ولا تقلق.

إذاً

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ - النبي الكريم - لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

كلام دقيق جداً، أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، النبي أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، لكنه لم يعتمد عليها، اعتمد على الله، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا – أو لقد رأونا- عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام :

((يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا))

الموقف الكامل ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

السكينة راحة نفسية عجيبة لا يشعر بها إلا المؤمن :

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

ما هذه السكينة؟ الله عز وجل يرزقنا السكينة، السكينة حالة أمن عجيبة، حالة راحة نفسية عجيبة، حالة ثقة بالمستقبل عجيبة، حالة شعور بالتفوق عجيبة، حالة شعور بالقوة عجيبة، سكينة، الله عز وجل أنزل عليك السكينة، آية قرآنية:

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

تسكن فيها، ترتاح، لا تخاف أحداً، لا تخاف دماراً، لا تخاف فقراً، لا تخاف مرضاً عضالاً، النبي الكريم أعطي دواء لذات الجنب، مرض عضال، فغضب وقال: ذلك مرض ما كان الله ليصبني به، وأنت أيها المؤمن، أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

إله عظيم بيده ملكوت السماوات والأرض، يطمئنك ويقول: لا تخف، ولا تحزن، لا تخف من المستقبل، ولا تحزن على الماضي، الآن أحياناً إنسان بالستين أو بالسبعين هناك أمراض عضالة تأتي في آخر سنوات العمر، هناك شلل، و ورم، و أمراض تنهد لها الجبال، المؤمن واثق أن الله عز وجل يحميه منها، ذلك مرض ما كان الله ليصيبني به، فأنت حينما تعيش تقياً تعيش حياة سعيدة، أكبر عطاء إلهي أنه طمأنك، والدليل أن الصحابة الكرام في قول الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية:51]

لنا، ما قال علينا، أنا أقول لكم هذه الكلمة: أنت اجهد أن تستقيم على أمر الله، ويجب أن يمتلئ قلبك ثقة بالمستقبل، لا يوجد عندك دمار أبداً، أهل الدنيا من بعدهم عن الله عز وجل يتوقع شللاً.

مرة إنسان زار مريضاً معه أزمة قلبية، و له بيت معتني به عناية تفوق حدّ الخيال، قال هذا المريض لصديقه الزائر: أنا خائف من هذه المرأة اللعينة بعدما موت أن تتزوج إنساناً يأتي إلى هذا البيت على بارد الماء، ما هذه الحالة؟ تجد البعيد عن الله عنده قلق دائم، عنده خوف، عنده شعور أنه هو سوف يدمر،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مؤمن غال عند الله.

الله عز وجل لا يعامل الإنسان الفاسق كالإنسان المؤمن :

أنا أريد هذه النقطة أن تكون واضحة عندكم، مادمت مستقيماً على أمر الله، يجب أن تشعر بالأمن، والله عز وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

أي أنت ألا تعجب من قوله تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

تتصور أن الله عز وجل يعامل الإنسان الفاسق كالإنسان المؤمن؟ مستحيل!.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

[سورة الجاثية الآية:21]

دعك من الآخرة، الحياة الدنيا مستحيل أن يكون فيها المؤمن كغير المؤمن، في بيته، في صحته، في زواجه، في أولاده، مستحيل! في الدنيا قبل الآخرة، والدليل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

معقول، حياتك غير حياته، زواجك غير زواجه، عملك غير عمله، دخلك غير دخله، سمعتك غير سمعته، أنت مؤمن، فأنا أتمنى أن المؤمن إذا استقام على أمره تماماً ألا يسمح بوساوس من الشيطان أن

تخيفه من الله عز وجل

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

الله عز وجل يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين :

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

أخواننا الكرام، هذه السكينة أجمل ما عند الله، أحلى عطاء لله، سكينة، تجلس مع مؤمن، والله فقير لا يوجد عنده شيء، عنده ثقة بنفسه، عند ثقة بالله، عنده شعور بالسعادة، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

إذاً:

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

شعور بالراحة، شعور بالسعادة، بالطمأنينة، بالرضا، شعور بالأمن، عدم الخوف من المستقبل، عندك بيت، وزوجة، بيتك إسلامي، زوجتك محجبة، البيت فيه صلاة.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية:132]

لا يوجد كلام بذيء، لا يوجد نظرات لا ترضي الله عز وجل، لا يوجد ملهيات بالبيت تبعدك عن الله عز وجل، بيت إسلامي، ماذا تنتظر من الله أن يعاملك؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

لك معاملة خاصة، في كل الأزمات العامة لك معاملة خاصة.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)

بعضهم قال: على سيدنا الصديق، لأنه كان قلقاً.

(وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

اعتقد يقيناً أنه لا يمكن أن تكون كلمة الذين كفروا هي العليا، قد تعلو أحياناً لفترة محدودة، ثم تسقط، لذلك إذا كنت مع الله كان الله معك، أنت في قوة دائمة، وفي تألق دائم.

كلمة الله هي العليا و الحق هو المنتصر :

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

لكن مرة أحد الأخوة الكرام توقع أن حركة الكلمة الثانية هي الفتحة:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ)

فهو توهم أن الواو عطف، فقال لآخر: لماذا لم تأت مفتوحة، فأجابه: لو كانت الواو حرف عطف لكان عندنا مشكلة كبيرة، أي جعل كلمة الذين كفروا سفلى بعد أن كانت عليا،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، في أي زمان، في أي مكان، وكلمة الله استئناف، الواو استئنافية،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، دائماً كلمة الله هي العليا، الحق هو المنتصر، المصير للحق.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف]

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

الآن أنت أي طرح لأي موضوع، طرح أرضي بعيد عن الدين سينهار، مثلاً كم فرقة ضالة جاءت للعالم الإسلامي؟ والله آلاف الفرق، وقويت، وتلاشت، لم يبقَ إلا الإسلام، هذا دليل كبير جداً، أي فرقة ضالة غيرت وبدلت وانحرفت بعقيدتها وسلوكها تلاشت، ولم يبقَ على الساحة العامة إلا الإسلام كطود شامخ

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، جعلها سفلى بينما كلمة الله هي العليا دائماً.

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

إن شاء الله نتابع هذه الآيات في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (35-70) : تفسير الآيات 41 - 42 ، المسارعة إلى الجهاد، اليقظة قبل فوات الأوان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-01-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

على الإنسان أن ينفر في سبيل الله بأي حال كان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والأربعين وهي قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أيها الأخوة، أما معنى قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً)

أي أيها المؤمنون سارعوا إلى الجهاد في سبيل الله، لكن بأية حال أنتم؟

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

قال: خفافاً من السلاح، وثقالاً مع السلاح، أي معكم سلاح أو لا يوجد معكم، خفافاً من السلاح، أو ثقالاً معكم سلاح، خفافاً ركباناً، وثقالاً مشاة، إن كنتم ركباناً فانفروا، وإن كنتم مشاة فانفروا، مشاة أو ركباناً، مسلحين أو من دون سلاح، خفافاً شباباً -الشاب نشيط- أو شيوخاً ثقالاً، الشيخ حركته بطيئة، بسلاح أو من دون سلاح، راكب أو ماشي، شاب أو شيخ، هزيل أو سمين، إذا الإنسان كان رشيقاً ونحيلاً كانت حركته سهلة، والذي عنده وزن حركته أصعب، أيضاً

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

أيها الأخوة، لابد من أن تنفر في سبيل الله بأية حال أنت، أقول لكم هذا مع التوسع أي أنت لا بدّ من أن تسعى إلى مرضاة الله، فقير، غني، صحيح، مريض، طالب علم، غير طالب، تعمل في التجارة، تعمل في الصناعة، متقاعد، بأية حالة أنت ينبغي أن تسعى إلى مرضاة الله، لأن هذا العمل مصيري، معنى مصيري أي متعلق بسعادتك الأبدية، هناك أعمال لا تقدم ولا تؤخر، الإنسان ينجح من السابع إلى الثامن، من الثامن إلى التاسع، من التاسع إلى العاشر، لكن مجموع علاماته في الشهادة الثانوية تحدد مصيره، هناك مجموع تصبح من خلاله طبيباً، إن كان أقل طبيب أسنان، أقل هندسة، أقل صيدلة، أقل بمعدل معين، مجموع العلامات مثلاً نسميه مصيري، يحدد حرفتك بالدنيا، كطالب علم و لا يوجد عندك أموال ورثتها عن أبيك، لابد من أن تدرس، فالدراسة مجموع علاماتك تحدد مصيرك، للتقريب.

كذلك قضية النفور إلى الله، أن تسعى إلى مرضاة الله، أن تطلب العلم، أن تطلب العمل الصالح، أن تسعى إلى عمل يرقى بك عند الله، أن تسعى إلى علم ينور بصيرتك، الإنسان أحياناً يعيش حياة لا يرقى بها إلى مستوى الإنسان.

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة كان أفضل المخلوقات :

كلكم يعلم أن الجماد شيء، يشغل حيزاً، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، هذا الجماد، لكن النبات أيضاً شيء، يشغل حيزاً في الفراغ ، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، لكنه ينمو، فرق النبات عن الجماد أنه ينمو، الحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله وزن، وله ثلاثة أبعاد، وهو ينمو كالنبات، ويضاف إلى نموه أنه يتحرك، الحصان يمشي، الإنسان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله وزن، وينمو كالنبات، ويتحرك كبقية المخلوقات، لكنه يفكر، فإن لم يفكر، إن لم يبحث عن الحقيقة، إن لم يلبِ الحاجة العليا في الإنسان، هبط عن مستوى إنسانيته، إلى مستوى لا يليق به.

ينبغي أن تعرف من أنت، أنت حينما قبلت حمل الأمانة في عالم الأزل في قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

أنت حينما قبلت حمل الأمانة كنت أفضل المخلوقات جميعاً، من هنا سيدنا علي رضي الله عنه يقول:" ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان".

من آمن و شكر حقق الهدف من وجوده :

أيها الأخوة، يجب أن تعرف من أنت، أنت المخلوق الأول لأنك قبلت حمل الأمانة في عالم الأزل، ولما قبلت حمل الأمانة سخر الله لك أيها الإنسان:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

تسخير تعريف، وتسخير تكريم، هذا الكون يعرفك من هو الله، هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، هذا الكون يشف عن كمال الله، يشف عن وحدانية الله، يشف عن وجود الله، هذا الكون هو الثابت الأول، سخره لك تسخير تعريف، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به، وسخره لك أيضاً تسخير تكريم، وتسخير التكريم يقتضي أن تشكره، دقق الآن فإذا آمنت به، وشكرته، حققت

الهدف من وجودك، وإذا حققت الهدف من وجودك تتوقف فجأة كل المعالجات الإلهية، والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: 147]

تسخير التعريف يقتضي منك أن تؤمن، وتسخير التكريم يقتضي منك أن تشكر، فإذا آمنت أو شكرت حققت الهدف من وجودك.

عبادة الله عز وجل علة وجود الإنسان في الدنيا :

أنت قد تسأل لو سافرت إلى بلد أجنبي ببعثة رسمية كي تنال الدكتوراه، وأنت في هذا البلد، وليكن باريس، مدينة عملاقة كبيرة، مترامية الأطراف، فيها المعامل، فيها المصانع، فيها الجامعات، فيها المدارس، فيها الحدائق، فيها المؤسسات، فيها النوادي الليلية، فيها دور اللهو، أنت كطالب لك في هذه المدينة الكبيرة العملاقة هدف واحد، هذا الهدف الواحد نسميه اصطلاحاً علة وجودك، علة وجودك في هذه المدينة نيل الدكتوراه، ليس لك علاقة بالمعامل، ولا بالمسارح، ولا بالحدائق، ولا بالمشكلات، ولا بالسجون، علة وجودك فقط في هذه المدينة أن تنال هذه الشهادة، قس على ذلك، وعلة وجودك في الدنيا أن تعبد الله، قال تعالى بآية قطعية الدلالة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

العبادة طاعة، خضوع لمنهج الله، هي طاعة لكن هذه الطاعة ليست قسرية، لأن الأقوياء يطاعون قسراً.

الله عز وجل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب لا علاقة إجبار أو قسر :

لكن الله جلّ في علاه ما أراد من عباده أن يطيعوه قسراً، أراد أن يطيعوه اختياراً، فقال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أرادك أن تأتيه طائعاً، أراد أن تأتيه محباً، أراد أن تأتيه مختاراً، أراد أن تأتيه بمبادرة منك، أراد أن تأتيه محباً، لذلك

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

بل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية: 54]

إذاً هذا معنى دقيق، علة وجودك في الدنيا أن تعبد الله، والعبادة طاعة لكنها طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، فما عبد الله من أطاعه ولم يحبه، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه، أساسها معرفة يقينية تنتهي إلى سعادة أبدية، هناك جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي.

مثل للتوضيح: لو إنسان دخل للبيت، وجد الماء في كل غرف البيت، وقد أفسدت هذه المياه الأثاث، فانطلق مسرعاً يبحث عن من يصلح التمديدات، وهو في طريقه للبحث عن إنسان يحل هذه المشكلة، قد يجد في محل شيء جميل، أو قطعة جميلة، أو آلة دقيقة، هو لا يرى شيئاً هو يبحث عن إنسان لإصلاح الخلل الذي أصاب أثاث البيت، هذه الحالة تشبه حالة مؤمن فرّ إلى الله، هدفه أن يعرف الله، هدفه عمل صالح يتقرب به إلى الله، هدفه أن يطلب العلم، هدفه أن يرقى عند الله، كلما كان الهدف كبيراً، والصدق في طلبه عالياً، هذا الهدف الكبير لا يرى أي شيء آخر، هذا معنى قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون]

من يعرف الله يسعى إليه و يطيعه :

اللغو ما سوى الله، لا يوجد عنده وقت للقيل والقال، وإضاعة المال، لا يوجد عنده سهرة فارغة، كلام فارغ، مزاح رخيص، لقاء تقليدي لا يقدم ولا يؤخر، لا يوجد عنده وقت لسقطات الناس، لمجالسهم التي تنتهي بالغيبة والنميمة.

((ما من قوم يقومون من مَجلس لا يَذكرونَ اللهَ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، ويذكرون الله تعالى، إلا تنزَّلت عليهم السَّكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عندَه))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان]

أنت حينما تعرف الله تسعى إليه، وإذا سعيت إليه لا ترى شيئاً آخر إطلاقاً، بل الأشياء كلها تُقيّمها بمدى ارتباطها بهذا الهدف، هدفك واحد أن تعرف الله، أن تطيعه، أن تعبده، أن تدعو إليه، تختار حرفة تعينك على هذا الهدف، تختار بيتاً قريباً من المسجد يعينك على الهدف، تصاحب أصدقاء ترقى بهم عند الله، فعندما يكون الهدف واضحاً الجزئيات تنبع من هذا الهدف.

الهدف الواضح يلهم الإنسان إلى وسائل تعينه على بلوغه :

أخواننا الكرام، الشيء الدقيق أن الله حينما قال:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك]

هناك إنسان يمشي هدفه واضح، الهدف الواضح يلهمك إلى وسائل تعينك على بلوغه، أما إنسان بلا هدف، وهذه مشكلة كبيرة جداً، الناس يعيشون لا يشعر أحدهم أن هناك هدفاً أمامه، لا تجد كلمة تعبر عن إدراك لهدفه إطلاقاً، يعيش بلا هدف، يأكل ويشرب ويستمتع بالحياة، ويهمه ما يهم عامة الناس، يسعى إلى ما يسعى إليه عامة الناس، لا يوجد عنده شيء واضح، مركز، هدف واضح.

مرة ثانية: طالب ذهب إلى بلد أجنبي ليدرس، الهدف واضح جداً –دراسة- فأي صديق يعينه على التكلم باللغة الأجنبية يصاحبه، أي كتاب يعمق له فهمه باختصاصه يشتريه، أي لقاء يثمر قوة في اختصاصه يسعى إليه، الهدف واضح، الوسائل تنبع من هذا الهدف.

أنا كل الذي أتمناه في هذا الدرس إن شاء الله أن يتضح الهدف، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، الآن زواجك، اختيار حرفتك، عملك، وقت فراغك، تربية أولادك، حركتك، حتى أوقات فراغك كيف تمضيها؟ إما في عمل، أو في شيء يقويك، ويقوي إيمانك، ويقوي اتصالك بالله عز وجل.

كلمة

(خِفَافاً وَثِقَالاً)

من إعجاز القرآن الكريم :

لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(انْفِرُوا خِفَافاً)

نشيطين، أو

(ثِقَالاً)

متباطئين، لكن انفروا، شاب أول حياته، إنسان متقدم بالسن، هذا خفيف، وهذا ثقيل، انفروا لقلة عيالكم، لا يوجد عنده أولاد

(خِفَافاً)

انفروا

(ثِقَالاً)

عندكم أولاد، انفروا شباباً، انفروا شيوخاً، انفروا راكبين، انفروا مشاة، انفروا بسلاح أو من دون سلاح، انفروا في مقتبل العمر أو في مؤخرة العمر، هذا الكلام

(خِفافاً وَثِقالاً)

جامع مانع، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، كلمة

(خِفافاً وَثِقالاً)

ينضوي تحتها مئات المعاني، أي انفروا في كل حال.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

[سورة آل عمران الآية: 191]

هناك ثلاث حالات، إما أنك واقف، أو مضجع، أو جالس، لا يوجد حالة رابعة، إذا قال الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

أي يذكرون الله دائماً بكل أحوالهم،

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقالاً)

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

الآن:

(وَجَاهِدُوا)

الجهاد فيه بذل جهد، والجهاد أيها الأخوة كلما ذكره بعضهم لا يفهم منه إلا الجهاد القتالي، مع أن هناك أنواعاً كثيرة من الجهاد غير القتالي، أو جهاد النفس والهوى.

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج الآية: 78]

رجعنا من الجهاد الأصغر- القتال- إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، تماماً كالتعليم الأساسي، الجهاد الذي لا يسبقه جهاد، المهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، الجهاد الأول: جهاد النفس والهوى،

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

الجهاد النفسي، غض البصر جهاد، ضبط اللسان جهاد، تقصي الحلال جهاد، عمل دخله فلكي كبير لكنه لا يرضي الله، وهناك عمل دخله أقل بكثير لكنه يرضي الله، هذا جهاد، فالجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، والآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

هذا أول جهاد؛ جهاد النفس والهوى، هذا الجهاد الأساسي، هذا الجهاد الذي لا يسبقه جهاد، هذا الجهاد الذي لا بدّ منه، والمهزوم أمام نفسه في هذا الجهاد لا يستطيع أن يواجه نملة، وانتهى الأمر.

2 - الجهاد الدعوي :

عندنا جهاد آخر: جهاد دعوي ما دليله؟ قوله تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

الهاء تعود على القرآن الكريم:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: 52]

فأن تتعلم القرآن وأن تعلمه هذا جهاد، أن تطلب العلم وأن تعلمه جهاد، أن تحضر درس علم هذا جهاد، لذلك طالب العلم تصلي عليه الملائكة في السماء والحيتان في البحر.

((وَمَن سلكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه عِلْما سَهَّلَ اللهُ لهُ بهِ طريقا إلى الجنَّةِ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

طلب العلم جهاد لكن من نوع آخر، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ - بالقرآن - جِهَاداً كَبِيراً)

صار عندنا الجهاد النفسي الأساسي الذي لا بدّ منه، جهاد النفس والهوى، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى.

والجهاد الدعوي،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

فالذي يدعو إلى الله فهو في جهاد.

3 ـ الجهاد البنائي :

عندنا جهاد بنائي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

الإنسان عندما يتقن صناعته، بهذه الصناعة الوطنية التي بذلت للناس بسعر معتدل، واستغنينا بها عن الاستيراد، هذا قدم لأمته شيئاً عظيماً، هذا جهاد بنائي، كل إنسان إذا أتقن عمله هو في جهاد بنائي، وآيته الدقيقة والآية الأصل في هذا الموضوع:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أحياناً هناك بعض الأجهزة المعقدة في المعامل، هذا الجهاز متعلق بالكومبيوتر، يصاب بالعطب، إصلاحه بالملايين، أعرف إنساناً في محافظة في بلدنا الطيب استطاع أن يكتشف طريقة إصلاح هذا القسم من المعمل، فبدل الملايين المملينة، والتأخر لمدة شهر أو شهرين، يصلحه هنا في سوريا، وبسعر معقول جداً، هذا وفر على الأمة ملايين مملينة من إصلاح هذه القطعة الخطيرة جداً في المعمل، هذا جاهد، مسلم، وفر نقدنا الثمين، وفر حاجتنا الأساسية.

4 ـ الجهاد القتالي :

صار عندنا جهاد نفسي جهاد النفس والهوى، و جهاد آخر جهاد دعوي تعلم القرآن وتعليمه، و جهاد ثالث بإتقان عملك إتقاناً بالغاً هو جهاد بنائي، فإذا نجحنا في الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، وفي الجهاد الثاني الجهاد الدعوي، وفي الجهاد الثالث الجهاد البنائي، ينتظر أن ننجح في الجهاد الرابع هو الجهاد القتالي

فالجهاد بين أن يكون بنائياً، وبين أن يكون دعوياً، وبين أن يكون نفسياً، وأما الجهاد القتالي فحينما نحقق النجاح في الأنواع الثلاثة فالمرجح والذي يغلب على الظن أننا ننجح في الجهاد الرابع وهو الجهاد القتالي، إذاً:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

علامة علم الإنسان أن ينفر إلى الله :

طبعاً إلهنا، وربنا، هو الخبير، هو الخالق، هو المسير، هو الرب، يقول:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أي علامة علمكم أنكم تنفرون إلى الله:

(خِفافاً وَثِقالاً)

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[سورة التوبة]

الأشياء القريبة من الإنسان يقبل عليها، نزهة، مكسب معين،

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ)

مثلاً أنا أذكر أن إنساناً توفي رحمه الله، إذا قرأ الإمام بالركعة الأولى بالفجر آيتين زيادة عن الصفحة تقوم الدنيا ولا تقعد، دائماً يتابع الإمام على قراءته، يقول له: أطلت، فمرة إنسان استوقفه أكثر من ساعتين على الواقف بأمور التجارة، أمور شراء البيوت وبيعها، لم يتكلم أي كلمة، لم يشعر بالوقت، ما دام الموضوع متعلقاً بالتجارة، والصناعة، وأرباحه، ومكاسبه، واقف على الواقف، والجو بارد، والوقت شتاء، إذا الإمام قرأ آية زيادة عن الصفحة تقوم الدنيا ولا تقعد.

عظمة هذا الدين أن كل الوعود التي وعدنا الله بها تكون في الحقيقة بعد الموت :

أنا أقول: القضية إذا كانت متعلقة بالدنيا الوقت مبذول لها من دون قيد أو شرط، وإذا كان الأمر متعلقاً بالآخرة يقولون: اسمح لنا لقد تأخرنا، اجلس جلسة الحديث فيها عن التجارة، أو الصناعة، أو المكاسب، أو المشاريع، تجد الكل يجلس و يتابع الحديث، أما إذا كان الحديث عن الدين، فيقولون لك: اسمح لنا تأخرنا، عندما تكلمت بالدين اسمح لنا، لأن هذا الموضوع خارج اهتمامه، هذا معنى الآية:

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً)

أي تجارة مربحة، منصب رفيع، نزهة رائعة، رحلة ممتعة، أشياء قريبة، تلبي حاجة الإنسان المادية، سهرة لطيفة مثلاً، وإذا الإنسان له معصية - والعياذ بالله - يحبذها.

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

هذه لبعد الموت، عظمة هذا الدين أن كل الوعود التي يعدك الله بها هذه تكون في الحقيقة بعد الموت، أما في الحياة فهناك متاعب.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

إذاً

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

موضوع الموت كفكرة وارد في حياة الإنسان أما كحقيقة فبعيد عن حقيقته :

أخواننا الكرام، لذلك الإنسان بحياته موضوع الموت كفكرة وارد، أما كحقيقة فبعيد عن حقيقة الموت، كل إنسان ساكن ببيت، عنده زوجة وأولاد، له عمل، له دخل، أما مغادرة الدنيا من البيت إلى القبر، من أولاد إلى القبر، من زوجة إلى القبر، من أحفاد يملؤون البيت فرحة إلى القبر، من نزهات إلى القبر، من اجتماعات إلى القبر، من مظاهر الدنيا إلى القبر، فموضوع القبر شيء مخيف.

ورد في بعض الآثار:

((أن الميت حينما يوضع في القبر ينادى أن عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

أخواننا الكرام، إن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة عليّ، ونفس محمد بيده ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا وجد أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه، ألقى عليه غم الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، فيقول ملك الموت: ممَ الفزع؟ وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم.

العاقل من أعدّ لساعة الموت عدتها :

يقول لك الإنسان: مسكين مات! أنت ألست مسكيناً؟ أنت ألن تموت؟ مسكين مات! صدق ولا أبالغ الموت كفكرة سهل جداً، أما أن تعيشه بتعبير دارج عندما تأتي قضية متعلقة بالقلب واحتمال الموت قائم، ينسى حليب أمه، الموت شيء مخيف، موت للقبر، وأنا أنصح كل إنسان أراد أن يتعظ رأى جنازة، ولو لم يكن له علاقة بالميت اتبع هذه الجنازة، النعش موضوع، يفتح النعش، يحمل الميت، يوضع في القبر ، توضع البلاطة، يهال التراب عليه، انتهى، عظم الله أجركم، ساكن ببيت أربع وصالون، هو عمل الجبصين، هو اشترى الثريات، هو اشترى السجاد، هو نظم البيت، هو اختار الأثاث.

أنا أحياناً أكون في تعزية ببعض الأحياء الغنية جداً، أحضر، أقول: من اشترى الثريات؟ المرحوم حتماً، من عمل الجبصين واختاره بهذا الشكل؟ المرحوم، من اشترى هذا السجاد؟ المرحوم، من صمم هذا البيت؟ المرحوم، أين المرحوم؟ هل هناك واحد من الحاضرين وأنا معكم يستطيع ألا يموت؟ يستطيع الواحد منا وأنا معكم أن يستيقظ كل يوم مثل اليوم السابق دائماً؟ مستحيل! مثلاً عنده مشكلة بالقلب، يذهب إلى المستشفى، عدة أيام يضعون نعوته، هذا ينتظرنا جميعاً، الله يمد بأعماركم، لكن سنموت كلنا، لابد من الموت، لكن من هو البطل؟ من هو العاقل؟ من هو الذكي؟ الذي يعد لهذه الساعة عدتها.

أنا أعرف إنساناً -والله لا أبالغ لأن القصة قد لا تصدق- بأول بناء، بأرقى أحياء دمشق كان له بيت مساحته خمسمئة متر، أكبر بناء، ابنه صديقي زرته، شيء مثل الخيال، قسم شرقي، قسم غربي، أناقة الأثاث، عنده تحف، التحفة ثمنها بالملايين، هذا توفي في أيام مطيرة في دمشق، وأنا طبعاً كون ابنه صديقي، كنت في الجنازة، القبر الذي يدفن به فيه مياه سوداء، فلتت مياه المجاري على هذا القبر، فسألوه؟ قال: ضعوه ماذا نفعل؟ أنا لا أنسى هذا الموقف، إنسان بهذه الأناقة، وبهذا الغنى، وبهذا الرقي، هنا يدفن؟ هذا الذي حصل.

بطولة الإنسان أن يخطط لمعرفة الله وللاستقامة على أمره :

البطولة أن تعد لهذه الساعة، هذا القبر قد يكون روضة من رياض الجنة، وقد يكون حفرة من حفر النار، فكل بطولتك لساعة الموت، أنت مع من؟ المؤمن يعرق - هكذا ورد في بعض الآثار- قال: لأنه يرى مقامه في الجنة، فيستحي من الله، وغير المؤمن -والعياذ بالله-يرى مكانه في النار، فهذا الشيء الذي سيأتي ينبغي أن نعيشه قبل أن يأتي، البطولة أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

أخواننا الكرام، الآية الكريمة:

(انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أما إن كانت القضية قضية تجارة، وظيفة، رحلة إلى أوربا، فهي مكسب:

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

البطولة أن تخطط، لأنك إن لم تُخطِط يُخطط لك، أن تخطط لمعرفة الله، للاستقامة على أمره، ولعمل صالح تتقرب به إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (36-70) : تفسير الآيات 43 - 47 ، الإخلاص في العمل يكشف نية المخلص من المنافق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-01-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي الكريم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره و صفاته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والأربعين وهي قوله تعالى:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

أولاً أيها الأخوة، لابد من بعض الحقائق أضعها بين يدي هذه الآيات، الحقيقة الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته، بينما أمته معصومة بمجموعها، الفرق كبير، معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره.

مثلاً: أحد أصحاب النبي توفاه الله عز وجل، اسمه أبو السائب، ومن عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا مات أحد الصحابة كان يذهب إلى بيته قبل تشييعه، سمع امرأة تقول من وراء الستر: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، لو سكت النبي عليه الصلاة والسلام لكان كلامها صحيحاً، سكوت النبي إقرار، قال لها: وما أدراك أن الله أكرمه؟ قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

إذاً النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وفي صفاته، بينما أمته معصومة بمجموعها.

((لا تجتمع أمتي على ضلالة))

[أخرجه الطبراني عن أبي بصرة الغفاري]

مثلاً: يصدر كتاب لا أحد يتكلم بكلمة، طُبع، ونُشر، وقُرئ، سكوت الأمة عن هذا الكتاب اسمه إجماع سكوتي، بينما كتاب آخر حينما صدر قامت الدنيا ولم تقعد، إذاً هناك إجماع كلامي.

الحكمة من عصمة النبي عليه الصلاة و السلام :

أما لماذا كانت إرادة الله أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام معصوماً بمفرده، في أقواله وأفعاله وإقراره وصفاته؟ لأن الله أمرنا أن نأخذ عنه، والآية الكريمة:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية: 7]

أمرنا أن نأخذ عنه، نأخذ من أقواله، وأن نتأسى بأفعاله.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب]

وأن نسعد بصفاته.

الحكمة من أن النبي صلى الله عليه وسلم سُمح له بهامش اجتهادي ضيق جداً :

ولكن في بعض الآيات يشم منها أنه غير معصوم:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

فكيف نوفق بين هذه الحقائق المطلقة التي أجمع عليها العلماء وبين بعض الآيات التي تشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان ينبغي أن يفعل غير الذي فعله؟ قال العلماء وهذا كلام دقيق جداً: سُمح للنبي صلى الله عليه وسلم بهامش اجتهادي ضيق جداً، الآية الأساسية:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

هناك وحي متلو، هو القرآن الكريم، وهناك وحي غير متلو، هو كلام سيد الأنبياء والمرسلين، نحن أمام وحيين، أمام وحي متلو هو القرآن الكريم، وأمام وحي غير متلو هو أقوال النبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم، لكن للتصحيح: وحي متلو هو القرآن الكريم الذي هو قطعي الثبوت، ووحي غير متلو هو ما صحّ من أقواله النبي، لأن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام ليست في مجملها قطعية الثبوت، هناك أحاديث ضعيفة، و أحاديث موضوعة، القرآن قطعي الثبوت، أما السنة فظنية الثبوت، لذلك سخر الله لهذه الأمة علماء كبار، جهابذة عكفوا على سنة النبي عليه الصلاة والسلام ومحصوها، ودرسوها، حتى إنه في أمتنا الإسلامية علم ليس له وجود في أية أمة أخرى، اسمه علم الجرح والتعديل، علم الرجال الذين نقلوا عن سيد الأنام.

الله تعالى أراد أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام البشرية :

إذاً في بعض الآيات كهذه الآية:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

رأي العلماء وهو رأي دقيق وصائب، أنه ترك للنبي عليه الصلاة والسلام هامش اجتهادي، فإن اجتهد النبي وأصاب أقره الوحي على ذلك، وصار كأنه وحي، وإن ترك ما ينبغي أن يقوله جاء الوحي وصحح له كهذه الآية، وكآية:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

لماذا؟ ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام البشرية، لولا هذا الهامش الاجتهادي، ولولا أن الوحي في بعض الآيات صحح للنبي عليه الصلاة والسلام لكان كلام النبي مطلقاً، ومعنى مطلق أنه ربما يؤله بعد حين، لذلك أراد الله أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية المطلق، وبين مقام البشرية.

أخواننا الكرام، مثلاً: لو قاض أصدر ألف حكم بحياته، حكم واحد لم يكن دقيقاً، لا أقول: ما كان عادلاً، ما كان دقيقاً، هو عند أهل الأرض قاضٍ عادل، لو عشرة أحكام من ألف لم تكن هذه الأحكام دقيقة يسمى عند أهل الأرض قاضياً عادلاً هذا في شأن الإنسان، أما في شأن الواحد الديان فلو أنه ظُلم عصفور واحد في تاريخ البشرية من آدم إلى يوم القيامة لا يكون الله عادلاً.

يقول بعض العارفين بالله: والله لو تشابهت ورقتا زيتون لما سميت الواسع.

لا يستطيع أي إنسان أن يثبت عدل الله بعقله إلا أن يكون له علم كعلم الله وهذا مستحيل :

مرة كنت أمشي في بعض أسواق دمشق خرج من محله التجاري أخ كريم واعترضني، وقال: أنت خطيب؟ قلت له: نعم، قال: هذا الذي جاء إلى محله التجاري في أحد أسواق دمشق ليبيع ويشتري، ويكسب رزق أولاده، وزاد على ذلك قال لي: العمل أليس عبادة؟ قلت: بلى عبادة، قال لي: سمع صوت إطلاق نار مدّ رأسه فإذا رصاصة تصيب عموده الفقري فانشل فوراً، فما ذنب هذا الإنسان؟ لم يرتكب معصية، لم يأكل مالاً حراماً، لم يفعل شيئاً، سمع صوت إطلاق نار، مدّ رأسه فجاءت رصاصة وأصابت عموده الفقري فأصبح مشلولاً، قلت: والله لا أعلم! طبعاً يستحيل على عقلك أن يثبت عدل الله، لكن عدل الله جاءك بإخبار الله قال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف]

فأنا أصدق عدالة الله لا من خلال عقلي بل من خلال إخبار الله لي، الآن الشيء الظاهر هناك شعوب إسلامية فقيرة جداً، حروب، ونكبات، وزلازل، وفقر، وشعوب تعيش حياة دنيوية تفوق حدّ الخيال،

وكل حياتها معاص، وآثام، كلام دقيق أقوله لكم: لا تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، وهذا مستحيل.

فأنا حينما قال لي هذه القصة، قلت: والله أنا أؤمن أن الله عادل، أنا هذه القصة لا أعرف تفاصيلها، لكن لحكمة بالغة بالغة أحد أخواننا الكرام مرة كان ماشياً معي، قال لي: لنا جار ساكن فوقنا، في أحد أحياء دمشق، هذا الجار تحت يده بيت لأولاد أخيه اليتامى، وبقوا ثماني سنوات يطالبونه بالبيت و لم يرضَ أن يعطيهم إياه، بعد أن يئسوا من يأخذوا حقهم من عمهم اشتكوا إلى أحد علماء دمشق، كان شيخ القراء الشيخ حسين الخطاب اشتكوا له، وجمع هذا الشيخ الكبير هذا العم مع أولاد أخيه، ورفض رفضاً قاطعاً أن يعطيهم البيت بوقاحة، فقال الشيخ لأولاد لأخيه: لو أنكم شكوتم عمكم إلى القضاء هذا لا يليق بكم، اشكوه إلى الله، الساعة التاسعة صباحاً قال لي: عنده محل بسوق مدحت باشا، سمع إطلاق رصاص، مدّ رأسه ليرى ما الخبر فجاءت رصاصة واستقرت في عموده الفقري، القصة نفسها، أنا والله اقشعر بدني، قلت: يا رب! وقتها أنا ما عرفت السبب.

قلت: أكثر الأخوة الكرام يحفظون مئتي قصة من آخر فصل ليس لها معنى، أنصحك ألا ترويها، وأنت بحياتك تعرف عشر قصص فقط من أول فصل، هذه القصص التي من أول فصل تقشعر منها الأبدان.

فقال لي أخ مقيم بحلب: هناك رجل له قصة كهذه القصة تماماً، استولى على بيت لأولاد أخيه الأيتام وهو في قبضته، من عشر سنوات يرفض إعطاءهم البيت، فجأة اتصل بالمحامي وقال له: أفرغ لهم البيت، المحامي استغرب قال له: ما الذي حدث؟ أنت مصر ألا تعطيهم البيت، قال له: سمعنا البارحة قصة بالقدس تخوف، هي نفس القصة التي رويتها قبل قليل.

عدل الله عدل مطلق :

أخواننا الكرام، أنا أؤمن أن عدل الله مطلق ولو لم يكن معي دليل على قصة سمعتها من آخر فصل، فعلينا أن نعرف كل قصة من أول فصل إلى آخر فصل حتى نرى عدل الله المطلق.

لذلك هذا يعلمنا أنه يستحيل على عقلك أنه يدرك عدل الله عقلاً إلا بحالة واحدة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله، لكن الله أخبرك قال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر الآية: 17]

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

آيات كثيرة، وأحاديث أكثر تؤكد عدل الله المطلق، لكن نحن علمنا محدود، لو أن لنا علماً كعلم الله لكشفنا عدله المطلق بعقولنا، أما إننا لا نعلم علم الله عز وجل فأخبرنا ربنا فقال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

قبول النبي الكريم أعذار المنافقين الذين تخلفوا عنه :

إذاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

أراد الله أن يسمح لنبيه الكريم بهامش اجتهادي، بهامش اجتهادي ضيق، فإذا اجتهد النبي وأصاب سكت الوحي، وبهذا السكوت أقره على اجتهاده، أما إذا استخدم النبي اجتهاده ولم يكن التصرف كما يريد الله عز وجل فيأتي الوحي ويصحح له، هذا التصحيح أظهر الفرق بين مقام الألوهية المطلق وبين مقام النبوة، النبي بشر.

((اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر وأرضى كما يرضى البشر))

[أخرجه الطبراني عن أبي الطفيل عامر بن واثلة]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

المنافقون قبيل بعض المعارك استأذنوا النبي ألا يكونوا معه، وقدموا أعذاراً كثيرة، والنبي قبل أعذارهم،

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

لو أنك لم تأذن لهم تخلفوا عنك:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

أما استأذنك وقدم لك عذراً، فأنت قبلت هذا العذر، وأذنت له، بقي عند المجموع مؤمناً لكن استأذنك:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

لكن الله عز وجل يقول:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

لو فرضنا أسرة فيها خمسة أشخاص، فيها شابان، والبيت يحترق، فقال هذا الشاب لأبيه: عندي محاضرة في الجامعة، أتسمح لي؟ البيت يحترق! فهذا الاستئذان مرفوض، الاستئذان مرفوض أصلاً:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

من لم يبكِ لما يصيب المسلمين فبإيمانه ضعف :

واسمحوا لي أن أقول لكم: الآن والله إن لم تبكِ لما يصيب المسلمين في بقاع الأرض فبإيمانك ضعف، أناس يقتلون، يموتون من الجوع، يعذبون، ينكل بهم في بلاد متعددة من بلاد المسلمين، وأنت ليس لك علاقة، مرتاح.

أحياناً أنا أرى بعض الأخوة الكرام أنهم ألغوا الاحتفال، هناك أخوة لنا يموتون من الجوع، يقتلون، يذبحون في فلسطين، في أفغانستان، في العراق، كل هذه أمامكم، مليون قتيل بالعراق، ومليون معاق، وخمسة ملايين مشرد، وأنت ليس لك علاقة؟! مسلمون، بأفغانستان قصفوا قلعة قتلوا بها خمسة آلاف إنسان، وإذا سقطت طائرة بفعل عمل معين دفعوا بعض الأقوياء مبلغاً يقدر بمئتين و سبعين مليار دولار، أي دية كل راكب خمسمئة مليون ليرة سورية، إذا قُتل واحد منه تقوم الدنيا ولا تقعد.

جاءنا مرة مسؤول كبير أمريكي، رئيس جمهورية سابق، برنامج زيارته؛ زيارة دمشق، وتل أبيب، ورام الله، وهناك بند رابع، ما هو؟ زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي، نحن لنا عند اليهود أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير، ما خطر ببال هذا المسؤول الكبير الحضاري أن يزور أسرة واحدة بالمقابل، نحن ألسنا بشر؟ أسير واحد، عند الفلسطينيين يأتي رئيس جمهورية من بلد بعيد برنامج زيارته ثلاث مدن؛ دمشق، تل أبيب، رام الله، والبند الرابع: زيارة أسرة الأسير الإسرائيلي و أحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير؟.

الله عز وجل يمتحن عباده امتحانات دقيقة جداً :

لذلك أيها الأخوة الكرام:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 119]

أكبر خطأ وقع به المسلمون أنهم ظنوا أن أهل الغرب منصفون، ليسوا منصفين إطلاقاً:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

لذلك جاءت الآية التي تليها:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

أذكر زلزالاً وقع في القاهرة أن الأطباء فُرزوا، بعضهم ذهب إلى الإسكندرية وترك المرضى بالمئات، وبعضهم داوم بالمستشفى أربع وعشرين ساعة، هذا الزلزال أيضاً فرز الناس .

والله عز وجل يمتحن عباده امتحانات دقيقة جداً، وكل إنسان يظهر على حقيقته، إنسان داوم أربع وعشرين ساعة حتى يلبي حاجة الناس المصابين، وإنسان ترك وذهب وأراد أن ينجو بنفسه.

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

لا تصاحب من لا يرقى بك إلى الله حاله ويدلك على الله مقاله :

أنت أحياناً تشاهد مشهداً مأساوياً ببلد إسلامي محتل، تبكي، البكاء حالة جيدة، هذا معناه أنك تحس بالانتماء لهم، تُساعد بجهدك، أحياناً بمالك، أحياناً بالدعاء، هناك حركة، و ألم، و بكاء، و مساعدة بجهدك، بعضلاتك، بمالك، أحياناً تدعو لهم أن ينتصروا، أما ليس لك علاقة إطلاقاً فهذا مؤشر خطير جداً أنك لا تنتمي لهذه الأمة.

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

[سورة التوبة]

لو كان أمامك قطعة ألماس، رأيت هذه القطعة في متحف بتركيا، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، حجمها يقترب من الجوزة، وهناك كأس جيد جداً ثمنه ألف ليرة، و وعاء بلور ثمنه عشرون ليرة، وقال لك إنسان: اختر، أنا أعرف فهمك وتفكيرك ومعلوماتك من اختيارك، قلت: هذا وعاء كبير أخذت الكبير، ثمنه عشرون ليرة، أما هذه الألماسة فثمنها مئة وخمسون مليون ليرة، فكلما اخترت الشيء النفيس تكون أنت النفيس.

أحياناً إنسان يغوص بالبحر يخرج أصدافاً ليس لها قيمة إطلاقاً، وإنسان غواص يخرج معه اللآلئ، الفرق كبير بين اللآلئ والأصداف، لذلك أنت حينما تنشغل عن النفيس بالخسيس تكون مع أهل اللهو، والدنيا فيها أشياء نفيسة جداً، فيها أن تعرف الله، فيها أن تعرف منهجه، فيها أن تستقيم على أمره، فيها أن تعمل عملاً صالحاً يرقى بك عند الله، هذه أشياء نفيسة، وقد تستمتع بالدنيا، أنت اجلس جلسة من جلسات الناس، الحديث أحياناً عن الأسعار، أحياناً عن الخضروات، وإذا المستوى هابط يكون الحديث عن النساء، وأحياناً بالسياسة، لا وجد حديث دسم يرقى بك.

لذلك: لا تصاحب من لا يرقى بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب إنساناً يرقى بك حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب مثل هذا.

الخاسر لا يدخل الآخرة في حساباته إطلاقاً :

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

أي الآخرة ليست داخلة في حساباته، ورد:

((ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا وجد أن الإنسان قد انقطع رزقه، وانقضى أجله، ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: مم الفزع؟ وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، ولي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحدا فو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه، لذهلوا عن ميتهم وبكوا على أنفسهم))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

وفي أثر آخر:

((أن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي! يا ولدي! لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة عليّ))

القضية خطيرة، والقضية مصير أبدي، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

الذكي هو الذي يعيش حدث الموت و يستعد له بمعرفة الله وبطاعته :

لذلك قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

لماذا قدم الموت على الحياة مع أن الحياة أول ثم الموت؟ قال: هذا تقديم رتبي لا تقديم زمني، لأن الإنسان حينما يعيش أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، يا ترى غني أم فقير؟ وسيم أم دميم؟ إنسان زوجته حامل يا ترى حامل بذكر أم أنثى؟ يكون غنياً أم فقيراً؟ قوياً أو ضعيفاً؟ عالماً أم جاهلاً؟ شقياً أو سعيداً؟ لكن الموت كما قال عليه الصلاة والسلام :

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ]

ميت بالنعش، إما إلى الجنة، أو إلى النار، من هو الذكي؟ هو الذي يعيش هذا الحدث حدث الموت،

يستعد له بمعرفة الله، يستعد له بطاعته، يستعد له بطلب العلم، يستعد له بحضور دروس العلم، يستعد له بإقامة الإسلام في البيت، وإقامته في العمل، هكذا يستعد الإنسان للموت:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

كل إنسان مكشوف عند الله عز وجل :

ثم قال تعالى:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[سورة التوبة]

مرة إنسان - قصة قرأتها قديماً - رأى رجلاً يصلي قاعداً في المسجد، سأل عنه، يبيع أوعية للماء في دكانه، الدكان عالية جداً وفيها سلم، زاره في الدكان، قال له: بالله عليك أريد هذا الوعاء، نصب السلم وصعد بنشاط مذهل، أنزله، قال له: عفواً ليس هذا هو، الذي بجانبه، صعد مرة ثانية، مرة ثالثة، مرة رابعة، مرة خامسة، أجبره أن يعمل نصف ساعة، طالع نازل، لا يوجد به شيء ويصلي على القاعد! في نشاطه التجاري بأعلى درجة من النشاط و في المسجد يصلي قاعداً، فالإنسان ينكشف عند الله عز وجل :

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ)

البارحة فلان لم تكن في الدرس، والله قبل الدرس بربع ساعة جاءني صديق استحييت منه، أكثر الأخوة الكرام إذا جاءهم أخ قبل الدرس يأتون به إلى الدرس، فينتفع، وقد يبقى في الدرس طوال حياته، هذا ليس عذراً، أنا والله عندي موعد لا أستطيع، الذي يريد أن يحضر يحضر لكن لأتفه سبب يقول لك لم أتمكن من الحضور:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

من هم القاعدون؟ النساء والأطفال.

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً - فساداً - وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة]

أي النميمة والغيبة أسرعت فيما بينكم، هذه الآيات التي بين أيدينا تصف حال بعض المنافقين.

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة :

سأقول لكم كلاماً دقيقاً، يقول بعض التابعين: اجتمعت بأربعين صحابياً من أصحاب رسول الله، ما منهم واحد إلا ويظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله، أقول لك : هناك حالات جاءت في وصف المنافقين تجدها عند بعض المؤمنين، أنا أقول: مؤمن ورب الكعبة، عنده أمراض خفيفة، فحينما يصف الله لنا المنافقين الهدف أن نراقب أنفسنا، أين أنت من هذه الآية؟ هل الأمر كذلك؟ أمر الله عظيم عندك أم ممكن لأسباب بسيطة جداً أن تعتذر منه؟ هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً - أي فساداً وشراً - وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

أحد الناس إذا وجد صديقه ينفق ماله في سبيل الله، يقول له: احرص على قرشك الأبيض ليومك الأسود، قد يُتهم بعقله، وأنا أقول - وأقولها أمامكم وأخاطب الشباب بالذات-: والله ما من شاب دون استثناء يبتغي وجه الله، ويستقيم على أمر الله، أنا أقول لست متفائلاً بل موقناً أن له عند الله مستقبلاً كبيراً، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، تريد نهاية مشرقة؟ ينبغي أن يكون لك بداية محرقة، وأنت شاب، وصدق ولا أبالغ الإنسان الذي تقدم في السن، وقد عرف الله، لا يغبط إلا شاباً في أول حياته، يا ليت هذا الشاب يعرف الذي يعرفه من بلغ السبعين، لأمضى وقته كله في طاعة الله، وقته كله في طلب العلم، وفي الإنفاق. الإنسان الذكي والموفق هو الإنسان الذي يأخذ خبرات من تقدمه بالسن، وينتفع بها وهو في بداية حياته.

من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها :

كلام ملخص: لا يوجد إلا الله، وأي عمل تبتغي به مرضاته يأتيك عليه في الدنيا قبل الآخرة مليار ضعف، أنا أعلم علم اليقين أن الشاب إذا أقبل على الله، وأخلص له، واتقى أن يعصيه، فله مستقبل كبير، كبير جداً، وهذا والله لا يتأخر عن أي إنسان، أنت من تعامل؟ أنت تعامل إله، بيده كل شيء، الصحة بيده، الزواج الناجح بيده، الرزق الوفير بيده، السمعة الطيبة بيده، السعادة بيده، كل شيء بيده .

لذلك: اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

((مَنْ كانَتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعل الله غِناه في قلبه، وجمع عليه شَمْلَهُ، وأتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَة، وَمَنْ كانت الدنيا هَمَّه، جعل الله فقْرَه بين عينيه، وفرَّق عليه شَمْلَهُ، ولم يأتهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (37-70) : تفسير الآيات 48 - 51 ، علامات المؤمن والمنافق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-01-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق حالة موجودة قائمة وواقعة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والأربعين وهي قوله تعالى:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

الحقيقة أن هذه السورة -سورة التوبة- في معظمها تتحدث عن فئة ممن ينتمي إلى الإسلام، ليسوا مؤمنين كما ينبغي، وليسوا كفاراً، ولكنهم منافقون، فالنفاق حالة موجودة، قائمة، واقعة، يظهر شيئاً، ويخفي شيئاً، سريرته ليست كعلانيته، وباطنه ليس كظاهره، وخلوته ليست كجلوته، هناك موقف مزدوج، شيء معلن، شيء مبطن، شيء ظاهر، شيء باطن، شيء مسموح أن يقوله، شيء خفي عن أن يقوله، هذه الحالة مرضية:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

[سورة البقرة الآية: 10]

المرض قال عنه علماء التفسير: حب الدنيا، هذا الحب حمله على أن ينافق، فيريد أن يأخذ ميزات المؤمنين مع ميزات الكافرين معاً، هناك مؤمن واضح، وهناك كافر واضح، إنسان رفض هذا الدين ولم يعبأ به، الكافر واضح، الكافر لا يغش أحداً، الكافر علانيته تكشف حقيقته، يقول لك: أنا لا أؤمن بالأديان كلها، الكافر من الصعب بل من المستحيل أن يستطيع أن يضل أحداً، هو ضال مكشوف، لكن الخطورة في المنافق، والنفاق حالة تتحرك بين الكفر وبين ضعف الإيمان، هناك منافق حمله نفاقه إلى أن يكون كافراً، وهناك منافق غلبته شهوته فأظهر شيئاً وأخفى شيئاً، وهذا واضح جداً في أوائل سورة البقرة.

صفات المؤمن و المنافق :

لكن الآية اليوم في التوبة:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

الحقيقة الفتنة خروج ما في النفس، فلان فُتن، أي بنفسه شيء لا يرضي الله، هذا الشيء امتحنه الله به فكشف.

بالمناسبة الله عز وجل من خصائص الدنيا:

((إنها دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

الإنسان حينما يقرأ الآيات المتعلقة بالمنافقين وهي موجودة في القرآن الكريم في أكثر من سورة، الحقيقة الموقف الكامل من الآيات أن نعرف صفات المنافقين كي نبتعد عن هذه الصفات، وأن نعرف صفات المؤمنين كي نقبل على هذه الصفات، فهذا الدرس له أثر سلبي، وله أثر إيجابي، الأثر الإيجابي أن تعرف هذه الصفات، فتبتعد عنها رجاء أن تكون مع المؤمنين، فالمنافق يحب الفتنة، يحب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، يسعى إلى ذلك، المنافق يحب ضعف المؤمنين.

أنا أقول لك كلمة دقيقة جداً: ما الذي يسعدك؟ إذا رأيت أخاً مؤمناً تفوق، هل يؤلمك تفوقه؟ والله لا أبالغ، ولا أحابي أحداً، إن كان يؤلمك تفوق المؤمن فهذه صفة من صفات المنافقين والدليل:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران الآية: 120]

امتحن نفسك، وكن قاسياً عليها، لك أن تلتمس لأخيك عذراً، لكن أنا أنصح أخوتنا الكرام، ألا تلتمس لنفسك عذراً، إذا أخ مؤمن تفوق في عمل ما، وآلمك هذا التفوق، فهذا فرع من فروع النفاق، إذا أفرحك هذا التفوق فأنت مؤمن ورب الكعبة، ما الذي يؤلمك تفوق المؤمن أم ضعفه؟ المؤمن يؤلمه ضعف المؤمن، ويفرح إذا تفوق المؤمن، لأن المؤمنين أمة واحدة، الكل لواحد، والواحد للكل،

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

الحديث عن المنافقين،

(وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

فكن دقيقاً مع نفسك، لك أخ مؤمن بالمسجد، معك على مقاعد الدرس، قريب لك، جار لك، زميل لك، صديق لك، تفوق، وفق في عمله، وفق في عمل صالح، علامة إيمانك أن تفرح له من كل أعماقك، وكأن هذا الخير نلته أنت، وهذا وسام شرف لك عند الله، فالمؤمن يهنئ أخاه المؤمن، يفرح له بزواجه، بدراسته، بتفوقه، لأن المؤمنين كلٌّ واحد.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

أما الذي يحب أن تشيع الفتنة، أن تشيع الفتنة بالذين آمنوا، أن تشيع الفاحشة بالمؤمنين ويفرح لهذه الفاحشة التي شاعت بينهم، فهي علامة نفاق ورب الكعبة.

المؤمن واضح أما المنافق فظاهره شيء وباطنه شيء آخر :

والبطولة أن المؤمن واضح، ومع الأسف الشديد والكافر واضح، من هو الذي يؤذي؟ المنافق، ظاهره شيء، وباطنه شيء آخر.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ)

أي إن كان هناك شيء يخالف الشرع يحب أن ينتشر هذا الشيء بين المؤمنين، يفرح، إذا كان هناك نقاط ضعف عند المؤمنين يفرح بها، ويذكرها كثيراً، هو قناص، إذا اكتشف بمؤمن خطأ يلح عليه، يشهر به، يؤكد عليه، يفرح بسقوط المؤمن.

المنافقون يبتغون الفتنة و يريدون إضعاف المؤمنين :

لذلك:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

المنافق هو المنافق في أي زمان، وفي أي مكان.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

يحب أن يفتن المؤمنون، يحب:

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة النور الآية: 19]

والكلام خطير، ما فعل شيئاً، ما قال شيئاً، لكن يحب

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

والحقيقة في الأعم الأغلب الله يحاسب على العمل، أما هنا فيحاسب على النية وحدها، المنافق إذا أحب

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

فقد صُنف مع المنافقين، والويل له من رب العالمين، والمؤمن يحب أن يشيع الحق بين المؤمنين، يحب أن تشيع الفضيلة، يحب أن يكون المؤمنون متفاهمين، متعاونين، متناصحين، ومتزاورين، والأثر القدسي:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ - والمتحابون في جلالي على منابر من نور، يغبطهم عليها النبيون عليها يوم القيامة-))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

المنافقون يبتغون الفتنة، يريدون ضعف المؤمنين، يريدون أن تشيع الفاحشة فيما بينهم، يريدون أن يلتقطوا أخطاء المؤمنين ليجهروا بها، وليشيعوها بين الناس.

الفتن الطائفية الورقة الرابحة بيد أعداء المسلمين :

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ)

والمنافق هو المنافق في كل مكان وزمان، والمؤمن هو المؤمن في كل مكان وزمان.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

أحياناً تقليب الأمر أن تجعل عاليه سافله، وسافله عليه، أن تقدم للمؤمن نصيحة من أجل أن يفتن بالدنيا، مثلاً: لِمَ فعلت هذا؟ لِمَ لم تفعل هذا؟ ضيعت دنياك، لِمَ أنفقت مالك؟ لقد ضيعت مستقبلك، لِمَ التزمت هذا المسجد؟ صُنفت مع كذا، دائماً يخوف، يقتنص، يريد أن يجرح.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

دائماً وأبداً الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا، مثلاً حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

[سورة القصص الآية: 4]

وبالمناسبة الفتن الطائفية ورقة رابحة جداً بيد أعداء المسلمين.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

افعل كذا، لا تفعل كذا، لو فعلت كذا هناك مشكلة، لو لم تفعل كذا هناك مشكلة، يريد أن يدفع المؤمن إلى معصية الله، أو إلى حب الدنيا، يرغبه بالدنيا ويزهده في الآخرة، يدفعه لعمل يفتن به ويبعده عن عمل يرقى به، هذا شأن المنافق.

المنافق مخادع مثبط يظهر أشد ما يظهر في المعارك :

(حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

أحياناً الله عز وجل ينصر المؤمنين، فإذا نصرهم كشف المنافقين، وكشف المخادعين، وكشف المثبطين.

الحقيقة النفاق يظهر بأشد ما يظهر في المعارك، فالمنافق لا يريد أن يحارب، يلتمس شتى الأعذار، ينسحب من أي معركة، لا يريد أن يموت، بعكس المؤمن، يقبل على الجهاد في سبيل الله، يقبل على نصرة هذا الدين، يتمنى إعلاء كلمة الله، ولو أدت إلى فقد حياته، لأنه يبتغي الجنة والدار الآخرة:

(حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[سورة التوبة]

يقول أحدهم: في بلاد الروم نساء روميات على جانب من الجمال، أخاف إن ذهبت إلى هناك لأجاهد معك يا رسول الله أن أفتن، أنت مفتون، أنت فتنت وانتهيت، هذا الذي يلتمس أن يبتعد عن عمل صالح مغبة الفتنة وقع في الفتنة دون أن يشعر، أنا أقول مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطلب الله عز وجل، أن تبتغي رضوانه، ثم تصاب بشيء لا يرضيك.

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)

لو ذهبنا لكان كذا، لو بقينا أفضل، لو حاربنا هناك مشكلة، إذا لم نحارب أفضل، دائماً مثبطون، يدعو بعضهم بعضاً إلى البعد عن الجهاد، البعد عن العمل الصالح، البعد عن إنفاق المال:

(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

حاجة الإسلام إلى مؤمنين أقوياء و متفوقين :

أخواننا الكرام، أقول لكم هذه الكلمة: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن الإسلام بحاجة إلى أقوياء، إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، لأن الإسلام بحاجة إلى مال تنفقه في سبيله، إذا كان طريق التفوق سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تتفوق،

ونحن بحاجة إلى متفوقين، والنبي عليه أتمّ الصلاة والتسليم طلب النخبة قال:" اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ".

لما أسلم سيدنا عمر وقف إيذاء المسلمين، لما أسلم سيدنا حمزة صلوا في بيت الله الحرام، فالله عز وجل يعز الإسلام بالمتفوقين، والذي أتمنى على كل شاب من الشباب المؤمن أن يفكر أن يكون رقماً صعباً، أن يخدم أمته خدمة عالية، إذا تفوق في دراسته هو في خدمة أمته، إذا أحسن إلى من أساء إليه هو في خدمة أمته، لِمَ لا تكون رقماً صعباً؟ لِمَ لا تكون مؤمناً كبيراً؟ لِمَ تقبل أن تكون في الدرجات الدنيا من الإيمان؟ يجب أن تكون متفوقاً، ولا تعبأ بمن يثبط عزيمتك.

من كان مع الله حفظه الله من الفتن :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)

ينسحب من عمل صالح باعتذار مضحك، أخاف أن أفتن، لن تفتن، إذا كنت مع الله لن تفتن، إذا كنت مع الله هناك حفظ لك من الله عز وجل.

(أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

فالكافر حينما يبتعد عن العمل الصالح، وحينما يحب أن تشيع الفتنة بين المؤمنين، وحينما يسهم في إشاعة هذه الفتنة، هناك ثلاث مراحل؛ أخطرها المرحلة الثالثة، طبعاً تنطلق من الغيبة أولاً، لو أن أخاً كريماً تفوق لآلمك هذا التفوق، هذه حالة، لكن ما تكلمت ولا كلمة، لكن آلمك أن يتفوق، تتمناه ألا يتفوق، هذه حالة، أحياناً إذا لم يتفوق تُشيع هذا بين الناس كي يشفى صدرك، أما أخطر شيء فأن تسعى لعدم تفوقه، هناك منطلق، وهناك تمنيات، وهناك فعل، فالإنسان عندما ينتقل من الموقف السلبي، إلى التمنيات، إلى الفعل، يكون قد انغمس إلى قمة رأسه في النفاق:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

السلامة والسعادة مطلب كل إنسان على وجه الأرض :

أيها الأخوة، لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى السلامة والسعادة، يتمنى سلامة وجوده، ويتمنى كمال وجوده، ويتمنى استمرار وجوده، سلامة الوجود بطاعة الله، وكمال الوجود بعمل صالح يعينك على أن تقبل على الله، واستمرار الوجود بأن تنجب أولاداً صالحين يكونوا من بعدك استمراراً لك.

أنا لا أنسى مرة في تعزية عالم جليل توفاه الله في دمشق، وكان العزاء في الجامع الأموي، وفي اليوم

الثالث قام ابنه فألقى خطبة رائعة كأبيه، أنا قلت في نفسي: إذاً هذا العالم الجليل الذي توفاه الله لم يمت، ابنه استمرار له.

فأنت كما تعلم حريص على وجودك، وعلى سلامة وجودك، وعلى استمرار وجودك، سلامة وجودك بطاعة الله، وكمال وجودك بعمل صالح ترقى به إلى الله، واستمرار وجودك بولد صالح ينفع الناس من بعدك، لو طبقت هذه القاعدة على ستة مليارات إنسان لست مخطئاً، ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو حريص على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، السلامة بالاستقامة، والكمال بالعمل الصالح، والاستمرار بتربية أولادك.

الإنسان هو المخلوق الأول و المكلف بعبادة الله عز وجل :

الشيء الآخر، وأنت بالمناسبة كائن متفوق، وأنت المخلوق الأول في هذه الدنيا، والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

ولأنك المخلوق الأول أنت مكلف بعبادة الله عز وجل، والعبادة كما جاء بالتعريف طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

المجموع لواحد والواحد للمجموع وهذه علامة الإيمان :

أخواننا الكرام، طبعاً هذه الآيات تظهر واضحة أشد ما تظهر في الحرب، فالمنافق يعد الخروج إلى الحرب خسارة كبيرة، قد يموت، لذلك ينسحب منها بطريقة أو بأخرى، ويعد انتصار المسلمين مغرماً له، هو ليس مؤمناً فالإنجاز الذي يحقق للمؤمنين يؤلمه.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة]

وهذه علامة النفاق، وصدق ولا أبالغ بإمكان كل واحد منا أن يكتشف نفسه حقيقة فيما كان له أخ كريم، ووفق في دنياه إلى عمل صالح، فالذي يسعد بهذا التفوق علامة إيمان له، والذي يؤلمه هذا التفوق علامة بدائية للنفاق، والدليل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

أنا أعتقد يقيناً أن هناك مؤمنين صادقين، محبين، إذا رأوا أخاً لهم تفوق يفرحون، ويسعدون، ويعدون هذا التفوق لهم جميعاً، فالمجموع لواحد، والواحد للمجموع، وهذه علامة الإيمان، وحينما تسعد بتفوق

أخيك المؤمن هذا وسام شرف لك، تهنئه من أعماق قلبك، وتفرح له لأنه أضاف للمؤمنين تفوقاً، المؤمنون كتلة واحدة، فإذا تفوق أحدهم عاد هذا التفوق على جميع المؤمنين، وإذا وقع أحدهم وقع الجميع.

مثلاً: حينما تشاهد ما يعانيه المسلمون في بعض البلاد، في بلاد آسيا البعيدة والقريبة، وفي فلسطين، وتتألم أشد الألم، هذا وسام شرف له، معنى ذلك أنك تنتمي إلى هذه الأمة، ويؤلمك ما يؤلمهم، ويسعدك ما يسعدها، وحينما لا تبالي إطلاقاً بما يجري، ولا تعبأ، لا يوجد عندك مشكلة خاصة بحياتك، إذا لم يكن عندك مشكلة خاصة بحياتك فهذه أكبر مشكلة، هذه المشكلة تبين أو تشف عن أنك لا تنتمي لهذه الأمة:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

ما لم تعش ظروف المؤمنين، صعوبة حياتهم، مشكلاتهم، ما الذي يشدك أن تنتمي إلى هذه الأمة؟ الألم الذي يعتصر قلبك حينما ترى بلاداً كثيرة محتلة، تنهب ثرواتها، وتُقتل أبناؤها، فأنت مؤمن، ومن علامة إيمانك أنك تتألم.

المنافق يؤلمه أن يتفوق المؤمن و ينجح :

بلغه أن نساء الروم جميلات جداً، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: ائذني لي ألا أجاهد معك لئلا أفتن.

(ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)

حينما تلتمس العذر ألا تقتل فهذه فتنة كبيرة وقعت فيها.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

الآية الفاصلة في الموضوع:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

الآية دقيقة:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

المنافق يؤلمه أن يتفوق المؤمن، يتألم، يسكت، يحسد، يكبر النقاط السلبية، يطعن، يسخر أحياناً، هذه كلها تصرفات تعبر عن شعور الغيرة والحسد.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

وهذا أكبر دليل لك، أخوك نجح تفرح له من أعماقك، تزوج زوجة صالحة، تفرح له من أعماقك.

(إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ)

كمؤمن تسعدك، وكغير مؤمن يسوءك ذلك.

(إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ)

إذا كان هناك مشكلة بالجهاد ولم ينتصر المسلمون، قتل بعضهم، يقول: نحن خططنا، ونجحنا، هم تورطوا وجاهدوا، نحن خططنا ولم نجاهد فنجحنا، يعد نجاته من بعض الامتحانات ذكاء وتفوق.

(إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ - أخذنا احتياطنا - وَيَتَوَلَّوْا - عن الخوض في الجهاد - وَهُمْ فَرِحُونَ)

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

بالمناسبة أنا أتمنى على كل أخ كريم أنه إذا ذكر كلمة الجهاد أن يعلم أبعاد هذه الكلمة، الجهاد ليس معناه دائماً القتال، والدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لنهدينَّهم سبلنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

هذا الجهاد النفسي، جهاد النفس والهوى، رجعنا من الجهاد الأصغر –القتال- إلى الجهاد الأكبر-جهاد النفس والهوى-، غض بصرك جهاد، إنفاق المال جهاد، أداء الصلاة في المسجد جهاد، أداء صلاة الفجر في وقتها جهاد، طاعة الله جهاد، بر الوالدين جهاد، هذا الجهاد أكبر أنواع الجهاد، الدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

2 - الجهاد الدعوي :

وهناك جهاد آخر الجهاد الدعوي، والدليل قل تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن،

(جِهَاداً كَبِيراً)

إذاً ممكن أن نسمي الجهاد الآخر جهاد الدعوة.

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا))

[أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

من هنا جاء في الأحاديث الكثيرة أن الجهاد جهاد النفس والهوى.

والجهاد الدعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن، يكفي أن تتعلم القرآن وأن تُعلمه، يكفي أن تحاول أن تفهم آيات القرآن الكريم، وأن تنقلها إلى من حولك، فأنت مجاهد من نوع آخر وهو الجهاد الدعوي، والدليل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بالقرآن،

(جِهَاداً كَبِيراً)

3 ـ الجهاد البنائي :

الجهاد الثالث: الجهاد البنائي، هذا جهاد يغفل عنه المسلمين، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

أحدكم إذا كان طالباً، وتفوق في دراسته، وجعل هذا التفوق في خدمة الأمة، هذا مجاهد من نوع ثالث، الجهاد البنائي، كما أن الأمة في حاجة إلى من يموت في سبيلها، شيء ثابت الأمة بحاجة إلى من يموت في سبيلها، ولكن لا تنس إلى أن الأمة في أمس حاجة إلى من يعيش في سبيلها، الأمة تحتاج إلى خبراء، إلى علماء، إلى أساتذة جامعيين، إلى خبراء في الاقتصاد، في التنمية، في الأمور الحياتية اليومية، فالذي يتفوق في حرفته، ويوظف هذه الحرفة لخدمة أمته فهو أيضاً مع المجاهدين، والدليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هذا الجهاد الثالث.

4 ـ الجهاد القتالي :

والجهاد الرابع: الجهاد القتالي، جهاد الحرب، فبين جهاد نفسي جهاد النفس والهوى، وجهاد دعوي في تعلم القرآن وتعليمه، وجهاد بنائي للإعداد للطرف الآخر ما يحتاج من قوة، وبين جهاد قتالي في

ساحات المعركة، فإذا ذكرت كلمة جهاد اعلم أنها أنواع كثيرة؛ جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي، والجهاد البنائي، والجهاد القتالي.

من أيقن بالآية التالية امتلأ قلبه بالاطمئنان و الأمن و السعادة :

قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة]

لكن أيها الأخوة، الحقيقة إذا أيقنت بهذه الآية، يمتلئ قلبك أمناً، واطمئناناً، وسعادة، لأن هذه الآية تتحدث عن المستقبل،

(قُلْ - يا محمد - لَنْ يُصِيبَنَا - في المستقبل- إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

كتب علينا لها معنى، وكتب لنا لها معنى آخر، كتب لنا من الخير.

والله أيها الأخوة، أنا حينما أرى شاباً مؤمناً، طيباً، طاهراً، مستقيماً، عفيفاً، صادقاً، أميناً، أنا أتنبأ له بمستقبل كبير جداً، لا أملك وسائل هذا المستقبل، لكن أقول: إن الله عز وجل يباهي الملائكة بهذا الشاب التائب، يقول تعالى:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

((ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب))

[الديلمي عن أنس]

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]

بمقتبل حياته، غض بصره، صدق، أمانه، بر والدين، إتقان عمل صالح، شيء رائع جداً، ما من شيء أحب لله تعالى من شاب تائب، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي قد ترك شهوته من أجلي، لذلك:

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد))

[ورد في الأثر]

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

بماذا؟ بالمصيبة التي أصابت النبي.

علامة المنافق الأولى أنه يفرح لمصيبة حلت بالمؤمن :

محور هذا اللقاء الطيب أن علامة المنافق الأولى أنه يفرح لمصيبة حلت بالمؤمن، وعلامة الإيمان الكبرى أن المؤمن يفرح لخير أصاب أخاه المؤمن، ويتألم أشد الألم بمصيبة حلت بأخيه المؤمن، هذه علامة، هذا محور الدرس.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أيها المؤمن، لا يوجد بالمستقبل لك إلا الخير،

(لَنْ يُصِيبَنَا)

لن لتأبيد المستقبل، لن لتأبيد النفي، لن أكلمك، أي أنا لن أكلمك في المستقبل إطلاقاً، لن لتأبيد النفي في المستقبل.

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، وصدق، هذه الآية وحدها تملأ قلبك طمأنينة.

آية ثانية:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

الآيات التالية بشارة للمؤمنين :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لا يوجد أمامك أيها الشاب التائب إلا الخير، ما عندك بيت، يأتي البيت، والزوجة، والأولاد، والمكانة، والاستقامة، والتألق، والدعوة:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية: 257]

(هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

مرة أخيرة: هذه الآيات بشارة للمؤمنين،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لغة دقيقة جداً، ما كتب الله لنا شيئاً، وما كتب علينا شيئاً آخر، ما كتب لنا من خير، لن يصيبنا إلا الخير، لا يوجد أمامنا إلا الإكرام،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لنا، لكن غير المؤمن علينا، كتب لك، وكتب عليك، كتب لنا من خير، كتب علينا من تأديب،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (38-70) : تفسير الآيات 51 - 52 ، المكافأة من جنس العمل، النصر أو الشهادة كلاهما حسن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-02-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الإله العظيم يطمئن المؤمنين و يتوعدهم بالسلامة و السعادة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والخمسين وهي قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة، صدقوا ولا أبالغ أن في القرآن الكريم آيات، لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآيات لكفت، هذه الآية وهي كلام خالق السماوات والأرض، كلام رب العالمين، كلام من بيده كل شيء، بيده رزقك، بيده سلامتك، بيده صحتك، بيده أهلك، بيده أولادك، بيده من حولك، بيده من فوقك، بيده من دونك، بيده أجهزتك، هذا الإله العظيم يطمئن المؤمنين، يقول للنبي عليه الصلاة والسلام أن قل لهم:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

فرق كبير بين أن نقول: كتب الله علينا، وبين أن نقول:

(إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لنا لها معنى، وعلينا لها معنى آخر، يغلب على لنا الخير فقط،

(لَنْ يُصِيبَنَا)

في المستقبل إلا الخير في كل شيء، والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

في المستقبل:

(وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية: 30]

على الماضي، إذا مرت معك هذه الآية اعلم علم اليقين أنها تغطي الماضي والمستقبل، تغطي الوقت كله.

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

بالمستقبل،

(وَلَا تَحْزَنُوا)

على الماضي.

لذلك سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام سأل معاذ بن جبل:

((أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ فقلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّه عليهم: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال: فتدري ما حقُّهم على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: أن لا يعذِّبَهم))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل]

هل تدري وأنت تسلك طريق الإيمان، وأنت تخاف من الواحد الديان، وأنت تتقصى رضاء الله عز وجل، وأنت تخاف أن تعصيه، هل تدري أنك ضمنت السلامة والسعادة والاستمرار؟ الاستمرار في الآخرة، والسلامة في الدنيا، والسعادة في الدنيا.

من يصطلح مع الله عز وجل لن يصيبه إلا الخير :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا)

لن عند علماء العربية تفيد تأبيد النفي، أي إلى الأبد لن يصيبنا إلا الخير.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، فأنت حينما تختار تصطلح مع الله.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والله أيها الأخوة لا أرى أن كلمة هنيئاً تصح إلا إذا عرفت الله، إلا إذا أطعته، إلا إذا ابتغيت رضوانه. أيها الأخوة، هذه الآية من الآيات التي تملأ قلب المؤمن أمناً وطمأنينة، وتملأ قلب المؤمن ثقة بالله عز وجل، وثقة بالمستقبل:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

آيات من القرآن الكريم تبين الفرق بين المسلم و الكافر :

إليكم بعض الآيات الداعمة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

نعمة الأمن من أدق خصائص الإيمان :

أيها الأخوة، أنا لا أتمنى أن مؤمناً مستقيماً، يسعى إلى مرضاة الله، يخشى أن يعصيه، يتقرب إليه، أن هذا المؤمن يأتي إلى قلبه خوف، من أدق خصائص الإيمان نعمة الأمن، والآية:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

فهل تصدقون أن الله سبحانه وتعالى أنشأ لك حقاً عليه؟ والله مرة في كتاب الجامع الصغير وهو كتاب أحاديث، إلا أن هذا الكتاب رتب ترتيباً هجائياً، مثلاً حق الأخ على أخيه، حق الزوج على زوجته، حق الزوجة على زوجها، حق المسلم على المسلم، كلمة حق مع بعضهم كلهم، على أول كلمة بالحديث، وعلى الأبجدية، الحاء بعدها القاف، هناك حديث واحد تقرأه يقشعر جلدك، وهذا الحديث خاص بالشباب، حق المسلم على الله، أن يعينه إذا طلب العفاف، شاب في ريعان الشباب، وشهوته في أوجها، ويخاف من الله، وضبط نفسه، غض بصره عن محاسن النساء، والنساء مبذولات في الطريق، كل ما عند المرأة من مفاتن ظاهرة في الطريق، فإذا غض بصره، وابتغى رضوان الله عز وجل له مكافأة كبيرة، ما هذه المكافأة؟ المكافأة من جنس العمل، هو غض بصره عن امرأة لا تحل له، أنا أرى ولا أتألى على الله أن حق هذا الشاب على الله أن يرزقه امرأة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتطيعه إن أمرها.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

من كان مع الله كان الله معه :

تعليقي:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مع من؟ مع جهة بشرية؟ يكون لك قريب بأعلى منصب، تطلب منه شيئاً يعتذر، هذه فوق صلاحياتي، أو يعدك ثم يخلف، لم يتمكن من تنفيذها، أنت مع من؟ أنت مع الله، مع خالق الكون، مع من بيده كل شيء، مع من بيده إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، أنت معه؟

لذلك قالوا: المعية معيتان، معية عامة، ومعية خاصة، المعية العامة:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديث الآية: 4]

هذه المعية العامة، لكن المعية الخاصة.

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

(مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

ما هذه المعية الخاصة؟ قال: هذه المعية معية النصر، والحفظ، والعون، والتوفيق، إذا كان الله معك أنت بتوفيق الله، وبحفظ الله، وبعون الله، وبرعاية الله، إذا كان الله فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الله عز وجل يدافع عن المؤمن وهو لا يدري :

إذاً هذه الآية:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

السبب أنها جاءت بعد قوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة]

ردّ عليهم يا محمد،

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

من خير، من تكريم، من توفيق، من رزق، من محبة، من سكينة.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

أحياناً الإنسان يقويه إنسان قوي، قوي له نفوذ بالبلد، ومسموع الكلمة، وأمره نافذ، وغني ميسور، وكفل يتيماً، هل يجوع هذا اليتيم؟ هل يعرى؟ هل ينال أحد منه؟ يقول لك: أنا فلان يدافع عني، وحتى

الإنسان لو وكل محامياً لامعاً بقضية ينام مطمئناً، يقول: المحامي فلان سيدافع عني ، فإذا كان خالق السماوات والأرض هو الذي يدافع عنك، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج الآية: 38]

الله يدافع عنك وأنت لا تدري.

((لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى))

[الطبراني عن معاذ بن أنس]

من كان في طاعة الله وفقه الله و حفظه و أكرمه :

أيها الأخوة، هذه الآية يجب أن تكون في قلوبكم، وفي عقولكم، وفي خواطركم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

أنت مع من؟ تصوَر تصوراً غير معقول، أن طفلاً والده ملك، أو طفلاً والده قائد الجيش، وهناك عريف هدده، فصار يبكي من شدة خوفه، معنى هذا أنه غبي، لأنه لم يعرف من هو والده، أقل رتبة بالجيش عريف، هذا العريف هدد هذا الطفل، أو هذا العنصر، وهذا العنصر والده قائد الجيش، فإذا خاف حقيقة يكون أحمقاً لا يعرف الله عز وجل.

أنا أريد أن يكون لك ثقة بالله، ثقة بمحبته لك، ثقة بنصره، ثقة بحفظه، أنت مع خالق السماوات والأرض، ولست مع جهة أرضية قد تنساك أحياناً، رواية لا تعد في الصحاح: سيدنا نوح قبل أن يأتي الطوفان جاءته امرأة ورجته ألا ينساها من تأمين مكان في السفينة، جاء الطوفان، وهو على السفينة وفي الأمواج الكبيرة تذكر هذه المرأة، ونسي أن يدعوها إلى السفينة، فتألم أشد الألم، فلما انتهى الطوفان، واستوت السفينة على الجودي، جاءت هذه المرأة و قالت له: يا نوح متى الطوفان؟ إن نسي سيدنا نوح فالله لا ينسى.

إذا كنت مع الله كان الله معك، إن كنت في طاعته يوفقك، يحفظك، يكرمك.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

احفظوا هذه

(لَنَا)

لن: تفيد تأبيد المستقبل، نفي مؤبد:

(لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

الاستقامة على أمر الله تولد الأمن و الطمأنينة :

أخواننا الكرام، إن أردت حالة لا يتمتع بها إلا المؤمن هي نعمة الأمن فاستقم على أمر الله، والله عز وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

وفي اللغة العربية فرق كبير بين أولئك الأمن، أو

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

إذا قدمت الخبر على المبتدأ الذي هو شبه جملة معنى ذلك أن التركيب فيه قصر وحصر، الأمن لهم ولغيرهم، أما

(لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم.

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

حصر، ما نعبد إياك، ونعبد غيرك، عندما تقدم شبه الجملة في التركيب الاسمي الجملة تعطي معنى القصر والحصر،

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذا كان الله عز وجل وليك، هل تخشى من أحد؟، هل تخاف أحداً؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا فإنا منحنا بالرضا من أحبنــا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنـــا لنـحميك مما فيه أشرار خلقنا

*** * ***

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنا

وسلم إلينا الأمر في كلِّ ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنــا

*** * ***

المؤمن الذي اصطلح مع الله واستقام على أمره يرى إكراماً وتوفيقاً ما بعده توفيق :

أيها الأخوة، هذه الآية يجب أن تكون في أذهانكم دائماً، وفي قلبكم، وهي بشارة كبيرة لمن استقام على أمر الله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

صدقوا ولا أبالغ أنت حينما تصطلح مع الله، وتستقيم على أمره، والله ترى العجب العجاب، ترى لطف الله، ترى رحمة الله، ترى عناية الله، ترى توفيق الله، ترى نصر الله، ترى إكرام الله، حينما تصطلح مع الله، وتستقيم على أمره، والله ترى أشياء لا تصدق، وهذه لكل مؤمن اصطلح مع الله، واستقام على أمره، يرى إكراماً ما بعده إكرام، وتوفيقاً ما بعده توفيق، وتيسيراً ما بعده تيسير، وراحة نفسية ما بعدها راحة، وسعادة، وسكينة، ورضا، وتألقاً، وثقة بالله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 257]

للتقريب: أحياناً يكون الأب قوياً، وأخلاقياً، وديّناً، وعنده ابن، هذا الابن لا يمكن أن ينطق ببنت شفة، بكلمة بذيئة، التربية عالية جداً، مجتهد، وأنيق، وأحياناً يكون الابن انعكاساً لوالده، فإذا كان الله عز وجل

(وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا)

أي هو وليهم بشؤونهم، ببيتهم، بأسرتهم، بمن حولهم، بعملهم، باختصاصهم، بصحتهم،

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن التوكل يحتاج إلى شيئين، إلى استقامة، وإلى هدف، من ادعى أنه توكل على الله ولم يأخذ بالأسباب هذا التوكل مرفوض، ومن أخذ بالأسباب واعتمد عليها ولم يتوكل على الله هذا الأخذ بالأسباب مرفوض، والواقع أن العالم الغربي أخذ بالأسباب من أعلى درجة، واعتمد عليها، وألهها، ونسي الله، والعالم الإسلامي المتخلف لم يأخذ بها أصلاً، العالم الغربي وقع بالشرك والعالم الإسلامي وقع في المعصية، الصواب ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست

بشيء.

للتقريب: عندك سفرة إلى مدينة في الشمال بمركبتك، تراجع المركبة، تراجع المحرك، تراجع كل شيء فيها مراجعة دقيقة، ومع كل هذه المراجعة أنت موقن يقيناً قطعياً أن المسلم هو الله، إذّ أخذت بالأسباب راجعت المركبة، ثم توكلت على الله، أما لو أنك توكلت ولم تأخذ بالأسباب فهذا التوكل مرفوض.

سيدنا عمر رأى أناساً في الحج يتكففون الناس قال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله.

ملخص الملخص ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

هذا كله في قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

لأن الله يقول:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

التوكل أن تأخذ بالأسباب أولاً، ثم تتوجه إلى الله ثانياً، إحدى الحالتين سهلة، لا تأخذ بالأسباب كحال المسلمين اليوم، والله سينصرنا إن شاء الله، فإن لم نأخذ بالأسباب - بأسباب القوة - إن لم يحب بعضنا بعضاً، إن لم نتفانَ في خدمة هذه الأمة، هناك أشياء يجب أن نأخذ بها أولاً حتى يُسمع دعاؤنا، إن لم نأخذ بالأسباب لا نحقق ما نتمنى، وإذا أخذنا بها، واعتمدنا عليها، لا نحقق ما نتمنى، وأوضح شاهد النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب في الهجرة، ما من ثغرة إلا أغلقها، ما من جزئية إلا حققها، وبعد أن أخذ بكل هذه الأسباب، ووصل المشركون إلى غار ثور، قال الصديق:

((لو أن أحدهم نظر إلى قدَمَيه أبْصَرَنَا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

هذا درس بليغ يحتاجه المسلمون، أن نأخذ بالأسباب، أنت طالب تدرس وبعد الدراسة يا رب أنت الموفق، أنت تاجر تشتري صفقة بدراسة جيدة، النوعية، المظهر، الأسعار، المنافسة، وبعد ذلك يا رب تجبر، كل إنسان يأخذ بالأسباب بدقة بالغة، ويعتمد على الله لا عليها، يكون قد حقق شرطي النجاح في كل شيء، هذا كلام لكل أخ موجود، للطالب، للتاجر، للموظف، للمزارع، خذ بالأسباب ثم توكل على رب الأرباب:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

التوكل و التواكل :

شيء قليل أن يكون الله عز وجل مولاك؟ يدافع عنك، يحميك، يوفقك، ينصرك، والثمن سهل، الثمن طاعته فقط.

أحياناً هناك ملك بالظاهر بيده كل شيء، لكن مستحيل أن تصل إليه، لكن الله ليس بينك وبينه حجاب إطلاقاً، تقول: يا رب! يقول لك: لبيك يا عبدي، يا ربي تبت إليك، يا عبدي وأنا قبلت، الصلحة بلمحة، والأمر بيدك، لذلك الآية الأولى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذاً يجب أن نفرق بين التوكل وبين التواكل، التوكل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أما التواكل فإما أن تأخذ بالأسباب ثم تعتمد عليها، أو ألا تأخذ بالأسباب وتتوهم أنك تعتمد على الله، وكلا الطريقين خاطئ:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

[سورة التوبة]

ماذا ينتظر المؤمن؟ إما استشهاد في سبيل الله- الشهيد إلى الجنة- أو انتصار، الاستشهاد حسنى، والانتصار حسنى:

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

شيء رائع جداً، فالمؤمن إن أصيب -لا سمح الله- بمرض عضال أنهى حياته، إلى أين يذهب؟ إلى الجنة بإذن الله.

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158))

[سورة آل عمران]

إذا ألقينا القبض على إنسان وسقناه إلى أمه، الأم كلها رحمة.

الخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

أيها الأخوة، يجب أن تثق بالله، وإذا كنت في طاعته يجب أن تثق بنصر الله، يجب أن تثق بتوفيق الله، يجب أن تثق بهذا النصر الدقيق جداً.

سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، هو في الحقيقة خال رسول الله، وما كان النبي يداعب أحداً إلا خاله، إذا دخل سعد يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، وما فدى النبي أحداً إلا سعد بن أبي وقاص، قال:

((ارْمِ، فداك أبي وأمِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص]

وعندما توفي النبي عليه الصلاة والسلام، لسيدنا عمر كلمة رائعة جداً، قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، لذلك:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

للتقريب: نحن أمة عربية، أبو لهب أحد صناديد قريش، وعربي قح، ومن أرومة عربية، وأصيل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد]

هل نفعته عروبته؟ سلمان الفارسي ليس عربياً، من بلاد فارس.

((سلمان منا أهل البيت))

[أخرجه الحاكم عن مصعب بن عبد الله الزبيري]

صهيب رومي من بلاد الروم، هذا الدين، سيدنا الصديق رأى بلالاً يُعذب، بلال حبشي يعذبه سيده صفوان بن أمية، فاشتراه منه بمئة دينار، بعد أن اشتراه منه، صفوان أراد أن يهين بلالاً، قال: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه، ليس مئة درهم، ولا مئة دينار، أبيعه بدرهم، لأنه لا قيمة له عندي، فردّ عليه سيدنا الصديق، قال له: والله لو طلبت به مئة ألف لأعطيتك، الشاهد: بعد أن اشتراه وأطلقه لوجه الله، وضع الصديق يده تحت إبط بلال، وقال: هذا أخي حقاً، وما ذكر الصحابة الصديق إلا وذكروا معه بلالاً، يقولون: هو سيدنا وأعتق سيدنا، سيد الصحابة هو سيدنا، وأعتق سيدنا، هذا الدين لا يوجد به تفرقة:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

الأمة لا ترقى إلا عندما تعتمد على مقياسي العلم والعمل :

لذلك الأمة حينما تعتمد مقياسي العلم والعمل ترقى، إذا اعتمدت مقاييس انتمائية لا ترقى، هناك مقاييس موضوعية؛ العلم والعمل، أنت مدير دائرة، يوجد عندك وظيفة حساسة جداً، وهناك إنسان كفء لها، ويحمل أعلى شهادة، إذا عينت هذا الإنسان الكفء تحقق نتائج كبيرة جداً، تنفع الأمة، لك قريب شبه

جاهل، عينته بهذا المنصب مكان الخبير و هو ليس كفئاً، أنت ماذا فعلت؟ أنت اعتمدت مقياساً انتمائياً، و ابتعدت عن المقياس الموضوعي.

لذلك مثل هذا المجتمع لا يتماسك، ولا يرقى، أية أمة تعتمد مقياساً موضوعياً لا انتمائياً ترقى، وأية أمة تعتمد مقياساً انتمائياً لا موضوعياً لا ترقى.

لذلك اشتراه، ووضع يده تحت إبطه، وقال: هذا أخي حقاً.

في بعض الراويات أن أبا سفيان أراد أن يدخل على عمر بن الخطاب، يبدو أن عنده أعمالاً كثيرة جداً، وقف ببابه مدة طويلة- وأبو سفيان زعيم قريش من ألمع الأسماء- وعندما دخل عليه عاتبه قال له: زعيم قريش يقف ببابك طويلاً وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان؟ قال له: أنت مثلهما؟ هناك فرق كبير جداً.

أنا ألح على المقاييس الموضوعية لا الانتمائية، حينما تعتمد مقياساً انتمائياً هذا المقياس يمشي بالأمة إلى طريق الهلاك.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

أي أنت أيها المؤمن ماذا ينتظرك؟ توفيق الله بالدنيا، صحة طيبة إن شاء الله، زوجة صالحة، أولاد أبرار، مكانة اجتماعية، سمعة طيبة، مات للجنة، ماذا يوجد أمامك؟ إنسان مات مؤمناً، مات مستقيماً، مات تائباً، مات مصطلحاً مع الله، إن عاشَ عاش سعيداً، وإن ماتَ مات حميداً:

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص]

من ينهض بأمته فالله عز وجل سينصره لا محالة :

أخواننا الكرام، كي تستبشروا، الله عز وجل قال: -وكلام الله وأنا أقول زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين- قال:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 12]

الله أعطاك النتيجة،

(سَتُغْلَبُونَ)

أعطاك النتيجة الحتمية،

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

فأنت إذا نهضت بأمتك يجب أن تعتقد يقيناً أن الله سينصرك، أنا أتمنى أن يكون انتماء الإنسان للمجموع، أنت من أمة تحتاج إلى خبراء، إذا ابتغيت بدراستك خدمة هذه الأمة فأنت في جهاد، إذا ابتغيت من كل شيء خدمة هذه الأمة فأنت في جهاد، أحياناً تختار اختصاصاً نادراً، أنا سافرت إلى بلاد بعيدة وجدت بولاية واحدة خمسة آلاف طبيب من بلد عربي واحد، خمسة آلاف طبيب معهم بورد من بلد عربي واحد بولاية واحدة، بولاية واحدة بأمريكا فيها خمسة آلاف طبيب من دولة عربية في أمس الحاجة إلى هؤلاء الأطباء، بلاد غنية جميلة، فيها ميزات كثيرة جداً، فآثر البقاء في هذه البلاد على العودة إلى بلده.

مرة لمحت طبيباً يحمل شهادة بورد، ويجري عملية في مستشفى وطني متواضع جداً، هذا جاء إلى بلده كي يخدم أمته، أنا والله العبد الفقير شجعت الأخوان المؤمنين المتفوقين على الدراسة في بلاد الغرب، ودرسوا، عندي يقين بالمئة مليون لابد من أن يرجعوا جميعاً إلى بلادهم، لماذا؟ لخدمة أمتهم، لماذا؟ لأنهم يحملون رسالة، هناك رسالة يحملها، بلاده نامية وفيها متاعب كثيرة، لكن هو يحمل رسالة، يعود لبلده، ويخدم بعلمه المتفوق أمته، بين إنسان حامل رسالة وبين إنسان مرتزق مسافة كبيرة جداً.

قصة من أربعين سنة تمّ إعدام عالم كبير، ظروف استثنائية صعبة فجاؤوا له بشيخ ليلقنه الشهادة، قال له: أنت أيها الملقن ترتزق بـ لا إله إلا الله، أما أنا فأموت من أجلها.

فرق كبير بين إنسان يحمل رسالة وإنسان يرتزق ببعض الأفكار الدينية.

يا أيها الأخوة، عندما تحمل رسالة تكون أسعد الناس، وإن لم تقل: أنا أسعد الناس، أسعد من في الأرض إلا أن يكون أحد أتقى مني فهناك مشكلة بعلاقتك بالله عز وجل.

أيها الأخوة، آيات اليوم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (39-70) : تفسير الآيات 53 - 54 ، ضعف الإخلاص يبطل العمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-02-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة في العمل الصالح أن يقبله الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والخمسين وهي قوله تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

أيها الأخوة، العبرة في العمل الصالح أن يقبله الله عز وجل، قد يعمل المرء أعمالاً كالجبال، كمال الخلق يدل على كمال التصرف، لم تقبل لا قيمة لها.

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً))

[مسند الشهاب عن أنس]

من علامات إخلاص المؤمن أن سره كجهره، وأن باطنه كظاهره، وأنه في خلوته كما هو جلوته، ثبات المؤمن على طاعة الله وحده ومع الناس، في خلوته وفي جلوته، في سره وعلانيته، وفي باطنه وظاهره، أما أن يكون للإنسان موقف مع نفسه وموقف مع الناس فهذه ازدواجية تضعف قيمة عمله، المؤمن واضح، واضح جداً.

الإخلاص أهم شيء في العمل :

لذلك أيها الأخوة، أهم شيء في العمل الإخلاص، بالإخلاص ينفع كثير العمل وقليله، ومن دون إخلاص لا ينفع لا كثيره ولا قليله، والإخلاص ملخص الطاعة، أنت إذا كنت مخلصاً توجهت بهذا العمل إلى الله، ولا تعبأ بزيد ولا بعبيد، ولا ترضي فلاناً ولا علاناً.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان]

وأروع ما في حياة المؤمن أنه مخلص، والذي يميز المنافق عدم إخلاصه.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

دائماً أيها الأخوة ينبغي أن نحاسب أنفسنا هل هناك رياء في أعمالنا؟ هل نعمل عملاً أمام الناس غير العمل الذي نعمله وحدنا؟ هل هذا العمل إذا صعد إلى الله عز وجل هل يقبله الله عز وجل؟ المشكلة أن الذي يضعف إخلاصه يرد عمله، هذا الجهد الكبير والاهتمام البالغ من دون إخلاص لا يقدم ولا يؤخر، والآية مرة ثانية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان]

أحياناً تدعو إنساناً إلى طعام، قد يأتي إلى خاطرك أن تظهر له براعة أهلك في الطبخ، أو غناك، أنواع منوعة، هذا الطعام بهذه النية فقد قيمته، بنية إكرام المؤمن، إطعامه إذا كان جائعاً، حل مشكلته إذا كان فقيراً، هذا عمل طيب.

كلما ارتقى العمل كان الإخلاص ثمرة لهذا الرقي :

لذلك المؤمن يتعاهد نفسه، يراقب عمله، وكلما ارتقى العمل كان الإخلاص ثمرة لهذا الرقي، أو كلما كان الإخلاص في العمل كان الإخلاص سبباً لرقي هذا العمل.

هؤلاء الصحابة الكرام الذين وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا ما هو أكثر شيء في حياتهم؟ الإخلاص، والإخلاص يثمر المحبة، أنت حينما تخلص في عملك ترى أخاك في الدين أخاً حقيقياً، تحبه، تقدم له، تنصحه، تعينه، أما إذا كان هناك إخلاص ضعيف فضعف الإخلاص ينتج عنه تدابر، تباغض، تباعد، والذين آمنوا قدوتهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فالحب الذي كان بينهم يفوق حدّ الخيال، والتناصح بينهم أيضاً يفوق حدّ الخيال، وتواضعهم لبعضهم بعضاً يفوق حدّ الخيال، مجتمع المؤمنين مجتمع له خصائص، أهم خصيصة في هذا المجتمع أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، يتعاونون، يتناصحون، يتحابون، يتبادلون النصائح، تنصحه وينصحك، تعينه ويعينك، تدافع عنه ويدافع عنك، لذلك الآية الكريمة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

العمل قيمته بما وراءه من إخلاص، أما إذا كان هناك رياء في أداء العمل ترائي به الناس، أو تخفي شيئاً وتظهر شيئاً كان النفاق، والنفاق في بعض الآيات إن المنافقون:

(هُمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة النساء الآية: 151]

والمنافق في بعض الحالات كافر، لكنه غطى نفسه بمظاهر الإيمان الخارجية، كي ينال من خصائص المؤمنين ما لم يناله لو كان كافراً:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

الإخلاص أساسه التوحيد :

أخواننا الكرام، الأعمال التي كلفنا الله بها لا تقبل إلا بالإخلاص، والإخلاص أساسه التوحيد، لو أردت أن تسأل ما طريق الإخلاص؟ هو التوحيد، فكل موحد مخلص، وكل مخلص ما كان مخلصاً إلا لأنه كان موحداً، معنى التوحيد؛ ما من إله إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا معز إلا الله، لا مذل إلا الله.

وسيدنا عمر يقول: تعاهد قلبك، أنت إذا قمت بعمل، هذا الذي تقوم به هل تبتغي به ثناء الناس عليك؟ لكن شيء طبيعي إذا كان عملك صالحاً الناس سوف يثنون عليك هذا بفضل الله عليك، إذا أحبك الناس هذا فضل من الله، حتى إن بعض العلماء قالوا بقوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

المؤمن الله عز وجل من باب التكريم يلقي محبته في قلوب الخلق، أن تكون محبوباً هذا فضل من الله، أما أن تكتفي برضاء الناس عليك ولا تعبأ برضاء الله عز وجل فهذا نوع من النفاق.

آيات التوحيد :

لذلك من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، الأصل أنك تعبد إلهاً واحداً.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: 54]

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

[سورة الأعراف الآية: 158]

حبذا إذا قرأت القرآن أن تتقصى آيات التوحيد، واعتقد يقيناً أن الإيمان في حقيقته هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، تقرأ قوله تعالى فيقشعر جلدك:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح الآية: 10]

ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى فاعلاً إلا الله، ألا ترى معطياً إلا الله، ألا ترى مانعاً إلا الله، ألا ترى رافعاً إلا الله، ألا ترى خافضاً إلا الله، هذا هو التوحيد، والتوحيد أصل هذا الدين، بل إن ديننا دين التوحيد، الإنسان حينما يتوجه إلى الله وحده استراح من هموم كالجبال، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، أخلص لله يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

العلاقة الوثيقة بين الإخلاص و التوحيد :

أحد أسباب قوة شخصية المؤمن أنه لا يستجدي المديح من الناس، يرضي الله وكفى، وشعاره دائماً: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، والأحاديث كثيرة جداً تصف المخلصين بقوتهم، وبقوة شخصيتهم، وببراءتهم من كل أنواع النفاق، المخلص لا ينافق.

والحقيقة هناك علاقة وشيجة جداً بين الإخلاص والتوحيد، كلما ارتقى توحيدك ارتقى إخلاصك، وكلما ارتقى إخلاصك ارتقى توحيدك، التوحيد ألا ترى مع الله أحد، ألا ترى يداً تعمل مع الله، فلذلك تعامل الناس بأدب جم، وتأخذ وتعطي لكن الآمال منعقدة على الله عز وجل.

والقصة طويلة، الطالب، التاجر، الموظف، المزارع، حينما يوحد ترتاح نفسه، حينما يوحد يستقيم عمله، حينما يوحد تقوى شخصيته، حينما يوحد يصل إلى الله:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ)

أحياناً تدعو الناس إلى بيتك اسأل نفسك سؤلاً محرجاً: لماذا دعوتهم؟ عندك بيت فخم جداً، تريد أن يروا ما عندك؟ هذه مشكلة، عندك مال وفير تريد أن تري من حولك حجمك المالي؟ لكن أحياناً تريد أن تكرم المؤمن، هذا هدف مشروع ونبيل، قبل العمل، في أثناء العمل، بعد العمل، راقب نفسك، الهدف أرضي أم سماوي؟ الهدف أن أفتخر أم أقدم عملاً لله عز وجل؟ تابع أمورك، راقب نفسك، ولا تحابي نفسك، معظم الناس يحابون أنفسهم في هذا الموضوع، يصف إخلاصه وصفاً عجيباً، ولكن في الحقيقة

قد يكون في الإخلاص ضعف، بأمور الإخلاص لا تحابي نفسك، شدد عليها، لماذا فعلتِ كذا؟ لماذا قلتِ كذا؟ أحياناً الإنسان يميل إلى مدح نفسه، أحياناً المديح كي تكون قدوة لغيرك، تشجعهم أنك باستقامتك على أمر الله أكرمك الله، جيد، فرق كبير بين أن تبين لهم إكرام الله للمؤمن وبين أن تزهو عليهم. أعرف أخوة كراماً إن أرادوا أن ينفعوا الناس بقصة جرت معهم فيها إكرام من الله لا ينسبون هذا إلى ذاتهم، يقول لك: عندي صديق فعل كذا وقد أكرمه الله بكذا، والحقيقة هو نفسه الإكرام كان له، لئلا تأتي نفسه وتوبخه على أنه يفتخر ينسب هذا إلى غيره، سمعت عن إنسان فعل كذا وكذا.

استجداء المديح علامة ضعف الإخلاص :

أيها الأخوة، المخلص الإنسان ليس بحاجة إلى أن يستجدي المديح، وأنا أستخدم كلمة بدقة هناك من يستجدي المديح، أحياناً يدعوك إلى بيته إذا بقيت ساكتاً لم تثن على هذا البيت هو يسألك هل أعجبك البيت؟ يدعوك إلى طعام، فإن لم تثن على الطعام يستفزك، الطعام إن شاء الله جيد؟ يريد أن يستجدي المديح، كلما زلت قدمك إلى استجداء المديح كان هذا علامة على ضعف إخلاصك، المؤمن يعبد الله، المؤمن يخلص في عمله، المؤمن يبتغي وجه الله، ولا تأخذه بالله لومة لائم.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الفاسق هو العاصي، لكن كأن هناك علاقة متينة بين القيام بالعبادات وبين الاستقامة على أمر الله، بإمكانك أن تقوم بعبادة، لكن هذه العبادة لا يقبلها الله عز وجل إلا بالإخلاص، والإخلاص تتناقض معه سلوكيات كثيرة، مديح الذات، الاستعلاء، الظهور، حب الظهور، هذا كله يؤدي إلى ضعف العمل الصالح بضعف إخلاصك.

الحقيقة أحد الصحابة سأل النبي عليه الصلاة والسلام:

((قلت: يا رسول الله ماذا ينجي العبد من النار ؟قال: الإيمان بالله، قلت: يا رسول الله إن مع الإيمان عملاً، قال: يرضخ مما رزقه الله، قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ به؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قلت: يا رسول الله ، أرأيت إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟قال : يصنع الأخرق. قلت: أرأيت إن كان أخرقاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً؟ قال : يعين مظلوماً، قلت: أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً؟ قال: ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! ليمسك أذاه عن الناس، فقلت: يا رسول الله إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة))

[البيهقي عن أبي ذر]

بمعنى أن العمل صالح يقود إلى عمل صالح أكثر، عندنا بالفيزياء مبدأ العطالة، هذا القانون معناه أن الجسم الساكن يرفض الحركة، والمتحرك يرفض السكون، لمَ وضع الحزام في السيارات؟ لأنك إذا كنت تركب سيارة وأوقفتها بالمكبح جسمك يرفض الوقوف يبقى مندفعاً نحو الأمام، وقد يكون هذا الإيقاف المفاجئ سبب موت الراكب، لذلك وضعوا له الحزام، الجسم المتحرك يرفض السكون، والساكن يرفض الحركة، هذا مبدأ العطالة.

لذلك الإنسان إذا كان له عمل يصعب أن يوقف هذا العمل، وإذا ترك العمل الصالح يصعب أن يفعله، عود نفسك على العمل الصالح.

العمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي يكون خالصاً وصواباً :

أيها الأخوة:

((إن الله طيِّب، لا يقبلُ إلا طيباً))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ما العمل الذي يقبله الله؟ في بعض الآيات تبين أن العمل الذي يقبله الله عز وجل يجب أن يكون خالصاً وصواباً، فسرت هاتان الكلمتان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي بهذا العمل وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، وكلا الشرطين لازم غير كافٍ، لو أن العمل صواب لكن ابتغي به أمر دنيوي هذا العمل لا يقبل، لو أن العمل فيه إخلاص ولم يوافق السنة، لا يقبل، فالعمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي يكون خالصاً وصواباً، والدليل قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

العمل لا يسمى صالحاً إلا إذا ابتغى به صاحبه وجه الله، والعمل لا يسمى صالحاً إلا إذا تطابق مع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

ويبدو أن العمل الصالح الذي يقبله الله عز وجل يجب أن تكون أرضيته الاستقامة، الاستقامة أصل، كيف أن هناك أشياء بالجهاز تعد هيكلاً عظمياً له، البناء فيه هيكل إسمنتي، الآن يكسى بالدهان، والبلاط، والنوافذ، والأبواب، الأصل أن الهيكل العظمي سليم.

والإخلاص بالعمل، الإخلاص كالهيكل العظمي، فالعمل من دون إخلاص لا يعبأ الله به،

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

الأعمال الصالحة إن رافقتها استقامة على أمر الله فهذه الأعمال ترقى بالإنسان إلى الله :

مرة ثانية:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذا يعني أن المؤمن كما قلت قبل قليل: سريرته كعلانيته، وباطنه كظاهره، وخلوته كجلوته، لا يوجد عنده ازدواجية بالشخصية، واضح، عدم تقبل العمل لضعف إخلاصه، وأحد أسباب ضعف الإخلاص أن هذا العمل الصالح رافقته معاص كثيرة:

(إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الفسق المعصية، فالإنسان إذا خرج عن طاعة الله، وله أعمال صالحة، الله سبحانه وتعالى يعطيه جزاءه في الدنيا على هذا العمل الذي فعله بالدنيا ولم يكن مستقيماً، ما أحسن عبد من مؤمن أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة، إنسان قد يعمل عملاً إرضاء للناس ينال رضاء الناس، كافأه الله عليه بإرضاء الناس، لكنك إذا عملت عملاً تبتغي به وجه الله أكرمك الله في الدنيا والآخرة معاً.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

هذا الذي أتمناه أن الأخ له درس عمل، يؤدي الصلوات، يصوم رمضان، يحج بيت الله الحرام، يؤدي زكاة ماله، الاستقامة في العلاقات الاجتماعية، الاستقامة في كسب الأموال، وفي إنفاق الأموال، الاستقامة في البيت، الاستقامة في العمل، الاستقامة في زواجه، الاستقامة في تربية أولاده، إذا رافقت أعماله الصالحة استقامة على أمر الله هذا العمل يرقى به إلى الله.

الاستقامة و العمل الصالح :

أما الخطأ مع العمل الصالح، فالعمل قد ينال عند الله مكافأة في الدنيا، لكن لا يكون هذا العمل سبيلاً لكسب رضى الله عز وجل.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

بشكل أو بآخر الفسق أن تخرج كما تفسق التمرة، التمرة لها قشرة، أحياناً تمسك التمرة وتضغطها فالتمرة تخرج من دون قشرة في بعض الحالات، نقول: فسقت التمرة، والإنسان الشرع حصن له، فإذا خرج من هذا الحصن فسق.

أولاً: الإنسان يعلم حدود الله بفطرته، ويعلمها أيضاً بالتعلم، فأنت حينما تحضر درس علم تعرف الحلال والحرام، والخير والشر، وما ينبغي وما لا ينبغي، هذه المعرفة سبب كبير جداً لاستقامتك على أمر الله.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

للتوضيح: طريق إلى الله، المعاصي التي يرتكبها الإنسان كأنها عقبات في هذا الطريق، هذه العقبات كأداء، تحول بينه وبين السير إلى الله، ماذا تعني التوبة؟ أن تزيح هذه العقبات عن الطريق إلى الله، هذه الاستقامة، كل معصية تعد عقبة في الطريق إلى الله، فإذا استقمت على أمر الله، وتبت توبة نصوحة، كأنك أزلت هذه العقبات من طريقك إلى الله، بعد أن تزيلها هل يكفي؟ أنت مستقيم لكنك غير متحرك، أنت ساكن، الاستقامة تضمن لك السلامة، أنت ما كذبت، ما غششت، ما خنت، ما اقترفت معصية، كله جيد، هذه تضمن لك السلامة.

تماماً كطالب ما ضرب زملاءه، ولا أساء إليهم، ولا قسا عليهم بالكلمات، لكن ما درس، المدرسة فيها انضباط، فيها دراسة، فيها شيء سلبي، وشيء إيجابي، المستقيم أدى الشيء الإيجابي بالإسلام، ما كذب، ما غش، ما خان، شيء جيد جداً، لكن لا يكفي، لو أن الطالب لم يدرس وآخر السنة لم ينجح، يقول: أنا والله ما آذيت الطلاب، طبعاً ما آذيتهم، ولا كذبت عليهم، لكنك ما درست، نريد عملاً إيجابياً، وبالإسلام هناك استقامة، وهناك عمل صالح، الاستقامة سلبية، والعمل الصالح إيجابي.

الاستقامة والعمل الصالح إذا اجتمعا تفرقا وإن تفرقا اجتمعا :

لذلك أقول لكم دائماً: إذا ذكرت الاستقامة وحدها تعني الاستقامة والعمل الصالح، وإذا ذكر العمل الصالح وحده يعني الاستقامة والعمل الصالح، أما إذا ذُكرت الاستقامة والعمل الصالح فكل شيء يعني شيء، الاستقامة امتناع، والعمل الصالح عطاء، أي إذا اجتمعا تفرقا، وإن تفرقا اجتمعا، إذا ذكرت الاستقامة وحدها فتعني الانضباط السلبي، والعمل الصالح الإيجابي، وإذا قلت: العمل الصالح وحده أي الانضباط السلبي والعطاء الإيجابي، أما إذا ذكرت الاستقامة والعمل الصالح فالاستقامة لها معنى والعمل الصالح له معنى. بشكل أو بآخر هذا الدين العظيم يمكن أن يضغط بأربع كلمات، أن تعرف الله، وأن تتصل به، وأن تستقيم على أمره، وأن تتقرب إليه بالعمل الصالح.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

مرة ثالثة:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذا يعني أنه لا يوجد بحياة المؤمن ظاهر وباطن، جلوة وخلوة، علانية وسر، وضعه موحد.

العبادات نوعان؛ عبادات شعائرية و عبادات تعاملية :

الآن:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة]

أخواننا الكرام هناك معنى دقيق جداً وأقول خطير:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

هناك استنباط خطير جداً، قد تجد إنساناً يصلي لكنه ما عرف الله، صلى وأكل مالاً حرماً، صلى وغش في البيع، صلى واعتدى على أعراض الآخرين، هذا الذي لا يعرف الله عباداته لا وزن لها إطلاقاً، ولا يستطيع أن يقطف ثمارها إطلاقاً.

فالعبادات نوعان؛ عبادات شعائرية، كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وعبادات تعاملية، فإذا أدى العبادة الشعائرية ولم يكن مستقيماً لا ينجو من عذاب الله، والدليل أن العبادات الشعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، لا تقطف ثمارها، إلا إذا صحت العبادة التعاملية، والأدلة كثيرة.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه الكرام:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

شيء واضح جداً، هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

حديث آخر:

((رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

هذا الصيام، الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

الحج:

((من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك ، قال الله له: لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، عبادات شعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، والعبادات التعاملية جاءت في كلام قاله سيدنا جعفر للنجاشي، سيدنا جعفر هاجر إلى الحبشة مع نفر من أصحاب رسول الله، والملك النجاشي سألهم عن الإسلام، قال سيدنا جعفر:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقة، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين]

هذه العبادات التعاملية، والكلام الفيصل العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها عند الله إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته، خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

[الطبراني عن ابن عمر]

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ)

أي ما عرفوا الله، وما عرفوا رسوله، لذلك خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (40-70) : تفسير الآية 55 ، شقاء الآباء من شقاء أبنائهم ـ للمؤمن جنتان جنة في الدنيا وجنة في الآخرة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-02-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

عطاء الله عطاء أبدي :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

أخواننا الكرام: أي شيء ينتهي عند الموت هذا لا يليق أن يكون عطاءً إلهياً، هذا الشيء الذي ينتهي بالموت لا يتناسب مع كرم الله، عطاء الله أبدي إلى أبد الآبدين:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة النساء الآية: 57]

أما الدنيا فبضعة أيام، قد يؤتي الله الإنسان مالاً، قد يؤتيه صحة، قد يؤتيه منصباً، قد يؤتيه مكانة، تنتهي عند الموت، لأن الموت ينهي كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وينهي فقر الفقير، ينهي ذكاء الذكي، ومحدودية المحدود، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، الموت ينهي كل شيء، الموت تنتهي به الأمراض، ورم خبيث مات انتهى المرض، لكن ما بعد الموت إما لجنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

من وضع كلّ همه و جهده و تخطيطه للدنيا فقط فهو أحمق غبي :

والله أيها الأخوة، لا أعجب ممن يعيش وليس له هدف في الآخرة، بضع سنوات مشحونة بالمتاعب، والهموم، والضغوط، والحيرة، والحوادث، والآخرة خُلقنا من أجلها، لذلك لو أن الإنسان أعرض عن الله عز وجل وأتاه الله مالاً، هذا ليس نِعمة، إنما هو نَعمة.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

[سورة الدخان الآية: 27]

آتاه الله صحة سيموت، آتاه الله بيتاً فخماً سيتركه، كل شيء يترك ليس عطاء، الموت ينتهي به كل شيء، مهما كنت كبيراً، مهما كنت عظيماً، مهما كنت غنياً، مهما كنت مستمتعاً، مهما كنت بصحة جيدة، الموت ينهي كل شيء.

لذلك من وضع كل همه، وكل جهده، وكل تخطيطه للدنيا فقط فهو أحمق غبي، أنت خُلقت للانهاية، خُلقت لجنة عرضها السماوات والأرض، خُلقت للأبد، فأنت اخترت سنوات معدودة، فإذا مضت ولم تكن مؤمناً، فإذا مضت ولم تكن مستقيماً، فإذا مضت ولم تكن محسناً، فهناك مشكلة كبيرة جداً.

لذلك لو أن إنساناً فقيراً موظفاً، دخله محدود، بيته صغير يقدر بستين متراً، لا يوجد عنده شيء يلفت النظر، لو زار غنياً مترفاً؛ بيت فخم، مركبات متعددة، دخل فلكي، أذواق رفيعة جداً، ولم يكن هذا الغني مؤمناً، وقال: ليتني كنت مكانه، لا قيمة لكل إيمانه، من آتاه القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله، إذا الله عز وجل سمح لك أن تعرفه، وسمح لك أن تعبده، وسمح له أن تطيعه، وسمح له أن تكون في مسجد تتعلم، هذه نعم لا تقدر بثمن، هذه النعم تعد أكبر نعم في حياتك، لأن هذه النعم مؤداها إلى الجنة.

كلمة مؤمن كلمة واسعة جداً :

ما معنى أنك مؤمن؟ أي أنك مستقيم، ما معنى أنك مؤمن؟ أي لك عمل صالح، ما معنى أنك مؤمن؟ أي أب صالح، ما معنى أنك مؤمنة؟ أي أم صالحة، ما معنى أنك مؤمن؟ أي لك أولاد صالحون، ما معنى أنك مؤمن؟ أي مستقيم، صادق، أمين، تنفق من مالك في سبيل الله، كلمة مؤمن كلمة واسعة جداً.

إذا إنسان كتب إلى جانب اسمه بالبطاقة د. فلان، ما معنى د.؟ أي دكتور، معه ابتدائي؟ حتماً، معه إعدادي؟ حتماً، معه ثانوي؟ حتماً، معه لسانس؟ حتماً، معه دبلوم تربية؟ حتماً، معه ماجستير؟ حتماً، هذه الدال تعني، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعة، ماجستير، هذا معنى الدال.

معنى مؤمن أي مستقيم، معنى مؤمن دخله حلال، معنى مؤمن إنفاقه حلال، معنى مؤمن يغض البصر، معنى مؤمن أي صادق، معنى مؤمن أي مخلص، معنى مؤمن أي متقن لعمله، معنى مؤمن أي لا ينافق، لا يكذب، لا يحتال، معنى المؤمن أي علاقاته بالنساء مضبوطة، محارمه فقط؛ زوجته، ومحارمه، أكثر لا يوجد عنده، معنى مؤمن أي لا يوجد عنده جلسات فيها مشروب، جلسات فيها اختلاط، كلمة مؤمن تعني كل ذلك.

لذلك إذا أكرمك الله عرفك بذاته العلية، أعانك على طاعته، أعانك على التقرب إليه، ألحقك بمنبع علمي تتلقى منه، رعاك، رباك، شجعك إذا أحسنت، خوفك إذا أسأت، معناها أنت بالعناية المشددة، كلمة

عناية مشددة يبغضها الناس، يتوهموا معه أزمة قلبية وضعوه بالعناية المشددة، لها معنى آخر، المؤمن بالعناية المشددة من الله عز وجل أي يرعاه، يتابعه، ينبهه، يحذره، يكافئه، يشجعه، ينصره، يوفقه.

المؤمن يتمتع بنعمة لا يعرفها إلا من ذاقها :

لذلك الإنسان إذا ترك الله ولم يعبأ بمنهجه قد يكون غنياً، ومعنى غني أي بيته فخم جداً، مركبته فخمة جداً، إنفاقه كبير، طعامه نفيس، سهراته ممتعة، سفرياته فيها إنفاق كبير، هذا معنى غني، لكن معنى مؤمن معك مال تشتري به طعاماً طيباً، معك مال تذهب به إلى مكان جميل، لكن هذا المكان الجميل بحر مثلاً، جبل أخضر، أخذ من جمال الله مسحة، والطعام الطيب أخذ من جمال الله مسحة، والوجه الجميل أخذ من جمال الله مسحة، لكن المؤمن مع خالق الجمال، مع أصل الجمال:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنـا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنـا

ولــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

ولــو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا

* * *

إذاً أنت كمؤمن عرفت الله، عرفت منهجه، أكرمك الله بطاعته، وبالاستقامة على أمره، دخلك حلال، علاقتك بالنساء شرعية، زوجتك فقط، محارمك فقط، لا يوجد عندك علاقة شائنة، لا يوجد دخل حرام، ولا احتيال، أنت مؤمن، أنت ملك، صدق ولا أبالغ ملك، البطولة أن تمشي رافع الرأس لا تحنيه لأحد، ألا تستحي بشيء فعلته، عملك طيب لا يوجد عندك شيء تستحي به، لا يوجد عندك شيء تخاف أن يفضح، هذا المؤمن، المؤمن يتمتع بنعمة لا يعرفها إلا من ذاقها.
لذلك إبراهيم بن الأدهم كان ملكاً ثم ترك الملك باختياره وصار عارفاً بالله، فقال كلمة لأنه كان ملكاً أنا أصدقه بها، قال: "لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف".

المؤمن إنسان موصول بالله يتحرك وفق منهجه :

كلمة مؤمن قليلة؟ مؤمن، إنسان موصول بالله، بخالق السماوات والأرض، مؤمن يتحرك بمنهج الله، مؤمن محسن، مؤمن حليم، مؤمن رحيم، مؤمن صادق، مؤمن لا ينافق، مؤمن لا ينحرف، مؤمن لا تجره شهوة إلى معصية، ضابط شهواته، مؤمن سيد نفسه، مؤمن أي يملك نفسه عند الشهوة وعند الغضب، لكن هؤلاء الذين شردوا عن الله أيها المؤمن لو كانوا أغنياء:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ)

ولو أن لهم أولاداً، أحياناً يكون ابن الغني أنيقاً جداً، ثيابه غالية جداً، يُعتنى به عناية بالغة، ويحمل شهادات عليا، وهناك إنفاق عليه، دروس خاصة، ومعلمون، قد يكون ابن الغني متفوقاً، هذا لا يعني أنه صالح، الله عز وجل يريد أن ينبه المؤمنين، إذا كنت مؤمناً فأنت الغني الحقيقي، إن كنت مؤمناً فأنت الراقي الحقيقي، إذا كنت مؤمناً فأنت الفالح، أنت الناجح، أنت الموفق، أنت المتفوق.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مرة التقيت بأخ كريم، هو طبيب، ووضع كل آماله بابن الوحيد، درسه الطب، بعثه إلى أمريكا ليتخصص، قال لي: هيأت له عيادة بخمسة عشر مليوناً، وضع كل آماله بابنه، ابنه تزوج إنسانة أمريكية وقطع الاتصال بأبيه، والله بكى الأب أمامي، وضع كل أمله بابنه، قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

الفرق الكبير بين الأسرة المسلمة و الأسرة المتفلتة :

عندما تربي ابنك تربية إسلامية يعرف قيمتك، عندما تربيه تربية إسلامية لا يعقك، تربيه تربية إسلامية يكون بخدمتك، تربيه تربية إسلامية يكون يدك اليمنى، تربيه تربية إسلامية يكون كظلك، الأب عندما يربي ابنه تربية إسلامية يربيه على الوفاء، على الطاعة، على بر الوالدين، على الإحسان، هذا الابن آخذ من أبيه الشيء الكثير، هذا الابن مستحيل أن يخرج عن دائرة الحق، هذا الابن معوان لأبيه، هذا الابن مرافق لأبيه، لذلك الابن من دون توجيه ديني، من دون تربية إسلامية، يضيع. والله أنا لي أخ كريم، له قريب يملك أكثر من ألف مليون، توفي، التقى بابنه بعد أيام من وفاة أبيه، قال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال له كلمة لعلي معذور إذا قلتها لكم، قال له: ذاهب أسكر على روح أبي، خلّف له مالاً لكن لم يخلف له علماً، خلف له مالاً لكن لم يخلف له أدباً، خلف له مالاً لكن لم يجعله مؤمناً، هذه مشكلة المشكلات.

والله في كل عقوق للوالدين بحياتنا المعاصرة القصة تهد الجبال، وضع كل ثقته بابنه، وابنه قلب له ظهر المجن، أما الأب الصالح فيربي ابنه تربية صالحة، قلما تجد أباً مؤمناً ابنه بعيد عنه، قلما تجد أباً مؤمناً ابنه عاق، لأنه رباه على البر، لأن الابن استقى الرحمة، استقى الحنان، استقى العطف، استقى التوجيه، ففرق كبير كبير بين أسرة مسلمة وأسرة متفلتة، الفرق كبير كبير.

الولد الصالح من أكبر نعم الله على الإنسان :

الحقيقة من أكبر نعم الله على الإنسان الولد الصالح، والدليل قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

[سورة البلد الآية : 1-3]

البنوة والأبوة من آيات الله الدالة على عظمته، بل هناك آيات أخرى تبين أن المؤمن له ذرية صالحة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الطور الآية 21]

تربية الابن تحتاج إلى جهد كبير جداً :

أنا لا أتصور بيتاً تؤدى فيه الصلوات، بالبيت هناك غض بصر، هناك انضباط مع النساء، تقام في هذا البيت دعوات إلى الله عز وجل، بيت لا يوجد فيه تفلت، لا يوجد فيه غناء يصدح، لا يوجد فيه أجهزة مخلة بالآداب موجودة، بيت منضبط، أنا لا أتصور هذا البيت يخرج أولاداً متفلتين، مستحيل!.

والله مرة حدثني أخ هو أستاذ ديانة، قال لي: أنا تابعت مسلسلاً والله بهذا المسلسل ثلاث عشرة خيانة زوجية.

أحياناً الإنسان يستمد ثقافته من أفلام، ماذا يوجد في الفيلم؟ هناك أشياء خلاف الشرع، تفكير بخلاف الشرع، سلوك بخلاف الشرع، كأن الناس يتعلمون من الأفلام لا من القرآن.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تربية الابن تحتاج إلى جهد كبير جداً، رباه ليكون له فكان لغيره، أكبر مأساة تعانيها الأمهات أنها تربي ابنها تربية على أن يكون في نهاية العمر في خدمتها، فإذا به ينعتق منها ويكون في خدمة زوجته، عندئذٍ يدخل على قلب الأم من الآلام ما لا يوصف، هذا العقوق.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

أنا أرى هذا الذي أمامك، بيته فخم جداً، مركبته فارهة، أثاث بيته فيه أذواق عالية جداً، يحكي بالملايين، لا يصلي، ما عرف الله، لا يوجد انضباط أخلاقي، ولا طاعة لله عز وجل، كل هذه الدنيا لا قيمة لها، لأنها زائلة ماضية، ما الذي يبقى؟ تبقى الطاعة.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

اللذة و السعادة :

والله الذي لا إله إلا هو أكثر من إنسان في المقياس الدنيوي هو في القمة، يقول لي بصراحة ما بعدها صراحة: أنا أشقى الناس، مللت من المال، مللت من الطعام والشراب، اسمعوا هذه الكلمة لم يسمح الله للدنيا مهما كانت عظيمة أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، تمده بلذة متناقصة، اللذة شيء، والسعادة شيء، السعادة إحساس مادي، يأتي من طعام طيب، أو من ثياب جيدة، أو من بيت فخم، أو من زوجة جميلة ، اللذة إحساس هذا الإحساس يتناقص، وإن كان الإحساس بمعصية، يلتقي بامرأة بالحرام ينتهي هذا اللقاء بكآبة، ينتهي بتأنيب الضمير، ينتهي بالضياع، أما السعادة فتنبع من الداخل، اللذائذ تأتي من الخارج، اللذائذ طابعها حسي، اللذة تحتاج إلى مال، إلى جمال، إلى طعام، إلى بيت، إلى مركبة فارهة، اللذائذ طابعها حسي، وأسبابها حسية، وكلها خارج ذاتك تأتي من الخارج، أما السعادة الحقيقية فهي نفسية وليست حسية، تنبع من داخلك، أنا لا أبالغ -إن شاء الله- قد تجد شاباً بغرفة قميئة، لا يملك شيئاً من المال، يأكل الكفاف لكنه متصل بالله، هذا أسعد ألف مرة من شاب آخر في سنه غارق في النعيم لكنه بعيد عن الله، عظمة هذا الدين أنك إذا طبقته تكون أسعد الناس، بل إنني أقول: ينبغي أن تقول ليس على وجه الأرض أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أكبر أنواع الإكرام للإنسان من الله عز وجل أن يهبه أولاداً بررة :

الابن من دون هدف عبء، وقد يكون عاقاً، صار بلاء، أقسم لي أخ ليس من رواد المسجد، إنسان مؤمن، عنده ابن عاق يتفنن بإزعاجه، قال لي: والله إذا دُهس لأقيمن مولداً احتفالاً بموته، من شدة عقوق هذا الابن، الابن بلاء أحياناً، أما ابن المؤمن أقسم لكم بالله فيمكن أكبر هدية يأخذها المؤمن من الله ابنه أحياناً، أكبر هدية، ابن مطيع، بار، أديب، محسن، في خدمة أبيه، هذا ابن وهذا ابن؟ أنا أقول لك كمؤمن، كأن الله عز وجل قال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

[سورة الطور الآية 21]

أحد أكبر أنواع الإكرام لك أيها المؤمن أن يهبك الله أولاداً بررة.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يتعب، يشقى حتى يقطف ثمار تعبه في خريف العمر ابنه يتخلى عنه، ويؤثر امرأته على أمه وأبيه.

(وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

الفرق الكبير بين دنيا المؤمن ودنيا غير المؤمن :

أخواننا الكرام، دعكم من الموازنة بين مؤمن وبين غير مؤمن من حيث الآخرة، والله في الدنيا الفرق كبير جداً، بيت المؤمن له خصائص، زواج المؤمن له خصائص، إنجاب المؤمن له خصائص، تربية المؤمن لها خصائص، مستقبل علاقة الأبناء بأبيهم للمؤمن لها خصائص، هناك تبدل جذري، أحياناً يكون الفرق بالدرجة، أحياناً بالطبيعة هناك نحاس وهناك ذهب، أما الذهب فهناك أربع وعشرون، وواحد وعشرون، و ثمانية عشر، نقول: الفرق بالدرجة، بالعيار، أما الفرق بين الذهب والتنك فليس بالعيار، الفرق كبير جداً، التنك من أخس المعادن والذهب من أثمن المعادن.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

يمضي حياته في شقاء ما بعده شقاء، فرق كبيرٌ كبير بين دنيا المؤمن ودنيا غير المؤمن، والله دنيا المؤمن جنة، بل الله عز وجل حينما قال:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن الآية: 46]

من اصطلح مع الله كسب الدنيا و الآخرة :

لذلك أيها الأخوة، أنت حينما تصطلح مع الله تكسب الدنيا والآخرة، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، والشيء الواقع أن الإنسان يعيش بالدنيا إذا ما عرف الله، وما اتجه للدين، يتقدم بالسن، كلما تقدم سنه ضعفت إمكانية الاستمتاع بالحياة، بعد أن ينضج يأتي ملك الموت، إلى أين؟ عندما كان بالدنيا فكر في كل شيء إلا هذه الساعة، لم يعد لها إطلاقاً، هذه أخطر ساعة، الله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت لأنه كما قال النبي الكريم:

((فوا الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ]

لا يوجد خيارات، الطفل حينما يولد أمامه آلاف الخيارات، أما عندما تأتي المنية فلا سبيل إلا إلى سبيلين إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها، فالبطولة، والذكاء، والعقل أن تعد للآخرة، هذا الذي يتميز به المؤمن، فإذا أعددت للآخرة عندك طمأنينة لو جاء الموت لك عند الله شيء:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت الآية: 30]

أنت حينما تؤمن لك الدنيا والآخرة، لك في الدنيا جنة، وفي الآخرة جنة، وحينما يبتعد الإنسان عن الله عز وجل ضحى بدنياه وآخرته معاً.

الدنيا دار تكليف لا دار تشريف :

لذلك أيها الأخوة، أهل الدنيا إذا ارتقوا بالدنيا، واستمتعوا بها، وجمعوا المال الوفير وأنفقوه على ملذاتهم، وعلى شهواتهم، هذه أوقات محدودة وتنتهي، البطولة في النهاية، الله عز وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف الآية: 128]

لذلك هذه الدنيا يجب أن تكون ممراً وليست مقراً لأنها دار تكليف لا دار تشريف، لأنها منزل عمل لا منزل جزاء، العمل هنا هو الجزاء في الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (41-70) : تفسير الآيات 56 - 57 ، المنافق له ازدواجية، بينما المؤمن واضح .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-02-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

العطاء هو السمة الأساسية الجامعة المانعة للإنسان المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والخمسين وهي قوله تعالى:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

الحقيقة التي لابد من التمهيد لها في هذا الموضوع ولهذه الآية أن البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما، في قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل]

الآن الصنف الأول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

الحسنى هي الجنة، صدق أنه مخلوق للجنة، وبناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبناء على إيمانه بالجنة جعل همه الأول العمل الصالح، والعمل الصالح عطاء، تعطي من وقتك، من مالك، من جهدك، من شأنك، من حكمتك.

إذاً البشر عند الله على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم عند الله صنفان لا ثالث لهما، الصنف الأول صدق أنه مخلوق للجنة، وبعد هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، طبق منهجه والتزم الأمر والنهي، وهذا الإنسان بعد أن آمن هذا الإيمان بنى حياته على العطاء، أعطى مما أعطاه الله، لذلك قال الله تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: 3]

فإذا أردت أن تسألني عن سمة أساسية جامعة مانعة للإنسان المؤمن هي العطاء.

البشر عند الله صنفان لا ثالث لهما :

1 ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة :

لذلك أحد المؤلفين في السير ألّف كتاباً عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام وقدّم له بمقدمة رائعة قال: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

لذلك قالوا: يقع على رأس الهرم البشري زمرتان؛ الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، وكل إنسان على وجه الأرض لابد من أن يكون تابعاً لقوي أو نبي، فالبطولة أن تكون تابعاً لنبي، لذلك الآية الكريمة:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل الآيات : 1-7]

الرد الإلهي على إنسان آمن بالله أولاً، واتقى أن يعصيه ثانياً، وبنى حياته على العطاء ثالثاً أن الله سبحانه وتعالى ييسره لطريق سعادته،

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

أي يستقيم على أمر الله، يعمل الصالحات، يربي أولاده، يتقن عمله، معطاء، كريم، حليم، لطيف، هذه مكارم الأخلاق مجموعة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، إذاً

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

2 ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة

الصنف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآيات :8-9]

لماذا استغنى عن طاعة الله؟ لأنه آمن بالدنيا ولم يؤمن بالآخرة، لماذا بنى حياته على الأخذ؟ لأنه آمن بالدنيا ولم يؤمن بالآخرة، فهذا الذي بخل، واستغنى، وكذب، العقيدة تكذيب السلوك أخذ، الإساءة واضحة في سلوكه، أنا أرى ولن تجد على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة صنفاً ثالثاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآيات: 5-9]

هذا الذي كذب بالآخرة، وصدّق الدنيا، هذا الذي بنى حياته على الأخذ سيموت، وقد يترك ثروات طائلة، بعد أن قال الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل الآية: 8-11]

لذلك أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، في بعض الآثار النبوية أن الميت في أثناء تشييعه ترفرف روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي.

فالبطولة ألا تندم، لأن الإنسان حينما يخطئ سوف يندم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآيات: 92 -93]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة الآية: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

[سورة المؤمنون الآية: 115]

مستحيل، فلابد من يوم يحاسب فيه الإنسان عن كل عمل عمله في الدنيا.

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا :

البطولة لا أن تعيش الماضي، كنت، وسافرت، وأنفقت، واشتريت، وبعت، ولا أن تعيش الحاضر، لكن البطولة أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

لذلك الآية التي سبقت هذه الآية هي قوله تعالى:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 55]

الإنسان إذا ابتعد عن الله مقاييسه مادية، فإذا رأى إنساناً غنياً، قوياً، له بيت فخم جداً، مركبة فارهة، يتمتع بسيطرة على الآخرين، يقول: هنيئاً له، لكن إذا عرفت الله لا تقل هذا لأنه لا هنيئاً إلا للمؤمن:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

لا يمكن أن تصح التهنئة الحقيقية إلا إذا عرف الله.

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

ضعاف الإيمان ينافقون للمؤمنين لابتغائهم الدنيا :

الآية دقيقة جداً:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لأنه حينما يكون الإسلام قوياً ينافق غير المسلمين للمسلمين، إذا كانت الجهة الثانية هي القوية ينافق لهم أيضاً، أما إذا كان الإسلام قوياً فضعاف الإيمان أو البعيدون عن الإيمان ينافقون للمؤمنين،

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لأنهم يبتغون بهذا النفاق الدنيا، يبتغون المكاسب المادية، يبتغون أن ينالوا مع المؤمنين ما ينالوا، لذلك

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

طبعاً من بديهيات اللغة أنه إذا سألك إنسان كم الساعة؟ تقول له: الساعة السابعة، متى تقسم له؟ إذا أنكر عليك، معقول الساعة السابعة؟ تقول: والله الساعة السابعة، مثلاً، فالإنسان يحلف حينما يقع في موقف إنكار، فهؤلاء منافقون، والمنافق في الأساس كافر، لكن حياته مع المؤمنين فاضطر أن ينافق للمؤمنين، عندنا بالأساس:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

(مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، لا يزيدون عن هذين الصنفين.

التفكر في خلق السموات والأرض أقصر طريق إلى الله :

لكن القرآن الكريم في أول البقرة بيّن أصنافاً ثلاثاً؛ هناك مؤمن واضح وضوح الشمس:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

الأمور في الإسلام واضحة، العمل تحت ضوء الشمس، جهاراً نهاراً، هذا دين الله، دين الله لا يستحيا به، ولا يخاف إنسان أن يطبق منهج الله عز وجل، السبب أن الإنسان أعقد آلة في الكون هذا تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، الإنسان يتمتع بخصائص حتى في جسمه لم يصل أحد إلى نهايتها، بالدماغ مئة و أربعون مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية، الذاكرة مكانها في الدماغ حجمها بحجم حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، فالإنسان معجز في خلقه، والله سبحانه وتعالى فقال:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

الله جعل جسمك أقرب آية إليك، لأن التفكر في خلق السموات والأرض هو في الحقيقة أقصر طريق إلى الله، بل هو أوسع باب ندخل منه على الله، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

برأس الإنسان ثلاثمئة ألف شعرة تقريباً، لكل شعرة وريد، وشريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، بعينه هناك طبقة قرنية هذه شفافة شفافية تامة، ما معنى شفافة شفافية تامة؟ هذه الطبقة القرنية تتغذى بطريقة تنفرد بها، الخلية الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وتنقله عبر الغشاء الخلوي، فلو غُذيت هذه القرنية في العين عن طريق أوعية الشعر الدقيقة للدم لرأينا ضمن شبكة، لكن الله عز وجل قال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين]

فالإنسان إن أراد أن يعرف الله فليتفكر في خلق السموات والأرض، وليتفكر في جسمه.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس]

إلى شرابه، مم خلق؟

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

[سورة الطارق]

تداول الأيام بين الناس :

إذاً أنت حينما تؤمن الإيمان الذي أراده الله لابد من أن تستقيم على أمر الله، أما المنافق فليس على أمر الله، مع مصالحه، وشهوته، ومكانته، لكن وجد بمجتمع الإسلام قوي فينافق، عامة الناس إما أن ينافقون لأهل الحق إذا كان الحق قوياً، أو ينافقون لأهل الباطل إذا كان الباطل قوياً، والحقيقة الآية الكريمة:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

شاءت حكمة الله المطلقة أن يكون تداولاً بين الحق والباطل، لو كان الحق مسيطراً دائماً لارتفعت نسبة المنافقين إلى درجة كبيرة، لو كان الباطل مسيطراً الإيمان يضعف، فالله لحكمة بالغةٍ بالغة جعل الحق والباطل يتداولان القوة، مرة يكون القوي هو المؤمن، و مرة يكون غير المؤمن هو القوي، على كلٍّ الإنسان يمتحن في الحالتين.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

الله عز وجل نفى أن يكون هؤلاء.

صيغة ليس منا من أشد صيغ الردع في سنة النبي عليه الصلاة والسلام :

لذلك أريد أن أبين أن في بعض الأحاديث النبوية أحاديث كثيرة تبدأ بقول النبي ليس منا، أنت كل بطولتك، وكل تفوقك، وكل توفيقك، أن تكون من المؤمنين، أن تكون منهم، لا أن تكون معهم، أن تكون منهم، فالله عز وجل كما بيّن النبي الكريم قال:

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

ما قولكم أيها الأخوة أن الإنسان إذا غش بنص كلام النبي الصحيح ليس من أمة محمد.

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

أنت تغش هناك كذب، المؤمن لا يكذب، تعلن عن بضاعة من مصدر معين غالية جداً هي ليست كذلك، أنت إذا أردت أن تفرز الناس في هذه الأحاديث فهناك مشكلة كبيرة جداً.

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

وأنا أرى أن صيغة ليس منا من أشد صيغ الردع في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ليس منا:

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الغاش كاذب، الغاش يقدم بضاعة سيئة تحت مسمى بضاعة جيدة، الغاش يؤذي المسلمين، الغاش يسرق أموالهم بطريقة احتيالية:

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

وأنا أتمنى على الأخوة المشاهدين أن ينتبهوا لنصوص كثيرة تبدأ بليس منا، ما بعد كلمة ليس منا كلام خطير جداً، النبي الكريم ينفي الإيمان أصلاً عن الإنسان إذا غش.

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

كلام الله، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

عظمة الأنبياء تنبع من انعدام المسافة بين أقوالهم وأفعالهم :

أنا أرى الآن أن الإسلام لا ينتشر ولا يقوى عوده إلا إذا رأى الناس مسلماً يمشي أمامهم على قدمين، مسلم يمشي أمامهم، صادق، أمين، متقن لعمله، لأن هذه القيم الأخلاقية لا تعيش بالكتب.

مرة أديب من أدباء مصر الكبار، قال: هناك أدب الكتب، وهناك أدب الحياة، أدب الكتب ينبع من كتب ويصب في كتب، أما أدب الحياة فأنت حينما تلتقي بإنسان صادق وقد صدق فدفع ثمن صدقه غالياً، أو إنسان أمين، هذا له تأثير في حياتك أكثر من ألف كتاب أخلاقي، الإنسان يحب أن يرى القيم ممثلة في إنسان، لذلك:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الأحزاب الآية: 21]

عظمة الأنبياء كانت تأتي من أين؟ الناس حينما عايشوهم لم يجدوا في حياتهم مسافة بين أقوالهم وأفعالهم، والآن أي داعية إذا حرص حرصاً لا حدود له على ألا يرى الناس مسافة بين الأقوال والأفعال هذه الدعوة تنجح، والآية الدقيقة جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف]

المؤمن واضح أما المنافق فتراه مع المؤمنين بجسمه لا بأخلاقه ولا بكسب ماله

الحقيقة الآية الكريمة:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لكن الله ينفي عن هؤلاء أن يكونوا من المؤمنين لأنه يبدو في ظرف معين المؤمنون أقوياء، المنافقون يتقربون إليهم بالنفاق، هؤلاء ليسوا مؤمنين.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

في المكاسب، لذلك لماذا يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

لماذا؟ لأن المنافق أخذ ميزات المؤمنين المادية، وتمتع بوهمه بالتفلت من منهج الله عز وجل، جمع بين ميزات المؤمنين المادية وبين التفلت الكامل من منهج الله عز وجل، هذا في الدرك الأسفل، أما مع الأسف الشديد فالكافر واضح وضوح الشمس، والمؤمن واضح، من هو الذي يسبب إشكالاً شديداً للمجتمع؟ المنافق، تراه مع المؤمنين بجسمه لكن لا تراه بأخلاقه، ولا بكسب ماله، ولا بإنفاق ماله، فهذا أخذ ميزات المؤمنين، وتحرك وفق هوى نفسه من دون ضوابط، فلذلك:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

اختلاف مقاييس المؤمن عن مقاييس أهل الدنيا :

أخواننا الكرام، كأن هذه الآية تكمل آية سابقة، الله عز وجل قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

المؤمن معه مقاييس غير مقاييس أهل الدنيا، مقياسه قيمي، مقياسه مبدئي، مقياسه بقدر تحقيق هدفه في الدنيا، هذا مقياسه، علامة الإيمان أنه لا يعبأ بالمظاهر الفخمة في الحياة، وقد يكون أنيقاً، وقد يكون بيته لطيفاً، المطلوب أن يكون هناك أناقة، و نظافة، و ذوق، هذا شيء مطلوب، أنا أقول دائماً: من قال الأناقة والنظافة والترتيب والأذواق العالية من خصائص أهل الدنيا؟ هي من خصائص المؤمنين.

((فَأصْلحُوا رِحَالَكُم، وأصلحوا لِبَاسَكُم، حتى تكونوا كأنَّكم شَامَةٌ في النَّاس))

[أخرجه أبو داود عن ابن الحنظلية سهل بن الربيع]

لكن المؤمن مع هذه الأناقة الظاهرة، والنظافة الواضحة هو أخلاقي، هو طاهر من الداخل أيضاً، لا يوجد عنده حقد، ولا احتيال، ولا مخادعة، عنده موقف معلن، وموقف حقيقي، لا يوجد عنده ظاهر

وباطن، عنده شيء للاستهلاك الخارجي، وشيء يعيشه خطأ، هذا شيء دقيق جداً.

فلذلك ينهى المؤمنين،

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

هناك مظاهر صارخة للأغنياء، بيت فخم جداً، مركبة فارهة، دخل فلكي، هذه المظاهر مؤقتة.

كل مخلوق يموت ولا يبقـــى إلا ذو العزة والــجبروت

* * *

والليل مهما طـــــال فلابد من طلوع الــفجر

والعمر مهما طـــــال فلابد من نزول الــقبر

* * *

علة وجود الإنسان في الدنيا أن يعرف الله عز وجل :

البطولة أن تعيش المستقبل، والله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

إذاً ينهانا الله عز وجل على أن نعجب بأموالهم وأولادهم، الفخامة، والأناقة، والغنى، والإنفاق الفلكي، والدخل المتميز، إلى آخره، أنت في الحياة بمهمة.

إذا كان في مدرسة البطولة الدراسة، والاجتهاد، والنجاح، أما مقعد على النافذة مسلٍّ، فهذا المقعد لا يقدم ولا يؤخر في مستقبل هذا الطالب، فإذا هو حرص على مقعد إلى جانب النافذة كي يتسلى أثناء الدرس، أو أتى بطعام نفيس جداً، شطائر مثلاً، أو لعبَ ألعاباً أمامه على كمبيوتر مثلاً، والدرس قائم، يكون قد ابتعد عن علة وجوده، فالبطولة أن تعرف علة وجودك في الدنيا، أنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

الله عز وجل في آية سابقة قال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

هذا تصريح إلهي، المنافق ليس مؤمناً، المنافق هو كافر لكنه وجد في مجتمع إيماني، تقتضي مصالحه أن ينافق لهؤلاء المؤمنين.

الحكمة من جعل القرآن الكريم عربياً :

أخواننا الكرام، من لقطات اللغة العربية، لماذا الله عز وجل جعل هذا القرآن عربياً؟ قال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

[سورة الشعراء]

طبعاً علماء اللغة يؤكدون أن اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، كلام موضوعي ليس لأننا عرب، لا، من أرقى اللغات الإنسانية.

مثلاً، أنت تقول باللغة نظر، وهناك رأى، و لمح، و لاح، و حدج، و حملق، و بحلق، ونظر شزراً، وشخص، هناك مئة كلمة للنظر، شخص النظر مع الخوف، حدج النظر مع المحبة، حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم، رنا النظر مع المتعة، منظر جميل، بحر صاف، فكل كلمة نظر معها فعل ثان، معها خاصة ثانية، فاللغة العربية متسعة بالعبير، والذين درسوا اللغة العربية كاختصاص يأتون بأقوال لكبار علماء اللغة في العالم، يقولون: هذه اللغة من أرقى اللغات الإنسانية، لأنها لغة متصرفة، لغة مصرفة أي عندك مثلاً فعل ثلاثي عرف، اسم الفاعل عارف، اسم المفعول معروف، صيغة المبالغة عرّاف، المصدر معرفة، اسم فاعل، اسم مفعول، اسم آلة، اسم زمان، اسم مكان، صيغة تفضيل، اللغة العربية لغة اشتقاقية، يمكن أن تولد من كلمات محدودة آلاف الكلمات، لغة اشتقاقية، تنفرد بها، مثلاً: كتاب، هذا مكتب، الآن كتب: فعل ثلاثي كتب، كتب فعل ماض، الطاولة مكتب، هذا كتاب، من لغة واحدة، باللغة الأجنبية: "تيبل، بوك، رايت" هذه من فعل، وهذا من فعل، وهذا من فعل، فاللغة العربية لغة اشتقاقية، إذا الإنسان تبحر في خصائص هذه اللغة يعلم لماذا اختارها الله لغة لكلامه، والحقيقة المؤلمة جداً، والله سافرت إلى بلاد كثيرة، لكن مرة سافرت إلى استراليا، وزرت أضخم مدرسة فيها، مكلفة عشرات الملايين من الدولارات جمعوا لي الطلاب في قاعة كبيرة، وأنا حينما أبلغوني أنه سنأتيك بمترجم لأن أبناء الجالية الإسلامية لا يعرفون اللغة العربية إطلاقاً شعرت بحزن كبير، بينما الأعداء أي طفل من أطفالهم يتقن اللغة التي نشأ عليها آباؤه، و هذه مشكلة كبيرة جداً.

فاللغة هي وعاء الثقافة، والنبي أشار إلى هذا المعنى، وهذه النظرية تتفق مع أحدث نظرية في القومية، كلام النبي الكريم: " ليست العربية بأحدكم من أب و لا أم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي".

إذا الإنسان تكلم هذه اللغة أخذ ثقافة الأمة، أخذ قيمها، أخذ مبادئها، أخذ مقاييسها الجمالية: " ليست العربية بأحدكم من أب و لا أم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي".

اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية :

نحن كمسلين قد تعيش مع كتاب البخاري عشرات السنين، ولا يخطر على بالك لثانية واحدة أنه ليس بعربي، لأن الإسلام جمعنا جميعاً، ودائماً حينما نريد أن نقوى يجب أن نعلن انتماءنا لجميع المسلمين، الآن عدد المسلمين مليار وثمانمئة مليون، يتربعون على مناطق أولى في العالم إستراتيجية، يملكون ثروات لا يعلمها إلا الله، لكن لو أنهم تعاونوا وتناصروا لكانوا أقوى قوة في الأرض، والذين ابتعدوا عن الدين عملوا مجتمعات موحدة، العملة موحدة، انعدام القيود في السفر، ينتمون إلى عشرات القوميات، واللغات، وهناك حروب طاحنة بينهم، ومع ذلك اقتضت مصلحتهم أن يجتمعوا، فالأولى بنا أن نجتمع.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ)

لكن كلقطة لغوية، قال: من تفيد ابتداء الزمان قبل المكان، سافرت من عمان إلى دمشق، من ابتداء المكان، وانتظرتك من الصباح حتى المساء، من ابتداء الزمان، هناك معنى آخر: من للتبعيض، بما أنفقتم من أموالكم، من أموالكم للتبعيض.

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة البقرة الآية: 159]

القاعدة في اللغة القرآنية أن كل أمر يقتضي الوجوب.

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: 159]

أو إذا أنفقتم مالكم كله، هكذا قال العلماء، إذاً من للتبعيض، من للابتداء، ابتداء المكان، أو الزمن، عندنا من بيانية، اشتريت ثوباً من القطن، بينت نوع الثوب، نوع خيوطه، من القطن، هناك من تعليلية ارتجفت من الخوف لا من البرد، من الخوف هذه من تعليلية، الآن إذا دخل أستاذ إلى صفه وقال: لكل طالب جائزة، كل طالب أمامه، لكن هناك طالب غائب، ليس له جائزة، أما لو قال: ما من طالب في هذا الصف إلا وله جائزة، حتى الغائبون لهم جائزة، سموها هذه المن لاستغراق أفرد النوع.

قال لك إنسان: أمعك مال كي ننشئ شركة تجارية رأسمالها مليون؟ قلت له: ما معي مال، أي ما معك النصف مليون، الكلفة مليون، والشركة بين اثنين كل واحد نصف مليون، ما معك النصف، أما إذا قلت له: ما معي من مال، ولا قرش، إذا قال من فلها معنى، ما معي من مالٍ، ولا قرش، ولا درهم، أما ما معي مالٌ كافٍ لهذا المشروع، فهذه المن لاستغراق أفراد النوع.

قد تأتي من بمعنى في، قال تعالى:

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة فاطر الآية: 40]

وقد تأتي بمعنى إلى، اقتربت منك، أي اقتربت إليك، وقد تأتي بمعنى الباء، أمسكت من يده أي بيده، وقد تأتي بمعنى عن لا تبتعد من المكان، وقد تأتي بمعنى على، لعل الله ينصرنا من القوم الكافرين، هذه دقة اللغة، هذه اللغة من أرقى اللغات الإنسانية.

من أخطر الموضوعات في حياة المؤمن أن يعرف هل هو مؤمن أم لا ؟

لذلك كلمة:

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

قست عليها أحاديث كثيرة، ليس منا، النبي الكريم نفى عن هذا الإنسان انتماءه للإيمان، الآية:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

هذا من أخطر الموضوعات في حياة المؤمن، أن يعرف هل هو من المؤمنين أم ليس منهم؟ هو يدعي ذلك، كلٌ يدعي وصلاً بليلى، لكن البطولة أن تكون منهم حقيقة،

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ)

لذلك تتبعت بعض النصوص النبوية ليس منا فوجدت العجب العجاب.

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

ما قولك تصلي وتصوم، تضيف إلى بعض المواد الغذائية مادة تجعلها ناصعة لكنها مسرطنة، لا تعبأ بنتائج تناول هذه المادة التي هي من صنعك، قد تعبأ بالربح الزائد، ليس منا نفى عنه الانتماء إلى الإسلام أصلاً:

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((ليس منا من لم يتغنَ بالقرآن))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

كلام خالق الأكوان، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، لا تعلم حقيقة هذا الدين:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

الصغير يحتاج إلى أن ترحمه و تعطف عليه :

((لَيْسَ مِنا مَن لم يَرحَمْ صغيرَنا، ويُوَقِّرْ كَبيرنا))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

الصغير يحتاج إلى أن ترحمه، يحتاج إلى أن تعطف عليه، يحتاج إلى أن تحسن إليه، لأن الصغير كما ورد في بعض الآثار:

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غاربه))

[ورد في الأثر]

في مرحلة لابد من الملاعبة والتحبب، فالذي يقسو على أولاده الصغار هذا إنسان بعيد عن منهج الله عز وجل، أما في مرحلة فتحتاج إلى مراقبة.

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غالبه))

مرحلة ملاعبة حتى يتحبب إليك، مرحلة تأديب هذا غلط، هذا حرام، هذا لا يجوز، مرحلة مراقبة، المراهق وضعه صعب جداً، إن عاملته ككبير يخيب ظنك، وإن عاملته كصغير لا يحتمل ذلك، فيحتاج معالجة حكيمة جداً:

((لاعب ولدك سبعاً، ثم أدبه سبعاً، ثم راقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غالبه))

في بعض الروايات:

((ويعرف لعالمنا حقه))

[أحمد عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ]

((ليس منا من لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

لماذا؟ لأن الله عز وجل حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كف الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدوا خيريتهم كلياً.

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لذلك:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر - الصحابة صعقوا- قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ونهيُتم عن المعروف؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

وقد وصل المسلمين إلى هذا المستوى، فكان عجبهم أشد قالوا:

((قالوا: يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ منه سيكون، كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

هنا الصاعقة:

((قالوا: وما أشد منه؟ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً؟))

هذا الزمن زمن تبدل القيم، هذا البيت الذي قاله شاعر في الجاهلية، وعده العلماء أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا الآن شعار كل إنسان، البيت الذي كان أهجا بيت قالته العرب شعار كل إنسان الآن.

ما دام دخله قوياً، ودخله كبيراً، وبيته واسعاً، وعنده سياحة، وسفر، وغارق في الملذات الدنيوية، هذا يعد عند الناس ناجحاً نجاحاً كبيراً، لذلك:

((هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

الدنيا لم يسمح الله لها أن تمدَّ الإنسان بسعادة دائمة بل بسعادة متناقصة :

((ليس مِنا مَن تَشبَّه بغيرنا))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

باي، ما هذه باي؟ السلام عليكم، من تشبه بغيرنا، أحياناً الإنسان يستمد مكانته المتوهمة من تقليده للأجانب.

((لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

والله مرة قابلني شاب في الشام آلمني جداً، بنطاله فيه ثلاثة ثقوب كبيرة، والله تألمت جداً، كتبت عندي في دفتري الخاص- وكنت مسافراً إلى استراليا- بعد أن أعود أقدم له بنطالاً جديداً، هناك في أستراليا تفاجأت أن شباباً، أولاداً أغنياء أيضاً هناك ثقوب ببنطالهم، إذا كان الغربيون باعوا بنطالاً فيه ثقوب فصار هذا شيء مقدس عند الناس، شاب يرتدي ثوباً فيه رقع أحياناً، فيه تقطيع غير نظامي، شيء مزعج، هذا من ضعف إيمان الإنسان، حياته ملّ منها، الحياة تُمل بكل شيء، إذا لم يكن هناك هدف كبير، ما السبب؟ هذا موضوع دقيق جداً، الموضوع الدقيق أن الإنسان خلق لمعرفة الله، فالله زوده بنفس لا نهائية، أي هدف نهائي يمل منه، أي هدف محدود هو مصمم لمعرفة الله عز وجل، إذا اختار هدفاً محدوداً يمل منه، تجلس مع إنسان كبير، مع إنسان غني، تجده ملّ من حياته، هذه الدنيا ما سمح الله لها أن تمدك بسعادة دائمة بل بسعادة متناقصة.

لذلك الآية الكريمة:

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

يخافون.

الوصف الدقيق للمنافقين :

والتي بعدها:

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

[سورة التوبة]

إذاً خوفهم دفعهم أن يلجؤوا إلى شيء، إلى حصن حصين، إلى ملجأ، إلى مغارة، إلى نفق، خوفهم من الخسران، وأن يكشف أمرهم، وهم يكذبون، المؤمن لا يكذب، المنافقون يكذبون، يدّعون أنهم مؤمنون ليأخذوا من مكاسب المؤمنين، هم في الحقيقة ليسوا مؤمنين، لذلك هذا الموقف الازدواجي أخلّ بتوازنهم، وكل إنسان يرتكب عملاً سيئاً، أو ينافق، أو يكذب، أو يعبر عما ليس في نفسه يختل توازنه، فإذا اختل توازنه لجأ كما إلى يسمى في علم النفس الدفاع عن النفس، فيلجؤون إلى ملجأ يحتمون به، الملجأ رمز.

(أَوْ مَغَارَاتٍ)

والمغارة لا يكشف أمرها،

(أَوْ مُدَّخَلاً)

أي نفق،

(لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

كيف أن الفرس تجمح فتنطلق بأقصى سرعة، إذاً يعبرون عن خوفهم الشديد من أن يفضحوا، لذلك المؤمن لا يخشى شيئاً؛ ليله كنهاره، سره كعلانيته، سريرته كظاهره، الوضوح عند المؤمن يجعله مطمئناً، أما غير المؤمن فله موقف مزدوج، موقف معلن، موقف حقيقي، يفعل في البيت ما لا يفعله أمام الناس، فهذه الازدواجية في السلوك تجعله في حالة نفسية اسمها اختلال التوازن، هذا الاختلال يسوقه إلى أن يلجأ إلى ملجأ، أو مغارة، أو مدخل أي نفق

(لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

كجموح الفرس أي ينطلق بأعلى سرعة، وهذه الآية تعطي وصفاً دقيقاً للمنافقين، كيف يظهرون ما لا يبطنون، يعلنون ما لا يعتقدون، هذا الموقف الازدواجي موقف من صفات المنافقين، أما المؤمن فواضح، ومع الأسف والكافر واضح، بينما المنافق ازدواجي الشخصية، عنده حالة مزدوجة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (42-70) : تفسير الآيات 58 - 59 ، فرق بين الهمز واللمز.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-03-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

اللمز :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والخمسين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

لا زال الحديث عن المنافقين، لكن:

(وَمِنْهُمْ)

من للتبعيض، أي بعض هؤلاء المنافقين،

(يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

أي في موضوع الصدقات، ما هو اللمز؟ الله عز وجل قال:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)

[سورة الهمزة]

ما هو الهمز؟ الحقيقة هو السخرية من الآخرين، فأنت حينما تسخر فأنت هماز، حينما تعيب على الآخر بغير حق فأنت هماز، حينما تسخر بإشارة منك، أو بحركة، أو بابتسامة، أو بتعبير بعضلات الوجه، كل أنواع التعابير، وليست كلاماً، وقد تكون كلاماً، هناك إنسان يبني مكانته على أنقاض الآخرين، هذا أسلوب غير جيد هذا أسميه قناص، يبني مكانته على قنص الآخرين، على إظهار عيوبهم، على الوقوف عند سلبياتهم، هذا الإنسان القناص يبني مجده على أنقاض الآخرين، أما المؤمن فمن كماله أنه يتعامل مع الآخرين بإيجابيتهم، وفرق كبير بين أن تتقصى النواحي السلبية في الإنسان وبين أن تتقصى النواحي الإيجابية، والموضوعية كما أقول دائماً قيمة علمية أخلاقية في وقت واحد، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم في أحكامك، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي في سلوكك.

بطولة الإنسان أن يكون موضوعياً :

لذلك حينما استعرض النبي الكريم أسرى بدر فوجئ أن صهره زوج ابنته مع الأسرى جاء ليحاربه، فقال عليه الصلاة والسلام: "والله ما ذممناه صهراً".

ما هذه الموضوعية؟ إنسان جاء ليحاربك، ومع ذلك لا تنسى إيجابياته.

فلذلك البطولة أن تكون موضوعياً، وأنا لا أصدق أن يكون العالم موسوعياً لكنه ليس موضوعياً، فالموضوعية جزء من علم العالم، أنت أخلاقي إذا كنت موضوعياً، وعالم كبير إذا كنت موضوعياً، وفي هذه الموضوعية يلتقي العلم مع الأخلاق، فلما رأى صهره، قال: "والله ما ذممناه صهراً".

وأنا أتصور أن سبب إسلام صهره هذا الموقف الموضوعي، فأنا لا أقول أن المسلم يمكن أن يتعامى عن الخطأ، لكن إذا كان هناك خطأ لا ينسى معه الصواب، فأنا أرى أن المسلمين تنقصهم الموضوعية.

لذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

ما قال: هم يلمزونك، قال: منهم، هذا حكم موضوعي.

الموضوعية قيمة أخلاقية وعلمية :

أحياناً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ)

[سورة البقرة الآية: 8]

أكثر الكلمات من الناس.

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء الآية: 159]

هذا موضوع، موقف موضوعي، لا يوجد به تعميم.

مرة كنا في الجامعة نناقش رسالة الدكتوراه، قال المشرف كلمة لا أنساها ما دمت حياً قال: التعميم من العمى، فالذي يعمم أعمى، لا تقل كل أهل هذه البلدة، لا تقل أهل هذه البلدة ليسوا كما ينبغي، قل: بعضهم، لو تتبعت بالقرآن لرأيت أن الله عز وجل قال في الآيات ومنهم أي بعضهم، فأنا أقول الموضوعية قيمة أخلاقية، والموضوعية قيمة علمية، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، والعلماء تنقصهم هذه النقطة، أحياناً هناك انحياز أعمى إلى جهة معينة، هذا هو التعصب، والنبي الكريم يقول:

((وليس منا من قاتل على عصبيَّة، ليسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصبيَّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

البطولة أن تكون موضوعياً، أن تقاتل، أو أن تتحرك وفق منهج، وفق مبدأ، وفق قيمة.

الهمز و اللمز :

لذلك هؤلاء:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

اللمز هو النقد، والنقد سراً، هذا اللمز، الهمز النقد علناً، دائماً الضعفاء يلمزون، والأقوياء يهمزون، الآن الأقوياء يهمزون لا يخافون، ينتقدون خصومهم على الملأ، أما الضعفاء ففيما بينهم سراً يلمزون، فالنبي الكريم بيّن عن هذه الآية أشياء كثيرة، قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

قال بعضهم في أصل الصدقة، هم يتوهمون أن إنساناً بذل جهداً كبيراً وجمع مالاً، يأتي الفقير ويأخذه بلا تعب، هذا منطلق أهل الدنيا، لكن بمنطلق الآخرة والحقيقة أقول كلمة دقيقة: إن آمنت بالآخرة الإيمان الذي أراده الله يجب أن تنعكس مقاييسك، هناك مقاييس مستنبطة من قوانين الأرض، مجتمع عنده ظروف معينة، من هذه الظروف المعينة يستنبط قوانين، مثلاً بالمجتمع الصناعي المتقن يبيع أكثر، الآن بمجتمع آخر الذي يمدح يرتقي، مستنبطة هذه المقاييس من واقع اجتماعي معين، إلا ن المؤمن يتحرك وفق مقاييس الله عز وجل، لا تأخذه بالله لومة لائم، ينطق بالحق ولو كان مراً.

قال له: يا أبا حنيفة لِمَ لا تتغشانا، قال له: ولِمَ أتغشاكم ـ للمنصور ـ وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ إنك إن أكرمتني فتنتني.

أبو حنيفة أيضاً رأى غلاماً أمامه حفرة، قال له: إياك يا غلام أن تسقط- قصده في الحفرة- فقال له هذا الغلام: بل إياك يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.

إذاً اللمز هو النقد سراً، والهمز هو النقد علانية، والضعفاء يلمزون، والأقوياء لا يلمزون سراً بل يهمزون علانية.

الإيمان بالآخرة يدفع الإنسان إلى عمل صالح :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

موضوع الصدقات في أصله المنافقون رفضوه، إنسان يتعب وإنسان لم يتعب، لكن أنت حينما تؤمن بالآخرة يجب أن تنعكس مقاييسك لأن الإيمان بالآخرة يدفعك إلى عمل صالح، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، أما أنت فحينما تؤمن أن هذه الدار دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل فرح لا منزل ترح.

في بعض الخطب النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن هذه الدنيا دار التواء))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

أي ينجح في عمله لا ينجح في بيته، ينجح في زواجه قد لا ينجح في تربية أولاده، ينجح في زواجه وفي تربية أولاده لكن دخله أقل من حاجته، هناك مشكلة.

((إن هذه الدنيا در التواء لا دار استواء))

ولحكمة بالغةٍ بالغة هذه الدنيا لا تستقيم لإنسان، لو استقامت لكره لقاء الله، لو استقامت كما يتمنى لكره لقاء الله عز وجل.

المؤمن خاضع لمنهج الله عز وجل وهذا هو الإسلام الحقيقي :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

لماذا الصدقة؟ إما أنه ينتقد أصل الصدقة، أو ينتقد كميتها، أو ينتقد طريقة أخذها أو إنفاقها، هناك نقد، غير المؤمن قناص، لكن المؤمن كما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

هذه ما كان نفي الشأن، وهو أشد أنواع النفي في اللغة، إذا سألت إنساناً وهو إنسان محترم جداً هل أنت سارق؟ هل يقول لك: لا؟ يقول لك: ما كان لي أن أسرق، هذا نفي الشأن، لا أريده، ولا أدعو له، ولا أرضاه، ولا أقره، ولا، ولا، بعض علماء النحو عدوا اثني عشر معنى من نفي الشأن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

مع وجود آية قطعية الدلالة، مع وجود حديث صحيح، يلتغى اجتهاد المؤمن، الاجتهاد متى؟ في آية ظنية الدلالة، في موضوع لم يرد فيه نص يقيني، هنا الاجتهاد، أما في قضية واضحة فلا يوجد اجتهاد، أنت مؤمن خاضع لمنهج الله عز وجل، وهذا هو الإسلام الحقيقي.

العلاقة بين الأمر القرآني والنبوي علاقة علمية :

بل إن القرآن الكريم أكّد في كل آياته أن الأنبياء جميعاً مسلمون، بمعنى استسلموا لمنهج الله عز وجل، فالإنسان أعقد آلة في الكون، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة.

فانطلاقاً من حرصنا على سلامتنا وعلى سعادتنا ينبغي أن نطيع ربنا، العلاقة بين الأمر والنتيجة التي ينتهي إليها، والعلاقة بين النهي والنتيجة التي ينتهي إليها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، كيف؟ لو أن طفلاً وضع أصبعه على مدفأة مشتعلة تحترق، نقول: هناك علاقة علمية بين وضع الأصبع على المدفأة واحتراقها، علاقة علمية، لكن لو أن للبيت مدخلين، أعطى الأب أمراً لأولاده أن استخدموا هذا الباب، فأتى ابن و خالف هذا الأمر، فعاقبه الأب، لا يوجد علاقة علمية بين عقاب هذا الابن وبين دخوله من باب في الأساس معد لدخوله، لكن هذا في علاقة وضعية.

أحياناً يكون الأمر لمصلحة معينة، لكن لا يوجد علاقة علمية، لكن ينبغي أن نؤمن جميعاً كمؤمنين أن العلاقة بين الأمر القرآني والنبوي علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة.

حقّ العباد على الله إذا هم عبدوه عبادة صحيحة ألا يعذبهم :

لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق فيهم، طبعاً الآية في حياة النبي لها معنى معروف، لكن ما معناها بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ومنهج النبي مطبق في حياتهم،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

هنا ما كان نفي الشأن

(لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

لذلك النبي الكريم أردف سيدنا معاذ:

((قال له يا معاذ: ما حق الله على عباده؟ قال: أن يعبدوه، - سأله سؤالاً آخر- قال له: يا معاذ ما حق العبادة على الله إذا هم عبدوه؟ قال: ألا يعذبهم))

[البخاري عن معاذ]

ما قولك؟ أي الله عز وجل أنشأ لنا حقاً عليه، حق العباد على الله إذا هم عبدوه عبادة صحيحة ألا يعذبهم، فأنت في مأمن من عذاب الله.

من يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

أنا أقول دائماً:

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة الأحقاف الآية: 13]

أنت الآن الساعة الفلانية كذا وكذا، هناك ماض وهناك مستقبل، الله عز وجل أعطاك ضمانتين ألا تخاف من المستقبل، وألا تندم على ما فاتك من الماضي، لذلك مما يروى عن سيدنا الصديق أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، والله عز وجل يقول:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه]

أي لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة]

اجمع الآيتين، الذي يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى على ما هو آت، ماذا بقي من السعادة في الدنيا والآخرة؟

من عرف الآمر ثم عرف الأمر تفانى في طاعة الآمر :

لذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ)

هذا المنافق لم يعبأ بتشريع الله عز وجل، لم يرَ هذا التشريع من عند خالق السموات والأرض، لم يرَ هذا التشريع من عند العليم الحكيم، من عند الرحمن الرحيم، من عند القوي الحكيم، أنت حينما تعرف من هو القائل، من هو المرسل، تعرف قيمة الأمر.

أنا أقول دائماً: إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، وهذا شأن معظم المسلمين اليوم، هم في مدارسهم تعلموا الحرام، والحلال، الزنا، والقتل، والرشوة، وما إلى ذلك، لكنهم ما بذلوا وقتاً لمعرفة الخالق.

لماذا الصحابة الكرم بقوا في مكة والآيات تتأتى تتحدث عن اليوم الآخر وعن خالق السموات والأرض؟ أنا أقول: بكل دعوة أسلامية مرحلة مكية، ومرحلة مدنية، المرحلة المكية التعريف بالله، التعريف بالآمر، التعريف باليوم الآخر، وفي المرحلة المدنية تفاصيل التشريع.

فنحن إذا اكتفينا في دعوتنا إلى الله ببيان تفاصيل هذا التشريع، ولم نلق بالاً إلى تعظيم الله عز وجل لأن الآية الكريمة:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

[سورة الحاقة]

لماذا؟ قال:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

آمن بالله، ما آمن به عظيماً، إبليس آمن، قال ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

قال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

لكن ما آمن به عظيماً،

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

فالعبارة أن تؤمن بالله العظيم، الآية الكريمة تنصب على كلمة عظيم، لأن أي إنسان ولو كان عاصياً يؤمن بالله، الملحدون قلائل جداً في الأرض، معظم أهل الدنيا آمنوا بالله خالقاً، لكن الذي يعظمه من خلال التفكر في خلق السموات والأرض هو الذي يعظم أمره.

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله :

إذاً

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

صدقة نزل بها أمر إلهي، قرآن، والنبي فصل، هم لا يرونها تشريعاً يصلح لهم، هم توهموا أنهم جمعوا المال بجهدهم، والثاني أخذه وهو فقير، لكن أنت حينما تعلم في الدنيا أنك من أجل عمل صالح، والدليل: الإنسان إذا وافته المنية ماذا يقول؟

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

معنى ذلك أن علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله، علة وجودك العمل الصالح، فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

أنت جاء الله بك إلى الدنيا كي تعمل عملاً يؤهلك لدخول الجنة، الإنسان يدرس سبع سنوات في الجامعة حتى يعمل في الطب مثلاً، حتى يكون له دخل معقول، ويكون له بيت معقول، ومركبة معقولة، وزوجة معقولة، فالإنسان عندما يتحرك حركة في الأرض، الحركة هذه منوطة بأهدافه، أنا الذي أتمنى أن يكون واضحاً أن المؤمن يعظم أمر الله، بينما غير المؤمن يستخف بأمر الله عز وجل.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

[سورة نوح]

هذا الإله العظيم أنزل قرآناً، القرآن كون ناطق، والنبي الكريم قرآن يمشي.

على الإنسان أن يميز بين الإنسان النفعي و الإنسان المبدئي :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

يلمزك؛ ينتقدك، يعيب عليك في أصل الصدقة، أو يعيب عليك في حجمها، خمسة بالمئة كثير، أو يعيب عليك في طريقة أخذها ودفعها، يعيب عليك ثلاثة موضوعات، إما بأصلها كمبدأ، أو في أخذها وإنفاقها، أو في طريقة دفعها، إنهم ماديّون:

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا)

إذا ناله نصيب يرضى بها، معنى هذا أنه نفعي، هناك إنسان نفعي وهناك إنسان مبدئي، المؤمن مبدئي، غير المؤمن نفعي، لذلك هو مستعد أن يقبل أي شيء تقوله، ما دام في منفعة، هذا يكشف الإنسان، يقول لك إنسان فرضاً: أنا لا آكل مالاً حراماً، أحياناً يأتيه مبلغ فلكي، يقول: أنا مضطر عندي أولاد، أخذه، فهو امتُحن وبالامتحان رسب:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

معنى هذا أنه نفعي، إيمانه أو سبب إيمانه المادة، إذا كان هناك مادة يقرك على أي شيء، إذا لم يكن هناك نفع يرفض أي شيء، إذاً هناك تفرقة كبيرة بين الإنسان النفعي والإنسان المبدئي.

القوي بمنصبه أو بماله أو بعلمه ينشر العلم بين الناس :

أنا أقول دائماً: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن القوي متاح أمامه من العمل الصالح ما لم يتح لغيره، فالذي معه مال وفير أنا أقول: القوة؛ قوة المال، قوة العلم، قوة المنصب، وهذا كلام دقيق، إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، والنبي الكريم يؤكد هذا المعنى يقول:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هو جبار خواطر، لكن إذا كنت قوياً معنى ذلك أن فرص العمل الصالح التي أمامك كبيرة جداً، أنت بالمال تطعم الجياع، تواسي المرضى، تنشر العلم، فالبعد عن الدنيا فيه خطأ كبير، ينبغي أن تكون في يديك لا في قلبك، لأن المسلمين بحاجة إلى قوة، والحق يحتاج إلى قوة، طبعاً عند أهل الدنيا القوة هي الحق، أنت قوي إذاً أنت على حق، مادمت قوياً القوة تصنع لك الحق، هذا عند أهل الضلال، أما عند أهل المؤمنين فالقوة شيء آخر، القوة وسيلة لتقوية الحق، فالحق ما جاء به الوحيان الكتاب والسنة، والقوة تدعم الحق، فأنا أقول: إذا كان طريق الحق سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأن الفرص المتاحة أمام القوي لا تعد ولا تحصى، ولأن علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، والعمل يحتاج إلى قوة، إما إلى قوة- طبعاً القوي بمنصبه بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً، يقر معروفاً ويزيل منكراً- أو إلى مال، فالقوي بماله يطعم الجياع، يزوج الشباب أحياناً، يرعى الأرامل، هناك أعمال لا تعد ولا تحصى، والقوي بمنصبه أو بماله أو بعلمه ينشر العلم بين الناس.

المؤمن راض عن الله عز وجل :

لذلك هؤلاء المنافقون ما عبئوا بمنهج الله، ولم يعرفوا من هو القائل، ما قدروا عظمة هذا القرآن الكريم، قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)

لكنهم نفعيّون،

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

المؤمن راض عن الله.

قال إنسان يطوف حول الكعبة يناجي ربه: يا رب هل أنت راض عني؟ وراءه الإمام الشافعي، قال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى الله عنك؟ الآية الكريمة:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

[سورة البينة الآية: 8]

قال له يا سبحان الله! أنا أتمنى رضاه فكيف أرضى عنه؟ فقال له الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

لذلك قال سيدنا علي: " الرضا بمكروه الرضاء أرفع درجات اليقين".

دائماً السيارة لا تمتحن بالطريق الهابط بل في الطريق الصاعد، لا تحتاج إلى محرك أصلاً في الطريق الهابط، أما في الصاعد فتحتاج إلى ذلك، لذلك قالوا:" المصائب محك الرجال".

أنواع المصائب :

الإنسان يكشف على حقيقته بالمصيبة، إذاً المصائب أولاً للمؤمنين لها تعبير خاص، للمؤمن دفع ورفع، مؤمن سرعته إلى الله بطيئة، أعماله الصالحة قليلة، عباداته غير متقنة، تأتيه مصيبة تدفعه إلى باب الله بسرعة أعلى، وبنية أعلى، إما أن تدفعه فتزداد السرعة، أو أن تعلي مقامه عند الله، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، لكن مصائب غير المؤمنين مصائب قصم وردع، يردعه، أو يقصمه، أما مصائب الأنبياء فمصائب كشف، ينطوون على حقيقة وعلى كمال لا متناه، هذا الكمال اللامتناهي يعبر عنه بحادث.

نبي كريم يذهب إلى الطائف مشياً على قدميه، ثمانون كيلو متراً، وصل إليهم يدعوهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، آذوه، وكفروا به، وشتموه، وأغروا صبيانهم به، لكن الذي لا يصدق أن الله سبحانه وتعالى أرسل له ملك الجبال، قال له: "يا محمد أنا طوع أمرك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده".

إذاً مصائب غير المسلمون مصائب ردع- إذا كان فيه بقية خير- أو قصم، مصائب المؤمنين مصائب دفع أو رفع، مصائب الأنبياء مصائب كشف، هناك حقيقة لا تظهر إلا بوضع صعب.

أن يأتي مشياً للطائف على قدمين، أن يكذبوه، أن يسخروا منه، أن يغروا أولادهم بضربه، يأتيه ملك الجبال، يقول له: "لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون".

المصائب هي النعم الباطنة :

لذلك مصيبة المؤمن مصيبة دفع أو رفع، الله عز وجل قال:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

قال بعض علماء التفسير المصائب هي النعم الباطنة، الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

إذاً هو مادي، ما دام هناك مادة يرضى عنك، إن لم يكن هناك مكسب مادي يسخط عليك، الآية الكريمة:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

[سورة التوبة]

كأن الله تمنى عليهم أن يرضوا بعطاء الله، أن يرضوا بنصيبهم من الله عز وجل، والحقيقة من علامة المؤمن الرضا عن الله عز وجل، راض عن الله، نحن عندنا أشياء، لكن أنت مسير بأمك وأبيك، أنت لم يختارهم، أنت مسير بمكان ولادتك، مسير في وقت ولادتك، مسير كونك ذكراً أو أنثى، مسير في قدراتك العامة، في كونك ذكر أو أنثى، ومن فلان أو فلانة، وفي مدينة كذا، وفي عصر كذا، وفي قدرات عامة، أنت حينما تؤمن إيماناً مبنياً على علم دقيق أن الله عز وجل أقامك في أكمل حال يناسبك، الآن إنسان عنده ألم لا يطاق في بطنه، هذا مكانه ليس مكان جميل وإطلالة على البحر، يحتاج إلى مستشفى، فدائماً الله عز وجل يسوق للعبد ما يناسبه لكن البطولة أن تؤهل نفسك للإكرام، الله عز وجل في الحديث القدسي يقول:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الله عز وجل يسوق للعبد ما يناسبه لكن البطولة أن يؤهل الإنسان نفسه للإكرام :

كأن الله تمنى على هؤلاء أن يرضوا ما أتاهم، أي أن تكون راضياً عن الله شيء رائع جداً، إن رضيت عن الله عز وجل قربك الله عز وجل، خالق الأكوان، ملك الملوك، قيوم السموات والأرض، القوي، الغني، الرحيم، الحكيم، ساق لك هذه المشكلة، أو جعلك بهذا الوضع، أو جعلك في كفاف.

مرة قال لي إنسان: دخلي يقابل مصروفي، قلت له: إذاً أصابتك دعوة النبي، قال: ماذا دعا عليّ؟،

قلت: قال: من أحببني فاجعل رزقه كفافاً.

أحياناً يكون عندك شيء يغطي حاجاتك، لكن لا يوجد عندك شيء يكون زلة قدم، لأن الإنسان عندما يموت ورد في بعض الآثار:

((روحه ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتعبة علي))

[ورد في الأثر]

والله مرة حدثني أخ أبكاني، قال لي: قريبي ترك ألف مليون، رأيت ابنه بعد يومين في الطريق، قلت له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: أريد أن أشرب الخمر على روح والدي.

الإنسان إذا لم يربِّ أولاده عنده مشكلة كبيرة، وضع بين أيديهم مالاً وفيراً يكون هذا المال سبب فسقهم، وفجورهم، والأب يحاسب على ذلك، فنحن نريد أن ينتبه الابن، أو ينتبه الأب أن أولاده سيحاسب عنهم، والدليل قول النبي الكريم:

((خير كسب الرجل ولده))

[أحمد عن أبي بردة بن نيار]

قال:

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا)

[سورة التوبة الآية:58]

مادي إذاً.

المؤمن إنسان مبدئي وغير المؤمن إنسان نفعي :

المؤمن مبدئي، قال النبي الكريم:

((لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هذا المؤمن، المؤمن إنسان مبدئي، غير المؤمن نفعي، بالمال يسكت، تعطيه يسكت لأن مشكلته مشكلة مال فقط.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ)

ملك سأل جواريه: اطلبي وتمني، كل واحدة طلبت شيئاً، هذه تريد بيتاً، و هذه تريد قصراً، كل واحدة طلبت، إلا أن واحدة قالت: أنا أريدك أنت، قال: أنا وما أملك لك؟ لذلك ورد في بعض الآثار:

((من أحببنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا))

أنت تقول: حسبي الله ونعم الوكيل،

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

من يرفض الدين يحتقر نفسه :

لذلك الإنسان أحياناً يحتقر شيئاً فيرفضه، عرضوا عليه بيتاً صغيراً وثمنه غال رفضه، لماذا رفضه؟ احتقاراً له، قد تعرض عليك فتاة للزواج، لكن أخلاقها ليست كما تتمنى رفضتها، الإنسان يرفض في حياته آلاف الأشياء احتقاراً لها، إلا أنه إذا رفض هذا الدين احتقر نفسه، فرق كبير، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة الآية: 130]

أنت حينما ترفض هذا الدين تحتقر نفسك، لأنك المخلوق الأول والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

الإنسان هو المخلوق الأول و المكلف بعبادة الله عز وجل :

أنت المخلوق الأول المكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

[سورة الإسراء الآية: 70]

أنت المخلوق المكلف؛ مكلف أن تعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، أنت مخلوق مكرم، مكلف، مخلوق أول، من عرف نفسه عرف ربه، جئت إلى الدنيا من أجل أن تدفع ثمن الآخرة، وأكبر دليل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

إذا عرفت سرّ وجودك.

لو أن أباً أرسل ابنه إلى باريس للدراسة، مدينة عملاقة، واسعة جداً، فيها معاهد، فيها جامعات، فيها أسواق، فيها ملاه، فيها نوادٍ ليلية، فيها حدائق، فيها متاحف، فيها كل شيء نقول: هذا الطالب الذي

أرسله أبوه إلى باريس ليدرس لينال الدكتوراه علة وجوده في هذه الدنيا شيء واحد هي الدراسة، فإذا غفل عن سرّ وجوده فهو أغفل الغافلين.

العبادات الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

أنا أتمنى على الأخوة المشاهدين أن يعلموا علم اليقين ما علة وجودهم في الدنيا الدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

لكن قد يفهم الناس العبادة فهماً ساذجاً، يظن الناس العبادة أن تصلي فقط، وأن تصوم، وأن تحج بيت الله الحرام، وأن تزكي فقط، مع أنه يوجد عندنا آيات وأحاديث دقيقة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

سأل مرة النبي أصحابه:

((أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الحج:

((من حج من مال حرام ووضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، قال: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

إذاً العبادات الشعائرية كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة إن لم يصاحبها استقامة على أمر الله، وتطبيق لمنهجه، لا يمكن أن تقطف ثمارها إطلاقاً، لذلك لما سأل النجاشي سيدنا جعفر أجابه:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذا يقتضي عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية، والعبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا كانت عبادات تعاملية، وهذا معنى الاستقامة على أمر لله.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآيات حافزاً لنا على طاعة الله عز وجل:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (43-70) : تفسير الآية 60، الصدقة تعني صدق النية مع الله سبحانه وتعالى، الفرق بين الفقير والمسكين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-03-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق الأول والمكرم و المكلف بطاعة الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، كما تعلمون الإنسان هو المخلوق الأول، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

هو المخلوق الأول، والمخلوق المكرم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

لكن الذي أركز عليه أن الإنسان هو المخلوق المكلف، كلف أن يعبد الله، وفي أدق تعريفات العبادة: أنها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية.

العمل الصالح علة وجودنا بعد الإيمان بالله :

لذلك العبادة طاعة، طاعة فيما أمر، واجتناب لما نهى عنه وزجر، ولكن هناك شيء آخر، العبادة طابعها أن تمتنع عن كل ما نهاك الله عنه، ولكن الإنسان خُلق للجنة، والجنة لها ثمن، ما ثمن الجنة؟ العمل الصالح، جاء الله بنا إلى الدنيا من أجل أن نعرفه أولاً، وأن نتقرب إليه ثانياً بالعمل الصالح، فكأن علة وجودنا بعد الإيمان بالله العمل الصالح.

ولو وضحت هذا بمثل أن أباً أرسل ابنه إلى باريس لينال الدكتوراه، مدينة عملاقة كبيرة، فيها معامل، فيها حدائق، فيها متاحف، فيها ملاه، فيها دور لهو، فيها كل شيء لكن هذا الطالب الذي أرسله أبوه لينال الدكتوراه من السوربون، علة وجوده الوحيدة في هذه المدينة أن ينال الشهادة.

فلذلك الإنسان حينما يعلم علة وجوده تصح حركته، أوضح مثل: إنسان سافر إلى بلد معين وسأل: إلى أين أذهب؟ نحن نعجب من سؤاله، نقول له: لماذا جئت إلى هنا؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى الجامعات، وإن جئت سائحاً فاذهب إلى المتنزهات، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، فالحركة في أي مكان لا تصح إلا عرف سبب المجيء، فأحد أكبر علائم الإيمان، أحد أكبر مرتكزات الإيمان، أحد أكبر الخصائص الإيمانية أن تعرف سرّ وجودك في الأرض، أنت في الأرض من أجل أن تعبد الله، إما أن تكتشف هذا بالبحث، والدرس، والتأمل، أو أن تعرفه من النص، كما قال الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فكأن العبادة معرفة أولاً، وطاعة ثانياً، معرفة وطاعة، فأنت لن تخضع لجهة لا تعرفها، لابد من أن تعرف الله.

والإمام علي رضي الله عنه يقول: "أصل الدين معرفة الله".

السبب أنك إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، وهذا حال بعض المسلمين، الآمر لم يجهد نفسه لمعرفته، لكن بين يديه الأوامر، درسها في التعليم الإعدادي، والثانوي، والجامعة، هناك أمر، هناك نهي، هناك حرام، هناك حلال، هذه الأوامر بين يديه، لكن الآمر ما عرفه، فلذلك انصياعه لهذا الأوامر ضعيف، وهذا يفسر ضعف حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

لذلك الله عز وجل خلقنا كي نعرفه، وخلقنا أيضاً من أجل أن نتقرب إليه، وهذا التقرب إلى الله يقوم على شقين، على شق الاستقامة، وعلى شق العمل الصالح، الاستقامة ترك، يقول لك المستقيم: أنا ما أكلت مالاً حراماً، ترك، أنا لم أفعل المعاصي، لم، لم، الاستقامة طابعها سلبي، تركت، لكن لا يكفي أن تمتنع عن المعاصي والآثام، هذا الواحد الديان الذات الكاملة ينبغي أن تتقرب إليه، فإذا كان طابع الاستقامة الترك والامتناع فطابع العمل الصالح البذل والعطاء، فحجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح، فرق كبير بين أن تعمل صالحاً صدفة، عرض عليك عمل فعملته، وبين أن تستيقظ صباحاً، وهمك الأول العمل الصالح، فقد ورد:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

للتقريب أيضاً: الطالب حينما يلتحق بالجامعة ويعلق آمالاً كبيرة على نهاية المطاف في هذه الجامعة، يتصور أن له مستقبلاً كبيراً، بزوجة، ببيت، بمكانة اجتماعية، بدخل كبير، فإذا علق أهمية كبيرة على هذه الجامعة ينصرف إليها بكل طاقاته، بكل شؤونه، بكل اهتماماته. فعلى الإنسان أن يعرف أنه في الدنيا من أجل العمل الصالح.

العمل الصالح يصلح للعرض على الله بنيته وبموافقته للمنهج :

هناك دليل قوي جداً وقاطع أن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول هذه المقولة الشهيرة:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

معنى هذا أن الإنسان يندم عند الموت على سبب وجوده في الدنيا، وهو العمل الصالح، فإذا ركز المؤمن على هذه الحقيقة، فإذا أصبح بحث عن عمل صالح، وإذا أمسى بحث عن عمل صالح، سبحان الله! الأعمال الصالحة متنوعة جداً، حتى إن بعضهم قد قال: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأنت في البيت إذا كنت زوجاً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا كنت أباً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا كنت ابناً صالحاً فهذا عمل صالح، إذا اعتنيت بأولادك هذا عمل صالح هذا في البيت، في الطريق غض البصر عمل صالح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل صالح، دخلت إلى محلك التجاري ما دمت صادقاً.

((التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبِيِّينَ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

ما دمت صادقاً، تبيع بضاعة جيدة بسعر معتدل، تحسن لمن حولك، هذا عمل صالح فكأن الله جعل العمل الصالح يدور معك حيثما ذهبت، في أي مكان هناك عمل صالح، أحياناً الأمر بالمعروف عمل صالح كبير، النهي عن المنكر عمل صالح، غض البصر عمل صالح، النصيحة عمل صالح، الدعوة إلى الله عمل صالح، لذلك ما معنى عمل صالح؟ هذا العمل يصلح للعرض على الله بنيته وبموافقته للمنهج.

شرطا العمل الصالح :

بالمناسبة العمل الصالح له شرطان أساسيان، استنبطه بعض المفسرين من قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

متى يرضى الله عن العمل؟ قال: إذا كان خالصاً، وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله وحده، الإخلاص، وصواباً ما وافق السنة، فالعمل الذي يشم منه أنه مخلص لكن ليس فيه موافقة للسنة لا يقبل، يانصيب خيري! هذه مخالفة للسنة مثلاً، يقول لك: حفل غنائي يرصد ريعه للأيتام، العمل الصالح ينبغي أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

فالانضباط وفق المنهج، والإخلاص في النية، هذان الشرطان يرفعان العمل إلى أن يكون صالحاً للعرض على الله عز وجل.

العمل يدفن مع الإنسان فإن كان كريماً أكرمه وإن كان لئيماً أسلمه :

مرة ثانية: الإنسان في النهاية حينما يأتيه ملك الموت، ترك بيته، ترك أهله، ترك أولاده، ترك منصبه الرفيع، ترك دكانه، ترك تجارته، ترك، ترك، لا يبقى معه إلا شيء واحد هو العمل الصالح، فهذا العمل يدفن مع الإنسان وهو حي، العمل حي، والإنسان يدفن معه وهو ميت، فإن كان كريماً أكرمه، وإن كان لئيماً أسلمه.

هذه المقدمة من أجل هذه الآية، حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

طريق خشية الله أن تتعرف إليه و تعرف عظمته وتخضع لأمره :

أخوتنا الكرام، كلمة إنما عند علماء النحو أداة قصر وحصر، أي إذا قلت: إنما شوقي شاعر، أي شوقي شاعر فقط، ليس كاتب مسرحية، وليس أديباً، وليس كاتب قصة، وليس تاجراً، إنما شوقي شاعر، إن ما بعدها مقصور على شيء معين، الله عز وجل قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: 28]

معنى إنما هنا العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، طريق خشية الله بنص هذه الآية أن تتعرف إليه، إنك إذا عرفت الآمر، عرفت عظمته، خضعت لأمره، إن لم تعرف عظمته تفننت في معصيته.

لو فرضنا وقع تحت يدك كتاب في الفلك، وعلمت أن بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم ضرب أربع وعشرين، في العام ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بأربع سنوات ضرب أربع، ابنك الصغير خلال دقائق على آلة حاسبة يحسب لك المسافة بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب، أربع سنوات ضوئية، هذه المسافة لو أردت أن تقطعها بمركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، خمسون مليون عام كي تقطع أقرب مسافة بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب لها، الآن نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية، بعض المجرات أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

هذا الإله يعصى؟ هذا الإله ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟ فلذلك حينما نعرف من هو الله نخضع له، نستجيب له، نتفانى في طاعته، فمعرفة الآمر ضرورية جداً بطاعته، حينما تصورنا أن الدين فقه فقط، أحكام فقهية، ولم ننتبه إلى معرفة الآمر ضعفت الاستقامة في العالم الإسلامي، لأن النبي الكريم حينما جاء إلى أهل مكة بقي معهم أعواماً طويلة يحدثهم عن الله وعن اليوم الآخر، لذلك أكثر السور المكية تتحدث عن ذات الله، وعن ألوهيته، وعن ربوبيته، وعن الدار الآخرة، فهذه المرحلة في كل دعوة ضعيفة الآن في هذه الأيام، القوية الأمر والنهي أما البطولة فأن تجمع بين الآمر والأمر.

توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء :

طبعاً هذه المقدمة من أجل أن أعلم لماذا أنا أتصدق؟ لأنني جئت إلى الدنيا من أجل عمل صالح يعد سبباً لدخول الجنة، لأن علة وجودي في الدنيا العمل الصالح، لأن العمل الصالح يرفعني، والدليل قوله تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر]

فالله عز وجل في هذه الآية الكريمة -الآية الستون- من سورة التوبة يقول:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)

طبعاً لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة وزع الله الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، في الدنيا هناك فقير، وهناك غني، هناك قوي، وهناك ضعيف، هناك وسيم، وهناك أقل وسامة، وهناك دميم، هناك ذكي جداً، وهناك أقل ذكاء، وهناك محدود، الله عز وجل وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، أنت مبتلى؛ أي ممتحن، فيما أعطاك الله، وفيما زوى عنك، ومن أدق أدعية النبي عليه الصلاة والسلام قول النبي الكريم:

((اللَّهمَّ ما رَزَقْتَني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي]

أحببت المال فجاءك المال، اجعل هذا المال قربة إلى الله، أحببت الزواج جاءتك زوجة ترضيك، اجعل هذه الزوجة في طاعة الله.

((اللَّهمَّ ما رَزَقْتَني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عني مما أحِبُّ))

تمنيت دخلاً وافراً فكان دخلاً محدوداً، تمنيت بيتاً واسعاً فكان بيتاً صغيراً، تمنيت أشياء كثيرة لم تتح لك، قال:

((وما زَوَيْتَ عني مما أحِبُّ فاجعَلْهُ فَرَاغا لي فيما تُحِبُّ))

أنت في الحالتين رابح، إن آتاك الله ما تحب وظفته في الحق، وإن زوى عنك ما تحب وظفت الفراغ الناتج عن بعده عنك فيما تحب.

كل إنسان ممتحن فيما توافر له من حظوظ :

لذلك الآية الكريمة:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ)

أي شاءت حكمة الله أن توزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، صار هناك غني وفقير، قوي و ضعيف، الغني يتقرب إلى الله إذا أعطى من ماله للفقير، والفقير يقبل على الله حينما يرى هذا الشرع لم ينسه، الفقير جعل الله له حقاً في مال الغني فالفقير يتقرب، والغني يتقرب، والمحسن يتقرب، والذي أحسن إليه يتقرب، وهذا شأن الحياة الدنيا، كل إنسان له حظ من الله في الدنيا، هناك حظ توافر له وحظ زوي عنه، والإنسان ممتحن فيما توافر له من حظوظ، وفيما زوي عنه من حظوظ، أنت ممتحن دائماً، ممتحن فيما لك، ممتحن فيما عليك، ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوي عنك، ممتحن في الرخاء، ممتحن في الشدة، ممتحن في الصحة، ممتحن في المرض، ممتحن في الغنى، ممتحن في الفقر، علة وجودنا في الدنيا أنها دار ابتلاء، والخطاب النبوي الشريف هو:

((إن هذه الدنيا در التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل عطاء الدنيا لعطاء الآخرة سبب، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[الترمذي عن أنس]

إنفاق المال في طاعة الله يرتقي بالمسلم إلى أعلى الدرجات :

الصدقات، هذا المال الذي أمرك الله أن تنفقه هو الزكاة، لكن بعض العلماء تساءلوا: لماذا سميت الصدقات زكاة؟ لأنها تشف عن صدق الإنسان في طاعة الله، هناك طاعات لا تقدم ولا تؤخر، أنت حينما تتجه إلى القبلة، أمر تعبدي، لكن ما كلفك شيئاً، كلفك أن تعرف القبلة فقط، هناك عبادات كثيرة ليس لك حظ منها إطلاقاً، إلا أن إنفاق المال، المال محبب، المال شيء ثمين والدليل أنه محبب:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران الآية، 14]

لولا أن الله أودع فينا حبّ المال لما كان للصدقة من معنى إطلاقاً، تعطي شيئاً نفيساً، الآن إنسان معه مبلغ ألف مليون، هذا لو أنفقه على مصالحه الشخصية، وعلى شهواته، هذا تمتع به كثيراً، لو أنفقه في طاعة الله لارتقى عند الله كثيراً.

مرة سيدنا عمر فيما تروي بعض الأقوال أمسك تفاحة وقال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت.

حتى إن النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم حينما ذبح شاة ووزعها على الفقراء والمساكين وبقي منها كتفها، فقالت عائشة: يا رسول الله! ذهبت كلها إلا كتفها، فقال مقولة رائعة، قال:

((بل بقيت كلها إلا كتفها))

[الترمذي عن عائشة]

الذي استهلكته ذهب، والذي أنفقته بقي.

لذلك الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا من أجل أن نعرفه أولاً، وأن نتقرب إليه ثانياً بالعمل الصالح، وهذه الآية تتحدث عن بعض الأعمال الصالحة.

تعريف الفقير و المسكين :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)

هناك جدل طويل حول تعريف الفقير والمسكين، بعضهم يقول: الفقير هو الذي لا يجد شيئاً، والمسكين ينقصه أشياء كثيرة، إما أن تفتقد كل شيء فأنت فقير، أو أن تملك شيئاً لا يكفي فأنت مسكين، وهناك

علماء عكسوا التعريفين، على كلٍّ هناك فقير و هناك مسكين.

لكن هناك ملاحظة في القرآن دقيقة، هاتان الكلمتان إذا افترقتا اختلفتا، وإذا انفردتا اجتمعتا، أي إذا قال الله: فقراء، يعني فقراء ومساكين، وإذا قال: مساكين، يعني فقراء ومساكين، أما إذا قال: فقراء ومساكين اختلف الوضع، فالفقير الذي لا يجد شيئاً في بيته، المسكين يجد لكن غير كاف، لكن طبعاً الزكاة تعطى لكليهما، إنسان ساكن ببيت والبيت ملكه، وعنده خمسة أولاد، وعنده زوجة، ودخله محدود لا يكفي، لأن عنده بيتاً لا تعطه شيئاً، الذي لا يجد حاجته يستحق الزكاة، لأن الزكاة ينبغي أن تجعله يعيش عيشة كريمة.

حتى إن بعض الأئمة الفقهاء قال: ينبغي أن تغنيه بالزكاة عاماً، وهناك رأي آخر- وأنا مع الرأي الآخر- ينبغي أن تغنيه طوال حياته، هيئ له عملاً، اشترِ له دكاناً، اشترِ له شيئاً، آلة حبكة مثلاً، أمن له شيئاً يعيش منه طوال حياته، الزكاة ينبغي أن تغني الإنسان، أما مبلغ محدود جداً فلا يقدم ولا يؤخر، لا يكفي، النبي كان إذا أعطى أعطى شيئاً كافياً. إذاً :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

الفقير الذي لا يجد حاجته إطلاقاً والمسكين عنده شيء لكن غير كاف.

الفرق بين الزكاة و الصدقة :

على كلٍّ الإنسان حينما يجتهد له أجره عند الله عز وجل ولو أخطأ:

((إذا حكم الحَاكِمُ فاجتهدَ فأصابَ فلهُ أجران، وإذا حَكَمَ فاجتهد فأخطأ فله أجر))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمرو بن العاص]

أجر من أجرين.

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

لأن هذه الصدقة تمتن العلاقات الاجتماعية، أحياناً الغني البخيل حوله أعداء، حوله أعداء لأنهم يرون بذخه، وإنفاقه، وترفه، هم فقراء يعطيهم أجراً محدوداً جداً، أما إذا كان هذا الغني كريماً فمنح من حوله عطاءات تحقق لهم كرامتهم الإنسانية أصبح من حوله حراساً له، وفرق كبير جداً بين أن يكون من حولك يتربصون بك ويحسدونك، وبين أن يكون من حولك حراساً لك، الغني إذا فعل المعروف أحبه الناس، لذلك الآية دقيقة جداً جداً:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

[سورة التوبة الآية: 103]

معنى تطهرهم أي أن هذا المال الذي دُفع كصدقة أو زكاة يطهر الغني من الشح، ويطهر الفقير من الحقد، ويطهر المال من حق تعلق الغير به، المال متى يكون حلالاً؟
إذا أديت زكاته، متى يكون حراماً وعبئاً عليك؟ إذا لم تؤدِّ زكاته، فالزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به، والدليل:

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

[سورة المعارج]

إذا الله قال :

(حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج]

الزكاة معلوم، تحتاج إلى حسابات وإلى جرد، أما الصدقة :

(حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج]

إذا أضيفت كلمة معلوم فنعني الزكاة، لابد من حسابات، أن تعطي مبلغاً بحسب تقدير غير صحيح هذه ليست زكاة، الزكاة هناك جرد للمحل، والبضاعة، والنقد، وما لك، وما عليك، بعد ذلك تحسب قيمة الزكاة وتدفعها، أما الصدقة فلا تحتاج إلى هذه الدراسة، لذلك دائماً أنا أشبه الزكاة بالضريبة، لا بد من دفعها، ولا أجر لك بها، فرض على المواطن – ضريبة- أما لو قدم مبلغاً ضخماً لإنشاء ثانوية، قدمها للدولة يستحق حفل تكريم، وشكر، وثناء، لأنه قدم شيئاً فوق ما طلب منه.

على الإنسان أن يضع المال بيد من يستحقه :

لذلك الإنسان يرقى بالصدقة كثيراً، الآية الكريمة:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

لكن نحن في توهم غير صحيح أن الفقير هو المتسول، لا، الفقير إنسان يسكن ببيت، متزوج، يرتدي ثياباً أنيقة، لكن دخله لا يكفي، فالبطولة أن تعف بهذا المال من عنده عزة وكرامة، فلذلك أحياناً الأغنياء لمجرد أنهم أنفقوا من دون دراسة أي إنسان صادفوه أعطوه هذه الزكاة، هناك نقص كبير بإنفاق المال، فيجب أن تضع المال في يد من يستحقه، لكن عندنا وهم كما قلت قبل قليل: أن المتسول فقير، لا، إنسان له عمل، وعنده زوجة، وأولاد، وبيت، لكن حاجاته أكثر من دخله، هذا عندما تعطيه حافظت له على كرامته، وعلى عزته.

الأعمال الخيرية تحتاج إلى دفع وأجور حتى يكون هذا الأجر سبباً لمحاسبة المقصر :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

من يعمل بجمع الأموال -أموال الصدقة - هذا عامل، يستحق هذا العمل إن كان فقيراً أو غنياً، السبب؟. بعضهم قال: أي عمل طوعي قد لا يكون متقناً، أي عمل تطوعي لا تستطيع أن تحاسب صاحبه يقول لك: الذي أخذته منك خذه مني، الآن هناك أعمال خيرية تطوعية تجد فيها تقصيراً كبيراً جداً، هناك تغيب كثير، و إهمال كثير، إهمال بالتسجيل، بالمحاسبة، يقول لك: أنا ما أخذت منك شيئاً.

هناك رأي آخر أعطِ حتى على العمل الصالح أجراً من أجل أن تحاسبه، فلذلك هناك رأي وأنا معه وهو: حتى الأعمال الخيرية تحتاج إلى دفع، وأجور، حتى يكون هذا الأجر سبباً لمحاسبته عن تقصيره.

(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

الذين يعملون في جمع أموال الزكاة، وأموال الصدقات ويحتاجون إلى وقت، طبعاً المتفرغ قطعاً، حتى الإنسان الغير متفرغ إذا عفت نفسه لا يوجد مانع، أما إذا كان طلباً نعطيه حتى نحاسبه.

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ)

المال محبب لأن الله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

فأنت حينما تعطي إنساناً مبلغاً من المال هو بحاجة إليه، وقد يكون بحاجة إليه لبعض حاجاته الثانوية، على كلٍّ هذا المال ألفت به قلبه.

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

بالبر يستعبد الحر، أنا أقول دائماً: الإحسان قبل البيان، إذا كنت داعية أحسن، إنك بإحسانك تفتح قلب المستمع ببيانك، تفتح قلب المستمع بإحسانك، ليفتح لك عقله لبيانك.

مرة ثانية: تفتح بإحسانك قلب المحسن إليه، وعندئذٍ يفتح لك هذا المحسن عقله لبيانك، فالإحسان قبل البيان.

(لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)

أي العامل على جمع أموال الزكاة يستحق من الزكاة أجراً، بصرف النظر عن كونه محتاجاً، أو غير محتاج، لكن الأورع أنه إذا كان غير محتاج، مكتف، أن يدع هذا المال لمن هو أفقر منه.

أعظم ما في هذا الدين أنه ألغى الرق إلا في حالة واحدة :

أخواننا الكرام،

(وَفِي الرِّقَابِ)

أعظم ما في هذا الدين أنه ألغى الرق، ألغى الرق بأساليب عديدة، أولاً: كان الرق له مصادر كثيرة، أي إنسان عليه دين لم يستطع أن يؤديه يؤخذ أحد أولاده عبداً، صار عبداً بسبب الدين، وأي إنسان عليه عقوبة جنائية ما وقعت عليه إلا أن يُجعل رقيقاً، فالإسلام ألغى المصادر للرق إلا مصدراً واحداً، كل مصادر الرق التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ألغيت في الإسلام، إلا مصدراً واحداً أنك إذا أردت أن تنشر هذا الدين، وحاربت أناساً منعوا أن توصل دعوتك السماوية إلى ما حولهم، فإذا أنت حاربتهم من أجل أن توصل هذه الرسالة إلى شعوبهم، لكنك إذا حاربتهم وأسرتهم، الأسر هدف منه أن القتل ليس هدفاً إطلاقاً، هذا الأسير عطل عقله عن فهم هذا الدين، عطل عقله تعطيلاً كاملاً، فأنت إذا أخذته إلى بيتك ورأى رحمتك، ورأى أنصافك، أحب الدين، هناك دعوتان: دعوة كلامية بيانية، ودعوة معاملة وإحسان، فالذي استعصى عقله عن فهم هذا الدين، قلبه مؤهل أن يحب هؤلاء المسلمين بمعاملتهم. لذلك من ألطف ما قرأته من سير الصحابة أنهم كانوا يأكلون أردأ الطعام، ويطعمون أسراهم أطيب الطعام، هذا الأسير في الأصل- التطبيق موضوع ثان- أردت أن تقنعه بالدين لا بالكلام والأدلة والبراهين والحجج، أردت أن تقنعه بهذا الدين بالمعاملة الطيبة، والإنسان عبد الإحسان، فالذي لم يؤمن بعقله، ولم يحكم عقله فيما بلغه من أدلة، فأخذ إلى بيت مؤمن عامله معاملة طيبة جداً، أطعمه مما يأكل، ألبسه مما يلبس، ما كلفه ما لا يطيق، أعانه فيما كلفه، صار مثل ابنه، كابنه تماماً.

فلذلك معظم الأسرى الذين كانوا عند الصحابة آمنوا وانضموا إلى المؤمنين، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن أسلموا فهم منكم، وأنتم منهم، بالإسلام لا يوجد تفرقة، لكن هي طريقة بدل قتل الأسير، بدل حرب الإبادة، نحن حرب هداية، لا يوجد عندنا حرب إبادة، فهذا الذي وقع أسيراً يعامل أطيب معاملة كي يقتنع بالإسلام لا بعقله بل بقلبه، هذا هو الذي أراده النبي الكريم في موضوع ملك اليمين.

الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ)

هذا بعتق الرقبة، الإسلام أنهى الرق عن طريق هذه الآية، وعن طريق جعل المغفرة من بعض الذنوب، ودية القاتل تكون بعتق العبيد، فجعل مصارف العبودية كثيرة.

حضّ الإسلام على القرض الحسن :

(وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الغارم الذي استدان بشكل شرعي، ليس لمعصية، أحياناً إنسان ذو فسق والفجار يقترضون من أجل معاصيهم، أما إنسان اشترى بيتاً و لم يتمكن أن يسد هذا القرض، وهذا شيء رائع كأن الشرع حض الناس على الإقراض، هناك طبقة من المجتمع لا تقبل الصدقة، عنده عزة وكرامة لا يقبل أن يكون متصدقاً عليه، هذا الإنسان يقبل القرض، فكأن الإسلام حضّ على القرض الحسن، وفي بعض الروايات أنه يعادل نصف الصدقة، إذا إنسان أقرض إنساناً مئة ألف كأنه دفع خمسين ألف صدقة بهذه الطريقة، لكن ما الذي يؤكد أن القرض أراده الله؟ جعل أحد مصارف الزكاة أن يؤدى هذا الدين ممن استدان ولم يتمكن من سداد الدين.

نشر الدين بالوسائل الحديثة نوع من الجهاد :

(وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذه دقيقة جداً، بعض العلماء السابقين فهموها الجهاد فقط، الآن إنشاء مركز إسلامي، إنشاء دار نشر إسلامية، نشر هذا الدين بالوسائل الحديثة، هذا نوع من الجهاد.

فلذلك:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

حديثة وأنا معها، أي أن تقصر في سبيل الله على جهة واحدة وهي القتال، أحياناً هناك ظرف معين لا يوجد إمكان للقتال، لكن هناك إمكان لنشر الدعوة بأساليب متنوعة.

حياة النفس تحتاج إلى صدقة أيضاً :

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

هذا الذي قطع، له بيت في بلده، هو في الطريق انقطع، سرقت محفظته مثلاً، هناك حالات كثيرة، فهو ليس ابن هذا البلد ولا ابن هذه المدينة، هو ابن السبيل، ابن هذا الطريق، هذا أيضاً يستحق الزكاة من فرصها الدقيقة.

(وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ)

معنى الفرض أي الشيء الذي لا بد منه، أنا أقول لكم مثلاً: تنفس الهواء فرض، إن لم يكن هناك تنفس فهناك موت، شرب الماء فرض، تناول الطعام فرض، الآن حياة النفس تحتاج إلى صدقة، الآية الكريمة:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: 195]

تهلك إن لم تنفق، تريد عملاً ترقى به عند الله يوم القيامة، إذاً:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (44-70) : تفسير الآية 61، إيذاء النبي ترك سنته القولية والعملية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-03-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله أعظم عمل على الإطلاق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الواحدة والستين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الأحباب، لابد من مقدمة تلقي ضوءاً على أبعاد هذه الآية، أولاً: النبي الكريم داعية من أكبر الدعاة إلى الله، النبي عليه الصلاة والسلام الداعية الأول، والدليل قوله تعالى:

(أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

[سورة الأحزاب]

بل إن الله سبحانه وتعالى عدّ الدعوة إلى الله أعظم عمل على الإطلاق، والذي يدعو إلى الله في مكان عليٍّ، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

الدعوة إلى الله دعوتان؛ دعوة إلى الله خالصة ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله:

الأنبياء دعاة إلى الله في المستوى الأعلى، هم قمم الدعوة إلى الله عز وجل، لأنهم معصومون عن أن يخطئوا بأقوالهم، وأفعالهم، وإقرارهم، إنهم معصومون، إذاً سيرتهم تشريع، فالنبي عليه الصلاة والسلام أفعاله تشريع، وأقواله تشريع، وإقراره تشريع، معنى السنة هناك سنة قولية، وسنة عملية، وسنة إقرارية، مجموع هذه السنن القولية، والعملية، والإقرارية هذه السنن تجمعها السنة الشريفة.

فالله عز وجل بيّن أن هذا النبي هو النبي الأول، لأن الله عز وجل ختم بنبوته النبوات، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته خاتمة الرسل، وكتابه خاتم الكتب.

أما أن تؤذي النبي! كيف؟ لابد من تقديم؛ الدعوة إلى الله دعوتان، في هذا العصر دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، يهمنا أن نعرف خصائص الدعوة الصادقة، الدعوة الصادقة أساسها الاتباع، بينما الدعوة إلى الذات أساسها الابتداع، قال: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع، أساسها الاتباع، فالله عز وجل يقول:

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ)

هو داعية إلى الله، الله عز وجل أرسله رحمة للعالمين، أرسله لهداية عباده جميعاً من دون استثناء، فالذين يؤذون النبي يؤذون أصل الدعوة، يؤذون هدية الله لعباده، فلذلك من أشقى الأشقياء؟ من وقف في خندق مضادٍ للأنبياء، أشقى الأشقياء من كان في خندق معادٍ للأنبياء، الأنبياء قمم البشر، معصومون، كمالاتهم فوق الشبهات.

إذاً هناك دعوة خالصة أساسها الاتباع، ومن خصائصها التعاون، فالتعاون سلوك حضاري، والتعاون طريق إيجابي، والتعاون دليل للتواضع، والله عز وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

بل إنه قد يغيب عن الإنسان أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، أية آية تقرأها فيها أمر أو فيها نهي لك موقف منها، هناك من يتوهم أن الأوامر هي خمسة، صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، والنطق بالشهادة، هذه عبادات شعائرية يقابلها خمسمئة ألف بند بالعبادة التعاملية، والدليل لما سيدنا جعفر قابل النجاشي قال: حدثني عن هذا الدين؟ قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذه العبادة لتعاملية، وكلام دقيق دقيق العبادات الشعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، لا يمكن أن تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، النبي سأل أصحابه:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

إذاً العبادة الشعائرية، كالصيام، والصلاة، والحج، والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

الإيمان هو الخلق :

النبي الكريم أمر بالصدق، أمر بالأمانة، بالاستقامة، بالتواضع، كل مكارم الأخلاق هي عبادة تعاملية، وحينما غفل المسلمون عن العبادة التعاملية وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لأن الله عز وجل حينما وصف النبي، هو نبي، ورسول، و يوحى إليه، و، و، كل هذه الخصائص أغفلها الله لما مدحه قاله:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

لذلك قال الإمام ابن القيم: الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

فهذا الإنسان الذي دعا إلى الله ينبغي أن يكون مطبقاً لمنهج رسول الله، وينبغي أن يتعاون مع بقية الدعاة، عندنا تنافس، وعندنا تعاون، التنافس سلوك متخلف، أما التعاون فسلوك حضاري، فالداعية إلى الله المخلص يتبع، ويتعاون، ويعترف بالآخر، هناك مصطلح جديد اسمه الإقصاء، الإنسان الذي له مصلحة مادية في الدعوة، أو يحصل مكاسب دنيوية من الدعوة، يريد أن يقصي الآخر، ألا يدع مجالاً للآخر أن يتعاون معهم إطلاقاً.

إيذاء النبي ليس بشتمه ولا بضربه ولكن بعدم استجابة دعوته :

لذلك الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، لكن في حدود ما تعلم ومع من تعرف، الذي أريد من هذه الآية أن من هم الذين يؤذون النبي؟ أي قد يتوهم متوهم أن إيذاء النبي تسبه أو أن تضربه مثلاً، هذا مستحيل في قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس)

[سورة المائدة الآية:67]

لكتن الإيذاء هنا ألا تؤمن به، الإيذاء ألا تستجيب له، مثلاً الطفل الذي علق أباه على دراسته أمالاً كثيرة، أكبر إيذاء لوالده ألا يدرس، الطفل قد يكون مؤدباً، أكبر إيذاء يقوم به الابن تجاه والده ألا يدرس فقط.

فإيذاء النبي ليس بشتمه، ولا بضربه، إيذاء النبي بعدم استجابة دعوته، لأن رحمته كبيرة، هو أرحم الخلق بالخلق، فإذا رأى إنساناً شرد عن الله يتألم له لا عليه، لذلك الكبار يغضبون لا لذواتهم يغضبون لعمل الآخرين، لا لذوات الآخرين، يغضبون لعمل الآخرين.

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ)

فأنت حينما تستمع إلى حديث شريف ولا تعبأ به، هذا نوع من الإيذاء، آذيت نفسك وآذيت النبي أنك لم تستفد منه.

من لم يستجب لأمر النبي و لم يطبق سنته فقد كذب به :

لذلك سيدنا سعد له كلمة رائعة يقول: "ثلاثة أنا فيهن رجل" كلمة رجل في القرآن والسنة تعني أنه بطل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية:37]

هناك إنسان ذكر لكن غير رجل، فالرجولة تعني البطولة: "ثلاثة أنا فيهن رجل" أي بطل، وفيما سوى ذالك أنا واحد من الناس؛ ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى".

أنا أقول كلاماً أرجو أن يكون واضحاً: إنسان يقرأ حديثاً دون أن يشعر بعقله الباطن لا يعبأ به، والدليل لا يستجيب له، لا ينفذه، إذا كان في الحديث الشريف أمر أو نهي لمجرد أنك لا تستجيب له فأنت لم تعبأ به، مثلاً: لو زرت طبيباً وعالجك، وأعطاك وصفة طبية، أنت كنت مؤدباً جداً معه، وصافحته، وشكرته، ولم تشتر هذا الدواء، عدم شرائك لهذا الدواء دليل أنك لست مقتنعاً بعلمه، هذا نوع من التكذيب، أنت كنت مؤدباً جداً معه، لما دفعت له أتعابه، وشكرته على معاينته لك، لمجرد أنك لم تشتر الدواء فأنت لست واثقاً من علمه.

هذا نوع من التكذيب، ما من داع لأن يكتب الإنسان مقالة ضد النبي الكريم، لأنه ما استجاب لأمر النبي، ما طبق سنته، ما أخذها كمنهج للحياة، ما رآها هي من عند الله، فهو قد كذبه:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية:4]

لأنه أخذ موقفاً سلبياً، هذا نوع من أنواع التكذيب، تماماً كالذي يزور طبيباً، طبيب جيد لكنه توهم أنه باختصاصه غير متفوق، فعدم شراء الدواء دليل أنه أعطاه مرتبة دون التي يتمنى.

الإسلام منهج كامل :

إيذاء النبي يكون بعدم تطبيق لمنهجه، لذلك الإسلام لابد من أن يؤخذ بأكمله، منهج كامل، بحياتنا أشياء كثيرة لك أن تأخذ بعضها، وأن تضع بعضها الآخر، لكن هذا الدين دين كامل، يغطي كل حاجاتك، يغطي كل نشاطاتك، يغطي كسب مالك، إنفاق مالك، علاقتك ببيتك، مع زوجتك، مع أولادك، إمضاء وقت فراغك أحياناً، فإذا درست هذا الإسلام كدين تجده يغطي كل نشاطاتك من دون استثناء، وأنا أقول دائماً: من أدق خصوصيات الإنسان من فراش الزوجية ومن أكبر الموضوعات في الدنيا العلاقات الدولية، فهذا المنهج الإلهي الإسلامي يبدأ مع المؤمن من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج كامل، لكن المسلمين قصروه على العبادات الشعائرية، يصلي أما الدخل فحرام، يصلي الإنفاق حرام، يصلي النشاط الاجتماعي محرم، هناك اختلاط، و كشف عورات، و كلام لا يليق، و غيبة، و نميمة، وتجده يصلي، كيف الدين ضغط إلى الصلاة، والصيام، الحج، والزكاة، هذا الذي يعاني منه المسلمون اليوم.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله :

إيذاء النبي يعني فضلاً عن أن تؤذيه إيذاءً مادياً، وهذا الشيء شبه نادر، أو أن تؤذيه إيذاءً كلامياً عدم تطبيق سنته يعد إيذاءً له، عدم أخذ منهجه، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

آية دقيقة جداً، لها معنى واضح في حياة النبي، ما دام النبي بين ظهرانيهم هم في مأمن من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ المعنى يا محمد مادامت سنتك مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، ما دامت سنتك، منهجك، أمرك ونهيك مطبقاً في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، أما إذا لم تكن مطبقة فمعهم بحبوحة ثانية:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

فإما أن تكون وفق منهج رسول الله، فأنت في مأمن من عذاب الله، وإما أن تستغفر فأنت أيضاً في مأمن، أما لا يطبق، ولا يستغفر، فهو أصبح معرضاً لتأديب إلهي.

فإيذاء النبي هو عدم تطبيق سنته، لكن أنت دون أن تشعر حينما تقتني آلة بالغة التعقيد، عظيمة النفع، غالية الثمن، ماذا تفعل؟ تحرص على أن تقرأ تعليمات الصانع، وكلامي دقيق جداً، هذا القرآن هو في الحقيقة تعليمات الصانع، لأنك أنت أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة صانع عظيم، ولهذا الصانع العظيم تعليمات التشغيل والصيانة، فانطلاقاً من حرصك على سلامتك، وعلى سعادتك، وعلى أن تعيش حياةً آمنة مطمئنة ينبغي أن تتبع تعليمات الصانع، فالصانع يقول لك: يجب ألا تؤذي النبي بعد استجابتك لدعوته.

الدين توقيفي ولا يحتمل الإضافة أو الحذف :

مرة ثانية: إيذاء النبي قولاً أو فعلاً المعنى نادر جداً، والمعنى قلّما يحدث، والله يعصمه من الناس، لكن الذي يحصل عدم الاستجابة له، أو تسفيه سنته، أحياناً لا تفرق بين منهج الله وبين منهج البشر، منهج الله حق مئة بالمئة، لأنه من عند الله، طبعاً الله عز وجل ذات كاملة منهجه كامل، فالدين توقيفي، لأنه من عند الله لا يحتمل المناقشة، أنت بالدين لا تستطيع أن تضيف شيئاً، ولا أن تحذف شيئاً، كماله كمال مطلق، لكن بإمكانك أن تحلل النصوص، أن تعمق فهمك لها، أن تبحث عن تطبيقات لها، هذا كله من مجال الاجتهاد، أما أن تلغي نصاً، أو أن تضيف نصاً، فهذا شيء مستحيل، الدين توقيفي، ولا يحتمل لا الإضافة، ولا الحذف، أما الواقع فلما أضفنا على الدين ما ليس منه، ضعفنا، صار هناك فرق، وطوائف، واتجاهات غير صحيحة، لما أضفنا على الدين ما ليس منه، ضعفنا، فلما حذفنا من الدين الجهاد خذلنا، نفترق بالإضافة ونضعف بالحذف، أما إذا طبقنا الدين كما جاء من دون إهمال أي جانب فقد نصرنا، أما إذا بقي الدين على العبادات الشعائرية فلا يقدم ولا يؤخر.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

المؤمن يعتقد أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإذا وعد الله المؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا مستخلفين.

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور الآية: 55]

والدين غير ممكن.

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا آمنين، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإن كانت هذه الوعود غير محققة فالجواب الطبيعي والصحيح والدقيق أننا لم نكن بالمستوى الذي أراده الله عز وجل.

فلذلك الاستخلاف في الأرض هذا شرف عظيم سمح الله لنا به، أن يستخلفنا عن ذاته العلية كي ننشر هذا الدين لخلقه،

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

- كقانون -

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)
(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

فإذا أخلّ الطرف الآخر بما عليه من عبادة فالذات الإلهية في حل من وعودها الثلاث، هذا الواقع.

إذاً إيذاء النبي عدم تطبيق سنته، عدم تطبيق منهجه في بيتك، وفي عملك، وفي حلك، وفي ترحالك، وفي كسب مالك، وفي إنفاق مالك،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

أقول لكم هذه الكلمة: ما من مصيبة على وجه الأرض من دون استثناء إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإسلام، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك الجهل أكبر مشكلة، الآن نحن نقول أحياناً: العدو الأول: الاستعمار، العدو الأول: الصهيونية، العدو الأول: الجهل، الدليل، أن أهل النار وهم في النار قالوا:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

السبب هو الجهل، السبب أن الإنسان يحب نفسه، على وجه الأرض ستة آلاف مليون ما منهم واحد إلا وهو يحب لنفسه السلامة والسعادة، السلامة و السعادة مطلبان أساسيان لكل إنسان على وجه الأرض، من المؤمنين، وغير المؤمنين، من كل الطوائف، والملل، والنحل، والأعراق، والأنساب، فالسلامة والسعادة مطلبان لكل إنسان، لماذا يشقى الإنسان؟ لمطلبه الأساسي السلامة والسعادة، لأنه ما عرف

طريق السلامة والسعادة، فالله عز وجل إذا أكرم الإنسان، ودله على طريق السلامة والسعادة فهو من المقربين من الله عز وجل، وهذا منهج الخالق.

أنت لو سافرت إلى بعض بلاد العالم هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الشجر، هناك من يعبد الشمس والقمر، هناك من يعبد أمواج البحر، هناك من يعبد الجرذان في آسيا الجرذان، معابد عملاقة، أنا عندي مجلة ألمانية، فيها تفاصيل مذهلة، يعبدون الجرذان، فنحن كأمة الله عز وجل كرمنا وشرفنا أن نعبد الله عز وجل، خالق السموات والأرض.

فإيذاء النبي المعنى الدقيق ليس أن تشتمه -لا سمح الله ولا قدر- ولا أن تناله بالأذى، لكن النبي يؤذى وهو في قبره، يؤذى بعدم اتباع سنته، أعطاك منهجاً كاملاً لسلامتك وسعادتك، كيف تكون زوجاً صالحاً، زوجة صالحة، ابناً باراً، أباً حكيماً، عاملاً متقناً، تكون سعيداً في الدنيا.

فإيذاء النبي في الأعم الأغلب، والشيء الواسع والمستمر، عدم الأخذ بسنته، وهذا ناتج عن ضعف الإيمان بنبوته، هذا نبي معصوم، معه من الخالق منهج، هذا المنهج لصالحه.

الدنيا تصلح بالكفر والعدل ولا تصلح بالإيمان والظلم :

دائماً وأبداً عندنا علاقة وضعية وعلاقة علمية كيف؟ أنا حينما أنهي ابني عن أن يمس مدفأة مشتعلة، فإذا عصاني ومسها تحترق أصبعه، العلاقة بين مس الأصبع واحتراق الأصبع علاقة علمية، مس المدفأة المشتعلة سبب احتراق الأصبع.

أما حينما يكون للبيت بابان، أعطي الأمر لأولادي أن يستخدموا إلا باباً واحداً، فإذا استخدم أحدهم الباب الثاني عاقبته، لكن لا يوجد علاقة علمية بين العقاب وبين استخدام باب للخروج، هذه علاقة وضعية.

أنت حينما تؤمن أن كل أوامر الله عز وجل ونواهيه، العلاقة بين الأمر والنتيجة علاقة علمية.

فرضاً لو تصورنا مجتمعاً ينكر وجود الله أصلاً، وأخذ منهج الله عز وجل وطبقه مئة في المئة، يقطف كل ثماره في الدنيا طبعاً، والدليل: الغربيون بذكائهم فقط اكتشفوا أن الصدق ينجو به صاحبه، بإتقان العمل ترتفع المبيعات، فهم بذكائهم وصلوا إلى القواعد الإيمانية، هم عرفوا الإسلام بطابع عملي، أو بمنطلق عملي، فصناعتهم أحياناً متقنة جداً، ووعودهم دقيقة جداً، وأمورهم واضحة جداً، فتفوقهم ناتج من تطبيق الإسلام، لا لأنه منهج الله، لأنه طريقهم لأرباحهم الطائلة، فهذه النقطة دقيقة جداً، أحياناً الإنسان يقع بحيرة الغرب متفوق، والدليل أن الله قال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام الآية: 44]

أتقنوا الدنيا، أعطوا كل إنسان حقه، أخذوا في الأسباب فارتقوا، لذلك ابن أحد العلماء الكبار يقول: "إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة" الأصل الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم.

الإنسان إذا خرج عن منهج الله اختل توازنه :

إذاً أريد أن أصل إلى هذه الحقيقة أن إيذاء النبي الحقيقي عدم الأخذ بسنته، وعدم جعل هذه السنة منهجاً مطبقاً في حياتنا، والآية التي تؤيد هذا المعنى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

أي هو يُتهم عند هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل أنه يستمع لكل إنسان، ويصدقه، وكأنه ساذج، النبي قمة من قمم البشر الكبرى، معقول يكون عنده فهم سطحي؟ هذا مستحيل، لكن دائماً الإنسان إذا خرج عن منهج الله عنده حالة يقع بها وهي اختلال توازن.

عفواً، طالب عنده شهادة ثانوية، والعلامات بالشهادة الثانوية لها أثر في اختيار الكلية، لكن إذا لم يكن يدرس، عنده حالة اختلال توازن، الآن يقول لك: لعل الأستاذ يعطيني السؤال؟ يتعلق بأفكار غير صحيحة، أو بأوهام، أو أنا أتوقع توقعات معينة يأتي منها السؤال فأنجح، فالإنسان عندما يقصر يختل توازنه، وكل إنسان اختل توازنه يسعى إلى ترميمه، إما بالتعلق بفكرة غير صحيحة، الآن مفهوم الشفاعة مثلاً صحيح، لكن إنساناً أمضى كل حياته بالمعاصي وبالنهاية يأتي النبي فيشفع له هذا كلام مضحك، الشفاعة تنال المستقيم، الموحد، وهناك بحث طويل حول الشفاعة، لكن الإنسان عندما يعصي الله عز وجل يختل توازنه، يحتاج إلى ترميم هذا الاختلال عن طريق التعلق بأفكار غير صحيحة، أو عن طريق الطعن بالصالحين، حتى يرتاح، أحياناً الإنسان المستقيم هناك من يطعن به، ما السبب؟ العاصي اختل توازنه.

مرة أستاذ سأل طالباً أين وظيفتك؟ قال له: لم نكتب الوظيفة، قال له: أنت كم واحد؟ يتوهم الطالب إذا قال لم نكتب الوظيفة الوضع طبيعي، قال له: أنت واحد، قل: لم أكتب الوظيفة.

فالإنسان عندما يختل توازنه يعمم، يقول: كل الناس وضعهم هكذا، لا يحب أن يرى إنساناً مستقيماً، المستقيم يكشف له وضعه.

كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصواب أما كلام الوحي فكلام مطلق :

إذاً :

(يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

طبعاً هذا من اتهامات كفار قريش للنبي الكريم، فردّ الله عليهم وقال:

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

أذنه تصغي إلى الوحي معه وحي السماء، النبي الكريم معه وحي السماء، معه منهج خالق السموات والأرض، معه الصح المطلق، معه الحق المطلق، معه افعل ولا تفعل، معه تعليمات التشغيل والصيانة للإنسان، معه تعليمات سلامتك وسعادتك، وحي طبعاً كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصواب، أما كلام الوحي فكلام مطلق.

فلذلك أنت عندما تقرأ أحاديث النبي الصحيحة أنت مع وحي السماء، إذا قرأت القرآن أنت مع وحي السماء، لذلك:

((تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ ملك]

الكتاب والسنة إن تمسكنا بهما لن نضل أبداً.

النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

إذاً:

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

كل إنسان يخطئ ويصيب إلا الأنبياء فهم معصومون، فكلام النبي حق مئة في المئة، وما نهاك إلا عن شيء يؤذيك، ولا أمرك إلا بشيء ينفعك، النبي بشر، معنا حجة، الكلام الدقيق:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الكهف الآية: 110]

الآية القرآنية أنه أنا يؤذيني ما يؤذي أي إنسان، وأخاف مما يخاف منه أي إنسان، أي أنه لو يكن بشراً تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، في بعض أحاديثه:

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

هو بشر، لولا أنه تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، يشتهي المرأة لكنه ضبط نفسه، يشتهي المال لكنه ضبط نفسه، فلولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لذلك:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 128]

هو إنسان، في بعض الكتب محمد الإنسان، هو إنسان، لكنه انتصر على إنسانيته، وسما إلى ربه فكان سيد البشر.

هناك من يقول: أن هذا نبي، هذا نبي فعلاً، وأنت لن تكون نبياً لكن أنت مكلف أن تأخذ منه ما أمرك، والدليل:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

السنة بيان نبوي وكلامي وعملي وإقراري لما في القرآن :

إذاً:

(أُذُنُ خَيْرٍ)

يتلقى الوحي من السماء، وينقله لكم، الوحي هو القرآن، كيف فسره؟ بالحديث.

بشكل أو بآخر، سنة النبي القولية، والعملية، والإقرارية، بيان نبوي لما في القرآن، إذاً السنة بيان نبوي، وبيان كلامي، وبيان عملي، وبيان إقراري، لما في القرآن، إذا أردت أن تفهم القرآن فافهم سنة النبي العدنان بالضبط.

التكذيب صفة من صفات أهل الدنيا :

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)

أي يصدق المؤمنين، من صفات بعض أهل الدنيا التكذيب، يكذب:

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

[سورة الدخان]

يشك في أي شيء،

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

كأن الله عز وجل وصف المجتمع في نهاية الزمان بصفتين؛ في شك من كل شيء، يلعبون، اللعب عمل غير هادف، فتجد مسابقات، واحتفالات، ومعارض، وأشياء كل هدفها آني ومحدود ينتهي بزوالها، لكن لا يوجد أعمال كبيرة جداً ترقى بالإنسان إلى أبد الآبدين.

فلذلك:

(هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

اللعب قد يبدأ بلعبة أطفال، لكن أحياناً حياتنا لعب، هناك مثلاً أعمال كبيرة جداً لكن تنتهي عند الموت، الإنسان عندما يؤمن بالآخرة، أقسم لكم بالله وأنا أعني ما أقول: أنك إذا آمنت بالله الإيمان الحقيقي ثم آمنت باليوم الآخر، والملاحظة الدقيقة: أن أكثر ركنين من أركان الإيمان وردا في القرآن معاً الإيمان بالله واليوم الآخر، هناك إله له منهج، و يوم تحاسب عليه، أنت إذا آمنت بالله الإيمان الذي أراده الله، وباليوم الآخر الإيمان الذي أراده الله، لا يمكن أن تعصيه، أوضح مثل أسوقه للأخوة الكرام: أنت مواطن عادي، راكب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وهناك شرطي آخر على دراجة، و ضابط مرور بسيارة، وأنت مواطن عادي، هل من الممكن أن تتجاوز الإشارة الحمراء؟ مستحيل، لأن هذا الشرطي يأخذ رقم السيارة، فإذا لم تقف تبعك الشرطي الآخر، وإلا فهناك سيارة ثانية تتبعك، فأنت تتقي هذا النظام وتحت سيطرة واضع هذا النظام.

من يؤمن أن الله يعلم وسيحاسب لا يمكن أن يعصيه :

أنت حينما تؤمن أن الذي أمر يعلم وسيحاسب لا يمكن أن تعصيه، والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

الله اختار من كل أسمائه القدرة والعلم، يعلم، وسيحاسب، أنت لست مع خالق السموات والأرض، مع إنسان مثلك إذا كان يعلم وسيحاسب.

أحياناً التاجر يستورد، لكن هو يعلم يقيناً أن نسخة من هذا الاستيراد ذهبت للمالية فهل من الممكن أن يخفي عن المالية حساباته؟ كل شيء استورده نسخة من هذا الاستيراد يذهب إلى المالية، فإذا أخفى حساباته تهدر حساباته، ويتكلف بمبالغ طائلة.

فأنت عندما تعرف إنساناً مثلك مثله، لكن يعلم وسيحاسب، لا تعصيه، فكيف بخالق الأرض والسموات؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

إذاً

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)

لأن المؤمن صادق، الآن عندما أنت تكون صادقاً وإنسان يكذبك تقع بحرج كبير جداً، أما علاقة المؤمنين فإذا حدث صدق، فالنبي الكريم يؤمن للمؤمنين، أي شيء يقولونه له يصدقه.

أشقى الناس قاطبة من كان في خندق معادٍ لأهل الحق :

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

ما الرحمة؟ كلمة واسعة جداً، إيمانك رحمة، استقامتك رحمة، أن تعرف أن الله خلقك رحمة، أن تعلم علم اليقين أن بعد الموت حياة أبدية رحمة.

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

ليس من السهل أن الله يرسل إنساناً كاملاً معصوماً لخدمة البشر، لرقي البشر، لسلامة البشر، لسعادة البشر، وأن تكون أنت في خندق معادٍ له.

لذلك أشقى الناس قاطبة من كان في خندق معادٍ لأهل الحق، فإذا كنت مع الحق هذه نعمة كبيرة جداً، والحق واحد لا يتغير.

أنا أقول دائماً: ما الحق؟ الحق دائرة تتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل غير صحيح، حديث موضوع، حديث غير صحيح، تأويل آية غلط، خط النقل الصحيح نصاً وتأويلاً، وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري، فكل إنسان عاقل يرتكب المعاصي الكبيرة يعطيها تبريراً إيديولوجياً معيناً، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، هناك فطرة منطمسة، وخط الواقع الموضوعي، فإذا اجتمعت في دائرة خط النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، فأنت مع الحق والحق هو الله عز وجل.

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الدنيا والآخرة، عذاب أليم في الدنيا لأنه خالف منهجه، فدفع ثمن المخالفة، بالآخرة كان مع الذين ساق الله لهم عذاباً شديداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (45-70) : تفسير الآية 62، الحلف بالله هروب من كذب يريده الحالف، والصادق لا يحتاج إلى الحلف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-03-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

من علامات الإيمان أن تتجه إلى الله وحده و تستعين به وحده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والستين وهي قوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، من علامات الإيمان أن تتجه إلى الله وحده، أن تثق بالله وحده، أن تستعين بالله وحده، أن ترجو الله وحده، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

من خصائص المؤمن أنه يتجه إلى الله، يتجه إليه، ويحبه، ويعبده، ويطيعه، ويعلق آماله عليه، أما من شرد عن الله فقد اتجه إلى البشر.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

لكن الإنسان المؤمن الصادق هدفه الأول إرضاء الله عز وجل، وإذا رضي الله عنك رضي عنك كل من حولك.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

المنافق يسترضي من حوله و لو كان عن طريق الكذب :

أيها الأخوة الكرام، إذا أردت أن تضغط الدين كله في كلمات؛ أن تتجه إلى الله وحده، أن تعلق الأمل على الله وحده، أن ترجو الله وحده، أن تحب الله وحده، إذا أحببت الله أحبك كل من حولك، إذا توكلت على الله أنت أقوى إنسان، حتى إنهم قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله.

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين شردوا عن الله، هؤلاء المنافقون الذين نحن بصددهم في هذه السورة الكريمة، هؤلاء المنافقون:

(يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

هو يريد أن يسترضي من حوله، ولو كان هذا الاسترضاء عن طريق الكذب.

(يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

ولكنهم غفلوا عن الذي خلقهم، يعلم سرهم ونجواهم، يعلم بأي شيء يتكلمون، ومن أي تصور ينطلقون، ولأي هدف يعملون، هم

(يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

إذا رضي الله عنك أرضى عنك كل الخلق، أما إذا رضي عنك الخلق جميعاً ولم يكن الله راضياً عنك فهذا الرضا لا تنتفع به إطلاقاً.

من خسر الجنة فقد وقع في أكبر خسارة على الإطلاق :

الإنسان سيعيش سنوات معدودات، هو خلق للأبد، خلق لجنة عرضها السموات والأرض، فالذي يخسر الجنة يكون قد وقع في أكبر خسارة على الإطلاق، والدليل:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر الآية: 15]

ففرق كبير بين أن تتشتت، وبين أن ترضي فلاناً وعلاناً، وبين أن تحلف لفلان وعلان، وبين أن تكون موزعاً بين الخلق، وبين أن تكون مع الحق، وإذ كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك؟. حتى إن بعضهم قال: يا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ ماذا وجد من فقدك؟ ما وجد شيئاً، أما الذي وصل إلى الله فوصل إلى كل شيء.

(يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

لكن الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

لماذا؟ لأن رزقك بيد الله وحده، لأن سلامتك بيد الله وحده، لأن عزك بيد الله وحده، لأن ما تطمح إليه عند الله وحده، فإذا اتجهت إلى غيره وقعت في الشرك.

من يشتهي شهوة لا ترضي الله فقد وقع في الشرك :

الحقيقة أن الشرك الجلي فيما أتصور لا وجود له في العالم الإسلامي، ليس هناك إله كبوذا يعبد مع الله في العالم الإسلامي، الشرك الجلي ليس موجوداً، لكن ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

وليس الجلي، الشرك الخفي:

((أما إني لست أقول أنكم تعبدون صنماً أو حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله))

[ورد في الأثر]

شهوة خفية، فالإنسان حينما يشتهي شهوة لا ترضي الله وقع في الشرك، والدليل:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الجاثية الآية: 23]

فالذي يشتهي شهوة لا ترضي الله، الذي يشتهي شهوة تحجبه عن الله، الذي يشتهي شهوة تبعده عن الله، الذي يشتهي شهوة تؤخر اتصاله بالله، هذا وقع في خطأ كبير، لذلك الإيمان الصحيح توجه إلى الله، الإيمان الصحيح إخلاص لله، الإيمان الصحيح طاعة لله، الإيمان الصحيح أن ترضي الله وحده:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

طاعة الله عين طاعة رسول الله و طاعة رسول الله عين طاعة الله :

أخوتنا الكرام، في هذه الآية ملمح خطير، وأقول خطير لماذا؟ من قواعد اللغة أنك إذا قلت:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ)

بحسب قواعد اللغة أن يرضوهما، الاثنان، أما الآية جاءت:

(أَنْ يُرْضُوهُ)

بالمفرد، ماذا تعني هذه اللفتة البلاغية؟ يسميها بعض المفسرين لفتة بلاغية، أو نكتة بلاغية، جاء الضمير مفرداً أي أن طاعة الله عين طاعة رسول الله، وأن طاعة رسول الله عين طاعة الله، لأنك إن أطعت رسول الله فقد أطعت الله، وإن أطعت الله فمن لوازم طاعتك لله أن تطيع رسول الله، هذه المعاني مختزلة موجودة في الضمير المفرد.

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

بدل من أن تقول أن يرضوهما، لذلك القرآن الكريم فيه آيات كثيرة، يؤكد أنهم إذا أطاعوا رسول الله فقد أطاعوا الله، وإذا عصوه فكأنهم عصوا رسول الله، لماذا؟ هناك مصطلح معاصر اسمه الشفافية، أي

أن النبي صلى الله عليه وسلم شفاف، بمعنى يشف عن الحق، ليس له مطلب شخصي، دعوة إلى ذاته ليست موجودة، دعوته لله، إخلاصه لله، كلامه مستنبط من وحي الله، إذاً الضمير المفرد في قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

أي أن طاعة الله عين طاعة رسول الله، وأن طاعة رسول الله عين طاعة الله.

من حلف بغير الله فقد وقع في شرك خفي :

لذلك نعود إلى كلمة

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

قال العلماء: الحلف يطلق على اليمين الكاذبة، بل إنك إن راجعت ألفاظ الحلف في القرآن لوجدت كل هذه الألفاظ تؤكد أنهم أقسموا بالله كذباً، الشيء الذي ينبغي أن يكون متعلقاً بهذه الآية أن الإنسان حينما يحلف بغير الله، أو يحلف لمقصد دنيوي، وقع في شرك خفي، السبب أنه فاته أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأن إرادته مطلقة، وأن الله جل جلاله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج]

الإنسان الذي تتجه إليه ليس فعالاً لما يريد، أما الله فوحده

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

ما كل إنسان أراد شيئاً يتحقق، فأنت إذا اتجهت إلى إنسان وقعت في خطأ كبير، أما إذا اتجهت إلى الواحد الديان فبيده كل شيء، حياتك بيده، زواجك بيده، نجاح زواجك بيده، أولادك بيده، صحتك بيده، رزقك بيده، خيرك بيده، صوابك بيده، خطؤك بيده، فلذلك هذا هو التوحيد، حقيقة التوحيد.

الإيمان الحقيقي أن ترى أن الله فعال وقيوم وبيده كل شيء :

قد يقول قائل: إن الإيمان بالله عز وجل خالق السموات والأرض، لقد غاب عن الإنسان أن الشيطان مؤمن بهذا المعنى، ألم يقل الشيطان ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

في القرآن الكريم، الشيطان آمن بالله رباً، وآمن به عزيزاً، وقال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية:12]

وآمن به خالقاً، وقال:

(قالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

وآمن بالآخرة، ومع ذلك هو شيطان رجيم، وإبليس لعين، لذلك ليس الإيمان أن تؤمن بأن الله خلق السموات والأرض وانتهى الأمر، الإيمان الحقيقي أن تراه فعالاً، قيوماً، بيده كل شيء، ما من شيء يقع في الأرض إلا بيده، والدليل الآية المشهورة في البقرة:

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

[سورة البقرة الآية: 284]

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة البقرة الآية:255]

الفرق الكبير بين أن تتجه إلى المخلوق وبين أن تتجه إلى الخالق :

الله عز وجل يملكنا خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، إذاً فرق كبير بين أن تتجه إلى المخلوق وبين أن تتجه إلى الخالق، أهل الدنيا إذا غفلوا عن الله يتجهون إلى المخلوقات، وهناك مآس ونكبات واحباطات، وإنسان يخلص لإنسان ثم يفاجئ أنه لئيمٌ لؤماً لا حدود له، فإذا أردت أن تعيش سعيداً فكن مع الله:

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

إذاً إذا حلفت فاحلف بالله، الله عز وجل هو خالقك، وهو ربك، وهو مسيرك، أي إلهك بيده الملك، بيده مصائر الخلق، بيده الدنيا وبيده الآخرة.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية: 123]

الله عز وجل أمرك أن تعبده بعد أن طمأنك أن الأمر بيده :

الله عز وجل في هذه الآية الأخيرة

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

قال لك:

(فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

متى أمرك أن تعبده؟ حينما طمأنك أن الأمر كله بيده، والإنسان حينما يشعر أن علاقته مع جهة واحدة هذا الشعور مسعد، علاقته مع جهة، يرضي هذه الجهة، يخلص لهذه الجهة، يسعى لهذه الجهة، يخاف من هذه الجهة، يرجو هذه الجهة، هذا هو التوحيد، فالمؤمن علاقته مع جهة واحدة، هي الله، والله عز وجل لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى يمين، أنت معفى من كل ذلك لأنه يعلم، أما غير الله عز وجل فلا يعلم إلا بالقسم، أو بالسند، أو بالإيصال، طبعاً ليس ممنوعاً أن تأخذ إيصالاً من إنسان، لكن القصد من ذلك أنك مع الله، لا تحتاج إلا إلى أن توقن أنه يعلم.

الله عز وجل يعلم وسيحاسب وسيعاقب :

أنا أقول كلمة: هناك كلمات ثلاثة؛ يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، أخذاً من قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[الطلاق الآية: 12]

كأن الله عز وجل سوف يلخص لنا القرآن كله:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

دقق: أنت في علاقتك ليس مع خالق السموات والأرض، مع إنسان أقوى منك، علمه يطولك، وقدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه، وأوضح مثل: شرطي أمام الإشارة الضوئية، أنت مواطن عادي، والإشارة حمراء، والشرطي معك، فإذا تجاوزتها كتب مخالفة، فيها مبلغ كبير، وإذا تفلت من يده هناك شرطي على دراجة، وضابط مرور بسيارة، وسحب إجازة، وحجز مركبة، لماذا أنت مع الشرطي؟ لأنك تعلم أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تستقيم على أمره، فلذلك الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

المؤمن لا يكذب :

إذاً الحلف في الأعم الأغلب بل في القرآن الكريم حرصاً يعني القسم مع الكذب، ودائماً الإنسان حينما يلجأ للقسم أي عنده كذب، عنده شك أن الذي يخاطبه لا يصدقه، الحالف ينطلق من هذا المنطلق، أما إذا كنت صادقاً فلا تحتاج إلى كذب، بل إن الأشخاص المتوازنون، أصحاب الشخصية القوية الناتجة عن إيمانهم، وعن استقامتهم، قلما يحلفون، لأن كلامهم صادق، هذا الذي أمامه يعرفه مؤمناً، لا يكذب.

بالمناسبة: المؤمن لا يكذب قد يقع في أخطاء كثيرة لأنه لا يكذب، لماذا؟ لأن الكذب لا يتعلق بشهوة، يتعلق بمكر، قد تزل قدم الإنسان إذا غلبته شهوته أحياناً، أما الكذب فلا يتعلق بشهوة إطلاقاً، يتعلق بمصلحة، فالذي يكذب يخطط، فالمؤمن لا يكذب فهذه صفة بالإيمان كبيرة جداً.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ)

يحلفون لكم، هذا اليمين موجه لكم، لأنهم توهموا أن مصالحهم معكم، وأنكم أقوياء، وأن رضاكم عنهم مغنم كبير، هذا هو الشرك، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن الله عز وجل يقول: من الجهة التي أحق أن ترضيها؟ إنه الله، والإنسان الذي أخبرك عن أمر الله و نهيه هو رسول الله، فجهتان في الأرض هما أولى أن تكون في رضائهما، الله ورسوله.

كل شيء وقع أراده الله وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

لذلك قالوا: كل شيء وقع أراده الله، معنى أراده لا تعني أنه أمر به، ومعنى أراده لا تعني أنه رضيه، أراده تعني أنه سمح به فقط.

كطبيب سمح بإجراء عمل جراحي لابنه إن كانت الزائدة عنده ملتهبة، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، هذا كلام دقيق، أراد أي سمح فقط، الله عز وجل خلقنا للسعادة، فإذا أكل إنسان مالاً حراماً تقتضي رحمة الله به أن تؤدبه، يتلف ماله، فإذا أتلف مال الإنسان أحياناً طبعاً ليس شرطاً، لكن إتلاف المال أحياناً رسالة من الله أن هذا الدخل ليس صحيحاً، دخل معه كذب، معه غش.

فالإنسان حينما يبدأ يفهم على الله يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، الإنسان حينما يصاب بمصيبة من السذاجة بمكان أن تمر عليه مرور الكرام، لماذا ساق الله لي هذه المصيبة؟ هناك حكمة بالغة، أفعال الله عز وجل فيها حكمة بالغة، لأن كل شيء وقع أراده الله، معنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لكن الذي وقع أراده الله، لحكمة بالغة، فالإنسان من السذاجة بمكان إذا ساق الله له مصيبة أن يمر عليها مروراً سطحياً.

يقول لك إنسان أحياناً: الحياة متعبة، الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، قلب لي القدر ظهر المجن، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً، هذه المصيبة التي ساقها الله للإنسان وراءها حكمة بالغة.

أنت هل تصدق أن أباً في الأرض يضرب ابنه بلا سبب؟ مستحيل! فالضرب وراءه حكمة، بل إن الأب الصادق المربي حينما يعاقب ابنه يبين له السبب، هذه العقوبة من أجل كذا أو كذا، من هنا جاء قول الله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

الله عز وجل طليق الإرادة :

هناك ملمح دقيق في القرآن؛ الله عز وجل حينما قال:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد]

أن أبا لهب لو توجه إلى النبي كاذباً، ومنافقاً، وأعلن إسلامه، ألغى السورة، لكن الله عز وجل كما يقول بعض العلماء: إرادته مطلقة، طليق الإرادة، الأمر بيده، فأبو جهل بتفكير بسيط وقليل وسريع لو ذهب إلى النبي وأعلن أنه أسلم لألغيت الآية، بل هناك شيء آخر: الآية الكريمة:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ)

[سورة البقرة الآية: 142]

لم يقولوا بعد، وقد سمعوا هذه الآية، فإذا سكتوا ألغوا هذه الآية:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة الآية: 142]

الله عز وجل وصفهم بأنهم سفهاء، وهؤلاء السفهاء سمعوا هذه الآية، فإذا سكتوا ألغوا هذه الآية، لكن الله عز وجل طليق الإرادة، هذا الشيء لا بد من أن يقال، لذلك:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

لو سكت، أو لو ذهب وأعلن إسلامه لألغى السورة كلها، قال:

(سَيَحْلِفُونَ)

[سورة التوبة الآية: 95]

هناك آيات سيحلفون، لم يحلفوا بعد، فلو لم يحلفوا لألغوا الآية.

الطغاة عصي بيد الله :

إذاً الله عز وجل طليق الإرادة، كل شيء أراده يقع، بأي شكل، والكلمة التي أذكرها كثيراً: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، بالعالم المادي كل شيء له حكمة بالغة، فالشر صار في النفوس ، فالإنسان حينما يظلم إنساناً، المظلوم ظُلم لحكمة أرادها الله، لذلك الظالم صوت الله، ينتقم به، ثم ينتقم منه، فهذا الإيمان مريح، هذا الإيمان بالتوحيد يلغي الحقد، يلغي القهر، الأقوياء أحياناً عصي بيد الله، فالإنسان إذا تلقى ضربة بعصا من الخطأ أن يحقد على العصا، يحقد على الضارب إذا أراد أن يحقد، فهؤلاء الطغاة عصي بيد الله، فلذلك البطولة أن تعود إلى الله مستقيماً وتائباً.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

الآن مرة ثانية:

(يَحْلِفُونَ)

يحلفون إيماناً كاذبة، الحلف في القرآن الكريم أيمان كاذبة، لكن:

(لِيُرْضُوكُمْ)

القسم يعني الكذب أو الصدق أما الحالف فالحالف كاذب دائماً :

أما إذا قلت:

(أَقسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 53]

فالقسم يعني الكذب أو الصدق، يحتمل القسم أن يكون القسم كاذباً، ويحتمل أن يكون صادقاً، أما إذا قلنا الحالف فالحالف كاذب دائماً، والدليل:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

[سورة القلم]

الإنسان كائن متحرك و له حاجات عدة :

هناك شيء آخر متعلق بهذه الآية الدقيقة: هناك قوانين يستنبطها الإنسان من حركة الحياة، نحن نعيش في هذه الدنيا، هناك عمل، و دوام، و ربح، و خسارة، و سفر، و إقامة، و زواج، هذه الحركة، الإنسان طبعاً كائن متحرك، لِمَ هو كائن متحرك؟ هناك سبب، عنده حاجات، حاجته إلى الطعام والشراب تدفعه للحركة، حاجته إلى الزواج تدفعه لأن يتحرك تحركاً آخر، حاجته إلى تأكيد الذات هذه حركة ثالثة، فالحاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على بقاء الفرد، والحاجة إلى الزواج حفاظاً على بقاء النوع، والحاجة إلى التفوق حفاظاً على بقاء الذكر، هذه حاجات ثلاثة في الإنسان، هذه الحاجات تدفعه إلى أن يتحرك فهو كائن متحرك، يذهب إلى عمله، يعود إلى البيت، يبحث عن زوجة صالحة، يبحث عن دخل وفير، يبحث عن إنجاب ولد، فعنده حركة، هذه الحركة فيها قوانين، الغني يشتري أثمن شيء، ويسكن بيتاً فاخراً مثلاً، والفقير بيته متواضع، ودخله قليل، وإنفاقه قليل، هذه القوانين مستنبطة من حركة الحياة، لكن المؤمن يتمتع برؤية عميقة جداً، يتمتع بتصور دقيق جداً، لأن هناك قوانين أخرى ليست هذه القوانين التي نراها كل يوم، هذه القوانين مستنبطة من حركة الحياة، أما هناك قوانين أخرى أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، يأتي إنسان يتصدق بماله، بحسب الآلات الحاسبة لم يعد معه مال، يفتح الله له رزقاً ما كان في حسبانه، فنقول: هذا الرزق الوفير الذي جاءه لا بقوانين الحياة بل بقوانين العناية الإلهية، أحياناً الإنسان يصيبه مرض، هذا المرض قد يكون سبب توبته إلى الله، فإذا تاب والمرض عضال وعند الأطباء ليس له دواء، فالله يتدخل تدخلاً مباشراً يتم ما يسمى بالشفاء الذاتي.

على الإنسان الاعتماد على قوانين العناية الإلهية :

المؤمن يعلم علم اليقين أن هناك قوانين غير قوانين حركة الحياة، هناك قوانين العناية الإلهية، هذه القوانين توفقه في دراسته، في زواجه، في عمله، في صحته، فهو اعتماده على الله لذلك الفاتحة التي نقرأها كل يوم عدة مرات:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

بين أن تكون مع خالق السموات والأرض، مع الغني، مع القوي، مع العالم، مع العليم، مع الحكيم، مع المقتدر، مع من يعلم، مع من بيده كل الأقوياء.

أنا أقول دائماً: المؤمن وضعه يشبه وضع إنسان أمام وحوش كاسرة، لكن هذه الوحوش مربوطة بأزمة قوية، بيد جهة حكيمة، فأنا علاقتي ليست مع الوحوش، مع من يملكها، فإذا أرخى أحد الحبال وصل

هذا الوحش إليه، وإذا شدّ الحبل أبعده عنه، فالحقيقة العاقل ليس مع الوحوش لكن مع من يمسك أزمتها، هذا هو التوحيد، لذلك يجب أن نعتمد على قوانين العناية الإلهية.

من يؤثر طاعة الله يخضع لقانون العناية الإلهية :

الله عز وجل قال لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة الآية:276]

لكن بالآلة الحاسبة الربا يزيد المال، أقرضت مئة ألف أخذت مئة وعشرة، فالآلة الحاسبة الربا فيها زيادة، لكن الله قال:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

الصدقة فيها نقص للمال، مع هذا النقص يفتح الله لك أبواباً لم تكن في الحسبان للرزق، فالإيمان بالله يقتضي تسليماً كاملاً بقدرة الله عز وجل، فقادر أن يمنحك رزقاً وفيراً وأنت لا تملك أسبابه، وقادر أن يسعدك بزوجة وقد تكون من الدرجة العاشرة، وقادر أن يشقيك بزوجة من الدرجة الأولى، وقادر بالمال أن يطغيك، وبالمال أن يسعدك به، فالعبرة أن تكون مع الله عز وجل، فالأشياء التي بين أيدينا، المال، المنصب، الصحة، هي أشياء حيادية، إما أن تكون لصالحنا، أو أن تكون عبئاً علينا.

إذاً القوانين التي تحكم البشر قوانين ثابتة، لكن معها مجموعة قوانين أخرى أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، فالذي يؤثر طاعة الله يخضع لقانون العناية الإلهية، الذي ينفق ماله إرضاء لله يخضع لقانون العناية الإلهية.

لذلك قالوا: يمكن أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف مستحيل، لأن الله عز وجل لا بد من أن يكشف الحقائق.

((إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أهل الجنَّةِ))

[أخرجه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي]

وفي نهاية المطاف يكشف الله نفاقه.

الله عز وجل قيد معصية الرسول في المعروف :

شيء آخر: أنت حينما تؤمن أن طاعة رسول الله هي طاعة الله، وأن طاعة الله تقتضي طاعة رسول الله، تكتشف النكتة البلاغية في الضمير المفرد،

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سرية وأمّر عليها صحابياً، هذا الصحابي أنصاري، هذا الذي حصل، قال: ألست أميركم؟ قالوا: بلى، قال: أليست طاعتي طاعة رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: أضرموا ناراً عظيمة، أضرموها، قال: اقتحموها، فكر الصحابة و قالوا: كيف نقتحمها وقد آمنا بالله فراراً منها؟! فشكوا، فراجعوا النبي الكريم على هذا الأمر فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة إنَّمَا الطاعةُ في المعروف))

[أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب]

لا تعطل عقلك.

((إنَّمَا الطاعةُ في المعروف))

يؤكد هذا الآية الكريمة:

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

[سورة الممتحنة الآية:12]

الله عز وجل قيد معصية الرسول وهو المعصوم الذي يوحى إليه، سيد الخلق، وحبيب الحق في المعروف،

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

شفافية دعوة النبي الكريم أن كل ما أمر به محض إخلاص لله :

أخواننا الكرام، الشيء الآخر الذي يجب أن يكون واضحاً أن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها شفافية كبيرة، ما معنى الشفافية؟ أحياناً يكون على النافذة بلور صاف، صناعة متقنة جداً، هذا البلور يشف عما وراءه، هناك بلور فيه عروق، أو فيه زخارف، الذي يظهر لك هو الزخارف وليس ما وراء البلور، فشفافية النبي الكريم، وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الدعاة، حظ نفس ليس له إطلاقاً، مطلب شخصي ليس له، أهداف أرضية ليس له، يشف عن الحقيقة فقط، طبعاً هي صفة في أعلى مستوياتها في الأنبياء، فشفافية دعوة النبي الكريم أن كل ما أمر به محض إخلاص لله، وكل ما نهى عنه محض إخلاص لله، فلذلك طاعته من طاعة الله عز وجل، لكن ما سوى النبي ينبغي أن تفكر، إذا كان هذا الأمر يتناسب مع القرآن والسنة لا يوجد مانع، إذا لم يتناسب تستطيع أن تراجعه، أنت مسموح لك، نحن كمسلمين في الأرض مسموح لنا أن نستجيب لواحد ليس غير، هو رسول الله، لو لم تفكر بالأمر أنت على صواب، مادام أمر النبي فأنت على صواب، لكن ما سوى النبي الكريم تحتاج إلى تدقيق وإلى مراجعة.

دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها تنفيذ لأمر الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية التي ينبغي أن تكون داعمة لهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية:59]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

أي في قرآنه،

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي في سنته، الثالثة عليها إشكال،

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

أروع ما قرأت عن هذه الآية أن الأمام الشافعي يقول: أولو الأمر هم الأمراء والعلماء، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذونه، فكأن بينهما تكاملاً، العالم يعلم تشريعاً، الأمير ينفذ تنفيذاً، والآن يقول لك: السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، فكأن العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذونه، فدعوة النبي عليه الصلاة والسلام فيها تنفيذ لأمر الله عز وجل.

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

واللفتة الدقيقة في كلمة:

(مِنْكُمْ)

أي من جنسكم، مؤمن، يخاف الله، يحرص على مصالحكم،

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

العودة إلى القرآن و السنة في أية قضية خلافية بين الأمراء و العلماء :

لكن الشيء الذي يلفت النظر قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية:59]

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

قال: إذا تنازعتم مع أمرائكم، ومع علمائكم، طبعاً مع الله ورسوله أشياء واضحة، لكن مع علمائكم وأمرائكم قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

هنا اللفتة الدقيقة، هل تصدق أن يردك الله إلى مرجعين فيهما حل لكل مشكلات الأمة إلى يوم القيامة؟ فإذا رجعت إلى هذين المرجعين لابد من أن تجد حلاً، كأن الله شهد لهذا الدين أنك إذا رجعت إليه ففيه حلٌ لكل مشكلات الإنسان من دون استثناء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

معنى ذلك أي منازعة ما بين العلماء أو الأمراء في قضية معاشية، قضية ثقافية، قضية دينية، فالحكم هو القرآن والسنة، القرآن فيه مبادئ كبرى، والسنة فيها تفاصيل.

علامة حبّ الله عز وجل أن تتبع النبي الكريم :

شيء آخر متعلق بهذه الآية:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

الشيء الآخر قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية:31]

علامة حب الله عز وجل أن تتبع النبي الكريم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

إذا كانت سنتك يا محمد مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، والآية الأخيرة:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء الآية:80]

هذه الآية حاسمة، هذا المنهج منهج متكامل لله ورسوله، طاعة الله في قرآنه، والنبي في سنته الصحيحة، فإذا طبقنا هذا التوجيه نحن في مأمن من عذاب الله.

((تَركْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّةَ رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (46-70) : تفسير الآية 63، المحاددة تجعل حداً بين الحق والباطل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية التالية متعلقة بسلامة الإنسان وسعادته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والستين، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية متعلقة بسلامة الإنسان وسعادته، فحينما يحادد الله ورسوله وكان ينبغي أن يوالي الله ورسوله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وهو الذي يربينا، وهو الذي يمدنا، وهو الذي يسيرنا، مرجعنا إليه، مآلنا إليه، بيده قوتنا وضعفنا، صحتنا وسقمنا، بيده كل شيء، فهل يعقل أن نتجه إلى غيره؟

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود الآية: 123]

بعد أن طمأنك أن كل أمرك،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ)

أي كل أمرك كله توكيد ثان:

(فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

أي حياتك، صحتك، زواجك، أولادك، سعادتك، شقاؤك، توفيقك، عدم التوفيق، التألق، عدم التألق، العلو، عدم العلو، كل هذا بيده، فكيف تتجه إلى غيره؟.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

كان ينبغي أن يعلم، حينما تكون القضية بديهية واضحة، صارخة، عليها مليون دليل ودليل، وإنسان تجاهلها يقول له: ألم تعلم؟

لو أن طالباً لم يدرس فلم ينجح نقول له: ألا تعلم أن من جدّ وجد؟ شيء بديهي جداً.

عندنا أشياء تعرف بالبديهة، التجارة تحتاج إلى رأسمال، هذا العمل يحتاج إلى صدق، هذا العمل يحتاج إلى إتقان، فالأشياء البديهية تعرف بالفطرة.

تطابق الدين العظيم مع الفطرة :

بالمناسبة: هذا الدين العظيم متطابق مع الفطرة تطابقاً تاماً، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

أن تقيم وجهك لهذا الدين هو نفسه ينطبق على فطرتك، بمعنى ما من أمر أمرك الله به إلا وفطرتك ترتاح له، وما من نهي نهاك الله عنه إلا والفطرة تشمئز منه، هذه نعمة كبيرة أن الله إذا أمرك بأمر وأنت أطعته اصطلحت مع فطرتك، أحد أسباب راحة المؤمن أنه وجد نفسه، اصطلح مع فطرته، فطرته تدعوه إلى الصدق وهو يصدق فارتاحت نفسه.

فلذلك أكبر خطأ أو أكبر نتيجة سلبية لمن يعصي الله أنه اختلف مع فطرته، فأصبح عنده كآبة، حتى الإنسان لو لم يتلقى دروس علم إطلاقاً فطرته توافق الشريعة تماماً.

بتعبير آخر: الإنسان إذا أطاع الله وهو لا يعلم أنها طاعة لله يرتاح، بالعالم الغربي عندهم راحة تأتي من الصدق، يرتاح للصدق، لإتقان العمل، هناك أشياء لها عندهم قيمة، الأشياء تتطابق مع فطرتهم، فالإنسان إذا بحث عن سلامته وسعادته عليه أن يطيع ربه عز وجل.

الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله :

لذلك:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

الشيء البديهي، الواضح، الصارخ، الأساسي، الذي تكشفه بذاتك من دون تعليم، هو حقائق الدين وعلاقة الفطرة بها، فإذا قال الله عز وجل:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

غاب عن نفسك الآية التي تقول:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ)

هؤلاء الخلق لهم خالق، فإذا آذيت أحدهم آذيت الخالق، بمعنى لو أنك ضربت طفلاً هذا الضرب يؤذي والده لمحبته له، والله عز وجل يحب كل عباده، فإذا أسأت إلى واحد منهم، إذا ضربته، إذا شتمته، إذا

حقرته، إذا أهنته، إذا ابتززت ماله، إذا أوقعته في مشكلة، إذا أفسدت علاقته مع زوجته، هذا شيء يغضب الله عز وجل، هم عباده، لذلك الكلام الرائع: الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، أنت من دون أن تشعر حينما تنصح إنساناً، حينما تحسن إلى إنسان، حينما تصدق مع إنسان، الله يحبك لأنك رحمت عباده، و كنت صادقاً معه.

لذلك أخوتنا الكرام، سعادتك بيدك، وشقاؤك بيدك، أنت تعيش بمجتمع، هذا المجتمع هم بشر، هم عباد الله أولاً، فإذا صدقتهم، وأحسنت إليهم، وكنت منصفاً لهم، أحبك خالقهم، أحبك ربهم، فأنت حينما تعاون إنساناً تتعامل مع خالق الإنسان.

الحركة لا تصح إلا إذا عُرِف السبب :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

هذا شيء بديهي، واضح، جلي، صارخ،

(أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

النقطة الدقيقة: كلمة ألم هي أداة استنكار، وسائل العلم بين يديك، والواجب أن تعلم الحقيقة، ومع أنها بين يديك لم تكتشف هذه الحقيقة، فيأتي التعبير الدقيق ألم تعلم.

طالب دخل العام الدراسي هناك حقيقة بديهية: أنه من اجتهد نجح، هذه حقيقة يكتشفها بفطرته، فحينما لم يدرس، وعندما لم ينجح تعجب، نقول: لا، هذا التعجب غباء، من بديهيات الدراسة أن الدراسة تحتاج إلى جهد.

(أَلَمْ)

الاستفهام مع حرف النفي لم يعنِ الاستنكار، ومعنى الاستنكار أن وسائل العلم قدمت لك، والواجب أن تعلمها، لكنك لم تعلمها فالخطأ خطؤك.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء]

بتعبير آخر، لماذا لا تعلم وكان ينبغي أن تعلم؟ هل هناك من علم يفوق أن تعرف سبب سلامتك وسعادتك؟ هل هناك من علم يفوق أن تعلم ماذا بعد الموت؟ أين كنت قبل أن تولد؟ عندنا من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ هناك قضايا فلسفية خطيرة جداً، أنت حينما تعلم علم اليقين أنك مخلوق لجنة عرضها السموات والأرض، حينما تعلم أنك مخلوق، تأتي الحركة موافقة لهذا الهدف.

طالب ذهب إلى باريس فسأل إلى أين أذهب؟ أقول له: عجباً لهذا السؤال! لماذا جئت إلى هنا؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى السوربون، إن جئت سائحاً إلى برج إيفل، إن جئت تاجراً اذهب إلى الأسواق

والشركات، فالحركة لا تصح إلا إذا عرفت السبب، ألم تعلم؟ وسائل العلم قدمت لك، والواجب أن تعلمها، والذي وقع أنك لم تعلم، فهذا خطأ كبير يتحمل الإنسان نتائجه الخطيرة.

الحد في الإسلام :

أخواننا الكرام،

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

ما معنى يحادد؟ كلمة يحادد جاءت من الحد، وكان الناس يضعون بين أراضيهم حدوداً، أحياناً قطعة حديد، أحياناً حجر، أحياناً شريط شائك هذا اسمه حد، هذه أرضي، وهذه أرضك، وضع حد يعني فصل بين أرضه وأرض غيره، الآن ما هو الحد في الإسلام؟ عندنا حد يفصل بين كسب الحلال والحرام، الربا حرام، لأن أساس الربا أن المال يلد المال، فصار المال سلعة، نحن عندنا سلعة وعندنا مال، السلعة ينتفع بها مباشرة، رغيف الخبز تأكله أما الليرة فلا تؤكل، ينتفع بها بطريقة غير مباشرة، فهذا ثمن، فحينما جعل الثمن سلعة وتاجرنا بها هذا هو الربا، والربا إذا قبلناه كدخل فهذا الربا يجعل الأموال الكثيرة بأيد قليلة، مشكلة البشر كلهم المشكلة الكبرى في البشر أن قلة قليلة تملك كل شيء، وأن الكثرة الكثيرة لا تملك شيئاً، هذه المشكلة، هذا التفاوت الكبير في الدخل، إنسان يملك مليوناً ومليون لا يملكون شيئاً، هذا وراء الثورات، وراء العنف، وراء التطرف، وراء الإرهاب، هذا التفاوت الكبير، الحقيقة الخطيرة في الدنيا أن تسعين بالمئة من ثروات الأرض يملكها عشرة بالمئة من سكانها، دول الشمال والجنوب، فهناك غنى مفرط، وفقر مدقع، هذا وراء الثروات والحروب وما شاكل ذلك.

لذلك:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

أي جعل حداً بينه وبين الحق، يجب أن تكون مع الحق، أن تكون وفق الحق، أن تكون مسايراً للحق، لا أن تكون في جهة والحق في جهة، حادد جعل حداً بينه وبين الحق.

المعية في الإسلام لها معنيان؛ معية خاصة ومعية عامة :

لذلك أيها الأخوة، المعية في الإسلام لها معنيان، معية خاصة، ومعية عامة، فإذا قال الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

قال علماء التفسير: هذه معية العلم، والله معك يعلم ماذا تفعل، نائم، مضطجع، تتكلم كلاماً صحيحاً، تتكلم كلاماً غير صحيح، تمارس عملاً خاطئاً أم صواباً؟ الله معك، والإنسان كما قيل: أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، فإذا كان الله معك وهو معك لكن هل تشعر أنه معك؟ إذا شعرت أن الله معك يستحيل أن تعصيه.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ)

الله معك، لا سمح الله ولا قدر إنسان يكذب على من يشتري بضاعته، يعطيها صفة غير صحيحة، من مصدر غير صحيح، فأنت حينما تكذب الله معك، ألا تستحي من الله؟

((استحيوا من الله حق الحياء))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مسعود]

أحد أنواع الحياء أن تستحي أن تعصيه.

من يقرأ القرآن ينبغي أن يقرأه قراءة متأنية :

طبعاً:

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

يحادد الله في قرآنه، الله أمرك بالاستقامة:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هود الآية: 112]

أنت لم تستقم، أمرك بالعدل والإحسان، وممكن للإنسان إذا قرأ القرآن أن يستنبط الأوامر الإلهية، هذا كتاب خالق الأكوان، كتاب الإنسان، كتاب سعادة الإنسان، فأنت حينما تقرأ القرآن ينبغي أن تقرأه قراءة متأنية.

أخ حدثني كلما قرأ أمراً يضع تحته خطاً، عمل مصحفاً لوحده، لقراءته الخاصة، خط بالأخضر، وكلما قرأ نهياً وضع خطاً بالأحمر، فإذا فتح المصحف هذه الأوامر، وهذه النواهي، أحياناً هناك قصص فيها موعظة كبيرة جداً، الله عز وجل ما أرادنا أن نقرأ القرآن قراءة سريعة، أرادنا أن نتدبره، والتدبر شيء دقيق جداً.

آيات الله في الكون :

الله له آيات ثلاثة، آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، الآيات الكونية خلقه:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران الآية: 190]

والآيات التكوينية أفعاله، والآيات القرآنية كلامه، أنت بين آيات كونية، وتكوينية، وقرآنية، وهذه الآيات طرق سالكة إليه، تعرفه من آياته الكونية، والتكوينية، والقرآنية، فهذا الكون لماذا نصبه الله عز وجل؟ من أجل أن تعرفه، الله عز وجل:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام الآية: 103]

لكن جعل لك هذا الكون ليكون هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، الآن الله عز وجل له أفعال، أحياناً يأتي زلزال لأمة باغية طاغية، هناك وضوح تام، أحياناً هناك أشياء واضحة تماماً، أحياناً تكون غير واضحة لحكمة بالغة، فأنت حينما تتأمل بكلامه تدبراً، وتنظر إلى أفعاله تبصراً، وتتفكر في آياته الكونية معرفة، فقد حققت الهدف من هذا الكون، هناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، هذه الآيات طريقك إليه وإلى معرفته.

أحد أسباب سعادة المؤمن أن معه توجيهات من عند الخالق :

فهنا لعلك تعلم أن الذي يحادد الله ورسوله ما مصيره من خلال الأحداث؟ وما مصيره من خلال القرآن؟ بالقرآن ذكر لك مصيره.

لذلك لماذا كان الصحابة إذا قرؤوا آية وقد تحقق الوعد والوعيد هذا التحقق يسعد الإنسان؟

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس الآية: 59]

قال بعض العلماء: تأويل القرآن أن ترى الوعد والوعيد محققاً، أنت مثلاً ترى إنساناً يغش الناس في البيع والشراء، يأكل مالاً حراماً، ويزداد غنى، تابع أمره فإذا بضربة قاصمة من الله، هذه الضربة تزيد في إيمانك، أنا أقول: مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، هذا يقين، فالمؤمن أحد أسباب سعادته أن معه توجيهات من عند الخالق، ما من داع لأن يدفع الثمن هو، أما غير المؤمن فيأكل مالاً حراماً، فيدمر ماله كله، يشقى بدماره، عليه ديون، تذل نفسه، يكتشف بعد فوات الأوان أن ماله حرام، المؤمن له وضع آخر، وضع سليم، قرأ كلام خالق الأكوان، وفيه نهي عن أكل المال الحرام فتركه، ما من داع أن يدمر حتى يتعظ، لذلك دائماً المؤمن الموفق يتعظ بغيره، بينما الشقي يتعظ بنفسه، وأحياناً تكون الموعظة بعد فوات الأوان. مثلاً: إنسان رأى شيئاً يشبه قنبلة، قنبلة؟ ليست قنبلة؟ صح؟ غلط؟ أراد أن يمتحنها فانفجرت و أزهقت روحه، فلم ينتفع بهذا الدرس، هناك معاص تدمرك نهائياً، لا يبقى بحياتك وقت تستمتع بهذه التجربة، و

هناك معاص لها عقاب محدود، يأتي العقاب تخاف فلا تعيد هذا الشيء الذي فعلته، لكن هناك معاص كبيرة جداً، مهلكة، فتنتهي سعادتك في الدنيا.

من لبَّ حاجات عقله و جسمه و قلبه فقد تفوق :

إذاً الآية التي أتمنى أن تكون واضحة تماماً هي: ألم يعلم؟ ينبغي أن تعلم، أنت عندك حاجة عليا، و حاجات دنيا يمكن أن نسميها كذلك، أنت بحاجة للطعام والشراب حاجة دنيا، بحاجة إلى زوجة حاجة دنيا، لكن هناك حاجة عليا أن تعرف الحقيقة، برأسك عقل، والعقل غذاؤه العلم، فأنت حينما تلبي الحاجة العليا تسمو عند الله عز وجل، مثلاً: أنت حينما تأتي إلى مسجد كي تستمع إلى درس علم أنت بهذا المجيء تلبي الحاجة العليا بالإنسان، وأنت إنسان لأنك عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، العقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الحب، والجسم غذاؤه الطعام والشراب، إن لبيت حاجة عقلك وقلبك وجسمك معاً تفوقت، أما إذا اكتفيت بواحدة منهما فتطرفت.

فلذلك المؤمن يلبي حاجة عقله له مجلس علم، يتابع العلم، من أنا؟ أين كنت قبل أن آتي إلى الدنيا؟ ماذا بعد الموت؟ ما أسباب دخول الجنة؟ ما أسباب دخول النار؟ ما الحلال والحرام؟ تاجر، أحكام البيوع مهمة جداً، عندنا محام، طبيب، هذا يحتاج لأحكام خاصة بهاتين المهنتين يسمونها جعالة، الجعالة غير الإنجاز، هناك فرق بينهما، على كلٍّ ألم يعلم، ينبغي أن تعلم.

على الإنسان أن يكون ضمن الحق فإن كان هناك حدّ بينه و بين الحق فهناك مشكلة :

شيء آخر:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ)

أنت ضمن الحق، أما إن كان هناك حدّ بينك وبينه، أي دخلك في واد والمنهج في واد آخر، علاقتك مع النساء في واد والمنهج الصحيح في واد آخر، فهذه مشكلة، إنسان يتحرك وفق شهواته، هناك حرام بكسب المال، حرام بإنفاقه، حرام بعلاقته مع النساء، حرام بلقاءاته، حرام بسفره، يتحرك حركة بدافع شهواته، هذا جعل نفسه في حيز آخر من الحق، لم يكن هناك حد، الحد يجعلك في حيز آخر، هذا معنى

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

طبعاً وحيثما جاءت كلمة الله ورسوله لها معنى دقيق، الله عز وجل هو الخالق، هذا الكون يدل عليه، وهذه الأفعال، زلزال أحياناً، فيضان، الحروب أيضاً تدل عليه، هذه أفعاله، وأحياناً كلامه، أن تعرف الله، وأن تعرف أمره ونهيه، هذا شيء مهم جداً، أما رسوله فهذا منهج، القرآن كتاب من فسره بالحقيقة؟

رسول الله، لكن ما قال لنا تفسيراً، قال لنا: سنة، هناك كتاب فيه كليات، والسنة فيها تفصيلات، أنت إن أردت أن تفهم ما في الكتاب ينبغي أن تقرأ السنة.

((إن تَمسَّكْتُمْ به لن تَضِلُّوا بعدي))

[أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم]

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

النتيجة خطيرة جداً،

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

هذه النار وردت في:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

دائماً وأبداً الإنسان يعيش واقعه وماضيه، يقول لك: كنت محامياً، كنت تاجراً بعد ذلك تركت التجارة، كنت موظفاً ثم تقاعدت، يتكلم عن ماضيه وعن واقعه، قلّما تجد إنساناً يفكر في مستقبله، ما سيكون، وأخطر شيء بالمستقبل مغادرة الدنيا، نحن الموت نؤمن به لكن لا نعرف حجمه، حجمه من بيت إلى قبر، هناك بيت أربعمئة متر، بيت ثمنه يقدر بمئة وخمسين مليوناً بعده قبر، من صالونات، غرف ضيوف، غرف طعام، غرف جلوس، أجهزة كهربائية، إطلالة جميلة، إلى قبر، ماذا في القبر؟ فالبطولة أن تفكر فيما سيكون لا فيما هو كائن.

أقول لك هذه الكلمة: أدق ما في حياة المؤمن أنه يعيش المستقبل، مرة سألوا طالباً أخذ الدرجة الأولى على القطر بالشهادة الثانوية، فأجروا معه لقاء صحفياً، أنا قرأت هذا اللقاء أعجبتني إجابته، قيل له: ما سبب هذا التفوق؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا ثانية.

والمؤمن الصادق ساعة وفاته مغادرته للدنيا ماثلة بين عينيه، هذا العمل يرضي الله عز وجل، لو أن الله سألني لماذا فعلت هذا؟ لماذا قطعت هذه العلاقة؟ لماذا وصلت هذا الإنسان؟ إنسان منحرف، لماذا وصلته؟ لماذا أخذت هذا المال؟ لماذا اخترت هذه الحرفة؟ لماذا التقيت بهذا اللقاء؟ هل معك جواب؟ البطولة أن تهيئ جواباً لله عز وجل عن كل شيء تفعله.

الله عز وجل مع المؤمنين بالحفظ و الرعاية و التوفيق :

الذي ينبغي أن يقال إن معية الله عز وجل معية علم، لكن إذا قال الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

قال علماء التفسير: هذه معية خاصة، المعية الخاصة رائعة جداً، أي معهم يوفقهم، ومعهم يحفظهم، ومعهم ينصرهم، ومعهم يرشدهم، ومعهم بالتوفيق، والحفظ، والرعاية، والإكرام، إذا كان الله معك فمن عليك؟

كن مع الله ترَ الله مـعك   واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطـاك من يمنعـه   ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

على المؤمن ألا يجعل بينه وبين الحق شيئاً :

أيها الأخوة، يحادد أي يعادي، عمل حداً، أنت هنا وأنا هنا، وسوف نختصم، معنى يحادد أي يشاقق، أي أنت في شق وأنا في شق، معنى يحادد أي يحارب، أنت دائماً الدين بمكان وأنت بمكان، أنت بمكان والحق بمكان، أنت بمكان والفضيلة بمكان، أنت بمكان والصواب بمكان، عندما تكون أنت مع الصواب، ومع الحق، ومع الفضيلة، ومع الدين، هذا معنى:

(يُشَاقِقِ)

[سورة النساء الآية: 115]

جعل حداً بين شقين، شق الحق، وشق الباطل، هو مع الباطل، والمؤمن لا يجعل بينه وبين الحق شيئاً، هو مع الحق، وفي الحق، وهناك إنسان يستخدم سلاحه ليجبر الناس على الباطل، هذا أصعب، عندنا ضال مضل، و عندنا فاسد ومفسد.

للكافر شقاء في الدنيا و جهنم في الآخرة :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

طبعاً نار جهنم في الآخرة، وفي الدنيا هناك شقاء، بعض معاني الآيات:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

قال بعض علماء التفسير: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، بل قال بعضهم: بل يقاس على ذلك أن هناك جهنم في الآخرة وجهنم في الدنيا، لأنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية: 124]

هذه جهنم في الدنيا، هناك قلق، وقهر، وطمع، وشعور أنه مقهور، أحياناً هناك شعور أنه ما أخذ حقه، هذه المشاعر النفسية مؤلمة جداً.

علامة المؤمن أنه قوي الشخصية متفائل سعيد :

الحقيقة السعادة النفسية- أنا أقول كلمة- أنت عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، إذا غذيت عقلك بالعلم، وقلبك بالحب تفوقت، كنت أسعد الناس، فأنت حينما تكتشف حقيقة الإيمان، والله أنا أقول هذه الكلمة وأرجو أن تكون دقيقة: إن لم تقل ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ففي إيمانك مشكلة، يجب أن تقول كلاماً علمياً ودقيقاً، ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، فأنت عندما تكون مؤمناً أي أنت سعيد، أنت متوازن، قوي الشخصية، متفائل، موفق، لك عمل صالح ترقى به عند الله، لك صلة بالله، تشعر أنت بالتعبير الدارج غال على الله، هذه علامة المؤمن، أما أنت واحد من الخلق فلا شأن لك عند الله، هي مشكلة كبيرة،

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة :

لماذا لا تكن ولياً لله ورسوله؟ الفرق كبير جداً، أن توالي الحق، أنت مع الحق، مع المؤمنين، مع الصدق، مع العدل، مع الإنصاف، مع الإحسان، الحق طبعاً كلمة ولها تفاصيل، أنت مع القرآن، إذا هناك آية قرآنية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

مستحيل،

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

ما هي جهنم؟ هي موضوع الأبد، ما هو الأبد؟ أتمنى أن أقدم شيئاً للتقريب: واحد هنا وأصفار إلى آخر الطاولة، أول ثلاثة أصفار ألف، ثاني ثلاثة مليون، الثلاثة الثالثة ألف مليون، الثلاثة الرابعة مليون مليون، لآخر الطاولة لا أعرف كم مليار، لنهاية المسجد، من هذا البلد إلى القطب، كله أصفار، وكل

ميلي صفر، واحد بالأرض وأصفار إلى الشمس، مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر كم أصفاراً كم هذا الرقم؟.

أخواننا الكرام، أي أخ كريم عنده إلمام بالرياضيات يعرف أن أكبر رقم في الكون إذا نسب للانهاية فهو صفر، والآخرة لا نهاية، الدنيا لو عشت مليون سنة، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، لو عندك مليون امرأة، أغنى أغنياء الأرض إذا نسبت قدرته على المال إلى الآخرة فهي صفر، لذلك:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الشورى الآية: 45]

هذه الخسارة الحقيقية خسرت الآخرة، لذلك النجاح مسعد، والخسارة مؤلمة، وفي بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

إحساس الندم إحساس مؤلم جداً، ساحق.

من قابل نعم الله بالجحود و الكفر فهو أشقى الناس :

إذاً

(مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا)

أنت تصدق جامعة تعطيك دكتوراه من دون فحص؟ هل هناك جامعة تقدم لها طلباً: أرجو منحي شهادة فتأخذها؟ هناك دراسة ثلاث و عشرين سنة، وأطروحات، وامتحانات كتابية وشفوية، فأنت تصدق إنساناً مخلوقاً للجنة لا يوجد عنده امتحانات؟

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

أما الإنسان يوم القيامة فيكشف الله له لماذا خلقه، خلقه ليسعده، أعطاه سمعاً وبصراً، وأعطاه عقلاً، وأعطاه إدراكاً، وأعطه جسماً، وأعطاه زوجة وأولاداً، وأعطه حرفة أتقنها، جاءه منها دخل كبير، وقابل هذه النعم بالكفر والجحود، وبنى مجده على أنقاض الآخرين، بنى حياته على شقائهم، بنى حياته على موتهم، بنى عزه على ذلهم، بنى سعادته على شقائهم، معقول؟ هذا الخالق ألا يسألك؟ الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فإنسان يحادد الله ورسوله؟ معقول الذي خلقك تحاربه؟ الذي خلقك تعصيه؟ لا تعبأ بدينه؟ ولا بمنهجه؟ ولا بوعده؟ ولا بوعيده؟ ولا بما عنده من خيرات؟ هذا من أشقى الناس.

البشر على اختلاف مللهم ونحلهم صنفان لا ثالث لهما :

والله لا أبالغ قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

ماذا فعل؟ أيقن أنه مخلوق للجنة، بعد هذا اليقين اتقى أن يعصي الله، وبعد هذه التقوى بنى حياته على العطاء، صدق بالحسنى، اتقى أن يعصيه، بنى حياته على العطاء، الآن الله عز وجل الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

زواجه ميسر، صحته ميسرة، دخله ميسر، سعادته ميسرة.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

أولاً ما عرف الله، غفل عنه، الدليل: تفلت من منهجه، وبنى حياته على الأخذ لا على العطاء، هذه صفات جامعة مانعة، البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم صنفان لا ثالث لهما،

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

فهذا الإنسان الثاني الذي

(يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

وهناك جهنم في الدنيا قياساً على ذلك، الآية التي قالت:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

سأل إنسان عالماً كبيراً: ما بال الأقوياء والملوك؟ قال: ضيق القلب، معيشة الضنك لا تكون أحياناً بقلة المال، المال وفير، تكون أحياناً بالشعور بالضياع، والإنسان يسعد قلبه، قد تجد مؤمناً متواضعاً جداً، دخله محدود، وبيته متواضع، أسعد الناس بالبلدة كلها، قد تجد إنساناً بأرقى مكان، بأعلى مرتبة، وهو شقي، فالشقاء لا يأتي من منصب، ولا يأتي من ثروة، يأتي من أن تكون مع الله، كن مع الله تر الله معك.

أعظم نعمة للمؤمن أن الله طمأنه على مستقبله :

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

دائماً، كيف أن الإنسان المحكوم بالإعدام يمكن أن يعدموه بعد ستة أشهر، كلما وضعوا المفتاح بالزنزانة يقول: جاؤوا يعدمونني، يعيش حياته كلها قبل أن يعدم بالإعدام، يعدم مليون مرة قبل أن يعدم، والإنسان إذا كان بعيداً عن الله، حتى في الدنيا قلق، يخاف من مرض عضال، أعظم نعمة للمؤمن أن الله طمأنه على مستقبله، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

ما قال علينا، قال: لنا.

أتمنى على الأخوة الكرام المؤمنين إذا الله عز وجل طمأنك أن تقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

لم يقل علينا، إنك إذا استقمت على أمر الله لك عند الله في الدنيا سعادة، والدنيا فيها جنة، جنة القرب من الله عز وجل، يقابلها بنار جهنم أيضاً، في الدنيا شقاء، مستحيل أن تكون منقطعاً عن الله وأنت سعيد أبداً، وألف ألف ألف مستحيل ولو كنت قوياً أو غنياً.

من تعرف إلى الله استقام على أمره و انصاع له :

(خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

هذا الخزي، الذي خلقك، الذي أعطاك الحياة، أعطاك الزوجة والولد، أعطاك القدرات، أعطاك العقل، أعطاك السمع، والبصر، أعطاك كل خصائصك، نسيته وكنت عبداً لغيره؟! أنا أقول دائماً: إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

(فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

إذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ عظيم، طفل عمره أربع سنوات، عقب عيد الأضحى قال لك: أنا معي مبلغ عظيم، نقدره بألف ليرة مثلاً، أما إذا قال لك مسؤول بالبنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، أي مئتا مليار، نفس الكلمة قالها طفل قدرتها بمئتي ليرة، قالها إنسان بمنصب رفيع بدولة عظمى قدرتها بمئتي مليار، فإذا قال ملك الملوك عذاب عظيم، ما هذا العذاب العظيم؟.

أنا أقول هناك شاهد آخر طبعاً:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

العظيم قال لك: هذا الفضل عظيم، لذلك بحسب الآية أعظم شيء أن تعرف الله، إنك إن عرفته عرفت كل شيء، إن عرفته كان بيدك سبل سعادتك وشقائك، كان بيدك المستقبل الرائع في الجنة، فلذلك الخير كله في طاعة الله، الخير والتوفيق، الرحمة في طاعة الله، الذي أتمنى أن يكون واضحاً جداً أن هناك حالتان شقاء وسعادة، الشقاء بمعصية الله، والسعادة بطاعته:

(لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (47-70) : تفسير الآيات 64 - 66، عقاب الله للمنافقين، والمجرم هو القاطع.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستعداد لدفع خطر متوقع هو المعنى الذي يُفهم من كلمة احذر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والستين وما بعدها وهي قوله تعالى:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، أصل الحذر أن تستعد لدفع خطر متوقع، فإذا قلت لمسافر: خذ حذرك؟ قد يسافر ومعه صديق، وقد يسافر ومعه سلاح، فالاستعداد لدفع خطر متوقع هو المعنى الذي يُفهم من كلمة احذر، الحذر.

ولكن كيف نفهم هذه الآية الكريمة في ضوء هذا التعريف،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ)

المنافق ما الذي يخيفه؟.

أولاً: زمرتان من البشر واضحتان جداً، المؤمنون والكفرة، المؤمن واضح آمن بالله خالقاً، ورباً، ومسيراً، وانصاع لمنهجه تطبيقاً وإخلاصاً، والكافر أنكر الإيمان، وتحرك وفق شهواته، فالكافر واضح، والمؤمن واضح، إلا أن هناك صنف ثالث، له موقف خاص يفعله إذا خلا، وموقف عام يفعله أمام المؤمنين، هذا المنافق، المنافق له ظاهر، وله باطن، له سريرة، وله علانية، له موقف خاص، وله موقف معلن، هذه الازدواجية عند المنافق تقتضي الحذر، فالمنافق أظهر الإيمان أمام المؤمنين، على مكاسب يجنيها من هذا الموقف، وأخفى الكفر، فهذا المنافق الشيء الذي يخافه كثيراً أن تنزل آية تفضحه.

حينما سمع طفل صغير اسمه الجلاس من عمه هذه الكلمة التي قالها في البيت: لو أن محمداً صادق فيما يقول لكنا شراً من الحمر، فحينما عرض هذا الطفل الصغير على النبي هذه المقولة نزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

[سورة التوبة الآية: 74]

الله عز وجل سمح للبشر أن يروا الظاهر لكن السرائر لا يعلمها إلا هو :

لذلك أيها الأخوة، كلمة يحذر بالنسبة للمنافق نفهمها أن المنافق أعلن الإيمان، وأغفل الكفر، أعلن الانسياق بأمر الله، وأخفى المعصية سراً، فهو مزدوج الشخصية، وذو الوجهين - كما قيل- لا يكون عند الله وجيهاً، فهذا المنافق يحذر أن تنزل آية في القرآن تفضحه، قال تعالى:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

لحكمة بالغةٍ بالغة الله عز وجل سمح للبشر أن يروا الظاهر، لكن السرائر يعلمها الله عز وجل، فالإنسان إذا أسر سريرة لحكمة بالغةٍ بالغة لابد من أن يكشفها الله للبشر بوقت طويل أو قصير، لذلك قيل: يمكن أن تخدع الناس لبعض الوقت، بل أن يمكن أن تخضع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، لكني أعلق وأقول: أما أن تخدع نفسك أو أن تخدع ربك فهذا مستحيل، ولا لثانية واحدة، لقوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة]

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

[سورة ق]

فالإنسان حينما يؤمن أن الله معه كيف يعصيه؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لـو كان حبك صادق لأطعته إن الـمحب لمن يحب يطيع

* * *

فالمؤمن من خصائصه أنه واضح، سريرته كعلانيته، ظاهره كباطنه، وهو مع الحق والحق لا يخشى البحث، ولا يستحي به، الحق ينبغي أن تعلنه على الناس كافة، لأن الحق هو الله عز وجل.

الدين قضية مصيرية تتعلق بها سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة :

أريد أن أوضح نقطة دقيقة هي أن الحق يشبه دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، الدين نقل، لكن هناك نقل صحيح، و نقل غير صحيح، فالبطولة إذا نقلت أن تنقل ما هو صحيح، هناك أحاديث لا تعد ولا تحصى موضوعة، وهناك تأويل لآيات غير صحيح، فالبطولة أن تعتمد النص الصحيح بتأويل صحيح، لأن هذا الدين حياتك، ومستقبلك، ومصيرك.

" إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم" سيدنا عمر يقول لابنه عبد الله: "ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا".

فقضية الدين قضية خطيرة، قضية مصيرية، الإنسان قد ينجح من صف إلى صف أما بالشهادة الثانوية فهناك علامات، هذه العلامات تحدد مصيره، قد يكون طبيباً، أو مهندساً، أو باختصاص ليس عليه طلب إطلاقاً، بالحياة أشياء مصيرية تحدد مصير الإنسان، إما في سعادة أبدية، أو في شقاء أبدي، فقضية الدين قضية مصيرية، ليس الدين وردة تضعها على صدرك من حين لآخر، الدين قضية مصيرية تتعلق بها سلامتك وسعادتك في الدنيا والآخرة.

حقيقة المنافقين :

لذلك المنافق له باطن كفري، وله ظاهر إيماني، أراد أن يكسب من الطرفين، أراد أن يكون في تفلت كامل فيما بينه وبين حياته الخاصة، وأراد أن يكون مع المؤمنين في الظاهر كي ينال من مكاسبهم، هذه حقيقة المنافقين.

فلذلك المنافقون يحذرون أن تنزل:

(سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

المؤمن حياته فيها طمأنينة، فيها صراحة، فيها وضوح، لا يخشى المساءلة، ظاهره كباطنه، باطنه كظاهره، سره كعلانيته، علانيته كسره، هذا التطابق التام بين الظاهر والباطن، بين حالته الخاصة وحالته العامة هو سر قوته، فالحق لا يستحيا به، الحق لا يخشى البحث، الحق يعلن على الملأ، الحق لا يقال في غرف مغلقة، لا يقال في الأقبية، الحق يقال على الملأ، في رابعة النهار، بل يقال في الإذاعة إذاً فالحق واضح كالشمس لا يخشى البحث، لا يستحيا به، تقوله على الملأ، تقوله وأنت واثق من أحقيته، الحق الذي هو الدين، الحق يكاد يكون دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح هناك نقل موضوع، ونقل غير صحيح، ونقل موهوم، وتأويل لنقل صحيح غير صحيح، فتتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، هناك عقل تبريري، هذا عقل سيئ جداً، الهدف أن مصالحك في المقدمة، يأتي العقل ليبرر، كأن يقول المستعمرون مثلاً: جئنا إلى هذا البلد من أجل حريتكم، هم جاؤوا من أجل النفط، لا من أجل حريتنا.

فالعقل الصريح أحد خصائص الحق، الحق دائرة تتقاطع بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، هناك واقع مزور، لو فرضنا أن إنساناً قال: إن معظم المسلمين عندهم أكثر من زوجة، هذا كلام غير صحيح، الذي يعدد ثلاثة في المئة فقط

من مجموع البشر، فهناك كلام غير صحيح.

إذاً أريد أن ألح على أن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، هذه كلها تتوافر في الحق، والحق هو هذا الدين، والحق هو الوحي، والحق هو السيرة والسنة، والحق ما جاء به الوحي السماوي.

لذلك هؤلاء المنافقون يحذرون أن تنزل آية تفضحهم،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ)

غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله عز وجل :

بالمناسبة عندنا شيء اسمه غيب، عندنا غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، وغيب مكاني، وغيب زماني، فغيب الماضي، والحاضر، والمستقبل غيب زماني، وأنت في هذا البلد لا تدري ما يكون في بلد آخر هذا غيب مكاني.

فلذلك النقطة الدقيقة جداً أن غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله، وأي إنسان يدعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب، لأن الله سبحانه وتعالى يقول عن رسول الله قل:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأنعام الآية: 50]

أما الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بأشراط الساعة هذا من إخبار الله له، هذا بذاته لا يعلم الغيب، أي بشر كائن من كان حتى الأنبياء لا يعلمون الغيب، أما إذا تحدثوا عن المستقبل فإخبار الله لهم عن هذا المستقبل.

الحق لا يخشى البحث لأن الحق هو الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، المنافق أبطل الكفر وأظهر الإيمان، إذاً هو يخاف أن تنزل سورة تفضحه، أما المؤمن فواضح وضوح الشمس، ليله كنهاره، سره كعلانيته، ما يضمر كما يعلم، هذه صفة بالإنسان رائعة جداً، واضح، ليس معه حالة قلق، حالة خوف، حالة وجل، واضح، يقول النبي الكريم:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

لذلك مرة ثانية: الحق لا يخشى البحث، والحق لا يستحيا به، والحق يعلن على الملأ ولا أحد على وجه الأرض يستطيع أن ينطق بكلمة، لأن الحق هو الله عز وجل، والحق أساسه نقل صحيح، وعقل صريح، وفطرة سليمة، وواقع موضوعي، الواقع المزور يتناقض مع الحق، الفطرة المنطمسة تتناقض مع

الحق، العقل التبريري يتناقض مع الحق، النص الموضوع يتناقض مع الحق، لابد من نقل صحيح، وعقل صريح، وفطرة سليمة، وواقع موضوعي.

الغيب و أنواعه :

الآن ما دام الحديث عن الغيب، عندنا غيب المستقبل، هذا لا يعلمه إلا الله، حتى الأنبياء والمرسلون لا يعلمون الغيب، أما غيب الماضي فغاب عنا، لكن الله عز وجل أخبرنا بأشياء كثيرة من غيب الماضي، والدليل قوله تعالى:

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)

[سورة هود الآية: 49]

وأحد دلائل نبوة النبي أن الله سبحانه وتعالى أخبره بقصص وحوادث من عالم الغيب الماضي. هناك شيء آخر: غيب المستقبل في بعض الآيات أخبر الله عنه، هناك شيء يلفت النظر الله عز وجل قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

[سورة الروم]

غلبت فعل ماض.

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

أولاً: استنباطان دقيقان من خلال هذه الآية، الاستنباط الأول: أن غيب المستقبل لا يعلمه إلا الله، وأنه أخبر أنبياءه عن أشياء لم تقع، لكنها سوف تقع كهذه الآية.

لكن هناك شيء ثان، قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

معنى ذلك هناك قواسم مشتركة بين الأديان السماوية، قواسم مشتركة بين الحق، بين أهل الحق، فمن علامة إيمانك أنك تقدر من هم على شاكلتك في الدعوة إلى الله.

الدعوة إلى الله دعوتان :

لهذا أقول دائماً: الدعوة إلى الله دعوتان، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، فالدعوة إلى الله الخالصة أساسها الاتباع.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف الآية: 9]

والدعوة إلى الله الخالصة أساسها التعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

والدعوة إلى الله الخالصة أساسها الاعتراف بالآخر، بينما الدعوة إلى الله المغلفة بدعوة إلى الذات أساسها الابتداع لا الاتباع، والدعوة إلى الذات المغلفة بالدعوة إلى الله أساسها عدم التعاون، التنافس، والدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله أساسها إلغاء الآخر بالمصطلح المعاصر إقصاء الآخر، فالمؤمن ليس إقصائياً، هو يدعو إلى الله، يتبع لا يبتدع، يتعاون لا يتنافس، يقدر الآخر، لا يلغي وجوده.

كل شيء وقع أراده الله وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

إذاً هذا غيب المستقبل قد أخبر الله عنه، مثلاً:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة الآية: 142]

هذا شيء لم يقال بعد،

(سَيَقُولُ)

هؤلاء السفهاء وصفوا بأنهم سفهاء، فلو سكتوا لأبطلوا هذه الآية، سكتوا فقط.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد]

لو أن أبا لهب توجه إلى النبي وأعلن إسلامه ظاهراً ألغى هذه السورة، لو أن السفهاء سكتوا ألغوا هذه الآية، إذاً هذا يستنبط منه أن الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، الأمر بيد الله عز وجل الله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

لو أن هؤلاء السفهاء سكتوا ولم يقولوا لأبطلوا هذه الآية، هذا يستنبط منه أن الله عز وجل

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب فهو إنسان كاذب :

أيها الأخوة، لذلك هذه الآيات التي تتحدث عن أقوام سابقين تلخصها الآية الكريمة:

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

غيب الماضي الإخبار عنه دليل نبوة هذا النبي الكريم، وغيب الحاضر قد يكون شيء حدث في مكان آخر، هو غاب عنك مع أنه وقع، وقع في الوقت نفسه هذا غيب الحاضر، أحياناً ربنا عز وجل أخبرنا عنه.

الآن أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب وهذه حقيقة مهمة جداً، فلذلك هذه الآية تلغي عمل المشعوذين، والدجالين، والكذابين، والقصاصين، وكل إنسان يوهم أنه يعلم الغيب فهو كاذب، كاذب وينبغي أن تركله بقدمك، لأن الله عز وجل اختص بعلم الغيب، لكن أحياناً تقتضي حكمته أن ينبئ أنبياءه أو النبي الكريم عن أحداث سوف تقع مصداقاً لنبوته، هذا من إعلام الله له وليس من علمه بذاته.

الابتعاد عن وضع المواضيع المقدسة الإلهية في مجال اللعب :

أيها الأخوة الكرام،

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

أحياناً كان المنافقون إذا جلسوا مع بعضهم بعضاً يتحدثون عن هذا النبي، وعن هذا القرآن بسخرية لاذعة، فقيل: أتستهزئون بهذا المنهج العظيم؟ بالقرآن الكريم؟ الآية الكريمة:

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

هذا الأمر أمر تحدّ وأمر توبيخ،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا)

سوف تعلمون نتائج هذا الاستهزاء، فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن أن يضع المواضيع المقدسة الإلهية في مجال اللعب أحياناً،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

[سورة التوبة]

أشقى الناس من كان في خندق معاد للحق :

أيها الأخوة الكرام، بعض الكفار كانوا إذا جلسوا فيما بينهم، حينما علموا أن بعض أقوالهم كان ينزل بها وحي فكانوا يقولون: لا داعي أن نتكلم حتى لا ينزل فينا قرآن، هذا من أقوالهم، لا داعي أن نتكلم حتى لا ينزل فينا قرآن، لكن من هو أشقى الناس؟ هو الذي يكون بخندق معادٍ للحق، أشقى الأشقياء الذي كان في خندق آخر غير خندق الحق، لأن الله سبحانه وتعالى يبين أن بيده كل شيء، وأن كيد الله متين، والمتانة صفة مادة تتحمل الشد، عندنا مقاومة قوى الشد، المادة التي تقاوم قوى الشد نسميها بالمادة المتينة، والمادة التي تقاوم قوى الضغط نسميها بالمادة القاسية، من أمتن المواد في الأرض الفولاذ المضفور، خيط من الفولاذ قطره ميلي متر، يحمل مئتي كيلو، فإذا كان الفولاذ مضفوراً يحمل أكثر، الآن المصاعد بالفولاذ المضفور، التل فريك بالفولاذ المضفور، الأشياء التي تتحمل أوزاناً كبيرة جداً نعلقها بالفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور أمتن معادن في الأرض، والمتانة مقاومة قوى الشد، أما أقسى مادة في الأرض الألماس تقاوم قوى الضغط، مثلاً الاسمنت السنتمتر المربع أو المكعب منه يتحمل خمسمئة وخمسين كيلو ولا ينكسر، بينما هذا السنتيمتر المكعب لو وضعته بين فكين وسحبته يكسر على خمسة كيلو، لذلك الاسمنت ينبغي أن يكون مسلحاً، مقاومة قوى الضغط عالية جداً، أما مقاومة قوى الشد فضعيفة جداً، فلابد من إسمنت مسلح، التسليح ليقاوم قوى الشد لا قوى الضغط، الآن ما علاقة هذا الكلام بالآية في قوله تعالى:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة الأعراف]

أي هذا الكافر مربوط بحبل لكنه مرخى، ففي أية لحظة يشد هذا الحبل فإذا هو في قبضة الله، وهذا أكبر وهم يدمر الكافر، لا يدخل الله في حساباته أبداً، يعتمد على قوته، على ذكائه، على معلوماته، على من حوله، على جمعه الغفير، وينسى الله عز وجل، لكنه يفاجأ من حيث لا يحتسب، عرفت الله من نقض العزائم، فالذي يعتمد على إمكاناته، وعلى عقله، وعلى ماله، وعلى من حوله، وينسى الله، أنا أرى أن أغبى الأغبياء في الأرض هم الذين ما أدخلوا الله في حساباتهم،

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

المتانة مقاومة قوى الشد.

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى :

الآية التي تقول:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا)

هذا أمر تحدٍّ، استهزئ وسوف تحاسب، لكن أن تكون في خندق معادٍ للحق؟ أن تكون تحت وعيد إلهي؟ هذا شيء مخيف، فهذا هو الغباء بعينه، أن تنسى أن الله بيده كل شيء، وأن مرجعك إليه، ومصيرك إليه، وحياتك بيده، وموتك بيده، ورزقك بيده، والسعادة بيده، والشقاء بيده، لذلك لما الله عز وجل قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

شيء رائع جداً، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

هذه معية عامة، معكم بعلمه، أما إن قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه معية خاصة، معكم بالتوفيق، معكم بالحفظ، معكم بالنصر، معكم بالتأييد، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ لذلك معية الله ثمينة جداً.

أيها الأخوة الكرام،

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى،

(إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

تناقض العبث مع الدين :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

مثلاً للتقريب: أستاذ جامعي أمامه ورق للطلاب وعليها يضع العلامات، وكلمة العلامات تعني مصير هذا الطالب بالنجاح أو الرسوب، النجاح أي أخذ شهادة عليا، وتعين بوظيفة راقية، وتزوج، هل من الممكن أن يجرب الأستاذ قلمه على هذه الأوراق؟ إنسان يأخذ صفراً بشكل عابث؟ العبث يتناقض مع هذا الدين.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنين]

كلام دقيق.

الحق و الباطل :

ما هو الحق؟ الحق هو الله، لكن من بعض تعريفات الحق لأن هناك آيات كثيرة جداً، بالمئات:

(أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ)

[سورة فاطر الآية: 24]

ما هو الحق؟ الحق الشيء الثابت والدائم، الثبات والديمومة، ما هو الباطل؟ الشيء العابث والزائل، مثلاً: نحن ممكن أن نعمل سيركاً، السيرك يعمل لمدة أسبوعين أو ثلاثة، فالبناء عبارة عن خيام وأشياء للتسلية، فيل مثلاً، بعض الحيوانات، بعض الألعاب البهلوانية، هذا السيرك، فالسيرك هدفه إمضاء الوقت فقط، تسلية، فالهدف ليس هدفاً عظيماً، هدف زائل وعابث، أما الحق كتأسيس جامعة من أجل تخريج قادة للأمة، يجب أن يكون بناؤها ضخماً قد يعيش مئات السنين، فالفرق بين بناء لهدف نبيل كالجامعات و المساجد مثلاً وبين بناء لهدف رخيص كالسيرك كالفرق بين الحق و الباطل.

فالشيء الحق هو ثابت وله هدف كبير، هادف وثابت، والباطل زائل وعابث، فحيثما قرأت كلمة الحق في القرآن، أنزل هذا الكتاب بالحق، لهدف كبير أن تسعد في الدارين، وهذا الحق لا يتبدل ولا يتغير، تمر أمم، شعوب، أقوام، رخاء، شدة، الحق ثابت، ومبادئ الحق ثابتة.

بطولة المؤمن أن يكون مع الحق وليس مع الباطل :

لذلك:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

اللعب عمل عابث، إذا لم يكن هناك إيذاء للآخرين ممكن، لكن ألا يكون في موضوعات خطيرة، الموضوع الخطير ممنوع أن يكون عرضة للعب والعبث، هناك آية كريمة تقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الدخان]

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

بالحق لهدف كبير، الحق ثابت، أحياناً تقرأ كثيراً، تراجع كثيراً، لكن الحق ثابت لا يتغير، طوبى لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، الباطل زائل، في شمال الأرض كان الفكر الإلحادي منتشراً لمدة سبعين أو ثمانين سنة ثم تهاوى وأصبح زاهقاً.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

[سورة الإسراء]

زهوق صيغة مبالغة، أكبر باطل زائل، ومليون باطل زائل، فكل بطولة المؤمن أنه مع الحق وليس مع الباطل.

إذاً الآية الكريمة:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

الله عاتبهم وقال:

(قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

أيعقل أن تكون الموضوعات الكبرى في الحياة، موضوع الإيمان بالله، الإيمان برسول الله، الإيمان بكتاب الله موضع الاستهزاء وموضع لعب؟ لذلك قال تعالى:

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

[سورة التوبة]

رحمة الله عز وجل رحمة واسعة :

هناك ملمح دقيق: هم لم يؤمنوا، لكن أعلنوا إيمانهم، هم قدموا هوية لهم أنهم مؤمنون فربنا عز وجل بهذا المعنى ذكر هذا الكلام،

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

بعد أن أعطيتم أنفسكم هوية إيمانية، وحصلتم بها مكاسب كبيرة، وأنتم تبطنون الكفر،

(قَدْ كَفَرْتُمْ)

كنتم بنظر الآخرين مؤمنين فلما عبرتم عن هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالكتاب والسنة أصبحتم كافرين

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

لكن رحمة الله عز وجل قال:

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

أي هؤلاء المنافقون الذين سخروا من دين الله، من كتاب الله، من رسول الله، لو أنهم عادوا لقبلهم الله عز وجل.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[حديث قدسي]

والآية واضحة جداً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

فلذلك قال بعض علماء التفسير: هذه أرجى آية في كتاب الله،

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

المغفرة تكون بعد الإيمان بالله عز وجل :

لكن لو تابعنها:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

[سورة الزمر الآية: 54]

المغفرة تكون بعد الإيمان، لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 48]

الشيء الدقيق:

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

أي تابت ورجعت، المنافقون سخروا من هذا الدين، من هذا الكتاب، من هذا النبي، ومع ذلك إن عادوا إلى الله انتهى كل شيء، فلذلك ما دام القلب ينبض أنت في بحبوحة المغفرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

ما دامت سنتك قائمة فيهم هم في مأمن من عذاب الله، لكن عندنا مأمن ثان:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

لذلك:

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ)

هؤلاء الذين سخروا من الكتاب، والسنة، ومن رسول الله، إذا تابوا وعادوا إلى الله، فالله يتوب عليهم.

من أصرّ على كفره و طغيانه فالنار مثوى له :

(نُعَذِّبْ طَائِفَةً)

مصرة على كفرها، وعلى نفاقها،

(بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

ما معنى مجرمين؟ أنت حينما تجرم أي تقطع، كمن جرم اللحم عن العظم، قطع اللحم، فهذا الذي أخذ هذا الموقف وأصر عليه قطع نفسه عن الحق، صار هو في واد والحق في واد آخر، هذا هو الجرم الكبير أن تكون في خندق معادٍ للحق، أن تكون في طرف آخر، لا مع أهل الحق.

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

جرموا أنفسهم أي قطعوها عن الحق، أصبحوا في خندق معادٍ للحق، أصبحوا هم في مكان والحق في مكان آخر، أما المؤمن فمع الحق دائماً.

لذلك الآيات:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (48-70) : تفسير الآيات 67 - 68، صفات المنافقين، وباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الأوامر الإلهية حينما تكون موجهة للذكور هي حتماً للإناث من باب التغليب :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الكريمة:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

أولاً الأحكام التكلفية ذكورية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم الآية:8]

أكثر آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتكليف جاءت ذكورية، لأنها تخاطب الذكور، لكن هناك في اللغة العربية، أو في البلاغة بحث دقيق هو التغليب، فإذا دخل إلى هذه القاعة فرضاً سبعون طالبة وطالب واحد نقول: دخل الطلاب، غلبنا هذا الذكر على الإناث فالتغليب كأن تقول: الوالدان، الأب لم يلد، اسمه والد، القمرين: الشمس والقمر، فلذلك التغليب حينما تأتي الأوامر الإلهية موجهة للذكور، هي حتماً للإناث، من باب التغليب، أي أخت كريمة، مؤمنة طاهرة، إذا قرأت:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هي مخاطبة أيضاً بهذه اللغة، وكأن الله يقول: يا أيتها المؤمنات، هذا هو التغليب.

في بعض الآيات لا بد من التفرقة بين الذكور والإناث :

لكن في حالات قليلة لا بد من التفرقة بين الذكور والإناث:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة النحل الآية967]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

[سورة آل عمران الآية:195]

هنا:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ)

لأن المنافقون لهم مجالسهم، والنساء لهن مجالسهن، فربما تكلمن النساء في مجالسهن كلاماً، الله عز وجل ينكره عليهن، وكذلك الرجال، فهو بالأصل أي آية موجهة إلى الذين آمنوا هي حكماً موجهة إلى المؤمنات، إلا في حالات، في بعض الآيات لا بد من ذكر الذكور والإناث معاً، هنا جاءت الآية:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لكن قبل أن نتابع الآية: إذ يأتي قبل هذه الكلمات

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)

النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية:110]

هي خير أمة بنص هذه الآية، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، إله عظيم خلق الكون، يقول:

(كُنْتُمْ)

قال علماء التفسير: أيها العرب أصبحتم بهذه الرسالة

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

أصبحتم، كنتم هنا بمعنى أصبحتم بحسب السياق،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

السؤال؟ ما علة هذه الخيرية؟ ما العلة؟ جاءت العلة:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية:110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لو تصورنا أن هذه العلة لم تطبق، فقدنا خيريتنا، وأصبحنا أمة كأية أمة خلقها الله، يؤكد هذا قوله تعالى:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية:18]

الأمة الإسلامية إن تخلت عن رسالتها فقدت خيريتها :

الأمة العربية الآن لو تخلت عن هذه الرسالة، ولم تقم بما أراده الله لها أن تكون وسيطة بين الله وبين خلقه، ولم تعبأ بهذه الرسالة، عندئذٍ فقدت خيريتها، لذلك يصدق عليها ما يصدق على أي أمة شاردة عن الله عز وجل،

(كُنْتُمْ)

أي أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة الآية:143]

أي وسطاء بين الله وخلقه، فإذا تخلينا عن هذه الرسالة، أو لم نعرف حقها، فقدنا هذه الخيرية، فلذلك في بعض الآثار النبوية كلام خطير قال:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ - الصحابة صعقوا - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بنكم إذا أمرتم بالمنكر ونـهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟- اشتدَّ عجبهم- قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة]

هذا اسمه تبدل القيم، للتقريب: في النقد العربي، عدّ النقاد أهجا بيت قالته العرب على الإطلاق:

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

أهجا بيت قالته العرب هو مع الأسف الشديد شعار أي إنسان في هذا العصر، مادام دخله وفيراً، بيته فخم، عنده مركبة فاخرة، يوم يقضي أوقاته الممتعة مع من يحب، يسافر، إذا كان همه هكذا، فقد انطبق عليه هذا البيت:

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

من عرف نفسه عرف ربه :

ألم تسأل من الذي خلقك؟ ولماذا خلقك؟ ولماذا جاء بك إلى الدنيا؟ وماذا بعد الموت؟ هذه قضايا كبيرة. لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، كيف؟ الذكاء متعلق بالأشياء التفصيلية، فقد تحمل دكتوراه بالفيزياء

النووية، ولست عاقلاً إذا غفلت عن ربك، وعن مصيرك، وعمّا بعد الموت، ما كل ذكي بعاقل، الإنسان إذا جاء إلى الدنيا من خلقني؟ من أمدني؟ من أعطاني هذا الشكل؟ من أعطاني هذه الحواس؟ من أعطاني هذا العقل؟ من جعلني من أم وأب؟ هناك ملايين الأسئلة إذا عرفتها عرفت الله، وإن غابت عنك غبت عن الحق، لذلك قالوا: من عرف نفسه عرف ربه.

إذاً نحن نكون خير أمة إذا ذكرنا علة الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

فهذا الذي كسب مالاً حراماً هو عند الناس ذكي جداً، هذا الذي وصل إلى شيء ليس عن طريق مشروع، بل عن طريق غير مشروع يعد عند الناس شاطراً، هذا شيء خطير جداً، أن تتبدل القيم، فلذلك من بعض الأحاديث التي تلفت النظر:

((اطلعت في الجنة فرأيت عامة أهلها المساكين))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

الإنسان المادي مقاييسه كلها مادية، يرى المؤمن يؤثر طاعة الله على شيء كبير أحياناً، يؤثر طاعة الله على منصب رفيع، يريد أن يكون محسناً لا مسيئاً، فهذا الموقف يجعله عند أهل الدنيا أبلهاً.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله :

لذلك أيها الأخوة الكرام، كما قال الله عز وجل:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

متشابهون لكن هناك شيء لطيف جداً، ينبغي أن أذكره لكم متعلق بهذا الموضوع، الله عز وجل في سورة الأنفال في الآية الثانية والسبعين قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الأنفال الآية: 72]

آمنوا بالله خالقاً، آمنوا به مربياً، آمنوا به مسيراً، آمنوا بأسمائه الحسنى، وبصفاته الفضلى، آمنوا أن بيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أو بشكل مختصر

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هم الأشخاص الذين حملهم إيمانهم على طاعة الله، الإيمان الذي يحمل على طاعة الله هو الإيمان الذي أراده الله، أما الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فلا يقدم ولا يؤخر، بل إن إبليس مؤمن بهذا المعنى، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية: 12]

آمن به رباً، وعزيزاً، وخالقاً، قال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا يعد إيماناً منجياً، الدليل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

آمن بالله لكنه ما آمن به عظيماً.

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح]

طريق الإيمان بالله العظيم التفكر في خلق السموات والأرض :

التركيز على الإيمان بالله العظيم وكيف تؤمن بالله العظيم حينما تتفكر في خلق السموات والأرض، هذه العين الشبكية مساحتها ميلي وثلث فقط، كم مستقبل ضوئي فيها؟ فيها مئة وثلاثون مليون مستقبل ضوئي، وأنا أمامي آلات تصوير، آلات احترافية لا شك، أغلى آلة تصوير احترافية في بالميليمتر المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي، بالعين بالميليمتر مئة مليون مستقبل ضوئي، العين البشرية تفرق بين تسعة ملايين لون، لو أخذنا لوناً واحداً ودرجناه ثمانمئة ألف درجة العين البشرية تفرق بين درجتين، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد]

فلذلك قضية الإيمان قضية كبيرة جداً، أنت حينما تؤمن بالله عظيماً،

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

طريق الإيمان بالله العظيم التفكر في خلق السموات والأرض.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

فالتفكر في خلق السموات والأرض أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب ندخل منه على الله، لأن هذا التفكر يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

المؤمن مرتبة أخلاقية وعلمية وجمالية :

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الدكتور، ما معنى دكتور؟ أي معه ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، ولسانس، ودبلوم، وماجستير، ودكتوراه، يدرس ثلاثاً و ثلاثين سنة، هذه تعني كلمة "د"، إذا قلت: مؤمن؟ المؤمن مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، إذا قلت: مؤمن أي يتمتع بحس جمالي عال جداً، المؤمن يتمتع بعلم عال جداً.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه.

إذا قلت: مؤمن أي يتمتع بأخلاق عالية.

المؤمنون يتعاونون ويتناصرون و يتناصحون ويتزاورون :

لذلك الآية الدقيقة حينما ذكر الله المنافقين والمنافقات قال:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

أما حينما ذكر:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

هاجر، انتقل من مكان إلى مكان، أو من موقف إلى موقف، أو من منطلق إلى منطلق، أو من قيم إلى قيم، هناك نقلة نوعية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

بذلوا جهداً كبيراً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنفال الآية:72]

الإخلاص:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

آويت أهل الإيمان، نصرتهم، وقفت معهم، آويتهم ولو كانوا ضعافاً وفقراء، لأن أهل الدنيا يحتفلون بالأقوياء والأغنياء، بينما أهل الإيمان يحتفلون بالفقراء والضعفاء،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)
(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية:72]

أي الكل للواحد، والواحد للكل، يتعاونون، يتناصرون، يتناصحون، يتزاورون، يتبادلون، و قد ورد:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ، والمتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبطهم عليها النبيون يوم القيامة))

[أخرجه الموطأ عن أبي إدريس الخولاني]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية : 72]

من لم يأخذ من المؤمنين موقفاً عملياً فكلامه لا يقدم و لا يؤخر :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية:72]

ما أخذ موقفاً عملياً، لم يصل لله، ولم يقطع لله، ولم يعط لله، ولم يمنع لله، ولم يرض لله، ولم يغضب لله،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ما يتحرك، ما قدم شيئاً، أنت إذا قلت للشمس وهي ساطعة: يا لها من شمس ساطعة، ماذا فعلت؟ ما قدمت شيئاً، هي ساطعة شئت أم أبيت، ذكرت هذا أم لم تذكره، أحببت أم كرهت هي ساطعة، لكن ماذا فعلت من أجل أن تتمتع بهذه الأشعة؟ هل عرضت نفسك لها؟ إنسان معه مرض جلدي، وشفاءه بالشمس فقطن في بيت تحت الأرض و قال: يا لها من شمس ساطعة، وهو بالقبو يسكن تحت الأرض، هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر فما لم ينتفع من هذه الأشعة لا يعد كلامه عنها له قيمة إطلاقاً.

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

ما تحرك، ما تقدم، ما بذل، ما ضحى، ما وصل، ما قطع، ما رضي، ما غضب، هو يعيش بعالمه الخاص، بعامله المادي، لكن يتعاطف مع المسلمين، يقول، عنده خلفية إسلامية، عنده أرضية إسلامية، عنده نزعة إسلامية، عنده اهتمامات إسلامية، عنده فكر إسلامي، و لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر.

إن لم يؤمن المؤمن و ينصر أخاه ستكون هناك فتنة ينتج عنها شقاء كبير :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية: 72]

الشاهد ليس هنا، الآية دقيقة جداً جداً جداً:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية: 73]

يتعاونون، ويتآمرون، ويخططون، ويسهرون إلى الفجر وهم يخططون للمؤمنين

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الشاهد الخطير:

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

[سورة الأنفال الآية: 73]

هذه الهاء على من تعود؟ تعود على آية سابقة بأكملها، أي

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا ما آمنتم، ولا هاجرتم، ولا جاهدتم بأموالكم، ولا جاهدتم في سبيل الله، ولم تؤووا، ولم تنصروا إن لم تفعلوا هذا،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال]

تعاون الطرف الآخر و تكاتفه لإضعاف المسلمين و إذلالهم :

يعاني المسلمون اليوم من فتنة في الأرض يمسي المرء مؤمناً ويصبح كافراً، يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

يجتمعون، يخططون، يتآمرون لضرب العالم الإسلامي، لاستنزاف خيراته، لأخذ ثوراته، للإيقاع بين أطرافه،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

الهاء تعود على:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)

إن لم تؤمن، إن لم تهاجر، إن لم تجاهد بمالك ونفسك، إن لم تؤو، إن لم تنصر

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

وقد حدثنا النبي عن آخر الزمان: يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، موتٌ كعقاص الغنم:

((يَوْمٌ لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ؟ وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ؟))

[مسلم عن أبي هريرة]

بالخمسينات حينما يحكم على الإنسان بالإعدام تزحف المدينة بأكملها كي ترى إعدامه، اليوم هناك أربعون، خمسون، ستون شخصاً يموتون في اليوم الواحد، أخبار القتل وسفك الدماء شيء غير معقول إطلاقاً.

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

تفعلوا الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال، والنفس، والإيواء، والنصر،

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

ذكرت هذه الآيات من سورة الأنفال والتي توضح معنى:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتآمرون، يخططون.

الآن هم :

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ)

((كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

وصف المؤمنين والمنافقين والكفار له هدف كبير جداً :

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

لا ينفق، بخيل، ينفق على شهواته مبالغ فلكية، فإذا دُعي إلى صدقة أو زكاة يمسك يده، إن أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإن منعوه منعوه بخلاً وتقطيراً، هذه الصفات إذا ذكرها الله في كتابه الكريم من أجل أن نخاف، لعل بعض هذه الصفات تقع علينا، دائماً وأبداً في القرآن الكريم إذا جاء وصف المؤمنين لتكون هذه الأوصاف مقياساً لك، هل أنت من هؤلاء؟ هل أنت من إذا ذكر الله وجل قلبك؟ هل إذا ذكرت عليك آياته ازددت إيماناً؟ فوصف المؤمنين والمنافقين والكفار له هدف كبير جداً، ما هذا الهدف؟ من أجل أن تقيس نفسك، هذه الأوصاف للمؤمنين مقاييس لأهل الإيمان، أوصاف الكفار تعريف بهم، أوصاف المنافقين تعريف بهذه الفئة الخطيرة، هذه لها موقف مزدوج، لها ظاهر ولها باطن، دائماً الكافر أعلن عن كفره، وعندما أعلن عن كفره أعطانا مناعة ضده، والمؤمن واضح، أما المنافق فأوهمنا أنه مؤمن، فتعاملنا معه فغدر بنا، الكافر واضح، والمؤمن واضح، أما المنافق فله ظاهر وله باطن، له علانية وله سر، له شيء معلن وشيء غير معلن، فهذه الشخصية المزدوجة أوقعتنا في حرج شديد، نال مكاسب المؤمنين وهو في الحقيقة مع الكفار.

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة البقرة]

فلذلك:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)

لذلك من اشتكى إلى مؤمن كأنه اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنه اشتكى على الله.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

تسمية المنكر منكراً لأن الفطر السليمة تنكره بداهة من دون توجيه :

قد يقول أحد الأخوة المشاهدين:

(أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

الله جعله غافلاً، لا، وزن أفعل في اللغة، افتح المعاجم، وجدناه غافلاً وليس جعلناه غافلاً، الفرق كبير جداً بين وجدناه غافلاً، أو جعلناه غافلاً، أغفلنا قلبه أي وجدناه كذلك،

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

إذاً:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

يتعاونون، يتفقون، يخططون، يتآمرون

(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ)

لماذا سمى الله المنكر منكراً؟ لفتة لطيفة جداً، لأن الفطر السليمة تنكر المنكر بداهة من دون توجيه، من دون تعليم، المنكر مرفوض، الذي يغش الحليب بالماء هل يفعل هذا أمام الناس؟ لا، في غرفة أخرى، يفعلها في خلوة، بالفطرة.

حتى القطة قال بعضهم: إن أطعمتها قطعة لحم تأكلها أمامك، فإن خطفتها تأكلها بعيداً عنك، هناك فطرة تنطبق مع الشرع مئة بالمئة.

كل شيء أمرنا الله به متوافق توافقاً تاماً مع الفطرة :

الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

[سورة الروم الآية: 30]

الشيء الرائع بهذا الدين أن كل شيء أمرك الله به متوافق توافقاً تاماً مع فطرتك، فالذي أمرك الله به ترتاح له، وهذا تفسير السعادة العظمى التي تصيب المؤمن حينما يصطلح مع الله عز وجل.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

من عرف الله عرف سرّ وجوده و غاية وجوده :

أيها الأخوة الكرام،

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

بخلاء، لا ينفق، ينفق إسرافاً وتبذيراً وإذا منع يمنع بخلاً وتقطيراً.

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)

بعضهم قال: الإنسان حينما ينسى الله نسيان الله ينسيه مهمته في الدنيا، أنت إذا عرفت الله عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، أنت إذا عرفت الله عرفت طاعته، عرفت جنته، عرفت ناره، أما إذا غفلت عن الله فغفلت عن كل شيء، المعنى الدقيق أن نسيان الله أنساهم أنفسهم، أنساهم أنهم المخلوق الأول، الله عز وجل قال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

لما قبل حمل الأمانة كان المخلوق الأول عند الله،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

لأنه قبل حمل الأمانة سخر له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

لأنه قبل حمل الأمانة أودع فيه الشهوات، ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

بالمناسبة: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

باب التوبة مفتوح على مصراعيه :

لذلك:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ)

هذه الصفات الإنسان إذا قرأها وراجع نفسه مراجعة دقيقة، فوجد نفسه ينطوي على واحدة منها الباب مفتوح للتوبة، ما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة من أمرك، الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب الإنسان وهو مطبق لمنهج رسول الله، الآن لو فرضنا لا يطبق هذا المنهج، معه بحبوحة ثانية:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

(نَسُوا اللَّهَ)

نسيانهم لله عز وجل أنساهم أنفسهم.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

إنسان منحرف فسقت التمرة نزعت جلدها من لبها أي الفاسق خرج عن منهج الله.

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

بالمناسبة ما من خروج على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، ويقول لك: استعمار، وصهيونية، والحقيقة أكبر خطر يواجه المسلمين جهلهم بالله، حينما جهلوا بربهم ما عرفوا لماذا جاء الله بهم إلى الدنيا، ما عرفوا سر وجودهم، ما عرفوا غاية وجودهم، ما عرفوا ما عند الله من عطاء كبير، هذا جاهل، وهذا الجهل أوقعه بالشقاء، لأن مشكلة أهل النار في النار بآية واحدة:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

معناها أزمة علم، لأن الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، غذاء القلب الحب، غذاء الجسم الطعام والشراب، فكل إنسان منطلق من حبه لذاته، من حرصه على سلامة وجوده، وحرصه على كمال وجوده، وحرصه على استمرر وجوده، ينبغي أن يطيع الله عز وجل، فإذا نسي سر وجوده، وغاية وجوده، كان جاهلاً ولو كان يحمل أعلى شهادة، قلت قبل قليل: فرق كبير بين الذكاء والعقل، قد تكون ذكياً ولست عاقلاً، لأن الذكاء متعلق بالجزئيات، قد يحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، لأنه ما عرف الله، وما عرف منهجه، وما عرف ماذا بعد الموت فهو ليس بعاقل.

الحكمة من تقديم المنافق على الكافر :

لكن الله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

[سورة التوبة]

هناك تقديم وتأخير، لِمَ لم يبدأ الله بالكفار؟ الكافر واضح يعلن عن كفره، والمنافق له مظهر إسلامي، قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ)

قال: لأن الكافر لما أعلن عن كفره أعطاك مناعة ضده، فلم تستجب له إطلاقاً، أما المنافق فيصلي معك أحياناً.

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة الآية: 54]

معنى هذا أنه يصلي، لذلك:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

((يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)

قدمهم على الكفار لأنهم غشوا المؤمنين، لهم مظهر إسلامي وهم في الحقيقة كفار، فقدمهم على الكفار وعدهم:

(نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

سيدنا علي رضي الله عنه يقول: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية ".

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)

كأن يقول قائل: الوعد للخير، أما الوعيد فللشر، بحسب اللغة وعدهم النار، الله يتوعدهم بجهنم، فلان خسيس بخيل- ولكنك قد تتوهم أنه سيمدحه - لكنه حقير، هذا اسمه تأكيد الذم ما يشبه المديح، أو فلان كريم ومفضال إلا أنه شهم ذو مروءة، هذا أسلوب سلكه النبي الكريم، ذكره في نص دقيق قال:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

قريش أفصح قبيلة في العرب.

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))

قال عنه علماء البلاغة: أسلوب تأكيد الذم بما يشبه المديح، أو أسلوب تأكيد المديح بما يشبه الذم، هنا وعد، كأن بعد الوعد هناك جنة فإذا بها نار، هناك مفاجأة تعمل صدمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

الإنسان ما لم يغرغر باب التوبة مفتوح أمامه :

مرة ثانية هذه الأوصاف التي يأتي ذكرها في القرآن الكريم للمؤمنين مثلاً، أو للكفار، أو للمنافقين، هي في الحقيقة مقاييس لنا جميعاً، فإذا المؤمن قرأ آيات المؤمنين وشعر أن هذه الآيات تنطبق عليه هو في نعمة كبيرة أما إن كان هناك آية لا تنطبق عليه فالباب مفتوح، القلب ينبض، ما دام القلب ينبض فهناك بحبوحة كبيرة جداً، صحح خطأك، وإذا قرأ إنسان آية عن المنافقين وجد فيها صفة تنطبق عليه، الباب مفتوح أيضاً تب منها، الإنسان ما لم يغرغر باب التوبة مفتوح، فما دام باب التوبة مفتوح:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

فالباب مفتوح، وهناك كثير من القصص تؤكد هذا المعنى، سمعت قصة كنت في بلد عربي يبدو أن هناك إنسان ثقافته محدودة جداً، عنده أرض إلى جانب المدينة، تتوسع توسعاً كبيراً، فلما توسعت هذه المدينة اقتربت من أرضه، فتضاعف ثمنها مئات الأضعاف، فباعها إلى مكتب تجاري، هذا المكتب خبيث جداً فاشتراها بربع ثمنها، صاحبها ليس عنده هذه الثقافة التجارية العميقة، أنشؤوا بناء من اثني عشر طابقاً، في مدينة كبيرة جداً، وفي بلد عربي مهم، هم شركاء ثلاث، فالأول وقع من سطح هذا البناء فنزل ميتاً، والثاني داسته سيارة، فبقي الثالث، فهذا الثالث خاف على مصيره فبحث عن هذا الأعرابي الذي باعه الأرض وأخذها منه بربع ثمنها ونقده ثلاثة أضعاف حصته، فقال له هذا البدوي: ترى أنت لحقت حالك.

الإنسان أحياناً يلحق حاله إذا كان عنده غلط إما في كسب المال، أو في إنفاق المال، أو في علاقته مع أقاربه، أو علاقته مع زوجته، أو علاقته مع أولاده، فالبطولة أن الإنسان ما دام قلبه ينبض فباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر طبعاً:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (49-70) : تفسير الآيات 69 - 70، الفرق بين اللذة والسعادة، الخسارة الكبيرة عند إحباط العمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان كائن متحرك :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة التوبة، ومع قوله تعالى:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الإنسان كائن متحرك، ما الذي يحركه؟ حاجته إلى الطعام والشراب، حفاظاً على وجوده كفرد، وما الذي يحركه؟ حفاظه على بقاء النوع عن طريق الزواج، وما الذي يحركه؟ حفاظه على بقاء الذكر عن طريق التفوق، فحاجته إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجوده كفرد، وحاجته إلى طرف آخر - إلى الزواج- حفاظاً على بقاء النوع، وحاجته إلى بقاء ذكره حفاظاً على مكانته، هذه الدوافع الثلاث تحركه فهو كائن متحرك.

الناس رجلان لا ثالث لهما :

أما هذه الحركة فإن كانت وفق منهج الله سلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإن كانت هذه الحركة بخلاف منهج الله شقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذه حقيقة دقيقة جداً، تؤكدها آيات كثيرة في قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء كثمن للجنة:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق بالدنيا وكفر بالآخرة فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، لن تجد نموذجاً ثالثاً، هذا التقسيم القرآني لبني البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم.

الله عز وجل منح البشر حظوظاً متباينة وزعها توزيع ابتلاء :

قال تعالى:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

أي الله عز وجل حينما منح الحظوظ للبشر، هذه الحظوظ أي نصيبه من الوسامة، نصيبه من الجمال، نصيبه من الغنى، نصيبه من القوة، نصيبه من التفوق العقلي، هذه الحظوظ الذي يمنحها الله لبني البشر النقطة الدقيقة فيها أنها تمنح في الحياة الدنيا ابتلاءً، توزع الحظوظ على البشر ابتلاءً، أي أنت ممتحن فيما أعطاك الله، أعطاك مالاً أنت ممتحن في هذا المال، أعطاك قوة أنت ممتحن بهذه القوة، أعطاك جاهاً أنت ممتحن بهذا الجاه، فكل شيء أعطاك الله إياه من دون استثناء مادة امتحانك مع الله.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

علة وجودك في الدنيا الابتلاء لأن الإنسان حينما:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:72]

لما قبل حمل الأمانة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية:13]

جاء به إلى الدنيا كي يتعرف إلى الله، وكي يتقرب إليه، ليكون هذا التعرف والتقرب ثمناً لجنة ربه، هذه الحكمة التي أرادها الله من مجيئنا إلى الدنيا.

الامتحان علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

الإنسان في الدنيا حينما يغادرها يندم على شيء واحد هو العمل الصالح، يؤكد هذا قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُون * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

إذاً الله عز وجل منح البشر حظوظاً متباينة، هذه الحظوظ المتباينة التي وزعها الله على بني البشر وزعها توزيع ابتلاء، أي امتحان.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية:2]

أنت ممتحن بمالك، ممتحن بصحتك، ممتحن بزوجتك، ممتحن بأولادك، ممتحن بقوتك، ممتحن بضعفك، ممتحن بغناك، ممتحن بفقرك، علة وجودك في الدنيا الابتلاء، أي الامتحان.

الموت ينهي كل شيء :

الله عز وجل في الآية التاسعة والستين من سورة التوبة يقول:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

لذلك الموت ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، كل هذه الحظوظ في الدنيا سوف تنتهي، لكن الله سبحانه وتعالى امتحنك بها، فماذا تفعل؟ الآية الكريمة:

(فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

[سورة الأعراف]

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ)

ومع ذلك أهلكهم الله، لأن:

كل مخـلوق يـموت ولا يبقـى إلا ذو الـعزة والـجبروت

***

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

كل ابن أنثى و إن طـالت سلامته يوماً على آلـة حدباء مـحمولُ

فإذا حملـت إلـى القبور جنـازة فاعلم بأنـك بعـدها مـحمولُ

***

إذاً من أدق أدق تعريفات الإنسان التي ذكرها الإمام الحسن البصري أن الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، فأنت بضعة أيام إما أن تكون في طاعة أو في معصية، إما أن تكون في قرب من الله أو في بعد عنه، أما أن تكون مع الخيرين، أو مع الشريرين، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، هؤلاء الأقوياء جاء الموت فأخرجهم من الدنيا، هؤلاء الأغنياء جاء الموت فأخرجهم من الدنيا، إذاً:

كل مخـلوق يـموت ولا يبقى إلا ذو الـعزة والـجبروت

***

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

بطولة المؤمن أن يعيش المستقبل :

أيها الأخوة الكرام،

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

سيدنا عمر بن عبد العزيز فيما يروى عنه أنه كان إذا دخل مقر عمله كل يوم يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

والآية بليغة جداً:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

وجاء الموت أنهى قوتهم، كانوا أغنياء جاء الموت ألغى غناهم، كانوا متماسكين جاء الموت فرق هذا التماسك.

إذاً البطولة الآن لا أن تعيش حاضرك، ولا أن تعيش ماضيك، لكن البطولة أن تعيش مستقبلك، ومعظم الناس يعيشون ماضيهم أو يعيشون حاضرهم، أما المستقبل فلا يفكرون فيه، مع أن أخطر زمن بالنسبة للإنسان هو المستقبل، لماذا؟ لأن في المستقبل مغادرة الدنيا، المغادرة تعني من قصر إلى قبر، من غنى إلى قبر، من مكانة اجتماعية إلى قبر، هذا النقلة المخيفة من دنيا عريضة إلى قبر لا يزيد عن أمتار، فلذلك البطولة في المؤمن أنه يعيش المستقبل ويعيش هذه اللحظة.

مرة طالب حقق الدرجة الأولى على بلد بأكمله، فأجروا معه لقاء صحفياً فسأله: ما سرّ هذا التفوق؟ قال: لحظة الامتحان لم تغادر ذهني ولا ثانية، وأنا أقول: والمؤمن الموفق لحظة مغادرة الدنيا لا تفارق ذهنه إطلاقاً.

الموت ينهي كل شيء ويبقى العمل الذي يحاسب الإنسان عليه :

ماذا أقول لله إذا سألني عن هذا السؤال؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

هذا المال ممَ اكتسبته؟ فيمَ أنفقته؟ هذا العلم ماذا عملت به؟ هذا الزوجة لِمَ طلقتها؟ هذه الشراكة لِمَ عقدتها؟ هذه الرحلة لِمَ قمت بها؟ هناك سؤال دقيق جداً، فلذلك الله عز وجل يبين لنا ولو كنت قوياً،

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً)

ولو كنت غنياً، ولو كنت عظيماً، ولو كنت ذا شأن، الموت ينهي كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وغنى الغني، وحكمة الحكيم، ينهي كل شيء ويبقى العمل الذي تحاسب عليه.

قال:

(كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

كما قال الله عز وجل:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف الآية:46]

زينة، لكن الآية الدقيقة جداً:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف الآية:46]

في قوله تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ)

عرف المال والبنون، كيف عرف المال والبنون؟ بأنهما زائلان، فلذلك الإنسان مهما علا شأنه، مهما تمتنت علاقته بما حوله، هذه العلاقة سوف تنتهي عند الموت، فالذي تحبه إما أن تفارقه أو أن يفارقك، الذي تحرص عليه إما أن تفارقه أو يفارقك.

الحياة الدنيا محدودة تنتهي بالموت بينما الحياة الأبدية لا نهاية لها :

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

الخلاق هنا حظوظ من الدنيا، إنسان وسيم، إنسان قوي، إنسان غني، إنسان بمنصب رفيع، هذا الخلاق يعني الحظوظ من الدنيا،

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ)

لكن الفرق كبير بين حياة محدودة وبين حياة متصلة، الحياة الدنيا محدودة تنتهي بالموت، بينما الحياة الأبدية لا نهاية لها، ولا بد من تعريف قريب لهذا الأبد الذي جاء ذكره في القرآن الكريم كثيراً، الأبد لو تصورنا رقم واحد في الأرض وأصفاراً، إلى أين؟ إلى مسافة معروفة، إلى الشمس، كل ميلي صفر، أول ثلاثة أصفار ألف، ثاني ثلاثة أصفار مليون، ثالث ثلاثة أصفار ألف مليون، رابع ثلاثة

أصفار مليون مليون، لو تابعنا الأصفار إلى الشمس ما هذا الرقم؟ أكبر رقم تتصوره، وليكن واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، وبين الأرض والشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر، وكل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، فالدنيا بكل ما فيها من أموال، من متع، ومن مباهج الدنيا إذا نسبت إلى الآخرة فهي صفر، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث قال:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اركب البحر أمسك إبرة، مخيط، اغمسه في ماء البحر وانظر بمَ يرجع؟ المحيط الهادي في بعض الأماكن العمق فيه يقدر باثني عشر ألف متر- هذا خليج مريانا- فهذه البحار الخمس، المحيطات، الهادي، والأطلسي، والمتوسط، والشمالي، والجنوبي، وبحر العرب لو غمست في أحد البحار إبرة ونزعتها بمَ ترجع من ماء البحر؟ هذا الذي أخذته من مياه البحر هو نسبة الدنيا إلى الآخرة، فلذلك الله عز وجل يذكر هؤلاء:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

فالبطولة ليس وضعك في الدنيا، البطولة ما تنتهي إليه حياتك في الدنيا، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها.

حينما رأى النبي جنازة قال:

((مستريح، أو مُسْتَراح منه، فقالوا: يا رسول الله ما المستريحُ وما المستَراح منه؟ فقال: العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا، والعبد الفاجرُ يستريح منه العبادُ والبلادُ والشجر والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

فبين أن تكون مستريحاً من الموت وبين أن يكون الإنسان مستراحاً منه عند الموت؟ فهذا الذي شرد عن الله كان قوياً، أو كان غنياً، أو كان ذا شأنٍ في المجتمع فلما جاء الموت أنهى كل هذه الخصائص.

اللذة و السعادة :

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا)

فرق كبير بين اللذة والسعادة، فرق كبير جداً، قالوا: اللذة حسية، أن تأكل طعاماً طيباً، أن تسكن في بيت واسع، أن تطل من هذا البيت على مناظر خلابة، أو تكون لك زوجة جميلة، فاللذائذ حسية، معنى اللذائذ حسية أي تحتاج إلى أشياء ثلاث، تحتاج إلى وقت، وإلى مال، وإلى شباب- قوة-، ولحكمة أرادها الله عز وجل دائماً هذه الأشياء الثلاث تفتقد واحداً منها، ففي بداية الحياة الصحة جيدة، والوقت موجود لكن لا يوجد مال، إذاً لم تتحقق شروط اللذائذ أو مباهج الدنيا، في منتصف الحياة الصحة موجودة، واللذائذ

موجودة لكن لا يوجد وقت، مشغول بأعماله، في خريف العمر هناك وقت، ومال لكن لا يوجد صحة، لحكمة بالغة بالغةٍ الإنسان إذا شرد عن الله أسباب اللذائذ يفتقد واحداً منها دائماً، أما إذا عرف الله فهو يعيش لا باللذائذ ولكن في سعادة، السعادة تنبع من الداخل، أما اللذائذ فتأتي من الخارج، السعادة تحتاج إلى اتصال بالله، أما اللذائذ فتحتاج إلى أموال، السعادة تحتاج إلى اتصال بالله بأي عمر كنت، أما اللذائذ فتحتاج إلى مال بعمر معين، لذلك الفرق كبير جداً بين اللذائذ وبين السعادة، السعادة تنبع من الداخل، ولا حدود لمستوياتها، فالله عز وجل حينما:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هذا الإنسان مصمم إن صحّ التعبير تصميماً لا نهائياً، هو مصمم بمعرفة الله، والقرب منه، مصمم لجنة عرضها السموات والأرض، لذلك هذا الإنسان لا يملأ نفسه إلا معرفة الله عز وجل، أما إذا اختار هدفاً مادياً فهذا الهدف هو أكبر منه بكثير، إذا اختار هدفاً مادياً سرعان ما يمل منه ويتركه، هذه حقيقة ثابتة اسأل الأغنياء ملوا من المال، اسأل الأقوياء ملوا من مناصبهم، اسأل كل فئة في الأرض، طبيعة هذه الحياة الدنيا ما سمح الله لها أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، وإذا كان هناك معصية مع السعادة المتناقصة فهناك كآبة، كآبة المعصية، ما سمح الله للدنيا أن تمدك بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، الإنسان لو اشترى بيتاً واسعاً جداً أسبوع شهر يتمتع به تماماً لكن بعد حين أصبح شيئاً عادياً، لو اقتنى مركبة بعد حين أصبحت شيئاً عادياً، إذاً الآية الدقيقة:

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً)

القوة قوة منصب أحياناً، والأموال، والأولاد زينة الحياة الدنيا.

من كان رأسماله كله في الدنيا فالموت ينهي له كل ما يملك :

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)

فاستمتع استمتاعاً كاملاً، يا ترى هذه المتعة إلى متى؟ إلى الموت؟ إلى مغادرة الدنيا؟ لكن المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً منتظماً، ويبقى صاعداً حتى إذا مات، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد، بينما أهل الدنيا قد يكون خطه البياني صاعداً أيضاً صعوداً حاداً، لكن بعد هذا الصعود الحاد هناك هبوط مريع، هو الموت ، الموت ينهي كل شيء، فالإنسان إذا كان كل رأسماله في الدنيا فالموت ينهي كل ما يملك، إذا كانت كل مكتسباته وخصائصه ورأسماله في الدنيا الدنيا زائلة، أما المؤمن فسار في طريق الحق، فخطه البياني صاعد صعوداً مستمراً، لذلك:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا)

خضتم في الدنيا، في أعمالها، في أموالها، في مباهجها، في لذائذها، في مسراتها،

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

إحباط العمل :

أيها الأخوة الكرام، الخطورة الكبيرة جداً أن يحبط العمل، ما معنى أن يحبط العمل؟ إحباط العمل أن ينحط العمل، بدل الزواج الزنا، بدل الكسب المشروع الكسب الغير مشروع، ما من شيء أودعه الله فيك، بل ما من شهوة أودعها الله فيك إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فحينما يستمتع الإنسان بشيء محرم الموت ينهي هذه المتعة، ويبقى وزرها، وحينما يجهد الإنسان في طاعة الله، ويأتي الموت، الموت أنهى هذا الجهد الكبير، وبقيت السعادة التي وعده الله بها.

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

المعنى الأول لإحباط العمل أنه أصبح عملاً منحطاً بخلاف منهج الله، أصبح عملاً عدوانياً، بنيت مجدك على أنقاض الآخرين، بنيت عزك على ذلهم، بنيت قوتك على ضعفهم، بنيت غناك على فقرهم، هذا نوع من أنواع إحباط العمل، والشيء الثاني حتى لو كان عملاً عظيماً بمقاييس الأرض لأن صاحبه أراد العز، والمال، والجاه ليس غير، هذا العمل محبط أيضاً، لأنه فقد قيمته الأخروية، فالعمل يحبط مرتين، مرة إذا أصبح عملاً سيئاً بمقاييس الشرع، ومرة إذا كان هذا العمل لغير الله.

العمل يقبل عند الله بشرطين؛ الإخلاص و الصواب :

لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النحل الآية: 19]

متى يرضى الله عن العمل؟ قال بعض العلماء: إذا كان خالصاً وصواباً، صواباً ما وافق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، فالعمل يقبل عند الله بشرطين، إذا كان خالصاً وإذا كان صواباً، خالصاً ما ابتغي

به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة، فأي عمل يخالف منهج الله عز وجل لو ابتغيت به وجه الله لا يقبل، وأي عمل ولو كان عظيماً إن لم تبتغ به وجه الله لا يقبل، فهذه قاعدة دقيقة جداً استنبطت من قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

والله يرضى عن العمل إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة.

الخسارة الحقيقية خسارة الآخرة :

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

ما الخسارة؟ إذا الإنسان فقد رأسماله فهو خاسر، والخسارة لا تعرف الألم الذي تورثه إلا من ذاقها، الخسارة مؤلمه جداً، قد يخسر الإنسان رأسماله، قد يخسر مكانته، قد يخسر منصبه، قد يخسر زوجته، قد يخسر أولاده، لكن الخسارة الحقيقية:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الشورى الآية: 45]

حينما تشعر أن الله عز وجل خلقك لجنة عرضها السموات والأرض، وأنت جئت إلى الدنيا، ولهوت بالدنيا، ولم تعبأ لمنهج الله لك، ثم جاء ملك الموت، فإذا أنت بعيد عن منهج الله، وعن أسباب دخول الجنة، هذه الخسارة الحقيقية، لذلك ورد في بعض الآثار النبوية:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

عذاب الندم عذاب لا يحتمل، إذاً:

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

الفلاح و النجاح :

دائماً وأبداً ينبغي أن تحكم مقاييس ربنا جلّ جلاله، الله قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون]

فأنت إذا فتحت القرآن على قد أفلح هي بضعة آيات، والفلاح كما تعلمون ليس كالنجاح، نجاح محدود، نجاح في كسب المال، نجاح في تسلم منصب رفيع، نجاح في الزواج، لكن الفلاح نجاح في الدنيا ونجاح في الآخرة، نجاح في العلة التي خلقت من أجلها، هذا هو الفلاح، لذلك الفالحون والمفلحون في القرآن لها معان دقيقة جداً.

بطولة المؤمن أنه يتعظ بغيره :

الآن الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[سورة التوبة]

الإنسان أحياناً يقرأ آية في أمر هذا الأمر يقتضي أن تأتمر، يقرأ آية فيها نهي هذا الأمر يقتضي أن تنتهي، تقرأ آية ذكر من آيات الله هذه الآية تقتضي أن تتفكر في خلق السموات والأرض، ولكن لو قرأت عن أمة سابقة أهلكها الله تتعظ، لذلك بطولة المؤمن أنه يتعظ بغيره، أما غير المؤمن فلا يتعظ إلا بنفسه.

بالمناسبة: أحياناً حينما تتعظ قد تكون هذه المعصية لم تبق لك ما تتعظ فيه، ما كل معصية بإمكانك أن تخرج منها، فلذلك من بدأ حياته بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.

الله عز وجل ضرب قوم عاد مثلاً على الإنسان أن يتعظ منه :

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل ضرب على هؤلاء المفسدين في الأرض، هؤلاء الطغاة قوم عاد، الله عز وجل قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

عاد تفوقت في كل المواطن، تفوقت في شتى المجالات،

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

تفوقت في شتى المجالات، هناك آية ثانية:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عمراني.

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عسكري، وهناك تفوق علمي.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

[سورة العنكبوت]

تفوق عمراني:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

تفوق صناعي:

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

تفوق عسكري،

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

وهناك شيء آخر فيه عجرفة:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

ومع هذا التفوق في شتى المجالات، في المجال العلمي، والعمراني، والصناعي، والعسكري كان هناك غطرسة، واستعلاء، وكبر،

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

بطولة الإنسان أن يتعظ فيما يأتي في القرآن الكريم من قصص :

شيء آخر: هؤلاء القوم قوم عاد ماذا فعلوا؟ قال:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر]

وكأن هؤلاء القوم كانوا نموذجاً للأمم الطاغية الباغية التي استعلت، وطغت، وبغت، ونسيت ربها جل جلاله.

فيقول الله عز وجل مذكراً:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

لذلك الإنسان أحياناً يغتني فيطغى، والآية الكريمة:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق]

حينما يتوهم الإنسان أنه غني، وأن هذا المال تنحل به كل المشكلات، ونسي الله عز وجل، أنا أقول من هو الغبي؟ الغبي من لم يدخل الله في حساباته، قال بعضهم: عرفت الله من نقض العزائم، فهؤلاء قوم عاد طغوا في البلاد، أكثروا فيها الفساد، تفوقوا بعلمهم، تفوقوا ببنائهم، تفوقوا بصناعتهم، تفوقوا بقوتهم العسكرية، طغوا في البلاد، أكثروا فيها الفساد، فالله عز وجل

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

فالبطولة أن تتعظ فيما يأتي في القرآن الكريم من قصص.

الدنيا لمن يتقنها ويحسن إدارتها أما الآخرة فخاصة بالمؤمنين :

شيء آخر، والنقطة الدقيقة جداً أن الله عز وجل، الدنيا يعطيك بالربوبية كل حاجاتك بصرف النظر عن إيمانك، أي الإنسان، يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويسافر، ويتاجر، ويربح، ويستمتع بالحياة، هذا منهج من مناهج الله عز وجل، فالدنيا من ينالها؟ القوي أحياناً، أو الذي أتقنها، لكن الآخرة لعباده المؤمنين، فالدنيا يمكن أن ينالها القوي، بل لحكمة أرادها الله أن الذي أتقن الدنيا ينالها، لذلك إن الله أحياناً ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة، هذا كلام دقيق جداً، الدنيا لمن يتقنها، الدنيا لمن يحسن إدارتها، ينالها، أما الآخرة فوعد صادق خاصة بالمؤمنين.

فلذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى رحمة منه يرسل الرسل والأنبياء ليبينوا لهؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل منهجهم الصحيح، فمن يتعظ له الجنة، ومن يتجاهل هذه الرسالات له عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

لذلك عطاء الربوبية لكل البشر، مؤمنهم وكافرهم، أما عطاء الإلوهية فللمؤمنين وحدهم، أي المؤمن وحده هو الذي ينال الآخرة بأعلى درجاتها.

مثلاً الأهرامات في مصر، حدثني أخ كريم قرأ عنها الكثير، قال: هناك نافذة في الأهرام، زاوية هذه النافذة مدروسة دراسة مذهلة، بحيث أن الشمس تعبر خلال هذه النافذة في العام كله يوم واحد، يوم موت فرعون، لا يوجد الآن إمكانية أن تصمم نافذة بزاوية معينة، بحيث في يوم واحد فقط الشمس تعبرها إلى داخل الهرم، فهؤلاء الذين كانوا قبلنا كانوا أقوياء جداً، ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل، لذلك:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل :

أيها الأخوة الكرام، البطولة لا أن تعيش حاضرك، أن تعيش المستقبل، والمستقبل في مغادرة الدنيا، وكل هذه الآيات التي قرأت في هذا اللقاء الطيب من أجل أن تتجه إلى الآخرة، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك عادل، والآخرة فيها أبد، والأبد مهما شرح يصعب أن يوضع في مفهوم بين يدي الناس، الأبد يعني ما لا نهاية، وأكبر رقم على وجه الأرض إذا نسب للانهاية كان صفراً.

أيها الأخوة الكرام، الآيات التي قرئت في هذا اللقاء الطيب

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ)

أي بالحظوظ التي وهبكم الله إياها.

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا)

خضتم في وحل الدنيا

(كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

العمل فقد قيمته إن كان للدنيا، وفقد قيمته إن كان سيئاً، الإحباط نوعان إما أن العمل يخسر الثواب الذي وعد الله به، أو أن يكون منحطاً فعلاً.

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

وكلمة:

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

هذا نفي الشأن وهو من أشد أنواع النفي في القرآن الكريم، أي مستحيل وألف ألف مستحيل لا يظلمهم، ولا يرضى أن يظلمهم، ولا يمكن أن يظلمهم، فكل أنواع الأفعال التي تنفى بهذه الصيغة أفعال قطعية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (50-70) : تفسير الآيات 71 - 72، المؤمنون أولياء مع بعضهم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-04-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

التوازن أسلوب تربوي رائع يجعل الإنسان بين الرجاء والخوف :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخمسين من دروس سورة التوبة، ومع قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، من حكمة الله جلّ جلاله في كتابه العزيز أنه إذا حدثنا عن الكفار والمنافقين جاء الحديث عن المؤمنين، وهذا من باب أن تبحث عن هدف، وأن تبتعد عن شيء غير صحيح، فلابد من التوازن بين الإيجابيات والسلبيات، إن حدث عن حال أهل الجنة يأتي ذكر أهل النار، إن حدث عن المؤمنين يأتي ذكر الكفار المنافقين، فهذا التوازن أسلوب تربوي رائع لأنه يجعل الإنسان بين الرجاء والخوف.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

التغليب في القرآن الكريم :

لذلك أيها الأخوة بعد الحديث عن الكفار والمنافقين وكيف أنهم نقضوا عهودهم مع الله عز وجل، وانحرفوا عن منهج الله، وتعاملوا مع المؤمنين تعاملاً غير منطقي، وغير عادل يأتي ذكر المؤمنين، فالآية الكريمة الواحدة والسبعون هي قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ)

ولابد من وقفة متأنية، هذه الوقفة تبين أن في قواعد البلاغة موضوع اسمه التغليب، فإذا قلت مثلاً: دخل سبعون فتاةً وفتى، تقول: دخل، لا تقول دخلت، سبعون فتاة وفتى، ما دام هناك ذكوراً وإناثاً تكتفي باختيار الذكور كقاعدة نحوية، وقاعدة صرفية، إذاً التغليب عندما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الجمعة]

بمئات الآيات في القرآن الكريم، كل هذه الآيات المؤمنات معنيات قطعاً بهذه الآيات من باب التغليب، فإذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

حتماً إذا قرأت أخت كريمة مؤمنة هذا القرآن يجب أن تعتقد جازمة أن الله يخاطبها أيضاً على أساس التغليب، كأن تقول: الوالدان، الرجل لم يلد، لكن الوالدان تغليب صفة الأم كوالدة على الأب، وهكذا القمران، الشمس والقمر، فهذا التغليب قاعدة بلاغية.

فالله عز وجل في كل القرآن الكريم إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الآية تعني يا أيتها المؤمنات من باب التغليب.

لكن في بعض الآيات القليلة ولحكمة بالغةٍ بالغة جاء ذكر المؤمنين والمؤمنات:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: 97]

وآيات كثيرة من هذه الآيات هذه الآية.

مجتمع الإيمان مجتمع التواصي و النصح :

الله عز وجل ذكر المنافقين والمنافقات، وحدثنا عن أحوالهم، وذكر الكفار ثم يقول:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لو رجعنا قليلاً إلى الآية السابعة والستين:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة التوبة الآية: 67]

ما الفرق بين

(بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

-على المنافقين والمنافقات- و

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

- تعني المؤمنين والمؤمنات-؟ فرق كبير جداً،

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

هم متشابهون، لكن المؤمنين

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

المؤمن ينصح أخاه، إن رأى فيه خللاً يرشده إلى هذا الخلل، إن رأى ضعفاً في عبادته ينصحه بعبادته، فهناك تناصح مستمر، هذا التناصح يرقى بالمجتمع الإيماني، والدليل هناك آية دقيقة جداً قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

ما قال: أوصى بعضهم بعضاً،

(تَوَاصَوْا)

أنت توصي أخاك إذا رأيت فيه زللاً، وأخوك أيضاً يوصيك إن رأى فيك زللاً، فهناك تواص، هذا فعل مشاركة، مجتمع الإيمان مجتمع التواصي.

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

بل إن علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدليل قوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذه الخيرية لها علة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

لو أن المؤمنين قصروا فيما أمرهم الله به من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فقدوا خيرتهم، فإذا فقدوا خيرتهم أصبحوا أمة كأية أمة خلقها الله، أصبحوا أمة كأية أمة خلقها الله لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: 18]

فبين أن تكون أمة خيرة لها خصائص ولها ميزات وبين أن تكون أمة كأية أمة؟! فالمؤمنون إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فقدوا خيرتهم.

فلذلك الله عز وجل قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة المائدة الآية: 110]

لذلك النبي الكريم في بعض أحاديثه يقول لصحابته الكرام:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون - فتعجب أيضاً الصحابة- قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟- صعقوا أشد الصعق - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

تبدل القيم أخطر شيء بحياة المجتمع :

أخطر شيء بحياة المجتمع تبدل القيم، أنا أضرب مثلاً بسيطاً، تعلمنا في الجامعة في كلية الآداب أن أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

أما الآن فهذا البيت شعار كل إنسان، همه دخله فقط، ما دام دخله كبيراً، وبيته واسعاً، وزوجته جميلة، وحياته فيها متع كثيرة جداً، فهو الرابح، وهو الشاطر، بالمصطلح اليومي، فلذلك تبدل القيم خطير جداً، من هنا الله عز وجل يبين من هم المؤمنون، قال:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ)

مرة ثانية: المؤمنة قد تصل إلى أعلى درجة يصلها المؤمن، ونقول دائماً: النساء يساوون الرجال في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، هن مكلفات كما يكلف الرجال، وهن مشرفات كما يشرف الرجال، وهن مسؤولات كما يسأل الرجال، المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية.

ارتقاء مجتمع الإيمان من خلال التناصح :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

في الدرس قبل الماضي

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

أي متشابهون، أما المؤمنون:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص المؤمن، فإذا رأى في أخيه خلالاً، أو أخطاء، أو تقصيراً، بشكل مؤدب جداً، وفيما بينه وبين أخيه فقط ينصحه، هذا المؤمن يستجيب لهذه النصيحة فيرتقي بعمله، فمجتمع الإيمان يرتقي دائماً من خلال التناصح:

((المؤمنون بعضُهُم لبعض نَصَحة متوادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غشَشَة متخاذلون وإن قربت منازلهم))

[ابن حبان عن أنس بن مالك]

لذلك هناك رجل حلل سرّ المودة بين المؤمنين، لأن الله عز وجل قال المودة التي بين المؤمنين هذه من خلق الله عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

المودة بين المؤمنين:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم الآية: 21]

هذه مودة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم]

هذا الود إما أنه بينهم وبين الله، أو بينهم وبين المؤمنين.

الأمة الإسلامية إن تخلت عن رسالتها فقدت خيريتها :

أيها الأخوة،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تناصح، وتعاون، وتكاتف، وتناصر، هذا المجتمع يعلو، يقوى، يتماسك، يرقى باستمرار بسبب الأمر بالمعروف، وينبغي لهذه الأمة العربية التي شرفها الله بهذا الدين أن تعلم علم اليقين أن بالوقت الذي تتخلى فيه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفقد خيريتها، إذاً هي أمة كأية أمة والمعنى الدقيق:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون وفيهم رسول الله، ما معنى فيهم رسول الله، طبعاً في حياة النبي الآية لها معنى، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى الآية لها معنى آخر، أي ما دامت سنة رسول الله مطبقة في حياة المسلمين فهم في مأمن من عذاب الله،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذه المعاني،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الولاية، أنت وليّ، أي تنصحني، أنت وليّ ترشدني، تساعدني، تأخذ بيدي، تتعاون معي، التناصح، والتناصر، والتعاون، هذه صفات المؤمنين، فمجتمع المؤمنين يرقى، يرقى باستمرار، يرقى بأدب، أي لا يوجد تناصح علني، فيما بينك وبينه، ما دام هذا الأخ مؤمناً وأنت مؤمن رأيت فيه خللاً، تنصحه بينك وبينه، فيدع هذا الخلل، ولك أجر وله أجر.

إذاً مجتمع المؤمنين مجتمع ينمو، مجتمع يسمو، مجتمع يعلو، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أما الآية التي قبل درسين شرحت:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)

فمن شيء وأولياء شيء آخر.

الفطرة و الصِبغة :

هم:

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما المعروف؟ الله عز وجل أودع في فطرنا، أنت بالفطرة تحب الخير، تحب الصدق، تحب الأمانة، هذا بالفطرة، لكن هناك صبغة أيضاً، الفطرة أن تحب الأمانة ولو لم تكن أميناً، الفطرة أن تحب العدل ولو لم تكن عادلاً، الفطرة أن تحب الصدق ولو لم تكن صادقاً، أما الصبغة فأن تصطبغ نفسك بالصدق، والعدل، والرحمة، فالصبغة نتيجة حتمية لاتصالك بالله، لأن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، الله عز وجل حينما أثنى على نبيه الكريم، هو نبي، ورسول، ويوحى إليه، والله أجرى على يديه المعجزات، ومع كل ذلك حينما أثنى عليه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

فالأب عندما يمنح ابنه مركبة، أو يشتري له داراً، لا معنى أن يقيم له حفل تكريم لأنه اشترى له مركبة، أما إذا نال الدرجة الأولى في الامتحان فيقيم له حفل تكريمي، التكريم يكون من جهد ذاتي.
فالله عز وجل يبين بهذه الآية أن مجتمع المؤمنين مجتمع مختلف كلياً عن مجتمع المنافقين، الاختلاف الكلي التناصح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟- فاشتد عجبهم - قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

فإذا القيم الأخلاقية عُدت ضعفاً فهذا شيء مؤلم، مرة قرأت كلمة مؤلمة جداً، قال: أنت ضعيف لأنك أخلاقي، وأنت أخلاقي لأنك ضعيف، هذه الكلمة كالسم في الدسم تماماً، أنت أخلاقي لأنك بطل وبطل لأنك أخلاقي.

العبادة الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ)

مجتمع التناصح، مجتمع التعاون، مجتمع التناصر، مجتمع التواضع، والحقيقة المؤلمة أن الطرف الآخر الغرب لا يقنع بهذا الدين من خلال الكتب والمحاضرات، يقنع بهذا الدين من خلال مجتمع إسلامي يطبق هذا الدين.
كما قيل: القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي الكريم قرآن يمشي، والآن الذي يؤثر في الناس أن يروا بأم أعينهم إنساناً مسلماً صادقاً أميناً، فالنجاشي عندما سأل سيدنا جعفر عن الإسلام ماذا قال له؟

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

قيم أخلاقية، هذه العبادة أنا أسميها العبادة التعاملية، عندنا عبادة شعائرية، كالصلاة والصوم، والحج، والزكاة، وعندنا عبادة تعاملية، وأنا إيماني القاطع في هذا الموضوع أن العبادة الشعائرية كالصلاة والصيام والحج لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، النبي الكريم سأل:

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا المفلس.

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

لذلك قالوا: من لك يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

أحد أسباب راحة المؤمن أنه اصطلح مع فطرته :

إذاً دقة بالغة بالغة في قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هذا التناصح، هذا التعاون.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: 2]

البر صلاح الدنيا والتقوى صلاح الآخرة،

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

المعروف تعرفه الفطر السليمة ابتداءً.

إذا إنسان أمه جائعة، واشترى طعاماً وأكله وحده، من دون أي توجه، أو توجيه، أو إرشاد، أو تعليم، يشعر أنه بحق أمه مجرم، هي جائعة وهو يأكل وحده، فالفطر السليمة متوافقة مع الحق، أحد أسباب راحة المؤمن أنه اصطلح مع فطرته، كل شيء أمرك الله به أودعه في فطرتك، والدليل التطابق التام بين منهج الله وبين الفطرة في قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ)

[سورة الروم الآية: 30]

إذاً: يأمرون بالمعروف ما تعرفه الفطر السليمة ابتداءً، لا يوجد كلمة أدق من كلمة معروف، كل إنسان يعرف هذا المعروف ابتداءً من دون توجيه، هذه الفطرة، ويقولون: الإسلام دين الفطرة.

مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى :

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

والمنكر تنكره الفطر السليمة، سمى الله المنكر منكراً لأن البشر جميعاً ينكرون هذا المنكر، حتى الهرة أحياناً إذا خطفت قطعة لحم تأكلها بعيدة عنك، أما إذا أطعمتها إياها فتأكلها أمامك، إذاً هذه مركز في فطرتها أيضاً أنها الآن ارتكبت عملاً غلطاً.

لذلك الأمر بالمعروف تعرفه الفطر السليمة، والنهي عن المنكر تنكره الفطر السليمة، أما

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

فأن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هذا يشبه تماماً فطرتك التي فطرت عليها، لذلك المؤمن عنده راحة نفسية ناتجة أنه اصطلح مع فطرته، المعاصي والآثام كالجبال جاثمة على ظهره، فإذا استقام على أمر الله واصطلح معه رجع إلى الله عز وجل، أكرمته فطرته براحة ما بعدها راحة.

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هنا، هذا الموقف الأخلاقي، الإنسان المؤمن صادق، الإنسان المؤمن أمين، الإنسان المؤمن منصف، الإنسان المؤمن متواضع، مكارم الأخلاق هذه من أين جاءت؟ قال: إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

الله عز وجل حينما وصف النبي الكريم قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

بمعنى الشيء الذي يعد ثمن دخول الجنة هذا السلوك الأخلاقي الذي تسلكه من صدق، وأمانة، وإنصاف، وتلبية للمستغيث، وطهر، وعفاف، هذه الأخلاق التي هي محصلة الإيمان، والله عز وجل مدح النبي بخلقه العظيم.

من ذكر الله أدى واجب العبودية و من ذكره الله منحه الرضا و الطمأنينة :

إذاً:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هناك تعاون، و تناصح، وتناصر،

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هنا السر، هذا الاتصال بالله عز وجل أنت حينما تتصل بالله، الله حينما قال:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

و هناك آية كريمة دقيقة جداً:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ)

[سورة العنكبوت الآية:45]

قال بعض علماء التفسير: ذكر الله أكبر ما فيها، لكن الله عز وجل في معنى آخر قال: أيها المسلم المصلي ذكر الله لك وأنت تصلي أكبر من ذكرك له:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 152]

ذكر الله لك أيها المصلي وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك الحكمة، إذا ذكرك منحك القوة، إذا ذكرك منحك الكرم، منحك الشجاعة، هذه المكارم الأخلاقية من خلال اتصالك بالله تشتقها أنت، فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن ليس فرقاً بسيطاً إنما فرق نوعي، فلان يصلي، لا، الإيمان أكبر من أن تصلي، الصلاة طريق لمكارم الأخلاق، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

الحكمة من اقتران الصلاة بالزكاة في القرآن الكريم :

إذاً:

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

ما تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ما تنكره الفطر السليمة،

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

الصلاة طريق هذا الكمال الذي وصلوا إليه،

(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

من أدق التعريفات أنك إذا اتصلت بالله سعدت، جارك الفقير كي تعينه على أن يتصل بالله ينبغي أن تساعده، فإن ساعدته توازن واتصل بالله عز وجل، فأنت ينبغي أن تسعى كي تقيم هذه العلاقة مع الله أولاً، وأن تعين على إقامة هذه العلاقة عند الآخرين، عند الآخرين أن تلبي حاجاتهم، لذلك جاءت الصلاة والزكاة في معظم كتاب الله مقترنتين،

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

أي ما زاد عن أموالهم، بالمناسبة الله عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

[سورة التوبة الآية:103]

الزكاة تطهر الغني من الشح، تطهر الفقير من الحقد، تطهر المال من تعلق حق الغير به، هي:

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

الزكاة تنمي نفس الغني، يرى أثر إنفاقه بين الناس يصبح محبوباً، يصبح من حوله حراساً له من محبتهم، فتزكي نفس الغني، وتزكي نفس الفقير حينما يشعر أن مجتمعه لا ينساه، هناك تشريع في هذا الدين لمعاونة الفقير، والشيء الثالث تزكي هذا المال فيزداد هذا المال بالإنفاق:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية:276]

منهج الله منهج شمولي واسع جداً :

إذاً قال:

(وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في ماذا؟ في تفاصيل الحياة، لأن منهج هذا الدين العظيم منهج قويم، منهج واسع جداً، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج الله منهج شمولي، واسع جداً، لا كما يتهمه بعض الناس، أداة عبادات شعائرية ليس غير، في كل حركاتك وسكناتك هناك حكم شرعي.

فلذلك

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

الذي تعرفه الفطر السليمة،

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

الذي تنكره الفطر السليمة

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هذا الكمال الذي يتمتعون به اشتق من اتصالهم بالله عز وجل، والدليل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أي أنت حينما اتصلت بنا يا محمد امتلأ قلبك رحمة بهم، هذه الرحمة انعكست ليناً، هذا اللين جعلهم يلتفون حولك، لو كنت منقطع عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست هذه القسوة غلظة وفظاظة، وانفضوا من حولك، والآية دقيقة جداً:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

إذاً

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

أي يعينون الآخرين على إقامة الصلاة من خلال تلبية حاجاتهم، إنسان فقير جداً ليس عنده ما يأكل، عنده مشكلة، فأنت حينما اتصلت بالله وشعرت بهذا الفضل العظيم، تحاول أن تعين أخاك أن يتصل بالله من خلال تأمين حاجاته

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

وأما في التفاصيل الشراء، والبيع، والسفر، والإقامة، والطلاق، والزواج، والإنجاب، فهناك ملايين ملايين القضايا، قال:

(وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي يطبقون منهج الله في الكتاب، والسنة، المنهج،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

الإنسان خلق لجنة عرضها السموات والأرض ثمنها طاعة الله عز وجل :

قال:

(أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ)

سيرحمهم، ورحمة الله في قممها دخول الجنة، وفي تفاصيلها أن تكون في الدنيا سعيداً بطاعة الله، أن تكون موفقاً، أن تكون منصوراً من قبل الله عز وجل.

(سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هو عزيز، ومع أنه عزيز حكيم، هناك قوة ومع القوة كمال:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو رحيم، لذلك الرد الإلهي:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

هناك جنة فيها بساتين، فيها أنهار، فيها أشياء جميلة جداً، فيها حور عين، لكن

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

أكبر من هذه التي ذكرها الله عز وجل،

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

بمقياس الآخرة هذا هو الفوز، إذاً الإنسان خلق لجنة عرضها السموات والأرض، ثمنها طاعة الله عز وجل.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

والله عز وجل بالمناسبة ما أودع فينا شهوة إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها،

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً)

[سورة النور الآية: 55]

نحن لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً)

ولسنا آمنين، ما السبب؟ قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

فإذا أخلّ الفريق الآخر بما عليه من عبادة فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاث.

إذاً:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ)

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

على الإنسان المؤمن أن يعتمد مقاييس الفوز التي عند الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

هناك نيل مستمر، إنسان راكب قطاراً والمناظر متبدلة باستمرار، فهو يركن لهذا المنظر الجميل باستمرار، أما لو جلس في غرفة القطار وأغلق النوافذ فبعد حين يمل من هذه الغرفة، مهما كانت فخمة، فالجنة في تبدل مستمر.

(وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)

لكن فوق كل هذا، إنسان دعاك إلى طعام طبعاً الطعام طيب، وكل شيء من الدرجة الأولى، لكن ترحيبه الشديد بك يفوق متعة الطعام

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من كل ما في الجنة من متع حسية، الله قال:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

البطولة أن تعتمد مقاييس الفوز التي اعتمدها الله عز وجل، هناك مقاييس فوز في الدنيا، أن تكون غنياً هذا فوز، أن تكون في منصب رفيع هذا فوز، أن تتمتع بمباهج الدنيا هذا فوز، لكن هذا فوزاً ليس عظيماً، لكن المؤمن يعتمد مقاييس الفوز التي عند الله عز وجل، الله عز وجل يقول:

(ذَلِكَ)

أن تكون مؤمناً، وأن تسعى لمرضاة الله، وأن تصل إلى الجنة،

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا إنسان سأل طفلاً كم معك من المال؟ فأجابه: معي مبلغ عظيم، يكون صغيراً، لكن عنده مبلغ الألف عظيم جداً، عقب العيد جمع ما أخذه من أقاربه، وسماه مبلغاً عظيماً، أما إذا قال إنسان يحتل منصباً رفيعاً في دولة قوية: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قد يكون مئتي مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك ومالك الملوك:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا شيء يصعب تصوره، فالله عز وجل يقول:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هناك إنسان يشتري أرضاً تتضاعف مئتي ضعف، وإنسان يجمع ثروة طائلة جداً، وإنسان يبلغ أعلى منصب، قال تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

لذلك هذه الآيات:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (51-70) : تفسير الآية 73، الجهاد وأنواعه.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-05-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل خلقنا ليرحمنا ويسعدنا في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والسبعين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة، أو خلق الإنسان ليرحمه، والدليل قوله تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

فالله عز وجل خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، فالذين شردوا عن الله، وغفلوا عنه، واتبعوا شهواتهم، هم في طريق شقائهم وهلاكهم.

رحمة الله عز وجل تقتضي أن ينبه عباده إلى سرّ وغاية وجودهم :

لذلك تقتضي رحمة الله عز وجل أن يرسل إليهم أنبياء ومرسلين، ليذكروهم بعلة وجودهم في الدنيا، وهي عبادة الله عز وجل لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

والعبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فالله خلقنا لسعادة أبدية في الدنيا والآخرة.

فلذلك تقتضي رحمة الله عز وجل أن ينبه عباده إلى سرّ وجودهم، وغاية وجودهم، فلذلك أرسل أنبياءه ورسله، فالذين أصروا على كفرهم، واعتدوا ببعدهم عن ربهم، لابد من أن يعالجوا معالجة استثنائية، أحياناً هناك أمراض تتشفى بالأدوية، وهناك أمراض تحتاج إلى جراحة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام بأمر من الله عز وجل يخاطبه ويقول:

(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

والحقيقة في الأحوال السلمية المنهج:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

هذا في الأحوال العادية السلمية، أما في الحرب فهناك منهج آخر:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

في السلم هناك منهج لله عز وجل وفي الحرب هناك منهج آخر :

أيها الأخوة، الجهاد كما ورد في الأحاديث النبوية:

((ذروة سنام الإسلام الجهاد))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

والجهاد بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس من أجل هداية الخلق، وهناك أمر إلهي موجه إلى النبي الكريم، وإلى من يأتي بعده:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

المنافقون كفار، ولكن عاشوا في مجتمع إسلامي، وأرادوا أن يأخذوا مكاسب لصالحهم فأعلنوا شيئاً، وأخفوا شيئاً، أعلنوا إيمانهم، وأخفوا كفرهم، هؤلاء المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم أوهموا المؤمنين أنهم مؤمنون، لذلك استفادوا من هذه الصفة التي انتحلوها وغابت عنهم أن الله عز وجل لابد من أن يفضحهم.

إذاً الشيء الدقيق الآن أنه في السلم هناك منهج، وفي الحرب هناك منهج آخر، في السلم:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

لم يقل ادفع بالحسنى،

(بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إذا كان هناك رداً على إساءة بموقف حسن فيجب أن تختار أفضل موقف حسن

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ)

هذا موقف المؤمن في الأحوال العادية، أما حينما تشتد المعركة فلابد من أن تجاهد الكفار والمنافقين جهاداً أساسه القوة.

النبي الكريم لعلو مقامه عند الله ما خوطب باسمه بل بلفظ النبوة والرسالة :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هناك شيء دقيق وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد الخلق، وحبيب الحق، هو سيد ولد آدم، هو النبي الذي أقسم الله بعمره الثمين، قال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر]

هو النبي الذي ما خوطب باسمه أبداً:

(يَا يَحْيَى)

[سورة مريم الآية: 12]

(يَا عِيسَى)

[سورة المائدة الآية: 116]

(يَا مُوسَى)

[سورة النمل الآية: 9]

إلا النبي

(يَا أَيُّهَا)

أو:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة الآية: 67]

ولم يأتِ اسمه إلا خبراً، مبتدأ ليخبر عنه:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

[سورة الفتح الآية: 29]

هذا من تفضيل النبي الكريم على بقية الأنبياء والمرسلين.

إذاً الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هنا الغلظة أحياناً تردع الكافر عن متابعة كفره،

(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

يبدو أن بعض النفوس تأتي بالشدة، وبعضها يأتي بالإقناع، وبعضها يأتي بالرخاء، فصنف الكفار في الأعم الأغلب ينصاعون إلى الحق عقب شدة تأتيهم.

إذاً النبي الكريم لعلو مقامه عند الله ما خوطب باسمه أبداً بل توجه الله إليه و خاطبه بلفظ النبوة والرسالة.

جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي :

أما الجهاد الذي أمر النبي به فهذا جهاد له معان كثيرة جداً، والحقيقة من أولى معاني الجهاد جهاد النفس والهوى، لأن بعض الصحابة الكرام حينما رجع من الحرب قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، جهاد النفس والهوى، لأن الذي ينهزم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، فلابد بادئ ذي بدء من أن تنتصر على نفسك، أن تنتصر عليها بأن تحملها على طاعة الله، فالنفس نزاعة إلى المتعة، نزاعة إلى الشهوة، نزاعة إلى التفلت، نزاعة إلى حرية تتوهمها مسعدة، نزاعة إلى أن تعيش كما تتمنى، يأتي منهج الله عز وجل يضبطها، هناك أشياء مباحة، وأشياء محرمة، وأشياء مكروهة، وأشياء مستحبة، أنت أمام دائرة كبيرة، هذه الدائرة الكبيرة ما بعدها هو الحرام، أما الحلال فأنواع، هناك فرض، وسنة مؤكدة، وسنة، ومستحب، فهناك منهج دقيق لهذا الإنسان، الإنسان لأنه أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة بالغة التعقيد إله، وتعقيدها تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، لهذه الآلة المعجزة صانع عظيم، وخالق حكيم، وهذا الصانع العظيم له تعليمات التشغيل والصيانة، إنها كتابنا، وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، فلابد للإنسان الذي يبغي سلامته وسعادته من أن يتبع منهج خالقه، منهج صانعه، ودائماً وأبداً الصانع هو الجهة الوحيدة الخبيرة بأسباب سلامة هذه الآلة وأدائها الأداء الأكمل، والله عز وجل يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ)

فالمجاهدة تبدأ بالدعوة إلى الله هذا الجهاد الدعوي، وقد يسبق هذا الجهاد الدعوي جهاد النفس والهوى، فغض بصرك عن محارم الله هذا نوع من الجهاد، أن تنطق بالحق ولا تكذب نوع من الجهاد، أن تأخذ ما لك وأن تدع ما ليس لك نوع من الجهاد، جهاد النفس والهوى هو أساس الجهاد.

كيف أن في التعليم هناك تعليم أساسي، وهناك تعليم ثانوي، وهناك تعليم جامعي، وهناك دراسات عليا، وهناك دكتوراه، هذه مراتب، أما الشيء الأساسي فمن الصف الأول حتى التاسع في بعض البلاد، هذا التعليم الأساسي.

فالجهاد جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة.

أنواع الجهاد :

1 ـ جهاد النفس و الهوى :

إذا قال الله عز وجل يخاطب النبي وكل أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو موجه إلينا بالتبعية، شيء طبيعي جداً، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب]

هو يتقي الله، هذا الأمر موجه لأصحابه، ولأمته من بعده، فالله عز وجل يأمر النبي أن يجاهد، والجهاد نبدأ بجهاد النفس والهوى، جهاد النفس والهوى هو الأصل في الجهاد.

ومرة ثانية: الذي يهزم أمام نفسه، وتغلبه شهوته، وتغلبه مصالحه، ويغلبه تفلته، وتغلبه غفلته، هذا الإنسان لا يستطيع أن يواجه نملة، فضلاً عن أن يواجه عدواً، فلذلك يعد جهاد النفس والهوى أصلاً لكل جهاد.

هذا الجهاد جهاد النفس والهوى كما عبر عنه الصحابي الجليل: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى".

2 ـ الجهاد الدعوي :

الآن هناك جهاد آخر، ودليله في القرآن آية محكمة، قال:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

وسمّى الله عز وجل تعليم القرآن، وتوضيحه، وبيان آياته، ومحكمه، ومتشابهه، والتفاصيل الدقيقة المتعلقة بالقرآن، هذا نوع من الجهاد،

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بيّن هذا القرآن، فصّل هذا القرآن، لذلك قال عليه الصلاة والسلام، وقد لخص كل رسالته فقال:

((إنما بعثت معلماً))

[أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

فكأن النبي الكريم بين أن أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يدعو إلى الله عز وجل والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

هذا الجهاد الدعوي.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

ونحن يغلب على ظننا أن الجهاد الدعوي من اختصاص العلماء والدعاة الكبار، هذا خطأ كبير، الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، فرض عين، لكن الدعوة إلى الله مع التفرغ، والتعمق، والتبحر فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، هناك أشخاص تفرغوا في دراستهم، وفي اختصاصهم لمعرفة هذا الدين العظيم، كتاباً، وسنة، وفقهاً، وأحكاماً، وسيرة، هذا الجهاد الدعوي الذي أساسه التفرغ التام، والتعمق، والتبحر، فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، أما الجهاد الدعوي كفرض عين فكل إنسان كائن من كان عليه أن يجاهد جهاداً دعوياً، والدليل:

((بلِّغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

والدليل قوله:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فالذي لا يدعو إلى الله بعيد بعداً كبيراً عن منهج الله عز وجل،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

من لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله :

دليل ثالث:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة، وكتعليق على كلام بصيرة، أي بالدليل والتعليل، خذوا الكتاب بقوة واذكروا ما في من حكمة، فالدليل من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، أو من إجماع المسلمين، فالدعوة إلى الله بالدليل والتعليل،

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

بالدليل والتعليل،

(أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله، وبالتالي ليس محباً لله:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 31]

فتنطلق من محبتك لله باتباع رسول الله، ومن منهج النبي الكريم أنه دعا إلى الله، فالدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف، فهذا الذي حضر درس علم في مسجد، واستمع إلى تفسير آية، وتأثر بها تأثراً بالغاً، عليه أن ينقلها إلى أهله، إلى أولاده، إلى جيرانه، إلى أصدقائه، طوال هذا الأسبوع حضر خطبة، تأثر بقصة عن صحابة رسول الله، هذه القصة ينقلها.

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، إذاً أن تقول: لا علاقة لي بالدعوة، أنا مسلم، هذه مهمة الدعاة الكبار، لا، أنت كمسلم يجب أن تكون داعية بنقل حديث لرسول الله، نقل معنى آية فهمتها، وتعمقت بها.

إذاً هناك دعوة تعد فرض عين على كل مسلم، وهذا الجهاد سنسميه الجهاد الدعوي أول جهاد جهاد النفس والهوى، أن تضبط أهواءك وفق منهج الله.

من ترك جهاد نفسه مال للشهوات و المعاصي :

بالمناسبة: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها بالإسلام لا يوجد حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فالإنسان يجاهد أولاً نفسه وهواه، هذا جهاد النفس والهوى، هو الجهاد الأساسي، هذا الجهاد هو فرض عين على كل مسلم، لأن هناك نفس لها شهوات، فالإنسان إذا ترك جهاد نفسه يميل للشهوات، والشهوات معظمها في المعاصي والآثام، يميل إلى التفلت، إلى ترك الطاعات، إلى ترك الفرائض، إلى أن يتكلم ما يشاء، أن يلتقي مع من يشاء، أن يطلق بصره في الحرام، هذا كله من صفات الإنسان العادي، فالإنسان إن لم يجاهد نفسه وهواه، إن لم يضبط مشاعره، وحواسه، وأعماله، ويده، ومسيرته، فهو في مشكلة كبيرة جداً.

فالجهاد الأول هو جهاد النفس والهوى، والجهاد الثاني: الجهاد الدعوي، أن تطلب العلم من أنت؟ أنت المخلوق الأول، كيف تعلم أنك المخلوق الأول؟ كيف تعلم أنك مكلف أن تعبد الله؟ كيف تعلم أنك مخلوق للجنة؟ كيف تعلم أن هذه الدنيا:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا :

كيف تعلم من أنت؟ أنت المخلوق الأول، أنت مكلف أن تعبد الله، فالإنسان يأتي إلى الدنيا وينغمس في ملذاتها، وشهواتها، بل ينغمس في العمل، ويتقن عمله، وينال أرباحاً طائلة، فإذا وصل إلى قمة نجاحه يأتي ملك الموت، هذه مفاجأة كبيرة جداً، لذلك البطولة لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، بل أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا، ماذا أعددت لهذه الساعة؟ من بيت فخم، من غرف متعددة، من زوجة، من أولاد، من أصهار، من بنات، من مركبة فارهة، من سفر، من نزهة، من سياحة، من ولائم إلى قبر، نقلة مخيفة جداً، من كل شيء وفيما يبدو للعين إلى لا شيء، ماذا أعددنا لهذه الساعة؟

مرة ثانية: بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل لا أن يعيش الماضي والحاضر، هناك حدث خطير جداً هو مغادرة الدنيا.

أنت حينما تقرأ النعوات، النعوات على جدران الطرق، تقرأ هذه العبارة: وسيشيع إلى مثواه الأخير، معنى ذلك أن البيت مثوى مؤقت، مهما كان فخماً، مهما كان واسعاً، مهما كان غالي الثمن، مثوى مؤقت، البيت الحقيقي هو تحت الأرض لا فوق الأرض، ماذا تحت الأرض؟ فالذكاء، والبطولة، والتوفيق، والحكمة، أن تعيش المستقبل، وأن تعيش أخطر حدث في المستقبل وهو مغادرة الدنيا.

لذلك ينطلق الجهاد إلى الإيمان بالموت، الموت لا أحد ينكره، لكن لا أحد يعيشه، أن تعيش الموت شيئاً وأن تقر به شيئاً آخر، أن تعيش الموت، ماذا في القبر؟ ماذا ينفعني في القبر؟ مهما زينت بيتك، وهذه التزيينات وإن كانت ليست محرمة، مباحة، لكن لا تنفعك في القبر، مهما بالغت في أناقتك، هذه لا تنفعك بالقبر، ينفعك في القبر شيء واحد هو عمل صالح مخلص، لذلك:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

العمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل ما كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

الدعوة إلى الله من أجل الحفاظ على هذا الدين و تنميته :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ)

أول جهاد: جهاد النفس والهوى.

الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي، فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، هذا الجهاد الدعوي أساس الدعوة إلى الله عز وجل، وحينما تقلص الدعوة إلى الله ينتهي الدين، لأن الدعوة إلى الله توسع دوائر الحق، فإذا توسعت هذه الدوائر ضيقت على دوائر الباطل، فالباطل موجود وقديم، لكن البطولة -وكلام دقيق جداً - ألا ينفرد الباطل بالساحة، الباطل موجود، أما حينما نقصر في الدعوة إلى الله فيكاد الباطل ينفرد بالساحة، أينما توجهت الصحيفة فيها باطل، والإذاعة فيها باطل أحياناً، والفضائية فيها باطل، والانترنيت فيه باطل، الباطل موجود، أما إذا توسع الباطل فغلب على دوائر الحق فهنا المشكلة كبيرة جداً، قد يضيع جيل بأكمله، قد تضيع أمة بأكملها، فالدعوة إلى الله من أجل الحفاظ على هذا الدين مبدئياً، ومن أجل تنمية هذا الدين ثانوياً، الحفاظ أولاً، والتنمية ثانياً.

إذاً أحد أكبر أنواع الجهاد فضلاً عن جهاد النفس والهوى الذي هو أصل في الجهاد الجهاد الدعوي، ويجب أن يعتقد كل مسلم أنه مكلف بالدعوة إلى الله، مكلف بأدلة كثيرة، أحد أكبر هذه الأدلة سورة العصر:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

ما قال: أوصوا، قال:

(تَوَاصَوْا)

فعل مشاركة، أي أنا أنصحك وأنت تنصحني، أنا رأيت في أخي خللاً، بأدب جم، على انفراد بيني وبينه، أنصحه، ثم رأى فيّ خللاً، فنصحني، هذا التواصي، أنصحه، وينصحني، أرشده، ويرشدني، آخذ بيده، ويأخذ بيدي، هذه مشاركة، الجهاد الأول: الجهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني: الجهاد الدعوي.

3 - الجهاد البنائي :

وقد نفاجأ أن هناك جهاد ثالث هو الجهاد البنائي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

جهاد بنائي، كيف تبني هذه الأمة؟ يجب أن تنشر التعليم فيها، يجب أن تربي أولادها، يجب أن تنشئ المصانع، أن تحفر الآبار، أن تستصلح الأراضي، أن ترفع مستوى الصناعة، أن تطور الصناعة، أن تعمم التعليم، هناك بناء للأمة، وهذا ينضوي تحت الجهاد، جهاد بنائي، لأن هذه الأمة تواجه أعداء دائماً وأبداً، لابد من أن تكون قوية كي تواجه العدو.

أنا أقول دائماً وأبداً: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، بل سيرك في طريق القوة فرض عين عليك أن تكون قوياً، لماذا؟ لأن القوي، من هو القوي؟ القوة قوة مال، والقوة قوة منصب، والقوة قوة علم، فالعلم، والمنصب، والمال، هذه قوة، فإذا سلكت طريق القوة، لأن القوي إما بماله، أو بعلمه، أو بمنصبه، خيارات العمل الصالح أمامه لا تعد ولا تحصى، وأنت باعتبار مخلوق في الدنيا من أجل العمل الصالح، علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، فأنت أمام خيارات واسعة جداً، هذا الكلام موجه للإخوة المؤمنين، أنت جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، فكلما توسعت في هذا العمل الصالح، هناك عمل صالح دعوي، وهناك عمل صالح تعاوني، معاونة، خبرة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنشاء مساجد، إنشاء معاهد شرعية، نشر العلم الديني، وتوضيح القرآن، دراسة، نشراً، وتوضيحاً.

إذاً الجهاد الأول جهاد النفس والهوى، الجهاد الثاني الدعوي، الجهاد الثالث البنائي أن تبنى هذه الأمة، أن تبنى -إن صح التعبير- بنيتها التحتية، ثم أن تبنى مصانعها، أن تبنى أراضيها الزراعية، أن تبنى تجارتها، أن تبنى جامعاتها، فهذا جهاد بنائي، أنت تنتمي إلى أمة، هذه الأمة يجب أن تكون قوية، قوية بك، بإتقان عملك، بإخلاصك، إذاً الجهاد الثالث الجهاد البنائي.

4 ـ الجهاد القتالي :

إذا نجحنا في جهاد النفس والهوى، ونجحنا في الجهاد الدعوي، ثم نجحنا في الجهاد البنائي، الآن جاء دور الجهاد القتالي، لكن معظم المسلمين إذا قرؤوا كلمة جهاد لا يخطر على بالهم إلا الجهاد القتالي، هذا الجهاد القتالي يسبقه جهاد نفسي، يسبقه جهاد دعوي، جهاد بنائي، ثم يأتي الجهاد القتالي. إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

لابد من الشدة، الشِدة تتبعها شَدة إلى الله، الشِدة الحكيمة، رحيم، تتبعها شَدة إلى الله، والمحنة أحياناً تتبعها منحة من الله، فالحياة ليست كلها رفاه، وراحة، وسعادة، الحياة فيها متاعب أحياناً، هذه المتاعب طريق الوصول إلى الله عز وجل، لا ترى إنساناً في الحياة الدنيا متألقاً باختصاص عال جداً، يحمل

شهادات عليا كثيرة، وله دخل كبير، وله بيت وأولاد، ومكانته الاجتماعية عالية، هذا درس ثلاثاً و ثلاثين سنة، نام على طاولة الدراسة من شدة تعبه، هذا الجهد الكبير في مطلع حياته أعطاه هذه المكانة، وكذلك الآخرة.

أنت من أجل أن تكتب قبل اسمك د. أي دكتور، تحتاج إلى شهادة ابتدائية، وشهادة إعدادية، وشهادة ثانوية، ولسانس، ودبلوم، وماجستير، ودكتوراه، تحتاج إلى دراسة ثلاث و ثلاثين سنة من أجل كلمة د. إلى جانب اسمك، فإذا أردت أن تكون من أهل الجنة في جنة عرضها السموات والأرض:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ألا تحتاج إلى جهاد النفس والهوى؟.

الجنة لكل واحد من المسلمين :

أخواننا الكرام، من السذاجة بمكان أن تظن أن هذه الجنة لكل واحد من المسلمين، بلا جهد، بلا تعب، بلا انضباط، بلا جهاد، بلا ضبط مشاعر، بلا ضبط جوارح، بلا إنفاق مال، بلا طلب علم، هذا الشيء من السذاجة بمكان.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

لأن هؤلاء الكفار حينما يكتشفون أنهم خرجوا عن منهج الله يتألمون ألماً لا حدود له، حتى إن في بعض الأحاديث الشريفة:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

إذاً الجهاد جهاد أولي جهاد النفس والهوى، جهاد دعوي الدعوة إلى الله فرض عين وفرض كفاية، ثم جهاد بنائي، أن تسهم في بناء هذه الأمة، أي كل إنسان إذا أتقن عمله إتقاناً جيداً ثم طور عمله يسهم في بناء الأمة، أتقنه أولاً، وطوره ثانياً، فالأمة مجموعة نشاطات، هناك نشاط بنائي، ونشاط زراعي، ونشاط صناعي، ونشاط تعليمي، و نشاط علمي، هذه النشاطات المتعددة، إذا أتقنتها، وطورتها، معنى هذا أنك قويت أمتك، فأنت في هذه الحالة تجاهد جهاداً بنائياً، وحينما تكون الأمة قوية ومتماسكة يأتي عدو خارجي يعتدي عليها يمكن أن تجاهد جهاداً قتالياً.

كلمة الجهاد لا تعني الجهاد القتالي فقط :

كلمة الجهاد أتمنى على أخوتي المشاهدين إذا قرؤوها في القرآن والسنة ألا تنصرف أذهانهم إلى الجهاد القتالي فقط، هناك جهاد نفسي، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، هناك جهاد دعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

هناك جهاد بنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هناك جهاد قتالي حينما يصل الأمر إلى المواجهة لابد من جهاد قتالي.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

بين أن يعيش الإنسان حياة أبدية عرضها السموات والأرض، وبين أن يعيش الإنسان في جهنم وبئس المصير.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

[سورة النساء الآية: 65]

لذلك البطولة لا أن تعيش الحاضر، ولا أن تعيش الماضي، بل أن تعيش المستقبل.

من تسميات النفس في القرآن الكريم :

1 ـ النفس المطمئنة :

أيها الأخوة الكرام، شيء دقيق جداً أن هذه النفس التي نحن بصددها نجاهدها، ألم نقل في البداية جهاد النفس والهوى، قال: هذه النفس لها في القرآن مسميات عديدة من هذه المسميات:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

[سورة الفجر]

هذه النفس التي عرفت ربها من خلال الكون، من خلال آياته الكونية، أو من خلال آياته التكوينية، أو من خلال آياته القرآنية، عرفت ربها فاستقامت على أمره.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

[سورة هوج الآية: 112]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

عرفت ربها واستقامت، والاستقامة طابعها سلبي، ما أكل مالاً حراماً، ما غش، ما اغتاب، ثم تقربت إليه بالعمل الصالح.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: 10]

عرفته من خلال آياته الكونية، أو التكوينية أفعاله، أو القرآنية كلامه، ثم استقمت على أمره، والاستقامة أصل في هذا الدين، وبعد الاستقامة تقربت إليه بالعمل الصالح، ثم جاءها ملك الموت فانقلبت إلى جنة عرضها السموات والأرض، وهذه هو التصميم - إن صح التعبير- تصميم معاصر، عبارة معاصرة، هذا هو التصميم الإلهي لهذا الإنسان، أن يأتي إلى الدنيا يتعرف إلى الله، يعبده، يطيعه فيما أمر، يتقرب إليه بالعمل الصالح، يأتيه الموت ينقبض إلى جنة عرضها السموات والأرض، هذه النفس المطمئنة.

2 ـ النفس اللوامة :

وهناك نفس لوامة مقبولة أيضاً، كلما أخطأت لامت نفسها، حالة طيبة أيضاً، أي إما أنه كامل، أو في طريق الكمال، لذلك الآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

أي مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يعذب الإنسان وهو مطبق لمنهج رسول الله،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أنت فيهم أي سنتك مطبقة في حياتهم، فالنفس الأولى نفس مطمئنة، عرفت ربها، استقامت على أمره، تقربت إليه بالإحسان، النفس الثانية نفس تحاسب نفسها، إذا زلت قدمها تحاسب نفسها، هذه نفس لوامة.

3 ـ النفس الأمارة بالسوء :

وهناك والعياذ بالله إنسان شرد عن الله شرود البعير، وتحكمت به شهواته، فأصبحت نفسه أمارة بالسوء، فبين أن يكون الإنسان ذا نفس مطمئنة، أو أن يكون ذا نفس لوامة، تقرباً في طريق الكمال والسمو، أو أن يكون ذا نفس أمارة بالسوء وهذه حالة مرضية خطيرة جداً.

تبدل القيم مشكلة كبيرة جداً :

شيء آخر: طبعاً نحن بحاجة إلى الجهاد، لكن كلما عمّ الفساد وانحرف الناس في بعض الآثار النبوية عن آخر الزمان:

((يومَ يذوبُ قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير))

[أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني]

قد يعم الفساد، تعم الفوضى أحياناً، يعم الانحراف، يصبح الأمر بالمعروف شيئاً مستحيلاً، المنكر هو المسيطر.

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، وقالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، وقالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذه مشكلة كبيرة جداً، تبدل القيم.

إذاً الجهاد من أجل أن ننقل الناس من حالة الضياع والشرود إلى حياة الإيمان والعلم والعمل الصالح.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

والإنسان ينبغي أن يكون ذا نفس مطمئنة، فإن لم يكن فلا أقل من أن يكون ذا نفس لوامة، أما أن تكون نفسه أمارة بالسوء فهو بعيد عن الله بعد الأرض عن السماء.

معظم الناس لا يدخلون جهنم في حساباتهم إطلاقاً :

أيها الأخوة الكرام، والبطولة ختام العمل هنا:

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة التحريم]

هناك مصير في جهنم أبدي، هنا المشكلة، قضية النار، أنا والله أقول هذا الكلام وأرجو أن أكون مخطئاً: معظم الناس لا يدخلون جهنم في حساباتهم إطلاقاً، يتحرك براحة نفسية، يأكل مالاً حراماً، يختار حرفة مبنية على إيذاء الناس أحياناً، أو على ابتزاز أموالهم، يهتم ببيته، بأهله، يهتم بمركبته، يهتم بدخله الكبير، يهتم بطعامه، بشرابه، برحلاته، بنزهاته، وينسى أن هناك يوم يحاسب عن كل شيء يفعله، لذلك الله عز وجل أردانا أن نؤمن بالموت، أن نعيش الموت من حين إلى آخر.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية:2]

هذه الآية أيها الأخوة يخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها موجهة إلى كل مسلم،

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (52-70) : تفسير الآية 74، غزوة تبوك.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-05-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

التعبير غير المباشر عن طريق القصة فيه موعظة كبيرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية تشير إلى قصة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء غزوة تبوك، أحداث القصة دقيقة جداً، بل يمكن أن نستنبط منها حقائق كثيرة.
أحياناً يستخدم القرآن التعبير المباشر، وهذا له خصائصه، وأحياناً يستخدم القرآن التعبير الغير مباشر عن طريق القصة، وهذا الأسلوب له خصائصه، على كلٍّ التعبير غير المباشر عن طريق القصة فيه موعظة كبيرة، لأن القصة حقيقة مع البرهان عليها، حقيقة مجسدة بأشخاص يتحركون، يتحاورون، يتواصلون، والإنسان أخو الإنسان فإذا قرأ قصة عن إنسان آخر فلابد من أن يتعظ موعظة كبيرة، لذلك قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة يوسف الآية: 111]

قصة الجلاس بن سويد مع النبي صلى الله عليه و سلم :

أيها الأخوة، تروي كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أراد أن يغزو الروم، وهذه الغزوة هي غزوة تبوك، هذه الغزوة وقعت أحداثها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أراد أن يغزو الروم، وكانت هذه الوقعة أول وقعة بين المسلمين وبين غير العرب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغزوة في فترة شديدة الحر، كل واحد في هذه الفترة يفضل الجوس في بيته، في الأخياف، تحت النخيل، تحت الشجر، في جو رطب، ولا يرغبون في القيام من الظل، في هذه الفترة الحرجة الحارة حراً شديداً دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة لبلاد الروم هي غزوة تبوك.

وعندما دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد في سبيل الله، والذهاب لقتال الروم، الآن المنافقون تلمسوا أعذاراً كاذبة، حتى لا يذهبوا إلى الجهاد، فظل القرآن ينزل في هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد: والله إن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمر، فهو بهذا الكلام تكلم بكلمة الكفر، إن كان صادقاً، فإن لم يكن صادقاً فنحن في غنى عن هذه الغزوة، فهذه الكلمة بحق النبي الكريم المعصوم الذي أرسله الله بهذا القرآن وبهذه الدعوة العظيمة، هذا الكلام بحق النبي يعد كفراً، هنا قال له أحدهم: لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم شر من الحمر، وأنت يا جلاس شر من الحمار.

وهنا قام بعض المنافقين ليفتك بعامر بن قيس الأنصاري، لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه الذي قال: لو أن محمد صادقاً فيما يقول لكنا شر من الحمر، هذا الكلام قاله سيد في قومه.

وذهب عامر بن قيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث، فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم ابن سويد وسأله عن الخبر- دققوا الآن- ابن سويد حينما استدعي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله عن هذا الخبر حلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث إطلاقاً، أي أنكر، وكذب، وحينما حلف أن هذا الذي نقله لك فلان لم يقع إطلاقاً تركه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه حلف بالله، وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال: " يا رب إني أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم تصديق ما قلت، وتكذيب الكاذب"، فقال عليه الصلاة والسلام: آمين، ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جل جلاله:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا)

الآية التي نحن في بصددها،

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)

الآن الوحي أضاف شيئاً دقيقاً جداً أن المنافقين حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعونه إلى مكان مرتفع ثم يدفعونه فينزل ميتاً،

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

بعضهم قال: هم لم يسلموا أصلاً، المنافق كافر، لكن شراح هذه الآية قالوا: هؤلاء عند الناس مسلمون، أظهر إسلامه وأخفى كفره، فهنا كلمة:

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)

بعد أن شاع بين الناس أنهم مسلمون.

وهكذا حسمت هذه الآية هذا الموقف، وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب، فيما رواه عامر بن قيس، وأنكره الجلاس.

الله تعالى أراد أن يَعلم المنافقون أنه يخبر نبيه بما يخفونه :

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه:

(وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

ذلك أن الله تبارك وتعالى لحكمة بالغةٍ أراد أن يعلم المنافقون أنه يخبر نبيه بما يخفونه، ولو نزلت هذه الآية فقط في حادثة الحلف الكذب لقال المنافقون: ما عرف محمد عليه الصلاة والسلام إلا ما قاله عامر، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر وهم قالوها، ذلك بأن المنافقين قد تآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة، والعقبة هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعترض الطريق، ويتحايلون على اجتياز العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا، ودبر المنافقون أن يدفعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أعلى الصخور ويسقط في الوادي، ولكن حذيفة بن اليمان رحمه الله تعالى ورضي الله عنه كان يسير خلف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنبه للمؤامرة فتنبه المنافقون، وهكذا لم ينالوا مثلما يريدون، وعندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة قد كانوا يعدون العدة ليجعلوا عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم، ولكن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمكنهم من ذلك.

وقيل: إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس لأنه أبلغ رسول الله بما قاله الجلاس بن سويد ولكنهم لم يتمكنوا.

الحوادث التي وقعت في عهد رسول الله وقعت لحكمة لتكون منهجاً لكل إنسان :

أيها الأخوة الكرام، هذه القصة تبين أن الذي ابتعد عن الله يتحرك حركة شريرة، أرادوا أن يقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا؟ لأنه جاء لهم بهذا الدين العظيم، بهذا الهدى القويم، بهذا القرآن الكريم، فالمؤمن يتحرك وفق منهج الله، لكن الآخر غير المؤمن يتحرك وفق هوى نفسه.

على كلٍّ هذه القصة لها عدة حقائق دقيقة جداً ينبغي أن نعرفها، لأن كل شيء وقع أراده الله، معنى أراده أي سمح به، لم يأمر، ولم يرضَ، لكن سمح به لحكمة بالغة بالغة، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

ويبدو أن الأحداث التي وقعت في عهد رسول الله هذه الأحداث تعبر عن حقائق كثيرة جداً، وحقائق تنبع من واقع، تنبع من معاينة، تنبع من تجربة، فحينما تنبع الحقيقة من واقع ومن خبرة ومن تجربة تكون أبلغ في النفوس مما لو ألقيت بلا تمهيد وبلا حقائق تدعمها.

إذاً أكثر الآيات التي تشير إلى وقائع وقعت في عهد النبي الكريم إنما هي حقائق لكنها استنبطت من حوادث، بل إن الحوادث التي وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت لحكمة بالغةٍ بالغة كي يكون بمجموع هذه الحوادث منهج كامل لهذا الإنسان، فقد يقول العلماء أن سنة النبي عليه الصلاة والسلام هي أقواله، أقواله سنة.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

إنه معصوم من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، فأقواله سنة، وأفعاله سنة، وإقراره سنة، هذه السنة تفسير، وتوضيح لآيات القرآن الكريم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

علم الله علم مطلق :

هؤلاء:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا)

وغاب عنهم أن الله يعلم:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تبطن، ويعلم ما تخفي، لذلك سيدنا علي كرم الله وجهه له قول رائع: "علم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما كان في الماضي، وعلم ما يكون في الحاضر، وعلم ما سيكون في المستقبل، - أما الرابعة- وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون"، إذاً علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

علم الله علم مطلق، فلذلك الإنسان حينما يعلم أن الله يعلم يستقيم على أمره:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

اختار الله من أسمائه القدير والعليم، معنى ذلك أن هذين الاسمين وحدهما يكفيان كي تستقيم على أمر الله، هو يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

نحن من حياتنا اليومية أنت حينما تركب مركبة والإشارة حمراء، والشرطي واقف، ودفتر الضبط بيده، وأنت مواطن عادي، شيء طبيعي جداً أن تلتزم بهذه الإشارة، إن تجاوزتها كُتب الضبط، ودفعت مبلغاً كبيراً، فما دمت موقناً أن هذا الشرطي يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لن تعصي أمره، لن تعصي أمر شرطي فكيف بخالق السموات والأرض الذي يعلم وسيحاسب وسيعاقب؟ والدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

المعركة بين الحق و الباطل معركة أزلية أبدية :

الله عز وجل يضيف في قرآنه الكريم:

(وَمَا نَقَمُوا)

هؤلاء المنافقين، لماذا ينقمون على هذا النبي الكريم؟ لماذا حاولوا قتله؟ ماذا فعل هذا النبي؟ جاءهم بالهدى، جاءهم بكتاب منهج الله عز وجل، هذا المنهج ليسعدهم في الدنيا والآخرة، هذا المنهج فيه أسباب سلامتهم وسعادتهم، لماذا نقموا عليه؟ ماذا فعل هذا النبي الكريم حتى كاد له الكائدون وتآمر عليه المتآمرون؟ هذه حقيقة دقيقة هي أن الطرف الآخر الذي ابتعد عن الإيمان لا يحب الحق أن ينتشر، لأن انتشار الحق يفضحه، فدائماً وأبداً هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، هذه المعركة قديمة، ودائماً أقول: الباطل موجود في كل مكان في الأرض، لكن بطولة المسلم وبطولة المؤمن ألا يسمح للباطل أن ينفرد بالساحة، هناك باطل لكن هناك حق، هناك أماكن مستنيرة كالمساجد فيها دعوة إلى الله، وتعريف بالإنسان، وهناك أماكن فيها معاص وآثام، والإنسان مخير، ولأن الإنسان مخير يثمن عمله، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

الفرق الكبير بين مقام الألوهية ومقام البشرية :

لذلك هذا الذي حصل في عهد النبي الكريم في هذه الغزوة يعد درساً بليغاً لنا نحن من بعده، هذه الوقائع التي وقعت في عهد النبي منهجاً حركياً لنا، والذين قالوا: إن سنة النبي هي أقواله وأفعاله

أصابوا الحقيقة، أقواله وأفعاله وإقراره، فالنبي معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره، من عصمه؟ الله عز وجل، هو كماله مطلق لكن عصمته أيضاً مؤكدة بالقرآن الكريم، لكن كتعليق لطيف الله سبحانه وتعالى ترك لهذا النبي الكريم هامشاً ضيقاً جداً، هامشاً اجتهادياً، فإذا اجتهد النبي الكريم من أجل أن يؤكد الله لأمته من بعده أنه بشر، فإذا اجتهد من خلال هذا الهامش الذي ترك له، وهو ضيق جداً، ولم يكن اجتهاده كما ينبغي فيأتي الوحي ليصحح له اجتهاده، معنى ذلك أن هناك فرق كبير بين مقام الألوهية ومقام البشرية، هو بشر وقد قال عن نفسه:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

الآية الكريمة:

(وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

نقموا تعني كرهوا، لأن الغنى لا يكره، أما لأنه جاء عن طريق النبي، فهؤلاء الذين تحدث الله عنهم بعد مجيء النبي اغتنوا وتعاونوا، لكن الذين ابتعدوا عن الدين ما أرادوا هذا النصر للمؤمنين.

المنافق كافر عاش في جو إيماني فأظهر الإيمان وأخفى الكفر والعصيان :

وقد قال بعض المفسرين: وقبل أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم كان الذين كرهوا مجيء رسول الله إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا في الإسلام أخذوا من الغنائم وأغناهم الله، بل إن الجلاس بن سويد هذا الذي أراد هذه الفتنة، لما قُتل له غلام دفع له النبي عليه الصلاة والسلام اثني عشرة ألف درهم دية له، إذاً قد جاء على يد رسول الله الغنى للجميع، حتى المنافقين، فهل هذا أمر تكرهونه؟ طبعاً لا، ولكنه دليل على فساد طباعهم، وعدم إنصافهم في الحكم، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناهم بمجيء رسوله ما كان يصح أن يعاب ذلك على النبي الكريم، بل كان يجب أن يمدح به وأن يتفانوا بالإيمان بعد ذلك، هذا المنافق يأتيه الخير في الدنيا ومع ذلك يعادي أهل الحق، الحقيقة أن المنافق كافر، لكنه عاش في جو إيماني أراد أن يكسب مكاسب إيمانية، فأظهر الإيمان، وأخفى الكفر والعصيان.

باب التوبة مفتوح على مصارعه لكل إنسان :

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

الآن إضافة إلى ما حدث، إضافة إلى ما لم يعلم النبي بذلك، هموا بقتله، وهموا

(بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

والله عز وجل كما قال:

(يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس)

[سورة المائدة الآية: 67]

النبي معه رسالة، أما حينما تقرأ قوله تعالى:

(أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ)

[سورة آل عمران الآية: 144]

طبعاً قد يقتل النبي بعد أداء الرسالة، لكن ما دام يؤدي الرسالة الله عز وجل يعصمه من الناس حتى يؤدي الرسالة.

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

المنافقون الذين أظهروا الإيمان، أخذوا الغنائم، واغتنوا بعد مجيء رسول الله إليهم، الشيء الذي يلفت النظر أن هؤلاء الكفار، والذين أعلنوا إيمانهم كانوا منافقين، هؤلاء يقول الله عنهم:

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ)

أي باب التوبة مفتوح على مصراعيه لكل إنسان، لكل إنسان كافر، أو منافق، أو عاص، أو آثم، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 27]

والله يحب التوابين، ويحب المتطهرين:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري على العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا أنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

شيء دقيق جداً، الله عز وجل حبيب، أو طبيب، إن أطعته فهو الحبيب، وإن عصيته فهو الطبيب.

((أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا أنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

الدين أن تتعاون مع جهة واحدة هي الله عز وجل :

إذاً الآية الكريمة:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

الإله يعلم، يعلم السر وأخفى،

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)

فما كل شيء تريده يقع، الأمر بيد الله وحده:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

الإنسان لا يسمح الله له بفعل إلا لحكمة بالغة، وقد يريد أشياء كثيرة، لكن هذه الأشياء بعضها يحقق لحكمة بالغة وبعضها لا يحقق، الإنسان حينما يؤمن بالتوحيد، والدين هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ما التوحيد؟ ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى يد الله وحدها تعمل، التوحيد أن ترى أنه لا رافع ولا خافض إلا الله، ولا معز ولا مذل إلا الله، ولا معطي ولا مانع إلا الله، هذا التوحيد يجعلك تتوجه إلى الله وحده، والدين توحيد، والدين أن تتعاون مع جهة واحدة هي الله، إنه يعلم، لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى قسم، الله يعلم، يعلم كل ما يخطر في بالك، يعلم حركاتك وسكناتك، يعلم سرك وعلانيتك، يعلم ما تبطنه وما تظهره، فحينما تتعامل مع الله على أنه يعلم لابد من أن تنضبط، لذلك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته تتسع لكل شيء، حتى حينما تستمع إلى قصة أن هناك مرض عضال كالورم خبيث تم شفاؤه ذاتياً هذا شيء لا يستغرب أبداً، شيء طبيعي جداً، كن فيكون، زل فيزول، لذلك أنت حينما تتعرف إلى الله أنت مع من؟ مع خالق السموات والأرض، مع من:

(أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

مع أن إرادة الله عز وجل تعمل وحدها في الكون، فإذا كنت مع القوي أنت قوي، أخذت قوتك من قوته، إذا كنت مع الغني أنت تستغني عن الناس، إذا كنت مع العزيز أنت تعز نفسك، لا تذلها، وقد ورد أنه:

((لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نفسَهُ))

[أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان]

عظمة هذا الدين أنه يقوم على الوازع الداخلي :

لذلك عظمة هذا الدين أن الإنسان باتصاله بالله يشتق الكمال من الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

هذا نهي الوازع لا نهي الرادع، نهي ذاتي، عظمة هذا الدين أنه يقوم على الوازع الداخلي. قال: يا أيها الراعي بعني هذه الشاة وخذ ثمنها؟ قال له: ليست لي- لسيدنا عمر، أو لابن سيدنا عمر في بعض الروايات- قال له: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة لثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله؟.

هذا الراعي وضع يده على حقيقة الدين، وأنت في اللحظة التي تقول فيها أين الله؟ لا أفعل هذا، أنت مؤمن ورب الكعبة، أما هذا الذي يفعل شيئاً في الخفاء ويبدو أمام الناس في أحلى مظهر ديني فهو إنسان لا يعرف الله إطلاقاً، والمؤمن الحقيقي ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، سره كعلانيته، وعلانيته كسره، لا يوجد عنده شيء مخفي، لا يوجد عنده موقف مزدوج، لا يوجد عنده موقف معلن وموقف مستهلك، لا يوجد عنده شيء إطلاقاً، عنده موقف واحد، فلذلك كما قال النبي الكريم:

((لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

الإنسان بلحظة واحدة ينتقل من عالم إلى عالم :

إذاً نعود لهذه الآية:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)

يروى أن رجلاً زعيماً كبيراً من زعماء قبائل العربية جاء إلى المدينة ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام هو نعيم بن مسعود، كان زعيم غطفان، وله شأن كبير، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، وهو في المعسكر خارج المدينة استيقظ ليلاً- أما أنا تأثرت تأثراً بالغاً في الحوار الذاتي، الحوار الذاتي شيء مهم جداً- قال: يا نُعيم- يخاطب نفسه- ما الذي جاء بك إلى هنا؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل؟ ماذا فعل هذا الرجل؟ هل سفك دماً؟ هل انتهك عرضاً؟ هل سلب مالاً؟ أين عقلك يا نُعيم؟ انظر إلى هذا الحوار، هذا الحوار الذاتي، المنطقي، العقلاني، الهادئ، الواقعي، سبب إسلامه، فلما وجد نفسه بحالة غير مقبولة، يحارب إنساناً يدعو إلى الأخلاق، إلى الرحمة، إلى العدل، إلى الإنصاف،

فقال: أين عقلك يا نعيم؟ فقام من توه، وتجاوز الحد بين المشركين - الذي جاؤوا ليقاتلوا النبي- وبين المؤمنين، ودخل على النبي الكريم، النبي تعجب منه أشد العجب، قال له: نُعيم؟ قال: نُعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً فلما أسلم بدقيقة واحدة انتقل من عالم الكفر إلى عالم الإيمان، قال له: ائمرني بما تشاء، قال له: أنت واحد يا نُعيم، قال له: ائمرني، قال له: خذل عنا، فلأنه عند اليهود مشرك، ومع الطرف الآخر، استطاع أن يجري الله الخير على يديه، ومعركة الخندق انتهت بهزيمة الكفار، والعنصر الفعال في ذلك هو نُعيم بن مسعود.

أنت حينما تعرف الله الدنيا كلها فتحت لك، أنت حينما تعرف الله، الله عز وجل يوظفك عنده بأعمال كبيرة جداً.

فهذا الرجل كان مشركاً، وسيموت مشركاً، وسيدخل جهنم إلى أبد الآبدين، لحظة تفكير منطقي، واقعي، عقلاني، لماذا جئت إلى هنا؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل؟ ماذا فعل هذا الرجل؟ هو دعا إلى الله، دعا إلى الفضيلة، دعا إلى الصدق، إلى الأمانة، إلى الإخلاص، فآمن.

فلذلك الإنسان بلحظة واحدة ينتقل من عالم إلى عالم.

الله عز وجل ينتظرنا أن نتوب إليه ويحبنا إذا تبنا إليه :

إذاً الله عز وجل يقول لهؤلاء الذين ائتمروا على النبي وأرادوا قتله:

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ)

باب التوبة مفتوح على مصارعه كلها، والله ينتظر أن نتوب إليه، ويحبنا إذا تبنا إليه، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

في الدنيا هناك عذاب، وفي الآخرة هناك عذاب، الذي يعجب له الإنسان أن الإنسان حينما يتحرك بلا هدف، وبلا مبادئ صحيحة، وبلا حقائق يقينية، يتحرك حركة عشوائية، قد تكون هذه الحركة العشوائية بلا دليل، بلا حقائق، بلا منطلقات صحيحة، هذه الحركة تكون سبب هلاكه الأبدي في الدنيا والآخرة.

فهذا الرجل الذي تحدثت عنه نُعيم بن مسعود، فكر تفكيراً صحيحاً، بلحظة تفكير صائبة، واقعية، ناصعة، بيضاء، آمن برسول الله، كان مشركاً فصار من كبار الصحابة، وقد أجرى الله الخير على يديه، وكانت هذه المعركة معركة الخندق قد انتهت بانتصار المسلمين، وهو عنصر فعال في هذا النصر.

البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما :

(وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

عجيب، سعادة في الدنيا والآخرة أو شقاء في الدنيا أو الآخرة؟ ذلك أن البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما، دقق:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، هذا الإيمان، هذا التصديق دفعه إلى أن يتجنب معصية الله، اتقى أن يعصيه، وهذا التصديق إلى الجنة دفعك إلى أن تتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، هذه زمرة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الطرف الثاني:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا فقط، فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، لذلك الهرم البشري يقع على رأسه زمرتان، زمرة الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، وشتان بين أن تملك رقبة الإنسان أو أن تملك قلبه، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، بعد ألف وأربعمئة عام يمدح النبي، والأقوياء في حضرتهم فقط، بل في غيبتهم قد تذمهم، والبطولة في الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء حتى يحبهم الناس.

فلذلك أنا أتمنى من الأخوة المشاهدين أن يكونوا أتباع نبي، لأن أتبع الأنبياء يتخلقون بأخلاق الأنبياء، هناك صدق، وأمانة، ورحمة، وتواضع، وإنصاف، هذه الأخلاق التي جاء بها النبي، النجاشي سأل أحد أصحاب النبي سيدنا جعفر عن الإسلام فقال له:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

وهذا هو المنهج الأخلاقي لهذا الدين العظيم، هذه العبادة التعاملية فضلاً عن العبادة الشعائرية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (53-70) : تفسير الآيات 75-77، العهد الصادق مع الله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-05-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر من خلال القرآن الكريم مؤمنون وكافرون ومنافقون :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الخامسة والسبعين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

أيها الأخوة، لا زلنا في سياق الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وشيء لا يغيب عنكم أن البشر من خلال القرآن الكريم مؤمنون، وكافرون، ومنافقون، المؤمن هو الذي عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، بينما الكافر هو الذي غفل عن الله، بل أنكر وجوده أحياناً، وتفلت من منهجه فعلاً، ثم أساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذا هو أصل التقسيم، إنسان عرف الله، فانضبط بمهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، هذا أصل التقسيم.

ولكن فئة من الناس أرادت أن تجمع بين التفلت وبين مكاسب المؤمنين، فأظهرت الإيمان، وأخفت الكفر والنفاق، هذا الذي أظهر الإيمان وأخفى الكفر هو منافق، له ظاهر وله باطن، له موقف معلن وله موقف حقيقي، له سر يناقض علانيته وله باطن يناقض ظاهره، فهذا الإنسان ازدواجي، له شخصيتان، موقفان، منطلقان، هذا الإنسان سماه الله منافقاً.

المنافق في الدرك الأسفل من النار لأنه جمع بين التفلت وبين مكاسب المؤمن :

أيضاً لا يغيب عنكم أن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

ذلك أن الكافر واضح، فأنت أخذت منه احتياطاً، أعلن لك كفره، لن تصغي إليه، لن تأخذ بإرشاداته، لن تلتقي معه، أما المنافق فأظهر الإيمان، وأنت بشر، لا تعلم الحقائق الباطنة فصدقته، فإذا به يغدر بك.

لذلك الله عز وجل حينما قال:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

لأنهم جمعوا بين التفلت في السلوك وبين مكاسب المؤمنين، لذلك سياق الآيات يتحدث عن هؤلاء المنافقين، قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ)

ولا شك أن كل واحد من المؤمنين إذا أدى عمرة، أو أدى حجة لبيت الله الحرام، وهو يقترب من الحجر الأسود يقول له: يا رب عهداً على طاعتك، ولكن الشيء المؤلم أن الله عز وجل يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

[سورة الأعراف الآية: 102]

المؤمن إذا عاهد الله فهو عند هذا العهد :

بطولتك أنك إذا عاهدت رسول الله عز وجل أن تكون عند هذا العهد، فالمؤمن إذا عاهد الله هو عند هذا العهد، لذلك قال تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم]

أدى ما عليه، فحينما تشعر أنك عاهدت الله، وأنت عند عهدك، هذه مرتبة عالية في الإيمان، وكان إبراهيم عليه السلام قدوة في هذا الموضوع،

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

قال يا بني:

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات الآية: 102]

شيء رائع جداً، خضوع لمنهج الله مئة بالمئة.

لذلك هؤلاء المنافقون الحديث عنهم في هذه السورة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ)

عاهد الله:

(لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ)

أي إذا أصبحت غنياً سأنفق من هذا المال، منهم ثعلبة، منهم ابن قيس، منهم حاطب.

الحقيقة الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قال العلماء: الرزق أحياناً إما أن يكون عن طريق الأسباب، أو عن طريق التفضل، أحياناً لك تجارة، تشتري البضاعة، أو تبيعها، الفرق بين سعر الشراء والمبيع هو الربح، فأنت كسبت هذا المال عن طريق الأخذ بالأسباب، لكن أحياناً الإنسان يأتيه مبلغ كبير، من دون جهد كبير، هذا الرزق تفضلي، إذاً هناك رزق عن طريق الأسباب، وهناك رزق فضلي.

أنواع النصر :

بالمناسبة كما يقال دائماً: الشيء بالشيء يذكر، الله عز وجل حينما تحدث عن النصر قال: هناك نصر استحقاقي، وهناك نصر تفضلي، وهناك نصر كوني، أما الاستحقاقي فهؤلاء الصحابة الكرام في بدر حينما أخلصوا لله عز وجل، واصطلحوا مع الله، وواجهوا جيشاً كبيراً مسلحاً مع صناديد قريش، وهم يريدون أن يلغوا الإسلام أصلاً، الله عز وجل نصرهم قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية: 123]

قال العلماء: هذا هو النصر الاستحقاقي، لكن الله تعالى قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

هذا النصر الثاني ليس استحقاقياً ولكنه نصر تفضلي، وأحياناً الطرفان المتقاتلان بعيدان عن الدين بعد الأرض عن السماء، من الذي ينتصر؟ الأقوى، الذي يملك سلاحاً متطوراً أكثر، مداه المجدي أكبر، فهناك نصر كوني لا علاقة للإيمان والكفر بهذا النصر، قضية أسلحة، قضية إعداد، قضية خطط، قضية إستراتيجية دقيقة، فهناك نصر كوني، وهذا يكون بين الطرفين البعيدين عن الله عز وجل، أما أحياناً فالله عز وجل ينصر المؤمنين لا نصراً استحقاقياً لكن نصراً تفضلياً لحكمة بالغة، وهناك نصر بالأساس استحقاقي.

من اصطلح مع الله عز وجل تولى الله حياته بالتوفيق والسداد :

لذلك أيضاً يوجد رزق عن طريق الأسباب، لكن أحياناً الإنسان بطريقة أو بأخرى يأتيه رزق وفير عن طريق التفضل.

فلذلك:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

هذا عهد، والشيء الذي يملأ القلب حسرة أن الإنسان حينما يعاهد الله عز وجل ثم يخلف عهده يصغر بعين الله، بل يسقط من عين الله، وأقول لكم هذه الكلمة: سقوط الإنسان من السماء إلى الأرض ومع هذا السقوط تنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، البطولة أن تكون عند الله مقرباً، أن تكون عند الله صادقاً، أن تكون عند الله طائعاً.

فالإنسان علاقته بالله سبب سعادته وشقائه، هناك مصطلح معاصر يقال: هذا شيء مصيري، يوجد أشياء كثيرة جداً ليست مصيرية، لكن هناك أشياء في الحياة مصيرية.

وأوضح مثل الطالب عندما ينجح من الصف السابع إلى الثامن، من الثامن إلى التاسع، من التاسع إلى العاشر، أما إذا وصل إلى الشهادة الثانوية فعلامات نجاحه تحدد مصيره في الحياة إما طبيب، أو مهندس، أو، أو، بحسب الأنظمة في بعض البلاد، حينما ينال علامات عالية جداً يدخل كلية الطب، إذاً النجاح في هذه السنة نجاح مصيري، يحدد مصير الطالب، هذا للتقريب.

وبحياة الإنسان أشياء مصيرية، فإذا استقام على أمر الله حفظه الله عز وجل:

((احفظ الله يَحْفَظْكَ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس]

إذا اصطلح مع الله عز وجل تولى الله حياته بالتوفيق، والسداد.

سعادة الإنسان وسلامته ومستقبله منوط بطاعة الله عز وجل :

هذا ينقلنا إلى قضية دقيقة جداً سماها بعض المفسرين معية الله، الله عز وجل قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

قال العلماء: معكم بعلمه، أية حركة، أو سكنة، أو تقدم، أو تأخر، هو بعلم الله عز وجل، هو معكم بعلمه، لكن إذا قرأت القرآن فإذا بالقرآن آية:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة]

(مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

هذه المعية ليست معية عامة، لكنها معية خاصة، قال العلماء: معكم بالتوفيق، معكم بالنصر، معكم بالتأييد، معكم بالحفظ، والمقولة التي أرددها كثيراً: إذ كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ وأقول مرة ثانية: يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[السيرة النبوية]

فلذلك سعادتك، وسلامتك، ومستقبلك منوط بطاعة الله، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

مقاييس الفوز عند الله عز وجل :

الحقيقة: هناك مقاييس أرضية، وهناك مقاييس سماوية، الأرضية أن تكون غنياً، الأرضية أن تكون صحيحاً، أن تكون وسيماً أحياناً، أن تكون قوياً، هذه مقاييس الفوز الأرضية، لكنك إذا بحثت عن الفوز السماوية أن تكون عند الله فائزاً، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

أذكر آية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

يبدو من خلال هذه الآية أنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، أنك إذا اتقيت الله وصلت إلى كل شيء، أنك إذا أحببت الله أحبك كل شيء، العلاقة مع الله علاقة أساسية في حياة الإنسان، لذلك الله عز وجل خالق السموات والأرض، يحيي ويميت، بيده مقاليد الأمور، فإذا كنت معه كان الله معك، لذلك قال بعض العارفين:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا   فـإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولـذ بحمانا واحتمِ بجنابنا   لـنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل   وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا
وسلم إلينـا الأمر فيما يكن   فـما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

الناجح و الفالح :

لذلك أيها الأخوة، أنت إذا عاهدت الله وكنت عند عهدك فأنت ناجح نجاحاً حقيقياً، بل إنك فالح، والفرق دقيق جداً بين الناجح والفالح، الناجح هو الذي حقق ناجحاً في الدنيا، نجح في جمع المال، نجح في اعتلاء منصب رفيع، نجح في تربية أولاده، لكن الفالح هو الذي حقق سر وجوده، وغاية وجوده، نجح في معرفة ربه، لذلك آيات كثيرة:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة النور]

نجح في الدنيا والآخرة معاً، والنجاح محبب، والإنسان حينما ينجح يسعد بنجاحه أيما سعادة، حتى لو نجح في دراسته، أو في نيل شهادة عليا، أو في تجارته، النجاح محبب، فكيف إذا كان نجاحاً في معرفة الله؟ فكيف إذا كان نجاحاً في دخول الجنة؟ فذلك:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

وكنت أحياناً أضرب مثلاً للتقريب: إذا قال لك طفل: معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ عقب العيد أخذ من أقربائه بعض الهدايا النقدية، فالطفل يقول لك: معي مبلغ عظيم، قد يكون مئتي ليرة، لكن إذا قال مسؤول كبيرة في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قد يكون مئتي مليار دولار.

أعظم عطاء على الإطلاق معرفة الله عز وجل :

إذا قال الله عز وجل ودققوا في هذه الآية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

أي أعظم عطاء على الإطلاق أن تعرف الله، لذلك قال تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف الآية: 46]

مال من دون بنين شيء مؤلم جداً، بنون كثر من دون مال شيء مؤلم جداً

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ)

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْبَاقِيَاتُ)

[سورة الكهف الآية: 46]

بكلمة والباقيات عرّف المال والبنون، لأنهن زائلان،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ)

ماذا يفهم من كلمة المال والبنون؟ شيء زائل، لذلك كل شيء ما سوى الله فهو زائل.

ملك سأل وزيره قال له: قل لي كلمة إن كنت سعيداً أحزن، وإن كنت حزيناً أفرح، قال له: كل حال يزول، لا يوجد شيء يدوم.

النفس لا تموت لكنها تذوق الموت :

لذلك المؤمن إذا جاء إلى الدنيا، وعرف الله في هذه الدنيا، واستقام على أمره، وأحسن إلى خلقه، هذه الدنيا تقوده إلى الآخرة، الآن أحياناً نستخدم الخط البياني، طريقة حديثة في التعبير عن التطورات أحياناً، فإذا كان خط المؤمن البياني صاعداً وهذا الصعود مستمر، يبقى مستمراً حتى ما بعد الموت، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، لكن الإنسان الذي ما عرف الله، واشتغل بدنياه، وانغمس بشهواته المحرمة، قد يكون خط بيانه صاعداً صعوداً عجيباً، لكن هناك نقطة من هذا الصعود سوف يهوي إلى أسفل سافلين، فالبطولة أن يكون الخط البياني صاعداً صعوداً مستمراً.

لذلك أيها الأخوة، الآية الكريمة تذكرنا بهذا المعنى قال:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران الآية: 185]

النفس لا تموت لكنها تذوق الموت، معنى الموت أن ينفصل الجسد عن النفس، وأن تتوقف الروح، الإنسان ذاته نفسه، النفس هي التي تؤمن.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

[سورة الفجر]

أو:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

[سورة القيمة]

فنفس الإنسان ذاته، ذاته نفسه، تؤمن أو تكفر، ترقى أو تسقط، تسعد أو تشقى، هذه النفس، هذه النفس ضمن جسد، هذه النفس ترى من خلال العينين، تسمع من خلال الأذنين، تتحرك من خلال الأرجل، تبطش عن طريق اليد، فهذه النفس هي الآمرة، هي الناهية، هي السعيدة، هي الشقية، هي المحاسبة، هي المكلفة، هي المؤمنة، هي الكافرة، هذه هي النفس، هناك وعاء للنفس هو الجسد، عند الموت ينفصل الجسد عن النفس، أما القوة التي تحرك هذا الجسد فأنت بالروح ترى، بالروح تسمع، بالروح تمشي، ما دام الروح بالجسد فهناك حركة، وسمع، و بصر، وإدراك، ومحاكمة، وتكلم، ونطق.

من يتحرك بلا منهج ولا مبدأ فحركته خاسرة :

الموت انفصال النفس عن الجسد، وانقطع الإمداد الإلهي عن طريق الروح، لذلك:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

معنى ذلك النفس تذوق الموت ولا تموت، لذلك الخلود إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، القرار خطير جداً، لذلك الله عز وجل يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة]

هذا الذي يتحرك بلا منهج، بلا مبدأ، بلا قيم، بلا هدف، حركة عشوائية أساسها مصلحته، أساسها شهواته، أساسها ولاءاته، هذه الحركة العشوائية حركة خطيرة جداً.

نموذج الإنسان قبل أن يعرف الله في القرآن الكريم :

لذلك أيها الأخوة، الشيء الدقيق أن القرآن الكريم قدم نماذج بشرية، مثلاً قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

الإنسان قبل أن يعرف الله هلوع، شديد الخوف، شديد الجزع، شديد الحرص.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

القرآن قدم لك نموذج الإنسان قبل أن يعرف الله:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر]

لأن مضي الزمن يستهلكه، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه فالقرآن قدم لك نماذج بشرية، مثلاً:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق]

الهدف من تقديم نماذج عن الإنسان المؤمن و الكافر و المنافق في القرآن الكريم :

قال بعض العلماء: كلمة الإنسان إذا جاءت معرفة بال تعني الإنسان قبل أن يعرف الله، فالله عز وجل قدم لك نماذج الإنسان المؤمن.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 2]

قدم لك نماذج إنسان مؤمن، إنسان كافر، إنسان منافق، وهذا حديثنا عن المنافقين، قال العلماء: هذه النماذج التي وردت في كتاب الله عن أهل الإيمان، وعن أهل الكفر والعصيان، وعن أهل النفاق والبهتان، هذه النماذج ما هدفها؟ الحقيقة هدفها خطير جداً، أنت إذا قرأت القرآن ورأيت صفات المؤمنين تنطبق عليك، فهذه نعمة لا تعدلها نعمة، تطمئن إلى عطاء الله، تطمئن إلى عدل الله، تطمئن إلى رحمة الله، إذا قرأت آيات المؤمنين ورأيتها تنطبق عليك:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآية: 3]

أي آمن بالغيب، وبالآخرة، ولم يرَ الآخرة، آمن بالله عن طريق مخلوقاته،

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

الأخلاق التي يتحلى بها المؤمن إنما اشتقها من خلال اتصاله بالله تعالى :

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

[سورة البقرة الآية: 3]

جوهر هذا الدين الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة]

من حيث العقيدة آمن بالله خالقاً، مربياً، مسيراً، آمن بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى،

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

لا خير في دين لا صلاة فيه، انعقدت صلته بالله عز وجل، اشتق من الله عز وجل من خلال هذه الصلاة مكارم الأخلاق، صار رحيماً لأنه اتصل بالرحيم، صار عدلاً لأنه اتصل بالعدل، صار لطيفاً لأنه اتصل باللطيف، كل مكارم الأخلاق التي يتحلى بها المؤمن إنما اشتقها من خلال اتصاله بالله، والدليل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية:159]

أي بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً معهم:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية:159]

إذاً القرآن قدم نماذج بشرية للبشر، وأنت إذا قرأت القرآن ينبغي أن تدقق في مدى مطابقة هذه الصفات، صفات المؤمنين عليك، فإن تطابقت فهذا خير كبير، وفضل عظيم، وإن لم تطابق فالباب مفتوح، والطريق سالك إلى الله عز وجل، باب التوبة مفتوح، فلذلك الله عز وجل وصف الإنسان أحياناً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

لأن مضي الزمن يستهلكه،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

الله سبحانه وتعالى قدم لنا في كتابه الكريم نماذج عن الأمم الطاغية أيضاً :

الآن فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى قدم لنا في كتابه الكريم نماذج بشرية، قدم لنا أيضاً نماذج عن الأمة الطاغية، فقال تعالى عن قوم عاد:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

معنى:

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

؛ أي تفوقت في شتى المجالات، وفي آية أخرى جاءت التفاصيل قال:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عمراني.

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

[سورة الشعراء]

تفوق صناعي.

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء]

تفوق عسكري، وهناك تفوق علمي:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

[سورة العنكبوت]

تفوق عمراني، تفوق صناعي، تفوق عسكري، تفوق علمي.

عاد مثال للأمة الطاغية الباغية التي تسخر طاقتها لاستغلال ما عند الآخرين :

ماذا فعلت عاد؟ قال:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

ما قال طغوا في بلدهم، قال:

(فِي الْبِلَادِ)

أحياناً هناك دول قوية جداً، أثرها السلبي وطغيانها يعم البلاد كلها تقريباً،

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر]

التفوق العمراني، والصناعي، والعسكري، والعلمي، غطرسة:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

؟ غطرسة، وكأنك ترى بعض الأمم القوية في هذا العصر تنطبق عليها هذه الصفات مئة بالمئة، فالله عز وجل فضلاً عن أنه قدم نماذج بشرية للأفراد قدم نماذج للأمم والشعوب، فالأمة الطاغية الباغية، التي تسخر طاقتها لاستغلال ما عند الآخرين من ثروات، هذه الأمة جاء ذكرها في القرآن الكريم،

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

[سورة فصلت الآية:15]

هناك ملمح دقيق في هذه الآية، ما أهلك الله قوماً إلا ذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة إلا عاد حينما أهلكها قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ)

أي ما كان فوق عاد إلا الله، صفات دقيقة تفصيلية تنطبق على أية أمة ظالمة باغية معتدية، فالله قدم نماذج، قدم نماذج للأشخاص، وقدم نماذج للشعوب، فأنت أمام قرآن من عند خالق الأكوان، أنت أمام قرآن يقدم لك نماذج.

باب التوبة مفتوح على مصارعه ما دام القلب ينبض :

الآن الشيء الذي أتمنى أن يكون واضحاً جداً أن هذه الخصائص التي ترد في القرآن عن المؤمنين مقياس لك أيها المؤمن، هل تنطبق عليك؟ إن لم تنطبق عليك، أو إن لم ينطبق بعضها عليك، فالباب مفتوح، والإصلاح سهل، ما دام القلب ينبض كل شيء يحل، باب التوبة مفتوح على مصارعه، لذلك لما أدرك فرعون الغرق قال:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

فجاء الرد الإلهي:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس الآية: 90]

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

الحقيقة هناك نقطة دقيقة جداً: أنت مخير بملايين الموضوعات، لكن اختيار قبول أو رفض، أردت الزواج عرضت عليها الزواج ليس دينها كما ينبغي، رفضتها، عرضوا عليك بيتاً صغيراً وسعره غال، رفضته، لك أن ترفض آلاف الأشياء هذا خيار قبول أو رفض، إلا أنك مع الإيمان لا تملك خيار قبول أو رفض، تملك خيار وقت فقط، خيار وقت إما أن تؤمن بالوقت المناسب، أو أن تؤمن بعد فوات الأوان، فلذلك الآية الكريمة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

الآية التالية لا تعني واحداً إنما تعني عدداً كبيراً ممن عاهدوا الله وأخلفوا عهدهم معه:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة]

أحجموا عن الإنفاق، طبعاً جاءت العبارة بصيغة الجمع، هذه الآية لا تعني واحداً كثعلبة تعني عدداً كبيراً ممن عاهدوا الله، وأخلفوا عهدهم معه،

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

[سورة التوبة]

وإذا رجعتم إلى كتب السيرة ترون أن هذه الآية تنطبق على ثعلبة وعلى أشخاص كثر، هؤلاء جميعاً- عكرمة أيضاً- هناك أشخاص ورد ذكرهم في السيرة النبوية عاهدوا الله، ثم أخلفوا ما وعدوه، وكيف نستنبط هذا؟ من قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ)

ما قال: فلما آتاه، من يتوهم أن هذه الآية تنطبق على واحد فقط فهذا خطأ كبير،

(فَلَمَّا آتَاهُمْ)

يعني عدد كبير منهم كما ذكر بعض المؤرخين الذين عاهدوا الله على أن ينفقوا ثم أحجموا.

إذاً هؤلاء:

(وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

بطولة الإنسان أن يحتل مكانة رفيعة عند الله عز وجل :

مرة ثانية: لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً لكنك عند الله كبير، قد تكون بمنصب متواضع جداً لكنك مؤمن، مستقيم لك مكانة عند الله، قد تكون ذا دخل قليل فالحياة خشنة في بيتك لكنك عند الله كبير، لكن المشكلة أن هؤلاء الذين:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

عظماء لكن عند الله ليسوا كذلك، فالبطولة أن تحتل مكانة عند الله، البطولة أن تكون لك عند الله مكانة رفيعة، ابتغوا الرفعة عند الله، لأن الله بيده كل شيء، بيده سعادتك، بيده رزقك، بيده أولادك، بيده زوجتك، بيده من حولك، بيده من فوقك، بيده من تحتك، بيده الأقوياء، بيده الأغنياء، بيده كل شيء، فأنت إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ)

كأني بإخوتي الكرام المشاهدين أدوا فريضة الحج أو العمرة عند الحجر الأسود الدعاء الذي علمنا إياه النبي:

((اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك وسنة نبيك، وعهداً على طاعتك))

[أخرجه الطبراني عن نافع]

فالإنسان إذا أدى الحج أو العمرة وقال عند الحجر الأسود: وعهداً على طاعتك، ينبغي ألا ينسى هذا العهد أبداً، وبطولته أن يكون عند عهده، فإذا عاهدته على الطاعة ينبغي أن تكون مطيعاً لكن الله عز وجل يقول مع الأسف الشديد:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

فكن أنت من إذا عاهد الله كنت عند هذا العهد:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (54-70) : تفسير الآيات 79-82، قانون الالتفاف والانفضاض.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-05-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر عند الله مؤمن وكافر ومنافق :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة، كما تعلمون لا زلنا في سياق الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وقد بينت لكم في لقاء سابق أن البشر عند الله مؤمن وكافر، وهناك صنف ثالث أراد أن يجمع بين تفلت الكفار وبين مكاسب المؤمنين، فأظهر الإيمان وأخفى الكفر والنفاق، فكان عند الله منافقاً، هؤلاء يلمزون أي يعيبون، ينتقدون بإشارة، بنظرة، بحركة، بعبارة، يلمزون أي ينتقدون، أو يسخرون.

والحقيقة أن المؤمن متأدب جداً مع الله، ومتأدب مع خلقه، أما كلما رأيت شيئاً لا يروق لك، تلقي على إنسان لوماً، أو تحقره، أو تزدريه، فهذه الصفات لا تليق بالمؤمن أصلاً، المؤمن ليس عياباً، ولا فحاشاً، ولا بذيئاً، المؤمن يؤلف ولا يباعد، يقرب ولا يباعد، يؤلف ولا يشمت، فصفات المؤمن صفات راقية من أين جاءته؟ من اتصاله بالله عز وجل.

قانون الالتفاف والانفضاض :

ودائماً وأبداً أقول وربما كان هذا القول مناسباً لهذه الآية:

(فَبِمَا)

الباء باء السبب.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا لنت لهم، فلما لنت لهم أحبوك، فالتفوا حولك.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

لو كان الإنسان منقطعاً عن الله عز وجل يمتلئ قلبه قسوة، والقسوة تنعكس على علاقاته مع الآخرين غلظة وفظاظة، عندئذٍ ينفض الناس من حوله، لك أن تقول أن هذه الآية تتحدث عن قانون الالتفاف والانفضاض، تتصل بالله يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، هذا اللين يدعو من حولك إلى أن يلتفوا حولك، أنت بين أحباب، بين مؤيدين، بين أنصار، بين محبين، فإذا كان القلب منقطعاً عن الله يمتلئ قسوة، وهذه القسوة تترجم في علاقته مع الآخرين غلظة وفظاظة، عندئذٍ ينفض الناس من حولك، فلك أن تقول: هذه الآية بالتعبير المعاصر تشير إلى قانون إلهي شامل وقاطع هو قانون الالتفاف والانفضاض.

المنافق يباعد ولا يؤلف بينما المؤمن يؤلف ولا يباعد :

دائماً المنافق ينتقد، يصغر، يحاول أن يحشر أنفه بشيء لا يعنيه، المنافق يصغر ما عند الناس، المنافق يفرق ولا يجمع، يباعد ولا يؤلف، بينما المؤمن يؤلف ولا يباعد، يجمع ولا يفرق، كما قال النبي:

((من فرق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

ذهبت إلى بيت أختك، البيت صغير، تنتقد هذا البيت، هذا ليس بإمكانه أن يشتري أكبر، هذا دخله محدود، اشترى هذا البيت الصغير، فلا معنى إطلاقاً أن تنتقد هذا البيت، أو ماذا أعطاك على العيد مثلاً؟ ما أعطاها شيئاً، دخله محدود، فدائماً المؤمن لا يفرق بين الأحبة، لذلك ورد:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ والمتحابون في جلالي على منابر من نور، يربطهم عليها النبيون يوم القيامة))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

بشكل أو بآخر المؤمن لا ينتقد، المؤمن يحسن الحسد، كان عليه الصلاة والسلام يحسن الحسد، لك صديق بيته صغير، لا يوجد مانع، مأوى، الدنيا مؤقتة، أنت حينما تنقل اهتماماتك إلى الآخرة، أقول لك هذه الكلمة: لا بد من أن تنعكس مقاييسك، مقياسك صار قرآنياً:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

الموت ينهي كل شيء :

المؤمن مستقيم، بوضع فقير، بوضع غني، بيته كبير، صغير، مركزه مرموق، غير مرموق، مادام قد آمن بالله واتصل به، وتخلق بأخلاق هذا الدين، وأحسن إلى خلق الله، هو فائز والفوز عظيم لأن الدنيا محدودة.

الموت أيها الأخوة ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، الموت ينهي كل شيء، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، لذلك ورد:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

أخواننا الكرام، هناك شيء دقيق جداً، أنت إذا آثرت آخرتك على دنياك وفقت فيهما معاً، أما إذا آثرت الدنيا على الآخرة فخسرت الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة، هؤلاء المنافقون الذين نحن بصدد الحديث عنهم في هذه السورة، سورة التوبة لهم صفات كثيرة، من هذه الصفات أنهم يلمزون، ينتقدون إما بالعبارة، أو بالإشارة، أو بحركة باليد، أو بغمز في العين، أي بطرق شتى.

من هو المتطوع؟

(يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من هو المتطوع؟ هو الذي أدى الفرض وزاد على الفرض تطوعاً، صلى الصلوات الخمسة، وصلى صلوات نافلة، صام رمضان، وصام الاثنين والخميس، دفع زكاة ماله، ودفع صدقة فوق زكاة ماله، الله عز وجل جعل الحد الأدنى هي الفرائض، لكن بعد الفرائض هناك نوافل، لذلك ورد:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

للتقريب الفرائض كالضريبة التي تفرضها الدولة على المواطنين، أما حينما تتبرع ببناء ليكون جامعة، يقام لك حفل تكريمي، فهذا تطوع، والإنسان في الحقيقة يزداد قرباً من الله عز وجل بالتطوع، لذلك:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

الفرائض يجب أن تؤدى شئت أم أبيت، هي الحد الأدنى من العبادة.

محاسبة الإنسان على المديح الكاذب :أما النوافل:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

ما معنى كنت سمعه؟ أي أن هذا المؤمن أي شيء يستمع إليه من خلال مبادئ وقيم فلو فرضنا أنه استمع إلى إنسان باحتيال بالغ حصّل ثروة طائلة، لا تقل هنيئاً له، فإذا قلت هنيئاً له شاركته في الإثم.

((من شهد معصية فأنكرها، كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها))

[أخرجه أبو داود عن عُرس بن عميرة الكندي]

إنسان مثلاً ارتكب عملاً غير أسلامي، غير صحيح بأميركا، وقلت أنت في مجلسك والله شاطر، جمع ثروة طائلة وعاش في بحبوحة، هل تدري أنك شاركته بالإثم؟ قضية أن تؤيد عملاً خلاف الشرع هذه شيء خطير جداً، الذي حولك أوقعتهم في مشكلة، لذلك ورد في بعض الآثار:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[ورد في الأثر]

إنسان يرتكب المعاصي جهاراً نهاراً، وزار بيتك، وأنت أثنيت عليه ثناء كبيراً أمام أولادك، ما الذي حصل؟ أوقعت أولادك في مشكلة كبيرة، يرون معاصيه وآثامه، والأب مدحه.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[ورد في الأثر]

إن لم يكن من المناسب أن ينتقد فليسكت، أنت لا تحاسب على النقد إن لم تنتقد، تحاسب على المديح الكاذب.

ما كل ذكي بعاقل :

لذلك أيها الأخوة، النقطة الدقيقة أن المتطوعين هؤلاء المؤمنون، قد يكونوا فقراء فصاموا صيام نفل، قد يكونوا فقراء فجاهدوا مع رسول الله، قد يكونوا فقراء فجمعوا أموال الزكاة حسبة لله عز وجل، فهؤلاء الذين ابتعدوا عن الدين، وأرادوا أن يجمعوا بين تفلت الكفار وبين مكاسب المؤمنين هم المنافقون، هؤلاء همهم النقد، بل إني أسميهم أحياناً القناصين، قناص، أي خطأ رآه يبالغ به، ويعرض عضلاته أمامك حيال هذا الخطأ، فالله عز وجل انتقدهم في هذه الآية:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ)

المتطوعين المؤمنين الذين أرادوا التقرب إلى الله بنوافل العبادات، صام صيام نفل، وصلى صلاة نافلة، ودفع فوق زكاة ماله مالاً، وفعل أي شيء يتقرب به إلى الله عز وجل، لذلك:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء المتطوعين:

((...حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

الآن أي شيء يستمع إليه يعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافقه قبله، وإن خالفه رفضه، أو ركله بقدمه، عندك منهج، أنت ممكن أن تقر إنساناً احتال وجمع مالاً طائلاً وتعتبره ذكياً أو عاقلاً؟ لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، قد يحمل الإنسان أعلى شهادة في العالم، الفيزياء النووية، فإن لم يعرف ربه، ولم يستقم على أمره، ولم يعمل لآخرته، فهو ليس بعاقل، نقول: هو ذكي جداً، لكن ليس بعاقل، المقولة دقيقة: ما كل ذكي بعاقل، العقل متعلق بالأشياء الكبيرة جداً، بسر مجيئك إلى الدنيا، ما عرفت ماذا بعد الموت؟ ما فكرت ما الذي يسعدك؟ ما بحثت؟ فالذي لا يبحث عن سر وجوده، وعن غاية وجوده، وعما ينبغي أن يفعله في الدنيا، يكون غير عاقل وما كل ذكي بعاقل، لأن الحياة محدودة جداً.

تعريفٌ بالأبد :

الله عز وجل خلقك للأبد، ما الأبد؟ والله أيها الأخوة لا أملك طريقة لنقلها لكم، أو لاتخاذها سبباً لتوضيح هذه الفكرة، إلا للتقريب: واحد أمامه ثلاثة أصفار ألف، ثلاثة أخر مليون، ثلاثة ثالثة ألف مليون، ثلاثة رابعة مليون مليون، ثلاثة خامسة ألف مليون مليون، ثلاثة سادسة مليون مليون مليون، من هنا إلى الشمس أصفاراً، تصور واحداً في الأرض وأصفاراً إلى الشمس، المسافة بين الأرض و الشمس مئة و ستة و خمسون مليون كيلو متر، وكل ميلي صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية صفر، أكبر رقم تتصوره إذا نسب إلى اللانهاية صفر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

اذهب إلى مدينة ساحلية، على البحر المتوسط، وأمسك بإبرة واغمسها في مياه البحر وانظر بكم حملت من ماء البحر:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

لذلك:

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظالموا، يا عبادي كُلُّكم عار إلا مَنْ كَسوْتُه، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أتْقَى قلب رجل

واحدِ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجرِ قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم ، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدخِلَ البحرَ، ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

المنافقون يصغرون المؤمنين و أعمالهم :

إذاً أيها الأخوة، هؤلاء المتطوعون الذين يقومون بالنوافل، بنوافل العبادات، يصلي صلوات نافلة، يصوم الاثنين والخميس مثلاً، يدفع زكاة ماله، وفوق زكاة ماله صدقات، فهذا المتطوع الذي يقوم بعبادات تزيد عن الفرائض، هذا المتطوع يرى نقداً حاداً من المنافقين، والحديث عن المنافقين:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ)

واللمز والغمز نوع من الانتقاد، انتقاد مرة باللسان، مرة بالعين، مرة بعلائم الوجه- بحركات الوجه- مرة بالإشارة، مرة بالعبارة، مرة بالموقف، مرة بالابتسامة الساخرة، هذه هو اللمز والغمز، هؤلاء المنافقون يصغرون المؤمنين، يصغرون أعمالهم، لذلك ابتغوا الرفعة عند الله،

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ)

مؤمن فقير جداً، لا يملك أن يفعل أعمالاً كبيرة، فجمع أموال الزكاة خدمة لهذا الدين، هذا ينتقده المنافق

(يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)

أي الله عز وجل يريد قلبك أن يكون محباً له، فأي عمل منك يقبله منك، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنسان لا يملك إلا جهداً قليلاً، بذله في سبيل الله، لا يملك مالاً عريضاً، فالله عز وجل يقبله منه.

حجم العمل بحجم نيته :

على كلٍّ العبرة لا أن يكون حجم المال كبيراً، أن يكون حجم الإيمان كبيراً، هؤلاء المؤمنون الفقراء الذين لا يملكون مالاً كثيراً ليدفعوه، لكنهم جمعوا أموال الصدقات خدمة لهذا الدين،

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)

لذلك: رب درهم سبق ألف درهم.

درهم تنفقه في إخلاص يسبق مئة ألف درهم أنفق في رياء، فالعمل لا يقيّم بحجمه يقيّم بالنوايا التي وراءه، من هنا قال النبي الكريم في الحديث الصحيح المتواتر:

((إنما الأعمال بالنيات))

[البخاري عن عمر بن الخطاب]

أي حجم العمل بحجم نيته، لذلك الذي أتمنى أن يكون واضحاً للأخوة المشاهدين أن الأعمال لا تقبل بل لا تقطف ثمارها إلا إذا كانت خالصة وعلى صواب، على صواب وفق السنة.

يقول لك مثلاً: إن حفلة غنائية كبيرة جداً، يرصد بيعها للأيتام، نحن نريد عملاً خالصاً وصواباً، صواباً وفق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، فالعمل الذي يقبله الله عز وجل هو العمل الذي ينطلق من منهج رسول الله، وينطوي على نية خالصة، فالإنسان الفقير الذي لا يجد إلا جهده،

(لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

غير المؤمن المنافق، عياب، قناص، كثير النقد، يبحث عن نقاط الضعف في الطرف الآخر، يبرز هذه النقاط، يسخر منه، يصغره، هذا كله يتناقض مع أخلاق المؤمنين.

من فسق خرج من حدود الله عز وجل :

لذلك يقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

هذه الآية تذكرني بآية أخرى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة الآية: 54]

إذاً هم يصلون، أما هم عند الله فكفار، هذا الذي جعل العلماء يقولون: هناك كفر دون كفر، إن آمنت بالله خالقاً، ولم تقتنع بهذا الدين، ما أديت زكاة مالك، فعدم أداء زكاة المال نوع من الكفر بالزكاة، لم تصلِّ، عدم أدائك للصلوات نوع من الكفر بالصلاة، فقالوا: هناك كفر دون كفر

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

الآية التي تشابهها:

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هؤلاء المنافقون يصلون مع رسول الله،

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هم فكفروا لأنهم فسقوا، فسقت التمرة أخرجتها من قشرتها، فكأن القشرة حد، القشرة وعاء، القشرة حدود، فالذي فسق خرج من حدود الله عز وجل.

بطولة الإنسان أن يترك هامش أمان بينه و بين المعصية :

بالمناسبة أخواننا الكرام، أنا أحب أن أبين لكم أنت أحياناً يجب أن تدع هامش أمان بينك وبين المعصية، هذا يؤكده قوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ)

[سورة الأنعام الآية:151]

لا تقترب منها، اجعل بينك وبينها هامش أمان، أوضح مثل: تيار كهربائي عشرة آلاف فولت، هذا يجب أن تبتعد عنه ثمانية أمتار، لأن هذا التيار حوله مسافة تجذب من دخل فيها فيحترق، فلا بد من حاجز، هامش أمان بينك وبين المعصية، مثلاً: الاختلاط قد يكون سبيلاً إلى الفاحشة، الاختلاط، إطلاق البصر سبيل آخر، صحبة الأراذل سبيل ثالث، فالفاحشة التي نهى الله عنها هذه الفاحشة لها أسباب، فإذا دخلت إلى أسبابها ربما قادتك هذه الأسباب إلى الفاحشة، لذلك من هو الشريف؟ الذي يهرب من أسباب الخطيئة لا من الخطيئة نفسها، وقد تكون الخطيئة بوضع معين، قد تقع فيها دون أن تتملك البعد عنها، فالبطولة أن تدع هامش أمان بينك وبينها، هذا أنا أفسره بنهر عميق جداً، والذي يمشي على شاطئه لا يتقن السباحة، هذا النهر له شاطئان، شاطئ مائل زلق، وشاطئ مستو جاف، فإذا مشى على الشاطئ المستوي الجاف فهو في أمان من أن يسقط، أما إذا مشى على الشاطئ المائل الزلق فاحتمال كبير أن يسقط الإنسان في الماء ويموت.

لذلك أبق بينك وبين المعاصي هامش أمان، هذا معنى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: 32]

فالاختلاط، وإطلاق البصر، ومتابعة الأفلام الإباحية، هذا كله أحياناً ينقل إلى الزنا، فالمؤمن الصادق يدع مسافة بينه وبين المعصية حتى لا يقع فيها.

المنافق يريد من الدين المكاسب والأشياء الممتعة :

الآية الكريمة:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

يا محمد أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

لن تفيد التأبيد

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هذا كفر دون كفر، أي كفر بالله، ما طبق منهجه كأنه ما رأى أن هذا المنهج صالح له،

(كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

لكن أحياناً المنافق هناك أشياء بالدين يحبها، يحب احتفالاً، يحب رحلة مع المؤمنين، الأشياء الممتعة له يحبها ويريد من الدين المكاسب، يريد من الدين الأشياء الممتعة، فهناك منافقون كثر الأشياء التي تريح يقبل عليها، ذلك:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

يجلسون مع النبي في المسجد، ولهم مكانة وشأن، يكون غنياً هذا يحب الإسلام الفلكلوري، إسلام فيه احتفالات، فيه رحلات، فيه وجاهات، فيه إلقاء كلمات، فيه تعظيم، فيه مدح له، لكن لا يحب إسلام الجهاد، الإسلام الذي فيه بذل، تضحية، غض بصر، ضبط نفس، هذا لا يحبه، يحب إسلاماً فلكلورياً، إسلام مهرجانات، إسلام احتفالات، إسلام كلمات رائعة، إسلام مديح، إسلام طرب أحياناً، هذا الإسلام لا يقدم ولا يؤخر.

البعيد عن الدين هو من ينتقي من الدين ما يعجبه :

لذلك:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)

هم قعدوا في مجلسه لكنهم خلافه، بمعنى هو في الجهاد هم في المدينة، في البستان، مع الماء الوفير، هو في الجهاد يقتل أعداء الدين وهم في بيوتهم مع نسائهم، فلذلك الإنسان يجب أن يأخذ الدين كله، لا أن ينتقي منه، هذا الذي ينتقي من الدين ما يعجبه ليس مؤمناً بالتعبير الصحيح.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)

هم فعلوا شيئاً خلاف ما فعل، هو في تبوك، في الجهاد، هم في المدينة قدموا أعذارهم ليتخلفوا عن الجهاد، هم يريدون الراحة، المتعة، الطعام، الشراب، الظل الظليل، الماء الوفير، لا يحبون بذل الجهد الكبير، فذلك هذا الذي ينتقي من الدين ما يعجبه هذا إنسان بعيد عن أن يكون حقيقة متديناً.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هناك أشياء في الدين مريحة، وممتعة، يقول: حضرنا احتفالاً، والله ألقيت كلمات رائعة، دعينا إلى طعام، والله كان هناك تجلياً، لكن أنت في البذل الحقيقي لا تبذل شيئاً تأخذ الميزات، تأخذ النواحي الإيجابية، تأخذ النواحي المريحة.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

مرة رجل قدم مبلغاً لجامع، بشرط أن يكتب على قطعة رخام كبيرة أن هذه المئذنة كانت عن طريق المحسن الكبير الفلان الفلاني، يريد هذه العبارة أن تكون على المئذنة، أما أن يتعامل مع الله تعامل إخلاص فليس هذا داخلاً في حساباته.

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

هذه الدنيا تنتهي، تنتهي إلى الموت، والموت في قبر، مهما كنت متمتعاً في الدنيا المتعة تنتهي، لذلك العبارة الدقيقة أكثر النعوات: سيشيع إلى مثواه الأخير، مهما اعتنيت في البيت الذي أنت فيه هناك مثوى أخير هذا القبر، هذا القبر قد يكون روضة من رياض الجنة، إذا كان العمل طيباً، وقد يكون حفرة من حفر النيران:

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

العبرة في خواتيم الأعمال :

الآن دققوا:

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة التوبة]

أي قد تضحك أولاً قليلاً، وتبكي بعد هذا الضحك كثيراً، وقد تبكي قليلاً، وبعدها تضحك كثيراً، فالعبرة في النهايات، العبرة في خواتيم الأعمال، للتقريب: معظم الأشخاص في سن الشباب متشابهون، جسمه صحيح، وقوي، يأكل ما يشاء، حركته سريعة، يصعد الدرج بسرعة، هذا النشاط الذي يتوافر في الشباب شيء قاسم مشترك بينهم جميعاً، لكن هذا الذي أمضى حياته في طاعة الله، له خريف عمر رائع جداً.

كان بالشام عالم كبير، هذا العالم بدأ التعليم بالثامنة عشرة من عمره، ومات بالثامنة والتسعين، تقريباً درس ثمانين عاماً، وله مدرسة عريقة جداً، وكل كبار أهل البلد خرجوا من هذه المدرسة، هذا وصل للثامنة والتسعين، وكان منتصب القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، وذاكرته قوية، من حوله يعجبون لهذه الصحة، وهذا القوام، وهذه الذاكرة، وهذه الحواس المرهفة، يقال له: يا سيدي ما هذه الحواس التي أكرمك الله بها؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر من عاش تقياً عاش قوياً.

إذاً البطولة أن يكون الضحك آخراً، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، هناك بداية محرقة لكن بعدها نهاية مشرقة، فالبطولة أن تطيع الله في بدايات الحياة حتى إذا وصلت إلى خريف الحياة كنت في نهاية مشرقة.

حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

الذي أتمناه للإخوة المشاهدين أن تبحث عن الحقيقة في الوقت المناسب، وأن تلتزم بها وعندئذٍ لك عند الله مستقبل كبير، والدليل الآية الكريمة:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

فأجمل شيء بحياة المؤمن أن يطمئنه، يطمئنه للمستقبل،

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

أي أنت لك عمل حجمك عند الله بحجم عملك، الآن عملك من أين يأتي؟ من معرفتك بالله، من إيمانك به، من إيمانك بالدار الآخرة، أنت حينما تؤمن بالدار الآخرة تنعكس مقاييسك انعكاساً كبيراً.

مرة سيدنا عمر أمسك تفاحة قال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت.

النبي الكريم مرة ذبح شاة ووزع لحمها، فالسيدة عائشة قالت له: يا رسول الله، لم يبقَ إلا كفتها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بل بقيت كلها إلا كتفها، الذي أنفق هو الذي بقي، بل بقيت كلها إلا كتفها.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

أخواننا الكرام العبرة أن هذه الحياة الدنيا هي معبر للآخرة، فمن عرف حقيقة الحياة الدنيا كما ورد:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

لا تستقيم لإنسان، قد تمنح المال لا تمنح الأولاد، قد تمنح الأولاد لكن لا يوجد مال، قد يكون لك أولاد ومال لكن لا يوجد صحة، هناك صحة لكن لا يوجد راحة بال.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

أيها الأخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع جميعاً من هذه الحقائق التي وردت في هذه السورة، هذه الحقائق لصالح المؤمن فإذا عرف الحقيقة في الوقت المناسب ينتفع بها، أما فرعون نفسه فعرف الحقيقة لكن بعد فوات الأوان حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

فقيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس الآية: 91]

فخيارك مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب أو لا بد من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (55-70) : تفسير الآيات 83-85، عقاب الله للمنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-06-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تمتع اللغة العربية في شتى بقاع الأرض بخصائص كبيرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة والثمانين وهي قوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

[سورة يوسف الآية: 2]

ولأن هذه اللغة اختارها الله لتكون لغة وحيه لذلك تتمتع لا في رأي علماء المسلمين بل في رأي علماء اللغة في شتى بقاع الأرض بخصائص كبيرة، من هذه الخصائص قضية التصرف.

على كلٍّ لهذا الموضوع بحث طويل لكن نكتفي من هذا الموضوع في قوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

هناك آية أخرى عن سيدنا موسى أنه:

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

[سورة الأعراف الآية: 150]

هناك رجعناك، وهناك رجع، ما الفرق بينهما؟ هذا الفعل يأتي فعلاً لازماً، وفعلاً متعدياً، والحقيقة أن الكلمة في اللغة العربية اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما دل على شيء، إنسان حيوان، نبات، جماد، الاسم ما دل على شيء، والفعل ما دلّ على حدث، الفعل يحتاج إلى فاعل ويحتاج إلى مفعول، لكن أحياناً يأتي الفعل مكتفياً بفاعله، نقول: هذا فعل لازم يكتفي بفاعله، كأن تقول: حضر فلان، أو نام فلان، أو غضب فلان، لكن أحياناً الفعل يحتاج إلى مفعول به تقول: أكل الطفل التفاحة، فالتفاحة مفعول به وقع عليه فعل الفاعل.

إلا أن الأفعال من بعضها يكون تارةً لازماً ويكون تارةً متعدياً، وهذا الفعل الذي تبدأ به الآية من هذا النوع.

النبي الكريم معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره :

الله عز وجل في آيات أخرى يصف سيدنا موسى:

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

أما هنا الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

فالكاف ضمير متصل في محل مفعول به

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

فعل لازم، اكتفى بفاعله، أما

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

ففعل متعد والمفعول به هو الكاف، إما أن يكون الفعل لازماً فيكتفي بفاعله، أو أن يكون فعلاً متعدياً فيحتاج إلى مفعول به، وقع عليه فعل الفاعل.
لكن ما الحكمة أن يكون الرجوع لازماً أو متعدياً؟ سيدنا موسى اتخذ قراراً ذاتياً

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

لكن الآية الكريمة

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

حركات النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الله عز وجل، كل حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله، ومواقفه، وإقراره، هذه سنة، هذا منهج، هذا تشريع، لذلك إذا قلت سنة النبي تعني أقواله، وتعني أفعاله، وتعني إقراره، وتعني مواقفه، وتعني صفاته، هذه سنة النبي.
والنبي عليه الصلاة والسلام بالمناسبة معصوم، عصمه الله من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، لذلك أمرنا أن نأخذ عنه، فقال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية: 7]

إذاً عودة سريعة إلى بعض مصطلحات اللغة، الكلمة في اللغة تكون اسماً، أو فعلاً، أو حرفاً، الاسم ما دلّ على شيء، إنسان، حيوان، نبات، جماد، الفعل ما دلّ على حدث، حدث وقوع شيء، أكل، شرب،

خرج، حضر، أتى، كسر، ضرب، قتل، الفعل ما دلّ على حدث، هذا الفعل إن وقع في الماضي فهو فعل ماض، إن وقع الآن أو في المستقبل فهو فعل مضارع.

القرار إن كان من ذات الإنسان واستخدمنا كلمة رجع معنى هذا أنه قرار داخلي :

الآن الكلمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ)

فالكاف ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، هنا الفعل متعد، فلما

(رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)

هذا فعل لازم، فالقرار إن كان من ذات الإنسان واستخدمنا كلمة رجع معناه قرار داخلي، أما إذا كان لفعل متعدٍّ كقوله تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ)

فهذا فعل متعد بمعنى أنه يحتاج إلى مفعول به، والكاف كاف الخطاب ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به.

إذاً الله أرجعه، هذا يفهم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله، وإقراره تشريع، لأن الله عصمه، فلما عصمه أمرنا أن نأخذ عنه كل شيء.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

الفرق بين مقام الألوهية و مقام البشرية :

لكن قد يسأل سائل: لعل الله عز وجل لحكمة بالغة بالغةٍ ترك له هامشًا اجتهادياً ضيقاً جداً، فالنبي الكريم إذا جاء اجتهاده وفق ما ينبغي أقره الوحي على اجتهاده، فإن فرضاً جاء اجتهاده بخلاف ما ينبغي فالوحي يصحح له، لماذا هذا؟ لماذا ترك الله لنبيه المعصوم هامشاً اجتهادياً ضيقاً؟ إن اجتهد النبي الكريم وأصاب في اجتهاده أقره الوحي على ذلك وانتهى الأمر، لكن فرضاً إن جاء اجتهاده بخلاف ما ينبغي لأنه بشر فيأتي الوحي ويصحح له لماذا؟:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 43]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

فإذا جاء اجتهاد النبي بخلاف ما ينبغي فيأتي الوحي ويصحح له، لماذا؟ السؤال الآن لماذا ترك الله عز وجل للنبي هامشاً اجتهادياً؟ ليكون هناك فرقاً بين مقام الألوهية، ومقام البشرية النبي بشر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف الآية: 110]

لئلا يؤله فيما بعد.

((اللهم إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

لكن ملاحظة أخرى ودقيقة: لأن الأنبياء بشر، ولأنه تجري عليهم كل خصائص البشر، كانوا سادة البشر، هو يشتهي كما نشتهي، ويتألم كما نتألم، ويغضب كما نغضب، ويرضى كما نرضى، لأنه بشر، ولأنه تجري عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر، لأنه انتصر على بشريته.

والنبي الكريم هناك من يقول- وهذه شطحة فيما أعتقد - إن الكون خُلق من أجل محمد، أنا أقول البشر خلقوا ليكونوا على شاكلة محمد، هو قدوة هم.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

[سورة الأحزاب الآية: 21]

المبادئ والقيم إذا أخذت من بطون الكتب تنتهي إلى الكتب :

الأخلاق، والمبادئ، والقيم، إن كانت في بطون الكتب لا يتأثر بها، يتأثر بها إذا رأى إنساناً أمامه يتمثل به، لذلك قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، الذي يؤثر في الناس أن يروا الآن مسلماً صادقاً، مسلماً أميناً، مسلماً مخلصاً، مسلماً ورعاً، هذه القيم الأخلاقية ينبغي أن تكون متمثلة في إنسان، تراه بعينيك، ترى خطواته، ترى أخلاقه، ترى عطاءه، ترى ورعه، ترى حلمه، ترى رحمته، ترى قربه من الله، فلذلك المبادئ والقيم إذا أُخذت من بطون الكتب تنتهي إلى الكتب، أما إذا أُخذت من واقع الحياة فتؤثر في الحياة.

لذلك النبي الواحد أهدى للبشرية شيئاً أفضل من آلاف الكتّاب، لماذا؟ لأن الناس رأوا فيه صدقاً، ما رأوا مسافة بين أقواله وأفعاله، ما رأوا تناقضاً بين واقعه وبين مآله.

لذلك أيها الأخوة، قضية القدوة شيء مهم جداً، والشيء بالشيء يذكر، إن أردت أن تكون داعية ينبغي أن تكون قدوة قبل أن تنطق، القدوة قبل الدعوة، إن أردت أن تكون داعية ينبغي أن تكون محسناً، ينبغي أن تفتح قلوب من حولك بإحسانك ليفتحوا لك عقلهم لبيانك، افتح قلبهم بإحسانك فيفتحوا لك عقلهم لبيانك.

المؤمن ما لم يبذل من وقته و جهده و ماله لن يصل إلى الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

كأن النبي الكريم ذهب إلى الجهاد، وفي المدينة من تخلف عنه، هناك من تخلف عنه لضعفه، أو لمرضه، أو لفقره، أو لأنه لم يجد ما يحمل نفسه عليه، هؤلاء ليسوا معنيين بهذه الآية، لكن الأقوياء والأغنياء الذين تخلفوا عنه هم من تعينهم هذه الآية، لذلك دقة القرآن عجيبة قال:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ)

لم يقل إليهم، قال:

(إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

إلى هؤلاء الأقوياء، إلى هؤلاء الأغنياء الذين تخلفوا عنه وخالفوا منهجه، ولم يبذلوا، الحقيقة المؤمن ما لم يبذل من وقته، من ماله، من جاهه، من صحته، من أي شيء يملكه، لن يصل إلى الله عز وجل.

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية:92]

فيبدو أن معركة مؤتة في الصيف، والحر لا يحتمل، والمسافة طويلة، ولكن بعدت عليهم الشقة، والخطر كبير سيواجهون الروم، وما أدراك ما الروم، فالعدو شرس، وقوي جداً، والمسافة طويلة جداً، والحر لا يحتمل، فهؤلاء ضعاف الإيمان تخلفوا عن رسول الله، هؤلاء المعنيون بهذه الآيات، أما الفقير الذي لم يجد ما تحمله عليه، وتولى وأعينه تفيض من الدمع حزناً لأنه لم يكسب شرف مشاركة النبي في الجهاد، هؤلاء المرضى، الضعاف، الفقراء، الصغار، الكبار، فليسوا معنيين بهذه الآية.

المنافق تحركه الغنائم و ليست طاعة الله عز وجل :

لذلك قال تعالى:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

هؤلاء المنافقون، والحديث في هذه الآيات من سورة التوبة عن المنافقين، هذا الذي يجد ويبخل، هذا الذي لا يحب أن يساهم، هذا الذي أراد أن يكون مرتاحاً في الدنيا سوف يعاني ما يعاني يوم القيامة.

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

طبعاً هذا نبي الله، والله عز وجل يؤيده بنصره، فحينما توجه النبي مع أصحابه المخلصين، الصادقين إلى ساحات الوغى، وعادوا بالغنائم، المنافقون رأوا الغنائم، مكاسب كبيرة، لذلك تمنوا أن يكونوا معهم، مادام هناك غنائم، ما الذي يحرك البعيد عن الله عز وجل؟ تحركه المادة، مادام هناك مكاسب مادية، مادام هناك أموال يشارك، لذلك النبي الكريم حينما ذهب إلى الجهاد ومعه أصحابه الصادقين، المخلصين، وعادوا بالغنائم، تمنى المنافقون أن يكونوا معهم، قال:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ)

المعركة القادمة استأذنوه بالخروج، ما الذي حركهم؟ ليس طاعة الله، لم تحركهم طاعة الله، بل حركتهم المغانم، والغنائم والمكاسب المادية،

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

سبحان الله! لعله أكبر عقاب من الله لهؤلاء المنافقين أنهم محيت أسماؤهم من قائمة المجاهدين، والحديث:

((من لم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمه من النفاق، والجهاد ذروة سنام الإسلام))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أنواع الجهاد :

1 - جهاد النفس و الهوى :

والجهاد الحقيقي بالتعبيرات الدقيقة مراحله عديدة، هناك جهاد النفس والهوى فأنت حينما تحمل نفسك على طاعة الله، فهذا جهاد، هذا من جهاد النفس والهوى، وأنت حينما تمتنع عن كل معصية ومخالفة هذا من الجهاد، وحينما تبذل المال من أجل طاعة الله هذا جهاد، حينما تبذل الوقت، الجهد، المكانة، كل شيء تقدمه، وكل شيء تمتنع عنه هذا من الجهاد، وهذا الجهاد أصل كل جهاد هذا جهاد النفس

والهوى، والمسلمون يتوهمون أحياناً أنه إذا ذكرت كلمة الجهاد تقفز إلى أذهانهم كلمة القتال، هناك أنواع من الجهاد غير القتال، والدليل جاهد تشاهد كما قالوا.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

أي جاهدوا أنفسهم، حملوها على طاعة الله، أبعدوها عن معصية الله، حملوها على البذل والعطاء، جاهدوا بأموالهم وبأنفسهم، فهذا الجهاد فرض في الإسلام، بل هو فرض عين أحياناً.

أيها الأخوة الكرام،

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

وهذه خسارة لا تعدلها خسارة، أن الله سبحانه وتعالى حذف أسماءهم من قائمة المجاهدين، بل منعهم أن يجاهدوا مع رسول الله، وقد حرموا هذا الفضل الكبير، والإنسان في الدنيا حجمه بحجم عمله الصالح فقط، جئت إلى الدنيا كي تعمل عملاً صالحاً يكون ثمناً لدخول الجنة، فالذي حُرم من الجهاد، وكما قلت قبل قليل: هناك جهاد النفس والهوى، وهو أصل كل جهاد، كيف أن التعليم الأساسي هو أساس التعليم، ثم التعليم الثانوي، ثم التعليم الجامعي، ثم الدراسات العليا، ثم الدكتوراه، فأصل كل هذه المراحل التعليمية التعليم الأساسي، فجهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي الذي هو فرض عين على كل مسلم، والدليل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت الآية: 69]

2 ـ الجهاد الدعوي :

ولكن هناك جهاداً آخر هو الجهاد الدعوي، لابد من أن تدعو إلى الله، لابد من أن تنقل حقاً إلى الآخرين، استمعت إلى خطبة ينبغي أن تنقل مضمونها إلى من حولك، استمعت إلى درس دينين، قرأت آية، قرأت كتاباً، شاهدت مناظرة تأثرت بها، أنت حينما تنقل الذي وصلك من الحق إلى الآخر تكون جاهدت جهاداً دعوياً، جهاد النفس والهوى كالتعليم الأساسي، كالجهاد الأساسي، هناك جهاد دعوي لنقل ما تعلمت، والجهاد الدعوي فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، والدليل:

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

دليل آخر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف لآية: 108]

هذا الجهاد الدعوي.

3 ـ الجهاد البنائي :

لكن بعد الجهاد الدعوي هذه أمة و هناك أمة أخرى قد تعتدي عليها، قد تحاربها، قد تسخرها لمصالحها، فلابد من جهاد بنائي، والجهاد البنائي أن تتقن عملك وأن تطوره، كل إنسان بمكانه، المعلم في صفه، الموظف في دائرته، التاجر في دكانه، كل إنسان بحسب ما أقامه الله، أنا أقول دائماً: الجهاد البنائي فيما أقامك الله، هذه امرأة، قال النبي الكريم:

((اعلمِي أيتها المرأة وأعلمِي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

هذه المرأة تعبد الله فيما أقامها، أقامها أماً، أقامها زوجة، أقامها بنتاً، أقامها في أي مجال يبغي أن تعبد الله فيه.

لذلك الغني عبادته إنفاق المال، أقامه الله غنياً، والقوي عبادته إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والعالم نقل العلم للآخرين.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

فالعالم له عبادة نشر الحق، والقوي له عبادة إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والغني له عبادة إنفاق المال، فالعبادة تشمل كل طبقات المجتمع، وتدور مع الإنسان في كل شؤونه، وفي كل أحواله، وفي كل أوقاته.

الجهاد عقيدة صحيحة تنبع من داخل الإنسان :

الآية الكريمة:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ)

الآن رأوا الانتصار هؤلاء الذين تخلفوا، رأوا الغنائم، طاب لهم أن يشاركوا مرة ثانية، فجاء المنع الإلهي:

(فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ)

لن تفيد النفي مع التأبيد،

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

ما الفرق بينهما؟

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

إذا خرجنا لملاقاة العدو خارج المدينة، فلو جاء العدو إلى المدينة أيضاً ممنوعون أن يقاتلوا مع النبي الكريم، لا إذا غادرنا ولا إذا هوجمنا،

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

لأن أصل الجهاد عقيدة صحيحة، أصل الجهاد رغبة في العمل الصالح، وكل شيء لا ينبع من داخل الإنسان لا قيمة له، الإنسان قيمته في عمله الصالح، وقيمة العمل الصالح في الإخلاص، الإخلاص هذا العمل ينبع من ذاتك، ينبع من اختيارك.

الله عز وجل أرادنا أن نأتيه عن حبّ و إخلاص :

لذلك الله عز وجل هو خالقنا، ومربينا، وإلهنا، ومسيرنا، ما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة إكراه، قال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أرادنا أن نأتيه عن حب، عن إخلاص، أرادنا أن نأتيه بمبادرة منا، فلذلك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ولم يجاهدوا، وآثروا بيوتهم، والظل الظليل، والماء البارد، والراحة، وقدموا اعتذارات كثيرة للنبي الكريم، والنبي في أيام الحر الشديدة، في الصيف، والصحراء كلكم يعلم ما معنى الصحراء، ما مستوى الحر فيها، والمسافة بعيدة جداً.

(بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)

[سورة التوبة الآية: 42]

والعدو قوي جداً، الروم، فآثروا البقاء في بيوتهم، ومع أهلهم، وفي بساتينهم، هؤلاء الذين تخلفوا محيت أسماؤهم من قائمة المجاهدين.

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً)

لا إذا خرجنا للقتال، ولا إذا واجهنا العدو في بلدنا.

(إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

من هم الخالفون؟ الذين خالفوا رسول الله، قالوا:

((لَخَلُوفُ فم الصائم))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

الإنسان إذا ترك الطعام لساعات طويلة يظهر في فمه رائحة ليست مستحبة، كأن هذه الرائحة شبهوا بها، أي فسدوا، هؤلاء فاسدون، أولاً خالفوا منهج النبي، أو وقفوا موقفاً مخالفاً له، هو في مكان، هم في مكان، مكانهم في بيوتهم مع أهلهم، مع أولادهم، في بساتينهم، ينامون مرتاحون، هو في القتال وفي الجهاد.

يدافع الله عن المؤمن حينما يلهم مؤمناً أن يدافع عن أخيه :

لكن هناك ومضة لطيفة أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في مؤتة، سأل أصحابه: أين فلان؟ فبعض من الناس قال: يا رسول الله شغله بستانه عن الجهاد معك، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام، لكن الذي أفرحه قول أحد الصحابة وقد دافع عن أخيه وقال: يا رسول الله، والله لقد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولكن مانعاً منعهم، فابتسم النبي وفرح لهذا الموقف الأخلاقي.

أنت عندما تدافع عن أخيك تعرفه صادقاً، وأميناً، و عنده أمر قاهر، فإذا جاء من يغمزه، ويقلل من نشاطه وإيمانه ينبغي أن تدافع عنه، والله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج الآية: 38]

كيف يدافع عنهم؟ حينما يلهم مؤمناً أن يدافع عن أخيه، أنت كمؤمن لك أخ تعلم صدقه، وورعه، واستقامته، وهناك موقف ينبغي أن يكون فيه لم تجده، أحسن الظن به، وقيل: التمس لأخيك سبعين عذراً.

من تخلف عن رسول الله حجب عن الله و هذا أكبر عقاب له :

إذاً:

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً)

والله أنا لا أرى عقاباً من الله أشد من أن يعبدك الله عنه، الآية:

(يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين]

حُجب عن الله عز وجل، هذا عقاب كبير جداً.

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

الذين تخلفوا عن رسول الله، اقعدوا معهم، أو اقعدوا مع الذين خالفوا دعوة رسول الله، أو اقعدوا مع الفاسدين.

((لَخَلُوفُ فم الصائم))

أو إنه تخلف عن الجهاد مع رسول الله، أو أنه خالف أمر رسول الله، أو أنه حينما خالف أمر النبي الكريم شعر بصغره، وأصبح فاسداً كالرائحة الكريهة، قال:

(فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة التوبة]

المنافق إنسان فقد مكانته عند الله :

الحقيقة نحن حينما نلفظ كلمة الكفر نتوهم أن الذي أنكر وجود الله هو الكافر، هذا معنى مقبول، وقد يسمى ملحداً، لكن الكفر درجات، واسع جداً، فأنت حينما لا تصلي كأنك أنكرت فرضية الصلاة، أنت حينما لا تؤدي زكاة مالك لم تعبأ بهذا الأمر الإلهي، لذلك سيدنا سعد بن أبي وقاص له كلمة رائعة، قال:" ثلاثة أنا فيهن رجل" أي بطل.

بالمناسبة: فلان ذكر غير رجل، ذكر تعني أنه ليس أنثى، رجل تعني أنه بطل، ولحكمة بالغة كلمة رجل في القرآن والسنة لا تعني أنه ذكر بل تعني أنه بطل، قال:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية: 37]

فالآية الكريمة

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ)

هذا الإنسان فقد مكانته عند الله.

بطولة الإنسان أن ينجح مع الله عز وجل :

بالمناسبة: لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً لكن عند الله كبيراً، قد تكون مريضاً لكن عند الله كبيراً، قد تكون تعاني ما تعاني لكنك عند الله كبيراً، لكنك إن سقطت من عين الله ولو كنت غنياً، ولو كنت قوياً، هذه أشياء زائلة، تزول هذه الأموال، وتلك المكانة، ويبقى البعد عن الله عز وجل. لذلك:

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

كان مع المتخلفين، لذلك يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

[سورة يس]

قفوا جانباً، أنتم مجرمون، فالبطولة أن تنجح مع الله.

بطولة الإنسان أن يكون مع الله ووفق منهجه وفي طاعته :

البطولة أن تأتي إلى الدنيا فتعرف أنك المخلوق الأول، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

والبطولة أن تعرف أنك مكلف، مكلف أن تطيع الله، و أن تعبده، بل إن العبادة علة وجودك، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

(وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

لذلك ابن أُبيّ طلب قميص النبي، النبي كان له ثياب يرتديها تلاصق جسمه تماماً، وثياب فوق هذه الثياب، فلما طلب ابن أبي زعيم المنافقين وهو على فراش الموت، يبدو أنه كشفت له الحقيقة، فطلب قميص النبي، فالنبي يرتدي قميصاً ملاصقاً لجسمه، وقميصاً آخر فوقه، أعطاه القميص الآخر، فأصر على أن يأخذ القميص الملاصق لجسمه، أعطاه القميص، لكن هناك تعليق مخيف أعطاه قميصه، وارتدى قميصه، فقال النبي الكريم بعد أن مات ابن أبي: الآن استقر في جهنم حجراً كان يهوي به سبعين خريفاً.

البطولة أن تكون مع الله، ووفق منهج الله، وفي طاعة الله.

لذلك:

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

الإيمان بالله يحمل الإنسان على طاعته والإيمان باليوم الآخر يمنعه من أن يؤذي إنساناً:

فالإنسان إذا كان مؤمناً فالدنيا ساعة اجعلها طاعة، الله عز وجل وعد المؤمنين بالجنة، والجنة تسوى فيها الحسابات.

بالمناسبة: ما ذكر الله أركان الإيمان في القرآن أو ما ذكر ركنين من أركان الإيمان في القرآن متلازمين إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله ينبغي أن يحملك على طاعته والإيمان باليوم الآخر ينبغي أن يمنعك من أن تؤذي إنساناً.

إذاً

(وَلَا تُصَلِّ)

نهي للنبي أن يصلي

(عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

والكفر كما قيل: كفر دون كفر، الكفر دون كفر أنه ينافق مثلاً لا يطبق،

(وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

وهذه حالة ثانية خطيرة جداً، الإنسان العادي أحياناً له أعمال صالحة بحسب فطرته السليمة، لكن هذا مات وهو فاسق، لذلك الآية الكريمة:

(وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

[سورة التوبة]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (56-70) : تفسير الآيات 86-89، ما علة وجود الإنسان في الأرض؟.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-06-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة والثمانين وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، وجاء بنا إلى الدنيا كي نعرفه، وكي نلتزم منهجه، وكي نتقرب إليه، وهذا ثمن الجنة، التي خلقنا لها.

البشر نموذجان لا ثالث لهما عند الله عز وجل :

بالمناسبة: البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، هم نموذجان عند الله.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

فالإنسان إذا آمن أنه مخلوق للجنة يتقي أن يعصي الله، وإذا آمن أنه مخلوق للجنة يبني حياته على العطاء.

لذلك قرأت مرة كتاباً في السيرة لفت نظري التقديم، هذا الكتاب قُدم لرسول الله قال: يا من جئت الحياة أعطيت ولم تأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، والأقوياء يمدحون في حضرتهم، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي.

فلذلك هذا النبي الكريم أرسله الله كي يطبق المنهج الذي جاء معه، والشيء الذي يلفت النظر أن الله يقول في آية أخرى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون إذا طبقوا منهج رسول الله

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

هذه بحبوحة.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

الإيمان بالله و العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا :

لذلك الآية الكريمة:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

علة وجودك في الدنيا أن تؤمن، علة وجودك في الدنيا أن تعمل صالحاً، علة وجودك في الدنيا أن تدفع فيها ثمن الآخرة أن آمن، فالإيمان لا قيمة له إلا إذا حملك على طاعة الله، فإن لم يحملك الإيمان على طاعة الله لا يقدم ولا يؤخر، بل هو عبء عليك، وشهادة على أنك وقعت في خطأ كبير، الإيمان حجة لك أو عليك.

فلذلك:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا)

أن يعني مضمونها، مضمون هذه السورة:

(أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ)

بالله الذي خلقك، بالله الذي يربيك، يمدك بما تحتاج، بالله الذي يسيرك، الله عز وجل خالق ومربٍّ ومسير، خالق خالقك من عدم، مربّ، رب العالمين أمدك بما تحتاج، أمدك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بزوجة، بالأولاد، بالطعام، بالشراب، بالمزروعات، بالنباتات، بالأطيار، بالأسماك، أعطاك هذا الكون:

(أَنْ آمِنُوا)

أي لا شيء يعلو على الإيمان.

بل إن البشر يفترقون عند الإيمان، مؤمن وغير مؤمن، المؤمن

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

حياته ميسرة، فيها سعادة، فيها طمأنينة، فيها شعور بالأمن، فيها استقرار، له أعمال صالحة كثيرة، الله عز وجل يحفظه، ينصره، يؤيده، يقربه، يجري على يديه الخير الكثير، غير المؤمن شرد عن الله، فقد سعادته، فقد النور الذي يمشي به.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

المؤمن عنده نور، هذه آية قرآنية، الإيمان نور، أنت حينما تتصل بالله يمتلئ القلب نوراً، بهذا النور ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ترى الخير خيراً، والشر شراً، فالمؤمن له رؤية صحيحة.

من صحت رؤيته صحّ عمله :

بالمناسبة أي عمل تقوم به وراءه رؤية، فالذي يقدم على عمل سيئ ماذا رأى؟ رأى أن هذا العمل السيئ فيه مكسب كبير، ونسي حساب الله له، ونسي ما سوف ينجم عنه من آلام، فبطولة المؤمن أن تصح رؤيته، إن صحت رؤيته صحّ عمله، لكن هناك شيء يعينك على أن تصح رؤيتك أن تعرف سرّ وجودك.

كأن نقول لطالب أرسله والده إلى باريس لينال الدكتوراه، مدينة باريس واسعة جداً، مدينة كبيرة، مترامية الأطراف، فيها مسارح، فيها دور لهو، فيها دور سينما، فيها حدائق، فيها معامل، فيها مساكن، هذا الطالب الذي أرسله والده إلى باريس ليدرس الدكتوراه نقول: علة وجودك شيء واحد، نيل هذه الشهادة.

فالإنسان متى يصح إيمانه، ومتى يفلح في دنياه وآخرته؟ إذا عرف سر وجوده، أنت خلقت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، والعبادة بالمفهوم الواسع أن تخضع لمنهجه، منهج الله عز وجل واسع جداً يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، كلمة آمن.

أنت بالدنيا إذا قلت: فلان دكتور أي معه ابتدائية، معه إعدادية، معه ثانوية، معه شهادة جامعية، معه دبلوم عامة، معه دبلوم خاصة، معه ماجستير، معه دكتوراه، ثلاث عشرة شهادة وأمضى ثلاثاً و ثلاثين سنة بالدراسة ليضع كلمة د. إلى جانب اسمه، فكيف إذا كنت مؤمناً غنمت الدنيا والآخرة؟!

فالإنسان الغافل عن الله ما حمل نفسه على درس علم واحد يحضره، ما خطر في باله أن يقرأ القرآن ويفهمه، ما خطر في باله أن يطلع على السنة ويستوعبها، ما خطر في باله أن يتفرغ إلى طاعة الله ولا ساعة، فإذا انغمس الإنسان في دنياه ضاعت عليه دنياه وآخرته.

الكون أعظم شيء يمكن أن يوصلنا إلى الله :

لذلك:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا)

علة وجودك في الدنيا أن تؤمن، والله عز وجل له آيات، له آيات كونية، هذا الكون يدل على الله، بسمائه، بأرضه، بمجراته، بمذنباته، بالنباتات، بالحيوانات، بالجبال، بالسهول، بالبحار، بالصحارى، هذا الكون بتعبير آخر مظهر لأسماء الله الحسنى، وكل أسماء الله الحسنى يمكن أن تستشفها من هذا الكون، الكون أعظم شيء يمكن أن يوصلك إلى الله، بل إنني أقول دائماً: إن التفكر في خلق السموات والأرض، وقد حض الله عليه في القرآن، وقال:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

هذه عبادة، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، التفكر في خلق السموات والأرض عبادة من أرقى العبادات، لأنها عبادة من ثمراتها معرفة الله، إن عرفت الله عرفت كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإذا فتك فاتك كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي يترجم إلى استقامة وعمل صالح :

لذلك الوقفة عند كلمة:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا)

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يسأل هل آمنت بالله الإيمان الذي ينبغي؟ لو أن واحداً قال: أنا مؤمن، نقول له: إبليس مؤمن أيضاً، قال ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

خلقتني، آمن به رباً، وعزيزاً، وخالقاً، وآمن باليوم الآخر قال:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

فإذا موضوع الإيمان كلمات تقولها، إبليس مؤمن، أما الإيمان الحقيقي فالذي يترجم إلى استقامة، يترجم إلى عمل صالح، يترجم إلى انضباط، يترجم إلى حدود الله، الإيمان الحقيقي يترجم أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن ترضى لله، وأن تغضب لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، الإيمان الحقيقي لا بد أن يترجم إلى سلوك، إلى التزام، إلى أحوال، إلى قرب، إلى رؤية، إلى طموح كبير.

لا يكفي أن تؤمن يجب أن يحملك إيمانك على طاعة الله :

إذاً أقف عند هذه الكلمة وقفة متأنية:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا)

الأخ الكريم يسأل نفسه أنت متى آمنت؟ هل قرأت كتاباً؟ هل اطلعت على كتاب الله؟ هل قرأت تفسيره؟ هل استمعت إلى تفسيره؟ هل قرأت سنة النبي الكريم؟ هل عرفت ما ينبغي وما لا ينبغي؟ هل عرفت لماذا جئت إلى الدنيا؟ هذه كلها ضمن الإيمان.

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ)

هل آمنت بالله الإيمان الذي يحملك على طاعة الله؟ هل آمنت بالله الإيمان الذي يحجبك عن معاصيه؟ لا يكفي أن تؤمن.

لو أن إنساناً معه مرض جلدي، والدواء الوحيد أن يتعرض إلى أشعة الشمس، فجلس في غرفة مظلمة وقال: يا لها من شمس ساطعة! ما أعظم ضوء الشمس! لو أمضى وقته كله في الإشهاد بضوء الشمس، وعظمة ضوء الشمس، ولم يتعرض إلى أشعة الشمس، لا قيمة لكل هذا الشيء .

لذلك إذا اكتفيت بالإيمان ما فعلت شيئاً، أنت ماذا فعلت إذا اكتفيت بالإيمان؟ أنت ما زدت على أن أقررت بشيء واقع، شئت أم أبيت، إن لم تقر به فهذا جنون، إن أقررت به ما فعلت شيئاً، شيء واقع. الشمس ساطعة، أنا أقول: الشمس ساطعة، ماذا فعلت؟ أما هذا المريض الذي معه مرض جلدي خطير، دواؤه الوحيد في التعرض لأشعة الشمس، إن لم يتعرض لهذه الأشعة لا قيمة لإيمانه بوجود الشمس.

إن لم يكن هناك حركة تؤكد إيمانك لا قيمة لهذا الإيمان :

الحقيقة أنه:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا)

كلمة آمنوا لها أبعاد كبيرة جداً، أي وقت بذلته كي تؤمن؟ أي مجلس علم حضرته كي تؤمن؟ أي كتاب قرأته كي تؤمن؟ أي لقاء تم كي تؤمن؟ أي إنسان تتلمذت على يديه كي تؤمن؟ ما الذي فعلته حتى

آمنت؟ الإنسان حتى يدخل لأقل وظيفة بالبلد يحتاج إلى شهادة ثانوية، اثنتا عشرة سنة دراسة حتى يدخل لأقل وظيفة، فكيف إذا أراد دخول الجنة؟ بلا إيمان.

إذاً

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ)

طبعاً بالله خالقاً، بالله رباً، بالله مسيراً، بالله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى.

(أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ)

لا يكفي أن تؤمن، لابد من حركة، هناك التزام، وامتناع، وعطاء، وأخذ، ورضا، وغضب، وصلة، وقطيعة، المؤمن له حركة، الحركة نتيجة لإيمانه، ما لم يكن هناك حركة تؤكد إيمانك لا قيمة لهذا الإيمان.

الدنيا دار التواء لا دار استواء :

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ)

الأغنياء، الأقوياء، غارقون في متعهم، في ملذاتهم، في شهواتهم، هؤلاء أرادوا الدنيا واكتفوا بها، وغابوا عن الآخرة:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال عن ابن عمر]

إذاً:

(اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ)

أي يدهم تطول كل شيء، بمالهم، يقول لك: المال يفعل كل شيء،

(أُولُو الطَّوْلِ)

أو أولو القوة، إما أنه قوي بماله، أو قوي بمنصبه، أو قوي بعلمه.

(اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

أي أرادوا الدنيا واكتفوا بها.

الآية الدقيقة، يقولون: سيدنا عمر بن عبد العزيز ما دخل مجلسه إلا ويتلو هذه الآية والآية دقيقة جداً:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

إذاً:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ)

هؤلاء الأقوياء، والأغنياء.

من آثر الدنيا على الآخرة خسرهما معاً :

(أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه.

مرة قصة طريفة، شاب يعمل في سوق مشهور، فكان يجمع القمامة ويضعها في علبة ثمينة، يغلفها بورق ثمين، ثم بشريط أحمر مع عقدة، ويضعها على الرصيف، يأتي إنسان يظنها عقد ألماس، يحملها ويمضي سريعاً، يتبعه بعد مئة متر، يفك الشريط الأحمر، بعد مئة متر ثانية يفك الورق المذهب، بعد مئة متر ثالثة يفتح العلبة فإذا بها قمامة المحل، يصيح، ويسب، ويشتم، والله هذا المثل الصارخ يشبه حقيقة الدنيا عند الموت، الإنسان بالبدايات يظن المال كل شيء، في منتصف الحياة يظنه شيئاً لكن ليس كل شيء، لكن عندما يأتي ملك الموت يراه ليس بشيء، الشيء الثمين العمل الصالح، لذلك الدليل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون]

إذاً:

(وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ)

الأقوياء، والأغنياء أصحاب المراكز الكبيرة أحياناً، أصحاب الأموال الطائلة، أصحاب المتع الفائقة، هؤلاء يستأذنوك آثروا الدنيا على الآخرة:

(وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

المتخلفون عن رسول الله رضوا بأن يبقوا مع النساء :

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

من هم الخوالف؟ النساء، في بعض التفاسير، المرأة الله عز وجل أقامها زوجة تربي أولادها، مكانها الصحيح في بيت زوجها تربي أولادها، فالخوالف هنا كما قال بعض المفسرين: النساء،

(ذَرْنَا)

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

مع أن المرأة في منطوق الإسلام العظيم مساوية للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية، مساوية له، مكلفة كما هو مكلف، مشرفة كما هو مشرف، مسؤولة كما هو مسؤول، لكن المرأة مكانها الطبيعي أن تكون مربية لأولادها.

لذلك هذه امرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام وقالت: يا رسول الله، إن زوجي تزوجني وأنا شابة، ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، ونثر بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال لي: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتم إلي جاعوا.

انظر إلى التقسيم اللطيف، هو ينفق عليهم، وأنا أربيهم، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتم إلي جاعوا، فبكى النبي الكريم، هذه المرأة التي ذكر الله أنه سمع قصتها من فوق سبع سموات.

لذلك:

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

مع قسم من الناس اختارهم الله ليكونوا في تربية أولادهم، هذا مما يرفع شأن المرأة، والدليل الدقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة المكرمة، دعاه سادتها ليبيت عندهم، ما الذي فعله؟ قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وركز لواء النصر أمام قبرها، ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر.

فالمرأة وهي في بيتها، وتعتني بأولادها، وتكون زوجة صالحة، هي في أعلى درجة عند الله، لكن مكانها في إدارة بيتها، أما الرجل فله مكان آخر، فإذا المواقف تبدلت، والأماكن تبدلت يصبح هناك مشكلة، الرجل مهمته خارج البيت.

من اختار الباطل و استمرأه يصر عليه و يعجب به :

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

معنى طبع؛ المعنى دقيق جداً، الإنسان إذا اختار الباطل، واستمرأه، وأصر عليه يألفه، يرفض شيئاً آخر، فهذا الطبع يسمونه تحصيل حاصل، الإنسان إذا اختار الباطل، واستمرأه، أعجب به، أصر عليه، الله عز وجل جعله مخيراً، الله عز وجل خلق الإنسان أعطاه الخيار، فإذا أصر على هذا فليكن ما يريد، لكن الله عز وجل ينبهه، يسوق له بعض الشدائد، يجمعه مع من ينصحه، فإذا أصر على ما هو فيه، دعاه وشأنه، كما قال الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية:44]

الله عز وجل ينصح، يبعث رسلاً، أنبياء، دعاة، علماء، يسوق لك بعض الشدائد، قد تعالج نفسياً، قد تعالج مادياً، قد تساق لك مصيبة.

((عجب ربك من قوماً يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[أخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب]

فحينما أرادوا أن يكونوا مع الخوالف، طبعاً هذه الكلمة لا تخدش مكانة المرآة إطلاقاً لكن هي لها مكان آخر، ليس من المعقول إنسان له أولاد يحتاجون إلى تربية، إلى توجيه، إلى إعداد طعام، و يقبع في بيته، المرأة هذا مكانها الطبيعي، وتصل بهذا المكان إلى أعلى درجة، لكن حينما يقبع الرجل في البيت ويدع العمل نقول: هذا اختار مكاناً غير صحيح، ليس هذا مكانه.

إذاً:

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

الطبع هنا تحصيل حاصل، أنا حينما أمشي في طريق، هدفي مدينة معينة، ثم أرى طريقين، وإنسان يقف ولا أسأله أين الطريق الموصل لهذه المدينة، وأختار عشوائياً طريقاً، هذا الطريق لا ينتهي بالمدينة التي أريد فهذا الخطأ من المسافر، فليتحمل هذا المسافر خطأه، حينما لم يسأل، وأصر على خطئه.

عطاء الله عز وجل عطاء مشترك لكل البشر :

إذاً:

(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

لا يفقهون سرّ وجودهم، ولا غاية وجودهم، ولا أسباب سلامتهم، ولا أسباب سعادتهم.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة التوبة]

يا الله!، لكن استدراك، لكن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

أي عرفوا سر وجودهم، عرفوا غاية وجودهم، جعلوا من جهادهم طريقاً للجنة.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ)

طبعاً قد تلتقي برسول الله، وتؤمن معه، وقد لا تلتقي به، وتؤمن معه، شيء طبيعي، ممكن أن تلتقي به، وأن تؤمن معه، يمكن أن تأتي بعد ألف عام، فإذا آمنت معه لك أجر كبير، أي هذا العطاء عطاء مشترك لكل البشر.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

يبدو أنه الله قدم جهاد المال على جهاد النفس، قال بعض العلماء: لأنه أسهل، إنفاق المال أسهل من جهاد النفس والهوى، وجاء بأنفسهم بعد أموالهم لأن هذا يحتاج إلى إصرار أكثر، قد تسهم في بناء مسجد، أما غض البصر فيحتاج إلى إرادة قوية جداً، ضبط النفس يحتاج إلى إرادة، فالأنبياء كما يصفهم الله عز وجل وعلى رأسهم لرسول عليه الصلاة والسلام

(جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

النجاح المطلق نجاح في الدنيا والآخرة :

(لَهُمُ الْخَيْرَاتُ)

مطلقة في الدنيا والآخرة.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

في الدنيا جنة، وفي الآخرة جنة،

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

هذا هو النجاح المطلق نجاح في الدنيا والآخرة، والنجاح مسعد، والإنسان حينما ينجح يسعد، أما النجاح فقد يكون جزئياً، النجاح في الدنيا يسمى نجاحاً، أما النجاح في الآخرة فيسمى فلاحاً، أنت حققت الهدف من وجودك وصلت إلى ما ينبغي أن تكون عليه،

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

بطولة الإنسان أن يعتمد مقاييس القرآن في الفوز :

أخوتنا الكرام، قل لي: ما مقياس الفوز عندك أقول لك من أنت، يقول لك أحدهم: فلان اشترى أرضاً تضاعفت مئة ألف ضعف، هذا الإنسان يرى أن تشتري أرضاً وأن يرتفع ثمنها إلى مئة ضعف هذا هو الفوز العظيم.

فكلمة الفوز البطولة أن تعتمد مقاييس القرآن في الفوز، القرآن له مقاييس في الفوز، وهناك مقاييس للدنيا، في عالم الدنيا الغني فاز فوزاً عظيماً في نظر أهل الدنيا، لذلك في بعض الأحاديث:

((اطلعت في الجنة فرأيت عامة أهلها المساكين))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

هذا الذي أراد الله والدار الآخرة عند عامة الناس أبلهاً، ضيع عليه فرصاً كثيرة جداً من المتع الرخيصة، ومن المباهج فهذا أبله عند البله، أما عند العقلاء فهو في أعلى درجة.

يقول سيدنا علي كلمة: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، والعلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".

الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين :

إذاً:

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ)

وحينما يخبرنا الله أن النبي جاهد بماله ينبغي أنت أن تجاهد بمالك، لماذا؟ لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

جهاد المال واضح إنفاق المال في سبيل الله.

إنسان سأل أحد العارفين: يا سيدي كم الزكاة؟ قال له: عندكم أم عندنا؟ طبعاً الملاحظة تثير العجب، قال له: وما عندكم وما عندنا؟ هناك إسلام واحد، قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة أما عندنا -عند المقربين من الله- فالعبد وماله لسيده.

لذلك المؤمن في درجات، هناك أصحاب اليمين، والسابقون السابقون، و أصحاب الشمال، فإما أن يكون الإنسان من السابقين السابقين، هؤلاء عدد كبير في الأولين، وقليل في الآخرين.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

في الدنيا هناك سعادة، سعادة القرب من الله عز وجل، سعادة الطمأنينة، سعادة الرضا عن الله، سعادة الحكمة التي يمنحها الله للمؤمنين، سعادة التوفيق، سعادة الحفظ، سعادة التأييد.

من ذكره الله منحه الرضا و التوفيق و السعادة :

لذلك:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية: 45]

قال العلماء: ذكر الله أكبر ما فيها، لكن ابن عباس رضي الله عنه في رأي دقيق جداً قال: ذكر الله لك أيها المصلي وأنت تصلي أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرضا، إذا ذكرك منحك التوفيق، إذا ذكرك منحك السعادة، إذا ذكرك منحك السكينة، إذا ذكرك منحك أن تكون فائزاً فوزاً عظيماً.

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، إذا قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور الآية:55]

هذا أعظم وعد بين يدي المسلمين.

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

الثمن:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: 55]

لذلك:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر]

انتظر كل خير.

من أخلّ بما عليه من عبادة لله فالله في حلٍّ من وعوده :

في بعض الأحاديث:

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ مالك]

(يَعْبُدُونَنِي)

فإذا أخلّ الفريق الثاني هم عباد الله بما عليهم من عبادة الله، الله عز وجل في حلٍّ من وعوده الثلاث،

(لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

وذكرنا الجهاد جهاد النفس والهوى، وهناك الجهاد البنائي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

وهذا الجهاد البنائي تحتاجه أمتنا الإسلامية اليوم، يجب أن نقوي أنفسنا، أن نستصلح الأراضي، أن نشق الطرق، أن نبني السدود، أن نرفع مستوى المعيشة، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ونحن بحاجة ماسة إلى أن نظهر للعالم الآخر أن الإسلام دين حياة وآخرة، دين يصلح لحياتنا الدنيا، ودين يسعدنا في الدار الآخرة، فلا بد من عمل دقيق كي نصل إلى هذه الأهداف.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا هو الفوز العظيم، والفوز مسعد للإنسان أيما سعادة، والفوز حينما تصل إلى الهدف الكامل الذي أعد لك تشعر أنك حققت نجاحاً كبيراً في الدنيا.

الله عز وجل أراد أن يكون لكل نتيجة سبب :

يا أيها الأخوة الكرام، لكن ليس معقولاً إنسان يطلب دكتوراه من دون دراسة، يطلب أعلى دراسة ولا يقدم لهذا الطلب أي جهد مقابل، فالإنسان لساعات من ضعفه يتمنى، والله عز وجل قال:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء الآية:123]

وهذا الشيء الدقيق جداً أن الله عز وجل أراد أن يكون لكل نتيجة سبب، وهناك شيء اسمه مقدمات ونتائج، فمن الخطأ الكبير أن تتوقع نتائج بلا مقدمات، والمسلمون اليوم كما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

الدين منهج كامل و شمولي :

المشكلة أن العبادة، تقلصت وتقلصت وضاقت وضاقت حتى فهم معظم المسلمين أن العبادة أن تؤدي العبادات الشعائرية، تصلي، وتصوم، تحج، وتزكي، لكن النبي الكريم:

((سأل مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذه الصلاة:

((يؤتى برجال يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة، يجعلها الله هباء منثورا، قيل يا رسول الله جلهم لنا، قال: إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

[ابن ماجه عن ثوبان بن بجدد]

هذه الصلاة، الصيام:

((رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

هذا الصوم، صوم من دون طاعة لله، من دون إقبال على الله، من دون توبة نصوحة لا قيمة له، كيف فهم المسلمون اليوم أن الدين ليس إلا عبادات شعائرية؟ بينما الدين منهج تفصيلي، يبدأ بفراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، في كسب مالك، في إنفاق مالك، في قضاء وقت فراغك، في بيتك، في الطريق، في العمل، في صناعتك، في زراعتك، في تجارتك، في منصبك، أنت حينما تفهم الإسلام على أنه منهج كامل، منهج شامل، منهج يدور معك أينما درت، وأينما وجدت، تجد أن هذا المنهج يحتاج إلى جهد كبير، وإلى إرادة قوية، وإلى عزيمة.

لذلك:

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

يعني هذا الفوز عند العظيم، وصفه الله بالعظيم أي عند العظيم.

من أراد الدنيا و الآخرة فعليه بالعلم :

أنا أقول دائماً المثل الذي يوضح هذه الفكرة: طفل صغير عقب عيد الأضحى، زاره عمه، قال له: أنا معي مبلغ عظيم، كم تقدر هذا المبلغ؟ بمئتي ليرة، بألفي ليرة، أما إذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً هذا يقدر بمئتي مليار، فإذا قال ملك الملوك، ومالك الملوك، فإذا قال الله رب العالمين:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

معنى ذلك أن تكون مؤمناً، هذه هو الفوز العظيم، وهناك آية ثانية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

أي إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (57-70) : تفسير الآيات 90-93، أقسام البشر من خلال القرآن الكريم ثلاثة أقسام (المؤمنون، المنافقون، الكفار).
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-06-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

البشر في القرآن الكريم أقسام ثلاث :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التسعين وهي قوله تعالى:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، لا زالت الآيات تتحدث عن المنافقين، وكما تعلمون البشر في القرآن أقسام ثلاث، مؤمنون عرفوا الله، فانضبطوا بمنهجه، وأحسنوا إلى خلقه فسلموا، وسعدوا في الدنيا والآخرة.
وكفار غفلوا عن الله، وتفلتوا من منهجه، وأساؤوا إلى خلقه، فشقوا وهلكوا في الدنيا والآخرة.
بينما هناك فريق ثالث أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ادعى أنه مؤمن، وهو في الحقيقة ليس كذلك.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة]

المنافق إنسان خطير جداً :

هذا الفريق الثالث المنافق خطير جداً، لأنه بتصوره يحقق مكسبين، هو حينما يكون مع المؤمنين حصل على مكتسباتهم، وحينما تفلت من منهج الله قلد الذين كفروا وغفلوا عن الله عز وجل، لذلك في آيات كثيرة يبين الله عز وجل أن المنافقين:

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

فالله عز وجل يقول:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

من هم المعذرون؟ الذين قدموا عذراً كاذباً، عذراً مفتعلاً، الذين كذبوا كانوا أقوياء، وأشداء، لكنهم ادعوا المرض، فهذا الادعاء هو اعتذار كاذب، هؤلاء في القرآن سماهم الله المعذرون، فلذلك هناك من يعتذر وهو صادق، وعذره مقبول، وهناك من يعتذر وعذره كاذب فهو مرفوض، لذلك قال الله تعالى:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

الله عز وجل يعلم السرّ و أخفى :

النقطة الدقيقة علاقة الإنسان بالله، والله عز وجل:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه]

يعلم ما تسره، ويعلم أيضاً ما خفي عنك أنت، لذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه عن الله عز وجل: "علم ما كان، وعلم ما يكون- الحاضر- وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون".

لو أن إنساناً دخله محدود، لو أن دخله أصبح رقماً فلكياً، هل يعلم هو ماذا سيفعل؟ هل يبقى مستقيماً؟ هل يتفلت؟ هل ينفق هذا المال على ملذاته أم على أعمال الخير؟ هذا الذي لم يكن الله وحده يعلم ما سيكون، بل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

لذلك حينما يوقن الإنسان أن الله يعلم، وأن الله بيده كل شيء، الله عز وجل يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[سورة الطلاق الآية: 12]

كأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون، الكون فيه آلاف مليارات المجرات، وفي كل مجرة آلاف مليارات الكواكب والنجوم، هذا الكون العملاق الذي لا حدود له في منطق العلم الحديث، هذا الكون بكل ما فيه يسبح الله عز وجل، والله عز وجل خلق الخلق والأمر إليه.

الإنسان انطلاقاً من حرصه على ذاته وسلامته وسعادته يطيع الله عز وجل :

أنت أيها الإنسان حينما تعتقد يقيناً أنك أعقد آلة في الكون، وهذا التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، وأن لهذه الآلة بالغة التعقيد - أي الإنسان- صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات التشغيل والصيانة، فانطلاقاً من حرصك على ذاتك، من حرصك على سلامتك، من حرصك على مستقبلك، تطيع الله عز وجل، لأن العلاقة بين الأمر الإلهي وبين نتائجه علاقة علمية، ما الفرق بين العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية؟ أحياناً يكون للبيت مدخلان، يعطي الأب أمراً أن هذا المدخل ممنوع أن تستخدمه، مسموح لكم بالثاني، فإذا أراد أحد الأولاد أن يعصي أباه فدخل في المدخل الذي منع عليهم،

يعاقب، لكن لا يوجد علاقة بين العقاب وبين الدخول من هذا الباب، العلاقة وضعها الأب نقول: العلاقة بين الأمر والعقاب، أو النهي والعقاب، علاقة وضعية وضعها الأب، أما لو أن إنساناً وضع يده على مدفأة مشتعلة فاحترقت نقول: هناك علاقة علمية بين الوضع وبين الاحتراق.

فهناك علاقة بين الأمر والنتيجة، هذه العلاقة إما أنها حقيقية علمية، أو أنها وضعية، في الأعم الأغلب كل الأوامر في القرآن الكريم العلاقة بينها وبين نتائجها علاقة علمية، وكل النواهي التي نهى الله عنها العلاقة بينها وبين النتائج علاقة علمية، معنى هذا أن كل أمر فيه بذور نتائجه، وأن كل نهي فيه بذور نتائجه، هذا شيء مريح جداً، ديننا ليس دين طقوس، ما الفرق بين الطقوس والأديان السماوية؟ الفرق كبير جداً، الطقوس حركات، وسكنات، وإيماءات، وتمتمات لا معنى لها، لكنها جُعلت مقدسة ومهمة، أما الدين فالأمر والنهي بينه وبين النتيجة علاقة علمية، ما من أمر أمرك الله به إلا وتقطف ثماره في الدنيا قبل الآخرة، والإنسان إذا فكر ملياً وعرف أن هذه التعليمات في القرآن والسنة هي تعليمات الصانع، وأن الصانع وحده هو الجهة الوحيدة التي تعلم يقيناً ما الذي ينفعك وما الذي يضرك، ما الذي يسعدك وما الذي يشقيك، فالإنسان أحياناً ينطلق من حبه لذاته فيعبد الله عز وجل، ينطلق من حرصه على سلامته فيعبد الله عز وجل.

ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل :

لذلك ما من مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، قضية تفكر.

مرة زعيم غطفان- نعيم بن مسعود- جاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام في الخندق، هو في خيمته خاطب نفسه، هذا الحوار اسمه الآن في الأدب الحديث حوار ذاتي، خاطب نفسه قال: يا نُعيم ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أجئت لتحارب هذا الرجل- يقصد النبي عليه الصلاة والسلام- ماذا فعل؟ هل سفك دماً؟ قال: لا، هل انتهك عرضاً؟ قال: لا، خاطب نفسه قال: يا نُعيم أين عقلك؟ هذا رجل عظيم، فخرج من معسكره، وانطلق إلى معسكر المسلمين، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم، النبي الكريم فوجئ به، نُعيم؟ قال: نُعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً.

أنا أقول تعليقاً على الحادثة: لحظة تفكير حكيم، صحيح، صادق، نقلته من الشرك إلى الإيمان، من شقاء الدنيا والآخرة إلى سعادة الدنيا والآخرة، وكل واحد منا، أنت المخلوق الأول لك خالق عظيم، ومعك منهج قوي، وأنت مخلوق للجنة:

((فيها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

لِمَ لا تدقق في إنفاق مالك؟ لِمَ لا تدقق في كسب مالك؟ لِمَ لا تدقق في علاقاتك الاجتماعية؟ هل هي وفق منهج الله أم في مخالفة لمنهج الله؟ لِمَ لا تدقق في تربية أولادك؟ فالإنسان حينما يفكر يسلم وينجح، الدليل أن أزمة أهل النار في النار أزمة علم فقط والدليل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

لأن كل إنسان فُطر على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، أي ستة آلاف مليون على وجوه الأرض ما منهم واحد إلا وهو حريص حرصاً لا حدود له على سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، من أين يأتي الشقاء؟ من الجهل.

المنافق إنسان جمع بين الكفر والإيمان الظاهري :

مرة ثانية: الجهل أعدى أعداء الإنسان، ونحن كأمة عربية ألفنا في هذا التاريخ الحديث أن نقول: العدو الأول الصهيونية، الاستعمار، لا، العدو الأول هو الجهل، لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

لذلك هؤلاء المنافقون، هؤلاء أرادوا أن ينالوا مكاسب المؤمنين، وأن يتمتعوا بتفلت الكافرين، فجمعوا بين الكفر والإيمان الظاهري، لكن الله فضحهم، لذلك قالوا: يمكن أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل وألف ألف ألف مستحيل، أما أن تستطيع أن تخدع الله أو أن تخدع نفسك فهذا لا يكون ولا لثانية واحدة، لأن الله يعلم، وأنت تعلم.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

طبيب يفحص مريضة، مسموح له في الشرع أن ينظر إلى مكان المرض، فإذا استرق النظر إلى مكان آخر، ليس على وجه الأرض جهة يمكن أن تضبط هذه المخالفة إلا الله

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

من أيقن أن علم الله و قدرته تطوله لا يمكن أن يعصيه :

المنافقون ما عرفوا الله، ولا عرفوا أنه يعلم، وأنت حينما تؤمن أن الله يعلم مستحيل أن تعصي الله، ودائماً أضرب هذا المثل المألوف: أنت مواطن والإشارة حمراء، والشرطي واقف، و هناك شرطي آخر على دراجة، ضابط سير في المركبة، وأنت مواطن عادي، مستحيل أن تخالف الإشارة مع إنسان، مع واضع قانون السير، لأن علمه يطولك، ولأن قدرته تطولك، والله عز وجل حينما قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الطلاق الآية:12]

قدرته تطولك:

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق]

علمه يطولك، فأنت مع إنسان إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، لا يمكن أن تعصيه.
هؤلاء المعذرون الذين افتعلوا أعذاراً واهية، أعذراً غير حقيقية، أعذاراً كاذبة، ولك أن تقول ما شئت، لكن الله يعلم، والله يكشف المنافق، هؤلاء افتعلوا أعذاراً غير صحيحة، هم مرضى، هم ضعاف، عندهم مشكلة في البيت، زوجته مريضة ...الخ،

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

التفاوت بين المدينة و البادية الهدف منه التعارف لا القتال :

أيها الأخوة، من هم الأعراب؟ نحن في الآيات السابقة كان الحديث عن منافقي المدينة، والآن الآيات تنتقل إلى منافقي البادية، مدينة وبادية، مدن وريف، بالمصطلحات الحديثة.
مرة النبي الكريم جاءه صحابي من أصحابه الذين عاشوا في البادية، فقال كلمة لطيفة، قال: فلان نحن حاضره، وهو باديتنا، هناك تكامل بين البادية والمدينة، المدينة فيها صناعة، البادية فيها مواد أولية، مشتقات الألبان كلها من البادية، اللحوم، الغنم، الجمال، فقال: فلان باديتنا ونحن حاضره، فأنا أرى التفاوت بين البادية والمدينة تفاوتاً كبيراً، لكن من أجل التعارف، من أجل التكامل، حتى حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

[سورة الحجرات الآية: 12]

شعوب، وقبائل، وعناصر، وأعراق، وأنساب، وقبائل، وطوائف، وقوميات، هذا التفاوت الهدف منه التعارف لا القتال.

من يبتعد عن الله يكون عدوانياً :

لذلك مرة قرأت إحصاء، أنه لو أوقفنا الحروب لاستطاع كل إنسان على وجه الأرض من ستة آلاف مليون أن يكون نصيبه مئة دولار كل شهر، كل إنسان حتى الصغار، في ستة آلاف مليون، ستة آلاف مليون إنسان، صغار أو كبار يستطيعون أن يأخذوا مئة دولار كل شهر، هذه نفقات الحروب، ثلثا الدخول القومية للبلاد تذهب للجيوش والاستعداد للحرب، لأن الإنسان:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

وحينما يبتعد عن الله يكون عدوانياً.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

لماذا الأعراب أبعد عن الإيمان من أهل المدن؟ بعد قليل يأتي التفسير.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يشاركوا في المعركة، أن يبتعدوا عن القتال، أن يبقوا في بيوتهم، في بساتينهم، تحت الظل الظليل، المعركة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أماكن بعيدة جداً، في مؤتة، والوقت صيف، والحر شديد، والمسافة بعيدة، والمشقة كبير، فلذلك المنافق آثر السلامة فادعى أنه مريض، ادعى أن أهله مرضى، قدم عذراً كاذباً.

لذلك:

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يشاركوا في المعركة، المنافق يريد المغانم لا المغارم، المغارم يبتعد عنها، المغانم يكون في أول صف، ما دام هناك توزيع غنائم، وجاهة، مكانة، وليمة، دعوة، احتفال، أول إنسان، في البذل والتضحية يبتعد.

الكذب على الله وقاحة وجهل كبير :

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الإنسان يكذب، لكن الحقيقة أن المؤمن قد يخطئ، وقد تغلبه شهوته، لكنه لا يكذب، لو ألغينا الكذب في حياتنا لحلت معظم مشكلاتنا، المؤمن لا يكذب.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

تكذب على من؟ على الذي خلقك؟ على الذي يربيك؟ على الذي مصيرك بيده؟ على الذي:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

عن الذي:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

عن الذي يعلم

(مَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

تكذب على من؟.

الإنسان أحياناً يكذب على إنسان آخر، الإنسان الآخر قدراته محدودة، موظف لم يأتِ إلى الدائرة، قد يقول للمدير: زوجته مريضة، المدير لا يوجد عنده إمكان أن يعرف الحقيقة، لكن تكذب على الله الذي يعلم كل شيء؟ فالكذب على الله وقاحة، وجهل كبير.

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

ألا يحاربوا، هم أشداء، أقوياء، معهم الرواحل، معهم السلاح، ومع ذلك ادعوا المرض، أو ادعوا الفقر، أو ادعوا الضعف.

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

يقول الله عز وجل:

(وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ)

معنى هذا أن المنافقين كفار، إن المنافقين هم الكافرون، كفار، لكنهم أخفوا كفرهم وأظهروا إيمانهم المصطنع.

إذا أراد الله شيئاً وقع و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وهذه السين للاستقبال، وإذا أراد الله شيئاً وقع، والمقولة الدقيقة جداً: إذا أراد الله لشيء أن يقع لابد من أن يقع، لأن إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، كل شيء وقع أراده الله، أي سمح به.

بالمناسبة: قد يتصور متصور أنه إذا كان وقعت حرب الله أرادها، أي سمح بها، لكن لم يرضها، ولم يأمر بها، هناك فرق بين الإرادة وبين الأمر والرضا، يقول علماء العقيدة: أراد ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، لأن الله أعطى الإنسان حرية، كيف يقيّم عمل الإنسان؟ في ضوء حريته.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

إذا ألغينا الحرية ألغينا الدين، ألغينا الاختيار، ألغينا حمل الأمانة، ألغينا التكليف، ألغينا الثواب، ألغينا العقاب، ألغينا الجنة، ألغينا النار.

الله تعالى أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً :

أخوتنا الكرام، في اللحظة التي تتوهم أن الإنسان مجبور على كل أعماله، الإنسان مجبور سماها علماء العقيدة عقيدة الجبر، يتوهم بعض الجهلة أن الإنسان ما بيده شيء، حتى كفره أُجبر عليه، حتى لو شرب الخمر، الأعوام لهم كلامات هي الكفر بعينه أحياناً، يقول لك: طاسات معدودة بأماكن محدودة، أي الله عز وجل قدر عليه شرب الخمر، ثم يحاسبه عليه، مستحيل، هل تقبل هذا من مدير مؤسسة؟ أن يأمر موظفاً أن يسافر إلى مكان كذا ثم يحاسبه على هذا السفر؟ أنت أمرتني، هل تتوهم أن الله قدر على الكافر كفره؟ أو قدر على العاصي معصيته؟ أعوذ بالله.

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)

[سورة الأعراف الآية:28]

أخواننا الكرام، مرة ثانية: ما لم تؤمن يقيناً أنك مخير، وأن أعمالك ستحاسب عليها، وأنها من اختيارك، لو ألغيت هذا ألغيت الجنة، ليس لها معنى، حتى إن بعض الصحابة الكبار قالوا: لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً.

الإنسان مخير :

أنت مخير، وأكثر الناس يتوهمون أنهم مجبرون، هذه الفكرة مريحة لكن غير صحيحة، أخي ليس بيدي، الله قدر علي ذلك، الجواب:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

في اللحظة التي تتوهم فيها أنك مجبر، وأن الله قدر عليك هذه الأعمال السيئة التي فعلتها، في هذه اللحظة تكون قد خرجت من أدق عقيدة في الإسلام لأنك مخير، لكن أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى، أنت مسير في أمك وأبيك، أنت مسير في مكان ولادتك، مسير في زمان ولادتك، مسير في إمكاناتك، لكن حينما تكتشف في وقت لاحق يوم القيامة أن هذا الذي سيرك الله إليه من مكان ولادتك، وزمان ولادتك، ووالدك، ووالدتك، وإمكاناتك، وكونك ذكراً أو أنثى حينما تكتشف أن هذا الذي سيرك الله إليه هو حكمة بالغة بالغة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، عندئذٍ تستسلم، فيما لست مخيراً به هو لصالحك، وهذا يكتشف يوم القيامة، فقد قال الإمام علي كرم الله وجهه:" لا يظهر سر القضاء والقدر إلا يوم القيامة "، تكتشف، من هنا الخلائق كلها تقول:

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

الله عز وجل طمأن الذين تخلفوا عن الجهاد ومعهم أعذار مقبولة :

أيها الأخوة،

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)

في عدم المشاركة في الجهاد،

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أي بالمغانم جاهز، بالمغارم غائب، بالأشياء المريحة أول صف، بالأشياء المتعبة آخر صف، أو لا يأتي إطلاقاً، لكن الله عز وجل طمأن الذين تخلفوا عن الجهاد ومعهم أعذار مقبولة، فقال:

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة الآية:91]

الشيخ الكبير ضعيف، لا يستطيع أن يقاتل، والطفل الصغير ضعيف، فالضعفاء صغار أو كبار هؤلاء لا تثريب عليهم في ترك الجهاد.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى)

إنسان مريض، عنده عاهة، يتحرك برجل واحدة مثلاً، عنده آلام لا تحتمل بالعمود الفقري فرضاً، فهناك حالات مرضية شديدة، هذه الحالات تعد عذراً كافياً عند الله مقبولة.

مهمة المريض و الضعيف و الفقير أثناء الجهاد :

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)

المجاهد ينبغي أن يجد قوت أهله في غيابه، له زوجة، له أربعة أولاد، يجب أن يكون معه إنفاق مبالغ تغطي حاجاتهم في غيابه، ونفقاته هو، يجب أن يملك مبلغين، مبلغ لينفقه هو في الجهاد، مبلغ آخر ينفقه أهله في غيابه.

قال:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)

الضعيف، والمريض، والفقير، لكن هؤلاء لهم مهمة في أثناء الجهاد، وهم في المدينة لهم دعوة إلى الله، النصح لكل مسلم، لهم إقناع المنافقين بأحقية هذا الجهاد، عندهم مهمات كبيرة، منها: تعزيز الجهاد في الإسلام، منها: رفع قيمة المجاهدين، منها: بيان حكمة الجهاد، منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنت في المدينة، وأصحابك في تبوك يجاهدون، لك دور في المدينة، منها: أن ترعى أهلهم، أن ترعى صغارهم، أن ترعى أهليهم.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي دعوا إلى الجهاد، بينوا قيمة المجاهدين، بينوا فرضية الجهاد، بينوا نتائج الجهاد، هذه:

(نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)

أو أحسنوا إلى المجتمع، هناك دعوة إلى الله في عيادة مريض، في إطعام أرملة، أو مسكين، أو يتيم.

المتخلف عن الجهاد معذور لمرض أو فقر أو عدم تأمين راحلة :

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

المتخلف عن الجهاد معذور إما مريض، أو فقير، عندنا حالة ثالثة: القوة إما أن تكون في صحتك، أو قوياً في مالك، أو تملك أساليب الجهاد، عندك سيف، أو فرس، أو عندك دابة، فأحياناً الإنسان يكون قوياً بصحته، ويملك قوت يومه، لكن لا يوجد عنده راحلة قال:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

[سورة التوبة]

تحملهم على دابة، عنده صحة، وعنده مال، لكن لا يوجد عنده راحلة.

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

هذا إنسان مستثنى، هذا فقير، أو ضعيف، أو صحيح قوي، لكن لا يوجد عنده دابة تحمله، فجاء النبي يرجوه أن يؤمن له دابة، قال له: والله لا أجد، ما عندي، تولى، رجع إلى بيته وهو يبكي، من شدة ألمه، ومن شدة حزنه على ما فاته من هذا الفضل الكبير،

(تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

لذلك علة وجودك في الدنيا العمل الصالح، والإنسان المؤمن في صلاة الفجر يقول: اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك، نحن أحياناً نعمل عملاً صالحاً لكن بشكل عرضي، علة وجودك في الدنيا بعد الإيمان بالله العمل الصالح لأن العمل الصالح يرفعك، ولأن الإنسان لما جاءه ملك الموت لا يندم إلا على عمل صالح فاته، قال:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

إذاً هؤلاء الذين كانوا ضعفاء، أو كانوا مرضى، أو ما عندهم ما ينفقون على أهلهم في غيابهم، ولا على أنفسهم في مشاركتهم، ما عليهم حرج لكنهم ينصحون بالجهاد، ويرفعون قيمة المجاهدين، هذه الفريضة، إذا نصحوا لله ورسوله، بل إذا دعوا إلى الله، أو أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر،

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لتخلفهم عن الجهاد لأنهم معذورون،

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

الغدد الدمعية نعمة لا تقدر بثمن :

بالمناسبة: الإنسان عنده غدد دمعية، هذه حينما تفرز مفرزاتها ترطب العين وتسهل حركة الأجفان، لكن في الحزن الشديد هذه الغدد تفرز دموعاً أكثر من الوضع الطبيعي، عندئذٍ تفيض العين بدموعها،

البكاء هو إفراز دموع أكثر من المصرف، بمقل العين هناك قناة تتصل بالأنف، فالدموع الزائدة عن تصرف القناة الدقيقة جداً تتجه إلى الأنف.

مرة حدثني أخ قال لي: أنا عندي مشكلة كبيرة، هذه القناة الدمعية مسدودة، فدائماً الدمع يفيض، من فيضان الدمع المستمر صار هناك خطاً على خدي، لأن الدمع فيه مادة قلوية، إذاً هناك نعمة لا تخطر في بال الإنسان، أن هذه القناة التي تصرف الدمع إلى الأنف سالكة، لو أنها ليست سالكة هناك مشكلة كبيرة، يتشوه الوجه:

(تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

من أعرض عن الله و أصرّ على إعراضه لا يعي على خير :

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة التوبة]

من هو المؤاخذ؟ من هو المعاتب؟ من هو الملوم؟ من هو الكاذب؟

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ)

قوي، غني، ومعه درعه، ومعه سيفه، ومعه ناقة، ومعه فرس:

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)

الخوالف قال المفسرون: هم النساء اللواتي أمرن أن يبقين في بيوتهن ليرعوا أزواجهم وأولادهم.

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الطبع هنا أن الإنسان إذا أعرض عن الله عز وجل، وأصر على الإعراض عندئذٍ يغلف قلبه، عندئذٍ لا يعي على خير، هذا الطبع تحصيل حاصل.

لو أن الباب الخارجي لهذا المسجد أحكم وأغلق، فهذا الباب مفتوح، لكن لا قيمة له ما دام الباب الخارجي مغلقاً فكأن هذا مغلق أيضاً.

فأحياناً يكون هناك طبعاً من صنع الإنسان، لما أعرض عن الله عز وجل، والنبي الكريم يقول:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان آثر شهوته، أحبها، إذاً هو لا يعي على خير.

إذاً:

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (58-70) : تفسير الآيات 94-99، لا اعتذار بعد النفاق فالمنافق كافر، والأعراب هم أهل البادية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-06-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

من يغيب عن الجهاد و يؤثر المقام في البيت فلابد من أن يختلق الأعذار الواهية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والتسعين وما بعدها وهي قوله تعالى:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لا زالت هذه الآيات في سورة التوبة تتحدث عن المنافقين، ولعل سورة التوبة من أبرز السور التي عالجت موضوع النفاق بشكل تفصيلي.

فهؤلاء المنافقون حينما يغيبون عن الجهاد، ويؤثرون المقام في بيوتهم، مع أهلهم وأولاده، ولا يجشمون أنفسهم مشقة مشاركة المؤمنين في الجهاد، هؤلاء من أجل الحفاظ على مكانتهم لابد من أن يختلقوا الأعذار الواهية غير الصحيحة.

هم:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ)

أيها المؤمنون، يا أصحاب رسول الله، حينما تعودون من الجهاد، إلى بلدكم المدينة، والمنافون لم يشاركوا معكم لابد من موقف ترميمي، من أجل الحفاظ على مكانتهم، هم:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

حينما ترجعون إليهم من الجهاد.

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

قال: آمنت به، أي اعتقدت به، آمنت له أي صدقته، الإيمان بالله شيء والإيمان مع الله بمعنى آخر.

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

أي لن نصدقكم، أنتم كاذبون.

الإنسان الكاذب كذبه يدل عليه والمؤمن أوتي فراسة ينظر بنور الله :

بالمناسبة: المؤمن من أبرز علائم إيمانه أن القضية التي فيها آية قرآنية واضحة لا يخضعها للمناقشة إطلاقاً، المؤمن الصادق فيما ذكر الله في كتابه الكريم من حكم متعلق بموضوع هذا الموضوع غير قابل للبحث، الدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

[سورة الأحزاب الآية: 26]

وهذه ما كان من أشد صيغ النفي، هذا اسمه نفي الشأن، قد تقول لإنسان محترم: هل أنت سارق؟ مستحيل أن يقول لك: لا، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، مستحيل وألف ألف مستحيل لا أفكر، ولا أقر، ولا أشجع، ولا أرضى، ولا، ولا، بعض العلماء عدوا أكثر من عشرة أفعال يتضمنها هذا النفي، يقول: ما كان لي أن أسرق.

فالله عز وجل في هذه الآية:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ)

يقدمون اعتذاراً واهياً، والاعتذار مكشوف، سبحان الله! الإنسان الكاذب كذبه يدل عليه، والمؤمن أوتي فراسة:

((اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمن، فإنه يَنظُرُ بنورِ اللّه))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

فالإنسان بإمكانه أن يخدع الناس لبعض الوقت، أو أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن يخدعهم جميعاً لكل الوقت فهذا مستحيل، فكيف إذا كانوا أصحاب رسول الله؟ المؤمن معه نور، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

الصفة الصارخة بالمؤمن بقلبه نور، هذا النور يريه الحق حقاً والباطل باطلاً.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة في الكون :

الإنسان بالمناسبة كائن متحرك، ما الذي يحركه؟ الحاجة إلى الطعام والشراب، حفاظاً على وجوده كفرد، هذه أول حاجة، الحاجة إلى الزواج، حفاظاً على وجود النوع، الثالثة الحاجة إلى تأكيد الذكر، تأكيد الذات، الإنسان لا يكفي أن يكون موجوداً، ويأكل ويشرب، عنده حاجة كبيرة جداً، هذه الحاجة لعل الله خلقها فيه، لأنه قبل حمل الأمانة، لما قبل حمل الأمانة- والآن سأذكر فكرة خطيرة جداً- لأنك

أيها الإنسان حينما عرض الله على البشر الأمانة قبلت أن تحملها، فلما قبلت أن تحملها أصبحت المخلوق الأول عند الله، والدليل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هل يغيب عن ذهنك أنك المخلوق الأول؟ المخلوق الأول رتبة في الكون،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

على كل المخلوقات،

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الآية الكريمة تقول:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

ممكن أن تقرأ الآيات قراءة استفهامية، هل كان مخطئاً؟ لا.

إذا أب عنده عشرة أولاد، قال: من يأتي بالدكتوراه من أمريكا أعطيه المعمل كله، فقال له أحدهم: أنا، هذا الابن الطموح الذي عنده آفاق واسعة جداً، هل كان مخطئاً بهذا العرض؟ لا، أما إذا ذهب إلى هناك ولم يدرس، فما له شيء عند أبيه، الآن صار ظلوماً جهولاً.

الفلاح و النجاح :

هذه الآية تقرأ بطريقتين:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

لا، لم يكن ظلوماً جهولاً حينما قبل حمل الأمانة، لكنه إذا لم يحملها:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

تقرأ قراءة استفهامية، وقراءة إقرارية، فهذا الإنسان هو المخلوق الأول، والله كلفه بحمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه سلمه الله إياها، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس]

كلمة الفلاح بالقرآن دقيقة جداً، نحن نستخدم كلمة النجاح، النجاح أن تنجح في جمع المال مثلاً، أن تنجح في تسلم منصب رفيع، أن تنجح في قيادة مجموعة من الناس، هذا نجاح، لكن الفلاح أن تحقق

الهدف الذي خلقت من أجله، الفلاح أن تجمع بين الدنيا والآخرة، أن تكون في الدنيا طائعاً، وفي الآخرة متفوقاً، فهذا الفلاح له معنى دقيق جداً، نجاح شمولي، نجاح من بدايات الحياة الدنيا وإلى أبد الآبدين، نجاح بأعلى درجة من مستويات النجاح، نجاح في تحقيق الهدف الذي خلقت من أجله، يسمى فلاحاً.

المؤمن لا يخضع أي موضوع فيه حكم إلهي للمناقشة إطلاقاً :

هؤلاء المنافقون يعتذرون حفاظاً على مكانتهم، لأن الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب، وغذاء الجسم الطعام والشراب، فحينما يعبر عن محبته للحق مثلاً، محبته للدين، بهذا يرتقي عند الناس، فالمنافق هو في حياته الخاصة لا يطبق شيئاً من الدين، متلفت كالكافر، لكن يريد مكسباً اجتماعياً، أن يكون مع المؤمنين في مكانتهم، وفي مكاسبهم، فهو ينافق لهم.

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

الجواب من الصحابة:

(قُلْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ)

أي لن نصدقكم،

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)

أقول مرة ثانية: أي موضوع فيه حكم إلهي المؤمن لا يخضعه للمناقشة إطلاقاً.

في بعض المؤتمرات يقال: عندنا مجموعة موضوعات لا يمكن أن تدخل في برنامج المؤتمر، هذه مسلمات، ممنوع أن تكون مكان مناقشة.

وأنا أقول: أي موضوع ذكره الله في القرآن بحكم قطعي هذا الموضوع غير قابل للمناقشة إطلاقاً، ما كان الله،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

(إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

الله أمر بحجاب المرأة، هذا الموضوع غير قابل للبحث، بمعنى لو أنها كانت سافرة هي نصف المجتمع، هناك حجج واهية تطرح في بعض المجلات، أنت كمؤمن ما دام هناك حكماً إلهياً بقضية معينة، واضحاً، قطعي الدلالة، هذه الأحكام قطعية الدلالة في القرآن لا يمكنك كمؤمن أن تدخلها في المناقشة،

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

فهذا الذي جعل المؤمنين يقولون:

(لَا تَعْتَذِرُوا)

الله عز وجل أخبرنا عنكم، إنكم منافقون، إنكم كاذبون، إنكم تريدون أن تجمعوا بين مكاسب المؤمنين وتفلت الكافرين:

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)

الإنسان مخلوق أول مكرم و مكلف :

بالمناسبة: أنت أيها الإنسان مخلوق أول، والآية معروفة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

وأنت مخلوق أيضاً مكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

وأنت المخلوق المكلف، مكلف أن تعبد الله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فأنت أولاً: مكرم، وثانياً: أول، وثالثاً: مكلف، فأنت مكلف بعبادة الله عز وجل، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

هؤلاء:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ)

المؤمن أكرمه الله بالوحي، وحي السماء الحق المطلق، ومعه سنة النبي هي شرح لهذا الوحي، معه الكتاب والسنة، فأي موضوع يتناقض مع الكتاب والسنة يركله بقدمه، أما أنه يصدق كل شيء فيكون إنساناً أحمقاً.

العمر لا يتسع لاستيعاب الباطل ولكنه يكفي لاستيعاب الحق :

الحقيقة الإنسان إذا عاش كل عمره من أجل أن يتطلع على الثقافات المتنوعة لا يكفي عمره، من أجل أن تحيط بثقافة جهة معينة، أو أمة معينة، أو عصر معين، تحتاج إلى عشرات السنين، فالعمر لا يتسع

لاستيعاب الباطل، ولكنه يكفي لاستيعاب الحق، بين نقطتين يمر خط مستقيم ، ممكن أن تمرر مليون خط منحن أو منكسر، بين نقطتين، فالحق واحد لا يتعدد، فإذا استوعبته العمر يكفي لاستيعاب الحق، ما سواه باطل، أما هناك إنسان يضيع ثلاثين سنة في استيعاب عقيدة طائفة معينة، عمرك ثمين جداً، يجب أن تمضي هذا الوقت باستيعاب الحق الذي خلقت من أجله، أما استيعاب الباطل فشبه مستحيل، بل مستحيل وألف ألف مستحيل، الباطل متنوع.

أوضح مثل: نقطتان هناك خط مستقيم واحد بينهما، أما ممكن أن ترسم مليون خط منحنٍ أو منكسر بينهما فهذا الباطل، الباطل متنوع، لذلك الآية الكريمة:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: 135]

فجاء الباطل جمعاً دائماً، آية ثانية:

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة الآية: 16]

ما قال إلى الأنوار، نور واحد وفيه ظلمات بعضها فوق بعض.

إذاً المؤمن معه وحي السماء، معه الحق المطلق، وحي السماء حق مطلق، وشرح النبي المعصوم شرح مطلق.

((تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّةَ رسولِهِ))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

أي ما صح من هذه السنة.

الجهة الصانعة هي الجهة الوحيد التي ينبغي على الإنسان أن يتبع تعليماتها :

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)

المؤمن يستوعب ما قاله الله للمؤمنين والكفار والمنافقين، فمعه تقييم إلهي، أنت أحياناً عندك آلة غالية جداً، لكن معها بطاقة، أو معها كتيب من معمل الصانع، أصح فكرة وأصح معلومة عن هذه الآلة ما جاء في هذا الكتيب، لأنها من عند الصانع، بل إن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيد التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، والدليل قوله تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

الله عز وجل هو الخبير، خبير بما تعلمون.

بطولة الإنسان ألا يسمح للخواطر السيئة أن تسيطر عليه :

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)

الله عز وجل يعلم حقيقة هذا الإنسان، لكن هو لا يحاسب إلا على العمل الذي يأتيه الإنسان في الدنيا، علم الله الأزلي لا يكون سبب هلاك أو شقاء أو سعادة، أما السبب الحقيقي فهو العمل، فالإنسان يأتي إلى الدنيا كي يعبر عن ذاته بخير أو بشر، في هذا الخير الذي انقلب إلى سلوك، إلى عمل، هنا يحاسب الإنسان عليه، وهذا من فضل الله علينا، معنى ذلك أن هناك خاطر سيئ لا تحاسب عليه، أي خاطر مهما كان سيئاً لا تحاسب عليه، لكن تحاسب على العمل، لكن هناك ملاحظة: هذا الخاطر السيئ إن لم ترفضه ينقلب إلى سلوك، لو أنك قبلته تابعته تفاجئ بعد وقت أنه أصبح سلوكاً، فالبطولة أن الإنسان لا يسمح للخواطر السيئة أن يستمر بها.

الأمور بنواياها :

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الذي عمل العمل هو أدرى به، فما معنى أن الله عز وجل ينبئ هذا الإنسان بما كان يعمل؟ ينبئ الإنسان بخلفيات هذا العمل، بأهداف هذا العمل، بنوايا هذا العمل، العمل له شكل ظاهر، وله خلفيات.

إذا أنت لا سمح الله ولا قدر إنسان له عدو فقدم له طعاماً نفيساً جداً وهو يعلم علم اليقين بأن هذا الطعام يؤذيه، يحاسب كإنسان مؤذ، قدم طعاماً نفيساً، هو طبيب، قدم طعاماً نفيساً، يعلم أن هذا الطعام يفاقم مرضه، فهو لا يحاسب على أنه قدم له طعاماً، هدية،لا، قدم له شيئاً يؤذيه فالأمور بنواياها، والحديث المتواتر الأول:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب]

أحياناً تعطي ابنك دواء مراً، وتجبره عليه، لك أجر كبير، مع أنه مر، وقد يقدم إنسان طعاماً لعدوه نفيساً لكنه يؤذيه، فالعمل يقيم بنيته فقط، والنية لا يعلمها إلا الله:

(قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة التوبة]

الله عز وجل طليق الإرادة :

النقطة الدقيقة بإعجاز القرآن الكريم أن الله يقول:

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ)

هم لم يحلفوا بعد، الله عز وجل قال:

(سَيَحْلِفُونَ)

لو أنهم فكروا قليلاً ولم يحلفوا لأبطلوا هذه الآية، ولكن الله كما يقال طليق الإرادة، هم قيل لهم قبل أن يحلفوا سوف تحلفون، فإذا لم يحلفوا ألغوا الآية، لكن هذا الشيء لا يمكن إلا أن يكون، لأنه من عند الله عز وجل.

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ)

(انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ)

أي رجعتم إليهم، بعدما انتهى الجهاد وعاد المجاهدون إلى المدينة.

(لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ)

هنا لها معنى دقيق:

(لِتُعْرِضُوا)

عن اتهامهم بالنفاق

(لِتُعْرِضُوا)

عن لومهم،

(لِتُعْرِضُوا)

عن محاسبتهم،

(لِتُعْرِضُوا)

عن ذمهم.

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ)

فالله عز وجل قال طمئنوهم،

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ)

دعه وشأنه، الله يحاسبه، الإنسان المؤمن يترفع عن الدخول في المتاهات، والمناقشات، والعلل التي وراءها متاعب كثيرة، هو عرف الله عز وجل فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، هذا دعه وشأنه.

المنافق إنسان كذاب يأخذ ما ليس له و يوقع بين الناس :

يقول الله:

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ)

أما الشيء المخيف فقال:

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

أحياناً يكون عندك ثوب نجس، أي ملوث بالنجاسة، تغسله فيطهر، فالنجس صفة لشيء أصابته نجاسة، أما النَجس فهل يطهر؟ مستحيل، عين النجاسة، فهذا ملمح باللغة دقيقة جداً.

قال:

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

هم عين النجاسة، عين النجاسة لا تطهر، المادة القذرة هذه تزيلها، أما هي نفسها فتطهر؟ هي القذر بنفسه.

(إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

معنى رجس كذاب، منافق، يأخذ ما ليس له، يحتال، يوهم الناس، يوقع بين الناس، مصلحته قد تفرق، فيفرق بين الأم وابنها، دائماً الطرف الآخر خططه كلها للشعوب الأخرى أضعاف، قهر، إذلال، إفساد، إشاعة الفحشاء، شيء واضح جداً، فالغرب عندما يحتل بلداً يريد أن يشيع فيه الفحشاء، والإنسان حينما يشيع الفحشاء في بلد يسهل عليه حكمه، المؤمن قوي، المؤمن كريم، عزيز، أما المنحرف أخلاقياً ضعفت شخصيته فأصبح تابعاً.

المنافقون هم عين النجاسة :

لذلك في بعض الأحاديث الدقيقة جداً أنه بآخر الزمان هناك أقوياء، وطغاة، ورجالهم معهم سياط، يجلدون فيها الناس، الحديث معروف لكن الحديث نفسه له تتمة:

((ونِساء كاسيات عاريات))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الشيء الذي يلفت النظر لماذا جمع النبي الكريم رجال أقوياء يجلدون الناس بسياطهم مع نساء كاسيات عاريات؟ هذا الجمع استنبطه بعض العلماء أن الحاكم القوي أحد أسباب قوته أن يشيع الفحشاء في مجتمعه، حتى يضعفوا فينصاعوا لحكمه، طبعاً حكم الظالم أقصد.

إذاً:

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ)

أي لا يوجد صفة أبلغ من هذه الصفة، هم عين النجاسة، نجاسة أخلاقية، الكذاب نجس، المنافق نجس، المحتال نجس، الذي يبالغ في الأمور حتى يبتز أموال الناس نجس، فالإنسان الكامل كما قال بعضهم: مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

مكارم الأخلاق أكبر ثمرة من ثمرات الصلاة :

أنا أقول لكم هذه الكلمة دقيقة جداً، أرجو الله أن تكون واضحة قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت]

من أدق ما قاله الإمام ابن عباس الصحابي الجليل: " إن ذكر الله لك أيها المصلي أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الرحمة، منحك العدل، منحك الحلم، منحك الرضا، منحك اليقين، منحك مكارم الأخلاق"، أكبر ثمرة من ثمرات الصلاة مكارم الأخلاق، وحينما غفلنا عن هذه الثمرة الصلاة لم تكن كما أرادها الله عز وجل من هنا ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي - أي فكر بالكون، عرف عظمة الله - ولم يصر على معصيتي - استقام على أمر الله - وأطعم الجائع، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي - إخلاص هذا - وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

والحديث طويل.

نية الإنسان لفعل معصية هي الكسب الذي سيحاسب عليه :

إذاً

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذا الكسب هو من صنع الإنسان، الحركة من الله، القوة من الله، أما نية التوجه إلى معصية فهذا من الإنسان، والدليل:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة الآية: 286]

ما الذي تحاسب عليه؟ هذه النية لفعل طاعة أو معصية، فنية الإنسان لفعل معصية هي الكسب الذي سيحاسب عليه، أما القوة فقوة الله عز وجل، والعمل الصالح يحتاج إلى قوة وهي من الله، لكن نية المؤمن في تقديم هذه الخدمة هي التي يكافئ الله عليها، هذه النية التي انعقدت في نفسه في خدمة الناس هي سبب المكافأة من الله له.

من أطاع الله أطاعه كل شيء :

الآن:

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

انظر الإنسان المؤمن متعلق بالله عز وجل، إذا أرضى الله أرضى الله عنه كل شيء، من هاب الله هابه كل شيء، من أرضى الله أرضى الله عنه كل شيء، إذا إنسان أرضى الله عز وجل يلقي الله محبته في قلوب الخلق، يلقي هيبته في قلوب الخلق، يلقي في قلوب الخلق رغبة في طاعته، من أطاع الله أطاعه كل شيء، من هاب الله هابه كل شيء.

إذاً:

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

هنا الشاهد لو أن أهل الأرض جميعاً رضوا عن إنسان، ولم يكن الله راضياً عنه ما استفاد شيئاً، الأصل رضاء الله عز وجل، فإذا رضي الله عنك أرضى عنك كل الخلق، لذلك:

((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه))

[أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين]

لذلك: إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، المؤمن موحد، المؤمن يتجه إلى جهة واحدة، أما غير المؤمن فعليه أن يتجه إلى جهات عديدة جداً.

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

البطولة أن يرضى الله عنك لا أن يرضى عنك الناس، قد يرضى الناس عنك والله ليس راضياً عنك، لا قيمة لهذا الرضا إطلاقاً.

الموضوعية قيمة أخلاقية و علمية :

ثم يقول الله عز وجل:

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُود مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

كيف؟ هناك تعليل لطيف، الأعراب سكان البادية، وهناك سكان المدن، بالمدينة يوجد علم، ومساجد، ومدارس، ومعاهد، ودروس علم، وخطباء، الريف قد يكون جميلاً وهادئاً، لكن لا يوجد علم، هنا أكثر المفسرين قالوا: الأعراب الذين اختاروا البادية، البادية هادئة، لكن لا يوجد فيها علم.

((من بدا جفا))

[أخرجه أبو يعلى عن البراء]

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ)

بعدهم عن منابع العلم جعلهم بهذه الجفوة، وهذا التكذيب أحياناً.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر ما يسمى بالموضوعية، الموضوعية أخواننا الكرام، قيمة أخلاقية، وقيمة علمية، إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، وإذا كنت موضوعياً أنت عالم، قيمة أخلاقية، وقيمة موضوعية، وقيمة علمية في الوقت نفسه، أنا أتمنى أن يكون الإنسان موضوعياً، الآن مثلاً:

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

لا يوجد حكم مطلق، مرة كنا في الجامعة أثناء مناقشة الدكتوراه قال الأستاذ المشرف للذي يدلي بملخص أطروحته: في هذه العبارة تعميم، قال له: والتعميم من العمى.

الأعمى يعمم، أما كلما ارتقى علمك فلا تعمم، الحكم الموضوعي دليل علمك، ودليل أخلاقك، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي.

مثلاً: الأسرى مروا أمام النبي في بدر، وكان صهره بينهم، زوج زينب، سعد بن الربيع قال: "والله ما ذممناه صهراً"، انظر إلى الموضوعية، هو الآن مشرك، وجاء ليقاتل النبي، وقد يقتله، أما لما استعرض الأسرى فقال: "والله ما ذممناه صهراً".

فأنت بالموضوعية تكون عالماً، بالموضوعية تكون أخلاقياً.

إذاً:

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً)

والأعراب سكان البادية، والبادية لا يوجد فيها علم، العلم فيها ضعيف جداً، الآن نحن عندنا بواد، خيام، وغنم، ومنتجات زراعية، لكن جامعة ومدارس بالبادية لا يوجد.

حاجة العلم إلى التفرغ :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ)

يقول الإمام الشافعي: لو كلفت شراء بصلة ما تعلمت مسألة.

العلم يحتاج إلى تفرغ، إلى جامع، إلى مجلس علم، الإنسان حتى يضع على بطاقته د. جانب اسمه، د. يعني دكتور يكون معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، ولسانس، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، ثماني شهادات حتى يضع د.، تريد أن تقول: أنا مؤمن ولك الجنة وما قدمت شيئاً لهذه الجنة؟ لا قدمت علماً، ولا طلبت علماً، لا قرأت كتاباً، ولا فهمت القرآن، مستحيل.

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

هذه دعوة إلى أن تكون مع دور العلم، مع ينابيع العلم، مع مكان فيه علم، مع مكان فيه توجيه، الأولى أن تكون في مجلس علم، مع شيخ في مسجد، في تفسير، في حديث، في سيرة، في فقه، هذا العلم علم مصيري، نحن أحياناً نفرق بين شيء مصيري وشيء غير مصيري، إذا الإنسان عرف الله عرف كل شيء.

أنواع العلم :

كنت أقول دائماً: إن كل علم ممتع على الإطلاق، أنا أضرب مثلاً بسيطاً أن الإلياذة والأوديسة هي قصائد مشهورة جداً في العصور القديمة، قبل الميلاد، لكن تتحدث عن آلهة، الأفكار كلها غير صحيحة، لكن يبدو فيها نظم عميق جداً، الإلياذة والأوديسة ممتعة لكن غير صحيحة، هناك علم ممتع ونافع، أنت أخذت شهادة عليا نادرة، فيزياء نووية، لك دخل كبير، صار هذا علماً ممتعاً مع أنه ممتع نافع، لكن هناك علم ممتع، نافع، مسعد، هو العلم الشرعي، هذا العلم نفعك في دنياك وفي آخرتك، هذا العلم كان سبب دخولك الجنة، فابحث عن علم ممتع، نافع مسعد، هناك علم ممتع فقط، أي علم. أحياناً مثلاً تقرأ قصيدة و هي عبارة عن ألف بيت، بموضوع معين، لكن هذا الموضوع لا يقدم ولا يؤخر هذا علم ممتع، هناك علم ممتع نافع مسعد.

المنافق يرى أن الإنفاق خطأ كبير و خسارة كبيرة :

الأعراب ابتعدوا عن ينابيع العلم، سكنوا البادية:

(أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ)

بعضهم المنافق،

(مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً)

العمل الصالح يعد خسارة كبيرة، يقولون: إن أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الجنة أم من أهل النار ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، الأقوياء في حضرتهم، الأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء عاش الناس لهم.

إذاً:

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً)

يعد الإنفاق خطأ كبيراً، ومغرماً كبيراً، وخسارة كبيرة، ما رأى الله، ما رأى ما عند الله، ما عمل للجنة، ينفق، ادعى أنه مؤمن فلابد من أن ينفق، فإنفاقه في إكراه.

من ارتاحت نفسه لمصيبة ألمت بأخيه فهو منافق :

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ)

بالمناسبة أخواننا: إذا ارتاحت نفسك بمصيبة ألمت بالمؤمن فاعلم أن هذا نوع من النفاق، الدليل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 50]

هذا مقياس، المؤمن مستقيم، طاهر، جاءته مصيبة أنت ارتحت، يمكن أن تعزيه، يمكن أن تتصنع الألم من أجله، لكن بأعماقك مرتاحاً، ما دام هناك راحة لهذه المصيبة التي أصابت المؤمن فاعلم علم اليقين أن هذا نوع من النفاق.

فالمنافق:

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ)

المصائب، ينتظر مصيبة تريحه.

قال:

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

المصائب سوف تنزل إليهم،

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذا تكلمت سميع، سكتت، وفكرت بأعماقك عليم، إن تحركت بصير، تحركت، نطقت سميع، لا تحركت ولا نطقت، أضمرت شيئاً، عليم، أنت مستهدف، إن تحركت فهو عليم، وإن تكلمت فهو سميع، أضمرت فهو عليم.

من تقرب إلى الله بعلم أو بعمل فله الجنة :

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة]

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ)

انظر إلى التوازن والموضوعية،

(مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ)

يتقرب إلى الله بإنفاقه.

(وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ)

أي يحضر مجلس علم له صلة مع رسول الله.

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ)

أحد القرب القرب عن طريق العلم، أو عن طريق العمل، علم وعمل، إن جلست مجلساً لرسول الله، أو لعالم صادق فأنت قدمت قربة علم، وإذا عملت عملاً صالحاً قدمت قربة عمل،

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ)

الرد الإلهي:

(سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ)

أي في الجنة

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (59-70) : تفسير الآيات 100-102، الموت نهاية كل حي، وبداية حياة أبدية، ممكن أن تخدع الناس، ولكن مستحيل أن تخدع الله ثم تخدع نفسك.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل الصالح علة وجودنا في الدنيا بعد الإيمان بالله :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة التوبة، ومع الآية المئة وما بعدها وهي قوله تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء: إن علة وجودنا في الدنيا بعد الإيمان بالله هو العمل الصالح، والعمل الصالح يرقى بنا إلى الله، بل هو ثمن الجنة، بل إن العمل الصالح من خلاله يتفاوت الناس في مكانتهم عند الله عز وجل.

فلذلك حينما كلفنا أن نعرفه أولاً، وأن نعبده ثانياً، وأن نتقرب إليه ثالثاً، التقرب إليه بالعمل الصالح، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك.

فهؤلاء الذين سبقوا عند الله لهم أعمال صالحة جداً بسبب إصرارهم ورغبتهم في مرضاة الله سبحانه وتعالى، فأجرى الله على أيديهم الخير:

((عبدي أنا خلقت الخير والشر، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

هؤلاء السابقون من أصحاب رسول الله، أصحاب النبي الكريم بعضهم من مكة المكرمة، وبعضهم من المدينة، فالذين سبقوا إلى الإيمان في مكة، والذين سبقوا إلى نصرة النبي في المدينة، هؤلاء الذي تعنيهم هذه الآية.

التسابق في الدنيا فيه حمق كبير لأن الموت ينهي كل شيء :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

الذي يلفت النظر أن التسابق في الدنيا حمق كبير لماذا؟ لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم،

الموت ينهي كل شيء، فالتسابق في الدنيا حمق وأي حمق، ولأوضح هذه الحقيقة بمثل: لو أجرينا تسابقاً كبيراً بين السيارات، سيارة كبيرة، صغيرة، حديثة، قديمة، محرك بأعلى مستوى، بأدنى مستوى، في نهاية هذا الطريق وادٍ سحيق، فكل هذه السيارات بعد أن بلغت نهاية الطريق سقطت في الوادي، فما قيمة هذا التسابق؟.

التسابق في الدنيا فيه حمق كبير لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي القوي، والضعيف، والوسيم، والدميم، والذكي، والغبي، ينهي كل أنواع البشر، فلأن الموت جعله الله نهاية الحياة الدنيا فالتسابق في الدنيا تسابق إلى مجهول، تسابق إلى لا شيء، أما البطولة أن تتسابق إلى مراتب الآخرة، لذلك قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات]

التسابق في عمل الآخرة ينتهي بجنة عرضها السموات والأرض :

الله عز وجل أرادنا أن نتسابق في عمل الآخرة لأن هذا التسابق ينتهي بجنة عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين، ولا أحد بإمكان عقله أن يتصور الأبد، ماذا أقول لكم؟ أكبر رقم تتصوره في الكون إذا نسب إلى الأبد فهو صفر، واحد في الأرض أصفار للشمس، للمريخ للمشتري، لبلوتو، إلى أبعد نجم في الأرض.

بالمناسبة: بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والموضوع طويل، لكن باختصار لو كان هناك طريقاً يصل لهذا النجم، وركبت مركبة أرضية تحتاج أن تصل إليه إلى أقرب نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية إلى خمسين مليون عام، فبعض المجرات التي اكتشفت حديثاً والتي تبعد عنا أربعة و عشرين ألف مليون سنة، هذه المجرات متى نصل إليها؟! أما إذا قرأت قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

لذلك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً.

الموت نهاية كل حيّ وبداية كل حياة أبدية :

الله أرادنا أن نتسابق، أن نتنافس في الآخرة، لأنها دار القرار، لأنها دار النعيم المقيم، لأنها دار الخلد، لأنها دار الأبد، أما التنافس على الدنيا ففيه حمق وأي حمق، لأن الموت ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، وغنى الغني وفقر الفقير.

مرة اطلعت على كتاب من أربعة أجزاء حول قصص العرب، بعد أن قرأت هذا الكتاب وصلت إلى هذه النتيجة، الأقوياء ماتوا، الضعفاء ماتوا، الأغنياء ماتوا، الفقراء ماتوا، الأذكياء ماتوا، الحمقى ماتوا، كل هؤلاء البشر الذين قرأت عنهم في هذه المجلدات الأربع ماتوا إذاً الموت نهاية كل حي وبداية كل حياة أبدية.

لذلك أيها الأخوة، كل مصائب الدنيا تنتهي عند الموت، وكل متاعب الآخرة تبدأ بعد الموت، تبدأ ولا تنتهي، أما مصائب الدنيا فتنتهي عند الموت، فالإنسان الذي أصيب بمرض عضال الموت ينهي هذا المرض، والفقير ينتهي فقره، فالتنافس يجب أن يكون على عمل الآخرة، والآية الكريمة:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

هنا:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

تسابقوا في العمل الصالح، تسابقوا في معرفة الله، تسابقوا في الإخلاص لله، تسابقوا في خدمة البشر، تسابقوا فيما يقربهم من الله عز وجل.

الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى :

إذاً:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

هذه الآية تلقي ضوءاً على هذه الآيات التي نحن بصددها، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

لماذا؟ هذه اللام لام التعليل:

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

لكن لماذا بدأ بالموت؟ بدأ بالموت لأنه بالنسبة إلينا أخطر من الحياة، الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، أما إذا وافته المنية فأمام خيارين لا ثالث لهما.

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ]

حينما يولد أمام خيارات لا تعد ولا تحصى، أما حينما يأتيه ملك الموت فأمام خيارين لا ثالث لهما.

لذلك مرت جنازة أمام النبي عليه الصلاة والسلام فقال كلمة رائعة، قال:

((مستريح، أو مُستَّراح منه، فقالوا: يا رسول الله ما المستريحُ وما المستَّراح منه؟ فقال: العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العبادُ والبلادُ والشجر والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

كل شيء يرتاح منه، لذلك السبق هنا سبق بمعرفة الله، سبق إيمان به، سبق عمل صالح، سبق استقامة.

من يتبع أصحاب النبي في منهجهم واستقامتهم وسلوكهم يتبعهم بإحسان :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ)

المهاجرون تسابقوا، وفيهم السابق واللاحق، والأنصار تسابقوا، وفيهم السابق واللاحق.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

ما معنى اتبعوهم بإحسان؟ حينما تتبعُ أصحاب النبي في منهجهم، في استقامتهم، في سلوكهم، في إخلاصهم، في محبتهم لله، اتبعتهم بإحسان، إذا كان هناك مشكلة مرت أنت لا تجعل همك أن تكبّر هذه المشكلة، وأن تجعلها منهجاً، هذا عمل القناصين، عمل المنحرفين، عمل أصحاب النوايا السيئة، لذلك نأخذ من الماضي الأشياء المشرقة، ونتجاوز الأشياء الأخرى.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة البقرة]

في الأزمات طرح أي قضية خلافية جريمة في حق الأمة :

أخواننا الكرام، إذا أنت مسافر إلى بلد، وتعلق آمالاً كبيرة على بلوغ هذا البلد، لك مبلغ كبير تأخذه، ونظرت إلى ورائك فرأيت هناك مشكلة، أو خصومة بين اثنين، هل تقتضي مصلحتك أن تعود إلى الوراء لتتطلع على هذه المشكلة أم أن تنظر إلى أمامك لتصل إلى هدفك؟

فنحن حينما نستورد من التاريخ مشكلات تشق صفوفنا، أو تباعد بيننا، هذا العمل غير صحيح، وغير ناجح، وغير واقعي، وغير مفيد، فنحن نأخذ من التاريخ ما يجمعنا، ما يوحدنا، ما يقربنا إلى الله عز وجل، أما إذا نقبنا في التاريخ، وقد تكون الروايات غير صحيحة، وكاذبة فأخذنا السلبيات، وكبرناها فهذا عمل شيطاني، لذلك:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

مرة ثانية: أنت مسافر إلى بلد، لك فيه مبلغ فلكي تحل فيه كل مشكلاتك، سمعت خصومة وراءك، هل تلغي هذا الهدف الكبير وهذه المدينة التي فيها مبلغ كبير وترجع إلى الوراء لترى من هو المصيب ومن هو المخطئ؟

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ)

أنا أعني ما أقول ينبغي ألا نستورد من تاريخنا مشكلات تشق صفوفنا، وتباعدنا، وتحزبنا، وتجعلنا شيعاً وطوائف هذا كله من عمل الشيطان.

لذلك في الأزمات طرح أي قضية خلافية أنا أراها جريمة في حق الأمة، طرح القضايا الخلافية، هناك قواسم مشتركة، ذلك أن أعداءنا يتعاونون تعاوناً مذهلاً وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، بينما المسلمون في تخلفهم الحديث يتقاتلون والدماء تسيل، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، ينبغي أن نبحث عن عوامل وحدتنا، عن عوامل قوتنا، عن عوامل ازدهارنا، عن عوامل انتصارنا.

إذاً: نأخذ من الماضي ما يقوي وحدتنا، ما يقوي مكانتنا، ما يقوي مبادئنا، ما يقوي تحقيق رسالتنا، أما أن ننبش الماضي لنأخذ خلافات فنجعل أنفسنا شيعاً، وطوائف، ونتعادى فهذا من عمل الشيطان، النصوص الصحيحة تجمعنا والنصوص الضعيفة والموضوعة تفرقنا، وقد قيل في الصحاح غُنية.

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذي استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا.

لا تنبش التاريخ وتأخذ الصور الخلافية التي تزيد في تشرذمنا، وقد تزيد في انشقاقنا مع بعضنا، هذا عمل تخريبي وليس عملاً بنائياً.

بطولة الإنسان أن يختار من الماضي ما يوحدنا و يجمعنا :

هؤلاء:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ)

في مكة،

(وَالْأَنْصَارِ)

في المدينة،

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

أنت بكل شيء هناك جوانب مضيئة متألقة جداً، اتبع هذا الجانب، وهناك جوانب قد يكون فيها أشياء موضوعة.

أنا لا أنسى مقدمة المؤرخ الكبير الطبري، المؤرخ الطبري بمقدمة الكتاب قال: "أنا جمعت في هذا الكتاب كل ما وصل إلي من دون تمحيص".

فنحن نقع في خطأ كبير حينما نقول: هذه القصة وردت في الطبري، الطبري نفسه بالمقدمة قال: أنا جمعت كل شيء، أنت محص، فما كل شيء ينقل إليك تخبر به.

لذلك البطولة أن تختار من الماضي ما يوحدنا، ما يجمعنا، ما يجعلنا نتألق في هذه الحياة الدنيا.

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين :

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

أن يرضى الله عنك شيء طبيعي، أن تكون مستقيماً سيرضى الله عنك، أن تكون محسناً يرضى الله عنك، أن تكون باراً بوالديك يرضى الله عنك، أن تكون محسناً إلى من حولك يرضى الله عنك، فكيف ترضى عنه؟.

إنسان يطوف حول الكعبة كان وراءه الإمام الشافعي، قال هذا الطائف: يا ربي هل أنت راضٍ عني؟ فقال له الإمام الشافعي: وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال له: سبحان الله! من أنت؟ قال له: أنا محمد بن إدريس، قال له: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

هذا يذكرني بقول الإمام علي رضي الله عنه: "الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين".

إذاً التسابق في الدنيا حمق، لأن الموت ينهي كل شيء، أما التسابق في الآخرة فهو النجاح، هو الذكاء، هو الحكمة، هو البطولة، كل الصفات الرائعة أسقطها على هؤلاء الذين يتسابقون في الدار الآخرة، الله قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

العطاء الإلهي يفوق حدّ الخيال :

الحقيقة التسابق في الآخرة هو الفوز الحقيقي، أنا أقول دائماً مثل بسيط أرويه كثيراً: أن طفلاً صغيراً عقب العيد قال لأخيه، أو لقريبه: معي مبلغ عظيم، طفل عمره ست أو سبع سنوات قال لك: معي مبلغ عظيم، كم تقدره؟ بألف ليرة، إذا مسؤول كبير بالبنتاغون قال: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قال: عظيم، تقدره أنت بمئتي مليار، الكلمة نفسها قالها طفل فقدرت مئتي ليرة، وقالها مسؤول كبير بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، قدرناها مئتي مليار، وإذا كان خالق الأكوان قال عن إنسان فعل شيئاً معيناً قال:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فإذا كان أعظم العظماء خالق الأرض والسماء قال: هذا شيء عظيم، معنى ذلك أن العطاء الإلهي يفوق حد الخيال، لذلك أنا أقول دائماً الآية المشهورة:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء]

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

أخذوا الإيجابيات، بعض السلبيات تركناها، دعك منها.

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

حينما أطلعهم على ماذا ينتظرهم في الجنة رضوا عنه، فلذلك الآية:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى]

قال: المؤمن حينما يرى مكانه في الجنة، ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أرَ شراً قط، وحينما يرى غير المؤمن مقامه في النار يقول: لم أرَ خيراً قط، من هنا قال سيدنا علي رضي الله عنه : "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية".

المراتب الرفيعة التي عاصرت النبي موجودة إلى نهاية الدوران :

هناك نقطة دقيقة: الله عز وجل حينما تحدث عن:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[سورة الواقعة]

قال:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

[سورة الواقعة]

معنى ذلك أن هذه المراتب الرفيعة التي عاصرت النبي عليه الصلاة والسلام هذه المراتب موجودة إلى نهاية الدوران،

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

هذا يدعونا إلى التنافس، أنت ما دمت قد جئت متأخراً لكن المراتب العالية التي بلغها أصحاب النبي يمكن أن تصلها، من هنا قوله تعالى:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

لذلك ورد في بعض أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

لذلك في آخر الزمان:

((الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي عن أنس]

لذلك ورد:

((عبادة في الهرج كهجرة إلي))

[مسلم عن معقل بن يسار]

في زمن الفتن، في زمن الباطل، في زمن النساء الكاسيات العاريات.

((عبادة في الهرج كهجرة إلي))

من صدق الله و أحسن إلى خلقه فاز فوزاً عظيماً :

الآن الله عز وجل حينما تحدث عن هؤلاء:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ)

هناك مهاجر، و أنصاري، وإنسان تابعي، وإنسان تابعي التابعي، في عصر الصحابة التابعين وتابعي التابعين، قال:

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

العظيم يقول:

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فلذلك إذا صدقت الله عز وجل، وتحركت حركة منهجية، وأحسنت إلى خلقه، وابتغيت رضوانه وجنته هذا الفوز العظيم.

أخواننا الكرام، الإنسان جبل على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، هكذا جبل، فحينما يحقق وجوده أو علة وجوده في طاعة الله يكون هذا:

(الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

النجاح الكبير، التفوق، التألق، البطولة، كل هذه الصفات الرائعة إنما يوصف بها من تحرك إلى الله، لذلك ورد:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الإنسان مهما يكن ذكياً قد لا يكشف المنافق :

الآية التي بعدها:

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

[سورة التوبة]

أتقنوا النفاق، فالإنسان مهما يكن ذكياً، قد لا يكشف هذا المنافق، المنافق أتقن دوره تماماً، المشكلة أيها الأخوة، المؤمن هناك توافق بين لسانه وقلبه، فهو واضح، والكافر مع الأسف واضح أيضاً، هناك توافق بين لسانه وقلبه، كفر بهذا الدين، أعطاك مناعة ضده، فأنت مرتاح معه، كافر، أما هذا المنافق فهناك تناقض بين لسانه وقلبه، لسانه معك، وقلبه يحاربك، ورد بالأثر:

((لابد للمؤمن من كافر يقاتله، ومنافق يبغضه، ومؤمن أحياناً يحسده، ومن نفس ترديه، ومن شيطان يغويه))

خمسة أطراف.

عذاب المنافق :

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

كم مرة صاروا؟ ثلاث مرات، قال: المرة الأولى المنافق حينما يعلم من نفسه النفاق يظهر شيئاً، ويخفي شيئاً، يحتقر نفسه، هذا أول عذاب.

أنا أذكر مرة وزعوا استبياناً على عشرة آلاف زوج، ليجيب عن سؤال، لِمَ لا تخون زوجتك؟ هذا السؤال، فهذه الأجوبة صنفت تصنيفاً أخلاقياً، وجدوا أن أقلها قيمة الجواب الآتي: لا أستطيع، معه بالعمل، ترافقه دائماً، تحرسه دائماً، تحاسبه دائماً، هذا مستوى، قال: لا أستطيع، المستوى الأرقى لا قوة لي على احتمال هذا الذنب، أي الذنب ضاغط، يحس بالخيانةأ هذا الإحساس بالخيانة ضاغط عليه، أما في المستوى الأرقى فأكره الخيانة، لا أحتمل متاعبها بالوسط، أكره الخيانة أعلى مستوى.

فالشرع بالنهاية يرقى بالإنسان ليكون في مستوى الشرع، الشاهد على ذلك أن أصحاب النبي الكريم وصفوا: يفرحون بما أنزل إليهم، الآن بالبدايات الإنسان يكون راغباً بالمعاصي والآثام، لكنه تاب إلى الله، هو يشتهيها ولا يفعلها، أوضح مثل: أن إنساناً اصطلح مع الله، والغناء له حكم شرعي واضح، فيه تحريم، فلو استمع في سيارة عامة إلى أغنية كان يحبها، يتعاطف معها كثيراً، لكن هو لا يستمع إليها، لكن بعد حين يمقت هذه الأغنية، ارتقت نفسه.

الشرع ينبغي أن ينهض بك إلى مستوى تتوافق مع أحكامه، حتى تنطبق الآية الكريمة:

(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

أما إذا كان هناك مسافة مستمرة بين ما تتمنى وبين الواقع فهذه مشكلة كبيرة.

إذاً:

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ)

المدينة محاطة بالمنافقين، قال:

(وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ)

منافقون، في الداخل، ومن الخارج،

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)

أتقنوا النفاق.

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

أول مرة: احتقارهم لأنفسهم نوع من العذاب، المرة الثانية: أن الله يعاقبهم، هذه الثانية، والثالثة في الآخرة:

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

بالآخرة.

من يسلك طريق الإيمان يشعر بسعادة لا توصف :

ما المؤمن؟

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن]

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، هؤلاء الذين عرفوا الله، سعداء في الدنيا، لي رأي سأقوله لكم: إن استمتاع المؤمن في دنياه التي أرادها الله له من دنياه التي أخذها أشد متعة، من الجانب الإيماني اشتهى المال فعمل عملاً شريفاً، وكسب كسباً شرعياً، اشتهى المرأة تزوج، الأشياء التي أبيحت للمؤمن في الحلال أشد متعة بآلاف المرات من الطريق الآخر.

فلذلك الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان يشعر بسعادة لا توصف، لأنه اصطلح مع نفسه أولاً، ولأنه حينما طبق الشرع توافق هذا التطبيق مع فطرته.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية: 30]

إذاً: الأعراب منافقون حول المدينة، وفي المدينة منافقون يتقنون النفاق، لماذا عرف الله نبيه الكريم والمؤمنين بهذه الحالة؟ قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء الآية: 71]

باب التوبة مفتوح دائماً :

الآن:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة]

من هؤلاء المنافقون؟ يا الله! باب التوبة مفتوح دائماً،

(اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ)

قال:

(خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً)

من أدق ما في هذه الآية أن اعترافهم بذنبهم عمل صالح وذنبهم الذي عملوه عمل سيئ، فجمعوا بين عملهم السيئ وهو الاعتراف بالذنب والعمل السيئ.

لكن بعضهم يقولون: أن الإنسان حينما يعترف بذنبه، ويندم على فعلته فكأن هذا في طريق التوبة، دائماً عندنا بالقرآن آيات تلفت النظر، هناك آية تقول:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

توبة الله تسبق توبتهم، هناك آية تقول تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 117]

ما الفرق بينهما؟ من أدق ما قرأت عن هذه الآية:

(تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 17]

إذا سبقت توبة الله قبول التوبة أي ساق لهم من الشدائد ما حملهم بها على التوبة:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

إذاً البطولة أن الله عز وجل إذا ساق لك بعض الشدائد يجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الشدائد سيقت لك كي تتوب إلى الله، وحينما تفهم حكمة الله عز وجل، وتصطلح معه، تذوب حباً له:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الله عز و جل أنبأ نبيه عن المنافقين ليحذر أصحابه :

هؤلاء الأعراب المنافقون، وهؤلاء الذين يسكنون في المدينة، ممن

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)

أتقنوا النفاق،

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ)

الله عز وجل أنبأ نبيه لينبئ أصحابه بهؤلاء المنافقين كي يحذروهم.

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

مرة عذاب نفسي، اختل توازنهم، ومرة عقاب على نفاقهم، والثالثة في الآخرة في جهنم وبئس المصير،

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

(وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآَخَرَ سَيِّئاً)

هنا:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

عندنا رجاء، وعندنا تمنّ، الفرق الكبير بين الرجاء والتمني، أن التمني لشيء مستحيل، ألا ليت الشباب يعود يوماً، هذا شيء مستحيل، هذا تمنّ، أما الرجاء فمن صيغه عسى،

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

يغلب على الأمر أنه سيحقق،

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل ونفسك لا يمكن أن تخدعهما لثانية واحدة :

فيا أيها الأخوة الكرام، القضية قضية دقيقة جداً هو أن مصيرك الأبدي إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها، المصير الأبدي مخيف، الدنيا بكل ما فيها.

مرّ النبي الكريم على قبر، فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

فهؤلاء الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة، والأعراب حول المدينة، لا تعلمهم يا محمد قد يكون نفاقهم بأعلى درجة من الذكاء والإتقان،

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)

لكن أنا أعيد هذه الكلمة التي أرددها كثيراً: قد تخدع الناس لبعض الوقت، وقد تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، فهذا مستحيل وألف ألف مستحيل، لذلك أما الشيء المستحيل فأن تخدع الله.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء الآية: 142]

أن تخدع نفسك، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

الله عز وجل ونفسك لا يمكن أن تخدعهما لثانية واحدة.

(نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه الآيات، وأن نجعلها نبراساً لنا في حياتنا، وأن يتغمدنا الله بعفوه، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (60-70) : تفسير الآيات 103-105، فضائل الزكاة وما يتضمنها من عبر - لا يعلم الغيب إلا الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-07-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الزكاة تؤخذ ولا تعطى :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، ملامح كثيرة من خلال هذه الآية، الملمح الأول أن الزكاة تؤخذ ولا تعطى، أي يجب أن يأخذها ولي أمر المسلمين، لأن القضية منوطة بنظام اقتصادي، منوطة بنظام دقيق جداً، فإذا ترك الأمر لاختيار المسلمين هناك مشكلة كبيرة، فالزكاة تؤخذ هكذا القرآن، أما إذا كان ظروفاً أخرى فهذا موضوع ثان، أما أصل الزكاة فأنها تؤخذ، والدليل يا محمد:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

وولي الأمر الذي ينوب عنه إلى نهاية الدوران مهمته أن يأخذ الزكاة من الناس.

الشهوات أودعت فينا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات :

أولاً:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

والأموال جمع، لم تأت الكلمة مفردة، جمع، النقدان الذهب والفضة مال، النقد الورقي الآن مال، الأراضي مال، البيوت مال، بمعدل التجارة طبعاً عروض التجار مال، البضائع مال، كل شيء له قيمة ويكون موضع تداول، موضع تجارة، وبيع وشراء، هو مال، فالكلمة واسعة جداً.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

طبعاً هنا هي الزكاة، لكن الغريب أن الله سماها صدقة، قال بعض العلماء: لأن الإنسان يقوم بنشاطات كثيرة جداً لا تكلف شيئاً، أما حينما يُطلب إليه دفع ماله فالله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران الآية: 114]

الله عز وجل أودع فينا الشهوات، والذي يعد دقيقاً جداً ما أودع فينا الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات، الحقيقة هناك من يتوهم أنه لولا الشهوات لكنا من أهل الجنة، لا ، لولا الشهوات لما كنا من أهل الجنة، لولا أن الله أودع فينا هذه الشهوات، ما ارتقينا بها إلى رب الأرض والسموات.

أنت لو أمسكت حجراً وأعطيته لفقير، هل ترقى بهذا العمل؟ لا، أما حينما تمسك ليرة ذهبية وتعطيها لهذا الفقير فترقى بهذا العمل، لماذا؟ الذهب محبب إليك.

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا :

فلولا أن الله أودع فينا الشهوات حب النساء لما كان هناك معنى لغض البصر، لولا أن الله أودع فينا حب المال، ما كان هناك معنى لإنفاق المال، لولا أن الله أودع فينا الشهوات، ما ارتقينا إلى رب الأرض والسموات، لكن أريد أن أوضح هذه الحقيقة:

لو أن طالباً قصر في أداء واجباته المدرسية، فعاقبه المعلم، فقال هذا الطالب لمن حوله: إن هذه المدرسة إنما أنشئت كي تعاقبنا، أو كي تضربنا، هذا حمق، المدرسة أنشئت كي تعلمنا، كي تهذبنا، كي نكون قادة للأمة، أما حينما ينحرف أحد الطلاب فيعاقب، فالله عز وجل يعاقب لكن الأصل أن الله خلقنا ليسعدنا، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

خلقنا ليسعدنا، لماذا يكون العذاب إذاً؟ خلقنا ليسعدنا، وجبلنا على حبنا لذاتنا، وحبنا لوجودنا، وحبنا لسلامة وجودنا، وحبنا لكمال وجودنا، وحبنا لاستمرار وجودنا، يأتي العذاب من الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به والدليل القطعي قول أهل النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

معنى هي أزمة علم فقط، أنت مبرمج، مولف، مفطور، على حب وجودك، وعلى حب سلامة وجودك، وعلى حب كمال وجودك، وعلى حب استمرار وجودك، فحينما تتغافل عن منهج الله، وتقع في خطأ تعاقب، أما الأصل فأن الله خلقنا ليسعدنا، والدليل:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

خلقهم ليرحمهم.

المصائب تسوق الإنسان إلى باب الله عز وجل :

بل إن المصائب أحياناً سماها الله عز وجل في كتابه نعماً، والدليل قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

قال علماء التفسير: النعم الظاهرة النعم المألوفة الصحة والمال، وأما النعم الباطنة فالمصائب، لأن المصائب تسوقهم إلى باب الله.

((عجب ربنا من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة]

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

إذاً النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى حينما أمرنا أن ندفع أموالنا

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

تؤكد صدقهم، المال محبب لولا أن الله أودع فينا حب المال لما كان من معنى لإنفاقه، لولا أن الله أودع فينا حب المرأة لما كان من معنى لغض البصر والانضباط، إذاً هذه الشهوات إنما أودعت فينا لنرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

الشهوات حيادية توظف في الحق أو في الباطل :

أنا أذكر أن عالماً جليلاً من علماء الشام، زرته مرة، قال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، فكرت بعد أن خرجت من عنده، أنه تزوج امرأة أنجبت له بنات وبنين، البنات تزوجن والبنين تزوجوا، الصف الثالث أولاد بناته، وأولاد أولاده، هذا الهرم الذي بدأ به وبزوجته ثم بأولاده وبناته، ثم بأحفاده ذكوراً وإناثاً، ما أساس هذا الهرم كله؟ علاقة جنسية، شهوة، إلا أنها وضعت في مكانها الصحيح، الشهوات حيادية إما أن توظف في الحق أو في الباطل.

لذلك أنا أقول دائماً: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها فيها قناة نظيفة تسري خلالها، بتعبير آخر معاصر: بالإسلام لا يوجد حرمان أبداً، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها فيها قناة نظيفة تسري خلالها.

بل إنني أقول ولا أظن أنني أبالغ: إنها متعة المؤمن بحياته الدنيا، لأنها من حلال ووفق منهج الله، ومع هذه المتعة هناك مرضاة لله عز وجل التي تفوق متعة أهل الدنيا بدنياهم ملايين المرات، لأنه مطمئن.

مثلاً بيت فيه كل الأجهزة الكهربائية، المكيف، والثلاجة، والغسالة، والمكواة، والراديو، كل الأجهزة موجودة لكن لا يوجد كهرباء، كل هذه الأجهزة عبء على صاحبها، حاجزة محلاً، وآخذة كتلة بلا فائدة، فإذا سرت الكهرباء في البيت كلها لها قيمة.

صدق ولا أبالغ، الإيمان يجعل الحياة جنة، الزواج له معنى في الإيمان، إنجاب الأولاد لهم معنى في الإيمان، إنجاب البنات له معنى، النبي الكريم حينما جاءته فاطمة ضمها، وشمها، وقال: "ريحانة أشمها وعلى الله رزقها".

الإسلام منهج كامل شامل :

الفرق بين حياة المؤمن و غير المؤمن - وفق المبادئ، والقيم، والأهداف، والحركات في الحياة- كبير جداً، ليس الفرق بين إنسانين، إنسان يصلي و آخر لا يصلي، لا أكبر بكثير، أنا أرى أن منهج الله عز وجل ليس خمسة بنود كما يتوهمه بعض الناس، صوم، صلاة، حج، زكاة، لا، منهج الله عز وجل يبدأ من فراش الزوجية، وهو من أخص خصوصيات الإنسان، وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج كامل شامل.

فلذلك أنت حينما تصطلح مع الله وتخضع لله، أي آية في القرآن الكريم تخاطب المؤمنين علامة إيمانك أنك إذا قرأتها تشعر أنك معني بها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم]

أي آية تبدأ بـ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تشعر يقيناً أنك معني بها، لأن الله عز وجل كأنه يقول: يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بربوبيتي، يا من آمنتم بألوهيتي، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى، أفعل أو لا أفعل، فأنت معك منهج، هنا من فقرات هذا المنهج:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي المال الورقي مال، والذهب والفضة مال، والبضاعة مال، عروض التجارة مال، الآن الأراضي المعدة للتجارة مال، البيوت المعدة للتجارة مال، أما بيت السكن فمعفى من الزكاة، أساس البيت معفى من الزكاة، الأدوات معفاة من الزكاة، المركبة معفاة من الزكاة، هناك أشياء معفاة لأنها مستهلكة، أما كل شيء يمكن أن يكون للتداول، وللبيع والشراء، ويربح فعليه زكاة.

الزكاة تؤكد إيمان المؤمن و صدقه :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

هذه الصدقة تؤكد صدقهم في إيمانهم، علامة الصدق هو الدفع، أما بالصيف فتتوضأ وتُنشف وتصلي لم تكلف شيئاً، لا يوجد شي إطلاقاً، لا يوجد جامع في دخوله رسم دخول، المتحف له رسم دخول، أما الجامع فتدخل دون أن تدفع شيئاً، تتوضأ، والجامع مكيف، مدفأ في الشتاء لا يوجد أي مشكلة، فحينما لا تبذل لا ترقى عند الله.

الآن:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أي صدقة تؤكد صدقهم مع الله عز وجل، تؤكد صدق إيمانهم، أحياناً بعض الدول تعلن عن مسابقة، وتجعل رسماً لهذه المسابقة، إنسان يتقدم إليها وغير جاد في هذا التقديم، حتى لا يكون عبئاً على الدولة، له استمارة، وله اضبارة، و هناك لجان فحص، يضعون مبلغاً جيداً جداً، هذا يكشف الصادقين، من عنده إصرار على الموضوع؟ يدفع المبلغ، فهنا الزكاة تؤكد إيمان المؤمن، تؤكد صدق إيمانه، تؤكد أنه يحب الله أكثر من ماله.

مثلاً الحج، لك بيت مستقر فيه، لك غرفة ضيوف، غرفة جلوس، لك أشياء مريحة جداً، اترك بيتك، وزوجتك، وأولادك، ومركبتك، ووظيفتك، ومكتبك، وإخوانك، وأحبابك، وأصدقاءك، واذهب إلى الحج، هناك متاعب كبير جداً في الحج، حر، ومشقة، وطواف وسعي، و صعود إلى عرفة، هذه تؤكد أن أمر الله أحب إليك من دنياك، فالدنيا دار ابتلاء لا دار اجتباء، دار ابتلاء.

الزكاة تطهر النفس من الحقد :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

الآن ما معنى:

(تُطَهِّرُهُمْ بِهَا)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

قال: هذه الصدقة التي هي الزكاة تطهر الغني من مرض الشح.

أخواننا الكرام عندنا أمراض خبيثة، أمراض عضالة، تنتهي بالموت، مثلاً الورم الخبيث مرض عضال، أنا أقول لكم: إذا كان الورم الخبيث مرض عضال ينهي حياة الإنسان فالشح مرض عضال أيضاً يصيب النفس، والدليل:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر]

الشح مرض خطير يصيب النفس،

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

من: تطهر الغني من الشح، والفقير من الحقد، يرى الغني مركبته الفارهة، بيته الفخم، مساحته أربعمئة متر، ألوان الطعام والشراب، أنواع الحلويات، لقاءاته، حفلاته، زياراته، سياحته، أموال ينفقها بغير حساب، وهو فقير معدم، فالفقير يحقد أحياناً، فالزكاة تطهر من الحقد، فالغني طهره الله من الشح وهو مرض عضال، والفقير طهره الله من الحقد.

الزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به :

الآن الشيء الثالث أن الزكاة تطهر المال من تعلق حق الغير به، الزكاة مالك، لذلك قالوا: أي مالٍ مهما يكن كبيراً إذا أديت زكاة ماله، فقد أذهبت عنه الخطر، فأنت حينما تؤدي زكاة مالك طهرت الغني من البخل، من الشح، طهرت الفقير من الحقد، طهرت المال من تعلق حق الغير به، لأن الله قال:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

[سورة الذاريات الآية: 19]

أنت حينما تؤدي الضريبة، لا يأتيك كتاب شكر من وزير المالية، الدولة تقوم على الضرائب، فيها رواتب موظفين، فيها تعليم، فيها جيش، كل هذه النفقات الكبيرة تحتاج إلى أموال، فالضرائب واجب المواطن، أما حينما يقدم مواطن بناء فخم ليكون جامعة، فيقام له حفل تكريمي، الحفل التكريمي بِمَ زاد على الضرائب؟

فالزكاة واجب كل مسلم، من أجل أن تستقيم الحياة، والله مرة قرأت دراسة عن بلد نام: لو أن أغنياء هذا البلد دفعوا زكاة مالهم ما بقي فقير، أحد شروحات الزكاة أنها نظام اقتصادي كامل، لو أن كل غني دفع زكاة ماله ما بقي فقير.

أنواع العبادات :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

تؤكد صدقهم،

﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾

من الشح إن كان غنياً، من الحقد إن كان فقيراً، تطهر المال من تعلق حق الغير به، لأنه قال:

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾

أي هذا الفقير - في أصل التصميم الإلهي- جعله الله يرقى عن طريق فقره، وهذا الغني جعله الله يرقى عن طريق ماله، لذلك أنا أقول دائماً: عندنا عبادة مألوفة، أن تصلي، وتصوم، وتحج، و تزكي، لكن هناك عبادة الهوية، أنت من؟ أنت غني، العبادة الأولى إنفاق المال، أنت عالم؟ العبادة الأولى إلقاء العلم، على ألا تأخذك في الله لومة لائم، أنت قوي؟ العبادة الأولى إحقاق الحق، إذاً عندنا عبادة مألوفة شعائرية، كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، عندنا عبادة الهوية فالغني العبادة الأولى إنفاق ماله، والقوي العبادة الأولى إحقاق الحق، والعالم العبادة الأولى أن تلقي العلم وألا تأخذك في الله لومة لائم، والدليل هناك آية دقيقة جداً:

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾

[سورة الأحزاب الآية:39]

فلو خشي هذا العالم غير الله ألغيت دعوته كلها، إذا خشي غير الله فسكت عن الحق خوفاً، أو نطق بالباطل رياءً، انتهت دعوته، عندنا عبادة الهوية، الغني عبادته إنفاق المال، العالم عبادته إلقاء العلم، دون أن يخشى أحداً، والقوي عبادته إحقاق الحق.

من يتجاهل الآخرين إنسان أحمق :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

الآن تطهرهم واضحة، تطهر المال من تعلق حق الغير به، وتطهر الغني من الشح، والفقير من الحقد، أما:

﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾

فهذا الغني حينما يرى مئات الأشخاص أخذوا من ماله وشكروه، وأصبحوا ممتنين له، وكانوا حراساً له، شعر بمكانة اجتماعية جديدة، لأن المحسن محبوب، فالغني عندما أعطى لمن حوله ممن يلوذ به زكاة ماله، الفقير اشترى طعاماً، اشترى شراباً، اشترى ثياباً، تمتع بالحياة كالغني تماماً، يكن له الود

والمحبة، فالغني بين أن يكون من حوله حراس، وبين أن يكون من حوله لصوص له، بين أن يكون حارساً أو لصاً، تجد الفقير المحروم حاقداً، فأنت تركب مركبتك، وتحضر الأكل، والفواكه، والحلويات، وهو يحملها لك إلى البيت كلها، هو يرى، هو إنسان، فهذا الذي يتجاهل الآخرين إنسان أحمق.

الزكاة تزكي نفس الغني عن طريق هؤلاء الذين أعطاهم من ماله فأحبوه :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

تزكيهم، زكت نفس الغني عن طريق هؤلاء الذين أعطاهم من ماله فأحبوه، والتفوا حوله، وخدموه، وكانوا حراساً له، الآن وزكت نفس الفقير، وجد نفسه محترماً، المجتمع لم ينسه، المجتمع مهتم به، جاءه على العيد مبالغ للطعام، والشراب، طبعاً الزكاة أن تكفيه طوال العمر، هناك رأي للإمام الشافعي، والزكاة أن تكفيه طوال العام، أحياناً أنت تؤدي زكاة مالك، تشتري للفقير عربة بيع، فأنت أغنيته طوال حياته، أما أن تعطيه مبلغاً بسيطاً لن يكفيه يومين، فليست هذه الزكاة، أن تغنيه، إما لعام أو طوال حياته، طوال حياته تؤمن له آلة حبك، فرضاً، تريكو مثلاً، هذه الآلة عاش منها، أو لسنة معينة، يجب أن تغنيه إما لعام، أو لكل الأعوام، هذه الزكاة، أما تجده يصف لك ثلاثين أو أربعين شخصاً ولكل واحد مبلغ لا يكفيه يومين، صرفه وانتهى الأمر، بقي فقير، هذه الزكاة ما حلت مشكلة إطلاقاً، يجب أن تحل بها مشكلة حقيقية، لذلك أن تغنيه طوال العام، أو أن تغنيه مدى الحياة، مدى الحياة بحرفة.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

فلما الغني أنفق ماله، وكان من حوله محب، وحارس، وصديق، وممتن له، شعر بمكانته، نمت نفسه، بالبر يستعبد الحر، أما الفقير فوجد الشرع لم ينسه، المجتمع مهتم به، المجتمع حريص على سعادته، وعلى إنفاقه، وعلى أولاده، وعلى كل ما يحتاجه، أيضاً شعر بقيمته، هنا النمو، الزكاة هي النمو.

الزكاة تزكي المال إما بالطريق المألوف أو بالعناية الإلهية :

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

الآن المال ينمو، طبعاً تنمو نفس الغني، يشعر بمكانته الاجتماعية، وتنمو نفس الفقير فيشعر باهتمام المجتمع به، والمال يزداد، كيف يزداد؟ يزداد بطريقتين، بطريقة اقتصادية، أن هذا الغني إذا أعطى هذا المال للفقراء صار مع الفقير قوة شرائية، سيشتري بها الطعام، والشراب، والثياب، فساهم هذا الفقير برفع مبيعات هذا الغني، فالغني فضلاً عن أنه دفع زكاة ماله، وتقرب إلى الله، ارتفعت مبيعاته، لأن هذا المال ليس له معنى من دون إنفاق، أنفقه الفقير على طعامه وشرابه، وثياب أهله وحاجاته، فنفس الغني

ارتقت، ونفس الفقير ارتقت، المال ازداد بالطريقة المألوفة.

أحياناً دول غنية جداً، يقول: منحنا الدولة الفلانية مئة مليون دولار، ما منحوهم أموالاً نقدية، منحوهم بضاعة كاسدة عندهم، حركوا المعامل عندهم، فأحياناً الدفع يسهم في رفع المبيعات.

هنا المعنى الدقيق:

(تُزَكِّيهِمْ)

تزكي المال إما بالطريق المألوف العلمي، بارتفاع القوة الشرائية عند الفقير، والقوة انعكست مبيعات عند الغني، فزاد ماله بهذه الطريقة، وهناك طريقة ثانية أنا أسميها العناية الإلهية، أحياناً هذا الغني الذي أدى زكاة ماله، الله يصرف عنه بلاء كبير، قد يكون حريقاً، يكتشفه في الوقت المبكر، وانتهى الحريق، أما إن لم يكتشفه فقضي على البضاعة كلها.

فلذلك في بعض النصوص تؤكد أنه :

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

بلد من بلدات المسلمين اجتاحتها حرب أهلية، أحرقت كل شيء، أنا رأيت محلاً بأم عيني، في مركز المدينة كل ما حوله محترق، يمين ، ويسار، وفوق، إلا هذا المحل كما أغلقه صاحبه، دافع زكاة ماله قبل الأحداث بأيام، الله حفظ له ماله.

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

نفس الغني زكت، نمت، ونفس الفقير زكت، ونمت، المال زكي بالقوانين الاقتصادية، وزكي بالعناية الإلهية.

الموصول بالله مستنير القلب متوازن بنفسه محب لله عز وجل :

الآن:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

أنت حينما تتصل برسول الله، ما الذي يحدث؟ نفس متألقة، نفس عرفت ربها، نفس متصلة به، فأنت إذا اتصلت بالمتصل وصلت إلى الله.

مولدة للكهرباء، تعطي بيتاً من البيوت، فإذا أنت وصلت خطاً لهذا البيت، جاءك ما في المولدة، شيء واضح جداً.

لذلك:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

فالنبي الكريم حينما يرى أعمال صحابه الجيدة يحبهم فإذا أحبهم نشأ اتصال نفسي بين أصحابه وبينه، هذه الصلة النفسية تسعد من اتصل بهذا النبي الكريم.

لذلك أحياناً تجد مؤمناً يأتي إلى المسجد، يحضر درس دين يقول لك: ارتحت، لماذا ارتاح؟ لأنه اتصل بنفوس مؤمنة، صار هناك تمازجاً بينه وبين هذه النفوس، فالذي عنده شيء من الرضا عن الله نقله لهذا الشيء، هذا اسمه بعمل النفس الحديث التخاطر النفسي، أنت ممكن إذا صاحبت إنساناً موصولاً بالله تشعر بقيمة الصلة بالله عز وجل.

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾

الإنسان الموصول بالله عز وجل إذا التقيت معه ترتاح، لأنه أنت أصابك من صلة الله شيئاً، الموصول بالله مستنير القلب، متوازن بنفسه، محب لله عز وجل، فأنت سافرت معه سفرة، التقيت معه، تشعر براحة، هذه بركة المجلس.

من يلتق بأهل الإيمان يزداد قرباً من الله :

لذلك أي مجلس فيه صالحون تتنزل عليهم الرحمات:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[سورة الرعد الآية: 28]

وأي مجلس فيه أناس طالحون، منحرفون، لؤماء، تجده عكر الجلسة كلها.

يروون أن أحد العارفين بالله أخوانه كلهم محبوبون، وطيبون، ومحبون له، وفي جو لطيف، منهم واحد منكر، بعيد عن الله، قال لهم: من يبيع لي هذه العباءة؟ قال له: أنا سيدي، قال له: خذ بعها، فأصحابه استغربوا، قال لهم: اشتريت لكم صفاء هذا المجلس بهذه العباءة.

إذا كان هناك إنساناً منكراً نقاداً، لئيماً، قناصاً، يعكر الجلسة كلها.

هنا:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

أنت حينما تلتقي بأهل الإيمان تزداد قرباً من الله، أولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم، موصول بإنسان يخاف من الله، موصول بإنسان متواضع، موصول بإنسان محب لله، يحب الخير للناس كلهم، هذه صفات رائعة جداً، أما اللئيم فشيء لا يحتمل.

يقول سيدنا علي: "والله والله مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشتين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين – كل هذا مستحيل - ونقل بحرين ذاخرين بمنخلين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين".

سُئل: ما الذل؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم، ثم يرده:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

إذا تبت توبة نصوحة أنسى الله حافظيك وبقاع الأرض كلها خطاياك وذنوبك.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

إنفاق المال هو الطريق الأسرع لاسترضاء الله :

أيها الأخوة الكرام، ما أمرك الله أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، هذه حقيقة ثابتة.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

ينتظرهم.

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

(وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)

لذلك قالوا: تقع الصدقات في يد الرب قبل أن تقع في يد الفقير، وقالوا في بعض الأحاديث:

((باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها))

[أخرجه الطبراني عن علي ابن أبي طالب]

تقع في يد الله قبل أن تقع بيد الفقير، الله عز وجل بالمناسبة يسترضى بالصدقات إذا كان واحد غلط غلطة مع ربه، الطريق الأسرع إلى استرضاء الله عز وجل إنفاق المال.

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

تواب صيغة مبالغة، وحينما تصاغ أسماء الله الحسنى صيغة مبالغة الله يتوب علينا، فهو التواب؛ كثير التوبة، حينما تصاغ الأسماء الحسنى صيغة مبالغة، صياغة شيئين تعني كماً أو نوعاً، أي أكبر ذنب تتصوره يغفر الله لك هذا الذنب، ومليار ذنب يغفر، عدداً ونوعاً، هذا معنى التواب، أكبر ذنب يغفر، ومليون ذنب يغفر،

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة الآية:105]

أنت في الدنيا من أجل العمل الصالح، والدليل عند الموت تقول:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

أي علة وجودك في الدنيا بعد الإيمان هو العمل الصالح،

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الغيب لا يعلمه إلا الله :

دائماً الشهادة نحن بعالم الشهادة، أما عالم الغيب فكما قيل في القرآن الكريم لا يعلم الغيب إلا الله. لذلك اسمحوا لي بهذه الكلمة: أي إنسان أوهمك أنه يعلم الغيب قل له: أنت كاذب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، هناك دعوات لا تعد ولا تحصى أساسها الدجل، والكذب، وإيهام الناس البسطاء، الغيب لا يعلمه إلا الله، والدليل:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف الآية:188]

إذاً الغيب لا يعلمه إلا الله، فأي كلام من دجال، من مشعوذ، من جاهل، من إنسان يدعي الدعوة إلى الله، وأعطاك تطميناً على المستقبل، هذا كذب بكذب، لكن أنت حينما ترى إنساناً مستقيماً فبشره بأن الله معه والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

فأنت وفق القرآن لك أن تتكلم، بل إن الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام عن علامات قيام الساعة، وعن علامات آخر الزمان، هذه ليست علماً بالغيب، هذا من إعلام الله له، فرق كبير، هو لا يعلم الغيب، قل لا أعلم العيب.

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

لكنه نذير وبشير، أما الله عز وجل أعلمه عن آخر الزمان:

((يكون المطر قيظاً، والولد غيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً))

[رواه الطبراني عن أم الضراب]

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحه، هذه علامات قيام الساعة، فكل الأحاديث التي فيها أشراط الساعة الكبرى والصغرى إنما هي من قبيل إعلام الله له، وهذا مما يؤكد نبوته عليه الصلاة والسلام.

من شروط العمل الصالح الإخلاص و الصواب :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

ينبئك بقيمة عملك، ينبئك بإخلاص عملك، مدى الإخلاص فيه، مدى الصواب فيه، مدى ما تبتغي به وجه الله فيه، العمل عمل، واضح، لكن له خلفيات، له أهداف، له شوائب، له انحرافات، لذلك:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية:19]

قال العلماء: العمل الصالح يرضى الله عنه بشرطين أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

لذلك:

(وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ)

حقيقة عملكم، الإخلاص في عملكم، الصواب في عملكم، الهدف من عملكم، الخلفية، الأرضية، الملابسات، هذه كلها يعلمها الله عز وجل وآخرون، هذه للدرس القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (61-70) : تفسير الآيات 106-108، توبة الله على بعض المتخلفين، المنافقون يريدون شق صفوف المسلمين والتفرقة بينهم وجعلهم شيعاً.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-07-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التوبة في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة من الناس :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الواحد والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السادسة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أيها الأخوة، أذكركم أن هذه السورة (التوبة) في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة ثالثة، ليست فئة مؤمنة، وليست كافرة، لكنها منافقة، لكنهم أرادوا أن يحوزوا على مكاسب المؤمنين، وأن يتمتعوا على وهمهم بتفلت الكافرين، هؤلاء المنافقون، هؤلاء جاء الحديث عنهم مطولاً في هذه السورة، ففي معظم الآيات يقول الله عز وجل: ومنهم، من يفعل كذا وكذا، ومنهم، ومنهم ومنهم، وفي آيات أخرى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 74]

و:

(سَيَحْلِفُونَ)

[سورة التوبة الآية: 95]

وكأن هذه السورة في مجملها شرح تفصيلي لأحوال فئة من الناس، لم يقبلوا الإيمان ولكنهم أرادوا مكاسبه، ولم يكونوا مع المؤمنين، بل كانوا مع الكافرين، هؤلاء المنافقون، وقد جاء ذكرهم في آيات كثيرة إنهم:

(فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

[سورة النساء الآية: 145]

هؤلاء يقول الله عز وجل عنهم:

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

عدم استطاعة الإنسان أن يجزم بمصيره يوم القيامة :

أيها الأخوة، معنى:

(مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ)

أي مؤخرون، حتى يحكم الله فيهم.

بالمناسبة الإنسان حينما يعلم علم اليقين ما سيكون ليس هذا من صفات العبودية لله عز وجل، مما يلفت النظر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم".

فالإنسان يرجو رحمة الله، يرجو الثواب، يرجو السلامة، يرجو النجاة، يرجو الجنة، أما لا يستطيع إنسان أن يجزم بمصيره يوم القيامة.

لذلك كان عليه الصلاة والسلام عند بعض أصحابه وقد توفاه الله عز وجل، فسمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، النبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون كلامه تشريع، وسكوته تشريع- أي إقراره- وأفعاله تشريع، فلو أن النبي الكريم سمع هذه المقولة من هذه المرأة، وقد قالت: هنيئاً لك أبا السائب لقد - حرف تحقيق- لقد أكرمك الله، لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً، فقال لها: ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

أي ليس من شأن المخلوق أن يحكم على المستقبل، يرجو رحمة الله، يرجو أن يكون من أهل الجنة، أما أن يحكم حكماً جازماً قاطعاً فهذا ليس من شأن البشر.

ليس من شأن المخلوق أن يحكم على المستقبل :

لذلك دائماً وأبداً حينما يدور الحديث عن مصير إنسان أنا أتمنى أن يكون الجواب دائماً: هذا من شأن الله وحده، لا تضع نفسك موضع الحكم على الآخرين، هذا من شأن الله وحده، فالنبي الكريم لما سمع من امرأة من وراء الستار تقول عن صحابي جليل توفاه الله: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، فلو أنه سكت لكان كلامه صحيحاً، قال: ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

مما يؤكد هذه الحقيقة أن بعض الذين تخلفوا عن الجهاد، حينما جاء النبي الكريم عائداً من تبوك، واستمع إلى الذين تخلفوا عن الجهاد، استمع إليهم واحداً واحداً، وقبل أعذارهم لحكمة بالغة، فلما جاء بعض الصحابة هم ثلاثة، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، سيدنا كعب قال: والله يا رسول الله ما كنت في وقت من الأوقات أشد مني قوة ومالاً في الوقت الذي تخلفت عنك، فقال النبي الكريم بلفتة رائعة، قال: أما هذا فقد صدق، استمع إلى ثمانين منافقاً وقبل أعذارهم، فلما جاء كعب

استحيا من الله أن يكذب عليه، قال له: كنت شديداً صحيحاً، ومعي راحلة، ومعي مال، كنت في أعلى درجات القوة والنشاط، ومع ذلك تخلفت عنك فقال النبي الكريم: أما هذا فقد صدق.

من كان صادقاً مع الله فالطريق إلى الله سالك :

لذلك الإنسان إذا كان صادقاً مع الله الطريق سالك إلى الله مباشرة، فالله عز وجل قال:

(وَآخَرُونَ)

يقصد هؤلاء الثلاثة، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

أراد الله سبحانه وتعالى من هذه الآيات أن يبين أن الإنسان ما دام قلبه ينبض، باب التوبة مفتوح على مصارعه، بل إن الله سبحانه وتعالى ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا، إنه أرادنا أن نكون سعداء.

((إني والإنسن والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض علي منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم لولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الرحمة التي يتراحم بها البشر هي رحمة الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، ورد في الأثر أن النبي عليه الصلاة والسلام روى لأصحابه هذه القصة، امرأة تخبز على التنور، فكلما وضعت رغيفاً في التنور ابنها إلى جانب التنور، حملته، وضمته، وشمته، فمر نبي كريم قال: يا رب! ما هذه الرحمة؟ قال: هذه رحمتي، أودعتها في قلوب الأمهات وسأنزعها- القصة رمزية طبعاً- فلما نُزعت الرحمة من قلب الأم، وبكى طفلها ألقته في التنور.

هذه الرحمة التي يتراحم بها البشر هي رحمة الله عز وجل، وفي بعض الإشارات اللطيفة في القرآن:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

أي إذا أحبك الناس فهذه محبة الله، إذا أحبت الأم ابنها فهذه محبة الله له، إذا أحب الأب ابنه فهذه محبة الله له،

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

الحديث عن الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله :

إذاً هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد، وكانوا صادقين، لم يكذبوا، قال سيدنا كعب: فأجمعت صدقه، كنت نشيطاً، ومعي راحلة، ومعي نفقات أهلي، ومعي نفقات الجهاد، وتخلفت عنك، فلما استمع النبي إلى ثمانين منافقاً، وقدموا أعذاراً كاذبة، وواهية، فلما استمع إلى هذا الصحابي الجليل سيدنا كعب، قال: أما هذا فقد صدق، دقق في هذه العبارة الذكية، إنه قيّم هؤلاء الثمانين: أما هذا فقد صدق، أما الذين سبقوه فكانوا كاذبين.

لذلك هناك ثلاثة من أصحاب النبي الكريم تخلفوا عن الجهاد، ولا عذر لهم، منهم سيدنا كعب، فجاء ذكرهم، قال:

(وَآَخَرُونَ)

بعد الحديث عن المنافقين، عن صفاتهم، عن أخلاقهم، عن مواقفهم، عن أنواعهم، عن أقسامهم، ومنهم، ومنهم، ومنهم، يحلفون، وسيحلفون، ويحلفون، جاء الحديث عن هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله، فقال:

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

السجن ليس ممنوعاً في الإسلام فهو طريقة من طرق تأديب المنحرفين :

أخوتنا الكرام، كان الإسلام في عهد نبينا الكريم في أعلى المستويات، ولم يكن في عهد النبي سجن، مع أن السجن ليس ممنوعاً في الإسلام، طريقة من طرق تأديب المنحرفين، لكن هذا المجتمع المثالي الذي انصاع لرسول الله، مما يلفت النظر أن الإنسان إذا سُجن يمنع من أهله ومن أقربائه، ومن الناس، وحتى من أقرب الناس إليه –زوجته- أما في هذا المجتمع فلما وجه النبي أصحابه أن يقاطعوا هؤلاء الثلاثة، المدينة كلها سجن أصبحت لهم، لا أحد يكلمهم، ولا أحد يلقي عليهم السلام، ولا حتى زوجاتهم، هذا المجتمع الكامل، مجتمع الطاعة لله عز وجل، الشيء الذي يلفت النظر لم يكن هناك سجن، ولكن المدينة كلها أصبحت سجناً لهم، ما دام الإنسان بالسجن يمنع عن أهله، وعن أولاده، وعن أحبابه، وعن

أقاربه، هو طليق، وليس مسجوناً، لكنه في الحقيقة في سجن لا أحد يكلمه، ولا أحد يلقي عليه السلام، لذلك قل تعالى:

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ)

أي حكمهم مؤخر لمشيئة الله،

(إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

الفرق بين الآيتين التاليتين :

بالمناسبة نقرأ في القرآن:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

وفي آيات أخرى لها ترتيب معاكس، تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 117]

ما الفرق بين الآيتين؟ أما تابوا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

أي أعلنوا التوبة فقبل الله توبتهم، أما:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أحياناً يسوق الله لبعض المذنبين بعض الشدائد، هذه الشدائد تسوقهم إلى باب الله، إذاً هو بهذه الشدة التي أحاطت بهم دفعتهم إلى باب الله، لذلك قالوا: كل شِدة - طبعاً للمؤمنين - وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة تصيب المؤمنين وراءها منحة من الله، وهناك آيات تؤكد هذا المعنى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

الله عز وجل حكيم تقتضي رحمته أن يعالج عباده :

الآن ندقق:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[سورة القصص]

لذلك بعضهم يرى أن الطغاة في الأرض في شتى العصور، هؤلاء ما كانوا طغاةً إلا ليقدموا خدمة غير ظاهرة للمؤمنين، الطغاة دون أن يشعروا، ودون أن يريدوا طغيانهم موظف لخدمة للمؤمنين، أو لخدمة الإيمان والمؤمنين، لأن هذه الشِدة تسوق الناس إلى باب الله عز وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

فالله عز وجل حكيم، كيف أن الطبيب إذا مرض ابنه والتهبت زائدته، الأب الطبيب الرحيم الحنون يأمر بأجراء عملية لابنه، يخدر ابنه، يفتح بطنه، تستأصل الزائدة، لأنه رحيم وعليم، فلذلك الآية الكريمة:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام]

أي تقتضي رحمته أن يعالج عباده، أحياناً إنسان يصاب بالتهاب معدة حاد، فإذا التقى بطبيب داخلي يخضعه لحمية قاسية جداً جداً، هذه الحمية طريق شفائه، مع أنها قاسية جداً منعه من كل أطايب الطعام من أجل شفائه، لكن لو جاء لهذا الطبيب مريض آخر، معه ورم خبيث منتشر في كل أنحاء جسمه، ولا أمل في شفائه، لو أن هذا المريض سأل الطبيب: ماذا آكل؟ يقول له: كُل ما شئت، أيهما أفضل أن تخضع لحمية قاسية جداً بعدها الشفاء التام أم أن يقول لك الطبيب كُل ما شئت؟ لأنه ميؤس من الشفاء، لذلك قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام]

الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله :

لذلك هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد وكانوا صادقين مع رسول الله هؤلاء جاء ذكرهم في هذه الآية:

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

إذاً تاب الله عليهم ليتوبوا، أي ساق لهم من الشدائد كي تنتهي بهم هذه الشدة إلى التوبة إلى الله، أما تابوا فتاب عليهم معناها أعلنوا توبتهم، فقبل الله هذه التوبة.

(وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

معنى حكيم: أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، والذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، هذه حقيقة دقيقة جداً.

انطلاق المنافقين في بناء مسجدهم من الكفر :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[سورة التوبة]

هؤلاء المنافقون ضاقوا ذرعاً بأصحاب رسول الله، فأرادوا أن يبنوا لهم مسجداً خاصاً، في هذا المسجد يتحدثون كما يشاؤون، قد ينتقضون النبي الكريم، وقد ينتقضون أصحابه، أرادوا أن يكون لهم مسجد يرتعون فيه ويمرحون، ويتكلمون على أهوائهم، فأنشؤوا مسجداً، لكن هذا المسجد سماه الله عز وجل مسجد ضرار لتفريق وحدة المسلمين، لشق صفوفهم، لإيقاع الفتنة بينهم.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

هم انطلقوا في إنشاء هذا المسجد من الكفر، كفروا بهذه الرسالة، وكفروا بدعوة النبي الكريم، أرادوا أن يكون لهم مكانة اجتماعية نابعة من الدين، أي هناك من يريد الدنيا من خلال الدين، الحقيقة الله عز وجل يكشف كل هؤلاء المنافقين.

المنافقون ليسوا مؤمنين لكن أرادوا مكاسب المؤمنين :

أحياناً الإنسان يبحث عن الدنيا من خلال الدين، وأساساً ما هو النفاق؟ الحقيقة النفاق هو ظاهرتان ظاهرة انحطاط في الإنسان، عنده شيء يعتقده، وشيء يقوله، فحينما تتناقض أقواله مع عقائده هو المنافق، يقول شيئاً لا يؤمن به، يؤمن بشيء لا يقوله، هذه الازدواجية بالشخصية، هو أراد أن يكون مع الكفر، مع أهل الفسق والفجور، مع التفلت، مع الإباحية، مع الشهوات، لكن وجد في مجتمع إيماني قوي، فمن أجل مصالحه أراد أن ينافق، لذلك الإسلام إذا كان ضعيفاً لا أحد ينافق له، لا أحد ينافق لإسلام ضعيف، أما إذا كان الإسلام قوياً فهناك من ينافق له، فإذا قلنا: نفاق أي يوجد عندنا ظاهرة مريضة في المنافق، وظاهرة قوة في المؤمنين، لأن الإنسان الضعيف لا أحد ينافق له، فالمؤمنون أقوياء، ومعهم مغانم كثيرة، فالمنافقون هم ليسوا مؤمنين، لكن أرادوا مكاسب المؤمنين.

لذلك:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أنشؤوا مسجداً، وارتادوا هذا المسجد ليكون مقابلاً لمسجد رسول الله، ليأخذ فيه المنافقون حريتهم في الحديث كما يشتهون، هم في مجتمع المسلمين مقيدون، ومحاسبون، ومراقبون.

لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أي أرادوا من هذا المسجد أن يشق صفوف المسلمين.

أحياناً سألني مرة أخ، قال: رأيت بعض الناس عقب صلاة الجمعة يصلون الظهر فما حكم ذلك؟ قلت له: لو أن بلدة فيها عدة مساجد، وأحد هذه المساجد يتسع لكل أهل القرية، في أحكام الشريعة لا يجوز أن يصلي الناس إلا في هذا المسجد الواحد، من أجل وحدة الكلمة، من أجل وحدة الهدف، من أجل جمع الشمل، من أجل عدم التفريق بين المسلمين، تصور بلدة فيها عدة مساجد، أربعة مساجد، أحد هذه المساجد يتسع لكل أهل القرية، الحكم الشرعي أن يرتاد أهل القرية هذا المسجد، من أجل وحدة الكلمة، وحدة الصف، من أجل التوفيق بين المؤمنين، فالذي يصلي في مسجد آخر هذه الصلاة لا تقبل منه، لا بد من أن يصلي الظهر بعدها حتى ترمم صلاته، هذه منطلق الفكرة في الذين يصلون الظهر بعد صلاة الجمعة، أما إذا كان هناك مدينة فيها ملايين مملينة، وفيها مئة مسجد، لو أن ربع هذه الكمية ارتادوا المساجد لا تكفيهم، هذا صار موضوعاً ثانياً، أما أتصور قرية فيها أربعة مساجد، أحد هذه المساجد يتسع لكل سكان القرية، فيجب أن يكونوا في مكان واحد، وفي توجيه واحد، وفي لُحمة واحدة، وفي أهداف واحدة، لأن التفرقة خطيرة جداً.

الدعوة إلى الله دعوتان :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أي وأنت في الحقل الديني هناك دنيا، وأنت في الحقل الديني هناك مآرب لا ترضي الله، وأنت في الحقل الديني هناك من يدعو لغير الله، أنا أقول دائماً: الدعوة إلى الله دعوتان وكلام دقيق جداً، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، أما الدعوة إلى الله الخالصة فمن خصائصها الاتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، هذا يبتدع شيئاً ما جاء في السنة ليقول أنا العالم الوحيد، وأنا المصدر الفريد، فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية:2]

والدعوة إلى الذات من خصائصها عدم التعاون التنافس، مجتمع المؤمنين مجتمع متعاون في بعض الأحاديث:

((الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ وَإِنِ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَشَةٌ مُتَخَاذِلُونَ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ))

[أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوبيخ والبيهقي في الشعب عن أنس]

فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاتباع، والدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، والدعوة إلى الذات من خصائصها التنافس، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها إلغاء الآخر، إقصاء الآخر، إذاً الخالصة اتباع، وتعاون، واعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها التفلت من مهج الله، عدم الاتباع، الابتداع، ثم التنافس لا التعاون، ثم إلغاء الآخر، إقصاء الآخر.

المؤمن يجمع ولا يفرق أما الذي يفرق فيثير القضايا الخلافية :

هؤلاء المنافقون ليسوا مؤمنين، هم في الحقيقة كفار، إن المنافقين هم الكافرون، لكنهم أرادوا أن يتمتعوا بمزايا المؤمنين ومكتسباتهم، ويتوهموا أن التفلت أقرب إليهم من الالتزام فكانوا المنافقين.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً)

أرادوا من خلال الدين، من خلال بناء مسجد، - مسجد منافس- مسجد يجمع الكفار بصيغة الإسلام.

(وَكُفْراً)

بهذا الدين، بنبي المسلمين، بهذا القرآن،

(وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لذلك ورد في بعض النصوص:

((من فرق فليس منا))

[أخرجه الطبراني عن معقل بن يسار]

المؤمن يجمع ولا يفرق، أما الذي يفرق فيثير القضايا الخلافية، يثير التعصبات، يدعو بدعوى الجاهلية، هذا إنسان منحرف، إذاً:

((فليس منا))

هذه ليس منا خطيرة جداً، ينفي عنه النبي الانتماء إلى الإسلام أصلاً:

((لَيسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصبيَّة، وليس منا من قاتل عصبيَّة، وليس منا من مات على عصبيَّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم]

والعصبية الانحياز الأعمى.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

****

انحياز أعمى إلى القوم، إن كانوا صالحين فهو معهم، وإن كانوا سيئين فهو معم، إذاً:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْر)

كفروا بهذه الدعوة،

(وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِين)

والنص الدقيق جداً:

((من فرق فليس منا))

الهدف من بناء المنافقين مسجداً لهم :

الآن:

(وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هذا المكان يجذبون إليه من حارب الله ورسوله، ليكونوا عوناً لهم على محاربة هذه الدعوة، فتجد الإنسان المنافق إذا رأى إنساناً ينتقد المؤمنين، يطعن باستقامتهم، لا يثمن عملهم يحبونه، ويلتقون معه، لأنه عنصر جديد انضم إليهم.

لذلك:

(وَإِرْصَاداً)

تتبع، انتظار، مراقبة، تتبع، انتظار:

(لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

هؤلاء المنافقون يريدون أن يجمعوا من حولهم على شاكلتهم، فأي إنسان له انتقاد، له تعليق سلبي، له موقف عدائي من النبي وأصحابه، هم ينتظرونه بفارغ الصبر، كي ينضم إليهم وكي يؤسسوا دعوة موازية لدعوة النبي.

(مَسْجِداً ضِرَاراً)

فيه حديث عن سلبيات، وانتقادات، اخترعوها هم من أجل تفرقة المؤمنين، وشق صفوفهم، ومع ذلك هم يدعون بخلاف واقعهم.

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى)

أي من إنشاء هذا المسجد، لكن الله يشهد

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

إذاً تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أو أن تخدع بعض الناس لكل الوقت، أما أن تخدع الله فلا تستطيع و لا لثانية واحدة.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء الآية:142]

أو أن تخدع نفسك:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

الحكم الشرعي للمسجد الذي أنشأه المنافقون :

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

الآن جاء الحكم الشرعي، هؤلاء المنافقون حينما بنوا هذا المسجد، أرادوا أن يصبغوا عليه طابعاً مقدساً، فرجوا النبي الكريم أن يصلي فيه، وكان على وشك مغادرة المدينة إلى غزوة تبوك، هو وعدهم أنه إذا عاد من هذه الغزوة يصلي فيه، لكن الله سبحانه وتعالى كشفهم له، أي أحياناً يكون النفاق غير ذكي، وهناك نفاق ذكي جداً، لدرجة أن المؤمن لا يكشفه، هذا شيء طبيعي جداً، هؤلاء أرادوا أن يأتي النبي إليهم ليصلي فيه، ليأخذ هذا المسجد طابعاً مقدساً، فصار هناك مسجداً مناوئاً آخر فيه طرح آخر، فيه كلام آخر، فيه موقف نفسي آخر، فهم يحلفون بالله

(إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى)

لكن الله فضحهم وقال:

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

جاء الحكم الشرعي:

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

[سورة التوبة]

(لَا تَقُمْ فِيهِ)

دعه لكن لا تصلي فيه،

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)

فهم النبي أن يهدم المسجد بعد أن عاد، وأنشأ مكانه مكاناً للقمامة، هذا المسجد منطلق من شق صفوف المسلمين.

طرح القضايا الخلافية جريمة بحق المسلمين :

لذلك أنا أقول الآن: طرح القضايا الخلافية الآن يعد جريمة بحق المسلمين، لأن الأعداء وضعونا جميعاً في خندق واحد، وضعونا كلنا في سلة واحد، وينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد.

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

أي إنسان يطلب رحمة الله، يطلب نقاءه من الذنوب، يطلب توبة نصوحة، يطلب قرباً من الله، هذا المكان مقدس بمن فيه، فالصحابة الكرام في مسجد النبي هم مخلصون، أرادوا تطهير نفوسهم، أرادوا أن تصطبغ نفوسهم بالكمالات الإلهي، أرادوا التعاون، أرادوا نشر هذا الدين، المؤمن ينطلق على نوايا عالية جداً، بل إنهم قالوا: نية المؤمن خير من عمله، قد يجهد ليلاً نهاراً لخدمة الخلق، لكن يتمنى أن يهدي الخلق جميعاً، نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، يتمنى الضلال لكل البشر، فهو يسعى لإضلال البشر لكن ما تمكن من ذلك، يتمنى لو أنه أضل الناس جميعاً، إذاً نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله.

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)

وحينما قال الله أبداً فهم النبي أن هذا المسجد ينبغي أن يلغى، أن يهدم، وهُدم، لذلك شق صفوف المسلمين الآن يعد جريمة.

أي طرح يفرق بين المسلمين طرح من قبل الشيطان :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

ماذا فعل فرعون؟ لأنه علا في الأرض:

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

أي طرح طائفي، أي طرح يفرق بين المسلمين هذا طرح من قبل الشيطان،

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

لذلك الأولى والله أنا أقول دائماً ومع الأسف الشديد: إن أعداءنا يتعاونون تعاوناً مذهلاً، وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، ومع الأسف الشديد المسلمون يتقاتلون، والدماء تسيل بينهم، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، أعداؤنا على خمسة بالمئة قواسم مشتركة يتعاونون، والمسلمون إلههم واحد، نبيهم واحد، قرآنهم واحد، منهجهم واحد، كله واحد، ومع ذلك فرق، وأحزاب، وطوائف، وتناحر، وتراشق تهم، هذه وصمة عار بحق الأمة.

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى)

على طاعة الله

(مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

لو أن الأخ الكريم فتح القرآن، أو على معجم مفهرس، أو في الكمبيوتر، الله يحب من؟ يحب المتقين، المتطهرين، الصادقين، المؤمنين، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الله فالمنهج واضح أمامه تماماً. وفي لقاء آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (62-70) : تفسير الآيات 109-111، أساس بنيان المؤمن التقوى، الأمن حالة نفسية، والكفاية حالة مادية للمؤمن الذي يعيش نعمة الأمن .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-07-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الأشياء الأساسية في حياة الإنسان هي من بنيانه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية التاسعة بعد المئة وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كلمة:

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

زواجك من بنيانك، إنجاب أولادك من بنيانك، تربية أولادك من بنيانك، كسب مالك من بنيانك، إنفاق مالك من بنيانك، هويتك في المجتمع من بنيانك، عملك من بنيانك، نشاطك، حركتك، هذه الأشياء الأساسية في حياتك، هذه من بنيانك، هناك إنسان بنى حياته على طاعة الله، بنى حياته على تقوى الله، بنى حياته على العمل الصالح، بنى حياته على تصورات صحيحة، استقاها من الكتاب والسنة، بنى حياته على سر وجوده وغاية وجوده.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

فالإنسان يبني حياته، أو يبني بنيانه، أو يبني هويته، أو يبني نشاطه، أو يبني عمله الصالح، أو يبني حركاته وسكناته.

انطلاق المؤمن في كل نشاطاته من طاعة الله :

والإنسان فيه حاجات ثلاثة أودعها الله فيه، أودع فيه حاجته إلى الطعام، حفاظاً على وجوده كفرد، إذاً هو كائن متحرك، ينبغي أن يتحرك ليعمل، يكسب مالاً يشتري به طعاماً ليأكل، طبعاً لولا الحاجة للطعام والشراب ما رأيت على وجه الأرض شيئاً، لا طرقات، ولا جامعات، ولا جسور، ولا مؤسسات، ولا معامل، ولا حدائق، كل شيء تراه بعينك أساسه الحاجة إلى الطعام والشراب، هذه

الحاجة يجب أن يلبيها.

عنده حاجة ثانية إلى الطرف الآخر، الحاجة إلى الزواج من أجل الحفاظ على النوع.

عنده حاجة ثالثة إلى تأكيد الذات، الحاجة للتفوق، حاجة إلى بقائه كفرد، وحاجة إلى بقاء النوع، وحاجة إلى التفوق، هذه الحاجات جعلته كائناً متحركاً، يجب أن يعمل من أجل أن يكسب المال، ليشتري به طعاماً، وشراباً، وكتاباً يقرأه.

إذاً الإنسان كائن متحرك، وليس كائناً سكونياً، هذه الطاولة كائن سكوني لو تركت على ما هي عليه ألف عام تبقى كما هي، كائن سكوني، أما الإنسان فكائن متحرك لأن الله أودع فيه الشهوات، وما أودعت فيه الشهوات إلا ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات، الشهوات حوافز، ما أودع الله في الإنسان الشهوات إلا ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات.

إذاً الإنسان يتحرك ليبني نفسه، الزواج بناء، إنجاب الأولاد بناء، العناية بالأولاد بناء، تعليمهم بناء، إرشاد إلى الحق والخلق بناء.

الآن الله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

الآن حركته بالأرض، نشاطاته، أوقات فراغه، زواجه، إنجاب أولاده، هويته بالمجتمع، اختصاصه، المؤمن ينطلق في كل هذه النشاطات من طاعة الله، يتحرك وفق مرضاة الله، يسعى لنيل مرضاة الله، هدفه الجنة:

((وما قرب إليها من قول أو عمل))

[أخرجه ابن حبان عن عائشة أم المؤمنين]

اللذة و السعادة :

لذلك هذا الإنسان تحرك وفق ما خلق له، هناك معنى دقيق جداً هو أن الإنسان خلق لمعرفة الله، لذلك جعلت طاقته لا نهائية، لو أنه اختار هدفاً محدوداً المال مثلاً، فإذا وصل إليه شعر بالملل والسأم، اختار الجاه وصل إليه شعر بالملل والسأم، وكأن الله سبحانه وتعالى لم يسمح للدنيا أن تمد الإنسان بسعادة مستمرة، بل بلذائذ متناقصة، هذا إذا كانت وفق شرع الله، أما إذا كانت وفق معصية الله فاللذائذ متناقصة مع كآبة، بشكل أو بآخر ما سمح الله للدنيا أن تمدك بشكل مستمر بسعادة مستمرة، بل بلذائذ متناقصة ، واللذة تنتهي بالكآبة، لذلك الفرق الكبير بين اللذة والسعادة، فرق بين المشرق والمغرب، اللذة أساسها متع حسية، وهذه المتع الحسية تحتاج إلى مال، وتحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحة، ولحكمة بالغة بالغةٍ بالغة دائماً الإنسان تنقصه واحدة، في البدايات الصحة طيبة والوقت وافر لكن لا يوجد مال،

في منتصف الحياة يوجد مال وصحة لكن لا يوجد وقت، منغمس بعمله حتى قمة رأسه، لما تقاعد وسلم المعمل لأولاده صار عنده ووقت و مال لكن لا يوجد عنده صحة، دائماً هناك نقطة تنقص الإنسان، أما إذا اتجه إلى الله فهو في سعادة مستمرة لأن اللذة غير السعادة، اللذة تأتي من الخارج، تأتي من المادة، من متع حسية، واللذة متناقصة في تأثيرها، وتنتهي بالكآبة، أما السعادة فتنبع من الداخل، ومستمرة، ومتنامية.

الموت ينهي كل شيء :

أنا أقول دائماً: إذا صح أن لكل إنسان خطاً بيانياً المؤمن وحده خط بيانه صاعداً صعوداً مستمراً، وقد يكون موته نقطة على هذا الخط الصاعد، والصعود بعد الموت، صاعد صعوداً مستمراً، أما خط الآخر الغير مؤمن قد يكون صاعداً صعوداً حاداً، لكنه فجأة ينتهي بانهيار حاد، صعود حاد، وانهيار حاد، لأن الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، وغنى الغني وفقر الفقير، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وذكاء الذكي، ينهي كل شيء.

إذاً الآن هناك موازنة دقيقة، مثلاً الله قال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

[سورة السجدة الآية: 18]

مسافة كبيرة جداً.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

مسافة كبيرة جداً، الإيمان شيء، والكفر شيء آخر، هنا في طمأنينة، في سكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، يوجد سكينة، و رضا، و توازن، وتفاؤل، و ثقة بالله عز وجل، وحركة نحو جنة عرضها السموات والأرض.

بنيان الإنسان ينبغي أن يكون وفق منهج الله عز وجل :

أنا أقول: بنيانك أيها الإنسان، أي زواجك، ألصق شيء بالإنسان زوجته وحرفته، فالبطولة في المؤمن أن يحسن اختيار زوجته، واختيار حرفته، هناك حرف أساسها معصية الله عز وجل، و حرف أساسها

طاعة الله عز وجل، فالزوجة والحرفة موضوعان خطيران لصيقان بالإنسان، فأنا أقول: بنيانك أيها الإنسان، أي فكرك، تصوراتك، عقيدتك، مبادئك، قيمك، حركاتك، سكناتك، هذه ينبغي أن تكون وفق منهج الله.

(أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

التقوى هي الطاعة، التقوى معناها واسع جداً، لكن في أبسط معانيها الطاعة، طاعة الإنسان بمنهج ربه.

(أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

أي اختار زوجة صالحة، كما يقال: تسره إن نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتطيعه إن أمرها، أسس بنيانه بزواجه، الآن أنجب أولاداً رباهم تربية حسنة، تربية إيمانية، تربية إسلامية، تربية علمية، تربية أخلاقية.

(أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

فوجودك بنيان، حركاتك وسكناتك بنيان، كسب مالك بنيان، إنفاق مالك بنيان، علاقتك الأسرية بنيان، علاقاتك مع من حولك بنيان، علاقاتك مع من فوقك بنيان، علاقاتك مع من هو تحتك بنيان، أنت لك حركة، فأنت لأن لك حاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجودك، وبحاجة إلى طرف آخر إلى زوجة والزوجة إلى زوج حفاظاً على بقاء النوع، وإنك بحاجة إلى تأكيد الذات حفاظاً على الأهمية والتفوق، لأنك كائن أودعت فيك هذه الحاجات فأنت لك بنيان، بنيانك الأساسيات في حياتك. أحياناً تجلس مع إنسان، تسأله: أين أنت ساكن؟ ماذا تعمل؟ إلى أي درجة علمية وصلت؟ هل أنت متزوج؟ هل عندك أولاد؟ هذه أساسيات الحياة، فكأن الله عز وجل يقول: البنيان أساسيات الحياة، هذه تبنى بناء.

(أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

على طاعة الله، على الانصياع لمنهج الله، على الوقوف عند الحلال والحرام:" ليس الولي الذي يطير في الهواء، وليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، لكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام".

(أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

طلب العلم، تحرى الحلال في كسبه، تحرى الصواب في إنفاقه، اختار زوجة صالحة مؤمنة، أنجب أولاداً رباهم تربية إسلامية، اختار عملاً وحرفة في خدمة الناس، هناك حرف أساسها ابتزاز أموال الناس، حرف أساسها إفساد الناس، حرف أساسها العدوان على الناس، حرف أساسها خدمة المجتمع.

الفرق بين التقوى و الرضوان :

(تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ)

والفرق بينهما دقيق، التقوى الطاعة، أما الرضوان فالتقرب، مثلاً: طريق وأنت معك مركبة، هناك عقبات على هذا الطريق، العقبات صخور كبيرة على عرض الطريق، هذه العقبات لا يمكن إلا أن تزيلها من الطريق حتى تمشي على هذا الطريق.

فالمعاصي والآثام عقبات في الطريق إلى الله، فالإنسان إذا استقام على أمر الله كأنه زال كل هذه العقبات، دخله حلال، بيته حلال، زواجه صحيح، أولاده رباهم تربية صحيحة، أوقات فراغه يمضيها في عمل جيد،

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى اللهِ)

الرضوان غير التقوى، أنت لما استقمت قلت: أنا ما أكلت مالاً حراماً، ما، أنا ما اغتبت، ما، كل أنواع الاستقامة تبدأ بما، أما أنت فضلاً عن هذه الاستقامة فأنت مكلف أن تعمل صالحاً، العمل الصالح حركة نحو الله.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: 10]

الاستقامة امتناع، أما العمل الصالح فهو بذل شيء من أجل هذا الدين، من أجل الآخرة، من أجل طاعة الله عز وجل.

الشهوة حيادية نرقى بها إلى أعلى عليين أو نهوي بها إلى أسفل سافلين :

الآن الموازنة دقيقة:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

أساسيات حياته، اختيار حرفته، هذا من البنيان، اختيار زوجته من البنيان، اختيار الإنجاب أو عدم الإنجاب من البنيان، تربية أولاده من البنيان، اختيار حرف أولاده من البنيان.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ)

أي المؤمن أحياناً يأتيه دخل محدود لكنه حلال مئة بالمئة، يقبل عليه ويرضى به، وهناك دخل فلكي غير محدود، لكنه مبني على معصية، يركله بقدمه، هذا الإيمان، هو توهم خاطئ جداً، أن المسلم يصلي، لا، والله لا أبالغ لعل منهج الله يقترب من خمسمئة ألف بند، في بيتك، في فراشك، مع أهلك، مع أولادك، مع جيرانك، مع أصدقائك، في حرفتك، مع من تتعامل معهم، مع من هم فوقك، مع من هم

دونك، في إملاء أوقات فراغك، الحركة الإنسان له حاجة للطعام والشراب، وحاجة إلى الجنس، وحاجة إلى تأكيد الذات، هذه الحاجات جعلتك كائناً متحركاً، الحركة من أجل أن تكسب المال، من أجل أن تأكل، أن تتزوج، أن تعلو في الأرض، هذه الحركة إما أن تكون وفق منهج الله، أو بخلاف منهج الله.
لكن أنا أطمئن الأخوة المشاهدين: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

مرة ذكرت قصة أنه لي جار في الحي الذي أسكنه في الشام، عالم جليل تجاوز سنه المئة عام، زرته مرة فقال لي: عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً، قلت: سبحان الله! تزوج امرأة، أنجب منها أولاداً تزوجوا، جلبوا له الكنائن، وأنجب البنات تزوجن فجلبن له الأصهار، في أول مستوى هو وزوجته، ثم أولاده، ثم بناته، ثم أحفاده، قلت أنا: هذا الهرم الرائع الطاهر، الخير، أساسه علاقة جنسية، وفي أي بيت دعارة هناك علاقة جنسية.

فالشهوة حيادية، نرقى بها إلى أعلى عليين، أو نهوي بها إلى أسفل سافلين، الشهوة حيادية، الله جعل بالإنسان شهوات، و ما من شهوة أودعها الله بالإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بتعبير آخر بالإسلام لا يوجد حرمان أبداً، أي شيء تشتهيه نفسك له منهج صحيح، له قناة نظيفة، فالمؤمن ما حرم نفسه متع الحياة، لكن تحرك حركة نظيفة، وتحرك حركة صحيحة، وتحرك حركة هادفة، وارتقى بحركته إلى الله ورسوله.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)

شفا؛ على حافة،

(جُرُفٍ هَارٍ)

بئر غير مبني، وقد يهدم،

(فَانْهَارَ بِهِ فِي نَار جَهَنَّمَ)

عدم استواء المؤمن مع الفاسق :

لذلك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

(لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

مرة قال لي إنسان لعله مداعباً: تقول المؤمن سعيد، والله مثله مثل الناس، هكذا أكد لي بجلسة فيها عدد كبير من الناس، فأنا خطر في بالي مثل أوضح به الحقيقة، قلت له: إنسان موظف ودخله محدود جداً،

وعنده أولاد كثر، وبيته بالأجرة، وعليه دعوى إخلاء، ووضعه المادي صعب جداً، لهذا الإنسان عم يملك خمسمئة مليون، وليس عنده أولاد، وتوفي بحادث، ما الذي حصل؟ الذي حصل أن هذا الإنسان الموظف، الفقير، المعدم، الذي عنده ثمانية أولاد، وما عنده دخل يكفي إنفاق أيام معدودة، فجأة امتلك خمسمئة مليون، لكن الروتين، والإجراءات المالية، وبراءات الذمة تطول، حتى قبض أول مبلغ بعد سنة، لماذا هذا الموظف الفقير المعدوم أسعد إنسان بهذه السنة؟ ما قبض قرشاً، لكن صار معه خمسمئة مليون، إن رأى سيارة فارهة يقول: سأشتري مثل هذه، وإن رأى بيتاً فخماً يقول: سأشتري هذا البيت، هذا معنى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 111]

(فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

فلذلك هنا موازنة دقيقة جداً

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إذاً

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

أي أسس حياته، زواجه، بنيانه، دراسته، درس اختصاصاً ينفع الأمة، حرفته، بيته في حي ملتزم، وهناك أحياء متفلتة جداً، يخاف على أولاده، فبيته، دراسته، تفكيره، حرفته، زوجته، أولاده، أساسيات حياته.

مثلاً المركبة أساسياتها المحرك، أساسياتها الوقود، أساسياتها العجلات، هذه أساسياتها، أما لونها فهذا شيء ثانوي، أما الأساسيات فواضحة.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا)

على حافة،

(جُرُفٍ هَارٍ)

على بئر غير مبني، فاحتمال انهدامه كبير جداً،

(فَانْهَارَ بِهِ)

لم ينهار في البئر، بل في نار جهنم،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

من يرفض الحق أصلاً يمتنع عن الهدى :

لو تتبعنا قوله تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

مثلاً إنسان يمشي في طريق، وليكن من دمشق إلى حمص، في منتصف الطريق طريقان، وهناك إنسان واقف دليل، لم يسأل هذا الدليل، ولم يعبأ به، واختار أحد الطريقين، فالذي اختاره كان خطأ، الدليل يستطيع أن ينصحه، ما سأله، بل رفض كلامه.

فالإنسان عندما يرفض الحق أصلاً إذاً هو امتنع عن الهدى، هذا يسمونه تحصيل حاصل، لما هو رفض هداية الله عز وجل

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

ظلم نفسه بترك الدين، ما بحث عن الله، ما بحث عن منهجه، ما التقى بعالم، ما حضر مجلس علم، ما قرأ كتاباً، ما سأل عن سر وجوده، وغاية وجوده، ما عرف تعريفه الحقيقي، هو المخلوق الأول، الإنسان المكلف المكرم.

أنا مرة التقيت مع خبير دولة أجنبية، أحببت أن أذكر له شيئاً عن الدين، فبعد أن بدأت قال لي: معذرة، هذه الموضوعات بأكملها، وتفاصيلها، لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقي لها بالاً، وانتهى الأمر.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال]

فالإنسان له اختيار، إذا ما اختار طريق الحق، لم يختر طريق الحق، سيكون في ضلال، ويكون في انحراف، ويكون في بعد عن الله، وسيدفع ثمن انحرافه شيئاً باهظاً.

الإنسان مخير و لولا أنه مخير لما كان من فضل له إذا آمن :

إذاً:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ)

على منهج الله، على الحلال، على الخير، على الشر، على الحق، على الباطل، زواجه، اختيار حرفته، تربية أولاده، نشاطاته، إملاء أوقات فراغه، كلها وفق منهج الله، فهذا من حال إلى أحسن، من خير إلى خير، من تقدم إلى تقدم، من تألق إلى تألق، من فلاح إلى فلاح.

(أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَار)

قصص لا تعد ولا تحصى قد تنشئ ملهى ليلياً، طبعاً هناك معاص لا تعد ولا تحصى، قد تنشئ دار قمار مثلاً، والمال كله حرام، والحقيقة لماذا الإنسان مخير؟ لأنه لولا أنه مخير لما كان من فضل له إذا آمن، لولا أنه مخير لما كان للجنة من معنى، فاختياره دليل رقيه، اختياره يثمن عمله.

لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

الإنسان أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز :

إذاً الآن كلام دقيق: أنت أيها الإنسان لك بنيان، أساسيات حياتك، دراستك، هناك دراسات ترقى بالإنسان، ودراسات تهوي به إلى أسفل سافلين، هناك تجارة رابحة، وصالحة، وحلال، ورد:

((إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ]

فهذا الإنسان حينما يختار حرفة ترقى به، يختار زوجة ترقى به، ينجب أولاداً ويربيهم تربية تجعلهم قرة عين له في المستقبل، هذا إنسان تحرك وفق منهج الله، من أنت أيها الإنسان؟ أنت أعقد آلة في الكون، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولك صانع عظيم، وحكيم، ولك تعليمات التشغيل والصيانة، الآلة الراقية معها تعليمات المصنع، ما من جهة على وجه الأرض أجدر أن تتبع تعليماتها كالجهة الصانعة، لأنها الجهة الخبيرة قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

إذاً فالذي:

(أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أنت اجمع الآيات والله لا يهدي القوم الفاسقين، القوم الظالمين، هناك معان كثيرة، تقريباً اثنتا عشرة آية ابحث عنها في المعجم المفهرس، أو في الكمبيوتر، وحاول أن تبتعد عن هذه الصفات التي لا تؤهل أصحابها إلى بلوغ المنى في الدنيا ولا في الآخرة.

الفطرة و الصبغة و الشرع :

أيها الأخوة الكرام، هناك فطرة، وهناك صبغة، وهناك منهج، الآن الشرع يتوافق مع الفطرة، يتناقض مع الهوى، الإنسان لو أنه لم يستيقظ على صلاة الفجر أعطى جسمه راحته الكاملة، لأنه ترك صلاة الفجر يحس بانتقاض، فهذا العمل تناقض مع فطرته، وتوافق مع شهوته، الحب النوم أو الاستمرار في الفراش، إذاً:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة]

هذه الآية معناها توافق الفطرة مع المنهج، الآية الدقيقة في هذا المعنى:

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

[سورة يونس الآية:105]

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذا يتطابق تطابقاً تاماً مع فطرتك، مع بنيتك، مع خصائصك، أي شيء أمرك الله به أنت مبرمج عليه، مولف عليه، لذلك الإنسان إن استقام يحس براحة لا تقدر بثمن، الله عز وجل أمرك أن تكون صادقاً ونفسك مبرمجة، مصممة، مولفة، مسواة.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[سورة الشمس]

على أن تكون صادقاً، مثل عندما مركبة مصممة على طريق معبد فإذا سرت بها بطريق وعر، أحجار، وأكمات، وحفر، تسمع أصواتاً وتكسيراً، هذه مصممة على طريق معبد، فإذا سرت بها على طريق معبد كانت انسيابية، وحركتها سهلة، ورائعة.

الكآبة سببها البعد عن الله عز وجل :

لذلك:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هو يشعر بأخطائه، هذه الكآبة.

لذلك في بعض البلاد الغربية أجروا إحصائية للأمراض النفسية فالنتيجة كانت مئة و ستة وخمسين بالمئة، هذه الكآبة سببها البعد عن الله عز وجل.

أنت مصمم وفق منهج الله، فأول ثمرة يجنيها المؤمن أنه اصطلح مع نفسه، يقول لك: أنا مرتاح، مسرور، يحس أنه في أعلى عليين.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

فالحالة النفسية للمؤمن حالة مريحة جداً لأنه اصطلح مع خالقه، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ لا يستطيع إنسان في الأرض أن ينال منك، وحينما لا يكون الله معك قد يتطاول عليك من هو أقرب الناس إليك، هذه الحقيقة.

من يطيع الله عز وجل يشعر بسعادة لا توصف :

إذا:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هذه الكآبة التي تصيب العاصي، الكآبة التي تصيب المنحرف، شيء طبيعي جداً، هو مبرمج على طاعة الله، مولف على طاعة الله، والدليل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

الله عز وجل حينما سوّى هذه النفس سواها وفق منهج الله، فلمجرد أن تطيع الله تشعر براحة، هذه السعادة لا توصف.

لذلك:

((نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

أقلقهم، أوقعهم في أزمة نفسية، أوقعهم في كآبة، الكآبة المعصية، فالإنسان حينما يعصي الله يقع في كآبة، يقع في ضيق، والدليل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية:124]

قال بعض العلماء: ما بال الأقوياء والأغنياء؟ قال: هم كذلك، في معيشة ضنك، الضنك هو ضيق القلب، أي يا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟.

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا)

بنوا حياتهم على دخل حرام، على علاقات متفلتة مع النساء، على احتقار من هم دونهم، على كسب غير مشروع، على إنفاق غير مشروع، على تفلت في العلاقات، بنى حياته على المعاصي والآثام، هو في بعد عن الله، هو في قلق، في خوف من المستقبل، من المجهول.

المؤمن يتمتع بأمن لا يوصف :

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

هناك حالة اسمها الانسجام، بينك وبين نفسك، بينك وبين خالقك، بينك وبين من حولك، بينك وبين من فوقك، بينك وبين من تحتك، أي ثمار الإيمان كبيرة جداً، مستحيل أن تضغط في كلمات، أو في بنود،

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ)

تتقطع قلوبهم أسفاً على ما هم فيه، قلقاً على ما هم فيه، خوفاً مما هم فيه، أي المؤمن يتمتع بأمن لا يوصف:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام]

قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

[سورة الأنعام الآية: 82]

المؤمن في أمن و كفاية و الكافر في خوف و قلق :

أخواننا الكرام، في اللغة لفتات دقيقة جداً، لما قال عز وجل:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

فرق كبير بين أن يقول:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

أو أولئك الأمن لهم، إذا قلنا: أولئك الأمن لهم ولغيرهم، لا يوجد قصر ولا حصر،

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

لهم وحدهم، كأن تقول: إياك نعبد أم نعبد إياك، فرق كبير جداً إياك نعبد أي لا نعبد غيرك، هناك قصر و حصر، أما نعبد إياك ونعبد غيرك، هنا:

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

هذا اسمه الإيمان، أمن الإيمان،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

ولا أعتقد في الأرض نعمة تفوق نعمة الأمن، قال تعال:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش]

يقارب هذه الآية:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل]

إن كنت مؤمناً فأنت في أمنٍ وكفاية، الأمن حالة نفسية، والكفاية حالة مادية يقابلها:

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

الجوع حاجة مادية، والخوف حالة قلق نفسي.

إذاً:

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ)

توافق الفطرة مع المنهج،

(إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

من باع الله عز وجل نفسه فله جنة عرضها السموات و الأرض :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآَنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

أي عقد بيع، أنت بعت الله عز وجل نفسك وكل ما حولك فأنت حينما تبيع هذا البيع فالله عز وجل يكافئك بجنة عرضها السموات والأرض.

لكن لهذه الآية بحثاً طويلاً أرجو الله سبحانه وتعالى أن نتوسع بها في لقاء قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (63-70) : تفسير الآية 111، التجارة مع الله تجارة رابحة - الفوز العظيم هو الفوز بالجنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-07-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة علاقات وشيجة، فبعد أن حدثنا ربنا جل جلاله عن الذين تخلفوا عن الغزو، وعن الذين اعتذروا كاذبين، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم، قال: هذه الأنماط – النماذج- من المنافقين، والكفار، لا تعني أن ليس هناك فئة مؤمنة طاهرة، متفوقة، لذلك جاء الحديث عن المؤمنين، فقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد، ومنحه الإمداد، ومنحه الهدى والرشاد، منحك نعمة الإيجاد، أنت موجود، والدليل: لو اطلعت على كتاب ألف قبل ولادتك، في أثناء تأليف هذا الكتاب، من أنت؟ لا شيء، ما هويتك؟ لا هوية، ما وجودك؟ لا وجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان]

إذاً منحنا الله عز وجل النعمة الأولى نعمة الإيجاد، فنحن موجودون، والوجود نعمة كبرى، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، فلما أوجدنا، معنى ذلك أنه أوجدنا ليسعدنا وهذه نعمة كبيرة.

الله عز وجل منح الإنسان الحياة و اشتراها منه :

لذلك العلماء قالوا: هناك نعم كبرى، أولها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، أمدك بكل حاجاتك، المادية، والمعنوية، القريبة، والبعيدة، ومع كل ذلك منحك نعمة الهدى والرشاد، دلك عليه.

إذاً أي إنسان على وجه الأرض يتمتع بنعم ثلاث، أولاها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، وثالثها: نعمة الهدى والرشاد، الله عز وجل أوجدنا، وأمدنا، وهدانا، ولكن هذا التمليك ملكنا أنفسنا، وملكنا أموالنا، المال مال الله، لكن الله ملكنا إياه، وليكون هذا التمليك أكيداً وحقيقاً قال: أقرضني من هذا المال، هو مال الله عز وجل.

كيف بأب يعطي ابنه مبلغاً كبيراً، ثم يقول له: أقرضني يا بني، المال مال الأب لو قال: ردّ لي بعض المال، لم يقل رد لي بعض المال، قال: أقرضني.

معنى ذلك الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الرشاد والهدى، ونعمة الإمداد، لكن الله عز وجل إذا أعطى لا يأخذ، وإذا منح لا يسترد، إذاً ملكك حياتك، وملكك مالك، الآن إذا بذلت حياتك في سبيل الله، إما ضعفاً، أو جهداً، أو طاقة، أو قتلاً في سبيل الله، إن قدمت حياتك في سبيل الله، أو قدمت مالك، هذا العمل ثمّنه الله تثميناً كثيراً، لأنه عدّ حياتك ملكك، وعدّ مالك ملكك، ثم قال: ابذل هذه الحياة، ابذل جهداً، أو وقتاً، أو مشقة، أو نفساً، ابذل هذا المال أو بعضه، أو كله، فكأن الله سبحانه وتعالى منحك ثم استقرضك، فقال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: 245]

إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى)

أي هو منحك الحياة، واشتراها منك، إذاً هناك صفقة، هناك بائع ومشتر، مبيع ومادة، المشتري هو الله، والبائع هو الإنسان المؤمن، وأما الثمن فهو جنة عرضها السموات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

المؤمن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

لذلك المؤمن حينما يشعر أنه باع نفسه لله، كيف يتصرف بعدها؟ أضرب على ذلك مثلاً: لو أن لك بيتاً ملكك، بعته، فالذي اشتراه أراد أن يلغي حائطاً بين غرفتين، هل تستطيع أن تعترض عليه؟ لو أراد أن ينشئ غرفة زائدة، أي إجراء في هذا البيت لأنه تملّكه فأنت كبائع ليس لك الحق أن تعترض عليه، هذا المثل للتقريب.

ما دمت قد بعت نفسك لله بيعاً حقيقياً، وبيعاً قطعياً، فإذا اختار الله لك دخلاً محدوداً، أو زواجاً من دون أولاد، أو ذكوراً من دون إناث، أو إناثاً من دون ذكور، أو دخلاً فلكياً، أو دخلاً محدوداً، أو مرضاً

معيناً، أو مشكلة في حياتك، هذا كله من قضاء الله وقدره، فأنت إذا كان بيعك حقيقياً بعت ربك عز وجل، طبعاً هذا لا يتناقض مع أن تعالج نفسك، هذا لا يتناقض مع أن تأخذ بالأسباب، ولكن حينما تأخذ بالأسباب ولا تستطيع بعد الأخذ بها أن تحقق الهدف، إذاً هذه مشيئة الله، هذه كلمة دقيقة جداً.

المؤمن حينما تأتيه مشكلة يبحث عن حل لها، وحل ثان، وحل ثالث، فإذا لم تفلح كل الحلول، يقول: هناك حكمة بالغة بالغة من هذا الذي أصابني، أما أن تقول هناك حكمة قبل أن تفعل شيئاً فهذا عمل فيه تواكل، وعمل مرفوض في عالم المسلمين.

بالإسلام هناك حقيقة خطيرة جداً: المؤمن الصادق عليه أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

التوكل من أخطر صفات المؤمن :

ما الذي يتناقض مع هذه الحقيقة؟ ألا تأخذ بالأسباب مدعياً أنك توكلت على الله، هذا ليس هو التوكل.

قال سيدنا عمر: "المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله".

الطالب المتوكل يدرس قصارى جهده، ثم يتوكل على الله، والتاجر المتوكل يدرس الصفقة دراسة متقنة مبالغ فيها، ثم يشتريها ويتوكل على الله، الطبيب المؤمن يراجع كل المراجع ثم يصف الدواء وبعدها يتوكل على الله، لأن التواكل أي ألا تسعى وأن تكتفي بالتوكل، هذا عند الفقهاء تواكل وليس توكلاً، لأن هذا التوكل من أخطر صفات المؤمن، لكن المسلمين في تخلفهم عن حقيقة دينهم، فرغوا هذه الصفة من مضمونها الصحيح، فصار ترك الأخذ بالأسباب توكلاً، لا أبداً، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

أيضاً للتقريب: أنت مسافر من بلد إلى بلد، ماذا يعني التوكل؟ أن تراجع المركبة مراجعة دقيقة، أن تراجع المحرك، أن تراجع العجلات، أن تراجع العجل الاحتياط، أن تراجع كل شيء، ثم تقول: يا ربي توكلت عليك، اللهم احفظني، أما أن تكون العجلة الاحتياط غير سليمة وهناك أخطاء كبيرة بالمركبة، وتقول: توكلت على الله فهذا ليس من الدين في شيء، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء.

عندنا منزلقان في التوكل، عدم الأخذ بالأسباب يتناقض مع التوكل، والاعتماد عليها يتناقض مع التوكل، تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتعتمد على الله وكأنها ليست بشيء.

البذل علة وجودنا في الدنيا :

لذلك إن الله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

ماذا اشترى منهم؟

(أَنْفُسَهُمْ)

من هو الإنسان؟ هو نفسه التي بين جنبيه، جسمه وعاء له، وروحه قوة إمداد إلهية تحركه، فالروح قوة الإمداد الإلهية، والجسم وعاء لنفسه، ونفسه ذاته، ونفسه هي المؤمنة، هي غير المؤمنة، هي الصادقة، هي الكاذبة، هي التي ترقى، هي التي لا ترقى.

إذاً الله عز وجل:

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

النفس بطاقتها، بوقتها، بجهدها، ببذلها، بتضحيتها، بالمتاعب التي قد تتحملها، بالهموم التي تنصب عليها، هذا كله من خصائص النفس، وقد يبذل الإنسان نفسه في سبيل الله، فهذه النفس المؤمن باعها لله عز وجل، وهذا هو البيع الرابح.

(وَأَمْوَالَهُمْ)

كل شيء يملك هو مال، فمالك هو النقد الذي بين يديك، ومالك وقتك، ومالك جاهك، ومالك مكانتك، هذه كلها داخلة لأن هذا لك، تملكه أنت، فهناك من يبذل من ماله، ومن جاهه، ومن وقته، ومن علمه، فلابد من البذل، بل إن علة وجودنا في الدنيا البذل، والدليل أن الذي يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُون * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

كأن العمل الصالح بعد الإيمان بالله، هو علة وجودك، لأن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ولأن العمل الصالح ثمن الجنة، من هنا كان المؤمن موفقاً وسعيداً، لأنه عرف سر وجوده.

وللتوضيح: لو إنسان سافر إلى بلد أجنبي لينال الدكتوراه، في هذه العاصمة التي فيها الجامعة، علة وجوده في هذه المدينة الدراسة فقط، هناك نزهة، و زيارة، و سياحة، و ناد ليلي، و سينما، و نشاطات، وحركات، وسكنات لا تعد ولا تحصى، ولكن هذا الطالب الذي جاء لهذه المدينة بقصد الدراسة، نقول: علة وجوده في هذه المدينة نيل هذه الشهادة، فالمؤمن الموفق لا تغيب عنه علة وجوده في الدنيا.

العبادة علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

علة وجودك في الدنيا قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

العبادة، العبادة هي الطاعة، والعبادة أن تستسلم لمنهج الله عز وجل، والعبادة أن تكون مع الله، أن تطيعه، وأن تتقرب إليه، وأن تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، أن تطيعه فيما أمر، وأن تنتهي عما نهى عنه وزجر، وأن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وأن تتجه إليه محباً ومخلصاً، هذه العبادة، والإنسان إذا عبد الله شعر بالتوازن، وهناك شيء اسمه في علم النفس متعة الإنجاز، فأنت حينما تعرف سر وجودك، وغاية وجودك، وتتحرك وفق هذا الهدف الذي رسمه الله لك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا يعرفها إلا من ذاقها، أنت حينما تتحرك وفق الهدف الذي خلقت له، أو وفق سر وجودك، ووفق غاية وجودك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا تقدر بثمن، حينما تستيقظ صباحاً كما ورد في بعض الأحاديث النبوية:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

عطاء الله أبدي سرمدي :

إذاً إن الله جلّ جلاله:

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)

وهبهم أنفسهم، ثم اشتراها منهم، وهبهم أموالهم، ثم قال: أقرضوني بعض هذا المال، أقرضني يا عبدي، هذه المعاني إذا ذاقها المؤمن ذاب محبة لله عز وجل، اشترى، ما الثمن؟ الثمن شيء لا يوصف قال:

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

قد يخطر في بال الإنسان بأن لهم أولاداً نجباء، بأن لهم حياة مديدة بأن لهم صحة فريدة، هذا كله زائل.
أخوتنا الكرام، الدنيا بكل ما فيها، من مباهج، من متع، من مسرات، من أموال، من جاه، من سلطان، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن كل هذا العطاء في الدنيا ينتهي عند الموت، وعطاء الله

ينبغي أن يكون أبدياً سرمدياً، الدنيا مهما تفوقت فيها، بعلمك، أو عملك، أو مكانتك، أو وسامتك، أو صحتك، أو زواجك، أو أولادك، كل ما فيها من مباهج، ومن مسرات، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن هذه الدنيا تنتهي بالموت، لكن عطاء الله الذي يليق بكرمه ينبغي أن يكون أبدياً.

من سقط من عين الله ضيع مكانته وهيبته :

لذلك أنا أقول: المؤمن العطاء الإلهي له على شكل خط بياني صاعد صعوداً مستمراً، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد، والصعود بعد الموت مستمر، هذا العطاء أيلغى بشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً؟ في بعض الآثار النبوية:

((ألا يا رب شهوة ساعة، أورثت حزناً طويلاً))

[ورد في الأثر]

شهوة ساعة، زلة قدم، ضيعت مكانتك عند الله، لأن الإنسان إذا عصى الله عز وجل سقط من عينه، لو أن شيئاً سقط من السماء إلى الأرض يتحطم على سطح الأرض، يتكسر، فكيف إذا سقط الإنسان من عين الله عز وجل؟ قد تكون فقيراً وأنت عند الله كبير، وقد تكون ضعيفاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون مرهقاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون متعباً وأنت عند الله كبير، ولكن إذا سقط الإنسان من عين الله انتهى كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

(اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

إنسان سأل عارفاً بالله، قال له: يا سيدي كم الزكاة؟ فهذا العارف أراد أن يعطيه درساً لطيفاً، قال له: عندنا أم عندكم؟ قال له: عجيب ما عندنا؟ وما عندكم؟ قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده.

البعد وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله يسبب أسئلة لا داعي لها :

لذلك الإنسان حينما يؤدي ما عليه من فرائض، هو مؤمن ورب الكعبة، وناج، وفي الجنة، لكن أحياناً هو من السابقين السابقين، من الذين قدموا كل ما يملكون لله عز وجل، هذا المعنى في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام]

هذا أعلى درجات العبادة، أن يكون كل شيء بيديك لوجه الله عز وجل، الثمن الجنة، والجنة مهما تنوعت أوصافها، الله عز وجل اختار للجنة أوصافاً في القرآن محدودة، أنا أتمنى ألا نزيد عليها شيئاً، كل شيء الله عز وجل ذكره في عالم الغيب ممنوع على المؤمنين أن يزيدوا عليه، فأي زيادات من خيال العلماء، هذا ممنوع، نكتفي بالوصف الذي كان في القرآن الكريم، هذا الوصف فيه حكمة بالغة، لكن للتقريب: إنسان يتجه للمدينة، سأل عن مساحتها، عن مبانيها، عن حدائقها، عن جامعتها، وناقش، وحاور، وصدق، وكذب، هذا جهد ضائع، أنت في الطريق إليها وبعد أن تدخلها ترى كل شيء.
فقضية ما في الجنة، ونعيم الجنة، وحور عين، وهل للمرأة حور عين أيضاً أم لا يوجد لها؟ هذه التفاصيل، العجيب أن الصحابة لم يسألوا عنها إطلاقاً، لماذا؟ لأنهم وصلوا إلى الله، والإنسان إذا وصل إلى الله توفرت أسئلته.
كنت أقول مرة: لو إنسان لم يرَ البحر سأل عن لون البحر، عن عمق البحر، عن طعم ماء البحر، عن ملوحة البحر، عن كثافة البحر، هناك مليون سؤال، فإذا رأى البحر ونزل فيه، مياه البحر محيطة به، رائحة الملح يشمها بأنفه، منظر الماء يراه بعينه، انتهت كل أسئلته، أنت إذا وصلت إلى الله انتهى كل شيء.
لذلك قلّما تجد في أصحاب النبي من يطرح عليه أسئلة من النوع الذي يطرح اليوم، فالبعد، وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله، يسبب هذه الأسئلة.

من يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً و نشر الحق فهو في سبيل الله :

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

الثمن؟ قال:

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

الإنسان يموت موتاً طبيعياً، أحياناً يقتل في حرب، لكن هناك حالة واحدة ولها شروط صعبة جداً، أن تموت في سبيل الله، من هذا الذي يموت في سبيل الله؟ الذي قاتل ليكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ليعلي دين الله، لينشر هذا الدين، ليجعل هذا الإسلام متبعاً في كل البلاد، حينما يخرج من ذاته لينقل هذا الدين إلى من حوله، ويموت في هذه الحالة الرائعة، فهو في سبيل الله، أي كل إنسان مات هو في سبيل الله؟ هذه فيها تزيد، وفيها مبالغة، وفيها عدم دقة في الكلام، الذي يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً، الذي يموت في سبيل نشر الحق في الأرض، هذا في سبيل الله، لكن هناك حالات أخرى من الموت عدها النبي شهادة، مثلاً: ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فهو شهيد))

[أخرجه النسائي عن سويدَ بن مُقَرِّن]

أي مظلوم، طالب بحقه، لم يعط حقه، ثم قتل فهو أيضاً شهيد، هناك أهدف عديدة أما أرقى هدف فأن تموت من أجل رفع كلمة الحق.

أنواع الدعوة إلى الله :

1 ـ الدعوة البيانية :

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

طبعاً هذا القتال أخواننا الكرام، يجب أن يوضح لأخوتنا هناك دعوة بيانية، دعوة باللسان:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل الآية:125]

دعوة بيانية، مع الدعوة البيانية أحياناً هناك شِدة، أي هناك دعوة بيانية، و دعوة عن طريق التربية، أحياناً الله عز وجل يسوق لك بعض الشدائد، هذه الشدائد هي دعوة إليه، إذا أرسل لك نبياً ومعه كتاب فهذه دعوة بيانية، هذه أرقى دعوة، الدعوة البيانية أكمل موقف فيها الاستجابة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 24]

الله عز وجل يدعوك للحياة،

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هذه الدعوة البيانية، لو أن الدعوة البيانية لم يكن بعدها استجابة، الله قال:

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

الدعوة البيانية نص تقرأه، كلمة تسمعها، خطبة تستمع إليها، درس علم تصغي إليه، هذه الدعوة البيانية، كلام وأنت معافى سليم في بيتك، في أهلك، مع أولادك، بدخلك، بدكانك، بتجارتك، وأنت بأعلى درجة من الراحة تأتيك دعوة إلهية، عن طريق خطيب مسجد، عن طريق داعية، عن طريق كتاب، عن طريق رؤيا، عن طريق حادثة، عن طريق ...الخ.

2 ـ التأديب التربوي :

قال: فإن لم تستجب لهذه الدعوة البيانية، الآن يقول لك الطبيب: هذا المرض الذي تعاني منه يعالج معالجة تامة بالحمية، فإذا أنت رفضت الحمية، يقول لك: إن لم تقبل بالحمية لابد من عمل جراحي. فهناك دعوة بيانية، فإن رفضتها هناك دعوة تأديبية، الدرس الثاني فيه تأديب، فيه شدة، في نفسك، في مالك، في دخلك، في أولادك، فيمن حولك، فيمن فوقك، فيمن تحتك، هذه شدة، والشدائد دائماً من أجل أن تشدك إلى الله، كل شِدة وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، فالدعوة البيانية أرقى شيء، والموقف الكامل أن تستجيب، الدعوة التأديبية تحتاج طبعاً إلى أن تتوب إلى الله عز وجل.

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

إن لم تستجب بالدعوة التأديبية لابد من طريقة ثالثة تمتحن بها، وهي الإكرام أنا أسميه إكرام استدراجي.

4 ـ القصم :

لا بالشدة استجبت، ولا بالإكرام استجبت، ولا بالبيان استجبت، عندئذٍ يأتي القصم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام الآية: 44]

يل أيها الأخوة الكرام، نحن في الدنيا ندعى إلى الله، النبي الكريم مرّ على قبر قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

كل دنياكم، لو تملك أكبر شركة بالعالم، أكبر دخل، أعلى منصب:

((إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

فالبطولة أن تصحو وأنت حي، أنت تصحو والقلب ينبض، أو تصحو وفي العمر بقية.

إذاً:

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، أنا أقول دائماً: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين، الله عز وجل إذا وعد وفى، لا يوجد جهة أقوى من الله تمنعه أن يوفي وعده، كل شيء بيده، كن فيكون زل فيزول، الآية الكريمة:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص]

مرة كنت في مجلس يضم أربعين أو خمسين شخصاً، وأنا أحدثهم عن الجنة، وعن أحوال المؤمن، فقال لي أحدهم: أنا لست قانعاً بهذا الكلام، المؤمن شأنه كأي إنسان، ما يصيب الناس يصيبه، من سراء، ومن ضراء، لا يوجد له أي ميزة، هكذا رأيه، قلت له: لو أن إنساناً عنده ثمانية أولاد، ودخله أربعة آلاف ليرة في الشهر، لا تكفيه طعام خمسة أيام، وبيته مستأجر، وعليه دعوى إخلاء، أي مصائب الدنيا كلها انصبت عليه، وله عم غني غنى فاحشاً، يملك مئة مليون، وليس له أولاد، ومات هذا العم في حادث سير، وهذا ابن الأخ الفقير المحتاج هو الوريث الوحيد لهذا الإنسان، هذا الفقير حينما علم أن عمه مات بحادث، وأن الخمسمئة مليون آلت إليه، لكن المالية، وبراءات الذمة، والوثائق، تحتاج إلى روتين طويل في البلد، لا يستطيع قبض قرش واحد قبل عام، لماذا هذا الفقير المدقع المعدم هو أسعد إنسان بهذا العام مع أنه لم يأكل لقمة زائدة ولم يرتدِ معطفاً واحداً؟ قال: دخل في الوعد. الآن اسمعوا قوله تعالى:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

أنا أقول لأخوتنا المشاهدين: هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة، هذا أعظم عطاء إلهي، هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة.

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا :

إذاً:

(إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً - في كل الكتب السماوية - وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تمنع رب العالمين أن يفي بوعده؟ مالك الملك، الحي القيوم، العباد كلهم في قبضته، كن فيكون، زل فيزول، لذلك البطولة أن تكون متيقناً من وعد الله لك، وعدك بجنة عرضها السموات والأرض، هذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعبك، هذا الوعد بالجنة يخفف كل همومك، هذا الوعد بالجنة ينقلك إلى ما سيكون، لا إلى ما هو كائن.

قال:

(فَاسْتَبْشِرُوا)

أيها المؤمنون، الإنسان يعيش المستقبل، أكثر الناس يعيشون الماضي والحاضر، يتحدث عن ماضيه، ذهب، وسافر، تزوج، وأنجب أولاداً، وزوج أولاده، وإلى آخره، ويتكلم عن حاضره، وعن ماضيه، لكن قلة قليلة من الناس تفكر إلى المستقبل، والحقيقة أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم))

أي أعقلكم، أحزمكم.

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكرا، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لوقت النشور))

[ابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر المدايني]

الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السموات والأرض، مع الأسف الشديد يعيش الناس ماضيهم وحاضرهم، وقلّما يعيشون مستقبلهم، فالله عز وجل يلفتنا في هذه الآيات إلى ما ينتظر المؤمن من نعيم مقيم.

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)

المؤمن لماذا هو سعيد؟ هو مثل الناس يصيبه ما يصيبهم، يقلقه ما يقلقهم، لكن وعد الله له بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا.

معرفة الله و الاستقامة على أمره ثمن الجنة :

الآن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل العظيم، قال:

(وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا الإله العظيم بنبئك بقرآنه، بكلام واضح كالشمس، قطعي الدلالة، يقول لك: هذا

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أما عند الناس، بمقاييس الناس، بدنيا الناس، إنسان اشترى أرضاً تضاعفت مئة مرة فيقول لك: هذا فاز فوزاً عظيماً بالمال فقط، إما بمنصب اعتلاه، أو بمال جمعه، أو بأهل كانوا كما يتمنى، ففي الدنيا مباهج، و مسرات، و إنجازات، ومراكز علية، و ثروة طائلة، وهيمنة، و سيطرة، ومباهج لا تعد ولا تحصى، لكن كل هذه المباهج تنقطع بالموت، إذاً ليست عطاءً حقيقياً.

قال:

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)

لأن الثمن هو الجنة، بأن لهم الجنة الثمن هو الجنة،

(وَذَلِكَ)

العطاء:

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

إذا قال العظيم فوزاً عظيماً فهو عظيم فعلاً، ولابد من قضية أذكرها كثيراً: طفل صغير عمره أربع أو خمس سنوات عقب عيد الأضحى قال لأخيه: أنا معي مبلغ عظيم، مئتا ليرة، وإذا قال إنسان بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، أي مئتي مليار، فإذا كان عظيم العظماء، ملك الملوك، ومالك الملوك:

(فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

فالحقيقة أن تعرف الله، أن تستقيم على أمره، أن تتقرب إليه، أن تمضي إليه، أن تمضي حياتك بالعمل الصالح، فالعمل الصالح هو النجاح، هو الفلاح، هو الفوز، هو التفوق، هو السعادة، طرق السعادة بين أيدي الناس، أن تعرف الله، وأن تتبع منهجه، أن تعرف الله، وأن تتصل به، أن تعرف الله، وأن تتقرب إليه هذا:

(هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فلذلك:

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (64-70) : تفسير الآية 112، التوبة نقل من المعصية إلى الطاعة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-08-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من تدبر الآية التالية ومثيلاتها من الآيات المتشابهات :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا في هذه الآية بعضاً من صفات المؤمنين، والحقيقة حينما يبين الله عز وجل في هذه الآية وفي غيرها من هذه الآيات الكثيرة صفات المؤمنين، فلعل الهدف من ذلك أن هذا المؤمن إذا قرأ القرآن، وقرأ صفات المؤمنين، ينبغي أن يتدبر هذه الآية، هذه الصفات هل تنطبق عليه؟ إن انطبقت عليه فهو في نعمة كبيرة، إن لم تنطبق عليه فهو في محنة كبيرة، إن انطبق عليه بعضها ولم ينطبق عليه بعضها الآخر فهو في وضع وسطي، فلابد من أن يتأمل المؤمن هذه الآيات، ولا بد من أن يراجع نفسه مراجعة دقيقة، بل لا بد من أن يقف عندها كلمة كلمة، ويرى هل هو من التائبين؟ هل هو من العابدين؟ من الحامدين؟ من السائحين؟ من الراكعين؟ من الساجدين؟ هذه صفات المؤمنين، وما أراد الله من هذه الآية، ومن مثيلاتها إلا أن تكون مقياساً لنا، أو هدفاً، إما أنها مقياس نقيس بها إيماننا، أو إنها هدف يمكن أن نسعى إليه.

إذاً هناك حكمة بالغة من تدبر هذه الآية ومثيلاتها من الآيات المتشابهات.

التوبة تجبُّ ما قبلها و التائب من الذنب كمن لا ذنب له :

أيها الأخوة،

(التَّائِبُونَ)

لعل رحمة الله في التوبة، الإنسان إذا شذّ عن منهج الله، أو انحرف عن طريق الحق، إذا وقع في المعاصي والآثام، ولم يكن هناك توبة، إذاً عرف مصيره في النار، ما الذي سيكون؟ ما دام هو في النار

ينبغي أن يفعل كل شيء، أن يبحث عن معصية لم يفعلها سيفعلها، المشكلة كبيرة جداً، أما إذا الله عز وجل بيّن لعباده أن التوبة تجب ما قبلها، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

وأن الله عز وجل حينما قال:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

الله عز وجل خلق الإنسان ليرحمه :

أنت حينما تقرأ آيات التوبة، آيات كثيرة:

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

كلمة يحب من الله عز وجل شيء يفوق حدّ الخيال، الله يحب التائب، أي يا عبدي لو كنت منحرفاً، لو كنت مسرفاً على نفسك، أنا أقبلك، والذي يقنت من رحمة الله ليس مؤمناً، لذلك فتح الله باب التوبة، هذا الباب يسع جميع العباد، إن:

(اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: 53]

جميعاً أي يغفر كل الذنوب، وأكبر الذنوب، وحينما يأتي اسم الله بصيغة المبالغة:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

[سورة طه الآية: 82]

هناك غافر، غافر اسم فاعل، أما غفار فصيغة مبالغة لاسم الفاعل، معنى صيغة مبالغة لاسم الفاعل أن الله عز وجل يغفر الذنوب مهما كثرت، ومعنى غفار بمعنى أنه يغفر أكبر ذنب، إما نوعاً أو كماً، فالله عز وجل يدعونا إلى التوبة، والإنسان حينما يتوب - ومن ذاق عرف- يشعر عند التوبة أن هموماً كالجبال كانت جاثمة على صدره، فانزاحت عنه، التائب يحس بخفة، كأنه يطير في الهواء، هذا الجبل الذي يكاد أن يسحقه أزيح عنه، لأن الله عز وجل خلقنا ليرحمنا، وما فتح باب التوبة إلا للمذنبين، بل إنه ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن تستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نعبده إلا ليرحمنا.

باب التوبة مفتوح في كل زمان و مكان :

إذاً:

(التَّائِبُونَ)

هؤلاء المؤمنون إذا زلت بهم القدم، قصرت بهم العزيمة، انحرفوا قليلاً، وقعوا في ذنب، غلبتهم شهوتهم، المسلم، أو الإنسان مذنب خطاء، شيء طبيعي جداً، لكن البطولة أن هذا الذنب الذي وقع به المؤمن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، لئلا يقنط من رحمة الله من أجل ألا ييئس.

(التَّائِبُونَ)

مرة ثانية:

((إذا رجع العبد- إلى الله تائباً - نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

فالتائب يحبه الله عز وجل، سار في طريق سعادته، لأن الله عز وجل خلقنا للسعادة.

فإذا كان ابناً طموح أبيه منه أن يكون مثقفاً ثقافة عالية، أو أن يكون طبيباً مثلاً، فحينما يتحرك هذا الطفل لتحقيق هذا الهدف يسعد والده، لأن والده يتمنى عليه أن يكون كذلك، الله عز وجل حينما خلقنا أرادنا أن نعبده، وأن نطيعه، كي يسعدنا بعبادته في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل يفرح بإيمان عباده المؤمنين، يفرح بتوبتهم:

((لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

بطولة الإنسان إذا وقع في ذنب وتاب منه أن تكون توبته توبة نصوحة :

وهناك أحاديث كثيرة تؤكد فرح الله عز وجل بعباده المؤمنين، فكأن الله عز وجل يدفعنا إلى التوبة، كأن الله يقول: يا عبادي مهما كثرت الذنوب، مهما عظمت العيوب، مهما كان الذنب كبيراً فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، ويؤكد هذا قوله تعالى:

(إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

فالمؤمن كثير التوبة، يتوب في اليوم مرات ومرات، كلما وقع في خطأ، في خلل، زلت قدمه، يرجع إلى الله بالتوبة، والله عز وجل بابه مفتوح لكل عباده.

لكن الواقع أنك إذا وقعت في ذنب فالتوبة الأولى أهون توبة عليك، لمجرد أن تنعقد التوبة كأنك تشعر أن الله قبلك، وقبل هذه التوبة، لكن حينما تعيد الذنب مرة ثانية، أقول لك الواقع يشعر هذا المذنب للمرة

الثانية أن التوبة الآن لم تكن سهلة كالأولى، صار كأنه استهزاء برحمة الله، فيجد صعوبة في التوبة الثانية، والصعوبة أشد في الثالثة، فالبطولة أنك إذا وقعت في ذنب وتبت منه أن تكون التوبة توبة نصوحة.

من أعاد ذنبه عليه أن يضيف إلى توبته عملاً صالحاً :

المؤمن تواب، أي كثير التوبة، والله عز وجل قال:

(التَّائِبُونَ)

جعل صفة المؤمنين الأولى أنهم تائبون، أي ليس لنا إلا الله، طبعاً الإنسان إذا تاب من الذنب نفسه مرات ومرات يجد صعوبة في التوبة الثانية، وصعوبة أكبر في التوبة الثالثة، وأكبر في الرابعة، لكن في النهاية ليس لنا إلا الله، يجب أن نتوب، والإنسان كتعليق إذا زلت قدمه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، أما إذا أعاد الذنب فصار بحاجة إلى شيء آخر يزيد على التوبة، أن يصوم مثلاً مع التوبة، إن كان ذا مال أن ينفق من ماله، الإنسان أحياناً يسترضي أخاه بالمال، أقول لكم بكل بساطة: الله عز وجل يسترضى بالصدقة، فالإنسان إذا زلت قدمه أعاد الذنب مرة ثانية، فكيف يتوب توبة ثانية أو ثالثة؟ عندئذٍ يجب أن يضيف إلى توبته عملاً صالحاً، كصيام نفل، أو كدفع صدقة.

والحقيقة لا يعرف الشوق إلا من يكابده، لا يعرف مشاعر الإنسان المذنب حينما يتوب توبة نصوحة إلا من ذاق هذه المشاعر.

أقول لكم مرة ثانية: كأن جبالاً كانت جاثمة على ظهره، فلما تاب توبة نصوحة أزيحت هذه الجبال عن كاهله، وشعر بخفة وراحة نفسية لا تعدلها راحة.

التوبة حدّ فاصل بين زمن وزمن وبين حال وحال :

إذاً من صفات المؤمنين أنهم تائبون، لكن أقول لكم وهذه حقيقة مرة: إن التوبة الأولى سهلة جداً، أما الثانية فأصعب، والثالثة أصعب وأصعب، كأنك لم تفِ بوعدك، ولم تكن عند عهدك، لكن ليس هناك إلا التوبة نجاة لنا من كل شيء.

كأن التوبة بدأ الله بها لأنها تنهي عهد المعصية، عهد التفلت، زمن الانغماس في الملذات، تنهي الشرود عن منهج الله، تنهي وضعاً غير لائق في الإنسان، تنهي وضعاً لا يرضي الإنسان، تنهي وضعاً لا يرضي الله، هذا الزمن انتهى بالتوبة، كأن التوبة حد فاصل بين زمن وزمن، بين حال وحال، بين واقع وواقع، بين معطيات ومعطيات، هذا الحد الفاصل نقلك من المعصية إلى الطاعة، من البعد عن الله إلى

القرب منه، من التشتت إلى الجمع.

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له))

[الترمذي عن أنس]

العطاء علة وجود الإنسان في الدنيا :

(التَّائِبُونَ)

من صفاتهم بعد التوبة أنهم عابدون، العبادة خضوع لمنهج الله، خضوع لما أمر، وابتعاد عما عنه نهى وزجر، ثم العبادة التقرب إلى الله بالطاعات، وبالأعمال الصالحة، وبالبذل، بل إن علة وجود الإنسان في الدنيا هو العطاء.

مرة قرأت كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بالمؤلف يقدم هذا الكتاب للنبي الكريم، قال في الصفحة الأولى من هذا الكتاب: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ".

الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، وفرق كبير بين النبي والقوي، وفرق كبير بين أتباع النبي وأتباع القوي، لذلك كن من أتباع الأنبياء، لأنك إن فعلت هذا استحققت الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

العبادات الشعائرية لا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

(التَّائِبُونَ)

لكنهم عابدون، العبادة قد يتوهمها متوهم أن تؤدي العبادات الشعائرية، هذا خطأ كبير، خطأ كبير جداً، لأن سيدنا جعفر حينما التقى النجاشي ملك الحبشة سأله عن هذا الدين فقال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

معنى ذلك تفاصيل هذا المنهج تفاصيل أخلاقية، هناك عبادات شعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، لكن هناك عبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والرحمة، وما إلى ذلك.
وأقول لكم هذه الحقيقة وقد تكون مؤلمة: العبادات الشعائرية كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

التائب من لوازم توبته وعلامة قبول توبته أن يكون عبداً لله بعد التوبة :

إذاً:

(الْعَابِدُونَ)

الذين خضعوا لمنهج الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين استجابوا لله ورسوله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين تقربوا إلى الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين تعرفوا على الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله،

(الْعَابِدُونَ)

الذين أقاموا منهج الله في بيوتهم، وفي أعمالهم،

(الْعَابِدُونَ)

الخاضعون، المتمثلون لمنهج الله عز وجل، تائبون وعابدون، فالتائب من لوازم توبته ومن علامة قبول توبته أن يكون عبداً لله بعد التوبة.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

والعبادة واسعة جداً، هناك من يتوهم خطأ أن الإسلام هذه العبادات الشعائرية صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، أقول لكم: الإسلام منهج تفصيلي، يبدأ من فراش الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدولية، يبدأ من أخص خصوصيات الإنسان، وينتهي بأكبر علاقات بين الأمم والشعوب، هذا الإسلام منهج كامل.

إذاً:

(الْعَابِدُونَ)

الممتثلون إلى منهج الله، المطبقون له، الذين استجابوا لله فكان عملهم وفق منهج الله عز وجل.

من لوازم التوبة أن يعبد الإنسان الله حق العبادة :

الآن: تائب وعابد، ما الرد الإلهي على توبته وعبادته؟ تائب وعابد، تاب توبة نصوحة، وعبد الله حق العبادة، ألا يوجد شيء من الله يشجعه ويثبته ويطمئنه ويحفزه؟ طبعاً.

الآن:

(الْحَامِدُونَ)

يأتي الخير الإلهي.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه مالك عن بلاغ بن مالك]

الخيرات، صدق واعتقد يقيناً أنه لمجرد أن تفكر أن تتقرب إلى الله بطاعة، بعبادة، بإنفاق مال، بقيام ليل، بقراءة قرآن، فالله عز وجل معك وسيكافئك، وسيتقرب إليك أيضاً.

((إن تَقرَّبَ إليَّ شِبْرا تَقرَّبتُ إليه ذِراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذِرَاعاً اقْتَرَبتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَة))

[البخاري و مسلم عن أبي هريرة]

الله عز وجل ينتظرك، ينتظر هذه اللحظة التي تبحث عنها، لذلك الترتيب دقيق من لوازم التوبة أن تعبده حق العبادة، قال: وما حق العبادة؟ قال:

((أنْ تَحْفَظ الرَّأسَ ومَا وَعى، والْبَطْنَ ومَا حَوى، وتذْكُرَ المَوتَ والبلى))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود]

حق العبادة الطاعة، حق العبادة الخضوع لمنهج الله عز وجل، حق العبادة أن تؤدي شعائر الله عز وجل.

عطاء الله عز وجل لا نهائي :

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

المعنى الذي يأتي بين العابدين والحامدين، أنك حينما تتوب إليه، وحينما تعبده، تأتيك الخيرات، تأتيك المسرات، تأتيك الراحة النفسية، يأتيك الشعور بالتفوق، تأتيك الطمأنينة، يأتيك الأمن، يأتيك التوفيق في أعمالك، التوفيق في بيتك، التوفيق مع من حولك، مع من فوقك، مع من دونك، أي ثمار الطاعة لا تقدر بثمن، ثمار الطاعة لا تعد ولا تحصى.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

لن تحصوا، لن تستطيع أن تحصي خيرات الاستقامة، التائبون ترك المعصية والانحراف والتفلت، وما شاكل ذلك، بعد أن تاب توبة نصوحة، وترك كل المعاصي والآثام، الآن عبد الله، خضع لمنهجه، أدى عباداته الشعائرية، وطبق العبادات التعاملية، كان صادقاً، وأميناً، ومستقيماً...الخ.

الآن بعد أن عبد الله، واستقام على أمره، وتقرب إليه، جاءت الخيرات، وشيء يحير يا ترى خيرات مادية؟ مادية، ومعنوية، ونفسية، وروحية.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

رحمة الله عز وجل يصعب حصرها في شيء واحد، رحمة الله توفيق، رحمة الله زواج سعيد، رحمة الله أولاد أبرار، رحمة الله زوجة صالحة، رحمة الله صحة، رحمة الله مكانة، رحمة الله رؤية ثاقبة، من الصعوبة بمكان أن تحدد رحمة الله، عطاء الله، وكيف أن عطاء الله عز وجل لا نهائي، فعطاؤه لا نهائي.

الإنسان خُلق ليعرف الله عز وجل :

اللفتة الدقيقة جداً أن هذا الإنسان حينما خلق ليعرف الله، قالوا: إن الأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ لله عز وجل.

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

أنت لله، فأنت حينما تتعرف إلى الله، وحينما تقترب منه، وحينما تعمل صالحاً من أجله، الآن حققت الهدف من وجودك، والله عز وجل يفرح بك، لأنك تحركت وفق منهجه.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ)

من لوازم التوبة العبادة، ومن لوازم العبادة الخير الذي يأتيك.

أقول لكم هذا الكلام: لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة في اللحظة التي ينعقد في نفس الشاب المؤمن التوبة إلى الله، تجد حياته انقلبت رأساً على عقب، يجد سعادة، واستقراراً، وأمناً، ومكانة، وتوفيقاً، وتفوقاً، في بيته

محترم إلى أعلى درجة، بين أصدقائه، في مدرسته، في الطريق محشوم عفيف، يغض بصره، صفات المؤمن صفات راقية جداً.

للتقريب: فلان دكتور، أو تكتب جانب اسمه د. أي معه ابتدائية، وإعدادية، وثانوية، ولسانس أو بكالوريوس، و دبلوم عامة، دبلوم خاصة، وماجستير، ثلاث عشرة شهادة من كلمة د. وإذا قلت: مؤمن أي عرف الله عز وجل، فهو مستقيم و أخلاقي.

الإيمان مرتبة أخلاقية وعلمية وجمالية :

بالمناسبة: الإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، المؤمن أسعد إنسان، أقسم لكم بالله أيها الأخوة المشاهدون: تمتع المؤمن في الدنيا التي أتيحت له في الجانب الحلال منها فقط، أي اشتهى المرأة تزوج، اشتهى المال عمل عملاً طيباً، مستقيماً، نزيهاً، جمع المال، تمتع المؤمن في الدنيا تفوق متعة غير المؤمن بآلاف المرات، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان)

[سورة الرحمن]

له جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة.

المؤمن طبيعته شاكر وغير المؤمن طبيعته كفور :

الآية الدقيقة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية: 21]

قد تقول: في الآخرة، لا، في الدنيا قبل الآخرة.

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

[سورة الجاثية الآية:21]

في دنياهم، أي المؤمن بيته غير بيت غير المؤمن، المودة بينه وبين أولاده متمايزة، هدوءه في البيت، تماسكه، رحمته، مكانته، شخصيته، الآن نشاطه نشاط مقدس، لقاءاته هادفة، بحث عن العلم، مثلاً دعا إلى الله، بيته فيه سكينة، ووقار، علاقته واضحة، الفرق كبير بين الذهب والنحاس، الفرق كبير بالثمن وكبير بالثبات على الخصائص.

إذاً:

(الْحَامِدُونَ)

جاءه الخير فحمد الله عليه، فالمؤمن طبيعته شاكر، شكور، وغير المؤمن طبيعته كفور، يكون بأعلى درجة من الدخل، بأعلى درجة من الصحة، يشكو لك، كثير الشكوى، البلد لا يعجبه، والناس لا يعجبونه، والتجارة لا تعجبه، يعيش في بحبوحة كبيرة جداً وغارق بالنعيم ومع ذلك يتشكى، قال:

أي هذا المتشكي وليس بك داء كيف تـغدو إذا غدوت عليلاً

***

أي عنده دنيا عريضة وهو يشتكي فكيف إذا غابت عنه هذه الدنيا؟

السياحة الفكرية :

الآن:

(السَّائِحُونَ)

السائح خرج من بلده، كأن هذه الكلمة تعني السياحة الفكرية، فكر بالكون، هناك إنسان عاش ببيته، أكل، وشرب، ونام، هناك إنسان فكر بالشمس، ما هذه النعمة الكبيرة؟ فكر بالقمر، فكر بهذه النباتات الجميلة، هذه لمن؟ لمن هذه النباتات؟ يروى أن إنساناً قدم لحمار فله فأكلها، هذه الفلة للإنسان ليتمتع برائحتها.

فهناك عشرات ألوف النباتات ضمن البيوت تعيش كي تستمتع بها، أنت مكرم، الفواكه كم نوع؟ النباتات كم نوع؟ المواهب الجمالية في الكون رائعة جداً، كلها من أجلك، ألا ترى أن الله عز وجل سخرها لك؟.

(السَّائِحُونَ)

أي يفكر، أكل، هذا الحليب، هذا الشراب اللذيذ المفيد، غذاء كامل، من أين جاء؟ من البقرة، هل يستطيع أهل الأرض أن يصنعوا من علف البقرة حليباً؟ معمل صامت بلا ضجيج، تأكل الحشيش تعطيك الحليب، الأجبان، والألبان، مشتقات الحليب لا تعد ولا تحصى، هذا الحليب هدية من الله.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل الآية:5]

(لَكُمْ)

لها معنى دقيق، خلقت لكم خصيصاً، فالإنسان المؤمن إذا شرب كأس الحليب، إذا أكل طعاماً، إذا أكل خبزاً، الآن القمح من صممه؟ القمح غذاء كامل، مرة قرأت عنه، هناك أربعة آلاف و خمسمئة نوع من القمح، هذا الغذاء الكامل.

سائح يفكر، يفكر في هذا النجم، هذا نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، وهناك مجرة تبعد عنا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، لو كان هناك طريقاً لهذا النجم لاحتاج إلى خمسين مليون عام ليصل إليه:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة]

هذا الكون لمن؟ لك، هذه النباتات لمن؟ لك، أنواع النباتات بالمليارات، أشكال أوراق النباتات لا تعد ولا تحصى، أنواع الفواكه، أنواع الحيوانات، أنواع النباتات، أنواع الصخور، كون بأعلى درجة من الكمال.

من عرف الخالق عرف كل شيء :

إذاً:

(السَّائِحُونَ)

يفكر بطعامه، بشرابه، بمن حوله، بمن فوقه، بمن تحته، هذا الذي يأكل ويمشي.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل الآية:21]

(السَّائِحُونَ)

هنا السياحة الفكرية ، يفكر في خلق السموات والأرض، يفكر في جسمه، هذه العين فيها طبقة هي الملتحمة وهي شفافة، كل الجسم يتغذى عن طريق الشعريات، إلا ملتحمة العين، الطبقة الأولى، هذه عن طريق الحلول، أول خلية تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، من جعل خلايا القرنية تتغذى عن طريق الحلول؟ لو تغذت عن طريق الشعريات لرأينا ضمن شبكة، وهذا شيء مستحيل، سائح، جسمك أكبر آية بين يديك، الشعر، العينان، الأذنان، اللسان، المعدة، الأمعاء، جهاز التنفس، جهاز الكليتين، إلى آخره، عندك أجهزة بالغة الدقة، أنت أكبر آية بين يديك، أنت أنت نفسك، جسمك أكبر آية.

(السَّائِحُونَ)

أكل طعاماً فكر فيه، ألقى نظرة على البحر فكر بالبحر، ألقى نظرة على الجبل فكر بالجبل، رأى حيواناً أليفاً فكر بهذا الحيوان، رأى نباتاً جميلاً فكر بهذا النبات، يعيش مع الصانع لا مع الصنعة، العالم الغربي يعيش مع الصنعة فقط.

مرة قالوا: إن الثقافة الغربية سخرت الطبيعة لشهوات الإنسان، ثقافة تسخير، أما ثقافة المسلمين فثقافة معرفة الصانع، الخالق، فأنت إذا عرفت الخالق عرفت كل شيء.

الحكمة من أخذ الله عز وجل الركوع والسجود من الصلاة :

الآن

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

قال بعض العلماء: لماذا أخذ الله من الصلاة الركوع والسجود؟ لأن الإنسان إذا كان واقفاً في الصلاة، هناك وقوف بغير الصلاة، إنسان واقف بمحله التجاري، واقف في بيته، فالوقوف مشترك بين الصلاة وبين غير الصلاة، والقعود قاعد ببيته على كنبة، على كرسي، على الأرض، أما الشيء الذي لا تفعله إلا في الصلاة فالركوع والسجود، والله عز وجل قال:

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

أخذ من الصلاة ما تتميز به،

(الرَّاكِعُونَ)

والحقيقة:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود))

[رواه أحمد عن أبي العالية]

أنت إذا قرأت قوله تعالى بعد الفاتحة في الصلاة:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء الآية:53]

أنت ما قلت له:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة]

الله أكبر، ركعت، معنى الركوع يا ربي سمعاً وطاعة لهذا الأمر،

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا الركوع متعلق بالآية التي قرأتها، ركوع الإنسان في الصلاة مرتبط بالآية التي قرأها بعد الفاتحة، الآن سجدت: يا رب أعني على هذه الآية أن أطبقها، الركوع يعني نعبد، والسجود نستعين.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة]

الركوع نعبدُ والسجود نستعين.

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود))

[رواه أحمد عن أبي العالية]

أنت إذا قرأت قوله تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

يأتي الأمر الإلهي:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة البقرة الآية:195]

في الركوع يا رب سأنفق، في السجود يا رب ارزقني حتى أنفق، فكأن كل آية تقرأها بالصلاة لها علاقة بالركوع والسجود،

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الآن:

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

أساساً حينما قال الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال النبي الكريم:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم، وأشدُّ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيُتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

أنا أذكر هذا البيت من الشعر عده النقاد في الأدب العربي القديم أهجا بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا شعار كل إنسان اليوم، لا علاقة لنا، لا دخل لنا:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا عصر تبدل القيم، أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، هناك أشياء لا يحتملها الإنسان، الآن بديهية، مألوفة جداً.

أحد أسباب سعادة الإنسان تطابق خصائص نفسه مع منهج الله عز وجل :

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

أدق ما في الآية أن المعروف لِمَ سمّى الله بعض الأمور معروفاً؟ قال: لأن الفطر السليمة تعرفها بداهة، الإنسان إذا كان باراً بأمه بكل الشرائع، بكل العصور، شيء بديهي، إذا كان محسناً، إذا كان منضبطاً، شيء بديهي، فالمعروف جاء وحي من الله، لكن الفطر السليمة تعرفه بداهة، هذا تطابق الفطرة مع الشرع.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

عندك فطرة لكن لا تطابق الشرع، لذلك أحد أسباب سعادة الإنسان إذا أطاع الله تطابقت خصائص نفسه مع منهج الله عز وجل.

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

المعروف ما تعرفه الفطر السليمة من دون تعليم، والمنكر ما تنكره الفطر السليمة ابتداءً.

إنسان جائع جداً، وأمه مثله جائعة، أحضر طعاماً و أكله وحده، بكل الشرائع، بكل النظم، بكل الثقافات، هذا عمل غير مقبول، تنكره الفطر السليمة.

على الإنسان أن يترك مسافة أمان بينه و بين حدود الله :

إذاً:

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّه)

الله له حدود، فالبطولة أن تقف عند هذه الحدود، بل أن تدع مسافة أمان بينك وبين هذه الحدود، وهذا معنى قوله تعالى:

(حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة الآية: 187]

دع بينك وبينها مسافة أمان، كيف أن التيار الكهربائي - ثمانية آلاف فولت- يجب أن تبتعد عنه ثمانية أمتار وإلا يجذبك، كذلك المعاصي فيها قوة جذب، فإذا أبقيت بينك وبين المعصية هامش أمان فأنت في سلام.

لذلك:

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ)

أي يبتعد عنها مسافة تمنعه أن يقع فيها.

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

ينتظرهم كل خير.

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

خير في الدنيا وخير في الآخرة، خير في المادة وخير في الروح، خير في الجلة وخير في الآجلة، خير مطلق،

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (65-70) : تفسير الآيات 113 - 116، لا يفيد استغفار أحد لأحد إلا أن يكون الاستغفار من ذات النفس، لا تكليف دون بيان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-08-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة سريعة حول الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثالثة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

أيها الأخوة الكرام، لابد من إضاءة سريعة حول هذه الآية، البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، مصنفون في الدوائر التالية: دائرة واسعة جداً، كل من أقرّ بوجود الله داخل هذه الدائرة، والذي أنكر وجود الله أصلاً خارج هذه الدائرة.

ودائرة ثانية ضمن الدائرة الكبرى من كان إيمانه بالله مقترناً مع التطبيق، أي من حمله أيمانه على التطبيق، من كان وقافاً عند الحلال والحرام، من رآه الله في طاعة وافتقده في معصية، هذا الذي التزم شرع الله، طبق منهج الله، انصاع لأمر الله، كان من أولئك الذين استمعوا إلى القول فاتبعوا أحسنه، هؤلاء ضمن الدائرة الثانية، لكنهم غير معصومين، إلا أنهم أقرب من غيرهم إلى السلامة والسعادة.

وفي وسط هذه الدوائر مركز فيه الأنبياء والمرسلون المعصومون، فهناك من موقعه خارج هذه الدوائر كلها، الذي أنكر وجود الله، وهناك من كان مكانه في الدائرة الكبرى، الذي أقرّ بوجود الله لكن لم يلتزم، لم يلتزم الحق، لم يأتمر بما أمر الله ولم ينتهِ عما عنه نهى الله، هذه المنطقة أصحابها ليسوا ناجين، أما الدائرة التي تلي تلك الدائرة الكبيرة ففيها أناس التزموا، انصاعوا لأمر الله، طبقوا، هؤلاء ليسوا معصومين ولكن الله سبحانه وتعالى يؤدبهم ويعالجهم إلى أن يأخذ بيدهم إلى الجنة.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو اقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الدر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أموه))

[ورد في الأثر]

أما الأنبياء والمرسلون فهؤلاء قمم البشر، هؤلاء معصومون من أن يخطئوا في أقوالهم، وأفعالهم، وفي أحوالهم، لذلك أُمرنا أن نتبعهم، وأن نأخذ عنهم.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية:7]

لأن النبي الكريم معصوم من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، أمرنا أن نأخذ عنه، والآية واضحة:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

النبي الكريم قدوة وأسوة لنا :

لكن فضلاً عن ذلك النبي قدوة لنا، وأسوة، وفي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

إذاً هؤلاء البشر يصنفون هذا التصنيف، خارج الدائرة، ضمن الدائرة الكبرى، وبعضهم ضمن الدائرة الصغرى، وقلة قليلة هم الأنبياء والمرسلون في مركز هذه الدائرة، هؤلاء معصومون من أن يخطئوا في أقوالهم، وفي أفعالهم، وفي إقرارهم.

إنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين :

الآن النقطة الثانية المضيئة لهذه الآية:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

للتوضيح: أقل ممرض على وجه الأرض إن أراد أن يعطي حقنة لمريض لا بد من تعقيم الحقنة، وتعقيم الزجاجة، وتعقيم المكان، وأكبر جراح قلب في الأرض إن أراد أن يعطي حقنة لا بد من أن يطبق هذه التعليمات.

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

فهذا منهج لا بد من تطبيقه، ولأن الأنبياء والمرسلين بشر تجري عليهم كل خصائص البشر، ولولا أنه تجري عليهم كل خصائص البشر لما كانوا سادة البشر، لأنهم بشر وانتصروا على بشريتهم، وقفوا عند منهج الله، أمروا بالمعروف، نهوا عن المنكر، كانوا سادة البشر، وأي إنسان يجب أن يعتقد اعتقاد جازماً أن بإمكانه أن يغير، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد الآية:11]

و لو كان التغيير مستحيلاً لكان من العبث إرسال الأنبياء والمرسلين، مادام الإنسان قابلاً للتغير والآية واضحة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا)

فإن كان التغيير قائماً فالحجة قائمة علينا.

ما كان صيغة من أشد صيغ النفي :

الآن الآية تقول:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

أي هذا الصحابي الذي هداه الله إلى الإسلام، ونوّر الله قلبه بالإيمان، وسعد سعادة ما بعدها سعادة حينما تعرف إلى الله، هذا الصحابي له أب، وله أم، وله أقارب، فكل إنسان يتمنى أن يكون من يلوذ به مؤمناً، ناجياً، فلعل بعضكم تمنى أو أراد أن يدعو الله لأبيه وأمه الذين توفوا أن يكونا من أهل الجنة، فجاء التوجيه الإلهي، النقطة الدقيقة في هذا التوجيه أن النبي هو نفسه أمر بذلك، قال:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ)

لكن ماذا تعني:

(مَا كَانَ)

؟ قال:

(مَا كَانَ)

صيغة في اللغة العربية تعني نفي الشأن، للتوضيح نقول: لو أن إنساناً سأل آخر: هل أنت جائع؟ يقول: لا، أما لو سأله سؤالاً آخر: هل أنت سارق؟ لا ينبغي أن يقول: لا، يقول: ما ينبغي لي أن أسرق، أو ما يكون لي أن أسرق، هذا نفي الشأن.

العلماء قالوا: هناك نفي الحدث، وهناك نفي الشأن، نفي الشأن يعني أنا مستحيل أن أفعل هذا، أو أن أرضى بهذا، أو أن أقر هذا، أو أن أسكت عن هذا، فكل أنواع الأفعال التي تتعلق بهذه الحادث داخلة في هذا النفي.

إذاً من أشد صيغ النفي:

(مَا كَانَ)

وقالوا بعض علماء النحو: وهذا قد يفيد فضلاً عن النفي النهي، نفيٌ ونهيٌ.

الشرك الخفي و الشرك الجلي :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا)

أي:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

لذلك الشرك بالله واسعٌ جداً، هناك شرك جلي، وهناك شرك خفي، الذين قالوا: بوذا إله في شرق آسيا هذا شرك جلي، والحقيقة الشرك الجلي ليس موجوداً في العالم الإسلامي، ولكن الشيء الذي يمكن أن يكون واسع الانتشار هو الشرك الخفي، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي أما أني لستُ أقولُ إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمالاً لغير الله))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

فالذي يؤثر صفقة محرمة على صفقة شرعية لربحها الكبير هذا وقع في الشرك الخفي، لأنه رأى هذا المال أفضل عنده من طاعة الله، أشرك المال مع طاعته لله، هذا الذي يطيع زوجته في معصية، ماذا رأى؟ رأى أن طاعتها أغلى عنده من طاعة الله، وقع في الشرك، لذلك قالوا: الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، أي إنسان منحرف أكرمك بشيء فأحببته، هذا من الشرك، أو أن تبغض على عدل، إنسان قدم لك نصيحة بأدب جميل فكرهته، فالشرك واسع جداً، والدليل قول تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف]

التوحيد هو الدين :

وذكرت قبل قليل: الشرك الجلي الله عز وجل عافانا منه، لكن المشكلة في الشرك الخفي، الشرك الخفي شهوة حينما تؤثرها على طاعة الله وقعت في الشرك، إنسان حينما تؤثر طاعته على طاعة الله وقع في الشرك، عادات وتقاليد ليست متوافقة مع الشرع إذا خضعت لها ولم تخضع للشرع فهذا نوع من الشرك، والدليل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، والتوحيد هو الدين، الدين والتوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، إبليس اللعين:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية:82]

معنى هذا أنه آمن بالله رباً وعزيزاً، لكنه لم يوحد، لذلك إذا أردت أن تضغط الدين كله في كلمة إنه التوحيد، أي ألا ترى مع الله أحداً، ألا ترى معطياً، ولا مانعاً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا معزاً، ولا مذلاً إلا الله.

مرة أخرى: وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فالإنسان المؤمن لأنه موحد يتجه إلى الله وحده، ويخاف من الله وحده، ويرجو الله وحده، يأتمر بما أمر الله وحده، وينتهي عما عنه نهى وحده، هذا التوجه الموحد إلى الله عز وجل هو حقيقة الإيمان، أما حينما أدعي أنني مؤمن وأطيع إنساناً في معصية الله فهذا شرك، أي أشركته مع طاعة الله، والآية:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الفرقان الآية:48]

أحياناً الإنسان شهوته يعبدها من دون الله، فالشرك واسع جداً، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ألا ترى معطياً، ولا مانعاً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا معزاً إلا الله.

تناسب المقدمات مع النتائج أمر هام جداً :

إذاً:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا)

هذا الحكم ينطبق على النبي والمؤمنين معاً لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين،

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ)

أحياناً إنسان يكون بامتحان معين، تنقصه علامة أو علامتان، هناك من يزيد له هاتين العلامتين، أما إنسان ما حضر الامتحان أصلاً ولا قدم ولا مادة فينجح؟ إذاً هناك لعب بالنظام، ولعب بالمقاييس، فلا بد من أن تتناسب المقدمات مع النتائج.

أما إنسان يمضي حياته كلها في معصية الله ويكون يوم القيامة كالذين آمنوا؟!

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية:61]

هذه الآيات فيها توازن وفيها موازنة بين المؤمن وغير المؤمن ينبغي أن تكون واضحة جداً في أذهاننا.

القرابة الحقيقة قرابة الإيمان :

إذاً:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى)

القرابة الحقيقة قرابة الإيمان، في قول الله عز وجل:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية:10]

هذه القرابة الحقيقية، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ، المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور يغبطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

البشر صنفان كبيران :

إذاً البشر كما قال الله عز وجل صنفان كبيران:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

ولن تجد فريقاً ثالثاً، إلا الفريق الذي نتحدث عنه، هذا أعلن إيمانه، وأبطن كفره، له موقف معلن، موقف حقيقي، شيء يعمله في خلوته لا يفعله في جلوته، له ظاهر، وله باطن، الإنسان المزدوج هذا هو المنافق، أراد أن يجمع مكاسب المؤمنين مع تفلت الكافرين، فالحديث في هذه السورة عن هؤلاء:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

طالب نقصه علامة واحدة ممكن أن نتوسط لدى المدرس ليضيف له هذه العلامة وينجح، أما طالب ما قدم الامتحان أصلاً، ما قدم ولا مادة، فالوساطة لدى المدرس لينجح شيء عجيب، وشيء مستحيل، فكأن هذه الآية تدور حول هذا المعنى:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

بعدوا عن الله بعد الأرض عن السماء.

مطالبة الله عز وجل أصحاب النبي الكريم ألا يقيسوا على الآية التالية :

لماذا جاء هذا النهي أو جاء هذا النفي؟ هو ونفي ونهي بآن واحد، لأن سيدنا إبراهيم كما جاء في بعض الآيات قال: سأستغفر لك ربي لأبيه عابد الوثن، جاءت الآية لتوضح:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

والد سيدنا إبراهيم عابد الصنم وعد ابنه أن يؤمن فلما وعد ابنه أن يؤمن، فكان من إبراهيم أن يستغفر له، يا أصحاب النبي لا تقيسوا على هذه، هذه لها خصوصية خاصة:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)

دائماً هناك قواعد، دائماً وأبداً هناك قواعد صارمة، لا تفكر أن تطلب من الله عز وجل أن تلغى هذه القواعد.

مرة قرأت في كتاب يقول أحدهم في دعائه: يا رب لا تسألنا عن شيء، إذا الله عز وجل قال في القرآن:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

فمن العبث ومن الغباء أن تقول: لا تسألنا عن شيء، فالدعاء بعكس القرآن، بخلاف القرآن، بخلاف السنن الإلهية، دعاء باطل، لكن أراد الله عز وجل أن يبين لهؤلاء الصحابة الذين ظنوا أن استغفار إبراهيم لأبيه يمكن أن يقاس عليه أن يستغفروا لآبائهم الذين ماتوا مشركين، فجاء التخصيص:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)

لكن إبراهيم نفسه

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

قانون الالتفاف و الانفضاض :

الآية الكريمة أيها الأخوة:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية:159]

هذه الآية تشير إلى قانون الالتفاف والانفضاض، أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك كنت ليناً لهم، هذه الرحمة التي أودعها الله في قلبك من خلال اتصالك بالله عز وجل هذه الرحمة انعكست ليناً في معاملة من حولك، فلما عاملتهم باللين التفوا حولك وأحبوك، قال افتراضاً: ولو كان المرء منقطعاً عن الله لامتلأ قلبه قسوة، ولانعكست هذه القسوة غلظة، وفظاظة، من نتائج هذه الغلظة والفظاظة أن ينفض الناس من حولك، إذاً: اتصال، رحمة، لين، التفاف، انقطاع، قسوة، غلظة، انفضاض، وكأن هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

تبين قانوناً ثابتاً يحتاجه الأب، يحتاجه المعلم، يحتاجه العالم، المرشد، الداعية، يحتاجه أي إنسان في منصب قيادي، ولو كان على عشرة، أو على أعلى مستوى، فهو بحاجة لهذه الآية التي تعنى بقانون الانفضاض والالتفاف، تتصل، يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، اللين يدعو الناس أن يلتفوا حولك، يخضعوا لك، يحبوك، يحرسوك،

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ)

لو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، انعكست هذه القسوة غلظة، وفظاظة، فانفض الناس من حولك.

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

الإنسان كلما ارتقى مقامه عند الله اتسعت دائرة اهتمامه :

الآية التي بعدها:

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)

فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه،

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

شديد التأوه، على وزن فعال، هذه صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تعني إما النوع أو الكم، فشدة رحمة هذا النبي الكريم جعلته أواهاً، أي إنسان أحياناً يهتم بمن حوله، بأسرته، فإذا رأى إنساناً منحرفاً، شاذاً، لا يتأثر له.

وكنت أضرب هذا المثل: لو أنك رأيت في الطريق ثلاثة شبان، أحدهم ابنك، والثاني ابن أخيك، والثالث لا تعرفه، والثلاثة يدخنون، على من ينصب غضبك؟ على ابنك أولاً، وبعدها على ابن أخيك، والثالث لا يعنيك.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

التأوه هو التألم، فالإنسان كلما ارتقى مقامه عند الله تتسع دائرة اهتمامه، فقد يهتم الإنسان بنفسه فقط، أرقى من هذا يهتم بأسرته، أرقى من هذا يهتم بالأسرة الكبيرة الواسعة، أرقى من هذا يهتم بأهل بلده، أما الأنبياء فيهتمون بكل البشر.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء]

فبقدر اتساع دائرتك يعلو مقامك عند الله، وبقدر ضيق هذه الدائرة ينخفض مقامك عند الله عز وجل، وكلما ارتقى المؤمن بسلم الإيمان تتسع دائرة اهتمامه.

وللتوضيح أكثر: كيف أن الإنسان إذا ارتفع في الفضاء تتسع الرؤية، أنا مرة دخلت إلى قطر رأيت طرطوس وصيدا بنظرة واحدة، تقريباً مئات الكيلومترات بنظرة واحدة.

كلما ارتفع مكان الإنسان تتسع الرؤية، وكلما ارتفع مقام الإنسان تتسع اهتماماته الإنسانية، هذا الذي يحمل همّ الأمة، هذا الذي يحمل همّ من حوله، إنسان كبير عند الله عز وجل، فالإنسان يكبر، أو قلبه يكبر، ويكبر، ويكبر، ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ويصغر، ويصغر، ولا نرى صغره، فيتعاظم عليه كل حقير، البطولة أن هذا القلب قلب المؤمن قد يتسع لعدد كبير من الخلق. إذاً صار أواهاً، يتألم للخلق، يتألم لضياع الخلق، يتألم لانغماس الخلق بالمعاصي والآثام، يتألم لمصير الخلق حينما غفلوا عن الله عز وجل، فهذا درس لنا جميعاً، كلما اتسعت دائرة اهتمامك، كنت عند الله كبيراً، وكلما ضاقت هذه الدائرة كنت عند الله صغيراً، وهذه الرحمة التي يشتقها المؤمن من الله عز وجل هي التي توسع اهتمامه،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

بطولة الإنسان أن تكون رحمته عامة تسع كل الخلق :

وأنا أقول دائماً: والبطولة أيضاً أن تكون الرحمة عامة، أودع الله في كل أب محبة أبنائه، في كل زوج محبة زوجته، فهذه الرحمة التي أودعها الله فيك هذه عطاء ابتدائي، ليس بطولة منك، لكن البطولة أن تكون رحمتك عامة تسع كل الخلق.

أنت مثلاً بمحل ابنك لا تسمح له أن يحمل شيئاً فوق طاقته، أما عندك موظف صغير فتكلفه أن يحمل فوق طاقته، هذا تناقض.

مرة قال لي إنسان: هذا الذي عندي لا أسمح له أن يغادر قبل نهاية الدوام، طلب مني أن يغادر قبل ساعة حتى يدرس بمدرسة ليلية فلم أسمح له، إذا تعلم يفقس، أما ابنه فدفع له مليون ليرة بمدرسة خاصة، هذا موقف حقير، أنت تعامل ابنك معاملة غير معاملة الناس، علامة المؤمن أن يعامل الناس برحمة وعدل وإنصاف، وهذا ميزان لنا جميعاً، هل تعامل الآخرين كما تعامل أقرب الناس إليك؟ الإيمان هكذا رحمة عامة، هناك رحمة خاصة، لكن هذه الرحمة الخاصة في المؤمن لا تلغي الرحمة العامة، والرحمة العامة في المؤمن لا تلغي الرحمة الخاصة.

إذاً أصل هذا الدين الاتصال بالله، ومع الاتصال بالله اشتقاق الكمال الإلهي، ومع هذا الكمال تسعد بهذا الإيمان وتُسعد من حولك.

أوصاف الأنبياء والمؤمنين في كتاب الله مقاييس لنا جميعاً :

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ)

هذا امتحانات، والأصح أن أوصاف المؤمنين أو أوصاف الأنبياء والمؤمنين في كتاب الله مقاييس لنا جميعاً.

مثلاً: لو أن لك صديقاً أصاب شيئاً من الدنيا بالحلال، مال، درجة عالية بالتعليم، أو كان زواجه ناجحاً جداً، أو كان عمله جيداً، هل تتألم؟ لمجرد أن تتألم فهذه صفة في المنافقين، والدليل:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة آل عمران الآية:120]

امتحن نفسك من خلال هذه الآيات، وأنا أتمنى أن تكون أوصاف الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم مقاييس لنا جميعاً، ما التدبر؟ يمكن أن تقرأ هذا القرآن قراءة صحيحة، وفق قواعد اللغة العربية، شيء جيد، لكن ممكن إذا أتقنت أحكام التجويد أن تقرأه قراءة مجودة، أفضل لكن ممكن أن تقرأ هذا القرآن قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة العربية، وقراءة مجودة وفق أحكام التجويد، وفضلاً عن هذا وذاك أن تفهم هذه الآيات، هذا مستوى ثالث، ويمكن فضلاً عن قراءة الآيات قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة، وقراءة مجودة وفق أحكام التجويد، وأن تفهم معاني هذه الآيات، وأن تتدبر هذه الآيات، والتدبر أن تسأل نفسك مع كل آية: أين أنا منها؟ هل أنا مطبق لها؟ هذا التدبر، صار هناك قراءة صحيحة، قراءة مجودة، قراءة فهم، قراءة تدبر، مجموع هذه القراءات وردت في كتاب الله في قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية:121]

فأنت إذا تلوت هذا الكتاب حقّ تلاوته، قرأته وفق قواعد اللغة، إذاً: " تعلموا العربية فإنها من الدين"، وقرأته وفق قواعد التجويد، ثم فهمته، ثم تدبرته، تقول: أين أنا من هذه الآية؟.

الاتصال بالله عز وجل من ثماره التخلق بأخلاق الله عز وجل :

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

وما لم يخفق قلبك بالرحمة، ما لم يخفق قلبك برحمة بمن حولك، بمن دونك، هذا القلب عندئذٍ يقسو، وإذا قسا فهو بعيد عن الله عز وجل، وإن القلب القاسي بعيدٌ عن الله عز وجل.

(أَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

فالحلم يتكامل مع الألم، متألم لكنك إذا تألمت من إنسان لا تبطش به بل تعالجه معالجة حالمة، معالجة رحيمة، معالجة متأنية، معالجة حكيمة.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

على كلٍّ هذه الآيات تعطينا درساً في ثمار الإيمان، الاتصال بالله عز وجل من ثماره التخلق بأخلاق الله عز وجل، هذه الأخلاق ترقى بك عند الله والآية الكريمة:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف الآية:180]

أنت تتصل بالحكيم، كن حكيماً حتى تكون حكمتك سبب اتصالك بالله، أنت تريد أن تقف بين يدي الرحيم، كن رحيماً حتى تكون رحمتك سبب اتصالك بالله، هذا الأسماء الحسنى إذا تقربت بها إلى الله انعقدت هذه الصلة مع الله عز وجل.

لا تكليف من دون بيان :

ثم يقول الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة]

معنى ذلك أن بعض الصحابة توفاهم الله في وقت مبكر بعد نزول الوحي، هناك أحكام كثيرة جاءت بعد موتهم ما طبقوها، فخاف الصحابة على من حولهم ممن توفاهم الله قبل أن يستكمل القرآن الكريم، فجاء التطمين الإلهي:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

أي أنت حينما لا تبلغ الحكم لست مكلفاً فيه، لا معاقبة من دون تبين، دائماً هناك تبليغ، البلاغ تأتي بعده المسؤولية، أما لم يبلغ هذا الإنسان، فهذه رحمة بمن توفاهم الله في وقت مبكر، ولم يستكمل القرآن نزوله، عندئذٍ الذين تركوا شيئاً سيأتي بعد حين هم معفون منه.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ)

لا تكليف من دون بيان، هناك دعوة بيانية، و الإنسان إن لم يستجب فهناك تأديب تربوي، لم يتعظ هناك إكرام استدراجي، لم يشكر هناك قصم.

كلّ شيء بيد الله عز وجل :

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[سورة التوبة]

له هذه اللام لام الملكية كما قال علماء النحو، لكن الله عز وجل ملكيته غير ملكيتنا.

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

[سورة الشورى الآية: 11]

ملكيته خلقاً، وإمداداً، ومصيراً، أنت تتملك هذا البيت، لكن قد يأتي قرار بإجراء تنظيم لهذه المنطقة، يؤخذ منك البيت، فأنت ملكيتك محددة، الملكية محددة، أما إذا قال الله عز وجل:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، أي الملكية المطلقة، فالإنسان إذا كان مع الله سعد بقربه، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والسموات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، فكل شيء تراه عينك بيد الله خلقاً، وإمداداً، ومصيراً، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ)

الحياة بيده، والموت بيده، والرزق بيده، وكل شيء بيده.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (66-70) : تفسير الآيات 117 - 119، التوبة هي حبل النجاة، والفوز بالجنة، والله يتوب على عبده ليتوب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-08-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

من رحمة الله بالخلق أنه شرع لهم التوبة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية السابعة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، من رحمة الله بالخلق أن الله سبحانه وتعالى شرع لنا التوبة، بل إن:

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

[سورة البقرة الآية: 222]

وهذه التوبة هي حبل النجاة، التوبة هي قارب النجاة، هذه التوبة لولاها لتفاقمت الذنوب، وانتهت بأصحابها إلى جهنم وبئس المصير، لكن الله رحيم بعباده، شرع لنا التوبة، بل شجع عليها، وقال:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء]

لذلك هذه التوبة صمام الأمان، وحبل النجاة، التوبة طريقنا إلى نسيان الماضي.

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

التوبة النصوح ليس لها ثواب إلا الجنة :

التوبة النصوح ليس لها ثواب إلا الجنة، فلذلك تشريع التوبة رحمة كبيرة لهؤلاء البشر، التوبة أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتباغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر

شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لذلك:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة]

لكن هنا الآية الكريمة:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

التوبة خلاص الإنسان من شقاء الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة الكرام، أحياناً تأتي الآيات: تابوا فتاب الله عليهم، تابوا فقبل الله توبتهم، وأحياناً تأتي الآيات: تابوا فتاب عليهم، لعل الآية الثانية تابوا فتاب عليهم بمعنى أن الله ساق لهم بعض الشدائد التي حملتهم بها على التوبة، لأن الله عز وجل قال:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

فكل عذابات الدنيا عذابات دنيا، متعلقة باسمها، عذابات الدنيا هي عذابات دنيا من أجل أن نتوب إلى الله عز وجل،

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

إن :

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

فلذلك التوبة باب النجاة، التوبة قارب النجاة، التوبة حبل النجاة، التوبة أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

((والإسلام يجب ما قبله))

[أخرجه الطبراني والإمام أحمد عن عمرو بن العاص]

فلذلك أيها الأخوة، لو عرف الناس حقيقة التوبة لكانت التوبة خلاصاً لهم من شقاء الدنيا والآخرة، على كلٍّ في معركة مؤتة الذين كانوا حول النبي تخلفوا، وبعضهم تخلفوا بلا عذر، وبعضهم بعذر، وبعضهم كانوا مع النبي الكريم.

المؤمن الصادق يدافع عن إخوانه المؤمنين وهذا الدفاع وسام شرف له :

لكن الذي يلفت النظر أن النبي الكريم وهو في تبوك سأل عن بعض أصحابه، فقال بعضهم: شغلته الدنيا- بستانه- فقال أحدهم: لا والله يارسول الله، وهذه لفتة رائعة، يا رسول الله لقد تخلف عنك أناس ما نحن أشد حباً منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وكأنه ثمّنَ هذا الدفاع من الصحابي عن إخوانه، على كلٍّ المؤمن الصادق يدافع عن إخوانه المؤمنين، وهذا الدفاع وسام شرف له.

في هذه الغزوة غزوة تبوك بعض المنافقين تخلفوا وبلا أعذار، وبعض المؤمنين تخلفوا بأعذار، فالذي لم يجد دابة يحمل نفسه عليها، تخلف، والفقير تخلف، والمريض تخلف، فهناك فقير، ومريض، و هناك من لم يجد، وهناك إنسان آخر لم يجد شيئاً يحمله إلى الجهاد، هذا التخلف مقبول والعذر مقبول، وهناك تخلف بلا عذر، أو العذر كاذب.

لذلك لما جاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة ليعتذروا للنبي عليه الصلاة والسلام وأدلوا بأعذار واهية، والنبي كما يقال مجاملة لهم قَبِل هذه الأعذار، وكانوا فيما أعتقد ثمانين، فلما جاء سيدنا كعب، وقال: والله تخلفت عنك بلا عذر، أي كنت قوياً، وعندي ناقتان، و، و، ولكني تخلفت عنك، فقال النبي الكريم: أما هذا فقد صدق، وكأنه قيّم الثمانين إنساناً الذين قدموا أعذاراً واهية.

فلذلك في هذه الغزوة بعض المنافقين تخلفوا بأعذار واهية، وبعضهم تخلفوا بأعذار مقبولة، وبعضهم كانوا مع النبي الكريم، فجاءت الآية:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

عتب الله على النبي في الهامش الضيق الذي تركه له هو عتب له وليس عليه :

قد يسأل سائل: ما نوع توبة الله على النبي وهو المعصوم؟ الحقيقة هناك إضاءة لابد منها هو أن الله سبحانه وتعالى عصم النبي الكريم من أن يخطئ بأقواله، وأفعاله، وإقراره، ولكن ترك له هامشاً ضيقاً هو الهامش الاجتهادي، لماذا تُرك له هذا الهامش؟ قال: في هذا الهامش الاجتهادي الذي تركه الله له يجتهد، فإن أصاب أقره الوحي على ذلك، وإن لم يصب جاء الوحي فصحح له، ولكن هذا الهامش،

وهذا التصحيح، قال عنه بعض علماء السيرة: إن الله أراد ذلك ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية، وبين مقام النبوة، أو مقام البشرية، هذا الهامش الضيق الاجتهادي الذي تُرك له أراد الله منه أن يكون الفارق واضحاً، فرق بين مقام الألوهية وبين مقام النبوة، لكن الذين تبحروا في هذا الموضوع وجدوا أن عتب الله على النبي عتباً له لا عليه، لأنه اجتهد وفعل الأصعب، فكل عتب الله عز وجل على النبي في الهامش الضيق الذي تركه له، هو عتب له وليس عليه.

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[سورة طه]

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

[سورة عبس]

فكل الآيات التي جاءت في ظاهرها تعاتب النبي عليه الصلاة والسلام هي في مضمونها تعتب له لا عليه.

كأن يدخل الأب إلى غرفة ابنه يراه منكباً على الكتاب، دخل إلى غرفته الساعة التاسعة فرآه منكباً على الكتاب، الساعة الحادية عشرة رآه منكباً على الكتاب، الساعة السادسة فجراً رآه منكباً على الكتاب، فعتب له، قم واسترح قليلاً يا بني، هل هذا عتاب عليه؟ لا، عتاب له.

الفرق بين مقام البشرية ومقام الألوهية :

كل عتابات القرآن للنبي الكريم من هذا النوع، يعتب له لا عليه، لأنه حمّل نفسه ما لا يطيق،

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

لكن الحكمة البالغة من ذلك أن هناك مقام الألوهية، وهناك مقام البشرية، النبي بشر، قل:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

إذاً الهامش الضيق الذي تُرك للنبي عليه الصلاة والسلام هامش اجتهادي، والنبي الكريم اجتهد فإن أصاب أقره الوحي على هذا الاجتهاد، وإن ترك الأولى وقد حمل نفسه ما لا تطيق يأتي الوحي ويصحح له، فصار عندنا مقام البشرية ومقام الألوهية، النبي بشر لكنه كان سيد البشر، لأنه انتصر على بشريته.

مرة ثانية: لولا أن النبي بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر.

الآية هنا أيها الأخوة:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

بعضهم قال: النبي لم يفعل شيئاً، هو معصوم في الأساس، معصوم من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، ما معنى توبة الله على النبي؟ بعضهم قال: إنها جبر لخاطر الصحابة، أدخله معه:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ)

بعضهم قال: توبة الله على النبي توبة تثمن جهده الكبير، أتعبت نفسك كثيراً، أشقيت نفسك كثيراً،

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هذا نوع توبة الله على النبي الكريم.

الإنسان بضعة أيام :

إذاً الآية الكريمة،

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

الإنسان أيها الأخوة، يأكل، ويشرب، ويصلي، ويصوم، هكذا معظم المسلمين، لكن في مواقف محدودة، في أيام معدودة، إما أن يكون بطلاً يكبر ويكبر، ولا نرى كبره فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ويصغر ويصغر ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل حقير، أنت بضعة أيام، فلذلك الله قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم الآية: 5]

كل مؤمن له بضعة أيام وقف بها موقفاً بطولياً، آثر طاعة الله على هوى نفسه، بذل ما في وسعه، قدم الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، هذا يوم مشهود للمؤمن، فلذلك الله عز وجل يريدنا أن نذكر أنفسنا بأيام الله، يوم الله عز وجل أنقذك من مشكلة كبيرة، يوم وفقت فيه بعمل بطولي، هذه الأيام تعد منارات على طريق الإيمان.

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

الحقيقة المهاجرون والأنصار ضربوا أروع المثل، هؤلاء المهاجرون سبقوا إلى الإسلام، والأنصار قدموا لهم الغالي والرخيص، ولا أنسى الكلمة التي قالها سيدنا سعد بن الربيع حينما عرض عليه الأنصاري نصف أملاكه، دكاناً، وبيتاً، وحقلاً، ومالاً، قال له: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق، الشيء الذي لا يصدق، الأنصار بذلوا كل ما في وسعهم للمهاجرين، أما المهاجرون فتعففوا عن أملاك غيرهم، هؤلاء بذلوا، وهؤلاء تعففوا، هذا شأن المؤمنين، قال له: بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق، لذلك ورد في بعض الآثار:

((ولا تَسألوا النَّاس شيئاً))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي]

لكن كان الصحابي إذا وقع من يده زمام الناقة ينزل من على جمله إلى الأرض ليلتقطه ولا يحب أن يكلف أحداً أن يناوله إياه، هذه دقة بالغة في خدمة الذات.

الإنسان يمتحن إيمانه في أيام الشدائد :

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

والحقيقة الأيام بين أن تكون مريحة، أو صعبة، بين إقبال الدنيا، وبين إدبارها، بين توفر الحاجات، وبين فقد هذه الحاجات، فالإنسان لا تظهر بطولته في أيام الرخاء، تظهر في أيام الشدة، كما أن المركبة لا تمتحن في الطريق النازلة، تمتحن في الطريق الصاعدة، فنحن في أيام الشدائد يمتحن إيماننا، يمتحن عطاؤنا، بذلنا، مواساتنا، مشاركتنا للآخرين.

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

لذلك ليسوا سواءً، من آمن قبل الفتح، ومن آمن بعد الفتح، مسافة كبيرة جداً، حينما ينتصر الإسلام الدخول فيه سهل جداً، أما حينما يكون الدخول في الإسلام عبئاً كبيراً على الإنسان، وآثر طاعة الله ورضوانه، حينما دخل دفع ما دفع من متاعب، فهذا له عند الله شأن كبير.

إذاً:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الله عز وجل حينما قال:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 140]

مرة يقوى المؤمنون، ومرة يقوى أعداؤهم، فإذا جعل الله القوة على مدى الزمان للمؤمنين، دخل الناس في النفاق، وإذا جعلها لغير المؤمنين دخل الناس في اليأس، لكن حكمة الله عز وجل اقتضت أن القوة والضعف تتناوب بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، فإذا كنا في عصر القوي فيه لم يؤمن فلابد من حكمة بالغة يجب أن نعرفها.

الله عز وجل متكفل أن يحجم الإنسان و يضعه في حجمه الطبيعي :

(وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ)

أي الله أحياناً يضعنا على الحافة، فالذي يعبد الله على حرف قد لا يتحمل امتحان الله عز وجل، هذا الامتحان كاشف، لهذا أنا أقول: قل ما شئت عن نفسك، لكن الله متكفل أن يحجمك، أن يضعك في الحجم الحقيقي الذي تحتله، قل ما شئت، ادع ما شئت، هناك امتحانات دقيقة جداً وقد تكون صعبة تكشف الإنسان على حقيقته، ويحجم تحجيماً حقيقياً، و هذا يؤكده معنى قوله تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة العنكبوت]

أنت ادع ما شئت، وضع لنفسك حجماً كما تشاء، لكن الله متكفل أن هذا الحجم الكبير الذي وضعته لنفسك يحجم بامتحان دقيق دقيق.

الدعاء مخ العبادة :

أيها الأخوة، لولا أن الله أرادنا أن نتوب إليه، بل أراد أن يقبل توبتنا، بل أراد أن يرحمنا، لما أمرنا أن نتوب، ولولا أن الله أراد أن يستجيب لنا لما أمرنا أن ندعوه، والدليل القوي جداً الآية الكريمة:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

[سورة الفرقان الآية: 77]

((الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

الدعاء هو العبادة، هو الذي يترجم المعرفة بالله، والدعاء هو سلاح المؤمن، وأنت بالدعاء قوي جداً، لأنك مع القوي، مع الغني، مع الحكيم، مع العليم، مع الرحيم، فلذلك ورد:

((من لا يدعني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن الله يحب الملحين بالدعاء))

[رواه الحكيم ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

((إن الله يحب كل قلب حزين))

[أخرجه الحاكم عن أبي الدرداء]

الله عز وجل يدعوه عن معرفة، والدعاء هو العبادة، بل هو مخ العبادة، فالله عز وجل تاب على النبي، وتاب على أصحابه:

(وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

التوبة الوقائية :

هناك معنى آخر للتوبة إن صحت التسمية، التوبة الوقائية، أنت حينما تتصل بالله عز وجل، وتنعقد لك صلة مع الله عز وجل، ويمتلئ القلب نوراً ترى به الحق حقاً، والباطل باطلاً، الله تاب عليك بهذه الطريقة، بمعنى أنه منحك أسباب الاستقامة، أسباب الرؤية، نوّر قلبك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد الآية: 28]

كأن هذا المعنى يعطيك وقاية من المعاصي والآثام، فكأن هذا المعنى بالشمول توبة من الله لك، بين أن يعصي الإنسان ربه فيتوب، وأن يقبل الله توبته، وبين ألا يعصيه أصلاً، فهذا نوع من التوبة عالية جداً،

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

على الإنسان أن يجمع في دعائه بين الخوف و الرجاء :

الله عز وجل:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

ذو الجلال قوي، غني، جبار، منتقم، والإكرام رحيم، عفو، كريم، والحقيقة البطولة أن الأسماء المتعلقة بقوته، والأسماء المتعلقة برحمته، أن تكون بين الرجاء وبين الخوف، فإذا غلب الخوف على الرجاء وقعنا باليأس، وإذا غلب الرجاء على الخوف وقعنا في التوسع، أو في عدم التقيد بمنهج الله عز وجل، فالله عز وجل يعالجنا، إن رآنا توسعنا في مفهوم الرجاء تأتي بعض الشدائد، وإن رآنا توسعنا في مفهوم الخوف هذا الخوف جعلنا أقرب لليأس تأتي بعض الإكرامات الإلهية، فالله يقلبنا يمنة ويسرة، بين الرخاء والشدة، بل إن الله عز وجل وصف أنبياءه العظام أنهم يعبدون الله خوفاً وطمعاً، هذا موقف المؤمن الصادق، موقف المربي الحكيم، المربي الحكيم، الأستاذ الناجح، الداعية، يجب أن يعرف الابن من أبيه الحكيم أنه يحبه، وأنه يخافه، أن تجمع بين الحب والخوف، هذا معنى قول الله عز وجل:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن]

لا تعلم، تخافه، تخافه، لكن لا يوجد خوف مع يأس ، وتحبه تحبه، وهذا درس للآباء، والأمهات، والمعلمين، والمدرسين، والموجهين، والدعاة، وكل إنسان يحتل منصباً قيادياً هو بحاجة لهذا الدرس، أن تشعر من حولك بالخوف تارة، وبالرجاء تارة أخرى، كما يقال في بعض العبارات المعاصرة: أن تمسك العصا من الوسط، بين الخوف والرجاء،

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل يحب الصادقين :

ثم قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

هناك أصحاب ثلاث تخلفوا عن الجهاد، وكانوا مع النبي صادقين، حتى أن سيدنا كعب قال: وقد أجمعت صدقه، يا رسول الله كنت قوياً، وعندي ناقتان، وكنت صحيحاً ومعافى، ليس لي عذر، قال: أما هذا فقد صدق، استمع إلى ثمانين منافقاً بأعذار واهية وقبل مجاملة، أما سيدنا كعب فقال عنه النبي: أما هذا فقد صدق، فالله عز وجل يحب الصادقين.

مجتمع المؤمنين مجتمع مؤمن منضبط مطبق لمنهج الله :

قال:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

ما معنى خلفوا؟ غير معنى تخلفوا، خلفوا أي أرجأ الحكم بهم إلى حين، حيث تمت مقاطعتهم لمدة خمسين يوماً، المقاطعة بينهم وبين رسول الله لا أحد يكلمهم حتى زوجاتهم، حتى أقرب الناس إليهم، بل هذه القصة الحقيقة وسام شرف كبير، ما هذا المجتمع الملتزم؟ المنضبط؟ المؤتمر؟ إنسان يرتكب خطأ تدخله السجن، ما السجن؟ أن تعزله عمن حوله من دون سجن، عزلته عمن حوله، هو طليق، يتحرك يمشي في الطريق، يدخل إلى بيته، لكن زوجته لا تحدثه، أقرب الناس إليه، ما هذا المنهج القويم الذي جعل أمر النبي نافذاً في أدق أدق خصوصيات الإنسان؟ هذا منهج الله عز وجل، مجتمع مؤمن، منضبط، مطبق.

قال:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

لذلك قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية:97]

الحياة الطيبة لا تعني أنه غني، تعني أنه موصول بالله، تعني أنه متوكل على الله، تعني أنه يحب الله، تعني أنه خاضع لمنهج الله، تعني أنه يتأمل بحياة سعيدة، قادمة بعد الموت، هذه حالة دقيقة جداً.

المؤمن موعود بالجنة وهذا الوعد لا بد من أن يقع :

مرة قلت: المؤمن سعيد، فالذي استمع لهذه الكلمة في جمع غفير قال: لا ليس سعيداً، مثله مثل أي إنسان، فقلت له: لو أن إنساناً فقيراً جداً، وعنده ثمانية أولاد، ودخله لا يكفي أياماً معدودة، له عم يمتلك خمسمئة مليون، ومات بحادث كبير، وليس له أولاد، فهذا المبلغ صار إليك، أما إذا أراد أن يقبضه فيحتاج إلى وقت طويل، هناك معاملات مالية، وبراءات ذمة، إلى آخره، لماذا في هذه الفترة بين وفاة عمه وبين استلام المبلغ هو أسعد الناس؟ لأن الله وعده بالجنة، والمؤمن موعود بالجنة، وهذا الوعد لا بد من أن يقع:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية:111]

سبب سعادته، وسبب امتصاصه لكل مشكلة حوله.

إذاً:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ)

هؤلاء المؤمنون تخلفوا عن رسول الله وكانوا صادقين.

(الَّذِينَ خُلِّفُوا)

أما خلفوا هنا يعني تأخر الحكم عليهم.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)

بعد خمسين يوماً،

(لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، في بعض الأحاديث:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

[أخرجه البخاري، ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صحيح]

الصدق يهديك إلى الله فكن صادقاً، ولو أخطأت كن صادقاً.

السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء :

(وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

أحياناً أنت تخاف من الله، لكن مع الله وحده، تخاف منه، ولا ملجأ من عقابه إلا إليه، تخاف منه وتقبل عليه، تفر من عقابه، وتتسابق إلى طاعته، لا يوجد غير الله عز وجل، تخاف منه، والحل أن تلجأ إليه.

(أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ)

يحس بضيق، والآية الكريمة:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية:124]

قرآن، زوال الكون أهون من ألا تتحقق هذه الآية،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

قال بعضهم: ما بال الأقوياء والأغنياء؟ قال: ضيق القلب، الإنسان إذا ابتعد عن الله لو كان قوياً، لو كان غنياً، يشعر بضيق لا حدود له، لذلك هذه الراحة النفسية، نسميها السكينة، الله عز وجل ينزل هذه السكينة على عباده الصالحين، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه السكينة ذاق النبي الكريم طعمها وهو في الغار، مهدور دمه، ملاحق، وذاقها إبراهيم وهو في النار، وذاقها موسى في الصحراء، وذاقها أهل الكهف في كهفهم، هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذه سكينة الله عز وجل، تسميها رحمة، تسميها تفاؤلاً، تسميها تماسكاً، تسميها ثقة، تسميها صعوداً إلى الله عز وجل، تسميها صعوداً نفسياً، سمها ما شئت لكنها رحمة الله، تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

الله عز وجل يسوق للإنسان الشدائد لتحمله على التوبة :

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

ما الذي يسعدك حينما تأخذ أم حينما تعطي؟ الحقيقة هناك أقوياء وهناك أنبياء، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء عاش الناس لهم، الأقوياء يمدحون في حضرتهم، الأنبياء يمدحون في غيبتهم.

أيها الأخوة، كن تابعاً لنبي تكن أسعد الناس في الدنيا.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

هنا الشاهد،

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

ساق لهم هذه الشدة، لأن الصحابة الكرام قاطعوهم خمسين يوماً، لا أحد يكلمهم، لا أحد يسلم عليهم، حتى زوجاتهم،

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

ساق لهم بعض الشدائد كي تحملهم هذه الشدائد على التوبة.

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

[سورة التوبة]

تواب، صيغة مبالغة، تاب، يتوب، تائب، هنا تواب صيغة مبالغة، ومعنى صيغة مبالغة أنه يتوب على عبد ارتكب أكبر ذنب في الأرض، أو يتوب على عبد ارتكب مليون ذنب، إما نوعاً، أو عدداً،

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

شديد التوبة.

إذاً:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

على الإنسان أن يكون مع المؤمنين الصادقين :

ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، أنت حينما تكون مع الناس الشاردين عن الله عز وجل تصعب عليك التوبة، من حولك يدعوك إلى المعصية، إلى الشرود عن الله، إلى التفلت، إلى ترك العبادات، أما إذا كنت مع المؤمنين فهؤلاء يدعونك إلى طاعة الله، فلذلك العلاج، الدواء، الصواب أن تكون مع المؤمنين، والدليل:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

أي أرجأ الله الحكم فيهم إلى حين، بعد خمسين يوماً تاب الله عليهم.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

هنا معنى ظنوا بمعنى حسبوا، ظن بمعنى أيقن أو حسب، من ألفاظ التضاد، هنا ظنوا بمعنى أيقنوا.

(وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي الشدائد ساقها لهم كي تحملهم على التوبة، فإذا تاب:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

التوبة علم وحال وعمل :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أما تابوا فتاب عليهم فلها معنى آخر، أي أعلنوا توبتهم والتوبة علم، وحال، وعمل، علم: علمَ أنه مذنب، حال: شعر بالندم، عمل: أقلع عن الذنب، علم وحال، وعمل، هذا الذي علمه هداه إلى التوبة، وحاله انعقد على ألا يعود لهذا الذنب، ثم أصلح ما أفسده قبل أن يتوب، ثلاثة أشياء، علم، وحال، وعمل.

هنا: تابوا فتاب عليهم، أما

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

فساق لهم بعض الشدائد كي يحملهم على التوبة، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((عجب ربنا من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة]

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

التواب صيغة مبالغة، يغفر لك مليون ذنب، العدد، ويغفر أكبر ذنب، نوع أو عدد،

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الله سبحانه وتعالى يضع لنا الحل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

كن معهم.

((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))

[أخرجه عبد الله بن أحمد عن النعمان بن بشير]

((فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد - وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية -))

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى والإمام أحمد عن عمر بن الخطاب]

كن مع المجموع، كن مع أهل الإيمان:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (67-70) : تفسير الآيات 120 - 122، العبادات الشعائرية مناسبة لقطف ثمار العبادات التعاملية، الله عز وجل يقدر أجمل أعمال الإنسان ثم يعطي الثواب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله ما أراد أن تكون العلاقة به علاقة إكراه بل علاقة حب :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية العشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، تذكيراً ببعض الحقائق الأساسية عن العبادة إنها: طاعة طوعية وليست قسرية، لأن الله جل جلاله ما أراد أن تكون العلاقة به علاقة إكراه، قال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

بل أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب، قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية:54]

لذلك العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أي ما عبد الله من أطاعه ولم يحبه، كما أنه ما عبد الله من أحبه ولم يطعه، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، هذه العبادة نوعان، عبادة شعائرية كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وعبادات تعاملية كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، إلى آخر ما هنالك من صفات أخلاقية، هناك عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية.

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

لكن الحقيقة الخطيرة أن العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك:

((سأل النبي مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ طرحوا عليه سيئاتهم حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه حقيقة أولى، فالعبادات تعاملية وشعائرية، والتعاملية: السلوك، الأخلاق، المواقف، العطاء، الانضباط، ترك ما نهى الله عنه، أن يراك حيث أمرك، أن يفتقدك حيث نهاك، العبادات التعاملية هي التي ترقى بالإنسان، أما الشعائرية فمناسبة لقطف ثمار العبادات التعاملية.

كيف أن العام الدراسي الأصل فيه الدارسة، وساعات الامتحان الطالب الذي درس يظهر جهده الكبير في ساعات الامتحان.

الصلاة معراج المؤمن :

لذلك ما بين الصلاتين إذا كان هناك عمل صالح، والتزام، ووقوف عند الأمر والنهي، يقطف المسلم ثمار استقامته فيما بين الصلاتين، وكأن الصلاة امتحان والتزام بالعبادات التعاملية، في العام الدراسي تدرس، وفي الامتحان تظهر النتائج.

إذاً الصلاة مناسبة كي تمتحن استقامتك قبل الصلاة، فإن كنت مستقيماً شعرت بالقرب من الله، وعرجت نفسك إلى الله، فالصلاة معراج المؤمن، وقطف ثمار الصلاة الاستنارة، والانضباط، والسعادة.

العلاقة بالنبي الكريم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى :

لذلك الآية الكريمة:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

وكأن الخصيصة الأولى للمؤمنين أن نكون مع رسول الله، إذا كان حياً يُرزق فنحن معه في السراء والضراء، نحن معه في غزواته، في إقامته في المدينة، في الضراء، لكن بعد انتقال النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى، كيف تكون العلاقة به؟ كما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

[سورة الأنفال الآية:33]

معنى

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

أي هذا مستحيل وألف ألف مستحيل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

قال علماء التفسير:

(وَأَنْتَ فِيهِمْ)

معنى هذه الكلمة بعد انتقال النبي، إذا كانت سنتك مطبقة في حياته مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب.

المؤمن حينما يستقيم على أمر الله له معاملة خاصة :

لذلك مرة كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أردف معاذ وراءه على الدابة سأله:

((ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسكت النبي قليلاً- وجاء السؤال الثاني- ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ العباد على الله ألا يعذِّبهم))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

كأن الله جل جلاله أنشأ لك حقاً عليه، فلذلك المؤمن حينما يستقيم على أمر الله له معاملة خاصة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية:30]

لا تخافوا من المستقبل، ولا تحزنوا على ما فاتكم في الماضي.

(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

وكلمة لا تخافوا ولا تحزنوا قد لا ننتبه إلى مضامينها، لا تخافوا ولا تحزنوا تغطي الزمن كله، لا تخافوا تغطي المستقبل، ولا تحزنوا تغطي الماضي.

من اتبع هدى الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

بل إن الله عز وجل في بعض الآيات يقول:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية:123]

أي لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، الآية الثانية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة الآية:38]

لو جمعنا الآيتين الذي يتقي الله عز وجل، والذي يخشى الله عز وجل، لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من سعادة الدنيا؟ ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ولا يضل عقله، ولا تشقى نفسه.

إذاً كأن الله عز وجل في هذه الآية العشرين بعد المئة من سورة التوبة يبين أن من خصائص المؤمن متابعة النبي عليه الصلاة والسلام، من خصائص المؤمن أن يتابع النبي في حياته، أن تكون معه في السراء والضراء، في الحرب والسلم، وأن تتابع سنته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

إذاً كضمانة قطعية حتمية من خالق السموات والأرض، ولأن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، وأن الله عز وجل إذا قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية:55]

أول وعد:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

طبعاً الحقيقة المرّة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، نحن الآن لسنا مستخلفين في الأرض،

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

والحقيقة في أعم بلاد المسلمين ليس الدين ممكن في بلادهم،

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

هذا الأمن الذي وعدنا به ليس الآن محققاً قال:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية:55]

على الذات الإلهية أن يحقق لنا النصر، والتمكين، أما إذا لم يؤدِ العباد ما عليهم من عبادة فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاث.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله عز وجل :

إذاً من أخص خصوصيات المؤمن أن يكون مع رسول الله، إن كان حياً معه في كل غزوة، معه في الحضر وفي السفر، في السلم وفي الحرب، وإن انتقل النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى، إذاً هو معه في سننه، والشاهد الدقيق:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

فإذا كانت سنة النبي مطبقة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله، فمن خصائص المؤمن أن يكون مع رسول الله.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

(مَا كَانَ)

تنفي إمكان الوقوع، أما ما ينبغي فلا تنفي إمكان الوقوع، لكن تنفي كمال الوقوع والكلام دقيق جداً، فحيثما قرأت في القرآن الكريم ما كان الله ليفعل أي هذا مستحيل وألف ألف مستحيل، هنا ما كان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله، مستحيل أن تكون مؤمناً وأن تتخلف عن رسول الله، فالتخلف عنه نفاق، وأي نفاق.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

من رغب في الشيء أقبل عليه ومن رغب عن الشيء ابتعد عنه :

الآن دقق:

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

رغب في الشيء، رغب: مال إلى الشيء ميلاً عميقاً، رغبتُ هذه الجامعة، رغبتُ هذه الحرفة، رغبتُ هذا المال، رغبَ: مال ميلاً شديداً، لكن هذا الفعل من ألطف ما فيه أنه إذا جاء بعده رغب فيه، مال إلى الأخذ به، وإذا جاء بعده رغب عن، مال إلى تركه، لذلك الأفعال في اللغة أفعال لازمة، وأفعال متعدية، وأفعال قاصرة، ما الأفعال اللازمة؟ أن تقول: نام زيد، نام: فعل يحتاج إلى فاعل فقط، هذه فعل لازم، سعد فلان: فعل لازم، لكن إذا قلت: أكل الطفل التفاحة، هذا فعل متعدّ، لا بد لهذا الفعل من أن يصيب شيئاً وقع الفعل عليه، الذي قام بالفعل هو الفاعل، والذي وقع الفعل عليه هو المفعول به، فهذا الفعل الذي يحتاج إلى فاعل، وإلى مفعول معاً، هو الفعل المتعدي، فاعل ومفعول معاً.

ولكن هناك فعل قاصر، يأتي بعده حرف جر، مثلاً: رغبت في، رغبت في الشيء فالشيء في الأصل مفعول به، لكن لأن الفعل قاصر يأتي هذا الحرف ليجر أثر الفعل إلى المفعول، رغبت في الشيء،

الشيء في الأساس مفعول به، لكن لأن الفعل قاصر لا يصل تأثيره إلى ما ينبغي أن يكون مفعولاً به إلا بحرف، رغبت في الشيء، ورغبت عن الشيء، ونظرت إلى، وبحثت عن، فكل فعل من لوازمه حرف، هذا الحرف يعطي بياناً دقيقاً لمضمونه.

إذاً:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

أي يؤثرون النبي، يؤثرون طاعته، يؤثرون تلبية أمره، يؤثرون أن يكونوا معه،

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

فلذلك إما أن ترغب في الشيء، أو أن ترغب عن الشيء، إن رغبت في الشيء أقبلت عليه، إن رغبت عنه ابتعدت عنه.

من خصائص المؤمنين ألا يتخلفوا عن رسول الله :

لذلك من خصائص المؤمنين ألا يتخلفوا عن رسول الله، وألا تكون لهم رغبة بعيدة عن رغبة رسول الله، فلذلك:

((لا يُؤمن أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ والده وولدِهِ والنَّاس أجمعين))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك]

أو كما قيل: "ما لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام أحب إليك من نفسك"، أي ما لم تكن توجيهات النبي، ما لم تكن أوامر النبي، ما لم تكن النواهي التي نهى عنها النبي، أحب إليك من كل شيء، فالطريق إلى الله ليس سالكاً، هذا يذكرنا بقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

كأن الطريق إلى الله لا يكون سالكاً إلا إذا آثرت رضوان الله على كل شيء.

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ)

فأنت معه في حياته في السراء والضراء، معه في الحضر وفي المذر، معه في الغزو وفي السلم، معه في كل شيء، معه مطيعاً، معه محباً، معه مطبقاً، معه مؤثراً رغبته على رغبتك.

هكذا قال الله عز وجل:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

إذا لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام أحب إليك من نفسك فبينك وبين الإيمان مراحل.

محبة رسول الله و طاعة أمره قضية أساسية في الدين :

لذلك سيدنا عمر كان صريحاً جداً إلى درجة تلفت النظر، قال: يا رسول الله أنت أحب إلي من أهلي وولدي ومالي والناس أجمعين إلا نفسي التي بين جنبي، فقال: يا عمر! لما يكمل إيمانك، لما تأكد هذا الصحابي الجليل أن هذه القضية أساسية في الإيمان، أساسية جداً، ولا مساومة عليها إطلاقاً، غاب حيناً وعاد إلى النبي الكريم وقال: لأنت أحب إلي من نفسي، وأهلي وولدي، ومالي، حتى نفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر.

هذا كلام دقيق، أنت إذا رأيت شيئاً لا يرضي الله أحب إليك من طاعة الله، فهناك مسافة كبيرة، مثلاً نحن في الأعياد، في الفطر، وعيد الأضحى، نكبر، نقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أنا أقول بتعليق أردده كثيراً: إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت خالقك، فأنت ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الذي خلقك، إذا أطعت زوجتك في معصية، إذا أطعت شريكك في معصية، إذا أطعت من حولك في معصية وعصيت الله، الحقيقة أن طاعة هذا المخلوق كانت أحب إليك من طاعة الله، لذلك عصيت خالقك وأطعت هذا المخلوق، إذاً لم تقل أنت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، حقائق الدين دقيقة جداً، أنا ممكن أن أقرأ القرآن، أما أين أنا من هذه الآيات؟

على الإنسان أن يقرأ القرآن وفق قواعد اللغة وعلم التجويد ثم يفهم معانيه ويتدبرها :

قلت سابقاً حينما قال الله عز وجل:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة الآية:121]

قال بعض العلماء: هؤلاء المؤمنون يقرؤون القرآن وفق قواعد اللغة الصحيحة، لأن الله قال:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

الله: مفعول به مقدم، والعلماء فاعل مؤخر، لو عكست الآية هناك مشكلة كبيرة، معنى فاسد،

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

فإذا رفعت لفظ الجلالة ونصبت العلماء المعنى فاسد، و خطير جداً، إذاً لا بد من أن تقرأ القرآن قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة، والأكمل أن تقرأه وفق قواعد علم التجويد، ثم لا بد من فهم المعاني، ثم لا بد من التدبر، والتدبر أن تسأل نفسك مع كل آية أين أنت منها؟ هل أنت مطبق لها؟ نُهيت عن هذا الشيء، هل انتهيت عنه؟ أُمرت بهذا الشيء، هل أمرت به؟.

من آثر شهوته على طاعة الله خسر الدنيا و الآخرة :

إذاً من خصائص المؤمنين:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)

أي يرغبون أن يطيعوه، ولا يعبؤون برغباتهم، يؤثرون طاعة النبي على حاجاتهم الخاصة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هذا كلام دقيق، إذا كان في الدنيا شيء لا يرضي الله لكنك تفعله فقد آثرت شهوتك على طاعة الله، أو آثرت حظ نفسك على طاعة الله، إذا أطعت مخلوقاً وعصيت خالقاً، إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الذي خلقك، فأنت لم تقل الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ)

لكن النتيجة، دققوا الآن:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ)

عطش،

(وَلَا نَصَبٌ)

تعب،

(وَلَا مَخْمَصَةٌ)

جوع،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ)

دخلوا أرضهم، ووطئوها بأقدامهم،

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً)

نالوا منه، نالوا من خطته، نالوا من طموحاته، نالوا من كرامته،

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

معنى ذلك أن الأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، بل إن بعض العلماء قال: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، يمكن أن تعمل صالحاً وأنت في الطريق، وأنت في البيت، وأنت في الحقل، وأنت في الدكان، وأنت في المدرسة، وأنت في الجامعة، أي عمل تبتغي به رضوان الله هو عمل صالح يكتب في صفيحتك إلى يوم القيامة، لذلك الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

وكأن هذه الآية تبين تفاصيل، أي:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ)

الظمأ العطش، والنصب التعب،

(وَلَا مَخْمَصَةٌ)

الجوع،

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ)

أنت أحياناً تحجم الكافر، تبين له قوتك، تبين له ضعفه، تبين له انحرافه،

(وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أي عمل صالح يعمله الإنسان يكتب في ميزان حسناته يوم القيامة :

لذلك إذا كانت العبادات الشعائرية محدودة بخمسة عبادات، صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، ونطق بالشهادة، فإن العبادات التعاملية لا تنتهي، تدور معك حيثما درت، تبدأ هذه العبادات من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقات الدولية، أي عمل تبتغي به رضوان الله، لو قرأت كتاباً، لو ألقيت درساً، لو دعوت دعوةً، لو أطعمت جائعاً، لو عالجت حيواناً مريضاً، أي عمل تعمله هو في الحقيقة عمل صالح يكتب في ميزان حسناتك يوم القيامة، وهذه الآية تبين ذلك:

(وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أحياناً ركب بعض الصحابة الكرام فرسه قبيل الحرب وتبختر بها، فقال عليه الصلاة والسلام: "إن هذه المشية يكرهها الله إلا في هذا الموطن".

أحياناً تحتاج إلى أن تقف موقفاً قوياً أمام الكافر:

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

من هنا قيل: من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى غير المؤمن فكأنما اشتكى على الله.

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

المحسن أجره محفوظ عند الله عز وجل، إذاً أراد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن يعدد بعض الأعمال التي تعد عبادات تعاملية ترقى بالإنسان يوم القيامة، أحياناً هناك أشياء سلبية يصاب بالظمأ، بالجوع، بالعطش، بالتعب، بالمرض أحياناً.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

الآن موقف يغيظ الكفار، يحجمهم، يصغرهم، لعلهم يستيقظون من غفلتهم.

(اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً)

وصلوا إلى العدو أخذوا منه شيئاً،

(إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

لذلك أنواع الأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، بل إن علة وجود الإنسان في الدنيا هي العمل الصالح، والدليل أن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

أقول مرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من أن يضيع عليك عملك، العمل الصالح محفوظ.

مهما بدا للإنسان العمل صغيراً فهو عند الله محفوظ :

الآن:

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة]

رب درهم سبق ألف درهم، الإنسان أحياناً يأتي ليتوضأ يرى نملة في المغسلة، ينتظر حتى تخرج منها، لئلا تغرق في الماء، هذا عمل عند الله محسوب، رأى في الجامع قشة وضعها في جيبه، مهما بدا لك العمل صغيراً فهو عند الله محفوظ.

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

ما معنى هذه الآية؟ لك عمل في مجال محدد، و هذا العمل تكرر عشرات المرات، أرقى نسخة من هذا العمل تسجل لك، أرقى شيء.

هنا:

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أحياناً إنسان أنا أسميه: قناص، يفتش عن عيوب الآخرين، ويقتنصها، ويشيعها بين الناس، أما الذات الإلهية العظيمة فتقدر لك أجمل أعمالك

(أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

للجهاد أنواع كثيرة :

ثم يقول الله عز وجل:

(لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

[سورة التوبة]

هنا الموضوع دقيق جداً جداً، معنى هذا الموضوع أن هؤلاء الصحابة إذا توجهوا جميعاً إلى الحرب، من بقي لنشر هذا الدين؟ فالذي ينبغي أن يكون واضحاً أن الجهاد أنواع كثيرة، هناك جهاد دعوي، الله عز وجل يقول:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

أي بالقرآن، أي الأمة تحتاج من يموت في سبيلها، وتحتاج أيضاً من يعيش في سبيلها، فالذي يأخذ العلم ينقله إلى الآخرين، وهذا عمل عظيم، والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

أي ليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

الإيمان من لوازمه الاستقامة والدعوة إلى الله من لوازمها العمل الصالح :

وقد تقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

أما:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فالمؤمن ينبغي أن يكون مستقيماً.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: 30]

فالإيمان من لوازمه الاستقامة، أما الدعوة إلى الله فمن لوازمها العمل الصالح،

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

إذاً فضلاً عن أن الأمة في أمس الحاجة إلى مجاهدين، إلى مقاتلين، إلى من ينشر الدين، إن الأمة بحاجة إلى هؤلاء، وبحاجة إلى علماء الذين يأخذون هذا المنهج الإلهي، ويبثونه بين الناس، لذلك قال الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)

لابد من أن يتفرغ بعضهم للدعوة إلى الله، وليأخذوا هذا الوحي من رسول الله، وينقلوه إلى الناس.

الحركة الأساسية للبشر دفاعية ودعوية :

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

وكأن هذه الآية تنطبق على الدعاة إلى الله عز وجل، لو أخذت كل فرقة من هؤلاء، وتفقهت في الدين، وأنذرت قومها، لعل هؤلاء يهتدون ويسعدون في دنياهم وأخراهم.

أيها الأخوة الكرام، هنا في هاتين الآيتين تبين أن الحركة الأساسية للبشر حركة دفاعية، وحركة دعوية، دفاعية ودعوية، فالأمة بحاجة إلى من يموت في سبيلها، وبحاجة أيضاً إلى من يعيش في سبيلها.

الدعوة إلى الله فرض عين و فرض كفاية :

الآية التي جاءت بعد الأولى:

(وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

لذلك كلام دقيق دقيق الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم ومع من يعرف، أما التفرغ، والتعمق، والتبحر فهذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، دليل فرض الكفاية:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران]

ما فرض العين؟

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

يدعو إلى الله، دليل آخر:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *)

[سورة العصر]

الأمة الراقية أمة تملك جناحاً دفاعياً و جناحاً علمياً معاً :

بعد أن قال الله عز وجل:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً

صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا كَانَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)

لابد من فريق يتخصص في الدفاع، وفي الحرب، وفريق آخر يتخصص بالدعوة إلى الله عز وجل، أي هناك علماء، وهناك أمراء:

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، هاتان الآيتان تبينان أن الأمة التي لا تملك قوة تدافع بها عن مقوماتها، عن مبادئها، عن قيمها، هي أمة خاسرة، والأمة التي لا ينهض بعض أفرادها لنشر هذه الحقائق، ولنشر هذا الوحي الإلهي الذي أنزله الله على رسوله الكريم، أمة ضائعة، فلابد من جناح دفاعي وجناح علمي حتى ترقى الأمة إلى مصاف الأمم الراقية.

وفي درس آخر إن شاء الله يمكن أن نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (68-70) : تفسير الآيات 122 - 123، الدعوة فرض عين على كل مسلم في حدود القدرة، الحرب بين باطلين لا تنتهي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-09-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله أفضل عمل على الإطلاق :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثانية والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لعل هذه الآية تنضوي تحت موضوع كبير هو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حينما وصف الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

[سورة الأحزاب]

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، من أدق أوصافه أنه داع إلى الله، لذلك ليس من عمل أفضل عند الله على الإطلاق من الدعوة إلى الله، لأن الدعوة إلى الله تعرف الإنسان بحقيقة إنسانيته، تعرف الإنسان بأنه المخلوق الأول رتبة، تعرف الإنسان بأنه المخلوق المكرم، تعرف الإنسان بأنه المخلوق المكلف، تعرف الإنسان بأن حياته الدنيا ذات مهمة خطيرة جداً، إنها العمل الصالح، فالطريقة المجدية الوحيدة التي تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم، من البعد عن الله إلى القرب، من دنس الشهوة إلى قدس الطاعة، هي العبادة، فالعبادة تؤهل الإنسان أن يكون مؤمناً، وأن يحقق الهدف من وجوده، بل أن يحقق الهدف الذي أراده الله له.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

الدعوة إلى الله دعوتان :

هذه العبادة إن صحت التسمية هي الدعوة إلى الله عز وجل، وليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله:

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

لكن الدعوة إلى الله دعوتان، دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، فالدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الإتباع، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها التنافس، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاعتراف بالآخر، أما الدعوة إلى الذات فمن خصائصها إلغاء الآخر، فلذلك ما كل من دعا إلى الله دعا إلى الله، فقد ورد:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ولم يصر على معصيتي، وكف شهواته عن محارمي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

حاجة الدعوة إلى الله إلى العلم و الإخلاص :

حينما قال الله عز وجل:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ)

أي جماعة

(طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

هذه الآية ومثيلاتها، بل والآيات التي تتحدث عن الدعوة إلى الله تبين أن أعظم عمل على الإطلاق هو الدعوة إلى الله، لأنك تأخذ بيد أخيك الإنسان إلى الله، تأخذه إلى طاعة الله، تأخذه للعمل الصالح، تأخذه إلى ما خُلق من أجله، تأخذه إلى جنة عرضها السموات والأرض، تأخذه إلى خيري الدنيا والآخرة. فلذلك هذا الذي سمح له أن يدعو إلى الله، يجب أن يذوب محبة لله عز وجل على هذا الفضل العظيم الذي سمح الله له به.

إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

من بعض الأقوال التي جاءت في الأثر:

((عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك))

[ورد في الأثر]

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام من أوصافه الأساسية أنه داعية إلى الله عز وجل إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت]

وينبغي أن أؤكد على أنه من دعا إلى الله فعليه أن يدعو بعلم، الدعوة إلى الله تحتاج إلى علم مكين، وتحتاج إلى إخلاص، لأن الله عز وجل حينما قال:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

قال علماء التفسير:"الله عز وجل يقبل العمل الصالح إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فإذا كان خالصاً ولم يكن موافقاً للسنة لا يعد عملاً صالحاً، إذا كان وفق السنة ولم يكن خالصاً لا يعد عملاً صالحاً، فالإخلاص ومطابقة السنة كلاهما شرط لازم غير كافٍ".

ما من عمل أعظم عند الله من الدعوة إلى الله بعلم وبإخلاص وبحكمة :

إذاً قوله تعالى:

(كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

تعلم وعلم.

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

هذه في اللغة اسم تفضيل، خيركم على الإطلاق من تعلم القرآن وعلمه، لأن هذا القرآن تعليمات الصانع، هذا القرآن فيه أسباب نجاحنا، أسباب تألقنا، أسباب سعادتنا، أسباب حفظنا، أسباب رقينا، إذاً ما من عمل أعظم عند الله من الدعوة إلى الله بعلم، وبإخلاص، وبحكمة

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي مؤمن على الإطلاق مكلف أن يدعو إلى الله :

طبعاً قد يتوهم متوهم أن الدعوة إلى الله يجب أن يكون خطيب مسجد حصراً، أو له مكانة كبيرة، لا، أي مؤمن على الإطلاق، بأي حجم، مكلف أن يدعو إلى الله، والنبي قال:

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

أنت استمعت في خطبة الجمعة إلى تفسير آية، تأثرت بها كثيراً، هذه الآية مع تفسيرها انقلها إلى زوجتك، إلى أولادك، إلى جيرانك، إلى من حولك، إلى إخوانك بلقاء خلال أسبوع هذا:

((بلّغوا عني ولو آية))

وهذا معنى قول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: 108]

فالذي لا يدعو إلى الله أصلاً هذا ليس متبعاً لرسول الله، حتى إنه: "من لم يجاهد- أقصد هنا الجهاد الدعوي- ولم يحدث نفسه بالجهاد، مات على ثلمة من النفاق".

لابد من أن تدعو إلى الله، والآية الصريحة الدقيقة الواضحة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

فالتواصي بالحق ربع النجاة، بل أحد أركان النجاة، والآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فلابد من أن تكون متبعاً لرسول الله، والدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 21]

فالآية هنا:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

تعلم وعلّم، تقرب وقرّب، استبن وبيّن، فالمؤمن له نشاط، وهذا المؤمن الذي يبتعد عن الله، يبتعد عن شيء أساسي في حياة كل مؤمن.

((بلّغوا عني ولو آية))

التجارة الرابحة هي التجارة مع الله عز وجل :

النقطة الدقيقة جداً هذا الذي دعوته إلى الله، إذا استجاب لك، والتزم الأمر والنهي، وتألق إلى الله، أعماله كلها في صحيفتك، من دعوتهم إلى الله أعمالهم كلها في صحيفتك أيها الأخ الداعية الأول، إلى يوم القيامة، التجارة مع الله مربحة كثيراً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الصف]

الله سمّى العمل الصالح تجارة مع الله، أنت بالتجارة العادية تربح بالمئة عشرة، فكيف مع الله تربح بالمئة مليار؟ هذه تجارة رابحة.

الدعوة إلى الله فرض عين و فرض كفاية :

إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ)

أريد أن أؤكد بالمفهوم التقليدي أن فقط الخطباء دعاة، العلماء دعاة، الذين يظهرون على الشاشات دعاة، الذين لهم مظهر ديني صارخ دعاة، لا، أي مؤمن على الإطلاق ينبغي أن يكون داعية، والدليل ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

ربع النجاة، أحد أركان النجاة، والدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

لن تكون متبعاً لهذا النبي الكريم إلا إذا كنت متبعاً الله عز وجل.

((بلِّغُوا عني ولو آية))

أقول لكم بشكل دقيق: الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم فقط، ومع من تعرف، أما الدعوة إلى الله فمع التبحر، والتعمق، والتوسع، والقدرة على الإجابة عن أي سؤال، عن أي شبهة، هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية 104]

منكم، من للتبعيض، إذاً:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أخوتنا الكرام، ألم تقرؤوا قول الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذه الخيرية التي وصفها الله تعالى أمة النبي ما علتها؟ الخيرية،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

هذه الخيرية ما علتها؟ قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف يوسع دوائر الحق، والنهي عن المنكر يوسع دوائر الحق، فإذا توسعت دوائر الحق ضاقت دوائر الباطل، فلذلك الدعوة إلى الله فرض كفاية، تحتاج إلى تفرغ، وإلى تبحر، وإلى تعمق، أما الدعوة إلى الله كفرض عين، ففي حدود ما تعلم ومع من تعرف، وكأن الله سبحانه وتعالى حدثنا في هذه السورة سورة التوبة عن ضرورة الجهاد في سبيل الله، وعن ضرورة الدعوة إلى الله.

إذاً:

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله فيجب على الإنسان أن يكون قوياً :

أيها الأخوة، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة]

الحقيقة الإسلام فضلاً عن أنه وحي السماء، ومنهج الله في الأرض، لكن يحتاج إلى قوة، عند الآخرين القوة هي الحق، وهذا خطأ كبير، وهذا خطأ فاحش، الحق ما جاء به وحي السماء، ولكن يحتاج إلى قوة، أن تقول: القوي على حق، في الغرب هكذا يعتقدون، ما دمت قوياً فأنت على حق، ولو كنت ظالماً، ولو أخذت ما ليس لك، ولو احتللت أرضاً ليست لك، ما دمت قوياً فأنت على حق، لكن الحق ما جاء به وحي السماء والحق يحتاج إلى قوة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أقول لكم: إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لماذا؟ أولاً لأن النبي قال:

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

أما الشيء الثاني فالقوي خياراته في العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، فالذي يحتل منصباً رفيعاً بجرة قلم يحق حقاً، ويبطل باطلاً، والذي يملك مالاً وفيراً، بهذا المال يرعى الفقراء، يزوج الشباب، ينشئ

الجمعيات الخيرية، يرعى الأرامل، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، حينما تعلم علم اليقين أن علة وجودك في الدنيا هي العمل الصالح، تأتي القوة ومنها قوة المال، وتأتي القوة ومنها قوة المنصب، وتأتي القوة ومنها قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لترفع العمل الصالح إلى أعلى مستوى.

من اختار طريق الله رفع الله له ذكره :

إذاً الذي ينبغي أن يكون واضحاً أن الإيمان وحي السماء، والله عز وجل أعطانا الخيار، قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

هذه الحقيقة أيها الأخوة، أن الإنسان مع أن الله عز وجل أعطاه الخيار، لكنه إذا اختار طريق الحق رفع الله ذكره، بل ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

قال بعض العلماء: كل الصفات التي أثنى الله بها على نبيه الكريم لكل مؤمن منها نصيب، بقدر إيمانه، واستقامته، وإخلاصه.

إذاً الحق مع أنه من عند الله، لكنه يحتاج إلى قوة، فإذا كان طريق الحق سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً لأن خيارات العمل الصالح المتاحة أمام القوي ليست متاحة أمام الضعيف، فالغني بماله، والقوي بسلطته، والثري بثرائه.

عبادة الهوية :

لذلك النقطة الدقيقة هنا أن العبادة كُلف بها كل البشر، لكن هناك ما يسمى بعبادة الهوية، أنت من؟ أنت غني؛ العبادة الأولى في إنفاق المال، أنت من؟ أنت قوي؛ العبادة الأولى في إحقاق الحق، أنت عالم؟ العبادة الأولى في إلقاء العلم، والدليل:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: 39]

هذا الذي يدعو إلى الله، لو خشي غير الله، فسكت عن الحق خوفاً، أو نطق بالباطل نفاقاً، انتهت دعوته، الآية دقيقة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

لو أن هذا الذي خشي غير الله، سكت عن الحق خوفاً من القوي، أو نطق بالباطل نفاقاً له، انتهت دعوته، كما أن الإنسان يرقى إذا أنفق ماله، هذه عبادة الغني الأولى، ويرقى إذا أنصف الضعيف، هذه عبادة القوي الأولى، الآن ويرقى بعلمه إذا أنفقه، نطق به، ولم يخشَ في الله لومة لائم، هذا الذي يقوله الله عز وجل دائماً:

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

مرة ثانية: لو خشي غير الله، فسكت عن الحق خوفاً، أو تكلم بالباطل طمعاً، انتهت دعوته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

طبعاً مرة ثانية:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أما إذا منعك القوي أن تنقل هذا للآخرين تقاتله، أنت لا تقاتل الإنسان ليؤمن، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكنك تقاتل من يمنعك أن تنشر هذا الدين، وهذه مشروعية الجهاد في الإسلام، تقاتل من يمنع هذه الرسالة أن تصل للآخرين.

الإسلام لا ينتشر بالإكراه ينتشر بالاختيار :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)

لماذا يلونكم؟ الآية الكريمة: الله عز وجل أمرنا أن نقاتل المشركين كافة، لكن هنا الذي يليك أقرب إليك من البعيد، والذي يليك تخف مؤن الحرب معه، جارك، والذي يليك ربما إذا انضم إليك أصبحت قوة كبيرة.

مرة ثانية: الإسلام لا ينتشر بالإكراه، ينتشر بالاختيار، والإنسان مخير وليس مسيراً

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لكن الذي يمنعك أن توصل رسالة الله إلى البشر هذا الذي يقاتل في الإسلام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

بعضهم قال: لأن قتال هؤلاء القريبين أقل كلفة، وأنت مستوعبهم أكثر من غيرهم، وهذا هو الطريق لمواجهة العدو الأبعد، هذا سر

(الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

اختلاف أخلاق المؤمن في السلم عن أخلاقه في الحرب :

لكن الذي يلفت النظر:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

تقرأ أنت القرآن:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت]

إنسان يعاديك، يتطاول عليك، وأنت تحتمله، وتسمح له أن يتحرك معك، ما هذه الأخلاق؟! هذه أخلاق السلم، فأنت في الحياة المدنية،

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

في الأحوال العادية، في أيام السلم، المودة، والمحبة، والعفو، والتسامح، هذه أخلاق الإنسان المؤمن، لكن في الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: 73]

الغلظة في الحرب مطلوبة، وإلا لا معنى للحرب إطلاقاً، فهنا الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

الغلظة قوة التحمل، والغلظة القسوة في محاربتهم.

دائماً وأبداً كان سيدنا عمر كما يقال، تروي عنه السيدة عائشة: "كان إذا قال أسمع -جهوري الصوت- وإذا سار أسرع، وإذا ضرب أوجع".

فهنا:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

قوة التحمل، إن حاربوكم فيجب أن تحتملوا قسوتهم وإن حاربتموهم كونوا قساةً معهم.

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

طبعاً هذه أخلاق الحرب، وفي السلم هناك أخلاق.

الله مع المؤمنين بالحفظ و التأييد و النصر و التوفيق :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

الله عز وجل حينما يقول:

(مَعَ الْمُتَّقِينَ)

أي معهم مؤيداً، معهم ناصراً، معهم موفقاً، معهم حافظاً، والمعية دائماً لها معنى دقيق في القرآن، إذا قال الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: 4]

هذه معية عامة، قال علماء التفسير: هو معكم بعلمه، لكن حينما يقول الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال]

أي معهم بالتوفيق، معهم بالحفظ، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـا　　فـــإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولـــذ بحمانا واحتم بجنابنا　　لـــنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل　　وأخلص لنا تلقى المسرة والـهنا

*** * ***

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي　　رأوه لما وليت عنا لغيرنــــا
ولـو سمعت أذناك حسن خطابنـا　　خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا
ولــو ذقت من طعم المحبة ذرة　　عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

*** * ***

ولــو نسمت من قربنا لك نسمة　　لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا
فـــما حبنا سهل وكل ادعى　　سهولـــته قلنا له قد جهلتنا
فأيسر ما في الحب بالصد قتلــه　　وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

*** * ***

إذاً أيها الأخوة، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

هم أقرب إليكم فإذا اهتديتم أصبحتم قوة أقوى.

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

هذه أخلاق ليست ثابتة في المؤمن طارئة، هو في الحرب له موقف، وفي السلم له موقف، من أبرز آيات السلم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

هذه أخلاق السلم، أما في الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

هنا:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

أي قوة تحمل، وحينما تهجمون عليهم لابد من قوة رادعة، إذاً: هناك أخلاق الحرب، وأخلاق السلم.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ كلمة مع المتقين معهم مؤيداً، معهم ناصراً، معهم موفقاً، معهم مكرماً.

الدين لا يحتمل الإضافة أو الحذف :

أيها الأخوة، الذي وقع في عالم الإسلام نحن حينما أضفنا على الدين ما ليس منه ظهرت الفرق، والطوائف، وتشتتت الأمة، هذا الإسلام ينبغي أن نأخذه كله كما أُنزل، وكما قال النبي:

((كلَّ مُحدثةٍ بِدْعة، وكل بِدْعَةٍ ضَلالَة))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية]

أنا أقول- وهذا اجتهاد شخصي- : إنك إذا أضفت على الإسلام ما ليس منه تشرذمنا، وتفرقنا، وتشتتنا، وأصبحنا فرقاً وطوائف، أما إذا حذفت منه ما عرف منه للضرورة فضعفنا، نضيف نتفرق، تحذف نضعف، فالذي يفسر ضعف المسلمين أننا أضفنا على الدين ما ليس منه هذا الدين لا يحتمل الإضافة، لأنه من عند الله عز وجل، كماله مطلق.

القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً كاملة نوعاً :

والله عز وجل قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: 59]

من هم أولي الأمر؟ كما قال الإمام الشافعي: هم الأمراء والعلماء، العلماء يعرفون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر،

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

الآن:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة النساء الآية: 59]

لو اختلفتم مع علمائكم، أو مع أمرائكم، ما الحل؟ قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: 59]

كأن الله عز وجل حوّلك أو أحالك على الكتاب والسنة، هل تصدق أو هل يعقل أن يحيلك الله لحل كل المشكلات إلى يوم الدين على الكتاب والسنة ثم لا تجد في الكتاب والسنة حلاً لهذه المشكلة؟ مستحيل.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

[سورة المائدة الآية: 3]

قال العلماء: الإتمام عددي والكمال نوعي، أي عدد القضايا التي عالجها الإسلام تام عدداً، وطريقة المعالجة كاملة نوعاً،

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

فالإكمال نوعي، والإتمام عددي، أي عدد القضايا التي عالجها الإسلام تام عدداً، الآن طريقة المعالجة كاملة نوعاً، للتوضيح: أنا أقرضت إنساناً عشر ليرات ذهبية، ردها لي بالتمام والكمال، بالتمام عشرة، بالكمال جيدة، ليرة ذهبية جيدة، أي حروفها واضحة تماماً، ردها لي بالتمام والكمال.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

فعدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، طريقة المعالجة كاملة نوعاً.

حاجة الإسلام إلى العلم و القوة :

إذاً الآية الأولى: دعوة المؤمنين للتفقه في الدين، ثم لنشر هذا الدين، إذاً أعظم عمل على الإطلاق الدعوة إلى الله.

الآن: والقوة، نحن بحاجة إلى علم، وإلى قوة، بالعلم نرقى، وبالقوة نقدم مثلاً يُحترم.

مرة أحد ملوك الغساسنة، اسمه جبلة بن الأيهم، جاء المدينة مسلماً، في عهد سيدنا عمر، هذا ملك، فلما جاء مسلماً رحب به أشد الترحيب، هذا الملك جبلة في أثناء طوافه حول الكعبة بدوي من فزارة داس طرف ردائه، فانخلع الرداء من على كتفه، ولأنه حديث عهد بالملك التفت إلى هذا الأعرابي وضربه ضربة هشمت أنفه، هذا الأعرابي ذهب إلى عمر يشكوه، سيدنا عمر استدعى جبلة، تصور أحد

المتخاصمين ملك، اسمه جبلة بن الأيهم، وخصمه أعرابي من الطبقة الدنيا في المجتمع، الآن يقال: من رعاع الناس، من دهماء الناس وسوقتهم، فجاء شاعر صاغ هذا شعراً.

فقال عمر: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ فقال جبلة: لست ممن ينكر شيا أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي، فقال عمر لجبلة: أرض الفتى لابد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك، قال: كيف ذاك يا أمير! ــصُعق- هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، قال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، فقال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إن أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى، هذا هو الإسلام، فيه تساو.

إذاً الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

الإسلام لا ينتشر بالسيف حقيقة مطلقة، لكن الذي يمنعك أن تنشره يجب أن تحاربه فقط، فإذا سمح لك انتهى الأمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)

لأن قتالهم أقل كلفة، وأنت أعلم بهم من غيرهم، وإذا آمنوا معك توسعت حدود المملكة الإسلامية، وبعد ذلك يأتي بالذي يأتي بعد الأولين.

الغلظة في الحرب :

ولكن:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)

الغلظة يعني أن تكون شديداً، الغلظة في الحرب أحد أسبابها، وأنا أقول بعض الأمثلة: إذا كنت في مسبح، إنسان قال للثاني: رشه، ما معنى رشه؟ أي بالماء، أما إذا كنت في ساحة معركة والضابط قال للجندي: رشه، ما معنى رشه؟ بالرصاص.

البيئة تختلف، هنا بيئة حرب، هنا بيئة استجمام، فأخلاق الحرب غير أخلاق السلم، فأخلاق السلم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

أما أخلاق الحرب:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

الحق واحد لا يتعدد :

لذلك:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة]

أخواننا الكرام، مقولة دقيقة: الحرب بين حقين لا تكون، لماذا؟ لأن الحق لا يتعدد، الحق واحد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، الحرب بين حقين لا تكون، الآن الحرب بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، الثالثة: وبين باطلين لا تنتهي، فالآية أخيراً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)

الصبر طريق النصر :

(وَصَابِرُوا)

[سورة آل عمران الآية: 200]

أيضاً إذا كان عدوك صابراً كن أنت أشد صبراً منه.

(وَرَابِطُوا)

[سورة آل عمران الآية: 200]

ابقَ في مكانك متحفزاً لأي عدوان آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟.

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات في سورة التوبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (69-70) : تفسير الآيات 124 - 127، التعميم من العمى، الفتنة امتحان للإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-09-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تفاوت موقف الناس من آيات الله عز وجل :

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع و الستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الرابعة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، السورة من معانيها أن عدداً من آيات القرآن الكريم مسورة بسور خاص، يجعل لهذه الآيات موضوعاً واحداً، أو محوراً واحداً ينتظمها، إذاً السور جمعت الآيات توقيفاً، فكانت كل مجموعة من الآيات سورة، أي تحوم حول محور واحد، فقال تعالى:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ)

الآن هذه السورة أُنزلت، وهذه الآيات تُليت، لكن موقف الآخرين من هذه الآيات متفاوت، الله عز وجل حينما ذكر أهل النفاق والفجور قال:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء]

أما إذا قرؤوا آيات القرآن ازدادوا إيماناً، فالمؤثر واحد، بينما النتائج متباينة، بسبب استعداد الإنسان لقبول هذه الآيات، هذا الاستعداد يكون لتفريغ القلب من الشهوات، لأن:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان إذا امتلأ قلبه بالشهوات إذاً هو بعيد عن رب الأرض والسموات، بعيد عن منهج الله، بعيد عن فهم كلام الله، أحد أسباب فهم كلام الله أن يكون الإنسان طاهراً من كل عيب، مبرأ من كل نقص، لذلك أهل الإيمان يزدادون إيماناً بتلاوة القرآن، بينما أهل الكفر والعصيان يعدون القرآن عاماً عليهم، بل لا يزيدهم إلا ظلاماً، أو إلا ضلالاً.

تطابق فطرة الإنسان مع منهج الله عز وجل :

إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

الله عز وجل بين الفاعلية في الآيات والانفعال في الآيات، للتقريب: أنت حينما تقول: كسرت هذا الشيء فانكسر، أي هذا الشيء قابل للكسر، فالله عز وجل أودع في كل إنسان قابلية للإيمان، والدليل أن فطرة الإنسان متوافقة تماماً مع منهج الله، الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: 30]

كل أمر أمرك الله به، أنت مبرمج، مولف، على قبوله، وعلى أن تسعد به، فلذلك تطابق الفطرة مع المنهج تطابق تام قطعاً، ما من أمر أمرك الله به إلا إذا طبقته تسعد به، وما من نهي نهاك الله عنه إلا إذا ابتعدت عنه تسعد بالبعد عنه.

من خرج عن منهج الله خرج عن فطرته أيضاً :

تطابق الفطرة مع المنهج تطابق تام لماذا؟ والله أعلم لأن الحق دائرة، تتقاطع في هذه الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، أنا ذكرت النقل الصحيح أي أنني وصفته بأنه صحيح لماذا؟ لأن هناك نقل غير صحيح، حديث موضوع، أو تأويل مغلوط، لآية قرآنية، إما الخطأ في أصل النص، أو الخطأ في فهمه.

فلذلك الحق دائرة، تتقاطع فيها الدائرة أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، هناك عقل صريح، وهناك عقل تبريري، فالإنسان أحياناً كي يدافع عن خطئه، وكي يدافع عن انحرافه، وعن سقوطه، يفتعل أعذاراً غير صحيحة، تبريرات غير صحيحة، فالعقل إما أن يقودك وإما أن تقوده، فإذا قادكَ قادك إلى الخير، في القرآن الكريم ما يزيد عن ألف آية تتحدث عن العقل.

فالحق دائرة، تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، هناك نقل غير صحيح، هناك حديث موضوع، أو هناك تأويل لآية قرآنية، التأويل غير صحيح، فالنقل الصحيح أحد أركان الحق، والعقل الصريح، هناك عقل صريح موضوعي وعقل تبريري، فأهل الانحراف والفجور والفسوق يستخدمون عقلاً تبريرياً ليغطوا انحرافهم.

حينما تأتي دولة عظمى إلى بلد في الشرق الأوسط، وتقول: جئنا من أجل التنمية، من أجل أن نطور هذا البلد إلى وضع حضاري، الحقيقة جاؤوا من أجل النفط، فهذا عقل تبريري، عندنا عقل صريح،

فالحق دائرة، تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، الإنسان فطر فطرة سليمة تطابق منهج الله مئة في المئة، لذلك أحد أسباب الراحة النفسية التي لا حدود لها حينما يصطلح الإنسان مع الله عز وجل، أي حركته في الحياة تطابقت مع فطرته، فكان هناك انسجاماً بين فطرته، وبين حركته في الحياة، أما الذي يخالف فطرته، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني حياته على موتهم، يبني عزه على ذلهم، يبني أمنه على خوفهم، فهذا الذي خرج عن منهج الله هو خارج أيضاً عن فطرته.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

من رفض الحق احتقر نفسه :

أهم شيء في هذا الموضوع تطابق الفطرة أو تطابق النفس بخصائصها مع منهج الله عز وجل، تماماً لو أن مركبة حديثة جداً في أعلى مستوى سرنا بها على طريق وعر، صخور، وأكمات، وحفر، تستمع إلى أصوات مزعجة، والحركة متعثرة، وقد ينكسر بها بعض الأشياء، أما لو نقلتها إلى طريق معبد، تحركت بانسياب عجيب، وبراحة عجيبة، فنقول: هذه السيارة مصممة لهذا الطريق.

والإنسان مصمم ليعرف الله، خُلق ليعرفه، قالوا: الجماد للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هو لله، فالإنسان الذي لا يكون لله يحتقر نفسه، والإنسان أحياناً يرفض أشياء كثيرة، هذا الرفض يعني أن هذا الشيء عنده محتقر، إلا أن هناك حالة فريدة إذا رفضت الحق فأنت تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة القرة الآية: 130]

لأن الله خلقك لتعرفه، خلقك له، فإذا عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، إذا عرفت أنك مخلوق لجنة عرضها السموات والأرض، عندئذٍ تسعد، وعندئذٍ يفرح الله بك.

البشر عند الله فريقان لا ثالث لهما :

أيها الأخوة الكرام، الأرض فيها تقسيمات، وفيها موازين لا تعد ولا تحصى، لكن البشر جميعاً عند الله فريقان، فريق عرف الله، وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وفريق غفل عن الله، وغفل عن منهجه، وشيء طبيعي جداً أن يتفلت من هذا المنهج، وأساء إلى خلقه فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، والدليل قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

صدق أنه مخلوق للجنة، واتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب أنه مخلوق للجنة، بل آمن أنه مخلوق للدنيا فقط، لذلك استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ.

لذلك اسأل نفسك السؤال المحرج: ما الذي يسعدك أن تعطي أم أن تأخذ؟ إن كان يسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، وإن كان يسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة.

لذلك هذا النبي الكريم أحد الأخوة الكرام ألف كتاباً عن سيرته، وقدّمه تقديماً رائعاً، قدّمه للنبي الكريم، قال له: "يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل، ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك".

الإنسان إما أن يكون وعاؤه فارغاً من حب الدنيا أو ممتلئاً بها :

إذاً حينما تتنزل سورة وفيها آيات، يقرؤها إنسان فيزداد إيماناً، يقرؤها إنسان فيزداد قرباً، يقرؤها إنسان فيزداد خشوعاً، يقرؤها إنسان فيزداد طاعة لله، يقرؤها إنسان آخر فيزداد بعداً، لذلك الإنسان إما أن يكون وعاؤه فارغاً من حب الدنيا، إذاً هو مهيئاً لاستقبال الحق، أما إذا كان غارقاً في حب الدنيا ولا يعنيه أكان ماله حلالاً أم حراماً، فهذا الوعاء ممتلئ فلذلك:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

[سورة الأحزاب الآية:4]

إما أن يمتلئ القلب من وحي السماء، أو يمتلئ حباً للدنيا، وقد قيل:

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

لذلك:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

فيها آيات،

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ)

طبعاً سراً:

(أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

الآية آية، يسمعها المؤمن فيتألق، يسمعها المؤمن فيستجيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:24]

تعلق العقل بالشموليات و الذكاء بالجزئيات :

والحقيقة أرقى هدى على الإطلاق الهدى البياني، وأنت صحيح قوي، معافى، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، لا تشكو من شيء، لك دخل يغطي نفقاتك، إذا دعاك الله إليه، دعاك إلى طاعته، دعاك إلى عمل صالح، دعاك إلى بذل من مالك، إذا دعاك الله فاستجبت، فهذه أعلى درجة في التوفيق، وفي الذكاء، وفي العقل.

أقول لكم دائماً: ما كل ذكي بعاقل، قد تحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، ولا تكون عاقلاً، العقل متعلق بالشموليات، أما الذكاء فمتعلق بالجزيئات، فأنت حينما تعرف الله تعد عاقلاً، أنت حينما تطيعه تعد عاقلاً، أما حينما تغفل عن الله، ولو أنك تحمل أعلى شهادة في الأرض، فهذه الشهادة تنفعك في الدنيا فقط، أما إذا جاء ملك الموت فتقول:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون]

الموضوعية قيمة علمية و أخلاقية :

إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

دقق في:

(فَمِنْهُمْ)

أنا أقول دائماً: الموضوعية هي الأحكام الدقيقة، الموضوعية قيمة علمية، والموضوعية قيمة أخلاقية، أنت إذا كنت موضوعياً فأنت عالم، وأنت إذا كنت موضوعياً فأنت أخلاقي، لذلك أكثر آيات القرآن يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة آل عمران الآية:199]

بعضهم، لذلك مرة كنت في جامعة، أحضر مناقشة دكتوراه، يبدو أن الطالب في أثناء شرحه لملخص أطروحته، جاء بعبارة فيها تعميم، قاطعه المشرف، وقال له: اعلم علم اليقين أن التعميم من العمى، لا يعمم إلا أعمى، أما الإنسان العالم فموضوعي.

الإنسان حينما يتعرف إلى الله يزداد إيماناً وقرباً ومحبة وخشوعاً :

دقق في:

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

وإن منهم.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[سورة التوبة]

ما قال هم،

(فَمِنْهُمْ)

بعضهم، عود نفسك ألا تعمم، والتعميم من العمى، والتعميم دليل جهل، والتعميم دليل سطحية، دائماً أعطِ الحكم الموضوعي، النبي عليه الصلاة والسلام حينما استعرض الأسرى في بدر، فوجئ بصهره، زوج ابنته مع الأسرى، كان هذا الزوج صالحاً فقال عليه الصلاة والسلام لما وصل إليه: " ما ذممناه صهراً ".

هذه موضوعية، هو مشرك، جاء ليحارب النبي، هذا شيء صحيح، أما له ميزة: " ما ذممناه صهراً ".

لذلك ألّف كتاب فيما قرأت عنه أن أول طبعة خمسة ملايين نسخة، كيف تؤثر في الآخرين؟ جاء عالم من كبار علماء مصر، وأفرغ هذه القواعد على آيات القرآن الكريم، مثلاً: أنت مدير دائرة، صاحب مؤسسة، لك منصب قيادي، عندك موظف يتأخر، هذا خطأ، أما إذا أردت أن تحاسبه فينبغي أن تبدأ بايجابياته، بأمانته، بولائه، بخبرته، ثم حاسبه على تأخره، هذا منهج، قبل أن تنتقل بيّن الإيجابيات.

أذكر أن في السيرة أحد المسلمين دخل إلى المسجد والنبي يصلي في أصحابه، من حرصه على أن يدرك الركعة الأولى، أسرع في حركته، أحدث ضجيجاً، وجلبة، فلما انتهى من الصلاة قال له النبي الكريم:

((زادَكَ الله حرْصاً، ولا تعُدْ))

[أخرجه البخاري عن أبي بكرة]

فبين أن الإنسان إذا كان مدير مؤسسة، مدير معمل، إذا كان وزيراً يحتل منصباً قيادياً، عنده موظفون، لو أن أحدهم أخطأ ينبغي أن تبين له أولاً إيجابياته، الأشياء الإيجابية في حياته ثم تأتي بلفت نظره لهذا الخطأ، عندئذٍ يقبل هذا.

فلذلك الإنسان حينما يتعرف إلى الله، وحينما يقرأ القرآن يزداد إيماناً، يزداد قرباً، يزداد محبة، يزداد خشوعاً، يزداد طاعة.

فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

من يقول منهم، الدقة منهم أي ليسوا جميعاً، بعضهم

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

هذا الكلام يقال فيما بين المنافقين، ما هذا الكلام لا معنى له؟ إذاً هذا الكلام كلام خالق الأكوان. بالمناسبة قالوا: فضل كلام الخالق على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، المسافة بين كلام خالق الأكوان وبين كلام إنسان كما هي المسافة بين الخالق والمخلوق.

فلذلك قيل: إن القرآن كون ناطق، وإن الكون قرآن صامت، وإن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، والمسلمين اليوم بحاجة إلى مسلم يمشي أمامهم، صادق، أمين، يفي بالعهد، ينجز الوعد، هذه العبادة التعاملية.

العبادة الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

بالمناسبة العبادة الشعائرية كالصلاة والصيام والحج والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية، لذلك النبي الكريم:

((سأل مرة أصحابه من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: لا، المفلس من أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ طرحوا عليه سيئاتهم حتى يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ :

أمَا إنَّهُمْ إخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[سنن ابن ماجه عن ثوبان]

هذه الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعمَلَ بِهِ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

الحج:

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك، قال الله له : لا لبيك ولا سعديك حجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

فالعبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لما النجاشي سأل سيدنا جعفر: حدثني عن الإسلام؟ قال له:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

إن حدث فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

((فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

هذه هي العبادات التعاملية، والعبادة الشعائرية كالصلاة والصوم والحج والزكاة لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، لذلك الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، لأنه ما فرّغ قلبه من حب الدنيا، لأن الشهوات أعمته وأصمته، لأن انغماسه بالشهوات جعله لا يعي على خير.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ)

من هؤلاء المنافقين، من يقول سراً:

(أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)

كلام عادي، لأن قلبه مفعم بالشهوات، هذه الشهوات حجاب عن رب الأرض والسموات.

المسلم على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبله :

(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

لأنهم على صواب، لذلك من أدق الآيات التي ينبغي أن ننتبه إليها قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية:5]

ما معنى الآية؟ أنت أيها المسلم حينما تخطئ، وحينما يكتشف هذا الخطأ إنسان كافر، يزداد قناعة بكفره، انظر إلى الإسلام كيف هو؟ أنت عندما تسيء لمسلم قد يقول: انظر إلى فلان ماذا فعل معي، المسلم إذا أسأت إليه يقول: فلان فعل معي كذا وكذا، فلان، أما إذا أسأت إلى غير المسلم يقول: الإسلام هكذا، لذلك أنت على ثغرة من ثغر هذا الدين فلا يؤتين من قبلك.

الإنسان سفير هذا الدين، فأي خطأ بالسفير ينسحب على دولته، هذا شيء معروف، أي خطأ بالسفير، لذلك هناك في بعض البلاد للسفراء معاهد عالية يتعلم لغتين أجنبيتين، هو من أسرة راقية، ومعه شهادة علمية، وشهادة أدبية، وشهادة دبلوماسية، معه ثلاث شهادات، ومن أرقى الأسر، وطليق اللسان، وله وسامة، وأنيق، هذا يمثل دولة، أما إذا كان هناك خطأ من سفير هذا الخطأ فينسحب على دولته، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

إذاً :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هنا الشاهد:

(فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

أمراض الجسم تنتهي عند الموت لكن أمراض النفس تبدأ آلامها بعد الموت :

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

[سورة التوبة]

أخواننا الكرام، هناك أمراض كثيرة، هناك أمراض ضالة، الورم الخبيث ينتهي بالموت، هناك أمراض كبيرة جداً، وخطيرة جداً، ومن أدعية النبي الكريم: " اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء".

لكن هذه الأمراض مهما تكن عضالة تنتهي عند الموت، ورم خبيث مات صاحبه انتهى المرض، هناك أمراض خطيرة جداً، خثرة بالدماغ، مات، انتهى المرض، أمراض الجسم تنتهي عند الموت، لكن أمراض النفس يبدأ مفعولها بعد الموت، أمراض النفس تبدأ آلامها بعد الموت، فالبطولة أن تكون في الدنيا حريصاً على سلامة نفسك.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

إنسان مؤمن له أخطاء في الدنيا الله عز وجل يسوق له بعض الشدائد كي يطهر من هذه الأمراض، فهو الرابح الأكبر، من هنا يقول سيدنا علي: "يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أجسامهم مفقودة، وأعيانهم موجودة ".

علمهم موجود، الإمام الشافعي من سنوات كثيرة توفاه الله، علمه بيننا، فالإنسان بالعلم يمتد أثره. إذاً:

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)

أي لم ينتفعوا بها، لم يفهموا شيئاً، لأن الشهوات ملأت قلوبهم، وعاء فيه هواء، وأنت تريد أن تصب فيه الماء، لابد من فقاعات تخرج منه، لابد من إخراج الهواء حتى يدخل الماء، لا يوجد إنسان عنده وعاءين،

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

فإذا أفرغت قلبك من حب الدنيا يأتي الحب، إذا كنت مقيماً على شهواتك، مقيماً على معاصيك أنى لك أن تؤمن.

الإيمان تصديق وتوجه إلى الله :

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

هنا يوجد موضوع دقيقة، يا ترى إيمان الإنسان يزيد وينقص؟ هناك جواب نعم، وهناك جواب لا، الذين قالوا: لا، ما حجتهم؟.

أنت أيقنت أن هذا الضوء متألق، انتهى، متألق، لا يزيد ولا ينقص، حقيقة رأيتها، أدركتها، لكن الإيمان تصديق وإقبال، التصديق ثابت، الله خالق السموات والأرض، لا يتغير فكرة واحدة، رب العالمين، إله العالمين، التصديق حدي لا يزيد ولا ينقص.

لو قلت لك: هذه الطاولة طولها متر ونصف، انتهى الكلام، كلام قطعي، وحدي، لا يحتاج إلى تفسير، ولا تعليل، ولا تدقيق، ولا شيء.

الإيمان كفكر، كمسلمات، كإيمان بالله خالقاً، الإيمان بالله مربياً، الإيمان بالله مسيراً، الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والإيمان تصديق وتوجه إلى الله، التصديق لا يزيد ولا ينقص، أما التوجه فيزيد ولا ينقص، فحينما تقبل على الله تزداد إيماناً، أنت إذا أقبلت على الله وصلت إلى الرحيم، فازددت رحمة، إلى العليم، إلى الحكيم، إلى اللطيف، إلى الرؤوف، فأنت إذا أقبلت على الله ازددت حباً، فالإيمان إذا قلت: لا يزيد ولا ينقص على أنه معلومات محددة جداً، الله خالق السموات والأرض، وإذا قلت: الإيمان يزيد وينقص الإيمان فضلاً عن أنه فكر معين، تصور معين، إدراك معين، هو صلة بالله، إقبال على الله، بشكل أو بآخر، الإيمان تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض، فالإيمان بمعنى أنه تصديق لا يزيد ولا ينقص، بمعنى أنه إقبال يزيد وينقص.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

حب الدنيا مرض، أمراض الجسم تنتهي عند الموت، أما أمراض النفس فتبدأ بعد الموت.

الحديث عن الله عز وجل يسعد والحديث عن الدنيا لا يسعد :

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً)

الرجس الشيء القذر، وفي الأصل قذر، ويزداد قذارة.

(إِلَى رِجْسِهِمْ)

مثلاً: اجلس في مجلس وليكن الحديث عن الله عز وجل، تشعر بسعادة كبيرة، بتعابير معاصرة: بالسكينة، اجلس مع أهل الدنيا، والحديث عن المال، والنساء، وما إلى ذلك، وأنت ما عندك كما عندهم، تزداد ألماً، فالحديث عن الله عز وجل يسعد، والحديث عن الدنيا لا يسعد، ثم يقول الله عز وجل:

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

[سورة التوبة]

إيمانه ضعيف، الدنيا تفتنه، الدنيا تصرفه عن الله عز وجل، والحياة الآن فيها صوارف كثيرة، وفيها عقبات كثيرة، فالمؤمن يتجاوز هذه الصوارف، ويتخطى هذه العقبات، أما بلا إيمان قوي؟ بلا معرفة بالله؟ بلا اتصال به؟ بلا إقبال عليه؟ فهناك صوارف لا تعد ولا تحصى تصرفه عن الدين، وهناك عقبات تقف أمام طريقه.

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ)

هو في الأساس نجس، ويزداد نجاسة.

الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان و يكشف نواياه :

(وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

يفتن أحياناً بامرأة، يفتن بمبلغ كبير، من طريق مشبوه، يقول لك: أنا لا آكل مالاً حراماً، ويعبر عن اشمئزازه، لا تأكل مالاً حراماً إذا كان المبلغ ألف ليرة، أما إذا كان مليوناً فتفكر فيها، يقول: أنا عندي أولاد، الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان، تكلم عن نفسك ما شئت لكن الله قادر أن يضعك في موقف دقيق جداً تكشف نواياك، لذلك:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة الآية: 5]

إذا الإنسان كان بعيداً عن الدين ورأى مسلماً يقع في خطأ كبير، هذا المسلم يقنع هذا البعيد عن الدين بكفره، أنا لا أعمل هكذا، أما عندما يكون المسلم مستقيماً فيقيم الحجة على الآخرين.

بطولة الإنسان أن ينجح بالامتحانات التي تعرض عليه :

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ)

طبعاً الإنسان أحياناً يفتن بالمرأة، يفتن بالمال، يفتن بالجاه، معنى يفتن أي امتحن ولم ينجح، وقد ينجح، يفتن بالمرأة ويقول:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف الآية: 23]

سيدنا يوسف فُتن بالمرأة، امرأة العزيز جميلة جداً، وهو شاب، وغريب، ومسافر، لكنه قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ)

فتن فنجح، هناك إنسان يفتن فيرسب، فالبطولة أن تنجح بالامتحان، والله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك]

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون]

والإمام الشافعي سُئل: ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

المؤمن يمر بمراحل، مرحلة التأديب إذا كان هناك أخطاء، مرحلة الامتحان إذا لم يكن هناك أخطاء، مرحلة التمكين، هذه المراحل الثلاث إما أن تتداخل، أو أن تتمايز، مرحلة تأديب، مرحلة امتحان، مرحلة إكرام، أو أنه باليوم الواحد موقف فيه تأديب، موقف فيه امتحان، موقف فيه تمكين:

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

من انصرف عن الله صرف الله قلبه عن معرفته :

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

[سورة التوبة]

يتداولون حديثاً فيما بينهم، يطعن بهذا الذي أُنزل عليهم.

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

إذا انصرف الإنسان عن الله صرف الله قلبه عن معرفته، الله عز وجل أعطانا الخيار.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام]

أيها الأخوة الكرام،

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ)

تداولوا أنهم لم يقبلوا بهذا القرآن، ولم يعبؤوا به، ولم يروا فيه شيئاً ذا بال، فلذلك:

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التوبة 009 - الدرس (70-70) : تفسير الآيات 128 - 129، اختار الله الأنبياء من صفوة البشر، وعلى الإنسان أن يؤدي الذي عليه ويترك لله الذي له.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-09-2011

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي بشر خصائصه كخصائصنا لكنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السبعين والأخير من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة وما بعدها، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والتي بعدها:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

أيها الأخوة، هناك حقائق لابد من أن أبدأ بها، كي تلقي ضوءاً على هذه الآيات.

أولاً: لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، إنه يخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، لولا أنه بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته، لما كان سيد البشر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

[سورة الكهف الآية: 110]

لأنه بهذه الطريقة تقوم الحجة علينا، النبي عليه الصلاة والسلام بشر خصائصه كخصائصنا، أحواله كأحوالنا، لكنه انتصر على بشريته وسما إلى ربه فكان سيد البشر، في بعض الأحاديث:

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

أثناء القطيعة، فلولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر.

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

حرص النبي على هداية البشر :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

هناك ملمح دقيق في قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ)

أي هو حريص على هداية الخلق:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[سورة الشرح]

حينما جاءتك الرسالة، ورأيت أن معك منهج الله، ولعلك بهذا المنهج تنقل الناس من الظلمات إلى النور، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، إذاً هو سيد البشر.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

هو بشر، وفضلاً عن ذلك هو من هذه الأمة، وفضلاً عن ذلك هو من قريش، تعرفون أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، تعرفون ماضيه، تعرفون أخلاقه، تعرفون أنه صادق أمين، فهل يعقل أن يكون مؤتمناً عندكم ولا يكون مؤتمناً على وحي السماء؟ إذاً هذه الآية:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

للنبي الكريم خصوصية جعلته مصدقاً في قومه :

أخوتنا الكرام، الله عز وجل قال:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء]

وهذا الأصل أن يكون منكم، من البشر، من خصائصكم.

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

[سورة الإسراء]

إذا الدعوة للملائكة الرسول ملك، الدعوة للبشر الرسول بشر.

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

أولاً: من بني البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وثانياً: من الأمة العربية، بلغتكم، ومن بلدتكم، من مكة، ومن قريش، أي هناك خصوصية كبيرة جداً جاءت عند النبي الكريم لتكون مصداقيته عالية عند قومه.

أيها الأخوة، إذاً:

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

إذاً ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هناك خصوصية لهذا النبي الكريم جعلته مصدقاً في قومه.

الله عز وجل اختار أنبياءه من صفوة البشر ليبلغوا رسالته :

لكن هناك نقطة دقيقة جداً، هذه النقطة أن الله سبحانه وتعالى حينما جعل الفقراء والضعفاء يؤمنون به، ولو بادر إلى الإيمان به الأقوياء، والأغنياء، والسلاطين، الأمر كان فيه مشكلة، أما جعل الفقراء وبعد الفقراء سار إليه الأقوياء.

إذاً دعوته دعوة لبني البشر، الشيء الدقيق:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

لماذا الله ما قال؟ لقد أرسلت إليكم،

(جَاءَكُمْ)

النقطة الدقيقة أن النبي الكريم لمجرد أن جاءته الرسالة بادر من تلقاء نفسه لنشر هذا الدين، الأنبياء اختارهم الله على علم، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحاً وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران]

هناك جدل طويل بين أن النبوة كسب أم اختيار، النبوة الله اختار أنبياءه ليبلغوا الرسالة لا شك، لكن كيف اختارهم؟ اختارهم من صفوة البشر، هناك شيء بالنبوة كسبي، وشيء وهبي، شيء وهبي أن الله اصطفاهم ليكونوا أنبياء، لِمَ اصطفاهم ولم يصطفِ غيرهم؟.

(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ)

[سورة الدخان الآية: 32]

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ)

أنت أردت أن تعطي طالباً مكافأة كبيرة جداً، تختار مَن مِنَ الطلاب؟ الأول، المتفوق، فهذه الهدية ليست من صنع الطالب، جاءته مكافأة، هي وهبية، لكن لماذا أعطيت لهذا الطالب؟ لأنه مجتهد. فللنبوة جانب وهبي الأصل، لماذا اختار الله هذا الإنسان ليكون نبياً؟ اختاره على علم، اختاره لتفوقه، لمحبته.

إذاً هذا الإشكال الأول:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

من هذه الأمة، يتكلم بلغتكم، وقد نشأ بينكم، وتعرفون صدقه، وعفافه، ونسبه، ولا أقل من أن أروي موقف النجاشي من سيدنا جعفر لما النجاشي سأل سيدنا جعفر عن هذا الدين، وعن النبي الكريم:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

وكأن هذه الصفات الثلاثة أركان الأخلاق، بالتعاون المادي أمين، بالتعامل العاطفي عفيف، من حيث النسب نسبه من أعلى مستوى.

((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

إن حدث فهو صادق، إن عاملته بالدرهم والدينار فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، وفضلاً عن ذلك النسب.

لا قيمة للنسب من دون إيمان :

لكن موضوع النسب يحتاج إلى وقفة متأنية، إذا قلنا: أبو لهب عم النبي، أي أقرب إنسان للنبي أبو لهب، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد]

فالنسب لا معنى له، ولا قيمة له إلا مع الإيمان، فإذا كان صاحب النسب مؤمناً جاء النسب تاجاً له، النسب يعد تاجاً للمؤمن بعد إيمانه، أما من دون إيمان.

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد]

الآن يقابلها:

((سلمان منا أهل البيت))

[أخرجه الحاكم عن مصعب بن عبد الله الزبيري]

منا؟ سلمان فارسي، صهيب رومي.

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصِه))

[كنز العمال عن عمر]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

[سورة الحجرات الآية: 13]

إذاً:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

من هذه الأمة العربية.

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة :

بالمناسبة الله عز وجل حينما قال:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

[سورة آل عمران الآية: 110]

هذا كلام خالق الأكوان،

﴿ كُنْتُمْ ﴾

قال علماء اللغة: معنى كنتم هنا أي أصبحتم، أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، لقد اختار الله هذه الأمة لتكون وسطاً، أي وسطاء بينه وبين خلقه، لكن الأمة العربية الآن لعلها غفلت عن هذه الأمة التي شرفها الله بها، أن تكون هذه الأمة وسيطاً بين الله وبين عباده،

﴿ كُنْتُمْ ﴾

أي أصبحتم، بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، ما علة هذه الخيرية؟ قال:

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

[سورة آل عمران الآية: 110]

دقق لو تصورنا أن الأمة الآن العربية تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقدت خيرتها، وأصبحت أمة كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، هناك آية تشير إلى هذا؟

﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾

[سورة المائدة الآية: 18]

تبدل القيم في الزمن الحاضر :

هذه الأمة لمجرد أن تتخلى عن رسالتها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، لكن خيريتها بالأمر بالمعروف، من هنا قال النبي الكريم:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ونهيْتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً؟))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا تبدل قيم، أنا كنت أروي للطلاب أهجا بيت قالته العرب، ودخل شاعره في عهد سيدنا عمر السجن لهذا البيت، ما هذا البيت؟ قال:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا البيت الذي يعد أهجا بيت قالته العرب هو في الحقيقة شعار معظم الناس اليوم.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

إذاً:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 110]

فإذا كفت الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله.

من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله :

هناك دليل آخر و هو قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية:33]

طبعاً الآية في عهد النبي لها معنى واضح، ما دام النبي بين ظهرانيهم فهم في مأمن من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ هنا الشاهد، قال العلماء: ما دامت سنة النبي مطبقة في حياتهم، في حركاتهم، وسكناتهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في علاقتهم الاجتماعية، ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، ضمانة، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعذب الأمة الإسلامية وهم يطبقون منهج رسول الله.

(وَمَا كَانَ)

هذه ما كان نفي الشأن، أشد أنواع النفي في اللغة صيغة ما كان، قال بعضهم: هناك نفي الحديث، ونفي الشأن، تسأل إنساناً هل أنت جائع؟ يقول لك: لا، قل لإنسان محترم جداً: هل أنت سارق؟ لا يكفي أن

يقول لا، يقول: ما كان لي أن أسرق، هذا مستحيل وألف مستحيل، لا أقر، ولا أرضى، ولا أسكت، ولا، ولا، ولا، ممكن أن تنفي بهذه الصيغة اثني عشر فعلاً:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أمة تطبق منهج النبي تُعذب؟ مستحيل.

على الإنسان أن يطمئن لوعد الله عز وجل :

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أردف معاذ بن جبل خلفه على الدابة، قال له يا معاذ:

((ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسكت النبي قليلاً- وجاء السؤال الثاني- ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: - والله هذا الكلام أقوله لكم وفيه أكبر طمأنينة للمؤمن- حقُّ العباد على الله ألا يعذّبهم))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

يجب أن تكون مطمئناً لوعد الله، هذا يؤكده قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة الآية: 51]

مرة سيدنا أبو ذر قيل له: احترق محلك، قال: ما كان الله ليفعل، يا أخي احترق، قال لهم: ما كان الله ليفعل، فلما ذهبوا إلى الدكان وجدوا دكان جاره وليس دكانه.

أنا أتمنى أن يكون عند المؤمن ثقة بوعد الله عز وجل، وعدك بالتوفيق، لذلك أنا أقول دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ و ماذا وجد من فقدك؟

معية الله لها ثمن و هو التفكر في خلق السموات والأرض :

إذا كان الله معك ليس على وجه الأرض جهة تستطيع أن تنال منك، الله معك، لكن هذه المعية لها ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة المائدة الآية: 12]

من هنا في الأثر القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أي فكر في خلق السموات والأرض، عرف عظمة الله.

على الإنسان أن يؤمن بالله الإيمان العظيم :

دقق في هذه الآية:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الحاقة]

إبليس آمن بالله، الدليل:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية:82]

قال له:

(خَلَقْتَنِي)

[سورة الأعراف الآية: 13]

آمن بالله خالقاً، رباً، و

(بِعِزَّتِكَ)

عزيزاً.

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

آمن بالآخرة، ومع ذلك هو إبليس اللعين، لكن إبليس ما آمن بالله العظيم، لهذا يقول الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

[سورة نوح]

يجب أن تؤمن بالله العظيم.

النبي بأعلى درجة من الكمال فهو نبراس للناس و قدوة :

إذاً الآية الكريمة:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

يوجد قراءة من أنفَسِكم، قراءة تغني المعنى أحياناً، بأعلى درجة من الكمال، لكن الذي يقول: إن الكون خُلق من أجل محمد، هذه شطحة، لكني أقول: إن الكون خُلق ليكون الناس فيه على شاكلة محمد، خُلق البشر ليكونوا على شاكلة محمد، ليكون هو نبراساً لهم وقدوة.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ)

لماذا لم يقل أرسلته إليكم؟ النبوة وهبية، وكسبية، لولا أنه تفوق في معرفة الله، تفوق في طاعته، تفوق في محبته، لما استحق هذه الرسالة، بهذا المعنى.

منهج الله جاء لخير الناس و سعادتهم و سلامتهم :

لذلك الشيء الذي يلفت النظر أن السيدة خديجة لما جاءها النبي وقد جاءه الوحي- أنا الآن أعجب لم ينزل في القرآن الكريم آية- أول ما جاءه الوحي:

(اقرَأ)

[سورة العلق]

قالت له:

((فوالله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتَصِلُ الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتَكسِب المعدوم. وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

كيف ربطت بين الرسالة بين الكمال الذي هو فيه؟

((فوالله لا يُخزيك الله أبداً))

الآن لم ينزل قرآن بعد، و ليس هناك نصوص نبوية.

((وتحمل الكَلّ، وتَكسِب المعدوم. وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق))

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي إذا كان هذا المنهج يتعبكم فهذا شيء يؤلمه، جاء لخيركم، جاء لسعادتكم، جاء لسلامتكم.

طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب :

لكن الله عز وجل قال:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

أخواننا الكرام، الأب، الأم، العالم أحياناً يشتد على ابنه المقصر، هذه الشدة لصالحه، وأنا أقول دائماً: كل شِدةٍ وراءها شَدَةٌ إلى الله، وكل محنةٍ وراءها منحة من الله، فإذا قسا لأب على ابنه وصار طبيباً، أو ذا منصب رفيع، وعاش حياةً سعيدة في تألق، هذا عاد الخير عليه.

إذاً:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي يؤلمه أن هذا الشرع فيه مشقة، لا، لكن أنت مخلوق للجنة، والجنة تحتاج إلى جهد، وأي شيء بلا ثمن مستحيل.

أنا أقول دائماً وهذه الكلمة أذكرها كثيراً: حتى يضع إنسان حرف د. قبل اسمه، فقط د. يعني دكتور، أي معه شهادة ابتدائية، وشهادة إعدادية، وشهادة ثانوية، ولسانس، أو بكالوريوس، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، أي درس ثلاثاً و ثلاثين سنة حتى يكتب د. .

وأنت مؤمن أنت وعدك الله بجنة عرضها السموات والأرض تريدها بلا جهد؟ لذلك طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، أنت تستطيع أن تقدم لجامعة كبيرة عريقة طلباً أنه يرجى منحي دكتوراه ولا يوجد معك ابتدائية أمي، ممكن؟ لا يوجد شيء بلا ثمن.

العاقل من أعدّ للساعة عدتها :

لذلك هنا:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

ومن أنفَسِكم،

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

أي هو يرضى لكم السعادة، لكن السعادة لها ثمن، أنت في دار عمل.

لو أن طالباً في أثناء العام الدراسي كان له مقعد على النافذة، ومعه شطائر يأكل ما يشاء أثناء الدرس، وموالح، ومشروبات، وعصائر، وشاي، وقهوة، ولم ينتبه للدرس إطلاقاً، شأنه كشأن الناس الآن، يعيش للدنيا فقط، نسي أن هناك جنة عرضها السموات والأرض، نسي اليوم الآخر.

لذلك مرة شيعت أحد الأخوة الكرام، توفاه الله، لما وضعوه في القبر، ووضعوا الحجر الكبير فوق فتحة القبر، ثم أهالوا التراب، والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على ظهر الأرض إنساناً أعقل ولا أذكى ممن يعمل لهذه الساعة، من قصر، من بيت أربعمئة متر، إلى قبر، من زوجة، أولاد، أصهار، كنائن، ولائم، سفريات، رحلات، دعوات، إلى قبر، ماذا في القبر؟ لذلك قال تعالى هو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: 2]

بدأ بالموت لماذا؟ لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، أما إذا جاءته المنية فأمام خيارين لا ثالث لهما.

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[الجامع الصغير عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ]

المصائب التي تصيب البشر هي ردع من الله ليعودوا إلى الطريق الصحيح :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)

يؤلمه أن تتوهموا أن هذا الشرع فيه قيد عليكم، لا، هذا قيد رحمة.

دقق، هذا المثل أنا وضعته: لو أن طالباً قال لأبيه: أريد ألا أدرس، قال له: كما تشاء، ثاني يوم لا يوجد وظائف، ولا مدرسة، ولا دوام، نام للظهر، راح على السينما، اعتقد أنه أسعد طالب بالأرض، لا يوجد عنده واجب إطلاقاً، أما عندما كبر لا وظيفة، ولا تجارة، ولا زواج، ولا شيء، حقد على أبيه، قال له: يا أبتِ لما قلت لك لا أريد أن أدرس لِمَ لم تضربنِي؟ الآن دقق بالآية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ)

[سورة القصص الآية: 47]

فهذه المصائب التي تصيب البشر لولا أن الله أراد منها أن تكون رادعاً، أو باعثاً، الإنسان يوم القيامة يعتب على الله إن لم تكن هذه المصائب:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة القصص الآية: 47]

التراحم فيما بين الناس هو رحمة الله :

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ)

لذلك قالوا: أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله، أرحم الخلق بالخلق، وأنا أذكر قصة رمزية أن أحد الأنبياء مشى في الطريق، رأى أماً تضع رغيفاً في التنور، وتأخذ ابنها تضمه وتشمه، فقال: يا ربي! ما هذه الرحمة؟ فالله أخبره أن هذه رحمتي، أودعتها في قلب أمه وسأنزعها، فلما نزع الله الرحمة من قلب أمه بكى فألقته في التنور، فالتراحم فيما بين الناس هو رحمة الله، رحمة الله أودعها في قلب الأمهات

والآباء، لذلك الآية الكريمة:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: 39]

أنا أقول: محبة الأب والأم لابنهما هي محبة الله له جعلها في قلب الأم والأب.

أيها الأخوة، هذه الأمة كانت رعاة للغنم، بفضل هذه الرسالة أصبحت قادة للأمم، من رعاة للغنم إلى قادة للأمم.

أيها الأخوة الكرام،

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

قانون الالتفاف و الانفضاض :

الآن دققوا قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

هذه الباء باء السبب، أي يا محمد بسبب رحمة اشتققتها من الله من خلال اتصالك بنا، يا محمد هذه الرحمة التي في قلبك، والتي اشتققتها منا بسبب اتصالك بنا،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)

كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، الآن لو كنت منقطعاً عنا، لامتلأ قلبك قسوة، وهذه القسوة تنعكس مع التعامل مع الناس غلظة وشدة، عندئذٍ ينفض الناس من حولك، وكأن هذه الآية قانون الالتفاف والانفضاض، يحتاجها الأب، تحتاجها الأم، يحتاجها المعلم، يحتاجها المرشد، أي إنسان على وجه الأرض يحتل منصباً قيادياً يحتاج هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 159]

لذلك:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الهدى قرار ذاتي لابد للإنسان من أن يأخذه :

لذلك قال النبي الكريم:

((إنما مَثلي ومَثل النَّاس، كمثل رجلٍ استوقدَ ناراً، فلمَّا أضَاءتْ ما حَوْلَهُ، جعَلَ الفَراشُ وهذي الدوابُّ، الَّتي تقع في النَّار، تَقع فيها، فجَعَلَ يَنْزعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ، فيَتَقحَّمْنَ فيها فأنا آخِذٌ بحُجَزكُم عن النَّار، وأنتُم تَقحَّمُون فيها))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا بالضبط الواقع، النبي الكريم برؤيته وعلو مقامه هدفه الأول أن ينجي أمته من النار،

(فَإِنْ تَوَلَّوْا)

أي:

(إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)

[سورة الشورى الآية: 48]

ما أنت عليهم بحفيظ.

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الزمر]

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

[سورة البقرة الآية: 272]

هذا الهدى قرار ذاتي لابد من أن يأخذه الإنسان.

على الإنسان أن يؤدي ما عليه و يطلب من الله الذي له :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

أديت الذي عليك، اطلب من الله الذي لك، لذلك لا يستطيع لا نبي، ولا رسول، ولا داعية كبير أن ينقل الهدى إلى الناس، فالناس مخيرون، هذا الإنسان يقبل أو لا يقبل، والدليل دقق:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى]

هذه آية، الثانية:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

عجيب!

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ثم هناك آية أخرى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

معنى ذلك الهدى قرار ذاتي إذا اتخذه الإنسان كل شيء في الأرض وفي الكون يدله على الله، أما إن لم يتخذ هذا القرار، لو كان هناك قاعدة فضائية يرى المجرات بعينه من خلال التلسكوبات، لو كان على مجهر إلكتروني يرى الخلية، لو كان هناك أكبر مركز علمي، يرى كل شيء، هذه الأشياء لا تقدم ولا تؤخر، الهدى لابد من أن تتخذ قراراً ذاتياً لطلب الحقيقة، عندئذٍ كل شيء يدلك على الله.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

مرة فيما أذكر أحذ خلفاء بني أمية ولعله آخر خليفة صعد المنبر ليخطب قبل صلاة العيد، بخلاف السنة، يبدو أنه لم يكن محبوباً فكان الناس إذا صلوا العيد انصرفوا إلى بيوتهم، صعد المنبر ليخطب قبل الصلاة، هكذا قرأت القصة، أحد الجالسين أمسكه من ثوبه- للخليفة- قال له: هذا ما فعله النبي الكريم، لكنه لم يعبأ به وتابع الصعود وخطب، قال أحد الحاضرين: أما هذا فقد أدى الذي عليه.

أنا أقول دائماً: أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، أدِ الذي عليك من طاعة واطلب من الله الذي لك.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

أنا أديت الذي علي، أحياناً أنا أقول لإنسان يستنصحني في علاقته بأبيه، قد يكون أبوه قاسياً جداً، أقول له: أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

من لم يؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله ليس سالكاً :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

(رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

ما لم تؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله ليس سالكاً،

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً)

أنت إذا تفكرت في خالق السموات والأرض آمنت بالله العظيم.

من بعض المعلومات البسيطة: بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب عدا الشمس أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، بالساعة ضرب ستين، باليوم ضرب أربع وعشرين، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بأربع سنوات ضرب أربع، ابنك الصغير بدقائق على آلة حاسبة يحسب لك كم تبتعد الأرض عن أقرب نجم ملتهب لها عدا الشمس،

أربع سنوات ضوئية، الآن لو أن هناك مركبة في الأرض، ويمكن أن تصل لهذا الكوكب سرعتها كسيارة عادية، مئة، تحتاج إلى خمسين مليون عام كي تصل إليها، خمسون مليون عام كي تقطع أربع سنوات ضوئية.

أخواننا الكرام نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة المجرة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت حديثاً تبعد عنا أربعة وعشرين مليون سنة ضوئية، اقرأ قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا أذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

هذا هو الدرس الأخير في سورة التوبة وأرجو لإخوتي لكم التوفيق والنجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

والحمد لله رب العالمين

الفهرس